

# مُقَدِّمَةٌ ابن خلدون

الجزء الأول

تأليف

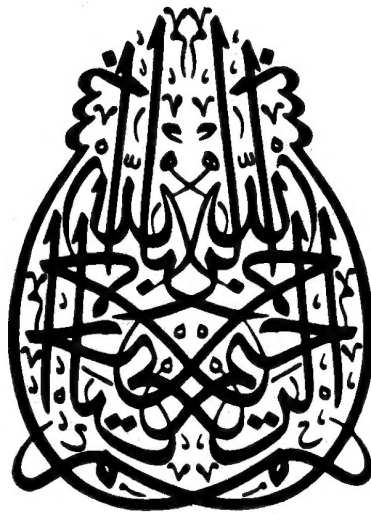
العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)

مَقَوِّمَةٌ نَفْوَصُهُ، وَخَرَجَ أَحَارِيَّتُهُ، وَعَلَوَتْ عَلَيْهِ

عبد الله محمد الدرويش





مُقَلَّمَةٌ  
ابن خلدون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: مقدمة ابن خلدون.  
المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون.  
المحقق: عبد الله محمد الدرويش.  
رقم الموافقة: (٧٧٠٨٤).  
تاريخها: ٢٠٠٤/٤/١٤ م.

**الطبعة الأولى**

تاريخ الطبع: ١٤٢٥ هـ — ٢٠٠٤ م.  
عدد النسخ: ١٠٠٠ / نسخة.

رَبَّنَا ثَقَلَتْ مِنَّا إِنَّكَ  
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

توزيع:

**دار يعرب**

دمشق: هاتف: ٢٣١٢٥٠٩

ص.ب: ١٢٣٧٣

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:  
مقدمة ابن خلدون معلّمة ثرة بكل طريف، أظهرت تفرّد مؤلفها، وغناء علومها، وتميزها.

وهي معين ينهل منه الوردون، ويَقْبَس منه السالكون، منذ تأليفها إلى الآن، فلم تفقد جدتها، رغم تقادم عهدها، وإن أصابها غبار وتراكم، مما دعا العلماء للعناية بها؛ لإزالة الشوائب التي حجبَت محاسنها، ومنعت من فهم مقاصدها.  
ولكل نسخة سبقت هذه خصالٌ تختلف عن مثيلاتها، وإن كانت هذه قد جمعت فضائل السابقين، وأضافت ما أمكن مما ستجده مسطراً.

### وقد تميزت هذه النسخة بـ:

- ١- المقابلة على المخطوطات المتوفرة في مكتبة الأسد بدمشق. وكانت العناية بالنسخة الكاملة الموسومة بالظاهري، وهي المهداة للملك الظاهر برقوق عام ٧٩٧هـ، وعنّها أخذت هذه النسخة، وهي في ٣١٩ ورقة، وهي ذات خط نسخي حسن، وقد رمزت لها بـ (ظ).
- والنسخة الثانية كتبت سنة ١٠١٢هـ، وهي مشوشة الأوراق، وقد تناوب في كتابتها اثنان، لاختلاف الخط، وهي في ٢٨٩ ورقة، وقد رمزت لها بـ (ث).
- ٢- إثبات فوارق النسخ المطبوعة سابقاً (ن).
- ٣- ضبط المشكل.
- ٤- شرح الغريب من:
  - الألفاظ.
  - الأماكن.
  - الأعلام.
- ٥- المطابقة بين المقبوسات ما أمكن.
- ٦- دراسة المقدمة والتاريخ ومحاولة تعليل بعض الظواهر المشكّلة في حياة المؤلف.
- ٧- الفهارس المتنوعة للتمكين من الاستفادة من الكتاب.
- ٨- التنبيه على بعض ما وقع فيه الأفاضل في طبعتهم، من أمثال:

أ- تخطئة بعض الألفاظ، والصواب خلاف ما ذهب إليه، مثلاً تخطئة الشاعر في قوله: (عباديد) - انظر فصل في إبطال صناعة النجوم، وفي هذا: تخطئة الصواب.

وإثبات جمع لا وجود له في اللغة، إذ قال: (إنها محرفة عن عبايد جمع عبد). والصواب أنها لا واحد لها من لفظها هي وعباديد.

وعبد يجمع على: (عبدون، وعبيد، وأعبد، وعُباد، وعُبدان، وعَبْدان، وَمَعْبُدَة، وَمَعَابِد، وَعِبْدَاد، وَعِبْدَى، وَعُبد، وعُبد، وَمَعْبُوداء). وجمع الجمع: أعابد.

ب - استغلاق فهم بعض الجمل، رغم أن السياق العام يوضح المقصود منها، انظر مثلاً فصل في إبطال الفلسفة.

ج - الظن أن في بعض الجمل سقطاً أو تحريفاً، لعدم تبين المراد من العبارة، انظر آخر بحث علوم السحر والطلسمات.

هـ - عدم تخريج الأحاديث النبوية.

و- تجاهل بعض الآيات القرآنية أو نسبتها إلى غير موضعها.

ز- عدم مطابقة النصوص التي نقلها المؤلف على مصادره.

\* \* \*

وقد نصَّ ابن خلدون في بحثه عن مقاصد التأليف، في الفصل (٣٥/٦). على الأشياء الداعية للتأليف، فذكر منها سبعة.

ولعلي في عملي قد حققت مقاصده السبعة - وإن لم يكن ذلك مما لا مزيد عليه، إذ لا بد من وجود القصور في العمل ليظهر فضل الآتين، وفوق كل ذي علم عليم - فناقشت أموراً مستجدة لم يتعرض لها، وأوضححت مشكلات عرضت، وشرحت مشكلات استغلقت، وكشفت عوارق قضايا لم يتنبه لها، كما بوبت ونظمت مداخل لكل الفصول تعين على فهم المراد وتساعد على استجماع الموضوعات، وهي تشبه الملخصات التي لا تخل بمقصد المؤلف. كما ربطت بالإشارات والإحالات المفرق والموزع في الفصول المتباعدة. فأكون بذلك قد حققت مقاصده التي ارتضاها، وأعنت على إيصال مبتغاه.

كما استفدت من جهود السابقين في متابعتهم لهذا الكتاب تحقيقاً أو تعقيباً أو دراسة، ولا سيما من كان له اليد الطولى في تحقيق الكتاب سابقاً، فأفدت منهم، وأعنت على تطوير عملهم والارتقاء به ليصار إلى فهمه على الشكل الذي أرادوه وسعوا إليه، فجزاهم الله خير الجزاء، وأعان على تحقيق كل ما فيه الخير والرضا.

\* \* \*

## أوراق خلدونية في مطلع قرن جديد

ما هي الأسباب التي جعلت الناس يعزفون عن الاستفادة من كتاب ابن خلدون قروناً كثيرة؟!.

هل هي أسباب تعود إلى عدم قدرة العقل العربي في تلك القرون على فهم ما قدّمه؟. أم أن هناك جريمة ما اقترفت في حقّ هذا الرجل - وبالتالي في حقّ الأجيال التي تلتها - ساعدت على إغفاله، واقتلاع فكره من أحضان أمته وشعبه لتنتقله إلى أمم أخرى قدّرتُه قدره، واستفادت من ثاقب فهمه، فقفزت قفزات فاهمة وواعية ألقت بكل أعبائها المثقلة، وأصبحت في مكان الصدارة...

أما إنّ العقل العربي غير قادر على الاستيعاب فذلك غير واردٍ فقد قدم العلماء في عصره وفي العصور المتلاحقة الكثير من العلوم والمعارف المنبئة عن تفهم ووعي.. فلم يبقَ إلا أن هناك مؤامرة دبّرت لم يكن يراد منها كتابه بالذات، وإنما أريد منها شخصه.. وهذا يجعلنا ندمج بين المسألتين، فإن المؤامرة ضد الشخص لذاته معركة نابعة من علل نفسية داخلية تنعكس، عن عقول لم تعيش تربية إيمانية صحيحة.. إن الأسباب التي ساعدت على تجاهله، وغمطه حقه، تعود إلى ما ذهب إليه في مقدمته من طبائع العمران، من أمثلة:

- عدم وجود عصبية قوية يعتمد عليها.
- تسلط العصبية القوية والضعيفة عليه.
- وصوله إلى مرحلة الهرم وتعرضه للصدمات في أهله وأبنائه..
- ويضاف إليها:
- الحرب الشخصية الخفية على النطاق السياسي.
- الحرب الدعائية الطاعنة في أخلاقه وسلوكه.
- كما يضاف إلى ذلك، وهو أخطرهما:
- طعن العلماء المقبولين عند الناس في علمه وفهمه.
- فهي حربٌ استخدّمت لبوس الدين مما أكسبها قدسية جعلت الناس يحجمون عن الثقة به وبما يقوله.
- ومنشأ ذلك والداعي إليه:
- الحسد؛
- والبغي: ﴿وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾.

وقد نفَسَ عليه علماء عصره تفرُّده وفهمه وحظوته عند ذوي السلطان.. وكيف يقبلون على أنفسهم أن يتقدمهم رجل غريب الدار لا أهل له يشدون أزره، ولا عشيرة تحمي ذمامه...؟!

كيف تقبل النفوس التي لم تتزكَّ بعدُ أن يكون لغيرها العزُّ والسلطان والنجاح...!! وهذا ما يحدث دائماً في المجتمعات، ولم يكن عبثاً ما حدثنا عنه ربنا عز وجل في كتابه العزيز عن الأمم التي قتلت أنبياءها، ومنعت العلماء من أداء علمهم، وتبليغ مكنون صدورهم، بل تأمرت عليهم بكل الوسائل من غيبة ونعمة وسعاية.. إن المتتبع لسير علمائنا يلحظ شيئاً مهما يبرز فيه الصدمات الصريحة والسافرة بينهم، بحيث أصبح المعيار الموضوع لبحث تلك المعضلة: أن كلام المتعاصرين بعضهم في بعضهم غير مقبول.

وهي عبارة مشكلة لا تتفق ومنهج النقد الحديثي؛ لأن المعاصرة تكشف أشياء غير ممكنة أو متوفرة للآخرين ممن لم يعيش معهم وتجمعه وإياهم ظروف واحدة؟! وقد كنت أقف منها موقف التشكك في صحتها والفائدة منها إلى أن وقفت على حقيقتها، والمعنى المراد منها. يظهر والله أعلم أن من دعا إلى ذلك أراد أن يحلّ الإشكالات المطروحة أمامه من خلال ما اكتشفه من نوازع الحسد والبغي الموجودة في النفوس.

ويكفي أن ننظر إلى عصر ابن خلدون لنلمس حقيقة هذا الواقع، إذ كثير منهم يدعي أن الآخر سلبه كتبه، أو أخذ أفكاره.. وبالتدقيق في حقيقة المتنازعين نجد أنهم أعلام عصرهم، وإليهم المفرع في الملمات إلا أن أولئك كانوا يبحثون في القضايا الآنية الشاغلة لأذهان أفراد المجتمع فيما يتعلق بحياته الدينية والمعاشية المباشرة.. والتي لا تتطلب من العقل جهداً أو قيمة ما.. إنهم أبناء عصر أثر الراحة الفكرية الباعثة على عدم النهوض وتحسين الأوضاع.. إنه عصر الهرم الذي بدأ يدبُّ في أوصال الأمة من قرونٍ تجلت صورته في عصور لاحقة حيث آذنت بدماره.

ولعل ابن خلدون لم يلحظ جانب الهرم الذي يلحق الفكر في مجموع الأمة، فبقيت نظريته عن الدول فقط، ولو أنه أسقطَ نظريته على حالة العلماء المعاصرين له لاكتشف حقيقة ما يعانونه من هَرَمٍ نتج عن الترف الذي يعيشونه والمكاسب التي يحصلونها من علوم عاشوها أو تكسبوا بها..

فليس مستغرباً أن يدافع الإنسان عن لقمة عيشه فيما يظن، ولو أدى ذلك إلى اختلاق الأكاذيب والادعاءات والدسائس الخفية والظاهرة.

وكم يُسرُّ أحدهم حين يجد ما يساعده على الطعن فيمن يفوقه علماً وفهماً، وخاصة إذا وجدَ مَغْمَزاً يؤلب الحكام على صاحبه، وهذا ما كان متوفراً في حياة ابن خلدون وكتاباتهِ، فهو حين يتحدث عن العبيديين أعداء العباسيين يعطي خصومه أسلحةً للفتك به وتدميره.. وبما أن ذلك لا مكان له في حياة هذا الإمام، فلا أفضل من طمس معالم فكره بين أفراد عصره، ونسيان ما يحيط بكتاباتهِ في العصور التي برز فيها عزُّ جديد للعباسيين ساعد على طمس معالمه وإخفائها...

ولا يعني هذا وصَم كل العلماء والأفراد بهذه السمات، وإنما تبين حقيقة من كان بيده الأمر، ويستطيع التغيير، وإلا فإن من عرف ما يمتلكه ابن خلدون من فهم لم يكن قادراً على الاستفادة مما كتبه لنقص في أدواته، أو لمعرفته أن ذلك يحتاج إلى مؤسسات عامة تستفيد مما كتبه، وتحرص على تطبيقه وتطويره..

\* \* \*

لم يكن ابن خلدون ممن ينظر إلى علماء عصره نظرة احترام وإكبار (إلا القليل منهم)، ويبحث السلطان على إقصائهم وإبعادهم عن حاشيته، ويعلل ذلك بأسباب منها:

- عدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم.

- عدم مقدرتهم على إعطاء المشورة السياسية لعدم استيعابهم لمجريات الأحداث:

١- لانغماسهم في الترف والدعة.

٢- ولاعتبارهم موظفين كباقي الموظفين الذين هم عيال على الدولة.

ولعل نظرته هذه إلى العلماء، قد جعلت منهم أعداءً له يحاربونه، ويكيدون له.

\* \* \*

### الدوافع غير المعلنة في كتابة المقدمة:

إن جملة الظروف المعاشية التي لا يست حياة ابن خلدون أبرزت الحسَّ العام بالغربة في عالم كله فتن وزلازل.

إذ بدلاً من التعاون المشترك بين أبناء الأمة الواحدة، بل القبيلة بعشائرها.. نجد الخصومات على أوجها، والصدامات تعصف بأركان الدولة، وتؤذن بخراب العمران. الدولة الكبيرة التي ينتمي إليها ابن خلدون مقطعة الأوصال، مفككة العرى، تتقاذفها الحن والبلايا..

في كل يوم خبرٌ جديدٌ عن ضياع جزءٍ من ذاك العالم، وإن لم يكن من خارجه، فما يجري بين أفرادهِ أشدُّ وأنكى.

وكثيراً ما تتناقل الأخبار عن أمم محيطة بذلك المعمور ترسم وتخطط لاختراقه وإخضاعه لسلطانها..

والذي يحزُّ في النفس ويبعث على الأسى، أن أفراد هذه الأمة بدلاً من أن توحيدها وتزيل ما بينها من خلافات — المصائب التي تفصلهم عن إخوانهم وأبناء جلدتهم، يتناسون ذلك ويستمرّون في لهوهم وأخطائهم.. وكأن النخوة والشهامة قد نزعت من قلوبهم، وجعلت منهم أجساداً خاوية هشة لا روح فيها ولا حياة...

ومن ذا الذي يتأثر بهذه الأوضاع المأساوية؟! ومن ذا يشعر بالجراح التي يعاني منها أبناء دينه؟! إنهم ولا شك الذين جعل الله في طباعهم رهافة الحسّ والإحساس بالواقع على وجهه..

إنهم ممن يبحثون عن المضمون ويعوّلون على نتائجه، ولا يأبهون بالشكل إلا إذا قدّم فائدة وجدة..

ولعل خير من يمثل هذا الموقف العلامة ابن خلدون الذي أضناه الهمّ، وأتعبه الفكر، إنه المحكوم منذ نشأته بسماع ذهاب أجداد أسرته، وتفكك دولتهم، واقتطاع أجزاء متتالية من أسبانيا التي نزحوا عنها.. غير الأخبار المتكررة والمسموعة عن غزوٍ ماضٍ قريب لم يبعد عهده للتار والمغول..

وكأنني به قد أعياه ذلك فدفعه ليحاول إزالة العوائق من عالمه، ولذلك ركب الأخطار في العمل في قصور الحكام، وهمه يدفعه ليصل إلى أعلى المناصب ليستطيع أن يكون ذا أثرٍ حسن، وهو يسير نحو هدفه، تتلمس خطوته مقتربة من بؤادر إصلاحه، ومعالم نجاحه.. لم يكن إنساناً يقبل بالأمر على عواهنها وعلاقتها، إنه يحاول دائماً أن يصحح ويقوم.. رفض أسلوب كُتاب الرسائل السلطانية بالطريقة التقليدية، إنه يبحث عن المضمون، فما معنى أن يضيع في الشكل؟ لا بدّ من تغيير، وكيف يتم؟ لا بدّ من وسائل وطرائق.. وها هو يبحث وينقب، ولعل هذه البداية له أبرزت شخصيته كإنسان متميز ينظر إلى الأمور بعين الرجل الفاهم الواعي، فلا يمرُّ شيء قربه إلا ويرى فيه أشياء لم يرها غيره، ذلك أنه يريد الجوهرَ ولا يهتم بالعرض.

\* \* \*

### عوامل تجاهل المقدمة:

نتيجة للظروف الاجتماعية التي يعيشها المجتمع في أيام ابن خلدون لم يكن من الممكن الاستفادة من المقدمة، ويعود ذلك لأسباب:

— تقليل العلماء في عصره من شأن مقدمته.



- سلوكه الخاص الذي جعل الكثير ممن يحيط به يعزف عن الاستفادة مما قدمه..  
- وأعظم تلك الأسباب :

عدم الشعور لدى قارئه بفائدة فعلية يستطيع أن يستفيد منها، ذلك أن طبيعة الطرح المقدم يحتاج إلى مؤسسة كبيرة - كالدولة - لتستطيع توظيف المعالم المقدمة في تلك المقدمة.

ولم يكن القادة الذين احتك بهم ممن هو مؤهل لتحصيل الفوائد العملية من مقدمته لتثبيت حكمه أو محاولة تجنب ما فيه دمار دولته.

ولذلك سرَّ ابن خلدون كثيراً حين لقائه بتيمورلنك، لأنه وجد فيه تحقيق نظريته، وأحسب - والله أعلم - أن في حاشية تيمور الكثير من الأتراك الذين هم من قبائل الخزر المشتركين مع تيمور في النسب، وقد استمعوا لحديث ابن خلدون الشيق عن طبائع العمران، وخاصة أن سمعة ابن خلدون كانت قد وصلت إلى تيمور من قبل، فهو معروف بفكرته، مطلوب من قبل الساسة فحسب، ولذلك قدّم تيمور خلاصة فكره في النقاش، ثم قدّم كرايس بيّن فيها طبائع بلاد المغرب.

ويظهر أن تيمور لم يستفد فعلياً من فكر ابن خلدون، ولكن أقاربه المنافسين له قد وجدوا فيها ما دفعهم إلى التفكير بتأسيس ملك يقوم على المنهجية التي ذكرها ابن خلدون مستفيدين من الوثائق التي قدمت لتيمور ولا سيما أنها ترجمت إلى اللغة التركية.

ومما يؤكد ذلك، ما شاهدناه بعد ذلك من فتح القسطنطينية، وحديثها المبشر بفتحها المذكور في المقدمة..

إضافة إلى إلزام كل من يعمل في السلك السياسي للدولة العثمانية بقراءة المقدمة. ثم ترجمة المقدمة إلى اللغة التركية.. ذلك أن العثمانيين في أول أمرهم كانوا تابعين في الثقافة للغة العربية، فكانوا كساسة يتقنون اللغة العربية.. وفي الفترة التي ترجموا فيها المقدمة، وهي تسبق ترجمة الأوربيين لها بما يزيد على القرن.

ذلك أنهم بدؤوا عملية التتريك من لحظة قرروا الترجمة إلى لغتهم الأم. وبعد ذلك بما يقارب القرن ترجمت إلى اللغات الأوربية، ودرست دراسة متقنة، قناعة منهم أن سرَّ نجاح العثمانيين نابغ من المقدمة لما شاهدوه من عنايتهم بها.

وكان لدراسة الأوربيين لها أكبر الأثر في معرفة مكامن الضعف في كيان الدولة، فشجعوا عصبية كل دولة من جهة، حتى أجهزوا بعد مضي زمن يقارب القرن على الرجل المريض..

ذلك أن ذاك الرجل لم يعد قادراً على تفهّم المقدمة بالشكل الذي وضعت له، وحسب أن العناية بالمقدمة في نطاقه السياسي الخاص يحفظ للدولة كيائها ويُبَعْدُ العامة عن معرفة أسرار الملك، فالذي فُرَّ منه وُقِعَ فيه، ولكن مع أعداء ألداء خططوا له ودبروا حتى قضوا عليه وعلى من يمكن أن يفكر بتفكيره.

قد يقول قائل: ما ذهبت إليه محض ظنّ، وليس مستنداً إلى وثائق رسمية، تثبتته وتؤكدته. وهو محق في قوله، إلا أن المسار العام الذي جرى يوحى بصدق ما توصلت إليه، وربما يكشف لنا التاريخ ووثائق تبين طبيعة دراسة الأمراء العثمانيين الأوائل فتتضح حقيقة ما ذهبت إليه..

والذي يؤكد أن الأوروبيين حطموا العثمانيين بعد دراسة المقدمة، النظرة العدائية للعرب التي اتسم بها (هيجل) في دراسته للتاريخ، والتي تؤكد الوقائع أن روح حملاتهم كان منطلقة من أفكاره، وأفكار تلامذته.

ولذلك لم نر العرب يهتمون بالمقدمة إلا بعد أن وجههم إليها الأوروبيون، ليس حباً بهم، وإنما مساعدة لهم في تخطيط الدولة العثمانية وتقويض دعائمها. وكأني بهم قد وضعوهم في إطار محدد غير قادرين على الانفكاك منه، في توجيههم لفكرة محددة، شعروا على أثرها بفقدّهم كلّ شيء.

وربما كان من عوامل استمرار العرب في متابعة ابن خلدون والاهتمام به، الرغبة العامة في داخل المثقفين العرب للانعقاد من إفسار الغرب المسيطر على عالمه، للانفصال عنه وإثبات أنه أقدر منه على الفهم والإدراك، وربما من أجل ذلك تأكد اهتمام العرب بابن خلدون في فترة تصفية الاستعمار في العالم العربي<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

قد يسأل سائل: ما بال العالم العربي في أخرياته يدرس كثيراً ابن خلدون؟ ألا يحسنُ به أن يعود لدراسة المعاصرين الذين مَحَصُّوا العلوم التي درسها، وقدموا أشياء مفيدة أكثر من المقدمة؟.

ذلك أنهم يظنون أن كل جديد لا بد أن يكون خيراً من القديم، ولم يعرفوا — أو أنهم علّموا نتيجة ظروف اجتماعية كثيرة احتقارَ ماضيهم وتراثهم.. وشعورهم بالنقص إذا نُسِبُوا إلى تراثهم!!.

(١) — انظر تفصيل هذه الظاهرة في الإشكالات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون. د. عبد القادر جغلون (ص ٨٧).

إن الأمم المُحدثة التي لا جذور لها، تشتري من الأمم التي سبقتها حضارتها، وتزرعها في أراضيها، لتثبت لنا فيما يأتي من الزمن أنها أثبتت جذوراً منا، وأسبق حضارة من حضارتنا..

إن ابن خلدون - رغم تقدم زمنه عن زمننا - جديدٌ جدّةً يشهد له بها، من نقف الآن خاشعين خاضعين نستجدي منهم ما نحسبه نتاجهم وإبداعهم.  
إنني لا أدعو أن ننسخ من عصرنا، أو نتوقع ضمن تاريخنا، دون أن نلاحظ ما يجري في العالم، ونسخر ما فيه الفائدة والصلاح لنا ولأمتنا.  
ولكن لا يعني ذلك أن نكون مسلوبو الإرادة أمام الآخرين، نشعر بالعجز والخوف والقهر..

إن دراسة ابن خلدون في ظاهرها الأولى توحى للقارئ بالعجز والاستسلام للواقع.. ولكنها في حقيقتها تُوصِّفُ له الواقع، وتبين له مواقع خطّوه، وتكشف له عن نقاط ضعفه.

ذلك أنه يجب علينا التعرف على الأمراض التي نعانيها، ونكتشف حقيقة المرض الذي أصابنا قبل أن نبادر إلى وصفات العلاج التي لا فائدة منها، والتي تكاد تكون مخدّرات تزيد المرض مرضاً.

إن الإنسان القاصر عن فهم أمراض مجتمعه غير جدير بأن يكون طبيباً يصف الأدوية. وكما ابتلينا في تاريخنا بمن يتصدر للعلاج، وهو أبعد الناس عن الصحة... وهل صحيح ما يذهب إليه المتشائمون: من أنه لا نهوض لأمتنا مما هي فيه، حتى ولو نزعنا جلدها، وغيّرت لبوسها؟!

وأكاد أقول معهم: نعم، ما داموا يرغبون في نزع ما يميّزهم، وتغيير ما يزيّنهم..  
قد لا يكون ابن خلدون النهاية في فهم عالمنا، ولكنه البداية العملية التي تدفع لاستجلاء الصورة ووضوحها انطلاقاً من فهمنا، ومعارفنا، مما يجعلنا نشعر بخصوصيتنا أمام مجريات العصر الراهن، الذي يسعى لنسيان ذكرانا، إلا فيما يريده من تجارب يشاهد نتائجها، في حقول تجاربه. وليس هذا بخافٍ على البسطاء من الناس، فكيف بغيرهم؟!

\* \* \*

### خصوصية ابن خلدون

اختلف ابن خلدون عن سابقه من عالج قضايا المجتمع بتمييزه في طريقة المعالجة. لم يجعل من نفسه واعظاً، وإن كان ينبه إلى الطريق الأمثل، ذلك أنه يُوصِّفُ المجتمع، ويكشف دواخله، باحثاً عن القوانين الحاكمة لسيروته.

رغم أنه لم يُنظر لمدينة فاضلة، إلا أنه حمل في داخله همَّ ما يمكن أن يحدث، والظروف الأفضل والملائمة لتحسين الصورة العامة للمجتمع.. ولذلك وجدناه يقرر بعد دراسته للمحيط الغارق فيه أفضل إطار يُمكنه من التغلب على أعراضه المرضية التي لا علاج لها إلا في الدين.

إنه يريد التعرف على المجتمع، وليس كما ظنَّ بعض الدارسين بأنه اكتفى بذلك، ولم يرد التجاوز.. إنه بعمله يماثل الطبيب الذي يبحث عن المرض وأسبابه، ثم يصدر العلاج الناجع.. وهو بذلك يصل بنا إلى اكتشاف الوسائل المعينة على نجاح المجتمع. وربما كان من عوامل تميزه على الآتين بعده، أنه عالج المجتمع على أنه كتلة تحتوي الألوان كلها، وأنه لا يمكن أن يجعل المجتمع لوناً واحداً، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعتبر اللون الواحد متدرجاً، وهذه النظرة نابعة من فهمه للدين الذي أبان عن وجود التنوع في البشر في كل خصائصهم حتى اللون..

فمن ظن أن المجتمع بعامة يصبح إيماناً كاملاً كان بعيداً عن فهم حقيقة المجتمع، وبالتالي فهم حقيقة الدين.. وربما كان في الحديث الشريف: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة...». ما يؤكد هذا المعنى، إذ أن التنوع والتعدد هو السمة العامة للطائفة للمجتمعات وإزالتها مخالفة لطبيعة الكون..

ولذلك قلت: إن الحياة تحتوي ضمنها تدرج الألوان، وكل ذلك ليصار بالمرء إلى اختيار اللون الذي سيصبح به، ذلك أنه في تجربة منذ خلق.. وما قصة آدم عليه السلام وإبليس - لعنه الله - إلا تأكيد للمعنى الذي يجب أن يتأصل في القلب، إذ أن الواقع في أحد الألوان، قد يجد في نفسه كوابح تمنعه من تجاوز ذاك اللون، ذلك أنه إذا تجاوزه عاد إلى طبيعته الأصلية وهذا ما كان من آدم صلى الله عليه وسلم في حين سقط إبليس.

إن مجمل الشريعة يؤكد وجود التنوع والاختلاف، وهو بالتالي يحث على نبذ ذلك «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» [هود: ١١٨] أي: خلقهم ليكونوا مختلفين فمن كان على الهدى كانت له الرحمة من الله تعالى. ففي ذلك دعوة إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح بعيداً عن المثالية مع الآخرين.. ذلك أن المثالية تطبق في النطاق الفردي ومن أراد تعميمها طحنه الواقع الأليم...

إن وعي ابن خلدون لأحكام الشرع وما بنى عليه مطالعته وتطلعاته جعلت منه إنساناً متميزاً، له خاصية معرفية واضحة المعالم يستفيد منها أبصر حقيقة المنطلق الأساس الذي اعتمده.

عاد ابن خلدون بالفلسفة من تحليلها في سماء اللوامع والالاحسوس إلى ملامسة الواقع وتحسس قوانينه وضوابطه.

وهو في هذا يختلف عما كان عليه السفسطائيون الذين قالوا بعدم الحقيقة المطلقة في الدنيا، وأنها نسبية. منطلقين من واقعهم الاجتماعي الموجود على الأرض ذلك أنهم كانوا من عامة الناس.

فهو يختلف عنهم بكونه من طبقة الأسياد في تعاملهم مع حياتهم وسلوكهم، فهو من جهة يعتبر نفسه فوق كثير ممن في مجتمعه، ولكنه من جهة ثانية منطلق من جذور المجتمع، وكثرة النكبات التي أصابته جعلت منه شخصية متميزة تجمع صفات الطبقتين أو بمعنى أوضح مكنته من امتلاك ناصية فهم حقائق ما يجري في الطبقتين، وهو من أجل ذلك تمكن من المزاوجة بين المدرستين الفلسفتين، محققاً لنفسه مدرسة خاصة ميزته عن باقي المدارس الفلسفية مما دعت المحدثين لاعتبار مدرسته متقدمة في مضامينها، متوافقة مع أحدث ما وصل إليه فلاسفة العصر الحالي.

فهو ينظر إلى الأمور من خلال عواقبها منطلقاً من بدايتها المرتبطة بالواقع ارتباطاً أكيداً، راغباً في نقل المجتمع من مرحلة المرض إلى الشفاء التام، ولكن بطريقة صحيحة لا تخالف الطبيعة العامة ولا طبائع الكون..

فهو يسخر معرفته بالشبكة الاجتماعية لكافة الطبقات وما فيها من محاسن ومساوئ، ليوصلها إلى الدرجة العليا من إمكانية تجاوز الأخطاء والسلبيات.. وليتمكن كل فرد من أداء وظيفته بعيداً عن التنطع لأشياء ليست له، ولا يمكن أن تحصل له إلا بالانتباه لما قدّمه من معلومات أساسية في حياته وتكوينه.

\* \* \*

الذين درسوا العصبية عند ابن خلدون تجاهلوا إشارته إلى أنها تكون بالنسب أو ما في معناه.. وذكر هنا الولاء والحلف، والتي يبغي منها المناصرة والدفاع.. فلذلك قال: إن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنصرة وما فوق ذلك مستغنى عنه.

إذ أنه لا ينظر إلى النسب إلا من حيث الفائدة المرجوة منه والتي حصرها بـ:

١- الوصلة.

٢- والالتحام.

ولذلك قال: النسب أمرٌ وهمي لا حقيقة له.

فإذا هو ينظر إلى النسب بمعناه العام الذي يحقق:

١- التواصل.

٢- والنصرة.

فبالتواصل يكون التواد والاتفاق على فكرة جامعة تربط بين الأفراد، فإذا عدت، عدم التناصر..

وهو بهذا يفيدنا معرفة الجامع العام للأفراد في المجتمعات الحديثة، التي استعاضت عن النسب، بالتجمعات بأصنافها المتعددة، والتي يجمعها رابط المصلحة المشتركة مما يؤدي إلى الدفاع عن تلك المصالح إذا تعرّض لها، وكثيراً ما تكون سبباً في الوصول إلى المراكز السياسية الهامة إذا كانت مبنية على قاعدة منطلقها سياسي.

\* \* \*

يبدأ ابن خلدون بعرض تفصيلات تبين مقاصد العلوم التي يعرض لها، ثم يعود ليظهر تهافت مقاصدهم وما ذهبوا إليه.

ثم يكشف ما يمكن أن يستفاد منها وثمرته. وفي هذا يتبع منهج الإمام الغزالي في احتوائه لعلوم الآخرين ثم تفنيده لما فيها...

وهو يحدد معالم يتبعها أهل الملة في تعاملهم مع المستجدات، فإذا هو يقدم أفضل نظرية جهلت في عصرنا الحاضر من قبل الذين انجرفوا وراء الغرب قبل أن يتمكنوا من العلوم التي كانت لهم. [انظر آخر فصل في إبطال الفلسفة].

وهو يريد في عرضه للعلوم أن:

- يقدم مقاصد العلوم.

- يؤرخ لتاريخ تلك العلوم.

- وأهم ما ألفت فيها.

مع تفصيله لهذه الجوانب في مختلف الدول التي اطلع على علومها في المشرق أو المغرب، وتوقفه عن ذكر ما لم يعرفه مع تنبيهه على ذلك.

وهو يميز بين العلوم المقصودة والعلوم الموصلة للمقاصد التي سماها الآلية، مع تحديده لمقدار المطلوب من الآلية، وأنها غير مقصودة بذاتها، فمن الضرر البالغ المبالغة في متابعتها لعدم القدرة على الإحاطة بها، ولاستفراغ الجهد فيما لا طائل وراءه [فصل ٣٩].

كما يقدم للمتعلمين نصائح تعينهم على تجاوز ما يعترضهم من عقبات في متابعتهم وتحصيلهم [فصل ٣٨].

\* \* \*

\* الملاحظ دقة ملاحظات العلامة ابن خلدون، وتعميم طبائع العمران التي تحدث عنها في كشفه لدخائل النفوس البشرية في إقدامها أو إحجامها.

وهذا ما دعاه إلى الرد على مدعي صناعة الذهب بأن الحاجة والفاقة دعتهم وأملتهم في إمكانية حصولهم على مخالفة الطبيعة، في حين لم ينحرف في ذلك من كان من ذوي اليسار والقدرة.. فقد عمّ فهمه للطبائع ليكشف حقيقة العلماء المتحلين لذلك.

\* وهو يستفيد من المقارنات بين الإنسان والطبيعة لتكشف له المعاني المضرة في حقيقة التخلق، وما يتبع ذلك من التحولات.

\* وإن كان لا يعدو في رده على المعلومات العلمية التي عُرِفَتْ في عصره، إلا أنه يقف متشككاً من صحة بعضها، فيقول عن تخلق العقرب، وزعموا أنه من الماء والنتن... [انظر فصل إبطال ثمرة الكيمياء].

\* \* \*

إن رهافة الحسّ عند ابن خلدون قد نبهته لخطورة الاستبداد والعسف والقهر في:

- الإطار الفردي: متعلم، مملوك، خادم.

- الإطار الاجتماعي: الأمم.

إذ أن القهر من الأسباب الداعية إلى الخبث والمكر والخديعة، كما أنها من دواعي الذلّ والمهانة.

فهو ممن دعا إلى تربية الأفراد التربية الراقية التي تجعل منهم أناساً صلحاء يُفيدون ويستفيدون.

كما دعا إلى رعاية الأمة والأخذ على يدها، ليستطيع المجتمع أن يحافظ على كيانه، ويمتلك أسباب الحماية والمدافعة.

وهو بذلك قد سبق كل من تحدث عن نظريات الاستبداد وما تعكسه على حياة الأمة أفراداً وجماعات. [فصل ٤١].

\* \* \*

إن العلم والتعليم من المسائل الهامة التي تعرض لها ابن خلدون وأشبعها بحثاً.

ولذلك وجد له في التعليم نظريات تكاد تكون مسلمات.

فهو يحذر من الاختصارات، كما ينبه على ضرورة وجود الاستعداد لتلقي العلم قبل إعطائه ثماره، فهو يحث على التعليم المنطلق من القبول الفطري ثم التدرج بإعطاء المعلومات لتبنى على قواعد ثابتة. [انظر فصل ٣٧].

ويدعو إلى تعليم الصغار أصول الحساب ومسائله لما فيها من حث له على الفضائل من خلال ما تحمله في طياتها من معاني الصحة والصواب.

\* \* \*

إن للسياسة عند ابن خلدون ضوابط عامة تحكمها، ولذلك يطلب من السياسي:

- مراعاة مافي الخارج.

- وما يلحقه من الأحوال.

- وما يتبعه من الآثار.

أي أنه يدرس الحادثة كقضية مستقلة مع الالتفات إلى ما يؤثر فيها من الخارج أو الداخل أو ينتج عنها.

ولذلك أخرج من السياسيين:

١- العلماء.

٢- وأهل الذكاء والفطنة من أهل العمران.

وأدخل فيهم:

- العامي، سليم الطبع، متوسط الذكاء.

وكل ذلك لأن من يقيس الأمور على بعضها بقياسات كلية عامة، يقع في الخطأ كثيراً، إذ أنه لا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر. [فصل ٤٣].

\* وهو لا يرى السياسة مصدراً للشروع والردائل، وإنما هي داعية إلى الفضائل والخير، لأن وجود خلل الخير شاهدة بوجود الملك لأهل العصبية، فإذا تنافسوا في الخير ومكارم الأخلاق فقد تمكن منهم خلُق السياسة، واستحقوا أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم.

وإذا ما ابتعدوا عن الفضائل ومكارم الأخلاق وتماذوا في الردائل والقبايح فقد حكموا على أنفسهم بانقراض ملكهم، وزوال عزهم. [فصل ٢٠].

ومن هذه الخصال المطلوب التنافس فيها:

١- إقامة مراسم الشريعة : بإكرام العلماء والصلحاء.

٢- الترغيب: - بإكرام الأشراف وأهل الأحساب.

- وإكرام التجار.

٣- مكارم الأخلاق: بإكرام الغرباء لما فيه من إظهار مكارم الأخلاق.

٤- العدل والإنصاف: بإنزال الناس منازلهم. [فصل ٢٠].

\* \* \*



## \* استفاد من مقدمته:

- تفصيلات عن حياته الشخصية من أصحابه، ومحفوظاته وعلومه [انظر فصل ٥٨].
- وضع تصور لقوانين سير الدول بأسمائها وأسماء رجالاتها.
- رصد حركة الثقافة بأنواعها في الدول قديمها وحديثها - نسبة للمؤلف ..
- أفراد خلاصة فكره وتجاربه في مناقشاته وتعليقاته.

\* ولا نعدم خلال كلامه استطرادات أراد منها التعبير عن مكنونات نفسه وما يحمله من محبة أو بغض في قبول أو ردّ معلومة، أو تعريفٍ بأحد معارفه.

فهو حين ذكر الوزير لسان الدين ابن الخطيب صديقه في الفصل (٥٣) في معرض تبين أنه ذو ملكة لسانية لا تدرك، لم ينس أن يذكر أنه هلك (لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه) فأرّخ هلاكه، وبين أسباب ذلك، مع تعبيره الصريح عن داخلته تجاهه، فلذلك قال عنه: (شهيداً) وكأنه في ذلك يؤرخ لنفسه التي تقاسي من سعاية الأعداء، وتترقب أن تأتياها الخاتمة، مع أمله أن تكون شهادة..

\* وهو يكثر من ذكر أصحابه الذين لهم الخطوة والمكانة العلمية، ويعرّف بهم، وبوظائفهم، وينصّ على أنهم أصحابه مثلاً:

(أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية) [فصل ٥٨].

(ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة) [فصل ٥٨].

\* ولا يغمط مشايخه حقهم، بل يذكرهم بالإجلال والإكبار، ويعرف بهم وبعلمهم، مثلاً:

(سألت شيخنا أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا - وكان شيخ هذه الصناعة [أي النثر والنظم] أخذ بسبته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبيين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه) [فصل ٥٨].

وهو حين يذكرهم يشيد بذكرهم ليبين نظرهم إليه، وما استفاده منهم، أو استفادوه منه، انظر آخر [فصل ٥٨].

\* \* \*

إن ما ذهب إليه ابن خلدون من أعمار الدول، مَيَّزَ فيه بين العمر الطبيعي والعمر الصناعي.

العمر الطبيعي: مقترن بالمؤسس. انتقاله إلى حالة الهرم.

العمر الصنعي: مقترن بقلّة وكثرة القائمين بها.. وهو عمر قد يطول مئات السنين -  
[انظر فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدّها على نسبة القائمين في القلّة  
والكثرة].

\* \* \*

### \* ينظم حركة الحياة قانونان:

- قانون التشابه.

- قانون التباين<sup>(١)</sup>.

ففي الأول نتعرف على الحوادث المتماثلة والمتشابهة، وفي الثاني نعرف أنهما رغم  
تشابههما إلا أنهما حوادث متباينة متعددة.  
وقد قام ابن خلدون بتصنيف أحداثه المتشابهة ومآيزَ بينها بحيث استطاع أن يصل إلى  
قانون يشمل حركتها العامة الشاملة.

\* \* \*

يغلب عليه أن يختم فصوله بآية كريمة أو دعاء، أو تنزيه لله تعالى.  
وهو في ذلك يعبر عن شدة ارتباطه بخالقه عز وجل، ويبين أنه لا وصول له إلى  
الصحيح الموزن من أعماله، وإصابة الرمية في أفكاره إلا إذا اقترن ذلك بتوفيق الله عز  
وجل، وإن لم يكن هناك توفيق من الله للصواب، فإن الوقوع في الأخطاء واضحٌ بينٌ.  
وإذا ناقش أمراً من الأمور، ووجد أن الحقّ فيه ينجح إلى منازعة غير بينة المعالم، فهو  
يرجو أن يهديه الله عز وجل لأحسن الطرق ويريه الصواب فإنه سبحانه الموفق للصواب  
بمنه وكرمه، وهو عز وجل أعلم.

\* الفواصل الإيمانية التي يضمنها فصوله أو يختم بها كلامه: وهي تظهره بمظهر الإنسان  
الواعي الذي يعلم قصور معرفته وعلمه، مما يدعو إلى الارتباط بالعالم على الحقيقة.  
وهي تعبر عن قدرته على تفهم الموضوع وربطه بالآيات المعبرة عنه، أو المشيرة إليه.  
كما يكشف فيها عن تردده في قبول بعض المعاني المطروحة.

\* \* \*

وإذا توقفنا عند كلامه في المفاضلة بين الشعر والنثر بين الجاهلية والإسلام. وجدنا  
نظريته تُعبّر عن مدرسةٍ دقيقة في فهمها، لا تجعل للأهواء الشخصية مكاناً.. فلم يذهب

(١) - انظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطفه حسين (ص ٤٢ - ٤٦).

إلى ما قاله المحدثون ممن تبعَ الغربَ، فجعل الشعر والنثر الجاهلي أعلى قيمة، وأجمع جمالية منهما في الإسلام. بل يَبَيِّنُ بما لا شك فيه أن نظم الإسلاميين ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً، وأرصف مبنى، وأعدل تثقيفاً، وكل ذلك تابعٌ لاستفادتهم من الكلام العالي الطبقة من القرآن والحديث..

وهذا الذي ذهب إليه يحتاج منا إلى رعاية ودراية، حتى ننزع من الأذهان ما قبلته من أفواه من لم تتقوم نفسه، ولم تتهذب المعاني في قلبه، بحيث أسقط ما حقه التقديم، وأخر ما حقه الرفع. [فصل: ٥٨].

\* \* \*

ليس من مقاصد كتابه تبين الأحكام الشرعية، ولذلك يحيل على المصادر التي تبين الأحكام الشرعية فيما يتعلق بالبحث الذي يذكره. - وذلك أن مقصده من الكتاب بيان ما يتعلق بطبيعة العمران في الوجود الإنساني فلذلك يدرس وظائف الخلافة والملك والسلطان. [انظر فصل ٣٤ -].

\* \* \*

### موقفه من آل البيت:

إن نظرتهم إليهم نظرة من يعظم الدين وحرماته، وإن لم يكن ممن يجابي في الحق. فهو ينظر إليهم كعلماء أجلاء - الحسين رضي الله عنه - لهم الأهلية لتولي خلافة المسلمين، وإن لم تتوفر لهم الشوكة، وذلك في كل مجريات الأحداث الإسلامية. وموقفه منهم يتبع موقفه من الصحابة أجمعين، فهم أهل الخيرية التي شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل.

ولذلك دعا إلى حمل كل ما جرى بينهم على المحامل الحسنة وتلمس الأعذار. [وانظر فصل ٣٠].

وهو يحترم هذا النسب الشريف، ويجله، ويعظمه، ولكن ذلك لا يدعو لغفران ما يمكن أن يدر من الأفراد الذين لم يحافظوا على الشرع ويلزموه كالعبيدين... امتاز ابن خلدون في دراسته وما وصلنا من علومه بكونه:

\* رجلاً مستقلاً متميزاً غير تابع لأحد، فهو يصدر أحكامه وفق ما يعرض له من دلائل وقرائن، ولا يسمح لنزعاته وأهوائه أن تتحكم في النتائج التي تبرزها الوقائع.

عندما درس نسب الأدارسة والفاطميين رفض بشكل قاطع الاتهامات الموجهة لهم انتصاراً للحق، وبعداً عن الطعن في النسب النبوي، ولم يخرج ذلك إلى تبرير ما وقعوا فيه

من مساوئ وأخطاء، مفرقاً بين المسألتين، لأن النسب لا يبرر العمل، فمن أخطأ ولو كان ذا نسبٍ لحقه العقاب والمعرفة.

وليس في دفاعه عنهم نزعة تشيعية، لأنه يعرف تماماً أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم من تمام الإيمان، ولا يجره ذلك للوقوع في الصحابة رضوان الله عليهم، بل ينعى على الطاعنين في عدالة الصحابة، كما أنه لا يقبل من فقه آل البيت ما تفردوا به من مذاهب ابتدعوها، منكرأ عليهم ادعاء عصمة الأئمة، معتبرأ ذلك من الأصول الواهية.

وهو في ذلك ينطلق من منهج فكري واضح، وهو تمايز العلاقات، واختلاف المحاكمات، إذ لكل ميزة ومنطلق، فإذا اختلطت الأمور ضاعت الموازين المساعدة على وضع الأمور في نُصبها الصحيحة.

\* \* \*

### يمكن تقسيم مراحل حياته إلى:

\* المرحلة الأولى: الاستقرار والتعلم وتصل إلى السنة الثامنة عشر من عمره.

\* المرحلة الثانية: القلق الإجتماعي، وتبدأ بالطاعون الذي أخذ والديه وأساتذته، وقد امتلأت بالأزمات والصدمات، وتنتهي مع مقتل أمير بجاية.

\* المرحلة الثالثة: العزلة، وهي مرحلة الانسحاب من الحياة محاولاً فيها مراجعة أسباب النكبات التي أصابته، ومن ثم اختيار الطريق الذي عليه أن يخططه لحياته المستقبلية وفيها خرج على الناس بمقدمته، واتخذ العلم طريقاً وصل به إلى منصب القضاء وبه ختم حياته.

\* \* \*

إن التعبير الصريح والواضح عن أخلاقيات وسلوك ابن خلدون واضح في (المقدمة والتاريخ).

فهو يُعَدُّ مبرراً ومفلسفاً ما جرى معه الذي يوافق طبيعة الحياة وما فيها من عوارض ذاتية.

وقلماً تجد فصلاً في المقدمة، إلا وتتعرف فيه على لوحة أخرى من اللوحات المكونة لشخصية هذا المؤرخ.

ولذلك تجده يكثر من ذكر كلمات تنم عما يجري في عهده وعصره.

كما يعرض لنا مشاهداته وتصرفاته، فهو يحقق ويجرب، وإذا ما انتقدت سلوكه الإجتماعي مع من هم أعلى منه منزلة، فما عليك إلا أن تقرأ ما كتبه في المقدمة. (فصل في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة).

وإذا ما انتقدت سعيه الحثيث للاقتراب من مراكز السلطة وسعيه ليكون من رؤوسها، فاقراً (إن الجاه والسلطان جالب للمال)..

\* \* \*

\* يظهر أن طبيعة العصر الذي عاناه ابن خلدون دفع النخبة منه إلى محاولة استخلاص الضوابط والقواعد الشاملة الحاكمة لكثير من العلوم.

ويمكن أن نعرض هنا سيرة الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات فهو أصل من الأصول لم يؤلف قبله مثله قَعَدَ فيه قواعد، وبين مهمات من خلال منهجه الاستقرائي.

\* \* \*

\* ينظر إلى طبائع العمران التي تحدث عنها ابن خلدون على أنها قوانين طبيعية تنتج آثاراً عند تحققها، فهي الشرط اللازم للسير التاريخي المؤدي لتعاقب الدول وتغير الأحوال. ولكن هل هي لازمة لكل شيء في رأي صاحبها؟ أم أنها قوانين ضابطة لمسار ما أسماه بالدول أو السلطنات؟

وهنا يلزم التمييز بين ما يُعرَفُ بالخلافة، وما يطلق عليه السلطنة أو الدولة؟ فالخلافة: تعبيرٌ اصطلاحي يراد منه القيم الفكرية التي جعلت الدول والسلطنات حامية لها، وهي بهذا المعنى خارجة عن الصيرورة التاريخية لأنها فوق التغير والتبدل لثبوتها وشموليتها.

فإذا كانت الدولة مسخرة لتنفيذ المعاني المطلوبة من الخلافة، أفادت النجاح والاستمرار، لاندغامها مع الفكرة المطلوبة منها فلا تعزّيها العوارض الذاتية - بتعبير ابن خلدون - وإن هي جعلت الفكرة خادمة لمصالحها وأهواء رجالاتها آذن نجمها بالأفول، واعتراها ما يعتري الإنسان من عوامل الضعف والموت.

إذا فالأولى تستمد وجودها واستمرارها من التأييد الإلهي، لأنها تطبق أوامر الله، فتقدم ما أوجب الله على مصالحها الذاتية «حدّ يَقامُ في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يعطروا أربعين صباحاً». فهي تستمر ما دامت محققة لأهدافها، مؤمنة بأنها أداة تنفيذٍ لشرع الله، فتستفيد عندئذٍ من أمثال قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقوله عز وجل: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُونَ مِائَتِينَ...﴾.

\* \* \*

غايته من كثير من أبحاثه نقل المعرفة الحقة لأفراد الأمة، وكأنه يرغب أن يكونوا على مستوى عالٍ من الفهم والوعي السياسي، ونلمس ذلك في حديثه عن معنى البيعة في

الفصل التاسع والعشرين؛ إذ يحث القارئ على فهم معنى البيعة في العرف، لأنه من اللوازم الأكيدة للمرء لما يلحقه من:

— حقوق السلطان والإمام.

— حتى لا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً.

وكل ذلك لتكون ممن يعتر ويوازن كل ما يقرؤه ليحفظ منه تطبيقاً فعلياً عملياً في علاقته مع الملوك.

أي أنه إنسان جعل من رعاية حقوق الملك ديدنه، وأراد أن يجعل من ذلك سلوكاً عاماً ينظم أفراد الأمة لتسير السير الصحيح بدون وقوع في الكوارث والفتن.

\* \* \*

\* عدم اعتماده على الوثائق الشفهية ولو تكرر سماعه لها، رغبةً منه في ضبط المسموع بالكتابة — التي تُؤكّد بالسماع — الشفاهية.

إن نظرتة إلى ضبط المرويات تنطلق من قناعة داخلية تتطلب دائماً البحث عن الدقة المساعدة على الوصول إلى صحة المسموع، ودقة المكتوب. [انظر فصل علم التصوف — في حديث عن شيخه أبي المهدي، وسماعه لعبارات منه، وتشيته ذلك في نقله عن الوزير ابن الخطيب].

\* \* \*

— لما دقق في نفيه ما قيل عن العباسية أخت هارون الرشيد، تعرفنا على ملامح من نفسيته وعقليته.

فهو إذ ينفي الحادثة يُعبّر عن حقائق من شخصيته، تُنم عن عظم اعتداده بأصله العربي، فهو يأبى علي العباسية (أن تُدسّ شرفها العربي بمولّى) رغم أن ما كان بينهما زواج، فهو لا يرى فضلاً أو شرفاً للفرس الموالي..

ولعله يذهب إلى ذلك من خلال المدرسة الفقهية أن تطلب الكفاءة في النسب والحسب، ولا تجدد غير العربي كفوّاً للعربي.

وهو يقرّ باحترامه وإجلاله للنسب النبوي، وأنه من دواعي البعد عن الفحش والموبقات..

كما أنه يؤكد بعض الجوانب المهمة في دفع الموبقات وضبط العلاقات بين الناس، فمن ذلك:

الملك المنيع، والخلافة النبوية المرتبطة بالزمان (قرب العهد) والمكان (مهبط الوحي) والأشخاص (الصحابة) والروابط الفكرية (نور الوحي) وأضاف إلى ذلك البساطة التي لم يشبها ترف..

\* \* \*

الركائز التي انطلق منها ابن خلدون في اكتشافه القوانين الناظمة لطبائع العمران:

- ١- التحليل والتركيب: فبعد غوصه في عمق الظاهرة بعد تحليلها وتفكيكها، يرجع إلى جميع الجزئيات في مقدمة كلية.
- ٢- التجارب البشرية التي شاهدها [المقدمة الخامسة].
- ٣- ملاحظة العلائق بين الإنسان والحيوان.
- ٤- الاستفادة من التجارب المقامة على الحيوان وعكس ذلك على واقع الإنسان [المقدمة الخامسة] فهل يمكن اعتباره ممن دعا إلى المدرسة التجريبية؟
- ٥- استعانت به بآخر ما وصل إليه عصره من علوم طبية وتشريحية في تحليله للظاهرة التي يدرسها [المقدمة السادسة: بحث الرؤيا].

\* \* \*

\* تفيد دراسة المقدمة علماء التغذية في تعريفهم بالأغذية وتفاعلها مع النفوس، ونواتجها.

كما ينبه خلال ذلك على ضرورة فهم طبيعة التغذية وتدرجها زيادة أو نقصاناً، وأن الإفراط مؤد لعكس المقصود.

كما يستفيد المزارعون ومربو الدجاج معلومات عن نوعية الغذاء المفيد لسمن الدجاج وكبره..

ويعرفنا بالأغذية المفيدة للبدن والأغذية الضارة، وطبيعة الأغذية المساعدة على تقوية الأبدان.. انظر المقدمة الخامسة.

\* \* \*

\* اكتشافه قوانين جديدة في علوم الشريعة، كقانون التمييز بين المكّي والمدني مما لم يشر إليه قبله. [المقدمة السادسة - آخر حقيقة النبوة].

\* اكتشافه لحقيقة الدوافع وراء ترمد بعض المتنبيين [المقدمة السادسة: آخر الكهانة].

\* تحليله لظاهرة الرؤيا عند الإنسان بما يشابه ما وصلت إليه آخر الدراسات الفلسفية في تفصيلها لجانب من جوانبها وابتعادها عن الجوانب الأخرى المدروسة في بحثه [السادسة - الرؤيا].

\* اتباعه المنهج التجريبي فيما يصل إليه من معلومات إن كان يمكن ذلك، وتطبيقه على نفسه، واستخلاصه النتائج من ذلك [المقدمة السادسة - الرؤيا] كذكره الأسماء الأعجمية من أجل الرؤيا..

\* منهجه في قبول التعليقات:

١- الرسوخ في المعارف.

٢- وتحصيل العلوم من أهلها.

وصلنا إلى ذلك في رده على المسعودي في مروج الذهب في تعليقه لأمر الكهانة والعرافة.. [السادة..].

\* \* \*

\* إن اعتراض ابن خلدون على بعض الوقائع الحادثة في التاريخ يحتاج منه إلى إعادة نظرٍ وتريث.

\* رفضه لبعض الأحداث بناءً على أنها مخالفة لقوانين الطبيعة كنقل المسعودي لغطس الإسكندر داخل صندوق من الزجاج داخل البحر.. وهو في ذلك ينفي قدرة السابقين على القيام بشيء بدون أن يكون لديه ثوابت قطعية في رد ما ادعي، وإن كان يمكن أن يكونوا ممن وصلوا إلى تقنيات علمية لم تصل إلى عصر ابن خلدون...

\* \* \*

الحديث الشريف:

يؤخذ عليه في استدلاله بالأحاديث النبوية:

- عزوه أحاديث إلى مصادر ثم لا توجد فيه.

- نسبته أحاديث إلى أحد الصحابة ثم لا توجد له: انظر السحر والطلسمات.

- عدم تنبيهه على الأحاديث الموضوعة: «كنت كنزاً...».

ولعل ذلك نابع من:

اعتماده على ذاكرته فيما يتعلق بالحديث الشريف، وعدم مناقشة ما سمعه كثيراً مما أوجد عنده قناعة جعلت ما ينقله كالمسلمات العقلية.

ويستفاد من استدلاله بالأحاديث النبوية:

١- تنبيهه على معان جديدة قلما طرقت من قبله.

٢- استخدامها كقواعد يستند عليها في انطلاقه وتأكيده.

\* كما أن اعتراضه على بعض الأحاديث والآثار النبوية يحتاج إلى وقفة تأمل، إذ أن اعتراضه يتنافى مع منهجه التاريخي الذي أصله، ودعا إليه.



- ولا يرد هنا دراسته الأحاديث المتعلقة بالمهدي لأنه:  
 - درس الأسانيد وبين الصحيح من غيره وفق منهج نقاد الحديث.  
 - ثم بين ضرورة مراعاة السيورة التاريخية التي نبه عليها من طبائع العمران.  
 \* \* \*

### اقتباساته

- كثيراً ما يظن أن استفادة المرء من الآخرين هي الشيء الوحيد الذي جعلهم يصلون إلى ما هم عليه.. ولذلك يتهم الكثير من الأدباء والمفكرين بسرقة إنتاج الآخرين وتقديمه بصورة أو بأخرى مع إغفالهم لذكر صاحب الأصل.  
 وهذا ما نلمسه فيما ذهب إليه بعض الدارسين لابن خلدون في بحثه للشعر الأندلسي.  
 وأحب أن أشير إلى أن ذلك لا يستحق أن يوصم به ابن خلدون لأسباب:  
 - ذكره لصاحب الفصل في أكثر من موطن في ضمن الفصل.  
 - استخلاصه لهذا الفصل تحديداً من كتاب كبير يحوي فصولاً متعددة تتعلق بكثير من تلك القضايا ينبىء عن مقدرة خاصة توحى بالتمكن، ومعرفة الأشياء النافعة والمفيدة له في بحثه وما يريده بحيث اعتبر ذلك الفصل من مهمات دراسة ذلك الشعر، فهو مقتبس بارع، يمتاز باختيار النافع من دراسات وأبحاث الآخرين.  
 - كما أنه لا يطلب من دارس لعلم العمران أن يكون ملماً بكل العلوم، وهو حين ينتقي من العلوم ما ينفع أبحاثه يؤكد ضمناً عبقريته، وجودة فهمه.  
 - وهذا الإتهام يشبه إلى حد ما ما نسب إلى الكاتب المسرحي برتولت بريخت من إغفاله ذكر المسرحي ميرخولد الذي اعتبره بعض الدارسين من أهم أسباب نجاحه، وهذا يمكن أن يكون صحيحاً لو كان ميرخولد مبرزاً في كل الجوانب المسرحية، في حين كان اهتمامه منصباً على الجانب الاستعراضي الذي استفيد منه ووظف لغايات وأهداف غير التي أرادها ميرخولد.

\* \* \*

- إن المدرسة التجريبية في كل ما قدمته - لم تخرج عن المنهج الذي سار عليه ابن خلدون، فهو يقدم معلوماته من خلال:  
 - استقراء المعلومات.  
 - السماع من الأشخاص.  
 - التأكد من المسموعات عن طريق:  
 - الثبوت من أقوال الأشخاص بمتابعة غيرهم لهم.

- البحث عن مداخل ما ينتحله من سمع عنه.
- التجربة الشخصية لما وصل إليه من بينات يمكن التعامل معها.. [انظر السحر والطلسمات].
- الاستفادة من الإحساس الداخلي الذي يرقى به إلى مستوى يجعله يعتبره واقعاً ملموساً يشترك فيه كل من يمر بتلك الممارسة، وهذا ما أفاده في بحثه عن الغناء، وما يؤثره في النفس من حالة شعورية تماثل ما يصيب العاشق الوهان، وهو في ذلك يبين لنا مدى تعامله مع المشاعر الإنسانية، وتداخل معطياته مع كل مادة يقدمها. [انظر فصل صناعة الغناء].

\* \* \*

### ظلال شخصية:

- إن الكتابة هي انعكاس لشخصية الكاتب، وبالتالي هي صورة عن تفكيره وسلوكه، مهما حاول إخفاء معالم ما يريد، ونلمس ذلك في:
- طريقة المعالجة التي استخدمها في عرض المعلومات وتوزيعها، والشعور العام الذي لا يوحى بالترابط بين أجزائها، مما يوحى بتفكك شخص الكاتب، وتمزقه.
- فهو مشتت البال، يستذكر عند إيغاله في بحث من أبحاثه أنه قد تعرض لهذه المعاني فيما مضى.
- وهو دبلوماسي في تحليله وإصدار أحكامه، يجعل لنفسه مخرجاً مما يمكن أن يشير خصومه عليه. وهو في ذلك مثال للذي لا يرى الحياة بمنظارين فقط، وإنما بتدرج ألوانها، فلا وجود لبياض مطلق ولا سواد مطلق..

### ابن تومرت:

- يذهب الدكتور الورد في منطق ابن خلدون (ص ٢١٧) إلى أن دفاع ابن خلدون عن ابن تومرت بسبب أنه أراد إهداء كتابه إلى ملك ينتمي للموحدين. وأحسب أنه جانب الصواب في ذلك، لأنه يدافع عن هذه القضايا دفاع المؤمن بها، إضافة إلى احترامه الأساسي للغزالي، وبما أن ابن تومرت من تلامذته فهو محبوب له، مما دعا لاعتقاد صلاحه، ولا سيما أن ابن تومرت لم يحصل من وراء دعوته دنيا..

\* \* \*

- ويشبه هذا قوله (ص ٢١٥ - ٢١٦): إن ابن خلدون مع الثورات الناجحة فقط.
- بل هو مع الحث على استكمال شروط الثورة، ولا يقبل بالعشوائية والارتجال.. وهو ينتبه لنجاح بعض الثورات بدون سابقة، ولكن بعد أن تكون الدولة قد آذنت بالزوال،

وأصبح أي آتٍ قادراً على انتزاعها، وهو عندما يذكر النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يغفل عصبية قريش، وعصبية آلِه، وإنما نبه على المعونة الإلهية.. وإن كان لم يشر إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتمل له الدين حتى دخلت قريش في الإسلام، كما لم يكتمل ليوسف صلى الله عليه وسلم الملك حتى جاءه أهله وخرجوا له ساجدين حين ذاك.

\* \* \*

### ابن تيمية:

الملاحظ على ابن خلدون إغفاله ذكر ابن تيمية في كتابه، رغم استفادته من منهجه في رده على المناطقة، وقد ذكر الدكتور علي الوردي الدلائل والشواهد على ذلك في كتابه (منطق ابن خلدون).

فلماذا لم يشر إليه من قريب أو بعيد؟ هل هي رغبة في طمس معالم شخصية ذاك العَلم؟ أم لخلافٍ فكري منهجي بينهما؟! أو خوفاً من الظروف المحيطة التي تكره تلك المدرسة وتحاربها؟.

وأحسب أن هذه العوامل مجتمعة قد أثرت به. وربما كان لأستاذه محمد بن إبراهيم الأبلّي الذي له الأثر الأكبر في حياته، وهو الذي تتلمذ على أيدي دعاة الشيعة وتأثر بهم ونشر أفكار الطوسي في بلده تونس، ما جعله يوحى لتلميذه بكراهة لابن تيمية الذي كان معروفاً في العالم بردوده ومحاجته للشيعة والمناطقة، إضافة إلى انتهاجه مدرسة خاصة في العقيدة يكاد أهل عصره يجمعون على رفضها، كما أن السمعة العامة تظهر ابن تيمية كمعادٍ لمدرسة التصوف.. وابن خلدون يشعر براحة في عزلته متشبيهاً بالغزالي..

كل ذلك أثر في توجهه نحو ابن تيمية، فاتخذ وسيلة الإغفال تجنباً للمصادمة مع أعداء ابن تيمية، وتجاهلاً لكل ما حسب أنه لم يعد مثار نقاش وجدل، ذلك أنه يعتبر العقائد قد رسخت في القلوب، ولم يعد هناك من يحتاج إلى حوار ومناقشة لاضمحلال أهل البدع وظهور أهل السنن.

علماً أنهما يتشابهان في نظرهما إلى المجتمع وما فيه من آثار سلبية، وكلاهما عمل في النطاق السياسي إلا أن ابن خلدون انجرف مع تيار السياسة أليكافيلية، مما جعله يخرج كلياً عن دائرة العمل السياسي. في حين بقي ابن تيمية في نطاق العمل السياسي الفقهي، معتبراً نفسه حاكماً للمجتمع يتصرف فيه رغم وجوده داخل الأسوار، فكتب الحكام منبهاً على ضرورة تغيير ما هم فيه، وهدد أعداء الأمة المتربصين فيها داخلاً وخارجاً، ولا ننسى رسالته إلى حاكم قبرص شديدة اللهجة، لا يشعر من يقرؤها إلا أنه الخليفة

يخاطب من هم دونه.. ولذلك ألف كتابه (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، لأنه يري للمسألة شقين راعٍ ورعية، وكلاهما يحتاج إلى إصلاح. كما رأينا قائداً عسكرياً يرسم الخطط، وينبه إلى وجود النصر المحقق بناءً على منهجه في المقارنات التاريخية التي استوعبها وسطرها في رسالة تبين أنه لم يخرج عن العمل في إخراج الإسلام من غربته بدون عجز أو خور. وبدون تزلف وخنوع بخلاف فعل ابن خلدون مع تيمور. ولو جمعت أفكار ابن تيمية الاجتماعية لعادلت في مضمونها - والله أعلم - مقدمة ابن خلدون الاجتماعية، إلا أن ابن تيمية كان من أساس المجتمع، نابعاً من بين أفراد البسطاء، وابن خلدون يجد نفسه فوق المجتمع، وله حق يوجه له تراث أجداده.

ومع ذلك لاقيا الصدا والمحاربة ممن يحيط بهما، ذلك أن الطبيعة البشرية تنفس على الآخرين أن يكونوا متفهمين للوقائع أكثر منهم... وخاصة إذا نظروا لهم، وبينوا مواطن أخطائهم.. وإذا ما تعرضت مصالحهم للخطر كانوا أشدَّ عناداً ومدافعة، وخاصة من أصحاب السلطة والمتنفذين الذين يأنفون أن يساويهم أحد أو يحاول أن يكشف ما هم فيه من السوء.

فبقي ابن تيمية فقيهاً منذ البداية إلى النهاية، بخلاف ابن خلدون الذي اتخذ من الفقه صناعة في آخر أيامه.. وبينهما فرق أساسي أن الأول قرشي يمكنه المطالبة بالخلافة، بخلاف الآخر الحضرمي الذي وجد أن النسب القرشي غير ملزم للأمة لتعيين الخليفة.

\* \* \*

\* استفاد ابن خلدون في إبداع نظريته من عوامل متعددة مكنته من التوصل إلى فهم طبيعة ما يجري، من ذلك:

- ثقافة عصره والعصور التي سبقتة، إذ أن اطلاعه عليها ساعده على اختزان المعلومات، ومن ثمَّ التمكن من تحليلها وتركيبها من بعد.

- تنوع التجارب الاجتماعية التي مرَّ بها في حياته العامة والخاصة، إضافة إلى رحلاته وتنقلاته في ربوع المغرب والأندلس ثم الشرق. وما عاناها من اضطهاد وسجن.. بحيث يقال: إنه عاش مع أصناف البشر الذين تحدث عنهم فيما بعد في طبقاتهم المتنوعة والمتعددة.

- لحظات التأمل التي عاشها نتيجة الأزمات السياسية التي عاناها، مما دفعته لإعادة النظر في مجريات الأحداث لاستخلاص الأسباب والدوافع التي أدت إلى ما هو فيه، إضافة إلى العوامل المساعدة على تحقيق المبتغى مما سعى إليه طول حياته.

- التربية والنشأة التي طبعتها بطابعها وحثته على خوض غمار هذه الحياة، وهو يحمل همّ وطموح الآباء والأجداد. فاجتمع له الدراسة المتوازنة في ظل والده، كما دفع دفعا داخليا للاهتمام بأمور السياسة التي كان لأسرته قصب السبق فيها، ولهم المنزلة العالية الرفيعة، فهل يتمكن من تحقيق طموحه؟ ولما لم يجد في ذلك ما فيه فائدة ترجى عكف معتزلاً الحياة، دارساً أسباب فشله وضياعه.. فأنتج ما يمكن اعتباره دستوراً يبين الطريقة والمنهج لمن يريد أن يسير مسيره، ويقتفي أثره.

- الشعور بعدم القدرة على التأثير الفاعل في الحياة مما يؤدي إلى الانكفاء على الذات، والبعد عن مواطن الفعل الفاعل.

وهي مرحلة من المراحل الروحية التي يصل إليها المرء في حياته وتعرض له بعد مروره بتجارب يشاهد خلالها تجارب الكون معه، وكأنه يسير وفق إرادته ومشئته، أو بمعنى أنه ياتمر بأمره وينفذ أهواءه ورغباته.

ويعقبها النظر إلى الكون والإنسان بعين الشفقة والرحمة، وهي منعكسة عن وصوله إلى مرحلة ضعفه البشري الظاهر والبين فيعرف أنه غير فاعل حقيقة، وأن ما يجري ويظن نفسه سائقاً له، إنما هو الذي يسوقه فيعيش حياة روحية يشعر فيها بنشوة خاصة لها لذتها التي تمنعه من محاولة تغيير أي شيء يمرّ به أو إقدامه على فعلٍ لتغيير ما هو فيه.

\* \* \*

ولزيادة التعرف على منهج ابن خلدون العلمي وكيف نظر إليه كعالم اجتماع، ألحقت بالدراسة مقاليتين قدمتا لمهرجان ابن خلدون في القاهرة.

### تاريخه وعلاقته بالمقدمة

إن تاريخ ابن خلدون لم يلقَ من عناية الباحثين ما يستحقه من دراسة ورعاية بسبب عدم عناية من اعتنى بالمقدمة من الغربيين وغيرهم به، وسبب إطلاق بعضهم على الكتاب أنه غير مستوفٍ للشروط والضوابط التي أثارها في مقدمته. وهو بلا شك ظنٌ خاطيء لا يحسن أن يلتفت إليه، ولا سيما أنه ألف كتابه مترافقاً مع مقدمته. وأجرى الإصلاحات والتعديلات خلال رحلاته ومراجعاته وهي بلا شك قد شملت كل الكتاب لا جزءاً واحداً منه..

يلاحظ على تاريخه:

- عنايته بالأحداث السياسية المتعلقة بتاريخ أحداثه.
- تجاهله للعلماء وغيرهم ممن لا علاقة له بمجريات الأحداث السياسية.
- انتقاء الضروري من أحداث التاريخ التي تعين على ترابط الأحداث العامة وإن كان يذكر في كثير من الأحيان بعض الأحداث الصغيرة التي لا تقدم أو تؤخر في الوقائع.
- فهل يعتقد ابن خلدون أن العلماء ومن شاكلهم لا قيمة لهم في التاريخ أو بمعنى آخر السياسة التي يريدها...؟ هل هو نأي بهم عن تلك المهالك، أم أنهم غير قادرين على أي فعل مؤثر في الحياة الاجتماعية السياسية؟!.
- وهذا يستجر إلى السؤال: لماذا كان بعض الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء يراعون جانب العلماء؟ أو يسيرون في جنائزهم...؟.
- وإذا ذكر أحد العلماء فإنما في معرض تبين نسبة أحد السياسيين، كما في تبين نسب البساسيري، فذكر أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح (٤٦٥/٣).
- \* اهتمامه ببناء المدارس كالنظامية ومن درس فيها، و... (٤٦٩/٣).
- \* اهتمامه بذكر اهتمام بعض السلاطين والأمراء بالعلماء، واهتمام العلماء.. انظر (٣١٧/٤).
- \* عنايته بمن زوج أو تزوج من الأمراء والحكام (٣١٦/٤).
- \* ذكر خصائص الملوك واهتماماتهم، مثل:
  - اقتنى من الأواني والآلات..
  - جمع في عصمته بنات الملوك.
- أرسل طباطخين على الديار المصرية.. حتى تعلموا الطبخ (٣٢٠/٤).
- يغلب عليه الاقتصار من الأعلام على التعريف العام، الذي لا يوقع في اللبس، فمثلاً لما ذكر (٤٧٠/٣) صاحب ديار بكر (ماردين) «ابن مروان» اكتفى بهذه النسبة، ولم

يذكر اسمه، ولعل مرد ذلك إلى ذكره في المصادر التي بين يديه تحت اسم «نصر بن مروان» وفي أخرى: «نصر بن أحمد بن مروان». فاقصر على الترجمة المعبرة عن الفكرة دون دخول في الجزئيات التي لا فائدة منها لكتابه.

\* \* \*

\*مناقشته للأحداث والوقائع والأنساب مرتبطة بضرورة توضيح وتبيين ما أراده من الباب الذي عقده ولذلك وجدناه يناقش النسب العبيدي في ضمن تاريخه [٤٠ - ٣١/٤] بعد أن كان أشار إشارة إلى ذلك في مقدمته.

وبهذا نخلص إلى نتيجة مهمة، وهي: تطبيق ابن خلدون لمنهجه النقدي ليس في مقدمته فقط وإنما ضمن تاريخه في الأماكن الداعية لذلك، وإذا كان بحثه لها سابقاً غير مستوفٍ للبيانات والدلائل التي رغب في إيضاحها.

ولا داعي لمناقشة ما وصل إليه من قناعات أيدها بالحجج فيما ظهر له، لأسباب منها:  
- مضي الأحداث بحيث لا فائدة من كثرة الجدل حولها.  
- عدم وجود البيانات القاطعة المثبتة أو النافية لأي شيء من الآراء الذاهب إليها أو المخالف لها [انظر بني عبيد].

\* تعتبر المقدمة المدخل الرئيس لأبحاث التاريخ، فقد قدم بداية كل ما يتعلق بطبائع العمران ونتائجه، وضرب أمثلة كثيرة توضح وتبين وجود أو عدم تلك الجوانب في الدول التي عرض أحداثها ذاكراً للضرورة مما يكشف عن طبائع العمران في ثنايا مقتطفاته، معتمداً كون قارئ تاريخه قد طالع مقدمته واستكمل الصورة عن الدولة التي يستعرض أحداثها.

لذلك يطلب من يريد فهم وقائع التاريخ كما عرضه ابن خلدون أن يجمع بين التنف التي عرضها عن تلك الدولة في المقدمة - واضعاً إياها في محتواها الاجتماعي والثقافي، قبل استعراضه للأحداث عامة.

\* هناك ارتباط وثيق بين المقدمة والتاريخ، ويلمس ذلك في:  
- إحالته على التاريخ في مواضع من مقدمته حيث يذكر الأسباب العمرانية في المقدمة، ويسرد الأخبار في التاريخ [انظر آخر الفصل ٤١ من المقدمة].

\* \* \*

## المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون

للدكتور حسن الساعاتي<sup>(١)</sup>

تمهيد:

حقائق الماضي هي الميدان المشترك بين التاريخ من جهة، وعلم الاجتماع من جهة أخرى. ولذلك كان هم كبار المؤرخين نقل الأخبار والروايات بأمانة، وتسجيلها بدقة، وتحصيل مادة وفيرة منها، تعيين على تصوير الماضي تصويراً واضحاً، يجعل قراءته مفيدة والعبرة منه أكيدة. فالمسعودي يمتدح الطبري، لأن تاريخه قد زها على المؤلفات، وزاد على الكتب المصنفات، (فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم)<sup>(٢)</sup>. ويشير المسعودي إلى غزارة المادة التي جمعها في مصنفه التاريخي الذي اشتهر به فيقول: (ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فناً من الأخبار، ولا طريقة من الآثار، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً، أو ذكرناه مجملًا، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات، أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات)<sup>(٣)</sup>. فلا غرابة إذن. بعد هذا الجهد والمعاونة في جمع تلك المادة الغنية التي احتوى عليها كتاب مروج الذهب، أن يستمطر مصنفه اللعنات على (من حرف شيئاً من معناه، أو أزال ركنًا من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبس شاهدة من تراجمه، أو غيره، أو بدله، أو شحنه، أو اختصره، أو نسبه إلى غيره أو أضافه إلى سواه)<sup>(٤)</sup>.

ولئن كان فضل المؤرخين القدامى في أمانة النقل، وغزارة المادة التي صنفوا منها كتبهم، فإن عبد الرحمن بن خلدون قد أضاف إلى ذلك فضلاً آخر ظهر في ناحيتين:  
الأولى في تفريقه ما بين التاريخ وفلسفة التاريخ، والثانية في تساؤله الدائب عن العلل والأسباب للحوادث والوقائع.

فأما الناحية الأولى فواضحة من قوله: (إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده، وتبين به أخباره)<sup>(٥)</sup>. ولقد هداه هذا الاتجاه إلى استقراء نظريات

١ - البحث المقدم لمهرجان ابن خلدون المنعقد في القاهرة ١٩٦٢.

٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، القاهرة، المطبعة البهية، ١٣٤٦هـ، ص ٦.

٣ - المصدر نفسه، ص ٨.

٤ - المصدر نفسه، ص ٨، وفي النص نسبة إلى غيرنا، وإضافة إلى سوانا.

٥ - مقدمة العلامة ابن خلدون، القاهرة، مطبعة مصطفى محمد، ص ٣٢. وقد اعتمدنا عليها اعتماداً أساسياً في



كثيرة ومتنوعة خاصة بالعمران البشري، (وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس، والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال)<sup>(١)</sup>. وهذاه هذا الاتجاه أيضا إلى إدراك ظاهرة التغير الاجتماعي، فهو يقرر (أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول)<sup>(٢)</sup>.

والناحية الثانية التي ظهر فيها فضل ابن خلدون، والتي ميزته عن فطاحل المؤرخين في عصره ومن سبقه من المؤرخين القدامى، تنحصر في اهتمامه بتقصي الأسباب والعلل والدواعي للوقائع أو الحقائق الاجتماعية، ذواتا كانت أو أفعالا. ولذلك نجده في المقدمة يقرر استقراءاته في شكل قضايا عامة، ثم يبدأ في تحليلها بذكر عبارتي (والسبب في ذلك)، (وذلك لأن)<sup>(٣)</sup>. ويقرر ابن خلدون رأيه في ربط الأسباب بالمسببات بقوله: (إنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض)<sup>(٤)</sup>. ولذلك نجده ينقد من سبقه من المؤرخين لغفلتهم عن ذكر أسباب الوقائع والأحداث<sup>(٥)</sup>.

ذلك لأن ابن خلدون قد فطن إلى ما بين التاريخ وفلسفة التاريخ، أو التاريخ التحليلي من بون شائع. فهو يقرر أن (فن التاريخ... في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع بالتساؤل عن أحداث الماضي فيسجلها، ولكنه يسأل أيضا عن كيفية حدوثها، وهذه مرحلة متقدمة عن سابقتها. ثم هو لا يقف عند ذلك فحسب، بل يتقدم أيضا إلى مرحلة سامية في المعرفة فيتساءل عن سبب وقوع هذه الأحداث، لقد كان مبدؤه في كتابة مقدمته، أن يسأل بخصوص أية ظاهرة من ظواهر العمران، ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ فإجاباته عن الأولى والثانية (ماذا؟ وكيف؟) تكون مادة

١ - المقدمة، ص ٣٥.

٢ - المقدمة ص ٢٨.

٣ - هذه العبارات مذكورة عشرات المرات في فصول كثيرة من المقدمة.

٤ - المقدمة، ص ٩٥.

٥ - المقدمة، ص ٥.

فن الوصف الاجتماعي، أما إجاباته عن الثالثة (لماذا؟) فتكون موضوع علم الاجتماع. فلا غرابة إذن أن نقرأ أن الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة، عندما سأله ابن خلدون: (ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين؟)<sup>(١)</sup> ثم ذكر له إجابته الواردة في مقدمته، قد شهد لعظمة تفكيره بقوله: (يا فقيه! هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب<sup>(٢)</sup>) هكذا كان دأب ابن خلدون، الفيلسوف الاجتماعي، الذي كتب في اعتداد وصدق في بداية مقدمته: (ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول، وتعاصر الأمم الأول، وأسباب التصرف والحول، في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة، ومدينة وحلة، وعزة وذلة، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جملة، وأوضحت براهينه وعلمه)<sup>(٣)</sup>.

### النهج العلمي في مقدمات كتب كبار المؤرخين المسلمين القدامى:

إن كبار المؤرخين المسلمين القدامى هم الطبري والمسعودي وابن خلدون<sup>(٤)</sup>. وفي رأينا أن المقرئ، الذي عاصر ابن خلدون في أواخر أيامه، يمكن أن يذكر اسمه بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة. ولما كانت عظمة ابن خلدون وأصالته تتجلى في منهجه العلمي الذي فصله ودعمه في مقدمة تاريخه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، فقد رجعنا إلى مقدمة كتاب (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد ابن جرير الطبري، وهي مقدمة تقع في أربع صفحات، ومقدمة كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ) لعلي بن الحسين بن علي المسعودي، وصفحات هذه المقدمة أربع عشرة صفحة، ثم إلى مقدمة كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار لأحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقرئ، وعدد صفحاتها أربع صفحات. وغایتنا من ذلك أن نقف على المنهج العلمي الذي ذكره كل منهم في مقدمة كتابه، وبذلك تتسنى المقارنة، وتظهر أصالة ابن خلدون.

أما الطبري فقد وقف عند مشاهدته الخاصة، واكتفى بالنقل عن الرواة نقلاً أميناً، دون أن يشك في رواياتهم وأخبارهم. ويقول شارحاً منهجه في التاريخ: (وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو

١ - المقدمة ، ص ٥٨٠ .

٢ - المقدمة ص ٥٨٠ .

٣ - المقدمة ، ص ٧

٤ - انظر UİKEN, HILMI ZIYA, LA PFENSEE DE L , ISLAM , ISTAMBUL, FAKKULTELER

على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أبناء الحادئين غير واصل إلى من لم يشاهداهم، ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والإستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فيعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا<sup>(١)</sup>. حقاً إنه لفضل كبير أن ينقل المؤرخ الأخبار بأمانة، ويؤديها على النحو الذي أديت إليه به، ولكن الفضل الأكبر يكمن في بذل الجهد لتمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها.

وأما المسعودي فقد ارتقى درجة عن الطبري، لأنه وقف ممن سبقه من المؤرخين موقف الناقد، فأثنى على ابن قتيبة والطبري ونفطويه والصولي لغزارة مادتهم وتنوع الأخبار التي حوتها كتبهم، ونقد سنان بن ثابت بن قرة الجرجاني لأنه انتحل ما ليس من صناعته، واستنهج ما ليس من طريقته<sup>(٢)</sup>. وهكذا يعتمد المسعودي على الثقات من المؤرخين. وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه: ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار إلا ما اشتهر مصنفوها وعرف مؤلفوها<sup>(٣)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المسعودي في أخطاء كثيرة، لأن ثقته ببعض المؤرخين جعلته ينقل عنهم الأخبار، غثها وسمينها، وما كان منها مستحيل الوقوع. وبذلك استحق نقد ابن خلدون اللاذع في أكثر من موضع في مقدمته.

وأما المقرئ فقد ضمن مقدمة كتابه فصلاً عنوانه: ذكر الرؤوس الثمانية بدأه بقوله: اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه<sup>(٤)</sup>. وبعد ذكر الرؤوس السبعة الأولى، يقول عن الثامنة: وأما أي أنحاء التعاليم قصدت في هذا الكتاب، فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء، وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عن أدركت من مشيخة العلم

١ - تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، المطبعة الحسينية، الطبعة الأولى، (بدون تاريخ)، ص ٥.

٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ. القاهرة. المطبعة البهية ١٣٤٦ ص ٧.

٣ - المصدر نفسه (ص ٧).

٤ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ص ٣).

وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته، فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فإنني أعزو كل نقل إلى الكاتب الذي نقلته منه لأخلص من عهده، وأبرأ من جريرته، فكثيراً ممن ضمني وإياه العصر واشتمل علينا المصير صار لقلة إشرافه على العلوم، وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله. وليس ما تتضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة إليه. وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه. وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإنني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته، وقل ما يتفق مثل ذلك. وأما ما شاهدته فإنني أرجو أن أكون والله الحمد غير متهم ولا ظنين<sup>(١)</sup>.

إن هؤلاء المؤرخين الكبار متشابهون في طريقة تفكيرهم، وفي منهجهم العلمي. فهم ينقلون من كتب من ألف قبلهم، ويروون عن أناس وضعوا فيهم ثقتهم، ويسجلون مشاهداتهم، ويرعون في ذلك كله أمانة النقل والرواية، وصدق التسجيل. وهذه شروط أساسية في البحث العلمي، ولكن الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها هذه الشروط، هي أن تكون الأخبار، أو الحقائق التي تنقل أو تروى، صادقة، أي: أن تكون قد وقعت فعلاً، أو كان لها وجود أصلاً. وهذا أمر لم يفتن إليه الطبري، والمسعودي، والمقرئزي، ولكنه لم يفت ابن خلدون الذي نبه إليه، وألف فيه مقدمته التي تربو صفحاتها على ست مئة صفحة، والتي اهتدى فيها إلى معيار الحقيقة في الأخبار والروايات، ألا وهو العمران البشري، وماله من طبائع في أحواله<sup>(٢)</sup>.

فيه يمكن تنقية الأخبار والروايات من الباطل المبتدع، وزخرف القول المصطنع، الذي موه به المرجفون صفحات التاريخ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وييل. والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملئ وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل.

١ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ص ٣ و ٤).

٢ - المقدمة ص ٤.

### المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون

عندما نستعرض مقدمة ابن خلدون نجد أنفسنا أمام عمل عظيم، أمام بناء جديد فريد شامخ، وطيد الأركان، محكم البنيان. فالأفكار فيها غزيرة منسقة، تسير في تسلسل منطقي، فابن خلدون يبدأ مقدمته بتمهيد يحمد فيه الله الذي أنشأنا من الأرض نسماً، واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً، ويسر لنا منها أرزاقاً وقسماً، تكنفنا الأرحام والبيوت، ويكلفنا الرزق والقوت، وتبلينا الأيام والوقوت [المقدمة ص ٣]. وواضح من ذلك أن أفكار المؤلف منذ البداية مركزة حول السكان، والعمران والتغير الاجتماعي والتطور، والسياسة، والاقتصاد، والطبقات، والأحوال الاجتماعية المعيشية.

وفي التمهيد بعد ذلك انتقال إلى تعريف فن التاريخ في ظاهره، وفي باطنه، وتأكيد لمبدئه في تمحيص الأخبار والروايات، وإشارة إلى التغير الاجتماعي، وتبيان لأهمية أسباب ذلك وعلمه، وتفصيل لمحتويات كتاب العبر والمبتدأ والخبر.

ويلي التمهيد مقدمة في المنهج العلمي يبين فيها ما يحتاج إليه الباحث المؤرخ، والسبيل الذي يجب عليه أن يسلكه، حتى يقي نفسه من الزلل، والحيد عن جادة الصدق. كذلك يجري في هذه المقدمة تحقيقات مختلفة، سكانية وإحصائية، وحرية، وجغرافية، وحضرية، وتاريخية، ثم يبين أخطاء المؤرخين وأهم أسبابها.

ويلي المقدمة ما أسماه ابن خلدون الكتاب الأول الذي يتناول طبيعة العمران في الخليقة، وما يعرض فيها من البدو، والحضر، والتغلب، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب [المقدمة: ٣٥].

ويمكن تقسيم المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون إلى قسمين أساسيين، أحدهما خاص بقواعد عامة، والآخر يشتمل على قواعد خاصة. فأما القواعد العامة فهي التزود بالعلم، ومعرفة طبائع العمران والتشكك، والموضوعية، والحيطة عند التعميم، وأما القواعد الخاصة فتشمل التأمل والاستقراء، والتحقيق العقلي، والتحقيق الحسي، وسؤال الخبراء، والمقارنة، والتجربة، والنظر في الحوادث في إطارها الزماني.

### قواعد المنهج العامة في مقدمة ابن خلدون:

إن القواعد التي ذكرناها آنفاً، سواء كانت قواعد عامة، أو قواعد خاصة، قد وردت في مقدمة ابن خلدون، إما صراحة في شكل تعاليم محددة واضحة، وإما ضمناً في سياق الحديث والشرح والتحليل. والمقدمة شاهد ناطق على أنه معلم بارع، وحجة في المعرفة، فهي تتناول كل فروع علوم العرب وحضارتهم، ولهذا فهي من غير شك، أعظم عمل في

ذلك العصر، من حيث عمق الفكرة، ووضوح العرض، وسداد الحكم. ومن الواضح أنه لم يكن مسبقاً في ذلك بأي عمل آخر لأي مؤلف مسلم<sup>(١)</sup>.

والقواعد العامة التي سنفصلها فيما بعد، من مستلزمات المنهج العلمي الأساسية في البحث. فهي شروط لا بد من توافرها في الإنتاج العلمي إذا أريد له الأصالة والسلامة. وقد اتبعها ابن خلدون نفسه في مقدمته، فأعثره الله بفضلها على علم جعله سن بكره، وجهينة خبره، علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته [المقدمة ص ٣٨].  
**أولاً - التزود بالعلم:**

التزود بالعلم قاعدة عامة أساسية للبحث العلمي في أي فرع من فروع المعرفة. والباحث المؤرخ في نظر ابن خلدون محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط [المقدمة: ص ٩].

ويوضح ابن خلدون ما يقصده بالمآخذ والمعارف في موضع آخر من المقدمة، فيقول: فإذا احتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار، في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل خبره [المقدمة ص ٢٨].

وابن خلدون حين يشير إلى ضرورة التزود بالعلم، كعملية إعداد قبل الخوض في موضوع البحث نفسه، يضرب لنا المثل على ذلك بنفسه فهو لم يكتب هذا العمل الخالد إلا بعد أن تزود بالعلم، واطلع على الآثار الفكرية التي خلفها كبار المؤرخين القدامى. ولولا ذلك ما تسنه له إنشاء ما أنشأ من علم جديد، استلهم أفكاره من بين أحضان التاريخ، فجاء كتابه فذاً بما ضمنه من العلوم الغريبة، والحكم المحجوبة القرينة [المقدمة ص ٧].

**ثانياً - معرفة طبائع العمران:**

إن معرفة طبائع العمران تقوم أساساً على الإحاطة الواسعة بشتى العلوم والتعمق فيها. ولقد بلغ من دقة ابن خلدون في تصور مفاهيمه وتحديداتها، أن ميز بين الاجتماع الإنساني الذي يقتضيه التعاون للحصول على ضروريات الحياة، والعمران البشري الذي ينشأ عن الاجتماع الإنساني حين يصبح مجتمعاً دينامياً، تتحكم فيه النظم الاجتماعية في السلوك الجمعي لأفراده، الذين ينخرطون في سلك جماعات متميزة، تكسبهم العناصر المختلفة للتراث الاجتماعي. فالاجتماع الإنساني، في نظر ابن خلدون، اجتماع عددي، أي: مجرد تجمع الأفراد للتعاون. وهذا واضح في قوله: فلا بد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف [المقدمة: ص ١٧٧]. وكذلك يشير ابن خلدون إلى اجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه وإلى اجتماع الفعلة [المقدمة ص ٤٢]. ويقول في وضوح لا لبس فيه: قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم، وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته [المقدمة ص ١٨٧] فالاجتماع صورة سابقة على العمران الذي ينشأ عما يحدث بين المجتمعين من معاملات، ويقوم بينهم من علاقات.

والاجتماع الإنساني الذي يؤدي إلى العمران، هو الاجتماع الذي يعرف اصطلاحاً بالمدينة، أي: هو الاجتماع الذي تظهر فيه الظواهر الاجتماعية، وتنشط فيه النظم الاجتماعية، فتشكل حياة الأفراد في جماعاتهم وتجمعاتهم المختلفة [المقدمة ص ٤١]. ويفسر ذلك مغزى قول ابن خلدون في أكثر من موضع: الاجتماع الإنساني أو البشري الذي هو العمران [المقدمة ص ٦]. ومعنى ذلك أنه ليس كل اجتماع إنساني عمراناً، وإنما الاجتماع الإنساني الذي يكون عمراناً بشرياً، هو الاجتماع الذي هو المدينة أو القرية، أو الحلة.

فالاجتماع الإنساني في شكل جماعة الأسرة لا يكون عمراناً إذا كانت الأسرة مفردة، أي: مستقلة ومنعزلة. ولذلك نجد ابن خلدون يذكر في وضوح هذه العبارات: وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً [المقدمة ص ٦] والكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان [المقدمة ص ٦] وما يعرض في العمران من دولة وملة [المقدمة ص ٧]. ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع [المقدمة ص ٤٠] ومنها العمران، وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات [المقدمة ص ٤١] ومن هذا العمران ما يكون بدوياً، ومنه ما يكون حضرياً [المقدمة

[ص ٤١] يتضح من ذلك أن اصطلاح العمران البشري، أو علم العمران، أدق وأوضح وأصدق على العلم الذي نتصوره ونطلق عليه اصطلاح علم الاجتماع. ومن طبائع العمران، ما يراه ابن خلدون من تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاوله، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول [المقدمة ص ٣٨].

ومن طبائع العمران أيضاً، أن كل حادث من الحوادث، ذاتاً كان أو فعلاً، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله [المقدمة ص ٣٥ و ٣٦] فالمدينة والمجتمع والبادية والمصر والحضر والدولة والفرد، والعائلة والقبيل والقوم والأمة كل أولئك ذوات لها طبائع تخصها من حيث البنية والوظيفة، ومن حيث ما يطرأ عليها من تغير، أما الاجتماع والتعاون والمحاكاة وسياسة الملك، ومعاناة الأحكام، والسكنى والتنافس والتغلب والانفراد بالمجد، والاستظهار على القوم، والكسب والتعلم فكلها أفعال ذات طبائع تخصها في كيفية حدوثها، وأسباب ذلك وعقله، وكيفية تغيرها، وأسباب ذلك وعقله. وهكذا نجد أن ابن خلدون كان سباقاً في صياغة نظريتين هامتين، تعدان في العصر الحاضر من مبتدعات الفكر المعاصر، ألا وهما نظرية البنية والوظيفة في علم الإنسان، ونظرية بنية الفعل الاجتماعي في علم الاجتماع. وما هداه إلى هاتين النظريتين إلا معرفته العميقة بطبائع العمران. ويمكن أن تدبر ذلك في مثال موجز نورد من دفاعه عن إدريس بن إدريس الذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، والذي طعن في نسبه إذ يقول: أما يعلمون أن إدريس الأكبر كان أصهاره في البربر، وأنه منذ دخل المغرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في البدو، وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية، إذ لا مكان لهم يتأوى فيها الريب، وأحوال حرمهم أجمعين بمراى من جاراتهن ومسمع من جيرانهم، لتلاصق الجدران وتطامن البنيان وعدما الفواصل بين المساكن [المقدمة ص ٢٣]. وهذه نظرية أخرى، تعد الآن محدثة، برهن بها ابن خلدون على انعدام بعض الجرائم بين الجماعات الأولية.

ثالثاً - التشكك:

لولا الشك ما كان اليقين، ولولا شك ابن خلدون في الأخبار والروايات، ما كانت مقدمته الخالدة، وهو يعلن ذلك صراحة بقوله: ولا تثقن بما يلقي إليك من ذلك، وتأمل



الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك تمحيصها [المقدمة ص ١٣ و ١٤].  
ذلك لأن الكذب متطرق للأخبار بطبيعته لأسباب عشرة يفصلها ابن خلدون على النحو  
التالي:

- ١- التأسي بالقوم.
  - ٢- ولوع النفس بالغرائب.
  - ٣- سهولة التجاوز على اللسان.
  - ٤- القياس والمحاكاة.
  - ٥- التشيعات للآراء والمذاهب.
  - ٦- الثقة بالناقلين.
  - ٧- الذهول عن المقاصد.
  - ٨- الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.
  - ٩- تقرب الناس لأصحاب التجارة والمرتب.
  - ١٠- الجهل بطبائع الأحوال في العمران [المقدمة ص ١١ و ٢٠ و ٢٩ و ٣٥].
- رابعاً- الموضوعية:

تبين فيما سبق أن من بين أسباب الكذب في الأخبار التي فصلها ابن خلدون،  
التشيعات للآراء والمذاهب، ولذلك نبه إليها، وحذر من الوقوع فيها. وقد التزم هو نفسه  
الحياد التام في ألوان التحليل الاجتماعي المختلفة التي أجراها في مقدمته، فهو في أثناء ذلك  
يضرب الأمثال الواقعية غير متحيز لرأي، ولا متشيع لعقيدة، على الرغم من إسلامه،  
وشدة إيمانه. وهناك زعم باطل واتهام لا يقوم على أساس سليم، بأن ابن خلدون كان  
متحيزاً ضد العرب، ودليل المنادين بهذا الرأي، أنه كتب أربعة فصول قصيرة تحت  
العناوين الآتية على التوالي: في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط [المقدمة ص ١٤٩]،  
وفي أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب [المقدمة ص ١٤٩]، وفي أن  
العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على  
الجملة [المقدمة ص ١٥١]، وفي أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك [المقدمة ص ١٥١].  
ولست بحاجة إلى دفع هذا الاتهام الباطل عن ابن خلدون، ويكفي ما كتبه في ذلك  
الأستاذ ساطع الحصري في كتابه تحت عنوان: كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون<sup>(١)</sup> فقد  
بين مقصده من اصطلاح عرب وهو: القبائل البدوية وحدها<sup>(٢)</sup>.

والذي أريد أن أوضحه في هذا الصدد، كمتخصص في علم الاجتماع أن ابن خلدون عني بظاهرة الصيرورة الاجتماعية، أو التغير الاجتماعي، عناية فائقة، لأن ذلك، كما بينا في بداية بحثنا، كان حجر الزاوية في تحقيقاته التاريخية، فبين تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، وأوضح لكل جيل أحواله وعوائده، وخصص الباب الثاني من المقدمة للعمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال. ولقد أشار في وضوح إلى: أن جيل العرب في الخلقة طبيعي، ووصف حياتهم الاجتماعية المتقشفة، وخصائصها، وسمات الناس فيها، ثم بين أن البدو أقدم من الحضرة، وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها [المقدمة ص ١٢٠ و ١٢١] وقارن بين سمات العرب في بداوتهم، أي: في معيشتهم في البادية، وما يتسم به الناس في هذا الشكل الأولي المبسط من الحياة. ويشبه العرب في بداوتهم البربر في ظعونهم، وزناتة بالمغرب والأكراد والتركماني والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة، وأشد بدواة، لأنهم محتصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها، وعلى الشياه والبقر معها [المقدمة ص ١٢١ و ١٢٢]. وهؤلاء الأقوام البادئة أقرب إلى الخير، ذوو عصبية، وأقدر على التغلب، وأسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، وغايتهم الملك، ويتنافسون في الرئاسة، وبهم أنفة، وفيهم بعد الهمة، وعندهم الصريح من النسب، وهم يتصفون كذلك بالخشونة، والغلظة، ورزقهم في ظلال رماحهم، ولا يتغلبون إلا على البسائط، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، كما أنهم أبعد عن سياسة الملك، الذي لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية، تقلب طباعهم وتبدلها [المقدمة ص ١٢٠]. هذا اللون من التحليل اجتماعي بحت، نجده في كتابات كثير من علماء الاجتماع المحدثين عندما يوضحون ألوان الحياة الاجتماعية، وتسلسلها من جمع الطعام، إلى الصيد والقنص، إلى المرعى، ثم إلى الزراعة، والصناعة وهم إذ يفعلون ذلك، يبينون سمة الناس في كل نمط من أنماط المجتمعات البشرية. وما فعله ابن خلدون قبلهم بقرن ونصف قرن من الزمان، كان محاولة ناجحة لتنميط المجتمعات البشرية، والحياة الاجتماعية في كل منها، تنميطاً قائماً على خصائص بنيتها ووظائفها، والسمات البارزة لأقوامها وشعوبها. وهو يفعل ذلك مستنداً إلى الوقائع، بصرف النظر عن الاعتبارات الدينية أو القومية، فهو يقرر أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية، تظهره وتدافع عنه من يدفعه.... وعصبية الفاطميين، بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم

آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة [المقدمة ص ٣٢٧].

ويقول عمن يموهون الذهب والفضة: وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس ... ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتبذين بأطراف البقاع، ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية، ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة [المقدمة ص ٥٢٦]. هكذا تتجلى موضوعية ابن خلدون، العالم النزيه، والفقيه الذي لم يتشيع لقومه، ولم يتجن على العرب، كما زعم بعض من غابت عنهم مفاهيم علم الاجتماع الأساسية.

#### خامساً- الحيلة عند التعميم:

اعتمد ابن خلدون اعتماداً أساسياً على الاستقراء في تقرير مبادئه التي توصل إليها في العمران البشري. ولما كان الباحث لا يستقرىء جميع الحالات، فإنه لا بد من التحفظ عند التعميم، لأن نتائج الاستقراء الناقص ليست يقينية، وإن كانت قريبة من اليقين. وقد أدرك ابن خلدون ذلك، وكان يحتاط عند صياغة قوانينه، لأنه يعلم تماماً أنها قوانين احتمالية، أو ترجيحية، ولذلك استخدم في كثير من قوانينه كلمات: من الغالب وفي الغالب وغالباً فيقول: فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره [المقدمة ص ١٢٥]. واشترط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب، وإلا فقد يذثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم [المقدمة ص ١٣٧]. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار [المقدمة: ص ١٧٥] وأن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة [المقدمة ص ٣٩٠].

#### قواعد المنهج الخاصة في مقدمة ابن خلدون:

إن القواعد الخاصة التي سنفصلها هي الوسائل العلمية التي يستخدمها الباحث في تحليل الوقائع، أو الحقائق التي يحصل عليها، وتفسيرها، وتحقيقها، بغية الوصول إلى قوانين أو مبادئ أو نظريات، ونعود فنؤكد ما سبق أن ذكرناه بخصوص قواعد المنهج العامة، وهو أن ابن خلدون قد أشار إلى بعض هذه القواعد الخاصة إما صراحة، أو ضمناً في مواضع كثيرة في المقدمة، وإن وظيفتنا إبراز ذلك، والتنقيب عن أمثلة تحقق هذا الغرض، وصياغة ذلك كله في إطار منسق متكامل.

#### أولاً- التأمل والاستقراء:

لقد تأمل ابن خلدون كثيراً في أحوال المجتمعات وتحول الحياة الاجتماعية على مر الزمن، ومكنه ذلك من استقراء قوانين كثيرة، بعضها على جانب كبير من الأهمية. وهو

يقرر أن الباحث المؤرخ محتاج إلى حسن نظر [المقدمة ص ٩] وينصح بتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار [المقدمة ص ٩]، ويضيف إلى ذلك قوله: فلا تثقن بما يلقي إليك من ذلك، وتأمل الأخبار [المقدمة ص ١٣].

ومن أهم استقراءات ابن خلدون: أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه [المقدمة ص ٣٨٤]، وأن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب [المقدمة ص ٣٩٣]. وأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة [المقدمة ص ٤٣٤]. ولقد بلغ ابن خلدون الذروة في التأمل والاستقراء، عندما بين أن لا فرق في الذكاء بين البدوي والحضري، وإنما الفرق في التحصيل. فهو يقول: ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو، كيف نجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله؟ وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية، مما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها، وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الممتلكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك، فإننا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته. إنما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم [المقدمة: ص ٤٣٣ و ٤٣٤].

### ثانياً - التحقيق العقلي:

يتجلى التحقيق العقلي في مقدمة ابن خلدون في مواضع كثيرة، ولعل أبرزها ما جاء في المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها [ص ٩]. وقد استغرق ذلك أربعاً وعشرين صفحة اشتملت على أربعة تحقیقات على جانب كبير من الأهمية، لما فيها من الأصالة في التفكير، والبراعة في التدليل.. وهناك تحقیقات أخرى عقلية تزخر بها المقدمة، ولكننا سنحصر الحديث في هذه التحقيقات الأربعة. أما أول هذه التحقيقات فتحقيق ديمجرافي لما نقله المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، بأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ست مئة ألف أو يزيدون [ص ١٠]. ويقول في نهاية تحقيقه: ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد.... ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه، اللهم إلى المتين والآلاف، فرمما يكون، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد [ص ١١].

وثاني هذه التحقيقات تحقيق حربي لجيوش موسى، إذ يقول ابن خلدون: ثم إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد [ص ١٠]. وتحقيق حربي آخر لغزوات تُبَعّ الآخر وبنية الثلاثة، يقول فيه عن الطريق ما بين جزيرة العرب وبلاد المغرب: والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله، هذا ممتنع في العادة وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة، والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم، وانتهاب البلاد فيما يعمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة، وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم، فلا تقي لهم الرواحل بنقله فلا بد وأن يعمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها، لتكون الميرة منها. وإن قلنا: إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميزة بالمسالة، فذلك أبعد وأشد امتناعاً [المقدمة ص ١٢ و ١٣].

والتحقيق الثالث جغرافي عن وادي الرمل الذي يعجز السالك، فلم يسمع قط ذكره في المغرب على كثرة سالكيه ومن يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل جهة [المقدمة ص ١٣]، وعن إرم ذات العماد، فيجعلون لفظة إرم اسماً للمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين... وهذه المدينة لم يسمع لها خبر... في شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن، وما زال عمرانها متعاقباً، والأدلاء تقص طريقه من كل وجه، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الإخباريين ولا من الأمم [المقدمة ص ١٤].

والتحقيق الرابع تاريخي فيما ينقله المؤرخون: كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه [المقدمة ص ١٥]، وفيما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيعهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق [المقدمة ص ٢١].

وهناك تحقيقات أخرى كثيرة في الكتاب الأول من المقدمة، نخص بالذكر منها تحقيقه لما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الإسكندرية [المقدمة ص ٢٦]، وما نقله أيضاً: في تمثال الزرزور الذي برومة تجتمع إليه الزراير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون [المقدمة ص ٣٦]، وما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات

الأبواب [المقدمة ص ٣٧]، وما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس [ص ٣٧]. وقد كان قانونه في هذه التحقيقات وغيرها مما فصله بقوله: فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه. وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء. فإننا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه [المقدمة ص ١٨٢]. ليس عجيباً أن يقول ابن خلدون ذلك، وهو الذي فصل مراتب الفكر إلى فكر تصوري، وفكر تصديقي، وفكر ظني، وبين مراتب العقل إلى عقل تمييزي، وعقل تجريبي، وعقل نظري. وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة فتفيد علوماً آخر من جنسها في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً آخر كذلك، وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعقله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً، ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية، وهكذا يحق لابن خلدون أن يقول في ثقة: والناقد البصير نظره قسطاس بخته، وميزان ملتسمه [المقدمة ص ٢٣].

### ثالثاً - التحقيق الحسي:

التحقيق الحسي الذي نقصده تحقيق بالمشاهدة. وقد اعتمد ابن خلدون عليها اعتماداً كبيراً في تحقيق كثير من الأخبار والروايات، فهو يرى أن من بين أسباب الخطأ فيها عدم قياس الغائب منها بالشاهد [المقدمة ص ٩]. ويقول في تحقيقه الجغرافي: واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً [المقدمة ص ١١]. ومشاهدات ابن خلدون كثيرة، منها قوله: ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر... ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز... واستدام على ذلك خمس عشرة سنة [المقدمة ص ٩٠].

ويقول في موضع آخر: اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والأحكام وربط الأسباب بالمسببات... وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى وأولاً عالم العناصر المشاهدة [المقدمة ص ٩٥]. ويقول أيضاً: وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعلم وإفاداته [المقدمة ص ٥٣٣]. ويظهر ابن خلدون دهشته من أولئك الذين يقنعون بالاستماع إلى

الغريب من الأخبار، ولا يستريون في تصديقها... فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعينة أنكروه وقالوا: إنما سمعنا ولم نره. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل [المقدمة ص ٥٢٦].

وينقد ابن خلدون زعم المسعودي أن الطبيعة التي هي جلبة للأجسام، لما برأ الله الخلق، كانت في تمام المرة ونهاية القوة والكمال، وكانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة... فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها، ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم [المقدمة ص ١٧٨]. ويقول ابن خلدون في نقده لهذا الزعم: وهذا رأي لا وجه له إلا الحكم كما تراه، وليس له علة ولا سبب برهاني. ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهيكل والديار والمساكن، كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر، بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة [المقدمة ص ١٧٨]. وهكذا يفيد التحقيق الحسي في تمحيص الأخبار والروايات، ويميز الحق من الباطل.

**رابعاً - سؤال الخبراء:**

الثقات من الخبراء في شتى الفنون والعلوم مصدر للحقائق لا غنى عنه، وعلى الرغم من اتساع معرفة ابن خلدون وتعمقه في العلم، فإنه يسأل المتخصصين في ميادين تخصصاتهم حتى يستطيع أن يضع يديه على الحقيقة التي ينشدها، ففي تحقيق رواية الرحالة ابن بطوطة عن مملكة الهند عند سفره وعودته، تلك الرواية التي يمعن الناس في تكذيبها هي وغيرها من الروايات المماثلة، يسأل ابن خلدون وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت، عند لقائه، ويفاوضه في هذا الشأن ليقف منه على الخبر اليقين [المقدمة ص ١٨١].

كذلك يسأل ابن خلدون أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن... الملحمة وعن... الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية. وهو الباجرقي، وكان عارفاً بطرائقهم... [المقدمة ص ٣٤١ و ٣٤٢]. فيجيبه الرجل بما يشفي غلته. ويسأل أيضاً بخصوص التأليف في الكيمياء، الشيخ أبا البركات البليقي كبير مشيخة الأندلس، ويعرض عليه بعض ما كتب فيها، فيدلي إليه ببعض المعلومات النافعة.

**خامساً - المقارنة:**

طريقة المقارنة في تحقيق الظواهر الاجتماعية من أهم الطرق التي يعتمد عليها في البحوث العلمية، وقد استخدمها ابن خلدون في كثير من التفاسير والتحليل التي أجراها في مقدمته. وبلغ من شدة وثوقه بقيمة طريقة المقارنة، أنه عدها من بين القوانين التي يمكن بواسطتها تمحيص الأخبار والروايات، فهو يحض على أن يقاس الغائب من الظواهر الاجتماعية بالشاهد [المقدمة ص ٥٢٥]، وأن يحاط بالحاضر من هذه الظواهر، ويمثل ما

بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، ويعلل ما يتفق منها وما يختلف [المقدمة ص ٩].

ولعل أهم ميدان استخدم فيه طريقة المقارنة، هو ميدان العمران البدوي، والعمران الحضري، فهو الميدان الذي ساعده على وصف الظواهر الاجتماعية، وتحليلها، سواء في شكلها المبسط في العمران البدوي، وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال [المقدمة ص ٢٨]، أو في شكلها المعقد في العمران الحضري، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمداشر [المقدمة ص ٤١].

سادساً - التجربة:

لقد خصص ابن خلدون في مقدمته فصلاً كتب فيه عن العقل التجريبي وكيفية حدوثه وميز فيه بين الحيوان والبشر في اجتماعهم الذي هو المدينة، ثم استطرده يقول: هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد، ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة، وبها تستفاد لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات، وصدقها وكذبها يظهر قريباً في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك. ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له فيها، مقتنصاً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلاً وتركاً، وتحصل في ملابسته الملكة في معاملة أبناء جنسه. [المقدمة ص ٩٧٨ - ٩٧٩].

وليست التجربة هنا التجربة العملية، وإنما هي الخبرة، والممارسة التي يقيم لها ابن خلدون وزناً أي وزن في تعلم الفنون والصنائع بالممارسة والمران [المقدمة ص ٥٦٠ و ٥٦١].

وفي تعلم الآداب في المعاملات، بالطبع من الواقعات على توالي الأيام، تحقيقاً للقول المشهور: من لم يؤدبه والده، أدبه الزمان [المقدمة ص ٩٧٩].

ومن التجارب الطريفة التي قام بها ابن خلدون نفسه، ما ذكره بصدد الرؤيا الكاشفة التي يسمونها حالومة الطبايع التام، التي تستجلب بترديد بعض أسماء أعجمية عند النوم، فيقول: وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه ويسمونها الحالومية. ثم يقول: وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له. وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب، ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له [المقدمة ص ١٠٥]. ويستدرك



ابن خلدون الخبير بأحوال النفس فيقول: والقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء [المقدمة ص ١٠٥].

### سابعاً - النظر في الحوادث في إطارها الزماني:

يرى ابن خلدون أن النظر في الحوادث الماضية، والحكم عليها في ضوء الأوضاع الحاضرة، من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الباحث، فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيراً، فيقع في مهواة من الغلط. فقد نجد التعليم في عصر من العصور مهنة جد محترمة، بينما هو في زمان سالف من جملة الصنائع المعاشية البعيدة عن اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم [المقدمة ص ٢٩] وما يقال عن التعليم يصدق على القضاء، ولكن في معنى عكسي، فالقضاء في الماضي قبل عصر ابن خلدون كان لأهل العصبية من قبل الدولة ومواليها [ص ٣١] أما في عهد ابن خلدون فقد أصبح غير ذلك، ويتضح من ذلك صواب هذه القاعدة التي وردت صراحة في المقدمة، ألا وهي النظر في الحوادث في إطارها الزماني، واليقظة إلى ما يحدثه التغير الاجتماعي من تبدل الأحوال والعوائد.

### خاتمة:

وبعد فهذه محاولة تلخيصية للمنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، الفيلسوف الاجتماعي العربي، والمؤرخ المدقق، الذي أنشأ بين العلوم علماً جديداً، هو علم العمران، الذي أبدى فيه لأحوال الدول والعمران عللاً وأسباباً، فاستوفى حل مسائله، وميز عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاء [المقدمة ص ٦ و ٤٠]. وبذلك استحق أن يخلد اسمه بين الخالدين.

## ابن خلدون كمفكر اجتماعي عربي

للدكتور محمد عبد المنعم نور<sup>(١)</sup>

تقديم:

يرى بعض علماء الاجتماع المحدثين أن تاريخ الفكر الاجتماعي يعتبر بمثابة متحف كبير يلحق بعلم الاجتماع الحديث، كما يلحق تاريخ الطب بفن الطب بعد وثباته المتكررة وتقدمه العظيم في الفكرة والتطبيق، على أنه في كلتا الحالتين تستثنى بعض العبريات الخالدة من مبدأ المتحفية لاعتبارات شتى، ومن أهم هذه الاعتبارات ما يتصف به انتاج هؤلاء العباقرة من راحة وتوفيق يجعل إنتاجهم جديداً وحديثاً في كل عصر وزمان، ويتفق معظم الجهابذة والفحول في ميدان العلم الاجتماعي في عصرنا الحاضر، سواء في الشرق أو الغرب، على شخصية عربية لماعة بلغت شأواً بعيداً في الذكاء وسعة الأفق، ويعترفون لها بالفضل والأسبقية في ميادين شتى من الدراسات العلمية الاجتماعية، وهذه الشخصية هي شخصية أستاذ الأساتذة الذين قادوا موكب المعرفة الصاعد، العلامة العربي عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المولود بمدينة تونس عام ٧٣٢هـ (مايو ١٣٣٢م). يعد ابن خلدون من عمالقة الفكر الاجتماعي في العالم، وينافس بجدارة وأحقية في حمل لقب مؤسس علم الاجتماع نخبة من المفكرين أمثال فيكو الإيطالي وسبنسر الانجليزي وكيثلييه البلجيكي وكونت الفرنسي. وفي رأي كثير من المحايدين أنه أجدر المفكرين الاجتماعيين بحمل لقب منشئ ومؤسس علم الاجتماع، بل وميادين أخرى كثيرة من ميادين المعرفة المنظمة، ويبيني المؤيدون لابن خلدون حكمهم هذا على أسانيد ووثائق عدة لا يمكن دحضها أو إنكارها بسهولة ويسر، وأول هذه الأسانيد أن مفكرنا العربي كان أسبق المنادين بقيام علم الاجتماع من حيث الترتيب الزمني، فقد نادى برأيه في جلاء تام في القرن الرابع عشر الميلادي، بينما كونت الذي ينسب إليه فضل إرساء هذا العلم، بشر برأيه في القرن التاسع عشر الميلادي.

ولا يعابُ على مفكرنا العربي أن آراءه العلمية عاشت فترة طويلة من الزمان تحت أستار النسيان، بالنسبة للغرب على الأقل، وخاصة إذا قيسَت بآراء بعض المفكرين العرب الآخرين أمثال ابن سينا وابن رشد، لأن ابن خلدون قد سجل أفكاره ومنهجه العلمي في

مقدمته التي جاهد في نشرها وإذاعتها، لقد أهدها إلى المكتبات العربية وإلى الأمراء والحكام، بل لقد بلغ به الحماس العلمي أن شرح بعض جوانبها لفتاح خطير كتيمولرنك أثناء حملته على المشرق العربي عام ٨٠٣ هجرية<sup>(١)</sup>.

والأمر الثاني في إنصاف مفكرنا العربي وضوحه في سرد فكرته وثقته في ضرورة إنشاء علم للعمران لم تعهده الثقافة الإنسانية قبله، وقد سلك في هذا الطريق مسلكاً فريداً ما زال مأخوذاً به إلى الآن، إنه يرى أن الدراسة الاجتماعية العلمية يمكن أن تتخذ من المجتمع الكبير معملاً لتجاربها وأبحاثها وهو ما ننادي به الآن، حينما نقول في الرد على المعارضين على افتقاد علم الاجتماع للتجربة بمعناها المفهوم في العلوم الطبيعية، بأن المجتمع يعد أكبر معمل للتجارب البشرية، وقد رأى ابن خلدون قبلنا بحوالي ستة قرون أن التاريخ بأحداثه ووقائع عمرانه واجتماعه أصلح مادة لحام لوضع أسس الاجتماع الإنساني، على شرط أن يسرد سرداً خالياً من الشوائب وأن يحلل بعد ذلك تحليلاً واقعياً يستخدم المنهج العلمي، الذي يربط الأسباب بمسبباتها، والذي ينظر إلى الوقائع العمرانية أو الاجتماعية كما هي لا كما نهوى أن تكون.

وهناك نقطة ثالثة تقال في وصف ابن خلدون كمنشئ لعلم الاجتماع الحديث وهي خاصة بقواعد تصنيف المعرفة الإنسانية وتقسيمها إلى علوم وفنون ودراسات وما شابه ذلك من أنواع التقسيمات، فإن أي ميدان من ميادين المعرفة يتحدد وضعه ويفصل في أمره ويعترف به كعلم أم لا عن طريق سرد مادته للكشف عن سبيل الوصول إليها، فإن كان المنهج الذي تبع في ذلك منهجاً علمياً يعتمد على الطريقة العلمية بما فيها من مشاهدة وملاحظة وجمع بيانات، وإن كان الهدف أثناء الدراسة والبحث هدفاً حقيقياً أي: ينشد الحقيقة وليس هدفاً معيارياً يتأثر بمعايير وقيم تباعد بينه وبين الحياد، فإن هذا الميدان يكتسب صفة العلم. وقد نحا ابن خلدون في بحوثه نحو هذه الغاية وأكثر ما يدلنا على إدراكه لها في أكثر من موضع من مقدمته الشهيرة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر<sup>(٢)</sup>.

١ - وما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة إبراز شجاعة ابن خلدون واعتداده بعلمه وقوة شخصيته أن التعريف يحدثنا (ص ٣٣٧ و ٣٨٩) أن ابن خلدون مكث فترة من الزمن عند تيمورلنك كان خلالها يتردد عليه، وأن تيمورلنك كان لا يلقاه إلا واقفاً ولا يجلس حتى يفسح له عن يمينه، وقد ألف له كتاباً خلال هذه المدة وعندما أراد تيمورلنك مبارحة سوريا أذن له في العودة لمصر بعد أن تبادل الهدايا.

٢ - لعل من المفيد في مجال الكلام عن مقدمة ابن خلدون أن نذكر أن ابن خلدون قد انتهى من كتابتها عام ٧٧٩ هـ واستغرقت كتابتها خمسة أشهر وفي ذلك يقول ابن خلدون: فأقمت بها - قلعة ابن سلامة - أربعة أعوام

والمسألة الرابعة في إنصاف ابن خلدون فهمه لرسالة العلم، وأن غاية العلم هي التنبؤ، فقد كان في ذهنه أن موضوع التاريخ يصلح لدراسة الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من ثقافات، لذلك كان لزاماً أن نعرض محتوياته على مقياس العقل والبرهان ومقارنة الوقائع التاريخية بأشباهاها ذلك أنه في نظره أن الظروف المتشابهة ينتج عنها وقائع متشابهة، الأمر الذي يجعلنا نستطيع بمعرفة الحاضر معرفة صحيحة وأن نعرف ما لم يتكامل لنا معرفته من الحوادث الماضية، بل نستطيع أن نتنبأ على ضوء الحاضر بما سيقع في المستقبل من أحداث. والأمر الخامس في وصف ابن خلدون كعالم اجتماعي، أنه كان شديد الثقة في مبدأ جبرية الظواهر الاجتماعية، فقد كان في نظره أن الحوادث الاجتماعية ليست نتيجة الصدفة البحتة أو أنها خاضعة لهؤلاء الأفراد وإرادتهم ولكنها نتيجة قواعد وقوانين ثابتة وأن من الواجب على المهتمين بأمور المجتمع أن يكشفوا عن هذه القوانين. وهذا أساس من أسس علم الاجتماع الحديث.

وأخيراً فإن صفات ابن خلدون ومسلكه أثناء بحثه خير دليل على نزعة العلمية التي من أهم جوانبها الحيدة والتواضع والثقة بالنفس، ويتضح ذلك من عدة أمور سيأتي ذكرها فيما بعد، أما عن تواضعه فيكفي لإثبات ذلك قوله في المقدمة: فإن كنت قد استوفيت مسأله، ميزت عن سائر الصنائع أمثاله وأنحاء فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شيء في إحصائه وأشبهت بغيره مسأله فللناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق.

### شخصية الأستاذ وعصره:

كثيراً ما توضع في أسئلة الامتحانات التي يتقدم إليها طلاب الدراسات الاجتماعية فقرة أو فقرات تتطلب إلقاء الضوء على شخصية المفكر الاجتماعي وإيضاح الصلة بين إنتاجه الفكري أو العلمي وبين العصر الذي نشأ فيه على اعتبار أن هذا الإنتاج منبثق بل ومتأثر إلى حد كبير بالوسط الذي يحيط به.

ولقد كان هذا الأمر واضحاً كل الوضوح مع ابن خلدون، فقد كان ذهنه المتوقد وتفكيره الناضج، واستعداده العلمي خير دافع له على التعمق في الظواهر الاجتماعية وعلى البحث السليم الذي يرمي إلى الكشف عن القوانين العامة التي تخضع لها هذه الظواهر ما جعل مقدمته نبراساً يهتدي بهديه المتعطشون للمعرفة في أحلك عهود البشرية وفي أكثرها نوراً وضياءً على حد سواء.

متخلياً عن الشواغل كلها وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة.

وإذا كنا نعرف الشخصية من الزاوية الاجتماعية النفسية بأنها نتيجة تراكم تفاعلات الإنسان مع الوسط الذي يعيش فيه فقد كانت نشأة ابن خلدون ونشاطه وكفاحه سبيلاً إلى اتساع دائرة هذه التفاعلات وإلى تهئية الظروف لنضوج شخصيته واتزانها، كان ابن خلدون عربي الأصل والنشأة، ويرجع في نسبه إلى عرب حضرموت الذين هاجروا إلى المغرب العربي وإلى الأندلس العربية، وقد أورد العلامة النسابة ابن حزم الأندلسي بمناسبة الكلام عن نسب بني خلدون الأشيبيلين ما يأتي: وكان من أكابرهم كريب وأبو عثمان خالد، القائمان بأشبيلية بالأندلس وهما ابنا عثمان بن بكر بن خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق<sup>(١)</sup>. ولعل في ذكر هذه النقطة ما يكفيننا مؤونة البحث أو الجدل في موضوع تعرض له بعض الكتاب عن نسب ابن خلدون وعروبته.

نشأ ابن خلدون في عصر اتصف بالانحلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ففي أيامه بدأ ظل الدولة العربية الإسلامية يتقلص عن الأندلس، وكانت الثورات والفتن تعم شمال أفريقيا نتيجة للتقسيمات الإقليمية وتفشي العصبية النسبية. وفي المشرق كان تيمورلنك يجتاح الشام بحافله وجيوشه ويهدد مرة أخرى العرب في وطنهم الكبير بالإضافة إلى ما تعرض له عرب المشرق من طغيان الأعاجم وارتقائهم إلى مناصب الملك والأمارة يسوسون بلاد العرب ما جعل العربي يحق غريباً في بلاده.

أما الثقافة العربية فقد تأثرت بفساد الحكم وأصابها من التدهور ما أصاب جوانب المجتمع العربي الكبير، ولذلك شغل ابن خلدون في مقدمته الخالدة بدراسات تفيد في إصلاح أحوال المجتمع وتمكن الحاكم من حسن تدبير الأمور، ولهذا السبب أيضاً رأى ابن خلدون أن يهدي إنتاجه وما وصل إليه إلى السلطان أبي العباس سلطان تونس، وقد فعل مثل ذلك فيما بعد ماكيفيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) في كتابه الأمير الذي أهده إلى الأمير لورنزو دي مديسي، وإن كان عمل ابن خلدون أوسع مدى وأكثر واقعية من خلفه الذي جاء بعده بقرنين من الزمان.

في مثل هذا العهد المليء بالأحداث المؤدي إلى إرهاف السمع والإحساسات الأخرى بدأ ابن خلدون حياته العملية في التاسعة عشرة من عمره وتقلد وظيفة في ديوان الكتابة ثم بدأ جولاته في المغرب وارتقى في مناصب السياسة وكانت هي أهم جوانب الحياة الاجتماعية، بل كانت الدولة هي المجتمع، يرقى المجتمع حين ترقى ويهبط إلى الدرك الأسفل حينما يعتورها الوهن أو الفساد، وقد تهيأ لابن خلدون عن طريق اتصالاته

ورحلاته أثناء توليه مناصبه السياسية في المغرب فرصة المشاهدة والملاحظة عن كتب لوقائع العمران المختلفة، لقد ازداد علماً أثناء حياته العملية التي وصل فيها إلى رئاسة ديوان الرسائل وديوان الحجابة، أي: رئاسة الوزارة كما أتيحت له الفرصة لزيارة الأندلس والقيام بسفارة من لدى سلطان غرناطة إلى ملك قشتالة فرأى العرب يأفل نجمهم هناك ورأى مجتمع الأسبان الصاعد وقتذاك ثم ذهب عنه كل ذلك وذاق مرارة السجن، وأخيراً لجأ إلى الراحة واعتزال الوظيفة ليسجل ملاحظاته ومشاهداته في المقدمة. والقاهرة ملجأ الأحرار التي تسعى جاهدة لإعزاز العرب وحريتهم والتي أسهمت بقسط كبير في تحرير الجزائر، التي كانت مسرحاً لجانب كبير من نشاط ابن خلدون، كانت هذه القاهرة هي بعينها الملجأ الأخير لابن خلدون الذي لجأ إليه اتقاء عواصف السياسة، والرحاب الذي دخله ليوفر له البيئة العلمية الصحيحة التي طالما تمنّاها وسعى إليها. وفي جامعة الأزهر أخذ الأستاذ العلامة ابن خلدون يبشر بنظرياته ويزرع بذور علمه الواسع وتولى فيها أيضاً منصب قاضي القضاة، ومنها رحل إلى الشام والحجاز وكانت نهاية مطافة في القاهرة حيث مات ودفن بمقبرة الصوفية إلا أن قبره ما زال غير معروف لنا ولا شك أن العثور عليه يهيئ فرصة لتخليد ذكرى أعظم مفكر اجتماعي أنجبته الأمة العربية.

لقد كان ابن خلدون عربياً فذاً في عروبه، تأثر في إخلاص نادر بأحوال العرب وانقسامهم سواء في المشرق أو المغرب، وكان حزنه واضحاً على أقول نجم العرب في الأندلس، وفي كل ما كتب هذا العربي الخالد كانت العروبة نبراسه وقبلة، فمن أجل أجداد العرب ناضل وكافح وسجل وكتب، إنه في تنقيبه عن تراث العرب وتاريخهم لم ينس هدفاً قد يعاب على منهجه العلمي، ولكن يلتمس له العذر أنه كعربي مخلص قد انحرف علمياً بسبب حماسه لوحدة العرب ورفعة شأنهم في عهد تكالبت عليهم الحن، لقد كان هذا الهدف هو إعادة ثقة العرب في أنفسهم لأنهم خير أمة أخرجت للناس.

### ابن خلدون وغيره من المفكرين:

لم تنتشر مقدمة ابن خلدون بعد وفاته ولم تصادف من الذيوع ما هي أهل له، وقد كان ابن خلدون في هذه المقدمة عملاقاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وكان سابقاً عصره في تفكيره وأبحاثه ونظراته الكلية للأمور الاجتماعية، بل لقد كان سابقاً للعصور التي تلتها وما زال إلى الآن يبهر أنظار المعجبين بوسع علمه، ولذلك لا نجد فيمن جاؤوا بعده من يدانيه في مدرسته الاجتماعية باعتبارها من المدارس التي لا تعزو الظواهر

الاجتماعية إلى سبب واحد فقط مهما كان هذا السبب وجيهاً بل نرده إلى تشابك الأسباب وتفاعلها.

ولكي نفهم دور ابن خلدون من هذه الناحية في الدراسات الاجتماعية نحتاج إلى أن نوضح مكانه وسعة أفقه وشمول نظرياته بالنسبة لبعض المفكرين الاجتماعيين الذين أتوا بعده، والذين تعرضوا للظواهر الاجتماعية يفسرونها غالباً من زاوية واحدة حتى لقد أطلق على معظمهم اسم: المدرسة الوحيدة في تفسير السلوك الإنساني. ولقد انتشرت هذه الأفكار الوحيدة في المدارس الاجتماعية المختلفة إلى وقت قريب فكانت هناك المدارس الجغرافية والنفسية والعضوية وغيرها، وفيما يلي عرض لأهم أسس المدارس الاجتماعية مع إشارة موجزة لبعض آراء مفكرنا العربي التي أوردها في المقدمة قبل قيام هذه المدارس بعدة قرون.

### المدرسة التاريخية الاجتماعية (فلسفة التاريخ):

وقد اشتهرت بحوثها باسم فلسفة التاريخ ويرى أصحاب هذه المدرسة أن الظواهر الاجتماعية يمكن تفسيرها واستنباط نظرياتها من حقائق التاريخ وكان على رأسها جون بودان وفيكو (١٦٨٨ - ١٧٤٤) لبحوث الأخير صدى كبير في الدراسات الاجتماعية حتى لقد عد من بين مؤسسي علم الاجتماع. ثم جاء بعد ذلك مفكرون آخرون من نفس المدرسة مثال هردر وكانت وفولتير وكوندرايه.

ويرقى ابن خلدون عن مصاف هؤلاء جميعاً لاعتبارات عدة، منها: أن بحوثه تتناول جميع مظاهر الحياة الاجتماعية سواءً في ذلك جانب التطور التاريخي أو جانب المشاهدة للمجتمعات المعاصرة، في حين أن أصحاب المدرسة التاريخية الاجتماعية لا يحفلون إلا بناحية التطور، يضاف إلى ذلك أن ابن خلدون قد اعتمد إلى حد كبير على طريقة الملاحظة وتحليل الوقائع العمرانية بينما نجد أن فيكو ومن جاء بعده قد تأثروا بأفكارهم الفلسفية وجاهدوا في آرائهم لإخضاع سير الحوادث التاريخية لقواعد التطور التي وضعوها.

### المدرسة الجغرافية:

يتساءل بعض علماء الاجتماع عن السبب الذي من أجله تخلفت الدراسات الاجتماعية بالرغم من ذبوع آراء كولدسيه وهردر وأمثالهما. ولعل ما حدث في أوروبا بعد حروب نابليون كان له تأثير كبير في تعطيل الاتجاه نحو هذا الهدف، ولكن الأهم أن نكسته أصابت التفكير الاجتماعي ولم تمكنه من ملاحقة التقدم الذي وصل إليه ابن خلدون في مقدمته وكأن هذه النكسة في امتداد طريقة البحث والتفكير الجزئي في الظواهر

الاجتماعية، والاتجاه نحو ملاحظة جانب واحد فقط من الحقيقة، ومثل هذا التفكير الوحيد لم تختص به الدراسات الاجتماعية وحدها بل أصاب الدراسات العلمية كلها بوجه عام، ولكنه في حالة الدراسات الاجتماعية كان أكثر وضوحاً لتشابك المادة التي تتوفر العلوم الاجتماعية على دراستها، على أن الشيء المستغرب أن يكون ابن خلدون سباقاً ومتميزاً عن كل هؤلاء الفحول الذين أتوا بعده ولو كانوا قد اطلعوا على المقدمة لكان علم الاجتماع الآن قد وصل في تقدمه إلى مدى أبعد ما وصل إليه في هذا العصر.

وتعتبر المدرسة الجغرافية وعلى رأسها هنري توماس بكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) في مقدمة المدارس الوحيدة التي جات بعد المدرسة التاريخية الاجتماعية والتي أخذت تنظر إلى الإنسان على أنه طفل البيئة الأرضية وعلى هذا الأساس فكل شيء يفعله الإنسان وكل ظواهر اجتماعية يخضع لها يمكن أن تعزى إلى البيئة الطبيعية، ولا يمكن أن ننكر أثر البيئة الطبيعية وصلة الإنسان بها، ولكن المنادة بأن الظروف الطبيعية هي التي تشكل المجتمعات والعادات كما يقول بكل مثلاً، فأمرٌ لا يمكن قبوله لمخافاته للواقع ولما يمكن أن تسفر عنه المشاهدة للمجتمعات فضلاً عن أن تأثير البيئة الطبيعية قد أخذ يقل نتيجة لتفوق الإنسان وسيطرته على ما يحيط به.

وقد تعرض ابن خلدون للبحث في تأثير الأقاليم الطبيعية المختلفة على السلوك البشري وغالاً في ذلك بعض المغالاة ذاكراً أمثلاً كثيرة مستخلصاً منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكاناً، ولكنه لم يناد بأن هذا التفسير الجغرافي هو الزاوية الوحيدة التي يمكن عن طريقها أن ننظر إلى المجتمع، بل أدخل في حسابه أموراً أخرى كالأديان والأصول البشرية، والعوامل النفسية، والظروف الاقتصادية وغيرها. وفي رأي ابن خلدون أن المجتمع يتأثر بطبقتين من الظواهر.

الأولى: هي الظواهر الطبيعية، والمجتمع في نظر ابن خلدون يتفاعل معها وتتفاعل معه، فتؤثر فيه ويتأثر بها وكيف نفسه تبعاً لها.

الثانية: هي الظواهر الاجتماعية، وهي التي تنبثق من الاجتماع ويخلقها المجتمع، وقد كان مفكرنا العربي سباقاً إلى ملاحظة تدل على الذكاء والألمعية، إذ فطن إلى أن هذه الظواهر متداخلة ومتشابكة، وهي لا تتأثر بالظواهر الطبيعية فحسب بل تتأثر وتتفاعل مع بعضها أيضاً مما يجعله سابقاً إلى هذه النظرة التفاعلية لمدرسة اميل دوركايم التي تدعي لنفسها فضل الالتفات لمثل هذا التفاعل بين الظواهر الاجتماعية المختلفة.

المدرسة الاقتصادية:



وتتصل بالمدرسة الجغرافية السابق الإشارة إليها اتصالاً وثيقاً، وتقوم هذه المدرسة الاقتصادية على التفسير المادي للتاريخ والشرح الاقتصادي للظواهر الاجتماعية، ويمكننا أن نطلق عليها أيضاً: المدرسة الحتمية الاقتصادية، إنها المدرسة التي تنسب المجتمع وظواهره كلها إلى العوامل الاقتصادية من إنتاج وتوزيع ومادة خام، ذلك أنه في رأي أصحاب هذه المدرسة وعلى رأسهم كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) أن وسائل الإنتاج وتوزيع الثروات وغيرها من الأمور الاقتصادية يتعدى أثرها إلى المجتمع وهي التي تشغل معاييرها من سلوك جمعي وعرف وقانون ونظام وقيم بل وعقائد أيضاً.

ويعتبر ابن خلدون رائداً لأصحاب المدرسة الاقتصادية ويمتاز عنهم بأنه لم ينظر إلى الحقيقة الاجتماعية من هذه الزاوية وحدها، ويذهب ابن خلدون في الربط بين العوامل الاقتصادية مذاهب شتى تدل على إدراكه لأهميتها ولكنه لم يغال في هذه الأهمية كمغالة أصحاب المدرسة الاقتصادية الوحيدة الذين جاؤوا بعده بعدة قرون. يقول ابن خلدون في تفسيره لبعض ظواهر المجتمع:

إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف غلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله.

ويقوم ابن خلدون بشرح هذه القضية والتدليل على صحتها في فصول عدة كما يتعرض لأهمية العوامل في تطور الدول وازدهار الحضارة ويقوم بكل ذلك بأسلوب واضح. ويهمننا في هذا المقام ونحن بصدد الإشارة إلى التفكير الجزئي في الأمور الاجتماعية من الزاوية الاقتصادية أن نقرر أن ابن خلدون لم يكن سابقاً لهذه المدرسة من هذه الناحية فقط بل كان سابقاً لرعيمها ماركس من ناحية أخرى، وهي الخاصة بالتطور الاجتماعي الحادث نتيجة لوجود طبقتين مختلفتين.

#### المدرسة النفسية:

يرى أصحاب هذه المدرسة أن علم النفس الفردي يصلح أن يكون أساساً لعلم الاجتماع وبمعنى آخر أن الاجتماع الإنساني وما يتصل به من فروق ثقافية واقتصادية واجتماعية يمكن أن يعزى إلى العوامل والاعتبارات النفسية التي عمادها تقليد يسري في خط سير معين يكون فيه المنقول عنه أو المقلد مرموقاً بينما يكون المقلدون في مستوى يشعرهم بجدوى تقليد من هم أكثر قوة وسمواً.

وقد سبق ابن خلدون العالم الفرنسي تارد (١٨٤٣ - ١٩٠٤) في النظر إلى الاعتبارات النفسية في أبحاثه وقوانينه عن الظواهر الاجتماعية، أوضح ابن خلدون دور

التقليد والمحاكاة في حياة الناس فيقول في المقدمة: أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وخلقه وسائر أحواله وعوائده.

ثم يرتفع ابن خلدون إلى قمة عظمته فيرى في قانون الاقتداء أو المحاكاة ما يهيئ للباحث إمكانيات التنبؤ بالمستقبل على ضوء الحاضر، فما دام أن القانون ينص على هوان المقلد بالنسبة لسمو من كان في محل القدوة يقلده الآخرون طواعية واختياراً، لذلك فإن قيام البقية الباقية من عرب الأندلس بتقليد الأسبان في شاراتهم ومركباتهم وأعيادهم ما يجعلنا نستشف ونتوقع غلبة الأسبان وسقوط الأندلس، وفي ذلك يقول ابن خلدون: إنك تجدهم — أي: أهل الأندلس — يتشبهون بالجلالة — سكان إسبانيا — في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم في رسم التماثيل على الجدران، ولقد يستشعر الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء.

#### المدرسة الخلدونية:

يتضح لنا من الأمثلة السابقة لبعض المدارس التي جاءت بعد ابن خلدون كيف أنها عجزت عن الوصول في التفكير إلى المستوى الذي وصل إليه ابن خلدون من حيث الشمول واتساع النظرة، ولم تكن المدارس السابقة هي كالمدارس ذات الطابع الجزئي في شرح الظواهر الاجتماعية فقد كانت هناك المدارس العنصرية وعلى رأسها جبينو، والمثالية وعلى رأسها فشته، والفردية وعلى رأسها نيتشه وغيرها.

أما المدرسة الخلدونية فقد بذت هذه المدارس جميعاً كما يتضح من ميدان البحث الخلدوني وهو وقائع العمران كما يراها ابن خلدون، يعرض ابن خلدون في مقدمته أن علمه الجديد وهو الظواهر الاجتماعية وأطلق عليها: واقعات العمران البشري أو أحوال الاجتماع الإنساني. وإن كان لم يتعرض لها بالشرح على النحو المألوف حديثاً إلا أنه أعطانا من الشرح ما يكفي لتأكيد معرفته الوافية بها وبخصائصها فيقول: إنه لما كانت طبيعة التاريخ — والتاريخ معمل تجارب العلم الجديد في نظر ابن خلدون — أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر، بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال، ثم يقول أيضاً: ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع.

والظواهر الاجتماعية في نظر علماء الاجتماع المحدثين كما في نظر ابن خلدون أيضاً، لها طابع الشمول فتكاد تشمل كل أنواع التصرفات الإنسانية ويبدو أن هذه الفكرة الواضحة كانت مكتملة عند ابن خلدون فأشار إليها في أكثر من موضع كما أنه أبدى إدراكه لاتساع نطاقها كأوضح نماذج من ظواهر الاجتماع الإنساني، وأشار إلى تداخلها وتشابكها وخاصة مع الظواهر الطبيعية، وكان في هذه الإشارة سابقاً إلى اكتشاف ما نسميه بعلم البنية الاجتماعية (المورفولوجيا الاجتماعية) وهو العلم الذي نسب بعد ذلك كما ذكرنا آنفاً إلى العلامة الفرنسي اميل دوركايم في مستهل القرن العشرين.

ويدل منهج ابن خلدون في دراسة الظواهر الاجتماعية على رسوخ قدمه في البحث العلمي في أحدث صورة فهو يستخدم طريقة الملاحظة الشخصية لهذه الظواهر بالإضافة التي تعقبها في بطون التاريخ، لأن واقعات العمران (أو الظواهر الاجتماعية) في نظره ثابتة وأن دراستها على هذا النحو الفريد يمكن الباحث من الكشف عما يحكمها من قوانين. وليس هناك أدنى شك في سلامة هذه الطريقة ومطابقتها لما يجري عليه البحث الآن في ميادين شتى من ميادين المعرفة المنظمة التي نطلق عليها اسم البحوث العلمية الاجتماعية.

وأنه لمن المؤسف حقاً أن منهج ابن خلدون الشامل في دراسة الظواهر الاجتماعية لم ينتشر بعد كما سبق أن أشرت إلى أن جاء مفكر آخر في القرن الثامن عشر الميلادي هو مونتسكيو الذي وسع فكره القانون الطبيعي بحيث يتضمن الوقائع الاجتماعية، ويعتبر ما قام به ابن خلدون ومونتسكيو من بعده بمثابة وضع وتدعيم لدعائم علم اجتماع واضح المعاني، فلما جاء أوجست كونت في القرن التاسع عشر أتم الصرح وأوضح بجلاء أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين توازي في حتميتها وصحتها قوانين سقوط الحجر.

### ابن خلدون والاتجاهات العلمية الحديثة

#### المقدمة والعلم الاجتماعي:

في هذا الجزء من البحث سنحاول أن نلمس في إيجاز بعض الاتجاهات العلمية الحديثة في مقدمة ابن خلدون مبتدئين بجانب هام في المقدمة وهو المتصل بإطارها العام وما تناولته من مواضيع متشعبة كانت مثار جدل واعتراضات، ثم بعد ذلك سنتعرض في إيجاز أيضاً لبعض جوانب نتائج دراسات ابن خلدون، توضح القمة العلمية التي ارتقى إليها.

يوجه إلى مقدمته اعتراضات عديدة من أهمها الخلط الموجود فيها، وتداخل ميدان دراستها مع ميادين أخرى وخاصة التاريخ. ويستند المعارضون إلى أسانيد شتى أهمها أن علم الاجتماع يعنى فقط باكتشاف الحقائق التي تتصل بالناس والعلاقات التي تنشأ بينهم، وأن علماء الاجتماع ليسوا، كما فعل ابن خلدون في مواضع كثيرة من المقدمة، دعاة

إصلاح أو رجال وعظ وإرشاد، وإنما هم أشخاص توفروا للكشف عن ناحية من نواحي المعرفة المنظمة ميدانها العلاقات الاجتماعية، وكل ما يعينهم أن يجمعوا أكثر ما يمكن من الحقائق والمعلومات التي لها جدوى وقيمة عن هذه العلاقات.

حقيقة أن أي علم من العلوم ما هو إلا طريق إلى المعرفة يستند إلى الأدلة والشواهد والبراهين التي يمكن إثباتها بالطرق والإمكانات البشرية، وحقيقة أن العالم الاجتماعي رجلٌ يبحث عن الحقيقة في نسيج العلاقات الاجتماعية، ولكن ما زلنا في أيامنا هذه نرى فريقاً من علماء الاجتماع ينادون بأن التوجيه والنصح والإرشاد إلى التغيرات والأحداث المرغوبة أمر يدخل ضمن نطاق علم الاجتماع. ويوضح العلامة بومان وجهة النظر هذه بقوله: إنه من الصعب أن نضع حداً فاصلاً بين العناية بالناحية العلمية في دراسة المجتمع وبين الاهتمام بأوجه الإصلاح الاجتماعي والرعاية الاجتماعية، ويرجع ذلك لأسباب شتى أهمها الصلة الوثيقة بينهما.

وعلى هذا الأساس ليس من الأمور المستغربة أن نجد كثيراً من الكتاب والمفكرين أمثال ابن خلدون، يدخلون في ميدان الدراسة الاجتماعية مدفوعين بالإصلاح الديني أو الاجتماعي ثم يتأكد لهم بعد الانغماس في الدراسة، أن العواطف والرغبات وحدها لا تصل بهم إلى الهدف المنشود، وعليه فلا بد أن يتجهوا إلى الدراسة العلمية الواقعية لأنها كفيلة بدعم هذه النزعة بدعائم ملموسة وبحجج وبراهين من المعرفة.

ومن الاعتراضات الأخرى التي وجهت إلى ابن خلدون أنه مزج بين الاجتماع والعلوم الأخرى وخاصة التاريخ، بينما يشترط لقيام العلم أن يكون مستقلاً، والواقع أن هذه النقطة كسابقتها وكنقطة أخرى كثيرة تغفل أموراً عدة منها الثقافة التي كانت سائدة أيام ابن خلدون والضغوط المختلفة التي كان هذا المفكر العربي معرضاً لها. على أنه إنصافاً لمفكرنا العربي من هذه الوجهة نذكر أنه قد قامت في السنوات الأخيرة فكرة إدماج علم الاجتماع وعلم الأجناس البشرية على اعتبار أنها كلها علوم تتصل بالعلاقات الإنسانية، وأنه من صالح الدراسة وتنسيق الجهود أن يحدث مثل هذا الضم، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن بقاء ميادين المعرفة منفصلاً بعضها عن البعض الآخر سيقف عقبة في سبيل تقدم العلوم، فقد سار كل علم بخطوات واسعة نحو التقدم بالرغم من الفصل والتخصص، وبالرغم من أن ميادينها وثيقة الصلة بعضها ببعض.

**طريقة التحليل البنائي الوظيفي عند ابن خلدون:**

تعد طريقة التحليل البنائي الوظيفي من الأمور المستحدثة في الدراسات الاجتماعية ومن روادها في القرن العشرين العلامة الانجليزي راد كليف براون وتحاول هذه الطريقة النظر

إلى الظاهرة الاجتماعية في ضوء ما تحدثه من وظائف في المجتمع وبواسطتها تدرس الظواهر المختلفة والقيم والمعايير والنظم الاجتماعية كالأسرة والدين والتربية السياسية وغيرها. فيدرس الدين مثلاً من حيث وظائفه الاجتماعية التي من أهمها:

١- الضبط الاجتماعي أو الرقابة على سلوك الناس ويعرف كثير من علماء الاجتماع المعاصرون بأن الدين من هذه الوجهة يعتبر أكبر وازع لأنه يراقب الناس في السر والجهر ويمتد أثر رقابته عليهم إلى عالم الغيب بينما رقابة القانون الوضعي تنتهي في نظر هؤلاء الناس بانتهاء عالم الواقع.

٢- التآلف الاجتماعي (أو تآلف الكلمة كما يقول ابن خلدون) عن طريق توحيد وجهة نظر الجماعة وإيجاد قيم ومعايير وأهداف مشتركة بينهم. وأنه لمن المدهش حقاً أن نجد أن ابن خلدون فطن إلى هذه الطريقة منذ أكثر من ستة قرون واستخدمها في وضوح في دراسة ظواهر عدة من بينها ظاهرة الدين فيقول في الفصل السابع والعشرين من المقدمة تحت عنوان: العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله: لأن العرب وهم سكان البادية أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم فيسهل انقيادهم واجتماعهم.. فإذا كان فيهم النبي أو الولي يبعثهم على القيام بأمر الله ويؤلف كلمتهم... والعرب أسرع قبولاً للحق والهدي لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش... فإن كل مولود يولد على الفطرة.

ابن خلدون والأهمية الوظيفية للمركز الاجتماعي:

اهتم كثير من المفكرين بالتصنيفات الموجودة في المجتمعات المختلفة وخاصة من ناحية التدرج الاجتماعي للمراكز والوظائف، فإن هذه المراكز وتلك الوظائف في أي مجتمع ليست على مستوى واحد من الأهمية في نظر الجماعة، وغالباً ما تتضمن هذه المراكز والوظائف قياساً قيمياً، بحيث يكون المركز تعبيراً عن التقدير الجمعي لشاغله، ولذلك نجد عادة أن المراكز التي لها احترام أكبر وجزاء أسمى هي التي تهتم الجماعة لاعتبارات شتى من بينها صلة المركز بما يسديه شاغله من خدمات للمجتمع، أو لأن هذا المركز يتطلب مواهب معينة أو تدريباً أشق وأطول من جانب الشخص الذي يشغله.

وقد فطن ابن خلدون لهذا المبدأ الذي يعتبر حديثاً حتى في عصرنا الحاضر فذكر تحت عنوان: القائمون بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة ونحو ذلك لا

تعظم ثروتهم: أن الكسب قيمة الأعمال، وكلما كانت الأعمال ضرورية في العمران كانت قيمتها أعظم، والقائمون بأعمال التدريس وما شابهها في نظره لا تضطر إليهم العامة اضطراباً، وهم بشرف مركزهم أعزة على الخلق، الأمر الذي لا يجعل جزاءهم المادي كبيراً بالنسبة للمجهود الذي يقومون به.

وفي مكان آخر من المقدمة أشار ابن خلدون لمبدأ سديد في تفسير التفاوت في الجزاء والعوض بين الوظائف والمراكز الاجتماعية المبينة مدخلا في حسابه الجاه والدعة، ويعتبرهما ابن خلدون من ضمن الجزاء الذي يناله شاغل المركز ومن الممكن ترجمتها إلى مقاييس يدخلها شاغل المركز في حسابه حينما يختاره. ونحن نلاحظ مثل هذا الأمر في مجتمعاتنا الحالية حيث يفضل المركز أحيانا لما له من نفوذ وما يضيفه على شاغله من جاه وراحة، ويعلل ابن خلدون هذا الأمر بطريقة فريدة فصاحب الجاه في نظره مخدوم يستعمل الناس بلاعوض في الأعمال الكثيرة في حين أن فاقد الجاه ولو كان صاحب مال فلا يسار له إلا بمقدار ماله.

### ابن خلدون والضبط الاجتماعي:

يعرف الضبط الاجتماعي أو الرقابة الاجتماعية كما يطلق عليها أحيانا بأنها كافة الجهود والإجراءات التي يتخذها المجتمع أو جزء من هذا المجتمع (كالدولة أو الأسرة أو القيم الدينية) لحمل الأفراد على السير على المستوى العادي المألوف المصطلح عليه في الجماعة دون انحراف أو اعتداء، ولقد فطن ابن خلدون في المقدمة لأهمية الضبط الاجتماعي وأنه أساس حياة الجماعة وأمنها واستمرارها، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضوع في مقدمته الخالدة.

ويبدو من هذه العبارات إدراك ابن خلدون لأنواع الضبط المختلفة وفق التعينات المستحدثة كالضبط الخارجي الذي يأتي عن طريق القانون، والضبط الداخلي الذي يأتي عن طريق الدين، والضبط الاختياري الذي عن طريق الضمير. وكذلك إدراكه للضبط الوقائي فإن إشارته إلى الأعمال والمهن في معرض الكلام عن التطرف كما نسميه الآن يدل على ما للعمل من أثر في الوقاية والعلاج من الانحراف عن مصطلحات الجماعة وأساليبها العادية.

وعلاوة على ما تقدم فإنه حينما تكلم عن الاجتماع البشري قال بأن أساس هذا الاجتماع مستمد من ضعف الإنسان واستحالة معيشته منفردا، غير أن اجتماع البشر يستلزم وجود سلطة هي عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ويحول دون اعتداء المعتدين. وقد تعرض ابن خلدون للعوامل المختلفة التي تؤثر في حمل الأفراد

على الانسجام مع قواعد الجماعة دون انحراف بالإضافة إلى تأثير القوة القاهرة التي تمارسها السلطة، وكأنني به يتحدث عن الرقابة الداخلية في صورة الدين وتأثيره على النفوس.

ويرى ابن خلدون أن تصرفات الناس وسلوكهم تتباين بتباين البيئة الجغرافية ولما للتفاعل بين ظواهر الكون المختلفة من طبيعية واجتماعية من أثر في تشكيل معاييرهم وعاداتهم ومن آرائه الطريفة في هذا الموضوع أن سكان الأقاليم المتوسطة أكثر اعتدالا وأنزع لاتخاذ الأسلوب البعيد عن التطرف في حياتهم وتفاعلهم بعضهم مع بعض، إذ أن عندهم العلوم والصناعات، والأمر والنهي، والنظام والملك، وفيهم ظهور الأنبياء وتأسست الدول والممالك، وسنت القوانين، ووضعت العلوم، وتشيدت الأمصار، وغرست المغارس، وحرثت المحارث، وتولدت الصناعات النفعية وترفعت المعيشة.

والاستقرار في نظر ابن خلدون عامل هام لتوفير الأمن والضبط، فإن الحياة الاجتماعية المستقرة تجلب معها تفاعلات من نوع يختلف كل الاختلاف عن حياة أهل البداوة الذين تضطربهم ظروف الحياة إلى التنقل من مكان إلى آخر، فالتوحش والنزوع إلى الغزو والسلب والاعتداء سمة من سمات المجتمعات غير المستقرة بينما سكان المدن لطبيعة الاستقرار في حياتهم يألفون الخضوع للقوانين والسير على معايير الجماعة بعيداً عن الخشونة والغلظة، ويقول ابن خلدون في ذلك: والحال أن أهل المدن ينغمسون في النعيم ويتزكون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وموالمهم، فالمدن والحواضر تعيش في ظلال حامياتها وأسوارها، بينما سكان البوادي يأفون من السكنى وراء الأسوار، وتحت خفارة الجنود، ويرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالمهم، وهم دائماً على ضرر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً، لأنهم يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأ هبوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع.

### التربية عند ابن خلدون:

التربية بمعناها الاجتماعي الواسع عبارة عن مجموع عمليات التعليم والتعلم التي يمارسها البشر، وفي نظر العلامة تالكوت بمارسنز تعرف التربية: بأنها عبارة عن كافة المحاولات التي تنفرج عن إدماج أدوار جديدة في شخصية الإنسان. وقد كانت التربية وما زالت جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعوب، فقد طالما ربي الكبار الصغار وعلموهم مختلف أنواع المهارات والحرف، فرجال التربية والتعليم والحرف والصناعة وغيرهم طالما درسوا وبذلوا جهوداً لنقل بعض معارفهم وخبراتهم إلى غيرهم، ويلعب الاتصال الشخصي دوراً كبيراً في نجاح عمليات التربية وفي التمكين لها.

ولقد فطن ابن خلدون لكل هذه الأمور وأوضح في جلاء حينما بحث في فوائد الرحلة في طلب العلم وإلقاء أهل المشيخة فذكر: أن البشر يأخذون معارفهم وما يتتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. ومثل هذا الوصف للتربية يتفق مع التعاريف الحديثة السوسولوجية التي تنظر إلى التربية كعملية وكنظام اجتماعي باعتبار أنها عمليات التعليم والتعلم التي يمارسها البشر منذ أن يولدوا إلى أن يموتوا، أو كما يقول العلامة بالكوت بارسون، أنها عبارة عن إدماج أدوار جديدة في الجهاز الشخصي للإنسان، ولا شك أن عملية الإدماج هذه لا تتم في يسر وسهولة وكفاءة إلا إذا كان هناك احتكاك شخصي لأن العلاقة الاجتماعية في مثل هذه الحالة يتوافر لها عناصر الانسياب الشخصي عن طريق الاستماع والنظر وما يتصل بهما من ضروب التأثير والانفعال المرتبط بالكلام والحركة والإلقاء وكافة أنواع التصرفات الشخصية، وفي هذا المجال يشير عالم الاجتماع دافيز إلى أن العلاقة الاجتماعية تتأثر بالقرب أو البعد التفاعلي وبظروف العلاقة وأهدافها ومدتها ولا شك أن القرب التفاعلي يكون متوفراً في صورة أوفى وأكمل في حال الاتصال الشخصي الذي يتم - كما يقول ابن خلدون - عن طريق الرحلة، وتعدد الشيوخ الذين يتلقى عليهم طالب العلم. وتأخذ بعض الجامعات في الشرق والغرب بهذا الرأي في صور شتى منها ضرورة قيام الطالب بحضور بعض البرنامج في جامعة غير التي درس فيها بعد البكالوريوس والليسانس حتى يسمح له بالتقدم لدرجة الدكتوراة.

### ابن خلدون وتزايد السكان:

كثيراً ما ينسب الفضل الأول للاهتمام إلى الجانب العلمي في تزايد السكان إلى العلامة الانجليزي مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٤٣) على اعتبار أنه قد أشار إلى ظاهرة تزايد السكان في صراحة عام ١٨٠٣ حينما قال بأن السكان يزيدون كل خمس وعشرين سنة بنسبة متوالية هندسية إذا لم يعق تزايدهم أي عائق خارجي بينما تتزايد الموارد التي يعتمدون عليها في معاشهم بمتوالية عددية، وأن هناك وسائل طبيعية وأخرى صناعية للحد من هذا التزايد ومن هذه الوسائل الطبيعية النكبات والحروب والرهينة وغير ذلك.

والواقع أن مقدمة ابن خلدون قد سبقت في الظهور كتاب مالتوس في تزايد السكان بأربعة قرون وأشارت في صراحة إلى قوانين تزايد السكان كما أشارت إلى العوامل التي تحد من هذه الزيادة والتي من أهمها الظروف والأحداث الطبيعية كالأوبئة والقحط وما ماثل ذلك ويمكن التدليل على صحة هذا الرأي بتحليل ابن خلدون للفقرة التالية من المقدمة نقل المسعودي وكثير من المؤرخين عن جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام



أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ست مئة ألف أو يزيدون.

يقول ابن خلدون في تحليل الفقرة السابق الإشارة إليها بعد إبرازه لخطورة جهل المؤرخين بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية وخاصة جهلهم بالقوانين التي تتحكم في التزايد السكاني ما يجعلنا نشك في صحة كلام المسعودي ونحكم بعدم إمكان صحته فالذي بين موسى ابن عمران بن يصهر بن فاهث بفتح الهاء وكسرهما، ابن لاوى بكسر الواو وفتحها، ابن يعقوب وهو إسرائيل الله، هكذا نسبة في التوراة، والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال: دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مئتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة، ويعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد بحسب القوانين التي يسير عليها التزايد في النوع الإنساني.

#### ابن خلدون والنموذج الأمثل:

يرى كثير من علماء الاجتماع المحدثين أن دراسة الظواهر الاجتماعية المتباينة سهل تحليلها ودراستها عن طريق تكوين ما نسميه النموذج المثل للظاهرة الاجتماعية. ذلك أن تكوين مثل هذه النماذج أو الأنواع المثلى يساعد الباحث الاجتماعي على تصنيف الظواهر، ومن ثم يسهل عليه مهمة دراستها وإثبات خصائصها المميزة.

والواقع أن النموذج المثل أمر افتراضي، إذ لا يوجد عادة مثل هذه الأنواع الخالصة النقية مئة في المئة، وإنما يكون حكمنا مبنياً على الصفة الغالبة، على اعتبار أن النوع المثل يمثل أقصى طرف منطقي تتوافر فيه خصائص معينة، تجعل منه عنصراً ونوعاً قائماً بذاته كطرف أول في موازنة، يقابله من الناحية الأخرى الطرف الثاني الذي يمثل خصائص على نقيض خصائص الطرف الأول.

وقد عرف عن عدد كبير من المفكرين وعلماء الاجتماع تقسيمات واصطلاحات تعتبر أساساً لأجهزتهم الاجتماعية، فنجد مثلاً أن تقسيم الجماعات إلى جماعات عضوية وأخرى ميكانيكية من التقسيمات التي عرف بها اميل دوركايم، وقد اعتمد دوركايم في هذا التقسيم على نظام توزيع العمل والعوامل المؤدية إليه، وفي رأيه أن الأفراد في المجتمع البسيط يقومون بأعمال متماثلة ويتصفون بالتجانس مما يجعل تماسكهم من النوع الميكانيكي أو الآلي، بعكس الأفراد في المجتمعات المعقدة التي تمتاز بالتخصص وبشدة التباين والاختلاف، مما يجعل التعاون بينهم من الأمور الضرورية، لحاجة كل منهم للآخر، ومن ثم يكون تماسكهم من النوع العضوي، الذي يساهم فيه كل عضو بنصيب في بقاء

الجماعة واستمرارها، وكما عرف دور كايم بتقسيمه سالف الذكر، نجد أن هناك آخرين عرفوا بتصنيفاتهم مثل توني وسوروكن ومين وغيرهم فقسموا الجماعات إلى: جماعية وفردية، وإلى دينية ومدنية، وإلى محلية وتعاقدية على التوالي.

وكان لابن خلدون تقسيم عرف به، وقد شرحه شرحاً وافياً، وجعله أساساً لجهازه الاجتماعي، فقد صنف المجتمعات إلى بدوية متنقلة وحضرية مستقرة، وأعطى لكل نوع من الخصائص المميزة ما يكفينا مؤونة البحث أو التساؤل وخاصة حينما نغفل عن هذا الجانب العلمي في دراسته ونتهمه بإلصاق بعض الصفات غير المستحبة بالعرب. وفي رأي مقدم هذا البحث أن ابن خلدون لم يشأ أن يتخلى عن حيدته العلمية فيستثني الأعراب أو البدو الرحل من خصائص الجماعات المتنقلة لأن طبيعة الاجتماع غير المستقر تستلزم العصبية والتوحش وعدم الاحتفال بالعلم والحضارة.

إن المتصفح لمقدمة هذا المفكر العربي الخالد يستطيع أن يلمس جوانب كثيرة من صحة ما تقدم، فعند الكلام على البدو وكونهم أقدم من الحضار قال ابن خلدون بأن البدو مقتصرون على الضروري، والحضر معتنون بالترف، والضروري أقدم، لأنه أصل، فالبدو أصل للمدن والحضر، سابق عليهما، ولهذا نجد التمدن غاية البدوي، ومتى حصل على الرياش الذي به الترف، مال إلى الدعة، وإذا فتشنا أهل الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من البدو، وذلك يدلنا على أن أحوال الحضارة ناشئة عن البداوة، وأن البداوة هي الأصل، وكل من البدو والحضر متفاوت من جنسه، فحي أعظم من حي، ومدينة أكثر عمراناً من مدينة.

ومن الخصائص الهامة التي لاحظها ابن خلدون خاصية العصبية فهي في نظره روح الجماعة البدوية ومصدر شكيمنتها وقوتها وقد فطن إلى أن العصبية أساسها النسب ولو أنه في نظره أمر وهمي تؤكد المعاشرة والمعايير الاجتماعية السائدة إلا أنه يخدم وظائف شتى في المجتمع، وكأنني به يحاول أن يقسم المجتمعات إلى مجتمعات نسبية تقدر الناس وتقسم الوظائف والمراكز على أساس من القرابة أو ماشابه ذلك من أمور لا دخل للشخص فيها كاللون والجوار وغير ذلك، ومجتمعات تحصيلية تزن الناس بمقدار ما يؤدون من خدمات لمجتمعهم.

وفي رأي ابن خلدون أن العصبية أساس لديناميكية الجماعات وهي لا تتأني إلا لساكن البادية وعن طريقها يحدث الغزو والاحتلال وتقوم الدول وتحل إحداها محل الأخرى لأن المجتمعات في نظره لها أطوار لا تعدو في الغالب أعمار ثلاثة أجيال من البشر، وعمر الجيل أربعون سنة.

وذلك لأن الجيل الأول مازال على خلق البداوة من شظف العيش والبسالة والاشتراك في الجحد، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم فجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم - بالملك والترفة - من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف، ومن الاشتراك في الجحد إلى انفراد الواحد وكسل الباقين، فتتكسر سورة العصبية، ولكن يبقى لهم الكثير مما أدركوا من الاعتزاز والمدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك كلية.

وأما الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة والخشونة، ويفقدون حلاوة العصبية بما فيهم من القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته، فيصيرون عيالا على الدولة، وتسقط العصبية بالجملة، فيحتاج صاحب الدولة إلى الاستظهار بسواهم، ويستكثر بالموالي.

### ابن خلدون والتقسيمات الحديثة لعلم الاجتماع:

ينظر ابن خلدون إلى الظواهر الاجتماعية من أفق واسع المدى، ويرى أنها تمس جميع ظواهر الحياة الاجتماعية ولهذا السبب جعل من المجتمع الإنساني كله مادة لبحوثه ومشاهداته ولخص لنا الميادين التي تنبثق منها ظواهر الاجتماع الإنساني وهي تكاد لا تفترق كثيراً عن ميادين علم الاجتماع الحديث.

١- العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض. وهذه العبارة التي وردت على لسان ابن خلدون كعنوان للفصل الأول من المقدمة تعادل ما نسميه الآن في أحدث كتب الاجتماع بعلم الاجتماع العام أو الظواهر الاجتماعية العامة.

٢- العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. وهذا الميدان الجديد الذي انفرد به ابن خلدون يعطيه بحق لقب مؤسس علم الاجتماع الريفي.

٣- الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية. وفي دراسات ابن خلدون السياسية في هذا الفصل من المقدمة تبدو عبقريته العلمية مرة أخرى، فإنه بالرغم من سابقة التعرض للمسائل السياسية بواسطة بعض المفكرين المسلمين السابقين لابن خلدون مثل إخوان الصفا والفارابي، فإننا نجد أن ابن خلدون في علاجه لهذه المسائل اتبع طريقة تختلف عن سبقوه، فيما كانت الدراسات السياسية السابقة له تعالج الأمور بطريقة فلسفية محضة إذا بنا نجد منهجاً عملياً اجتماعياً يعرض بطريقة واقعية لهذه الظواهر السياسية باعتبارها جانباً هاماً من جوانب الاجتماع الإنساني ومثل هذا الاتجاه يتفق والنظرة الحديثة التي ترى أن علم الاجتماع لا بد أن يتعرض لكافة الظواهر المتصلة بالعلاقات الاجتماعية ومن زاوية تأثيرها في هذه العلاقات وتأثرها بها وقد كان ابن خلدون في هذه الناحية سباقاً كعادته متميزاً بالابتكار والاستقلال.

٤- العمران الحضري والبلدان والأمصار: وكما تقسم ميادين علم الاجتماع الحديث إلى اجتماع ريفي واجتماع حضري فعل ابن خلدون ذلك ورأى أن المدن لها خصائصها وميزاتها التي تختلف عن خصائص الريف والبادية وأشار في صراحة تدعو إلى الإعجاب إلى أن المدن قبل الطموحين من أنظارنا لانفساح مجال التدرج الاجتماعي فيها وتعد فرص العمل الأمر الذي لا يتوافر في اجتماع أهل الريف الذي يمتاز بالبساطة وعدم التعقيد في كل شيء.

٥- في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه: وفي هذا الجانب من المقدمة يقوم ابن خلدون بالبحث في ميدان من ميادين علم الاجتماع أشبه بميدان علم الاجتماع الصناعي.

٦- وأخيراً يدرس ابن خلدون في الفصل الثالث من المقدمة العلوم واكتسابها وتعليمها ويمكن أن نطلق على هذه الدراسة اسم علم الاجتماع التربوي.

وهكذا يبدو لنا من هذا التقسيم الإجمالي فكرة واضحة عما رأى ابن خلدون أنه مادة علمه الاجتماعي الذي أطلق عليه اسم العمران أو الاجتماع البشري وهو تقسيم يظهر فيه الدقة والنظرة الثاقبة التي جاءت وليدة البحث والاستقصاء والبراعة وخاصة إذا ما لاحظنا براعة التسلسل والربط والإحكام في العرض.

٧- الظواهر الكبرى والظواهر الصغرى: ومن النظريات التي انفرد ابن خلدون بالسبق فيها إشارته إلى نوعين من العمليات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع نعتي بهما: العمليات الكبرى والعمليات الصغرى أو بمعنى آخر العمليات أو الظواهر الاجتماعية الجماعية والعمليات أو الظواهر الاجتماعية الجزئية.

ومن أمثلة الظواهر أو العمليات الاجتماعية الكبرى التي أشار إليها العلاقة بين ازدهار المجتمع وأخلاق الناس لأنه كما يقول: إذا استفحل العز وتوفرت النعم لطفت الأخلاق ومن أمثلتها أيضاً تأثير حياة البداوة على الناس نتيجة لنكد العيش وسوء الموطن.

ومن أمثلة الظواهر والعمليات الاجتماعية الجزئية تعرضه لمبدأ الشدة على المتعلمين وما ينتج عنه من أضرار اجتماعية لأن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم، لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف، سطا به القهر، وضيق انبساط نفسه، وذهب بنشاطها، فدعا إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، والمكر والخديعة، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وصار ذلك عادة، وفسدت معاني الإنسانية فيه، من حيث الاجتماع والتمدن، والمدافعة عن النفس والمنزل، وكسلت النفس عن الفضائل، وانقبضت عن غايتها.

## الغرب والشرق يفطن لقيمة ابن خلدون كمفكر اجتماعي عظيم

رأينا فيما سبق صورة لمآثر مفكر عربي أسدى إلى الفكر الاجتماعي خدمات لا تقدر، ورأينا كيف أنه على قدمه يبدو أستاذاً لجميع الناطقين بالضاد بل وللعالم أجمع، فإن التراث الذي خلفه يتبوأ مقاماً عالياً بين تراث الفكر العالمي وتزداد قيمته على مر الأيام، ومن الأمور التي تسترعي الانتباه من هذه الوجهة أن المفكر العربي ابن خلدون يعتبر من أساتذة الفكر القلائل في العالم الذين يزداد بريقهم لمعاً كلما ارتقى العقل البشري ليدرك عمق ما وصل إليه في عصور لم تكن مهياًة للانتفاع به وبآرائه.

وقد رأى مقدم هذا البحث بعد هذا السرد العابر لبعض نظريات ابن خلدون التي تبدو جديدة حتى في أيامنا هذه، أن يشير إلى نماذج من الآراء التي وردت على لسان عدد من العلماء في الغرب والشرق بخصوص مفكرنا العربي الكبير والمكانة التي يحتلها في محيط العلم والمعرفة.

### آراء علماء الاجتماع الأوروبيين:

١- يقول عالم الاجتماع لودفيج جمبلوفتش (١٨٣٨ - ١٩٠٩): جاء عربي تقي قبل أوجيست كونت، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوروبي، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة جعلت ما كتبه عبارة عما نسميه اليوم بعلم الاجتماع.

٢- ويقول العالم المؤرخ المعاصر أرنولد توينبي: لقد توصل ابن خلدون إلى فلسفة التاريخ، ويعد عمله هذا أعظم عمل أو تأليف أبدعه فكر في أي زمان ومكان.

٣- ويقول جاستون بوتول: يوجد في مؤلف ابن خلدون عمل مرموق من علم الاجتماع الوضعي يحتوي على القواعد الأساسية لمجتمع أفريقيا الشمالية، حيث أن جانباً كبيراً من الأوصاف التي أوردها ينطبق حتى الآن على الحياة الاجتماعية لهذه المنطقة.

٤- ويقول روبرت فلينت المؤرخ الإنجليزي: إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ قد نجد من يتفوق عليه حتى من كتاب العرب أنفسهم، أما إذا نظرنا إليه كواضع لنظريات في التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل مكان وزمان.

٥- ويقول استفانوا كولوزيو الإيطالي: إن مبدأ الحتمية يعود الفخر في تقريره إلى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الإثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة.

إن المفكر العربي العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران وماركس وباكونين بخمسة قرون.

إذا كانت نظريات ابن خلدون في حياة المجتمع تضعه في طليعة فلاسفة التاريخ فإن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية يجعله إماماً لاقتصاديين هذا العصر.

٦- ويقول سارتون في كتابه مدخل لتاريخ العالم بشأن ابن خلدون: إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي.

٧- ويقول البارون المستشرق كارادي فو صاحب كتاب مفكري الإسلام في الجزء الأول من تأليفه هذا: أنجبت أفريقيا الإسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصوراً عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره، فإن أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغيرها، وكيفية تأسيس الدول، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدينيات وعوامل نموها أو تقلصها، كل ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه، وذلك في مقدمته المشهورة ولم نجد في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر للمسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ بعد أن كانت أقفالاً مستحجة تعذر فتحها، فكان ابن خلدون في العقل والإدراك من فصيلة مونتسكيو أو الأب مايلي وهو من دون شك الحد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل تارد وجوينو.

### آراء علماء الاجتماع الأمريكيين:

لمس مقدم هذا البحث مدى الاهتمام الذي تظهره أقسام الاجتماع بالجامعات الأميركية المختلفة بابن خلدون وتراثه الفكري، ويبدو ذلك واضحاً من كتابات بعض فطاحل علم الاجتماع لديهم أمثال سوروكن وسميث وغيرهم.

١- يقول إسكندر روفتش بيتيريم سوروكن: يبحث ابن خلدون في كل الموضوعات التي تدخل في نطاق علم الاجتماع، والقسم الأكبر من بحوثه يعتبر حديثاً حتى في أيامنا هذه، ولهذا السبب فإن ابن خلدون جنباً إلى جنب مع أفلاطون وأرسطو وفيكو وكونت، يعتبر حقاً أحد مؤسسي علم الاجتماع.

٢- ويقول الأستاذ ناتانيل شميث في كتابه المنشور عام (١٩٣٠) بعنوان: ابن خلدون مؤرخ واجتماعي وفيلسوف ما يأتي: أربع مئة سنة كانت قد انقضت على موت ابن خلدون، عندما ظهرت ورأت النور عام ١٨٠٦ بعض نماذج من مقدمته، مترجمة إلى اللغة الفرنسية. بمعرفة سلفستر دي ساسي، وخلال هذه القرون العديدة كان أعظم مؤرخي العرب يكاد يكون مجهولاً في أوروبا. ثم يسترسل شميث فيقول: أنه مفكر مثل كونت وتوماس وسبنسر، وقد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها كونت نفسه في

النصف الأول من القرن التاسع عشر. إن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون في حينها فاستعانوا بالحقائق التي كان قد اكتشفها والطريق التي كان قد أوجدها ذلك العبقري العربي قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلاً.

٣- ويقول العلامة هاري المبرانز: بصفة عامة يمكننا أن نقول بأن الفضل في إنشاء وتأسيس فلسفة التاريخ يعود إلى ابن خلدون لا إلى فيكو.

٤- وجاء في المؤلف الاجتماعي الكبير تاريخ الفكر الاجتماعي للأستاذين هاوارد بيكر وهاري بارنز ما يأتي: إن أول مفكر جاء به الزمان بعد بوليبيوس، لم يكن أوريباً بل كان عربياً قام بتطبيق أفكار تتفق والآراء الحديثة في الاجتماع التاريخي. إن أفكار ابن خلدون تتقدم على كثيرين في الشرق والغرب، إنه أعظم من الإدريسي ومن فيكو وغيرهما، لقد أكد آراء تعتبر فريدة بالنسبة لعصره كالنظر إلى التاريخ باعتباره ظاهرة طبيعية، كما أكد الفكرة الخاصة بالتطور التاريخي، ويعتبر من هذه الوجهة متفوقاً على جميع معاصريه وخاصة لتعرضه لوجهة نظر جديدة تنظر إلى التاريخ كسلسلة من التغيرات الاجتماعية، كما أنه أكد في براعة تداخل الظواهر الطبيعية مع الظواهر الاجتماعية.

### ابن خلدون في رأي الكتاب والعلماء العرب:

كان عام ١٩٣٢ فرصة طيبة لإبراز مكانة ابن خلدون لدى مواطنيه العرب، ففي تلك السنة أقيمت في بعض البلاد العربية، وخاصة القاهرة وتونس، عدة حفلات علمية احتفالاً بانقضاء ست مئة سنة على مولده، وقد لفت هذا الحادث الأنظار إلى مؤلفات هذا المفكر العربي الكبير ونشطت الكتب والمجلات في سرد آرائه وإذاعة مآثره.

وفي مستهل عام ١٩٦٢ وفي كنف حركة التحرير العربية بالقاهرة، يحتفل بهذا العبقري وتتاح الفرصة للتعريف به، ولا شك أن هذا الاحتفال سيسفر عن الكشف عن بعض جوانب من إنتاج ابن خلدون تضيف إلى أبحاث العرب مجداً جديداً، والآراء التالية لبعض كتاب العرب وعلمائهم تؤيد مكانة ابن خلدون العلمية وهي بعد شهادة الغرب لاتبدو مستغربة أو متحيزة.

١- يقول الكاتب والمؤرخ الحجة في ابن خلدون الأستاذ ساطع الحصري في كتابه المنشور عام ١٩٥٣ بعنوان: دراسات عن ابن خلدون ما يلي: بعد انتشار المقدمة صار علماء الاجتماع والتاريخ والاقتصاد يطلعون على آراء ابن خلدون ويلفتون الأنظار إلى ما يجدون بينها من النظريات القيمة، حول بعض المسائل التي لم يفرغوا من درسها وبحثها إلا في المدة الأخيرة.

فقد لاحظوا بدهشة كبيرة أن المعلومات التي كانت مقررة في تاريخ العلوم المذكورة تحتاج إلى تبديل وتخوير، على ضوء الحقائق التي وجدوها في مقدمة ابن خلدون: كانوا يزعمون مثلاً، أن فيكو، هو أول من فكر في فلسفة التاريخ، ولكنهم علموا بعدئذٍ، أن ابن خلدون كان قد فعل ذلك - في مقدمته قبل فيكو بمدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن.

وكانوا يزعمون قبلاً، أن أوجيست كونت هو الذي أسس علم الاجتماع على أسس علمية مستقلة، ولكنهم علموا بعدئذٍ، أن ابن خلدون قد سبق كونت إلى ذلك، قبل مدة تزيد على أربعة قرون ونصف قرن.

وقد وجدوا أن كثيراً من الآراء والمبادئ التي قال بها علماء الاقتصاد ومفكرو الاجتماع - مثل جان باتيست ساي - وكارل ماركس وباكونين - في أواسط القرن التاسع عشر، كانت مسطورة في المقدمة التي كتبها ابن خلدون في القرن الرابع عشر، تارة في حالة بذور وفسائل صغيرة، وطوراً في حالة أغراس نامية كاملة.

ولذلك نجد أن مطالعة مقدمة ابن خلدون، صارت تبهر أنظار العلماء المدققين، وتحملهم على إظهار إعجابهم في مقالات، أو رسائل أو كتب ينشرونها.

٢- ويقول الأستاذ أحمد أمين: لابن خلدون، ومثله قليل من العلماء، قريحة متوقدة، وله قدرة فائقة على الحكم على الأشياء، وله ابتكار نادر، إن أخذ من علم الأقدمين فليغذي ذهنه ويهضمه، وليخرجه شيئاً جديداً يمتاز عن علم من سبقه، لأن فيه شخصيته وابتكاره وآراءه. وإذا وجد حلقة مفقودة في سلسلة تفكيره ولم يجد لها أصلاً فيما كتبه سلفه استطاع أن يخلقها خلقاً وينشئها إنشاءً. فهو جديد فيما أخذه عن قبله، وهو جديد فيما اخترعه.

٣- وتقتضي الأمانة العلمية أن نذكر أن ابن خلدون لم يكن محل إشادة فقط من جانب الكتاب والعلماء العرب، بل ومحل نقد أيضاً وفقاً لإطار وجهة النظر الذي اتخذه الكاتب أو الباحث في إنتاج ابن خلدون. ومن بين فحول الكتاب الذين نقدوا ابن خلدون ومنهجه العلمي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين الذي أنكر على ابن خلدون جدارته في حمل لقب عالم الاجتماع أو مؤسس علم الاجتماع على اعتبار أن ابن خلدون نشط لدراسة المجتمع لينقي به التاريخ من الشوائب والأغلاط ومثل هذا الهدف المعياري يتنافى مع المنهج العلمي السليم لأنه لكي يوصف الاجتماع بأنه علم يقتضي الأمر أن يكون مستقلاً تمام الاستقلال.



وقد انبرى للرد على أستاذنا الدكتور طه حسين عدد كبير من الكتاب في مقدمتهم الأستاذ ساطع الحصري الذي يقول في التعليق على الرأي السابق الإشارة إليه: في الواقع أن ابن خلدون فكر في علم العمران خلال أبحاثه التاريخية، ودون مسائل هذا العلم عندما تهيأ لكتابة التاريخ... غير أن ذلك لا يبرر القول بأن: ابن خلدون جعل علم العمران تابعاً للتاريخ فكان كل ما ألفه وفعله في هذا المضمار، يعلمنا بسلسلة الأفكار والملاحظات التي دفعته إلى دراسة علم العمران، ولكنه يجعل علم العمران، تابعاً للتاريخ في حد ذاته لأن علم العمران مستقل بنفسه، كما أنه جمع مباحث هذا العلم في كتاب خاص، منفصل عن مباحث التاريخ الأصلية. إن كل من يدرس هذا الكتاب الذي عرف باسم المقدمة يضطر إلى التسليم بأنه لا يرتبط بالكتابين الثاني والثالث من التاريخ ارتباطاً فعلياً، وبأن فصل الكتاب الأول المذكور عن الكتابين الثاني والثالث، لا يغير شيئاً من وضعه أبداً.

ويضيف مقدم هذا البحث إلى ما ذكره الأستاذ ساطع الحصري عن التداخل بين علم الاجتماع والتاريخ في نظر ابن خلدون ما سبق ذكره في صدر هذا البحث من أنا في الوقت الحاضر نسلم بأن التاريخ ووقائعه واجتماع وأحداثه تمد علم الاجتماع بمادة خام لا غنى عنها في الدراسات الاجتماعية.

٢- ويقول الأمير شكيب أرسلان في مقدمة كتاب تاريخ ابن خلدون<sup>(١)</sup> لا نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران وما يسمى اليوم بعلم الاجتماع، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التي لا تجول فيها أفكار الحكماء، وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون خطوا هذا العلم وأشاروا عليه في تضاعيف مباحثهم، ولكنهم لم يبلغوا فيه شيئاً من الإحاطة التي بلغها ابن خلدون، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذي جعله في هذا الموضوع نسيجاً وحده، حتى ألقى إليه فيه بمقاليد الرئاسة. فهو واضع علم الاجتماع بالإجماع.

٣- ويقول الدكتور علي عبد الواحد وإفي في كتابه عن ابن خلدون: لم يتح لمقدمة ابن خلدون من بعده ما كانت تستحقه من الذبوع والانتشار، وما كان يعوزها من التنقيح والتكملة ومتابعة البحث، ويظهر أن ابن خلدون في بحوث مقدمته كان سابقاً لتفكير عصره بعدة مراحل، ولذلك لم يستطع معاصروه ولا من جاؤوا من بعده في مدى القرون الأربعة التالية له أن يتابعوه في تفكيره، فضلاً عن أن يحاولوا تكملة بحوثه وتنقيحها. بل إن

المقدمة نفسها قد ظلت طوال هذه الحقبة مجهولة لدى كثير من الباحثين في الشرق والغرب.

ومن أجل هذا كله عادت الدراسات الاجتماعية من بعده سيرتها الأولى التي كانت عليها من قبل أن يظهر مقدمته، فلم تكن هذه الدراسات تتجاوز الأغراض الثلاثة التي كانت تدور حولها قبل ابن خلدون وهي وصف النظم وصفاً تاريخياً، والدعوة لها بقصد تثبيتها في النفحات، وبيان ما ينبغي أن تكون عليه بحسب المبادئ الفلسفية التي يدين بها الباحث وإنشاء حقائق فاضلة خيالية على هذا الأساس.

وظل الأمر على هذه الحالة حتى منتصف القرن الثامن عشر، وحينئذ ظهرت طوائف جديدة من البحوث الاجتماعية تجنح، إلى الاتجاهات التي اتجهت إليها مقدمة ابن خلدون، ولكن بدون أن تستطيع الوصول إلى ما وصلت إليه، ولا تحقيق ما حققته من أغراض.

٤- ويقول محمد عبد الله عنان في كتابه ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري ١٩٥٣: أن ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن، يجب أن يكون أستاذاً لجميع الشباب الذي ينطق بالعربية، ويجب أن يقرأ الشباب مقدمة ابن خلدون، وأن يستعيدها مراراً وتكراراً، لا ليعجب فقط بما حوت من روائع التفكير والبحث، ولكن أيضاً ليستبقي منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الاجتماعية التي تحول بذهنه، وكثيراً ما يتعثر في التعبير عنها، ذلك أن مقدمة ابن خلدون إذا كانت ثروة لا تقدر في تراث التفكير العربي، فهي أيضاً ثروة لا تقدر في تراث البيان العربي.

رأي أخير:

بعد هذا الإلمام الخاطف بعبقريّة ابن خلدون المفكر العربي الخالد، وبعد إدراك مدى أثره ومكانته في الشرق والغرب يحق للعرب أن يعتزوا بمفكرهم العظيم وأن يعملوا على تقديره وإذاعة مآثره، وأن يقوموا بإجراءات بناءة إيجابية للإفادة مما خلف من إنتاج يشحذ العزائم، ويقوي الهمم لنهضة علمية اجتماعية تسير ركب التقدم الصناعي، ورتبة العلوم الطبيعية، وقفزة الفنون بأنواعها في بلادنا العربية.

إن في بعث تراث هذا المفكر العربي الكبير في هذه الآونة بالذات، لما يتفق والشعور العربي العام بتمجيد كل من ألقى ويلقي بلبينات في صرح بناء مجد العرب ووحدهم ورفعتهم وسيرهم نحو عالم عربي، مجمع القوى، موحد الهمم، مكتمل العزائم.

# مُقَدِّمَةٌ إِبْنُ خَلْدُونُ

تَأَلَّفَ

العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

إِبْنُ خَلْدُونُ

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)



## نوطئة

- ☐ أهمية علم التاريخ.
- ☐ بيان أصناف المؤرخين:
  - أ - قدماء ومحدثون.
  - ب - ثقات وضعفاء.
  - ج - تواريخ عامة وتواريخ خاصة.
- ☐ فضائل بعض التواريخ.
- ☐ أوجه الخطأ والنقص في كتب التاريخ:
  - أ - سرد الأحداث بدون النظر إلى أسبابها.
  - ب - حشد الأخبار المخالفة للقوانين الاجتماعية.
- ☐ الأسباب الداعية لهذا التأليف:
  - أ - الاستدراك على المؤرخين.
  - ب - بيان العلل والأسباب المقتضية للأحداث.
  - ج - اكتشاف القوانين الحاكمة للمجتمعات.
- ☐ تقسيم وتبويب الكتاب:
  - أ - مقدمة في فضل علم التاريخ.
  - ب - والكتاب الأول في العمران البشري.
  - ج - والكتاب الثاني في أخبار العرب.
  - د - والكتاب الثالث في أخبار البربر.
- ☐ تنقيح وتكملة الكتاب.
- ☐ تسمية الكتاب.
- ☐ الاعتذار عما يعرض من تقصير في عمله.
- ☐ إهداء الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم  
وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

[مقدمة المؤلف]

قال العبد الفقير إلى الله تعالى الإمام العالم العلامة شيخ مشايخ الإسلام.. الإمام ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون متع الله بعلومه آمين<sup>(١)</sup>:  
الحمد لله الذي له العزة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت، العالم فلا يعزب<sup>(٢)</sup> عنه ما (يدبر النطق)<sup>(٣)</sup> أو يخفيه السكوت، القادر فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض ولا يفوت، أنشأنا من الأرض نسماً، واستعمرنا فيها أجيالاً وأممًا، ويسر لنا منها أرزاقاً وقسماً، تكفنا<sup>(٤)</sup> الأرحام والبيوت، ويكفلنا الرزق والقوت، وتبلينا الأيام والوقوت، وتعتورنا<sup>(٥)</sup> الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت، وله البقاء والثبوت، وهو الحي الذي لا يموت.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التوراة والإنجيل المنعوت، الذي تمخض لفصالة<sup>(٦)</sup> الكون قبل أن تتعاقب الأحاد والسبوت، ويتباين زحل واليهيموت<sup>(٧)</sup>، وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت، وعلى آله وأصحابه الذين لهم في محبته<sup>(٨)</sup> وأتباعه الأثر البعيد والصيت، والشمل الجميع في مظاهرتيه ولعدوهم الشمل الشيت، صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالإسلام حده المبخوت<sup>(٩)</sup>، وانقطع بالكفر حبله المبتوت<sup>(١٠)</sup>، وسلم كثيراً.

١ - في ن: يقول العبد الفقير إلى الله تعالى [ في نسخة: رحمة ربه] الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله تعالى.

٢ - في ن: يغرب. ويعزب بضم الزاي وكسرهما: يغيب ويذهب.

٣ - في ن: تظهره النحوى.

٤ - الكنف: الحرز والستر والحفظ.

٥ - تعتورنا: تتداولنا وتأخذنا وتذهب بنا.

٦ - الفصل الفطام، وأراد هنا ولادته، أو بعثته صلى الله عليه وسلم. وفي ن: تمحض.

٧ - اليهيموت: الحوت، ويسمى أيضاً لوتيا. كما في المزهر وروح البيان.

٨ - في ن: صُحبته.

٩ - المبخوت: الحدود. والبخت: الجد.

١٠ - البت: القطع. والمبتوت: المقطوع.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ التَّارِيخَ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ<sup>(١)</sup> الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ الرِّكَائِبُ وَالرِّحَالُ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوْقَةُ وَالْأَغْفَالُ<sup>(٢)</sup>، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ<sup>(٣)</sup>، وَيَتَسَاوَى<sup>(٤)</sup> فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ، إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ عَنِ الْأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ، وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولِ، تَنْمُو فِيهَا الْأَقْوَالُ، وَتُضْرَبُ فِيهَا الْأَمْثَالُ، وَتُطَرَّفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الْاِحْتِفَالُ، وَتُؤَدِّي لَنَا<sup>(٥)</sup> شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ النُّطَاقُ فِيهَا وَالْمَجَالُ، وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الْارْتِحَالُ، وَحَانَ مِنْهُمْ الزَّوَالُ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ، وَتَغْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ<sup>(٦)</sup> وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ، فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٍ.

وَإِنَّ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ قَدْ اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا، وَسَطَرُوهَا فِي صَفَحَاتٍ [ظ ١/٢] الدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا، وَخَلَطَهَا الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا أَوْ ابْتَدَعُوهَا<sup>(٧)</sup>، وَزُخْرَفُ<sup>(٨)</sup> مِنْ الرِّوَايَاتِ الْمُضْعَفَةِ لَفَقْوَهَا وَوَضَعُوهَا، وَاقْتَفَى تِلْكَ الْأَثَارَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا، وَأَدَوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا، وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعَوْهَا، وَلَا رَفَضُوا تَرَهَّاتِ<sup>(٩)</sup> الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا، فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ، وَطَرَفُ التَّنْقِيحِ فِي الْغَالِبِ كَلِيلٌ<sup>(١٠)</sup>، وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ<sup>(١١)</sup> لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ، وَالتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْأَدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ<sup>(١٢)</sup>، وَالتَّطَفُّلُ عَلَى الْفُنُونِ عَرِيضٌ وَطَوِيلٌ، وَمَرَعَى

١ - في ن: تتداولها.

٢ - الغفل: من لا يرجى خيره ولا يخشى شره.

٣ - القيل: العظيم. لقب ملوك حمير، أو هو بمنزلة الوزير.

٤ - في ن: تتساوى.

٥ - في ن: (إلينا).

٦ - جمع واقعة، وهي ما يصيب المجتمع من تغير وتبدل.

٧ - في ن: و.

٨ - أي أتى بشيء لم يسبق إليه كذباً وزوراً.

٩ - في ن: زخارف.

١٠ - أي الأباطيل.

١١ - كليل: ضعيف، حائر القوى.

١٢ - نسيب: مناسب، أو هو ذو نسب فيهم.

١٣ - السليل: ما انسل من الشيء لا لولد.

الْجَهْلُ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخَيْمٌ وَيَيْلٌ<sup>(١)</sup>، وَالْحَقُّ لَا يُقَاوِمُ سُلْطَانَهُ، وَالْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ، وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيُنْقَلُ، وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُذُ الصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ<sup>(٢)</sup>، وَالْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْقُلُ.

هَذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا، وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالْدُّوَلِ فِي الْعَالَمِ وَسَطَرُوا، وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْإِمَامَةِ<sup>(٣)</sup> الْمُعْتَبَرَةِ، وَاسْتَفْرَغُوا دَوَائِنَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمُتَأَخَّرَةِ، هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ، وَلَا حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ<sup>(٤)</sup>، مِثْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ<sup>(٥)</sup> وَالطَّبْرِيِّ<sup>(٦)</sup> وَابْنِ الْكَلْبِيِّ<sup>(٧)</sup> وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ، الْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ الْجَمَاهِيرِ، وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ الْوَاقِدِيِّ وَالْمَسْعُودِيِّ<sup>(٨)</sup> مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ، وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الثَّقَاتِ، إِلَّا أَنَّ الْكَافَةَ اخْتَصَّهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ، وَاقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي التَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ، وَالنَّاقِذُ الْبَصِيرُ قَسْطَاسُ<sup>(٩)</sup> نَفْسِهِ فِي تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوْ اعْتِبَارِهِمْ، فَلِلْعُمَرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تُرْجَعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ، وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا الرُّوَايَاتُ وَالْآثَارُ. ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لَهُؤُلَاءِ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ، لِعُمُومِ الدَّوْلَتَيْنِ صَدَرَ الْإِسْلَامِ<sup>(١٠)</sup> فِي الْأَفَاقِ وَالْمَمَالِكِ، وَتَنَاولَهَا الْبُعِيدُ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَآخِذِ وَالْمَتَارِكِ، وَمِنْ

١ - الويل: المرعى الوحيم. وليس في ظ: وحيم.

٢ - مقله بمقله: نظر إليه وتأمله.

٣ - في ن: الأمانة.

٤ - أي: الحركات الإعرابية من فتح وضم وكسر وحزم... الناتجة عن الأدوات النحوية العاملة... وانظر عنها العوامل المثة للخرجاني.

٥ - هو محمد بن إسحاق توفي سنة ١٥١هـ.

٦ - هو محمد بن جرير توفي سنة ٣١٠هـ.

٧ - هو هشام بن محمد توفي سنة ٢٠٤هـ.

٨ - هو علي بن الحسين توفي بمصر سنة ٣٤٦هـ.

٩ - أي ميزان نفسه.

١٠ - أي لعموم الدولتين اللتين جاءتا في أول الإسلام.



هَؤُلَاءِ مِنْ أَوْعَبَ<sup>(١)</sup> مَا قَبَلَ الْمِلَّةُ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَالْأَمْرُ الْعَمَمُ<sup>(٢)</sup>، كَالْمَسْغُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُ<sup>(٣)</sup>.

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ، وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأَوِ<sup>(٤)</sup> الْبَعِيدِ، فَقَيَّدَ شَوَارِدَ<sup>(٥)</sup> عَصْرِهِ، وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ<sup>(٦)</sup> وَقُطِرَهُ، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ، كَمَا فَعَلَ حَيَّانُ<sup>(٧)</sup> مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالْدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا، وَالرَّقِيقُ<sup>(٨)</sup> مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالْدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ.

ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ، وَيَلِيدُ الطَّبَعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ، يَنْسِجُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ، وَيَحْتَذِي<sup>(٩)</sup> مِنْهُ بِالْمِثَالِ، وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتُهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَاسْتَبَدَّلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ<sup>(١٠)</sup> الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ، فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ، وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولِ، صُورًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا، وَصِفَاحًا انْتَضَيْتْ<sup>(١١)</sup> مِنْ أَغْمَادِهَا، وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا<sup>(١٢)</sup>، إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا، وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرُ أَجْنَاسُهَا، وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا، يُكْرَرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا<sup>(١٣)</sup> الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا، اتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا، وَيُغْفَلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا، بِمَا أُعْزِرَ

١ - في ن: استوعب.

٢ - العمم: التام العام من كل أمر.

٣ - أي: سار على طريقه.

٤ - أي الشأن.

٥ - أي: دون الأخبار المشتهرة بين الناس، من قولهم: قافية شرود: أي سائرة في البلاد.

٦ - أي البلد الخاص بما يحيط به.

٧ - في الأصل: أبو حيَّان. وهو أبو مروان حيَّان بن خلف بن حسين بن حيَّان، من كتبه المقتبس في تاريخ الأندلس. توفي سنة ٤٦٩ هـ.

٨ - في المطبوعات: (ابن الرقيق). وهو خطأ. صوابه: (الرقيق) بالقاف وهو إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق. كان حيَّان ٣٨٨ هـ. انظر ترجمته معجم الأدباء (١/٢١٦ - ٢٢٦) ومعجم المؤلفين (١/٧٦) وقد ذكره أيضا في أحمد بن القاسم (٢/٤٨) وهو خطأ. وانظر مجلة دراسات تاريخية العدد السادس ص ٣٢.

٩ - أي: اقتدى به.

١٠ - أي كوارث ومصائب الأمم.

١١ - أي: سيوفا سلت.

١٢ - الطارف: الحديث بخلاف التالد والتليد.

١٣ - في ن: موضوعاتهم.

عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا، فَتَسْتَعْجِمُ<sup>(١)</sup> صُحُفُهُمْ [ظ ٢/٢] عَنْ بَيَانِهَا، ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا، مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَائِيتِهَا، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَأْيِهَا، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا، فَيَبْقَى النَّازِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا، مُفْتَشًّا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا، بَاحِثًا عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا، حَسْبَمَا نَذَكَّرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ.

ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْتِصَارِ، وَذَهَبُوا إِلَى الْاِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْاِقْتِصَارِ<sup>(٢)</sup>، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ، كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ<sup>(٣)</sup> فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ، وَمَنْ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرُ مِنَ الْهَمَلِ<sup>(٤)</sup>، وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لَهُؤُلَاءِ مَقَالَ، وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ، لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ<sup>(٥)</sup>، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ.

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ، وَسَبَرْتُ<sup>(٦)</sup> غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ سِنَّةِ الْغَفْلَةِ وَالنُّومِ، وَسَمِتُ<sup>(٧)</sup> التَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي - وَأَنَا الْمُفْلِسُ - أَحْسِنُ السُّوْمِ<sup>(٨)</sup>، فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا، رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا، وَفَصَّلْتُهِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْاِعْتِبَارِ بَابًا بَابًا، وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَةِ الدُّوَلِ وَالْعِمْرَانِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا، وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْجِيلِينَ<sup>(٩)</sup> الَّذِينَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ، وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الضُّوَاحِي<sup>(١٠)</sup> مِنْهُ وَالْأَنْصَارِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ، وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ

١ - أي تكون غير مفهومة.

٢ - في ن: الأَمْصَارِ.

٣ - هو الحسن بن رشيق صاحب كتاب ميزان العمل في تاريخ الدول والعمدة في صناعة الشعر. توفي بصقلية سنة ٤٦٣ هـ.

٤ - الهمل: المتروك.

٥ - في ظ: بالفوائد.

٦ - سبرت: تأملت وامتحت.

٧ - سَمَتَ يَسْمِتُ: هَيَأَ وَجْهَ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ.

٨ - أي أحسن تقدير عملي والمطالبة بقيمته الحقيقية. وهو من المغالة في البيع.

٩ - في ن: الأَمْ.

١٠ - في ن: النواحي.

وَالْأَنْصَارَ، وَهُمَا <sup>(١)</sup> الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ، إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا، وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ <sup>(٢)</sup> مَثْوَاهُمَا، حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ (فِيهِ مَا عَدَاهُمَا) <sup>(٣)</sup>، وَلَا يُعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا، فَهَذَبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيْبًا، وَقَرَّبْتُه لَأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيْبًا، وَسَلَكْتُ فِي تَرْبِيئِهِ وَتَبْوِينِهِ مَسْلَكًا غَرِيْبًا، وَاخْتَرَعْتُه مِنْ بَيْنِ الْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيْبًا، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأَسْلُوبًا، وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ وَالْمَدَنِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي الْجَمْعِ الْإِنْسَانِي مِنَ الْأَعْرَاضِ <sup>(٤)</sup> الذَّاتِيَّةِ <sup>(٥)</sup> مَا يُمْتَعَكُ بِعِلَلٍ

١ - في ن: هم.

٢ - الحقب: ثمانون سنة أو أكثر والدهر، والسنة أو السنون. قاموس.

٣ - في ظ: عنه مثواهما.

٤ - في ن: العوارض.

٥ - يقول الفارابي في كتاب الحروف ص ٩٥: العرض الذاتي هو الذي يكون موضوعه ماهيته أو جزءاً من ماهيته، أو توجب ماهيته موضوعه أن يوجد له على النحو الذي توجب ماهية أمر ما أن يوجد له عرض ما. فإن ذلك العرض إذ أخذ ذلك الأمر في حدّ العرض. فما كان من الأعراض هكذا فإنه يقال له عرض ذاتي. وغير الذاتي هو الذي لا يدخل موضوعه في شيء من ماهيته، وماهيته موضوعه لا توجب أن يوجد له ذلك العرض. هذا بالنسبة للمعنى الفلسفي للكلمة.

أما العوارض الذاتية للعلوم، فهو اصطلاح يستعمله المناطقة والأصوليون بكثرة، فيشرحها الغزالي في مقاصد الفلاسفة (١٢٢ - ١٢٣) كما يلي: الأعراض الذاتية لعلم من العلوم، ونعني بها الخواص التي تقع في موضوع ذلك العلم ولا تقع خارجه عنه، كالمثلث والمربع لبعض المقادير، والانحناء والاستقامة لبعضها، وهي أعراض ذاتية لموضوع الهندسة وكالزوجية والفردية للعدد، وكالاتفاق والاختلاف للنغمات - أعني التناسب - وكالمرض والصحة والحيوان.

هذا وتتميز الأعراض الذاتية عن الأعراض الغريبة كما يلي: أما الذاتي فهو احتراز من الأعراض الغريبة، فإن العلوم لا ينظر فيها للأعراض الغريبة، فلا ينظر المهندس في أن الخط المستقيم أحسن لأن الحسن غريب عن موضوع علمه.

وإذن، فالأعراض الذاتية في لغة ابن خلدون وكذلك ما يشبهها من العبارات مثل: ما يعرض للعمران بطبيعته من الأحوال، ما يعرض له بمقتضى طبعه.. لا تعني القوانين كما فهم ذلك كثير ممن الباحثين، بل إنه يقصد بها الخصائص الملازمة للشيء والتي يختص بها دون غيره. ومن هنا يمكن القول إنَّ العوارض الذاتية للعمران هي بتعبيرنا المعاصر: الظواهر الاجتماعية بأوسع معانيها.

ولم يحصر ابن خلدون هذه العوارض الذاتية للعمران بل يشير إلى أمثلة منها: مثل التوحش والتأنس والعصبية وأصناف التغلبات التي للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. انظر العصبية والدولة للحابري.

الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابَهَا، وَيَعْرِفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا، حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ. وَرَبَّنْتَ عَلَى مُقَدِّمَةِ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ:

الْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلِمَاعِ<sup>(١)</sup> بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ. الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَانِ وَذِكْرِ مَا يَغْرُضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِدَلِكِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ. الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ مَبْدَأِ الْخَلْقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ، وَفِيهِ مِنْ<sup>(٢)</sup> الْإِلِمَاعِ<sup>(٣)</sup> بَعْضُ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلَ النَّبْطِ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَالْفَرَسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقُبْطِ وَالْيُونَانِ وَالتُّرْكِ وَالرُّومِ وَالْإِفْرَنْجَةَ. الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ<sup>(٤)</sup> مِنْ زَنَاتَةٍ وَذِكْرِ أَوْلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ<sup>(٥)</sup> وَمَا كَانَ لَهُمْ بِدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالِدُّوَلِ.

ثُمَّ كَانَتْ الرُّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ لاجْتِلَاءِ<sup>(٦)</sup> أَنْوَارِهِ، وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَائِنِهِ وَأَسْفَارِهِ [ظ ١/٣]، فَأَفَذْتُ<sup>(٧)</sup> مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ بَيْنَكَ الدِّيَارِ، وَدُولِ التُّرْكِ فِيْمَا مَلَكُوهُ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَاتَّبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ، وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ الْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ الْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ النَّوَاحِي، وَمُلُوكِ الْأَمْصَارِ مِنْهُمْ وَالضُّوَاحِي، سَالِكًا سَبِيلَ الْإِخْتِصَارِ وَالتَّلْخِيصِ، مُفْتَدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَوِيصِ، دَاخِلًا مِنْ بَابِ الْأَسْبَابِ عَلَى الْعُمُومِ إِلَى الْإِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوصِ، فَاسْتَوْعَبَ

١ - أي الإشارة بذكر أخطاء المؤرخين.

٢ - (من) زيادة من نسخة ليست في ظ.

٣ - يقال: ألعب بالشئ إذا اختلسه. فهو كلمع البرق من غير تفصيل. أي الإشارة.

٤ - في ن: ومن إليهم من زناتة..

٥ - في ن: (أحيالهم) و(أحيالهم).

٦ - في ن: لاجتلاء.

٧ - في ن: (فأخذت). وفي ن: (فوزدت).

أَخْبَارَ الْخَلِيقَةِ اسْتِيعَابًا، وَأَذْلَلْ<sup>(١)</sup> مِنَ الْحِكْمِ النَّافِرَةَ صِعَابًا، وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ<sup>(٢)</sup> عِلَلًا وَأَسْبَابًا<sup>(٣)</sup>، فَأَصْبَحَ<sup>(٤)</sup> لِلْحِكْمَةِ صُورَانَا<sup>(٥)</sup>، وَلِلتَّارِيخِ جَرَابًا. وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبُرْبَرِ، مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ<sup>(٦)</sup> وَالْوَبَرِ، وَالْإِلِمَاعِ بِمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبَرِ، وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرِ وَالْعَبْرِ، فِي مَبَادِي<sup>(٧)</sup> الْأَحْوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ، سَمَّيْتُهُ:

كِتَابَ الْعَبْرِ، وَدِيَوَانَ الْمُتَبَدِّلِ وَالْخَبَرِ، فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبُرْبَرِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا فِي أَوَّلِيَةِ الْأَجْيَالِ وَالِدُّوَلِ، وَتَعَاصُرِ الْأُمَمِ الْأَوَّلِ، وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحَوْلِ، فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْمِلَلِ، وَمَا يَغْرُضُ فِي [٢/٤٥] الْعُمَرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ، وَمَدِينَةٍ وَحَلَّةٍ<sup>(٨)</sup>، وَعِزَّةٍ وَذَلَّةٍ، وَكَثْرَةٍ وَقَلَّةٍ، وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ، وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ، وَأَحْوَالِ مُتَقَلِّبَةٍ مُشَاعَةٍ، وَبَذْوٍ وَحَضَرٍ، وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ، إِلَّا وَاسْتَوْعَبْتُ جُمْلَتَهُ، وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعَلَّلَهُ.

فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَذَا<sup>(٩)</sup> بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنَ الْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ، وَالْحِكْمِ الْمَخْجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ، وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ، مُعْتَرِفٌ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ، فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ، رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَسِّعَةِ الْفَضَاءِ النَّظَرِ<sup>(١٠)</sup> بَعَيْنِ الْإِنْتِقَادِ

١ - في ن: ذَلَّل. وتحرفت في نسخ إلى: وذلك.

٢ - أي الحوادث من الدول، أي التي وجدت بعد عدم. أو ما يصيبها من كوارث ونكبات.

٣ - أي بين أسباب قيام الدول وما يؤدي إلى سقوطها.

٤ - في ن: وأصبح.

٥ - الصوان: مثلثة الصاد: ما يصاب فيه، أي: يحفظ.

٦ - أهل المدر: أي: أهل المدن. لأنهم ينون بيوتهم من المدر وهي قطع الطين اليابس، وأهل الوبر: أي أهل

البادية لكثرة استخدامهم للوبر أي: صوف الإبل ونحوه.

٧ - في ن: مُتَبَدِّلًا.

٨ - الحلة: المحلة، أي: المنزل، وكأنه أراد الموضع الذي يتجمع فيه الناس فيما هو أقل من المدينة كالقرية. إذا

تعلق الأمر بالبدو المستقرين فحلتهم قريتهم، وإذا كانوا طاعنين فحلتهم أماكن خيامهم.

٩ - الفذ: الفرد.

١٠ - في ن: في النظر.

لَا بَعَيْنَ الْإِرْتِضَاءِ، وَالتَّغْمُدُ<sup>(١)</sup> لِمَا يَعْتَرُونَ عَلَيْهِ بِالْإِصْلَاحِ وَالْإِغْضَاءِ، فَالْبُضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ<sup>(٢)</sup>، وَالْاعْتِرَافُ مِنَ اللَّوْمِ مَنْجَاةٌ، وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ. وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِرُوحِهِ الْكَرِيمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٣)</sup>. وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ، وَأَنْزْتُ مِشْكَاةَهُ<sup>(٤)</sup> لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَأَذْكَيْتُ<sup>(٥)</sup> سِرَاجَهُ، وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمَنْهَاجَهُ، وَأَوْسَعْتُ فِي فِضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ، وَأَدْرْتُ سِيَّاحَهُ، [التمستُ لَهُ الكَفَّ الذي يلمحُ بعين الاستبصار<sup>(٦)</sup> فنونه، ويلحظُ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه، ويميزُ رتبته في المعارفِ عما دونه. فسرحتُ فكري في فضاء الوجودِ، وأجَلْتُ نظري ليلَ التمامِ والهُجُودِ<sup>(٧)</sup>، بين التَّهَائِمِ<sup>(٨)</sup> والنُّجُودِ<sup>(٩)</sup>، في العلماءِ الرَّكْعِ والسُّجُودِ، والخلفاءِ أهلِ الكرمِ والجودِ، حتى وقَفَ الاختيارُ بساحةِ الكمالِ، وطافَتِ الأفكارُ بموقفِ الآمالِ، وظَفَرْتُ أَيْدِي المَسَاعِي والاعْتِمَالِ، بَمَتَدَى المَعَارِفِ مشرفة فيه غررَ الجمالِ، وحدائقِ العلومِ الوارفةِ الظلالِ، عن اليمينِ والشمالِ، فَأَنْخْتُ مَطْيَّ الأفكارِ في عَرَصَتِهَا<sup>(١٠)</sup>، وَجَلَوْتُ<sup>(١١)</sup> مَحَاسِنَ الْأَنْظَارِ عَلَى مَنْصَتِهَا، وَ[أَتَحَفْتُ [ديوانها مقاصيرَ إيوانها، وأطلعتَه كوكباً وقاداً في أَفْقِ خَزَائِنِهَا وصَوَانِهَا، لِيَكُونَ آيَةً لِلْعُقَلَاءِ يَهْتَدُونَ بِمَنَارِهِ، وَيَعْرِفُونَ فَضْلَ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي آثَارِهِ، وَهِيَ] خِزَانَةُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْمُجَاهِدِ، الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ، الْمُتَحَلِّي مُنْذُ خَلَعَ التَّمَائِمَ وَلَوَّثَ الْعَمَائِمَ، بِحِلْيِ

١ - أي السَّتر بعد الرعاية..

٢ - البضاعة المزجاة: القليلة، أو التي لم يتم صلاحها.

٣ - إلى هنا انتهت مقدمة المؤلف في ظ. ولعل ذلك من فعل الناسخ الذي لم يجد في هذا الإهداء كبير فائدة. ثم بدأ بـ المقدمة في فضل علم التاريخ.

٤ - أي السراج (المصباح).

٥ - أذكيت: أوقدت. .

٦ - الاستبصار: التأمل والنظر والاعتبار، قال الغزالي في الإحياء: العلوم التي تحصل بالاستدلال تسمى اعتباراً واستبصاراً.

٧ - الهجود: النوم.

٨ - جمع تهمة: الأرض المتصوبة إلى البحر.

٩ - جمع نجد، وهو ما أشرف من الأرض.

١٠ - العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

١١ - جلوت: عرضت.

الْقَانِتِ الزَّاهِدِ، الْمُتَوَشِّحِ بَزَكَاءِ<sup>(١)</sup> الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ، بِأَجْمَلٍ  
 مِنَ الْقَلَائِدِ، فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ، الْمُتَنَاوِلِ بِالْعَزْمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ، وَالْجِدِّ الْمُوَاتِي الْمُسَاعِدِ،  
 وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ، ذَوَائِبِ مُلْكِهِمُ الرَّاسِي الْقَوَاعِدِ، الْكَرِيمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ،  
 جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ، وَنَاطِظِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالشُّوَارِدِ، وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ،  
 فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ، بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ، وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاقِدِ، النَّبِيرِ  
 الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ، نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ الْمَرَاشِدِ، وَنِعْمَتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوَارِدِ، وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ  
 بِالْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ، وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ، الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ،  
 وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ، وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَابِدِ، وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ  
 رَوْنَقَ الشُّبَابِ الْعَائِدِ، وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُطِيلُهَا إِنْكَارُ الْجَاكِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ، أَمِيرِ  
 الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٣)</sup> أَبِي فَارِسِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعْظَمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمِ  
 إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ الْمُجَاهِدِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ  
 الْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي<sup>(٤)</sup> مَرِينٍ، الَّذِينَ جَدَّدُوا الدِّينَ، وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ، وَمَحَا  
 آثَارَ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ، أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ، وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ،  
 وَبَعَثَهُ إِلَى خَزَائِنِهِمْ<sup>(٥)</sup> الْمُؤَقَّفَةَ لِطَلْبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقُرُوبَيْنِ مِنْ مَدِينَةِ فَاسٍ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ  
 وَكَرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ، حَيْثُ مَقَرُّ الْهُدَى، وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خُضْلَةُ النَّدَى، وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ  
 الرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ الْمَدَى، وَالْإِمَامَةُ الْفَارِسِيَّةُ<sup>(٦)</sup> الْكَرِيمَةُ الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيفِ،

١ - في ن: من زكاء.

٢ - المائد: الذي أصابه دوار البحر.

٣ - في ن: الخليفة أمير المؤمنين، التوكل على رب العالمين، أبو العباس أحمد، ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس  
 أبي عبد الله محمد، ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين. من أئمة  
 الموحدين الذين جددوا الدين، ونهجوا السبل للمهتدين، ومحو آثار البغاة المفسدين من المحسمة والمعتدين. سلالة أبي  
 حفص الفاروق، والنبتة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق، والنور المتلاهي من تلك الأشعة والبروق. فأوردته  
 من مودعها إلى العلى بحيث مقر الهدى، ورياض المعارف، خضلة الندى.. إلى آخر ما ذكره هنا إلا أنه لم يقيد  
 الإمامة بالفارسية، وهي نسخة مختصرة لعلها أول تأليفها قبل تعديلها وقبل رحلته إلى المشرق، إذ لم تذكر: ثم لما  
 كانت الرحلة إلى المشرق...

٤ - في ن: من بني مرين.

٥ - في نسخة خزانته.

٦ - نسبة إلى الخليفة أبي فارس عبد العزيز..

وَفَضْلُهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ، تَبَسُّطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِهَاداً<sup>(١)</sup>، وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ الْقَبُولِ  
 آماداً<sup>(٢)</sup>، فَتَوْضُحُ بِهَا أدِلَّةٌ عَلَى رُسُوحِهِ وَأَشْهَاداً، فَبِي سَوْفِهَا تَنْفَقُ بَضَائِعُ الْكِتَابِ، وَعَلَى  
 حَضَرَتِهَا تُعَكِّفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ، وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ  
 وَالْأَلْبَابِ، وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا، وَيُوفِّرُنَا حُظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا، وَيُعِينُنَا  
 عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا، وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا، الْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا، وَيُضْفِي عَلَى  
 أَهْلِ إِيَالَتِهَا<sup>(٣)</sup>، وَمَا أَوْى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا، لُبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا، وَهُوَ  
 سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهِتِهَا، بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ<sup>(٤)</sup> الْغَفْلَةِ  
 وَشُبْهَتِهَا، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

١ - أي سريراً.

٢ - الأمد: الزمن المحدود.

٣ - الإيالة: الوادي والولاية وأراد الدولة.

٤ - الشائبة: النقيصة والعيب.



## (أ) المقدمة

- ☐ فضل علم التاريخ وفوائده.
- ☐ الحاجة إلى السنن والقوانين النازمة للإجتماع.
- ☐ الأخطاء الناجمة عن إغفال المنهج، والجهل بالقوانين.
- ☐ نماذج من أغاليط المؤرخين.
- ☐ نماذج من أغاليط المفسرين.
- ☐ الأسباب الداعية للوقوع في الأخطاء.
- ☐ الحكم على الحوادث والقصص بالسقوط إذا خالفت:  
المعروف من طبيعة تزايد السكان في المجتمعات.  
أو النظم الحربية أو الإجتماعية.  
أو الجغرافية.  
أو التقاليد والأعراف.
- ☐ ضرورة الانتباه إلى التغيرات الإجتماعية وانقلاب المفاهيم في دراسة الحادثة التاريخية.
- ☐ التنبيه على أغراض المؤرخين القدماء.
- ☐ التعريف بمنهجية المسعودي والبكري في كتابيهما.
- ☐ تبدل الأحوال في القرن الثامن.
- ☐ الحاجة إلى إعادة كتابة التاريخ.
- ☐ اقتصاره على تاريخ المغرب [إنبه على تغير مقصده بعد رحلته إلى المشرق حيث عمّ تاريخه المشرق والمغرب].
- ☐ المصطلحات التي ابتدعها للفظ الأعلام الأجنبية.

## أ - الْمُقَدِّمَةُ

فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلِمَاعِ بِمَا<sup>(١)</sup> يَغْرُضُ لِلْمُؤَرِّخِينَ  
مِنَ الْمَغَالِطِ وَذَكَرَ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا

إِعْلَمَ أَنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ، جَمُّ الْفَوَائِدِ، شَرِيفُ الْغَايَةِ، إِذْ هُوَ يُوقِنُنَا عَلَى  
أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَخْلَافِهِمْ<sup>(٢)</sup>، وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سِيرِهِمْ، وَالْمُلُوكِ فِي دَوْلِهِمْ  
وَسِيَاسَتِهِمْ. حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الْاِقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ<sup>(٣)</sup> فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، فَهُوَ  
مُحْتَاجٌ إِلَى مَاخِذٍ<sup>(٤)</sup> مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنَ نَظَرٍ وَتَثْبُتٍ، يُفْضِيَانِ<sup>(٥)</sup> بِصَاحِبِهِمَا  
إِلَى الْحَقِّ، وَيُنْكَبَانِ<sup>(٦)</sup> بِهِ عَنِ الْمَزَلَاتِ وَالْمَغَالِطِ، لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ  
النَّقْلِ، وَلَمْ تُحْكَمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ وَالْأَحْوَالُ فِي الْاجْتِمَاعِ  
الْإِنْسَانِيِّ، وَلَا قِيَاسُ الْغَائِبِ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرِ بِالذَّاهِبِ، فَرَبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ  
الْعُتُورِ وَمَزَلَةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَةِ الصِّدْقِ.

وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ [ظ ٢/٣] وَالْمُفَسِّرِينَ وَأَيُّمَةَ النَّقْلِ مِنَ الْمَغَالِطِ فِي الْحِكَايَاتِ  
وَالْوَقَائِعِ لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا، وَلَمْ يَغْرُضُوهَا عَلَى أَصُولِهَا، وَلَا  
قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا، وَلَا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ  
النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ، فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ، وَتَاهَوْا فِي بَيِّنَاءٍ<sup>(٧)</sup> الْوَهْمِ وَالْغَلْطِ، وَلَا سِيمَا  
فِي إِحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظْنَةُ الْكَذِبِ  
وَمَطْيَةُ الْهَذَرِ<sup>(٨)</sup>، وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الْأَصُولِ، وَعَرَضُهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ، وَهَذَا كَمَا نَقَلَ  
الْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ<sup>(٩)</sup> مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
أَحْصَاهُمْ فِي التِّيهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ السِّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا

١ - في ن: لما.

٢ - جمع خِلْفَةٍ: وهم القوم المختلفون.

٣ - أي يبغي متشوقاً..

٤ - أي مصادر وموارد.

٥ - أي يؤديان.

٦ - أي يبعدهان.

٧ - أي ضاعوا في صحراء الوهم..

٨ - الهذر: سقط الكلام.

٩ - في ن: وأن.

فَكَانُوا سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَيَذْهَلُ فِي ذَلِكَ عَنْ<sup>(١)</sup> تَقْدِيرِ [١/٤٦] مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ، لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ الْحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوِطَائِنِهَا، وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا، تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ.

ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ يُعَدُّ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لَضِيقِ سَاحَةِ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبَعْدَهَا إِذَا اصْطَفَتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزِيدَ، فَكَيْفَ يَقْتُلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ، وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ، فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ.

وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ الْفَرَسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بكَثِيرٍ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتَنَصَرَ لَهُمْ وَاتِّهَامِهِ بِلَادَهُمْ وَاسْتِيلَاةِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ نَيْتِ الْمُقَدِّسِ قَاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارَسٍ يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ مَرْزَبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ تُخُومِهَا<sup>(٢)</sup> وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بكَثِيرٍ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَبْلُغْ جُيُوشُ الْفَرَسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِئَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا، كُلُّهُمْ مِثْبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ قَالَ: وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ مِئَتِي أَلْفٍ. وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ: أَنَّ جُمُوعَ رُسُومِ الَّذِينَ زَحَفَ بِهِمْ لِسَعْدِ الْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مِثْبُوعٌ.

وَأَيْضًا: فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَأَتَّسَعَ نِطاقُ مُلْكِهِمْ، وَأَنْفَسَخَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ، فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ<sup>(٣)</sup> وَالْمَمَالِكِ فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا، فِي قُلَّتِهَا وَكَثُرَتْهَا حَسَبًا بُيِّنُ فِي فَصْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ.

وَأَيْضًا: فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ أَبَاءَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ، فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرُ بْنِ قَاهَتَ — بَفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا — أَبْنِ لَاوِي — بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا — ابْنُ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>. هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ.

١ - في ث: يذهل من ذلك في.

٢ - أي الحدود.

٣ - أي المدن..

٤ - يؤخذ على المؤلف ثقته بما يذكرونه من أنساب، ولو أنه الأولى التشكيك بصحتها لأسباب عدة منها كثرة الخلاف في تعداد تلك الأسماء. إضافة إلى أنه يجب عليه بداية التوقف عند النصوص الثابتة القطعية في صحة ما يوردونه. وهم حين يقولون: إن يعقوب هو إسرائيل لا يلتزمون هذا في كل كتابهم بل على العكس تجد من نصوصهم ما ينفي صحة ذلك.. علما أن القرآن الكريم يجعل فاصلا واضحا بين إسرائيل ويعقوب. ومن يتدبر سورة مريم يجد فارقا كبيرا بين الاثنين. وكل هذا السعي الحثيث منهم لربط إسرائيل ويعقوب محاولة تأكيد

وَالْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ: دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ<sup>(١)</sup> مَعَ وَلَدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْسًا، وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ [ط ٤/١]

ارتباطهم بسلالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإلا فإن النبوة بنص كتاب الله ﷻ حصرت في ذرية نوح وإبراهيم: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».. وهم ليسوا من ذريتهما لأنهم «ذرية من حملنا مع نوح» ولو كانوا ذرية نوح لقليل: ذرية نوح. من غير هذا الفاصل.. وإلا اعتبرنا هذه الكلمات من الحشو الذي لا فائدة منه في كتاب الله ﷻ.

١ - إن الثقة بمقولات ما سمي بالتوراة يوقع في إشكالات كثيرة في ذهن الباحث المدقق، وقد كنت أرسلت رسالة إلى العلماء لا بأس بأن أوردتها. **بسم الله الرحمن الرحيم**

السادة العلماء الأفاضل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: أمل من الله ﷻ أن يلهمنا الصواب، وأن يعيننا على كشف بعض القضايا المشككة، التي تواجه الكثير من أبناء الأمة في شأن كتابها الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وخاصة فيما يتعلق في صناعة التاريخ الذي كتب وفق توجيهات أعداء المسلمين كفعل متعمد من الأعداء، وكمتابعة من غير تدقيق لمروياتهم التي تتناقض مع الكتاب الخاتم. وأحسب أن بداية المشكلة نشأت من المفهوم الذي اعتمد لحديث رسول الله ﷺ الصحيح: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا خَرَجَ».

— فهل هو في معرض المدح أم الذم؟ وإن كان في المدح فلماذا نفي الإثم؟  
وهنا تعترض القارئ لسيرة أنبياء الله ﷻ ومنهم نبي الله موسى ﷺ أسئلة توحى بتغيير الكثير من أماكن الحدث، ومواصفات الرجات، كـ:

— أين هي مصر التي تحدث عنها؟ وهل هي المعروفة الآن؟ وإن لم تكن هي، فأين موقعها؟ وهل كانوا في مصر وهبطوا مصرًا آخر كدلالة على وصف المكان الممصر؟ وهل توجد علاقة بين أسماء بعض المدن والقرى كبصرة، بصر، بصير، ومصر؟ ولماذا قال فرعون: أليس لي ملك مصر؟ ومن كان يشكك في سلطته عليها؟ وهل يشير ذلك إلى بعدها عن مركز ملكه؟ — أين توجد الأنهار التي قال عنها فرعون: وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ وما علاقتها بأنهار العراق؟ وهل توجد أنهار متعددة في مصر؟ وما هي البلاد التي تكثر فيها الأنهار؟ — أين توجد الخنات والعيون والزروع؟ — لماذا لا نعرف المن والسلوى إلا في العراق؟ — لم لا يعبد العجل إلا في الهند؟ وما علاقتهم بعبادة قوم موسى للعجل؟ ولم توجد في الهند ومحيطها مثقلة اجتماعية ودينية، هي الساموراي؟ وما صلتها بالسامري؟ ولم يحرقون موتاهم ويذرون رمادهم في نهر الغانج؟ وهل لذلك رابطة بتحريق موسى للعجل ونسفه في اليم؟ وهل يطلق اليم على النهر؟ وإن كان فهل يمكن أن يكون فعل موسى كان في الهند قرب نهر الغانج أو أن المخالفين فروا بذاك الوجه؟ — هل قوله: (وَأَرْسَلْنَا فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) يراد به مطلق جمع مدينة أم هو علم على ما يعرف بالمدائن على نهر دجلة وهي سبع مدن؟ وما سر ارتباطها بـ (مدين)؟ — أين تقع مدین؟ وهل لها حدود زمانية أو مكانية مع قوم لوط؟ وهل قوم لوط كانوا في منطقة البحر الميت؟ فكيف نوفق بين هذا وما ذكره الله تعالى عن قوم لوط وأن أهل مكة يحرون عليهم مصبحين وبالليل؟ — هل للمدينة التي خرج منها خائفًا يترقب صلة بالمدينة المعروفة بهذا الاسم (المدينة) قرب البصرة على نهر الفرات؟ — ما سر إطلاق كلمة شيعة في العراق؟ وهل كانت معروفة قديمًا ككلمة متداولة بين أفراد المجتمع القديم في تلك البقعة؟ وهل لذلك علاقة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وقوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾؟ — وهل موسى ﷺ من بني إسرائيل؟ ومن هم؟ وهل صحيح أن يعقوب هو إسرائيل؟ وما مستند ذلك؟ وما علاقتهم بذرية نوح؟ ولماذا قال تعالى: ﴿ذَرِيَّةٌ مِنْ حِمْلِنَا مَعَ نُوْحٍ﴾ ولم يقل: ذرية نوح؟ وما فائدة هذه الزيادة؟ — أين هو الواد المقدس الذي كلم فيه موسى ﷺ؟ وما هو الرابط بينه وبين قول إبراهيم ﷺ: ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ﴾؟ — هل الطور غير طور سينين؟ وهل يمكن المقارنة مع ما يعرف بجبال طوروس (علمًا أن وس - التنوين)؟ وهل يمكن أن تكون غير سيناء المعروفة؟ وما مدى القبول لقول القائل: إن طور سينين موجودة في الكوفة؟ — لماذا طلب فرعون من هامان أن يوقد على الطين ليبنى صرحًا، ولم يشر إلى البناء بالحجارة؟ هل يشير ذلك إلى طبيعة البيئة الخالية من الحجارة؟ أم أن استخدام الفخار والأجر كان هو الغالب على صناعتهم البنائية؟ وفي أي حقبة زمنية كان استخدام الأجر؟ الأخوة العلماء حفظهم الله تعالى: بعد الذي ذكرته وهو غيض من فيض. أتمنى من الله تعالى أن يوفقكم لإفادتي بأجوبة شافية تكون عونًا لي وللمستفيدين في الوصول إلى

إِلَى التَّيَّةِ مَتَيْنَ وَعَشْرَيْنَ سَنَةً تَدَاوُلُهُمْ مُلُوكُ الْقِبْطِ مِنَ الْفِرَاعَةِ. وَيَعْدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ.

وَأِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجِيُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ بَعْدَهُ فَبَعِيدٌ أَيْضًا، إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَبًا؛ فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ إِيشَا بْنِ عَوْفِدَ — وَيُقَالُ: ابْنُ عَوْفَدَ — ابْنُ بَاعَزَ — وَيُقَالُ: بُوعَزَ — ابْنُ سَلْمُونِ بْنِ نَحْشُونِ بْنِ عَمِيئُودَ — وَيُقَالُ: حَمِينَادَابَ — ابْنُ رَمِّ بْنِ حَضْرُونَ [ث ٤٦/٢] — وَيُقَالُ: حَسْرُونَ<sup>(١)</sup> — ابْنُ بَارَسَ، وَيُقَالُ: بَيْرَسَ ابْنُ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوبَ.

وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدَ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ؛ اللَّهُمَّ إِلَى الْمَتْنِ وَالْآلَافِ فَرَبِّمَا يَكُونُ، وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ فَبَعِيدٌ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْحَاضِرِ الْمُشَاهِدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ، تَجِدْ زَعْمَهُمْ بَاطِلًا وَتَقْلَهُمْ كَاذِبًا.

وَالَّذِي ثَبَتَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا خَاصَّةً، وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ<sup>(٢)</sup> كَانَتْ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةِ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةٌ عَلَى أَبْوَابِهِ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ. وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَمُلْكُهُ كَانَ عُنْفُونٌ دَوْلَتُهُمْ وَاتَّسَاعُ مُلْكِهِمْ.

هَذَا وَقَدْ نَجَدَ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، وَتَفَاوَضُوا فِي الْأَخْبَارِ عَنْ جِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النَّصَارَى، أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجَبَايَاتِ وَخَرَاجِ السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرَفِينَ وَبَضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُؤَسَّرِينَ؛ تَوَغَّلُوا فِي الْعَدَدِ، وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ، وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْإِغْرَابِ، فَإِذَا اسْتَكْشَفَ أَصْحَابُ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ، وَاسْتَنْبَطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ، وَاسْتَحْلَبَتْ عَوَائِدُ الْمُتَرَفِينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ، لَمْ تَجِدْ مَعِشَارَ مَا يَعْلُونَهُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ النَّفْسِ بِالْغَرَائِبِ، وَسَهُولَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ، وَالْعَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُسْتَقْدِ، حَتَّى لَا يُحَاسِبُ نَفْسُهُ عَلَى خَطِيئَةٍ وَلَا عَمْدٍ، وَلَا يُطَالِبُهَا فِي الْخَبَرِ بِتَوْسُطٍ وَلَا عَدَالَةٍ، وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيْشٍ، فَيُرْسِلُ عَنَانَهُ، وَيَسِيمُ<sup>(٣)</sup> فِي مَرَاتِعِ الْكَذْبِ لِسَانَهُ، وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هَزْؤًا<sup>(٤)</sup>، وَ«يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [لقمان: ٦]، وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ.

وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَقُولُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِضُونَ مِنْ قُرَاهِمُ بِالْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَأَنَّ أَفْرِيقِيْشَ بْنَ قَيْسَ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَظَمِ مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ، وَكَانَ — لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ — غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَتَخَنَ فِي الْبَرْبَرِ،

الحقيقة الشافية الكافية التي لا تدع لمرتاب شكاً، وتكون دحضاً للمفتريات التي غطت ريوها الصحيح الذي لا لبس فيه ولا حطل. وجزاكم الله خيراً، ووفقكم لما فيه رضاه من القول والعمل.

١ - في ث: رام بن حضرون، ويقال: خسرون.

٢ - أي القرية منه كالخيل.

٣ - يسيم: يرمى.

٤ - أخذه من قوله تعالى: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً» [البقرة: ٢٣١].

وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَاتَهُمْ وَقَالَ: مَا هَذِهِ الْبَرَبَرَةُ، فَأَخَذَ هَذَا الْاسْمَ عَنْهُ وَدَعَا بِهِ مِنْ حَيْثُ دُ.

وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ وَكَتَامَةٌ. وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ وَالْجُرْجَانِيُّ<sup>(١)</sup> وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيَّاسِيُّ<sup>(٢)</sup>، إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكَتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ، وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرَبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا: أَنَّ ذَا الْإِذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ أَفْرِيقَشَ — وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ — غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ؛

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ الرَّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكثَرَةِ الرَّمْلِ فَارْجَعَ؛

وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخَرِ، وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبَ — وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَأْسَفَ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْكَيَّانِيَّةِ — أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِجَانَ وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَّخَذَ ثَمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَلَاثَةً كَذَلِكَ؛ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّعْدِ مِنْ بِلَادِ أَمَمِ التُّرْكَ وَرَأَى التَّهْرَ، وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ، فَمَلَكَ الْأَوَّلَ الْبِلَادِ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ، فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا، فَأَتَّخَذَهَا فِي بِلَادِ الصِّينِ، وَرَجَعَ جَمِيعًا بِالْغَنَائِمِ، وَتَرَكُوا بِلَادَ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ فَهُمْ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ؛ وَبَلَغَ الثَّلَاثُ إِلَى قَسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا<sup>(٣)</sup> وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ.

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصَّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْقَصَصِ الْمَوْضُوعَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ مُلُوكَ التَّبَاعَةِ إِنَّمَا كَانَ بَحْرِيَّةَ الْعَرَبِ، وَفَرَارَهُمْ وَكُرْسِيَهُمْ بِصَنْعَاءَ الْيَمَنِ. وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ، وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَبَحْرُ السُّوَيْسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسَ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، كَمَا تَرَاهُ فِي مَصْوَرِ الْجُغَرَأَفِيَا، فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسَ، وَالْمَسْلُوكُ — هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسَ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ — قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا، وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصِيرَ<sup>(٤)</sup> مِنْ أَعْمَالِهِ، وَهَذَا مِمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ. وَقَدْ كَانَ بَيْنَكَ

١ - لعله حمزة بن يوسف السهمي الجرجاني صاحب تاريخ جرجان، توفي سنة ٤٢٧هـ.

٢ - في المطبوع: البيلي. خطأ. وهو منسوب إلى بياضة من كور جيان. اسمه يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري، من علماء الأندلس، ووفاته بتونس (٦٥٣هـ)، من كتبه الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام، وتاريخ ذيل به تاريخ ابن حيان. انظر الأعمال للزركلي (٢٤٩/٨).

٣ - يقال: درست الأرض، إذا انمحق أثرها. وهنا بمعنى: خربها.

٤ - في ن: يصير.

الأعمال العَمَالِقَةُ وَكَنَعَانُ بِالشَّامِ وَالْقَبْطُ بِمِصْرَ، ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالِقَةُ مِصْرَ، وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ، وَلَمْ يُقَلِّ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا مَلَكَوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ<sup>(١)</sup>.

وَأَيْضًا: فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ، وَالْأَزُودَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ، فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ احْتَجَّاجًا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنَّعْمِ وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمْرُونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً، وَإِنْ تَقَلُّوا كَفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَقِي لَهُمُ الرُّوَاهِلُ بِنَقْلِهِ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمْرُوا فِي طَرِيقِهِمْ مِنْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخَوْهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ<sup>(٢)</sup> مِنْهَا، وَإِنْ قُلْنَا: إِنْ تِلْكَ الْعَسَاكِرُ تَمَرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهَيِّجَهُمْ فَتَحْصُلَ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ، فَذَلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا، فَذَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ.

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُعْجَزُ السَّالِكُ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمِنْ يَقْصُ طَرَفَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَأَهْلِ الْقَرْىِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ.

وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ، وَأُمَمُ فَارَسَ وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ، وَلَمْ يُقَلِّ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ مَلَكَوا بِلَادَ فَارَسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارَسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ<sup>(٣)</sup> وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دَجَلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِذْعَارِ مِنْهُمْ وَكِكَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِلَانِيَّةِ، وَبَيْنَ تَبْعِ الْأَصْغَرِ أَبِي كَرْبَ وَيَسْتَأْسَفُ مِنْهُمْ أَيْضًا، وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكِلَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمَجَاوِزَةِ أَرْضِ فَارَسَ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ.

فَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ، وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا، فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ.

وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ: إِنَّ تَبْعًا آخَرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ، مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارَسَ.

وَأَمَّا بِلَادُ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهِ لَمَّا تَقَرَّرَ.  
فَلَا تَتَقَنَّ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ، وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَانِينِ الصَّحِيحَةِ، يَقَعُ لَكَ تَمَحُّصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهِ. وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ.

١ - أي البلاد.

٢ - أي غذاء الجند والدواب.

٣ - مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النحف.

## ١-١- فصل

[في مداخل وهم أهل التفسير]

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ فِي الْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمَفْسُورُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٧] فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ: أَسَاطِينٍ، وَيَقُولُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا: شَدِيدٌ وَشَدَادٌ، مَلَكًا مِنْ بَعْدِهِ، وَهَلَكَ شَدِيدٌ، فَخَلَصَ الْمَلِكُ لِشَدَادٍ، وَدَانَتْ لَهُ مَلُوكُهُمْ، وَسَمِعَ وَصَفَ الْحَنَّةَ فَقَالَ: لِأَيْنِينَ مِثْلُهَا، فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةٍ ثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنْ الذَّهَبِ، وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبْرَجَدِ وَالْيَاقُوتِ، وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ الْمُطَرَّدَةِ، وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا، سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ. ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ<sup>(١)</sup> وَالثَّعَالِبِيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ<sup>(٢)</sup> وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَيَقُولُونَ<sup>(٣)</sup> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قِلَابَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ<sup>(٤)</sup> أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ خَبْرُهُ مُعَاوِيَةَ، فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ، (فَبَحَثَ عَنْ)<sup>(٥)</sup> كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ، وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشَقَرُ قَصِيرٌ، عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ، وَعَلَى عُنُقِهِ<sup>(٦)</sup> خَالٌ، يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ، ثُمَّ التَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهِ - ذَلِكَ الرَّجُلُ.

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَصَحَارَى عَدَنَ - الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا - هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ، وَمَا زَالَ عُمُرَانُهُ مُتَعَاقِبًا، وَالْأَدِلَاءُ تَقْصُّ طَرْقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ، وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنْ

١ - لم يذكر الإمام الطبري هذه الحادثة في تفسيره ولا في تاريخه!!

٢ - الكشف: (٢٥٠/٤).

٣ - أي الزمخشري والثعالبي، إذ لم يذكرها الطبري.

٤ - لم أجد ابن قلابة في الكتب المصنفة عن الصحابة، ولا في تراجم من بعدهم!! ولعلهم أرادوا عبد الله بن زيد أبا قلابة الجرمي، وقد كان في أيام معاوية وروايته عنه مرسلة، وكان من الصالحين، توفي سنة ١٠٦ أو ١٠٧ هـ. انظر تهذيب الكمال (١٤/٥٤٢ - ٥٤٨).

٥ - في الكشف (٢٥٠/٤): فبعث إلى.

٦ - في الكشف: عقبه.



الإخباريين وَلَا مِنْ الْأُمَمِ، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّهَا دُرُسَتْ فِيمَا دُرُسَ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهُ، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهَا دِمَشْقُ<sup>(١)</sup>، بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا، وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذَا بِنَاءً بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْتَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحَرِ، مَزَاعِمُ كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخُرَافَاتِ.

وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ، وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً، وَرَشَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ: عَادِ إِرَمَ عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ، ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَقْصَايِصِ الْمَوْضُوعَةِ، وَالَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذْبِ، الْمَنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْجِحَاتِ.

وَالْإِذَا فَالْعِمَادُ هِيَ: عِمَادُ الْأَخْيَةِ، بَلِ الْحِيَامِ، وَإِنْ أُريدَ بِهَا الْأَسَاطِينُ فَلَا بَدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لَا أَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَضِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ، كَمَا تَقُولُ: قُرَيْشُ كِنَانَةَ، وَإِلْيَاسُ مُضَرَ، وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ. وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا الْمَحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمَحَّلَتْ<sup>(٢)</sup> لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ، الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصَّحَّةِ.

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَذْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ مَوْلَاهُ، وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخَمْرَ، أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوةِ، حِرْصاً عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي التَّمَاسِ الْخُلُوةَ بِهِ؛ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَقَعَهَا - زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ - فَحَمَلَتْ، وَوُشِيَ بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ فَاسْتَغْضَبَ.

وَهِيَ هَاتِ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوِيَّهَا وَجَلَالِهَا، وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعَظَمَاءُ الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ.

١ - انظر هذا القول في تفسير الطبري، وذكر أيضاً من يقول: إنها الإسكندرية. وللمحامي أحمد غسان سبانو دراسة مطولة يحاول فيها إثبات أنها دمشق من خلال بعض الحفريات.

٢ - أي احتيل لتوجيهه.

وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِي الْخُلَفَاءِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْنَةُ خَلِيفَةٍ، وَأُخْتُ خَلِيفَةٍ [ظ ٤/٢]، مُحْفُوفَةٌ بِالْمُلْكِ الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَعُمُومِيَّةِ وَإِمَامَةِ<sup>(١)</sup> الْمِلَّةِ وَنُورِ الْوَحْيِ وَمَهَبِطِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا، قَرِيبَةٌ عَهْدٍ بِيَدَاوَةِ الْعُرُوِّيَّةِ وَسَدَاجَةِ<sup>(٢)</sup> الدِّينِ الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ، فَأَيُّنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا؟! أَوْ أَيُّنَ تُوجَدُ الطَّهَارَةُ وَالزَّكَاةُ<sup>(٣)</sup> إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا؟! أَوْ كَيْفَ تَلْحَمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدْنِسُ شَرَفَهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوَالِيٍّ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ بِمِلْكَةٍ جَدَّةٍ مِنَ الْفُرْسِ؟! أَوْ بَوْلَاءَ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟! وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتَهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبَعَ أَيْنِهِ<sup>(٤)</sup>، وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ، وَكَيْفَ يَسُوغُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ يُصْهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ؟! وَلَوْ نَظَرَ الْمُتأملُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ، وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِأَيَّةِ مَلِكٍ مِنْ عَظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَاسْتَنَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوَالِيٍّ مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا، وَاسْتَنَكَرَهُ وَلَجٌ<sup>(٥)</sup> فِي تَكْذِيبِهِ، وَأَيُّنَ قَدَّرَ الْعَبَّاسَةَ وَالرَّشِيدَ مِنَ النَّاسِ!!

وَأِنَّمَا نَكَبُ الْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَانِهِمْ<sup>(٦)</sup> أَمْوَالَ الْجَبَايَةِ، حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يُطْلَبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ، فَعَلْبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ، فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ، وَبَعُدَ صِيَّتُهُمْ، وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخَطَطُهَا<sup>(٧)</sup> بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، وَاحْتَازُواهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وَزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ.

يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ بَدَارَ الرَّشِيدِ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ، زَاخَمُوا فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَاكِبِ، وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا

١ - في ن: إقامة.

٢ - السداج: الذي على لونٍ واحدٍ لم يخالطه غيره.

٣ - أي الطهارة والنقاء.

٤ - أي بقوتهم.

٥ - أي بالغ.

٦ - احتجانه: أي اقتطاعها والتفرد بها، والضم بها. وفي ن: احتجافهم، أي: استخلاصهم وحوزهم لها.

٧ - أي ما فيه إمارة ولو كانت محدودة.

بِالرَّاحِ<sup>(١)</sup>؛ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَفَالَةِ هَارُونَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخَلِيفَةٍ، حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ، وَدَرَجَ مِنْ عَشَّةٍ، وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ يَدْعُوهُ: يَا أَبَتِ، فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ، وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ، وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ، وَأَنْصَرَفَتْ نَحْوُهُمْ الْوُجُوهُ، وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ، وَقَصُرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالُ، وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَتَحَفُ الْأَمْراءِ، وَتَسَرَّبتْ<sup>(٢)</sup> إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ، وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ<sup>(٣)</sup> وَعُظَمَاءِ الْقَرَابَةِ الْعَطَاءَ، وَطَوَّقُوهُمْ الْمِنَنَ، وَكَسَبُوا مِنْ بَيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْدَمِ، وَفَكُّوا الْعَانِي<sup>(٤)</sup>، وَمُدِّحُوا بِمَا لَمْ يُمدِّحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ، وَأَسْنَوْا<sup>(٥)</sup> لِعِفَاتِهِمْ<sup>(٦)</sup> الْجَوَائِزَ وَالْصَّلَاتِ، وَاسْتَوَلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاهِي وَالْأَمْصَارِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ، حَتَّى أَسَفُوا<sup>(٧)</sup> الْبَطَانَةَ، وَأَحَقَّقُوا الْخَاصَّةَ، وَأَغَصُّوا أَهْلَ الْوِلَايَةِ، فَكُشِفَتْ لَهُمْ وَجُوهُ الْمُتَنَافِسَةِ وَالْحَسَدِ، وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِهِمُ الْوَثِيرِ مِنَ الدَّوْلَةِ عِقَابُ السَّعَايَةِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ، لَمْ تَعْطِفَهُمْ - لَمَّا وَقَرَ فِي نَفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ - عَوَاطِفُ الرَّحِمِ، وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ، وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْذُومِهِمْ نَوَاشِيءَ الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ، وَكَأَمِنْ<sup>(٨)</sup> الْحُقُودِ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ، وَأَنْتَهَى [ظ ١/٥] بِهَا الْإِصْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحَسَنِ<sup>(٩)</sup> بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ الْمَلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ، وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ، وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ، وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ

١ - الراح: الأكف.

٢ - في ن: سيرت.

٣ - أي من يشايهم وينصرهم.

٤ - الذي كبلته الديون أو غيرها.

٥ - أي أجزلوا.

٦ - أي من يقصدهم لحاجة.

٧ - أسف: تتبع مذاق الأمور، وهرب من صاحبه. فكأنه بأفعاله قد ساعد على ابتعاد خاصته منه خوفاً من تتبع

دقائق أمورهم.

٨ - في ن: كان من..

٩ - انظر جمهرة أنساب العرب ص: ٤٥.

وإلى نظره، فحبسه مدة، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله، والاستبداد<sup>(١)</sup> بحل عقاليه، حرماً لدماء أهل البيت بزعمه، ودالة على السلطان في حكمه. وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه، ففطن وقال: أطلقته، فأبدى له وجه الاستحسان، وأسرّها في نفسه، فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه، حتى ثلّ عرشهم، وألقيت عليهم سماؤهم، وخسفت الأرض بهم وبدارهم، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم، ومن تأمل من أخبارهم، واستقصى سير الدولة وسيرهم، وجد ذلك: مُحَقَّقُ الأثر، مُمَهَّدُ الأسباب.

وانظر ما نقله ابن عبد ربّه في مفاوضة الرشيد عم جدّه إسحاق<sup>(٢)</sup> بن عليّ في شأن نكبتهم، وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاوراة الأصمعيّ للرشيد وللفضل ابن يحيى في سمرهم تفهّم أنّه إنّما قتلتهُم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسّوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعيه للخليفة وتحريك حفاظيه لهم وهو قوله<sup>(٣)</sup>:

كَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْنَا مَا تَعِدُ      وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ

وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً      إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبَدُّ

وإنّ الرشيد لما سمعها قال: إيّ والله إنّي عاجز. حتّى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته، وسلطوا عليهم بأس انتقامه. نعوذ بالله من غلبة الرجال، وسوء الحال. وأما ما تمّوه به الحكاية من معاورة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان، فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل ابن عياض وابن السماك<sup>(٤)</sup> والعُمري<sup>(٥)</sup> ومكاتبتيه سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، وبكائه من مواعظهم، ودُعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العباداة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأوّل وقتها.

١ - الاستقلال بالأمر.

٢ - في الأصول: (داود) وصوابه: إسحاق بن علي كما في العقد الفريد (٥/٢٩٦).

٣ - القائل: عمر بن أبي ربيعة. انظر ديوانه.

٤ - هو أبو العباس محمد بن صبيح بن السماك من العباد الزهاد.. مترجم في حلية الأولياء (٨/٢٠٣-٢١٧).

٥ - هو عبد الرحمن بن عبد الله، عينه الرشيد قاضياً لمصر عام ١٨٥هـ.

حَكَى الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً، وَكَانَ يَغْزُو عَامًّا وَيَحُجُّ عَامًّا وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ مُضْجِكُهُ فِي سَمَرِهِ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي لِمَ؟ فَمَا تَمَالِكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ مُغَضَّبًا. وَقَالَ: يَا ابْنَ أَبِي مَرْيَمَ فِي الصَّلَاةِ أَيْضًا!! إِيَّاكَ وَإِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَ، وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا.

وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّادَةِ بِمَكَانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ الْمُتَحَلِّينَ لِذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ زَمَنٍ، إِنَّمَا خَلَفَهُ غُلَامًا، وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ قَبْلَ [ظه/٢٥] الْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا، وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ الْمُوطَأِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ، وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ، فَضَعْتُ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، تَجَنَّبَ فِيهِ رُحْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمرَ، وَوَطِئَهُ لِلنَّاسِ تَوَاطُؤًا. قَالَ مَالِكٌ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ.

وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوفِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ الْحَيَاطِينَ فِي إِرْقَاعِ الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ، فَاسْتَنَكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَيَّ كُسُوفُ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامِنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي، فَقَالَ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ، وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأُبُونَتِهِ، وَمَا رَبِّي عَلَيْهِ مِنْ أُمُثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالتَّحَلُّقِ بِهَا، أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا، وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنْ الْكَرْمُ شَجَرَتُهُمْ، وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومًا عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ، وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَبَجٍّ<sup>(١)</sup> مِنْ اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّحَلُّقِ بِالْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ.

وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ<sup>(٢)</sup> وَالْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ بَخْتِشُوعَ الطَّيِّبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَفَطِنَ الرَّشِيدُ، وَارْتَابَ بِهِ، وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ، فَأَعَدَّ ابْنُ بَخْتِشُوعَ لِلْإِعْتِذَارِ ثَلَاثَ

١ - التَّبَجُّ: وسط الشيء ومعظمه.

٢ - لم يذكر الطبري هذه القصة في تاريخه!!

قَطَعَ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ: خَلَطَ إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمُعَالَجِ بِالتَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْبُورَادِ وَالْحُلُوى، وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُثْلَجًا، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي: هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ السَّمَكُ بغيره أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ، وَقَالَ فِي الثَّالِثِ: هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتِشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ، حَتَّى إِذَا انْتَبَهَ الرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ، فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَتَاعَ<sup>(١)</sup> وَتَفَتَّتْ، وَوَجَدَ الْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا، فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْدِرَةٌ، وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ. وَلَقَدْ ثُبِتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بَحْبَسِ أَبِي نُوَّاسٍ<sup>(٢)</sup> لِمَا بَلَغَهُ مِنْ انْهِمَاكِهِ فِي الْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ.

وَأَمَّا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ. وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا<sup>(٣)</sup>، وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا، فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ بَحِيثُ يَوَاقِعَ مُحَرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ، وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنْ ارْتِكَابِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَسَاوِلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ حَشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظَرِ، وَعَنِ الْجِلَّةِ<sup>(٤)</sup> إِلَى الْحُرْمَةِ.

وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيفَةِ [ظ ١/٦] مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللَّحْمِ وَالسَّرُوجِ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةِ أَحَدَثِ الرُّكُوبِ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ. وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ!! وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ بَأْتَمٍّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهَمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ.

١ - في ن: أماع. وتاع القيء والشيء: خرج وسال وذاب.

٢ - هو الشاعر المشهور الحسن بن هانئ، توفي سنة ١٩٨ هـ.

٣ - في ن: به.

٤ - في ن: الحليّة.

وَيُنَاسِبُ هَذَا - أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ - مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَ، وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ، فَدُفِنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ، وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ:

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ      قَدْ جَارَى فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي  
إِنِّي غَفَلْتُ عَنْ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي      كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالِدِّينِ

وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمٍ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ، وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ النَّيِّدُ<sup>(١)</sup>، وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عَنْدهُمْ، وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خَلَّةً فِي الدِّينِ، وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عَشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانًا فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوفِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ، وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا<sup>(٢)</sup>، فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْمَعَاقِرَةِ؟!.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ كَانَ مِنْ عَلِيَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي، وَخَرَّجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ [فِي] كِتَابِهِ الْجَامِعِ<sup>(٣)</sup>. وَذَكَرَ الْمِزِّي<sup>(٤)</sup> الْحَافِظُ: أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ. فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ.

وَكَذَلِكَ مَا يَنْبِذُهُ بِهِ الْمُجَانُّ<sup>(٥)</sup> بِالْمَيْلِ إِلَى الْغُلَمَانِ بُهْتَانًا عَلَى اللَّهِ، وَفَرِيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخَلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ، وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ مُنْزَهًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَقَدْ<sup>(٦)</sup> ذَكَرَ لَابْنُ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَنْ يَقُولُ

١ - الذي نقل عن يحيى بن أكثم يثبت أنه لم يكن ممن يبيع شرب النبيذ ما دام فيه الإسكار في قلته أو كثرته، وإذا شرب فلأنما يشرب الماء الذي نبذ فيه التمر أو غيره حتى ظهرت فيه الحلاوة. نقل المزي في تهذيب الكمال (٢١٧/١٣) عن علي بن حشرم قال: أخبرني يحيى بن أكثم أنه صار إلى حفص بن غياث فتعشى عنده، فأتي حفص بعس [أي: قدح ضخم] فشرب منه ثم ناوله أبا بكر بن أبي شيبة فشرب منه، فناوله أبو بكر يحيى بن أكثم فقال له: يا أبا بكر أيسكر كثيره؟ قال: إي والله، وقليله. فلم يشرب.

٢ - في ن: جماعة.

٣ - أي كتاب الجامع الصحيح المعروف بسنن محمد بن عيسى الترمذي.

٤ - في الأصول: المزني. خطأ. وهو الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي صاحب تهذيب الكمال، وقوله هذا في

(٢٠٩/٣١).

٥ - في ن: يشجه المجان.

٦ - في ن: لقد.

هَذَا؟! وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا. وَأَثْنَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي، فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ، فَقَالَ: مُعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بِتَكْذِيبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ. وَقَالَ أَيْضًا: [كَانَ] <sup>(١)</sup> يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ أَتْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغُلَمَانِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانٍ فِي الثَّقَاتِ <sup>(٢)</sup> وَقَالَ: لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ.

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ <sup>(٣)</sup> مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْلِ <sup>(٤)</sup> فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَيْتِهِ بِبُورَانَ <sup>(٥)</sup> وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ بِسَكِّكَ بَغْدَادَ فِي زُبَيْلٍ مُدَلَّى مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقَ وَجُدُلٍ مُغَارَةٍ الْفَتْلِ <sup>(٦)</sup> مِنَ الْحَرِيرِ، فَاعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ، فَاهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا إِلَى مَجْلِسٍ شَأْنُهُ كَذَا، وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَنْضِيدِ أَيْبَتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ، وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةُ الْجَمَالِ فَتَانَةٌ الْمَحَاسِنِ [ظ ٢/٦] فَحِيَّتَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْخَمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ ائْتِظَارِهِ، وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا. وَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ، وَأَخَذِهِ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْمِلَّةِ، وَمُنَاطَرَتِهِ الْعُلَمَاءَ، وَحِفْظِهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَّاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ <sup>(٧)</sup> فِي التَّطَوُّافِ بِاللَّيْلِ، وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ، وَغَشْيَانِ السَّمَرِ، سَبِيلِ عُشَّاقِ الْأَعْرَابِ؟! وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا، وَمَا كَانَ بَدَارَ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَفَافِ؟! وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ، وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ.

١ - ما بين: [ زيادة من تهذيب الكمال.

٢ - الثقات: (٢٦٥/٩ - ٢٦٦) وانظر تفصيل أخباره في تهذيب الكمال.

٣ - انظره في العقد الفريد (١٤٢/٨ - ١٤٨).

٤ - أي القفة الكبيرة.

٥ - اسمها: حديجة وعرفت ببوران. انظر العقد الفريد (٢١٨/١).

٦ - مغارة الفتل: من قوله: أنمار، أي: شد الفتل.

٧ - المستهتر: المولع بالشيء لا يبالي بما فعل فيه، ومن كثرت أباطيله.



وَأِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثُ بِهَا الْإِنْتِهَاكُ فِي اللَّذَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَهَتْكَ قَنَاعُ الْمُخَدَّرَاتِ<sup>(١)</sup>، وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونُهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَاتِهِمْ، فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا يَنْهَجُونَ<sup>(٢)</sup> بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ، وَيُنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ الدَّوَاوِينِ، وَلَوْ اتَّسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

وَلَقَدْ عَدَلْتُ<sup>(٣)</sup> يَوْمًا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَوُلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ. وَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ، فَقَالَ لِي: أَفَلَا تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرَئِيسَ الْمُغْنَيْنِ فِي زَمَانِهِ؟! فَقُلْتُ لَهُ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَهَلَا تَأْسَيْتَ بِأَيِّهِ وَ<sup>(٤)</sup> أَخِيهِ!! أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ؟! فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّحِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي الْعَبِيدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ مِنْ نَفِيهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَالطَّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لُفِّتْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، تَزَلُّفًا إِلَيْهِمْ بِالْقَدَحِ فِيمَنْ نَاصَبَهُمْ، وَتَقَنُّنًا فِي الشُّمَاتِ بَعْدُوهُمْ، حَسَبًا نَذْكُرُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَيَعْفُلُونَ عَنِ التَّفَطُّنِ لَشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ، وَأَدَلَّةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ، مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ، وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ مُتَّفَقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ: أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْتَسِبَ لَمَّا دَعَا بِكُتَامَةِ لِلرُّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ، وَعُلِمَ تَحْوِيمُهُ عَلَى عُيَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ، خَشِيَ عَلَى أَنْفُسِهِمَا، فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلِّ الْخِلَافَةِ، وَاجْتَازَا بِمِصْرَ، وَأَنْتَهُمَا خَرَجَا مِنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فِي زِيِ التَّجَارِ وَنَمِي خَيْرُهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فَسَرَّجَ فِي طَلَبِهِمَا الْخِيَالَةَ حَتَّى إِذَا أُدْرِكََا خَفِيَ حَالُهُمَا عَلَى تَابِعِهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيِّ، فَأَفْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَنَّ الْمُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ

١ - الخدر: ستر يمد للحارية في ناحية البيت. فالخدر: اللازمة للخدر.

٢ - نهج: سلك.

٣ - العذل: الملامة.

٤ - في ن: أو.

أُمَرَاءَ أَفْرِيقِيَّةَ بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مَدْرَارَ أُمَرَاءَ سَجَلْمَاسَةَ<sup>(١)</sup> بِأَخْذِ الْآفَاقِ عَلَيْهِمَا، وَإِذْكَاءَ الْعُيُونِ فِي طَلِبِهِمَا، فَعَثَرَ أَلِيشَعُ صَاحِبُ سَجَلْمَاسَةَ مِنْ آلِ مَدْرَارَ عَلَى خَفِيٍّ مَكَانِهِمَا بَيْلَدَهُ [ظ ١/٧] وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ. هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِمَازِ، وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَّ الْأُبْلَمَةِ<sup>(٢)</sup>، وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ، وَيَزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بَعْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرُ الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدَّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُعَاضَبَةِ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاءِ الْعَجَمِ، وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا، وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَعْضُونَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ، وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يَنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ، وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ لِدَعَايٍ فِي النَّسَبِ، يَكْذِبُ فِي اتِّحَالِ الْأُمَرَاءِ؟!

وَأَعْتَبِرْ حَالَ الْقُرْمُطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي اتِّسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ، وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ، وَظَهَرَ سَرِيعًا عَلَى خُبْنِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ، وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ!! وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعُبَيْدِيِّينَ كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ أَمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ<sup>(٣)</sup>

فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِئَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُصْلَاهُ، وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفِنَهُ، وَمَوْقِفَ الْحَجِيجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ.

ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وَشَيَعُهُمْ<sup>(٤)</sup> فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ. وَلَقَدْ خَرَجُوا مَرَارًا بَعْدَ ذَهَابِ الدَّوْلَةِ. وَذُرُوسَ أَثَرِهَا، دَاعِينَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ، هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَعْقَابِهِمْ، يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَلَفٍ قَبْلَهُمْ

١ - مدينة في جنوب المغرب، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، عند نهاية جبال درن.

٢ - يقال: المال بيننا شق الأبلمة أي: نصفين.

٣ - من قصيدة لزهير بن أبي سلمى.

٤ - في ن: شيعتهم.

مِنَ الْأَيْمَةِ، وَلَوْ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْإِتِّصَارِ لَهُمْ، فَصَاحِبُ  
الْبِدْعَةِ لَا يَلِيسُ فِي أَمْرِهِ، وَلَا يُشَبَّهُ فِي بَدْعَتِهِ، وَلَا يُكَذَّبُ نَفْسُهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ.  
وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ<sup>(١)</sup> شَيْخَ النَّظَارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، كَيْفَ يَجْنَحُ  
إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ، وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ!! فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ  
مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ، وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ، وَلَيْسَ  
إِثْبَاتُ مُنْتَسِبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فِي كُفْرِهِمْ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ  
عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ يَعِظُهَا: «يَا فَاطِمَةُ اْعْمَلِي فَلَنْ  
أُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»<sup>(٢)</sup>.

وَمَتَى عَرَفَ أَمْرُ قَضِيَّةٍ أَوْ اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ<sup>(٣)</sup> بِهِ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ  
وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالٍ لِيُظَنَّ الدُّوْلَ بِهِمْ، وَتَحْتَ  
رَقَبَةٍ مِنَ الطُّغَاةِ لِتَوْفَرِ شَيْعَتِهِمْ، وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَتَكَرُّرِ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ  
أُخْرَى، فَلَاذَتْ رَجَالَتُهُمْ بِالْإِخْتِفَاءِ، وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرِفُونَ كَمَا قِيلَ<sup>(٤)</sup>:

فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ مَا اسْمِي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ [ظ ٢/٧] الْإِمَامُ جَدُّ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ،  
سَمَّيْتُهُ بِذَلِكَ شَيْعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ، حَدَرًا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ، فَتَوَصَّلَ<sup>(٥)</sup>  
شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ، وَازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْفَائِلِ<sup>(٦)</sup>  
لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ، وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأُمَرَاءُ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلِّوْنَ لِخُرُوبِهِمْ مَعَ

١ - هو محمد بن الطيب، مات ٤٠٣ هـ.

٢ - أخرجه البزار (٢٨) من حديث حذيفة بإسناد لا بأس به بلفظ: «يا فاطمة اعملي لله خيراً، فإني لا أغني  
عنك من الله شيئاً يوم القيامة». انظره في مجمع الزوائد (٢٧/١) رقم (١٤٧). وأخرجه أحمد (٣٣٣/٢)، ٣٦٠،  
٥١٩ (البخاري في الأدب المفرد (٤٨) ومسلم (٢٠٤) والترمذي (٣١٨٥) والنسائي (٢٤٨/٦) من حديث أبي  
هريرة بلفظ: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئاً». وفي لفظ للبخاري في صحيحه  
(٤٧٧١): «يا فاطمة بنت محمد، سيلي من مالي ما شئت لا أغني».

٣ - أي يخبر به ويبلغه.

٤ - نسيبه القالي في الأمالي (١٣٧/٣) لمالك بن الربيع.

٥ - في ن: فتوصل.

٦ - قال رأيه: أخطأ وضعف.

الأعداء، يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ الْعَجَزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرَبْرِ الْكُتَّامِينَ شَيْعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ، حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقَضَاءُ بَغْدَادَ بَنَفِيهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَنْ أَعْلَامُ النَّاسِ جَمَاعَةً مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِيِّ. وَمِنْ الْعُلَمَاءِ: أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصَّيْمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبْيُورْدِيُّ<sup>(١)</sup> وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ النُّعْمَانِ فَقِيهُ الشَّيْعَةِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بَبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعَ مِئَةَ فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ، وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لِمَا اشْتَهَرَ وَعُرفَ بَيْنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبُهَا شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ، فَفَقَلَهُ الْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ، وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا وَعَوَّهُ، وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ.

وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَضِدِ فِي شَأْنِ عُيَيْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ الْأَغْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَابْنِ مِدرَارٍ بِسِجْلِمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ، فَالْمُعْتَضِدُ أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ.

وَالدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ سُوقٌ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بِضَائِعُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، وَتُلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحِكْمِ، وَتُخَذَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرُّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ، وَمَا نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَّةِ، فَإِنْ تَنَزَّهَتِ الدَّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمِيلِ وَالْأَفْنِ<sup>(٢)</sup> وَالسُّفْسَفَةِ، وَسَلَكَتْ النَّهْجَ الْأَمَمَ<sup>(٣)</sup>، وَلَمْ تَحْزُ<sup>(٤)</sup> عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، نَفَقَ فِي سُوقِهَا الْإِبْرِيزُ الْخَالِصُ وَاللَّجِينُ الْمُصْفَى، وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْحَقُودِ، وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةٍ<sup>(٥)</sup> الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ، نَفَقَ الْبَهْرَجُ وَالزَّائِفُ. وَالتَّاقِدُ الْبَصِيرُ نَظَرُهُ قِسْطَاسٌ بِحُثِّهِ وَمِيزَانُهُ وَمُلْتَمَسُهُ.

وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرٌ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضَوَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْإِمَامَ بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، وَيَعْرِضُونَ تَغْرِيصَ الْحَدِّ<sup>(٦)</sup> بِالتَّنْظُنِ فِي الْحِمْلِ الْمُخْلَفِ عَنْ إِدْرِيسَ

١ - نسبة إلى أبيورد ويقال لها: أبورد، وبورد، وهي بليدة بخراسان. انظر ترجمة محمد بن أحمد بن محمد الأبيوردي، في وفيات الأعيان (١٤/٢).

٢ - أي الإفساد، من قولهم: أفن الناقة، أي حلبها في غير حينها فيفسدها ذلك.

٣ - الأمم: المعتدل، الوسط.

٤ - أي لم تجاوز. وفي ن: تجر. أي تميل وتنحرف.

٥ - في ن: بسماسرة العرب البغي..

٦ - في ن: (الحسد). والحد المقصود به: حد القذف.

الأكبر إنه لإرشاد مولاهم، فَبَحَهُمُ اللهُ وَأَبْعَدَهُمُ مَا أَجْهَلَهُمْ، أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ، وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ، وَأَنَّ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ، إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ يَتَأْتِي فِيهَا الرَّيْبُ، وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَرَأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ، وَمَسْمَعٍ مِنْ حَيْرَانِهِنَّ، لِتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ، وَتَطَامُنِ الْبُنْيَانِ، وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ، وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَكَّلِي خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَشَيْعَتِهِمْ، وَمُرَاقَبَةٍ مِنْ كَافَتِهِمْ، وَقَدْ اتَّفَقَ بِرَأْبَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَّةً عَلَى بَيْعَةِ إِدْرِيسَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ، وَآتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَى وَإِصْفَاقٍ<sup>(١)</sup>، وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارِ الْمَنَابِيا فِي حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ [ظ ٨/١]، وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيَّةِ، أَوْ قَرَعَتْ أَسْمَاعُهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ. كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْتَالِهِمْ، وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَالِهِمْ - كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةٍ - وَوُلَاتِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخِ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى الْأَغَالِبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ، وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ، وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَتَمَّ أَمْرُهُ، وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ، وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيسَةِ التَّشْيِيعِ لِلْعُلُوِّيَّةِ، وَإِذْهَانِهِ فِي نَجَاةِ إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ إِدْرِيسَ، فَأَظْهَرَ اللَّحَاقَ بِهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ، فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ، وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ، وَنَاوَلَهُ الشَّمَاخَ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ<sup>(٢)</sup> بِهِ، وَوَقَعَ خَبْرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ لَمَّا رَجَوَهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوِّيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، وَاقْتِلَاعِ حُرُوتِهَا.

وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْجَمَلِ الْمُخْلَفِ لِإِدْرِيسَ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلَّا وَلَا، وَإِذَا بِالْدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ، وَالشَّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَدَوَّلَتْهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ، وَكَانَ الْفَشْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ، فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرْبَرِ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلُ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ

١ - أصفى القدر: ملاه. وأصفقوا على كذا: أطبقوا وأجمعوا.

٢ - أي أهلكه، من قولهم: استهلك المال، إذا أنفقته وأنفده.

فَزَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقَةٍ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ، وَحَسَمَ الدَّاءَ الْمَتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ، وَاقْتِلَاعَ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ (١) مِنْهُمْ، يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خَلَفَائِهِمْ، فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَنْ بَرَابَرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ، وَلِمِثْلِهَا مِنَ الزَّبُونِ عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ، لِمَا طَرَقَ الْخِلَافَةُ مِنْ انْتِزَاءِ مَمَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى سُدَّتَيْهَا، وَامْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا، وَتَضَرُّيفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوْعَ أَغْرَاضِهِمْ فِي رِجَالِهَا وَجَبَائِثِهَا وَأَهْلِ خِطَطِهَا، وَسَائِرِ نَقْضِهَا وَإِبْرَامِهَا، كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

خَلِيفَةُ فِي قَفَصٍ      يَبْنِي وَصَيِّفٌ وَبَغَا  
يَقُولُ مَا قَالَهُ      كَمَا تَقُولُ الْبَغَا

فَحَشِيَ هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءَ الْأَغَالِبَةُ بِوَادِرِ السَّعَايَاتِ، وَتَلَّوْا بِالْمَعَاذِيرِ، فَطَوَّرُوا بِاخْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ، وَطَوَّرُوا بِالْإِرْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ، يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ التَّخَوُّمِ مِنْ عَمَلِهِ، وَيُنْفِذُونَ سِكْنَهُ فِي تُحْفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفَعِ جَبَايَاتِهِمْ، تَعْرِيزاً بِاسْتِفْحَالِهِ، وَتَهْوِلاً بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ، وَتَعْظِيماً لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَاسِهِ، وَتَهْدِيداً بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ، وَطَوَّاراً يَطْعُنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ الْكَاذِبِ، تَخْفِيزاً لِشَأْنِهِ، لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ، لِيُعْدِ الْمَسَافَةِ، وَأَفْنِ عَقُولَ (٢) مَنْ خَلَفَ مِنْ صَبِيَّةِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَمَمَالِكِهِمْ الْعَجَمِ فِي الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ، وَالسَّمْعِ [ظ ٢/٨] لِكُلِّ نَاعِقٍ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَابَّهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبَةِ، فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشُّعَاءُ أَسْمَاعَ الْعَوَّاءِ، وَصَرَ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أُذُنَهُ، وَاعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلْفِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ، وَمَالَهُمْ - قَبَحَهُمُ اللَّهُ - وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ الْمَقْطُوعِ وَالْمُظْنُونِ، وَإِدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ، وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ (٣) عَلَى أَنْ تَنْزِيهِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً، فَفِرَاشُ إِدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ، وَمُنْزَعٌ عَنِ الرَّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ، وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ.

١ - وَشَجَّتْ بِكَ قَرَابَتُهُ تَشِيجٌ: أَيِ اشْتَبَكَتْ. وَفِي مَنَشُورَةِ الدَّكْتُورِ وَاوِي: (تَشِيجٌ) أَيِ تَنَمُّو وَتَمْتَدُّ.

٢ - أَيِ ضَعْفُهَا وَاحْتِلَالُهَا.

٣ - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٤٨ و ٢١٠٥ و ٢٢٨٩ و ٢٣٩٦ و ٦٣٦٩ و ٦٤٣٢) وَمُسْلِمٌ (١٤٥٧ و ١٤٥٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ».

وَأِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الرَّيْبِ، وَدَفَعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعْتُهُ أَذْنَايَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُتَعَدِّي عَلَيْهِمْ، الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ، وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَارْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ، وَإِلَّا فَالْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، مَعْصُومٌ مِنْهُ، وَنَفْيُ الْعَيْبِ، - حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ - عَيْبٌ، لَكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمْ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا، مِنْ مُتَمِّمٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ؛ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِضَةٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْأَفَاقِ فَتَعَرَّضُ التَّهْمَةُ فِيهِ، وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي إِدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ<sup>(١)</sup> وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ، وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ، إِذْ هُوَ نَقْلُ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيَّتْ جَدَّهُمْ إِدْرِيسَ مُحْتَطِّ فَاسَ وَمُؤَسِّسَهَا مِنْ يَبُوتِهِمْ، وَمَسْجُدَهُ لَصَقَ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبَهُمْ، وَسَيَفُهُ مُنْتَضِي بَرَأْسِ الْمَآذِنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارَهَا حُدُودُ التَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ، وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعَيَانِ، فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا، وَمَا عَصَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ، وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزَلٍ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ، وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُتَمِّمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنْ يَسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ. وَبَوْنُ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ، وَالْيَقِينِ وَالتَّسْلِيمِ، فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَصَّ بِرَبْقِهِ، وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سُوقَةً وَوُضْعَاءَ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبُهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّعْنِ الْفَائِلِ<sup>(٢)</sup> وَالْقَوْلِ الْمَكْذُوبِ، تَعَلُّلاً بِالمُسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الاحْتِمَالِ، وَهِيَ هَاتِ لَهُمْ ذَلِكَ، فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صِرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ آلِ الْحَسَنِ، وَكِبَرَاؤُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى الْخُوَطِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى الْعَوَّامِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ، وَهُمْ نُبَاءُ [ظ ١/٩] أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ،

وَالسَّائِكُونَ بَيْتَ جَدِّهِمْ إِدْرِيسَ، وَلَهُمُ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَافَّةً حَسْبَمَا نَذَكُرُهُمْ  
عِنْدَ ذِكْرِ الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَيُلْحَقُ بِهِذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ  
الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ وَنَسَبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ  
وَالْتَّلَيْسِ فِيمَا أَتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ وَالتَّنْعِي عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ، وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ  
مُدَّعِيَاتِهِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ الْمُوحِدُونَ اتِّبَاعَهُ مِنْ اتِّسَابِهِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنَّمَا  
حَمَلَ الْفُقَهَاءَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كَمَنَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ مُنَاهَضَتَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْفِتْيَا وَفِي الدِّينِ بَزْعُمِهِمْ، ثُمَّ امْتَارَ عَنْهُمْ بَأَنَّهُ مَتَّبِعُ الرَّأْيِ  
مَسْمُوعُ الْقَوْلِ مُوطَأُ الْعَقَبِ نَفَسُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَغَضُّوا مِنْهُ بِالْقَدَحِ فِي مَذَاهِبِهِ، وَالتَّكْذِيبِ  
لِمُدَّعِيَاتِهِ.

وَأَيْضًا فَكَانُوا يُؤْنِسُونَ مِنْ مُلُوكٍ لِمُتَوَنَةِ أَعْدَائِهِ تَجَلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ،  
لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ السَّدَاجَةِ وَانْتِحَالِ الدِّيَانَةِ، فَكَانَ لِحَمَلَةِ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ  
الْوَجَاهَةِ وَالِانْتِصَابِ لِلشُّورَى كُلِّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدَرِهِ فِي قَوْمِهِ، فَأَصْبَحُوا بِذَلِكَ شَيْعَةً لَهُمْ  
وَحَرْبًا لِعَدُوِّهِمْ، وَنَقَمُوا عَلَى الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ، وَالتَّشْرِيبِ عَلَيْهِمْ، وَالْمُنَاصَبَةِ  
لَهُمْ، تَشِيعًا لِلْمُتَوَنَةِ، وَتَعْصِبًا لِدَوْلَتِهِمْ. وَمَكَانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ، وَحَالُهُمْ عَلَى غَيْرِ  
مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَخَالَفَ اجْتِهَادَهُ  
فُقَهَائِهِمْ، فَنَادَى فِي قَوْمِهِ، وَدَعَا إِلَى جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ، فَاقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ مِنْ أَصُولِهَا، وَجَعَلَ  
عَالِيَهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً، وَأَشَدَّ شَوْكَةً، وَأَعَزَّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً، وَتَسَاقَطَتْ فِي  
ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نُفُوسٌ لَا يُخَصِّصُهَا إِلَّا خَالِقُهَا، قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ  
الْهَلَكَةِ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِاتِّلَافٍ مُهْجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ، وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ  
الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ، وَدَالَتْ بِالْعُدُوِّينِ مِنَ الدُّوَلِ، وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ  
وَالْحَصَرِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ  
الْحِظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى الْوَلَدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النَّفُوسُ وَتَخَادَعُ عَنْ تَمَنِّيهِ، فَلَيْتَ  
شِعْرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ؟! وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حِظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي  
عَاجِلِهِ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَأَنْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي  
قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥].



وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعُضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبِتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ  
وَأَنْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ.

وإِنْ قَالُوا: إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جُلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ  
حَسَبًا يَأْتِي فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدَةِ وَدَانُوا  
بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عَصَابَتِهِ مِنْ هَرَعَةٍ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْمُهَدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ، وَلَا اتَّبَعَهُ النَّاسُ  
بِسَبَبِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ [ظ ٩/٢] اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصِيَّةِ الْهَرَعِيَّةِ وَالْمَصْمُودِيَّةِ، وَمَكَانِهِ مِنْهَا،  
وَرُسُوخُ شَجَرَتِهِ فِيهَا، وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ دُرِسَ عِنْدَ النَّاسِ، وَبَقِيَ عِنْدَهُ  
وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ، يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ، فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ أَنْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبَسَ جُلْدَةَ هَؤُلَاءِ  
وَظَهَرَ فِيهَا، فَلَا يَضُرُّهُ الْإِنْتِسَابُ الْأَوَّلُ فِي عَصِيَّتِهِ، إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِصَابَةِ،  
وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيرًا إِذَا كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا.

وَانْظُرْ قِصَّةَ عَرْفَجَةَ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَجِيلَةٍ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ الْأَزْدِ، وَلَبَسَ  
جُلْدَةَ بَجِيلَةٍ حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ،  
تَفَهَّمْ مِنْهُ وَجْهَ الْحَقِّ، وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ.

وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْمَغَالِطِ، فَقَدْ زَلَّتْ  
أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّحِينَ الْحَفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ، وَعَلَقَتْ  
أَفْكَارُهُمْ، وَنَقَلَهَا عَنْهُمْ الْكَافَةُ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْقِيَاسِ، وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا  
كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ، وَانْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ التَّارِيخِ وَاهِيًّا  
مُخْتَلِطًا، وَنَازِرُهُ مُرْتَبِكًا، وَعَدُّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَّةِ فَلِذَا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ  
بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ الْأُمَمِ وَالْبَقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السَّيْرِ  
وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ  
وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافِ، وَتَعْلِيلِ الْمُتَّفِقِ مِنْهَا  
وَالْمُخْتَلِفِ، وَالْقِيَامَ عَلَى أَصُولِ الدُّوَلِ وَالْمِلَلِ، وَمِبَادِي ظُهُورِهَا، وَأَسْبَابِ خُدُوتِهَا،  
وَدَوَاعِي كَوْنِهَا، وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ  
حَادِثٍ، وَاقِفًا عَلَى أَصُولِ كُلِّ خَبَرٍ<sup>(١)</sup>؛ وَحِينَئِذٍ يَغْرِضُ خَبَرَ الْمَنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ

الْقَوَاعِدِ وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحاً وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتغْنَى عَنْهُ.

مَا اسْتَكْبَرَ الْقَدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى انْتَحَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ غُلَمَاءِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السَّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً، وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوحَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمَلَهُ وَالْخَوْضَ فِيهِ وَالتَّنَطُّلَ عَلَيْهِ؛ فَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ، وَاللَّبَابُ بِالْقِشْرِ، وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ ﴿وَالِىَ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وَمِنْ الْغَلَطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الْأَعْصَارِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ، وَهُوَ دَاءٌ دَوِي شَدِيدُ الْخَفَاءِ، إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَوَّلَةٍ، فَلَا يَكَادُ يَنْفُطِنُ لَهُ إِلَّا الْآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدُهُمْ وَنَحْلُهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جُ مُسْتَقَرٌّ، إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ، وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأُمُصَارِ، فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْذُّوَلِ ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفُرْسِ [ظ. ١/١] الْأُولَى وَالسَّرْيَانِيُّونَ وَالنَّبَطُ وَالتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ، وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دَوْلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرُ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جَنَسِهِمْ، وَأَحْوَالُ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ؛ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفُرْسُ الثَّانِيَّةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ، فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ، وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا، وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا؛ ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّ فَاَنْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى، وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ، يَأْخُذُهُ الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ؛ ثُمَّ دُرِسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ، وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شِيدُوا عِزُّهُمْ، وَمَهَّدُوا مُلْكُهُمْ، وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلَ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ، فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ، وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ نَسَبِ شَأْنِهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا.

وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ، كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ: النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ. وَأَهْلُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا

اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا، وَلَا يُغْفَلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ، فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ، فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ الشَّيْءِ، وَكَانَتْ لِلأَوَّلَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ، فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً، وَالْقِيَاسُ وَالْمَحَاكَاةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ الْغَلَطَ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ، تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْعَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوِجُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَلَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيراً مِنْ أَحْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا، فَيَجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عُرِفَ، وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ، وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيراً فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ.

فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ، مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ اعْتِزَازِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مُسَكِّنٌ مُنْقَطِعُ الْجِذْمِ<sup>(١)</sup>، فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ لُرْتَبٍ لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ، وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ، وَلَا يَعْلَمُونَ اسْتِحَالَاتَهَا فِي حَقِّهِمْ، وَأَتَتْهُمْ أَهْلُ حَرْفٍ وَصَّنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ، وَأَنَّ التَّعْلِيمَ صَدَرَ الْإِسْلَامَ وَالْدَّوْلَتَيْنِ، لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً، إِنَّمَا كَانَ نَقْلاً لِمَا سَمِعَ مَعَ<sup>(٢)</sup> الشَّارِعِ، وَتَعْلِيماً لِمَا جُهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جِهَةِ الْبَلَاغِ، فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ [ظ. ١٠/٢] وَسَلَّم عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبَرِيِّ، لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ<sup>(٣)</sup>، إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى الرُّسُولِ مِنْهُمْ، وَبِهِ هَدَايَاتُهُمْ، وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوا وَاخْتَصَمُوا بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَشَرَفُوا، فَيَحْرَصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَأِئِمَّةُ الْكِبَرِ، وَلَا يَزِعُهُمْ عَاذِلُ الْأَنْفَةِ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ إِرْسَالُ النَّبِيِّ ﷺ كِبَارَ

١ - الجذم: الأصل.

٢ - في ن: من الشارِع.

٣ - أي التعليم المتخذ حرفة لكسب العيش.

أَصْحَابِهِ مَعَ وَفُودِ الْعَرَبِ، يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَمَا<sup>(١)</sup> اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ، وَوَسَّجَتْ غُرُوقُ الْمَلَّةِ، حَتَّى تَنَاولَهَا الْأُمَمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا، وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا، وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفِهَا، فَاحْتَاجَ ذَلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَا، وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى التَّعَلُّمِ، فَأَصْبَحَ مِنْ حُمَلَةِ الصَّنَائِعِ وَالْجِرَفِ، كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ لِلْعِلْمِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ، وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ، وَشَمَخَتْ أَنْوْفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّي لِلتَّعْلِيمِ وَاخْتَصَّ انْتِحَالُهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ وَصَارَ مُنْتَحَلُهُ مُحَقَّرًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْمُلْكِ.

وَالْحَجَّاجُ بْنُ يُونُسَ كَانَ أَبَوُهُ مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةِ قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ مَا عَلِمَتْ، وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا مَا يَتَوَهَّمُهُ الْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرُّئَاسَةِ فِي الْحُرُوبِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ الْهَمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ، يَحْسِبُونَ أَنَّ الشَّأْنَ فِي خِطَّةِ الْقَضَاءِ<sup>(٢)</sup> لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَيَظُنُّونَ بِابْنِ أَبِي غَامِرٍ صَاحِبِ هِشَامِ الْمُسْتَبَدِّ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِإِسْبِئِلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قَضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاةِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَلَا يَتَفَتَّحُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتَبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ، كَمَا نَبَّيْنَاهُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ.

وَابْنُ أَبِي غَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلُ عَصَبِيَّتِهَا، وَكَانَ مَكَانُهُمْ فِيهَا مَعْلُومًا، وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ الرُّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ وَانْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي

١ - في ن: فلما.

٢ - أي وظيفة القضاء، أو أمره. لأن الخطة في اللغة الأمر.

الطوائف<sup>(١)</sup> وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية، فيغلط السامع في ذلك، ويحمل الأحوال على غير ما هي.

وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعف البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة بفناء<sup>(٢)</sup> العرب ودولتهم بها، وخروجهم عن ملكة أهل العصبية<sup>(٣)</sup> من البربر فبقيت أنسابهم [ظ ١/١١] العربية محفوظة، والذريعة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدتهم القهر، ورثموا<sup>(٤)</sup> المذلة، يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكيم، فتجد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين لذلك ساعين في نيّله، فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة الغربية وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر، فقلما يغلطون في ذلك ويخطؤون في اعتباره.

ومن هذا الباب أيضاً: ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليدًا لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم.

والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناءؤها متشوقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم، ليقتفوا آثارهم، وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم، وتقليد الخطط<sup>(٥)</sup> والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم، والقضاة أيضاً كانوا من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء - كما ذكرناه لك - فيحتاجون إلى ذكر ذلك كله.

١ - لعلها محرفة عن الصوائف أي: الغزوات التي تتم في الصيف.

٢ - في ن: لفناء.

٣ - قال الأستاذ أبو الوفا: العصبية بفتح العين: التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويحذ في نصره. منسوبة إلى العصبية محرقة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو متهاهم وهي بهذا المعنى ممدوحة. وأما العصبية المذمومة في الحديث في الجامع الصغير: ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية. فهي تعصب رجال القبيلة على رجال القبيلة الأخرى لغير ديانة نسبة إلى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً.

وفي الفتاوى الخيرية: من موانع قبول الشهادة: العصبية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث "ليس منا من دعا إلى عصبية". وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه. هامش طبعة الهوريني

٤ - رثم المذلة: أحبها وألف.

٥ - أي المناصب والوظائف.

وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ، وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ، وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ  
بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً، وَنَسَبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَعَلَبَتِهَا، وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنْ  
الْأُمَمِ، أَوْ يُقْصِرُ عَنْهَا، فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقْشِ  
الْخَاتِمِ وَاللَّقَبِ وَالْقَاضِي وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصُولُهُمْ وَلَا  
أَنْسَابُهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ؟! إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْغَفْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ  
الْأَقْدَمِينَ، وَالذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّيِ الْأَغْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ. اللَّهُمَّ إِلَّا ذِكْرَ الْوُزَرَاءِ الَّذِينَ عَظُمَتْ  
آثَارُهُمْ، وَعَفَتْ عَنِ الْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ كَالْحَجَّاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ  
نُوبَخْتٍ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ، فَغَيَّرُ نَكِيرِ الْإِلْمَاعِ بِآبَائِهِمْ،  
وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لَا تَنْتَظِمُهُمْ فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ.

وَلَنَذْكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَحْنُ كَلَامُنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا، وَهِيَ أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ  
الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بَعْضُ أَوْ جَمِيعِهَا، فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلْآفَاقِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ  
أُسُّ لِلْمُؤَرِّخِ، تَنْبِيهُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ، وَتَبَيُّنُ بِهِ أَخْبَارِهِ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّدُونَهُ  
بِالتَّأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مَرْوَجِ الذَّهَبِ شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَالْآفَاقِ  
لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِ مِئَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا، وَذَكَرَ نَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ، وَوَصَفَ  
الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالدُّوَلِ وَفَرَّقَ شُعُوبَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَصَارَ إِمَامًا  
لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وَأَصْلًا يُعَوَّلُونَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَ  
الْبُكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ  
لِأَنَّ الْأُمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا [ظ ٢/١١] كَبِيرٌ<sup>(١)</sup> انْتِقَالَ، وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرًا.

وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدْ انْقَلَبَتْ أَحْوَالُ الْمَغْرِبِ - الَّذِي نَحْنُ  
شَاهِدُوهُ - وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ، وَاعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبَرَبِ أَهْلُهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ  
لَدُنِّ الْمِئَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبَوْهُمْ، وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ  
الْأَوْطَانِ، وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ لِمَلِكِهِمْ هَذَا، إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمَرَانِ شَرْقًا وَغَرْبًا  
فِي مُتَنَصِّفِ هَذِهِ الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الطَّاعُونَ الْجَارِفِ الَّذِي تَحَيَّفَ الْأُمَمُ، وَذَهَبَ بِأَهْلِ  
الْحَيْلِ، وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِ الْعُمَرَانِ وَمَحَاطَا، وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ هَرَمِهَا وَبُلُوغِ  
الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا، فَقَلَّصَ مِنْ ظِلَالِهَا، وَقَلَّ مِنْ حَدِّهَا، وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا، وَتَدَاعَتْ إِلَى

التَّلَاشِي وَالْاضْمَحْلَالُ أَمْوَالُهَا، وَانْتَقَضَ عُمْرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ، فَخَرَبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ، وَدُرِسَتِ السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ، وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ، وَضَعُفَتِ الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ، وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ، وَكَأَنِّي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ، لَكِنْ عَلَى نَسْبَتِهِ وَمَقْدَارِ عُمْرَانِهِ، وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخُمُولِ وَالْانْقِبَاضِ فَبَادَرَ بِالْإِجَابَةِ، وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ جُمْلَةً، فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ، وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ، وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدًا، وَنَشَأَتْ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَعَالَمٌ مُحَدَّثٌ، فَاحْتِاجَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا، وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ لِأَهْلِهَا، وَيَقْفُو مَسْلَكَ الْمَسْعُودِيِّ لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَدِي بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَأَنَا ذَاكِرٌ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمَكَّنِي مِنْهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُتَدَرِّجًا فِي أَخْبَارِهِ، وَتَلَوِيحًا لِإِحْتِصَاصِ قَصْدِي فِي التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأُمَمِهِ، وَذَكَرَ مَمَالِكَهَ وَدَوْلَهَ، دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْطَارِ لِعَدَمِ إِطْلَاعِي عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِهِ، وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَنفِي كُنْهَ مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ. وَالْمَسْعُودِيُّ إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رَحْلَتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ، وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ، وَالْاعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ وَأُنْجِحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ، وَنَحْنُ آخِذُونَ بِعَوْنِ اللَّهِ فِيْمَا رُمِّنَاهُ مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ، وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا هَذَا.

اعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ — كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ — هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَنْجَرَةِ، تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرَعِ اللَّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنْكِ وَالْحَلْقِ وَالْأَصْرَاسِ أَوْ بِقَرَعِ الشَّقَتَيْنِ أَيْضًا، فَتَغَايِرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغَايِرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ، وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَازِيَةً فِي السَّمْعِ، وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ، وَلَيْسَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ [ظ ١٢/٢] بَتِلْكَ الْحُرُوفِ، فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى.

وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفْتَ؛ وَنَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا، وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ الْإِفْرِجُ وَالتَّرْكُ وَالبَرَبَرُ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ.

ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ اصْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمْ الْمَسْمُوعَةَ بِأَوْضَاعِ حُرُوفِ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ أَلْفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءَ وَطَاءٍ إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعَشْرِينَ، وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ، مُعْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ، وَرَبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكِتَابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَفِيهِ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ، بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ<sup>(١)</sup>.

وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرَبِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا اصْطِلَاحٍ<sup>(٢)</sup> أَوْضَاعِنَا، اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ، وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا، لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، فَاصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أَضَعُ ذَلِكَ الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَفِيَانِهِ، لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِءُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ، فَتَحْصُلُ تَأْدِيَتُهُ، وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رِسْمِ أَهْلِ الْمُصْحَفِ حُرُوفَ الْإِسْمَامِ كـ «الْصَّرَاطِ» فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ، فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّيِّ، فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوهُ فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّيِّ، وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ، فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرَبِ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ مِثْلَ اسْمٍ بَلْ كَيْنَ فَأَضَعُهَا كَافًا وَأَنْقَطُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلٍ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ، أَوْ أَتَيْنِي فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكَافِ وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ، وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرَبِ، وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ.

أَضَعُ الْحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعًا لِيَعْلَمَ الْقَارِءُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ، فَكَوْنُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ، وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنْ جَانِبِهِ<sup>(٣)</sup> لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا، وَغَيْرِنَا لُغَةُ الْقَوْمِ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ. وَاللَّهُ الْمُؤَقُّ [ظ ١/١٢] لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

١ - الذي يذهب إليه المؤلف هو العناية بالنطق المطلوب في بيئة معينة.. وإلا فإن طبيعة البيان الذي يشمل النطق باللسان والسنان يرجع في أصله إلى منبع واحد يكتنف ألسنة الخلق جميعا، وتبديل نتيجته الحركات تبعاً للبيئة التي انطلق منها واعتمدها، وهي لا تخلو من مرجع واحد نطق به الناس في أصقاع العالم.. فعندما يلفظ الصينيون حرف الضاد يصبح دالا، وحين يلفظه اليابانيون يصبح تاء حيث يعود ذلك للبيئة وقدرة اللسان على التعامل مع ذاك الحرف، وأضرب مثلاً: لكلمة (عنب) في العربية انتقلت إلى الصين واليابان ككلمة أخرى إلا أنها تحمل نفس المضمون، وإن تبدلت طبيعة المقول، فهم يصفون العنب، فيقولون: (بيوت) و(بيود) تحريفاً لكلمة (بيوض).. لعدم قدرة اللسان على نطق الضاد.. ولكنهم أخذوا وصف العنب من القاموس العربي، لأنه يشبه البيوض الصغيرة...



## ب - الكتاب الأول طبيعة العمران

- ☐ حقيقة التاريخ
- ☐ أسباب الكذب في الأخبار:
  - الجهل بطبائع العمران.
  - التشيع للآراء والمذاهب.
  - الثقة بالناقلين.
  - الذهول عن مقاصد الأخبار.
  - توهم الصدق.
  - الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.
  - التقرب لأصحاب التجلة والمراتب.
- ☐ قبول الأخبار المستحيلة؛ وكيفية ردها وتمحيصها.
- ☐ متى يستخدم علم الجرح والتعديل؟
- ☐ قانون تمييز الأخبار.
- ☐ الغرض من تأليف الكتاب.
- ☐ اكتشاف المؤلف أنه علم جديد لم يسبق إليه.
- ☐ اختلاف علم طبائع العمران عن علم الخطابة وعلم السياسة المدنية.
- ☐ ما وصلنا من علوم الأمم، والعناية بترجمة علوم اليونان.
- ☐ وجود مسائل من هذا العلم ضمن مسائل العلوم المتنوعة.
- ☐ التعريف بكتاب السياسة لأرسطو، وسراج الملوك للطرطوشي.
- واختلاف المضمون عن هذا الكتاب.
- ☐ حثه على إصلاح مايقع فيه من نقص أو خلل.
- ☐ أغراض الكتاب.

❑ الفوارق بين الإنسان والحيوان:

العلوم والصنائع.

الحاجة إلى السلطان.

السعي في تحصيل المعاش.

العمران.

❑ انقسام العمران إلى: البدو والحضر.

❑ بيان فصول الكتاب الرئيسة:

١- العمران البشري.

٢- العمران البدوي.

٣- الدول والخلافة.

٤- العمران الحضري.

٥- الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

٦- العلوم وتعلمها.

❑ تقدم العمران البدوي على الحضري.

❑ تقدم الملك على البلدان.

❑ تقدم المعاش على العلم، لتقدم الطبيعي على الكمالي.

❑ ارتباط الكسب بالصنائع والعمران.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

(ب) ١- الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

فِي طَبِيعَةِ الْعُمَرَانِ فِي الْخَلِيقَةِ

وَمَا يَعْزِضُ فِيهَا فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ وَالتَّغْلِبِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ

وَالْعُلُومِ وَنَحْوَهَا

وَمَا لِذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ

اعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبْرٌ عَنِ الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمَرَانُ الْعَالَمِ، وَمَا يَعْزِضُ لَطَبِيعَةَ ذَلِكَ الْعُمَرَانِ مِنَ الْأَحْوَالِ مِثْلَ التَّوَحُّشِ وَالتَّنَاسُّ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغْلِبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالِدُّوْلِ وَمَرَاتِبِهَا، وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ الْعُمَرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ.

وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ مَطَرَقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ، وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ :

فَمِنْهَا: التَّشْبِيعَاتُ لِلآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْإِعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمَحِيصِ وَالنَّظَرِ حَتَّى تَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ؛ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشْيِيعُ لِرَأْيٍ أَوْ نَحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمِيلَ وَالتَّشْيِيعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّمَحِيصِ، فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكَذِبِ وَنَقْلِهِ.

وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضًا: الثِّقَةُ بِالنَّاqِلِينَ، وَتَمَحِيصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجَرُّعِ.

وَمِنْهَا: الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ، فَكَثُرُ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ، وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَحْمِينِهِ، فَيَقَعُ فِي الْكَذِبِ.

وَمِنْهَا: تَوَهُُّمُ الصَّدَقِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ الثِّقَةِ بِالنَّاqِلِينَ.

وَمِنْهَا: الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ؛ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّصْنُوعِ، فَيَنْقُلُهَا الْمَخْبِرُ كَمَا رَأَاهَا، وَهِيَ بِالتَّصْنُوعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ.

وَمِنْهَا: تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلُّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ، فَيَسْتَفِيزُ الْإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ، فَالْأَنفُوسُ مَوْلَعَةٌ

بحبِّ الثناء، والنَّاسُ متطلِّعون إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل، ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المقتضية له أيضاً - وهي سابقة على جمع ما تقدَّم -: الجهل بطبائع الأحوال في العمران، فإنَّ كلَّ حادثٍ من الحوادث - ذاتاً كان أو فعلاً<sup>(١)</sup> - لا بدَّ له من طبيعة [ظ ١٣/١] تخصُّه في ذاته وفيما يعرضُ له من أحواله، فإذا كان السَّامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر، على تمييز الصِّدق من الكذب؛ وهذا أبلغ في التمحيص من كلِّ وجهٍ يعرضُ.

وكثيراً ما يعرضُ للسَّامعين قبولُ الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم، كما نقله المسعوديُّ عن الإسكندر لما صدَّته دوابُّ البحر عن بناء الإسكندرية، وكيف اتَّخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر، حتَّى صوِّر تلك الدَّوابَّ الشَّيطانيَّة التي رآها، وعمل تماثيلها من أجساد معدنيَّة ونصبها حذاء البُنيان ففرَّت تلك الدَّوابُّ حين خرجت وعابتها وتمَّ له بناؤها. في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مُستحيلة من قبل اتِّخاذه التابوت الزجاجي<sup>(٢)</sup>، ومُصادمة البحر وأمواجه بجرمه. ومن قبل أنَّ الملوك لا تحملُ أنفسها على مثلِ هذا الغرور<sup>(٣)</sup>، ومن اعتمد منهم فقد عرَّضَ نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس إلى غيره، وفي ذلك إتلافه، ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين. ومن قبل أن الجن لا يُعرف لها صور ولا تماثيل تختصُّ بها، إنما هي قادرة على التَّشكُّل، وما يذكر من كثرة الرؤوس لها فإنما المرادُ به البشاعة والتَّهويل لا أنه حقيقة. وهذه كلها قاذحة في تلك الحكاية. والقادح المحيلُ لها من طريق الوجود أبينُ من هذا كله، وهو أن المنغمس في الماء - ولو كان في الصُّندوق - يضيقُ عليه الهواء للتنفُّس الطَّبيعي، وتسخنُ رُوْحُه بِسُرْعَةٍ لِقَلَّتْه، فيفقدُ صاحبه الهواء البارد المُعدِّل لمزاج الرُّة والروح القليلي ويهلك مكانه، وهذا هو السَّبَبُ في هلاكِ أهل الحمَّامات إذا أُطبقت عليهم

١ - الحادث: كل موجود سبقه العدم. الذات: أي الحادث الآتي من عالم الذوات، وهي المخلوقات وتتضمن الروح والجسد. الفعل: أي الحادث الآتي من عالم الأفعال، وهي أفعال المخلوقات.

٢ - لم لا نعتبر ذلك من محاولة الإنسان قديماً الغوص تحت الماء بوسائل تساعد على البقاء أكثر، أو أنه من أحلام الإنسان في محاولة التغلب على القوى الطبيعية؟! ولماذا لا نعتبر ما يعرضه الإنسان في الأحاديث الخرافية، هو بمثابة الخيال العلمي، ينفث فيه عن رغباته الجائعة وما يطمح أن يصل إليه؟ ولعل ذلك مما يحتاج إلى دراسة مستفيضة تكشف عن كثير من ذلك.

٣ - في ن: الغرر.

عن الهواء البارد، والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتحلخلها، فإن المتدلي فيها يهلك حينه، وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر، فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رثته إذ هو حارٌّ يافراط والماء الذي يُعدّ له باردٌ والهواء الذي خرج إليه حارٌّ فيستولي الحارُّ على روحه الحيواني يهلك دفعةً منه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك.

ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرزور الذي برومةً تجتمع إليه الزرايزر في يوم معلوم من السنة حاملةً للزيتون، ومنه يتخذون زيتهم، وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت.

ومنها: ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة: ذات الأبواب، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب، والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي. وهذه خرجت عن أن يحاط بها، فلا يكون فيها حصن ولا معتصم.

وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس، وأنها مدينة كل بنائها نحاسٌ بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف [ظ ١٣/٢] على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر، في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص. وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر، ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منافع للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها، وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخزنى<sup>(١)</sup>. وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد. وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار، وتمييز صدقها من كذبها، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح، ولقد عد أهل النظر من المطاعين في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل، وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية

أوجب الشَّارِعُ العملَ بها حتى حصلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا، وسبيلُ صَحَّةِ الظَّنِّ الثَّقةُ بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ.

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنِ الْوَأَقَعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ اعْتِبَارِ الْمُطَابَقَةِ، فَلِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْكَانِ وَقُوعِهِ، وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَهَمُّ مِنَ التَّعْدِيلِ، وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ، إِذَا فَائِدَةُ الْإِنْشَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ، وَفَائِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ بِالْمُطَابَقَةِ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِحَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ فِي الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعِمْرَانُ، وَنُمَيِّزَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَبِمُقْتَضَى طَبْعِهِ، وَمَا يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْرَضَ لَهُ، وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالصَّدْقِ مِنَ الْكَذْبِ بِوَجْهِ بَرَهَانِي لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ، وَحِينَئِذٍ إِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعِمْرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَرْكِيفِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا مَعْيَارًا صَحِيحًا يَتَحَرَّى بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصَّدْقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ، وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا.

وَكَأَنَّ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ، وَهُوَ الْعِمْرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالْاجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِي، وَذُو مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعةِ، غَرِيبُ النَّزْعَةِ، عَزِيزُ<sup>(١)</sup> الْفَائِدَةِ، أَعَثَّرَ عَلَيْهِ الْبَحْثُ، وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ، وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخُطَابَةِ، الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْعُلُومِ الْمُنْطَقِيَّةِ؛ فَإِنَّ مَوْضُوعَ الْخُطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُقْنَعَةُ النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدَهِمٍ عَنْهُ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدْنِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ لِيُحْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مَنَاجِ [ظ ١٤/١] يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوْعِ وَبِقَاؤُهُ. فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يَشْبَهَانِهِ. وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَبِطُ النَّشْأَةِ.

وَلَعِمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ، مَا أَدْرِي: أَلْغَفَلْتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ - وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ؟ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا؟ فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالْحِكَمَاءُ فِي أُمَمِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ، وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ،

فأين علومُ الفُرسِ التي أمرَ عُمرُ رضي الله عنه بمحوها عند الفتح؟ وأين علومُ الكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وأهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها؟ وأين علومُ القُبطِ ومن قبلهم؟ وإنما وصلَ إلينا علومُ أُمَّةٍ واحدةٍ وهم يونانٌ خاصَّةً لِكَلْفِ المأمون بإخراجها من لغتهم، واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها. ولم نَقِفْ على شيء من علوم غيرهم.

وإذا كانت كلُّ حقيقة متعلِّقةً طبيعياً يصلحُ أن يبحثَ عما يعرضُ لها من العوارض لذاتها، وجبَ أن يكون باعتبار كلِّ مفهومٍ وحقيقةٍ علمٌ من العلوم يخصُّه، لكنَّ الحكماءَ لعلَّهم إنما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات. وهذا إنما ثمرته في الأخبار فقط كما رأيت، وإن كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفةً، لكنَّ ثمرته تصحيحُ الأخبار، وهي ضعيفةٌ، فلهذا هجره. والله أعلم. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهذا الفنُّ الذي لاحَ لنا النظرُ فيه نجدُ منه مسائلَ تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم، وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب، مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أنَّ البشرَ متعاونون في وجودهم، فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع<sup>(١)</sup>. - ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات اللغات أنَّ الناسَ يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف. ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أنَّ الزنا مُخلطٌ للأنساب مُفسدٌ للنوع، وأنَّ القتلَ أيضاً مُفسدٌ للنوع، وأنَّ الظلمَ مؤذنٌ بخراب العمران المُفضي لفساد النوع، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام؛ فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظرُ فيما يعرضُ له، وهو ظاهرٌ من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة.

وكذلك أيضاً يقعُ إلينا القليلُ من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة، لكنهم لم يستوفوه، فمن كلام المؤيدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي: «أيها الملك، إنَّ الملكَ لا يتمُّ عزُّه إلا بالشرعية، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوامٌ للشرعية إلا بالملك، ولا عزٌّ للملك إلا بالرجال، ولا قوامٌ للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل: الميزان المنصوب بين الخليفة، نصبه الربُّ [ظ ٤١/٢] وجعلَ له قِيماً وهو الملك».

ومن كلام أنوشيروان في هذا المعنى بعينه: «الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد<sup>(١)</sup> الملك حال رعيته بنفسه، واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه».

وفي الكتاب المنسوب لأرسطو<sup>(٢)</sup> في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه، إلا أنه غير مستوفٍ، ولا معطى حقه من البراهين، ومختلطٌ بغيره، وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التي نقلناها عن المؤيدان وأنوشيروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها هو قوله: «العالم بستان سياحه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمععه الرعية، الرعية عبيد يكفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان» ثم ترجع إلى أول الكلام [ظ ١٥/١].

فهذه ثمان كلمات حكيمة سياسية ارتبط بعضها ببعض، وارتدت أعجازها إلى صدورها، واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها، فخر بعثوره عليها، وعظم من فوائدها. وأنت إذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطيته حقه من التصفح والتفهم، عثرت في أثناؤه على تفسير هذه الكلمات، وتفصيل إجمالها مستوفى بيناً بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان، أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة مؤيدان. وكذلك نجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات، الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناؤه، إنما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام.

١ - أي: بتفقد.

٢ - قال الدكتور عبد العزيز عزت: إن الكتاب الذي ينسبه ابن خلدون خطأ في هذه الصفحة لأرسطو، وهو كتاب السياسة، هو في الحقيقة كتاب الجمهورية لأفلاطون، فقد عرف بهذا الاسم السياسة عند العرب. (مهرجان ابن خلدون ص ٤٤). علماً أن لأرسطو كتاباً في السياسة أو في تدبير المدن. (انظر ما قاله الدكتور عبد الرحمن بدوي في مؤلفات ابن خلدون ص ٢٥٩ ومهرجان ابن خلدون ص ١٥٢ - ١٦٢). وهو كتاب السياسة في تدبير الرياسة المعروف بـ سر الأسرار.



وكذلك حوَمَ القاضي أَبُو بكر الطَّرُوشِيّ في كتاب (سِرَاجِ الْمُلُوكِ) <sup>(١)</sup> وبَوَّبَهُ على أبواب تقَرُّبُ من أبوابِ كِتَابِنَا هَذَا وَمَسَائِلِهِ لَكِنَّهُ لم يُصَادَف فيه الرَّمِيَّةُ <sup>(٢)</sup>، ولا أَصَابَ الشَّكْلَةَ <sup>(٣)</sup>، ولا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ، ولا أَوْضَحَ الْأَدْلَةَ، إِنَّمَا يُبَوِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْأَلَةِ ثم يَسْتَكْثِرُ من الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ، وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكْمَاءِ الْفُرْسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرٍ وَالْمَوْبَذَانِ وَحُكْمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْتُورِ عَنْ دَانِيَالٍ وَهَرْمَسَ وَغَيْرِهِمْ من أَكَابِرِ الْخَلِيقَةِ، ولا يَكْشِفُ عَنْ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا، ولا يَرْفَعُ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعِيَّةِ حِجَابًا، إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوَاعِظِ، وَكَأَنَّهُ حَوَمٌ عَلَى الْغَرَضِ ولم يُصَادَفْهُ، ولا تَحَقَّقَ قَصْدُهُ، ولا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ.

وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ إِلْهَامًا، وَأَعَثَرْنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا سِنَّ بَكْرِهِ <sup>(٤)</sup> وَجُهَيْنَةَ خَبْرِهِ <sup>(٥)</sup>، فَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ، وَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ <sup>(٦)</sup> وَأَنْخَأَهُ <sup>(٧)</sup>، فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ وَهَدَايَةٌ، وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ وَاشْتَبَهْتُ بغيرِهِ، فَلِلنَّازِرِ الْمُحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ، وَلِي الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ، وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَنَحْنُ الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْرِضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكُسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوَجْهِهِ بُرْهَانِيَّةٍ يَتَضَحُّ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَتَدْفَعُ <sup>(٨)</sup> بِهَا الْأَوْهَامَ وَتَرْفَعُ الشُّكُوكَ.

وَنَقُولُ: لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتِصَّصَ بِهَا، فَمِنْهَا: الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ، وَشَرَّفَ بِوصْفِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ.

١ - الطرطوشي: نسبة إلى طَرُوشَة (TORTOSA) مدينة في الأندلس على ساحل البحر، شرقي الأندلس. ولد (٤٥١) وتوفي (٥٢٠ هـ)، وكتابه مطبوع في بيروت، دار صادر ١٩٩٥. وقد استفاد منه المصنف كثيرا، ولكنه وظف مقبوساته وفق نظريته التي نظمت كتابه.

٢ - أي لم يصب الهدف.

٣ - أي الشكل والطريقة. وقد أراد عدم اقترابه من الصواب.

٤ - أي أول مطلع على خفياه التي لم يسبقه إليها أحد.

٥ - في المثل: وعند جهينة الخبر اليقين.

٦ - جمع نظر. وهو المثل والشبيه.

٧ - الأنحاء: الجوانب والأبواب والفصول.

٨ - في ن: تندفع.

ومنها: الحاجة إلى الحكم الوازع، والسُلطان القاهر، إذ لا يُمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها، إلا ما يُقال عن النحل والجراد، وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامي لا بفكر وروية.

ومنها: السعي في المعاش والاعتماد في تحصيله من وجوهه، واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه، وهداه إلى التماسه وطلبه. قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

ومنها: العمران، وهو التساكن والتنازل في مصر<sup>(١)</sup> أو حلة للأنس [ظ ١٥/٢] بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه.

ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار<sup>(٢)</sup> وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها.

وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع غرضاً ذاتياً له.

فلا جرم انحصَرَ الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول:

الأول: في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

والثاني: في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية.

والثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية.

والرابع: في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

والخامس: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

والسادس: في العلوم واكتسابها وتعلمها.

وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد، وكذا تقديم

الملك على البلدان والأمصار.

وأما تقديم المعاش؛ فلأن المعاش ضروري طبيعي، وتعلم العلم كمال أو حاجي، والطبيعي أقدم من الكمال.

وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها منه ببعض الوجوه، ومن حيث العمران كما نبين لك بعد، والله الموفق للصواب والمعين عليه.

## ال عمران البشري

١- ضرورة الاجتماع الإنساني، لـ:  
تحصيل الغذاء.

الدفاع عن نفسه.

مقارنة بين عالم الحيوان والإنسان في حاجة كل منهما إلى ذلك، واختلاف منشأ ذلك  
( الفطرة - العقل).

الرد على الفلاسفة في قولهم بالوجوب العقلي للنبوات.

٢- المعمور من الأرض:

نسبته وتفصيل أحوال اليابسة.

المياه: البحار والأنهار.

عمران الربع الشمالي من الأرض أكثر من الربع الجنوبي.

تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم:

التعريف بها: الحدود - التضاريس - السكان.

مصادر المؤلف في هذه الجغرافية.

٣- تدرج الأقاليم في الحر والبرد، وأثر ذلك على ألوان البشر وأحوالهم.

الأقاليم المعتدلة: المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين

والأندلس وتوابعها والروم واليونان..

سبب إدخال الحجاز واليمن في المعتدل من الأقاليم.

اقتران العلوم والصنائع والصفات الحسنة والنبوات بالأقاليم المعتدلة.

بعد الأقاليم غير المعتدلة عن الصفات السابقة.

الرد على زعم أن لون السواد اختص به ولد حام لدعوة عليه من أبيه.

السبب في سواد اللون وبياضه.

الرد زعم أن اختلاف الأمم من أجل الأنساب.

تصنيف الأمم تابع لـ:

السلالات.

الجغرافيا.

العقائد. وغير ذلك.

٤ - أثر الهواء في أخلاق البشر:

دراسة أسباب الفرح والطيش في بعض الأمم.

دراسة أسباب الحزن والفكر في العواقب في بعضها الآخر.

تبين خطأ المسعودي في نسبة ذلك إلى صغر أدمغة الأولين.

٥ - اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع، وأثر ذلك على الأبدان والأخلاق.

نسبية الخصب والجوع في الإقليم الواحد.

تفاوت الناس في تحصيل الغذاء من حيث: الجهد والتنوعية.

أثر البيئة على الإنسان والحيوان.

تحذير أهل الرياضة من الانقطاع الكلي عن الغذاء ثم العودة، ووجوب التدرج في ذلك.

سبب الهلاك في المجاعات: وجود الشبع السابق.

الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية.

أثر الجوع في صفاء الأجسام والعقول.

أثر الجوع على المتعبدين وأن أهل الشبع منهم أقل ديناً.

أثر نوعية الغذاء في تنمية الأجساد، وطريقة القدماء في تسمين الدجاج.

٦ - أصناف المدركين للغيب [ لعله أراد من هذا البحث التنبيه على أثر البيئة في كيفية

التعامل مع الغيب ]:

طرق إدراك الغيب:

- الفطرة.

- الرياضة.

حقيقة النبوة، وعلامة صحتها، وخصائص حاملها.

علامة تميز بها بين المكّي والمدني في القرآن اكتشفها المؤلف.

تعريف الوحي .

الفرق بين النبوة والولاية.

تناسق النظام الكوني: مشاهدة ترتيب العالم وإحكامه وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض.

الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر.

وقوع الخوارق من الكاذب.

المعجزة الخالدة: القرآن الكريم.

الفرق بين معجزات الأنبياء السابقين ونبينا ﷺ .

أصناف النفوس البشرية:

العلماء (الجسد)

العلماء الأولياء (الروح).

الأنبياء (الروح والجسد).

حقيقة الكهانة:

العلامة التي فطر عليها أصحاب الإدراك الغيبي.

الفرق بينها وبين النبوة.

الوسائل التي يستعينون بها على ذلك.

رد زعم انقطاع الكهانة زمن النبوة.

تنوع أصناف الكهان: الناظرون في المرايا وطساس الماء والحيوان،

والطرق بالحصى والنوى.

تفصيل مايعرض لهؤلاء، وما يلقي على السنة المجانين.

اختلاف هؤلاء عن العرافين في مأخذ كل منهم.

وجود هذه الأصناف في كثير من الأمم.

حقيقة الرؤيا وأصنافها.

سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم.

الفرق بين الوحي والمنام.

وسائل الوصول إلى الرؤيا:

- بغير طلب.

- بطلب باستخدام بعض الأسماء.

تجربة المؤلف مع حالومة الطباع التام.

طرق أخرى لإدراك الغيب:

أ- مستندة إلى برهان أو تحقيق:

مفارقة اليقظة ( المرحلة الأولى من النوم).

إماتة القوى في المبالغة بالتقشف (الموت الصناعي).

الرياضة السحرية (اليوجا).

التصوف وما يحصل فيه من كرامات وطريقة تعاملهم معها، وما حصل للصحابة من ذلك.

البهاليل وسبب إدراكهم للغيب.

ب - غير مستندة إلى برهان أو تحقيق:

التنجيم - ضرب الرمل - الخط.

حساب النيم - حساب الجمل.

الزيرجة: تفصيل الحديث عنها وتبيين حقيقتها.

## ١-١- الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة

وفيه مقدمات:

١-١-١- [المقدمة] الأولى:

في أن الاجتماع الإنساني ضروري.

ويعبر الحكماء<sup>(١)</sup> عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي: لا بُدَّ له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران.

وبيانه: أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. هب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بُدَّ من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.

وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها، وقسم القدر بينها جعل [ظ ١٦/١] حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان، فقدره الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدره الأسد والفيل أضعاف من قدرته.

ولما كان العدوان طبعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيئة

لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ، وَالصَّنَائِعِ تُحْصَلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تُتَوَبُّ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تُتَوَبُّ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ، وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ، وَالتَّرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ<sup>(١)</sup>، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَغَيْرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ، فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تُقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعِجَمِ سِوَمَا الْمُفْتَرَسَةِ، فَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ مَدَافَعَتِهَا وَحُدِّهِ بِالْجُمْلَةِ، وَلَا تَقِي قُدْرَتُهُ أَيْضاً بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لِلْمَدَافَعَةِ لِكَثْرَتِهَا، وَكَثْرَةِ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَاعِينِ الْمَعْدَةِ لَهَا، فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غِذَاءٌ، وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ لَمَّا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضاً دِفَاعٌ عَنِ نَفْسِهِ لِفُقْدَانِ السَّلَاحِ، فَيَكُونُ فَرِيسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ، وَيُعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنِ مَدَى حَيَاتِهِ، وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ.

وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ، وَالسَّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ، وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ، فِإِذَنْ هَذَا الْجَمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وَجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ<sup>(٢)</sup> إِيَّاهُمْ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعُمَرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعاً لِهَذَا الْعِلْمِ، وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ إِثْبَاتٍ لِلْمَوْضُوعِ فِي فَتَنِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِباً عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لَمَّا تَقَرَّرَ فِي الصَّنَاعَةِ الْمُنْطَقِيَّةِ: أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ. فَلَيْسَ أَيْضاً مِنَ الْمَنْعُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ. وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ بِفَضْلِهِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْجَمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ، وَتَمَّ عُمَرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لَمَّا فِي طِبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةُ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ، وَلَيْسَتْ آلَةُ السَّلَاحِ الَّتِي جَعَلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجَمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ، لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لْجَمِيعِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ<sup>(٣)</sup>، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِداً مِنْهُمْ، يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بَعْدُوَانٍ،

١ - الجاسية والجاسسة: الصلبة أو اليابسة.

٢ - أي جعلهم خلفاء في الأرض.

٣ - جمع إلهام، وهو ما يلقي في النفس مما يبعث على الفعل أو الترك..



وهذا هو معنى الملِك، وقد تبَيَّن لك بهذا أن للإنسان خاصَّةً طبيعيَّةً، ولا بُدَّ لهم منها، وقد يُوجدُ في بعض الحيوانات العُجَم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرىء فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجُثمانه إلا أن ذلك موجودٌ لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى [ظ ١٦/٢] الفكرة والسياسة ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وتزِيدُ الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي، وأنها خاصَّةٌ طبيعيَّةٌ للإنسان، فيقررون هذا البرهان إلى غايته<sup>(١)</sup>، وأنه لا بُدَّ للبشر من الحكم الوازع<sup>(٢)</sup>، ثم يقولون بعد ذلك: وذلك الحكم يكونُ بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحدٌ من البشر، وأنه لا بُدَّ أن يكون متميزاً عنهم بما يودعُ الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف. وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه، إذ الوجودُ وحياةُ البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته، فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى الجوس الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثرُ أهل العالم، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار، فضلاً عن الحياة، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم ألبتة فإنه يمتنع.

وبهذا يتبيَّن لك غلطهم في وجوب النبوات، وأنه ليس بعقلي، وإنما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمة. والله وليُّ التوفيق والهداية.

## ١-٢- المَقْدَمَةُ الثَّانِيَّةُ

فِي قِسْطِ الْعُمَرَانِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ  
مِنَ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَقَالِيمِ

اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ، وَأَنَّهَا مُحْفُوفَةٌ بِعَنْصَرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عَبَّةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ، فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ <sup>(١)</sup> أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا، وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا.

وَأَمَّا الْمَاءُ الْمَحِيطُ بِهَا فَوْقَ الْأَرْضِ — وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا: إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ — فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةِ أُخْرَى مِنْهُ.

وَأَمَّا الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ الْعَنْصَرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرُ الْمَحِيطُ، وَيُسَمَّى أَيْضًا لِبَلَايَةِ بَتْفِخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ، وَيُسَمَّى أَوْقْيَانُوسَ، أَسْمَاءُ أَعْجَمِيَّةٌ، وَيُقَالُ لَهُ: الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمَرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ وَالْخِلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ، وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ، وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيٍّ، وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعَنْصَرِيِّ الَّذِي بَيْنَهُمَا سَدٌّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى عَنْصَرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمَحِيطَةِ.

وَهَذَا الْمُنْكَشَفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا: هُوَ مَقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكَرَةِ أَوْ أَقْلُ، وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ: مَقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ.

وَخَطُّ الْإِسْتَوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ، وَأَكْبَرُ خَطٍّ فِي كُرَّتِهَا.

كما أنَّ منطقة فلَكِ البروج ودائرة مُعَدَّل [ظ ١٧/١] النَّهَارِ أكبرَ خطٍّ في الفلك، ومنطقة البروج منقسمة بثلاث مئة وستين درجةً، والدرجةُ من مسافة الأرض: خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخُ: اثنا عشر ألف ذراع، أي ثلاثة أميال، لأن الميل: أربعة آلاف ذراع، والذراعُ: أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبعُ: ست حَبَّاتِ شعيرِ مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن.

وَيَبَيِّنُ دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسُمُ الْفَلَكَ بِنَصْفَيْنِ، وتسامتُ خطَّ الاستواء من الأرض، وبين كل واحدٍ من الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ درجةً.

لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنْ خَطِّ الاستواء أَرْبَعٌ وَستُونَ درجةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لَشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْجُمُودِ، كما كانت الجهة الجنوبية خلاءً كلها لشدَّةِ الْحَرِّ كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى.

ثُمَّ إِنَّ الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ، وَعَمَّا<sup>(١)</sup> فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرَّمَالِ مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ الْجُغَرَفِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ رُجَارِ<sup>(٢)</sup> مِنْ بَعْدِهِ، قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ - يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودِ وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ - مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ، مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّوْلِ، فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ، وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا، فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضْعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ انْخِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَّةِ الْأَرْضِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مَنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ عَلَى التَّوَالِي، وَفِي كُلِّ جِزْءٍ الْخَبْرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمَرَانِهِ.

الْبَحَارُ: وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ<sup>(٣)</sup> الْمَعْرُوفُ، وَيَبْدَأُ فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً أَوْ نَحْوَهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى الرُّقَاقُ، ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرِقاً وَيَنْفَسَخُ إِلَى عَرْضِ سِتِّ مِائَةِ مِيلٍ وَنَهَائِيَّتُهُ فِي آخِرِ الْجِزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِئَةٍ وَسِتِّينَ فَرْسَخاً مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ الشَّامِ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ أَفْرِيْقِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ سَوَاحِلُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ

١ - فِي ن: وَمَا فِيهِ.

٢ - أَيِ الشَّرِيفِ الْإِدْرِيسِيِّ.

٣ - أَيِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ.

عَنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ الْبَنَادِقَةُ ثُمَّ رُومَةُ ثُمَّ الْإِفْرَنْجَةُ ثُمَّ الْأَنْدَلُسُ إِلَى طَرِيفَ عِنْدَ الرُّفَاقِ قُبَالَةَ طَنْحَةَ وَيُسَمَّى هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالشَّامِيُّ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَامِرَةٌ كَبَارٌ مِثْلَ إِقْرِيطَشٍ<sup>(١)</sup> وَقَبْرُصَ وَصَقْلِيَّةَ وَمِيُورْقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ.

قالوا: ويخرجُ منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين:

أحدهما: مُسَامَتٌ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَبْدَأُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُتَضَايِقًا فِي عَرْضِ رَمِيَةِ السَّهْمِ، وَيَمْدُ ثَلَاثَةَ بَحَارٍ، فَيَتَّصِلُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، ثُمَّ يَنْفَسِخُ فِي عَرْضِ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ وَيَمُرُّ فِي جَرِيهِ سِتِينَ مِيَلًا وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُهَا سِتَّةَ أَمْيَالٍ فَيَمْدُ بَحْرَ بَنْطُسَ، وَهُوَ بَحْرٌ يَنْحَرِفُ مِنْ هُنَاكَ فِي مَذْهَبِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِأَرْضِ هَرِيقْلِيَّةٍ<sup>(٢)</sup> وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِيَّةِ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ، وَعَلَيْهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ أُمَمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ وَبَرْجَانِ وَالرُّوسِ.

وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ خَلِيجِي هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَهُوَ بَحْرُ الْبَنَادِقَةِ، يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ، فَإِذَا انْتَهَى [ظ ١٧/٢] إِلَى سَمْتِ الْجَبَلِ انْحَرَفَ فِي سَمْتِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ إِنْكَالَايَةِ عَلَى أَلْفٍ وَمِئَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدَأِهِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِنَ الْبَنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَمٌ، وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبَنَادِقَةِ.

قالوا: وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحِيطُ أَيْضًا مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ خَطِّ الاسْتَوَاءِ بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ قَلِيلًا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجِزَاءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الْحَبْشَةِ وَالزَّنْجِ، وَإِلَى بِلَادِ بَابِ الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَرَسَخٍ مِنْ مَبْدَأِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرُ الصِّينِيُّ وَالْهِنْدِيُّ وَالْحَبْشِيُّ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرْبَرِ الْيَمَنِ ذَكَرَهَا أَمْرُؤُ الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ، وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قِبَائِلُ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ بِلَدُ مَقْدَشُو، ثُمَّ بِلَدُ سَفَالَةَ، وَأَرْضُ الْوَأَقِ وَأَقِ، وَأُمَمٌ أُخَرُ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْقَفَارُ وَالْخَلَاءُ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ، ثُمَّ السُّنْدُ، ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَحْقَافِ وَزَيْدٍ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نَهَايَتِهِ، وَبَعْدَهُمُ الْحَبْشَةُ.

قالوا: ويخرجُ من هذا البحر الحبشي بحران آخران:

١ - في المطبوع: أفريطش. نزهة المشتاق: ٥٨٨/٢.

٢ - و يقال لها: أركليس، وأرقلية، وهرقلية. نزهة المشتاق: ٨٠١/٢.

أحدهما: يخرج من نهايته عند باب المندب، فيبدأ متضيقاً، ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال، ومغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربع مئة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم<sup>(١)</sup> وبحر السويس، وبينه وبين فسطاط مصر من هناك ثلاث مراحل، وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدّة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته، ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزالغ<sup>(٢)</sup>، ثم بلاد الحبشة عند مبدئه، وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش، وبينهما نحو ست مراحل، وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك<sup>(٣)</sup>.

والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر<sup>(٤)</sup>، يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن<sup>(٥)</sup>، ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى

١ - أي البحر الأحمر.

٢ - في المطبوع: زيلع. نزهة المشتاق: ١/١٠.

٣ - يعني: توصيل البحرين الأحمر والأبيض في المنطقة التي تم فيها حفر قناة السويس فيما بعد.

٤ - أي الخليج العربي.

٥ - ليس من الضروري أن تكون الأحقاف في اليمن، ومن يدقق في معناها، وما وصف به قومها من بنائهم للصوامع للخلود لا يشك في أنه يتحدث عن الإهرامات...

يحسن بنا التوقف قليلاً عند المسار التاريخي الأسطوري المذكور حول الإهرامات في القديم والحديث، وإن كنت ممن يؤيد فكرة أن ما أطلق عليه: (الفراعنة) وارتباطهم بمصر الحالية لا يتفق والمعطيات الأثرية الموجودة في تلك الديار، وإن كان هناك الكثير من الحكام الذين يمكن أن نصفهم بالطغيان والظلم وغيره ممن مروا على (مصر الحالية)، ولكن لم يثبت أبداً وجود رقم ثبت هذا اللفظ الذي أطلقه القرآن الكريم على (فرعون): ﴿ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾.

والذي يستدعي إعادة النظر في التسمية الحالية لمصر؟ ولماذا يصفها الأوربيون في حديثهم عنها بالقبط ولا يقولون مصر؟.

كما أن تلك الآثار العظام المعروفة بالأهرام لم نجد لها ذكراً صريحاً في كتاب الله عز وجل إلا أن تكون قد ذكرت بغير الاسم المعروف الآن؟!

ومن ادعى أنها (الأوتاد) فكأنه يصف فرعون بياني تلك الأهرامات جميعاً، وليس بيان لهرم واحد يخصه.. وإن كان الأنسب أن يقال: إن الأوتاد هم وزراؤه ومن يعتمد عليهم في تثبيت ملكه... والموصوفون بالطغيان في البقاع التي وكلت إليهم لتسيير أمور حكمه، فعاثوا فساداً في الأرض...

ولا أستبعد أبداً أن تكون تلك الديار هي المعروفة بالأحقاف التي أُنذِرهم نبههم هود من الطغيان والعدوان.. وخاصة إذا عرفنا أن الأحقاف ليست محددة المعالم عند القدمين، وإنما هي من باب الظن والتخمين.. ونستدل لذلك بالمعاني المقترحة للأحقاف، والتي يجمعها الوصف بالرمال وإحاطتها، والذي يمكن أن ينطبق تماماً على أرض الكنانة...

الأُبْلَةُ<sup>(١)</sup> من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربع مئة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويُسمى بحر فارس، وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكُرْمَان وفارس والأُبْلَةُ، وعند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعُمان والشحر والأحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب كأنها داخلَةٌ من البرِّ في البحر، يُحيطُ بها البحر الحَبَشِيُّ من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق، وتُفضي إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسين مئة ميل بينهما، وهُنالك الكوفة والقادسية وبغداد وإيوان كسرى والحيرة، ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم، وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة [ظ ١/١٨] الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحلها على البحر الحَبَشِي.

قالوا: وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يُسمى بحر جرجان وطبرستان طوله ألف ميل في عرض ست مئة ميل، في غربيهِ أذربيجان والديلم، وفي شرقيهِ أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبه طبرستان، وفي شماليهِ أرض الخزر واللان.

هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

قالوا: وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار وهي: النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون.

الأنهار: فأما النيل: فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول، ويُسمى جبل القمر، ولا يُعلم في الأرض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة فيصبُّ بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصبُّ كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمتهِ، ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يُسمى كل واحد منها

=إضافة إلى الصفات التي كان يتمتع بها قوم عاد، الطامعين في الخلود، والباحثين عنه... وهو ما نجد في قوله تعالى: ﴿وَتَبْنُونَ مِصَابِعَ لِعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، فلماذا لا تكون المصانع ما يعرف الآن بالأهرام؟.

١ - قال ابن خلدون في وفيات الأعيان بعد ضبطها (٤٢٥/١): وهي بلدة قديمة على أربعة فراسخ من البصرة، وهي اليوم من البصرة، وهي من جنان الدنيا، وإحدى المنتزهات الأربع.

خليجاً، وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية ويسمى نيل مصر، وعليه الصَّعِيدُ من شَرْقِيَّهِ، وَالْوَحَاتُ من غَرْبِيَّهِ، ويذهب الآخرُ مُنْعَطِفاً إلى المغرب، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْحَمِيطِ، وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَّهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى صَفَّتِيهِ.

وَأَمَّا الْفُرَاتُ: فَمَبْدُؤُهُ من بلاد أرمينية في الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَيَمُرُّ جَنُوباً فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلَطِيَّةَ إِلَى مَبِجَ، ثُمَّ يَمُرُّ بِصَفْيَيْنَ، ثُمَّ بِالرَّقَّةِ، ثُمَّ بِالْكُوفَةِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوِاسِطَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ، وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَهْأَارٌ كَثِيرَةٌ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَهْأَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دَجَلَةٍ.

وَأَمَّا دَجَلَةٌ: فَمَبْدُؤُهُ عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضاً، وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيحَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ، فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خُلُجَانَ كُلِّهَا تَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْبَصْرَةِ، وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ، وَهُوَ فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ، وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَهْأَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدَجَلَةٍ مِنْ أَوَّلِهِ حَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قُبَالَةَ الشَّامِ مِنْ عُدُوتِي الْفُرَاتِ، وَقُبَالَةَ أَذْرَبِيحَانَ مِنْ عُدُوتِ دَجَلَةٍ.

وَأَمَّا نَهْرُ جِيحُونَ: فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلْخَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عُيُونِ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ، وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَهْأَارٌ عَظَامٌ، وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَّاسَانَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خَوَارَزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، فَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا، وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ، وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَّغَانَةَ وَالشَّاشَ الَّتِي مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ، وَعَلَى غَرْبِيَّ نَهْرِ جِيحُونَ بِلَادُ خُرَّاسَانَ وَخَوَارَزْمَ، وَعَلَى شَرْقِيَّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتَرْمُذَ وَسَمَرْقَنْدَ، وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَّغَانَةَ [ظ ٢/١٨] وَالْخَزَلْجِيَّةُ<sup>(١)</sup> وَأَمَمُ الْأَعَاجِمِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ بَطْلَيْمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ رُجَارِ<sup>(٢)</sup>، وَصَوَّرُوا فِي الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ، وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لَطُولِهِ، وَلَأَنَّ عَنَانَيْنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ الْبَرِّ، وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ الْمَشْرِقِ. وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ.

١ - هم قوم من الترك يسمون الخاقانية والخزلية. انظر نزهة المشتاق: ٢١٣/١.

٢ - يقصد كتاب محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي، في كتابه المسمى: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. وقد طبع في مكتبة عالم الكتب إلا أنه ينقصها الخرائط التي رسمها الشريف للملك صفلية رجار الثاني، ولذلك عرف الكتاب باسمه.

## ١-٢-١-١- تَكْمِلَةٌ لِهَذِهِ الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ

فِي أَنَّ الرُّبْعَ الشَّمَالِيَّ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ عُمَرَانًا مِنَ الرُّبْعِ الْجَنُوبِيِّ  
وَذِكْرُ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمَرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا، وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمَرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرَّمَالُ، وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ<sup>(١)</sup> الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمَّ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأُنَاسِيَهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ.

وَالثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأَمَّا وَأُنَاسِيَّتُهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمَدَنُهَا تَجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا وَالْعُمَرَانُ فِيهَا مَنْدَرَجٌ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خِلَافُ كُلِّهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقَلَّةِ مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحَ ذَلِكَ بِرَهَانِهِ لِيَتَبَيَّنَ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ.

فَنَقُولُ: إِنَّ قَطْعِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيِّ وَالشَّمَالِيِّ إِذَا كَانَ عَلَى الْأَفْقِ فَهَذَاكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسَمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ، هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتَسْمَى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرُكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا، وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مُحَسَّسَةٌ.

وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ، وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ.

وَمَرَّاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تَوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسَمُ بِنِصْفَيْنِ، وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكَ الْبُرُوجِ مَنَقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بَرَجًا، وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ، وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ، فَتَقْسَمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ،



وهو من أول الحمل إلى آخر السُّبُلَة، ونصف ماثل عنه إلى الجنوب، وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت.

وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يُسمّى دائرة مُعدّل النهار يمرُّ من المغرب إلى المشرق ويُسمّى خط الاستواء. ووقع هذا الخط بالرّصد على ما زعموا في مبدإ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. والعُمران كله في الجهة الشماليّة عنه. والقطب الشمالي يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة. وهنالك ينقطع العُمران، وهو آخر الإقليم السابع [ظ ١٩/١].

وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة، وهي التي بين القطب ودائرة مُعدّل النهار، صار القطب على سمت الرؤوس، وصارت دائرة مُعدّل النهار على الأفق، وبقيت ستة من البروج فوق الأفق، وهي الشماليّة، وستة تحت الأفق وهي الجنوبيّة. والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتعة، لأن الحر والبرد حيثُ لا يحصلان ممتزجين لبعده الزمان بينهما، فلا يحصل التكوين.

فإذا الشمسُ تسامتُ الرؤوسَ على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان، ثمّ تميلُ عن المسامّة إلى رأس السرطان ورأس الجدي، ويكونُ نهاية ميلها عن دائرة مُعدّل النهار أربعاً وعشرين درجة.

ثمّ إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة مُعدّل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه، وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساوٍ في الثلاثة، وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد.

وإذا مالت دائرة مُعدّل النهار عن سمت الرؤوس، علت عليها البروج الشماليّة مندرجة في مقدار علوها إلى رأس السرطان، وانخفضت البروج الجنوبيّة من الأفق كذلك إلى رأس الجدي؛ لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناها فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشماليّة، وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس، وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه، وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن مُعدّل النهار في أفق الاستواء، ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مُسامتاً.

فَإِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، نَزَلَتْ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ، وَلَا تَزَالُ فِي انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِينَ، وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ الْمُسَامَةِ كَذَلِكَ، وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْأَفْقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرُ مُمْتَزَجٍ بِالْحَرِّ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا، تَبَعَتْ الْأَشِعَّةُ عَلَى الْأَرْضِ، عَلَى زَوَايا قَائِمَةٍ، وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَةِ عَلَى زَوَايا مُنْفَرَجَةٍ وَحَادَّةٍ.

وَإِذَا كَانَتْ زَوَايا الْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوُّ وَانْتَشَرَ، بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرَجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ، لِأَنَّ الضَّوَّ سَبَبُ الْحَرِّ وَالتَّسْحِينِ.

ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَةَ فِي خَطِّ الاسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَيْ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ، وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ، وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مِيلِهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَطَانِ وَالْجَدِيِّ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَةِ، فَتَبْقَى الْأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايا تَلُحُّ عَلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ، وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ، فَيَشْتَعِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً، وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا.

وَكَذَا مَا دَامَتْ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، فَإِنَّ الْأَشِعَّةَ مُلْحَةً عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فِي خَطِّ الاسْتِوَاءِ. وَإِفْرَاطُ الْحَرِّ يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَسَاءً يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ، لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتْ الْمِيَاهُ وَالرُّطُوبَاتُ، وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ [ظ ١٩/٢] وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ.

ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ، نَزَلَتْ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَةِ، فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْاِعْتِدَالِ، أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مِيلًا قَلِيلًا، فَيَكُونُ التَّكْوِينُ، وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّدْرِيجِ، إِلَى أَنْ يُفْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ، لِقَلَّةِ الضَّوِّ، وَكَوْنِ الْأَشِعَّةِ مَنْفَرَجَةٍ الزَّوَايا - فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ، وَيَفْسَدُ.

يَبْدَأُ فَسَادُ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ، لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ. فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي قَلِيلًا، وَفِي الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا، لِاِعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنَقْصَانِ الضَّوِّ. وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِنَقْصَانِ الْحَرِّ، وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تَوَثُرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ

كَمَا يَفْعَلُ الْحَرُّ، إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ الْيَبْسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ.

فَلِهَذَا كَانَ الْعِمْرَانُ فِي الرَّبْعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْحُكَمَاءُ خِلَاءَ خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ، وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالمُشَاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ، فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبِرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرِيدُوا امْتِنَاعَ الْعِمْرَانِ فِيهِ بِالْكَلِيَّةِ، إِنَّمَا أَدَاهُمُ الْبِرْهَانُ إِلَى أَنْ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ، وَالْعِمْرَانِ فِيهِ، إِمَّا مَمْتَنَعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقْلِيًّا، وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ خَطَّ الْإِسْتَوَاءِ وَالَّذِي وَرَاءَهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ عِمْرَانٌ - كَمَا نُقِلَ - فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا.

وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ الْإِسْتَوَاءِ مُعْتَدِلٌ، وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا عَمَرَ مِنْ هَذَا، وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ مَمْتَنَعٍ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ، وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيمَا وَرَاءَ خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ فِي الْجَنُوبِ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُنْصُرَ الْمَائِيَّ غَمَرَ وَجْهَ الْأَرْضِ هُنَالِكَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلًا لِلتَّكْوِينِ، وَلَمَّا امْتَنَعَ الْمُعْتَدِلُ لَغَلْبَةِ<sup>(١)</sup> الْمَاءِ، تَبِعَهُ مَا سِوَاهُ؛ لِأَنَّ الْعِمْرَانَ مُتَدَرِّجٌ. وَيَأْخُذُ فِي التَّدْرِيجِ مِنْ جِهَةِ الْوُجُودِ، لَا مِنْ جِهَةِ الْإِمْتِنَاعِ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِامْتِنَاعِهِ فِي خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ، فَيُرَدُّهُ النَّقْلُ الْمُتَوَاتِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَنَرَسُمُ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ صُورَةَ الْجُغْرَافِيَا كَمَا رَسَمَهَا صَاحِبُ كِتَابِ رَجَارٍ، ثُمَّ نَأْخُذُ فِي تَفْصِيلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ<sup>(٢)</sup>. [ظ ١/٢٠].

١ - في ن: لغيبة.

٢ - في ظ: ويتلوها الكلام عليها مفصلاً تمت.

# صورة الأرض من نزوة المشتاق للشريف الإدريسي

جنوب



شمال



بنصف ساعة، لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال، موزعة على أجزاء هذا البعد.

وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم، فهو <sup>(١)</sup> عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار، الذي هو سمت رأس خط الاستواء ويمثله سواءً ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد، ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية، تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.

والمتمكلمون على هذه الجغرافيا، قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة، في طولها من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية، ويذكرون ما اشتمل عليه، كل جزء منها من البلدان، والأمصار، والجبال، والأنهار، والمسافات بينها في المسالك، ونحن الآن نوجز القول في ذلك باختصار [ظ ٢٠/٢]، ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها، ونحاذي بذلك، ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج، وهو رجار بن رجار، عندما كان نازلاً عليه بصقلية، بعد خروج صقلية من إمارة مائة، وكان تأليفه للكتاب في منتصف المئة السادسة، وجمع له كتاباً جمّة: للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والغذري <sup>(٢)</sup> وإسحاق <sup>(٣)</sup> [بن الحسن] المنجم وبطليموس وغيرهم، وتبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها، والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله.

**الإقليم الأول:** وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد، وليست في بسيط الإقليم، وإنما هي في البحر المحيط جزراً متكررة، أكبرها وأشهرها ثلاث، ويُقال: إنها معمورة.

وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرّت بها في أواسط هذه المئة، وقَاتلوهم فغنموا منهم وسبوا، وباعوا بعض أسراهم <sup>(٤)</sup> بسواحل المغرب الأقصى، وصاروا إلى خدمة السلطان، فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حل جزائريهم، وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضهم، وعيشهم من الشعير، وماشيتهم المعز وقاتلهم

١ - في ن: وهو.

٢ - في المطبوع: القُدري. خطأ.

٣ - في الأصل: ابن إسحاق. خطأ صحح من نزهة المشتاق: ٦/١.

٤ - في ن: أسراهم.

بالحجارة، يرمونها إلى خلف، وعبادتهم السُّجود للشمس إذا طلعت، ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة.

ولا يوقفُ على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور، لا بالقصد إليها، لأنَّ سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح، ومعرفة جهات مهابها، وإلى أين يُوصل إذا مرَّت على الاستقامة من البلاد التي في ممرِّ ذلك المَهَبِّ وإذا اختلف المَهَبُّ، وعلم حيث يُوصل على الاستقامة حُوذِيَ به القلعُ محاذاةً يحملُ السفينة بها على قوانين في ذلك تُحصِّلُهُ عند النواتية<sup>(١)</sup> والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر.

والبلاد التي في حافات البحر الرومي، وفي عدوتِه مكتوبةٌ كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها، ومهابُّ الرياح وممراتها على اختلافها مرسومٌ معها في تلك الصحيفة، ويسمونها الكنباص<sup>(٢)</sup>، وعليها يعتمدون في أسفارهم.

وهذا كله مفقودٌ في البحر المحيط، فلذلك لا تلج فيه السفن، لأنَّها إن غابت عن مرأى السواحل، فقلَّ أن تقتدي إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جوِّ هذا البحر، وعلى سطح مائه من الأبحرة الممانعة للسفن في مسيرها، وهي لبُعدها لا تُدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها، فلذلك عسرُ الاهتداء إليها، وصعبُ الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصبُّ النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر، كما ذكرناه، ويُسمَّى نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط، فيُصبُّ فيه عند جزيرة أوليك.

وعلى هذا النيل مدينة سَلا وتَكُرُور<sup>(٣)</sup> وغانة، وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان، وإلى بلادهم تسافر تجارُ المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شماليها [ظ ١/٢١] بلادُ لمتونة وسائر طوائف المثلثين، ومفاوزُ يجولون فيها.

١ - جمع نوتى وهو الملاح في البحر.

٢ - compass البوصلة. وأصلها من (قَبَسَ) إذ هي كالنار التي يسترشد بها، وقد زاد حرف الميم كركيزة للنطق.

٣ - تَكُرُور: بلاد تنسب إلى قبائل من السودان في أقصى جنوب المغرب.

وفي جنوبيّ هذا النيل قومٌ من السُّودان، يُقالُ لهم: لِمَلَم، وهم كُفَّارٌ، ويكتوونَ في وجوههم وأصداعهم، وأهلُ غانةَ والتَّكروورِ يُغيرونَ عليهم، ويسبونهم ويبيعونهم للتَّجارِ، فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامَّةٌ رقيقهم.

وليسَ وراءهم في الجنوبِ عُمرانٌ يعتبرُ إلا أناسيُّ أَقْرَبُ إلى الحيوانِ العُجمِ من النَّاطِقِ، يَسْكُنُونَ الْفِيَّافِي وَالْكُهُوفَ، وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَالْحَبُوبَ، غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ، وَرَبِّمًا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ.

وَقَوَاكِيهِ بِلَادِ السُّودَانِ كُلِّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ تَوَاتٍ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَرَكَلَانَ.

فَكَانَ فِي غَانَةَ - فِيمَا يُقَالُ - مَلِكٌ ودولةٌ لقومٍ من العلويين يُعرفونَ ببني صالح، وقال صاحبُ كتابِ رَجَارٍ: إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ<sup>(١)</sup>. وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ، وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِي.

وفي شَرْقِيّ هَذَا الْبَلَدِ، فِي الْجَزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ، بَلَدٌ: كوكو على نهرٍ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَالِكَ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجَزْءِ الثَّانِي، وَكَانَ مَلِكُ كوكو قَائِمًا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي، وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ، نَذَرَهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِي فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَربرِ.

وفي جنوبيّ بِلَدِ كوكو بِلَادُ كَانَمَ، مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ، وَبَعْدَهُمْ وَنَغَارَةُ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شِمَالِيهِ.

وفي شَرْقِيّ بِلَادِ وَنَغَارَةَ وَكَانَمَ، بِلَادُ زَغَاوَةَ<sup>(٢)</sup> وَتَاجِرَةَ<sup>(٣)</sup> الْمُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ النُّوبَةِ فِي الْجَزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلُ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ خَطِ الاسْتَوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرَّؤُمِيِّ فِي الشَّمَالِ.

وَخَرَجَ هَذَا النَّيْلُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ خَطِ الاسْتَوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً.

١ - نزهة المشتاق: ٢٣/١.

٢ - زغاوة: قيل: جنس من السودان. وقيل: بلد في جنوب أفريقيا بالمغرب. ويقال: كان لهم مملكة عظيمة من ممالك السودان، في جهة الشرق منها مملكة النوبة.

٣ - بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هين من سواحل تلمسان.



واختلفوا في ضبط هذه اللَّفْظَةِ فضبطها بعضهم بفتح القافِ والميم، نسبةً إلى قمر السماء لِشِدَّةِ بياضِهِ وكثرةِ ضوئِهِ. وفي كتاب المُشْتَرَكِ لِيَاقُوتٍ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ، نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ، وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ.

فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عَيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بَحِيرَةٍ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أُمِيالٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ، تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَزِّضٌ يَشُقُّ الْبَحِيرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ، وَيَنْقَسِمُ مَأْوَاهَا بِقَسْمَيْنِ، فَيَمُرُّ الْغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مَغْرِبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْحِيطِ، وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا، وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةً مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَرَشِيدٍ وَدِمِيَاطٍ، وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بَحِيرَةٍ مَلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ.

وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النَّوْبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَاحَاتِ إِلَى أَسْوَانَ، وَحَاضِرَةُ بِلَادِ النَّوْبَةِ مَدِينَةُ دَنْقَلَةَ، وَهِيَ فِي غَرْبِي هَذَا النَّيْلِ، وَبَعْدَهَا عُلُوَّةٌ وَبَلَّاقٌ<sup>(١)</sup>، وَبَعْدَهُمَا جَبَلٌ [ظ ٢/٢١] الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاجِلٍ مِنْ بَلَّاقٍ فِي الشَّمَالِ، وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النَّوْبَةِ، فَيَنْفِذُ فِيهِ النَّيْلُ وَصَبُّ فِي مَهْوًى بَعِيدٍ صَبًّا هَائِلًا، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِبُ، بَلْ يَحْوُلُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَائِبِ السُّودَانِ، فَيُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى بِلَادٍ<sup>(٢)</sup> أَسْوَانَ قَاعِدَةِ الصَّعِيدِ، وَكَذَا وَسَقَ مَرَائِبِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ. وَيَبْنِي الْجَنَادِلُ وَأَسْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرَّحَلَةً، وَالوَاحَاتُ فِي غَرْبِهَا عُدُوَّةُ النَّيْلِ وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ، وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ.

وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ، وَيَمُرُّ قِبَالَةَ مَقْدِيشُو الَّتِي فِي جَنُوبِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ النَّوْبَةِ، فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ، وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ، وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغَرَايَا. وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذَا النَّيْلِ.

وإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الصَّيْنِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ، إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمُرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي

١ - بلّاق: بلد في آخر الصعيد، وأول النوبة، كالحد بينهما.

٢ - في ن: بلد.

الجزائر التي في داخله، وهي متعددة يُقال: تنتهي إلى ألف جزيرة، أو فيما على سواحلها الجنوبية، وهي آخر المعمور في الجنوب، أو فيما على سواحلها من جهة الشمال، وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق، وفي بلاد اليمن.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم، فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي، إلى جهة الشمال وهما بحر القلزم<sup>(١)</sup>، وبحر فارس<sup>(٢)</sup>، وفيما بينهما جزيرة العرب، وتشتمل على بلاد اليمن، وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما، كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده.

فأما الذي على ساحل هذا البحر من غريبه فبكد: زالغ من أطراف بلاد الحبشة، ومجالات البجة<sup>(٣)</sup> في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي الذي في أعالي الصعيد، وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي، وتحت بلاد زالغ من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي، ممتداً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلاً، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها، ويُسمى باب المندب، وعليه ثمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريباً من مصر.

وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك<sup>(٤)</sup>، وقبالته من غريبه مجالات البجة من أمم السودان، كما ذكرناه، ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن، ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب.

وفي جهة الجنوب من بلد زالغ، وعلى ساحل هذا البحر من غريبه قرى بربر يتلو بعضها بعضاً وينعطف من جنوبيه إلى آخر الجزء السادس.

ويليها هنالك من جهة شرقها بلاد الزنج، وبعدها مدينة مقديشو، وهي مدينة مستبحرة العمارة، بدوية الأحوال، كثيرة البحار، على ساحل البحر الهندي من جنوبه، ثم يليها شرقاً بلاد سفالة<sup>(٥)</sup> من ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا [ظ ٢/٢٢] الإقليم،

١ - هو البحر الأحمر.

٢ - وهو الخليج العربي.

٣ - ويقال أيضاً: البجة وهي اسم لبعض القبائل.

٤ - ويقال أيضاً: دهيك. وكانت المرسى بين بلاد اليمن والحبشة.

٥ - مدينة وميناء أنشأه البرتغاليون بأفريقيا الشرقية في القرن السادس عشر الميلادي.

وفي شرقي بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلادُ الواقِ واقٍ، مُتَّصِلَةٌ إلى آخرِ الجزءِ العاشرِ من هذا الإقليمِ عندَ مدخلِ هذا البحرِ من البحرِ المحيطِ.

وأما جزائرُ هذا البحرِ فكثيرةٌ؛ من أعظمها جزيرةُ سرَنْدِيبَ مدوَّرةُ الشَّكلِ. وبها الجبلُ المشهورُ، يُقالُ: لَيْسَ في الأرضِ أعلى منه، وهي قبالةُ سفالة<sup>(١)</sup>. ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ، وهي جزيرةٌ مُسْتَطِيلَةٌ، تبدأ من قبالةِ أرضِ سفالة وتذهبُ إلى الشَّرْقِ منحرفةً بكثيرٍ إلى الشمالِ إلى أن تَقْرُبَ من سواحلِ أعالي الصَّينِ، وَيَحْتَفُّ بها في هذا البحرِ مِنْ جنوبيها جزائرُ الواقِ، ومن شرقيها جزائرُ السَّيْلانِ إلى جزائرٍ أخرى في هذا البحرِ كثيرة العدد، وفيها أنواعُ الطُّيُوبِ والأفاوه<sup>(٢)</sup>، - فيما يُقالُ - مَعَادِنُ الذَّهَبِ والزُّمُرْدِ، وعامَّةُ أهلها على دِينِ المَجُوسِيَّةِ، وفيهم مُلُوكٌ متعددون، وبهذه الجزائرِ من أحوالِ العُمَرانِ عجائبٌ ذكرها أهلُ الجغرافيا.

وعلى الضَّفَةِ الشَّمالِيَّةِ من هذا البحرِ في الجزءِ السَّادِسِ من هذا الإقليمِ، بلادُ اليَمَنِ كُلِّها، فمن جهةِ بحرِ القَلْزَمِ بلدُ زَبِيدَ، والمهَجَمُ وتهامةُ اليَمَنِ، وبعدها شرقاً بلدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ الإمامَةِ الزَّيْدِيَّةِ، وهي بعيدةٌ عن البحرِ الجنوبي وعن البحرِ الشَّرْقِيِّ، وفيما بعد ذلك مدينةٌ عَدَنَ، وفي شماليها صَنْعَاءُ، وبعدهما إلى المَشْرِقِ أرضُ الأحقافِ وظَفَارٍ وبعدها أرضُ حَضْرَمُوتَ، ثُمَّ بلادُ الشَّحْرِ، ما بينَ البحرِ لجنوبيٍّ وبحرِ فارسَ.

وهذه القِطْعَةُ من الجزءِ السَّادِسِ هي الَّتِي انْكَشَفَتْ عَنْهَا البحرُ من أجزاءِ هذا الإقليمِ، الوُسْطَى وينكشِفُ بعدها قليلٌ من الجزءِ التاسعِ، وأكثرُ منه من العاشرِ، فيه أعالي بلادِ الصَّينِ، ومن مُدُنِهِ الشَّهيرةُ خَانْكَو، وقبالتها من جهةِ الشَّرْقِ جزائرُ السَّيْلانِ<sup>(٣)</sup>، وقد تقدَّمَ ذكرها، وهذا آخرُ الكلامِ في الإقليمِ الأوَّلِ. [واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنْنِهِ وَفَضْلِهِ].

**الإقليمُ الثَّانِي:** وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالأوَّلِ من جِهَةِ الشَّمالِ، وَقُبَالَةَ الْغَرْبِ<sup>(٤)</sup> مِنْهُ في البحرِ المحيطِ، جزيرتانِ من الجزائرِ الخَالِدَاتِ الَّتِي مرَّ ذكرها.

١ - كانت مشهورة بذهبها.

٢ - في ن: الطيب والأفاويه وفيها يقال.

٣ - في ظ: السيلان.

٤ - في ن: المَغْرِبِ.

وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرضُ قمنورية<sup>(١)</sup>، وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة، ثم مجالات زغاوة من السودان، وفي الجانب الأسفل منهما صحراء<sup>(٢)</sup> نِستَر<sup>(٣)</sup> متصلة من الغرب إلى الشرق، ذات مفاوز تسلك فيها التجار، ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات المثلثين من صنهاجة، وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة، ولمتونة ومسراتة، ولمطة ونزيكة<sup>(٤)</sup>.

وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان، ثم مجالات أذكار<sup>(٥)</sup> من قبائل البربر، ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من أمم السودان، ثم قطعة من أرض التاجوين. وفي أسافل هذا الجزء الثالث، وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية، وتسمى الواحات الداخلة.

وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض [ظ ٢٢/٢] التاجوين<sup>(٦)</sup>، ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد، حافات النيل الذاهب من مبدئه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين، وهما: جبل الواحات من غربيه، وجبل المقطم من شرقيه، وعليه من أعلاه بلد أسنا<sup>(٧)</sup>، وأرمنت وتتصل كذلك حافته إلى أسيوط، وقوص، ثم إلى صول، ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص، وفيما بينهما أعالي ديار مصر.

وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس، وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال، وفي غدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم، إلى بلاد يثرب، في وسط الحجاز مكة شرفها الله، وفي ساحلها مدينة جدة، تقابل بلد عذاب في العدو الغربية من هذا البحر.

١ - في الأصل: قنورية. صحح من نزهة المشتاق: ١٠٥/١.

٢ - الصحراء الإفريقية الكبرى.

٣ - في نزهة المشتاق: ١٠٧/١: نيسر.. نيسر.. تيسر.

٤ - في ن: وريكة.

٥ - في ن: أركار.

٦ - في المطبوعات: الباجوين. وهو مخالف للمخطوط ونزهة المشتاق: ١١٥/١. وهم محوس.

٧ - في نزهة المشتاق ١/ ١٢٥: أنصنا.

وفي الجزء السادس من غريبه بلاد نجد أعلاها في الجنوب، وتبالة<sup>(١)</sup> وجرش<sup>(٢)</sup> إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز، وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر، وتحتها أرض اليمامة، وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشحر.

ويتهيء إلى بحر فارس<sup>(٣)</sup>، وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال، كما مر، ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب، فيمر ما بين شرقيّه وجوفيّه قطعةً مثلثةً عليها من أعلاه مدينة قلّهات، وهي ساحل الشحر، ثم تحتها على ساحله بلاد عُمان. ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء.

وفي الجزء السابع في الأعلى من غريبه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله، وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران، ويقابلها بلاد الطويران، وهي من السند أيضاً، فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء، وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند، ويمر فيه نهري الآتي من ناحية بلاد الهند، ويصب في البحر الهندي في الجنوب. وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي، وفي سمتها شرقاً بلاد بلهرا، وتحتهما الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم، ثم إلى أسفل من السند، ثم إلى أعالي بلاد سجستان.

وفي الجزء الثامن من غريبه بقية بلاد بلهرا من الهند، وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار، ثم بلاد منيبار، وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي تحتها في الجانب الأسفل أرض كابل، وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القنوج، ما بين قشмир الداخلة وقشмир الخارجة عند آخر الإقليم.

وفي الجزء التاسع، ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى، ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر، وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون<sup>(٤)</sup>، ثم تتصل بلاد الصين [ظ ٢٣/١] في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط، والله ورسوله أعلم، وبه سبحانه التوفيق، وهو ولي الفضل والكرم.

١ - بلد باليمن.

٢ - بلد بالأردن.

٣ - هو الخليج العربي.

٤ - لعلها تحرفت عن: (شدخو). انظر نزهة المشتاق: ١/٢١٠.

**الإقليم الثالث:** وهو مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي من جِهَةِ الشَّمَالِ فِي الجُزْءِ الأوَّلِ منه وعلى نحوِ الثَّلَاثِ من أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنٌ مُعْتَرِضٌ فِيهِ من غَرْبِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْحَيْطِ إِلَى الشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ، وَيَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلَ مِنَ الْبَرَبِرِ أُمَّمٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ.

وَفِي الْقِطْعَةِ الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِقْلِيمِ الثَّانِي، وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا، رِبَاطٌ مَاسَةٌ وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسَ وَنُؤُلَ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرَعَةَ، ثُمَّ بِلَادُ سِجِلْمَاسَةَ، ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِسْتَر<sup>(١)</sup> الْمَقَارِزَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي.

وَهَذَا الْجَبَلُ مُطَّلٌّ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ، وَهُوَ قَلِيلُ الثَّنَايَا وَالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِي مَلُوءَةٍ فَتَكْثُرُ ثَنَايَاهُ وَمَسَالِكُهُ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ.

وَفِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنْهُ أُمَّمٌ الْمَصَامِدَةُ<sup>(٢)</sup> ثُمَّ هَتَانَةَ، ثُمَّ تَيْنَمَلِكُ، ثُمَّ كَذْمِيُوهُ، ثُمَّ مَشْكُورَةُ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَامِدَةِ فِيهِ، ثُمَّ قِبَائِلُ صِنْهَاكَةَ، وَهُمْ صِنْهَاجَةُ، وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْضُ قِبَائِلِ زَنَاتَةَ.

وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيهِ جَبَلٌ أُوْرَاسَ، وَهُوَ جَبَلٌ كُتَامَةٌ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أُمَّمٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرَابِرَةِ نَذَكْرُهُمْ فِي أَمَاكِيهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَنَ هَذَا، مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ مُطَّلٌّ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى، وَهِيَ فِي جَوْفِيهِ، فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَاشِ وَأَغْمَاتِ<sup>(٣)</sup> وَتَادِلَا<sup>(٤)</sup>. وَعَلَى الْبَحْرِ الْحَيْطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى<sup>(٥)</sup> وَمَدِينَةُ سَلَا.

وَفِي الْجَوْفِ عَنِ بِلَادِ مَرَاشِ، بِلَادُ فَاسَ وَمِكْنَاسَةَ، وَتَازَا، وَقَصْرُ كُتَامَةَ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عُرْفِ أَهْلِهَا، وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلَدَانُ: أَصِيلًا وَالْعَرَايِشِ. وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ، وَقَاعِدَتُهَا تَلْمَسَانُ، فِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بِلَدُ هِنِينَ وَوَهْرَانَ وَالْجَزَائِرُ، لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرَ بَعِيدٍ انْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا،

١ - فِي نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ١٠٧/١: نِيسِر.. بَيْسِر.. تَيْسِر.

٢ - وَالْيَهُمُ يَنْتَسِبُ إِلَى أَمَامِ يَحْيَى الْمَصْمُودِيِّ أَحَدِ رَوَاةِ مَوْطَأِ مَالِكٍ.

٣ - أَغْمَاتُ: نَاحِيَةُ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ قَرِبَ مَرَاشِ.

٤ - فِي مَعْجَمِ الْبِلَدَانِ: تَادِلَةُ، مِنْ جِبَالِ الْبَرَبِرِ بِالْمَغْرِبِ قَرِبَ تَلْمَسَانَ وَفَاسَ.

٥ - أَسْفَى: بِلَدَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْحَيْطِ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِ.

فَدَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ، فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ، ثُمَّ يَتَصَلُّ بِبِلَادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ بَجَايَةَ<sup>(١)</sup> فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسَنْطِينِيَّةُ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا.

وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، وَعَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَمَرْتَفَعاً إِلَى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ، بَلَدٌ أَشِيرٌ، ثُمَّ بَلَدُ الْمَسِيلَةِ، ثُمَّ الزَّابُ، وَقَاعِدَتُهُ بِسُكْرَةٍ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاسِ الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ، كَمَا مَرَّ، وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ.

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِباً فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ، فَيَقْسِمُهُ بِقَطْعَتَيْنِ. وَيَغْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مَسَافَةً مِنْ شِمَالِهِ. فَالْقِطْعَةُ [ظ ٢٣/٢] الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ، غَرْبُهَا كُلُّهُ مَفَاوِزُ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدُ غَدَامِسَ، وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً أَرْضُ وَدَّانَ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي كَمَا مَرَّ، وَالْقِطْعَةُ الْجَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسِ، وَتَبَسُّةُ الْأَرْبَسِ<sup>(٢)</sup>، وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، بَلَدُ بُونَةَ.

ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقاً بِلَادُ أَفْرِيْقِيَّةِ، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ، ثُمَّ السُّوسَةُ<sup>(٣)</sup>، ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ، وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْحَرِيدِ: تَوَزْرُ، وَقَفْصَةُ، وَنَفْرَاوَةُ، وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاخِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ، وَجَبَلٌ وَسَلَاتٌ وَسَيْطَلَّةٌ.

وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْقاً بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَيَبَازِئُهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلُ دُمَرٍ، وَنَقْرَةُ<sup>(٤)</sup> مِنْ قِبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابَلَةِ غَدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذَكَرُهَا فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ.

وَأَخْرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيْقَةُ ابْنِ مَثْكُودَ<sup>(٥)</sup> عَلَى الْبَحْرِ، وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانَ.

١ - بجاية: مدينة على ساحل البحر الأفريقي، اختطها الناصر بن علناس حوالي ٤٥٧هـ، وتسمى الناصرية أيضاً.

٢ - في المطبوع: الأوبس. صحح من نزهة المشتاق: ٢٧٦/١.

٣ - في ن: سوسة.

٤ - لعلها تحرفت عن: (تقربت). نزهة المشتاق: ٢٥٠/١.

٥ - في الأصل: مَشْكُورَةٌ. صحح من نزهة المشتاق: ٣٠٨/١.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضاً فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال، ويذهب على سمتهِ إلى أن يدخل في البحر الرومي، ويُسمى هنالك طرف أوثان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن، فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان، ومجالات العرب فيها، ثم زويلة ابن خطاب، ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق، وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر، ثم خلأ وقفار، تجول فيها العرب، ثم أجدائية، ثم برقة عند منعطف الجبل، ثم طلّمة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة<sup>(١)</sup> إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم، وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق<sup>(٢)</sup>، وأسفل منها بلاد هيب ورواحة، ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء، فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى، ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار، تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقاً بلاد الفيوم، وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم<sup>(٣)</sup> وعلى سمتهِ شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني.

ويفترق هذا الشعب افتراقاً ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين، من شطونوف، وزفتي، وينقسم الأيمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي، فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط، وبين مصر والقاهرة، وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وفلحاً<sup>(٤)</sup>.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام وأكثرها على ما أصف، وذلك لأن بحر القلزم<sup>(٥)</sup> ينتهي من الجنوب [ظ ١/٢٤]، وفي الغرب منه عند السويس، لأنه في ممره

١ - هما قبيلتان. (نزهة المشتاق: ١/٣١٦).

٢ - لعلها تحرفت عن برقة.

٣ - بحيرة قارون.

٤ - بمعنى: فلح الأرض وإعدادها للزراعة.

٥ - هو البحر الأحمر.



مُبْتَدَىٍّ من البحر الهندي إلى الشَّمال، يَنْعَطِفُ آخِذاً إلى جَهَةِ الْعَرَبِ فَتَكُونُ قِطْعَةً من انْعِطَافِهِ في هذا الجزء طَوِيلَةً، فَيَنْتَهِي في الطَّرْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ إلى السُّوَيْسِ. وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ قَارَانٌ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ، ثُمَّ أَيْلَةُ<sup>(١)</sup> مَدْيَنَ، ثُمَّ الْحَوْرَاءُ<sup>(٢)</sup> في آخرها ومن هنالك يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إلى الْجَنُوبِ في أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ في الإقْلِيمِ الثَّانِي في الجزء الْخَامِسِ مِنْهُ.

وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ من هذا الجزء قِطْعَةٌ من البحر الرُّومِي غَمَرَتْ كَثِيراً من غَرْبِهِ عَلَيْهَا الْفُرْمَا وَالْعَرِيشُ، وَقَارِبَ طَرَفِهَا بَلَدُ الْقَلْزَمِ فَيَصْبِاقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَاكَ، وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُقْضِياً إلى أَرْضِ الشَّامِ، وَفِي غَرْبِي هَذَا الْبَابِ فَحْصُ التِّيَّةِ، أَرْضٌ جَرْدَاءٌ لَا تُنْبِتُ، كَانَتْ مَجَالاً لِبنِي إِسْرَائِيلَ، بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ<sup>(٣)</sup>، وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إلى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، كَمَا قَصَّه الْقُرْآنُ.

وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ من البحر الرُّومِي، في هذا الجزء طَائِفَةٌ من جزيرة قُبْرُصَ، وَبَقِيَّتُهَا في الإقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَرْنَا، وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرْفِ الْمُتَصَابِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ — وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ — وَعَسْقَلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ.

ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ في انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَاكَ إلى الإقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَاكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ في جَهَةِ الشَّرْقِ، وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ، فَفِي شَرْقِهِ غَزَّةٌ ثُمَّ عَسْقَلَانُ، وَبِانْحِرَافٍ يَسِيرُ عَنْهَا إلى الشَّامِ بَلَدٌ قَيْسَارِيَّةٌ، ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدُ عَكَاةَ، ثُمَّ صُورٌ، ثُمَّ صَيْدَاءُ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إلى الشَّامِ في الإقْلِيمِ الرَّابِعِ.

وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ في هذا الجزء جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةٍ مِنْ بَحْرِ الْقَلْزَمِ<sup>(٤)</sup> وَيَذْهَبُ في نَاحِيَةِ الشَّامِ مُنْحَرِفاً إلى الشَّرْقِ إلى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجِزْءَ، وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ، وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ، فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةِ الْعَقْبَةِ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحِجَاجُ مِنْ مِصْرَ إلى مَكَّةَ، ثُمَّ بَعْدَهَا في نَاحِيَةِ الشَّامِ مَدْفَنُ الْخَلِيلِ<sup>(٥)</sup> عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ، يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقْبَةِ ذَاهِباً عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلاً.

١ - وهو ميناء إيلات المعروف الآن.

٢ - كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز على شاطئ البحر الأحمر. وقيل: مرفأ سفن مصر إلى المدينة.

٣ - لا يوجد ما يثبت تحديد مكان تاهو فيه، وإنما نصر القرآن على الأرض بجنسها، «يتيهون في الأرض» وبالتالي: فليس من داع لتحديد موقع لهم من غير بينة.

٤ - أي: البحر الأحمر.

٥ - لا يوجد نصوص ثابتة تؤكد مدفن خليل الرحمن صلوات الله عليه.

وفي شرقه هنالك بلد الحَجَرِ وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتِيْمَاءُ<sup>(١)</sup> وَدُوْمَةُ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رَضَوَى، وَحِصُونٌ خَيْرٌ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا.

وَفِيْمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزَمِ صَحْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ، عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ، ثُمَّ الْأُرْدُنُّ، ثُمَّ طَبْرِيَّةُ، وَفِي شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَذْرَعَاتِ<sup>(٢)</sup>، وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا دُوْمَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا الْجِزَاءِ، وَهِيَ آخِرُ الْحِجَازِ.

وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجِزَاءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَيَبْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ، وَجَبَلُ اللَّكَّامِ يَعْترِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا، وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكْ، ثُمَّ مَدِينَةُ حِمصَ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجِزَاءِ عِنْدَ مَنْقَطَعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكْ بَلَدٌ تَدْمُرُ وَمَجَالَاتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجِزَاءِ. [ظ ٢/٢٤].

وَفِي الْجِزَاءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ، وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعُرْجِ، وَالصَّمَّانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرٌ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ<sup>(٣)</sup>، وَفِي أَسَافِلِ هَذَا الْجِزَاءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلَدُ الْحَيْرَةِ، وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ الْفُرَاتِ. وَفِيْمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجِزَاءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عُبَادَانَ وَالْأَبْلَةِ<sup>(٤)</sup>، مِنْ أَسَافِلِ الْجِزَاءِ مِنْ شَمَالِهِ، وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عُبَادَانَ نَهْرٌ دِجْلَةٌ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِمَجْدَاوِلَ كَثِيرَةٍ، وَتَخْتَلِطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عُبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ.

وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَسِّعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَضَايِقَةٌ فِي آخِرِهِ، فِي شَرْقِيَّهِ، وَضَيْقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ، مُضَايِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ، وَعَلَى عُذُوتِهَا الْغُرَيْبَةِ مِنْهُ أَسَافِلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجْرُ الْأَحْسَاءِ<sup>(٥)</sup>، وَفِي غَرْبِهَا أَخْطَبُ وَالصَّمَّانُ، وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ، وَعَلَى عُذُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاجِلُ فَارِسَ مِنْ أَعْلَاهَا، وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجِزَاءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدْ امْتَدَّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُشَرَّقًا، وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجِزَاءِ جِبَالُ الْقِفْصِ<sup>(٦)</sup> مِنْ كُرْمَانَ.

١ - تيماء: بلد صغير في أطراف الشام، يطل عليه حصن السموع.

٢ - أذرعات: بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان.

٣ - بحر فارس: الخليج العربي.

٤ - الأبله: على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. وهي أقدم من البصرة.

٥ - الأحساء: عاصمة هجر في أيام أبي طاهر الجناني القرمطي. جمع حسي، وهو ماء تنشق الأرض من الرمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته، فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه. ولما كانت هذه الأرض كثيرة الأحساء سميت بهذا الاسم، وصار علماً عليها لا تعرف إلا به. وفيات الأعيان (١٤٩/١).

٦ - وتسمى أيضاً: القفس، بالسين المهملة.

وتحت هُرمز على الساحل بلد سيرا ف ونجيم على ساحل هذا البحر. وفي شرقيه إلى آخر هذا الجزء وتحت هُرمز بلاد فارس مثل سابور، ودار أبرجد، ونسا، وإصطخر<sup>(١)</sup>، والشاهجان، وشيراز، وهي قاعدتها كلها.

وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر، بلاد خوزستان<sup>(٢)</sup> ومنها الأهواز<sup>(٣)</sup>، وتستر، وصدى، وسابور، والسوس، ورام هُرمز، وغيرها، وأرجان<sup>(٤)</sup>، وهي حد ما بين فارس وخوزستان، وهي شرق بلاد خوزستان، ومن جبال الأكراد<sup>(٥)</sup> متصلة إلى نواحي أصبهان وبها مساكنهم، ومجالاتهم وراءها في أرض فارس، وتسمى الرسوم.

وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص، ويلبها من الجنوب والشمال بلاد كرمان، ومكران، ومن مدها الرودن، والشيرجان، وحيرفت ويزدشير والبحرج. وتحت أرض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله.

ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان، وكوهستان في الجنوب، وأرض كوهستان في الشمال غرباً ويتوسط بين كرمان وفارس، وبين سجستان وكوهستان، وفي وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان: بسن والطاق. وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها: سرخس، وقوهستان آخر الجزء.

وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الخلج<sup>(٦)</sup>، من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها، وقاعدتها غزنة: فرضة الهند.

١ - إصطخر: أعظم حصون فارس ومدنها.

٢ - أي بلاد الخوز؛ لأن استان فيها كياء النسبة في العربية.

٣ - الأهواز: كورة بين البصرة وفارس. أصلها بالعربية الأحواز. واسمها الفارسي القديم: خوزستان، وقيل: هوزمشير.

٤ - يسميها العجم: أرغان، مدينة كبيرة. بتشديد الجيم، وأكثر الناس يقولون: إنها بالراء المخففة، واستعملها المتنبي في شعره مخففة في قوله: [ديوان المتنبي بشرح العكبري ٣٣٩/١]

أرجان أيتها الجياد فإنه عزمي الذي يذر الوشيج مكسراً

٥ - الأكراد نسبة إلى الحرد، وهو المكان الذي يغلب عليه الخلو من النباتات، ويمتاز بالطبيعة الجبلية، وكل من سكن تلك الأماكن سمي كردياً، حيث انقلبت الجيم إلى كاف نتيجة البيئة.

٦ - في المطبوع: الجلج. نزهة المشتاق ٤٥٥/١. وهم صنف من الأتراك وصلوا قديماً إلى تخوم الهند.

وفي آخر الغور من الشمال بلادُ أَسْتَرَابَادَ<sup>(١)</sup>، ثم في الشمال غرباً إلى آخر الجزء بلادَ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَّاسَانَ، وبها أسفرايين<sup>(٢)</sup> وقاشان وبوشنج و مروالروذ، والطالقان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جِيحُون. وعلى هذا النهر من بلادِ خُرَّاسَانَ من غربيّه مدينةُ بَلْخ، وفي شرقيّه مدينةُ تَرْمُذ، ومدينةُ بَلْخ كانت كُرْسِيَّ مملكةِ التُّرك.

وهذا النهر نهر جِيحُون مخرجه من بلادِ وَجَارَ<sup>(٣)</sup> في حدودِ بَذَخْشَانَ<sup>(٤)</sup>، مما يلي الهند. ويخرج من جنوبِ هذا الجزء [ظ ١/٢٥] وعند آخره من الشرق، فينعطفُ عن قرب مغرباً إلى وسطِ الجزء ويُسمّى هنالك نهر خَرْنَاب، ثُمَّ ينعطفُ إلى الشمال حتى يمرَّ بخراسانَ ويذهب على سمتهِ إلى أن يصبَّ في بحيرةِ خَوَارَزَمَ في الإقليمِ الخامسِ كما نذكره.

وبعد عند انعطافهِ في وسطِ الجزء من الجنوبِ إلى الشمال خمسةُ أنهارٍ عظيمةٍ من بلادِ الحُتَلِ<sup>(٥)</sup> والوُخْشِ مِنْ شَرْقِيّه وَأَنْهَارٌ أُخْرَى من جبالِ البَتَمِ من شرقيّه أيضاً وجوفي الجبلِ حَتَّى يَتَسَّعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كَفَاءَ لَهُ.

ومن هذه الأنهارُ الخمسةُ المُمدَّةُ لَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ يَخْرُجُ من بلادِ التَّبَتِ وهي بين الجنوبِ والشرقِ من هذه الجزء، فيمرُّ مغرباً بانحرافٍ إلى الشمالِ إلى أن يخرجَ إلى الجزءِ التاسعِ قريباً من شمالِ هذا الجزء يعترضه في طريقه جبلٌ عظيمٌ يمرُّ من وسطِ الجنوبِ في هذا الجزء، ويذهب مُشرّقاً بانحرافٍ إلى الشمالِ إلى أن يخرجَ إلى الجزءِ التاسعِ قريباً من شمالِ هذا الجزء فيجوزُ بلادَ التَّبَتِ إلى القِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ من هذا الجزء، ويجولُ بين التُّركِ وبين بلادِ الحُتَلِ، وليس فيه إلا مَسَلَكٌ واحدٌ في وسطِ الشرقِ من هذا الجزء، جعل فيه الفضلُ بْنُ يَحْيَى سُدّاً، وبنى فيه باباً كَسَدُ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ.

فإذا خرج نهرُ وَخْشَابَ من بلادِ التَّبَتِ واعتَرَضَهُ هذا الجبلُ فيمرُّ تحته في مدى بعيدٍ إلى أن يمرَّ في بلادِ الوُخْشِ، ويصبُّ في نهرِ جِيحُون عند حدودِ بَلْخ، ثُمَّ يمرُّ هابطاً إلى التَّرْمُذِ في الشمالِ إلى بلادِ الْجَوَزَجَانَ.

١ - من أعمال طبرستان، بين سارية وجرجان.

٢ - اسمها القديم مهرجان، وهي بلدة من نواحي نيسابور.

٣ - في نزهة المشتاق (٤٨١/١): وخان، رخار، وجان..

٤ - بلد في أعلى طخارستان، متاخمة لبلاد الترك، تبعد عن بلخ ثلاث عشرة مرحلة.

٥ - مذكورة واسعة على تخوم السند.

وفي الشَّرْق عن بلادِ الغور فيما بينها وبينَ نهرِ جيحون بلادُ النَّاسَانِ من خراسانَ، وفي العدوَّة الشَّرْقِيَّة هُنالكَ مِنَ النَّهْرِ بلادُ الْخُتَلِ وأكثرها جبالٌ وبلادُ الْوَحْشِ، ويحدُّها من جهةِ الشَّمالِ جبالُ الْبَتَمِ، تخرجُ من طرفِ خُراسانَ غَرْبِيَّ نهرِ جِيحونَ وتذهبُ مُشْرِقَةً إلى أن يَتَّصِلَ طرفُها بالجبلِ العظيمِ الَّذي خلفُه بلادُ التَّبَتِ، ويمرُّ تحتُه نهرٌ وَحْشَابَ - كما قلناه - فَيَتَّصِلُ عِنْدَ بابِ الْفَضْلِ بنِ يَحْيَى.

ويمرُّ نهرُ جِيحونَ بينَ هذهِ الجبالِ وأنهارٍ أُخرى، تصبُّ فيه، منها: نهرُ بلادِ الْوَحْشِ يصبُّ فيه من الشَّرْق تحت التُّرْمُذَ إلى جهةِ الشَّمالِ، ونهرٌ بَلْخُ يخرجُ من جبالِ الْبَتَمِ مَبْدَؤُهُ <sup>(١)</sup> عِنْدَ الْجَوَزَخَانَ وَيَصُبُّ فيه من غربيهِ.

وعلى هذا النَّهْرِ من غربيهِ بلادُ آمِدَ من خراسانَ وفي شرقي النَّهْرِ من هُنالكَ أرضُ الصُّغْدِ، وأشْرُوسَنَةُ من بلادِ التُّرْكِ، وفي شرقها أرضُ فِرْغَانَةَ أيضاً إلى آخِرِ الجزءِ شَرْقاً وكلِ بلادِ التُّرْكِ، تحوزُها جبالُ الْبَتَمِ إلى شِمَالِها.

وفي الجزءِ التَّاسِعِ من غَرْبِهِ <sup>(٢)</sup> أرضُ التَّبَتِ إلى وَسَطِ الجزءِ، وفي جنوبيها بلادُ الْهِنْدِ، وفي شَرْقِها بلادُ الصِّينِ، إلى آخِرِ الْجُزْءِ، وفي أَسْفَلَ هذا الجزءِ شَمَالاً عن بلادِ التَّبَتِ بلادُ الْخَزَلْجِيَّةِ من بلادِ التُّرْكِ إلى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً، وَيَتَّصِلُ بها من غَرْبِها أرضُ فِرْغَانَةَ أيضاً إلى آخِرِ الجزءِ شَرْقاً، ومن شَرْقِها أرضُ التَّغْرُغُرِ من التُّرْكِ إلى الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً.

وفي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ في الجنوبِ منه جميعاً بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وفي الشَّمالِ بَقِيَّةُ بلادِ التَّغْرُغُرِ، ثُمَّ شَرْقاً عَنْهُمْ بلادُ خِرَجِيرَ، من التُّرْكِ أيضاً إلى آخِرِ الجزءِ شَرْقاً. وفي الشَّمالِ من أرضِ خِرَجِيرَ، بلادُ كَتَمَانَ <sup>(٣)</sup> مِنَ التُّرْكِ، وَقَبَالَتُها في الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جزيرةُ الْيَاقُوتِ في وَسَطِ جَبَلِ مُسْتَنْدِيرَ لا مَنَفَذَ مِنْهُ إِلَيْها ولا مَسْلَكَ، والصُّعُودُ إلى أَعْلَاهُ من خَارِجِهِ صَعْبٌ في الْغَايَةِ، وفي الْجَزِيرَةِ حَيَّاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَّى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ، فيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ بما يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ.

١ - في ن: من مبدئه.

٢ - في ن: غربيهِ.

٣ - في ظ: كيماك.

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان، والجبال كلها مجالات للترك: أمم لا تحصى وهم ظَوَاعِنُ رَحَالَةٍ أَهْلُ إِبِلٍ وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلتَّاجِ، وَالرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ، وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ، لَا يَحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ، وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ، مِمَّا يَلِي بِلَادَ النَّهْرِ نَهْرُ جَيْحُونَ، وَيَغْزُونَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ بِالْجُوسِيَّةِ، فَيَبِيعُونَ رَقِيْقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ، وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَّاسَانَ، وَالْهِنْدِ، وَالْعِرَاقِ.

**الإقليم الرابع:** يتصل بالثالث من جهة الشمال. والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة، من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً، وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي، في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلاً، ما بين طريف، والجزيرة الخضراء شمالاً، وقصر الحجاز وسبتة جنوباً، ويذهب مُشْرِقاً إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسح في ذهابه بتدرج إلى أن يغمر الأربعة الأجزاء، وأكثر الخامس، ويغمر عن جانبيه طرفاً من الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره.

ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً، وفيه جزائر كثيرة، أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة، ثم منركة<sup>(١)</sup>، ثم سردانية، ثم صقلية وهي أعظمها، ثم بلونس<sup>(٢)</sup>، ثم إقريطش<sup>(٣)</sup>، ثم قبرص، كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها.

ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه، وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس، خليج البنادقة يذهب إلى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه، ويمر مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس.

ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية، يمر في الشمال متضايقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس، وينعطف إلى بحر بُنْطُس<sup>(٤)</sup> ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الإقليم السادس، كما نذكر ذلك في أماكنه.

١ - في نزهة المشتاق: ٥٨٢/٢: (ميورقة.. منورقة).

٢ - في المطبوع: بلونس. صحح من نزهة المشتاق: ٦٣٩/٢.

٣ - إقريطش: جزيرة في البحر تقابلها ليبيا من البر الأفريقي.

٤ - في ن: (بنطش) و(نيطش). والذي في معجم البلدان (٥٠٠/١) بُنْطُس. قال: بضم الطاء والسين مهملة. كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروتي. ومعناه البحر الذي منه خليج القسطنطينية ثم يمتد حتى يتصل ببحر الشام.

وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة، وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء، فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي، ثم تطاون<sup>(١)</sup>، ثم بادس<sup>(٢)</sup>، ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً، ويخرج إلى الثالث.

وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله [وشمال] الخليج منه، وهي كلها بلاد الأندلس الغربية، منها ما بين البحر المحيط، والبحر الرومي، أولها طريف عند مجمع البحرين، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي، الجزيرة الخضراء، ثم مالقة، ثم المنكب<sup>(٣)</sup>، ثم المريّة.

وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً [ظ ١/٢٦]، وعلى مقربة منه شريش، ثم لبلّة، وقبلتها فيه جزيرة قادس، وفي الشرق عن شريش ولبلّة، إشبيلية، ثم أستجة وقرطبة ومربلة<sup>(٤)</sup>، ثم غرناطة، وجيان، وأبدّة، ثم وادي آش، وبسطة.

وتحت هذه شتمرية وشلب على البحر المحيط غرباً، وفي الشرق عنهما بطليوس<sup>(٥)</sup>، وماردة، ويابرة<sup>(٦)</sup>، ثم غافق<sup>(٧)</sup>، وترجالة<sup>(٨)</sup>، ثم قلعة رياح.

وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غرباً وعلى نهر باجة، وفي الشرق عنها شنترين، وقورية<sup>(٩)</sup> على النهر المذكور، ثم قنطرة السيف.

ويسامت أشبونة من جهة الشرق، جبل الشارات، يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه، فينتهي إلى مدينة سالم، فيما بعد النصف منه، وتحت هذا الجبل طليّة في الشرق من قورية<sup>(١٠)</sup>، ثم طليطة، ثم وادي الحجارّة، ثم مدينة سالم.

١ - في المطبوع: قطاون. صحح من نزهة المشتاق: ٥٣١/٢.

٢ - في المطبوع: باديس. صحح من نزهة المشتاق: ٢٦٤/١.

٣ - في ن: المنقب. والثبت موافق لنزهة المشتاق: ٥٦٤/٢.

٤ - في المطبوع: مديلة. صحح من نزهة المشتاق: ٥٣٧/٢.

٥ - بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة غربي قرطبة.

٦ - في نزهة المشتاق: ٥٣٨/٢. يابورة.

٧ - حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط.

٨ - في المطبوع: بزجالة. صحح من نزهة المشتاق: ٥٥٠/٢.

٩ - في المطبوع: موزية. صحح من نزهة المشتاق: ٥٤٧/٢.

وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة، بلد قلمرية، وهذه غربي الأندلس.

وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة، ثم لقنة ثم دانية ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالاً ليورقة<sup>(١)</sup> وشقورة تناخمان بسطة، وقلعة رياح من غرب الأندلس، ثم مرسية شرقاً، ثم شاطبة تحت بلنسية شمالاً، ثم شقر<sup>(٢)</sup>، ثم طرطوشة، ثم طركونة آخر الجزء.

ثم تحت هذه شمالاً أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليلة من الغرب، ثم أفرغه شرقاً تحت طرطوشة، وشمالاً عنها، ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب، ثم سرقسطة، ثم لاردة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه، إلا قطعة من غربيه في الشمال، فيها بقية جبل البرنات<sup>(٣)</sup>، ومعناه جبل الثنايا، والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس، يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً، ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق، فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل، وتسمى أرض غشكونية، وفيه مدينة جرندة<sup>(٤)</sup>، وقرقشونة، وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرهما، ففي غربيه جزيرة سردانية، وفي شرقيّه جزيرة صقلية متسعة الأقطار، يُقال: إن دورها سبع مئة ميل، وبها مدُن كثيرة من مشاهيرها: سرقوسة وبلرم<sup>(٥)</sup> وطرابغة<sup>(٦)</sup> ومازر ومسيي، وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية، وفيما بينهما جزيرة أعذوش<sup>(٧)</sup> ومالطة.

١ - في المطبوع: فورنة. صحح من نزهة المشتاق: ٥٤٧/٢.

١ - في نزهة المشتاق: ٥٣٨/٢: لورقة.

٢ - جزيرة في شرق الأندلس.

٣ - في المطبوع: البرنات. صحح من نزهة المشتاق: ٥٣٨/٢.

٤ - في المطبوع: خريدة. صحح من نزهة المشتاق: ٥٨٣/٢.

٥ - بلرم: أعظم مدينة في جزيرة صقلية.

٦ - في نزهة المشتاق: ٦٠١/١: طرابنش.

٧ - لعلها تحرفت عن: (غودش) أو (إقريطش). انظر نزهة المشتاق: ٥٨٨/٢.



وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِالْبَحْرِ، إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ،  
الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قُلُوزِيَّةَ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ أَنْكَبَرْدَةَ<sup>(١)</sup>، وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ.  
وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضاً بِالْبَحْرِ، كَمَا مَرَّ، وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا  
غَيْرُ مَسْكُونٍ [ظ ٢٦/٢] كَمَا فِي الثَّالِثِ، وَالْمَعْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلْبُونَسِ<sup>(٢)</sup> فِي النَّاحِيَةِ  
الْغَرْبِيَّةِ الشَّامِلِيَّةِ، وَجَزِيرَةُ إِقْرِيطَشَ مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ  
مِنْهُ.

وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مُثْلَثَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ  
وَيَنْتَهِي الضِّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّامِ، وَيَنْتَهِي الضِّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ  
الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ، وَيَقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ قِطْعَةً نَحْوِ الثَّلَاثِ يَمْرُ الشَّامَالِي مِنْهَا  
إِلَى الْغَرْبِ مَنَعُطاً إِلَى الْغَرْبِ مَنَعُطاً مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا.

وَفِي النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ الشَّامِ، وَيَمْرُ فِي وَسْطِهَا جَبَلُ اللَّكَّامِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى  
آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّامِ، فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ ذَاهِباً إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّامَالِي، وَيَسْمَى بَعْدَ  
انْعِطَافِهِ جَبَلُ السُّلْسِلَةِ، وَمِنْ هُنَالِكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَظِفِهِ  
قِطْعَةً مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ.

وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَظِفِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى  
طَرَفٍ خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّامِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ثَنَائِيَا،  
تُسَمَّى الدُّرُوبُ، وَهِيَ الَّتِي تَقْضِي إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ، وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ  
الْجِبَالِ، وَبَيْنَ جَبَلِ السُّلْسِلَةِ.

فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ الشَّامِ، وَأَنَّ جَبَلَ اللَّكَّامِ مُعْتَرِضٌ فِيهَا بَيْنَ  
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِ، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَرَطُوسُ<sup>(٣)</sup>  
فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ، مُتَاخِمَةٌ لِعِظَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ، وَفِي  
شَمَالِ أَنْطَرَطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّادِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَندَرُوتُ، ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلَادُ الرُّومِ.

١ - في ن: أبكيرة. وأنكبرة: بلاد واسعة في شمال البحر المتوسط، بين القسطنطينية والأندلس. وانظر نزهة  
المشتاق: ٧٣٩/٢، ٧٤٢.

٢ - في ظ: بليونس. وفي المطبوع: بكونس. صحح من نزهة المشتاق: ٦٣٩/٢.

٣ - أنطراطوس: بلد من سواحل بحر الشام تعرف الآن بطراطوس.

وَأَمَّا جَبَلُ اللَّكَّامِ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ، فَيَصَاقِبُهُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ مَنْ  
أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِهِ حُصْنُ الْحَوَانِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَيُعْرَفُونَ لِهَذَا  
الْعَهْدِ بِالْفِدَاوِيَّةِ، وَيُسَمَّى مَصِيَّاتٍ<sup>(١)</sup> وَهُوَ قِبَالَةٌ أَنْطَرُطُوسَ.

وَقِبَالَةٌ هَذَا الْحُصْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدٌ سَلَمِيَّةٌ فِي الشَّامِ عَنْ حَمَصَ، وَفِي الشَّامِ وَفِي  
مَصِيَّاتٍ بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ، بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ، وَيُقَابِلُهَا فِي شَرْقِ الْجَبَلِ الْمَعْرَةَ، وَفِي شَرْقِهَا  
الْمَرَاغَةُ، وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةِ الْمَصِيصَةِ، ثُمَّ أَدْنَةُ، ثُمَّ طَرَسُوسُ آخِرُ الشَّامِ، وَيُحَاذِيهَا مِنْ  
غَرْبِ الْجَبَلِ قَنْسَرَيْنِ، ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ، وَقِبَالَةٌ قَنْسَرَيْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ حَلْبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ  
مَنْبِجَ آخِرِ الشَّامِ.

وَأَمَّا الدُّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيَّ بِلَادُ الرُّومِ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ  
لِلتُّرْكُمَانِ وَسُلْطَانُهَا ابْنُ عُثْمَانَ، وَفِي سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ وَالْعَلَايَا.

وَأَمَّا بِلَادُ الْأَرْمَنِ الَّتِي بَيْنَ جَبَلِ الدُّرُوبِ وَجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدٌ مَرْعَشَ، وَمَلْطِيَّةُ،  
وَالْمَعْرَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الشَّامِيِّ، وَيَخْرُجُ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَرْمَنِ، نَهْرُ جِيحَانَ،  
وَنَهْرُ سِيحَانَ فِي شَرْقِيهِ فَيَمُرُّ بِهَا جِيحَانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاوَزَ الدُّرُوبَ، ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ،  
ثُمَّ بِالْمَصِيصَةِ، ثُمَّ يَنْعَظُ هَابِطًا إِلَى الشَّامِ، وَمُغْرِبًا [ظ ١/٢٧] حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ  
الرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ.

وَيَمُرُّ نَهْرُ سِيحَانَ مُوَازِيًا لِنَهْرِ جِيحَانَ فَيَحَاذِي الْمَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدُّرُوبِ  
إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ، وَيَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جِيحَانَ ثُمَّ يَنْعَظُ إِلَى الشَّامِ مُغْرِبًا  
فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جِيحَانَ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ، وَمِنْ غَرْبِهَا.

وَأَمَّا بِلَادُ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مَنَعُظُ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى جَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ  
الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةِ، ثُمَّ حَرَّانُ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ سَرُوجُ وَالرَّهَّا، ثُمَّ نَصِييْنِ، ثُمَّ سُمَيْسَاطُ<sup>(٣)</sup> وَآمِدُ تَحْتَ  
جَبَلِ السُّلْسِلَةِ، وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيهِ، وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ  
هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفَرَاتِ وَنَهْرُ دَجَلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَرْمَنِ  
جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفَرَاتِ مِنْ غَرْبِي سُمَيْسَاطَ وَسَرُوجَ،

١ - المعروفة الآن: بمصيف.

٢ - مدينة عظيمة على طريق الشام والروم كانت عاصمة ديار مصر.

٣ - مدينة على شاطئ الفرات.

وينحرفُ إلى الشَّرْقِ فيمُرُّ بقربِ الرَّافِضَةِ والرَّقَّةِ، ويخرُجُ إلى الجزءِ السَّادِسِ، ويمرُّ دجلةَ في شرقِ آمِدَ وينعطفُ قريباً إلى الشَّرْقِ فيخرجُ قريباً إلى الجزءِ السَّادِسِ.

وفي الجزءِ السَّادِسِ من هَذَا الإقْلِيمِ من غربيهِ بلادُ الحَزِيرَةِ. وفي الشَّرْقِ مِنْهَا بلادُ العِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا، تنتهي في الشَّرْقِ إلى قُربِ آخِرِ الجُزءِ، ويعترضُ من آخِرِ العِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلٌ أَصْبَهَانٌ هَابِطاً من جُنُوبِ الجُزءِ مُنْحَرِفاً إلى الغُربِ، فإذا انتهَى إلى وَسَطِ الجُزءِ من آخِرِهِ في الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرِباً إلى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الجُزءِ السَّادِسِ، ويتصلُّ على سَمْتِهِ بِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ في الجزءِ الخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الجُزءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ، ففي الغَرْبِيَّةِ من جُنُوبِهَا مَخْرَجُ الفُرَاتِ مِنَ الخَامِسِ، وفي شَمَالِهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ، أَمَّا الفُرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا، ويخرجُ من هُنَالِكَ جَدَاوِلُ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا، ويمرُّ من قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الجُنُوبِ فيمُرُّ بِقُربِ الحَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ، ويخرجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ جَنُوباً، وَيَقَى صَفَيْنِ فِي غَرْبِهِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ، فيمرُّ بعضها بالكُوفَةِ وبعضها بِقَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ، وتُخْرَجُ جَمِيعاً فِي جُنُوبِ الجُزءِ إِلَى الإقْلِيمِ الثَّالِثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الحَيْرَةِ وَالْقَادِسيَّةِ، ويخرجُ الفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرِقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ شَمَالِهَا، ويمرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ من جُنُوبِهَا، ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ: فإذا دَخَلَ مِنَ الجُزءِ الخَامِسِ إِلَى هَذَا الجُزءِ يَمُرُّ مُشْرِقاً عَنْ سَمْتِهِ، وَمَحَاضِيَاً لِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ الْمُتَّصِلِ بِجَبَلِ العِرَاقِ عَلَى سَمْتِهِ، فيمرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ<sup>(١)</sup> عَلَى شَمَالِهَا. ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكَرَّرَتْ وَيَنْتَهِي إِلَى الْحَدِيثَةِ، فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ، وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوباً وَفِي غَرْبِ الْقَادِسيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ، وَيَخْتَلِطُ بِالْفُرَاتِ، ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوباً عَلَى غَرْبِ جَرَجَرَايَا<sup>(٢)</sup> إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الجُزءِ [ظ ٢/٢٧] إِلَى الإقْلِيمِ الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارَسٍ<sup>(٣)</sup> عِنْدَ عَبَّادَانَ.

وفيما بينَ نَهْرِ الدَّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ، هِيَ بِلَادُ الجَزِيرَةِ.

١ - بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي.

٢ - من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

٣ - أي: الخليج العربي.

ويختلطُ بنهر دجلة بعدَ مُفَارَقَتِهِ ببغدادِ نهرٌ آخرُ يأتي من الجهةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ، وينتهي إلى بلادِ النَّهْرَوَانِ قِبَالَ بغدادَ شَرْقاً، ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوباً وَيَخْتَلِطُ بِدجلةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الإقْلِيمِ الثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بَلَدٌ جَلُولَاءُ<sup>(١)</sup>، وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدٌ حُلُوانَ وَصَيْمَرَةٌ.

وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغُرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَزُّضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ، وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ، وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى بَلَدٌ خَوْنَجَانُ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلَدُ الْهَلُوسِ، وَفِي وَسْطِهَا بَلَدٌ نَهَاوَنْدَ، وَفِي شَمَالِهَا بَلَدٌ شَهْرَزُورَ غَرْباً، عِنْدَ مُلتَقَى الْجَبَلَيْنِ، وَالْدَيْنُورُ شَرْقاً عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ.

وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ، قَاعِدَتُهَا الْمَرَاغَةُ، وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ، يُسَمَّى بَارِيَا<sup>(٢)</sup>، وَهُوَ مَسَاكِنٌ لِلْأَكْرَادِ، وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دجلةَ مِنْ وَرَائِهِ.

وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادُ أَذَرَبَيْجَانِ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ، وَالْبَيْلَقَانُ<sup>(٣)</sup>، وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ بَنْطُسَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ. وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ وَفِيهَا هَمَذَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا فِي الإقْلِيمِ الثَّالِثِ، وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ، وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإقْلِيمِ الثَّالِثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى الإقْلِيمِ الرَّابِعِ، وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيَّهِ الَّذِي مَرَّ ذَكَرُهُ هُنَالِكَ، وَإِنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ.

وَيَهْبِطُ هَذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الإقْلِيمِ الثَّالِثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ، وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ، فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُمْ، وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَباً بَعْضَ الشَّيْءِ، ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقاً وَمَنْحَرَفاً إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الإقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرِّيِّ فِي شَرْقِيَّهِ، وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يَمُرُّ غَرْباً إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ، وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ

١ - فِيهَا كَانَتِ الْوَقْعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِهَا لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفَرَسِ سَنَةَ ١١٩ هـ.

٢ - بَارِي: قَرْيَةٌ فِي نَوَاحِي بَغْدَادِ كَانَتِ ذَاتَ بَسَاتِينَ يَقْصِدُهَا أَهْلُ الْبَطَالَةِ.

٣ - فِي الْمَطْبُوعِ: الْبَيْدَقَان. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمَشْتَقِ: ٨٢٢/٢.

هنالك قزوين، ومن جانبه الشمالي وجانب جَبَلِ الرِّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِباً إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ، ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ طَبْرَسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَزُّزُ عِنْدَ جَبَلِ الرِّيِّ. وَعِنْدَ انْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ بِمَرِّ عَلَى سَمْتِهِ مَشْرِقاً وَبِانْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرِّيِّ وَهَذَا الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِمَا بِلَادُ جُرْجَانَ [ظ ٢٨/١] فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَمِنْهَا بِسْطَامُ<sup>(١)</sup>.

وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، فِيمَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارَسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِيٍّ فَاشَانَ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَادَ، وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيٍّ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نَيْسَابُورَ، ثُمَّ مَرُّ الشَّاهِجَانَ آخِرُ الْجُزْءِ، وَفِي شِمَالِهِ وَشَرْقِيٍّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ، وَخَازَرُونَ، وَطُوسَ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً؛ وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ.

وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا، وَيَحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَائِنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ<sup>(٢)</sup> مَفَاوِزُ مُعْطَلَةٌ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، وَفِي غَرْبِهِ نَهْرٌ جِيحُونَ ذَاهِباً مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، فَفِي عُذُوتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمٌّ وَأَمْلُ<sup>(٣)</sup> مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ، وَالظَّاهِرِيَّةُ وَالْجُرْجَانِيَّةُ، مِنْ بِلَادِ خَوَارِزْمَ، وَيَحِيطُ بِالزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلُ أَسْتَرَابَادَ الْمُعْتَزُّزُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ، وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِهِ، وَيُحِيطُ بِهِذِهِ الزَّوَايَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ، وَبِمَرِّ الْجَبَلِ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجَوَزَجَانَ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبُتْمِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ. وَفِي شَرْقِيٍّ نَهْرٌ جِيحُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى، ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ، وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ، ثُمَّ بِلَادُ أَشْرُوسَنَةَ<sup>(٤)</sup>. وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقاً. وَفِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَأَشْرُوسَنَةَ أَرْضُ إِيلَاقَ<sup>(٥)</sup>، ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ إِيلَاقَ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ

١ - بسطام: بلدة كبيرة في الطريق إلى نيسابور بعد دامغان.

٢ - في ن: الشمالي والشرقي.

٣ - أمْل: أكبر مدينة بطبرستان في السهل.

٤ - في الأصل: (أسروشنة) وهي بلد كبير في ما وراء النهر.

٥ - في المشترك: إقليم إيلاق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها.

شرقاً، ويأخذ قطعةً من الجزء التاسع، في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع، نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس، ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة.

وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون، يبدأ من الإقليم الخامس، وينعطف شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش، وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث. وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب، وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة، وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة، وفيها بلد إسبيجاب<sup>(١)</sup> وطراز.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربه بعد أرض فرغانة والشاش، أرض الخزرجية في الجنوب، وأرض الخليجية في الشمال، وفي شرق الجزء كله أرض الكيمائية، ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا، آخر الجزء شرقاً، وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج، وهذه الأمم كلها من شعوب الترك. انتهى.

**الإقليم الخامس:** الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً [ظ ٢/٢٨] من جنوبه وشرقه، لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية، دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع من الدائرة المحيطة بالإقليم، فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصل من هنالك بالأندلس، وعليها بقيتها، ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث، ففيها من بقية غرب الأندلس سعيور على البحر، عند أول الجزء من الجنوب والغرب، وسلمنكة شرقاً عنها، وفي جوفها سمورة، وفي الشرق عن سلمنكة أيلة<sup>(٢)</sup> آخر الجنوب، وأرض قستالية شرقاً عنها، وفيها مدينة شقوية<sup>(٣)</sup>، وفي شمالها أرض ليون وبرغشت، ثم وراءها في الشمال أرض حليقية إلى زاوية القطعة.

١ - في ن: بلد السنجاب.

٢ - وهي مدينة في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد.

٣ - في المطبوع: شقونية. صحح من نزهة المشتاق: ٧٢٥/٢.

وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلدٌ سَتِيَّاقُو، ومعناه: يَعْقُوبُ.

وفيها من شرق بلادِ الأندلس مدينة شَطْلِيَّة عند آخر الجزء في الجنوب، وشرقاً عن قَسْطَالِيَّة، وفي شمالها وشرقها وشَقَّة وَبَنْبُلُونَةُ على سَمْتِهَا شرقاً وشمالاً، وفي غربِ بَنْبُلُونَةِ قَسْطَالَةِ، ثُمَّ ناجزة فيما بينها وبين بَرْغَشْت.

ويعترض وسط هذه القطعة جبلٌ عظيمٌ محاذٍ للبحر، وللضلع الشمالي الشرقي منه، وعلى قرب، ويتصل به وبطرف البحر عند بَنْبُلُونَةِ<sup>(١)</sup> في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي، في الإقليم الرابع، ويصير حجراً على بلاد الأندلس من جهة الشرق، وثناياه لها أبواب تفضي إلى بلاد غَشْكُونِيَّة من أمم الفرنج، فمنها من الإقليم الرابع: بَرْشَلُونَةُ، وأَرْبُونَةُ<sup>(٢)</sup> على ساحل البحر الرومي، وجرندة<sup>(٣)</sup> وقرْقَشُونَةُ ورَاءَهُمَا في الشمال، ومنها من الإقليم الخامس طَلُوشَةُ شمالاً عن جرندة.

وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق قطعة على شكلٍ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ، زَاوِيَتُهُ الحَادَّةُ وراءَ البُرَّتَاتِ<sup>(٤)</sup> شرقاً وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبلُ البُرَّتَاتِ بَلَدُ نِيُونَةِ، وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرضُ يَنْطُو<sup>(٥)</sup> من الفرنج إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرضُ غَشْكُونِيَّة، وفي شمالها أرضُ يَنْطُو وبرغشت، وقد ذكرناهما، وفي شرق بلادِ غَشْكُونِيَّة في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة إلى الشرق قليلاً وصارت بلادُ غَشْكُونِيَّة في غربها داخلَةً في جون من البحر.

وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلادُ جَنَوَةِ، وعلى سَمْتِهَا في الشمال جبلُ مِنتِ<sup>(٦)</sup> جُون، وفي شماله وعلى سمتهِ أرضُ بَرْغُونَةِ.

١ - في ن: ينبلونة بالياء.

٢ - في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها وبين قرطبة نحو ألف ميل.

٣ - في المطبوع: حريدة. صحح من نزهة المشتاق: ٥٨٣/٢.

٤ - في ن: البرنات. وفي المطبوع: البرناب. صحح من نزهة المشتاق: ٣٠٠، ١١/١.

٥ - في المطبوع: بنطو. صحح من نزهة المشتاق: ٧٢٥/٢.

٦ - في المطبوع: نيت. صحح من نزهة المشتاق: ٨٧٤/٢.

وفي الشَّرْق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرُّومِيّ طرف، آخرُ خارجٍ منه، يبقى بينهما جون داخل من البرّ في البحر، في غربيّه نيش، وفي شرقيّه مدينة رومة العُظمى كُرسي ملك الإفرنجة، ومسكن البابا بطركهم الأعظم، وفيها من المباني الضخمة والهيكل الهائلة والكنائس العاديّة ما هو معروف الأخبار، ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب [ظ ٢٩/١] مفروش قاعه ببلاط النحاس، وفيها كنيسة بَطْرُس وبُولُس من الحواريين، وهما مدفونان بها.

وفي الشّمال عن بلاد رومة بلادُ أفرَنْصِيصَة<sup>(١)</sup> إلى آخر الجزء، وعلى هذا الطّرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلادُ نَابِل في الجانب الشرقيّ منه متصلة ببلد قلوريّة من بلاد الفرنج، وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث، مُعَرَّباً ومحاذياً للشّمال من هذا الجزء، وانتهى إلى نحو الثلث منه، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط، ومن شماله بلادُ إنكليّة في الإقليم السّادس.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيّه بلادُ قلوريّة بين خليج البنادقة والبحر الرُّومِيّ، يُحيطُ بها من شرقيّه، يصل من برّها في الإقليم الرابع، في البحر الرُّومِيّ في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشّمال إلى هذا الجزء في شرقي بلاد قلوريّة، بلادُ أُنْكِرْدَة<sup>(٢)</sup> في جن بين خليج البنادقة والبحر الرُّومِيّ.

ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع، وفي البحر الرُّومِيّ ويحيط به من شرقيّه خليج البنادقة من البحر الرُّومِيّ ذاهباً إلى سمت الشّمال، ثمّ ينعطف إلى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشّماليّ، ويخرج على سمت من الإقليم الرابع جبل عظيم يُوازيه ويذهب معه إلى<sup>(٣)</sup> الشّمال، ثمّ يُعَرَّبُ معه في الإقليم السّادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكليّة من أمم اللّمانيين. كما نذكر، وعلى هذا الخليج، وبينه وبين هذا الجبل، ما دأما ذاهبين إلى الشّمال، بلادُ البنادقة، فإذا ذهبا إلى المغرب فينبهما بلاد حروايا، ثمّ بلاد الألمانين عند طرف الخليج.

١ - فرنسا.

٢ - في المطبوع: أنكردة. صحح من نزهة المشتاق: ٤/١.

٣ - في ن: في.



وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرُّومِيَّ خرجت إليه من الإقليم الرابع مُضْرَسَةً كُلُّهَا بقطع من البحر ويخرج منها إلى الشَّمال، وبين كلِّ ضرسين منها طرفٌ من البحر في الجُوفَ بينهما، وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر، ويخرج منها إلى الشَّمال خليج القُسْطَنْطِينِيَّة يخرج من هذا الطرف الجنوبي، ويذهب على سَمْتِ الشَّمال إلى أن يدخل في الإقليم السَّادس، وينعطف من هنالك عن قرب مُشْرِقاً إلى بحر بُنطُس<sup>(١)</sup> في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسَّادس بعده من الإقليم السَّادس كما نذكر، وبلدُ القُسْطَنْطِينِيَّة في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشَّمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كُرْسِيَّ القِيَاصِرَةِ، وبها من آثار البناء والضَّخامة ما كثرت عنه الأحاديث، والقطعة التي ما بين البحر الرُّومِيَّ وخليج القُسْطَنْطِينِيَّة من هذا الجزء، وفيها بلاد مَقْدُونِيَّة التي كانت لِلْيُونَانِيِّينَ ومنها ابتداء مُلْكِهِمْ، وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض بَاطُوس<sup>(٢)</sup>، وأظنها هذا العهد مَجَالَات لِلتُّرْكُمَان، وبها ملكُ ابن عُثْمَانَ وقاعدته بها بَرَصَة<sup>(٣)</sup>، وكانت من قبلهم لِلرُّومِ وغلبهم عليها الأُمَم إلى أن صارت لِلتُّرْكُمَان.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم، من غربيّه وجنوبيّه أرضُ بَاطُوس، وفي الشَّمال عنها إلى آخر الجزء بلادُ عَمُورِيَّة، وفي شرقي عَمُورِيَّة نهرُ قَبَاقِب الَّذِي يمدُّ [ظ ٢٩/٢] الفرات يخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يُخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الثاني إلى مَمَرِهِ في الإقليم الرابع، وهُنالك في غربيّه آخر الجزء في مَبْدَأِ نهرِ سِيحَانَ، ثُمَّ نهرُ جِيحَانَ غربيّه الذَّاهِبِينَ على سَمْتِهِ، وقد مرَّ ذكرهما، وفي شرقيّه هنالك مَبْدَأُ نهر دجلة الذَّاهِبِ على سَمْتِهِ، وفي مؤازرته حتى يُخالطه عند بَغْدَاد.

وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الَّذِي يبدَأ منه نهرُ دجلة بلدُ مِيَّافَرَقِينَ.

ونهرُ قَبَاقِب الَّذِي ذكرناه يقسمُ هذا الجزء بِقِطْعَتَيْنِ: إحداهما: غربيَّة جنوبيَّة، وفيها أرضُ بَاطُوس كما قلناه، وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً، ووراء الجبل الَّذِي يبدَأ منه نهرُ قَبَاقِب أرضُ عَمُورِيَّة كما قلناه. والقطعة الثَّانِيَّة: شرقيَّة شماليَّة على الثُّلث، في الجنوب

١ - في ن: بنطش. والذي في معجم البلدان (٥٠٠/١) بنطس قال: بضم الطاء والسين مهملة. كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروني.

٢ - في المطبوع: بلونس. صحح من نزهة المشتاق: ٨٠٣/٢، ٨٠٨: باطوس.. باطوس.. باطوس.. ناطلوس.

٣ - في ن: بورصة.

منها مبدأ دجلة والفرات، وفي الشمال بلاد الأيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقيب، وهي عريضة، وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة، وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر بنطس الذي يمدّه خليج القسطنطينية.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق، وفيها بلدان<sup>(١)</sup> أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تقيس ودليل، وفي شرق أردن مدينة خلّاط، ثم بردعة في جنوبها بانخراف إلى الشرق مدينة أرمينية، ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع، وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد، المسمى بأرمي، وقد مرّ ذكره في الجزء السادس منه.

ويتأخّر بلاد أرمينية في هذا الجزء، وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان، وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد أردليل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع، ويسمى بحر طبرستان، وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الحزر وهم التركمان، ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس. فتمرّ فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين، ويخرج إلى الإقليم الرابع، عند آمد<sup>(٢)</sup> ويتصل بجبل السلسلة في أسفل الشام، ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مرّ.

وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانياً كالأبواب، تفضي من الجانبين، ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان، وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب، وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية، وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد أران<sup>(٣)</sup> متصلة إلى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السريّر [ظ ١/٣٠] في الزاوية الغربية الشمالية منها.

وفي زاوية الجزء كلّ قطعة أيضاً من بحر بنطس الذي يمدّه خليج القسطنطينية، وقد مرّ ذكره، ويحفّ بهذه القطعة من بنطس بلاد السريّر، وعليها منها بلد أطرابزنده<sup>(٤)</sup>.

١ - في ن: بلد.

٢ - أعظم مدن ديار بكر افتتحها المسلمون سنة عشرين من الهجرة، على يد عياض بن غنم.

٣ - في المطبوع: الزاب. صحح من نزهة المشتاق: ٨٢٠/٢.

٤ - في المطبوع: أطرابزنده. صحح من نزهة المشتاق: ١٢/١، ٨١٦/٢.

وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجِزْرِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلِ حَاجِزٍ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ، وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُولٍ، وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنَ أَرْضِ الْخَزَرِ، تَنْتَهِي إِلَى الزَّائِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجِزْرِ مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَآخِرِ الْجِزْرِ شَمَالًا.

وَالْجِزْرُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإَقْلِيمِ غَرْبِيَّةٌ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإَقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرَسْتَانَ وَجِبَالِ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ، وَفِي غَرْبِيٍّ تِلْكَ الْقِطْعَةُ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجِزْرِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ الرَّابِعِ، وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجِزْرِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضًا.

وَيَنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجِزْرِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَتْلٍ<sup>(١)</sup> فِي هَذَا الْبَحْرِ، وَيَبْقَى مِنْ هَذَا الْجِزْرِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مَنكَشَفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ، هِيَ مَجَالَاتُ لِلْغَزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجِزْرِ الثَّامِنِ، وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسْطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرَسْتَانَ، فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإَقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيَفَارِقُهُ وَيَسْمَى هُنَاكَ جَبَلُ سِيَاهَ، وَيَذْهَبُ مَغْرِبًا إِلَى الْجِزْرِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجِزْرِ السَّادِسِ مِنَ الْإَقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَهَذَا الطَّرَفُ مِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هَذَا الْجِزْرِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ، وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِي الْجِزْرِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلِ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي.

وَالْجِزْرُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الْإَقْلِيمِ الْخَامِسِ، كُلُّهُ مَجَالَاتُ لِلْغَزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ، وَفِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحِيرَةٌ خَوَارِزْمَ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرٌ جَيْحُونٌ دَوْرَهَا ثَلَاثُ مِئَةِ مِيلٍ، وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ.

وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحِيرَةٌ غَرْغُونُ<sup>(٢)</sup> دَوْرَهَا أَرْبَعُ مِئَةِ مِيلٍ وَمَاؤُهَا حُلُوٌّ، وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجِزْرِ جَبَلُ مِرْغَارَ وَمَعْنَاهُ: جَبَلُ الثَّلْجِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجِزْرِ، وَفِي الْجَنُوبِ عَنْ بُحِيرَةِ غَرْغُونِ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ

شيئاً يُسمَّى غَرْغُون، وبه سُمِّيتَ الْبَحِيرَةُ، وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلٍ مِرْغَارٍ شَمَالِيٍّ الْبَحِيرَةُ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَذْكَش<sup>(١)</sup> مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ الْغَزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكَيْمَاطِيَّةِ، وَيُحْفُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ [ظ ٢/٣٠] آخِرُ الْجُزْءِ جَبَلٌ قُوقِيَا<sup>(٢)</sup> الْمُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ، وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ، وَاحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّمَالِ، ثُمَّ انْعَطَفَ مُغْرَباً فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ، إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ الْكَيْمَاطِيَّةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، فَذَهَبَ فِيهِ مُغْرَباً إِلَى آخِرِهِ، وَبَقِيَتْ فِي جَنُوبِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكَيْمَاطِيَّةِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيَّهِ، وَفِي الْأَعْلَى مِنْهُ، وَانْعَطَفَ قَرِيباً إِلَى الشَّمَالِ، وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَفِيهِ أُلْسَدٌ هُنَالِكَ كَمَا نَذَرْنَاهُ، وَبَقِيَتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهَا إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفاً فِي شَرْقِيَّهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتِي يَفْصَلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ، وَالْغَرْبِ جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ، وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَاَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

**الْإِقْلِيمُ السَّادِسُ:** فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ الْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَاسْتَدَارَ شَرْقاً مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ، ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ، وَانْتَهَى قَرِيباً مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ فَانْكَشَفَتْ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجُونِ فِيهِ، وَيَنْفَسِخُ طَوَلاً وَعَرْضاً، وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضُ

١ - فِي الْمَطْبُوعِ: أَرَكْس. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٤٣/٢.

٢ - فِي ظ: قُوقَا.

بَرِيطَانِيَّةَ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ صَايسِ<sup>(١)</sup> مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بِيْطُو<sup>(٢)</sup> الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ. وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ، فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَّةَ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ، وَانْفَسَخَتْ فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ.

وَفِيهِ هُنَالِكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلَتْرَا، وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُدُنٍ، وَبِهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ، وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ، وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَجَزِيرَتُهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ أَرْمُنْدِيَّةِ<sup>(٣)</sup>، وَبِلَادُ إِفْلَانْدَرْشِ<sup>(٤)</sup> مُتَّصِلِينَ بِهَا، ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَّةَ جَنُوبًا وَغَرْبًا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ، وَبِلَادُ بَرْغُونِيَّةَ شَرْقًا عَنْهَا، وَكُلُّهَا لِأَمَمِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ، وَبِلَادُ اللَّمَانِيِّينَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزْءِ، فَجَنُوبُهُ بِلَادُ أَنْكَلَايَةِ، ثُمَّ بِلَادُ بَرْغُونِيَّةَ شَمَالًا، ثُمَّ أَرْضُ لَهْرْنَكَةِ<sup>(٥)</sup> وَشَصُونِيَّةِ<sup>(٦)</sup>، وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الزَّوَايَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيَّةَ وَكُلُّهَا لِأَمَمِ اللَّمَانِيِّينَ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ [ظ ١/٣١] الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَانِيَّةِ<sup>(٧)</sup> فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَصُونِيَّةَ فِي الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكُوِيَّةَ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةَ فِي الشَّمَالِ يَعْتَزُّ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلَوَاكِ<sup>(٨)</sup> دَاخِلًا مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا بِأَنْجِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ، إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ شَصُونِيَّةَ آخِرَ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ، وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَثُولِيَّةِ<sup>(٩)</sup>، وَتَحْتَهَا فِي الشَّمَالِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ، وَيَفْصَلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلَوَاكِ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ غَرْبًا إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ، وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةِ<sup>(٩)</sup> بِلَادُ جَرْمَانِيَّةَ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ

١ - فِي الْمَطْبُوعِ: صَاقِس. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٥٥/٢. وَفِيهِ أَيْضًا: صَايِص

٢ - فِي الْمَطْبُوعِ: بِنَطُو. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٥٥/٢.

٣ - يَعْنِي إِقْلِيمَ: نُورْمَانْدِيَا الْمَعْرُوفِ.

٤ - فِي الْمَطْبُوعِ: أَفْلَادَش. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٦١/٢.

٥ - فِي الْمَطْبُوعِ: لَهْوِيَكَة. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٦٧/٢..

٦ - فِي الْمَطْبُوعِ: شَطُونِيَّة. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٦١/٢.

٧ - فِي ظ: يَوَانِيَّة.

٨ - فِي الْمَطْبُوعِ: بِلَوَاط. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ: ٨٨٤/٢.

الخَارِج من البحرِ الرُّومِيِّ، وعندَ مِدْفَعِهِ في بحرِ بنطس، فيقعُ قُطِيعَةٌ من بحرِ بنطس في أعالي النّاحيةِ الشَّرْقِيَّةِ، من هذا الجزء، ويمدُّها الخليجُ، وبينهُما في الزّاويةِ بلادُ مَسْنَاةَ<sup>(١)</sup>.

وفي الجزء الخامس من الإقليمِ السَّادِسِ ثُمَّ في النّاحيةِ الجَنُوبِيَّةِ عندَ بحرِ بنطس يتَّصلُ من الخليجِ في آخرِ الجزءِ الرَّابِعِ، ويخرجُ من سَمْتِهِ مُشْرِقاً فيمُرُّ في هذا الجزءِ كُلِّهِ، وفي بعضِ السَّادِسِ على طُولِ ألفٍ وثلاثِ مئةِ ميلٍ من مَبْدِئِهِ في عرضِ سِتِّ مئةِ ميلٍ، ويبقى وراءَ هذا البحرِ في النّاحيةِ الجَنُوبِيَّةِ من هذا الجزءِ في غَرْبِهَا إلى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ، في غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ على سَاحِلِ بحرِ بنطس مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلِقَانِ من الإقليمِ الخامسِ، وفي شَرْقِهِ بلادُ اللَّائِيَّةِ<sup>(٢)</sup> وَقَاعِدُتْهَا سَنُوبَلِي<sup>(٣)</sup> على بحرِ بنطس.

وفي شمالِ بحرِ بنطس في هذا الجزءِ غَرْباً أرضُ تَرْخَانَ وَشَرْقاً بلادُ الرُّوسِيَّةِ، وكلُّهَا على سَاحِلِ هذا البحرِ، وبلادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ من شَرْقِهَا في هذا الجزءِ من شمالِهَا في الجزءِ الخامسِ من الإقليمِ السَّابِعِ، ومن غَرْبِهَا في الجزءِ الرَّابِعِ من هذا الإقليمِ.

وفي الجزءِ السَّادِسِ في غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بحرِ بنطس وينحرفُ قليلاً إلى الشَّمَالِ. ويبقى بينهُ هُنَالِكَ وبينَ آخرِ الجزءِ شَمَالاً بلادُ قِمَائِيَّةَ، وفي جنوبِهِ منفسِحاً إلى الشَّمَالِ بما انحرفَ، هو كذلك بَقِيَّةُ بلادِ اللَّائِيَّةِ الَّتِي كانتِ آخرَ جنوبِهِ في الجزءِ الخامسِ.

وفي النّاحيةِ الشَّرْقِيَّةِ من هذا الجزءِ مُتَّصِلُ أرضِ الْخَزَرِ، وفي شَرْقِهَا أرضُ بَرطَاسَ، وفي الزّاويةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أرضُ بَلْغَارَ.

وفي الزّاويةِ الشَّرْقِيَّةِ الجَنُوبِيَّةِ أرضُ بَلَنْجَرِ<sup>(٤)</sup> يجوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ من جَبَلِ سِيَاهِ كُوهِ<sup>(٥)</sup> المنعطفِ مع بحرِ الْخَزَرِ في الجزءِ السَّابِعِ بعْدَهُ، ويذهبُ بعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُغْرَباً فيجوزُ في هذه القِطْعَةِ ويدخلُ إلى الجزءِ السَّادِسِ من الإقليمِ الخامسِ فيتَّصلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ، وعليهِ من هُنَالِكَ نَاحِيَّةُ بلادِ الْخَزَرِ.

وفي الجزءِ السَّابِعِ من هذا الإقليمِ في النّاحيةِ الجَنُوبِيَّةِ مَا جَاوَزَهُ جَبَلُ سِيَاهَ، بعْدَ مُفَارَقَتِهِ بحرِ طَبْرُسْتَانَ، وهو قِطْعَةٌ من أرضِ الْخَزَرِ إلى آخرِ الجزءِ غَرْباً، وفي شَرْقِهَا القِطْعَةُ من بحرِ

١ - في المطبوع: مسينا. صحح من نزهة المشتاق: ٨٠٤/٢.

٢ - اللان: قبيلة من الروم النسطورية. نزهة المشتاق: ٩٠٧/٢.

٣ - في المطبوع: سوتلي. صحح من نزهة المشتاق: ٩٠٧/٢.

٤ - في المطبوع: بلجر. صحح من نزهة المشتاق: ٩١٨/٢.

٥ - سياه كوه: كلمة فارسية معناها جبل.

طَبْرَسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا، وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسٍ<sup>(١)</sup> [ظ ٢/٣١]، وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بَسْجَرَتَ وَيَجْنَاكَ<sup>(٢)</sup>، وَهَمُ أُمُّ التُّرْكِ.

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا أَرْضُ الْجَوْلَخِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا، وَالْأَرْضُ الْمُنْتَنَةِ، وَشَرْقُ الْأَرْضِ الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ السَّدِّ، وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مَبْدَأُ نَهْرِ الْأَتْلِ<sup>(٣)</sup> مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ، وَمَمْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ، وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يُخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ، تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ، وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، فَيَنْعَطِفُ شِمَالًا إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ، فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ، وَيَذْهَبُ مَغْرِبًا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدُولٌ يَذْهَبُ مَغْرِبًا وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ بَنْطَسَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ، وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بَلْغَارَ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ، وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهَ، وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ الْخَزَرِ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهَمُ قَفْجَاقَ، وَبِلَادُ السَّرْكَسَ مِنْهُمْ أَيْضًا.

وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ قُوقِيَا الْمُحِيطُ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ. يَبْدَأُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَرْقِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ، وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ، وَيُفَارِقُهُ مَغْرِبًا وَبَاخِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شِمَالِهِ وَبَاخِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ.

١ - فِي ظ: بَنْطَاسَ.

٢ - فِي الْمَطْبُوعِ: شَحْرَبَ وَيَجْنَاكَ. صَحَّحَ مِنْ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ ٩٢٣/٢.

٣ - يُقَالُ: إِنَّهُ نَهْرُ الْأَوْرَالِ.

وفي وسطه ههنا السدُّ الَّذِي بناه الإسكندرُ، ثم يخرجُ على ستمته إلى الإقليم السَّابع، وفي الجزء التَّاسِع منه فيمرُّ فيه إلى الجنوبِ إلى أن يلقى البحرَ المحيطَ في شماله، ثم ينعطفُ معه من هُنالك مغرباً إلى الإقليم السَّابع إلى الجزء الخامس منه فيتَّصلُ هنالك بقطعةٍ من البحر المحيطِ في غربيِّه، وفي وسطِ هذا الجزء التَّاسِع هو السدُّ الَّذِي بناه الإسكندرُ، كما قلناه، والصَّحيحُ من خبره في القرآن<sup>(١)</sup> وقد ذكر عبدُ الله بن خرداذبة في كتابه في الجغرافيا: أنَّ الواثقَ رأى في منامه كأنَّ السدَّ انفتحَ فانتبه فزعاً، وبعثَ سَلاماً التَّرجُمانَ فوقفَ عليه وجاءَ بخبره ووصفه في حكاية طويِّلة<sup>(٢)</sup> لَيْسَتْ من مَقاصِدِ كِتَابِنَا هذا.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلادُ مأجوجٍ مُتَّصلةٌ فيه إلى آخره على قطعة<sup>(٣)</sup> هنالك من البحر المحيطِ [ظ ١/٣٢] أحاطت به من شرقه وشماله مُسْتطيلةٌ في الشَّمال، وعريضةٌ بعضَ الشَّيء في الشَّرْق.

**الإقليم السَّابع:** والبحرُ المحيطُ قد غمرَ عامَّتُه من جهةِ الشَّمالِ إلى وسطِ الجزء الخامس حيث يتَّصلُ بجبلٍ قوقياً المحيطِ بِيأجوجَ ومأجوجَ.

فالجزءُ الأوَّل والثَّاني مغموران بالماء إلا ما انكشفَ من جزيرة أنكِلترا التي مُعْظَمُهَا في الثَّاني، وفي الأوَّل منها طرفٌ انعطَفَ بانحرافٍ إلى الشَّمال، وبقِيَّتُها مع قطعةٍ من البحر مستديرةٌ عليه في الجزء الثَّاني من الإقليم السَّادِس، وهي مذكورةٌ هناك واجازُ منها إلى البرِّ في هذه القطعة سَعَةٌ اثني عَشَرَ ميلاً، ووراءَ هذه الجزيرة في شَمالِ الجزء الثَّاني جزيرةٌ رِسلانْدَة مُسْتطيلةٌ من الغربِ إلى الشَّرْق.

والجزءُ الثَّالث من هذا الإقليم مغمورٌ أكثره بالبحرِ إلا قطعةً مُسْتطيلةً في جنوبه، وتتسعُ في شرقها، وفيها هنالك متصلٌ أرضِ بُلُونِيَّة<sup>(٤)</sup> الَّتِي مرَّ ذِكْرُهَا في الثَّالث من الإقليم السَّادِس، وأنها في شماله، وفي القطعة من البحرِ الَّتِي تغمُرُ هذا الجزء، ثم في الجانب الغربي منها مستديرةٌ فسيحةٌ وتتَّصلُ بالبرِّ من بابٍ في جنوبها يُفضي إلى بلادِ بُلُونِيَّة، وفي شمالها جزيرةٌ نَرْقاغَة<sup>(٥)</sup> مُسْتطيلة مع الشَّمالِ من المغربِ إلى المشرقِ.

١ - سورة الكهف: ٩٣ - ٩٩.

٢ - نقلها الإدريسي في نزهة المشتاق: ٩٣٤/٢.

٣ - في المطبوع: قطعة من هنالك.

٤ - في المطبوع: فلونية. صحح من نزهة المشتاق: ٩٤٩/٢.

٥ - في النسخ: بوقاعة.. برعاقبة. صحح من نزهة المشتاق: ٩٤٩/٢.



والجزءُ الرَّابِعُ من هذا الإقليمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مغمورٌ بالبحرِ المحيطِ من المغربِ إلى المشرقِ، وجنوبُهُ منكشَفٌ، وفي غربِهِ أرضٌ قِمازَك من التُّركِ، وفي شرقِها بلادٌ طَبَسْتُ<sup>(١)</sup>، ثم أرضٌ أَسْتَلَانْدَة<sup>(٢)</sup> إلى آخِرِ الجزءِ شرقاً وهي دائمةُ الثلوجِ، وعمرانها قليلٌ، ويتَّصلُ ببلادِ الرُّوسِيَّةِ في الإقليمِ السَّادِسِ وفي الجزءِ الرَّابِعِ والخامسِ منه.

وفي الجزءِ الخامسِ من هذا الإقليمِ في الناحيةِ الغربيةِ منه بلادُ الرُّوسِيَّةِ. وينتهي في الشَّمالِ إلى قطعةٍ من البحرِ المحيطِ الَّتِي يتَّصلُ بِهَا جَبَلٌ قُوقِيَا، كما ذكرناه من قبل، وفي النّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْقَمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ بَحْرٍ بُنْطُسٍ مِنَ الْجِزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وينتهي إلى بَحِيرَةٍ طَرُمَى مِنْ هَذَا الْجِزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ، تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَفِي شَمَالِ النّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجِزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ<sup>(٣)</sup> مِنَ التُّركِ<sup>(٤)</sup> إِلَى آخِرِهِ.

وفي الجزءِ السَّادِسِ مِنَ النّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلٌ بِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ، وَفِي وَسَطِ النّاحِيَةِ بُحِيرَةٌ غَنُونٌ<sup>(٥)</sup> عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي النُّوَاحِي الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لَشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ، وَفِي شَرْقِ بِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجِزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجِزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَفِي النّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجِزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ، وَفِي وَسَطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرِ مَنَعُطْفُ نَهْرٌ أَتَلَ الْقِطْعَةَ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ، وَفِي آخِرِ هَذَا الْجِزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلٌ قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ.

وفي الجزءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ [ظ ٣٢/٢] بَجَنَّاك<sup>(٦)</sup> مِنْ أَمَمِ التُّركِ، وَكَانَ مَبْدُؤُهَا مِنَ النّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجِزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ، وَفِي النّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجِزْءِ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ، وَفِي النّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ

١ - في المطبوع: طست. صحح من نزهة المشتاق: ٩٥٣/٢.

٢ - في ن: سَلَانْدَة. وفي ن: رسلان. صحح من نزهة المشتاق: ٩٥٣/٢.

٣ - في ن: التتارية.

٤ - في ن: التركمان.

٥ - في المطبوع: عثور. صحح من نزهة المشتاق: ٩٥٨/٢.

٦ - في المطبوع: بختاك. صحح من نزهة المشتاق: ٩٦٠/٢.

بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبَ، ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا، وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قَوْقِيًّا الْمُحِيطُ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ، وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِ مِنْهُ مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ.

وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ الْعَجَائِبِ خَرَقَ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى، فَسَيْحُ الْأَقْطَارِ، مُتَّعِ الْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ، يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِالْذُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّيْرَانِ فِي اللَّيْلِ، تُضِيءُ وَتُخْفَى، وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ. وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَرَابُ الْمُتَاحِمَةُ لِلْسَّدِّ، وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قَوْقِيًّا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ.

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخَ، وَهُمْ قَفَجَقُ، يَجُوزُهَا جَبَلٌ قَوْقِيًّا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شِمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِانْخِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، وَيَمُرُّ مُعْتَزًّا فِيهِ، وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سَدٌّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ، وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ، وَرَاءَ جَبَلٍ قَوْقِيًّا عَلَى الْبَحْرِ، قَلِيلَةُ الْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةٌ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ.

وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرَ الْبَحْرَ جَمِيعُهُ.

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغَرَفِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ. وَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ<sup>(١)</sup>.

١ - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وَقَالَ أَيْضًا: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

## ١-١-٣. الْمُقَدِّمَةُ الثَّالِثَةُ

فِي الْمُعْتَدِلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ وَالْمُنْحَرَفِ،

وَتَأْثِيرُ الْهَوَاءِ فِي أَلْوَانِ الْبَشَرِ وَالْكَثِيرِ مِنْ أَخْوَالِهِمْ

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَغْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي (١) الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ، وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنْ (٢) الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَجِبَ أَنْ تَنْدَرِّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ مُعْتَدِلًا.

فَالْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ الْعُمُرَانِ، وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ، وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ، وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بكَثِيرٍ، فَلِهَذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ، وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بِلِ الْحَيَوَانَاتِ، وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ، مَخْصُوصَةٌ بِالْإِعْتِدَالِ، وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَدْيَانًا حَتَّى النُّبُوتَاتُ، فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا، وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعَثَ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠] (٣)، وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ، فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَّنَائِعِهِمْ، يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنْجَدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنَمَّقَةِ بِالصَّنَاعَةِ، وَيَتَنَاقُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْآلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ، وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ، وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمُ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ [ظ ١/٣٣] وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالرِّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ، وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ، وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِينَ وَالْهِنْدِ وَالسُّنْدِ وَالصِّينِ وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ، وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ، وَمَنْ كَانَ مَعَ

١ - فِي ن: الْحَرِّ فِي الْجُزْءِ مِنْ.

٢ - فِي ن: فِي.

٣ - قَالَ الدَّكْتُورُ وَاثِي: وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْآيَةَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ دَلِيلًا لِمَا يَرِيدُ الاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُوجَّهَةً إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّتِي أُرْسِلَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، يَعْنِي أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ بِالْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُؤَلِّفُ مِنَ الْفَهْمِ الثَّاقِبِ لِمَعَانِي الْآيَاتِ، إِذْ أَنَّ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى خَيْرِ أُمَّةٍ، وَهُمْ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَعَ هُدَاهُمْ، وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَيْرُ الْأُمَّةِ، وَفَهْمُهُ تَابِعٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فَالْأَنْبِيَاءُ أَصْحَابُ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.....

هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة، ولهذا كان العراق أعدل هذه كلها، لأنها وسط من جميع الجهات.

وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال، مثل الأول والثاني والسادس والسابع، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر، يخصصونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين، مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشرقيين<sup>(١)</sup>، من نحاس أو حديد أو جلود يُقدرونها للمعاملات، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، حتى لينتقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول، أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً، وكذا الصقالبة.

والسبب في ذلك أنهم يُبعدهم عن الاعتدال، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً، فلا يعرفون نبوة، ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر، مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام، وما بعده لهذا العهد، ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام، لهذا العهد، يُقال: إنهم دانوا به في المئة السابعة، ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجية والترك من الشمال.

ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً، فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي، قريبة من أحوال البهائم، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن، وحضرموت والأخفاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث، كما ذكرنا، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها، فنقص ذلك من اليس والانهراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر.

وَقَدْ تَوَهَّم بَعْضُ النَّسَائِينَ مَنَ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ، أَنَّ السُّودَانَ هُمُ وَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ، اخْتَصَمُوا بَلَوْنَ السَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ، ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ، وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرَّقِّ فِي عَقْبِهِ، وَيَنْقَلِبُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَةً مِنْ خَرَافَاتِ الْقُصَّاصِ. وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ<sup>(١)</sup> وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السَّوَادِ، وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عبيداً لَوْلَادِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُ.

وَفِي الْقَوْلِ يَنْسَبُ السَّوَادُ [ظ ٢/٣٣] إِلَى حَامٍ غَفَلَةً عَنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَأَثَرَهُمَا فِي الْهَوَاءِ، وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ تَسَامَتْ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةً إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى فَتَطُولُ الْمَسَامَتَةُ<sup>(٢)</sup> عَامَّةَ الْفُصُولِ، فَيَكْثُرُ الضَّوُّ لِأَجْلِهَا، وَيُلْحَقُ الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ<sup>(٣)</sup>، وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ.

وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ الشَّمَالِ، الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانُهُمَا أَيْضاً الْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ، لِلبَرْدِ الْمُفْرَطِ بِالشَّمَالِ، إِذْ الشَّمْسُ لَا تَزَالُ بِأَفْقِهِمْ فِي دَائِرَةٍ مَرَأَى الْعَيْنِ، أَوْ مَا قَرَبَ مِنْهَا، وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمَسَامَتَةِ، وَلَا مَا قَرَبَ مِنْهَا، فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فِيهَا، وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ عَامَّةَ الْفُصُولِ، فَتَبْيِضُ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ<sup>(٤)</sup>، وَيتَّبِعُ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ الْمُفْرَطِ، مِنْ زُرْقَةِ الْعَيُونِ، وَبَرَشِ<sup>(٥)</sup> الْجُلُودِ، وَضَهْوَبَةِ<sup>(٦)</sup> الشُّعُورِ، وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّلَاثُ، فَكَانَ لَهَا فِي الْاِعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ التَّوَسُّطِ، حَظٌّ وَافِرٌ، وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الْاِعْتِدَالِ غَايَةً لِنَهَايَتِهِ فِي التَّوَسُّطِ، كَمَا قَدَّمَاهُ، فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ الْاِعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ، مَا اقْتَضَاهُ

١ - فِي سَفَرِ التَّكْوِينِ (١٨/٩ - ٢٧): وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفَلَكَ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلَاحًا وَغَرَسَ كَرْمًا وَشَرِبَ خَمْرًا فَسَكَرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَبَانِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ وَأَخْبَرَ أَخُوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرَّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَى إِلَى الْوَرَاءِ وَسَتَرَ عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ فَلَمْ يَبْصُرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ وَعِلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ فَقَالَ: مَلْعُونُ كَنْعَانَ، عَبْدُ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِأَخْوَتِهِ.

٢ - الْمَسَامَتَةُ: أَنَّ يَكُونُ ضَوْءُ الشَّمْسِ أَتْقِيَاءً عَلَى رُؤُوسِ السَّكَّانِ.

٣ - أَي: عَلَى السَّكَّانِ.

٤ - لَعَلَّهُ أَرَادَ انْتِهَآؤَهَا إِلَى الْحِمْرَةِ.

٥ - أَي: اخْتِلَاطُ اللَّوْنِ الْأَحْمَرِ بِغَيْرِهِ فِي الْجِلْدِ.

٦ - أَي: مِيلُهَا إِلَى الْإِحْمَارِ وَالشَّقَرَةِ.

مزاج أهويتهم، وتبعه من جانيه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار، وهذا قليلاً إلى الشمال البارد، إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف، وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحر والسود، والسابع والسادس للبرد والبياض.

ويسمى سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسود، وإن كان اسم الحبشة مختصاً منهم عن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند، وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره.

وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدرج مع الأيام، وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم، وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء.

قال ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بِالزَّنجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادَا      حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا  
وَالصُّقْلُبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَا      حَتَّى غَدَتْ جُلُودَهَا بَضَاضَا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لوناً لأهل تلك اللغة الواضحة للأسماء، فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده، ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر، والخزر، والالان، والكثير من الإفرنجية ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة، وأجيالاً متعددة مسمين بأسماء متنوعة.

وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة [ظ ١/٣٤]، أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش، والمساكن، والصنائع، والعلوم، والرئاسات، والملك فكانت فيهم النبوات، والملك والدول والشرائع والعلوم، والبلدان والأمصار والمباني، والفراسة والصنائع الفائقة، وسائر الأحوال المعتدلة، وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم، مثل العرب والروم وفارس، وبي إسرائيل واليونان، وأهل الهند والصين.

ولما رأى النَّسَابُونَ اختلافَ هذه الأممِ بِسَمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ، فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ، مِنْ وَلَدِ حَامٍ، وَارْتَأَوْا فِي أَلْوَانِهِمْ، فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ<sup>(١)</sup>، وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّامِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ، مِنْ وَلَدِ يَافَثَ، وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدَلَةِ وَأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمَلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ، مِنْ وَلَدِ سَامٍ.

وهذا الزَّعمُ وإنْ صادفَ الْحَقَّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسِ مُطَرِّدٍ، إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ، لَا أَنْ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانَ وَالْحُبْشَانَ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ، وَمَا أَذَاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ، إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ، أَوِ الْأُمَّةِ، يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ، وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسُّمَةِ، كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانَ، وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشُّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ، وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِّهِمْ وَمُمِيزَاتِهِمْ، فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مَعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ، بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نَحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سَمَةٍ وَجَدَتْ لَذَلِكَ الْأَبَ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طِبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ، وَإِنْ هَذِهِ كُلُّهَا تَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا، سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، ﴿وَلَكِنْ تَجَدَّدُ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبَدُّلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢ والفتح: ٢٣]، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ، وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعَمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.

## ١-٤- المَقْدَمَةُ الرَّابِعَةُ

## في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ - عَلَى الْعُمُومِ - الْخَفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ، فَتَجَدُّهُمْ مُوَلِّعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوَقُّعٍ، مَوْصُوفِينَ بِالْحُمَقِ فِي كُلِّ قَطَرٍ، وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ. وَطَبِيعَةُ الْحُزْنِ بِالْعَكْسِ، وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ. وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفْشِيَةً لِلْهَوَاءِ، وَالْبُخَارِ، مُخْلِخِلَةً لَهُ، زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ، وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُتَنَشِّي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا سُورَةُ الْخَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مَزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ، وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ، وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا، وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ [ظ ٢/٣٤]، وَرَبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرُورِ.

وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ، وَاسْتَوْلَى الْحَرُّ عَلَى أُمُزَجَتِهِمْ، وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ، كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ، فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا، فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًّا، فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا، وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا، وَيَجِيءُ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ، وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ، لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعِيَّتِهِ، كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ التَّلُّولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ، وَقَدْ نَجَدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا، وَفِي هَوَائِهَا؛ لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ وَالتَّلُّولِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْغَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ، وَعَامَّةٌ مَأْكَلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَتْ فَاسٌ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي التَّلُّولِ الْبَارِدَةِ. كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مَطْرَقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزْنِ، وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حَبُوبِ الْحِنْطَةِ، وَيَبَاكُرُ الْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يَرْزَأَ



شيئاً من مدَّخَرِهِ، وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كَيْفِيَّاتِ الهِوَاءِ. واللهُ الخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.

وقد تعرَّضَ المسعوديُّ للبحثِ عن السَّبَبِ في خِفَّةِ السُّودَانِ وَطِيشِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ، وحاولَ تعليلُهُ فلم يأتِ بشيءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكَنْدِيِّ، أَنَّ ذَلِكَ لِضَعْفِ أَدْمَتِهِمْ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ، وَهَذَا كَلَامٌ لَا مُحَصَّلَ لَهُ، وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

## ١-١-٥- المَقْدَمَةُ الْخَامِسَةُ

فِي اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ، فِي الْخَصْبِ وَالْجُوعِ،  
وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ فِي أَبْدَانِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ

اعْلَمْ: أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِيمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يَوْجَدُ بِهَا الْخَصْبُ، وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ، بَلْ فِيهَا مَا يَوْجَدُ لِأَهْلِهَا خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ وَالْأُدْمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ، وَاعْتِدَالِ الطَّيْنَةِ وَوَفُورِ الْعُمَرَانِ. وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِي لَا تَنْبِتُ زَرْعاً، وَلَا عَشْباً بِالْجُمْلَةِ؛ فَسُكَّانُهَا فِي شَظْفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ؛ وَمِثْلُ الْمَثْمِينِ مِنْ صُنْهَاجَةِ السَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ، وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقَدُونَ الْحُبُوبَ وَالْأُدْمَ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللَّحُومُ. وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضاً الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالْأُدْمَ مِنَ التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَانِ وَتَحْتَ رِيقَةٍ<sup>(١)</sup> مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الْإِقْلَالِ [ظ ١/٣٥] لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ<sup>(٢)</sup>، فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ أَوْ دُونِهَا فَضْلاً عَنِ الرِّغْدِ وَالْخَصْبِ. وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الْأَلْبَانِ، وَتَعَوِّضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ، وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْفَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَالْأُدْمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالاً فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّلُولِ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْعَيْشِ، فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الانْحِرَافِ، وَأَذْهَانُهُمْ أَتَقَبُّ فِي الْمَعَارِفِ وَالْإِدْرَاكَاتِ، هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجَرُّبَةُ فِي كُلِّ جَيْلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ، وَبَيْنَ الْمَثْمِينِ وَأَهْلِ التَّلُولِ، يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ خَبَرَةٍ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: أَنَّ كَثْرَةَ الْأَغْذِيَةِ، وَكَثْرَةَ الْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفْنَةِ وَرَطُوبَتِهَا تُؤَلِّدُ فِي الْجِسْمِ فَضَالَاتٍ رَدِيئَةً تَنْشَأُ عَنْهَا بُعْدُ أَقْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الْأَلْوَانِ، وَقُبْحُ الْأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ، كَمَا قُلْنَاهُ. وَتُغَطِّي الرُّطُوبَاتُ عَلَى الْأَذْهَانِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَبُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْخَرَتِهَا الرَّدِيَّةِ، فَتَحْجِيءُ الْبَلَادَةَ وَالْغَفْلَةَ وَالْانْحِرَافُ عَنِ الْاعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ.

١ - في ن: تحت رقية. ومعناها: المراقبة والحراسة حتى لا يفاجئهم مغير.

٢ - أي: قلة ما يجدون.

واعتبر ذلك في حيوان القفر، وموطن الجذب من الغزال والنعام، والمها، والزرافة، والخمر الوحشية، والبقر، مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف، والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مداركها.

فالغزال أخو الغز، والزرافة أخو البعير، والحمار وأخو البقر والبقرة، والبون بينها ما رأيت، وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاق الفاسدة ما ظهر عليها أثره. والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء.

واعتبر ذلك في الآدميين أيضا: فإننا نجد أهل الأقاليم المخصصة العيش، الكثيرة الزرع والضرع والأدم، والفواكه، يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم، والخشونة في أجسامهم، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والخنطة مع المتقشفين في عيشتهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم. وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم والبر، مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملةً وغالب عيشتهم الذرة، فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم مالا يوجد لغيرهم، وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار، فإن الأمصار وإن كانوا أكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش، إلا أن استعمالهم إيّاها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظتها ويرق قوامها. وعامة ما كلهم [ظ ٢/٣] لحمان<sup>(١)</sup> الضأن والدجاج، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة، فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار الطف من جسوم البادية المخشنيين في العيش، وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة.

واعلم: أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة. فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجاني عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب، بل نجد أهل الدين قليلين في

الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِمَا يَعْمُهَا مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْإِكْثَارِ مِنَ اللَّحْمَانِ وَالْأُدْمِ وَلِبَابِ الْبُرِّ، وَيَخْتَصُّ وجودُ الْعِبَادِ وَالزُّهَادِ لَذَلِكَ بِالْمُتَقَشِّفِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي. وَكَذَلِكَ نَحْدُ حَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فِي ذَلِكَ مُخْتَلَفًا بِاخْتِلَافِ حَالِهَا فِي الزَّرْفِ وَالْخَصْبِ.

وَكَذَلِكَ نَحْدُ هَؤُلَاءِ الْمُخْصَصِينَ فِي الْعَيْشِ، الْمُنْغَمِسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ، إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السُّنُونُ وَأَخَذَتْهُمْ الْجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، مِثْلُ بَوَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمَصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا؛ لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّحْرَاءِ، وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ التَّمَرُ، وَلَا مِثْلَ أَهْلِ إِفْرِيقِيَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرُ وَالزَّيْتُ، وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ وَالزَّيْتُ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السُّنُونُ وَالْجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلَئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ، بَلْ وَلَا يَنْدُرُ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: أَنَّ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْخَصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأُدْمِ وَالسَّمَنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤَهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ الْمَزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا، فَإِذَا حَوْلَفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ، وَقُفِّدَانِ الْأُدْمِ وَاسْتِعْمَالِ الْخَشَنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أُسْرِعَ إِلَى الْمَعَى <sup>(١)</sup> الْيُبْسُ وَالْإِنْكَمَاشُ وَهُوَ عَضْوٌ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ، فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً، لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ.

فَالْهَالِكُونَ فِي الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ الْلَاحِقُ.

وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِقِلَّةِ <sup>(٢)</sup> الْأُدْمِ وَالسَّمَنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَا يَقَعُ فِي مِعَاهِمِ بَتَبْدُلِ الْأَغْذِيَةِ يَبْسٌ وَلَا انْخِرَافٌ، فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَعْزِضُ لِغَيْرِهِمْ بِالْخَصْبِ وَكَثْرَةِ الْأُدْمِ فِي الْمَاكِلِ.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ. فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَاءَمَهُ تَنَاوُلُهُ، كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً مَا لَمْ يَخْرُجَ عَنْ

١ - أي: الأمعاء.

٢ - في ن: المتعودون للعيمة [أي شهوة اللبن] وترك الأدم.

غَرَضُ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ<sup>(١)</sup> [ظ ١/٣٦]، وَمَا أَفْرَطَ فِي الْإِنْخِرَافِ. فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْذِيَّ وَالْمَلَاءِمَةَ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَأْلُوفًا بِالْعَادَةِ، فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عَوْضًا عَنِ الْخَنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دِيدَنًا، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ غِذَاءً، وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنِ الْخَنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، وَكَذَا مِنْ عَوْدَ نَفْسُهُ الصَّبْرَ عَلَى الْجُوعِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الطَّعَامِ، كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ، فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَخْبَارًا غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: الْعَادَةُ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلْفَتَ شَيْئًا صَارَ مِنْ جِبَلَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوُّنِ، فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ، فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا، وَمَا يَتَوَهَّمُ الْأَطْبَاءُ مِنْ أَنَّ الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ، إِلَّا إِذَا حُمِلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً، وَقُطِعَ عَنْهَا الْغِذَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْحَسِمُ الْمَعَى، وَيَنَالُهُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الْهَلَاكُ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ الْغِذَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَصَوِّفَةُ، فَهُوَ بِمَعْزَلٍ عَنِ الْهَلَاكِ.

وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرُّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ. فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِفَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ، وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَصَالًا وَأَكْثَرَ. وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ، وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ امْرَأَتَانِ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْخَضِرَاءِ، وَرَنَدَةٍ، حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ جُمْلَةً مِئَتَيْ سَنَةٍ، وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا، فَصَحَّ شَأْنُهُمَا، وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا. وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعَزِ يَلْتَقِمُ نَدِيهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ الْإِفْطَارِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءَهُ وَاسْتِدَامَ عَلَى ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَغَيْرَهُمْ كَثِيرٌ، وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذَلِكَ.

وَاعْلَمْ: أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَّةِ بِكُلِّ وَجْهِ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، أَوْ عَلَى الْإِقْلَالِ مِنْهَا، وَإِنَّ لَهُ أَثَرًا فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صِفَائِهَا وَصَلَاحِهَا كَمَا قُلْنَا.

١ - قال في القاموس المحيط: اليتوع كصبور أو تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطوع والمشهور منه سبعة: الشيرم واللاعية، والعرطيشا والماهودانة والمازريون والفجلجشت والعشر. وكل اليتوعات إذا استعملت في غير وجهها أهلكت.

واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم، فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجسمان، تنشأ أجيالهم كذلك، وهذا مشاهد في أهل البداية مع أهل الحاضرة، وكذا المتغذون باللبان الإبل ولحومها أيضاً، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال، الموجود ذلك للإبل، وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا ينالها من مضار<sup>(١)</sup> الأغذية ما ينال غيرهم، فيشربون التيوغات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبخه، والدرياس والقرنيون، ولا ينال أمعاؤهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحضرة الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين، لما فيها من السمية [ظ ٢/٣٦].

ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة، وشاهده أهل التجربة: أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل، واتخذت بيضها، ثم حصنت عليه، جاء الدجاج منها أعظم ما يكون. وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن، فيجيء دجاجها في غاية العظم. وأمثال ذلك كثيرة. فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان، فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الأبدان؛ لأن الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه، فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل، كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك الجسم. والله محيط بعلمه.

## ١-١-٦- المقدمة السادسة

فِي أَصْنَافِ الْمُدْرِكِينَ لِلْغَيْبِ مِنَ الْبَشَرِ بِالْفِطْرَةِ أَوْ الرِّيَاضَةِ  
وَيَتَقَدَّمُ الْكَلَامُ فِي الْوَحْيِ وَالرُّؤْيَا

إِغْلَمْ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اصْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ بِخِطَابِهِ، وَفَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ، وَيَحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَيَأْخُذُونَ بِحُجُزَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ<sup>(١)</sup>، وَيَذَلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ، وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْإِخْبَارِ بِالْكَائِنَاتِ الْمَغِيْبَةِ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بَوْسَاطَتِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَاعْلَمْ: أَنَّ خَبْرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصَّدْقُ. لَمَّا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ.

وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ: أَنْ تَوْحَّدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ، كَأَنَّهَا غَشِيَتْ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ، وَلَيْسَتْ مِنْهَا فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرُّوحَانِيِّ بِإِدْرَاكِهِ الْمُنَاسِبَ لَهُمْ، الْخَارِجَ عَنْ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَنْزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ، إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَقَّهُهُ، أَوْ يَتِمَثَّلُ لَهُ صُورَةٌ شَخْصٌ يُخَاطَبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ، وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَاسَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي»<sup>(٣)</sup>، وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ»<sup>(٤)</sup>. وَيُذَرِّكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْغَطِّ مَا لَا يُعْبَرُ

١ - أي: يصرفونهم عنها.

٢ - ليس هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما من قول معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه عندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الإسلام فقال: وإني قد كنت امرأ لا أعقل شيئاً إلا ما علمني الله عز وجل ورسوله. أخرجه أحمد (٢٠٠٦٣) (٤/٥ - ٥) والنسائي (٤/٥، ٨٢).

٣ - أي: يفارقني.

٤ - أخرجه البخاري (٣٢١٥ و ٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟...

عنه. ففي الحديث: «كَانَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً»<sup>(١)</sup>. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «كَانَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَنْفَصِّدُ عَرَقًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: ٥].

وَلَأَجْلَ هَذِهِ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجَنُونِ، وَيَقُولُونَ: لَهُ رُئْيٌ أَوْ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ، وَإِنَّمَا لُبَسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٣٦].

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا: أَنَّهُ يَوْجَدُ لَهُمْ [ظ ٣٧/١] قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ وَالزَّكَاةِ، وَبِجَانِبِ الْمَذْمُومَاتِ وَالرَّجَسِ أَجْمَعِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ، وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا. وَكَأَنَّهُا مُنَافِيَةٌ لِجَبَلَّتِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ<sup>(٣)</sup>: أَنَّهُ حَمَلَ الْحِجَارَةَ وَهُوَ غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَانْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَرَّ بِإِزَارِهِ، وَدُعِيَ إِلَى مَجْتَمَعٍ وَلِيَمَّةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ، فَأَصَابَهُ غَشْيُ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ<sup>(٤)</sup> بَلْ نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، حَتَّى إِنَّهُ بِجَبَلَّتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ وَالثَّوْمَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَاجِي مِنَ لَا تَنَاجُونَ»<sup>(٥)</sup>.

وَانْظُرْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ. وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ، فَقَالَتْ: اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ<sup>(٦)</sup>. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ. وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ

١ - أخرجه البخاري (٥) و(٤٦٤٣) و(٤٦٤٤) و(٤٦٤٥) و(٤٧٥٧) و(٧٠٧٦) ومسلم (٤٤٩)(١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

٢ - أخرجه البخاري رقم (٢) بلفظ: «ولقد رأيته ينزل...».

٣ - أخرجه أحمد (٢٩٥/٣، ٣٨٠) والبخاري (٣٥٧ و١٥٠٥ و٣٦١٧) ومسلم (٣٤٠) من حديث جابر... وانظر الخصائص (٨٨/١).

٤ - انظره في المستدرک (٢٤٥/٤) والدلائل للبيهقي (٥٨/١) ومجمع الزوائد (٤١٤/٨) والخصائص الكبرى للسيوطي (٨٨/١).

٥ - أخرجه البخاري (٨١٦) و(٨١٧) و(٥١٣٧) و(٦٩٢٦) ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٦ - أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢٧٦/١). والبيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل، انظر الخصائص الكبرى (٩٥/١).



الثَّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا، فَقَالَ: الْبَيَاضُ وَالْخُضْرَةُ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ الْمَلَكُ<sup>(١)</sup>؛ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخُضْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَائِكَةِ؛ وَالسَّوَادُ مِنْ أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا: دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صَدَقَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ. وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ. وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ؛ وَفِي الصَّحِيحِ<sup>(٢)</sup>: أَنَّ هِرْقَلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مِنْ وَجَدَ يَبْلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِمْ أَبُو سُفْيَانٌ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ.

فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانٍ: بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ<sup>(٣)</sup> وَالصَّلَاةِ وَالْعَفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ، فَأَجَابَهُ فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ، وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ. وَالْعَفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقَلُ<sup>(٤)</sup> هُوَ الْعِصْمَةُ. فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالِدُعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ.

وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا: أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ، وَفِي الصَّحِيحِ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»<sup>(٥)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: «فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»<sup>(٦)</sup>. اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ.

وَفِي مَسْأَلَةِ هِرْقَلَ لِأَبِي سُفْيَانٍ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ: كَيْفَ هُوَ فِينَكُمْ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانٍ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ<sup>(٧)</sup>. فَقَالَ هِرْقَلُ: وَالرُّسُلُ تَبْعَتْ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا. وَمَعْنَاهُ أَنَّ

١ - أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الدَّلَائِلِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ قَالَ: قَالَ وَرَقَةُ لَخَدِيجَةَ: هَلْ رَأَى زَوْجَكَ صَاحِبَهُ فِي خَضِرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنْ زَوْجَكَ نَبِيٌّ وَسَيَصِيبُهُ مِنْ أَمْتِهِ بَلَاءٌ. وَانْظُرِ الْخَصَائِصَ لِلْسَّيُوطِيِّ (٩٥/١ - ٩٦).

٢ - أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٦٢/١، ٢٦٣) وَابْنُ خَالٍ فِي صَحِيحِهِ رَقْمَ (٧) وَ(٥١) وَ(٢٦٨١) وَ(٢٨٠٤) وَ(٢٩٤١) وَ(٢٩٧٨) وَ(٣١٧٤) وَ(٤٥٥٣) وَ(٥٩٨٠) وَ(٦٢٦٠) وَ(٧١٩٦) وَ(٧٥٤١) وَمُسْلِمٌ (١٧٧٣) وَاللَّفْظُ لَهُ. وَأَبُو دَاوُدَ (٥١٣٦) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٧١٧). مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ.

٣ - فِي الْبُخَارِيِّ: (الصَّدَقِ). بَدَلُ: (الزَّكَاةِ). وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ.

٤ - قَوْلُهُ: الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقَلُ. الظَّاهِرُ أَبُو سُفْيَانَ.

٥ - أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٣٢/٢، ٣٤٦، ٣٨٤، ٣٨٩، ٤١٦، ٥٣٣) وَابْنُ خَالٍ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ (٦٠٥) وَ(٨٩٦) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣١١٦) بِلَفْظٍ: مَنَعَةٌ وَذُرَّةٌ. مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَلَيْسَ فِي الصَّحِيحِ لَا الْبُخَارِيُّ وَلَا مُسْلِمٌ. فَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِالصَّحِيحِ الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِي لَا الْكِتَابِي.

٦ - أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٥٦١/٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

٧ - فِي الْبُخَارِيِّ (٧): نَسَبٌ.

تَكُونُ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ، حَتَّى يُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيَتِمَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ.

وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضاً: وَقُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصَدَقِهِمْ. وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجزُ الْبَشَرُ [ظ ٣٧/٢] عَنْ مِثْلِهَا، فَسُمِّيتَ بِذَلِكَ مُعْجَزَةً، وَلَيْسَتْ مِنْ جَنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ، وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ حُلٍّ قَدَرْتَهُمْ، وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ:

فَالْمُتَكَلِّمُونَ: بِنَاءٌ عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا بِفَعْلِ النَّبِيِّ. وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جَنْسِ أَفْعَالِهِمْ، وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مِنْزِلَةُ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ، وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً. فَالْمُعْجَزَةُ دَالَّةٌ بِمَجْمُوعِ الْخَوَارِقِ وَالتَّحْدِي. وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْأً مِنْهَا، وَعِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ: صِفَةُ نَفْسِهَا، وَهُوَ وَاحِدٌ، لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِي عَنْدهُمْ. وَالتَّحْدِي: هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ وَالسَّحْرِ. إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ، فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا إِنْ وَجَدَ اتِّفَاقاً، وَإِنْ وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوَلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ <sup>(١)</sup> وَغَيْرُهُ وَقُوعَ الْخَوَارِقِ كِرَامَةً فِرَاراً مِنَ الْإِلْتِبَاسِ بِالنُّبُوَّةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوَلَايَةِ، وَقَدْ أَرَيْنَاكَ الْمُغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا، وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لِبَسَ.

عَلَى أَنَّ النُّقْلَ عَنِ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلَى إِنْكَارٍ لِأَن تَقَعُ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ.

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ: فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ الْكِرَامَةِ عَنْدهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ، فَلَا فَرْقَ. وَأَمَّا وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيساً فَهُوَ مُحَالٌ.

أَمَّا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ: فَلَأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجَزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ، فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً، وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً، وَالتَّصْدِيقُ كَذِباً، وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ، وَانْقَلَبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ، وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرَضِ وَقُوعِهِ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُمَكِّناً.

وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ: فَلَأَنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةَ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ.

وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ: فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ، وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِجَابِ الذَّاتِي. وَوُقُوعُ الْخَوَاطِئِ - بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ - مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ. وَالشُّرُوطُ الْحَادِثَةُ مُسْتَنْدَةً أُخِيرًا إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ. وَإِنْ النَّفْسُ النَّبَوِيَّةُ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ ذَاتِيَّةٌ، مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَاطِئِ بِقُدْرَتِهِ، وَطَاعَةُ الْعَنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ. وَالنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ فِي الْأَكْوَانِ، مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَاسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سَوَاءً كَانَ لِلتَّحْدِي، أَمْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ شَاهِدٌ بِصَدَقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَّاهُ عَلَى تَصْرِيفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ، لَا بِأَنَّهُ يَنْزَلُ مِنْزَلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ، فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قِطْعِيَّةً، كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جُزْأً [ظ ١/٣٨] مِنَ الْمَعْجَزَةِ، وَلَمْ يَصِحَّ فَارِقًا لَهَا عَنِ السَّحَرِ وَالْكَرَامَةِ. وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السَّحَرِ: أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَفْعَالِ الْخَيْرِ، مَصْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ، فَلَا يُلِمُّ الشَّرَّ بِخَوَاطِئِهِ.

وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ، فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ. وَفَارِقُهَا عَنِ الْكَرَامَةِ: أَنَّ خَوَاطِئَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَالصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالنُّفُودِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ، وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ.

وَوَخَوَاطِئُ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ، وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَاطِئِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَاطِئِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ، وَلَقَنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ. وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الْمَعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا، وَأَوْضَحُهَا دَلَالَةُ: الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَإِنَّ الْخَوَاطِئَ فِي الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتْلَقَاهُ النَّبِيُّ، وَيَأْتِي بِالْمَعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصَدَقِهِ.

وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيُ الْمُدَّعَى. وَهُوَ الْخَارِقُ الْمَعْجَزُ، فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمَعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ. فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ فِيهِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحِيَ إِلَيَّ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ

أَكُونُ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>. يُشِيرُ إِلَى أَنَّ المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقُوَّة الدَّلَالَةِ، وهو كونها نفس الوحي، كان الصِّدْقُ لها أَكْثَرَ لوضوحها، فَكثُرَ المُصَدِّقُ المؤمن، وهو التَّابِعُ والأُمَّة.

وَلَنَذْكُرَ الْآنَ تَفْسِيرَ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ عَلَى مَا شَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ، ثُمَّ نَذْكُرُ حَقِيقَةَ الْكُهَانَةِ، ثُمَّ الرُّؤْيَا ثُمَّ شَأْنَ الْعَرَّافِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ فَنَقُولُ:  
إِعْلَمْ: أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَّا نَشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ، وَرَبَطَ الْأَسْبَابَ بِالْمُسَبِّبَاتِ، وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ بِالْأَكْوَانِ، وَاسْتَحَالَتِ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ، لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي غَايَاتُهُ. وَأَبْدَأُ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجِسْمَانِيِّ.

وَأَوَّلًا: عَالَمُ الْعَنَاصِرِ الْمُشَاهَدَةِ كَيْفَ تَدْرَجُ صَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ، ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ، ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بِبَعْضِهَا بَعْضٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَابِطًا، وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ.

وَالصَّاعِدُ مِنْهَا الطِّفُّ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ الْأَفْلَاقِ، وَهُوَ الطِّفُّ مِنَ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بِبَعْضِهَا بَعْضٌ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يَدْرِكُ الْحَسَّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ، وَبِهَا يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ، ثُمَّ النَّبَاتِ، ثُمَّ الْحَيَوَانِ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ. وَآخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ<sup>(٢)</sup> مِثْلَ الْحَشَائِشِ، وَمَا لَا بَذْرَ لَهُ، وَآخِرُ أَفْقِ [ظ ٢/٣٨] النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ الْحَيَوَانِ، مِثْلَ الْحِلْزُونِ وَالصَّدَفِ، وَلَمْ يَوْجَدْ لِهَمَا إِلَّا قُوَّةَ اللَّمَسِ فَقَطْ.

١ - رواه البخاري (٤٩٨١ و ٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) عن أبي هريرة. وانظره في تفسير ابن كثير سورة البقرة الآية ٢٤. (٦٥/١).

٢ - في رسائل إخوان الصفا (١٤٣/٢): واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان كما أن أول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء.

ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات، أن آخر أفق منها مُستعدّ بالاستعداد القريب<sup>(١)</sup> لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتّسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه وانتهى في تدرّج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، ترتفع إليه من عالم القدرة<sup>(٢)</sup> الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الرؤية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا.

ثم إننا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة. ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر. وفي عالم التكوين آثار من حركة النُمُو والإدراك، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مابيناً للأجسام فهو روحاني، ويتصل بالمكوّنات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، ولذلك هو النفس المدركة والحركة، ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضاً، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعلّلاً، وهو محض، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداداً للإنسلاخ من البشرية إلى الملكيّة ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات، في لحظة من اللحظات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانيّة بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدّمناه، فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل، وهي متصلة بالبدن من أسفل منها، وتكتسب به المدارك الحسيّة التي تستعدّ بها للحصول على التعلّل بالفعل، ومتصلة من جهة الأعلى منها بالأفق الملائكة، ومكتسبة به المدارك العلميّة والعيّية؛ فإنّ عالم الحوادث موجود في تعلّلاتهم من غير زمان، وهذا على ما قدّمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتّصال ذواته وقواه بعضها ببعض.

١ - في ن: الغريب. خطأ. قال الجابري (ص ٤٣٧): الاستعداد القريب والاستعداد البعيد: معناه، كون الشيء يحتمل التحول إلى شيئين، ولكن هناك عامل يرجع تحوله إلى أحدهما دون الآخر، وحينئذ يكون ذلك الشيء، مستعداً بالاستعداد القريب ليصير هذا ولا يكون ذاك فالماء مثلاً فيه استعداد لأن يصير بخاراً أو ثلجاً، ولكن وجود الحرارة يجعله مستعداً بالاستعداد القريب لأن يصير بخاراً، وبالأستعداد البعيد ليتحول لثلجاً، الغزالي مقاصد الفلاسفة (ص ٣٢٩). وأحياناً يستعمل ابن خلدون الاستعداد الطبيعي بمعنى الاستعداد القريب.

يستعمل ابن خلدون هذا المصطلح خاصة عند حديثه عن مراتب الوجود واتصال الأكوّان بعضها ببعض: ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات الموجودات الحادثة، إن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي يليه.

٢ - هكذا في جميع النسخ، وفي نسخة الدكتور وافي: (القردة) وينطلق منها إلى مناقشة قيمة لنظرية النشوء والارتقاء عند مفكري المسلمين وغيرهم.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةٌ عَنِ الْعِيَانِ، وَأَنَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ، فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعِ أَجْزَائِهِ مَجْتَمِعَةٌ وَمَفْتَرَقَةٌ آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقَوَاهَا.

أَمَّا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ، وَالْمَشْيُ بِالرَّجْلِ، وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ، وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَافِعًا.

وَأَمَّا الْمَدْرَكَةُ، وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِدْرَاكِ مُرْتَبَةً وَمُرْتَقِيَّةً إِلَى الْقُوَّةِ الْعُلْيَا مِنْهَا وَهِيَ الْمَفْكُورَةُ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقَةِ فَقُوَى الْحَسِّ الظَّاهِرِ بِآلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ، وَأَوَّلُهُ الْحَسُّ الْمَشْتَرِكُ، وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ الْحَسُوسَاتِ مُبْصَرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحَسِّ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْحَسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحَسُّ الْمَشْتَرِكُ إِلَى الْخَيَالِ، وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الشَّيْءَ الْحَسُوسَ فِي النَّفْسِ، كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطُّ.

وَأَلَّةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا: الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ [ظ ٣٩/١] مُقَدَّمُهُ لِلأَوَّلَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ، ثُمَّ يَرْتَقِي الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ. فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ، كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذَّنْبِ. وَالْحَافِظَةُ لِإِيْدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيِّلَةً، وَهِيَ لَهَا كَالْخَزَانَةُ تَحْفَظُهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَأَلَّةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا: الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ؛ أَوَّلُهُ لِلأَوَّلَى، وَمُؤَخَّرُهُ لِلأُخْرَى. ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ، وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّؤْيَةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعَقُّلِ فَتُحَرِّكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا مَا رُكِبَ فِيهَا مِنَ النَّزْوَعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِي، وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ، فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَدْ تَنَسَّلَخَ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ بَلْ بَعَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجِبَلَةِ وَالْفِطَرَةِ الْأَوَّلَى فِي ذَلِكَ.

وَالنَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْإِدْرَاكِ الرُّوحَانِي، فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحَسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ، وَتَرْكِيْبُ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ، عَلَى قَوَانِينٍ مُحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ، يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ،

وكلها خياليٌّ منحصرٌ نطاقُهُ إذ هو من جهةٍ مبدئه ينتهي إلى الأوَّلِيَّاتِ ولا يتجاوزُها، وإن فسد فسدَ ما بعدها، وهذا هو في الأغلبِ نطاقُ الإدراكِ البشريِّ الجسمانيِّ، وإليه تنتهي مداركُ العُلَمَاءِ، وفيه ترسخُ أَقْدَامُهُمْ.

وَصَنَّفْتُ مُتَوَجِّهَةً بتلك الحركة الفكرية نحو العقلِ الرُّوحانيِّ، والإدراكِ الذي لا يفتقر إلى الآلاتِ البدنيَّةِ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك. فيتسع نطاقُ إدراكه عن الأوَّلِيَّاتِ التي هي نطاقُ الإدراكِ الأولِ البشريِّ، ويسرُحُ في فضاءِ المُشَاهَدَاتِ الباطنيَّةِ، وهي وجدانُ كُلِّها، لا نطاقُها من مبدئها ولا من مُنتهَها، وهذه مداركُ العُلَمَاءِ الأوَّلِيَّاءِ أَهْلِ العُلُومِ الدِّينيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرُّبَّانيَّةِ، وهي الحاصِلَةُ بعد الموتِ لأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي البَرزَخِ.

وَصَنَّفْتُ مَفْطُورَةً على الانسِلَاخِ من البشريَّةِ جُمْلَةً جسمانيَّتها وروحانيَّتها إلى الملائكةِ من الأفقِ الأعلى ليصيرَ في لَحْجَةٍ من اللَّمَحَاتِ ملكاً بالفعلِ، ويحصلُ له شَهِودُ المَلَأِ الأعلى في أَفْقِهِمْ وَسَمَاعُ الكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ والخطابِ الإلهيِّ في تلك اللَّمَحَةِ.

وهؤلاء الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الانسِلَاخَ من البشريَّةِ في تِلْكَ اللَّمَحَةِ، وهي حالةُ الوحيِ فَطَرَهُمُ اللَّهُ عليها وَجَبَلَهُ صَوْرَهُمْ فيها، ونَزَّهَهُم عن موانعِ البَدَنِ وعَوَاتِقِهِ ما داموا ملابسينَ لها بالبشرية بما رُكِبَ في غرائزهم من القَصْدِ<sup>(١)</sup> والاستقامةِ الَّتِي [ظ ٢/٣٩] يحاذون بها تلك الوجهة، وَرَكَّزَ في طبائعهم رغبةً في العبادةِ تُكشِفُ بتلك الوجهةِ وَتَشِيْعُ<sup>(٢)</sup> نحوها، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفقِ بذلك النوعِ من الانسِلَاخِ متى شَاؤُوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها، لا باكتسابٍ ولا صناعةٍ. فإذا تَوَجَّهُوا وانسلخوا عن بشريَّتهم وتلقَّوا في ذلك المَلَأِ الأعلى ما يتلقونه، عاجوا به على المَدَارِكِ البشريَّةِ مُنْزَلًا في قواها لحكمةِ التَّبْلِيغِ للعبادِ، فتارةً يسمَعُ أحدهم دويًّا كأنَّهُ رمزٌ من الكلامِ يأخذُ منه المعنى الذي أُلْقِيَ إليه فلا ينقضي الدَّوِيُّ إلا وَقَدْ وعاهُ وفهمه. وتارةً يَتَمَثَّلُ لَهُ المَلِكُ الذي يُلْقِي إليه رجلاً، فيكَلِّمُهُ ويعي ما يقوله. والتَّلَقِّيُّ من المَلِكِ والرُّجُوعُ إلى المَدَارِكِ البشريَّةِ وَفَهْمُهُ ما أُلْقِيَ عليه كُلُّهُ كأنَّهُ في لحظةٍ واحدةٍ، بل أَقْرَبُ من لمح

١ - أي: الاعتدال والتوسط.

٢ - في جميع النسخ: (تسيغ) وما أثبتته من منشورة وإني، وهو أقرب إلى الصواب وإلى سياق أسلوب ابن خلدون في هذه الفقرة.

البصر لأنه ليس في زمان، بل كلها تقع جميعاً فيظهر كأنها سريعة ولذلك سُميت وحيّاً لأنّ الوحي لغة الإسراع.

واعلم أنّ الأولى وهي حالة الدّويّ هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حقّقوه. والثانية وهي حالة تمثّل الملك رجلاً يُخاطب، هي رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث الذي فسّر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، لما سأله الحارث بن هشام وقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني<sup>(١)</sup>، وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»<sup>(٢)</sup>. وإنما كانت الأولى أشدّ، لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوّة إلى الفعل، فيعسر بعض العسر، ولذلك لما عا<sup>(٣)</sup>ج فيها على المدارك البشرية اختصّت بالسّمع وصعب ما سواه، وعندما يتكرّر الوحي ويكثر التلقّي يسهل ذلك الاتصال، فعندما يعرج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها، وهو إدراك البصر، وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي: أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالي الوحي، فمثّل الحالة الأولى بالدّويّ الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أنّ الفهم والوعي يتبعه غيب<sup>(٤)</sup> انقضائه، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع، ومثّل الملك في الحالة الثانية برجل يُخاطب ويتكلّم، والكلام يساوقه<sup>(٥)</sup> الوعي فناسب العبارة بالمضارع المُقتضي للتجدّد.

واعلم أنّ في حالة الوحي كلّها صعوبة على الجملة وشدة. قد أشار إليها القرآن، قال تعالى: «إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً» [المزمل: ٥]. وقالت عائشة: «كان مما يُعاني من التّنزيل شدة»<sup>(٦)</sup>، وقالت: «كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البَرْد فيفصم»<sup>(٧)</sup>

١ - أي: يفارقني.

٢ - مر.

٣ - أي: اعتمد عليها.

٤ - أي: بعد انقضائه.

٥ - أي: يُسايره ويكون معه.

٦ - مر.

٧ - أي: يُفارقة.



عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرْقاً»<sup>(١)</sup>. ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط، ما هو معروف. وسبب ذلك: أَنَّ الْوَحْيَ كما قررناه مفارقة [ظ. ٤٠/١] البشرية إلى المدارك الملكية، وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وأنسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر، وهذا هو معنى الْغَطِّ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ: «فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً»<sup>(٢)</sup>. كما في الحديث.

وقد يُفَضِّلُ الْعَتِيَادُ بِالتَّدرِيجِ فِيهِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ، وَلِذَلِكَ كَانَ تُنْزَلُ نُجُومٌ<sup>(٣)</sup> الْقُرْآنَ وَسُورُهُ وَآيُهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ. وَانْظُرْ إِلَى مَا نَقَلَ فِي نزول سورة براءة في غزوة تبوك، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته، بعد أن كان بِمَكَّةَ يَنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصَلِ فِي وَقْتٍ، وَيُنْزَلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ. وَكَذَلِكَ كَانَ آخَرُ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ [سورة البقرة: ٢٨٢]، وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّوْلِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تُنْزَلُ بِمَكَّةَ، مِثْلَ آيَاتِ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ وَ﴿الذَّارِيَاتِ﴾ وَ﴿الْمُدَّثِّرِ﴾ وَ﴿الضُّحَى﴾ وَ﴿الْفَلَقِ﴾ وَأَمْثَالِهَا. وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عِلَامَةً تَمَيَّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدْنِيِّ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ، وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ. هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا الْكُهَانَةُ: فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ، أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَاداً لِلانْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا، وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لِحْجَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صَنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَاماً أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ. إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ مَوْجُوداً فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ، أَنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رَتْبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ نَقْصَانٌ الضَّدُّ عَنْ ضَدِّهِ

الكامل؛ لأنَّ عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضدَّ الاستعانة فيه وشتان ما بينهما، فإذا أُعطي تقسيم الوجود إلى هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك، وهي ناقصة عنه بالجبلية، فيكون لها بالجبلية عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبُّت بأمور جزئية محسوسة أو متخيَّلة، كالأجسام الشفافة، وعظام الحيوانات، وسجع الكلام، وما سَنَح من طير أو حيوان، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده، ويكون كالمُشيِّع له، وهذه القوة التي فيهم مبدأً لذلك الإدراك، هي الكهانة.

ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال، كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكلِّيات، وتكون متشبثة بها [ظ. ٢/٤٠] غافلة عن الكلِّيات؛ ولذلك تكون المخيَّلة فيهم في غاية القوة، لأنَّها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيَّلة، وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات، لأنَّ وحيه من وحي الشيطان، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة، ليشغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة، والذي يُشيِّعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربَّما صدق ووافق الحق، وربَّما كذب لأنَّه يتمُّ نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة، ومباين لها غير ملائم، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً، ولا يكون موثقاً به، وربَّما يفرغ إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه، وتمويهاً على السائلين.

وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنَّهم أرفع سائر أصنافهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله: «هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ»<sup>(١)</sup>. فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة، وقد قال لابن صيَّاد حين سألَه كاشفاً عن حاله بالإخبار: «كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ؟» قَالَ: يَأْتِيَنِي صَادِقاً وَكَاذِباً. فَقَالَ: «خَلِطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ»<sup>(٢)</sup>. يعني: أن

١ - أخرجه البخاري (٥٤٢٦ و ٥٤٢٧ و ٦٣٥٩ و ٦٥٠٨ و ٦٥١١ و ٦٥١٢) ومسلم (١٦٨١) عن أبي هريرة بلفظ: إنما هذا من إخوان الكهان. من أجل سجعه الذي سجع.

وأخرجه البخاري (٦٥٠٩) و (٦٥٠١) و (٦٨٨٧) ومسلم (١٦٨٢) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ: أسجع كسجع الأعراب.

٢ - أخرجه مسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر عن عمر.

النُّبُوَّةُ خاصَّتُهَا الصِّدْقُ فلا يَعْتَرِيهَا الكَذِبُ بِحَالٍ، لأنها اتَّصَلَ من ذات النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى من غير مُشَيِّعٍ ولا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ، وَالْكُهَّانَةُ لما احتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبٍ عَجَزَهُ إِلَى الاسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، كانت دَاخِلَةً فِي إدْرَاكِهِ، والتَّبَسُّتُ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطاً بِهَا وَطَرَقَهُ الْكَذِبُ من هذه الْجِهَةِ فامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً، وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ الْكُهَّانَةِ حَالَةُ السَّجْعِ، لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ أَخْفُ من سَائِرِ الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْمَرُئِيَّاتِ وَالْمَسْمُوعَاتِ. وَتَدُلُّ خِفَّةُ الْمَعْنَى عَلَى قَرَبِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ، وَالبَعْدِ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضَ الشَّيْءِ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكُهَّانَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ مِنْذُ زَمَنِ النُّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالشَّهْبِ بَيْنَ يَدَيِ الْبَعْثَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَيْرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ [سورة الجن: ٩]. وَالْكُهَّانُ: إِنَّمَا يَعْرِفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتْ الْكُهَّانَةُ مِنْ يَوْمِئِذٍ. وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ؛ لِأَنَّ عُلُومَ الْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضاً، كَمَا قَرَّرْنَاهُ.

وَأَيْضاً: فَالْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنَعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَيْرِ الْبَعْثَةِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ.

وَأَيْضاً: فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ فَقَطْ، وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكُ كُلَّهَا تَحْمَدُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ، كَمَا تَحْمَدُ الْكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ عِنْدَ وَجُودِ الشَّمْسِ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ هِيَ [ظ ٤١/١] النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نَوْرٍ وَيَذْهَبُ.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ. وَهَكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ، لِأَنَّ وَجُودَ النُّبُوَّةِ لَا يَدُلُّهُ مِنْ وَضْعِ فَلَكِيٍّ يَقْتَضِيهِ، وَفِي تَمَامِ ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ النُّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا، وَنَقْصُ ذَلِكَ الْوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِيهِ وَجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ، وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ. فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ الْوَضْعُ النَّاقِصُ وَيَقْتَضِيهِ وَجُودَ الْكَاهِنِ؛ إِمَّا وَاحِداً، أَوْ مُتَعَدِّداً، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وَجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ، وَانْقَضَتْ الْأَوْضَاعُ الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ، فَلَا يَوْجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ، وَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ الْفَلَكَيِّ يَقْتَضِيهِ بَعْضُ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ، فَلَعَلَّ

الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرُ بِهِيَّتِهِ الْخَالِصَةِ، وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئاً  
لَا إِنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرُ نَاقِصاً كَمَا قَالُوهُ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُهَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النَّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدَلَالَةِ  
مَعْجَزَتِهِ، لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوَجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النَّبُوَّةِ، كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ النَّوْمِ<sup>(١)</sup>؛  
وَمَعْقُولِيَّةُ<sup>(٢)</sup> تِلْكَ النَّسَبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقِعُهُمْ  
فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ، فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي  
الْصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَّبَعَ، وَكَذَا وَقَعَ لَابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ، فَإِذَا غَلَبَ  
الْإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الْأَمَانِي آمَنُوا أَحْسَنَ إِيْمَانٍ، كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ بْنِ  
قَارِبٍ، وَكَانَ لهُمَا فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْأَثَارِ الشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ الْإِيْمَانِ.

وَأَمَّا الرُّؤْيَا: فَحَقِيقَتُهَا مَطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ، لِحَاجَةٍ مِنْ صُورِ  
الْوَاقِعَاتِ، فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً، تَكُونُ صُورُ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالْفِعْلِ، كَمَا  
هُوَ شَأْنُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا، وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ،  
وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ. وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذَلِكَ لِحَاجَةٍ بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذَكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ  
إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْاِقْتِبَاسُ ضَعِيفاً وَغَيْرَ  
جَلِيِّ بِالْمَحَاكَاةِ وَالْمَثَالِ فِي الْخِيَالِ لِلتَّلْخُصِ<sup>(٣)</sup>، فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَحَاكَاةِ إِلَى التَّعْبِيرِ، وَقَدْ  
يَكُونُ الْاِقْتِبَاسُ قَوِيّاً يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ الْمَحَاكَاةِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ لَخُلُوصِهِ مِنَ الْمَثَالِ  
وَالْخِيَالِ.

وَالسَّبَبُ فِي وَقُوعِ هَذِهِ اللَّمَحَةِ لِلنَّفْسِ: أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِالْقُوَّةِ، مُسْتَكْمَلَةٌ بِالْبَدَنِ  
وَمَدَارِكِهِ، [وَلَا بَدَنٌ مِنْ تَخْلُصِهَا مِنَ الْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ] حَتَّى تَصِيرَ ذَاتَهَا تَعْقُلاً مُحَضّاً، وَيَكْمُلُ  
وُجُودُهَا بِالْفِعْلِ، فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً مَدْرَكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنْ  
نَوْعُهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ أَهْلُ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا  
ذَوَاتَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ، فَهَذَا الْاِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا [ظ ٢/٤١] مَا دَامَتْ  
فِي الْبَدَنِ، وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ. وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا، وَأَمَّا

١ - في أكثر النسخ: اليوم. وما أثبتناه من منشورة الدكتور وافي.

٢ - في ن: معقوبية.

٣ - في ن: لتلخظه.

الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادٌ بِالْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْحُضَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ، وَيُخْرَجُ هَذَا الْاسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّرًا فِي حَالَاتِ الْوَحْيِ. وَهُوَ عِنْدَمَا يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ، وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ، يَكُونُ شَبِيهَاً بِحَالِ النَّوْمِ شَبَهَاً بَيْنًا؛ وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَدْنَى <sup>(١)</sup> مِنْهُ بِكَثِيرٍ؛ فَلَأَجْلِ هَذَا الشَّبَهِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا: «جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ» <sup>(٢)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: «ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ» <sup>(٣)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: «سَبْعِينَ» <sup>(٤)</sup>. وَلَيْسَ الْعِدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُودًا بِالذَّاتِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ، بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طَرَقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ.

وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فِي رِوَايَةِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مَبْدِئِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ، وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ، فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ. لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لغيرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ، وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتُهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْاسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى الْاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصُنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفُطْرِيِّ لَهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ هُوَ الْاسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ، وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَاقِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ: الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ، فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ، فَتُدْرِكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَمَحَّةٌ يَكُونُ فِيهَا الظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ، فَقَالَ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوْ تُرَى لَهُ» <sup>(٥)</sup>.

١ - في ن: (أدون).

٢ - رواه البخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٣ و ٢٢٦٤) عن أبي هريرة. ورواه البخاري (٦٩٨٧) ومسلم (٢٦٤) عن عبادة بن الصامت.

٣ - لم أجد هذه الرواية، وإن وجدت روايات أخرى تذكر (٤٠ و ٤٥ و ٥٠ و ٦٠) وانظر شرح مشكل الآثار (٤١٣/٥ - ٤٢٢) وصحيح ابن حبان (٤٠٤/١٣ - ٤١٥).

٤ - رواه مسلم (٢٢٦٥) عن ابن عمر.

٥ - أخرجه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة. ومسلم (٤٧٩) بنحوه عن ابن عباس.

وَأَمَّا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنُّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ لَكَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ إِنَّمَا إدْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ، وَهُوَ بُخَارٌ لَطِيفٌ مَرْكُزُهُ بِالتَّجْوِيفِ الْإَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كِتَابِ التَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ، وَيَنْبُعُثُ مَعَ الدَّمِّ فِي الشَّرْيَافَاتِ وَالْعُرُوقِ، فَيُعْطِي الْحِسَّ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ. وَيَرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى الدِّمَاغِ، فَيَعْدِلُ مِنْ بَرْدِهِ، وَتَتِمُّ أَفْعَالُ الْقَوَى الَّتِي فِي بَطُونِهِ. فَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تَدْرِكُ وَتَعْقِلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبُخَارِيِّ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لَمَّا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُوَثِّرُ فِي الْكَثِيفِ، وَلَمَّا لَطَفَ هَذَا الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ [ظ ١/٤٢] صَارَ مَحَلًّا لِآثَارِ الذَّاتِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ، وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ. وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ إدْرَاكُهَا عَلَى نَوْعَيْنِ:

إِدْرَاكٌ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ.

وإِدْرَاكٌ بِالْبَاطِنِ، وَهُوَ الْقَوَى الدِّمَاغِيَّةُ.

وَأَنَّ هَذَا الْإِدْرَاكَ كُلَّهُ صَارَفٌ لَهَا عَنْ إدْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ. وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً، كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفُشْلِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ وَالْكَلالِ وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ، فَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْاسْتِحْجَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِدْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِإِنْخِنَاسِ<sup>(١)</sup> الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا، وَرَجُوعِهِ إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ، وَيُعَيَّنُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ، فَتَطْلُبُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشِيعَةً مَرْكَبَهَا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ. فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنِ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقَوَى الْبَاطِنَةِ، وَخَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاعِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ، وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلَ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورَةً خَيَالِيَّةً، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ مُعْتَادَةً لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ الْمُتَعَاهَدَةِ قَرِيبًا، ثُمَّ يُنْزَلُهَا الْحِسُّ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ فَيُدْرِكُهَا عَلَى أَنْحَاءِ الْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ.

وَرُبَّمَا تَفْتَتِ النَّفْسُ لِفَتْنَةٍ إِلَى ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ مَعَ مَنَازَعَتِهَا الْقَوَى الْبَاطِنِيَّةِ، فَتُدْرِكُ بِإِدْرَاكِهَا الرُّوحَانِيَّ، لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ. وَتَقْتَبِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي

ذاتها حيثنذ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيُمثِّلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المَعهودة.

والمحاكاة من هذه، هي المحتاجة للتعبير. وتَصَرُّفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تُدرِك من اللَّمحة ما تدركه، هي أضغاث أحلام.

وفي الصحيح، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِنَ الْمَلِكِ، وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ»<sup>(١)</sup>. وهذا التفصيل مُطابِق لما ذكرناه، فالجليُّ من الله، والمحاكاة الدَّاعِيَةُ إلى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلِكِ وَأَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ. لَأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ، وَالشَّيْطَانُ يَنْبُغُ الْبَاطِلَ.

هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا مَا يُسَبِّحُهَا وَيُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ، وَهِيَ خَوَاصُّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ، لَا يَخْلُو عَنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ. بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ لَهُ فِي يَقْظَتِهِ مَرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ، وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مَدْرَكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ [وَلَا الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مَدْرَكَةٌ لِلْغَيْبِ فِي النَّوْمِ] وَلَا بُدَّ. وَإِذَا جَاَزَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَمْتَنِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ، لِأَنَّ الذَّاتَ الْمَدْرَكَةَ وَاحِدَةً، وَخَوَاصُّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ حَالٍ. وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ.

### ١-٦-١-١- فُصْلٌ

وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ [ظ ٢/٤٢] لِلْبَشَرِ غَالِبًا<sup>(٢)</sup>، إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّقَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ، فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّمْحَةِ فِي النَّوْمِ، لِأَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ.

وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ<sup>(٣)</sup> وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ<sup>(٤)</sup> ذِكْرُ أَسْمَاءِ تَذَكُّرٍ عِنْدَ النَّوْمِ، فَتَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا فِيمَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ، وَيَسْمُونَهَا الْحَالُومِيَّةَ، وَذَكَرَ مِنْهَا مَسَلَمَةُ<sup>(٥)</sup>

١ - لم أجده بهذا اللفظ، وإنما في مسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة: «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بِشَرِّى مِنَ اللَّهِ وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ». وفي ابن ماجه (٣٩٠٧) وابن حبان من حديث عوف بن مالك: «الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: مِنْهَا تَهْوِيلٌ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهَا مَا يَهْمُ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقْظَتِهِ، فَرَأَاهُ فِي مَنَامِهِ، وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ».

٢ - في المطبوع: ما يقع للبشر من ذلك غالباً.

٣ - غاية الحكيم - طبع ريتز ١٩٢٧. والقاهرة مكتبة الجمهورية العربية ١٩٥٥.

٤ - في ن: الرياضات.

في كتاب الغاية حالومة سَمَّاها حَالُومَةَ الطَّبَّاعِ النَّامِّ، وهو أن يُقال عند النَّومِ بعد فراغ السَّرِّ، وصَحَّةِ التَّوَجُّهِ، هذه الكلمات الأعجمية وهي: تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس، ويذكر حاجته، فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه في النَّومِ.

وحكي أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليال في مأكله وذكره، فتمثل له شخص يقول له: أنا طباعك النَّامُ فسأله وخبره عما كان يتشوف إليه.

وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء وراء عجيبة، واطلعت بها على أمور كنت أتشوف عليها من أحوالي. وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الحالومات تحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعدُّ له. وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب، ولا يكون دليلاً على إيقاع المستعد له. فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء، فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله، والله الحكيم الخبير.

### ١-٦-٢- فصل

ثم إننا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات<sup>(١)</sup> قبل وقوعها بطبيعة فيهم، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم، ولا من غيرها. إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين، والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطسّاس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصي والجبوب، من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها، ولا إنكارها. وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها، وكذلك النائم والميت، لأوّل موته أو نومه يتكلّم

٥ - هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن قاسم بن عبد الله الجريطي الأندلسي (ت ٣٩٨ هـ تقريباً) إمام الرياضيين في وقته بالأندلس، له عناية بالنجوم، وعني بزيج البتاني وزيج محمد بن موسى الخوارزمي. وقال المقرئ في نفع الطيب: سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يولف في الأزياج مثل زيّج مسلمة وزيّج ابن السمح. ومن كتبه: رتبة الحكيم في الكيمياء وغاية الحكيم في السحر والطلسمات. وقد ألفهما في مبدأ شبابه. قال في غاية الحكيم: وكان تألّفي لهذا الكتاب مبدأ عام ٣٤٣ عند فراغي من تنقيح كتاب رتبة الحكيم وأتممته في آخر عام ٣٤٨. انظر مقدمة جميل صليبا لكتاب الجريطي الرسالة الجامعة طبع بجمع اللغة العربية دمشق ١٩٤٩.



بالغيب، وكذلك أهل الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ، لَهُمْ مَدَارِكُ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ.

وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ عَنْ<sup>(١)</sup> هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ كُلِّهَا، وَنَبْدِئُ مِنْهَا بِالْكَهَانَةِ، ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا.

وَنُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً، فِي أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِدْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا. وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ بِالْقُوَّةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الرُّوحَانِيَّاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُدْرِكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ. وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وَجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّعَقُّلِ، فَهِيَ تَوْجَدُ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ [ظ ٤٣/١] مُسْتَعِدَّةً لِلْإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ، ثُمَّ يَتِمُّ نَشْؤُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفِعْلِ بِمَصَاحِبَةِ الْبَدَنِ، وَمَا يُعَوِّدُهَا بِوُرُودِ مَدْرَكَاتِهَا الْمَحْسُوسَةِ عَلَيْهَا، وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ الْإِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْصَلَ لَهَا الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَقُّلُ بِالْفِعْلِ.

فَتَيَسَّرُ ذَاتُهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالْهَيُولَى وَالصُّورُ مُتَعَايِنَةً عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ. وَلِذَلِكَ نَحْذِرُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا بِنَوْمٍ وَلَا بِكَشْفٍ وَلَا بِغَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ<sup>(٢)</sup> صَوْرَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا - وَهِيَ<sup>(٣)</sup> الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَقُّلُ - لَمْ تَتِمَّ<sup>(٤)</sup> بَعْدُ، بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ الْكُلِّيَّاتِ. ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ حَصَلَ لَهَا - مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ - نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ: إِدْرَاكٌ بِآلَاتِ الْجِسْمِ تَوْذِيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ الْبَدَنِيَّةَ، وَإِدْرَاكٌ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَهِيَ مُحْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْإِنْغِمَاسِ فِي الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِّ وَبِشَوَاعِلِهَا؛ لِأَنَّ الْحَوَاسَّ أَبَدًا جَازِبَةٌ بِهَا إِلَى الظَّاهِرِ عَمَّا فُطِرَتْ عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ. وَرَبَّمَا تَنَغَمَسُ مِنَ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ حِجَابُ الْبَدَنِ لَحْظَةً، إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، مِثْلَ النَّوْمِ أَوْ بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِبَعْضِ الْبَشَرِ، مِثْلَ الْكَهَانَةِ وَالطَّرِيقِ، أَوْ بِالرِّيَاضَةِ مِثْلَ أَهْلِ الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الدُّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَأِ، لَمَّا بَيْنَ أَفْقِهَا وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ، كَمَا قَرَرْنَا قَبْلَ. وَتِلْكَ

١ - فِي ن: عَلَى.

٢ - فِي ن: أَنْ.

٣ - فِي ن: هِيَ.

٤ - فِي ن: رَ يَتِمُّ.

الدَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ، وَهِيَ إِدْرَاكُ مُحَضٍّ وَعَقُولٌ بِالْفِعْلِ، وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَتَجَلَّى فِيهَا شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الصُّوَرِ، وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا عُلُومًا، وَرُبَّمَا دُفِعَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ الْمُدْرَكَةُ إِلَى الْخَيَالِ، فَيَصْرِفُهَا<sup>(١)</sup> فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْتَادَةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ الْحِسَّ بِمَا أَدْرَكَتْ، إِمَّا مَجْرَدًا أَوْ فِي قَوَالِبِهِ فَتَخْبِرُ بِهِ. هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِيِّ. وَلنَرْجِعْ إِلَى مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ.

فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّافَةِ: مِنَ الْمَرَايَا وَطِسَّاسِ الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا، وَأَهْلُ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالتَّوَي، فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكُهَّانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أضعفُ رُتْبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ، لِأَنَّ الْكَاهِنَ لَا يَحْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرٍ مَعَانَاةٍ. وَهَؤُلَاءِ يُعَانُونَهُ بِانْخِصَارِ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا، وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعْكِفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى يَبْذُو لَهُ مَدْرَكَهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ. وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مَشَاهِدَهُ هَؤُلَاءِ لِمَا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمَرَاةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمَرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنْ الْبَصَرِ، وَيَبْدُو فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَطْحِ الْمَرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتِمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ، هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لِمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْسٍ أَوْ إِبْثَاتٍ، فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكَوه.

وَأَمَّا الْمَرَاةُ وَمَا يُدْرِكُ [ظ ٢/٤٣] فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ فَلَا يُذَكِّرُ كَوْنَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ. وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النَّوْعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ، وَهُوَ نَفْسَانِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ، بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ النَّفْسَانِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ: مَا يَعْرِضُ لِلنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا، وَلِلنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطِّسَّاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُشْغِلُ الْحِسَّ بِالْبُخُورِ فَقَطْ، ثُمَّ بِالْعِزَائِمِ لِلْإِسْتِعْدَادِ، ثُمَّ يَخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الصُّوَرَ مُتَشَخِّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ، وَغَيْبَةُ هَؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفُ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَالْعَالَمُ أَبُو الْغَرَائِبِ.

وَأَمَّا الزُّجَرُ: وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ، وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغْيِبِهِ، وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعُثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زُجِرَ فِيهِ مِنْ مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ، وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةُ كَمَا قَدَّمَاهُ قُوَّةً، فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ

مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا؛ كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيِّلَةُ فِي النَّوْمِ، وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمُرِّيِّ فِي يَقَظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا.

وَأَمَّا الْمَجَانِينُ: فَنَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةٌ التَّعَلُّقُ بِالْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْرِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَعْرِقَةٍ فِي الْحَوَاسِّ، وَلَا مُنْغِمِسَةٍ فِيهَا، بَمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّقْصِ وَمرَضِهِ. وَرُبَّمَا زَاغَتْهَا عَلَى التَّعَلُّقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ، تَتَشَبَّثُ بِهِ وَتَضَعُفُ هَذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا فَيَكُونُ عَنْهُ التَّخَبُّطُ، فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مَزَاجِهِ مِنْ فَسَادِ فِي ذَاتِهَا، أَوْ لِمَزَاحِمَةِ مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حَسِّهِ جُمْلَةً، فَأَدْرَكَ لَحْمَةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَانْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّوَرِ وَصَرَفَهَا الْخَيَالُ، وَرُبَّمَا نَطَقَ عَلَى <sup>(١)</sup> لِسَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ النُّطْقِ.

وَإِذْرَاكِ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِتِّصَالُ، وَإِنْ فَقَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ. وَمِنْ ذَلِكَ يَجِيءُ الْكُذْبُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِكِ.

وَأَمَّا الْعَرَّافُونَ: فَهَمُ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَذَا الْإِدْرَاكِ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ، فَيَسْلُطُونَ الْفِكْرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْخُذُونَ فِيهِ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ، بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِيءِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ، وَيَدَّعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ. هَذَا تَخْصِيلُ هَذِهِ الْأُمُورِ <sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْمُسْتَعَوْدِيُّ فِي مَرُوجِ الذَّهَبِ فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً، وَيُظْهَرُ مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ فَنَقَلَ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ.

وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودةٌ كلها في نوع البشر. فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات، ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم. وفي كتب أهل الأدب [ظ ٤٤/١] كثير من ذلك، واشتهر منهم في

الجاهلية: شقُّ بن أنمار بن نزار، وسطيح بن مازن بن غسان، وكان يُدرجُ كما يدرجُ الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة.

ومن مشهور الحكايات عنهما: تأويل رؤيا ربيعة بن نصر<sup>(١)</sup> وما أخبراهُ به من مُلك الحبشة لليمن، ومُلكٍ مُضرٍ من بعدهم، وظهور النبوة المُحمّدية في قريش، ورؤيا الموبدان التي أولها سطيح، لما بعث إليه بها كسرى عبد المسيح، فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس، وهذه كلها مشهورة.

وكذلك العُرافون: كان في العرب منهم كثيرٌ وذكرهم في أشعارهم. قال<sup>(٢)</sup>:  
فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ: دَاوِنِي      فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطِيبُ  
وقال الآخر<sup>(٣)</sup>:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ      وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي  
فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهِ مَا لَنَا      بِمَا حَمَلَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

وعُرافُ اليمامة: هو رباح بن عجلّة. وعُرافُ نجد: الأبلق الأسدي.

ومن هذه المدارك الغيبية، ما يصدرُ لبعض الناس عند مفارقة اليقظة، والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوّفُ إليه بما يُعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد. ولا يقع ذلك إلا في مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختبار في الكلام، فيتكلم كأنه مجبور<sup>(٤)</sup> على النطق، وغايته أن يسمعه ويفهمه. وكذلك يصدرُ عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلامٌ يمثل ذلك. ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين: أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً، ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع.

وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك: أن آدمياً إذا جعل في دنٍّ مملوء بدهن السمسم، ومكث فيه أربعين يوماً، يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه

١ - في النسخ: مضر. خطأ، صحح من السيرة النبوية لابن هشام (٤٧/١-٥٢).

٢ - نسبه الزبيدي في تاج العروس (٣٧٧/١٢) مادة عرف) لعروة بن حزام العذري بلفظ: فإنك إن أبرأتني لطبيب. وهو كذلك في ديوانه ص ٢٩. وكما أورده المصنف في الشعر والشعراء ص ٦٢٤. والأغاني (١٥٥/٢٤).

٣ - هو عروة بن حزام، وفي ألفاظها بعض الخلاف، انظر ديوانه ص ١٦، والشعر والشعراء ص ٦٢٤، والأغاني (١٤٣/٢٤، ١٥٧، ١٦٢)، ولسان العرب مادة سلا.

٤ - في ن: مجبول.

إلا العُروْقُ وشؤون رأسه، فيخرجُ من ذلك الدَّهنُ فحينَ يجفُّ عليه الهواءُ يُجيبُ عن كل شيءٍ يُسألُ عنه من عواقبِ الأمور الخاصَّةِ والعامةِ. وهذا فعلٌ من مناكيرِ أفعالِ السَّحرةِ، لكن يُفهمُ منه عجائبُ العالَمِ الإنسانيِّ.

ومن الناس من يحاولُ حُصُولَ هذا المدركِ الغيبيِّ بالرياضةِ. فيحاولون بالمجاهدةِ موتاً صناعياً بإماتةِ جميعِ القوى البدنيَّةِ، ثم نحو آثارها التي تلوَّنت بها النفسُ، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها، ويحصلُ ذلك بجمعِ الفكرِ وكثرةِ الجوعِ. ومن المعلومِ على القطعِ أنَّه إذا نزلَ الموتُ بالبدنِ، ذهبَ الحسُّ وحجائبُه، واطَّلعتِ النَّفسُ على ذاتها وعالمها، فيحاولون ذلك بالاكْتِسَابِ، ليقعَ لهم قبلَ الموتِ ما يقعُ لهم بعده، وتطلُّعُ النفسِ على المغيَّباتِ.

ومن هؤلاء أهلُ الرِّياضةِ السَّحريَّةِ: يرتاضونَ بذلك ليحصلَ لهم الاطِّلاعُ على المغيَّباتِ والتَّصَرُّفاتِ في العوالمِ. وأكثر هؤلاء في الأقاليمِ المنحرفةِ جنوباً وشمالاً خصوصاً بلادُ الهندِ، ويسمونَ هنالك الحوكيَّةَ<sup>(١)</sup>، ولهم كتبٌ في كَيْفِيَّةِ هذه الرياضةِ كثيرةٌ والأخبارُ عنهم في ذلك غريبةٌ.

وأما المتصوِّفة [ظ ٤٤/٢]: فرياضتهم دِنيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> عن هذه المقاصدِ المذمومة. وإنما يَقْصِدُونَ جَمْعَ الهِمَّةِ والإقبالَ على اللهِ بِالْكُلِّيَّةِ، ليحصلَ لهم أذواقُ أهلِ العرفانِ والتوحيدِ، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمعِ والجوعِ، التغذيةِ بالذكر، فيها تتمُّ وجهتهم في هذه الرياضة؛ لأنه إذا نشأت النفسُ على الذكر كانت أقربَ إلى العرفانِ بالله.

وإذا عريت عن الذكر كانت شَيْطَانِيَّةً. وحصولُ ما يحصلُ من معرفة الغيبِ والتَّصَرُّفِ لهؤلاء المتصوِّفةِ إنما هو بالعرضِ، ولا يكون مقصوداً من أوَّلِ الأمرِ؛ لأنَّه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هي لقصدِ التَّصَرُّفِ والاطِّلاعِ على الغيبِ، وأُخْصِرُ بها صَفَقَةً؛ فإنها في الحقيقةِ شِرْكٌ. قال بعضهم: مَنْ آثَرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ، فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي.

فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا لشيءٍ سواه. وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصلُ فبالعرضِ وغير مقصودٍ لهم، وكثيرٌ منهم يفرُّ منه إذا عرضَ له، ولا يحفلُ به، وإنما يريدُ الله لذاته لا لغيره. وحصول ذلك لهم معروفٌ ويسمونَ ما يقعُ لهم من الغيبِ والحديثِ على

١ - ذهب الدكتور وافي إلى أن صواب هذه الكلمة هو: اليوجية. نسبة إلى الرياضة المعروفة: اليوجا.

٢ - أي: خالية منها.

الخواطرِ فِرَاسَةً وكشفاً، وما يقعُ لهم من التَّصَرُّفِ كَرَامَةً، وليس شيءٌ من ذلك بنكيرٍ في حقهم.

وقد ذهب إلى إنكاره، الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين، فراراً من التَّيْبَاسِ الْمُعْجَزَةِ بغيرها. والمعولُّ عليه عند المتكلمين حُصُولُ التَّفَرُّقَةِ بالتحدي فهو كاف. وقد ثبت في الصحيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عَمْرَ»<sup>(١)</sup>.

وقد وقع للصحابة من ذلك وقائعٌ معروفة تشهد بذلك، في مثل قول عمر رضي الله عنه: يَا سَارِيَّةُ الْجَبَلِ<sup>(٢)</sup>. وهو سارية بن زَينِم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام، وكان بقربه جبلٌ يتحيز<sup>(٣)</sup> إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطبُ على المنبرِ بالمدينة فناده: يَا سَارِيَّةُ [هناك] الجبلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَّةٌ وهو بمكانه، ورأى شخصه والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نخلها<sup>(٤)</sup> من أوسقِ التَّمْرِ من حديثه، ثم نَبَّهَهَا على جُذَاذِهِ<sup>(٥)</sup> لتحوزهُ عن الورثة، فقال في سياق كلامه: وإنما هما أخواكِ وأختاك، فقالت: إنما هي أسماءُ فَمِنْ الأخرى، فقال: إِنَّ ذَا بطنِ بنتٍ خارجة أراها جارية<sup>(٦)</sup>. فكانت جارية. وقع في الموطأ في باب مالا يجوز من النحل<sup>(٧)</sup>.

ومثل هذه الوقائع كثيرةٌ لهم، ولمن بعدهم من الصَّالحين، وأهل الاقتداء. إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقلُّ في زمن النبوة، إذ لَا يَبْقَى للمريد حالةٌ بحضرة النبي، حتَّى إنهم

١ - بمعناه أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة. ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة. وقال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهون. وانظر الاعتقاد للبيهقي (٤٣٩).

٢ - أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٧٠/٦) والاعتقاد (٤٣٥).

٣ - في ن: يتجهز.

٤ - أي: أعطها.

٥ - أي: قطعه.

٦ - زوجة أبي بكر. وقد تنبأ بأن ما تحمله سيكون جارية، أي فتاة.

٧ - الموطأ، كتاب الأقضية باب مالا يجوز من النحل ص ٧٥٢. ذو بطن. أي: صاحب بطنها، يريد الحمل الذي فيه.

يقولون: إنَّ المريدَ إذا جاء للمدينة النبويَّة يُسلبُ حالُه ما دامَ فيها حتَّى يُفارقها، واللهُ يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحقِّ.

ومن هؤلاء المريدِينَ من المتصوِّفة: قومٌ بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين<sup>(١)</sup> من العُقلاء؛ وهم مع ذلك [ظه ١/٤٥] قد صَحَّتْ لهم مقامات الولاية وأحوال الصِّدِّيقين، وعَلِمَ ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذَّوق، مع أنهم غيرُ مُكَلِّفينَ، ويقعُّ لهم من الإخبار عن المغيَّبات عجائب، لأنَّهم لا يتقيَّدون بشيء، فيطلقون كلامهم في ذلك، ويأتون منه بالعجائب. وربما ينكر الفقهاءُ أنهم على شيء من المقامات، لما يرون من سقوط التَّكليف عنهم، والولاية لا تحصلُ إلا بالعبادة وهو غلط<sup>(٢)</sup>، فإن فضل الله يؤتية من يشاء، ولا يتوقَّفُ حُصولُ الولاية على العبادة ولا غيرها.

وإذا كانت النَّفسُ الإنسانيَّةُ ثابتةً الوجود، فالله تعالى يخصُّها بما شاء من مواهبه، وهؤلاء القومُ لم تعدَّم نفوسُهم النَّاطقة، ولا فسدت كحال المجانين. وإنما فقد لهم العقل الذي يُنَاطُ به التَّكليفُ، وهي صفةٌ خاصَّةٌ للنَّفسِ، وهي علومٌ ضروريَّةٌ للإنسان يشدُّ بها نظره، ويعرفُ أحوالَ معاشِهِ واستِقامَةَ منزله. وكأنَّه إذا ميَّزَ أحوالَ معاشِهِ واستِقامةَ منزله،

١ - قال ابن خلدون في شفاء السائل وتهذيب المسائل (ص ١٦٤ - ١٦٥): ما زال يختلج في نظري أن المجذوب فاقد لعقل التَّكليف، وهو أدون مراتب النوع الإنساني، فيكون خارجاً عن زمرة المؤمنين. بما سقط عنه من التَّكليف وسيما العبادات. فكيف يلحق بمراتب أولياء الله، ويعدُّ منهم؟ كما هو معلوم قديماً وحديثاً وغير نكير حتى ألهم الله إلى كشف الغطاء عن ذلك بمنه وهدايته:

وذلك أن العقل الذي ناط به الشرع التَّكليف هو عقل تدبير المعاش، وهو قيام الإنسان على معاشه وتدبير منزله، فإن فقد هذا العقل لنقص في ذاته، وفي لطيفته الروحانية، كسائر الحمقى والمجانين نزل عن رتبة النوع الإنساني، ولم يكن من الإيمان في شيء فضلاً عن الولاية، وإن فقد هذا العقل لفرق في بحر الأنوار الإلهية، وقلة تعريج على المحسوسات بما حملت، فلا يضره ذلك، ولا يترتب به عن رتبة النوع، بل تعلق لديه رتبة الإيمان، وتصح له الولاية بما عنده من مشاهدة أنوار المعرفة، وله في حفظ مقامه — مع سقوط التَّكليف، وبتر أسباب وصوله الحاصل لديه — حكم شرعي غريب اتفق عليه أهل الطريقة المفوض علم ذلك إليهم، فقد قدما أن الأحكام الشرعية إنما تتعلق بمداركهم بعد وجدانها وذوقها، وليست تخفى الأحكام الشرعية في حقهم لالتباسها ولا لحفاؤها، وإنما هو لأجل خفاء ما تتعلق به من مداركهم الذوقية، وإذا حصل لهم الإدراك الذوقي بحال، أو وارد، أو إلقاء، أو غير ذلك علموا كيف يتعلق حكم الله به، وربما يستغرب في حقهم حكم ما، وإنما هو لغرابة متعلقة من تلك المدارك الذوقية، فلا يستنكر ذلك منهم، فهو أعلم بمداركهم، والسعادة أصلها التخصيص.

٢ - لعله يساير في ذلك الرد على المتكلمين الذي يظنون أن النبوة تكون بالرياضة. فأراد أن يؤكد أن الولاية هي فرع من اختصاص الله لبعض عباده ولا يطلب فيها بداية العبادة، وإن كان وجودها بعد ذلك أساساً لتأكيد معنى صحة ولاية العبد. ولذلك أكد بعد قليل ضرورة عدم خلو البهلول عن ذكر وعبادة.

لم يبقَ له عذرٌ في قبول التكاليف لإصلاح معادِهِ، وليسَ من فَقَدَ هذه الصِّفةَ بفاقدٍ لنفسِهِ ولا ذاهلٍ عن حقيقَتِهِ، فيكونَ موجودَ الحقيقةَ معدومَ العقلِ التَّكْلِيفِي الَّذِي هو معرفةُ المعاشِ، ولا استحالةً في ذلك، ولا يتوقَّفُ اصطفاءُ اللَّهِ عبادةً للمعرفةِ على شيءٍ من التَّكاليفِ.

وإذا صحَّ ذلك فاعلم أنَّه رُبَّما يلتبسُ حالُ هؤلاء بالمجانين الذين تفسدُ نفوسهم الناطقةُ، ويلتجقونَ بالبهايمِ. ولكَ في تمييزهم علاماتٌ منها: أنَّ هؤلاء البهاليلَ تجدُ لهم وجهةً ما، لا يخلونَ عنها أصلاً من ذكرٍ وعبادة، ولكن على غير الشُّروطِ الشَّرْعِيَّةِ لما قلناه من عدمِ التَّكْلِيفِ؛ والمجانين لا تجدُ لهم وجهةً أصلاً. ومنها: أنهم يخلقون على البَلَه من أوَّلِ نشأتهم<sup>(١)</sup>، والمجانين يعرضُ لهم الجنونُ بعدَ مدَّةٍ من العمر لعوارض بدنيَّةٍ طبيعيَّةٍ، فإذا عرضَ لهم ذلك وفسدت نفوسُهم الناطقةُ ذهبوا بالخبيَّةِ. ومنها: كثرةُ تصرفهم في الناسِ بالخيرِ والشرِّ لأنهم لا يتوقفون على إذنٍ لعدمِ التَّكْلِيفِ في حقِّهم، والمجانين لا تصرفُ لهم. وهذا فصل انتهى بنا الكلامُ إليه والله المرشد للصواب.

### ١-١-٦-٣- فصل

وقد يزعم بعضُ النَّاسِ أنَّ هنا مداركُ للغيبِ من دونِ غيبةِ عن الحِسِّ. فمنهم المتَّجمون: القائلون بالدَّلالاتِ النُّجوميَّةِ ومقتضى أوضاعها في الفلكِ وآثارها في العناصرِ، وما يحصلُ من الامتزاجِ بين طباعها بالتناظرِ، ويتأدَّى من ذلك المزاجِ إلى الهوائِ. وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيبِ في شيءٍ؛ إنما هي ظنونٌ حدسيةٌ، وتخميناتٌ مبنيةٌ على التأثيرِ النُّجوميةِ وحصولِ المزاجِ منه للهواءِ، مع مزيدِ حدسٍ يقفُ به الناظرُ على تفصيله في الشَّخصياتِ [ظه ٤/٢] في العالمِ، كما قاله بطليموسُ. ونحنُ نبيِّنُ بطلانَ ذلك في محله إن شاء الله. وهو لو ثبتَ فغايتُهُ حدسٌ وتخمينٌ، وليسَ مما ذكرناه في شيءٍ.

ومن هؤلاء قومٌ من العامَّةِ: استنبطوا لاستخراجِ الغيبِ وتعرُّفِ الكائناتِ صناعةً سَمَّوها: خطَّ الرَّمَلِ، نسبةً إلى المادَّةِ الَّتِي يضعونَ فيها عملهم. وحصولُ هذه الصَّناعةِ أنهم صَيَّروا من النُّقْطِ أَشْكالاً ذاتَ أربعِ مراتبٍ تختلفُ باختلافِ مراتبِها في الزَّوجِيَّةِ والفَرْدِيَّةِ واستوائِها فيهما، فكانت ستَّةَ عشرَ شكلاً، لأنَّها إن كانت أزواجاً [كلها] أو أفراداً كلها

١ - لم لا يقال: إن هؤلاء قد شاهدوا شيئاً من عوالم الغيبِ جذبهم إليه فأصبحَ نظرهم متطلعاً إليه، ملتفتاً إليه، مما جعلهم يغيبون عن عالمِ المعاشِ أي: أنهم يكونون على حالٍ عاديٍ قبل تعرضهم لحالةِ الجذبِ، تلك.



فشكلان. وإن كان الفردُ فيهما في مرتبةٍ واحدة فقط فأربعة أشكال. وإن كان الفردُ في مرتبتين فستة أشكال. وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلاً موزوهاً كلّها بأسمائها ونوعوها<sup>(١)</sup> إلى سَعْدٍ ونَحْسٍ شأن الكواكب، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبعيةً بزعمهم، وكأنها البروجُ الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة. وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على صنفٍ من موجودات عالم العناصر يختصُّ به، واستنبطوا من ذلك فناً حاذوا به فنَّ النجامة<sup>(٢)</sup> ونوعَ فضائه، إلا أنَّ أحكام النجامة مستندةٌ إلى أوضاعٍ طبعيةٍ، كما زعم<sup>(٣)</sup> بطليموس.

وهذه إنما مُستندها أوضاعٌ تحكيميَّةٌ وأهواءٌ اتِّفَاقِيَّةٌ، ولا دليلَ يقومُ على شيءٍ منها. (وهذه إنما دلالتها وضعية، وذلك أن بطليموس إنما تكلم في المواليد والقرانات التي هي عنده من آثار الكواكب والأوضاع الفلكية في عالم العناصر. وتكلم المنجمون من بعده في المسائل باستخراج الضمائر وتقسيمها على بيوت الفلك، والحكم عليها بأحكام ذلك النجومية التي ذكر بطليموس.

واعلم أن الضمائر أمورٌ نفسية ليست من عالم العناصر، فليست من الكواكب ولا الأوضاع الفلكية، ولا دلالة لهما عليها.

نعم، إن صار لفن المسائل مدخل في صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب والأوضاع، إلا أنه في غير مدلوله الطبيعي.

فلما جاء أهل الخط عدلوا عنه - الكواكب والأوضاع - استصعاباً بالمعاناة، الارتفاع بالآلات وتعديل الكواكب بالحسبان، واستخرجوا هذه الأشكال الخطية وفرضوها عند ضربين من بيوت الفلك وأوتاره، ونوعوها إلى سعدٍ ونَحْسٍ وممتزجٍ مثال الكواكب السيارة، واقتصروا على السديس من المتناظر، ونزلوا الأحكام النجومية عليها كما في المسائل؛ لأنَّ دلالة كل منها غير طبيعية كما قدمناه.

وانتحل هذه الصناعة كثيراً من البطالين للمعاش في المدن، وصنفوا فيها التصانيف المماثلة لقواعدها وأصولها كما فعله الزفاتي منهم وغيره.

١ - في ن: أنواعها.

٢ - أي ادعاء معرفة الغيب بمقتضى النظر في النجوم.

٣ - في ن: يزعم.

وقد يكون من أهل هذه الصناعة من يعرض في إدراك الغيب باشتغال الحس بالنظر في أشكال تلك الخطوط، فتعزيه حالة الاستعداد كما يعتري المفطورين على ذلك كما نذكره بعد.

وهؤلاء أشرف أهل هذه الصناعة، وهم على الجملة<sup>(١)</sup> يزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم. ورُبما نسبوها إلى دانيال أو إلى<sup>(٢)</sup> إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها.

وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم: «كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ»<sup>(٣)</sup>. وليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه، لأن معنى الحديث: كان نبيٌّ يخطُ فيأتيه الوحي عند ذلك الخط، ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، (فإنهم متفاوتون في إدراك الوحي قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فمنهم من يأتيه الوحي، ويكلمه الملك ابتداءً من غير طلب ولا وجهة لذلك، ومنهم من يتوجه فيما يعرض له من أمور البشر إلى أمته على شكلها، أو تكليف، أو نحو ذلك، فيتوجه وجهة ربانية يتعرض بها لكشف ما يريد من ذلك من الله. ويعطي التقسيم هنا قسماً آخر إن وجد؛ لأن الوحي قد يكون وهو لا يستعد له بشيء من الأحوال كالذي ذكرناه، وقد يكون وهو مستعدٌ لبعض الأحوال كما نقل في الإسرائيليات أن بعض الأنبياء، وكان

١ - في ظ: كذا وجد في نسخة مكتوبة بخط القطرسي مقابلة على نسخة الأصل.

٢ - في ظ: دانيال وإدريس.

٣ - أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي. ويأتي في حديث الجارية مزيد تخريجه. وقال النووي في شرحه (٦٧٤/٢): قوله: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنبياء عليهم السلام يخط، فمن وافق خطه فذاك. اختلف العلماء في معناه، فالصحيح: أن معناه: من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح. والمقصود: أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن وافق خطه فذاك. ولم يقل: هو حرام - بغير تعليق على الموافقة - لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي صلى الله عليه وسلم على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا، فالمعنى: أن ذلك النبي لا منع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها. وقال الخطابي: هذا الحديث يمتثل النهي عن هذا الخط إذ كان علماً لنبوة ذاك النبي، وقد انقطعت، فنهينا عن تعاطي ذلك. وقال القاضي عياض: المختار أن معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول، لا أنه أباح ذلك لفاعله. قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا. فحصل من مجموع كلام العلماء فيه: الإتفاق على النهي عنه الآن.

يستعد لنزول الوحي بسماع الأصوات الطيبة الملحنة. وهذا النقل، وإن لم يك ممكناً في الصحة إلا أنه غير بعيد، فالله تعالى يختص أنبياءه ورسله بما يشاء. وإذا تقرر ذلك، وقد كنا قدمنا أن في أصحاب [ظ ١/٤٦] خط الرمل من يتعرض للكشف باشتغال الحس بالنظر في الخطوط والأشكال، فيعثره حينئذ الإدراك الغيبي الوجداني بالفزع عن الحس جملة، ويفارق المدارك إلى المدارك الروحانية. وقد مر تفسيرهما.

وهذا من الكهانة من نوع النظر في العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر في ذلك منها على الأمر الصناعي الذي يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين، وهي لم تفارق المدارك الجسمانية بعد، جائلاً في مرامي الظنون. فقد يكون شأن بعض الأنبياء الاستعداد بالخط في مقامه النبوي لخطاب الملك، كما يستعد به من ليس بنبي للإدراك الروحاني ومفارقة المدارك البشرية، إلا أن إدراكه روحاني فقط، وإدراك النبي ممكن بالوحي من عند الله.

وأما مقامات أهل صناعة الخط في مدارك الحس والتخمين فحاشا للأنبياء منها، فإنهم لا يشرعون التكلم بالغيب ولا الخوض فيه لأحد من البشر. وقوله في الحديث: «فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك». أي: فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط. (أو تكون الإشارة بذلك إلى تعظيمه وعلو شأنه في اتخاذ خطوط الرمل، لا نسبة بينه وبينها، إذا كان على ذلك الوجه الذي كان النبي يستعد به للوحي فيأتي على وفاقه). وأما إذا أخذ<sup>(١)</sup> ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا، وهذا معنى الحديث. والله أعلم.

(وليس فيه دلالة على مشروعية خط الرمل، ولا جواز انتحاله لتعرف تغيب<sup>(٢)</sup> كما هو شأن أهله في المدن، وإن مال إلى ذلك بعضهم بناءً على أن فعل النبي شرعة متبعة، فيكون مشروعاً على مذهب من يرى أن شرع من قبلنا شرع لنا. وليس هذا بمطابق لذلك؛ فإن الشرع إنما هو للرسل المرشدين للأمم، والحديث لم يدل على ذلك، وإنما دل

١ - في ن: حدث.

٢ - أي غائب.

على أن هذه الحالة قد تحصل لبعض الأنبياء. ويحتمل أن يكون غير مشرّع<sup>(١)</sup> فلا يكون ذلك شرعاً لا خاصاً بأتمته، ولا عاماً لهم ولغيرهم، وإنما يدل على أنها حالة تقع لبعض الأنبياء خاصة فلا تتعداه للبشر.

وهذا آخر ما أردنا تحقيقه هنا، والله الملمه للصواب).

فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرروا ذلك أربع مرات، فتحيء ستة عشر سطرًا، ثم يطرحون النقط أزواجًا، ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب، فتحيء أربعة أشكال، يضعونها في سطور متتالية ثم سطور يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي يلازمه، وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر، ثم يولدون من كل شكلين شكلاً باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً، من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها، ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها من الشكلين [ظ ٢/٤٦] شكلاً كذلك، تحتها. ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً يكون آخر الستة عشر، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات، والنظر والحلول والامتزاج، والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً.

وكثر هذه الصناعة في العمران، ووضعت فيها التأليف، واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين، وهي كما رأيت تحكماً وهوى.

والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة. ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفظورين على الرجوع من<sup>(٢)</sup> عالم الجس إلى عالم الروح.

ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهرين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة، بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب. فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية، وقصد - بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام

أو غيرها - إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الرُوحانيات لحظة ماء، فهو من باب الطَّرْقِ بالحصى، والنظر في قلوب الحيوانات، والمرايا الشفافة، كما ذكرناه. وإن لم يكن كذلك، وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ [النور: ٤٦].

والعلامة هذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي: أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعتر بهم خروج عن حالتهم الطبيعية، كالتأؤب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس، ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم، فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب في شيء، وإنما هو ساع في تنفيق<sup>(١)</sup> كذبه.

ومنهم طوائف: يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطُّور الأول الذي هو من مدارك النفس الرُوحانية، ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم، كما زعمه بطليموس، ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون. وإنما هي مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص.

فمن تلك القوانين: الحساب الذي يسمونه حساب النيم، وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو<sup>(٢)</sup>، يعرف به الغالب من المغلوب في المتحارين من الملوك، وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الألف أحاداً وعشرات ومئين وألوفاً. فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد، فاحسب اسم الآخر كذلك، ثم اطرح من كل واحد منهما تسعة، تسعة، واحفظ بقية هذا وبقية هذا، ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين، فإن كان العددين مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجين [ظ ٤٧/١]، أو فردين معاً، فصاحب الأقل منهما هو الغالب، وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب، وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب، وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب. ويقال هتالك بيتان في هذا العمل اشتها بين الناس وهما:

أرى الزَّوجَ والأفرادَ يسمُّو أقلَّها وأكثَرُها عندَ التحالِفِ غالبُ

١ - أي: نشره وترويجه.

٢ - السياسة في تدبير الرياسة: ١٥٢-١٥٥.

وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يَغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا الْمَعْرِفَةَ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرَحِهَا بِتِسْعَةِ قَانُونٍ مَعْرُوفٍ عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ تِسْعَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ، وَهِيَ: (أ) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ، وَ(ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرَةِ، وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ، وَ(ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِئَةِ، لَأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ، لَأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْآلَافِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ، لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخَرُ حُرُوفِ أَبْجَدٍ. ثُمَّ رَتَبُوا هَذِهِ الْأَحْرَفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ، فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ: **أَيْقَشُ**.

ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْآلَافِ مِنْهَا، لَأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَدٍ، فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ الْاثْنَيْنِ فِي الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ، وَهِيَ: (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْآحَادِ، وَ(ك) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْعَشْرَاتِ وَهِيَ عَشْرُونَ، وَ(ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الْمِئَتَيْنِ وَهِيَ مِئَتَانِ، وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ: **بَكْرُ**.

ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ فَفَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ: **جَلِسُ**، وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبْجَدٍ، وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَاجِ عِدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ: **أَيْقَشُ**، **بَكْرُ**، **جَلِسُ**، **دَمَتْ**، **هَنْتُ**، **وَصَخُ**، **زَعْدُ**، **حَفْظُ**، **طَضَعُ**. مَرْتَبَةٌ عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ، وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عِدْدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ، فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ **أَيْقَشُ**، وَالْاثْنَانِ لِكَلِمَةِ **بَكْرُ**، وَالثَّلَاثَةُ لِكَلِمَةِ **جَلِسُ**، وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ **طَضَعُ**، فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ.

فَإِذَا أَرَادُوا طَرَحَ الْأَسْمِ بِتِسْعَةِ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ. وَأَخَذُوا عِدْدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الْأَسْمِ، فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا، وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ، ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْأَسْمِ الْآخَرِ، وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ بِمَا قَدَمْنَا، وَالسَّرِّ فِي هَذَا بَيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِي مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ بِطَرَحِ تِسْعَةٍ، إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ، فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْاثْنَيْنِ وَالْعَشْرَيْنِ وَالْمِئَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ، وَكُلُّهَا اثْنَانِ، وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثِ مِئَةٌ وَالثَّلَاثَةُ الْآلَافُ، كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ، فُوضِعَتْ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرُ،

وجعلت الحروف الدالة [ظ ٤٧/٢] على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف<sup>(١)</sup>، وصار عدد الكلمة - الموضوع عليها - نائباً عن كل حرف فيها، سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من<sup>(٢)</sup> الحروف التي فيها، وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه؛ هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم، وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه، ومتوالية كتواليها، ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء وهي هذه: أرب، يسقك، جزلط، مدوص، هف، تحذن، عش، خع، ثضظ. تسع كلمات على توالي العدد، ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرباعي والثنائي، وليست جارية على أصل مُطَرَّد كما تراه. لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيمياء، وأسرار الحروف والنجامة، وهو أبو العباس بن البناء، ويقولون عنه: إن العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات: أيقش. والله يعلم<sup>(٣)</sup> كيف ذلك.

وهذه كلها مدارك للغيب غير مُستندة إلى برهان ولا تحقيق، والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين<sup>(٤)</sup> لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان. يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرُسوخ. انتهى.

ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون، الزايرة المسماة: بزائرة العالم المعزوة إلى أبي العباس: سيدي أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب، كان في آخر المئة السادسة مُرَاقِش، ولعهد أبي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين. وهي غريبة العمل صناعة، وكثير من الخواص يولعون بإفادته الغيب منها بعملها المعروف الملقب<sup>(٥)</sup>، فيحرضون بذلك على حل رمزه، وكشف غامضه، وصورتها التي يقع العمل

١ - في هامش الأصل: «قوله: (والألوف) فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه». وهذا من المشاكلة في اللفظ كما ذهب الدكتور وافي.

٢ - في ن: عن.

٣ - في ن: أعلم.

٤ - انظر الفهرست لابن النديم: ٣٣-٣٦.

٥ - المبني على الألفاظ.

عندهم فيها دائرة عظيمة، داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر، والمكونات والروحانيات، وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم.

وكلُّ دائرة مقسومة بأقسام فلكها إمَّا البروج، وإمَّا العناصر أو غيرهما، وخطوط كلِّ قسم مارة إلى المركز، ويُسمونها الأوتار، وعلى كلِّ وتر حروف مُتتابعة موضوعة، فمنها برشوم<sup>(١)</sup> الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد.

ومنها برشوم القُبار المتعارفة في داخل الزايرجة. وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان، وعلى ظاهر الدوائر جدول متكرر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً، يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض، ومئة وواحد وثلاثين في الطول، جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف، وجوانب خالية البيوت. ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها، ولا القسمة التي عيّنت البيوت العامرة من الخالية، وحافات<sup>(٢)</sup> الزايرجة أبيات [ظ ١/٤٨] من عروض الطويل<sup>(٣)</sup> على روي اللام المنصوبة، تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة، إلا أنها من قبيل الإلغاز في عدم الوضوح والجلاء.

وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدّثان بالمغرب، وهو مالك بن وهيب من علماء أشبيلية كان في الدولة اللّمتونية، ونص البيت:

سؤال عظيم الخلق حُزّت فصنّ إذن غرائب شكّ ضبطه الجدد مثلاً

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة وغيرها.

فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يُسأل عنه من المسائل كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً، ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها، وعمدوا إلى الزايرجة، ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز، ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع، فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره والأعداد المرسومة بينهما،

١ - قوله: برشوم: أي: موضوعة بضم الراء جمع برشم بالشين المعجمة.

٢ - في ظ: حفا في.

٣ - أي: على وزن البحر الطويل وهو من أوزان الشعر.



ويصيرونها حروفاً بحسب الجُمْل. وقد ينقلون آحادها إلى العَشْرَاتِ، وعشراتها إلى المئتين، وبالعكس فيهما، كما يقتضيه قانون العمل عندهم، ويضعونها مع حروف السُّؤال، ويضيفون إلى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد من أوله إلى المركز فقط، لا يتجاوزونه إلى المحيط، ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأول، ويضيفونها إلى الحروف الأخرى، ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم، وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم، ويضعونها ناحية، ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج. وأُسُّه عندهم هو بُعد البرج عن آخر المراتب، عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب، فإنه عندهم البعد عن أول المراتب، ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الأكبر، والدور الأصلي، ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة، وأعمال مذكورة، وأدوار معدودة، ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى، ويقابلون بما معهم في حروف البيت، وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال، وما معها، ثم يطرحون تلك الحروف، بأعداد معلومة يسمونها الأدوار، ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور، ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعنية عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة، وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت - الذي يقابل به العمل - ورويّه، وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم، حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية [ظ ٤٨/٢] العمل بهذه الزايرة.

وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال. ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع، وليس ذلك بصحيح. لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة، وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال، من حيث الإفهام والتوافق في الخطاب، حتى يكون الجواب مستقيماً أو موافقاً للسؤال.

ووقع ذلك في هذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار، والدخول في الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة، واستخراج الحروف من الجدول بذلك، وطرح أخرى ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة، ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر، وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكاء على تناسب

بين هذه الأشياء فيقع له معرفة المجهول، فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق حصوله، سيما من أهل الرياضة، فإنها تفيده العقل قوة على القياس، وزيادة في الفكر، وقد مرّ تعليل ذلك غير مرّة. ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرة في الغالب لأهل الرياضة، فهي منسوبة للسبتي، ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله.

ولعمري إنها من الأعمال الغريبة والمعانة العجيبة. والجواب الذي يخرج منها، فالسرّ في خروجه منظوماً يظهر لي، إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت، ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه. ويدل عليه أنا وجدنا أعمالاً أخرى لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت، فلم يخرج الجواب منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه. وكثير من الناس تضيّق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب، فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه، كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار، ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة، ولا قانون، ثم يجيء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة، وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات، والتفاوت بين المدارك والعقول. ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس في طوره إدراكه، وكيفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة، والحدس القطعي فإنها جاءت بعمل مُطَرِّد، وقانون صحيح لا مريّة فيه عند من يباشر ذلك ممّن له ذكاء وحدس. وإذا كان كثير من المعايير<sup>(١)</sup> في العدد الذي هو أوضح الواضحات يعسر على الفهم إدراكه، لبعد النسبة فيه وخفائها؛ فما ظنك بمثل هذا مع خفاء [ظ ١/٤٩] النسبة فيه وغرابتها!! فلندكر مسألة من المعايير يتضح لك بها شيء مما ذكرناه مثاله:

لو قيل لك خذ عدداً من الدراهم، واجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من الفلوس، ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً، ثم اشتر بالدراهم كلها طيوراً بسعر ذلك الطائر، فكم الطيور المشتراة بالدراهم والفلوس؟ فجوابه أن تقول: هي تسعة. لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون، وأن الثلاثة ثمنها، وأن عدّة اثنان الواحد ثمانية، فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر، فهي ثمانية طيور، عدّة

أثمان الواحد، وتزیدُ على الثمانية طائراً آخرَ وهو المشتري بالفُلوسِ المأخوذةُ أولاً، وعلى سِعْرِهِ اشتریتَ بالدِّراهمِ، فتكونُ تسعةً. فأنت ترى كيفَ خرجَ لك الجوابُ المضمرُّ بسِرِّ التَّناسُبِ الَّذِي بينَ أعدادِ المسألةِ، والوهمِ - أوَّلُ ما يُلقَى إليك هذه وأمثالها - إنما يجعلُهُ من قبيلِ الغيبِ الَّذِي لا يُمكنُ معرفتُهُ، وظهرَ أنَّ التَّناسُبَ بينَ الأمورِ هو الَّذِي يُخرجُ مجهولها من معلومها، وهذا إنما هو في الواقعاتِ الحاصلةِ في الوجودِ أو العلمِ.

وأما الكائناتُ المستقبليةُ إذا لم تُعلم أسبابُ وقوعها، ولا يثبتُ لا خبرٌ صادقٌ عنها فهو غيبٌ لا يُمكنُ معرفتُهُ.

وإذا تبينَ لك ذلك فالأعمالُ الواقعةُ في الزَّايِرَةِ كُلِّها، إنما هي في استخراجِ الجوابِ من أَلْفاظِ السُّؤالِ؛ لأنَّها كما رأيتَ استنباطُ حروفٍ على ترتيبٍ من تلك الحروفِ بعينها على ترتيبٍ آخرَ. وسرُّ ذلك إنما هو من تناسُبِ بينهما يطلُعُ عليه بعضٌ دون بعضٍ، فمن عرف ذلك التَّناسُبَ تيسَّرَ عليه استخراجُ ذلك الجوابِ بتلك القوانينِ، والجوابُ يدلُّ في مقامٍ آخرَ من حيثُ موضوعُ ألفاظِهِ وتراكيبِهِ على وقوعِ أحدِ طرفي السُّؤالِ من نفي أو إثباتٍ، وليس هذا من المقامِ الأوَّلِ بل إنما يرجعُ لمطابقةِ الكلامِ لما في الخارجِ، ولا سبيلَ إلى معرفة ذلك من هذه الأعمالِ، بل البشرُ محجوبون عنه، وقد استأثرَ اللهُ بعلمِهِ ﴿والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢٣٢، آل عمران: ٦٦]. [ظ ٢/٤٩].

## العمران البدوي

- ١- أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها.  
الضروري من المعاش سابق على الكمالي.  
الزراعة والرعي من أجل الضروري، وتلزمهما المعيشة في البادية.  
البحث عن الكمالي يؤدي إلى نشأة المجتمع الحضري.  
نشاطات المجتمع الحضري...
- ٢- جيل العرب [أي الذين تعربوا فسكنوا البادية] في الحلقة طبيعي.  
أقسامهم: الزراعة..  
الرعاة: الشاوية (رعاة الشاء والبقر).  
رعاة الإبل.  
بعض صفات كل قسم.
- ٣- البدو أقدم من الحضر وسابق عليه.  
البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها.  
تفاوت البدو في تعاملهم مع الحضارة.
- ٤- أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر.  
الفطرة..  
تفصيل معنى النهي عن التعرب بعد الهجرة (مذمة البدو).
- ٥- أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر.  
الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه.  
اعتمادهم على أنفسهم في الدفاع والحماية بخلاف أهل الحضر.
- ٦- معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنفعة منهم.  
ضرورة الحكام وأثرهم على صفات الخير.  
العقاب مذهب للبأس.  
الفرق بين العقاب والتأديب والتعليم، وأثر ذلك على الخلق.  
الوازع الداخلي أبقى للملكات في النفس.  
تحول الشرع - بنقص الدين في الناس - إلى علم وصناعة.

آداب المؤدين.

الفرق بين الوحي والتعليم.

٧- سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية.

الشر أقرب الخلال إلى النفس إذا لم يهذه الاقتداء بالدين.

دفع العدوان في المدن بالحكام، وفي البدو الكبراء فيما شجر بينهم، وفتيان

الحي في العدوان الخارجي.

لايتوهم العدوان على أحد مع وجود العصبية له.

صفات المتفردين في أنسابهم:

لا تصيب منهم النعمة على صاحبه.

التخاذل في الحرب، والهرب في الظلام.

لايسكنون القفر.

الاستعصاء في طباع البشر يستوجب القتال لحمل الناس على النبوة أو

الملك أو الدعوة.

٨- تكون العصبية من الالتحام بالنسب أو الولاء والحلف.

كلما قرب النسب اشتد التناصر، وبالعكس.

متى يكون النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر؟

٩- يوجد الصريح من النسب للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم.

١٠- كيفية وقوع الاختلاط في الأنساب؟

١١- بقاء الرئاسة في نصاب مخصوص من أهل العصبية.

١٢- لا تكون الرئاسة على أهل العصبية في غير نسبهم.

أمثلة عن بعض مدعي النسب.

١٣- الحقيقة والمجاز في البيت والشرف:

أهل العصبية أصلاء في ذلك.

غير أهل العصبية بالتبعية لغيره.

الشرف والحسب بالخلال.

معنى البيت.

ثمرة الأنساب.

الحسب في أهل الأمصار مجازي:

معناه.

عدم انتباههم لسر العصبية.

أمثلة من بيوتات العرب وبني إسرائيل.

الرد على ما فهمه من ابن رشد في كتاب الخطابة من معنى الحسب.

١٤- شرف الموالي والمصطنعين بمواليهم لا بأنسابهم.

البرامكة وغيرهم في الدولة العباسية.

١٥- نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء:

١- الباني: المجتهد.

٢- ابن الباني: سمع منه وأخذ عنه (المتابع).

٣- حفيده: (مقلد).

٤- الرابع: (المفرط) الذي اعتبر الأمر حقاً بالانتساب لا بشيء آخر، فيثير

حفيظة من يعتمد عليه من عشيرته.

البرهان على حدوث الحسب وشبهه بالعناصر.

سبق العدم على كل الحوادث ومنها الحسب.

اشتراط الأربعة غالبي.

الدلالة على ذلك من الحديث الشريف، والتوراة، وأخبار العرب.

١٦- الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها.

١٧- الغاية التي تجري إليها العصبية الملك.

الفرق بين الرئاسة والملك.

١٨- عوائق الملك: حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم.

على قدر الترف يكون الفناء.

١٩- عوائق الملك: حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم.

المغارم والضرائب.

الحراثة والزراعة.

أمثلة: بنو إسرائيل. وضرورة التيه لتخليص الجيل من التبعية والذل.  
قبيلة زناتة ونفي الشاوية عنهم.

ملك الباب وحواره مع عبد الرحمن بن ربيعة.

٢٠- علامات الملك: التنافس في الخلال الحميدة.

الملك خاصة إنسانية.

الشر من القوى الحيوانية التي في الإنسان.

المجد: أصله وجذره: العصبية والعشير.

فرعه ومتممه: الخلال.

خلال الكمال: إكرام العلماء والصالحين.

إكرام الأشراف وأهل الأحساب.

إكرام أصناف التجار والغرباء.

إنزال الناس منازلهم.

علامات سلب الملك: ارتكاب المذمومات.

انتحال الرذائل.

سلوك طرقها.

أول شيء يدل على ذهاب الملك: عدم إكرام الأصناف التي ذكرت في خلال الكمال.

٢١- الأمة الوحشية ملكها أوسع.

٢٢- ذهاب الملك عن بعض الشعوب من أمة ينتقل إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية..

٢٣- المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في سائر أحواله.

سبب ذلك: ظنهم أن قوته من شاراته وعوائده وليس من العصبية.

التشبه بعوائد قوم من علائم الاستيلاء.

العامّة على دين الملك.

٢٤- علامة فناء الأمة: غلبة العدو لها ودخولها في ملك غيرها.

- أسباب ذلك: التكاثر والتراخي بملك غيرها لها.  
قصر الأمل.  
ضعف القوى الحيوانية.  
ضعف التناسل.  
فقد الحوافز على النمو والتزايد.  
ملاحظة ذلك في : الحيوانات المفترسة.  
أمة الفرس.  
سبب قبول بعض الأقوام للرق: نقص الإنسانية.  
الأمل في حصول عز لاحق.
- ٢٥- العرب: لا يتغلبون إلا على البسائط.  
سبب ذلك.
- ٢٦- العرب: سرعة الخراب إلى الأوطان التي تغلبوا عليها.  
أسباب ذلك.
- ٢٧- العرب: لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية.  
سبب ذلك.
- سبب سرعة قبولهم للدين.
- ٢٨- العرب: أبعد الأمم عن سياسة الملك.  
كيفية و ضوابط وعيهم لسياسة الملك.
- ٢٩- تابعة أهل البوادي لأهل الأمصار.  
حاجتهم للضروريات: المصنوعة.  
للقود في البيع والشراء.  
جزئية هذه التابعة.



بسم الله الرحمن الرحيم  
 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم  
 ١-٢- الفصل الثاني من الكتاب الأول  
 في العمران البدوي، والأمم الوحشية والقبائل  
 وما يعرض في ذلك من الأحوال.  
 وفيه فصول وتمهيدات:

### ١-٢-١- الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبعية

إِغْلَمَ: أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ، إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نَحْلَتِهِمْ<sup>(١)</sup> مِنَ الْمَعَاشِ، فَإِنْ اجْتَمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالْإِبْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَبَسِيْطٌ<sup>(٢)</sup> قَبْلَ الْحَاجِي<sup>(٣)</sup> وَالْكَمَالِي.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفَلْحَ<sup>(٤)</sup> مِنَ الْغَرَاةِ وَالزَّرَاعَةِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّحْلِ وَالذُّودِ لِتَنَاجُهَا، وَاسْتِخْرَاجِ فَضْلَاتِهَا. وَهَؤُلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفَلْحِ وَالْحَيَوَانِ، تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ - وَلَا بُدَّ - إِلَى الْبَدْوِ<sup>(٥)</sup> لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْحَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ<sup>(٦)</sup> وَالْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَؤُلَاءِ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ؛ وَكَانَ حِينَئِذٍ اجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمُرَانَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْكُنْ<sup>(٧)</sup> وَالْدَّفءِ إِنَّمَا هُوَ بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ، وَيُحْصِلُ بُلْغَةَ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ.

١ - النحلة: العطية والهبة، والمذهب..

٢ - في ن: نشيط.

٣ - أي: غير الأساسي والضروري.

٤ - أي: فلاحه الأرض.

٥ - أي سكنى البادية، والإقامة فيها.

٦ - جمع فدان. والمراد به هنا: آلة الحرث.

٧ - الكن: وقاء كل شيء وسره.

ثُمَّ إِذَا اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَحِّلِينَ لِلْمَعَاشِ، وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى وَالرَّفَةِ، دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السُّكُونِ وَالِدَّعَةِ، وَتَعَاوَنُوا فِي الزَّائِدِ عَلَى الضَّرُورَةِ، وَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّنَاقُ فِيهَا، وَتَوَسَّعَ الْبُيُوتِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ. ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ الرَّفَةِ وَالِدَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ مِبَالِغَهَا فِي التَّنَاقُ فِي عِلَاجِ الْقُوَّةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَابِخِ، وَانْتِقَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ فِي أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَالذِّيَّاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُوحِ، وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا فِي تَنْجِيدِهَا<sup>(١)</sup>، وَالانْتِهَاءِ فِي الصَّنَائِعِ<sup>(٢)</sup> فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ - إِلَى غَايَتِهَا، فَيَتَخَذُونَ الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَيَجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاءَ، وَيُعَالُونَ فِي صَرْحِهَا، وَيُبَالِغُونَ فِي تَنْجِيدِهَا، وَيَخْتَلِقُونَ<sup>(٣)</sup> فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَخَذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فَرَّاشٍ أَوْ آتِيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ: الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ، وَالْبُلْدَانِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَحَلَّلُ [ظ. ١/٥٠] فِي مَعَاشِهِ الصَّنَائِعِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَحَلَّلُ التِّجَارَةَ، وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى<sup>(٤)</sup> وَأَرْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ<sup>(٥)</sup>، لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ، وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وُجْدِهِمْ<sup>(٦)</sup>. فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا<sup>(٧)</sup> كَمَا قُلْنَا.

١ - أي تزيينها وفرشها.

٢ - جمع صناعة، وهي الحرف والمهن.

٣ - أي: يتكرون. وفي ن: يختلفون. ولكل وجه.

٤ - أي: أوفر وأكثر.

٥ - أي سكان البادية.

٦ - الوجه: اليسار والسعة.

٧ - قال الدكتور الياباني في تمهيد في علم الاجتماع (ص ١٠٥ - ١٠٦): أن ابن خلدون يرى شكلين للمجتمع البشري يمر بهما في تطوره، وهما البدو والحضر ويجدهما طبيعيين ولكنهما مختلفان في أوصاف أجيالهما النفسية، والبدو بصورة عامة أقرب إلى الشجاعة والتضامن والعصبية والخلال الحميدة وأسرع إلى التغلب، والحضر أقرب إلى الرفاهية والتأنق وأبعد عن تلك الخلائق المحمودة. ولا يخفى أن أحد ممثلي المدرسة الاجتماعية الشكلية الألمانية وهو تونيز ... يذهب هذا النحو في استخلاص شكلين للمجتمع وهما على حد تعبيره العشير والمجتمع. وتختلف العلائق الاجتماعية فيهما إذ يستند الشكل الأول إلى التضامن العفوي والتعاطف وإلى القربى والأسرة والقبيلة وأمثال ذلك. ويستند الشكل الثاني الذي يأتي بعده في التطور إلى الإرادة الواعية الطليقة والتعاقد الحر والمصالح الشخصية وهكذا. ولا يخفى ما بين المؤلفين من شبه في نزعة البحث.

## ١-٢-٢- الفصل الثاني في أن جيل العرب<sup>(١)</sup> في الخلقة طبعي<sup>(٢)</sup>

قد قدّمنا في الفصل قبله أن أهل البدو، هم المنتحلون للمعاش الطبعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي، يتخذون

١ - لم تستطع معاجم اللغة الجزم بمعنى محدد لهذه الكلمة، ومن يعود إلى الآرامية يجدها تعبر عن الماء . والذي يجب الرجوع إليه هو محاولة اكتشاف حقيقة هذه الكلمة والانتباه إلى معانيها القرآنية.. علماً أنها لم ترد كنسبة إلى قوم، ومن نسب إلى قوم سمي أعرابياً.. والذي في القرآن الكريم: ﴿قَرَأْنَا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] و ﴿لِسَانُ عَرَبِيٍّ﴾ [النحل: ١٠٣] و ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]. وإذا عرفنا أن السماء السابعة تسمى عروباء ونساء أهل الجنة يُسمَّينَ عُرْبًا، ويوم الجمعة يوم العروبة.. وبإعادة الكلمة إلى جذرها الثنائي نجد أن هذه الكلمة تشير إلى الارتباط بالرب ﷻ، كما أن كلمة عجم منسوبة إلى (الجسم) وهو الكثرة ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. فالعربي: من كان منسوباً إلى الرب الواحد ﷻ ولو كان في إفريقيا، ولذلك قيل: (صمغ عربي) لعدم تدخل البشر في صنعه، وحصان عربي... ومن لم يكن مع الله سبحانه اعتبر أعجمياً ولو كان قرشياً.. ولذلك نسبت الجزيرة إلى العربية لما فيها من عباد الله وبيوت الله ﷻ.

يصعب على الباحث في معاجم البيان العربي إعطاء تحديد دقيق لكلمة عرب، ذلك أنهم يتحدثون عن تظهر الكلمة عبر مجموعة من الاستعمالات، بعيداً عن جوهر الكلمة ولها، الذي أعطاها ذاك الرونق، وصبغ بها المنتسبين إليها. ولذلك تجد:

— التخطيط في أولية الانتساب، وربما يكون بعضه مختلفاً.

— الانحراف في تفسير بعض الكلمات المرتبطة بهذا الجذر.

— تجاوز بعض المعاجم الحديثة المعاني الحسنة، وإبراز نقيضها.

لاحظ بعض العلماء أن العروبة كلمة ذات دلالة قديمة سبقت أسماع من أطلق عليهم لفظ العرب، حتى ظن أن الكلمة من غير لسانهم. قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: وفي حديث الجمعة: (كانت تُسمَّى عَرُوبَةً). هو اسم قديم لها، وكأنه ليس بعربي. يقال: يَوْمٌ عَرُوبَةٌ، ويَوْمٌ الْعَرُوبَةُ. والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام. وعروباء: اسم السماء السابعة. وما إطلاق هذا الاسم على السماء السابعة من قبيل إلقاء الكلام على عواهنه، وإنما هي إشارة إلى الحقيقة المرتبطة بالسماء. ومنها كان وصف نساء الجنة بالعُرب.

٢ - أي أن نمط الحياة الخاص بالعرب ومن في معناهم، مرحلة طبيعية في سلم التطور البشري، لأنه أسلوب في العيش والحياة تفرضه عليهم الظروف الطبيعية والمعيشية لمناطق سكانهم. (العصبية والدولة: ٤٤٢).

البيوت من الشَّعر والوبرِ أو الشَّجر، أو من الطَّين والحجارة غير مُنَجَّدة، إمَّا هو قصدُ الاستظلال والكن، لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران<sup>(١)</sup>، والكُهوف. وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاجٍ أو بغير علاج ألبتة إلا ما مسَّته النَّار. فمن كان معاشه منهم في الزَّراعة والقيام بالفَلح، كان المقام به أولى من الطَّعن، وهؤلاء سُكَّانُ المَدَرِ والقرى والجبال، وهم عامَّةُ البربر والأعاجم.

ومن كان معاشه في السَّائمة مثل الغنم والبقر فهم طعنٌ في الأغلب لارتِياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالْتَقَلَبُ في الأرضِ أصلحُ بهم، ويُسمَّون شَاوِيَةً. ومعناه: القائمون على الشَّاءِ والبقر، ولا يبعدون في القفر لِفَقْدَانِ المسارح الطَّيِّبة، وهؤلاء مثل البربر والتُّرك وإخوانهم من التُّركمان والصَّقَّالَةِ.

وأما من كان معاشهم في الإبل، فهم أكثرُ ظعنًا، وأبعدُ في القفر مجالاً، لأنَّ مسارح التَّلُولِ ونَبَاتِهَا وشَجَرِهَا لا يستغني بها الإبل في قوام حَيَاتِهَا عن مراعي الشَّجر بالقفر وورود مياهه الملحة، والتَّلَقُّبُ فصل الشَّاءِ في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه، وطلباً لما خض<sup>(٢)</sup> النَّتَاجُ في رَمَالِهِ، إذ الإبل أصعبُ الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدَّفءِ، فاضطُّروا إلى إبعاد النَّجْعَةِ<sup>(٣)</sup>، وربَّما ذادتهم الحامية عن التَّلُولِ أيضاً، فأوغلوا في القفار بُفَرَةً عن الضَّعة منهم، فكانوا لذلك أشدَّ النَّاسِ تَوَحُّشاً. ويتزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم. وهؤلاء هم العرب، وفي معناتهم ظُفُونُ البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتُّركمان والتُّرك بالمشرق. إلا أنَّ العرب أبعدُ نُجْعَةٍ<sup>(٤)</sup>، وأشدُّ بداءةً، لأنَّهم محتصُّون بالقيام على الإبل فقط. وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشَّيَاهِ والبقر معها، فقد تبين لك أنَّ جيل العرب طبعيٌّ، لا بُدَّ منه في العمران. والله الخلاق العليم<sup>(٥)</sup>. [٢/٥٠].

١ - جمع غار.

٢ - يريد كثير الولادة والنسل وجيدها.

٣ - أي: الذهاب في طلب الكلأ والمرعى.

٤ - أي أكثر تنقلاً وتوغلاً في الصحراء. (العصبية والدولة: ٤٤٥).

٥ - في المطبوع: والله سبحانه وتعالى أعلم. والمثبت من ظ.

## ١-٢-٣- الفصل الثالث

في أن البدوة أقدم من الحضَر وسابق عليه،  
وأنَّ البادية أصلُ العمران، والأمصار مدد لها

قد ذكرنا أنَّ البدو هم المقتصرون على الضَّروريِّ<sup>(١)</sup> في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأنَّ الحضَرَ المعتنون بحاجات التَّرفِ والكمال في أحوالهم وعوائدهم<sup>(٢)</sup>، ولا شكَّ أنَّ الضَّروريَّ أقدم من الحاجي<sup>(٣)</sup> والكمالي<sup>(٤)</sup> وسابق عليه، ولأنَّ الضَّروريَّ أصلُ والكمالي فرغ ناشئ عنه، فالبدو أصلُ للمدُن والحضَر وسابق عليهما؛ لأنَّ أولَ مطالب الإنسان الضَّروريُّ، ولا ينتهي إلى الكمال والتَّرفِ، إلا إذا كان الضَّروريَّ حاصلاً. فخشونة البدوة<sup>(٥)</sup> قبل رقة الحضارة. ولهذا نجد التمدُّن غايةً للبدويِّ يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مُقْتَرَحِهِ منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصلُ له به أحوالُ التَّرفِ وعوائده عاج إلى الدَّعة، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة، وهكذا شأنُ القبائل المتبدية كلَّهم. والحضريُّ لا يتشوّف إلى أحوال البادية، إلا لِضَرورة تدعوه إليها، أو لتقصيرٍ عن أحوال أهل مدينته.

ومما يشهد لنا أن البدو أصلُ للحضَر ومُتَقَدِّم عليه أننا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أوليَّة أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المِصر وفي قراه، وأنهم أيسرُوا فسكنوا المِصرَ، وعدلوا إلى الدَّعة والتَّرفِ الذي في الحضَر. وذلك يدلُّ على أنَّ أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البدوة، وأنها أصلُ لها فتفهَّمه.

ثمَّ إنَّ كلَّ واحدٍ من البدو والحضَر متفاوتُ الأحوال من جنسِهِ، فَرُبَّ حيٍّ أعظم من حيٍّ، وقبيلة أعظم من قبيلة؛ ومِصرٌ أوسع من مِصرٍ، ومدينة أكثر عُمراناً من مدينة. فقد تبيَّن أنَّ وجودَ البدو مُتَقَدِّم على وجودِ المدُن والأمصار وأصلُ لها، كما<sup>(٦)</sup> أنَّ وجودَ المدُن والأمصار من عوائد التَّرفِ والدَّعة، التي هي متأخرة عن عوائد الضَّرورة المعاشية. والله أعلم.

١ - أي ما لا بد منه لقوام حياتهم. (البساطة).

٢ - جمع عادة، وهي الأفعال التي ترسخ نتيجة لتكرارها.

٣ - الحاجي: ما يحتاجون إليه في شؤون معاشهم، مما يمكن الاستغناء عنه. (الوسط).

٤ - الكمالي: المكمل للحاجي، مما لا يسبب فقده ضرراً. (الرفه).

٥ - أي الحياة المعاشة لأهل الصحراء، وما فيها ظروف حياتية خاصة، تطبع الإنسان بطابعها.

٦ - في الأصل: بما.

## ١-٢-٤- الفصل الرابع

في أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ  
وَسَبَبُهُ: أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا  
وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ،  
فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَةٍ أَوْ يَمَجَّسَانِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَبَقَدَّرَ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخَلْقَيْنِ تَبَعْدُ عَنِ الْآخَرِ، وَيَصْنَعُ عَلَيْهَا كِتْسَابُهُ.  
فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ الْخَيْرِ، وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ،  
وَصَعِبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ. وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ، إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضاً عَوَائِدُهُ.

وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ الْمَلَاذِّ وَعَوَائِدِ التَّرَفِّ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا  
وَالْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا، قَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ وَالشَّرِّ،  
وَبُعِدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدَرِ [١/٥١] مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ<sup>(٢)</sup> ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ  
ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ، فَتَجَدُّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْذِعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفَحْشَاءِ  
فِي مَجَالِسِهِمْ، وَبَيْنَ كِبَرَاتِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ الْحِشْمَةِ لَمَّا أَخَذَتْهُمْ بِهِ  
عَوَائِدُ السُّوءِ فِي التَّظَاهَرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا.

وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِي  
التَّرَفِّ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَدَوَاعِيهَا.

فَعَوَائِدُهُمْ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا؛ وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ  
الْخَلْقِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقْلُ بِكَثِيرٍ. فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى، وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ  
فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْتَهْلُ عِلَاجَهُمْ عَنْ عِلَاجِ  
الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ نَهَايَةُ الْعُمُرَانِ وَخُرُوجُهُ إِلَى الْفَسَادِ، وَنَهَايَةُ الشَّرِّ  
وَالْبُعْدُ عَنِ الْخَيْرِ.

١ - أخرجه البخاري (١٢٩٢) و(١٢٩٣) و(٤٤٩٧) و(٦٢٢٦) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة بنحوه.

٢ - ليس في ظ: من.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦. والتوبة: ٤ و ٧]. وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(١)</sup> مِنْ قَوْلِ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ، فَقَالَ لَهُ: ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِيْبِكَ؟ تَعَرَّبْتَ!! فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْهَجْرَةَ افْتَرَضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ، عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيُجْرِسُونَهُ، وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظَاهَرَةِ<sup>(٢)</sup> وَالْجَرَّاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ.

وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ، حَيْثُ لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرْضَاهُ بِمَكَّةَ: «اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»<sup>(٣)</sup>. وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَوْفَقَهُمْ لِمُلَازِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهَا، فَلَا يَرْجِعُوا عَنْ هِجْرَتِهِمُ الَّتِي ابْتَدَؤُوا بِهَا، وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقَبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ لِقَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَزَلُوا وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعَصْمَةِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ الْهَجْرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»<sup>(٤)</sup>.

وَقِيلَ: سَقَطَ إِنْشَاؤها عَمَّنْ يُسَلِّمُ بَعْدَ الْفَتْحِ.

وَقِيلَ: سَقَطَ وَجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ.

وَالْكُلُّ مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ<sup>(٥)</sup> سَاقِطَةٌ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمئِذٍ فِي الْآفَاقِ [ظ ٢/٥١]، وَانْتَشَرُوا، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ، وَهُوَ هَجْرَةُ.

١ - أخرجه البخاري (٨٠٨٧) وهو أيضاً في أحمد (٤٧/٤ و ٥٤) ومسلم (٢٧/٦) والنسائي (١٥١/٧).

٢ - أي الولاء المنتج للنفوذ المشترك.

٣ - أخرجه البخاري (١٢٣٣) و(٤١٤٧) و(٦٠١٢) ومسلم (١٦٢٨).

٤ - أخرجه البخاري (١٥١٠) و(١٧٣٧) و(٢٦٣١) و(٢٦٧٠) و(٢٩١٢) و(٣٠١٧) ومسلم (١٣٥٣).

من حديث ابن عباس.

٥ - أي: بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

فقول الحجاج لِسَلْمَةَ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ: ارتددت على عَقِيكَ!! تَعَرَّبْتَ!! نعي عليه في تركِ السُّكْنَى بالمدينة، بالإشارة إلى الدُّعَاءِ المأثور الذي قَدَمْنَاهُ وهو قوله: «لَا تَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ».

وقوله: تَعَرَّبْتَ؟ إشارة إلى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يَهَاجِرُونَ، وَأَجَابَ سَلْمَةُ بِإِنْكَارِ مَا أَلْزَمَهُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خَزِيمَةَ<sup>(١)</sup>، وَعِنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ<sup>(٢)</sup>. وَيَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ. لَعَلَّمَهُ بِسُقُوطِ الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ، وَأَجَابَهُ سَلْمَةُ بِأَنَّهُ اغْتَنَامُهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَفْضَلُ؛ فَمَا آثَرُهُ بِهِ وَاخْتَصَّهُ إِلَّا لِمَعْنَى عِلْمِهِ فِيهِ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ؛ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهَجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ لَا لِمَذْمَةِ الْبَدْوِ؛ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى<sup>(٣)</sup> تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ<sup>(٤)</sup> دَلِيلٌ عَلَى مَذْمَةِ التَّعَرُّبِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

١ - هو خزيمة بن ثابت المعروف بذِي الشَّهَادَتَيْنِ لِأَن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَازَ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ. انظر ذلك في سنن أبي داود (٣٦٠٧).

٢ - أخرج البخاري (٩٨٣) عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بعد الصلاة فقال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم». فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلت وأكلت وأطعمت أهلي وجيرانني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك شاة لحم». قال: فإن عندي عناق جذعة هي خير من شاتي لحم فهل تجزي عني؟ قال: «نعم، ولن تجزي عن أحدٍ بعدك».

٣ - في ن: عليه.

٤ - في ن: الواجب بالتعرب.



## ١-٢-٥- الفصل الخامس

في أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الشَّجَاعَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مَهَادِ الرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ، وَانْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ، وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ، وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ، وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ، وَاسْتَتَمُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ، وَالْحِرْزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةً<sup>(١)</sup>، وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ، فَهَمُّ غَارُونَ آمِنُونَ، قَدْ أَلْقَوْا السَّلَاحَ، وَتَوَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْيَالُ، وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقًا يَنْتَزِلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ.

وَأَهْلُ الْبَدْوِ: لِيَتَفَرَّدَهُمْ عَنِ الْجَمْعِ، وَتَوَحُّشَهُمْ<sup>(٢)</sup> فِي الضَّوْاحِي، وَبُعْدَهُمْ عَنِ الْحَامِيَةِ، وَانْتِبَازِهِمْ<sup>(٣)</sup> عَنِ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْوَابِ، قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكُونُهَا إِلَى سِوَاهُمْ، وَلَا يَتَّقُونَ فِيهَا بَغِيرَهُمْ. فَهَمُّ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السَّلَاحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرْقِ، وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ الْمُجُوعِ إِلَّا غَرَارًا فِي الْمَجَالِسِ، وَعَلَى الرَّحَالِ، وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ، وَيَتَوَجَّسُّونَ لِلنَّبَاتِ<sup>(٤)</sup> وَالْهَيْعَاتِ، وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مُدْلِينَ بِبِأْسِهِمْ، وَاثْقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبِأْسُ خُلُقًا وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ.

وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ، وَذَلِكَ مُشَاهِدٌ بِالْعَيَانِ، حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ السُّبُلِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ.

وَأَصْلُهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنَ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ، لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ، فَالَّذِي أَلْفَهُ [ظ ١/٥٢] مِنْ<sup>(٥)</sup> الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمِلَكَةً وَعَادَةً، تَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْجِبَلَةِ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ تَجَدُّهُ كَثِيرًا صَحِيحًا. ﴿وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

١ - هو الصوت المفزع ونداء الاستغاثة من شر.

٢ - توحش: ذهب عنه الناس، فكأنه أصبح طرفاً معزولاً، لذلك قالوا في تفسير الوحشي: الجانب الأيمن أو الأيسر، ومقابل ذلك الإنسي: وهو ما أقبل عليك. وليس فيما ذكره المصنف ما يوحي بالنقص أو الضعة. وإن كان سيذكر من صفاتهم الجانب الحسن والجانب السيئ.

٣ - أي: بعدهم عنها وتحررهم منها.

٤ - جمع نبأة وهي: ما تفزع له الطيور من صوت أو حركة.

٥ - في المطبوع: في.

## ١-٢-٦- الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم،

ذاهبة بالمنفعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه، إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم، فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره<sup>(١)</sup> ولا بُدَّ، فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يُعاني منها حكم، ولا منع وصد، كان الناس من تحت يديها مُدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، وإثمين بعدم الوازع حتى صار لهم الإدلال جبلة، لا يعرفون سواها.

وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حيثن من سورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبئنه. وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية<sup>(٢)</sup> سلب<sup>(٣)</sup> الجالينوس، وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب، وكان اتبع الجالينوس يوم القادسية فقتله، وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد، وقال له: «هلاً انتظرت في اتباعه إذني؟». وكتب إلى عمر يستأذنه، فكتب إليه عمر: «تعمد إلى مثل زهرة، وقد صلي بما صلي به، وبقي عليك ما بقي من حربك، وتكسر فوقه<sup>(٤)</sup> وتفسد قلبه؟!». وأمضى له عمر سلبه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكليّة. لأن وقوع العقاب به — ولم يدافع عن نفسه — يُكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك.

وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا، أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباهه على المخافة والانقياد، فلا يكون مُدلاً ببأسه؛ ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشدّ بأساً ممن تأخذ الأحكام.

ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع<sup>(٥)</sup> والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً، ولا يكادون يدفعون عن

١ - أي تحت حكمه وتصرفه.

٢ - في النسخ: ابن حوبة. خطأ، وانظر ترجمته في توضيح المشتبه (٢/٥٠٩، ٤/٣١١).

٣ - ما يسلبه المحارب من عدوه حين يصصره.

٤ - فوق السهم: موضع الوتر منه، والمراد هنا: تنشيط الهمة.

٥ - جمع صناعة، وهي الحرفة.

أنفسهم عاديةً بوجهٍ من الوجوه. وهذا شأنُ طلبةِ العلمِ المُتَحَلِّينَ للقراءةِ والأخذِ عنِ المَشَايخِ والأئمةِ الممارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ والتَّأْدِيبِ في مجالسِ الوقارِ والهيبةِ؛ فيهم هذه الأحوالُ، وذهابها بالمنعةِ والبأسِ.

ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصَّحَابَةِ من أخذهم بأحكامِ الدِّينِ والشَّريعةِ ولم يَنْقُصْ ذلك من بأسهم، بل كانوا أشدَّ النَّاسِ بأساً؛ لأنَّ الشَّارِعَ صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كانَ وازعُهُم فيه من أنفُسِهِم لما تُلي عليهم من التَّروغيبِ والتَّرهيبِ، ولم يكن بتعليمِ صناعيِّ ولا تأديبِ تَعْلِيمِيٍّ، إنما هي أحكامُ الدِّينِ وآدِبُهُ المُتَلَقَّاءُ نقلاً، يأخذون أنفُسَهُم بها بما رَسَخَ فيهم<sup>(١)</sup> من عَقَائِدِ الإيمانِ [ظ ٥٢/٢] والتَّصَدِيقِ، فلم تزل سَوْرَةُ بأسهم مُسْتَحْكَمَةً كما كانت، ولم تخدشها أظفارُ التَّأْدِيبِ والحُكْمِ.

قال عمر رضي الله عنه: «مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ الشَّرْعُ لَا أَدَبُهُ اللهُ». حرصاً على أن يكون الوازع لكلِّ أحدٍ من نفسه، وبقيناً بأنَّ الشَّارِعَ أعلم بمصالحِ العبادِ.

ولما تَنَقَّصَ الدِّينُ في النَّاسِ، وأخذوا بالأحكامِ الوازعةِ، ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ علماً وصناعةً يؤخذُ بالتَّعليمِ والتَّأْدِيبِ، ورجع النَّاسُ إلى الحَضَارَةِ وَخُلِقَ الانقيادُ إلى الأحكامِ نَقَصَتْ بذلك سَوْرَةُ البأسِ فيهم.

فقد تَبَيَّنَ أَنَّ الأحكامَ السُّلْطَانِيَّةَ والتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَاسِ، لأنَّ الوازعَ فيها أجنبيٌّ، وأما الشرعيةُ فغيرُ مفسدةٍ لأنَّ الوازعَ فيها ذاتيٌّ. ولهذا كانت هذه الأحكامُ السُّلْطَانِيَّةُ والتَّعْلِيمِيَّةُ ممَّا تُؤَثِّرُ في أهلِ الحَوَاضِرِ، في ضعفِ نفوسهم وَخَضْدِ<sup>(٢)</sup> الشُّوْكَةِ منهم بِمُعَانَاتِهِمْ فِي وَلَيْدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ.

والبُدُوْءُ بمَعَزَلٍ من هذه المنزلةِ لبعدهم عن السُّلْطَانِ والتَّعليمِ والآدابِ. ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ، نَقْلُهُ عَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي. واحتجَّ لَهُ ببعضُ ما وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدِءِ الْوَحْيِ<sup>(٣)</sup> مِنْ شَأْنِ الْغَطِّ، وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَلَا يَصْلَحُ شَأْنُ الْغَطِّ، أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لبعدهِ عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارَفِ. وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

١ - في ظ: فيه.

٢ - أي: كسرهما. وهو كناية عن الخضوع والانقياد.

٣ - أخرجه البخاري (٣) من حديث عائشة وقد مر.

## ١-٢-٧- الفصل السابع

فِي أَنَّ سُكْنَى الْبَدْوِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ

اعْلَمْ: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. وَقَالَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]. وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمَلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ، وَلَمْ يُهَذِّبْهُ الْاِقْتِدَاءُ بِالذِّينِ، وَعَلَى ذَلِكَ الْجُمُ الْغَفِيرُ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ.

وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدَاوَانُ<sup>(١)</sup> بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ، فَمِنْ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَنَاعِ أَخِيهِ فَقَدْ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ، إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ<sup>(٢)</sup> [الشاعر]:  
وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدَاوَانُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَّامُ وَالِدُّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ، فَهَمْ مَكْبُوحُونَ بِحُكْمَةِ<sup>(٣)</sup> الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا الْعُدَاوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاحُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغِرَّةِ لَيْلًا أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ نَهَارًا، أَوْ يَدْفَعُهُ زِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدُّوْلَةِ عِنْدَ الْاسْتِعْدَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ.

وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَايِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجَلَّةِ. وَأَمَّا جَلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةِ الْحَيِّ مِنْ أُنْجَادِهِمْ وَفَتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ، وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَزِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلُ [ظ ١/٥٣] نَسَبٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيَخْشَى جَانِبُهُمْ، إِذْ نَعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهْمٌ. وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالتَّعَرُّفِ<sup>(٤)</sup> عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، وَبِهَا<sup>(٥)</sup> يَكُونُ التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ، وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ.

١ - لعل الصواب: عدوان بعضهم على بعض.

٢ - هو المتنبي، ديوانه (٢/٣٦٠).

٣ - الحكمة وزان قصبة: ما أحاط بمخني الفرس من لجامه.

٤ - النعرة والنعارة - بالضم فيهما - والنعير: الصراخ والصياح في حرب أو شر كما في القاموس. وتطلق على الكبير والخيلاء والعصبية، يقال: نعر العرق إذا فار دمه وصوت عند خروجه.

٥ - أي النعرة.

واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحدٍ مع وجود العُصبة له؛ وأمّا المتفرّدون في أنسابهم فقلّ أن تصيب أحداً منهم نعمةٌ على صاحبه، فإذا أظلم الجوّ بالشرّ يوم الحرب تسلّل كلُّ واحدٍ منهم يبغي النّجاة لنفسه خيفةً واستيحاشاً من التّخاذل، فلا يقدّرون من أجل ذلك على سُكنى القفر لما أنهم حينئذٍ طُعمةٌ لمن يلتهمهم من الأممِ سِوَاهُمْ. وإذا تبيّن ذلك في السُّكنى الّتي تحتاجُ للمدافعة والحماية فيمثّلُه يتبيّن لك في كل أمرٍ يُحمّلُ النَّاسُ عليه من نُبوّةٍ أو إقامة ملكٍ أو دعوةٍ، إذ بلوغ الغرض من ذلك كلّهُ إنّما بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء؛ ولا بُدَّ في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفاً، فاتّخذهُ إماماً تقتدي به فيما نورده عليك بعدُ. والله الموفق للصّواب.

## ١-٢-٨- الفصل الثامن

فِي أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْتِحَامِ بِالنَّسَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ، إِلَّا فِي الْأَقْلِ، وَمِنْ صِلَتِهَا النَّعْرَةُ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ، فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً<sup>(١)</sup> مِنْ ظُلْمِ قَرِيْبِهِ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ، وَيُوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَالْمِهَالِكِ نَزْعَةً<sup>(٢)</sup> طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ، مُذْ كَانُوا.

فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جَدًّا بَحِثُ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِلْتِحَامُ، كَانَتْ الْوَصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوَضُوحِهَا؛ وَإِذَا بَعْدَ النَّسَبِ بَعْضُ الشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنَوِّسِي بَعْضُهَا، وَيَقْبَى مِنْهَا شُهْرَةٌ فَتَحْمَلُ عَلَى النَّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْغَضَاضَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مِنْهُ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ<sup>(٣)</sup> وَالْحِلْفُ. إِذْ نَعْرَةٌ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلٍ وَلَائِهِ وَحَلْفِهِ، لِلْأُلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ اهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسَبِهَا بِوَجْهِ مِنْ وَجْهِ النَّسَبِ، وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا. وَمِنْ هُنَا تَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»<sup>(٤)</sup>. بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ، حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَغْنَى عَنْهُ. إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ [ظ ٥٣/٢] لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوَصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ. فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَأَضْحًا حَمَلَ الْنُفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النَّعْرَةِ كَمَا قُلْنَا؛ وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفٌ فِيهِ الْوَهْمُ، وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ، وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ بَجَانًا، وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ الْمُنْهِي عَنْهُ. وَمِنْ هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ، وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ». بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوَضُوحِ، وَصَارَ مِنْ قِبَلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ، وَانْتَفَتِ النَّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصَبِيَّةَ، فَلَا مَنَفْعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ. وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْلَمُ.

١ - أَي ذَلَالًا وَمِهَانَةً.

٢ - أَي مِيلَ.

٣ - الْإِتِّسَابُ إِلَى الْقَوْمِ بِسَبَبٍ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا.

٤ - أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٧٤/٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٨٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ

(٩٨/١٨) مِنْ حَدِيثِ الْعَلَاءِ بْنِ خَارِجَةَ. وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ. انْظُرِ السَّلْسُلَةَ الصَّحِيحَةَ (٢٧٦).

## ١-٢-٩- الفصل التاسع

في أنَّ الصَّرِيحَ مِنَ النَّسَبِ إِنَّمَا يُوْجَدُ لِلْمُتَوَحِّشِينَ

فِي الْقَفْرِ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْ فِي مَعْنَاهُمْ

وذلك لما اختصُّوا به من نكِدِ الْعَيْشِ، وَشَطَفِ الْأَحْوَالِ، وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ، حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ. وَهِيَ لَمَّا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبْلِ وَنَتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا، وَالْإِبْلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرَعِيهَا مِنْ شَجَرَةٍ، وَنَتَاجِهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقْدُمُ، وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشَّطَفِ وَالسَّعْبِ، فَصَارَ لَهُمْ إِلْفًا وَعَادَةً وَرِييت فِيهِ أَجْيَالُهُمْ، حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجَبَلَةً، فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ يُسَآهُمْهُمْ فِي حَالِهِمْ، وَلَا يَأْنَسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ، بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ، وَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ لَمَّا تَرَكَهُ، فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا، وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مُحْفُوظَةٌ صَرِيحَةً.

واعتبر ذلك في مُضَرَ من قريش، وكنانة، وَثَقِيفٍ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَهَذِيلٍ، وَمِنْ جَاوَرِهِمْ مِنْ خُزَاعَةٍ، لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ، وَبَعُدُوا مِنْ أُرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأُذْمِ وَالْحُبُوبِ، كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مُحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ، وَلَا عَرَفَ فِيهَا <sup>(١)</sup> شُوبٌ <sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالتَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ حِمِيرٍ وَكَهْلَانٍ: مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَغَسَّانٍ وَطَيِّبٍ وَقُضَاعَةٍ وَإِيَادٍ، فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ، وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ، فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَيوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ، وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَمَخَالِطَتِهِمْ، وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمَحَافِظَةَ عَلَى النَّسَبِ فِي بَيوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ. قَالَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبْطِ السَّوَادِ، إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرِيَّةٍ كَذَا». هَذَا - إِلَى مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلَ الْأُرْيَافِ - مِنَ الْإِزْدِحَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبِلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيبَةِ، فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ.

١ - فِي ن: فِيهِمْ.

٢ - بِيَاضُ شُوبٍ: تَكَدَّرَ صَفْوُهُ، وَنَسَبُ شُوبٍ: مَخْتَلَطٌ.

وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن، فيقال: جند قَسْرِين، جند دِمَشق، جند العَوَاصِم، وانتقل ذلك إلى الأندلس [ظ ١/٥]، ولم يكن ذلك لا طراح العرب أمر النَّسَب، وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عُرفوا بها، وصارت لهم علامة زائدة على النَّسَب يُمَيِّزُون بها عند أمرائهم، ثم وقع الاختِلَاطُ في الحواضر مع العجم وغيرهم، وفسدت الأنسابُ بالجملة وفُقدت ثمرتها من العَصِيَّة، فَاطْرَحَتْ، ثُمَّ تَلَاَشَتْ الْقَبَائِلُ وَدَثَرَتْ، فَدَثَرَتْ<sup>(١)</sup> الْعَصِيَّةُ بِدُثُورِهَا، وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ، وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.



## ١-٢-١٠- الفصل العاشر

## في اختلاط الأنساب كيف يقع؟

اعْلَمْ: أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضاً مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ، أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجُنَايَةٍ أَصَابَهَا، فَيُدَّعَى بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيَعُدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّعْرَةِ وَالْقَوْدِ<sup>(١)</sup> وَحَمْلِ الدِّيَّاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ؛ وَإِذَا وَجَدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبُ الْأَوَّلُ بِطَوِيلِ الزَّمَانِ، وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ، فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ.

وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ، وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ. وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرَثَمَةَ، لَمَّا وَلَّاهُ عَمْرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ، وَقَالُوا: هُوَ فِينَا لَزِيْقٌ، أَيْ: دَخِيلٌ وَلَصِيْقٌ، وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيراً، فَسَأَلَهُ عَمْرُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ عَرْفَجَةُ: صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي، وَلَحِقْتُ بِهِمْ. وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَيْسَ جَلَدَتَهُمْ، وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّيَّاسَةِ عَلَيْهِمْ، لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ. وَلَوْ غَفِلُوا عَنْ ذَلِكَ، وَامْتَدَّ الزَّمَنُ، لَتَنَوَّسِيَ بِالْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ، فَافْهَمْ، وَاعْتَبِرْ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ.

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنْهَ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

١-٢-١١- الفصل الحادي عشر<sup>(١)</sup>

في أنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَزَالُ فِي نِصَابِهَا الْمَخْصُوصِ مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ

إِغْلَمَ: أَنْ كُلَّ حَيٍّ، أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقِبَالِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ، ففِيهِمْ أَيْضاً مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ، ففِيهِمْ أَيْضاً عَصِيَّاتٌ أُخْرَى لَأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ، هِيَ أَشَدُّ التَّحَاماً مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ، مِثْلَ عَشِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ، أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبِي وَاحِدٍ، لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَبْعَدِينَ، فَهَؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ، وَيُشَارِكُونَ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي النَّسَبِ الْعَامِّ، وَالنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ، وَيُشَارِكُونَ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِي النَّسَبِ الْعَامِّ، وَالنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ، وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ، إِلَّا أَنَّهَا فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ اللَّحْمَةِ، وَالرِّئَاسَةِ فِيهِمْ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ.

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلَبِ، وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصِيَّةً ذَلِكَ النَّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ، لِيَقَعَ الْغَلَبُ مِنْهَا، وَتَتِمَّ الرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا. فَإِذَا وَجَبَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ الْغَلَبِ عَلَيْهِمْ، إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي الْغَلَبِ، لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرِّئَاسَةُ، فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ إِلَى فَرْعٍ، وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لَمَّا قُلْنَا مِنْ سِرِّ الْغَلَبِ.

لَأَنَّ الْجَمَاعَ وَالْعَصِيَّةَ بِمِثَابَةِ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ. وَالْمِزَاجُ فِي الْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْلَحُ إِذَا تَكَافَأَتِ الْعُنَاصِرُ، فَلَا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا، وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكْوِينُ. فَهَذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغَلَبِ فِي الْعَصِيَّةِ. وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَارُ الرِّئَاسَةِ فِي النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ.

## ١-٢-١٢- الفصل الثاني عشر

في أَنَّ الرُّئاسةَ على أَهلِ العَصِيَّةِ لا تكونُ في غيرِ نَسَبِهِمْ  
وذلك أَنَّ الرُّئاسةَ لا تكونُ إِلَّا بِالْغَلَبِ، وَالْغَلَبُ إِنَّمَا يكونُ بالعَصِيَّةِ كما قدَّمناه، فلا  
بُدَّ في الرُّئاسةِ على القومِ، أَن تكونَ من عَصِيَّةٍ غالبةٍ لِعَصِيَّاتِهِمْ واحدةً واحدةً؛ لأنَّ كُلَّ  
عَصِيَّةٍ منهم إذا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصِيَّةِ الرَّئيسِ لَهُمْ، أَقروا بالإذعانِ والاتباعِ، والسَّاقطُ في  
نَسَبِهِمْ بالجملةِ لا تكونُ له عَصِيَّةٌ فيهِمْ بالنَّسَبِ، إِنما هو مُلصَقٌ لَزِيْقٍ، وغايةُ التَّعَصُّبِ له  
بالولاءِ والحلفِ، وذلك لا يوجدُ له غالباً عليهم ألبتَّةَ.

وإذا فَرَضْنَا أَنَّهُ قد التَّحَمَّ بِهِمْ واختلطَ وتنوَّسِيَ عهدهُ الأوَّلُ من الالتِصاقِ، وَلَبَسَ  
جلدتهم ودُعيَ بِنَسَبِهِمْ، فكيفَ لَهُ الرُّئاسةُ [ظ ٥٤/٢] قبلَ هذا الالتِحامِ أو لأحدٍ من  
سَلَفِهِ، والرُّئاسةُ على القومِ إِنما تكونُ متناقلةً في مُنَبِّتٍ واحدٍ، تُعَيَّنُ لَهُ الغَلَبُ بالعَصِيَّةِ،  
فالأوَّلِيَّةُ التي كانتَ لهذا المُلصَقِ قد عُرِفَ فيها التِّصاقُهُ من غيرِ شَكٍّ، ومنعُهُ ذلكَ الالتِصاقُ  
من الرُّئاسةِ حينئذٍ، فكيفَ تنوَّلتَ عنه وهو على حالِ الإلصاقِ؟ والرُّئاسةُ لا بُدَّ وأن  
تكونَ موروثةً عن مستحقِّها لما قلناه من التَّغَلُّبِ بالعَصِيَّةِ، وقد يَتَشَوَّفُ كثيرٌ من الرُّؤساءِ  
على القَبَائِلِ، والعَصَائِبِ إلى أنسابِ يلهجونَ بها، إِنَّمَا لِحُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كانتَ في أَهلِ  
ذلكَ النَّسَبِ من شجاعةٍ أو كرمٍ أو ذكرٍ كيفَ اتَّفَقَ، فينزِعُونَ إلى ذلكَ النَّسَبِ،  
ويتورطونَ بالدَّعوى في شُعبِهِ، ولا يَعْلَمُونَ ما يوقعونَ فيه أَنفُسَهُمْ من القدحِ في رئاستِهِمْ  
والطَّعنِ في شرفِهِمْ، وهذا كثيرٌ في النَّاسِ لهذا العهدِ.  
فمن ذلكَ ما يدَّعِيهِ زَنَاتُهُ جملةً أَنَّهُم من العربِ.

ومنه ادَّعَاءُ أولادِ رِبابِ المَعْرُوفِينَ بالحِجازِيِّينَ من بني عامرٍ، أحدِ شُعُوبِ رُغْبَةٍ أَنَّهُم من  
بني سُلَيْمٍ، ثُمَّ من الشَّرِيدِ منهم لَحَقَ جَدُّهُم ببني عامرٍ، نَجَّاراً يصنَعُ الحِرْجَانَ<sup>(١)</sup>، واختلطَ  
بِهِم والتَّحَمَّ بِنَسَبِهِمْ حتَّى رَأَسَ عَلَيْهِم وَيُسَمُّونَهُ الحِجَازِيَّ.

ومن ذلكَ ادَّعَاءُ بني عبدِ القُويِّ بْنِ العَبَّاسِ ابنِ تُوْجِينٍ، أَنَّهُم من وَلَدِ العَبَّاسِ بنِ عبدِ  
المُطَّلِبِ، رُغْبَةً في هذا النَّسَبِ الشَّرِيفِ، وغلطاً باسمِ العَبَّاسِ بنِ عَطِيَّةِ أَبِي عبدِ القُويِّ، ولم  
يَعْلَمْ دُخُولُ أحدٍ من العَبَّاسِيِّينَ إلى المغربِ، لأنَّهُ كانَ منذُ أوَّلِ دولَّتِهِم على دعوةِ العَلَوِيِّينَ  
أعدائِهِم من الأَدَارِسَةِ والعُبَيْدِيِّينَ، فكيفَ يكونُ من سِبْطِ العَبَّاسِ أحدٍ من شِيعَةِ العَلَوِيِّينَ!

وكذلك ما يدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيْيَانٍ، ملوك تِلْمِسَانَ من بني عبد الواحد، أَنَّهُمْ من ولد الْقَاسِمِ ابنِ إِدْرِيسَ ذَهَاباً إِلَى ما اشتهر في نسبهم أَنَّهُمْ من وَلَدِ الْقَاسِمِ، فيقولون بلسانهم الزَّنَاتِي: أَنْتَ الْقَاسِمُ، أَي: بنو القاسم، ثم يدَّعون أَنَّ الْقَاسِمَ هذا هو الْقَاسِمُ بنِ إِدْرِيسَ، أو الْقَاسِمُ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إِدْرِيسَ، ولو كان ذلك صَحِيحاً فغاية الْقَاسِمِ هذا أَنَّهُ فَرَّ من مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيراً بِهِمْ، فكيف تَتَمُّ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ في باديتهم، وإِنَّمَا هو غُلَطٌّ من قبل اسمِ الْقَاسِمِ، فإنه كثيرُ الوجودِ في الأُدَارَةِ، فتَوَهَّمُوا أَن قَاسِمَهُمْ من ذلك النَّسَبِ، وهم غيرُ محتاجينَ لذلك، فَإِنَّ مناهم لِلْمُلْكِ والعِزَّةِ، إِنَّمَا كان بعصبيَّتِهِمْ، ولم يكن بادِّعاءِ عَلَوِيَّةٍ ولا عَبَّاسِيَّةٍ ولا شيء من الأنسابِ، وإِنَّمَا يُحْمَلُ على هذا الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى المُلُوكِ بِعِزَّتِهِمْ ومذاهبيهم. ويشتهر حتى يبعُدَ عن الرَّدِّ، ولقد بلغني عن يَغْمُرَاسِنَ بنِ زِيَّانٍ مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ، أَنَّهُ لما قيلَ لَهُ ذلك أنكره، وقال بلغته الزَّنَاتِيَّةُ، مَا مَعْنَاهُ: أَمَّا الدُّنْيَا وَالْمُلْكُ فَنِلْنَاهُمْ بِسُيُوفِنَا، لا بهذا النَّسَبِ، وَأَمَّا نَفْعُهُمَا في الآخِرَةِ فمردودٌ إِلَى اللَّهِ. وأعرض [ظه ٥/١] عن التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ<sup>(١)</sup> بذلك.

ومن هذا الباب ما يدَّعِيهِ بَنُو سَعْدِ شَيْوُخِ بَنِي يَزِيدَ من زُغْبَةٍ، أَنَّهُمْ من ولد أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وبَنُو سَلَامَةَ شَيْوُخِ بَنِي يَدْلَتَنَ من تَوْجِينِ أَنَّهُمْ من سليم، وَالزَّوَادَةُ شَيْوُخِ رِيَّاحٍ، أَنَّهُمْ منْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ، وكذا بنو مُهَنَّى أُمَرَاءُ طِيءٍ بِالْمَشْرِقِ، يدَّعونَ فيما بلغنا أَنَّهُمْ منْ أَعْقَابِهِمْ، وأمثالُ ذلك كثيرٌ ورثاستهم في قومهم مانعةٌ من ادِّعاءِ هذه الأنسابِ، كما ذكرناه، بل تعيَّنُ أَن يكونوا من صريح ذلك النَّسَبِ وأقوى عَصَبِيَّاتِهِ، فاعتبره، واجتنب المغالطَ فيه.

ولا تجعل من هذا الباب إلحاقَ مهدي الموحدين بنسبِ الْعَلَوِيَّةِ، فَإِنَّ المهديَّ لم يكن من منبِتِ الرِّئَاسَةِ في هرثمةِ قومه، وإِنَّمَا رَأْسٌ عَلَيْهِمْ بعدَ اشتهاره بِالْعِلْمِ والدِّينِ ودُخُولِ قبائلِ الْمَصَامِدَةِ في دعوته، وكان مع ذلك من أهلِ الْمُنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ. وَاللَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

## ١-٢-١٣- الفصل الثالث عشر

في أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرْفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ

وَيَكُونُ لِغَيْرِهِمْ بِالْمَجَازِ وَالشَّبَهِ

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ

ومعنى البيت: أن يعدَّ الرَّجُلُ في آبائه أشرافاً مذكورين يكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلّة في أهل جلدته، لما وقر<sup>(١)</sup> في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلاصهم، والنّاس في نشأتهم وتناسلهم معادن. قال صلى الله عليه وسلم: «النّاسُ مَعَادِنٌ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَقَهُوا»<sup>(٢)</sup>. فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب.

وقد بينّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وفائدتها إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَالتَّنَاصُرِ. فحيثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ مَرهُوبَةً، وَالْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ حَمِيٌّ، تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ، وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى. وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا، فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لَوْجُودِ ثَمَرَةِ النَّسَبِ. وَتَفَاوُتُ الْبُيُوتِ فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصِيَّةِ، لِأَنَّهُ سِرُّهَا.

وَلَا يَكُونُ لِلْمَنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ، وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فزُخْرُفٌ مِنَ الدَّعَاوَى.

وَإِذَا اعْتَبِرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ، وَمُخَالَطَةً أَهْلَهُ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ. وَهَذَا مَغَايِرُ لِسِرِّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدِ الْآبَاءِ، لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِالْمَجَازِ، لِعِلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْآبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ، وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ، وَعَلَى الْإِطْلَاقِ؛ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ، فَيَكُونُ مِنَ الْمُشْكَكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى.

١ - أي ثبت واستقر.

٢ - أخرجه البخاري (٣٣٠٤ و ٣٣٠٥ و ٥٧١١ و ٦٧٥٧) ومسلم (٢٥٢٦) و (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

وقد يكون للبيت شرفٌ أوّلٌ بالعصبيّة والخلال، ثمّ يتسلخون منه لذهابهم بالحضارة كما تقدّم، ويختلطون [ظ ٥٥/٢] بالغمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب، يعدّون به أنفسهم من أشرف البيوتات أهل العصائب، وليسوا منها في شيء لذهاب العصبيّة جملةً.

وكثيرٌ من أهل الأمصار النّاشعين في بيوت العرب أو العجم لأوّل عهدهم موسوسون بذلك.

وأكثر ما رسخ الوسواس في ذلك لبني إسرائيل، فإنه كان لهم بيتٌ من أعظم بيوت العالم بالمنبت، أوّلاً لما تعدّد في سلفهم<sup>(١)</sup> من الأنبياء والرّسل من لدن إبراهيم عليه السّلام إلى موسى صاحب ملّتهم وشرّيعتهم، ثمّ بالعصبيّة.

ثانياً: وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به، ثمّ انسَلخوا من ذلك أجمع «وضربت عليهم الذلّة والمسكنة» [البقرة: ٦١]، وكتب عليهم الجلاء في الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آفاً من السنين، وما زال هذا الوسواس مُصاحباً لهم، فتجدهم يقولون: هذا هاروني، هذا من نسل يوشع، هذا من عقب كالب، هذا من سبط يهوذا، مع ذهاب العصبيّة ورُسوخ الذلّ فيهم منذ أحقاب متطاولة.

وكثيرٌ من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصبيّة يذهب إلى هذا الهديان.

وقد غلط أبو الوليد ابن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب المعلّم الأوّل<sup>(٢)</sup>: «والحسب هو أن يكون من قومٍ قديمٍ نزلهم بالمدينة»<sup>(٣)</sup>؛

١ - هذا إذا أثبتنا أن يعقوب هو إسرائيل، وإلا فإن بني إسرائيل لم يكن لهم نبوة مستقلة وإنما هم تبع لأبناء إبراهيم الخليل، وباعتبار ارتباطهم بالذرية الإبراهيمية من خلال المصاهرة ولذلك سموا الأسباط نسبة إلى ارتباطهم ببنائهم.

٢ - لقب يعرف به أرسطو. كما يعرف الفارابي باسم المعلم الثاني.

٣ - قال الدكتور عبد الرحمن بدوي: وهذا الموضوع في تلخيص الخطابة يقول: فأما الحسب فهو أن يكون القوم الذين هم أول من نزل المدينة، أو يكونوا قدماء التّول فيها، ويكونون مع هذا حكاماً أو رؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد، وأن يكونوا مع هذا أحراراً لم يجز عليهم سباء، أو يكونوا ممن نال الأمور الجميلة المقبولة عند الناس وإن لم يكونوا حكاماً ولا رؤساء. (ص ٤١ من نشرة الدكتور بدوي. القاهرة سنة ١٩٦٠). ونحن هنا بإزاء شاهد فذ على كيفية ابن خلدون لابن رشد، ولعله أن يكون شاهداً أمّا على طريقتة في الفهم عامة. فهو يتصور أن كلام ابن رشد في هذا التلخيص هو من عنده وليس من عند أرسطو، ولهذا يحاول أن يفسر =

ولم يتعرض<sup>(١)</sup> لما ذكرناه.

وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نُزلهم بالمدينة إن لم يكن له عصابة، يرهبُ بها جانبه، وتحملُ غيرهم على القبول منه، فكأنَّه أطلق الحسبَ على تعديل<sup>(٢)</sup> الآباء فقط، مع أنَّ الخطابة إنما هي استمالةٌ من تؤثر استمالاته، وهم أهلُ الحلِّ والعقد، وأما من لا قدرة له ألبتة فلا يلتفتُ إليه ولا يقدرُ على استمالة أحد، ولا يُستمال هو.

وأهل الأمصار من الحضر بهذه المثابة. إلا أنَّ ابن رشد ربي في جيل وبلد، ولم يمارسوا العصبية، ولا أنسوا أحوالها، فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعدد الآباء على الإطلاق، ولم يُراجع فيه حقيقة العصبية وسرَّها في الخليفة. ﴿والله بكلِّ شيءٍ علیم﴾ [البقرة: ٢٨٢].

= رأيه هذا التفسير الغريب أن ابن رشد يقول بهذا الرأي لأنه: ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا أنسوا أحوالها، مع أن كلام ابن رشد هنا هو بعينه نص كلام أرسطو في الفصل الخامس من المقالة الأولى من كتاب الخطابة (ص ١٣٦٠ ب) ولم يأت بشيء من عنده حتى يؤول موقفه هذا التأويل.

ويلاحظ ثانياً أنه تعجل فهم كلام ابن رشد فلم يفهمه على وجهه، إذ ابن رشد لم يطلق الحسب على تعدد الآباء، بل اشترط أو بالأحرى اشترط أرسطو أن يكون هؤلاء الآباء حكاماً أو رؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد وأن يكونوا مع هذا أحراراً لم يجز عليهم سباء، أو يكونوا ممن نال الأمور الجميلة المقبولة عند الناس وإن لم يكونوا حكاماً ورؤساء. ولو أمعن ابن خلدون النظر في نص كلام ابن رشد لما أطلق حكمه على هذا النحو الجزافي المتعجل الخاطيء. ولا محل للاعتذار عن ابن خلدون هنا بأنه كان يكتب المقدمة من غير كتب يرجع إليها، بدليل أنه ينقل بعض نص كلام ابن رشد، ولا يمكن أن يكون هذا من مجرد ما تبقى في ذاكرته! (مهرجان ابن خلدون ص: ١٥٨-١٥٩).

١ - أي ابن رشد.

٢ - في ن: (تعديد).

١-٢-١٤- الفصل الرابع عشر  
في أن النبت والشرف للموالي وأهل الاصطناع،  
إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وذلك أننا قدمنا: أن الشرف بالأصالة والحقيقة، إنما هو لأهل العصبية، فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم، أو استرقوا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية، ولبسوا جلدتها كأنها عصبيتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة [١/٥٦] في نسبها، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مولى القوم منهم»<sup>(١)</sup>. وسواء كان مولى رق، أو مولى اصطناع وحلف. وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية إذ هي مبينة لذلك النسب.

وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر. وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم، فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية، كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزُهُ إلى شرفهم، بل يكون أدون منهم على كل حال.

وهذا شأن الموالي في الدول، والخدمة كلهم، فإنهم إنما يشرفون بالرُسوخ في ولاء الدولة وخدمتها، وتعدد الآباء في ولايتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني العباس، وإلى بني برمك من قبلهم، وبني ثوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرُسوخ في ولاء الدولة، فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرُشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس.

وكذا موالي كل دولة وخدمتها، إنما يكون لهم البيت والحسب بالرُسوخ في ولائها والأصالة في اصطناعها، ويضمحل نسبه الأقدم من غير نسبها، ويبقى مُلغى لا عبرة به في أصلته ومجده، وإنما المعبرُ نسبة ولائه واصطناعه. إذ فيه سرُّ العصبية التي بها البيت والشرف فكان شرفه مُشتقاً من شرف مواليه، وبنائه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته، وإنما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتريبة.

١ - أخرجه البزار (٢١٩) عن أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٦٧٦١) عن أنس بلفظ: «مولى القوم من أنفسهم».



وقد يكون نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ ودولته، فإذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في أخرى، لم تنفعه الأولى لذهابِ عَصَبِيَّتِهَا، وانتفعَ بِالثَّانِيَةِ لوجودها. وهذا حالُ بني بَرْمَكْ، إذ المنقولُ أنهم كانوا أهل يَيسْت في الفرسِ من سَدَنَةِ يَبُوتِ النَّارِ عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بني العباس، لم يكن بالأوَّل اعتبارًا، وإنما كان شرفهم من حيثُ ولايتهم في الدَّوْلَةِ واصطناعهم وما سوى هذا فوهمٌ توسوس به النُّفُوسُ الجَمَاحَةُ ولا حقيقة له، والوجود شاهدٌ بما قلناه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. والله ورسوله أعلم.

## ١-٢-١٥- الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

اعلم: أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد، لا من ذواته، ولا من أحواله. فالكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الإنسان وغيره كائنة فاسدة بالمعانية، وكذلك ما يعرض لها من الأحوال، وخصوصاً الإنسانية. فالعلوم تنشأ ثم تدرس، وكذا الصنائع وأمثالها.

والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين، فهو كائن فاسد لا محالة.

وليس يوجد لأحد من أهل الخليفة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه، إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحيطة [ظ ٥٦/٢] على السر فيه. وأول<sup>(١)</sup> كل شرف خارجة كما قيل، وهي الخروج عن الرئاسة والشرف إلى الضعة والابتدال، وعدم الحسب، ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه، شأن كل محدث.

ثم إن نهايته في أربعة آباء، وذلك أن باني المجد عالم بما عناه في بنائه، ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه، فقد سمع منه ذلك وأخذ عنه إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني<sup>(٢)</sup> له، ثم إذا جاء الثالث كان حظُّه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعانة ولا تكلف، وإنما هو أمر واجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم، وليس بعصاية ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس، ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها، ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم، وثوقاً بما ربي فيه من استتباعهم، وجهلاً بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم، والأخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فيغصون عليه، ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك

١ - في ظ: الشرفية وأولى.

٢ - في ن: المعاني.

العقب، للإذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله، فتتمو فروغ هذا، وتذوي فروغ الأول وينهدم بناء بيته. هذا في الملوك.

وهكذا في بيوت القبائل والأمرء وأهل العصبيّة أجمع، ثم في بيوت أهل الأمصار: إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وما ذلك على الله بعزيز ﴿[فاطر: ١٦ - ١٧]﴾.

واشتراط الأربعة في الأحساب إنما هو في الغالب. وإلا فقد يذثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم، وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس، إلا أنه في انحطاط وذهاب.

واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة: بان، ومباشر له، ومقلد، وهادم، وهو أقل ما يمكن.

وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء. قال صلى الله عليه وسلم: «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»<sup>(١)</sup>. إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد. وفي التوراة ما معناه: إن الله ربك طائق<sup>(٢)</sup> غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثواب والرّوابع. وهذا يدل على أن الأربعة الأعقاب غاية في الأنساب والحسب.

وفي كتاب الأغاني<sup>(٣)</sup>: في أخبار غويف القوافي<sup>(٤)</sup> أن كسرى قال للنعمان: هل في العرب قبيلة تتشرف<sup>(٥)</sup> على قبيلة؟ قال: نعم. قال: بأي شيء؟ قال: من كان له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، فالبیت من قبيلته. وطلب ذلك فلم يجده [ظ ١/٥٧] إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري، وهم بيت قيس، وآل ذي الجدين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب بن زرارة، وآل قيس بن عاصم المنقري<sup>(٦)</sup> من بني تميم. فجمع هؤلاء الرّهط، ومن تبعهم من عشائهم، وأقعد لهم الحكماء

١ - أخرجه أحمد (٩٦/٢) والبخاري (٣٣٨٢ و ٣٣٩٠ و ٤٦٨٨) من حديث ابن عمر.

٢ - أي: قادر.

٣ - الأغاني: (١٢٣/١٩ - ١٢٥).

٤ - في الأصل: غريف الغواني وعزيف الغواني وهو تحريف. وأخباره في الأغاني (١٢٣/١٩ - ١٤٠).

٥ - في الأغاني (٢٣/١٩): تشرف.

٦ - لم يذكر: قيس بن عاصم. في بداية الخبر عند الأصبهاني، وإنما ذكر بعد فيمن خطب.

والعدول. فقام حذيفة بن بدر، ثم الأشعث بن قيس لقرايته من النعمان، ثم بسطام بن قيس بن شيبان، ثم حاجب بن زرارة، ثم قيس بن عاصم، وخطبوا ونشروا، فقال كسرى: <sup>(١)</sup> كلهم سيّد يصلح لموضعه. وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم، ومعهم بيت بني الدّيان <sup>(٢)</sup>، من بني الحارث بن كعب اليماني. وهذا كله يدلّ على أنّ الأربعة الآباء نهاية في الحسب. والله أعلم.

١ - في الأغاني: ليس منهم إلا سيّد يصلح لموضعه.

٢ - في الأصل: الديان وصحّح من الأغاني (١٢٣/١٩) وجمهرة أنساب العرب (٤١٦) والديان: يزيد ابن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب.

## ١-٢-١٦. الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها

إِغْلَمَ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْبِدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْدَمَةِ الثَّلَاثَةِ<sup>(١)</sup>، لَا حَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخِرِ. فَهَمَّ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ. بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ. فَكُلَّمَا نَزَلُوا الْأَرْيَافَ وَتَفَنَّنُوا<sup>(٢)</sup> النَّعِيمَ، وَأَلْفُوا عَوَائِدَ الْخِصْبِ فِي الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ، نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمَقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوْحُّشِهِمْ وَبِدَاوَتِهِمْ.

واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الطِّبَاءِ والبقر الوحشية والحُمُرِ، إِذَا زَالَ تَوْحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ الْآدَمِيِّينَ، وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي الْإِنْتِهَاضِ وَالشَّدَّةِ حَتَّى فِي مَشِيَّتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا، وَكَذَلِكَ الْآدَمِيُّ الْمُتَوْحِّشُ، إِذَا أُنْسَ وَأُلْفَ.

وَسَبَبُهُ: أَنَّ تَكُونُ السَّجَايَا وَالطَّبَائِعِ، إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالْعَوَائِدِ. إِذَا كَانَ الْغَلَبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ. فَمَنْ كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْيَالِ أَعْرَقَ فِي الْبِدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوْحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغْلِبِ عَلَى سِوَاهُ، إِذَا تَقَارَبَا فِي الْعَدَدِ وَتَكَافَا فِي الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ.

وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرٍّ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمِيرٍ وَكَهْلَانٍ السَّابِقِينَ إِلَى الْمُلْكِ وَالنَّعِيمِ، وَمَعَ رَبِيعَةِ الْمُتَوَطِّئِينَ أَرْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ، لَمَّا بَقِيَ مُضَرٌّ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَ هُمْ الْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ الْعَيْشِ وَغُضَارَةِ النَّعِيمِ، كَيْفَ أَرْهَفَتِ الْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي التَّغْلِبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ. وَهَذَا حَالُ بَنِي طِيٍّ وَبَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَبَنِي سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قِبَائِلِ مُضَرَ وَالْيَمَنِ، وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلَفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأُمَمِ مِنْهُمْ.

وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خَصِيْبًا دُونَ الْحَيِّ الْآخِرِ، فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُتَبَدِّيَّ، يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَا [ظ ٥٧/٢] فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ. سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

## ١-٢-١٧- الفصل السابع عشر

في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وذلك لأننا قدّمنا: أن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة، وكل أمر يجتمع عليه. وقدّمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض. فلا بد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك. وهو أمر زائد على الرئاسة. لأن الرئاسة إنما هي سؤدد، وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه؛ وأمّا الملك فهو التغلب والحكم بالقهر.

وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها. فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع، ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً، فالتغلب الملكي غاية للعصبية، كما رأيت، ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستبغها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها؛ فإن كافاتهما أو مانعتها كانوا أقتالاً<sup>(١)</sup> وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم؛ وإن غلبتها، واستبغتها التحمت بها أيضاً وزادت قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائماً حتى تكفي بقوتها قوة الدولة في هرمها، فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبات استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها؛

وإن انتهت قوتها ولم يُقارن ذلك هرم الدولة، وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها، وذلك ملك

١ - القتل بكسر القاف وسكون التاء: العدو والمقاتل وجمعه أقتال. كما تطلق على الصديق. ضد. ومنها: النضير والمثل.

آخرُ دون الملكِ المُستَبَدِّ. وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنْهاجَةَ وزَناتَةَ مَعَ كُتامةَ، ولِبنِي حَمْدانَ مَعَ مُلوكِ الشَّيْعةِ مِنَ العَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ. فقد ظَهَرَ أَنَّ المُلُوكَ هُوَ غَايَةُ العَصَبِيَّةِ، وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ المُلْكُ إِمَّا بِالاسْتِبْدَادِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ<sup>(١)</sup> عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الوَقْتُ المُقَارَنُ لذلِكَ؛ وَإِنْ عَاقَبَهُمْ عَنْ بُلُوغِ الغَايَةِ عَوَائِقُ - كَمَا نُبَيِّنُهُ - وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.

## ١-٢-١٨- الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق [ظ ١/٥٨] الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم وسبب ذلك: أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقداره، وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها. فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها، ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها، ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه، إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة، والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف، وما يدعو إليه من توابيع ذلك فتذهب خشونة البدوة وتضعف العصبيّة والبسالة، ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم، وولاية حاجاتهم ويستكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبيّة حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبهم<sup>(١)</sup> إلى أن تنقرض العصبيّة فيأذنون بالانقراض.

وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم، كاسر من سورة العصبيّة التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبيّة قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم. فقد تبين أن الترف من عوائق الملك، ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ [البقرة: ٢٤٧].



## ١-٢-١٩- الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم  
وسبب ذلك: أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العنكبوت وشِدَّتْهَا فَإِنْ انْقِيَادَهُمْ  
وَمَذَلَّتُهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فَقْدَانِهَا، فَمَا رَمَوْا<sup>(١)</sup> لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ، وَمَنْ عَجَزَ  
عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأُولَئِكَ أَنْ يَكُونَ عَاجِزاً عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ.

واعتبر ذلك في بني إسرائيل، لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ، وَأَخْبَرَهُمْ  
بَأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مَلَكُهَا كَيْفَ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا  
لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]. أَي: يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ  
قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصِيَّتِنَا، وَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى. وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لِحُجْوِ وَارْتَكَبُوا  
الْعَصِيَّانَ، وَقَالُوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا أُنْسُوا مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ، كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ، وَمَا يُؤَثِّرُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَذَلِكَ  
بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْقِيَادِ، وَمَا رَمَوْا مِنَ الدَّلِّ لِلْقَبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصِيَّةُ  
[ظ ٥٨/٢] مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ  
لَهُمْ، وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيسَتُهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللَّهِ قُدْرَةً لَهُمْ، فَأَقْصَرُوا عَنْ  
ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ، لَمَّا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ  
الْمَذَلَّةِ، وَطَعَنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيِّهِ، وَهُوَ  
أَنَّهُمْ تَاهَوْا فِي قَفَرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا لِعِمْرَانَ، وَلَا  
نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَصَّه الْقُرْآنُ لِغِلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ، وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ  
عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْ مَقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ.

وَيَظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التَّيِّهِ مَقْصُودَةٌ، وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ  
خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدَّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّفُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ  
التَّيِّهِ جِيلٌ آخَرُ عَزِيزٌ، لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ، فَتَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ  
أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالتَّغْلِبِ. وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا  
يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ، سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.

وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية، وأنها هي التي تكون بها المداغة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدتها عجز عن جميع ذلك كله.

ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه، لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحملها النفوس الأبية إلا إذا استهونت عن القتل والتلف، وأن عصبيتهم<sup>(١)</sup> حينئذ ضعيفة عن المداغة والحماية، ومن كانت عصبيتُهُ لا تدفع عنه الضيم، فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عاقبة كما قدمناه. ومنه قول صلى الله عليه وسلم في شأن الحارث لما رأى سكة الحارث في بعض دُور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل»<sup>(٢)</sup>. فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة<sup>(٣)</sup>. هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر، فإذا رأت القبيل بالمغارم في ربة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر.

ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناة بالمغرب كانوا شائبة يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك، وهو غلط فاحش كما رأيت؛ إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك، ولا تمت لهم دولة. وانظر فيما قاله شهربراز ملك [ظ ٥٩/١] الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه، وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له، فقال: أنا اليوم منكم، يدي في أيديكم، وصعري<sup>(٤)</sup> معكم، فمرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون، ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف.

١ - في ن: عصبيتها.

٢ - أخرج البخاري (٢٣٢١) من حديث أبي أمامة الباهلي قال: ورأى سكة وشيئاً من آلة الحرث فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل».

٣ - في ن: للمذلة.

٤ - أي: الجاهي سيكون معكم. من الصعر والتصعير: وهو ميل في الوجه.

## ٢-٢٠-٢١. الفصل العُشْرُون

في أن من علامات المُلْك التَّنَافُس في الخِلال الحَمِيدَة وبالعكس

لما كان المُلْك طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَان، لما فيه من طَبِيعَةِ الْإِجْتِمَاعِ كما قلناه، وكان الإنسان أقربَ إلى خِلالِ الْخَيْرِ من خِلالِ الشَّرِّ، بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ، لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قَبْلِ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ، وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ، لِأَنَّهُمَا<sup>(١)</sup> لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةٌ لَا لِلْحَيَوَانِ، فَإِذَا خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ، إِذِ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ.

وقد ذكرنا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يَبْنِي عَلَيْهِ، وَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ، وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ وَالْعَشِيرُ، وَفِرْعٌ يُتِمُّ وَجُودَهُ وَيُكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ. وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةُ لِفِرْعِهَا وَمَتَمِّمَاتِهَا، وَهِيَ الْخِلَالُ؛ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ مَتَمِّمَاتِهِ كَوُجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ، أَوْ ظُهُورِهِ غُرَيَانًا بَيْنَ النَّاسِ.

وَإِذَا كَانَ وَجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْيُبُوتِ وَالْأَحْسَابِ، فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ لِكُلِّ مَجْدٍ، وَنَهَايَةُ لِكُلِّ حَسَبٍ!.

وأيضاً فَالْسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كِفَالَةٌ لِلخَلْقِ وَخِلَافَةٌ لِلَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيزِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ. وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمِرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ. وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ، بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمُقَدِّرُهُمَا، إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ. فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأَوْنِسَتْ مِنْهُ خِلَالُ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةُ لِتَنْفِيزِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةِ الْخَلْقِ، وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ، وَهَذَا الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ، وَأَصَحُّ مَبْنًى.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لَمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ، فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ التَّوَاجِيهِ وَالْأُمَمِ، فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ، وَالْقَرَى لِلضُّيُوفِ، وَحَمَلَ الْكُلَّ<sup>(٢)</sup>، وَكَسَبَ الْمُعْدِمِ، وَالصَّبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَالْوَفَاءَ

١ - في ن: لأنها.

٢ - الكل - بفتح الكف - اليتيم ومن لا يقدر على القيام بشؤون نفسه.

بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض، وتعظيم الشريعة، وإجلال العلماء الحاملين لها، والوقوف عند ما يحدوثه لهم من فعل أو ترك، وحسن الظن بهم، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم، ورغبة الدعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم والإنقياد إلى الحق مع الداعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم، والتبذل في أحوالهم والإنقياد للحق، والتواضع للمسكين، واستماع شكوى المستغيثين، والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد، وأمثال ذلك، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم، أو على العموم، وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم، وليس ذلك سدى فيهم، ولا وجد عبثاً منهم، والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم، فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم.

وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم ليكون نعيماً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك، وجعل في أيديهم من الخير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. واستقرى ذلك وتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه ﴿وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

واعلم: أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصية وتكون شهادة لهم بالملك: إكرام العلماء والصالحين، والأشراف وأهل الأحساب، وأصناف التجار والغرباء، وإنزال الناس منازلهم. وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصيات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حب العشير والعصية، ويشاركهم في اتساع الجاه<sup>(١)</sup>، أمر طبيعي يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه، أو المخافة من قوم المكرم، أو التماس مثلها منه.

وأما أمثال هؤلاء من ليس لهم عصبية تتقى ولا جاة يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم، ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلية؛ لأن إكرام أقتاله<sup>(١)</sup> وأمثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه، وإكرام الطارئ من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة، والصالحون<sup>(٢)</sup> للدين، والعلماء للحاجة<sup>(٣)</sup> إليهم في إقامة مراسم الشريعة، والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم، والغرباء من مكارم الأخلاق [ظ ١/٦٠]، ومن الترغيب ببعض الوجوه، وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل. فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انتمأؤهم للسياسة العامة، وهي الملك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها.

ولهذا فإن<sup>(٤)</sup> أول ما يذهب من القبيل - أهل الملك - إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق. فإذا رأيت أنه قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم، وارتقب زوال الملك منهم، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]<sup>(٥)</sup>.

١ - القتل: العدو، والمقاتل.

٢ - في ن: فالصالحون.

٣ - في ن: للحج. يعني للانتحاء إليهم.

٤ - في ن: كان.

٥ - في نسخة زيادة: والله تعالى أعلم.

## ٢-٢١- الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستيلاء، كما قلناه، واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم، ولأنهم يتنزلون من الأهليين منزلة المفترس من الحيوانات العجم، وهؤلاء مثل العرب، وزنات، ومن في معانهم من الأكراد والتركمان، وأهل الشام من صنهاجة.

وأيضاً: فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون<sup>(١)</sup> منه، ولا بلد يجنحون إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء، فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم، وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يطفرون<sup>(٢)</sup> إلى الأقاليم البعيدة ويتغلبون على الأمم النائية.

وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض الناس على العراق، فقال: إنَّ الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك، أين القراء المهاجرون عن موعِد الله؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يؤرثكموها فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. والصف: [٩].

واعتبر ذلك أيضاً بحال العرب السالفة من قبل، مثل التبابعة، وحمير، كيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة، وإلى العراق والهند أخرى، ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم.

وكذا حال الملثمين من المغرب، لما نزعوا إلى الملك طفروا من الإقليم الأول وبجالاتهم منه في جوار السودان إلى الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة. وهذا شأن هذه الأمم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً، وأبعد من مراكزها نهاية، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [الزمل: ٢٠]. ﴿وهو الواحد القهار﴾ [الرعد: ١٦] لا شريك له.

١ - أي: يتعيشون منه.

٢ - الطفر: الوثب في ارتفاع.

## ٢-٢-٢٢- الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة

فلا بد من عودة إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبيّة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سُورَةِ الْغَلَبِ وَالْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ، فَيَتَعَيَّنُّ مِنْهُمْ الْمُبَاشَرُونَ لِلأَمْرِ، الْحَامِلُونَ لِسَرِيرِ<sup>(١)</sup> الْمَلِكِ [ظ. ٦٠/٢]، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ لَجَمِيعِهِمْ، لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثَرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطاقُ الْمَزَاحِمَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي تَجْدُعُ<sup>(٢)</sup> أَنْوَافَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَاوِلِينَ لِلرُّبُوبِيَّةِ، فَإِذَا تَعَيَّنَ - أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ أَنْغَمَسُوا فِي النِّعَمِ، وَغَرَقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ، وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجِيلِ، وَأَنْفَقُوهُمْ<sup>(٣)</sup> فِي وَجْهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا، وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعَدُوا عَنِ الْأَمْرِ، وَكَبَحُوا عَنِ الْمِشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ، وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبَعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ، فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ، وَأَبَادَ غَضَاءَهُمْ<sup>(٤)</sup> الْهَرَمُ فَطَبَخَتْهُمْ الدَّوْلَةُ، وَأَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرَبَ، بَعَا أَرْهَفَ النِّعَمِ مِنْ حَدِّهِمْ، وَاشْتَفَتْ<sup>(٥)</sup> غَرِيزَةَ التَّرَفِ مِنْ مَلئِهِمْ، وَبَلَّغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِي، وَالتَّغْلِبِ السِّيَاسِيِّ. شَعَرَ: كَدُوْدِ الْقَزِّ يَنْسُجُ ثُمَّ يَفْنَى بِمَرَكَزِ نَسْجِهِ فِي الْإِنْعِكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصَبِيَّةَ الْآخَرِينَ مَوْفُورَةً، وَسُورَةُ غَلَبِهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مُحْفُوظَةً، وَشَارَتْهُمْ فِي الْغَلَبِ مَعْلُومَةً، فَتَسْمُوْ آمَالُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ مِنْ جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ، وَتَرْتَفِعُ الْمَنَازَعَةُ لِمَا عَرَفَ مِنْ غَلَبِهِمْ، فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ. وَكَذَا يَتَّفَقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضًا مُنْتَبِذًا عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَتِهِمْ، فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ مُلْجِئًا فِي الْأُمَةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سُورَةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْهَا، أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا: سَنَةَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

١ - في المطبوع: سرير.

٢ - أي: تقهرهم وتخضعهم.

٣ - نفق: مات وهلك.

٤ - في ن: حضراءهم. وهما بمعنى واحد. والغضراء: الأرض الطيبة الخضراء. وأراد هنا عزهم ومكانتهم وما به قوتهم.

٥ - في ن: واستفتت.

واعتبر هذا بما وقع في العرب؛ لما انقرضَ ملك عاد، قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود، ومن بعدهم إخوانهم العمالق، ومن بعدهم إخوانهم من حمير أيضاً، ومن بعدهم إخوانهم التابعة من حمير أيضاً، ومن بعدهم الأذواء كذلك، ثم جاءت الدولة لمصر، وكذا الفرس لما انقرضَ أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام، وكذا اليونانيون انقرضَ أمرهم، وانتقل إلى إخوانهم من الروم، وكذا البربر بالمغرب لما انقرضَ أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة، ثم الملمين من بعدهم، ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا، سنة الله في عباده وخلقه.

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية، وهي متفاوتة في الأجيال، والملك يُخلقه<sup>(١)</sup> الترف ويذهبه، كما سنذكره بعد<sup>(٢)</sup>. فإذا انقرضت دولة فإنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التي عُرف لها التسليم والانقياد، وأونس منها الغلب لجميع العصبيات، وذلك إنما يوجد في النسب القريب منهم؛ لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد [١/٦١]، حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملة، أو ذهاب عمران، أو ما شاء الله من قدرته، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل. كما وقع لمصر حين غلبوا على الأمم والدول، وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم، بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً<sup>(٣)</sup>.

١ - أي: يلي حديده ويفنيه.

٢ - مرا في الفصلين ١٦ و ١٨.

٣ - جمع حُقب - بسكون القاف وضمها -: ثمانون سنة أو أكثر، والدهر، والسنة أو السنون.



## ١-٢-٢٣- الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولعٌ أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره،

وزيّه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك: أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه. إمّا لنظره بالكمال بما وقرّ عندها من تعظيمه، أو لما تُغالط به من أن انقيادها ليس لغلبٍ طبيعي، إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها، حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبّهت به؛ وذلك هو الافتداء. أو لما تراه - والله أعلم - من أن غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوّة بأس، وإنّما هو بما انتحله<sup>(١)</sup> من العوائد والمذاهب، تُغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجعٌ للأوّل، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم مُتشبّهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم.

وانظر إلى كلّ قطرٍ من الأقطار، كيف يغلب على أهله زيّ الحاميّة وجُنْدُ السُلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم.

حتى إنه إذا كانت أمةٌ تجاور أخرى ولها الغلبُ عليها فيسري إليهم من هذا التشبّه والافتداء حظٌ كبيرٌ، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعرون ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء. والأمر لله.

وتأمل في هذا سرّ قولهم: العائمة على دين الملك، فإنه من بابه، إذ الملك غالبٌ لمن تحت يده، والرعيّة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه، اعتقاد الأبناء بآبائهم، والمتعلمين بمُعَلِّمِهِمْ. والله العليم الحكيم، وبه سبحانه وتعالى التّوفيق.

## ١-٢-٢٤ — الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت، وصارت في مُلك غيرها، أسرع إليها الفناء والسبب في ذلك والله أعلم: ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا مُلك أمرها عليها، وصارت بالاستعباد آلة لسواها، وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التماسل؛ والاعتماد، إنما هو عن جدّة الأمل، وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأمل بالتكاسل، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال [ظ ٢/٦١]، وكانت العصيّة ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عُمرانهم، وتلاشت مكاسبهم ومسايعهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خَصَد<sup>(١)</sup> الغلب من شوكتهم، فأصبحوا مُعلّين لكل مُتغلب، وطُعمة لكل آكل، وسواء كانوا حَصَلُوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا.

وفيه — والله أعلم — سرٌّ آخر، وهو: أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلُق له. والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزّه، تكاسل حتى عن شبع بطنه، ورِيّ كيدِه. وهذا موجود في أخلاق الأناسي. ولقد يُقال مثله في الحيوانات المفترسة، وإنما لا تُسأَفَد<sup>(٢)</sup> إذا كانت في ملكة الآدميين. فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال، إلى أن يأخذهم الفناء، والبقاء لله وحده.

واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة، ولما فئت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير، وأكثر من الكثير. يُقال: إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مئة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً ربُّ بيت. ولما تحصّلوا في ملكة العرب وقبضة القهر، لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً، ودثروا كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره، وصار آلة لغيره، ولهذا إنما تُدعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه، أو من يرجو بانتظامه في ربة الرق حُصول رتبة، أو إفادة مال أو عز كما يقع لممالك التُّرك بالمشرق، والعُلُوج<sup>(٣)</sup> من الجلالقة والإفرنجية. فإن العادة جارئة باستخلاص الدولة لهم، فلا

١ - خَصَدَ العود رطباً أو يابساً يَخْضدُه: كسره وقطعه.

٢ - جمع عِلَج: وهو الرجل من كفار العجم.

٣ - أي تجماع.

يَأْنَفُونَ مَنْ الرِّقِّ لَمَّا يَأْمَلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ،  
وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

## ١-٢-٢٥- الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب<sup>(١)</sup> لا يتغلبون إلا على البسائط

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر؛ ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، ولا يذهبون إلى المزاخرة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له. والقبائل المتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيشتهم وفسادهم، لأنهم لا يتسمنون<sup>(٢)</sup> إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر. وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب وطعمة لأكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها [ظ ١/٦٢] عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم<sup>(٣)</sup> باختلاف الأيدي، وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم. والله قادر على خلقه ﴿وهو الواحد القهار﴾ [الرعد: ١٦] لا رب غيره.

١ - العرب: أي الأعراب الرحل ساكنو البادية وأرباب الخيام. قال الله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾.

٢ - تسنم الهضبة: علاها. وأصل التسنم: الأخذ مغافصة أي: مفاجأة على غيرة.

٣ - تعاوروه: تداولوه.

## ٢-٢٦-١- الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بَاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوَحُّشِ، وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ، فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجَبَلَةً، وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلَذُودًا لَمَّا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ. وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمُرَانِ، وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ. فَغَايَةُ الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمْ الرِّحْلَةُ وَالتَّغْلِبُ، وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمُرَانُ، وَمُنَافٍ لَهُ. فَالْحَجَرُ مِثْلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِي<sup>(١)</sup> الْقَدَرِ، فَيَنْقَلِبُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي وَيُخَرَّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعِدُّونَهُ لَذَلِكَ. وَالْخَشَبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْمَرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَخَذُوا الْأَوْتَادَ مِنْهُ لِيُبْنِيَهُمْ فَيُخَرَّبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لَذَلِكَ، فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وَجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُمُرَانِ. هَذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ.

وَأَيْضًا: فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ؛ وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي اخْتِذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ، بَلَى كُلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ، أَوْ مَاعُونٍ انْتَهَبُوهُ. فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّغْلِبِ وَالْمُلْكِ بَطَلَتْ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَخَرِبَ الْعُمُرَانُ.

وَأَيْضًا: فَلَأَنَّهُمْ يُكَلِّفُونَ<sup>(٢)</sup> عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَبْرُونَ لَهَا قِيَمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ. وَالْأَعْمَالُ - كَمَا سَنَذْكُرُهُ - هِيَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا؛ وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ، وَصَارَتْ<sup>(٣)</sup> مِجَانًا، ضَعُفَتْ الْأَمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ، وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنِ الْعَمَلِ، وَابْدَعَرُ<sup>(٤)</sup> السَّاكِنُ، وَفَسَدَ الْعُمُرَانُ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عَنَافَةٌ بِالْأَحْكَامِ، وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ، وَدِفَاعٍ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ. إِنَّمَا هُمُومُهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً<sup>(٥)</sup>. فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ، وَحَصَّلُوا عَلَيْهِ، أَعْبَرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ، وَقَهَرَ بَعْضُهُمْ

١ - الأثافي: الأحجار توضع تحت القدر تحمي بينها النيران. أو هي آلة مثلثة تعلق عليها القدر عند الطبخ وتكون من حديد، وتعرف بالحماله. وانظر صبح الأعشى (١٣٨/٢).

٢ - في ن: يُلقون.. يتلفون.

٣ - في ن: وصدرت.

٤ - أي: فر وتشتت.

٥ - في ن: مغرماً.

عن أغراضِ المَفسِدِ. رُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجَبَايَةِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا، كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَغْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفسِدِ، وَزَجَرَ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِداً فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغَرَمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرِّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى<sup>(١)</sup> دُونَ حَكْمٍ، وَالْفَوْضَى مَهْلَكَةٌ لِلْبَشَرِ، مَفْسَدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وَجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةٌ طَبِيعَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وَجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا، وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ.

وأيضاً: فهم متنافسون [ظ ٦٢/٢] فِي الرِّئَاسَةِ؛ وَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ، وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَحَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقْلِّ، وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ أَحْلِلِ الْحَيَاءِ. فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأَمْراءُ، وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرِّعْيَةِ فِي الْجَبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ، فَيَفْسُدُ الْعُمَرَانُ وَيَتَنَقَّضُ.

قال الأعرابيُّ الوافدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحِجَّاجِ، وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ: تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحَدَهُ. وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنَ لُدُنِ الْخَلِيقَةِ، كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمَرَانُهُ، وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ، وَبُدِلَتِ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ. فَالِإِمْنِ قَرَارَهُمْ خَرَابٌ، إِلَّا قَلِيلاً مِنْ الْأَمْصَارِ، وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمَرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفَرَسِ أَجْمَعِ، وَالشَّامُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ. وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هَلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مِنْذُ أَوَّلِ الْمِئَةِ الْخَامِسَةِ، وَتَمَرَّسُوا بِهَا لثَلَاثَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِّينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بِسَائِطِهِ خَرَاباً كُلَّهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ كُلِّهِ عُمَرَاناً. تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ، وَتُمَاتِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدُ الْقُرَى وَالْمَدَرِ. وَاللَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا<sup>(٢)</sup>، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

١ - وما يعزى إلى الإمام علي رضي الله عنه:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا.

٢ - قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

## ١-٢-٢٧- الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة  
أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَخَلْقِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ الْأُمَمِ انْقِيَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ  
لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنْفَةِ، وَبَعْدَ الْهَمَّةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ؛ فَقَلَّمَا تَجْتَمَعُ أَهْوَاؤُهُمْ. فَإِذَا كَانَ الدِّينُ  
بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَذَهَبَ خَلْقُ الْكِبَرِ وَالْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ، فَسَهَلَ  
انْقِيَادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ، وَذَلِكَ بِمَا يَشْمُلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنْفَةِ، وَالْوَازِعِ عَنِ  
التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ. فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ،  
وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا، وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ  
تَمَّ اجْتِمَاعَهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغْلِبُ وَالْمُلْكُ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهُدَى  
لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلَكَاتِ وَبِرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَلْقٍ  
التَّوَحُّشِ الْقَرِيبِ الْمَعَانَاةِ الْمُتَهَيِّئِ لِقَبُولِ الْخَيْرِ بَبْقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى، وَبَعْدَهُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي  
النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ وَسُوءِ الْمَلَكَاتِ، فَإِنَّ «كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»<sup>(١)</sup>. كَمَا  
وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ.

## ٢-١- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي الْقَفْرِ، وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ التَّلَوُّلِ وَحُبُوبِهَا، لَاعْتِيَادِهِمُ الشَّطْفَ وَخَشُونَةَ [١/٦٣] الْعَيْشِ، فَاسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعَّبَ انْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، لِإِيلَافِهِمْ ذَلِكَ، وَلِلتَّوَحُّشِ. وَرِئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِباً لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ، فَكَانَ مُضْطَرّاً إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مِرَاغِمَتِهِمْ لئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ. وَسِيَاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَازِعاً بِالْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ.

وَأَيْضاً: فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ<sup>(١)</sup> أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً، وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ، وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، فَإِذَا مَلَكَوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مَلَكَتِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ. وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفَاسِدِ فِي الْأَمْوَالِ حَرَصاً عَلَى تَكْثِيرِ الْجَبَايَاتِ، وَتَحْصِيلِ الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعاً، وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ الْأَغْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفَاسِدِ، وَاسْتِهَانَةٍ مَا يُعْطَى مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ، فَتَنَمُو الْمَفَاسِدُ بِذَلِكَ، وَيَقَعُ تَخْرِيبُ الْعُمَرَانِ، فَتَبْقَى تِلْكَ الْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى، مُسْتَطِيلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمَرَانٌ، وَتَخْرُبُ سَرِيعاً، شَأْنُ الْفَوْضَى، كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

فَبَعْدَتْ طِبَاغُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ عَنِ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ. وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ، وَتَبَدُّلِهَا بِبَصِغَةٍ دِينِيَّةٍ تَحْوِي ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَجْعَلُ الْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دَفَاعِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَاعْتَبَرُ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْمِلَّةِ لَمَّا شَيْدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرُ السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَتَتَابَعِ فِيهَا الْخُلَفَاءُ عَظَمَ حَيْثُ ذِ مَلَكَتِهِمْ وَقَوِي سُلْطَانَتِهِمْ. وَكَانَ رُسْتُمُ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ: أَكَلْتُ عَمْرُ كَبْدِي، يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْآدَابَ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ، وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ، وَجَهِلُوا شَأْنَ عَصِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يُعْغِدُهُمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ



النَّصْفَةَ<sup>(١)</sup>، فتوحَّشُوا كما كانوا، ولم يبقَ لهم من اسم الملكِ إلا أنَّهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم، ولَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَأُمُحِي<sup>(٢)</sup> رَسْمُهَا، انقطعَ الأمرُ جملةً من أيديهم، وغلبَ عليهم الْعَجَمُ دُونَهُمْ، وأقاموا في بادية قفَّارهم لا يعرفون الملكَ ولا سياسته، بل قدَّ يَجْهَلُ الكثيرُ منهم أنَّهم قد كان لهم ملكٌ في القديم. وما كان في القديم لأحدٍ من الأمم في الخليقة ما كان لأجياهم من الملك. ودولُ عادٍ وثمودَ والعَمَالِقةِ وحَميرَ والتَّبَابعةِ شاهدةٌ بذلك، ثُمَّ دَوْلَةُ [ظ ٢/٦٣] مُضَرَ في الإسلام: بني أُمَيَّةَ وبني العَبَّاسِ.

لكن بَعْدَ عَهْدِهِم بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ. وقد يحصلُ لهم في بعض الأحيان غلبٌ على الدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، كما في الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، فلا يكون مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيْبُ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

١ - أي: العدل ولو أخذ من النفس.

٢ - في ن: وأُمُحِي.

## ١-٢-٢٩- الفصل التاسع والعشرون

في أَنَّ الْبَوَادِي مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ

قد تقدّم لنا: أَنَّ عُمَرََانَ الْبَادِيَةَ نَاقِصٌ عَنْ عُمَرَانِ الْخَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبَدْوِ، وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ الْفَلَاحِ، وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ، وَمَعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ، فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ بُحَارٍ وَخَبَاطٍ وَحَدَادٍ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي الْفَلَاحِ وَغَيْرِهِ. وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالْدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ، وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّ الزَّرَاعَةِ، وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضْلَاتِهِ أَلْبَانًا وَأُوبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعُوْضُونَهُمْ عَنْهُ بِالْدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ. إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِّ، وَحَاجَةُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ. فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ.

فَمَا دَامُوا فِي الْبَادِيَةِ، وَلَمْ يَحْصِلْ لَهُمْ مَلِكٌ وَلَا اسْتِيْلَاءٌ عَلَى الْأَمْصَارِ، فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ، كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لَغَلْبِ الْمَلِكِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعِ اسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِيْنَ، وَإِلَّا انْتَقَضَ عُمَرَانُهُ. وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ، إِمَّا طَوْعًا يَبْذِلُ الْمَالَ لَهُمْ، ثُمَّ يَبْذِلُ<sup>(١)</sup> لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ، فَيَسْتَقِيمُ عَمْرَانُهُمْ، وَأَمَّا كَرَاهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ بِالْتَّغْرِيبِ<sup>(٢)</sup> بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصَلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِيْنَ، فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لَذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عَمْرَانِهِمْ، وَرُبَّمَا لَا يَسْعَهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ النُّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى، لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَدْوِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا<sup>(٣)</sup>، فَلَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ الْمِصْرِ. فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ. وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ)<sup>(٤)</sup>. تمت. [ظ ١/٦٤].

١ - في ن: يدي.

٢ - في ن: بالتفريق.

٣ - في ن: غيرهم.

٤ - ليس في ظ.

### ٣- الدول

- ١- حصول الملك والدولة العامة بالقبيل والعصية.
- ٢- استغناء الدولة المستقرة عن العصية.  
وضع الإمامة في آخر العقائد الإيمانية..  
تبيين وهم للطراطوشي.
- ٣- استغناء بعض أهل النصاب الملكي عن العصية في حدوث دولة لهم.  
الأدارة والعبيدون..
- ٤- الدين (نبوة أو دعوة حق) أصل الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك.  
لجمع القلوب وذهاب التنافس.
- ٥- الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصية.  
سبب ذلك.  
القادسية واليرموك.  
دولة لمتونة ودولة الموحدين..  
أثر فساد الدين في انتقاض الأمر..  
٦- لا تتم الدعوة الدينية من غير عصية..  
سبب ذلك..  
ثورة المرابطين.  
موقفه من الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء.  
أحوال الدول وما يحتاج لإزالتها.  
أول ابتداء هذه الرعة.  
فتنة طاهر.. خالد الديوس.. سهل بن سلامة الأنصاري.  
وصف الموسوسين بذلك.  
ادعاء المهدوية: التوبذري.. العباس.
- ٧- حدود الدولة وأنها لا تزيد عليها.

سبب ذلك.

أهمية العاصمة.

الفرس .. الروم .. العرب.

٨- أثر عدد القائمين بالدولة على عظمها واتساعها وطول أمدها.

سبب ذلك.

أمثلة.

٩- الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة.

سبب ذلك..

أهل أفريقية .. بنو إسرائيل.

قلة العصائب تسهل تمهيد الدولة.

مصر .. الشام .. الأندلس.

١٠- من طبيعة الملك: الانفراد بالمجد.

سر ذلك.

١١- من طبيعة الملك: الترف.

١٢- من طبيعة الملك: الدعة والسكون.

١٣- إذا استحكمت طبيعة الملك (الانفراد بالمجد، الترف، الدعة والسكون) أقبلت الدولة على الهرم.

بيان ذلك من ثلاثة أوجه.

١٤- للدولة أعمار طبيعية كما للأشخاص.

العمر الطبيعي.

أعمار الدول.

ثلاثة أجيال.

١٥- انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة.

معنى الحضارة.

تقليد أهل الدولة المستجدة لمن سبقهم.

تقليد العرب للفرس والروم.

وصف إعراس المأمون ببوران.

عرس في طليطلة.

وليمة ختان أقامها الحجاج.

الأعطيات والجوائز.

الملك ⇨ الثروة والنعمة ⇨ الترف ⇨ الحضارة.

١٦- الترف في أول الدولة يزيد لها قوة إلى قوتها.

سبب ذلك مع الأمثلة.

١٧- أطوار الدولة واختلاف الأخلاق تبعاً لذلك:

أ- طور الظفر.

ب- طور الاستبداد.

ت- طور الفراغ والدعة.

ث- طور القنوع والمسالمة.

ج - طور الإسراف والتبذير.

١٨- آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها.

سبب ذلك.

مصانع عاد وثمود. وعوج بن عناق.

إيوان كسرى.

الرد على مزاعم الفلاسفة ومن تابعهم في عظم أجسام الأولين.

حال الأعراس.

أعطيات الدول.

وثيقة عن دخل بيت المال ببغداد. ومناقشتها.

رحلة ابن بطوطة. وميله إلى صدق ما فيها.

١٩- استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي والمصطنعين.

٢٠- أحوال الموالي والمصطنعين في الدول.

أسباب قوة الروابط بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك.

أسباب ضعف هذه الروابط بعد حصول الملك.

اختلاف حال المصطنعين بعد حصول الملك.

٢١- ما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه.

٢٢- المتغلبون على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك.

٢٣- حقيقة الملك وأصنافه.

الملك الكامل والملك الناقص.

٢٤- شدة الذكاء مضرة بالملك ومفسد له في الأكثر.

الصفات المطلوبة في الراعي التي تبقى على الرعية.

حسن الملكة وتوابعها.

من شروط الشارع في الحاكم.

الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة.

٢٥- معنى الخلافة والملك.

٢٦- اختلاف الأمة في حكم المنصب وشروطه.

الخلاف في التسمية: بخليفة الله.

وجوب نصب الإمام.

شروط هذا المنصب:

العلم.. العدالة.. الكفاية.. سلامة الحواس والأعضاء.. النسب القرشي.

توابع الحواس: المنع من التصرف وأقسامه.

الخلاف في النسب القرشي وميله إلى عدم اعتبارها عند فقد العصبية.

الأمر الشرعي لا يخالف الأمر الوجودي.

٢٧- مذاهب الشيعة في حكم الإمامة.

تعريف الشيعة.

النص على علي رضي الله عنه.

انقسام النصوص إلى جلي وخفي.

اختلافهم في مساق الخلافة بعد علي.

الزيدية..

الغلاة..

الكيسانية..

التناسخ..

الواقفية وقولهم بعودة الإمام إلى الحياة..

الهاشمية..

الإمامية.. الإسماعيلية.. الإثنا عشرية..

٢٨- انقلاب الخلافة إلى الملك.

المعاني التي ذمها الشارع من العصبية والغضب والشهوات والملك.

حوار معاوية وعمر حول أبهة الملك.

رفض الصحابة للملك وأحواله.

فتح الدنيا على الصحابة..

الفتنة بين علي ومعاوية ومقاصدها..

سبب وجود الملك.. معاوية.

سبب عدم قدرة عمر بن عبد العزيز على تولية القاسم من بعده.

لا يعني الانفراد بالملك الظلم.. سليمان وداود.

سبب العهد ليزيد بن معاوية. والعهد لعبد الملك بن مروان.

استعمال طبيعة الملك في الأغراض الدنيوية أدى لقيام الدعوة العباسية..

أبو جعفر المنصور يخبر عن أحوال بني أمية.

إيثار الدين على الدنيا في أول الأمر ولو أدى إلى الهلاك.. عمان.. علي.

ذهاب الخلافة بذهاب عصبية العرب.

الخلافة بدون ملك ⇨ خلافة مع الملك ⇨ انفراد الملك.

٢٩- معنى البيعة.

في اللغة والشرع.

بيعة النبي والخلفاء.

حدوث الإكراه فيها.

فتوى مالك بسقوط يمين الإكراه.

البيعة في العرف.

٣٠ - ولاية العهد.

حقيقة الإمامة.

عدم اتهام الإمام فيمن يوليه من بعده.

نماذج من حياة الصحابة ومن تبعهم.

فرار ابن عمر من ولاية العهد.

أثر وازع الدين.

أثر العصية للملك في إبعاد وازع الدين..

عهد المأمون لعلي الرضا ونقض العباسية للبيعة.

متممات ضرورية:

- فسق يزيد.

- الوصية لعلي وشبهة الإمامية في ذلك.

- شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين.

عدالتهم..

النظر بعين الإنصاف.

موقف الصحابة من حرب الحسين ويزيد.

غلط ابن العربي في تغليب الحسين.

فتنة ابن الزبير.

النهي عن التعرض لأهل القرون الأولى.

٣١ - الخطط الدينية الخلافة.

حقيقة الخلافة.

إمامة الصلاة.

الفتيا.

القضاء. وما يتبعها من الشرطة وتقسيم وظائفهم.

سبب إخراج الفقهاء والقضاة من أهل الشورى.

العدالة: تابعيتها للقضاء، حقيقتها، شروطها.

الحسبة.



السكة.

تحول بعض الوظائف الخلافية إلى سلطانية.

اندثار بعض رسوم الخلافة.

٣٢- من سمات الخلافة: اللقب بأمر المؤمنين.

أولية التسمية بهذا اللقب.

الإمامة = الخلافة.

تجافي بني أمية عن ذلك.

أثر ذهاب عصبية العرب في تغير الألقاب.

ألقاب تشريفية لملوك العجم في المشرق.

انتحاهم الألقاب الخاصة بالملك بعد استبدادهم بالملك.

تقاسم ملوك الطوائف بالأندلس لألقاب الخلافة وسبب ذلك.

اكتفاء صنهاجة ومغراوة بلقب السلطان وسبب ذلك.

إعادة ابن تاشفين رسوم الخلافة إلى المغرب.

دعوة الموحدين ورأي الإمام المهدي في الإمام المعصوم.

٣٣- معنى البابا والبطرك والكوهن.

حاجة الملة لقائم بأمر النبي عند غيبته.

سبب اتحاد الخلافة والملك في الإسلام وانفصالهما عند غيرهم.

سيرة بني إسرائيل بعد موسى صلى الله عليه وسلم.

سيرة المسيح صلى الله عليه وسلم وحواريه.

كتابة الأناجيل وتعددتها واختلافاتها.

من كتب اليهود.

من كتب النصارى.

اختلاف القياصرة في اعتماد النصرانية ثم تبني قسطنطين لها.

مجمع نيقية.

فرق النصارى.

٣٤- مراتب الملك والسلطان وألقابها.

دخول الوظائف السلطانية تحت الخلافة.  
كلامه من حيث طبائع العمران لا الأحكام الشرعية.  
الإحالة على كتب الأحكام الشرعية.

الوزارة:

أحوال السلطان وتصرفاته.  
أقسام الوزارة: تنفيذ.. تفويض.  
دراسة تاريخية للمعاني المتعلقة بالوزارة.

الحجابه:

تغير مفهوم الحجابه من الدولة الأموية إلى دولة الترك.  
معنى ذي الوزارتين.  
ديوان الأعمال والجبايات:  
معنى الديوان وأولية نشأته.

ديوان الخراج..

ديوان العطاء..

صاحب الأشغال..

ناظر الجيش..

أستاذ الدولة.. أستاذ الدار.. خازن الدار.

ديوان الرسائل والكتابة:

ضرورتها.

من خططها: التوقيع.. ومعنى ذلك.

الشروط المطلوبة في صاحب هذه الرتبة..

رسالة عبد الحميد إلى الكتاب.

الشرطة:

صاحب الشرطة = الحاكم = صاحب المدينة = الوالي.

شرطة كبرى وشرطة صغرى.

أصل وضعها واختلاف الدول في صلاحيات صاحبها.

## قيادة الأساطيل:

اختصاصها بملك المغرب وإفريقية..

تسمية صاحبها: البلمند..

سيطرة المسلمين على البحر إلى عهد العبيدين.

مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية..

استعادة الثغور أيام صلاح الدين الأيوبي.

٣٥- التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول.

الحاجة إلى السيف أول الدولة.

الاستغناء عن السيف في وسط الدولة.

تغير حال الفريقين مع تبدل الحاجة إليهم.

خوف صاحب السيف من تقلب السلطان عند الاستغناء عنهم.

٣٦- شارات الملك والسلطان الخاصة بهم:

الآلة: ألوية.. رايات.. قرع طبول.. نفخ في الأبواق والقرون.

سر استخدام ذلك في رأي أرسطو والرد عليه.

أثر الموسيقى في النفوس البشرية وكذلك الحيوانات.

سبب إكثار الرايات وتلوينها.

عدم استخدام الطبول والأبواق في أول الدولة الإسلامية.

المسودة والمبيضة..

الشارات في الدول وصولاً إلى الترك والفرنجة وتسمياتها عندهم.

السريـر: تنوعه في الأمم وأول من اتخذها في الإسلام.

السكة: معنى ذلك.

أول من ضرب الدينار الإسلامي.

أشكال الدنانير والدراهم وما كتب عليها.

حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما.

الخاتم: أصله الشرعي.

كيفية الخاتم والختم به.

ديوان الختم.

طين الختم.

الطراز: صناعة الثياب.

ديوان الطراز.

تابعيتها للدول، وانفصالها عنها في دولة الترك.

الفساطيط والسياج:

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة:

أول من اتخذها.

أثر الترف في وجودها.

أول من اتخذ المنبر.

أول من دعا للخلفاء في الخطبة.

تساهل الماهد للدولة في عدم تعيينه بالاسم في الخطبة.

إلزام الخطباء بالدعاء للحكام في طور الترف.

٣٧- الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.

أسبابها..

أصنافها..

أنواع الحروب:

قتال الزحف.

قتال الكر والفر.

الكراديس.. الساقة.. التعبئة..

القلب.. المقدمة.. الميمنة.. الميسرة.

ضرب المصاف وراء العسكر من الجمادات والحيوانات ( الفيلة - الأسرة

- المجبودة).

سبب كون الحروب أول الإسلام زحفاً.

أول من أبطل الصف في الحروب.

سبب اتخاذ ملوك المغرب للفرجة في جندهم.  
صفة قتال أمم الترك.  
حفر الخنادق عند الأوائل، وسبب تركه عند الأواخر.  
علم الحرب في وصية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.  
سياسة الحرب في قصيدة الصيرفي.  
مخالفة القصيدة لوصية عمر رضي الله عنه لأبي عبيد الثقفي.  
أسباب النصر: ظاهرة.  
خفية: بشرية.. سماوية.  
الرد على الطرطوشي في اعتباره الأسباب الظاهرة فقط.  
الشهرة والصيت.

٣٨- الجباية:

سبب قتلها أول الدولة وكثرتها آخرها.  
تدرج الدولة في زيادة الضرائب.  
أثر كثرة الضرائب في انقباض الرعايا عن الاعتماد.  
٣٩- المكوس آخر الدولة.

كساد الأسواق بزيادة المكوس.  
٤٠- أثر التجارة من السلطان على الرعايا والجباية.

صفات ملوك الفرس وما يشترط عليه.

نماء مال السلطان بالجباية.

٤١- تتكون ثروة السلطان وحاشيته في وسط الدولة.  
سبب ذلك.

محاولة فرار أهل الدولة بما في أيديهم من أموال.  
أسباب فشلهم في تحقيق المرجو من هذا الفرار.  
غلطهم في توهم الحاجة لأن شهرتهم تكفيهم الحاجة.

٤٢- نقص العطاء من السلطان بسبب نقص الجباية.

٤٣- الظلم مؤذن بخراب العمران.

سبب ذلك.

ذهاب آمال الناس في الاكتساب عند الاعتداء على أموالهم.

وفور العمران ونفاق أسواقه بالأعمال.

سبب هجرة الناس من الدولة.

نصيحة الموبدان لملك الفرس.

وقوع الخراب بالتدريج على مقدار اتساع الدولة.

حصول النقص في العمران تابع لوجود الظلم والعدوان.

تعريف الظلم، وأنه أعم من أخذ الأموال.

حكمة تحريم الظلم في الشرع.

مقاصد الشرع الضرورية الخمسة.

عدم وضع عقوبات زاجرة عن الظلم كما هو في الزنا والسرقة..

الفرق بين ظلم الحراة وظلم السلطان.

من أشد الظلم: تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق.

التسلط على أموال الناس بشرائها بأبخس الأثمان.

أخذ الأموال مجاناً بدون مبررات يؤدي إلى الخلل والفساد دفعة.

سبب شرع المكايسة في البيع والشراء.

الداعي إلى ذلك: الترف وكثرة النفقات.

سبب استحداث الأسماء المتنوعة للجبايات.

٤٤ - الحجاب:

كيفية حدوثه في الدول.

عظمه وتعدده عند الهرم.

الحجاب الأول: أول الدولة.

الحجاب الثاني: وسط الدولة.

اتخاذ العباسيين: دار الخاصة ودار العامة.

الحجاب الثالث: آخر الدولة.

٤٥ - انقسام الدولة الواحدة:

أول آثار الهرم.

سببه توجس المقرين من السلطة من البطش بهم.  
أمثلة من تاريخ المسلمين والعرب وغيرهم.

٤٦ - عدم ارتفاع الهرم إذا نزل بالدولة.

شبه ذلك بالأمراض المزمنة التي تصيب البشر.  
العادات مانعة من تغيير ما تعود.

خرق الأنبياء للعوائد.

الاستعاضة عن العصبية بالأهمة.

توهم النشاط الذي يسبق الموت لبعضهم فيظنه حياة وهو موت.

٤٧ - كيفية طروق الخلل للدولة.

أسس الملك: الجند، والمال.

أثر الترف والقهر في تفتيت العصبية وإضعاف الجند.

أثرهما في إفساد الرعايا وتشتتهم وقلة أعمالهم.

٤٨ - اتساع نطاق الدولة إلى نهايته في أول الدولة.

تضايق نطاق الدولة طوراً بعد طور إلى فنائها واضمحلالها.

٤٩ - حدوث الدول وتجددها.

أنواعه: استبداد ولاية الأطراف، ثم تنازعهم.

غزو خارجي ممن يجاور الدولة.

٥٠ - استيلاء الدولة المستعدة على المستقرة بالمطاول لا بالمناجزة.

أسباب ذلك: نفسياً - اجتماعياً - اقتصادياً - سياسياً.

الأمور النفسية.

العوائد والطبائع المألوفة .

كثرة أرزاق الدولة المستقرة.

انقطاع الأخبار بينهما وأسبابه.

أمثلة: العباسيون، العبيديون، السلاجقة، المرابطون..

عدم تأثر الفتوحات الإسلامية بهذا القانون لأنها معجزة.

٥١- وفور العمران وكثرة الموتان والمجاعات آخر الدولة.  
أسبابه.

أثر كثرة العمران في العفونات والأوبئة العامة.  
٥٢- ضرورة السياسة للعمران البشري.

السياسة الشرعية: أثرها، صلاحها.

السياسة العقلية: أثرها، أوجهها.

عدم دخول السياسة المدنية والمدينة الفاضلة في هذه الضرورة.

كتاب طاهر بن الحسين لابنه في آداب الملوك والسياسة:

أهميته.

نصه.

٥٣- أمر الفاطمي (المهدي المنتظر):

أشراط الساعة.

الأحاديث النبوية في شأنه:

دراستها وفق قواعد المصطلح، وقلة السالم من النقد.

رأي الشيعة.

رأي المتصوفة في المهدي والكشف وقولهم بالقطب والأبدال.

تشابه آراء الشيعة والمتصوفة في المهدي.

عرض رأي ابن أبي واطيل وابن عربي والكندي.

اليوم الحمدي.

ضرورة العصبية لوجوده.

تلاشي عصبية الفاطميين وقريش.

نماذج من مدعي المهديوية.

ظهور دعوات إلى الحق بدون انتحال للمهديوية:

حال دعاةها.

حال المدعوين.



تلاشي الدعوة بموت صاحبها.

نماذج من هؤلاء الدعاة.

٥٤ - حدثان الدول والأمم، الملاحم، الجفر [أخبار الدول الحادثة].

سبب وجود الكهان والمنجمين..

عناية الملوك بالكهان.

وجود الكهانة في الأمم: نماذج.

مدة هذه الأمة:

مستندات أهل الأثر.

مناقشة المصنف لما أورده.

الجفر: نسبته، ومناقشة ما فيه.

استدلال المنجمين بالأحكام النجومية: عرض لكيفية تقريرهم.

الملاحم: عرض لنماذج منظومة منها عن حدثان الدول كالترك..

حيل بعض الأذكىاء: الدانيالي، الباجرقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

### ١-٣- الفصل الثالث

من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والراتب السلطانية

وما يعرض في ذلك كله من الأحوال.

وفيه قواعد ومتممات:

### ١-٣-١- الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وذلك أنا قرّرنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية، لما فيها من النعرة والتذامر واستمات كل واحد منهم دون صاحبه.

ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشّهوات البدنية، والملاذّ النفسانية، فيقع فيه التنافس غالباً، وقلّ أن يُسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشيء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفاً.

وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة، ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها، وطال أمد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم فيها جيلاً بعد جيل؛ فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة، إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صيغتهم، ووقع التسليم لهم، والاستغناء عن العصبية في تمهيد أمرهم، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله، وما لقي أولهم من المتاعب دونه، وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد، واستغنائهم في الغلب عن قوة العصبية، بما تلاشى وطنهم<sup>(١)</sup> وخلا من العصائب. والله قادر على ما يشاء، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ [البقرة: ٢٩] وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## ١-٣-٢. الفصل الثاني

في أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتْ الدَّوْلَةُ وَتَمَهَّدَتْ فَقَدْ تَسْتَغْنِي عَنِ الْعَصِيَّةِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الدَّوْلَةَ الْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا، يَصْعَبُ عَلَى النُّفُوسِ الْإِنْقِيَادُ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلَا اعْتَادُوهُ، فَإِذَا اسْتَقَرَّتِ الرَّئَاسَةُ فِي أَهْلِ النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِالْمُلْكِ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ فِي أَعْقَابِ كَثِيرِينَ وَدَوَّلَ مُتَعَاقِبَةٍ، نَسِيَتْ النُّفُوسُ شَأْنَ الْأَوَّلِيَّةِ، وَاسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذَلِكَ النَّصَابِ صِبْغَةَ الرَّئَاسَةِ، وَرَسَخَ فِي الْعَقَائِدِ دِينَ الْإِنْقِيَادِ لَهُمْ وَالتَّسْلِيمِ، وَقَاتَلَ النَّاسُ مَعَهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ قِتَالَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ. فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ. بَلْ كَأَن طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا يُبَدَّلُ، وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ.

وَلَأَمْرٍ مَا يَوْضَعُ الْكَلَامُ فِي الْإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلَامِ عَلَى الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ، كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا.

وَيَكُونُ اسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ [ظ ٢/٦٤] إِمَّا بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَفَعِينَ<sup>(١)</sup> الَّذِينَ نَشَأُوا فِي ظِلِّ الْعَصِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاحِلِينَ فِي وَلايَتِهَا.

وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ. فَإِنَّ عَصِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الْوَائِقِ، وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى النَّوَاحِي، وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلِكُوهَا، وَصَارَ الْخَلَائِقُ فِي حَكْمِهِمْ. ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وَمَلَكَ السُّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حَكْمِهِمْ. ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وَزَحَفَ آخِرُ التَّارِ فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ، وَحَمَا رَسْمَ الدَّوْلَةِ.

وَكَذَا صَنَهَاجَةُ بِالْمَغْرِبِ، فَسَدَتْ عَصِيَّتُهُمْ مِنْذُ الْمِئَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا، وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةً الظَّلَّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ الْقَلْعَةِ وَسَائِرِ تُغُورِ أَفْرِيقِيَّةِ. وَرُبَّمَا انْتَرَى<sup>(٢)</sup> بِتِلْكَ التُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا. وَالسُّلْطَانُ وَالْمُلْكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ، حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ. وَجَاءَ الْمُوحِدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ فَمَحُوا آثَارَهُمْ.

١ - في ظ: المصطفين.

٢ - أي: وثب.

وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ، لَمَّا فَسَدَتْ عَصِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مَلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا، وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ، وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ، وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمُلْكِ. وَلَبَسُوا شَارْتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ، لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلَا قِبَائِلَ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ، وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ. كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ<sup>(١)</sup>:

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ  
الْقَابُ مَمْلُكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمُ بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ، وَالطُّرَّاءَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوةِ مِنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ، اقْتِدَاءً بِالدَّوْلَةِ - فِي آخِرِ أَمْرِهَا - فِي الْإِسْتَظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ. وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ<sup>(٢)</sup> عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَحَظَّ كَبِيرٌ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا، وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمُرَابِطُونَ أَهْلَ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةٍ، فَاسْتَبَدَّلُوا بِهِمْ وَأَزْلَوْهُمْ عَنْ مَرَكَزِهِمْ، وَمَحَوْا آثَارَهُمْ، وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفَقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ.

فَبِهَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ وَحَمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا. وَقَدْ ظَنَّ الطُّرُطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدَّوْلِ بِإِطْلَاقٍ هُمُ الْجُنْدُ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الْآهْلِ [ظ ١/٦٥]. ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ الْمُلُوكِ<sup>(٣)</sup>.

وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدَّوْلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدَّوْلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِي النَّصَابِ، وَاسْتِحْكَامِ الصَّبْغَةِ لِأَهْلِهِ، فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا، وَخَلَقَ جَدَّتَهَا، وَرَجُوعَهَا إِلَى الْإِسْتَظْهَارِ بِالْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ<sup>(٤)</sup>، ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَخْدَمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالْأَجْرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دَوْلَ الطَّوَائِفِ، وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَانْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ، وَاسْتِبْدَادِ<sup>(٥)</sup> كُلِّ أَمِيرٍ بِقَطْرِهِ. وَكَانَ فِي

١ - نسب المقرئ في نفح الطيب (١٢٥/١) البيهقي لأبي بكر بن عمار.

٢ - يقصد: استبداده على هشام أحد ملوك الأندلس.

٣ - سراج الملوك: ٢٨٧.

٤ - جمع صنعة، وهو الرجل المصطنع ليكون من خاصة الإنسان.

٥ - أي استقلاله بالأمر.

إيالة المُستعين بن هودِ وابنه المُظفرَ أهلُ سِرْقَسْطَة، ولم يكن بقيَ لهم من أمرِ العصبية شيء لا ستيلاء الترف على العربِ منذ ثلاث مئة من السنين وهلاكهم، ولم يُرَ إلا سلطاناً مستبداً<sup>(١)</sup> بالملك عن عشائره، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع فيه ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة. فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة، وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية. فتفطن أنت له، وافهم سر الله فيه، ﴿والله يؤتي مملكه من يشاء﴾ [البقرة: ٢٤٧].

## ١-٣-٣- الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصية

وذلك أنه إذا كان لعصية<sup>(١)</sup> غلب كثير على الأمم والأجيال، وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد، فإذا نزع إليهم هذا الخارج، وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه، اشمولوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه، وعنوا بتمهيد دولته، يرجون استقراره في نصابه، وتناولوا الأمر من يد أعياصه<sup>(٢)</sup>، وجزأه لهم على مظاهرتهم، باصطفائهم لرتب الملك وخططه، من وزارة أو قيادة أو ولاية ثغر، ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه تسليمًا لعصيته، وانقيادًا لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم، وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم، فلو راموها معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها، وهذا كما وقع للأداسة بالمغرب الأقصى والعبيديين بأفريقية ومصر، لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا إلى طلبها من أيدي بني العباس، بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف: لبني أمية أولاً، ثم لبني هاشم من بعدهم، فخرجوا بالقاصية من المغرب، ودعوا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للأداسة. وكتامة وصنهاجة وهوارة للعبيديين. فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم، واقتطعوا من ممالك العباسيين [ظ ٦٥/٢] المغرب كله، ثم أفريقية. ولم يزل ظل الدولة يتقلص، وظل العبيديين يمتد إلى أن ملكوا مصر والشام والحجاز، وقاسموهم في الممالك الإسلامية شق الأبلمة<sup>(٣)</sup>. وهؤلاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك، كلهم مسلمون للعبيديين أمرهم مدعون لملكهم، وإنما كانوا يتنافسون في الرتبة عندهم خاصة، تسليمًا لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم، ولما استحكم من الغلب لقريش ومصر على سائر الأمم، فلم يزل الملك في أعقابهم إلى أن انقرضت دولة العرب بأسرها. ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ [الرعد: ٤١].

١ - في ن: لعصيته.

٢ - جمع عيص وهو الأصل. وهو يطلق على الشجر الكبير الملتف.

٣ - أي: مناصفة، والأبلمة: مثلثة الهمزة واللام خوص يشق شقين.

## ١-٣-٤- الفصل الرابع

في أنَّ الدَّولَ العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين

إمَّا من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأنَّ الملك، إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّغْلِبِ، وَالتَّغْلِبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ. وَاتِّفَاقُ الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمُطَابَقَةِ، وَجَمْعُ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا، إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَسِرَّةُ: أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلِ إِلَى الدُّنْيَا، حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَا الْخِلَافُ. وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجْهَتَهَا، فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ، وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَايُضُ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لَذَلِكَ، فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ، كَمَا نُبِّئُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبِهِ التَّوْفِيقُ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.

## ١-٣-٥- الفصل الخامس

في أنَّ الدَّعوة الدِّينية، تزيدُ الدَّولة في أصلِها قوَّةً على قوَّة العَصِيَّة

الَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنْ عِدْدهَا

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ: أَنَّ الصُّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ، وَتَفْرُدُ الْوَجْهَةَ إِلَى الْحَقِّ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْإِسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ<sup>(١)</sup> لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ، لِأَنَّ الْوَجْهَةَ وَاحِدَةً، وَالْمَطْلُوبَ مَتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ. وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا، وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ، فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ، وَتَخَاضَهُمْ لَتَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ، فَلَا يَقَاوِمُونَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ، بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِّ وَالذَّلِّ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدَرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفَتْوحَاتِ فَكَانَتْ جِيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَرْمُوكِ بَضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ، وَجُمُوعُ فَارَسَ مِئَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ، وَجُمُوعُ هِرَقْلَ - عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ - أَرْبَعُ مِئَةِ أَلْفٍ، فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ.

واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين، فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبيَّة أو يشف<sup>(٢)</sup> عليهم، إلا أنَّ الاجتماع الدِّيني ضاعف قوَّة عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْإِسْتِبْصَارِ وَالْإِسْتِمَاتَةِ [ظ ١/٦٦] كما قلناه، فلم يقف لهم شيءٌ.

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدِّين وفسدت، كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ، فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافئةِ لَهَا أَوْ الزَّائِدِ الْقُوَّةَ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا، وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً.

واعتبر هذا في الموحدين مع زَنَاتَةٍ، لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةٌ أَبَدِيٌّ مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوْحُشًا، وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبَسُوا صِبْغَتَهَا، وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا، فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةٍ أَوَّلًا وَاسْتَبَعَوْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةِ وَالْبَدَاوَةِ أَشَدَّ مِنْهُمْ،

١ - أي الاهتداء عن طريق الاستدلال، ويمكن تسميته بالوحي. (العصبيَّة والدولة: ٤٣٦).

٢ - أي: يزيد.



فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَغَلِبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

## ١-٣-٦- الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عَصِيَّة لا تَمُ

وهذا لما قَدَّمناه، من أن كُلَّ أمرٍ تحملُ عليه الكافَّةُ، فلا بُدَّ له من العَصِيَّة. وفي الحديث الصحيح كما مرَّ: «ما بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»<sup>(١)</sup>. وإذا كان هذا في الأنبياء، وهم أولى الناسِ بخرقِ العوائدِ، فما ظنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَا تُخَرِّقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصِيَّةٍ.

وقد وقعَ هذا لابنِ قِسيٍّ شيخِ الصُّوفيَّةِ، وصاحبِ كتاب: خَلْعُ النَّعْلَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ. ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاعِيًّا إِلَى الْحَقِّ وَاسْمِي أَصْحَابُهُ بِالْمُرَابِطِينَ قُبِيلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِيِّ، فَاسْتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلًا لِشُغْلٍ لِمَتُونَةٍ، بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوحِدِينَ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قِبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ اسْتَوْلَى الْمُوحِدُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أذْعَنَ لَهُمْ، وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحَصْنِ أَرْكَشَ، وَأَمَكْنَهُمْ مِنْ ثَغَرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ، وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: أَحْوَالُ الثَّوَارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَحَلِّينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ، يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ، فَيَكْثُرُ أَتَابِعُهُمْ وَالْمُتَلَثِّثُونَ<sup>(٢)</sup> بِهِمْ مِنَ الْغَوَاةِ وَالذَّهْمَاءِ، وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمِهَالِكِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَأْزُورِينَ<sup>(٣)</sup> غَيْرَ مَأْجُورِينَ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا أَمْرٌ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»<sup>(٤)</sup>.

١ - أي: في عز وحماية بفضل قومه. حديث صحيح. أخرجه أحمد (٣٣٢/٢) و٣٤٦ و٣٨٤ و٣٨٩ و٤١٦ و٥٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥ و٨٩٦) والترمذي (٣١١٦) من حديث أبي هريرة. وليس في صحيح البخاري ولا مسلم.

٢ - الثلاثة والتثلث: الإقامة. كأنه قال: والمتصقون بهم التصاق الإقامة. وفي ن: (والمتشبهون) و(المتشبثون).

٣ - أي: عليهم الوزر.

٤ - أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ولا بأس من نقل ما قاله الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث ليتبين مذاهب العلماء في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال (١٩١/١ - ١٩٤): وأما قوله صلى الله عليه وسلم (فليغيره): فهو أمر بإيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا

بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم، كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يكثرث بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء، ووجوبه بالشرع لا بالعقل، خلافاً للمعتزلة، وأما قول الله عز وجل: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥] فليس مخالفاً لما ذكرناه، لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿ولا تنزروا زرة﴾ [أنعام: ١٦٤]. وإذا كان كذلك: فما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل، لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول. والله أعلم.

ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف. ثم إنه قد يتعين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو: لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف.

قال العلماء رضي الله عنهم: لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال الله عز وجل: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾ [المائدة: ٩٩] ومثل العلماء هذا بمن يرى إنساناً في الحمام أو غيره، مكشوف بعض العورة ونحو ذلك. والله أعلم.

قال العلماء: ولا يشترط في الأمر والنهي أن يكون كامل الحال، ممثلاً ما يأمر به مجتنباً ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان خلافاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاها. فإذا أحلّ بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟.

قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين. قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاية — في الصدر الأولى، والعصر الذي يليه — كانوا يأمرون الولاية بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية، والله أعلم.

ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها. وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يك للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن — على أحد المذهبين — كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عد كثيرين من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر: المصيب واحد، والمخطئ غير متعين لنا، والاثم مرفوع عنه لكن إن أدبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر، وذكر أفضى القضاة أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي في كتابه الأحكام السلطانية خلافاً بين العلماء في أن من قلده السلطان الحسبة: هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد، أم لا يغير ما كان على مذهب غيره؟ والأصح: أنه لا يغير، لما ذكرناه، ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره، وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه، إذا لم يخالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً. والله أعلم.

واعلم: أن هذا الباب — أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — قد ضيّع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو بابٌ عظيم، به قوام الأمر وملاكة، وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصالح

والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣]. فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل: أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم لا سيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته ولا يهاب من ينكر عليه لارتفاع مرتبته، فإن الله تعالى قال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ [آل عمران: ١٠١] وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذي صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

واعلم: أن الأجر على قدر النصب، ولا يتاركة أيضاً لصداقته ومودته ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده، ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقاً، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته، وينقذه من مضارها وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته، وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه. وعدوه ممن يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل الله الكريم توفيقنا وأحبائنا وسائر المسلمين لمرضاته، وأن يعيننا بجوده ورحمته، والله أعلم.

وينبغي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يرفق، ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أحاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه، مما يتساهل أكثر الناس فيه من هذا الباب: مما إذا رأى إنساناً يبيع متاعاً معيماً أو نحوه، فإنهم لا ينكرون ذلك، ولا يعرفون المشتري بعيه، وهذا خطأ ظاهر، وقد نص العلماء على أنه يجب على من علم ذلك أن ينكر على البائع، وأن يعلم المشتري به، والله أعلم.

وأما صفة النهي ومراتبه: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح: «فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». وقوله صلى الله عليه وسلم: «فبقلبه». معناه: فليكرهه بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر، ولكنه هو الذي في وسعه. وقوله صلى الله عليه وسلم: «وذلك أضعف الإيمان». معناه - والله أعلم - أقله ثمرة، قال القاضي عياض رحمه الله: هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغير أن يغيره بكسل وجه أمكنه زواله به، قولاً كان أو فعلاً: فيكسر آلات الباطل، ويريق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، ويزع الفصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره، إذا أمكنه، ويرفق في التغيير جهده بالجاهل وبذي العزة الظالم المخوف شره إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، كما يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى، ويغلظ على المتماذي في عيئه والمسرّف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرًا أشد ما غيره، لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرًا أشد منه، من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه، وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى. وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان، ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحر، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره أو يقتصر على تغييره بقلبه. هذا هو فقه المسألة، وصواب العمل فيها عند العلماء المحققين، خلافاً لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال، وإن قتل ونيل منه كلّ أذى. هذا آخر كلام القاضي رحمه الله.

قال إمام الحرمين رحمه الله: ويسوغ لأحد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، مما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان. قال: وإذا جار والي الوقت، وظهر ظلمه وغشمه، ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول: فلاهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه، ولو

وأحوال الملوك والدول راسخة قويّة لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القويّة التي من ورائها عصيّة القبائل والعشائر، كما قدمناه [ظ ٦٦/٢].

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيّدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنّما أجرى الأمور على مُستقرّ العادة<sup>(١)</sup>، والله حكيم عليم.

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب، وكان فيه مُحِقّاً، قصر به الانفراد عن العصيّة فطاح في هوة الهلاك، وأمّا إن كان من المُلبّسي<sup>(٢)</sup>، بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق، وتنقطع به المهالك؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانتة والإخلاص له، والنصيحة للمُسلمين. ولا يشك في ذلك مُسلم، ولا يرتاب فيه ذو بصيرة.

وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر، وقتل الأمين، وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضى من آل الحسين، فكشف بنو العبّاس عن وجه النكير عليه، وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه، وبويع إبراهيم بن المهدي، فوقع الهرج ببغداد، وانطلقت أيدي الزعرة<sup>(٣)</sup> بها من

بشهر الأسلحة ونصب الحروب، هذا كلام إمام الحرمين. وهذا الذي ذكره من خلعه غريب، ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه. قال: وليس للأمر بالمعروف والبحث والتفتيش والتجسس واقتحام الدور بالظنون، بل إن عثر على منكر غيره جهده. هذا كلام إمام الحرمين.

وقال أقصى القضاة الماوردي: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات، فإن غلب على الظن استسرار قوم بها لأمانة وآثار ظهرت فذلك ضريان:

أحدهما: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثل: أن يخبره من يثق بصدقه: أن رجلاً خلا برجل ليقته أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذا الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث، حذراً من فوات مالا يستدرك، وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني: ما قصر عن هذه الرتبة، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه، فإن سمع أصوات الملاهي المنكرة من دار أنكرها خارج الدار ولم يهجم عليها بالدخول، لأن المنكر ظاهر وليس عليه أن يكشف عن الباطن. وقد ذكر الماوردي في آخر الأحكام السلطانية باباً حسناً في الحسبة، مشتملاً على جملة من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أشرنا هنا إلى مقاصدها، وبسطت الكلام في هذا الباب لعظم فائدته وكثرة الحاجة إليه، وكونه من أعظم قواعد الإسلام، والله أعلم.

١ - أي الكيفية التي أجرى الله بها الحوادث.

٢ - في ن: المتلبسين.

٣ - أي: المفسدون في الأرض.

الشُّطَّارِ<sup>(١)</sup> والحريَّةِ على أهل العافية والصَّوْنِ، وقطعوا السَّيْلَ، وامتَلأت أيديهم من نَهَابِ النَّاسِ، وباعوها علانيةً في الأسواق، واستعدى أهلها الحُكَّام فلم يُعدوهم، فتوافر أهل الدِّين والصَّلاح على منع الفُسَّاق، وكفَّ عاديتهم.

وقام ببغداد رجلٌ يُعرفُ بِخَالِدِ الدَّرِيوشِ<sup>(٢)</sup>، ودعا النَّاسَ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، فأجابهُ خلقٌ، وقاتل أهل الرِّعَاةِ فغلبهم، وأطلق يدهُ فيهم بالضَّرْبِ والتَّنْكِيلِ. ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ، يُعْرِفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةِ الْأَنْصَارِيِّ<sup>(٣)</sup>، وَيُكْنَى: أَبَا حَاتِمٍ، وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ، وَاتَّخَذَ الدِّيَّوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ، وَمَنْعَ كُلِّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَّةَ وَمَنْعَ الْخِفَارَةَ لِأَوْلَئِكَ الشُّطَّارِ، وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدَّرِيُوشُ: أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ. فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ: لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ. وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِثَّتَيْنِ، وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ، فغلبه وأسرهُ وانحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا، وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ.

ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْسُوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغْبَةِ أَمْرِهِمْ وَمَالِ أَحْوَالِهِمْ. وَالَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ: إِمَّا الْمُدَاوَاةَ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ؛ وَإِمَّا التَّنْكِيلَ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ، إِنْ أَحْدَثُوا [ظ ٦٧/١] هَرَجًا؛ وَإِمَّا إِذَاعَةَ السُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَّاعِينَ<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ، إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ، أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ.

وَأَكْثَرُ الْمُنْتَجَلِينَ لِمِثْلِ هَذَا، تَجَدُّهُمْ مَوْسُوسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَبَّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً أَمْتَلَأَتْ بِهَا جَوَانِحُهُمْ، وَعَجَزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَّةِ، فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الْهَلَكَةِ، فَيَسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُحْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَتَسْوَأُ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ.

١ - جمع شاطر وهو الخبيث واللص.

٢ - في النسخ: الدريوس. صحح من تاريخ الطبري (٨/ ٥٥٢-٥٥٣).

٣ - انظر أخباره في تاريخ الطبري (٨/ ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٦٣، ٥٧١، ٥٧٣).

٤ - من يصفعون على الأقفية للسخرية بهم وهوان شأنهم.

وقد كان لأوّل هذه المثة: خرج بالسُّوس رجلٌ من المتصوّفة يُدعى التّوبذري عمداً إلى مسجد ماسّة بساحل البحر هناك، وزعم أنّه الفاطمي المنتظر تليساً على العامّة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدّثان بانتظاره هنالك، وأنّ من ذلك المسجد يكون أصلُ دعوته، فتهافت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش، ثمّ خشي رؤساؤهم اتّساع نطاق الفتنة، فدسّ إليه كبير المصامدة يومئذٍ عمر السكسيوي من قتله في فراشه.

وكذلك خرج في غمارة أيضاً، لأوّل هذه المثة، رجلٌ يُعرف بالعبّاس، وادّعى مثل هذه الدّعوة، واتّبع نعيقه الأرذلون من سُفهاء تلك القبائل وأعمارهم، وزحف إلى بادس من أمصارهم، ودخلها عنوةً، ثمّ قتل لأربعين يوماً من ظُهور دعوته، ومضى في الهالكين الأوّلين.

وأمثال ذلك كثيرٌ، والغلطُ فيه من الغفلة عن اعتبار العصبيّة في مثلها. وأمّا إن كان التّليّس فأحرى أن لا يتمّ له أمرٌ، وأن ييوء بإثم، وذلك جزاء الظّالمين. والله سبحانه وتعالى أعلم. وبه التوفيق، لا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

## ١-٣-٧- الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك: أن عصبة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها، لا بُدَّ من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك. فإذا توزّعت العصائب كلها على الثغور والممالك، فلا بُدَّ من نفاد عددها، وقد بلغت الممالك حينئذٍ إلى حدٍّ يكونُ ثغراً للدولة وتحماً لوطنها، ونطاقاً لمركز مملكتها. فإن تكفّلت الدولة بعد ذلك زيادةً على ما بيدها، بقيَ دون حامية، وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعودُ وبالأدنى ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة.

وما كانت العصبة موفورة، ولم ينفد عددها في توزيع الحصص [٢/٦٧] على الثغور والنواحي، بقيَ في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية، حتى ينفصح نطاقها إلى غايتها. والعلة الطبيعية في ذلك، هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية. وكلُّ قوة يصدر عنها فعلٌ من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها. والدولة في مركزها أشدُّ ثمناً يكون في الطرف والنطاق، وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية، عجزت وأقصرت<sup>(١)</sup> عما وراءه، شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر<sup>(٢)</sup> عليه<sup>(٣)</sup>.

ثم إذا أدركها الهرم والضعف، فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف، ولا يزال المركز محفوظاً، إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملةً، فحينئذٍ يكون، انقراض المركز. وإذا غلب على الدولة من مركزها، فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحلُّ لوقتها؛ فإنَّ المركز كالقلب الذي تنبعث من الروح، فإذا غلب على القلب ومُلك انهزم جميع الأطراف.

١ - الإقصار: الإمساك عن الشيء مع القدرة عليه. والقصر: الكف عنه مع العجز.

٢ - أي: على أثر النقر عليه بحصاة مثلاً.

٣ - قال الدكتور عبد الكريم الياني في تمهيد في علم الاجتماع (ص ١٠٠ - ١٠١): يعتمد المؤلف في بعض المواضع من المقدمة تشبيهات فيزيائية لبيان طبيعة الظواهر الاجتماعية.... ويتضح أن الكاتب يعتبر العصبية على تعبيره، وهي ظاهرة اجتماعية، كسائر القوى الطبيعية في طبيعتها ويدعم اعتباره هذا بتشبيهين طبيعيين، وهو بذلك من السابقين في النظر إلى الأمور الاجتماعية من الوجهة الآلية الميكانيكية والفيزيائية كما ... نرى مثل ذلك عند بعض علماء الاجتماع.



وانظر هذا في الدولة الفارسيّة: كان مركزها المدائن؛ فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع، ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من أطراف ممالكه. وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشّام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبيهم المسلمون بالشّام، تحيَّزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية، ولم يضرهم انتزاع الشّام من أيديهم، فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن يأذن الله بانقراضه.

وانظر أيضاً شأن العرب أوّل الإسلام: لما كانت عصائهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشّام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السّند والحبشة وأفريقيّة والمغرب ثم إلى الأندلس.

فلما تفرّقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية، ونفذ عددهم في تلك التّوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعدُ وانتهى أمر الإسلام، ولم يتجاوز تلك الحدود، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها.

وكذا كان حال الدّول من بعد ذلك؛ كل دولة على نسبة القائمين بها في القلّة والكثرة، وعند نفاد عددهم بالتّوزيع، ينقطع لهم الفتح والاستيلاء، سنة الله في خلقه.

## ١-٣-٨- الفصل الثامن

في أَنَّ عِظَمَ الدَّوْلَةِ وَاتِّسَاعَ نِطاقِهَا، وطول أَمَدِهَا  
على نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْمُلْكَ، إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ. وَأَهْلُ الْعَصِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَةُ الَّذِينَ  
يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا، وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا. فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ  
عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ، كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرُ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا، وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذَلِكَ.

واعتبر ذلك بالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ [ظ ٦٨/١]: لَمَّا أَلْفَ اللَّهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ،  
وَكَانَ عَدْدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ  
وَعَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ مُضَرٍّ وَقَحْطَانٍ، مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ، إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى  
الْوَفَاةِ. فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لَطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمُلْكِ، لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمَى وَلَا وَزْرٌ،  
فَاسْتَبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَالرُّومَ، أَهْلَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ، وَالتَّرْكُ بِالْمَشْرِقِ،  
وَالْإِفْرَنْجَةُ وَالْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ، وَالْقُوطُ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطُّوا مِنَ الْحِجَازِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى،  
وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التَّرْكِ بِأَقْصَى الشَّمَالِ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ.

ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ قَبِيلُ كُتَامَةَ  
الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنْهَاجَةَ، وَمِنَ الْمَصَامِدَةِ، كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ، فَمَلَكُوا  
أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ. ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدْدُهُمْ أَقَلَّ  
مِنَ الْمَصَامِدَةِ قَصَرَ مِلْكُهُمْ عَنِ مُلْكِ الْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدْدِهِمْ مِنْ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ  
أَمْرِهِمْ.

ثُمَّ اخْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ لِهَذَا الْعَهْدِ، لِيَزَنَاتَةَ بَنِي مُرِينَ وَبَنَى عَبْدِ الْوَادِ؛ لَمَّا كَانَ  
عَدَدُ بَنِي مُرِينَ لِأَوَّلِ مَلِكِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ، كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ  
نِطاقًا، وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْغَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. يُقَالُ: إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرِينَ لِأَوَّلِ مَلِكِهِمْ،  
كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ. وَإِنَّ بَنَى عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا. إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرَّفْدِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ  
مِنْ أَعْدَادِهِمْ، وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ الْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ الْمُلْكِ يَكُونُ اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ  
وَقُوَّتُهَا.

وَأَمَّا طُولُ أَمْدِهَا أَيْضاً فَعَلَى تِلْكَ النَّسَبَةِ لِأَنَّ عُمُرَ الْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزَاجِهِ؛ وَمِزَاجُ الدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ؛ فَإِذَا كَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً، كَانَ الْمِزَاجُ تَابِعاً لَهَا، وَكَانَ أَمْدُ<sup>(١)</sup> الْعُمُرِ طَوِيلاً؛ وَالْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَوُفُورِهِ؛ كَمَا قُلْنَا.

وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ النِّقْصَ، إِنَّمَا يَدُو فِي الدُّوَلَةِ مِنَ الْأَطْرَافِ؛ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً، كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً، وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ، فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ، وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ، فَيَكُونُ أَمْدُهَا طَوِيلاً. وَانْظُرْ فِي ذَلِكَ دَوْلَةَ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَيْفَ كَانَ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ، لَا بَنُو الْعَبَّاسِ، أَهْلَ الْمَرْكَزِ، وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ<sup>(٢)</sup>، وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِ مِئَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ، كَانَ أَمْدُهَا قَرِيباً مِنْ مِئَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَدَوْلَةُ صَنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ الدُّوَلَةِ أَمْرَ أَفْرِيْقِيَّةٍ لِبَلَكِينِ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ [ظ ٢/٦٨]، إِلَى حِينَ اسْتِيلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ. وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاهَزُ مِئَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً. وَهَكَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا، ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥].

١ - فِي ن: أَمْر.

٢ - صَوَابُهُ: لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ بَنِي الْعَبَّاسِ أَهْلَ الْمَرْكَزِ وَبَنِي أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ.

## ١-٣-٩. الفصل التاسع

في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك: اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دونها، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت، وإن كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة.

وانظر ما وقع من ذلك بأفريقية والمغرب، منذ أول الإسلام، ولهذا العهد. فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات، فلم يغن فيهم الغلب الأول - الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفرنجية - شيئاً، وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج، والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة.

قال ابن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة، ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير، فما بعده. وهذا معنى ما ينقل عن عمر: أن أفريقية مفرقة لقلوب أهلها، إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد، ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة؛ ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم، والكافة دهماء، أهل مدن وأمصار، فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق. والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلك قبيلة، عادت الأخرى مكانها، وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب في تهديد الدولة بوطن أفريقية والمغرب.

وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل: كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط، من جانب الجزيرة والموصل، مالا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية، فصعب على بني إسرائيل تهديد دولتهم، ورسوخ أمرهم، واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى. وسرى ذلك الخلاف إليهم، فاختلفوا على سلطانهم، وخرجوا عليه. ولم يكن لهم ملك موطن<sup>(١)</sup> سائر أيامهم،

إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان، ثُمَّ الرُّومُ آخرَ أمرِهِم عندَ الجلاء، ﴿واللهُ غالبٌ على أمرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

وَبَعَكْسُ هَذَا أَيْضاً: الأوطان [ظ ١/٦٩] الخلوَّةُ<sup>(١)</sup> من العصبِيَّاتِ يسهلُ تمهيدُ الدولة فيها، ويكونُ سلطانُهُم وازعاً لقلَّةِ الهَرَجِ<sup>(٢)</sup> والانتقاضِ، ولا تحتاجُ الدَّولةُ فيها إلى كثيرٍ من العَصَبِيَّةِ، كما هو الشَّأْنُ في مصرَ والشَّامِ لهذا العهد؛ إذ هي حُلُوٌّ من القبائلِ والعَصَبِيَّاتِ، كأنَّ لم يكن الشَّامُ معدناً لهم كما قلناه. فملك مصرَ في غايةِ الدَّعةِ والرُّسوخِ لقلَّةِ الخوارجِ، وأهل العصابِ. إنّما هو سُلطانٌ ورعيَّةٌ، ودولتها قائمةٌ بِمُلُوكِ التُّركِ وعصائبِهِم يغلبون على الأمرِ واحداً بعدَ واحدٍ، وينتقلُ الأمرُ فيهِم من منبتٍ إلى منبتٍ، والخلافةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ من أعقابِ الخلفاءِ ببغداد.

وكذا شَأْنُ الأندلسِ لهذا العهد: فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ابنِ الأحمرِ سُلْطَانِهَا لم تكن لأوَّلِ دولتهم بقويَّةً، ولا كانت كَرَاتٍ<sup>(٣)</sup>، إنّما يكونُ أهلُ بيتٍ من بيوتِ العربِ أهلُ الدَّولةِ الأُمويَّةِ، بقوا من ذلك القلَّةِ. وذلك أنَّ أهلَ الأندلسِ لما انقرضتِ الدَّولةُ العَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ<sup>(٤)</sup>، وملكهم البربرُ من لَمْتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ سَمِعُوا مَلَكْتَهُمْ وَثَقُلَتْ وطأتُهُم عليهم، فَأَشْرَبَتْ القلوبُ بغضاءَهُم، وأمكنَ المُوَحِّدُونَ والسَّادَةُ في آخرِ الدَّولةِ كَثِيراً من الحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ في سبيلِ الاستظهارِ به على شأنِهِم، من تَمَلُّكِ الحَضْرَةِ مَرَاكِشَ. فاجتمعَ من كان بَقِيَ بها من أهلِ العَصَبِيَّةِ القَدِيمَةِ معادنُ من بيوتِ العربِ تحافى بهم المنبتُ عن الحاضرةِ والأمصارِ بعضَ الشَّيْءِ، ورسَخُوا في العَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابنِ هُوْدٍ وابنِ الأحمرِ وابنِ مَرْدَنِيشَ وأمثالِهِم، فقام ابنُ هُوْدٍ بالأمرِ ودعا بدعوةِ الخِلافةِ العَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ، وحملَ الناسَ على الخُرُوجِ على المُوَحِّدِينَ، فنبذوا إليهِم العهدَ، وأخرجوهُم، واستقلَّ ابنُ هُوْدٍ بالأمرِ في الأندلسِ<sup>(٥)</sup>. ثُمَّ سَمَّا ابْنُ الأحمرِ للأمرِ وخالفَ ابنَ هُوْدٍ في دعوتِهِ، فدعا هؤلاء لابنِ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةٍ من المُوَحِّدِينَ، وقامَ بالأمرِ، وتناولَهُ بِعِصَابَةِ قَرِيْبَةٍ<sup>(٦)</sup> من قرابته كانوا يُسَمُّونَ

١ - في المطبوع: الخالية.

٢ - أي: الفتنة والقتل.

٣ - أي: مرة بعد مرة.

٤ - في ن: منه.

٥ - في ن: بالأندلس.

٦ - في ن: قليلة.

الرؤساء، ولم يحتج لأكثر منهم لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَإِنَّهَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ، ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ بِمَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصٍ <sup>(١)</sup> زَنَاتَةٍ، فَصَارُوا مَعَهُ عَصَبَةً عَلَى الْمُشَاغَرَةِ <sup>(٢)</sup> وَالرُّبَاطِ. ثُمَّ سَمَّا لِصَاحِبِ الْمَغْرِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةٍ أَمَلٌ فِي الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، فَصَارَ أُولَئِكَ الْأَعْيَاصُ عِصَابَةُ ابْنِ الْأَحْمَرِ عَلَى الْاِمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأْتَلَ أَمْرُهُ، وَرَسَخَ، وَالْفَتْهُ النَّفُوسُ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثِهِ أَعْقَابُهُ هَذَا الْعَهْدِ، فَلَا تَظُنُّ أَنَّهُ بَغَيْرِ عِصَابَةٍ، فَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ مَبْدُؤُهُ بِعِصَابَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ؛ فَإِنَّ قَطَرَ الْأَنْدَلُسِ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ، يَغْنِي عَنْ كَثَرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي التَّغْلِبِ عَلَيْهِمْ، ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

١ - من يعتبرون أصولها وذوي المكانة فيها.

٢ - أي: البقاء في الثغور للحرب والدفاع.

## ١٠-٣-١- الفصل العاشر

في أن من طَبِيعَةِ الْمَلِكِ الْإِنْفِرَادُ بِالْمَجْدِ

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ - كَمَا قَدْ مَنَاهُ - إِنَّمَا هُوَ [ظ ٢/٦٩] بِالْعَصَبِيَّةِ. وَالْعَصَبِيَّةُ مَتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَصَبَاتٍ كَثِيرَةٍ وَتَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوِلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا جَمِيعاً فِي ضِمْنِهَا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ وَالْغَلْبُ عَلَى النَّاسِ وَالِدُّوْلُ.

وَسِرُّهُ: أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمَزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ؛ وَالْمَزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ الْعُنَاصِرِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعُنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مِتْكَافِئَةٌ فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مَزَاجٌ أَصْلاً، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا، وَتَوَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لْجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا، وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى، إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلُ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رِئِيساً لَهُمْ غَالِباً عَلَيْهِمْ، فَيَتَعَيَّنُ رِئِيساً لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لَغَلْبِ مَنْبَتِهِ لْجَمِيعِهَا.

وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ، فَمِنْ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلِقَ الْكِبَرُ وَالْأَنْفَقَةُ، فَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِبَاعِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِمْ، وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَامِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فَتَجْدُعُ حِينَئِذٍ أَنْوْفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتُفْلَجُ شَكَايَتُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحَكُّمِ، وَتَقْرُعُ عَصَبِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَيَنْفَرُدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ، لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلاً، فَيَنْفَرُدُ بِذَلِكَ الْمَجْدِ بِكُلِّيَّتِهِ، وَيُدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ. وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّلَاثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا. إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوْلِ، ﴿سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥]. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

## ١-٣-١١- الفصل الحادي عشر

## في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأمة إذا تغلبت ومكنت ما بأيدي أهل الملك قبلها، كثر رياستها ونعمتها، فتكثرت عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وحشونته، إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس، والفرش والآنية، ويتفاحرون في ذلك، ويفتخرون فيه غيرهم من الأمم، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، وينبغي<sup>(١)</sup> خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة إلى أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها، سنة الله في خلقه. والله تعالى أعلم.



## ١-٣-١٢. الفصل الثاني عشر

في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة، والمطالبة غايتها الغلب والملك [ظ. ١/٧٠]؛ وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها. قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا      فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه، وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس، فينبئون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم، ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره، وهو خير الحاكمين [الأعراف: ٨٧، يونس: ١٠٩، يوسف: ٨٠]، والله تعالى أعلم.

١ - هو أبو صخر. ومطلع القصيدة: الليل بذات الجيش دار عرفتها..... [الأمالى للقالبي (١٤٨/١ - ١٥٢)]  
ونسب أيضاً للأعطل في ديوان المعاني للعسكري (٢١/١)..  
..

## ١-٣-١٣ — الفصل الثالث عشر

في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الأفراد بالمجد وحصول الترف والدعة، أقبلت الدولة على الهرم.

وبيانه من وجوه:

الأول: أنها تقتضي الإنفراد بالمجد كما قلناه.

وما<sup>(١)</sup> كان المجد مشتركاً بين العصابة، وكان سعيهم له واحداً كانت هممهم في التغلب على الغير والذب<sup>(٢)</sup> عن الخوذة<sup>(٣)</sup> أسوة في طموحها وقوة شكايمها<sup>(٤)</sup>، وممرامهم إلى العز جميعاً، وهم يستطيعون الموت في بناء مجدهم، ويؤثرون الهلكة على فساده؛ وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعتتهم، واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو وفشل رجهم ورئموا<sup>(٥)</sup> المذلة والاستعباد، ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم عن الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت، فيصير ذلك وهنا في الدولة، وخضداً<sup>(٦)</sup> من الشوكة، وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصبيّة بذهاب البأس من أهلها.

والوجه الثاني: أن طبيعة الملك تقتضي — كما قدمناه — فتكثر عوائدهم، وتزيد نفقاتهم الترف على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم. فالفقير منهم يهلك، والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة<sup>(٧)</sup> عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به

١ - في ن: (ومهما).

٢ - أي: الدفاع.

٣ - أي: الناحية، وبيضة الملك.

٤ - جمع شكيمة، وهي الأنفة، والانتصار من الظلم.

٥ - رئم: ألف.

٦ - بخضد العود: كسره ولم يين.

٧ - ملجأ تلجأ إليه دونها قال تعالى: ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ [التوبة: ١٦].

عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع<sup>(١)</sup> دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم.

وأيضاً: إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقتصراً على<sup>(٢)</sup> حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد [ظ ٢/٧٠] خللهم، ويزيح عائلهم، والجباية مقدارها معلوم، ولا تزيد ولا تنقص. وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات، وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات، ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد، فتضعف الحماية لذلك، وتسقط قوة الدولة، ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول، أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب، ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته. وأيضاً: فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها، كما يأتي في فصل الحضارة، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فيكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولة مبادئ العطب، وتتضعف أحوالها، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.

الوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه. وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً، صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها، فترتب أجيالهم الحادثة في غصارة العيش ومهاد الترف والدعة. وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر، فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضرة إلا في الثقافة والشارية، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد<sup>(٣)</sup> شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم، ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في

١ - جمع صنعة.

٢ - في ن: مقتصراً عن.

٣ - أي: تنكسر

جميع أحوالهم، وينغمسون فيها، وهم في ذلك يبعُدون عن البداوة والخشونة، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى إن كانت لهم.

واعتبر ذلك في الدول التي أخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبة.

وربما يحدث في الدولة إذا طرَقها هذا الهرم بالتَّرفِ والرَّاحة، أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعة من غير جلدتهم، ممن تعود الخشونة فيتخذهم جنداً يكون أصبر على الحرب، وأقدر على مُعانة الشَّدائد من الجُوع والشَّظف، ويكون ذلك [ظ ١/٧١] دواءً للدولة من الهرم، الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره.

وهذا كما وقع في دولة التُّرك، بالمشرق<sup>(١)</sup> فإنَّ غالبَ جنديها الموالى من التُّرك، فتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرساناً وجنوداً، فيكونون أجراً على الحرب، وأصبر على الشَّظف من أبناء الملوك<sup>(٢)</sup> الذين كانوا قبلهم وربُّوا في ماء النِّعم والسُّلطان وظلِّه، وكذلك في دولة الموحِّدين بأفريقية فإنَّ صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده من زناة العرب، ويستكثر منهم، ويترك أهل الدولة المتعودين للتَّرف، فتستجد الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهرم، والله وارث الأرض ومن عليها.

١ - في ن: بالمشرقين.

٢ - في ن: المماليك.

## ١-٣-١٤ - الفصل الرابع عشر

في أنَّ الدَّولة لها أعمار طَبِيعِيَّةٌ كَمَا لِلْأَشْخَاصِ

إِغْلَمَ: أَنَّ الْعُمُرَ الطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَّاءُ وَالْمُنَجِّمُونَ مِثَّةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَهِيَ سَنُو الْقَمَرِ الْكَبِيرِ عِنْدَ الْمُنَجِّمِينَ، وَيَخْتَلِفُ الْعُمُرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ <sup>(١)</sup> فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ، فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَانَاتِ مِثَّةً تَامَةً، وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أَدْلَةُ الْقِرَانَاتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمِثَّةِ مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ <sup>(٢)</sup>، وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمُرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِثَّةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ، وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيْبَةِ مِنَ الْفَلَكَ، كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ.

وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا: وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ الدَّولةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُوْ أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ، وَالْجِيلُ هُوَ عُمُرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمُرِ الْوَسْطِ، فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ، الَّذِي هُوَ انْتِهَاءُ النَّمُوِّ وَالنَّشْوءِ إِلَى غَايَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]. وَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ عُمُرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمُرُ الْجِيلِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التَّيِّهِ، الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ الْأَحْيَاءِ، وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا الذَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي عُمُرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمُرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ.

وَأَمَّا قُلْنَا إِنَّ عُمُرَ الدَّولةِ لَا يَعْدُوْ - فِي الْغَالِبِ - ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ؛ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شُظْفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْاِفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصْبِيَّةِ مُحْفُوظَةً فِيهِمْ، فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ، وَجَانِبُهُمْ مُرْهَوْبٌ، وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ، وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفِّهِ، مِنْ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَمِنْ الشُّظْفِ إِلَى التَّرَفِّ وَالْخُصْبِ، وَمِنْ الْاِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ [ظ ٢/٧١] عَنِ السَّعْيِ فِيهِ، وَمِنْ عَزِّ الْاِسْتِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْاِسْتِكَانَةِ، فَتَنْكَسِرُ سُورَةُ الْعَصْبِيَّةِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَتَوْنَسُ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ، وَيَبْقَى لَهُمْ

١ - القِرَانَاتُ: تعبير يستخدمه الفلكيون والمنجمون يريدون به التوافقات التي تحدث بين الشمس والقمر والبروج.

٢ - أخرجه ابن ماجه (٤٢٣٦) والترمذي (٣٥٥٠) وابن حبان (٢٩٨٠) من حديث أبي هريرة بلفظ: «وأعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك».

الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأولَ وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى الجحد، ومرامهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة<sup>(١)</sup> العز والعصبة بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غاية بما تبنقوه<sup>(٢)</sup> من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبة بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزِّي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها. فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء، حتى يتأذن الله بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت.

فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها، يكون هرم الدولة وتخلفها، ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع، كما مر في أن الجحد والحسب، إنما هو أربعة<sup>(٣)</sup> آباء. وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كافٍ ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات، فتأمله فلن تعدو وجه الحق، إن كنت من أهل الإنصاف.

وهذه الأجيال الثلاثة: عُمرها مئة وعشرون سنة على ما مر، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده، إلا إن عرض لها عارض آخر، من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلًا مستوليًا، والمطالب لم يحضرها، ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع.

ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مئة سنة، وهذا معناه، فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب، الذي تريده من قبل معرفة

١ - أي: يفقدون ما يلذ لهم كما يفقد الإنسان الشعور بحلاوة الطعام إذا فقد أدوات الإحساس.

٢ - أي: تغلبوا فيه من النعيم. وفي ن: (تبنقوه) وفي ن: (تبنكوه). يقال: بنق بالمكان تبنيقاً وتبنك به: أقام.

٣ - في ن: في أربعة.

السَّيِّنَ المَاضِيَّةَ، إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتَ فِي عَدَدِهِمْ، وَكَانَتِ السَّنُونَ المَاضِيَّةُ مِنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ، فَعَدَّ لِكُلِّ مِئَةٍ مِنَ السَّيِّنِ ثَلَاثَةَ مِنَ الْآبَاءِ [ظ ١/٧٢]، فِيمَا نَفَذْتَ<sup>(١)</sup> عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نَفُوزِ<sup>(٢)</sup> عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ نَقَصْتَ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عَمُودِ النَّسَبِ، وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ، وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدُ السَّيِّنِ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي الْغَالِبِ صَحِيحًا ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠].

١ - نَفَذَ نَفَادًا وَنَفَذًا: فَنِيَ وَذَهَبَ. وَفِي ظ: تَعَدَّدَتْ.

٢ - النَفُوزُ: جَوَازُ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ وَالْخُلُوصُ مِنْهُ تَقُولُ: نَفَذْتُ، أَي: جَزَيْتُ. وَفِي الْمَطْبُوعَاتِ: بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ. وَلَا يُوَافِقُهَا الْمَسْمُوعُ مِنَ اللَّغَةِ كَمَا قَالَ الدُّكْتُورُ وَافِي. وَلَعَلَّ مَا أَثْبَتَهُ هُوَ الصَّوَابُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## ١-٣-١٥- الفصل الخامس عشر

## في انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة

اعْلَمُ: أَنَّ هذه الأطوار طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّولِ، فَإِنَّ الغلبَ الذي يَكُونُ به الملكُ، إِنَّمَا هو بِالْعَصَبِيَّةِ وبمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ البأسِ وتَعَوُّدِ الافتِرَاسِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِباً إِلَّا مَعَ البداوةِ؛ فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بَدَاوَةٌ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَ لِلْمَلِكِ تَبَعُهُ الرَّفْهُ، وَاتَّسَاعُ الْأَحْوَالِ.

وَالْحَضَارَةُ: إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرَفِّ وَإِحْكَامُ الصَّنَائِعِ<sup>(١)</sup>، الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وَجُوهِهَا وَمَذَاهِبِهَا مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأُبْنِيَةِ، وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ، وَالتَّنَاقُّ فِيهِ، تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بِعَضَاهَا بَعْضاً، وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزَعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالتَّنْعَمِ بِأَحْوَالِ التَّرَفِّ، وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ، فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَلِكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبَدَاوَةِ لِمُضْرُورَةٍ لِبَعِيَّةِ الرَّفْهِ لِلْمَلِكِ.

وَأَهْلُ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ. فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ، وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ. وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ، وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ، وَاسْتَعْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ؛ فَقَدْ حَكِيَ أَنَّهُ قَدَّمَ لَهُمُ الْمَرْقُ<sup>(٢)</sup>، فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعاً، وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحاً، وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ<sup>(٣)</sup>.

فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ، وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مَهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ، وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهَرَّةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ، أَفَادَوْهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ، وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ، وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ، مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ، فَبَلَغُوا الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِّ فِي الْأَحْوَالِ، وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأُبْنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرْتِيِّ<sup>(٤)</sup> وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ

١ - جمع صناعة.

٢ - المرقق: أي الخبز المرقق ويقال له: رُقَاق أي: الخبز الرقيق، الواحدة: رُقَاقَة. وقد ظنها الدكتور: نوعاً من

النسيج.

٣ - في ن: وأمثال ذلك.

٤ - الخرتي: أثاث البيت.



المُبَاهَاةُ والولائم، وليالي الإعراس<sup>(١)</sup>، فأتوا من ذلك وراء الغاية. وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره، بفم الصُّلح، وركب إليها في السفين، وما أنفق في إملاكها<sup>(٢)</sup>، وما نخلها المأمون، وأنفق في عرسها [ظ ٧٢/٢]، تقف من ذلك على العجب. فمنه: أن الحسن بن سهل نثر يوم الإملاك<sup>(٣)</sup> في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون: فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملثثة<sup>(٤)</sup> على الرقاع بالضياح والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت<sup>(٥)</sup>. وفرق على الطبقة الثانية بدر<sup>(٦)</sup> الدنانير، في كل بدرة عشرة آلاف، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك.

ومنه: أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت، وأوقد شموع العنبر في كل واحد مئة من، وهو رطل وثلاثان<sup>(٧)</sup>، وبسط لها فرشاً، كان الحصيّر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدُر والياقوت، وقال المأمون حين رآه: قاتل الله أبا نواس، كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وأعدّ بدار الطَّبَّخ من الحطب، لليلة الوليمة نقل مئة وأربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرّات في كل يوم، وفني الحطب لليلتين، وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت، وأوعز إلى النواتية<sup>(٨)</sup> بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس، بدجلة من بغداد إلى قصور الملك

١ - أي: ما نسميه الآن حفلات الزفاف.

٢ - الإملاك: وليمة العرس.

٣ - أي: وليمة الزواج.

٤ - اللث: الندى فكأنه قال: منداة. أي: أن العطر على الرقاع التي فيها تمليك العقارات، وإن كانت كما ذهب الدكتور وافي: ملتوتة بالناء، فيريد ربط المسك بالرقاع، لأن اللث: الشد والإيثاق.

٥ - البخت: الحظ والنصيب.

٦ - جمع بدرة، وهي في الأصل عشرة آلاف درهم، ولكنه فرقها دنانير.

٧ - قوله: وثلاثان: الذي في كتب اللغة: أن المن رطل، وقيل: رطلان. ولم يوجد في النسخة التونسية: ثلاثان.

٨ - النواتي: الملاحون في البحر، الواحد: نوتي.

بمدينة المأمون، لحضور الوليمة فكانت الحَرَاقَاتُ<sup>(١)</sup> المُعَدَّةُ لذلك ثلاثين ألفاً، أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم. وكثير من هذا وأمثاله.  
وكذلك عَرَسُ المأمون بن ذي النون بِطُلَيْطَلَةَ. نقله ابنُ بَسَّامٍ في كتابِ الذَّخِيرَةِ<sup>(٢)</sup> وابنُ حَيَّان.

بعد أن كانوا كُلُّهم في الطَّوَرِ الأوَّل من البِدَاوَةِ عاجزينَ عن ذلك جُملة، لفقدان أسبابه، والقائمين على صنائعه<sup>(٣)</sup> في غضاضتهم وسذاجتهم.  
يذكر أنَّ الحجاج أَوَّلَمَ في اختتان بعض ولده فاستحضرَ بعض الدَّهَاقِين، يسأله عن ولائم الفُرس، وقال: أخبرني بأعظم صنيعٍ شهدته. فقال له: نعم، أيُّها الأميرُ، شهدتُ بعضَ مَرَازِبَةِ كِسْرَى، وقد صنع لأهل فارسَ صَنِيعاً، أحضرَ فيه صحاف الذهبِ على أَخُونَةِ الْفِضَّةِ أربعاً على كل واحدٍ، وتحمله أربع وَصَائِفَ، ويجلسُ عليه أربعة من الناس، فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها. فقال الحجاج: يا غلام، انحر الجزر وأطعم الناس، وعلم أنه لا يستقلُّ بهذه الأبهة. وكذلك كانت<sup>(٤)</sup>.

ومن هذا الباب: أعطية بني أمية وجوائزهم، فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب وبداوتهم، ثُمَّ كانتِ الجوائزُ في دولة بني العباسِ والعبيديين من بعدهم ما علمت من أحمال المال وتخوت الثياب، وإعداد الخيل بمراكبها. وهكذا كان شأنُ كتابة مع الأغلبة بأفريقية، وكذا بني طُغْجَ بمصرَ، وشأنُ لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك [ظ ١/٧٣]، وشأن<sup>(٥)</sup> زَنَاطَةَ مع الموحدين. وهلمَّ جراً.

الحضارة تنتقلُ من الدُّولِ السَّالِفَةِ إلى الدُّولِ الخالفة، فانتقلت حضارة الفُرسِ للعربِ بني أمية وبني العباسِ، وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس، إلى ملوكِ المغرب من الموحدين، وزَنَاطَةَ لهذا العهد، وانتقلت حضارة بني العباسِ إلى الدَّيْلَمِ، ثُمَّ إلى التُّركِ، ثُمَّ إلى السَّلْجُوقِيَّةِ، ثُمَّ إلى التُّركِ المماليكِ بمصرَ والتُّرِ بالعراقين. وعلى قدر عظم الدَّولةِ يكونُ شأنُها في الحضارة، إذ أمورُ الحضارة من توابع التَّرفِ، والتَّرفُ من توابع الثَّروة

١ - بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو. مختار.

٢ - الذخيرة (٢٠٥/١/٤).

٣ - جمع صناعة.

٤ - في ن: كان.

٥ - في المطبوع: وكذلك شأن.

والنَّعْمَةُ، والثَّرْوَةُ والنَّعْمَةُ من تَوَابِعِ الْمُلْكِ ومَقْدَارِ ما يَسْتَوِي عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ، فعَلَى نِسْبَةِ الْمُلْكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَاعْتَبِرْهُ وَتَفْهَمْهُ وَتَأَمَّلْهُ، تَجِدُهُ صَحِيحاً فِي الْعُمَرَانِ، وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

## ١-٣-١٦- الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك: أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف، كثر التناسل والولد والعمومية، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع<sup>(١)</sup>، ورُبِّيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرّفه، فازدادوا به عدداً إلى عددهم، وقوة إلى قوتهم، بسبب كثرة العصابات حينئذ بكثرة العدد، فإذا ذهب الجيل الأول والثاني، وأخذت الدولة في الهرم، لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم، في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها، فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرُسوخ، فيذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة.

واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام، كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوة والخلافة مئة وخمسين ألفاً وما يقاربها من مُضَر وقحطان، ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة، وتوفر غوهم بتوفر النعمة واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يُقال: إن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسع مئة ألف، ولا يبعد مثل هذا العدد أن يكون صحيحاً، إذا اعتبرت حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً، إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالى والمُصْطَنعين.

وقال المسعودي: أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً، بين ذُكران وإناث.

فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مئتي سنة، واعلم أن سببه الرّفه والنعيم الذي حصل للدولة ورُبِّي فيه أجيالهم، وإلا فعدّ العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه. والله الخلاق العليم.

## ١-٣-١٧. الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار  
 اعْلَمَ [ظ ٧٣/٢]: أَنَّ الدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ، وَيَكْتَسِبُ  
 الْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الْآخَرِ، لِأَنَّ  
 الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالتَّطَبُّعِ لِمَزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ. وَحَالَاتُ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فِي الْغَالِبِ  
 خَمْسَةَ أَطْوَارٍ:

الطَّوْرُ الْأَوَّلُ: طَوْرُ الظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ، وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ، وَالِاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمُلْكِ،  
 وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ السَّالِفَةِ قَبْلُهَا. فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ أَسْوَدَ قَوْمِهِ  
 فِي اكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجَبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحُوزَةِ<sup>(١)</sup> وَالْحِمَايَةِ، لَا يَنْفَرُدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ؛  
 لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ، وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِمَجَالِهَا.

الطَّوْرُ الثَّانِي: طَوْرُ الْاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ، وَالْانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ، وَكِبْحِهِمْ عَنْ  
 التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ. وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِاصْطِنَاعِ  
 الرِّجَالِ، وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِجَدْعِ أَنْوَفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ  
 وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نَسَبِهِ، الضَّارِبِينَ فِي الْمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ، فَهُوَ يَدْفَعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ،  
 وَيَصُدِّهِمْ عَنْ مَوَارِدِهِ، وَيُرْدِيهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ<sup>(٢)</sup>، حَتَّى يُقَرَّ الْأَمْرُ فِي نَصَابِهِ،  
 وَيُفْرَدَ أَهْلُ بَيْتِهِ بِمَا يَنْبَغِي مِنْ مَجْدِهِ، فَيَعَانِي مِنْ مَدَافِعَتِهِمْ وَمَغَالِبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي  
 طَلَبِ الْأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهُرُؤُهُمْ عَلَى مَدَافِعَتِهِمْ أَهْلُ  
 الْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ؛ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقْرَبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مَدَافِعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ الْأَبَاعِدِ،  
 فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الْأَمْرِ.

الطَّوْرُ الثَّلَاثُ: طَوْرُ الْفَرَاغِ وَالِدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طَبَاعُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ، مِنْ  
 تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْأَثَارِ، وَبُعْدِ الصَّيْتِ، فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي الْجَبَايَةِ وَضَبْطِ الدَّخْلِ  
 وَالْخُرْجِ، وَإِخْصَاءِ النِّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا، وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَافِلَةِ، وَالْمَصْنَعِ الْعَظِيمَةِ،  
 وَالْأَمْصَارِ الْمُتَّسِعَةِ، وَالْهَيَاكِلِ الْمُتَرَفِّعَةِ، وَإِجَازَةِ<sup>(٣)</sup> الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ،

١ - الحوزة: بيضة الملك، والناحية.

٢ - يعني: يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم.

٣ - منحها الجوائز والهدايا.

وبث المعروف في أهله؛ هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال. والجاء واعتراض<sup>(١)</sup> جنوده، وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكلّ هلال، حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشيكتهم<sup>(٢)</sup>، وشاراتهم يوم الزينة، فيباهي بهم الدولُ المُسالمَة، ويرهبُ الدولُ المحاربة.

وهذا الطُّورُ آخرُ أطوارِ الاستبداد من أصحابِ الدَّولةِ، لأنهم في هذه الأطوارِ كلّها مستقلُّون بآرائهم، بانون لعزّهم، موضحون الطرقَ لمن بعدهم.

**الطُّورُ الرَّابِعُ:** طورُ القُتُوعِ والمُسالمةِ. ويكونُ صاحبُ الدَّولةِ في هذا قانعاً بما بنى أوّلوه، سلماً لأنظاره من الملوكِ وأقتاله<sup>(٣)</sup> [ظ ١/٧٤]، مقلداً للماضين من سلفه، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل، ويقتفي طرقهم بأحسنِ مناهجِ الاقتداء، ويرى أنَّ في الخروجِ عن تقليدهم فسادُ أمره، وأنهم أبصرُ بما بنوا من مجده.

**الطُّورُ الخَامِسُ:** طورُ الإسرافِ والتبذير، ويكونُ صاحبُ الدَّولةِ في هذا الطُّورِ متلفاً لما جمع أوّلوه في سبيلِ الشَّهواتِ والملاذِّ، والكرمِ على بطّانته وفي مجالسه، واصطناعِ أخصّادِ السُّوءِ وخضراءِ<sup>(٤)</sup> الدِّمَنِ، وتقليدهم عظيماتِ الأمورِ التي لا يستقلُّون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها مستفسداً لكبارِ الأولياءِ من قومه وصنائعِ سلفه، حتى يضطَّغُوا<sup>(٥)</sup> عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، مُضِيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته، وحجَبَ عنهم وجهَ مباشرته وتفقدته. فيكونُ مخرباً لما كان سلفه يؤسِّسون، وهادماً لما كانوا يبنون. وفي هذا الطُّورِ تحصيلُ في الدَّولةِ طبيعةِ الهرمِ، ويستولي عليها المرضُ الزمَنُ الذي لا تكادُ تخلصُ منه، ولا يكونُ لها معه برءٌ إلى أن تنقرضَ، كما نبَّئنه في الأحوالِ التي نسرِّدُها. والله خير الوارثين.

١ - يعني: عرضهم وتفقد أحوالهم وإن كان اللفظ هنا لا يفيد.

٢ - الشُّكَّةُ: السلاح. وفي ن: (شُكْبهم). أي: عطاءهم وجزاءهم.

٣ - جمع قَتْل، وهو العدو والمقاتل، والمثل.

٤ - أي: أصحاب المظاهر الخادعة من ذوي المنابت السيئة.

٥ - يطرون قلوبهم على الضغينة.

## ١-٣-١٨- الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك: أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً، وعلى قدرها يكون الأثر. فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة، فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها؛ لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة، واجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه. فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب، كثيرة الممالك والرعايا، كان الفعل كثيرين جداً، وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها، فتم العمل على أعظم هياكله.

ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود، وما قصه القرآن عنهما؟ وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى، وما اقتدر فيه الفرس، حتى إنه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه، فتكأد<sup>(١)</sup> عنه، وشرع فيه، ثم أدركه العجز. وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة. فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه - مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة - تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين.

وانظر إلى بلاط الوليد بدمشق، وجامع بني أمية بقرطبة، والقنطرة التي على واديها، وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الرأكبة عليها، وآثار شرشال بالمغرب، والأهرام بمصر، وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، يُعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام<sup>(٢)</sup> واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها، فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع، ولا تتوهم ما يتوهم العامة أن ذلك لعظم أجسام [ظ ٢/٧٤] الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها؛ فليس بين البشر في ذلك كبير بون. كما نجد بين الهياكل والآثار.

ولقد وُلع القصاص بذلك وتغالوا فيه، وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخباراً عريقة في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق<sup>(٣)</sup> رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو إسرائيل في الشام، زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر، ويشويه إلى

١ - أي: أعجزه وشق عليه.

٢ - أي: النظام وإعمال العقل وحسن الإدارة.

٣ - الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على ألسنة الناس: عنق بالنون. ولإمام

السيوطي رسالة في أخباره سماها: الأوج في خبر عوج.

الشَّمْسِ. ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر، الجهل بأحوال الكواكب، لما اعتقدوا أنَّ للشَّمْسِ حرارة<sup>(١)</sup>، وأنها شديدة فيما قرب منها، ولا يعلمون أنَّ الحرَّ هو الضوء، وأنَّ الضوء فيما قرب من الأرض أكثر، لانعكاس الأشعة من سطح الأرض، بمقابلة الأضواء، فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة، فلا حرَّ هنالك، بل يكون فيه البرد، حيث مجاري السَّحاب، وأنَّ الشَّمْسَ في نفسها لا حارة ولا باردة، وإنما هي جسمٌ بسيطٌ مضيءٌ، لا مِرْآجَ له.

وكذلك عوجُ بَنِ عِناق - هو فيما ذكروه - من العمالقَة، أو من الكنعانيِّين الذين كانوا فريسةَ بني إسرائيل عند فتحهم الشَّام، وأطوالُ بني إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا. يشهد لذلك أبوابُ بيت المقدس، فإنها وإن خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها، وكيف يكونُ التَّفَاوُت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار. وإنما مثارُ غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم، ولم يفهموا حال الدُّول في الاجتماع والتَّعاون، وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة، فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها، وليس الأمر كذلك.

وقد زعم المسعودي - ونقله عن الفلاسفة - مزعماً لا مُستندَ له إلا التحكم، وهو: أنَّ الطَّبيعة التي هي جبلةٌ للأجسام، لما برأ الله الخلق، كانت في تمام الكَرَّة<sup>(٢)</sup>، ونهاية القُوَّة والكمال، وكانت الأعمار أطولَ الأجسام أقوى، لكمال تلك الطَّبيعة، فإنَّ طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطَّبيعية. فإذا كانت قويَّة، كانت الأعمار أزيد، فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام. ثُمَّ لم يزل يتناقصُ لنقصان المادَّة، إلى أن بلغ إلى هذه الحال التي هو عليها. ثُمَّ لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العلم. وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه. وليس له عِلَّة طَبِيعِيَّة، ولا سبب برهاني، ونحن نُشاهد مَسَاكِنَ الأوَّلِينَ وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهيكل والديار

١ - ما يذهب إليه يناقض ما يجمع العلماء عليه من وجود حرارة هائلة في الشَّمْسِ نفسها، أما تقريره من تناقص درجات الحرارة بالارتفاع عن سطح الأرض فصحيح. إلى ارتفاع ثمانين كيلو متراً، ثم تبدأ الحرارة بالارتفاع. وما ذهب إليه هو خلاصة العلوم التي في عصره. بما يتعلق بالمحيط الكوني فليس لنا الاعتراض عليه من هذا الباب.

٢ - أي: القوة، ومثانة التكوين. والكرة: البعث وتجديد الخلق بعد الفناء. وقد صحح الدكتور وافي إلى المِرَّة وهي القوة، وذهب إلى أنه لا يوجد معنى يتلاءم مع العبارة وذلك - والله أعلم - لعدم اطلاعه على ما ذكره الزبيدي في استدراكه في شرح القاموس.



والمساكن، كديار ثمود المنحوتة في الصلّد من الصّخر بيوتاً صغاراً، وأبوابها ضيّقة [ظ ١/٧٥]. وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنّها ديارهم، ونهى عن استعمال مياههم، وطرح ما عجن به، وأهرق<sup>(١)</sup> وقال: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكْيَنَ أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»<sup>(٢)</sup>. وكذلك أرض عادٍ ومصر، والشّام، وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً. والحق ما قرّرناه.

ومن آثار الدّول أيضاً: حالها في الأعراس والولائم، كما ذكرناه في وليمة بُورّان<sup>(٣)</sup>، وصنيع الحجاج، وابن ذي النّون، وقد مر ذلك كله.

ومن آثارها أيضاً: عطايا الدّول، وأنّها تكون على نسبتها، ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم، فإنّ الهمم التي لأهل الدّولة تكون على نسبة قوّة ملكهم وغلبهم للنّاس، والهمم لا تزال مُصاحبة لهم إلى انقراض الدّولة، واعتبر ذلك بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش، كيف أعطاهم من أرطال الذهب والفضّة والأعبد والوصائف<sup>(٤)</sup> عشراً عشراً، ومن كرش<sup>(٥)</sup> العنبر واحدة، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب؛ وإنّما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصّة تحت استبداد فارس، وإنّما حمّله على ذلك همّة نفسه بما كان لقومه التّبابعة من الملّك في الأرض والغلب على الأمم في العراقين والهند والمغرب<sup>(٦)</sup>.

وكان الصّنهاجيون بأفريقيّة أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم، فإنّما يعطونهم المال أحمالاً، والكساء تخوتاً<sup>(٧)</sup> مملوءة، والحملان نجائب<sup>(٨)</sup> عديدة. وفي تاريخ الرقيق<sup>(٩)</sup> من ذلك أخبار كثيرة.

١ - أي: صبه وأراقه. أخرجه البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩) ومسلم (٢٩٨١) وابن حبان (٦٢٠٢) من حديث ابن عمر.

٢ - أخرجه البخاري (٤٣٣) و(٣٣٨٠) و(٣٣٨١) و(٤٤١٩) و(٤٤٢٠) و(٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠) وابن حبان (٦١٩٩) و(٦٢٠٠) و(٦٢٠١) و(٦٢٠٣) من حديث ابن عمر.

٣ - بنت الحسن عند زفافها إلى المأمون.

٤ - العبيد. والوصائف جمع وصيفة وهي الجارية توهلها ميزات لها لمصاحبة عقيلات الملوك والخدمة في بيوت ذوي الجاه واليسار.

٥ - الكرش: الوعاء.

٦ - يأتي إنكار ابن خلدون أن يكون للتبابعة ملك المغرب والهند. فلعله ذكره هنا من باب الحكاية بدون تدقيق في معانيها. والله أعلم.

٧ - التخوت جمع تحت وهو ما تصان فيها الثياب من أوعية أو صناديق.

وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم، وكانوا إذا كسبوا معدماً، فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفذه يوم أو بعض يوم. وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية.

هذا جوهر الصقلي الكاتب، قائد جيش العبيدين لما ارتحل إلى فتح مصر، استعد من القيروان بألف حمل من المال، ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا.

وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد الحميد عمل بما يُحمل إلى بيت المال ببغداد، أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة:

غلات السواد: سبع وعشرون ألف درهم مرتين، وثمان مئة ألف درهم، ومن الحلل النجرائية<sup>(١)</sup> مئتا حلة، ومن طين الختم مئتان وأربعون رطلاً.

كنكر<sup>(٢)</sup>: أحد عشر ألف درهم مرتين، وست مئة ألف درهم.

كوردجلة: عشرون ألف درهم وثمانية دراهم.

حلوان: أربعة آلاف ألف درهم مرتين، وثمان مئة ألف درهم [ظ ٧٥/٢].

الأهواز: خمسة وعشرون ألف درهم مرة، ومن السكر ثلاثون ألف رطل.

فارس: سبعة وعشرون ألف ألف درهم، ومن ماء الورد ثلاثون ألف قارورة، ومن الزيت الأسود عشرون ألف رطل<sup>(٣)</sup>.

كرمان: أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومئتا ألف درهم، ومن المتاع اليماني خمس مئة ثوب، ومن التمر عشرون ألف رطل.

مكران: أربع مئة ألف درهم مرة.

السند وما يليه: أحد عشر ألف ألف درهم مرتين، وخمس مئة ألف درهم، ومن العود الهندي مئة وخمسون رطلاً.

٨ - الحملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة. والنجاب: جمع نجيب ونجبية وهي الناقة الحسنة. ولا أدري هل يمكن أن يكون أراد بقوله: جناب. جمع جنوب أي: الريح حيث قال الأصمعي: إذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح. وتقول العرب للآتين إذا كانا متصافين: ريحهما جنوب.

٩ - في النسخ: ابن الرقيق. خطأ. انظر تصحيحه في أول المقدمة.

١ - نسبة إلى نجران. اسم بلد كانت تعرف بتجويد صناعة النسيج.

٢ - كنكور: بليدة بين همدان وقرمسين. وقلعة قرب جزيرة ابن عمر معجم البلدان (٤/٤٨٤). وذكره ياقوت أيضاً: كنكار، ولم يحدد موقعها.

٣ - الرطل بكسر الراء ويفتح: اثنتا عشرة أوقية، والأوقية: أربعون درهماً.

سجستان: أربعة آلاف ألف درهم مرتين، ومن الثياب المُعَيَّنة ثلاث مئة ثوب، ومن الفانيذ<sup>(١)</sup> عشرون رطلاً.

خراسان: ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن نُقَرِ الفِضَّةِ ألفا نُقْرَةً، ومن البراذين أربعة آلاف، ومن الرقيق ألف رأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب، ومن الإهليلج<sup>(٢)</sup> ثلاثون ألف رطل.

جرجان: اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبريسم<sup>(٣)</sup> ألف شُقَّة.

قوْمس: ألف ألف مرتين وخمسة مئة من نُقَرِ الفضة.

طبرستان والرُّبَّان ونهاوند: ستة آلاف ألف درهم مرتين، وثلاث مئة ألف، ومن الفرش الطَّبري ست مئة قطعة، ومن الأكسية مئتان، ومن الثياب خمس مئة ثوب، ومن المناديل ثلاث مئة، ومن الجُمَامَاتِ ثلاث مئة.

الرُّي: اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل عشرون ألف رطل.

هَمْدَان: أحد عشر ألف ألف درهم مرتين، وثلاث مئة ألف، ومن رُبِّ الرُّمَّان ألف رطل، ومن العسل اثنا عشر ألف رطل.

مَآيِن البصرة والكوفة: عشرة آلاف ألف درهم مرتين، وسبع مئة ألف درهم.

مَاسَبْدَان والدينار<sup>(٤)</sup>: أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

شهرزور: ستة آلاف ألف درهم مرتين، وسبع مئة ألف درهم.

الموصل وما يليها: أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل.

أذربيجان: أربعة آلاف ألف درهم مرتين.

الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات: أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين، ومن الرقيق ألف رأس، ومن العسل اثنا عشر ألف زق، ومن البُرَّة<sup>(٥)</sup> عشرة، ومن الأكسية عشرون.

١ - أي: ضرب من الحلوى.

٢ - ثمر.

٣ - أي: الحرير.

٤ - علق الهورياني بقوله: والدينار والظاهر أنها الدينور. وفي الترجمة التركية ماسندان وربان. اهـ.

أَرْمِينِيَّة: ثلاثة عشر ألف ألف درهم مَرَّتَيْن، ومن البَسْطِ<sup>(١)</sup> المحفورِ عشرون، ومن الزَّقْمِ<sup>(٢)</sup> خمس مئة وثلاثون رطلاً، ومن المسايح السُّورِ ماهي<sup>(٣)</sup> عشرة آلاف رطل، ومن الصُّونجِ<sup>(٤)</sup> عشرة آلاف رطل، ومن البغال مئتان، ومن المهرة ثلاثون.

قنسرين: أربعمئة ألف دينار، ومن الزيت ألف حمل.

دمشق: أربعمئة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

الأردن: سبعة وتسعون ألف دينار.

فلسطين: ثلاث مئة ألف دينار وعشرة آلاف [ظ ١/٧٦] دينار، ومن الزيت<sup>(٥)</sup> ثلاث مئة ألف رطل.

مصر: ألف ألف دينار وتسع مئة ألف دينار وعشرون ألف دينار.

برقة: ألف ألف درهم مَرَّتَيْن.

أفريقية: ثلاثة عشر ألف ألف درهم مَرَّتَيْن، ومن البسط<sup>(٦)</sup> مئة وعشرون.

اليمن: ثلاث مئة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع.

الحجاز: ثلاث مئة ألف دينار . انتهى.

وأما الأندلس: فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها، أن عبد الرحمن الناصر، خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرّات، تكون جملتها بالقناطير خمس مئة ألف قنطار. ورأيت في بعض تواريخ الرشيد: أن المحمول إلى بيت المال في أيامه، سبعة آلاف قنطار، وخمس مئة قنطار في كل سنة.

فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض، ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله، فتضيّق حوصلتك عند ملتقط الممكنات. فكثير من الخواص إذا

٥ - علق الهوريني بقوله: «ومن البزاة... الخ» في الترجمة التركية: ومن السكر عشرة صناديق. والبزاة: جمع باز، وهو نوع من الصقور.

١ - أي: عود هندي وعربي يتداوى به. وفي ن: القسط.

٢ - الزقم: أكل الزقوم، وهو طعام لأهل أفريقية فيه زبد وتمر. فكأنه استعمل الفعل مكان المفعول.

٣ - المسايح: ؟

٤ - الصونج: لعلها تحرقت عن الصوبج، وهو الذي يُخبز به، وهو شيء من خشب يسط به الخبازون الجردق.

٥ - في المطبوع: الزيت.

٦ - جمع بساط، ويروى القسط كما تقدم.

سمعوا أمثالَ هذه الأخبارِ عن الدُّولِ السَّالفةِ بادر الإنكار، وليس ذلك من الصَّواب، فإنَّ أحوالَ الوجود والعمران متفاوتةٌ، ومن أدركَ منها رُتبةً سُفلى أو وُسْطى، فلا يحصرُ المداركُ كُلَّها فيها.

ونحن إذا اعتبرنا ما ينقل لنا عن دولة بني العباس، وبني أمية، والعبيديين، وناسبنا الصَّحيح من ذلك، والذي لا شكَّ فيه، بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي أقلُّ بالنسبة إلينا وجدنا بيننا بونا، وهو لما بينها من التَّفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها؛ فالآثارُ كلها جارية على نسبة الأصل في القوَّة كما قدمناه؛ ولا يَسَعُنَا إنكارُ ذلك عنها، إذ كثيرٌ من هذه الأحوال في غاية الشُّهرة والوضوح، بل فيها ما يلحقُ بالمستفيض والمتواتر، وفيها المُعاین والمُشاهدُ من آثار البناء وغيره، فخذ من الأحوال المنقولة مراتبَ الدُّول في قوتها أو ضعفها، وضخامتها أو صغرها.

واعتبر ذلك بما نقصه عليه من هذه الحكاية المستظرفة. وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجلٌ من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة<sup>(١)</sup> كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلَّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دِهلي حاضرة ملك الهند، وهو السُّلطان محمد شاه، واتَّصل بملكها لذلك العهد وهو فيروزجوه وكان له منه مكانٌ واستعمله في خُطَّة القضاء، بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتَّصل بالسُّلطان أبي عنان، وكان يحدثُ عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض. وأكثر ما كان يحدثُ عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السَّامعون، مثل: أنَّ ملكَ الهند إذا خرج للسَّفر<sup>(٢)</sup> أحصى أهل مدينته من الرِّجال [٢/٧٦] والنِّساء والولدان، وفرض لهم رزقَ ستَّة أشهر، تدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره، يدخلُ في يوم مشهودٍ يبرزُ فيه النَّاسُ كَافَّةً إلى صحراء البلد، ويطوفون به، ينصبُّ أمامه في ذلك الحفل منجنيقات<sup>(٣)</sup> على الظهر، ترمى بها

١ - قال الهوري: كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهائها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرة ٧ كراريس.

٢ - في المطبوع: إلى السفر.

٣ - هي في الأصل آلة حربية تستخدم كالدفاع في قذف العدو. واستخدمت هنا في رمي الدراهم والدنانير.

شكائر<sup>(١)</sup> الدرّاهم والدّنانير على النّاس، إلى أن يدخُل إيوانه. وأمثال هذه الحكايات فتناجي النّاس بتكذيبه.

ولقيتُ أيامئذٍ وزير السُّلطان فارسَ بنَ وردار البعيد الصّيت، ففاوضته في هذا الشّأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرّجل لما استفاض في النّاس من تكذيبه، فقال لي الوزير فارسٌ: إياكَ أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدُّول، بما أنّكَ لم تره، فتكون كابن الوزير النّاشيء في السّجن. وذلك أنّ وزيراً اعتقله سلطانه ومكثَ في السّجن سنينَ ربّي فيها ابنه في ذلك الحبس. فلمّا أدرك وعقل، سأل عن اللّحمان التي كان يتغذّى بها<sup>(٢)</sup> فقال له أبوه: هذا لحم الغنم. فقال: وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونُعوتها فيقول: يا أبتِ تراها مثل الفار، فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر؟ وكذا في لحم الإبل والبقر، إذ لم يُعاین في محبسه من الحيوانات إلا الفأر، فيحسبها كلها أبناء جنسِ الفأر، ولهذا كثيراً ما يعتري النّاس في الأخبار كما يعتريهم الوسواسُ في الزّيادة عند قصدِ الإغراب كما قدّمناه أوّل الكتاب.

فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميّزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته؛ فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مُرادنا الإمكان العقليّ المطلق، فإن نطاقه أوسعُ شيء، فلا يفرضُ حدّاً بين الواقعات؛ وإنما مُرادنا الإمكان بحسبِ المادّة التي للشّيء، فإنّا إذا نظرنا أصل الشّيء وجنسه وصنفه ومقدارَ عظمه وقوّته، أجرينا الحكمَ من نسبة ذلك على أحواله، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه. ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١، الأنبياء: ٨٣]، واللّهُ - سبحانه وتعالى - أعلم.

١ - الشكائر: النواصي، فكأنه قال: يلقي إليهم حيرة الدراهم والدنانير لأن الناصية أعلى شيء ومقدمه.

٢ - في ن: اللحم الذي كان يتغذى به.

## ١-٣-١٩ - الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالي والمصطنعين  
اعلم: أن صاحب الدولة، إنما يتم أمره - كما قلناه - بقومه، فهم عصابته وظهراؤه  
على شأنه، وبهم يُقارعُ الخوارج على دولته، ومنهم يُقلدُ أعمالَ مملكته ووزارة دولته  
وجباية أمواله، لأنهم أعوانه على الغلب، وشركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهماته.  
هذا ما دام الطور الأول للدولة كما قلناه<sup>(١)</sup>.

فإذا جاء الطور التالي<sup>(٢)</sup>، وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالجد، ودافعهم عنه  
بالمراح<sup>(٣)</sup>، صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه، واحتاج - في مدافعتهم عن الأمر،  
وصدّهم عن المشاركة - إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم  
دونهم، فيكونون<sup>(٤)</sup> [ظ ١/٧٧] أقرب إليه من سائرهم، وأخصّ به قرباً واصطناعاً، وأولى  
إيثاراً وجاهاً، لما أنهم يستمتونَ دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم، والرتبة  
التي ألفوها في مشاركتهم، فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ، ويخصّهم بمزيد التكرمة  
والإيثار، ويقسمُ لهم مثل ما للكثير من قومه، ويقلّدُهم جليل الأعمال والولايات، من  
الوزارة والقيادة والجباية، وما يختصُّ به لنفسه، وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب  
المملكة؛ لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون، ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذ مؤذنٌ باهتضام  
الدولة، وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبيّة التي كان بناء الغلب عليها، ومرض  
قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان، وعداوة السلطان، فيضطغنون<sup>(٥)</sup> عليه، ويتربصون  
به الدوائر، ويعود وبأل ذلك على الدولة، ولا يطمع في برئها من هذا الداء؛ لأنّ ما مضى  
يتأكّد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها.

واعتبر ذلك في دولة بني أمية، كيف كانوا إنما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم  
برجال العرب، مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص، وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان،  
والحجاج بن يوسف، والمهلب بن أبي صفرة، وخالد بن عبد الله القسري، وابن هبيرة،

١ - انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه: فصل في أطوار الدولة.

٢ - في ن: (الثاني).

٣ - في ن: (بالمراح). والمراح: الأشر، والبطر، والاحتيال، والتبخر.

٤ - في ظ: فيكون.

٥ - أي: يحملون له الضغينة والحقد.

وموسى بن نصير، وبلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري، ونضر بن سيار وأمثالهم من رجال العرب.

وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضاً برجال العرب. فلما صارت الدولة للانفراد بالجد، وكبح العرب عن التطاول للولايات، صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة، وبني سهل بن نوبخت، وبني طاهر، ثم بني بُويه، وموالي الترك مثل: بُغَا، وَوَصِيفٍ، وَأَتَامِشٍ<sup>(١)</sup>، وَبَاكِبَاكٍ<sup>(٢)</sup>، وابن طولون، وأبنائهم، وغير هؤلاء من موالي العجم، فتكون الدولة لغير من مهدها، والعز لغير من اجتلبه، سنة الله في عباده. والله تعالى أعلم.

١ - يرد الاسم في تاريخ الطبري: أتامش، وأوتامش. انظر أخباره (٢٢٥/٩، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٣٤٥، ٣٥٦).

٢ - يقال له: باكبك، وبايكباك. انظر تاريخ الطبري (الفهارس). وفي النسخ: باكناك.



## ١-٣-٢٠- الفصل العشرون

## في أحوال الموالى والمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ

إِغْلَمَ: أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا؛ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصَبِيَّةِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمَغَالِبَةِ، إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى، وَالتَّخَاذُلِ فِي الْأَجَانِبِ وَالْبَعْدَاءِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ. وَالْوَلَايَةُ وَالْمَخَالَطَةُ بِالرَّقِّ أَوْ بِالْخَلْفِ تَنْزَلُ مَنْزِلَةَ ذَلِكَ، لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا، فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ، وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطَوْلُ الْمَمَارَسَةِ، وَالصُّحْبَةُ بِالْمَرْبِيِّ وَالرُّضَاعُ وَسَائِرُ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ. وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ الثَّعْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ. وَهَذَا مَشَاهِدٌ بَيْنَ النَّاسِ. وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْإِصْطِنَاعِ، فَإِنَّهُ يُحْدِثُ بَيْنَ الْمُصْطَنَعِ [ظ ٢/٧٧] وَمَنْ اصْطَنَعَهُ، نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تَنْزَلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتَوْكُّدُ اللَّحْمَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ نِسْبًا، فَثَمَرَاتِ النَّسَبِ مُوجُودَةٌ.

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ، قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ لَهُمْ، كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ، وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ، وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لَوْجِهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمَلِكِ أَسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ، فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِّ مِنْهُمْ، فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ. وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمَلِكِ مُمَيَّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى، وَأَهْلُ الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالْإِصْطِنَاعِ، لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ، وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَوْعَفَ، وَالتَّنَاصُرُ لَذَلِكَ أَبْعَدَ، وَذَلِكَ أَنْقَصُ مِنَ الْإِصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْإِصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطَوْلِ الزَّمَانِ، وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ اللَّحْمَةِ، وَيَظُنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ. وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَقْرَبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ، فَتَتَبَيَّنُ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ، فَتَضَعُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ، وَالرَّئَاسَاتِ تَجَدُّهُ. فَكُلُّ مَنْ كَانَ اصْطِنَاعَهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ لِمُصْطَنَعِهِ تَجَدُّهُ أَشَدَّ اتِّحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ، وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ. وَمَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَلِكِ وَالرَّئَاسَةِ لِمُصْطَنَعِهِ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْ

القراية واللحمة ما للأولين. وهذا مشاهد بالعيان؛ حتى إن الدولة في آخر عمرها ترجع إلى استعمال الأجانب واصطناعهم، ولا يُبنى لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد حينئذ بأوليئهم ومشاركة الدولة على الانقراض، فيكونون منحطين في مهاوي الضعة.

وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن أوليائهم الأقدمين وصنائعها الأولين ما يعتريهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة، وقلة الخضوع له، ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه لتأكيد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمرتبى والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته، فيحصل لهم بذلك دالة عليه، واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم إلى استعمال سواهم، ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريباً، فلا يبلغون رتب المجد، ويقون على حالهم من الخارجية. وهكذا شأن الدول في أواخرها، وأكثر ما يُطلق اسم الصنائع والأولياء على الأولين. وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان، ﴿والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران: ٦٨]، ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ [الأنعام: ١٠٢، الزمر: ٦٢].

## ١-٣-٢١- الفصل الحادي والعشرون

## فيما يعرض في الدُول من حجر السُّلطان والاستبداد عليه

إذا استقرَّ الملك في نصاب معين، ومنبت واحدٍ من القبيل القائمين بالدَّولة، وانفردوا به [ظ ١/٧٨]، ودفعوا سائر القبيل عنه، وتداوله بنوهم واحداً بعد واحد، بحسب التَّرشيح، فربَّما حدث التَّغلب على المنصب من وزرائهم وحاشيتهم. وسببه في الأكثر ولاية صبي صغير، أو مضعفٍ من أهل المنبت، يترشَّح للولاية بعهد أبيه، أو بترشيح ذويه وخوله<sup>(١)</sup>، ويؤنس منه العجز عن القيام بالملك، فيقومُ به كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله، ويؤرِّي<sup>(٢)</sup> بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد، ويجعل ذلك ذريعةً للملك، فيحجب الصَّبيَّ عن النَّاس، ويعوِّده اللَّذات التي يدعو إليها ترفُّ أحواله ويُسيِّمُهُ في مراعيها متى أمكنه، وينسيه النَّظر في الأمور السُّلطانية حتى يَسْتَبْدَّ عليه. وهو بما عوِّده يعتقد أنَّ حظَّ السُّلطان من الملك إنما هو جلوسُ السَّريِّ، وإعطاء الصَّفقة وخطابُ التَّهويل، والقعود مع النَّساء خلفَ الحجاب، وأنَّ الحلَّ والرَّبط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقدتها من النَّظر في الجيش والمال والثَّغور إنما هو للوزير، ويسلِّم له في ذلك أن تستحكم له صبغة الرُّئاسة والاستبداد، ويتحوَّل الملك إليه، ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده، كما وقع لبني بويه والترك وكافور الأَحشيدي وغيرهم بالْمَشْرِقِ، وللمنصور بن أبي عامر بالأندلس.

وقد يَتَفَطَّنُ ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من ربة الحجر والاستبداد ويُرجعُ الملكُ إلى نصابه، ويضرب على أيدي المتغلبين عليه؛ إمَّا بقتل أو برفع عن الرُّتبة فقط، إلا أنَّ ذلك في النَّادر الأقل، لأنَّ الدَّولة إذا أخذت في تغلبِ الوزراء والأولياء استمرَّ لها ذلك وقلَّ أن تخرج عنه، لأنَّ ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال التَّرف، ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه، قد نسوا عهد الرُّجولة، وألفوا أخلاق الدَّيَّات والأظار<sup>(٣)</sup>، وربُّوا عليها، فلا ينزعون إلى رئاسة، ولا يعرفون استبداداً من تغلب. إنما همهم في القنوع بالأبهة، والتَّنَفُّس<sup>(٤)</sup> في اللَّذات وأنواع التَّرف. وهذا التَّغلب يكون

١ - الخدم من البطانة والحاشية.

٢ - أي: يخفي أطماعه الاستبدادية وراء التظاهر بالمحافظة للصبي على ملكه حتى يرشد.

٣ - جمع ظر.. وهي المربعة.

٤ - في ن: (التفنن).

للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم، وانفرادهم به دونهم. وهو عارض للدولة ضروري كما قدمناه. وهذان مرضان لا براء للدولة منهما إلا في الأقلّ النادر. ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٢٠، هود: ٤، الروم: ٥٠، الشورى: ٩، الحديد: ٢، التغابن: ١، الملك: ١].

## ١-٣-٢٢. الفصل الثاني والعشرون

في أن المتغلبين على السلطان لا يُشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وذلك أن الملك والسلطان حصل لأوليّه منذ أوّل الدولة بعصبيّة قومه وعصبيّة التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب، وهي لم تنزل باقية، وبها انحفّظ رسم الدولة وبقاؤها. وهذا المتغلب وإن كان صاحب عصبيّة من قبيل الملك أو الموالي [ظ ٧٨/٢] والصنائع، فعصبيّته مندرجة في عصبيّة أهل الملك وتابعة لها، وليس له صبغة في الملك. وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهراً، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهي والحلّ والعقد والإبرام والنقض، يوهّم فيها أهل الدولة أنه منصرف عن سلطانه، منفذ في ذلك من وراء الحجاب لأحكامه، فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده، ويعدّد نفسه عن التهمة بذلك وإن حصل له بالاستبداد لأنه مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان وأولوه<sup>(١)</sup> على أنفسهم عن القبيل منذ أوّل الدولة، ومغالط عنه بالنيابة. ولو تعرّض لشيء من ذلك لنفسه<sup>(٢)</sup> عليه أهل العصبيّة وقبيل الملك، وحاولوا الاستئثار به دونه؛ لأنه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له والانقياد، فيهلك لأوّل وهلة.

وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن منصور بن أبي عامر حين سَمّا إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة، ولم يَقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحلّ والعقد والمراسم المتتابعة. فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنو مروان، وسائر قریش، وبايعوا لابن عمّ الخليفة هشام محمّد بن عبد الجبار بن الناصر، وخرجوا عليهم<sup>(٣)</sup>، وكان في ذلك خراب دولة العامريين، وهلاك المؤيد خليفتهم، واستبدل منه سواه من أعياص<sup>(٤)</sup> الدولة إلى آخرها، واختلت مراسم ملوكهم، والله خير الوارثين.

١ - أي: السابقون له من آباءه.

٢ - نفس عليه الشيء: لم يره أهلاً له.

٣ - في ن: عليه.

٤ - أي: أصول الدولة.

## ١-٣-٢٣. الفصل الثالث والعشرون

## في حقيقة الملك وأصنافه

الملك منصبٌ طَبِيعِيٌّ لِلإنسان، لأنَّا قد بينا<sup>(١)</sup> أن البشر لا يُمكنُ حياتهم ووجودهم إلا بالاجتماع وتعاونهم على تحصيل قُوَّتِهِمْ وضروريَّاتهم. وإذا اجتمعوا دَعَتِ الضَّرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومدَّ كلُّ واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه؛ لما في الطبيعة الحيوانية من الظُّلم والعدوان بعضهم على بعض ويُمَانِعُهُ الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة، ومقتضى القوَّة البشرية في ذلك، فيقعُ التنازعُ المفضي إلى المُقاتلة، وهي تؤدِّي إلى الهرج<sup>(٢)</sup> وسفك الدِّماء، وإذْهاب النفوسِ المفضي ذلك إلى انقطاع النوع، وهو مما خصَّه الباري سُبحانه بالمحافظة، فاستحال<sup>(٣)</sup> بقاؤهم فوضى دون حاكم يَزَعُ بعضهم عن بعض؛ واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع، وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطبيعة البشريَّة الملك القاهرُ المتحكم.

ولا بُدَّ في ذلك من العَصَبِيَّة، لما قدَّمناه من أنَّ المطالباتِ كُلَّها والمدافعاتِ كُلَّها لا تتمُّ إلا بالعصبيَّة. وهذا الملك كما تراه منصبٌ شريفٌ تتوجَّه نحوه المطالباتُ، ويحتاج [ظ ١/٧٩] إلى المدافعات؛ ولا يتمُّ شيءٌ من ذلك إلا بالعصبيَّات كما مرَّ والعصبيَّات متفاوتة، وكل عَصَبِيَّة فلها تحكم وتغلَّب على من يليها من قومها وعشيرها. وليس الملكُ لكل عَصَبِيَّة؛ وإنَّما الملك على الحقيقة لمن يستعبدُ الرُّعيَّة، ويجبي الأموال، ويبعثُ البعوثَ، ويحمي الثُّغورَ، ولا تكونُ فوقَ يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور.

فمن قصرت به عصبِيته عن بعضها، مثلِ حماية الثُّغورِ أو جباية الأموال، أو بعثِ البُعوثِ، فهو ملكٌ ناقصٌ، لم تتمَّ حقيقته. كما وقع لكثيرٌ من ملوك البربر في دولة الأغالبة بالقيروان، وملوك العجم صدر الدَّولة العبَّاسية.

ومن قصرت به عصبِيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العَصَبِيَّات والضَّرب على سائر الأيدي، وكان فوقه حكم غيره فهو أيضاً ملكٌ ناقصٌ لم تتم حقيقته، وهؤلاء مثل أمراء

١ - انظر المقدمة الأولى.

٢ - أي: الاضطرابات والفتن.

٣ - في ن: واستحال.

النَّواحِي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة، وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق، أعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية، يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيدين، وزناتة مع الأمويين تارة والعبيدين تارة أخرى، ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس، ومثل أمراء اللبربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام، ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين. وكثير من هؤلاء. فاعتبره تجده. والله ﴿القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام: ١٨].

## ١-٣-٢٤. الفصل الرَّابِعُ والعشرون

في أن إرهابَ الحدِّ مُضِرٌّ بالملك ومفسدٌ له في الأكثر

إِغْلَمَ: أنَّ مصلحةَ الرَّعيَّةِ في السُّلطانِ كَيْسَتْ في ذاته وجسمه، من حسن شكله أو ملاحه وجهه، أو عظم جثمانه، أو اتساع علمه، أو جودة خطِّه، أو ثقب ذهنه.

وإنَّما مصلحةُهم فيه من حيث إضافته إليهم؛ فإنَّ الملكَ والسُّلطانَ من الأمورِ الإضافيةِ، وهي نِسْبَةٌ بَيْنَ مُتَنَسِبِينَ، فحقيقةُ السُّلطانِ أنه الملكُ للرعية القائمُ في أمورهم عليهم. فالسُّلطانُ من له رعيَّةٌ. والرَّعيَّةُ من لها سلطانٌ. والصِّفَةُ التي له من حيث إضافته إليهم، هي التي تُسَمَّى الملكةُ<sup>(١)</sup> وهي كونه بملكتهُم، فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودةِ يمكن حصولُ المقصودِ من السُّلطانِ على أتمِّ الوجه. فإنَّها إن كانت جميلةً صالحةً كان ذلك مصلحةً لهم، وإن كانت سيئةً متعسِّفةً، كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.

ويعودُ حُسْنُ الملكةِ إلى الرِّفْقِ، فإنَّ الملكَ إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوباتِ، منقباً عن عوراتِ النَّاسِ، وتعددِ ذنوبهم، شملهم الخوفُ والذُّلُّ، ولاذوا منه بالكذبِ والمكرِ والخديعةِ فتخلَّقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، ورُبَّما خذلوه في مواطنِ الحربِ<sup>(٢)</sup> والمدافعاتِ، ففسدت [ظ ٢/٧٩] الحمايةُ بفسادِ النِّيَّاتِ؛ وربما أجمعوا على قتلهِ لذلك، فتفسدُ الدَّولةُ ويخربُ السِّياجُ، وإن دام أمرُهُ عليهم وقهرُهُ فسدت العَصِيَّةُ لما قلناه أولاً<sup>(٣)</sup> وفسد السِّياجُ من أصله بالعجزِ عن الحماية.

وإذا كان رقيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأُشربوا محبَّته، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمرُ من كل جانب.

وأما توابعُ حُسْنِ الملكةِ فهي النِّعمةُ عليهم والمدافعةُ عنهم: فالمدافعةُ بها تتمُّ حقيقةُ الملكِ، وأما النِّعمةُ عليهم والإحسانُ لهم، فمن جملةِ الرِّفْقِ بهم، والنَّظرُ لهم في معاشهم، وهي أصلٌ كبيرٌ من التَّحَبُّبِ إلى الرَّعيَّةِ.

واعلم: أنه قلَّما تكون ملكةُ الرِّفْقِ فيمن يكون يقطاً شديد الذِّكاء من النَّاسِ. وأكثر ما يوجدُ الرِّفْقُ في الغفْلِ والمتغفِّل. وأقلُّ ما يكونُ في اليَقِظِ، لأنَّه يُكَلِّفُ الرَّعيَّةَ فوق طاقتهم،

١ - أي الحكم.

٢ - في المطبوع: الحروب..

٣ - في الفصل الثالث عشر من هذا الباب.



لنفوذ نظره فيما وراء مداركهم، وإطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بالمعيتة فيهلكون لذلك. قال صلى الله عليه وسلم: «سيروا على سِيرِ أضعفكم»<sup>(١)</sup>.

ومن هذا الباب: اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء. ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان، لما عزله عمر عن العراق، وقال له: لم عزلتني يا أمير المؤمنين، ألحز أم لخيانة؟ فقال عمر: لم أعزلك لواحدةٍ منهما. ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس.

فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مُفرط الذكاء والكيس، مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص؛ لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة<sup>(٢)</sup> وحمل الوجود<sup>(٣)</sup> على ما ليس في طبعه، كما يأتي في آخر هذا الكتاب. والله خير المالكين.

وتقرر من هذا أن الكيس<sup>(٤)</sup> والذكاء عيب في صاحب السياسة؛ لأنه إفراط في الفكر، كما أن البلادة إفراط في الجمود. والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية.

والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل، وكما في الشجاعة مع الهوج والجبن، وغير ذلك من الصفات الإنسانية، ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات الشيطان، فيقال: شيطانٌ ومتشيطانٌ وأمثال ذلك. والله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

١ - قال العجلوني في كشف الخفاء (٥٦٣/١): قال في المقاصد: لا أعرفه بهذا اللفظ، ولكن معناه في قوله صلى الله عليه وسلم: «أقدر القوم بأضعفهم، فيهم الكبير والسقيم والبعيد وذو الحاجة». ورواه الشافعي في مسنده وكذا الترمذي وحسنه، وابن ماجة والحاكم وقال: على شرط مسلم. وابن خزيمة وصححه والحاثر بن أبي أسامة عن أبي هريرة رفعه. يا ابا هريرة: إذا كنت إماماً فقس الناس بأضعفهم، وفي لفظ: فاقتد بأضعفهم. وقال القاري: لكن معناه في قوله عليه الصلاة والسلام: أم الناس وأقتد بأضعفهم. انتهى.

٢ - أي الامتلاك، وهنا الحكم.

٣ - أي الوجود.

٤ - الكيس: الفطنة.

## ١-٣-٢٥. الفصل الخامس والعشرون

## في معنى الخلافة والإمامة

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري<sup>(١)</sup> للبشر، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق، مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم، لحمله إيّاهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم، فتعسر طاعته لذلك، وتحيء العصبيّة المفضية إلى الهرج<sup>(٢)</sup> والقتل، فوجب أن يرجع [ظ ١/٨٠] في ذلك إلى قوانين سياسيّة مفروضة يسلمها الكافة، وينقادون إلى أحكامها، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم.

وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ [الأحزاب: ٣٨ و ٦٢].

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، كانت سياسة عقلية. وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط. فإنها كلها عبث وباطل، إذ غايتها الموت والفناء والله يقول: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ [المؤمنين: ١١٥]. فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم: ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ [الشورى: ٥٣]. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة، حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرتة على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع. فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبيّة في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده، كما هو مقتضى الحكمة السياسيّة.

وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً، لأنه نظر بغير نور الله ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ [النور: ٤٠]. لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من

١ - أي ما يؤدي فقدانه لاختلال التوازن العام.

٢ - أي: الفتنة والاضطرابات.

ملك أو غيره. قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ»<sup>(١)</sup>. وأحكام السياسة إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة؟ وأنَّ الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد. والله الحكيم العليم.

١ - قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٢٥٠): قال النجم: رواه أبو نعيم عن حسان بن عطية قال: بلغني أن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا بني آدم إنا قد أنصتنا لكم مذ خلقناكم، فأنصتوا لنا اليوم نقرأ عليكم أعمالكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، وفي كتاب الله تعالى: ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

### ١-٣-٢٦. الفصل السادس والعشرون

#### في اختلاف الأمة في حكم المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصَبِ، وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ وَيُسَمَّى <sup>(١)</sup> خَلَافَةً [ظ ٢/٨٠] وَإِمَامَةً. وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةُ وَإِمَامٌ. وَسَمَاءُ الْمَتَأَخَّرُونَ سُلْطَانًا حِينَ فَشَا التَّعَدُّدُ فِيهِ، وَاضْطَرُّوا بِالتَّبَاعِدِ وَفُقْدَانِ شُرُوطِ الْمَنْصَبِ إِلَى عَقْدِ الْبَيْعَةِ لِكُلِّ مَتَغَلِّبٍ.

فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهًا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِي اتِّبَاعِهِ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى، وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكُونِهِ يَخْلُفُ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَمْتِهِ، فَيُقَالُ: خَلِيفَةُ بِإِطْلَاقٍ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ.

وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةُ اللَّهِ، فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ اقْتِبَاسًا مِنَ الْخَلَاةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لِلْأَدَمِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَمَنْعَ الْجُمْهُورِ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ. وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ، وَقَالَ: لَسْتُ خَلِيفَةَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلِأَنَّ الْاِسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ الْغَائِبِ، وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا.

ثُمَّ إِنَّ نَصَبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وَجُوبُهُ فِي الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِمْ، وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَلَمْ تَتْرَكِ النَّاسُ فَوْضَى فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ. وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وَجُوبِ نَصَبِ الْإِمَامِ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرِكَ وَجُوبِهِ الْعَقْلُ، وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ، قَالُوا: وَإِنَّمَا وَجِبَ بِالْعَقْلِ لِمُضْرَرَّةِ الْاجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ، وَاسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مِنْفَرِدِينَ، وَمِنْ ضَرُورَةِ الْاجْتِمَاعِ التَّنَازُعِ لِازْدِحَامِ الْأَغْرَاضِ، فَمَا لَمْ يَكُنْ <sup>(٢)</sup> الْحَاكِمُ الْوَازِعَ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى الْهَرَجِ الْمُؤْذِنِ بِهَلَاكِ الْبَشَرِ وَانْقِطَاعِهِمْ؛ مَعَ أَنَّ حِفْظَ النَّوْعِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ الضَّرُورِيَّةِ <sup>(٣)</sup>.

١ - في ن: (تسمن). و (به سمي)

٢ - فما لم يوجد.

٣ - وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر، وقد نبهنا على فساد، وأنَّ إحدى مقدماته أنَّ الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلَّم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد، وهو غير مُسلَّم؛ لأنَّ الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع، كما في أمم الجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة. أو نقول: يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحدٍ بتحريم الظلم عليه بحكم العقل. فادعاهم أنَّ التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك، ونصب الإمام هنا، غير صحيح، بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة، أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم، فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة. فدلَّ على أن مُدرك وجوبه إنما هو بالشرع، وهو الإجماع الذي قدَّمناه.

وقد شدَّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع، منهم الأصمُّ من المعتزلة، وبعض الخوارج، وغيرهم. والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء [ظ ١/٨١] أحكام الشرع<sup>(١)</sup>. فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يُحتج إلى إمام، ولا يجب نصبه، وهؤلاء محجوبون بالإجماع.

والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة<sup>(٢)</sup> بدم ذلك، والنعي على أهله ومرغبة في رفضه.

واعلم أنَّ الشرع لم يذمَّ الملك لذاته، ولا حظر القيام به؛ وإنما ذمَّ المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات، ولا شك أنَّ في هذه مفسد محظورة وهي من توابعه، كما أثبتني على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذِّب<sup>(٣)</sup> عنه، وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك. فإذا إنما وقع الذمُّ للملك على صفة وحال دون حال أخرى، ولم يذمَّ لذاته، ولا طلب تركه، كما ذمَّ الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مُراد تركها بالكلية لدعاية الضرورة إليها، وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق. وقد كان

١ - في المطبوع: الحكم بالشرع.

٢ - في ن: ممثلة.

٣ - أي: الدفاع عنه.

لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما، وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده.

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمَلِكِ بَعْدَ وَجوب هَذَا النَّصْبِ لَا يَغْنِيكُمْ شَيْئاً؛ لَأَنْتُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وَجوب إقامة أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ وَالشَّوْكَةِ، وَالْعَصَبِيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبْعِهَا لِلْمُلْكِ<sup>(١)</sup>، فَيَحْصُلُ الْمَلِكُ وَإِنْ لَمْ يَنْصَبْ إِمَامٌ، وَهُوَ عَيْنُ مَا فَرَرْتُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النَّصْبَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعٍ، فَهُوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ، وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ. وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصَبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ: الْعِلْمُ، وَالْعَدَالَةُ، وَالْكَفَايَةُ، وَسَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ، مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ، وَاخْتَلَفَ فِي شَرْطِ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ. فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مَنْفَذاً لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِماً بِهَا، وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا، وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِداً، لِأَنَّ التَّقْلِيدَ نَقْصٌ. وَالْإِمَامَةُ تَسْتَدْعِي الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَحْوَالِ.

وَأَمَّا الْعَدَالَةُ: فَلأنه مَنْصَبٌ دِينِيٌّ يَنْظَرُ فِي سَائِرِ الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا، فَكَانَ أَوَّلِي بَاشْتِرَاطِهَا فِيهِ، وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ بِفَسْقِ الْجَوَارِحِ، مِنْ ارْتِكَابِ الْحُظُورَاتِ وَأَمْثَالِهَا. وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبَدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ.

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِئاً عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَاقْتِحَامِ الْحُرُوبِ، بِصِيراً بِهَا، كَفَيْلاً بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا، عَارِفاً بِالْعَصَبِيَّةِ وَأَحْوَالِ الدَّهَاءِ، قَوِيّاً عَلَى مَعَانَاةِ السِّيَاسَةِ، لِيَصِحَّ لَهُ بِذَلِكَ مَا جَعَلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ [ط ٢/٨١] الدِّينِ، وَجِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ الْأَحْكَامِ، وَتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ.

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعُطْلَةِ كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمِّ وَالْخَرَسِ؛ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدُهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ، كَفَقْدِ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ<sup>(٣)</sup>،

١ - انظر ذلك في الفصل السابع عشر من الباب الثاني وعنوانه: فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك.

٢ - في ن: فررت عنه.

٣ - الخصيتان.

فَتَشَرَطُ: السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلُّهَا لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تِمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جَعَلَ إِلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَشِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ، كَفَقْدِ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَشَرَطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ كَمَالٍ. وَيُلْحَقُ بِفَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَهُوَ ضَرْبَانِ:

ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِذِهِ فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ وَجُوبٍ، وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ وَشِبْهِهِ، وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِذِهِ، وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عَصِيَّانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ<sup>(١)</sup>، فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوَلِيِّ، فَإِنْ جَرَى عَلَى حَكَمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ، وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ يَقْبِضُ يَدَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيُدْفَعُ عُلَّتَهُ حَتَّى يَنْفِذَ فِعْلُ الْخَلِيفَةِ.

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ: فَلِاجْتِمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ<sup>(٢)</sup> عَلَى ذَلِكَ، وَاحْتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ - لِمَا هُمُوا يَوْمئِذٍ بَبِيعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ - بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ»<sup>(٣)</sup>. وَبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ، وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِكُمْ<sup>(٤)</sup>، وَلَوْ كَانَتِ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ، فَحَجَّجُوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هُمُوا بِهِ مِنْ بَبِيعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ. وَثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ: «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ»<sup>(٥)</sup>. وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ.

إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ، وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ، وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمْ الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخَلَافَةِ، وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ، وَصَارَ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ لَهُمْ، فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ، حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ، وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرٍ فِي ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمَعُوا

١ - أي: ولا مخالفة.

٢ - سقيفة بني ساعدة التي بويج فيها أبو بكر.

٣ - أخرجه أحمد (١٢٩/٣، ١٨٣) وأبو يعلى (٤٠٣٣) والبزار (١٥٧٩) والطبراني في الكبير (٧٢٥) والحاكم في المستدرک (٥٠١/٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث أنس. وروي من حديث غيره. وانظر مجمع الزوائد (٣٤٦/٥ - ٣٥٥) في كتاب الخلافة، الباب الرابع.

٤ - أخرجه البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠) من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الأنصار كرشى وعبيتي، وإن الناس يكثرون ويقولون، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئتهم».

٥ - أخرجه البخاري (٢١٩٥ و ٧١٤٠) ومسلم (١٨٢٠) وابن حبان (٦٢٦٦ و ٦٦٥٥) من حديث ابن

وَأَطِيعُوا وَإِنِّي وَلِيُّ عَلَيْكُمْ عَبْدُ حَبَشِيٍّ ذُو زَبِيَّةٍ»<sup>(١)</sup>. وهذا لا تقوم به حجة في ذلك، فإنه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة، ومثل قول عمر: لو كان سالم مولى [أبي] حذيفة حياً لوليتُهُ، أو لما دخلتني فيه الظنة. وهو أيضاً لا يفيد ذلك لما علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة، وأيضاً: «فمولى القوم منهم»<sup>(٢)</sup>، وعصبيّة الولاء حاصلة لسالم في قريش، وهي الفائدة في اشتراط النسب. ولما استعظم عمر أمر الخلافة، ورأى شروطها كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم، لتوفر شروط [١/٨٢] الخلافة عنده فيه، حتى من النسب المفيد للعصبيّة كما نذكر، ولم يبق إلا صراحة النسب فرآه غير محتاج إليه، إذ الفائدة في النسب إنما هي العصبيّة، وهي حاصلة من الولاء فكان ذلك حرصاً من عمر رضي الله عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة، ولا عليه فيه عهدة.

ومن القائلين بنفي اشتراط القرشيّة القاضي أبو بكر الباقلاني، لما أدرك ما عليه عصبيّة قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء، فأسقط شرط القرشيّة، وإن كان موافقاً لرأي الخوارج، لما رأى عليه حال الخلفاء لعهد.

وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين. وردّ عليهم سقوط شرط الكفاية<sup>(٣)</sup> التي يقوى بها على أمره؛ لأنه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبيّة فقد ذهبت الكفاية، وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرّق ذلك أيضاً إلى العلم والدين، وسقط اعتبار شروط المنصب وهو خلاف الإجماع.

ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول: إن الأحكام الشرعية كلها، لا بُدَّ لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها، وتشرع لأجلها. ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه، لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلًا، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت، فلا بُدَّ إذن من المصلحة في اشتراط النسب، وهي المقصودة من مشروعيتها.

١ - أخرجه البخاري (٦٩٣ و ٦٩٦ و ٧١٤٢) من حديث أنس بلفظه. وأخرج معناه أحمد (٤٠٢/٦ - ٤٠٣) ومسلم (١٨٣٨) من حديث أم حصين. و(١٨٣٧) من حديث أبي ذر.

٢ - مرّ.

٣ - أي: عند اشتراط القرشية وإهدار ما عداها من شروط.



وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا<sup>(١)</sup> لم نجد لها إلا اعتبار العَصِيَّةِ التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا، وَيَنْتَظِمُ حَوْلُ الْأَلْفَةِ فِيهَا.

وذلك أَنَّ قَرِيشًا كانوا عَصْبَةً مُضَرَّ وَأَصْلُهُمْ وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِّ الْعِزَّةِ بِالْكَثَرَةِ وَالْعَصِيَّةِ وَالشَّرَفِ، فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَسْتَكِينُونَ لْغَلَبِهِمْ؛ فَلَوْ جَعَلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ افْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ، وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَائِلِ مُضَرَّ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكَرَّةِ<sup>(٢)</sup>، فَتَتَفَرَّقَ الْجَمَاعَةُ، وَتُخْتَلَفُ الْكَلِمَةُ، وَالشَّارِعُ مُحَدَّرٌ مِنْ ذَلِكَ، حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ، وَرَفَعَ التَّنَازُعَ وَالشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلِ اللَّحْمَةِ وَالْعَصِيَّةِ، وَتَحْسُنِ الْحِمَايَةِ. بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قَرِيشَ، لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بَعْضَا الْغَلَبِ، إِلَى مَا يَرَادُ مِنْهُمْ، فَلَا يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ وَلَا فُرْقَةٍ، لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا، فَاشْتَرَطَ نَسَبُهُمُ الْقُرَشِيَّةَ فِي هَذَا الْمُنْصَبِ [ظ ٢/٨٢]، وَهُمْ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ، لِيَكُونَ أُبْلَغَ فِي انْتِظَامِ الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ؛ وَإِذَا انْتَضَمَتِ كَلِمَتُهُمْ انْتَضَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَّ أَجْمَعٍ، فَادْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ، وَانْقَادَتِ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ، وَوُطِّئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ، كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفَتْوحَاتِ، وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنْ اضْمَحَلَّ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ.

وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقَرِيشَ مِنَ الْكَثَرَةِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى بُطُونِ مُضَرَّ مِنْ مَارَسِ أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَسَيْرِهِمْ وَتَفَطُّنِ لَذَلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السَّيْرِ وَغَيْرِهِ. فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ الْقُرَشِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْغَلَبِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِحِيلٍ وَلَا عَصْرٍ وَلَا أُمَّةٍ، عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكَفَايَةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا، وَطَرَدْنَاهُ<sup>(٣)</sup> الْعِلَّةَ الْمَشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرَشِيَّةِ، وَهِيَ وَجُودُ الْعَصِيَّةِ، فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عَصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ عَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَصْرِهَا، لِيَسْتَتَبِعُوا مِنْ سِوَاهُمْ وَتُجْتَمَعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حَسَنِ الْحِمَايَةِ. وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ

١ - قسم أمره: قدره، أي: إذا نظرنا وبَحْثْنَا.

٢ - أي: الرجوع. أي: رجوعهم عن الخلاف.

٣ - أي: عَمَمْنَاهَا وجعلناها مطردة.

في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية، إذ الدَّعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامةً، وعَصَبِيَّةُ العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم. وإنَّما يُخصَّص لهذا العهد كل قطرٍ بمن تكون له فيه العصبيَّةُ الغالبةُ.

وإذا نظرت سرَّ الله في الخلافة لم تعدْ هذا<sup>(١)</sup>؛ لأنَّه سبحانه إنَّما جعلَ الخليفةَ نائباً عنه في القيام بأُمور عبادة، ليحملهم على مصالحهم، ويردَّهم عن مضارِّهم، وهو مخاطبٌ بذلك، ولا يخاطبُ بالأمر إلا من له قدرةٌ عليه. ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب<sup>(٢)</sup> في شأن التَّساء، وأنَّهنَّ في كثير من الأحكام الشَّرعية جعلنَ تبعاً للرَّجال، ولم يدخلنَ في الخطاب بالوضع، وإنَّما دخلنَ عنده بالقياس، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيءٌ وكان الرِّجال قوَّامينَ عليهن، اللهمَّ إلا في العبادات التي كلُّ أحدٍ فيها قائمٌ على نفسه، فخطأُهنَّ فيها بالوضع لا بالقياس، ثُمَّ إنَّ الوجود<sup>(٣)</sup> شاهدٌ بذلك، فإنَّه لا يقومُ بأمر أمة أو جيل إلا من غلبَ عليهم، وقلَّ أن يكون الأمر الشَّرعيُّ مخالفاً للأمر الوجودي. والله تعالى أعلم.

١ - وقد تبين لي سرُّ آخر، وهو: أن الشارع علم من أخلاق الناس والأمم أنَّها لا تدين إلا لمن تخضع له نفوسهم بأمر الشرع، فحثهم أن يجعلوا للقرشي المتزلة، حتى لا تختلف النفوس، ولا تضيع حماية الدين بانتقالها إلى أناس لم يترل القرآن بلغتهم. فكان المقصد العام دفع الخصام والتنازع بحصر أمور الخلافة في بقعة محددة ليتفرغ الناس إلى معاشهم، ولتفاضل القرشيون في صفات الخير وفضائله، وهذا كالقوانين التي توضع تحدد صفات الرئيس، وبمقدار المحافظة عليها يكون الهدوء والسكينة والسعادة والرخاء. ذلك أنه لا يكون تنازع إلا في الفضائل، فينتقل حال الناس من البحث عن التغلبات إلى تحسين المعاش لأنه مرتبط بالمعاد... وما أصبنا ونكينا إلا بانتزاع السلطان من العرب وعدم الالتفات إلى مثل هذه التوجيهات. والله أعلم.

٢ - قال المهوريني: الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرَّازي.

٣ - أي الواقع.

## ١-٣-٢٧. الْفَصْلُ السَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ

## فِي مَذَاهِبِ الشَّيْعَةِ فِي حُكْمِ الْإِمَامَةِ

إِغْلَمَ: أَنَّ الشَّيْعَةَ لُغَةً: هُمُ الصَّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ، وَيُطْلَقُ فِي عَرَفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ<sup>(١)</sup> مِنْ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ عَلَى أَتْبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَمَذَاهِبُهُمْ جَمِيعاً مُتَّفَقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُفَوَّضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ، وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ، بَلْ هِيَ رُكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ [ظ ٨٣/١] الْإِسْلَامِ، وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالِهِ وَلَا تَفْوِضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ، وَيَكُونُ مَعْصُوماً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ؛ وَإِنَّ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤَوِّلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذَاهِبِهِمْ، لَا يَعْرِفُهَا جَهَابُذَةُ الشُّنَّةِ وَلَا نَقْلَةُ الشَّرِيعَةِ، بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ، أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ، أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةُ.

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عَنْدهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ:

فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»<sup>(٢)</sup>. قَالُوا: وَلَمْ تَطْرُدْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ إِلَّا فِي عَلِيٍّ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «أَفْضَاكُمْ عَلِيٌّ»<sup>(٣)</sup>. وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِأَوَّلِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ بِقَوْلِهِ: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوَّلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» [النساء: ٥٩]. وَالْمَرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ، وَلِهَذَا كَانَ حُكْماً فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ، دُونَ غَيْرِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى رُوحِهِ، وَهُوَ وَصِيِّي وَوَلِيِّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي»<sup>(٤)</sup>. فَلَمْ يَبَايِعْهُ إِلَّا عَلِيٌّ.

١ - أي: علماء التوحيد.

٢ - أخرجه الزمذني (٣٧١٣) من حديث أبي سريحة أو زيد بن أرقم. وأحمد (٢٨١/١) عن البراء، و(٨٤/١) و١١٨ و١١٩ و١٥٢ و٣٦٦/٥ و٤١٩) عن علي. و(٣٥٠/٥) وانظر مجمع الزوائد (١٢٨/٩ -) وابن حبان (٦٩٣٠) عن بريدة.

٣ - أخرجه الطبراني في الصغير (٥٥٦) عن جابر بإسناد حسن كما قال الهيثمي في المجمع (١٤٩١٨) وأخرجه أبو يعلى (٥٧٦٣) عن ابن عمر بإسناد ضعيف جداً.

٤ - لم أجد هذا اللفظ، وإنما أخرج أحمد (٣٠٦٢) والطبراني في الكبير (١٢٥٩٣) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيكم يوالي في الدنيا والآخرة؟ فأبوا قال: فقال علي: أنا وأليك في الدنيا والآخرة، فقال: أنت ولي في الدنيا والآخرة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت ولي كل مؤمن بعدي». وأخرج الطبراني في الكبير (٦٠٦٣) بإسناد ضعيف جداً عن سلمان قال: قلت: يا رسول الله، إن لكل نبي وصياً، فمن وصيك؟ فسكن عني، فلما كان بعد رأيي فقال: يا سلمان. فأسرعت إليه قلت: لبيك، قال: تعلم

ومن الخفي عندهم: بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت<sup>(١)</sup>، فإنه بعث بها أولاً أبا بكر، ثم أوحى إليه: ليلغه رجل منك، أو من قومك، فبعث علياً، ليكون القارئ المبلغ. قالوا: وهذا يدل على تقديم علي.

وأيضاً: فلم يعرف الله قدم أحداً على علي. وأما أبو بكر وعمر فقدّم عليهما في غزائين<sup>(٢)</sup> أسامة بن زيد مرةً، وعمرو بن العاص أخرى. وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره. فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم.

ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه، وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية؛ ويتبرّون من الشيخين حيث لم يقدموا علياً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص، ويعمّصون<sup>(٣)</sup> في إمامتهما. ولا يلتفت إلى نقل القدح فيهما من غلائهم، فهو مردود عندنا وعندهم.

ومنهم من يقول: إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص. والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية، ولا يتبرّون من

من وصي موسى؟ قال: نعم يوشع بن نون، قال: لم؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ، قال: فإن وصي وموضع سري، وخير من أترك بعدي وينجز عدي ويقضي ديني علي بن أبي طالب. قال الهيثمي (١٤٦٨): رواه الطبراني وقال: قوله: وصي. يعني أنه وصاه بأهله لا بالخلافة. وقوله: وخير من أترك بعدي. يعني: من أهل بيته صلى الله عليه وسلم.

١ - أخرج ابن حبان (٦٦٤٤) عن أبي سعيد أو أبي هريرة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه، فلما بلغ ضحنتان سمع بُغَامَ ناقة علي رضي الله عنه، فعرفه، فأتاه فقال: ما شأني؟ قال: خير، إن النبي صلى الله عليه وسلم بعثني براءة، فلما رجعنا، انطلق أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، ما لي؟ قال: خير، أنت صاحب في الغار، غير أنه لا يبلغ غيري، أو رجل مني - يعني علياً -.

وأخرج الترمذي (٣٠٩٠) والنسائي في الخصائص (٧٠) عن أنس بن مالك قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم براءة مع أبي بكر ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي. فدعا علياً فأعطاه إياه. وأخرج النسائي في الخصائص (٧٦) عن علي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث براءة إلى أهل مكة، قال: فلحقه، فأخذ الكتاب منه، فانصرف أبو بكر وهو كئيب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل في شيء؟ قال: لا إلا أبي أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي.

٢ - قال د. وافي وصوابه: غزوتين مثني غزوة أو مغزاتين مثني مغزاة. قلت: وما أتى به المصنف مثني الغزاة كحصة: اسم من غزوت العدو. قال ثعلب: إذا قيل غزاة فيه عمل سنة، وإذا قيل: غزوة فهي المرة الواحدة من الغزو. انظر شرح القاموس للزبيدي.

٣ - أي: يعيونها ولا يعترفون بها.

الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما، مع قولهما بأنَّ علياً أفضلُ منهما، لكنَّهم يُجَوِّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

ثمَّ اختلفت نقول هؤلاء الشَّيْعَةِ في مساق الخِلاَفَةِ بعدَ عليٍّ:

فمنهم من ساقها في وُلْدِ فاطمة بالنِّصِّ عليهم واحداً بعدَ واحدٍ على ما نذكر<sup>(١)</sup> بعدُ، وهؤلاء [ظ ٨٣/٢] يُسمَّون الإمامية، نسبةً إلى مقاتلهم باسْطراطِ معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، وهي أصلُ عندهم.

ومنهم من ساقها في ولد فاطمة، لكن بالاختيار مع الشُّيوخ؛ ويشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً ويخرجُ داعياً إلى إمامته، وهؤلاء هم الزُّيدية نسبةً إلى صاحب المذهب، وهو زيدُ بن علي بن الحسين السُّبط، وقد كان يُناظرُ أخاه محمداً الباقر على اسْطراطِ الخروج في الإمام، فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زَيْنُ العابدَيْنِ<sup>(٢)</sup> إماماً، لأنَّه لم يخرج ولا تعرَّضَ للخروج. وكان مع ذلك ينعي عليه مذاهب المعتزلة، وأخذهُ إيَّاهَا عن واصل بن عطاء، ولما ناظر الإمامية زيدا في إمامة الشَّيخين، ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأُ منهما رفضوه، ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سُمُّوا رافضةً.

ومنهم من ساقها بعد علي وإبنه السُّبْطَيْنِ على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما، محمَّدِ ابن الحنفية، ثمَّ إلى وُلْدِهِ، وهم الكيسانية، نسبةً إلى كيسان مولاه، وبين هذه الطوائف اختلافاتٌ كثيرةٌ تركناها اختصاراً.

ومنهم طوائفُ يُسمَّون الغلاة، تجاوزوا حدَّ العقل والإيمان في القول بالوَهْيَةِ هؤلاء الأئمة: إمَّا على أنَّهم بشرٌ اتَّصفوا بصفاتِ الألوهية أو أنَّ الإلهَ حلَّ في ذاته<sup>(٣)</sup> البشرية، وهو قول بالحلول يوافقُ مذهب النَّصارى في عيسى، صلواتُ الله عليه، ولقد حَرَقَ عليُّ رضي الله عنه بالنَّار من ذهب فيه إلى ذلك منهم، وسخطَ محمداً ابنُ الحنفية المختار بن أبي عبيدٍ لما بلغه مثلُ ذلك عنه فصَّرَحَ بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعلَ جعفرُ الصَّادقِ رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثلُ هذا عنه.

١ - في ن: يذكر.

٢ - هو علي بن الحسين السُّبط.

٣ - في ن: ذاتهم.

ومنهم من يقول: إنَّ كمالَ الإمام لا يكونُ لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمامٍ آخرَ ليكون فيه ذلك الكمالُ، وهو قولٌ بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقفُ عند واحد من الأئمة لا يتجاوزُهُ إلى غيره بحسب من يُعَيَّنُ لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفيَّةُ، فبعضهم يقول: هو حيٌّ لم يمِتْ إلا أنَّه غائبٌ عن أعين النَّاسِ، ويستشهدون لذلك بقِصَّةِ الخضر<sup>(١)</sup>. قيلَ مثْلُ ذلك في عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّه في السُّحابِ، والرَّعدُ صَوْتُهُ، والبرقُ في سوطه<sup>(٢)</sup>. وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنَّه في جبلِ رَضَوَى من أرضِ الحِجَازِ، وقال شاعرهم:

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ      وَلَا الْحَقَّ أَرْبَعَةَ سَوَاءٍ  
عَلَيٍّ وَالثَّلَاثَةَ مَنْ يَنْبِيهِ      هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ  
فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَبَرٍّ      وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاءِ<sup>(٣)</sup>  
وَسَبْطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى      يَذُودُ<sup>(٤)</sup> الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللَّوَاءُ<sup>(٥)</sup>  
تَغِيْبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا      بَرَضَوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

[ظ ١/٨٤] وقال مثله غلاةُ الإماميَّةِ، وخصوصاً الاثني عَشَريَّة منهم، يزعمون أنَّ الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسْكَرِيُّ - وَيُقْبَوْنَهُ الْمُهْدِيَّ - دخل في سِرْدَابٍ بدارهم في الحِلَّةِ<sup>(٦)</sup>، وتغيَّبَ حينَ اعتَقِلَ مع أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ، وهو يخرجُ آخرَ الزَّمَانِ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا، يُشِيرُونَ بذلك إلى الحديثِ الواقعِ في كتاب الترمذي<sup>(٧)</sup> في المهدي؛ وهم إلى الآن ينتظرونه وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لذلك، ويقفون في كُلِّ لَيْلَةٍ بعد صلاة المغربِ ببابِ هذا السَّرْدَابِ، وقد قَدَّمُوا مَرْكَبًا فِيهِتَفُونَ بِاسْمِهِ، ويدعونهُ للخروجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ، ثُمَّ يَنْفَضُونَ وَيَرْجُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ، وهم على ذلك لهذا العهد.

١ - رويت القصة في القرآن الكريم في سورة الكهف.

٢ - في ن: صوته.

٣ - الأول: الحسن. والثاني: الحسين شهيد كربلاء رضي الله عنهما.

٤ - في ن: (يقود).

٥ - هو محمد بن الحنفية بن علي ويسمى سبطاً تجوزاً. د. وافي.

٦ - اسم بلد قرب بغداد.

٧ - انظرها في الترمذي (٢٢٣٠ و ٢٢٣١) من حديث أبي هريرة وابن مسعود.

وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ: إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجَعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، وَيَسْتَشْهَدُونَ لَذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ<sup>(١)</sup>، وَقَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا<sup>(٢)</sup>. وَمِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمَعْجِزَةِ، وَلَا يَصِحُّ الِاسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ، وَمِنْ شَعْرِهِ فِي ذَلِكَ:

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدْالٌ<sup>(٣)</sup> وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِيطُ<sup>(٤)</sup> بِالْخِضَابِ  
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَقُمْ يَا صَاحِبَ نَبْلِكَ عَلَى الشَّبَابِ  
إِلَى يَوْمٍ تُثُوبُ<sup>(٥)</sup> النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ  
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِيَابِ  
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ  
كَذَلِكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنْاسٍ حَيُّوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَوْزُونَةُ هَؤُلَاءِ الْغَلَاةِ أَئِمَّةِ الشُّيْعَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا، وَيُطْلُونَ احْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الْكُنُسَانِيَّةُ: فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ. ثُمَّ افْتَرَقُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَّاءِ مَنْصَرَفًا مِنَ الشَّامِ، أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِالْإِمَامِ، وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمَلَقَبِ بِالسَّفَّاحِ، وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَلَقَبِ بِالْمَنْصُورِ، وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالنَّصِّ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ<sup>(٦)</sup> وَسَلِيمَانُ بْنُ

١ - القصة مذكورة في سورة البقرة الآية: ٢٥٩.

٢ - سورة البقرة: [٦٧ - ٧٣].

٣ - وهو جماع مؤخر الرأس.

٤ - جمع ماشطة وهي التي ترحل الشعر وتمشطه.

٥ - في ن: ثوب.

٦ - الخراساني من أصحاب الفضل الأكبر في قيام الدول العباسية.

كثير<sup>(١)</sup>، وأبو سلمة الخلال وغيرهم، من شيعة العباسية، وربما يعضدُونَ<sup>(٢)</sup> ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس، لأنه كان حياً وقت الوفاة، وهو أولى بالوراثة بعصبة العمومة.

وأما الزيدية: فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها، وأنها باختيار أهل الحل والعقد، لا بالنص، فقالوا بإمامة علي، ثم ابنه الحسن ثم أخيه [ظ ٨٤/٢] الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه زيد بن علي، وهو صاحب هذا المذهب، وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل، وصُلب بالكناسة<sup>(٣)</sup>، وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقُتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط، ويقال له: النفس الزكية، فخرج بالحجاز، وتلقب بالمهدي، وجاءته عساكر المنصور، فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم، فقام بالبصرة، ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره، فهزم وقتل إبراهيم وعيسى، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهي معدودة في كراماته.

وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية، هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وعمر هو أخو زيد بن علي، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان، فقبض عليه وسبق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه.

وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور. ونقلوا الإمامة في عقبه، وإليه انتسب دعي الزنج، كما ذكره في أخبارهم.

وقال آخرون من الزيدية: إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك، وقام بأمره ابنه إدريس، واحتط مدينة فاس، وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب، إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم. وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم. وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط. وأخوه محمد بن زيد. ثم قام بهذه الدعوة في الديلم، الناصر الأتروش منهم، وأسلموا على يده، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن

١ - سليمان الخزازي النقيب، انظر أخباره في تاريخ الطبري (الفهارس).

٢ - أي: يؤيدون رأيهم.

٣ - وهو موضع بالكوفة.



علي بن عمر، وعمر أخو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، فكانت لبنيه بطبرستان دولة، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد، كما نذكر في أخبارهم.

وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ: فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup> إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً سَاقَوْهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ؛ وَفِرْقَةً سَاقَوْهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ، وَهُمْ الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ لَوْقِفُهُمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَقَوْلُهُمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ.

فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ: فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامَ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ، وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ: إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقْبِهِ، كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، قَالُوا: ثُمَّ انْتَقَلَتْ [ظ ٨٥/١] الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأَئِمَّةِ الْمُسْتُورِينَ، لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَرُّ، وَتَكُونُ دُعَاؤُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ. قَالُوا: وَبَعْدَ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ، ابْنُهُ جَعْفَرُ الْمُصَدِّقِ<sup>(٢)</sup>، وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَيِّبِ، وَهُوَ آخِرُ الْمُسْتُورِينَ، وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدِ اللَّهِ<sup>(٣)</sup> الْمَهْدِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كُتَامَةٍ، وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجْلَمَاسَةَ وَمَلِكِ الْقَيْرَوَانَ وَالْمَغْرِبَ، وَمَلِكُ بَنُوهُ مِنْ بَعْدُ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ.

وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ: الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ، وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ - أَيِ: الْمُسْتُورِ - وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ، دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ الصَّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِلَّةِ الْخَامِسَةِ، وَمَلِكُ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَ هَا هَلَاكُ بَيْنَ مَلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ، وَمُلُوكِ التَّتَرِ بِالْعِرَاقِ، فَانْقَرَضَتْ. وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ.

وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشَرِيَّةُ، فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، لَوْفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ،

١ - فِي الْمَطْبُوعَاتِ: عَلِيُّ الرُّضَا. خَطَأً صَوَابُهُ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. كَمَا فِي ظ.

٢ - هَكَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي ن: جَعْفَرُ الصَّادِقِ.

٣ - لَعَلَّ صَوَابُهُ: عَبِيدُ اللَّهِ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهِ الْعَبِيدِيُّونَ.

فنصَّ على إمامة موسى هذا، ثُمَّ ابنه عليُّ الرُّضا الذي عهد إليه المأمونُ، ومات قبله، فلم يتمَّ له أمرٌ. ثُمَّ ابنه محمدُ التقيُّ، ثُمَّ ابنه عليُّ الهاديُّ، ثُمَّ ابنه محمدُ الحَسَنُ العسْكَريُّ، ثُمَّ ابنه محمدُ المهديُّ المنتظرُ الَّذي قَدَّمَناهُ قبلُ.

وفي كلِّ واحدةٍ من هذه المقالاتِ للشيعةِ اختلافٌ كثيرٌ، إلا أنَّ هذه أشهرُ مذاهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشَّهرستاني وغيرهما. ففيها بيانُ ذلك. ﴿والله يُضِلُّ من يشاء﴾ [فاطر: ٨] ﴿ويهدي من يشاء﴾ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ [يونس: ٢٥] ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ [سبأ: ٣٤].

## ٣-١- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون

## في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أنَّ الملك غايةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصِيَّةِ<sup>(١)</sup>، لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ، إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ الوجودِ وترتيبه كما قلناه من قبلُ، وأنَّ الشَّرَائِعَ وَالِدِيَّاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يُحْمَلُ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ الْجُمُهورُ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ، إِذِ الْمُطَالَبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

١ - يركز ابن خلدون على العصبيّة وتجد حديثه عنها ماثلاً في الكتاب، ومن الملاحظات العامة حول هذا المفهوم في الكتاب القيم للدكتور محمد عابد الجابري، (دار الطليعة ١٩٨٢) ص: ٤٥٨-٤٦٠ قال:  
أ - العصبيّة إنّما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه. والمقصود بالنسب ليس الرابطة الدمويّة، فهو بهذا المعنى، أمر وهمي لا حقيقة له، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهليّة والإسلام والعرب والعجم. وإنّما المقصود بالنسب فائدته وثمرته وهي: هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتّى تقع المناصرة والنصرة. وما فوق ذلك مستغنى عنه. وكل ما يقع به هذا الالتحام فهو داخل في معنى النسب، ومنه: الحلف والولاء والاصطفاء وطول المعاشرة والصحبة وسائر أمور الموت والحياة. وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النصرة والتناصر.

ب - غير أن هذا الالتحام لا يشتد ويصبح عصبيّة إلا إذا كان هناك ما يهدد كيان الجماعة. فإن القريب يجد في نفسه إضافة من ظلم قريبه أو العداة عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبعيّة في البشر منذ كانوا. وبالنظر إلى ما تقدم يمكن تعريف العصبيّة عند ابن خلدون بأنها رابطة اجتماعيّة سيكولوجيّة - شعوريّة ولا شعوريّة - تربط أفراد جماعة معيّنة قائمة على القرابة الماديّة أو المعنويّة، ربطاً مستمراً يبرز ويشد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة.

ج - إن تقيد يقظة العصبيّة بوجود تهديد أو عدوان يدل على أن فاعليّة العصبيّة لا تشتد إلا عندما تمس المصلحة المشتركة للجماعة، وهي المصلحة التي تشكل فيها أمور المعاش العنصر الرئيسي والفعال. وإذن فلا بد من استحضار هذه الصبغة الاقتصاديّة في الصراع العصبي لفهم نظرية ابن خلدون في العصبيّة. إن الفاعليّة السياسيّة للعصبيّة، وهذا ما يهم ابن خلدون في الدرجة الأولى تستهدف الحصول على الجاه والملك من أجل توابعه من الترف والنعيم.

د - العصبيّة ظاهرة خاصّة بالبلد لأن أحياءهم (مفتوحة) وتحتاج في الدفاع عنها إلى تكتل وتعاضد فتبناها الشجعان.

وأما الحضر فإن أسوار المدينة وحاميات الدولة تكفيهم مؤونة الدفاع عن أنفسهم وأموالهم، ولذلك فهم لا يحتاجون إلى التعصب والالتحام. أن العصبيّة في البداية بمثابة الأسوار في المدن.

ه - العصبيّة خاصّة وعامة: العصبيّة الخاصّة هي المبنية على النسب القريب. والعصبيّة العامة هي التي تقوم على النسب البعيد. وكل عصبيّة عامة تتألف من عدة عصبيّات خاصّة. ومن هنا كانت العصبيّة تقوم على الكثرة داخل الوحدة، على التنافس والتنافر داخل التعاون والتناصر. ولا تصبح العصبيّة قوة سياسيّة إلا إذا التحمت العصبيّات الخاصّة المتنافسة في إطار عصبيّة عامة واحدة. غير أن هذا الالتحام العصبي مشروط بوجود ظروف معيّنة يعبر عنها ابن خلدون بهرم الدولة.

و - هذا والعصبيّة بالمعنى المشار إليه يعتبرها ابن خلدون عصبيّة طبعيّة إذ لا بد منها في الحماية والمطالبة والمواجهة. أما العصبيّة المستندة فقط على التعصب للأنساب والاعتداد بها فهي عصبيّة جاهليّة لا فائدة فيها مطلقاً، وهي المقصودة بدم الشارع للعصبيّة.

فَالْعَصِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبوجودها يتمُّ أمرُ الله منها، وفي الصَّحِيح: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّارِعَ<sup>(٢)</sup> قَدْ ذَمَّ الْعَصِيَّةَ، وَنَدَبَ إِلَى اطْرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةً<sup>(٣)</sup> الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْآبَاءِ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمَلِكَ وَأَهْلَهُ، وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ الْإِسْتِمَاعِ بِالْخَلَاقِ<sup>(٥)</sup> [ظ ٢/٨٥]، وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ، وَالتَّنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا حَضَّ عَلَى الْأَلْفَةِ فِي الدِّينِ وَحَذَرَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفِرْقَةِ.

وَاعْلَمْ: أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالُهَا عِنْدَ الشَّارِعِ مَطِيَّةٌ لِلْآخِرَةِ، وَمَنْ فَقَدَ الْمَطِيَّةَ فَقَدَ الْوُصُولَ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَذْمُهُ مِنْ أَفْعَالِ الْبَشَرِ، أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالُهُ بِالْكَلِّيَّةِ، أَوْ اقْتِلَاعُهُ مِنْ أَصْلِهِ، وَتَعْطِيلُ الْقَوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكَلِّيَّةِ؛ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَصْرِيفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِّ جَهْدَ الْإِسْطَاعَةِ، حَتَّى تَصِيرَ الْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا، وَتَتَّحِدَ الْوُجُوهُ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصَيِّبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>(٦)</sup>.

فَلَمْ يَذْمِ الْغَضَبَ، وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْغَضَبِ لَفَقَدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارُ لِلْحَقِّ، وَبَطُلَ الْجِهَادُ وَإِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ؛ وَإِنَّمَا يَذْمُ الْغَضَبَ لِلشَّيْطَانِ وَلِلْأَغْرَاضِ الدَّمِيمَةِ، فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لَذَلِكَ كَانَ مَذْمُومًا، وَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ كَانَ مَمْدُوحًا، وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١ - ليس في صحيح البخاري ولا مسلم، وإنما أخرجه أحمد (٣٤٦ ٣٣٢/٢، ٣٨٤ ٣٨٩، ٤١٦ ٥٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥ و ٨٩٦) والترمذي (٣١٦) من حديث أبي هريرة.

٢ - أي: الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

٣ - أي: الكبر والفخر. مأخوذ من العيب: النور والضوء، وقيل: من العيب: الثقل.

٤ - أخرجه أحمد (٣٦١/٢) رقم (٨٧٤٤) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠ و ٣٩٥١) من حديث أبي هريرة. والترمذي (٣٢٦٦) من حديث ابن عمر، والبيهقي (٢٠٤٣ و ٣٥٨٤) معناه من حديث حذيفة، وأحمد (٢٧٣٩) والطبراني في الكبير (١١٨٦١ و ١١٨٦٢) بعضه من حديث ابن عباس. وانظر مجمع الزوائد (٨/ص ١٦١ - ١٩٣).

٥ - في ظ: الاستماع بالخلاف. والخلاق: النصيب. من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾.

٦ - أخرجه البخاري (١ و ٢٥٢٩ و ٣٨٩٨ و ٦٦٨٩ و ٦٩٥٣) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر.

وكذا ذمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضاً لَيْسَ الْمُرَادُ إِبْطَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مِنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ، كَانَ نَقْصاً فِي حَقِّهِ؛ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَصْرِيفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَصَرِّفًا طَوْعَ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ.

وكذا الْعَصِيَّةُ حَيْثُ ذَمُّهَا الشَّارِعُ، وَقَالَ: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ [المتحنة: ٣]. فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَجَّانٌ<sup>(١)</sup> مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ، وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ إِذْ لَا يَتِمُّ قَوَامُهَا إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ، كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ.

وكذا الْمُلْكُ لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ الْغَلْبُ بِالْحَقِّ، وَقَهْرُ الْكَافَّةِ عَلَى الدِّينِ، وَمِرَاعَاةُ الْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لَمَّا فِيهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ، وَتَصْرِيفِ الْآدَمِيِّينَ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَاهُ. فَلَوْ كَانَ الْمُلْكُ مُخْلِصًا فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ، أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَجِهَادِ عَدُوِّهِ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا. وَقَدْ قَالَ سَلِيمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. لَمَّا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَعزُولٌ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ.

وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَهْبَةِ الْمُلْكِ، وَزِيَّهِ مِنَ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَكِسْرَوِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> يَا مُعَاوِيَةُ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا فِي ثَغْرِ تَجَاهِ الْعَدُوِّ، وَبَنَّا إِلَى مَبَاهِتِهِمْ بَزِينَةَ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةً. فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطِئْهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالْدِّينِ. فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يَقْنَعَهُ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ [ظ ١/٨٦] وَانْتَحَاهَا، بَلْ كَانَ يُحَرِّضُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارَسٍ فِي مَلِكِهِمْ مِنْ ارْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ<sup>(٣)</sup>، وَالْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ، وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةَ فَارَسَ وَبَاطِلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَسَكَتَ.

وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصُّحَابَةِ، فِي رَفْضِ الْمُلْكِ وَأَحْوَالِهِ، وَنَسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنْ التَّبَاسُهَا بِالْبَاطِلِ، فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ<sup>(٤)</sup> رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ

١ - أي: كثيرٌ واسعٌ. أو هو بالتخفيف من الجنون.

٢ - يعني أتشبهها بكسرى في متاع الدنيا ومظاهرها.

٣ - أي طريقه.

٤ - يعني حضرته الوفاة.

على الصَّلَاة، إذ هي أهم أمور الدين، وارتضاه النَّاسُ للخلافة، وهي حملُ الكافَّةِ على أحكام الشَّريعة، ولم يجز للملِكِ ذكرٌ لما أنَّه مظنةٌ للباطل، ونحلةٌ يومئذٍ لأهل الكفر وأعداء الدين. فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله، مُتَّبِعاً سُنَنَ صَاحِبِهِ، وَقَاتِلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْلَامِ.

ثُمَّ عَهْدَ إِلَى عَمْرِ فَاقْتَفَى أَثَرَهُ، وَقَاتَلَ الْأُمَمَ فَغَالِبَهُمْ، وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ، فَغَلِبُوهُمْ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَالْكُلُّ مُتَبَرِّؤُونَ مِنَ الْمُلْكِ مُتَنَكِّبُونَ<sup>(١)</sup> عَنْ طَرْقِهِ. وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ، مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةٍ<sup>(٢)</sup> الْإِسْلَامِ، وَبَدَاوَةِ الْعَرَبِ. فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ الْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمْ، الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النِّعَمِ، وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خَشَوْنَةِ الْعَيْشِ وَشُظْفِهِ الَّذِي أَلْفَوْهُ. فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ أَسْغَبَ<sup>(٣)</sup> عَيْشاً مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ، وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ وَجُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا مِنْ رِبِيعَةٍ وَالْيَمَنِ، فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خَصْبِهَا. وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيراً مَا يَأْكُلُونَ الْعُقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ، وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ الْعِلْهَزِ<sup>(٤)</sup> وَهُوَ وَبَرُ الْإِبِلِ يَمْهُونَهُ<sup>(٥)</sup> بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِّ، وَيَطْبِخُونَهُ. وَقَرِيباً مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ قَرِيشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ. حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ، بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصَّدِّقِ، فَابْتَزُّوا<sup>(٦)</sup> مَلِكَهُمْ، وَاسْتَبَاحُوا دِيَارَهُمْ، فَزَخَرَتْ بِحَارِ الرَّقَّةِ لَدَيْهِمْ، حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يَقْسِمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا. فَاسْتَوْلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْخِصَرُ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خَشَوْنَةِ عَيْشِهِمْ، فَكَانَ عَمْرٌ يُرْقِعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ<sup>(٧)</sup> غَرِّيْ غَيْرِي. وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ

١ - تنكب عن الطريق، عدل عنه. وفي ن: منكبون.

٢ - أي: جدته ونضارته.

٣ - سغب: جاع، وأسغب أدخل في المجاعة، وكأنه قال: أكثر جوعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْ طَعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.

٤ - طعام من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة.

٥ - أي: يضربونه بشدة ليرق.

٦ - ابتز الشيء: سلبه ورمى به.

٧ - الصفراء والبياض هي قطع الذهب والفضة.

لقلتها يومئذ. وكانت المناخلُ مفقودةً عندهم بالجُملة، وإنما يأكلون الحنطة بنخالها. ومكاسبهم [ظ ٢/٨٦] مع هذا أتم ما كانت لأحدٍ من أهل العلم.

قال المسعودي: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وخيّن وغيرهما مئتا<sup>(١)</sup> ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مرتبط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمئة ألف دينار.

وبني الزبير داره بالبصرة وكذلك بني بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة، وبنّاها بالحصّ والآجر والسّاج. وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها<sup>(٢)</sup>، وجعل على أعلاها شرفات. وبني المقداد داره بالمدينة، وجعلها بمحصّة<sup>(٣)</sup> الظاهر والباطن. وخلف يعلى بن منيّة خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاث مئة ألف درهم. انتهى كلام المسعودي.

فكانت مكاسبُ القوم كما تراه، ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم إذ هي أموالٌ حلالٌ لأنها غنائم وفیوء<sup>(٤)</sup>، ولم يكن تصرفهم فيها بإسرافٍ، إنما كان على قصدٍ في أحوالهم كما قلناه، فلم يكن ذلك بقادح فيهم. وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً، فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد. وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبيل الحق ومذاهبه، كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة.

فلما تدرّجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه، وحصل التغلب والقهر، كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك

١ - في ن: مئة.

٢ - السمك: السقف. الفضاء: ساحة الدار.

٣ - أي: ملأه بالحصّ.

٤ - جمع فيء: وهو ما يحصل عليه جيش المسلمين من الأعداء بدون قتال.

الرِّفَهِ والاستكثار من الأموال. فلم يصرفوا ذلك التَّغْلَبَ في باطلٍ، ولا خرجوا به عن مقاصد الدِّيانَةِ ومَذهبِ الحقِّ.

ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العَصِيَّةِ، كان طريقهم فيها الحقَّ والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دُنْيَوِيٍّ أو لإيثار باطلٍ أو لاستشعار حقٍّ كما قد يتوهمه متوهمٌ، وينزعُ إليه ملحدٌ، وإنما اختلفَ اجتهادهم في الحقِّ وسَفَهُ كُلِّ واحدٍ نظر صاحبه باجتهاده في الحقِّ، فاقْتَتَلُوا عليه، وإن كان المصِيبُ عليًّا فلم يكن [ظ ١/٨٧] معاوية قائماً فيها بقصدِ الباطلِ، إنما قصدَ الحقَّ وأخطأ، والكلُّ كانوا في مقاصدهم علي حق.

ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالجدِّ واستثثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمرٌ طبيعيٌّ ساقته العَصِيَّةُ بطبيعتها واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحقِّ من أتباعهم فاعصو صُوبُوا<sup>(١)</sup> عليه، واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطَّريقة، وخالفهم في الانفراد بالأمر، لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهمَّ عليه من أمر ليس وراءه كبيرُ مخالفة.

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد ابن أبي بكر: لو كان لي من الأمر شيءٌ لولَّيته الخلافة. ولو أراد أن يعهد إليه لفعل. ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحلِّ والعقد، لما ذكرناه، فلا يقدرُ أن يُحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة.

وهذا كله إنما حملَ عليه منازعُ الملك التي هي مقتضى العَصِيَّةِ. فالملك إذا حصل وفرضنا أنَّ الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحقِّ ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه. ولقد انفرد سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك<sup>(٢)</sup> من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النُّبُوَّةِ والحقِّ.

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أنَّ ظنهم كان به صالحاً، ولا يرتابُ أحد في ذلك، ولا يُظنُّ بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك. وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكاً، لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرِّينَ لمقاصدِ الحقِّ جُهدهم، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي

١ - اعصوبت الإبل: حدث في السير واجتمعت. واعصوب الشتر: اشتد.

٢ - في ن: الملك فيهم.



هو أهم لديهم من كل مقصد. يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاعتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك. وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين وعدالتهم معروفة. ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده، ولم يهمل.

ثم جاء خلفهم، واستعمل طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها، واعتماد الحق في مذهبها. فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية [ظ ٨٧/٢] منهم، وولي رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا، حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح.

ثم أفضى الأمر إلى بينهم، فأعطوا الملك والترفع حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله مجربهم، وانتزع الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكن سواهم منه. ﴿والله لا يظلم مثقال ذرة﴾ [النساء: ٤٠].

ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه.

وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور، وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: أما عبد الملك فكان جباراً لا يُبالي بما صنع، وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه، وأما عمر فكان أعور بين عُمَيَّان، وكان رجل القوم هشام. قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوِّطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنيمهم<sup>(١)</sup> معالي الأمور، ورفضهم دنياتها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت هممتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجه، وأمناء لمكره، مع اطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز، وألبسهم الذل، ونفى عنهم النعمة، ثم استحضر عبد الله<sup>(٢)</sup> بن مروان، فقص عليه خبره مع ملوك<sup>(٣)</sup> التوبة لما دخل أرضهم فاراً أيام السَّقَّاح، قال: أقمت مَلِيّاً<sup>(٤)</sup>، ثم أتاني ملكهم فقعده على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة، فقلت: ما منعك عن

١ - أي ارتفاعهم وولايتهم.

٢ - قوله: عبد الله. كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية، وفي بعضها: عبد الملك، وأظنه تصحيفاً. قاله

نصر.

٣ - في ن: ملك.

٤ - المل: الساعة الطويلة من النهار.

القعود على ثيابنا؟ فقال: إني مَلِكٌ، وحقٌ لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله، إذ رفعه الله. ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا. قال: فلم تطؤون الزرع بدوابكم، والفساد محرّم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم. قال: فلم تلبسون الدّيّاج والذهب والحرير وهو محرّم عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك، وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرق ينكت بيده في الأرض، ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا! ثم رفع رأسه إليّ وقال: ليس كما ذكرت. بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله عليكم، وأتيتم ما عنه نهيتكم، وظلمتم فيما ملكتكم، فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذلّ بذنوبكم، والله نعمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بيلدي فينالي معكم، وإنما [ظ ٨٨/١] الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه، وارتحل عن أرضي. فتعجب المنصور وأطرق.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وأنّ الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه، وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم، وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة.

فهذا عثمان لما حُضر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى. ومنع من سل السُيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة، ولو أدّى إلى هلاكه.

وهذا عليّ أشار عليه المغيرة لأوّل ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته، وتتفق الكلمة، وله بعد ذلك ما شاء من أمره، وكان ذلك من سياسة الملك، فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام. وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال: لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت، ثم عدت إلى نظري، فعلمت أنه ليس من الحقّ والنصيحة، وأنّ الحقّ فيما رأيته أنت. فقال علي: لا والله، بل أعلم أنّك نصحتني بالأمس، وغششتني اليوم، ولكن معني ممّا أشرت به ذائد الحقّ.

وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم، ونحن:

نرُقّع دُنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرُقّع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك، وبقيت معاني الخلافة من تحرّي الدين ومذاهبه والجرّي على منهاج الحقّ، ولم يظهر التغيّر إلا في الوازع الذي كان ديناً، ثم انقلب عصبيّة وسيفاً. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك، والصّدر الأوّل من خلفاء بني العبّاس إلى الرّشيد وبعض ولده، ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق إلا أسمها،

وصار الأمر ملكاً بحتاً، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها، واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ. وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك، ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبة العرب، والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض.

ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبة العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم، وبقي الأمر ملكاً بحتاً، كما كان الشأن في ملوك العجم بالشرق، يدينون بطاعة الخليفة تبركاً، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم، وليس للخليفة منه شيء. وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيدين بالقيروان.

فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التبسَت معانيهما واختلطت. ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبة الخلافة [ظ ٨٨/٢]. والله مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [الرعد: ١٦].

### ٣-١- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في معنى البيعة<sup>(١)</sup>

اعلم: أنَّ البيعةَ هي العهدُ على الطاعة. كأنَّ المَباع يُعاهدُ أميرُهُ على أَنَّهُ يُسَلِّمَ لَهُ النَّظَرَ في أمرِ نفسه وأُمورِ المُسلمين لا يُنازعه في شيءٍ من ذلك، ويُطيعه فيما يُكَلِّفه به من الأمرِ على المُنشَطِ والمكره<sup>(٢)</sup>.

وَكَانُوا إِذَا بَايعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ، جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ، تَأْكِيداً للعهد، فَأَشْبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمَشْتَرِي، فَسُمِّيَ بَيْعَةً، مُصَدَّرَ بَاعَ، وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَافِحَةً بِالْأَيْدِي. هَذَا مَدْلُوهَا فِي عَرَفِ اللُّغَةِ وَمَعْهَدِ الشَّرْعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ<sup>(٣)</sup> وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ<sup>(٤)</sup>، وَحَيْثُمَا وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ. وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ. وَمِنْهُ إِيْمَانُ الْبَيْعَةِ. كَانَ الْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْإِيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ، فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِعَابُ إِيْمَانُ الْبَيْعَةِ.

وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ. وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ<sup>(٥)</sup> أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ، وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي إِيْمَانِ الْبَيْعَةِ، وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مَحَنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ، مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّلِيلِ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ، الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ بِجَازٍ، لَمَّا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالتَّزَامِ الْأَدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا، وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً، وَاسْتَغْنَى بِهَا عَنْ مُصَافِحَةِ أَيْدِي النَّاسِ، الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ، لَمَّا فِي الْمُصَافِحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِبْتِدَالِ الْمُنَافِينَ لِلرَّئَاسَةِ وَصَوْنِ الْمُنْصَبِ الْمُلُوكِيِّ، إِلَّا فِي الْأَقْلَى، مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ، فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسُهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ.

فَافْهَمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعَرَفِ، فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ، لَمَّا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ، وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عِبْثًا وَمَجَانًا، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ. وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

١ - البيعة بفتح الموحدة. وأما بكسرهما على وزن شبيعة بسكون الياء فهي معبد النصارى.

٢ - يطيعه فيما يحب وفيما يكره.

٣ - هما بيعتان: الأولى في السنة الثانية عشرة من البعثة. والثانية في الثالثة عشرة.

٤ - وهي التي ذكرها القرآن الكريم. وانظرها في سورة الفتح الآية: ١٨.

٥ - روى ابن جرير: أنَّ مَالِكًا حِينَمَا قَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ بَايعُوا النَّصُورَ: إِنَّ فِي أَعْنَاقِنَا بَيْعَتَهُ، قَالَ: لَقَدْ بَايعْتُمْ مَكْرَهِينَ، وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَكْرِهِ يَمِينٌ، وَلَقِيَ بِذَلِكَ مِنَ الْعَنْتِ مَا رَفَعَ ذِكْرَهُ وَأَعْلَى قَدْرَهُ.

## ٣-١- ٣٠- الفصلُ الثلاثون

## في ولاية العهد

اعْلَم: أَنَا قَدَّمْنَا الكلام في الإمامة ومشروعيتها، لما فيها من المصلحة، وأنَّ حقيقتها النَّظَرُ<sup>(١)</sup> في مصالح الأُمَّة لدينهم ودنياهم، فهو وليُّهم والأَمِينُ عليهم، ينظرُ لهم ذلك في حياته، ويتبعُ ذلك أن ينظرَ لهم بعد مماته، ويقيمُ لهم من يتولَّى أمورهم، كما كان هو يتولّاها، ويتشَقُّون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل.

وقد عُرِفَ ذلك من الشَّرْعِ بإجماع الأُمَّة على جوازه وانعقاده. إذ وقعَ بعهد أبي بكر رضي الله عنه - لعمرَ محضر من الصَّحابة وأجازوه، وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم، وكذلك عهد عمر في الشوري إلى الستة بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين، ففوضَ بعضهم إلى بعض حتى أفضى ذلك<sup>(٢)</sup> إلى عبد الرَّحْمَنِ [ظ ١/٨٩] بن عَوْفٍ، فاجْتَهَدَ وناظرَ المُسْلِمِينَ فوجدهم متَّفِقِينَ على عثمان وعلى علي، فأثَرُ عثمان بالبيعة على ذلك، لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعنُّ دون اجتهاده. فانعقد أمرُ عثمان لذلك، وأوجبوا طاعته، والملا من الصَّحابة حاضرون للأولى والثانية، ولم ينكره أحدٌ منهم، فدلَّ على أنَّهم متَّفِقُونَ على صحَّةِ هذا العهد، عارفون بمشروعيتها، والإجماعُ حجةٌ كما عرفَ.

ولا يتهم الإمام في هذا الأمر، وإن عهد إلى أبيه أو ابنه، لأنَّه مأمون على النَّظرِ لهم في حياته، فأولى أن لا يحتملَ فيها تبعَةً بعد مماته، خلافاً لمن قالَ باتِّهامه في الولد والوالد. أو لمن خَصَّصَ التَّهمَةَ بالولد دون الوالد، فإنَّه بعيدٌ عن الظَّنِّ في ذلك كله، لا سيَّما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إشار مصلحة أو توقع مفسدة. فتنتفي الظَّنُّ في ذلك رأساً، كما وقع في عهد معاوية لابنهِ يزيد، وإن كان فعل معاوية مع وفاق النَّاسِ له حجة في الباب. والذي دعا معاوية لإيثار ابنهِ يزيد بالعهد دون من سواه، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع النَّاسِ، واتِّفاق أهوائهم، باتِّفاق أهلِ الحلِّ والعقد عليه حينئذ من بني أُمَيَّة، إذ بنو أُمَيَّة يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عَصَابَةُ قُرَيْشٍ، وأهل المِلَّةِ أجمع، وأهل الغلبِ منهم، فأثَره بذلك دون غيره، مُمَّنٌ يظُنُّ أنه أولى بها، وعدلٌ عن الفاضل إلى المفضول، حرصاً على الاتِّفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمُّ عند الشَّارع. وإن كان لا يُظُنُّ بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه، دليلٌ على انتفاء الرِّيبِ فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحقِّ هوادة،

١ - في ن: للنظر.

٢ - ليس في ظ: ذلك.

وليس معاوية ممن تأخذه العِزَّةُ في قبول الحقِّ، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك، وعدالتهم مانعةٌ منه.

وفرارُ عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمولٌ على تورُّعه من الدُّخول في شيء من الأمور مُباحاً كان أو محظوراً كما هو معروفٌ عنه، ولم يبقَ في المخالفةِ لهذا العهد الذي اتَّفَقَ عليه الجمهور إلا ابن الزُّبير، وندور المخالفِ معروفٌ.

ثم إنَّه وقعَ مثلُ ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذي كانوا يتحرون الحقَّ ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية، والسَّفَّاح والمنصور والمهدي والرَّشيد من بني العبَّاس، وأمثالهم ممَّن عُرِفَت عدالتهم، وحُسُنُ رأيهم للمسلمين والنظرُ لهم.

ولا يُعَابُ عليهم، إثَارُ أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غيرُ شأن أولئك الخلفاء. فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً، فعند كلِّ أحدٍ وازع من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط، وآثروه على غيره، ووكلوا كلَّ من يسمو إلى ذلك إلى وازعه.

وأما [ظ ٢/٨٩] من بعدهم من لَدُن معاوية، فكانت العَصِيَّةُ قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الديني قد ضعف، واحتيج إلى الوازع السُّلْطاني والعَصْباني. فلو عهد إلى غير من ترتضيه العَصِيَّةُ لَرَدَّتْ ذلك العهد، وانتقض أمره سريعاً، وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف.

سأل رجلٌ عليّاً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: لأنَّ أبا بكرٍ وعمرَ كانا واليين على مثلي، وأنا اليومَ والٍ على مثلك. يُشِيرُ إلى وازع الدين.

أفلا ترى إلى المأمون، لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الرِّضَا، كيف أنكرتِ العبَّاسِيَّةُ ذلك ونقضوا بيعته، وبايعوا لعمِّه إبراهيم بن المهدي، وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السُّبُلِ وتعدُّدِ الثُّوَرِ والخوارج ما كاد أن يصبطلم<sup>(١)</sup> الأمر، حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد، وردَّ أمرهم لمعاهده.

فلا بُدَّ من اعتبار ذلك في العهد. فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات، وتختلف باختلاف المصالح، ولكلِّ واحدٍ منها حكمٌ يخصُّه، لطفاً من الله بعباده.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التَّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ. فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، يَخْصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، يَنْبَغِي أَنْ تَحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمَكُنَ، خَوْفًا مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ. وَالْمَلِكُ لِلَّهِ يُوْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا:

فَالْأَوَّلُ مِنْهَا: مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفُسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ، فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلُ، بَلْ كَانَ يَعْذُلُهُ <sup>(١)</sup> أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَبَيْنَاهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً. وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفُسْقِ، اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، وَنَقَضَ بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ <sup>(٢)</sup> لَمَّا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعِجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ، لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمئِذٍ هِيَ عَصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَسْتَتِيعُ عَصَبِيَّةَ مُضِرِّ أَجْمَعٍ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ، وَلَا تَطَاقُ مَقَاوِمَتَهُمْ، فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهَدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ. وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ، وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحْرِيرِ الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ. وَفَقْنَا اللَّهَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا تَدَّعِيهِ الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ [ظ ١/٩٠] لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصَحَّ، وَلَا نَقْلُهُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ النَّقْلِ. وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ، وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ. وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ: إِنْ أَعْهَدَ فَقَدْ عَهَدَ مِنْهُ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مِنْهُ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ، فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَوْصَ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ.

وَشَبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، كَمَا يَزْعُمُونَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ، لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنُ الصَّلَاةِ، وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا، كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي

الصلاة، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة. واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم: ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، أفلا نرضاه لديننا؟ دليل على أن الوصية لم تقع. ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم، وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار، لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه، واستماتة الناس دونه، وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خير السماء بينهم، وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم، فلم يحتاج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان، وما يستفزه من تتابع المعجزات الخارقة، والأحوال الإلهية الواقعة، والملائكة المترددة، التي وجوها منها، ودهشوا من تتابعها، فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل كما وقع.

فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات، ثم بفناء القرون الذين شاهدوها، فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً، وذهبت الخوارق، وصار الحكم للعادة كما كان. فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة، كما زعموا<sup>(١)</sup>، ولم يكن ذلك [٢/٩٠] من قبل.

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة، فلم يعهد فيها، ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء، بما دعت الضرورة إليه، في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والتترك، كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه، ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية، والقيام بالمصالح، فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل، ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

والأمر الثالث: شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين: فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية، وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتمدة. والمجتهدون إذا اختلفوا، فإن قلنا: إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين، ومن لم يصادفه فهو مخطئ فإن جهته لا تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة، ولا يتعين المخطئ منهم، والتأثير مدفوع عن الكل إجماعاً، وإن قلنا: إن كل



يجتهد مصيبٌ فأحرى بنفي الخطأ والتأثيم. وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين، أنه خلافٌ اجتهادي في مسائل دينية ظنية، وهذا حكمه.

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة علي مع معاوية، ومع الزبير وعائشة وطلحة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك.

فأما واقعة علي، فإنَّ الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار فلم يشهدوا بيعته علي. والذين شهدوا فمنهم من بايع، ومنهم من توقف، حتى يجتمع الناس، ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن سلام، وقدامة بن مظعون، وأبي سعيد الخدري، وكعب بن عُجرة، وكعب بن مالك، والنعمان ابن بشير، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وفضالة بن عُبيد، وأمثالهم من أكابر الصحابة. والذين كانوا في الأمصار، عدلوا عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان، وتركوا الأمر فوضي، حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يولونه، وظنوا بعلي هودة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه<sup>(١)</sup>، لا في الممالأة عليه، فحاش الله من ذلك. ولقد كان معاوية إذا صرح بملامته، إنما يوجهها عليه في سكوته فقط.

ثم اختلفوا بعد ذلك، فرأى علي أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة، وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع [ظ ٩١/١] الناس، واتفاق الكلمة، فيتمكن حينئذ من ذلك. ورأى الآخرون أن بيعته لم تنعقد، لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق، ولم يحضر إلا قليل، ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد، ولا تلزم بعقد من تولّاها من غيرهم، أو من القليل منهم، وإنَّ المسلمين حينئذ فوضي، فيطالبون أولاً بدم عثمان، ثم يجتمعون على إمام، وذهب إلى هذا معاوية، وعمر بن العاص وأم المؤمنين عائشة، والزبير وابنه عبد الله، وطلحة وابنه محمد، وسعد، وسعيد، والنعمان بن بشير، ومعاوية ابن حُديج<sup>(٢)</sup>، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلّفوا عن بيعته علي بالمدينة كما ذكرنا. إلا أن أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعته علي، ولزومها للمسلمين أجمعين، وتصويب رأيه فيما ذهب إليه، وتعيين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه، وخصوصاً طلحة والزبير، لانتفاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع

١ - في ن: (قاتله).

٢ - في النسخ: حديج. بالخاء المعجمة. خطأ. وانظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٥٠٧/٣) وأسد الغابة

التأثيم عن كلٍّ من الفريقين، كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ، وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي أَهْلَ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ.

وَلَقَدْ سَأَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِي الْجَمَلِ وَصَفَيْنِ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ، نَقْلَهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ.

فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا قَدَحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَهَمٌّ مِنْ عِلْمَتِ، وَأَقْوَاهُمْ وَأَفْعَاهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنْ الْمُسْتَنْدَاتِ، وَعَدَالَتُهُمْ مَقْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ.

وَإِذَا نَظَرْتَ بَعِينَ الْإِنْصَافِ، عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْاِخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ،

وَاِخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتُلِيَ اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ

أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ، وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ

وَالْكُوفَةِ وَالشَّامَ وَمِصْرَ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأَمْصَارَ جُفَاءً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا

مِنْ صَحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا هَذَبَتْهُمْ سِيرَتُهُ وَأَدَابُهُ، وَلَا ارْتَاضُوا بِخَلْقِهِ، مَعَ

مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْخَفَاءِ وَالْعَصْبِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبَعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ، وَإِذَا هُمْ

عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ، قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلِكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قَرِيشٍ وَكِنَانَةٍ وَثَقِيفٍ

وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ، فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَلِكَ، وَغَضُّوا بِهِ

[ظ ٩١/٢]، لَمَّا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَمَصَادِمَةِ فَارَسَ وَالرُّومِ، مِثْلَ

قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ، وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ

مِصْرَ، فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قَرِيشٍ وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّمْرِیضِ فِي طَاعَتِهِمْ، وَالتَّلْعَلِ فِي

ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ، وَالْإِسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعِزِّ عَنِ السُّوِّيَّةِ، وَالْعُدُولِ فِي

الْقِسْمِ عَنِ التَّسْوِيَةِ، وَفَشَتْ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ، وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ — وَهَمٌّ مِنْ عِلْمَتِ —

فَأَعْظَمُوهُ، وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مِنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ، بَعَثَ ابْنَ عَمْرِو وَمُحَمَّدَ

بْنَ مُسْلَمَةَ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ، فَلَمْ يَنْكَرُوا عَلَى الْأَمْوَاءِ شَيْئًا، وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ

طَعْنًا، وَأَدُّوا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ، فَلَمْ يَنْقُطِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ

تَنْمُو. وَرَمَى الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشَرْبِ الْخَمْرِ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ،

وَحَدَّهْ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعَمَّالِ، وَشَكُّوا

إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ، وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ الْعَمَّالِ، فَلَمْ تَنْقُطِ بِذَلِكَ

أَلْسِنَتُهُمْ، بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ، وَرَدُّوهُ

مَعْرُوزًا. ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ،

ونقموا عليه امتناعه من العزل، فأبى إلا أن يكون على جُرْحَةٍ<sup>(١)</sup>، ثم نقلوا التَّكْبِيرَ إلى غير ذلك من أفعاله، وهو متمسكٌ بالاجتهاد، وهم أيضاً كذلك، ثم تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوَاةِ، وجاءوا إلى المدينة يُظْهِرُونَ طَلَبَ النِّصْفَةِ من عثمان، وهم يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ من قتله، وفيهم من البصرة والكوفة ومصر، وقَامَ معهم في ذلك عَلِيٌّ وعائشة والزُّبَيْرُ وطلحة وغيرهم، يحاولون تسكينَ الأمور، ورجوعَ عثمان إلى رأيهم. وعزل لهم عاملَ مصر، فانصرفوا قليلاً ثم رجعوا، وقد لَبَسُوا بكتاب مُدَلَّسٍ يزعمون أنهم لقوه في يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم، وحلف عثمان على ذلك، فُقالوا: مَكَّنَّا من مروان فإنه كاتبك. فحلف مروان، فقال: ليس في الحكم أكثر من هذا، فحاصروه بداره، ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حين غفلةٍ من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة.

فلكل من هؤلاء عذرٌ فيما وقع، وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين، ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته، ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا، والله مَطَّلَعٌ على أحوالهم، وعالمٌ بهم. ونحن لا نَظُنُّ بهم إلا خيراً، لما شهدت به أحوالهم، ومقالات الصَّادِقِ فيهم.

وأما الحسين: فإنه لما ظهر فسقُ يزيد عند الكافة من أهل عصره، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم [ظ ١/٩٢] فيقوموا بأمره، فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعينٌ من أجل فسقه، لا سيما من له القدرة على ذلك، وظنَّها من نفسه بأهليَّته وشوكته، فأما الأهلية فكانت كما ظنَّ وزيادةً. وأما الشوكة: فغلطَ يرحمه الله فيها، لأنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرٍّ كانت من<sup>(٢)</sup> قريش، وعَصَبِيَّةَ قريشٍ في عبد مناف، وعصبيَّة عبد منافٍ إنما كانت في بني أمية، تعرفُ ذلك لهم قريشٌ وسائر الناس، ولا ينكرونه. وإنما نسيَ ذلك أول الإسلام، لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي، وتردد الملائكة لنصرة المسلمين، فأغفلوا أمور عوائدهم، وذهبت عَصَبِيَّةُ الجاهلية ومنازعها ونسيت، ولم يبقَ إلا العَصَبِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ في الحِمَايَةِ والدِّفَاعِ، ينتفعُ بها في إقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها مُحَكَّمٌ، والعادةُ معزولة، حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة، تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد فعادت العَصَبِيَّةُ كما كانت ولمن كانت، وأصبحت مُضَرٌّ أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل.

فقد تبين لك غلطُ الحسين، إلا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك، ولقد عذَّله ابن

١ - ما يجرح به ويسقط عدالته.

٢ - في ن: في.

العبَّاس وابنُ الزُّبَيْر وابنُ عمرَ وابنُ الحَنَفِيَّةِ أخوهُ وغيرُهُ في مسيره إلى الكوفة، وعلموا غلطُهُ في ذلك، ولم يرجعَ عَمَّا هو بسبيله، لما أَرَادَهُ اللهُ.

وَأَمَّا غيرُ الحسين من الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ، وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَمَنِ التَّابِعِينَ لَهُمْ، فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ، لَمَّا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ<sup>(١)</sup> وَالذَّمِّ، فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ، وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ، وَلَا أَثَمُوهُ، لِأَنَّهُ مَجْتَهِدٌ، وَهُوَ أَسْوَةُ الْمُجْتَهِدِينَ.

وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنَّ تَقُولَ بِتَأْثِيمِ هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفِ الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ، وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ، وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ - وَهُوَ بِكَرْبَلَاءَ - عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ، وَيَقُولُ: سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدَ الْخَدْرِيَّ وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعْدٍ<sup>(٢)</sup> وَيَزِيدَ بْنَ أَرْقَمٍ وَأَمْثَلَهُمْ، وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ، وَلَا تَعَرَّضَ لِذَلِكَ، لَعَلَّمَهُ أَنَّهُ عَنْ اجْتِهَادِ مَنْهُمْ، كَمَا أَنَّ فَعْلَهُ عَنْ اجْتِهَادِ مَنْهُمْ. وَكَذَلِكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنَّ تَقُولَ بِتَصْوِيبِ قَتْلِهِ لَمَّا كَانَ عَنْ اجْتِهَادٍ، وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ الْحَنْفِيُّ عَلَى شَرْبِ النَّبِيذِ<sup>(٣)</sup>.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَقِتَالُهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ اجْتِهَادِ هَؤُلَاءِ، وَإِنْ كَانَ خِلَافَهُ عَنْ اجْتِهَادِهِمْ، وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدُ وَأَصْحَابُهُ. وَلَا تَقُولَنَّ [ظ ٢/٩٢]: إِنْ يَزِيدُ، وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا، وَلَمْ يَجْزِ هَؤُلَاءِ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، فَأَفْعَالُهُ عَنْهُمْ صَحِيحَةٌ. وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا، وَقِتَالُ الْبَغَاةِ عَنْهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنَّ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْأَلَتِنَا.

فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ، بَلْ هِيَ مِنْ فَعْلَاتِهِ الْمُؤَكَّدَةِ لِفُسْقِهِ، وَالْحُسَيْنُ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌّ، وَهُوَ عَلَى حَقِّ وَاجْتِهَادٍ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقِّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ.

وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَاهُ بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الْحُسَيْنَ قَتَلَ بِشَرِّعِ جَدِّهِ، وَهُوَ غَلَطَ حَمَلْتَهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ

١ - أي: الفتنة والاضطرابات.

٢ - في النسخ: سعيد. خطأ. وهو سهل بن سعد الساعدي.

٣ - أي: كما يقيم القاضي الشافعي أو المالكي الحد على حنفي شرب النبيذ، مع أن الحنفي يرى جواز شربه، لأن القاضي لا يرى ذلك فيعمل برأيه واجتهاده.

عن اشتراط الإمام العادل، ومن أعدل من الحسين في زمانه في إمامته وعدالته في قتال أهل الآراء؟!.

وأما ابن الزبير فإنه رأى في قيامه<sup>(١)</sup> ما رآه الحسين، وظن كما ظن، وغلطه في أمر الشوكة أعظم. لأن بني أسد لا يقاومون بني أمية في جاهلية ولا إسلام. والقول بتعيين الخطأ في جهة مخالفة، كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل إليه<sup>(٢)</sup>، لأن الإجماع هنالك قضى لنا به، ولم نجد هاهنا. وأما يزيد فعين خطاه فسقه. وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله. وعدول ابن عباس وابن عمر إلى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز، مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعه ابن الزبير لم تنعقد؛ لأنه لم يحضرها أهل العقد والحل كبيعة مروان. وابن الزبير على خلاف ذلك، والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر، وإن لم يتعين في جهة منهما، والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه، مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحرية الحق.

هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة. وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذين يختص بالعدالة؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم - مرتين أو ثلاثاً - ثم يفسو الكذب»<sup>(٣)</sup>. فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الأول، والذي يليه. فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا يشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت، فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بيعة، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد، أو إظهار حق، واعتقد مع ذلك، أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة، ليقتردي كل واحد بمن يختاره منهم إمامه وهاديه ودليله. فافهم ذلك؛ وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه، واعلم أنه على كل شيء قدير ﴿[الحج: ٦]﴾، وإليه الملجأ والمصير، والله تعالى أعلم.

١ - تحرف في نسخة إلى: (منامه).

٢ - في ن: له.

٣ - أخرج أوله البخاري (٢٦٥١ و ٣٦٥٠ و ٦٤٢٨ و ٦٦٩٥) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين. ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود. وأخرج معنى أوله، ولفظ آخره أحمد (١٨/١) والترمذي (٢١٦٥) وعبد بن حميد (٢٣) والحميدي (٣٢) وابن حبان (٦٧٢٨) من حديث عمر.

## ٣-١- ٣١. الفصلُ الحادي والثلاثون

في الخططِ الدِّينيةِ [ظ ٩٣/١] الخِلافِيَّةِ<sup>(١)</sup>

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا، فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأَمْرَيْنِ: أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمَقْتَضَى التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا، وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا؛ وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَبِمَقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمَرَانُ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ، وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ، لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمَلْتُمْ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسُطُوتَهُ كَافٍ فِي حَصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ. نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلُ، إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمَصَالِحِ، فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا، وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا. وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ. وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتَبُ خَادِمَةٍ، وَوُضَائِفُ تَابِعَةٍ، تَتَعَيَّنُ خَطَطًا، وَتَتَوَزَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَظَائِفَ، فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُضُوفَتِهِ، حَسَبِ مَا يَعِيْنُهُ الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ، فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ.

وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ، وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، فَتَصَرَّفُهُ الدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِخَطَطٍ وَمَرَاتِبَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ.

فَلَنَذْكُرِ الْآنَ الْخَطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ، وَنَرْجِعُ إِلَى الْخَطَطِ الْمُلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ. فَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ، مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفَتَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مَنْدَرُجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ. فَكَأَنَّهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ، وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا، وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ، وَتَصَرَّفُهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ، وَتَنْفِذُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ.

فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ: فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخَطَطِ كُلِّهَا، وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمَنْدَرُجَ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ. وَلَقَدْ يَشْهَدُ لَذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا، أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا؟ فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ. وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ: مَسَاجِدَ عَظِيمَةٍ، كَثِيرَةٌ الْغَاشِيَةِ<sup>(٢)</sup> مَعْدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ، وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقُومٍ أَوْ مَحَلَّةٍ، وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ.

١ - نسبة إلى الخلافة.

٢ - من يغشونها من المصلين.

فَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْعَظِيمَةُ، فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ، أَوْ مَنْ يَفْوِضُ إِلَيْهِ، مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ، فَيَنْصَبُ لَهَا الْإِمَامَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ [ظ ٢/٩٣] وَالْحُسُوفَيْنِ وَالْأَسْتِسْقَاءِ. وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالِاسْتِحْسَانِ، وَلَثَلَا يَفْتَاتُ الرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَقَدْ يَقُولُ بِالْوَجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوَجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ، فَيَكُونُ نَصَبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا.

وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْجِيرَانِ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ.

وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوَلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوْلَى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفَقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَةِ لِلْمَآوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ، فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا.

وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَقْلُدُونَهَا لغيرهم مِنَ النَّاسِ، وَانْظُرْ مِنْ طَعْنٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ، وَتَرَصُّدِهِمْ لَذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا، يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمَبَاشَرَتِهِمْ لَهَا، وَأَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَخْلِفُونَ<sup>(١)</sup> فِيهَا. وَكَذَا كَانَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثَارًا بِهَا وَاسْتِعْظَامًا لِرَتَبَتِهَا.

يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ: قَدْ جَعَلْتَ لَكَ حِجَابَةً بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ: صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّأخِيرِ؛ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ؛ وَالْبَرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأخِيرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةِ<sup>(٢)</sup>.

فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مَسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، اسْتَنَابُوا فِي الصَّلَاةِ، فَكَانُوا يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ، وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ، كَالْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً<sup>(٣)</sup> وَتَنْوِيهَاً. فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَالْعُبَيْدِيِّينَ صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ.

وَأَمَّا الْفُتْيَا: فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسِ، وَرُدُّ الْفُتْيَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا، وَإِعَانَتُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ، لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ، فَتَجِبُ عَلَيْهِ مَرَاعَاتُهَا لئَلَّا يَتَعَرَّضَ لَذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ النَّاسَ، وَلِلْمُدْرَسِ الْإِتْتِصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَثِّهِ وَالْجُلُوسُ لَذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلْسُلْطَانِ الْوَلَايَةُ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أُمَمَتِهَا - كَمَا مَرَّ - فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِثْنَائِهِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ، فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنٍ. عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ

١ - في ن: مستخلفين.

٢ - أي: البلاد البعيدة.

٣ - في ن: إشادة.

المفتين والمدرسين زاجرٌ من نفسه، يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل، فيُدِلُّ<sup>(١)</sup> به المُستَهْدِي، ويضِلُّ به المُستَرَشِدُ. وفي الأثر: «أَجْرُوكُمْ عَلَى الْفَتَا، أَجْرُوكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ»<sup>(٢)</sup>. فَلِلْمُلْطَانِ فِيهِمْ لَذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ مَا تَوَجُّهُهُ الْمَصْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْ رَدٍّ.

وَأَمَّا الْقَضَاءُ: فَهُوَ مِنَ الْوِظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسَمًا لِلتَّدَاعِي وَقِطْعًا لِلتَّنَازُعِ. إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. فَكَانَ لِدَلِّكَ مِنَ وَظَائِفِ الْخِلَافَةِ [ظ ١/٩٤]، وَمَنْدَرَجًا فِي عُمُومِهَا الْقَضَاءُ.

وَكَانَ الْخِلْفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ. وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوَّضَهُ فِيهِ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَلَّى أَبَا الدَّرْدَاءِ مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ، وَوَلَّى شُرَيْحًا بِالْبَصْرَةِ، وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ بِالْكُوفَةِ<sup>(٣)</sup>، وَكُتِبَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَدَوَّرَ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ، وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُخَكَّمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أَدْلَى إِلَيْكَ<sup>(٤)</sup> فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلُمٌ بِحَقِّ لَا نَفَازَ لَهُ. وَأَسْ<sup>(٥)</sup> بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يِيَأْسُ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ. الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا. وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسَ فَرَاغَتْ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلُكَ، وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرَشْدِكَ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمَرَاجِعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ. الْفَهْمُ الْفَهْمُ فِيمَا يَتَلَجَّجُ<sup>(٦)</sup> فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ. ثُمَّ اعْرِفْ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ وَقِسْ الْأُمُورَ بِنِظَائِرِهَا. وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ، أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عَدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مَجْرَبًا عَلَيْهِ شَهَادَةٌ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ عَفَا عَنْ الْإِيمَانِ<sup>(٧)</sup> وَدَرَأَ

١ - في ن: فيضل. وهي من دلت المرأة تدل إذا تدللت على زوجها تريه جراءةً عليه في تغنج كأنها تخالفه وما بها خلاف.

٢ - أخرجه الدارمي (٥٧/١) من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً.

٣ - استعمله عمر رضي الله عنه على الكوفة والبصرة. وقال العجلي: كان عمر استخلفه على البصرة، وهو فقههم وعلمهم، وولي الكوفة أيضاً في زمن عثمان - انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٤٤٦/١٥ - ٤٥٠) خلافاً لمن زعم أنه لم يتول القضاء. فأسقط صحة الكتاب متجاهلاً أن الولاية العامة تتضمن القضاء.

٤ - في الدارقطني (٢٠٦/٤ - ٢٠٧) زيادة: [بحجة. وأنفذ الحق إذا وضع].

٥ - سو يبهيم في وجهك؟ بمعنى لا تهش لأحد الخصمين وتعبس في وجه الآخر فليس هذا من العدل.

٦ - في ن: تلجلج.

٧ - في رواية الدارقطني: إن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات.



بالبينات. وإيّاك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإنّ استقرار الحقّ في مواطن الحقّ، يُعظّم الله به الأجر، ويُحسن به الذكر والسلام. انتهى كتاب عمر<sup>(١)</sup>.

وإنما كانوا يُقلّدون القضاء لغيرهم، وإن كان ممّا يتعلّق بهم لقيامهم بالسياسة العامة، وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسدّ الثغور وحماية البيضة<sup>(٢)</sup>، ولم يكن ذلك ممّا يقوم به غيرهم لعظم العناية، فاستخفوا القضاء في الوقائع بين الناس، واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم. وكانوا مع ذلك إنّما يُقلّدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء، ولا يُقلّدونه لمن بعد عنهم في ذلك.

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه، فمعروفة في كتب الفقه وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية.

إلا أنّ القاضي إنّما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط. ثمّ دُفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدريب، بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى.

واستقرّ منصب القضاء آخر الأمر على أنّه يجمع مع الفصل بين الخصوم، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر [ظ ٩٤/٢] في أموال<sup>(٣)</sup> المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامي عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح، ليحصل له الوثوق بهم. وصارت هذه كلّها من تعلقات وظيفته، وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم، وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المتعدي. وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره في البينات والتعزير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود. وذلك أوسع من نظر القاضي.

وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهدي من بني العباس. وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبي دؤاد. وربما كانوا يجعلون للقاضي

١ - أخرجه الدارقطني والبيهقي، وشرحه شرحاً وافياً ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين. وانظره مطبوعاً في التعريف والإخبار لابن قطلوبغا (٢/٢١٤ - ٢١٥).

٢ - حماية أرض البلاد وما تشتمل عليه.

٣ - في ن: أمور.

قيادة الجهاد في عساكر الطوائف<sup>(١)</sup>. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس. فكانت تولية هذه الوظائف، إنما تكون للخلفاء، أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

وكان أيضاً النظر في الجرائم، وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيدين بمصر والمغرب، راجعا إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، وقيم الحدود الثابتة في مجالها، ويحكم في القود والقصاص وقيم التعزير<sup>(٢)</sup> والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة.

ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن.

### وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين:

منها وظيفة التهمة على الجرائم، وإقامة حدودها، ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارة باسم الوالي، وتارة باسم الشرطة.

وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً، فجمع ذلك القاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته، واستقر [ظ ١/٩٥] الأمر لهذا العهد على ذلك، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة، لأن الأمر لما كان خلافة دينية، وهذه الخطئة من مراسم الدين، فكانوا لا يؤلون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالخلف أو بالرق أو بالاصطناع، ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه. ولما انقضى شأن الخلافة وطورها، وصار الأمر كله ملكاً أو سلطاناً، صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه. ثم خرج الأمر جملة من العرب، وصار الملك ليسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافة بعداً عنهم، بمنحاهما وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم،

١ - يرجح الدكتور وافي أنها محرفة عن الصوائف جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف. قال عبد الله: لعل المؤلف أراد بهم العسس لأنه يطلق الطائف على العسس.

٢ - عقوبة يترك للقاضي تقديرها حسب حجم الجريمة وظروفها.

وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ، وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نَحَلْتَهُمْ بَيْنَ الْأُمَمِ وَطَرِيقَتَهُمْ<sup>(١)</sup>، وَغَيْرَهُمْ لَا يَرُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا يُولُونَهَا جَانِباً مِنَ التَّعْظِيمِ، لَمَّا دَانُوا بِالْمَلَّةِ فَقَط. فَصَارُوا يُقْلِدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَاهَلَّ لَهَا فِي دُولِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ.

وَكَانَ أَوَّلُكَ الْمُتَاهَلُّونَ لَمَّا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدُّوَلِ مِنْذُ مِئَتَيْنِ مِنَ السِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبَدَاوَةِ وَخَشُونَتِهَا وَالتَّبَسُّوَا بِالْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعْتَهُمْ، وَقَلَّةِ الْمُنَاعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْخَطَطُ فِي الدُّوَلِ الْمَمْلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُحْتَصَةً بِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ، لَفَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ، فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْإِحْتِقَارِ مَا لَحِقَ الْحَضَرَ الْمُتَغَمِّسِينَ فِي التَّرَفِّ وَالِدَّعَةِ، الْبُعْدَاءِ عَنِ عَصَبِيَّةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَّةِ، وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدُّوَلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمَلَّةِ، وَأَخَذَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ لَمَّا أَنَّهُمُ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا. وَلَمْ يَكُنْ إِثَارُهُمْ فِي الدُّوَلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَاماً لِدَوَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا يُتَلَمَّحُ مِنَ التَّحَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ، وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ، لَا حَقِيقَةً وَرَاءَهُ. إِذْ حَقِيقَةُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. فَمِنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حُلَّ لَهُ، وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَنْهُمْ، وَتَلَقَّى الْفَتَاوَى مِنْهُمْ، فَنَعِمَ وَاللَّهُ الْمَوْفُقُ.

وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاةِ مِنَ الشُّورَى مَرْجُوحٌ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

**فَاعْلَمْ:** أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ. وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعِمْرَانِ، وَإِلَّا كَانَ بَعِيداً عَنِ السِّيَاسَةِ. فَطَبِيعَةُ الْعِمْرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْتَضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ [ظ ٢/٩٥] إِنَّمَا يَكُونُ<sup>(٣)</sup> لِصَاحِبِ عَصَبِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حُلِّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ. وَأَمَّا مَنْ لَا عَصَبِيَّةَ لَهُ، وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً، وَلَا مِنْ حَمَايَتِهَا، إِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ، فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى، أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اعْتِبَارِهِ فِيهَا. اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَمَوْجُودَةٌ فِي الْإِسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً، وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ، فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِفَقْدَانِهِ الْعَصَبِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا

١ - فِي ن: طَرِيقَتَهُمْ.

٢ - أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٩٦/٥) وَأَبُو دَاوُدَ (٣٦٤١) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٨٢) وَابْنُ مَاجَةَ (٢٢٣) وَابْنُ حِبَانَ (٨٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ. وَفِي إِسْنَادِهِ مَقَالٌ.

٣ - فِي الْمَطْبُوعِ: لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ.

وأحكامها. وإنما إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء، الشَّاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين، وتعظيم من ينتسب إليه بأيِّ جهة انتسب.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ». فاعلم أنَّ الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتفَّ به إنما حملوا الشَّرِيعَةَ أقوالاً في كَيْفِيَّةِ الأعمال في العبادات، وكَيْفِيَّةِ القضاء في المعاملات، ينصُّونها على من يحتاج إلى العمل بها، هذه غاية أكابرهم، ولا يتصفُّون إلا بالأقلَّ منها وفي بعض الأحوال.

والسَّلَفُ رضوان الله عليهم وأهل الدِّين والورع من المُسْلِمِينَ حملوا الشَّرِيعَةَ اتِّصافاً بها وتحققاً بمذاهبها. فمن حملها اتِّصافاً وتحققاً دون نقلٍ فهو من الوارثين مثل أهل رسالة القشيري.

ومن اجتمع له الأمران فهو العالم، وهو الوارثُ على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسَّلَفِ والأئمة الأربعة، ومن اقتفى طريقهم، وجاء على أثرهم.

وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابدُ أحقُّ بالورثة من الفقيه الذي ليس بعابدٍ لأنَّ العابد ورث بصفة، والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئاً، إنما هو صاحب أقوال ينصُّها علينا في كَيْفِيَّاتِ العمل. وهؤلاء أكثرُ فقهاء عصرنا. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

العدالة: وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء، ومن موادِّ تصرُّفه. وحقيقة هذه الوظيفة: القيام عن إذن القاضي بالشَّهادة بين الناس فيما لهم وعليهم، تحملاً عند الإشهاد، وأداءً عند التنازع، وكتباً في السَّجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتِّصافُ بالعدالة الشَّرِيعِيَّة، والبراءة من الجرح، ثمَّ القيام بكتب السَّجلات، والعقود من جهة عباراتها<sup>(١)</sup>، وانتظام فصولها، ومن جهة أحكام شروطها الشَّرِيعِيَّة وعقودها، فيحتاج حينئذٍ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه، ولأجل هذه الشُّرُوط، وما يحتاج إليه من المِرَّان<sup>(٢)</sup> على ذلك، والممارسة له اختصَّ ذلك ببعض العدول، وصار الصَّنْفُ القائمون به كأنهم مختصَّون بالعدالة وليس كذلك. وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة.

١ - في ن: عبارتها.

٢ - هو التمرن والاعتیاد على الشيء.

ويجبُ على القاضي تصفُّحُ أحوالهم، والكشفُ عن سيرهم، رعايةً لشرطِ العدالةِ فيهم، وأن لا يهملَ ذلك [ظ ١/٩٦] لما يتعيَّنُ عليه من حفظِ حقوقِ الناسِ. فالعهدةُ عليه في ذلك كُلِّه، وهو ضامنٌ دَرَكَه<sup>(١)</sup>.

وإذا تَعيَّنَ هؤلاء هذه الوظيفَةُ عَمَّتِ الفائدةُ في تعيين من تخفى عَدَالَتُهُ على القضاةِ بسببِ اتِّسَاعِ الأمصارِ واشتباه الأحوال، واضطرار القضاةِ إلى الفصلِ بين المتنازعين بالبيِّناتِ الموثوقة، فيعملون غالباً في الوثوق بها على هذا الصَّنْفِ. ولهم في سائر الأمصار دُكاكينٌ ومصاطبٌ يختصُّون بالجلوسِ عليها فيتعاهدون أصحاب المعاملات للإشهاد وتقبيده بالكتاب. وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة، التي تبين مدلولها، وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح. وقد يتواردان ويفترقان. والله تعالى أعلم.

**الحسبة والسكة:**

**أما الحسبة:** فهي وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرضٌ على القائم بأمور المسلمين، يُعيَّنُ لذلك من يراه أهلاً له، فيتعيَّنُ فرضه عليه، ويتخذ الأعوانَ على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويُعزِّرُ ويُؤدِّبُ على قدرها، ويحملُ الناسَ على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمَّالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ<sup>(٢)</sup> في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مُطلقاً، بل فيما يتعلَّقُ بالغش والتدليس في المعاش وغيرها في المكاييل والموازين، وله أيضاً حملُ الماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماعٌ بينة، ولا إنفاذ حكم، وكأنَّها أحكامٌ ينزُّه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفعُ إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها. فوضعها على ذلك أن تكون خادمةً لمنصب القضاء.

وقد كانت في كثير من الدُّول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب، والأمويين بالأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي، يُؤلِّي فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة، وصار نظره عاماً في أمور السياسة، اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية.

١ - أي: ضامنٌ تبعته.

٢ - المبالغة فيه بما يفقد العقوبة غايتها.

وَأَمَّا السَّكَّةُ: فهي النَّظَرُ في النُّقُودِ المتعامل بها بين النَّاسِ، وحفظها ممَّا يُدْخِلُهَا من الغشِّ أو النَّقصِ إِنْ كَانَ يتعامل بها عدداً، أو ما يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، وَيُوصَلُّ إِلَى مِنْ جَمِيعِ الاعتباراتِ، ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالِاسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ <sup>(١)</sup> بِرَسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ اتَّخَذَ [ظ ٩٦/٢] لِذَلِكَ، وَنَقَشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى الدِّينَارِ، بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ، حَتَّى تَرَسَّمَ فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ، وَتَكُونُ عِلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السَّبْكُ وَالتَّخْلِيسُ فِي مَتَعَارِفِ أَهْلِ الْقَطْرِ، وَمَذَاهِبِ الدَّوْلَةِ الْحَاكِمَةِ.

فَإِنَّ السَّبْكَ وَالتَّخْلِيسَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ، وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْاجْتِهَادِ، فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقٍ أَوْ قَطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيسِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَاماً وَعِيَاراً يَعْتَبِرُونَ بِهِ نَقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَائِلَتِهِ. فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفاً. وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِمُصَاحِبِ هَذِهِ الْوُضُوعِ، وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الْعَتَبَارِ، فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ، وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي، ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحِسْبَةِ.

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوُضَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ، وَبَقِيَ مِنْهَا وَضَائِفٌ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يَنْظَرُ فِيهِ، وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً.

فَوُضِيفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ، صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَضِيفَةِ الْجِهَادِ.

وَوُضِيفَةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبَطْلَانِهِ، إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ، وَيُدْرَجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِباً فِي السُّلْطَانِيَّاتِ.

وَكَذَا نِقَابَةُ الْأَنْسَابِ، الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ فِي بَيْتِ الْمَالِ، قَدْ بَطَلَتْ لِذُنُورِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ أُنْذِرَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوُضَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ، هَذَا الْعَهْدِ. وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ.

### ١-٣-٣٢. الفصل الثاني والثلاثون في اللقب بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة، وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك أنه لما بُويغ أبو بكر رضي الله عنه وكان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يُسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بُويغ لعمر بعده إليه، كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكأنهم استقلوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته، وأنه يتزايد فيما بعد دائماً، إلى أن ينتهي إلى الهجنة<sup>(١)</sup>، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها فلا يُعرف، فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه، مما يُناسبه ويدعى به مثله، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير، وهو فعيل من الإمارة، وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة، وأمير الحجاز، وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ. واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس، واستصوبوه ودعوه به. يُقال: إنَّ أوَّل [ظ ٩٧/١] من دعاه بذلك عبد الله بن جحش، وقيل: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيل: بريد جاء بالفتح من بعض البعوث، ودخل المدينة، وهو يسأل عن عمر، ويقول: أين أمير المؤمنين؟ وسمعتها أصحابه فاستحسنوه. وقالوا: أصبَّتْ والله اسمه، إنه والله أمير المؤمنين حقاً. فدعوه بذلك، وذهب لقباً له في الناس، وتوارثه الخلفاء من بعده، سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم إلا سائر دولة بني أمية.

ثم إنَّ الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة، التي هي أخت الخلافة، وتعريضاً بمذهبهم، في أنه أحقُّ بإمامة الصلاة من أبي بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب، ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده، فكانوا كلهم يُسمون بالإمام، ما داموا يدعون لهم في الخفاء<sup>(٢)</sup>، حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيما بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعله شيعة بني العباس. فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له، وعقدوا الرأيات للحرب على أمره. فلما هلك، دُعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين، وكذا الرافضة بأفريقية. فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام، حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي، وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام،

١ - الهجنة في الكلام: ما يعيبه.

٢ - في ن: الخلفاء.

ولابنه أبي القاسم من بعده، فلمَّا استوثقَ لهم الأمر، دعوا من بعدهما بأمر المؤمنين. وكذا الأدارسة بالمغرب، كانوا يُلقَّبون إدريسَ بالإمام، وابنه إدريس الأصغر كذلك. وهكذا شأنهم.

وتوارث الخلفاء هذا اللقب، بأمر المؤمنين وجعلوه سمةً لمن يملك الحجاز والشام والعراق والمواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح.

وازداد كذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض، لما في أمر المؤمنين من الاشتراك بينهم، فاستحدث لذلك بنو العباس حجاباً لأسمائهم الأعلام عن امتنانها في السنة السُّوقية، وصوناً لها عن الابتذال، فتلقَّبوا بالسُّفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والرَّشيد، إلى آخر الدولة. واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بأفريقية ومصر.

وتجافى بنو أمية عن ذلك بالمشرق (فجراً على)<sup>(١)</sup> الغضاضة والسَّذاجة؛ لأنَّ العرويةً ومنازعها لم تفارقهم حينئذٍ، ولم يتحوَّل عنهم شعار البداوة؛ إلى شعار الحضارة، وأمَّا بالأندلس، فتقليداً<sup>(٢)</sup> لسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة التي استأثَّر بها بنو العباس، ثم بالعجز عن مُلك الحجاز، أصل العرب والملة، والبعْد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبيَّة، وأنهم إنما منعوهُ<sup>(٣)</sup> بإمارة القاصية أنفسهم [ظ ٩٧/٢] من مهالك بني العباس. حتى إذا جاء عبد الرحمن الآخر منهم، وهو الناصر ابن الأمير عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأوسط، لأوَّل المئة الرَّابعة، واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر، واستبداد الموالي، وعيْثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال، والقتل والسَّمْل<sup>(٤)</sup>. ذهبَ عبدُ الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وأفريقية، وتسمَّى بأمر المؤمنين، وتلقَّب بالناصر لدين الله، وأخذت من بعده عادةً ومذهباً لقنَّ عنه، ولم يكن لأبائه وسلف قومه.

واستمرَّ الحال على ذلك، إلى أن انقرضت عصبيَّة العرب أجمع، وذهب رسمُ الخلافة، وتغلَّب الموالي من العجم على بني العباس، والصَّنائع على العبيديين بالقاهرة، وصنَّهاجة على أمراء أفريقية، وزناتة على المغرب، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية

١ - في ن: (قبلهم مع).

٢ - في ن: فتلقَّبوا كسلفهم.

٣ - في ن: منعوا.

٤ - أي: فقاء العين.



واقْتَسَمُوهُ، وافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ، فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْاِخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ، بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعًا بِاسْمِ السُّلْطَانِ.

فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ، فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَخْصُونَهُمْ بِالْأَقَابِ تَشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى يَسْتَشْعِرَ مِنْهَا انْقِيَادَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَحُسْنَ وَلَايَتِهِمْ، مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ، وَعِضْدِ الدَّوْلَةِ، وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ، وَمَعَزِ الدَّوْلَةِ، وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ، وَبِهَاءِ الدَّوْلَةِ، وَذَخِيرَةِ الْمُلْكِ، وَأَمْثَالِ هَذِهِ. وَكَانَ الْعَبِيدِيُّونَ أَيْضًا يَخْصُونُ بِهَا أُمَرَاءَ صَنْهَاجَةٍ، فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا عَلَى الْخِلَافَةِ قَنَعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ، وَتَجَافَوْا عَنِ الْأَقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْبًا مَعَهَا، وَعَدُولًا عَنْ سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَةِ بِهَا، شَأْنُ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبْدِينَ كَمَا قُلْنَا.

وَنَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَعَاجِمُ الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمُلْكِ، وَعَلَا كَبُيُّهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَتَلَاشَتْ عَصِيَّةُ الْخِلَافَةِ، وَاضْمَحَلَّتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى اتِّحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَةِ بِالْمُلْكِ مِثْلَ النَّاصِرِ، وَالْمَنْصُورِ، زِيَادَةً عَلَى الْأَقَابِ يَخْتَصُونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْاِتِّحَالِ، مَشْعُورَةٌ بِالْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالْاِصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطْ، فَيَقُولُونَ صِلَاحَ الدِّينِ، أَسَدَ الدِّينِ، نُورَ الدِّينِ.

وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ، فَاقْتَسَمُوا الْأَقَابَ الْخِلَافَةِ وَتَوَزَّعُوهَا، لِقُوَّةِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبِيلِهَا وَعَصِيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا بِالنَّاصِرِ، وَالْمَنْصُورِ، وَالْمُعْتَمِدِ، وَالْمُظْفَرِ، وَأَمْثَالِهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ شَرْفٍ <sup>(١)</sup> يَنْعِي عَلَيْهِمْ:

مَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ      أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ  
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا      كَالْهَرِّ يَحْكِي اتِّفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةٌ، فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعَبِيدِيُّونَ يُلقَبُونَ بِهَا لِلتَّنْوِيهِ، مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ، وَمَعَزِ الدَّوْلَةِ. وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ [ظ ١/٩٨] لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ، ثُمَّ بَعْدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا فَنَسُوا هَذِهِ الْأَقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ. وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ الْمَغْرِبِ لَمْ يَتَّحِلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَقَابِ، إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَرِيًّا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ.

وَلَمَّا مُحِيَ رِسْمُ الْخِلَافَةِ، وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا، وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قِبَائِلِ الْبُرْبُرِ، يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينٍ، مَلِكٌ لِمَتُونَةِ فَمَلِكِ الْعَدَوَتَيْنِ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْاِقْتِدَاءِ، نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى

١ - فِي الْأَصْلِ: ابْنُ أَبِي شَرْفٍ. خَطَأً، جَاءَ صَوَاباً فِيمَا مَضَى فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنَ الْبَابِ الثَّلَاثِ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ شَرْفِ الْقَيْرَوَانِيِّ. انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي مَعْجَمِ الْمَوْلُفَيْنِ (٢٥/١٠ - ٢٦). وَقَدْ نَسَبَ الْقُرَيْ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (١٢٥/١) الْبَيْتَيْنِ لِأَبِي بَكْرٍ بْنِ عِمَارٍ.

الدُّخُولُ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلًا لِمُرَاسِمِ دِينِهِ، فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهَرَ الْعَبَّاسِيَّ، وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَهُ الْقَاضِي أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِشْبِيلِيَّةَ، يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهَا<sup>(١)</sup> عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدُهُ ذَلِكَ، فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ بَعْدَ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ، وَاسْتَشْعَارَ زِيهِمْ فِي لِبُوسِهِ وَرَتَبَتِهِ، وَخَاطَبَهُ فِيهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَاخْتِصَاصًا، فَاتَّخَذَهَا لِقْبًا. وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ دُعَايَ لَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ<sup>(٢)</sup>، أَدْبًا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ، لَمَّا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَابِطُونَ مِنْ اتِّحَالِ الدِّينِ، وَاتَّبَاعِ السُّنَّةِ.

وَجَاءَ الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ، دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ أَخَذًا بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ، نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَدُوْلَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فِي تَرْكِ التَّأْوِيلِ لظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ، وَمَا يؤولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ، وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ، تَعْرِيفًا بِذَلِكَ النِّكَيرِ<sup>(٣)</sup>. وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ، يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ، فَسَمَّى بِالْإِمَامِ لَمَّا قَلَنَاهُ أَوَّلًا مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ، وَأَرْدَفَ بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عَصْمَةِ الْإِمَامِ. وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَخَذًا بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ، وَلَمَّا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَعْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمئِذٍ بِالْمَشْرِقِ.

ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيَّ عَهْدِهِ اللَّقْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَآلُ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ، اسْتَثْنَاهُ عَنْهُمْ سِوَاهُمْ، لَمَّا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ، وَأَوَّلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لانتفاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا، فَكَانَ ذَلِكَ دَابَّهُمْ.

وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ، وَانْتَزَعَتْ زَنَاتُهُ، ذَهَبَ أَوْلَاهُمْ مَذَاهِبَ الْبِدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ، وَاتَّبَاعُ لِمَتُونَةٍ فِي اتِّحَالِ اللَّقْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدْبًا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ، الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ، ثُمَّ نَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّقْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ، اسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمَلِكِ، وَتَتَمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ [ظ ٢/٩٨]. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يُوسُفُ: ٢١].

١ - فِي ن: إِيَّاهُ.

٢ - ذَهَبَ وَاقٍ إِلَى أَنَّ هُنَا جُمْلَةً سَاقِطَةً بَيْنَ كَلِمَتَيْ قَبْلُ وَأَدْبًا، وَهِيَ (ثُمَّ أَهْمَلُ).

٣ - يَعْنِي الْقَوْلَ الْمَفْضِيَّ إِلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ.

# ١-٣-٣٣- الفصل الثالث والثلاثون في شرح اسم البابا والبطريرك في الملة النصرانية، و[اسم] الكوهن عند اليهود

اعلم: أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي، يحملهم على أحكامها وشرائعها، ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف. والتوغل الإنساني أيضاً، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم، ويزعهم<sup>(١)</sup> عن مفاسدهم بالقهر، وهو المسمى بالملك. والملة الإسلامية، لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة، وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً، أتحدث<sup>(٢)</sup> فيها الخلافة والملك، لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً.

وأما ما سوى الملة الإسلامية، فلم تكن دعوتهم عامة، ولا الجهاد عندهم مشروعاً، إلا في المدافعة فقط. فصار القائم بأمر الدين فيها، لا يعنيه شيء من سياسة الملك، وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض، ولأمر غير ديني، وهو ما اقتضته لهم العصبة لما فيها من الطلب للملك بالطبع، لما قدمناه، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم، كما في الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم.

ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربع مئة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك، إنما همهم إقامة دينهم فقط. وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه، يُقيم لهم أمر الصلاة والقرآن، ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه، لأن موسى لم يعقب. ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً، كانوا يتلون أحكامهم العامة، والكوهن أعظمهم رتبة في الدين، وأبعد عن شعب الأحكام. واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبة، وتمحضت الشوكة للملك، فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله بيت المقدس — وما جاورها — كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه، فحاربتهم أمم الفلسطينيين، والكنعانيين، والأرمن، وأردن، وعمان، ومأرب، ورأستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم، وأقاموا على ذلك نحواً من أربع مئة سنة. ولم تكن بهم صولة الملك، وضجر بنو إسرائيل من مطالبة الأمم، فطلبوا على لسان شمويل<sup>(٣)</sup> من أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فوكي طلوت، وغلب

١ - أي: يمنعهم ويردهم.

٢ - في جميع النسخ: اتخذت بالذال المعجمة وهو تحريف.

٣ - شمويل: هو إسماعيل تحرف في النطق. وما ذكره من أسماء الأنبياء والمعلومات المتعلقة بهم لا يمكن اتخاذها كخبر صادق لا محيد عنه، وإنما هي من باب الظن، إذ لا يوجد نص صحيح يؤكد وجود نبي اسمه يوشع، أو أن موسى لم يعقب...

الأمم، وقتل جالوت<sup>(١)</sup> ملك الفلسطينيين، ثم ملك بعده داود، ثم سليمان صلوات الله عليهما، واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز، ثم أطراف اليمن، ثم إلى أطراف بلاد الروم.

ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه [ظ ٩٩/١]. بمقتضى العصية في الدول، كما قدمناه، إلى دولتين، كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين.

ثم غلبهم بختصر ملك بابل، على ما كان بأيديهم من الملك، أولاً الأسباط العشرة، ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة، وخرّب مسجدهم وأحرق توراتهم<sup>(٢)</sup>، وأمات دينهم، ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق، إلى أن ردّهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأوّل للكهنة فقط، والملك للفرس. ثم غلب الإسكندر، وبنو يونان على الفرس، وصار اليهود في ملكتهم، ثم فشل أمر اليونانيين، فاعتزّ اليهود<sup>(٣)</sup> عليهم بالعصية الطيعية، ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمنائي، وقتلوا يونان حتى انقرض أمرهم، وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم. ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بثو هيرودس، أصهار بني حشمنائي، وبقيت دولتهم فحاصروهم مدّة، ثم افتحوها عنوة، وأفحشوا في القتل والهدم والتخريق، وخرّبوا بيت المقدس، وأجلّوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد<sup>(٤)</sup>، ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى. فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصية منهم، وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم من بعدهم، يُقيم لهم أمر دينهم، الرئيس عليهم، المسمّى بالكوهن.

ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه، بما جاءهم به من الدين، والنسخ لبعض أحكام التوراة، وظهرت على يديه الخوارق العجيبة، من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، واجتمع عليه كثير من

١ - أسماء: (طالوت وجالوت).. تتشابه مع اسمي الملكين (هاروت وماروت) وكان هذه الأسماء نابعة من بيئة محدّدة ذات طبيعة خاصة حيث ذكراً في بابل، فأين هي من بيت المقدس؟!.

٢ - كل هذه المعلومات مما يدعيه اليهود، ولا يمكن أن يعطى صفة المصادقية، وإنما هي رغبات أريد منها توثيق تاريخ لا يتحدّم ما يريدون. إذ أن ما سمي بالسبي البابلي غير موافق للمجريات العامة للأحداث. إذ كيف يسمّى المرء إلى عاصمة ملكه.. ذلك أن سليمان عليه السلام كانت قاعدته وكرسي ملكه في بابل وليس في القدس، يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ فلو كانت قاعدة الملك لقال: (من الأرض).

٣ - يحسن التفريق بين اليهود وبني إسرائيل، لأن القرآن الكريم يميز بينهما، ويعطي اليهود كل صفة سيئة منذ ذكروا، في حين يعلن الكافرين من بني إسرائيل ويمتدح المؤمنين الصادقين.. ولم يكن في الأنبياء من ينتسب إلى اليهود، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾. وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل: بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.

٤ - لم تنص الآيات الكريمة على خراب المسجد وإنما على إفساد بني إسرائيل في الأرض كان أولهما يسبق تسلط فرعون عليهم، ثم ردّت لهم الكرة بوجود موسى ﷺ، والثانية بعد فرعون، لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

النَّاسِ، وَأَمَنُوا بِهِ، وَأَكْثَرَهُمُ الْخَوَارِثُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ، وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى الْآفَاقِ، دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ، وَذَلِكَ أَيَّامَ أُوْغُسْطُسَ، أَوَّلُ مُلُوكِ الْقِيَاصِرَةِ. وَفِي مَدَّةِ هِيرُودُسَ مُلِكِ الْيَهُودِ، الَّذِي انْتَرَعَ الْمُلُوكَ مِنْ بَنِي حَاشْمَنَايَ أَصْهَارَهُ، فَحَسَدُهُ الْيَهُودَ وَكَذْبُهُ، وَكَاتَبَ هِيرُودُسَ مُلِكَهُمُ الْمُلِكِ الْقِيَاصِرَةِ أُوْغُسْطُسَ يُغَرِّبُهُ بِهِ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ، وَوَقَعَ مَا تَلَاَهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ.

وافتَرَقَ الْخَوَارِثُونَ شِيعًا، وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَكَانَ بَطْرُسُ كَبِيرَهُمْ، فَتَزَلَّ بَرُومَةَ دَارَ مُلِكِ الْقِيَاصِرَةِ، ثُمَّ كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فِي نَسْخِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِمْ. فَكُتِبَ مَتَّى إِنْجِيلُهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ<sup>(١)</sup>، وَنَقَلَ يُوَحْنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاتِينِيِّ، وَكُتِبَ لُوقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلُهُ بِاللَّاتِينِيِّ إِلَى بَعْضِ أَكْبَارِ الرُّومِ، وَكُتِبَ يُوَحْنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِنْجِيلُهُ بِرُومَةَ [ظ ٩٩/٢]، وَكُتِبَ بَطْرُسُ إِنْجِيلُهُ بِاللَّاتِينِيِّ وَنُسِبَهُ إِلَى مُرْقَاسٍ<sup>(٢)</sup> تَلْمِيزُهُ. وَاخْتَلَفَتْ هَذِهِ النَّسَخُ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنْجِيلِ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا وَحِيًّا صَرَفًا، بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْخَوَارِثِينَ، وَكُلُّهَا مَوَاعِظٌ وَقَصَصٌ، وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جَدًّا.

وَاجْتَمَعَ الْخَوَارِثُونَ، الرُّسُلُ لَذَلِكَ الْعَهْدِ، بِرُومَةَ، وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَصَيَّرُوهَا يَدَ أَقْلِيمَنْطُسَ تَلْمِيزَ بَطْرُسَ، وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا. فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ: التَّوْرَةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارَ، وَكِتَابُ يُوشَعَ، وَكِتَابُ الْقُضَاةِ، وَكِتَابُ رَاغُوثَ، وَكِتَابُ يَهُوذَا<sup>(٣)</sup>، وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ، أَرْبَعَةٌ، وَسَفَرُ بَنِيَامِينَ<sup>(٤)</sup>، وَكِتَابُ الْمَقَائِينَ لِابْنِ كَرْيُونَ<sup>(٥)</sup> ثَلَاثَةٌ، وَكِتَابُ عَزْرَا الْإِمَامِ، وَكِتَابُ أُوشِيرٍ<sup>(٦)</sup> وَقِصَّةُ هَامَانَ، وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصَّدِّيقِ، وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكِتَابُ ابْنِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ<sup>(٧)</sup>، وَنُبُؤَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ سِتَّةَ عَشَرَ<sup>(٨)</sup>، وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارِخٍ<sup>(٩)</sup>، وَزَيْرِ سُلَيْمَانَ<sup>(١٠)</sup>.

١ - لم يترل كتاب من كتب الله ﷻ إلا بالعربية أخرج الحاكم (٧٣/٤) والطبراني في الكبير (٤٥٥/١٢) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا فَاخْتَارَ الْعِلْيَاءَ مِنْهَا فَأَسْكَنَهَا مِنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مِصْرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مِصْرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَأَنَا خِيَارُ مِنْ خِيَارِ، فَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَبِغْضِي أَبْغَضَهُمْ». وانظر البداية والنهاية (٢٥٧/٢) .. وما العربية في واقعها إلا محاولة للتأكيد على وجود غير مثبت، ومن يتابع ما كان عليه أهل المدينة المنورة يعلم أنهم لم يكن ذكر اللسان العبراني موجودا وإنما هو لسان يهود الذين أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه بتعلمه، وقد تعلم السريانية في أربعة عشر يوما..

٢ - مرقس.

٣ - المعروف بسفر يهوديت.

٤ - لعله تحرف عن (سفر نحميا) أو (سفر بل والتنين).

٥ - الصواب أنه (يس الكريوني) نسبة إلى كريان، المعروفة الآن ببرقة في ليبيا. وهو مختصر أسفار المكابيين الأربعة في ثلاثة أجزاء.

٦ - وهو سفر إسترير.

٧ - الموجود منها الآن أربعة: أمثال، الجامعة، نشيد الأناشيد، الحكمة.

ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه المتلقة من الحواريين: نسخ الإنجيل الأربع، وكتب القتاليقون سبع رسائل، وتأمها الإبريكسيس<sup>(٤)</sup> في قصص الرسل، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة، وكتاب أقليمطس، وفيه الأحكام، وكتاب أبو غالمسيس<sup>(٥)</sup>، وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي. واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى، والتسلط عليهم بالقتل والبغي، إلى أن جاء قسطنطين، وأخذ بها واستمرروا عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يُسمونه البطرك، وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية، ويُسمونه الأسقف أي نائب البطرك، ويُسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس، ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، وأكثر خلواتهم في الصوامع، وكان بطرس الرسول، رأس الحواريين، وكبير التلاميذ برومة، يقيم بها دين النصرانية، إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة، فيمن قتل من البطارق والأساقفة، ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس<sup>(٦)</sup>. وكان مرقاس<sup>(٧)</sup> الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين، فقام بعده نائياً، وتسمى بالبطرك، وهو أول البطاركة فيها، وجعل معه اثني عشر قساً، على أنه إذا مات البطرك، يكون واحد من الاثني عشر مكانه، ويختار من المؤمنين واحداً، مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس.

ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده، واجتمعوا ببنقية، أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين، واتفق ثلاث مئة وثمانية عشر [ظ. ١٠٠/١] من أساقفتهم على رأي واحد في الدين، فكتبوه وسموه الإمام، وصبروه أصلاً يرجعون إليه، وكان فيما كتبه: أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسسة<sup>(٨)</sup>، كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس. وأبطلوا ذلك الرأي، وإنما يُقدم عن بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم. فبقي الأمر كذلك. ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين،

١ - هي: سبعة عشر إذا لم يعتبر سفر أرمياء وسفر مراثي أرمياء سفرًا واحداً.

٢ - هو سفر الكهنوت ليسوع بن سيراخ بن سيراخ بن يسوع لم يلحق النبي سليمان.. فلعله أحد أجداده.

٣ - انظر تفصيلات عن هذه الكتب والمعتمد منها والمرفوض فيما كتبه الدكتور السقا في كتابه البشارة بني الإسلام في التوراة والإنجيل، وإظهار الحق للهندي، والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور وافي.

٤ - أي: أعمال الرسل.

٥ - أي: الرؤيا أو الوحي.

٦ - لم يلحق أريوس بطرس ولم يتسلم كرسي البابوية أبداً. وانظر عرض حياته مفصلاً في كتاب عيسى بيشر بالإسلام.. تأليف البروفسور عطا الرحيم.

٧ - مرقص الرسول.

٨ - لم يذكر في جموع قس وقسيس أقسة.. وقد ذكر قسوس وقسيسون، وقساوسة على غير قياس كمهالبة في جمع المهلب.

وكانت لهم مجتمعات في تقريره، ولم يختلفوا في هذه القاعدة، فبقي الأمر فيها على ذلك، واتَّصَلَ فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة.

وكان الأساقفة يدعون البطرِكَ بالأب الأعظم تعظيماً له. فصار الأقسَّة يدعون الأسقف فيما غاب عن البطرِكَ بالأب أيضاً، تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة، يقال: آخرها بطرِكِيَّة هرقل يأسكندريَّة، فأرادوا أن يميزوا البطرِكَ عن الأسقف في التعظيم، فدعوه البابا، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسم أوَّل ظهوره بمصر، على ما زعم جرجيسُ بنُ العَמיד في تاريخه، ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم، وهو كرسي رومة لأنه كرسي بطرس الرسول، كما قدَّمناه، فلم يزل سَمَةً عليه حتى الآن.

ثمَّ اختلفت النَّصارى في دينهم بعد ذلك، وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائفَ وفرقاً، واستظهروا بملوك النَّصرانيَّة، كل على صاحبه، فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة، إلى أن استقرَّت لهم ثلاث طوائف هي فرَقُهُم، ولا يلتفتون إلى غيرها، وهم المَلِكِيَّة، واليَعْقُوبِيَّة، والنَّسْطُورِيَّة.

ولم نَرِ أَنَّ نُسَخِّم<sup>(١)</sup> أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم، فهي على الجملة معروفة، وكلُّها كفرٌ كما صرح به القرآن الكريم، ولم يبقَ بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استبدال، إنما هو الإسلام أو الجزية أو القتل.

ثمَّ اختصَّت كلُّ فرقة منهم ببطرك، فبطرك رومة اليوم، المُسمَّى بالبابا على رأي المَلِكِيَّة، ورومة للإفرنجية، وملكهم قائمٌ بتلك النَّاحية، وبطرك المعاهدين بمصر على رأي اليعقوبية، وهو ساكنٌ بين ظهرائهم، والحشية يدينون بدينهم، ولبطرِكَ مصرَ فيهم أساقفة، ينبون عنه في إقامة دينهم هنالك. واختصَّ اسمُ البابا ببطرك رومة، لهذا العهد. ولا تُسمَّى اليعاقبة بَطْرِكُهُم بهذا الاسم. وضبط هذه اللفظة<sup>(٢)</sup> بياعين مَوْحَدَتَيْنِ، من أسفل، والنُّطقُ بها مُفَحَّمة، والثَّانِيَّة مُشَدَّدَةٌ.

ومن مذاهب البابا عند الإفرنجية أَنَّهُ يَحْضُهُم، على الانقياد لملك واحد، يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجاً من افتراق الكلمة، ويُتَحَرَّى به العصية التي لا فوقها منهم لتكون يده غالبة على جميعهم [ظ ١٠٠/٢]، وَيُسَمُّونَهُ الْإِنْبَرْدُور<sup>(٣)</sup>، وحرفه الوسط بين الذال والطاء المعجمتين، ومباشرةً يضعُ التَّاجَ على رأسه، للتَّبَرُّك، فيُسمَّى المتَّوَجَّ، ولعلَّه معنى لفظة الإنبردور.

وهذا ملخصُ ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن. والله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء [فاطر: ٨].

١ - أي: نسوّد.

٢ - أي: لفظة البابا.

٣ - في ظ: (الإنبراطور). بالطاء المهملة، ومعناه عندهم الحاكم.

## ١-٣-٣٤- الفصل الرابع والثلاثون

## في مراتب الملك والسلطان وألقابها

اعلم: أنَّ السُّلْطَانَ في نفسه ضعيفٌ، يَحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا، فلا بُدَّ له مِنَ الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنته<sup>(١)</sup>، فما ظنك بسياسة نوعه، ومن استرعاه الله من خلقه وعباده. وهو مُحْتَاجٌ إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم. وإلى كَفِّ عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم، بامضاء الأحكام الوازنة فيهم، وكَفِّ العدوان عليهم في أموالهم، بإصلاح سائلتهم، وإلى حملهم على مَصَالِحِهِمْ، وما تَعْمُهُمْ به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم، من تَقْطِيعِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَايِلَ وَالْمَوَازِينَ حَذْرًا مِنَ التَّطْفِيفِ، وإلى النَّظَرِ فِي السَّكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْغَشِّ، وإلى سِيَّاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الانقيادِ لَهُ، وَالرِّضَا بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ، وانفرادِهِ بِالْجِدِّ ذُونَهُمْ، فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ.

قال بعض الأشراف من الحكماء: لمُعَانَاةُ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ.

ثُمَّ إِنَّ الاسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي الْقُرْبَى، مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ، أَوْ التَّرْبِيَةِ، أَوْ الاصْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ، لِمَا يَقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مَجَانَسَةِ خَلْقِهِمْ لَخَلْقِهِ، فَتَتِمُّ الْمُشَاكَلَةُ فِي الاسْتِعَانَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢].

وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَّابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزِدَّ حُمُوهَا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ النَّظَرِ فِي مَهْمَاتِهِمْ، أَوْ يَدْفَعِ النَّظَرَ فِي الْمَلِكِ كُلِّهِ، وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ، وَاضْطِلَاعِهِ. فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ تَفَتَّرَ فِي أَشْخَاصٍ. وَقَدْ يَتَفَرَّغُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ. كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّغُ، إِلَى قَلَمِ الرِّسَائِلِ وَالْمَخَاطَبَاتِ، وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ، وَإِلَى قَلَمِ الْمُحَاسَبَاتِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْجَبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانِ الْجَيْشِ. وَكَالسَيْفِ، يَتَفَرَّغُ إِلَى: صَاحِبِ الْحَرْبِ، وَصَاحِبِ الشُّرْطَةِ، وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ، وَوَلَايَةِ الثُّغُورِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْوُطَّانِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَنْدَرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ، لِاشْتِمَالِ مَنْصَبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالْدُّنْيَا كَمَا قَدَّمَاهُ.



فالأحكام الشرعية متعلقةٌ بجميعها وموجودةٌ لكل واحدةٍ منها في سائر وجوهها، لعموم تعلُّق الحكم الشرعيِّ، بجميع أفعال [ظ ١٠١/١] العباد. فالفقيه<sup>(١)</sup> ينظرُ في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبداداً على الخلافة، وهو معنى السلطان، أو تعويضاً منها، وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات، مطلقاً أو مقيداً، وفي موجبات العزل، إن عرضت، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان، وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية، لا يُدَّ للفقهاء من النظر في جميع ذلك لما قدَّمناه، من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان.

إلا أنَّ كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر، لا بما يخصُّها من أحكام الشرع، فليس من غرض كتابنا كما علمت، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية، مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية، مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء.

فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك، وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافية، وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط، لا لتحقيق أحكامها الشرعية، فليس من غرض كتابنا، وإنما نتكلَّم في ذلك بما يقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني، والله الموفق.

الوزارة: وهي أم الخطط السلطانية، والرتب الملوكية، لأنَّ اسمها يدلُّ على مطلق الإعانة. فإنَّ الوزارة مأخوذة: إمَّا من المؤازرة، وهي المعاونة، أو من الوزر، وهو الثقل، كأنه يحمل، مع مُفاعله أوزاره وأثقاله، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة.

وقد كنا قدَّمنا في أوَّل الفصل أنَّ أحوال السلطان وتصرُّفاته لا تغدو أربعة، لأنها: إمَّا أن تكونَ في أمورِ جِماية الكافة وأسبابها من النَّظر في الجُند والسَّلاح والحُرُوب وسائر أمورِ الجِماية والمُطالَبة. وصاحبُ هذا هو الوزيرُ المتعارفُ في الدُّول القديمة، بالشرق، ولهذا العهد بالمغرب.

وإمَّا أن تكونَ في أمورِ مخاطباته لمن بعدَ عنه في المكان، أو في الزمان، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوبٌ عنه، وصاحب هذا هو الكاتب.

وإما أن تكون في أمور جباية المال وإنفاقه، وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة<sup>(١)</sup>. وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية، وهو المسمى بالوزير، لهذا العهد بالمشرق.

وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدهموا عليه، فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه.

فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه. وكل خطّة أو رتبة من رتب [ظ ١٠١/٢] الملك والسّلطان فإنها يرجع. إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامّة فيما تحت يد السّلطان من ذلك الصنف، إذ هو يقتضي مباشرة السّلطان دائماً، ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه. وأمّا ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات، فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر، أو ولاية جباية خاصّة، أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام، أو النظر في السّكة، فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصّة، فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام، وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك.

وما زال الأمر في الدّول قبل الإسلام هكذا، حتى جاء الإسلام، وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلا<sup>(٢)</sup> ما هو طبيعي، من المعاونة بالرأي، والمفاوضة فيه، فلم يمكن زواله إذ هو أمر لا بد منه. فكان صلى الله عليه وسلم يُشاور أصحابه، ويفاضهم في مهمّاته العامّة والخاصّة، ويخصّ مع ذلك أبا بكر بخصيصة أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدّول وأحوالها في كسرى وقصر والنجاشي، يُسمّون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين، لذهاب رتبة الملك بسدّاجة الإسلام، وكذا عمر مع أبي بكر وعلي، وعثمان مع عمر.

وأمّا حال الجباية والإنفاق. والحسبان فلم يكن عندهم برتبة، لأنّ القوم كانوا عرباً أميين، لا يحسنون الكتاب والحساب، فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب، أو أفراداً من موالي العجم، ممن يجيده، وكان قليلاً فيهم. وأمّا أشرفهم فلم يكونوا يجيدونه، لأنّ الأميّة كانت صفتهم التي امتازوا بها. وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصّة للأميّة التي كانت فيهم، والأمانة العامّة في كتمان القول وتاديتيه، ولم تُحجج<sup>(٣)</sup> السّياسة إلى اختياره، لأنّ الخلافة إنما هي دين ليست من السّياسة الملكية في شيء.

١ - في ن: (عضبطه).

٢ - في جميع النسخ (إل) وهو تحريف لا يستقيم معه المعنى.

٣ - في أكثر النسخ: (تخرج) ويأباه السّياق.

وأيضاً: فلم تكن الكتابة صناعةً، فُيُستجَادُ للخليفة أحسنها، لأنَّ الكلَّ كانوا يعبرون عن مقاصدهم، بأبلغ العبارات، ولم يبقَ إلا الخطُّ فكان الخليفة يستنيبُ في كتابته، متى عنَّ له من يُحسِنُه.

وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم، فكان محظوراً بالشريعة، فلم يفعلوه. فلما انقلبت الخلافة إلى الملك، وجاءت رؤوم السلطان وألقابه، كان أولُ شيءٍ بُدِئَ به في الدولة شأنُ الباب، وسدُّه دون الجمهور، بما كانوا يخشون على<sup>(١)</sup> أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم. مع ما في فتحه من ازدهام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسمَّوه الحاجب.

وقد جاء: أنَّ عبد الملك [ظ ١٠٢/١] لما ولى حاجبه، قال له: وَلَيْتَكَ<sup>(٢)</sup> حجابةً بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة، فإنه داعي الله، وصاحب البريد، فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد.

ثم استفحل الملك بعد ذلك، فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستثلافهم، وأطلق عليه اسم الوزير، وبقي أمرُ الحسبان في الموالي والذميين. واتخذ للسجلات كاتبٌ مخصوصٌ حوطةً على أسرار السلطان أن تشتهر ففسد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير، لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب، لا من حيث اللسان الذي هو الكلام، إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد. فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذٍ في سائر دولة بني أمية. فكان النظر للوزير عامًّا في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحميات والمطالبات، وما يتبعها من النظر في ديوان الجند، وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس، واستفحل الملك وعظمت مراتبه، وارتفعت، وعظم شأنُ الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد، تعيَّنت مرتبته في الدولة وعُتِّبَ لها الوجه وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذیاع والشیاع، ودفع إليه. فصار اسمُ الوزير جامعاً لخطي السيف والقلم، وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد

١ - في ن: عن.

٢ - في ن: قد وليتك.

دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ، إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ. وَلَمْ يُخْرَجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا، إِلَّا الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنْكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ.

ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الاسْتِبْدَادِ عَلَى السُّلْطَانِ، وَتَعَاوَرَ<sup>(١)</sup> فِيهَا اسْتِبْدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً، وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى، وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُحْتَاجاً إِلَى اسْتِنَابَةِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذَلِكَ لِتَصِحِّحِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَحْيِئَةِ عَلَى حَالِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ.

فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةٍ تَنْفِيزٍ، وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِماً عَلَى نَفْسِهِ، وَإِلَى وَزَارَةٍ تَفْوِيزٍ، وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَبِداً عَلَيْهِ. ثُمَّ اسْتَمَرَّ الاسْتِبْدَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْمُلُوكِ الْعَجَمِ، وَتَعَطَّلَ [ظ ٢/١٠٢] رِسْمُ الْخِلَافَةِ. وَلَمْ يَكُنْ لِأَوْلَئِكَ الْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا أَلْقَابَ الْخِلَافَةِ، وَاسْتَنْكَفُوا مِنْ مِشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي اللَّقَبِ لِأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ. وَكَانَ الْمُسْتَبَدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ، يُسَمَّى أَمِيرَ الْأُمَرَاءِ، أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحْلِيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ أَلْقَابِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَلْقَابِهِمْ، وَتَرَكَوْا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ. وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ. وَفَسَدَ اللَّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَصَارَتْ صِنَاعَةٌ يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ، فَامْتَهَنَتْ وَتَرَفَّعَ الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ، وَلِأَنَّهُمْ عَجَمٌ، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ، فَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ، وَاخْتَصَّتْ بِهِ، وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ، وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ، وَمَا يَرْجَعُ إِلَيْهَا، وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةٌ عَلَى أَهْلِ الرُّتَبِ، وَأَمْرُهُ نَافِذٌ فِي الْكُلِّ، إِمَّا نِيَابَةً أَوْ اسْتِبْدَاداً، وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا.

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ التُّرْكِ آخِراً بِمِصْرَ، فَرَأَوْا أَنَّ الْوِزَارَةَ قَدْ ابْتَدَلَتْ بِتَرْفُعِ أَوْلَئِكَ عَنْهَا، وَدَفَعَهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْحُجُورِ، وَنَظَرُهُ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَقِّبٌ بِنَظَرِ الْأَمِيرِ، فَصَارَتْ مَرْؤُوسَةً نَاقِصَةً، فَاسْتَنْكَفَ أَهْلُ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الدَّوْلَةِ عَنْ اسْمِ الْوِزَارَةِ، وَصَارَ صَاحِبُ الْأَحْكَامِ وَالنَّظَرِ فِي الْجُنْدِ، يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِالنَّائِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَبَقِيَ اسْمُ الْحَاجِبِ فِي مَدْلُولِهِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْوَزِيرِ عِنْدَهُمْ بِالنَّظَرِ فِي الْجَبَايَةِ.

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَنْفَقُوا اسْمَ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أَصْنَافاً، وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيْرًا، فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ الْمَالِ وَزِيْرًا، وَلِلتَّرْسِيلِ وَزِيْرًا، وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ الْمُتَظَلِّمِينَ وَزِيْرًا، وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ الثَّغُورِ وَزِيْرًا، وَجَعَلَ لَهُمْ بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فَرْشٍ مُنْضَدَةٍ لَهُمْ، وَيُنْفِذُونَ أَمْرَ السُّلْطَانِ هُنَاكَ كُلُّ فِيمَا جَعَلَ لَهُ، وَأَفْرَدَ لِلتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، ارْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةِ السُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَارْتَفَعَ

مَجْلِسُهُ عَنْ مَجَالِسِهِمْ، وَخَصُّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ. وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ، فَارْتَفَعَتْ خُطَّةُ الْحَاجِبِ وَمُرْتَبَتُهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتَّى صَارَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ يَتَحَلَّوْنَ لِقَبْلِهَا فَأَكْثَرَهُمْ يَوْمِئِذٍ يَسْمَى الْحَاجِبَ كَمَا نَذَكْرُهُ.

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشُّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَكَانَ لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوخٌ فِي الْبَدَاوَةِ، فَأَغْفَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخُطَطِ أَوَّلًا، وَتَنَقَّيْحَ أَسْمَائِهَا، حَتَّى أَدْرَكَتْ دَوْلَتُهُمُ الْحَضَارَةَ، فَصَارُوا إِلَى تَقْلِيدِ الدَّوْلَتَيْنِ قَبْلَهُمْ فِي وَضْعِ أَسْمَائِهَا، كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ.

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَغْفَلَتْ الْأَمْرَ أَوَّلًا لِلْبَدَاوَةِ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى اتِّحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ، وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ، ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوهَا فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ، وَاخْتَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانُ فِي مَجْلِسِهِ، وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ الْدَاخِلِينَ [ظ ١٠٣/١] عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي تَحِيَّتِهِمْ وَخِطَابِهِمْ، وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُونِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَفَعُوا خُطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا شَاؤُوا، وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ.

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيُسَمَّوْنَ هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى حُدُودِ الْآدَابِ فِي اللَّقَاءِ وَالتَّحِيَّةِ فِي مَجَالِسِ السُّلْطَانِ وَالتَّقَدُّمِ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ: الدَّوَيْدَارَ، وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِبَاعَ كَاتِبِ السَّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ، وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ يَشَاءُ.

الْحِجَابَةُ: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانُ عَنِ الْعَامَّةِ، وَيَغْلُقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى قَدَرِهِ فِي مَوَاقِيتِهِ. وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةً يَوْمًا<sup>(١)</sup> عَنِ الْخُطَطِ مَرْوُوسَةً لَهَا؛ إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ فِيهَا بِمَا يَرَاهُ. وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ، فَهِيَ بِمَصْنَعِ مَرْوُوسَةٍ لِصَاحِبِ الْخُطَّةِ الْعَلِيِّ الْمُسَمَّى: بِالنَّائِبِ، وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانُ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمِنْ دُونِهِمْ. فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ، كَابْنِ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَّابِهِمْ. ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْاِسْتِبْدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَرَ الْمُسْتَبِدُّ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لَشَرْفِهَا، فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامَرَ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ. وَلَمَّا بَدَّوْا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ، جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ، فَلَمْ يَتْرَكُوا لِقَبْلِهَا، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ. وَكَانَ أَعْظَمُهُمْ مَلِكًا بَعْدَ اتِّحَالِ أَلْقَابِ الْمَلِكِ وَأَسْمَائِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ، يَعْنُونَ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ.

ويدلُّون بالحجاجة على حجابة السُّلطان عن العامة والخاصة، وبذي الوزارتين عن جمعه لخطي السيف والقلم. ثم لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداءة التي كانت فيهم، وربما يوجد في دولة العبيدين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل. ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب، وتمييز الخطط، وتعيينها بالأسماء، إلا آخرًا. فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير. فكانوا أولاً يخصُّون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسُّلطان، في خاص أمره، كابن عطية وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك النظر في الحساب، والأشغال المالية. ثم صار بعد ذلك اسم الوزير، لأهل نسب الدولة من الموحدين، كابن جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفًا في دولتهم يومئذ.

وأما بنو أبي حفص بأفريقية، فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً، والتقدم [ظ ١٠٣/٢] لوزير الرأي والمشورة؛ وكان يخصُّ باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، واختصَّ الحسب والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوكِّلها بصاحب الأشغال، ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج، ويحاسب ويستخلص الأموال، ويعاقب على التفريط. وكان من شرطه أن يكون من الموحدين. واختصَّ عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل، ويؤمن على الأسرار، لأن الكتابة لم تكن من متجلى القوم، ولا الترسيل بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب.

واحتاج السُّلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان<sup>(١)</sup> خاص بداره، في أحواله يجريها على قدرها، وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرهما، وحصر الذخيرة، وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، فخصَّوه باسم الحاجب، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات، إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه غيره.

واستمر الأمر على ذلك، وحجب السُّلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس، وبين أهل الرتب كلهم، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب، ثم الرأي والمشورة، فصارت الخطبة أرفع الرتب وأوعبها للخطط.

ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السُّلطان الثاني عشر منهم، ثم استبدَّ بعد ذلك حفيده السُّلطان أبو العباس على نفسه، وأذهب آثار الحجر والاستبداد يذهب خطبة الحجابة التي كانت سُلماً إليه، وباشراً أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد. والأمر على ذلك لهذا العهد.

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرِينٍ، فَلَا أَثَرَ لِاسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدِهِمْ. وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ، وَرَتَبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا، وَإِنْ اخْتَصَّتْ بَعْضُ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنِعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ، وَقَدْ تَجَمُّعَ عِنْدَهُمْ، وَقَدْ تَفَرَّقَ.

وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحُجُبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ، فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ، فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمَرْوَارِ، وَمَعْنَاهُ: الْمَقْدَّمُ عَلَى الْجُنَادِ الرَّائِسُ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ، وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ، وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ، وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ، وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ. فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ، فَكَانَهَا وَزَارَةً صُغْرَى.

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِّ، فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لشيءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمَيِّزَ الْخُطَطِ، لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا، وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مَنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ، كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ [١٠٤٠/١]، وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحُسْبَانُ وَالسَّجَلُ كَمَا كَانَ فِيهَا. حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبِعَتِهَا، وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ، فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحُسْبَانِ وَتَنْفِيزِ خَاصِّ<sup>(١)</sup> السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ. وَأَمَّا الْوَزِيرُ: فَكَالْوَزِيرِ، إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ. وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خَطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ.

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ، فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمِ أَهْلِ الشُّوَكَةِ، وَهُمْ التُّرْكُ يَنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ، وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ. وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظَيْفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَلَامَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ، وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيُثَبِّتُهَا، وَتَنْفِذُ أَوَامِرِهِ كَمَا تَنْفِذُ الْمَرَامِسُ السُّلْطَانِيَّةُ، وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمَطْلُوقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ. وَلِلْحَاجِبِ الْحُكْمُ فَقَطْ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ، وَإِجْبَارُ مَنْ أَبَى الْإِنْقِيَادَ لِلْحُكْمِ، وَطُورُهُمْ تَحْتَ طُورِ النِّيَابَةِ. وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جَزْيَةٍ، ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْجَرَائِيَتِ الْمَقْدَرَةِ، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعَمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ الْجَبَايَةِ وَالتَّنْفِيزَ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ.

ومن عوائدهم أن يكونَ هذا الوزير من صنفِ القبط، القائمينَ على ديوانِ الحُسبانِ والجبايةِ، لاختصاصهم بذلك في مصرَ منذُ عصورٍ قديمةٍ. وقد يُؤلِّفها السُّلطانُ بعضَ الأحيان لأهلِ الشُّوكَةِ من رجالِ التُّركِ أو أبنائهم على حسبِ الدَّاعيةِ لذلك. والله مدبِّرُ الأمورِ ومُصَرِّفُها بحكمتِهِ، لا إلهَ إلا هو رَبُّ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ.

**ديوانُ الأَعْمَالِ وَالْجَبَايَا:**

**إِغْلَمَ:** أنَّ هذهَ الوظيفةَ من الوظائفِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْمُلِكِ، وهي القِيَامُ على أعمالِ الجباياتِ وحفظِ حُقوقِ الدَّوْلَةِ في الدَّخْلِ والخَرْجِ، وإحصاءِ العَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وتقديرِ أرزاقِهِمْ وصرفِ أعطياتِهِمْ في إبانَتِها<sup>(١)</sup>، والرُّجُوعِ في ذلك إلى القَوَانِينِ الَّتِي يَرْتَبُهَا<sup>(٢)</sup> قَوَمَةُ تلكِ الأَعْمَالِ، وقَهَّارمةِ<sup>(٣)</sup> الدَّوْلَةِ، وهي كلها مسطُورةٌ في كتابِ شاهدٍ بتفاصيل ذلك في الدَّخْلِ والخَرْجِ، مبني على جزءٍ كبيرٍ من الحسابِ لا يقومُ به إلا المهرةُ من أهلِ تلكِ الأَعْمَالِ، ويُسمَّى ذلك الكتابُ بِالْديوانِ، وكذلك مكانُ جلوسِ العُمَالِ المباشرين لها.

**وَيُقَالُ:** إِنَّ أَصْلَ هذهِ التَّسْمِيَةِ أن كسرى نظَرَ يوماً إلى [ظ ١٠/٢] كتابِ ديوانِهِ، وهم يَحْسِبُونَ مع<sup>(٤)</sup> أنفُسِهِمْ كأنَّهُمْ يُحَادِثُونَ، فقال: ديوانِهِ، أي مجانين بلغة الفرس، فَسُمِّيَ موضعُهُمْ بذلك، وحذفتِ الهاءُ لكثرةِ الاستعمالِ تخفيفاً فقلَّ ديوانٌ، ثُمَّ نَقَلَ هذا الاسمُ إلى كتابِ هذهِ الأَعْمَالِ المتضمِّنِ للقوانينِ والحُسبانَاتِ.

**وَقِيلَ:** إِنَّهُ اسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ، سُمِّيَ الْكِتَابُ بِذلك لِسُرْعَةِ نَفُوذِهِمْ في فهمِ الأمورِ، وَوُقُوفِهِمْ على الجَلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ، وجمعَهُمْ لما شَدَّ وتفرَّقَ، ثُمَّ نَقَلَ إلى مكانِ جُلُوسِهِمْ<sup>(٥)</sup> لتلكِ الأَعْمَالِ.

وعلى هذا فيتناول اسمُ الدِّيوانِ كُتَّابَ الرِّسَالِ، ومكانَ جُلُوسِهِمْ ببابِ السُّلطانِ على ما يأتِي بعد.

وقد تُفَرَّدُ هذه الوظيفةُ بناظرٍ واحدٍ، ينظرُ في سائرِ هذهِ الأَعْمَالِ، وقد يفرَّدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بناظرٍ، كما يُفَرَّدُ في بعضِ الدُّوَلِ النظرُ في العساكرِ وإقطاعاتِهِمْ وحُسبانِ أعطياتِهِمْ، أو غير ذلك على حسبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وما قرَّره أوَّلُوها.

١ - أي: في مواعيدها.

٢ - أي: يسنها.

٣ - جمع قهرمان... وهو الخادم الخاص. ويفيد السياق أن هؤلاء القهارة كانوا بمثابة الخبراء في ترتيب تلك القوانين.

٤ - في ن: على.

٥ - في ن: جلوسه.



واعلم أنَّ هذه الوظيفة، إنَّما تحدثُ في الدَّولِ عند تمكُّن الغلبِ والاستيلاءِ، والنَّظرِ في أعطافِ الملكِ وفنون التمهيد.

وأوَّلُ من وضع الدِّيوانِ في الدَّولةِ الإسلامية عمرُ رضي الله عنه يُقالُ: لسبب مالٍ أتى به أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين، فاستكثروه وتعبوا في قسمه، فسَمَّوا إلى إحصاء الأموال وضبطِ العطاء والحقوق، فأشارَ خالدُ بنُ الوليدِ بالدِّيوانِ وقال: رأيتُ ملوكَ الشَّامِ يدوِّنون، فقبلَ منه عمرُ.

وقيل: بل أشارَ عليه به الهُرْمُزَانُ<sup>(١)</sup> لما رآه يبعثُ البعوثَ بغيرِ ديوانٍ، ف قيل له: ومن يعلمُ غيبَةَ من يغيب منهم؟ فإنَّ من تخلفَ أخلَّ بمكانه. وإنَّما يضبطُ ذلك الكتابُ. فأثبت لهم ديواناً. وسألَ عمرُ عن اسمِ الدِّيوانِ، فعبَّرَ له، ولَمَّا اجتمع ذلك أمرَ عَقِيلَ بنِ أبي طالبٍ ومخرمة بنِ نوفلٍ وجُبَيْرِ بنِ مطعمٍ، وكانوا من كُتَّابِ قريشٍ، فكتبوا ديوانَ العساکِرِ الإسلامية، على ترتيبِ الأنسابِ مُبتدأً من قرابةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وما بعدها الأقربُ، فالأقرب. هكذا كان ابتداءُ ديوانِ الجيشِ. وروى الزُّهريُّ عن سعيد بن المسيب: أنَّ ذلك كان في الحَرَمِ سنة عشرين.

وأما ديوانُ الخراجِ والجباياتِ فبقيَ بعد الإسلام، على ما كان عليه من قبل، ديوانُ العِراقِ بالفارسيَّةِ؛ وديوانُ الشَّامِ بالروميَّةِ؛ وكتابُ الدَّواوين من أهلِ العهدِ من الفريقين. ولَمَّا جاءَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ واستحالَ الأمرُ مُلكاً، وانتقلَ القومُ من غضاضةِ البدوةِ إلى رونقِ الحضارةِ، ومن سداجةِ الأُمِّيَّةِ إلى حذقِ الكتابةِ، وظهرَ في العربِ ومواليهم مهرةٌ في الكتابِ والحسبانِ، فأمرَ عبدُ الملكِ سُليمانُ بنُ سعدٍ - والي الأَرْدُنِّ لعَهده - أن ينقلَ ديوانَ الشَّامِ إلى العربيَّةِ، فأكملهُ لِسنةٍ من يومِ ابتدائه [ظ ١٠٥/١]، ووقفَ عليه سَرَجونُ كاتبُ عبدِ الملكِ، فقال لِكُتَّابِ الرُّومِ: اطلبُوا العيشَ في غيرِ هذه الصَّناعةِ، فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوانُ العِراقِ فأمرَ الحَجَّاجُ كاتبهُ صالحُ بنَ عبدِ الرَّحْمَنِ، وكان يكتبُ بالعربيَّةِ والفارسيَّةِ، ولَقِّنَ ذلكَ عن زاذانِ فروخِ كاتبِ الحَجَّاجِ قبلَهُ، ولَمَّا قتلَ زاذانُ في حربِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ الأشعثِ استخلفَ الحَجَّاجُ صالِحاً هذا مكانَهُ، وأمرَهُ أن ينقلَ الدِّيوانَ من الفارسيَّةِ إلى العربيَّةِ ففعل، ورَغِمَ لذلكَ كُتَّابُ الفرسِ، وكان عبدُ الحميد بنُ يحيى يقولُ: لله در صالح ما أعظمَ منته على الكتابِ.

ثمَّ جعلت هذه الوظيفةُ في دولة بني العباسِ مُضافةً إلى من كان له النَّظرُ فيه، كما كان شأنُ بني برمكٍ، وبني سهل بنِ نوبختٍ وغيرهم من وزراء الدَّولةِ.

وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش، أو بيت المال في الدخل والخرج، وتمييز النواحي بالصّلح والعنوة، وفي تقليد هذه الوظيفة لمن يكون، وشروط الناظر فيها والكتّاب، وقوانين الحسابات، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية، وهي مسطورة هنالك، وليست من غرض كتابنا، وإنما نتكلّم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه.

وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك، بل هي ثلاثة أركانها؛ لأنّ الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال، فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك.

وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم. وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين، يستقلّ بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاة والعُمّال فيها، ثمّ تنفيذها على قدرها، وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال. وكان ربّما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يُحسنها.

ولما استبدّ بنو أبي حفص بأفريقية، وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات، وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس، مثل بني سعيد، أصحاب القلعة، جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن، فاستكفوا بهم في ذلك، وجعلوا لهم النّظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس، ودالوا<sup>(١)</sup> فيها بينهم وبين الموحدين، ثمّ استقلّ بها أهل الحساب والكتّاب وخرجت عن الموحدين. ثمّ لما استغلّظ أمر الحاجب، ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدّولة، تعطلّ هذا الرسم، وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب، وأصبح من جملة الجباة [٥٥/٢]، وذهبت تلك الرّئاسة التي كانت له في الدّولة.

وأما دولة بني مُرّين، لهذا العهد فحُسابُ العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرّتب هو الذي يُصحّح الحُسابات<sup>(٢)</sup> كلّها، ويرجع إلى ديوانه، ونظره مُعقّب بنظر السّلطان أو الوزير، وخطّه معتبر في صحّة الحُساب في الخراج والعطاء. هذه أصول الرّتب والخطط السلطانية، وهي الرّتب العالية، التي هي عامّة النّظر ومباشرة للسّلطان.

وأما هذه الرّتبة في دولة التّرك، فمتنوعة. وصاحب ديوان العطاء يعرفُ بناظر الجيش. وصاحب المال مخصّصٌ باسم الوزير، وهو الناظر في ديوان الجباية العامّة للدّولة، وهو

١ - أي: تداولوها فيما بينهم.

٢ - في ن: (الحسّات).

أعلى رُتب الناظرين في الأموال، لأنَّ النَّظَرَ في الأموال عندهم يَتَنَوَّعُ إلى رُتبٍ كثيرة، لانفساح دولتهم، وعظمة سُلْطَانِهِمْ، واتِّسَاعِ الأموال والجبايات عن أن يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الواحدُ من الرِّجَالِ، وَلَوْ بَلَغَ في الكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ. فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ العامُّ منها هذا المَخْصُوصُ باسم الوزير.

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفُ لِمَوْلَى من موالى السُّلْطَانِ وأهل عَصَبِيَّتِهِ وأَرْبَابِ السُّيُوفِ في الدَّوْلَةِ، يرجعُ نظرُ الوزيرِ إلى نظره، ويجتهدُ جهدهُ في مُتَابَعَتِهِ، وَيُسَمَّى عندهم أَسْتَاذُ الدَّوْلَةِ، وهو أحدُ الأُمَرَاءِ الأكابرِ في الدَّوْلَةِ من الجُنْدِ، وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ. ويتبعُ هذه الخُطَّةَ خُطَطٌ عندهم أخرى كُلُّها راجعةٌ إلى الأموال والحُسْبَانِ، مَقْصُورَةٌ النَّظَرُ إلى أمورٍ خاصَّةٍ مثل ناظر الخاصِّ وهو المباشرُ لأموال السُّلْطَانِ الخاصَّةِ به من إقطاعاتِهِ أو سُهْمَانِهِ<sup>(١)</sup> من أموال الخِراجِ وبلادِ الجِبايَةِ، ممَّا ليسَ من أموالِ المسلمين العامَّةِ، وهو تحتَ يدِ الأميرِ أَسْتَاذِ الدَّارِ.

وإن كان الوزيرُ من الجُنْدِ فلا يكونُ لأَسْتَاذِ الدَّارِ نظرٌ عليه. وناظرُ الخاصِّ تحتَ يدِ الخازنِ لأموال السُّلْطَانِ من مَمَالِكِهِ المُسَمَّى خَازِنَ الدَّارِ لاختصاصِ وظيفتهما بِعَمَالِ السُّلْطَانِ الخاصِّ.

هذا بيانُ هذه الخُطَّةِ، بدولةِ التُّرْكِ بِالمَشْرِقِ، بعدَ ما قَدَّمَناهُ من أمرها بِالمَغْرِبِ. واللهُ مُصَرِّفُ الأمورِ لارِبِّ غَيْرُهُ.  
**دِيَوَانُ الرِّسَائِلِ وَالْكِتَابَةِ:**

هذه الوُظَيْفَةُ غيرُ ضروريةٍ في الملكِ لاستغناء كثيرٍ من الدُّوَلِ عنها رَأْسًا، كما في الدُّوَلِ العريقةِ في البداوةِ التي لم يأخذها تهذيبُ الحضارةِ وَلَا استحكامُ الصَّنَائِعِ. وإنَّما أَكَّدَ الحاجةَ إليها في الدَّوْلَةِ الإسلاميةِ، شَأْنُ اللِّسَانِ العربيِّ، والبلاغةِ في العبارةِ عن المقاصدِ، فصارَ الكتابُ يُوَدِّي كنهَ الحاجةِ بأبلغَ من العبارةِ اللِّسانيةِ في الأكثرِ. وكان الكتابُ لِلأَمِيرِ يَكُونُ من أهلِ نَسَبِهِ، ومن عِظَمَاءِ قَبِيلِهِ، كما كان لِلخُلَفَاءِ وأُمَرَاءِ الصَّحَابَةِ بالشَّامِ والعِراقِ [ظ ١٠٦/١] لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ.

فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وصارَ صِنَاعَةُ اخْتِصَافٍ بِمَنْ يُحْسِنُهُ. وكانت عندَ بني العَبَّاسِ رُفِيعَةً، وكان الكتابُ يُصَدَّرُ السَّجَلَاتِ مُطْلَقَةً، ويكتبُ في آخرها اسمُهُ، ويختَمُ عليها بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ، وهو طابَعٌ منقوشٌ فيه اسمُ السُّلْطَانِ أو شارَتُهُ يغمسُ في طِينٍ أَحْمَرَ مَذَابِ بِالماءِ وَيُسَمَّى طِينِ الخَتَمِ، ويطبعُ به على طرفي السَّجَلِ عندَ طَيِّهِ وإصااقِهِ.

ثُمَّ صَارَتِ السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ، وَيُضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عِلَامَتُهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا، عَلَى حَسَبِ الْإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَفْظِهَا.

ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلُ هَذِهِ الْخُطَّةُ بِارْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا، مِنْ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ فِي الدَّوْلَةِ، أَوْ اسْتِدَادِ وَزِيرِ عَلَيْهِ، فَتُصَيِّرُ عِلَامَةً هَذَا الْكِتَابِ مُلْغَاةَ الْحُكْمِ بِعِلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ، يَسْتَدِلُّ بِهَا، فَيَكْتُبُ صُورَةَ عِلَامَتِهِ الْمَعْهُودَةِ، وَالْحُكْمُ لِعِلَامَةِ ذَلِكَ الرَّئِيسِ، كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْخَفْصِيَّةِ، لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ الْحَجَابَةِ، وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ ثُمَّ الْإِسْتِدَادِ، صَارَ حُكْمُ الْعِلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مُلْغَى وَصُورَتِهَا ثَابِتَةً، إِتِبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا. فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسُمُ لِلْكَاتِبِ إِمْضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ يَصْنَعُهُ<sup>(١)</sup> وَيُتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صَيِّغِ الْإِنْفَازِ مَا شَاءَ، فَيَأْتِمُرُ الْكَاتِبُ لَهُ، وَيُضَعُ الْعِلَامَةُ الْمَعْتَادَةُ، وَقَدْ يَخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بَوْضْعَ<sup>(٢)</sup> ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبَدًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْسُمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عِلَامَتَهُ.

وَمِنْ خُطَطِ الْكِتَابَةِ: التَّوْقِيعُ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ وَفَصْلِهِ، وَيُوقِعُ عَلَى الْقَصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامَهَا وَالْفَصْلُ فِيهَا، مُتْلَقًا مِنْ السُّلْطَانِ بِأَوْحَازٍ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ. فَإِمَّا أَنْ تُصَدَّرَ كَذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ يَحْذُو الْكَاتِبُ عَلَى مِثْلِهَا فِي سِجْلِ يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ الْقِصَّةِ. وَيَحْتَاجُ الْمَوْقِعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ.

وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوَقِّعُ فِي الْقَصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ، وَيَرْمِي بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا، فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبَلَاغُ فِي تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَفَنُونِهَا، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ تَبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدَّوَلِ. وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخُطَّةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُتَخَيَّرَ مِنْ أَرْفَعِ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْمَرْوَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةِ الْعِلْمِ وَعَارِضَةِ الْبَلَاغَةِ، فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلنَّظَرِ فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لَمَّا يَعْرِضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمُقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ، مَعَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ مُقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا.

وَقَدْ تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِي بَعْضِ [ظ ١٠٦/٢] الدَّوَلِ مُسْتَدَّةً<sup>(٣)</sup> إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لَمَّا يَقْتَضِيهِ طَبِيعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبَعْدِ عَنْ مَعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ الْعَصَبِيَّةِ، فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِ بِخُطَطِ دَوْلَتِهِ، وَسَائِرِ رُتْبَتِهِ، فَيَقْلُدُ الْمَالَ وَالسَّيْفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ. فَأَمَّا رُتْبَةُ السَّيْفِ فَتُسْتَغْنَى عَنْ مَعَانَاةِ الْعِلْمِ. وَأَمَّا الْمَالَ وَالْكِتَابَةُ فَيُضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ لِلْبَلَاغَةِ فِي هَذِهِ وَالْحُسْبَانِ فِي

١ - فِي ن: (يُضَعُهُ).

٢ - فِي ن: (بِنَفْسِهِ).

٣ - فِي ن: مُسْتَدَّة.

الأخرى، فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة، ويقلّدونه، إلا أنه تكون<sup>(١)</sup> يد آخر من أهل العصبيّة غالباً على يده، ويكون نظره متصرفاً عن نظره، كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق؛ فإنّ الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء، إلا أنه تحت يد أمير من أهل عصبيّة السلطان يعرف بالدويدار. وتعويل السلطان وثوقه به، واستنامته<sup>(٢)</sup> في غالب أحواله إليه، وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة، وتطبيق المقاصد وكتمان الأسرار وغير ذلك من توابعها.

وأما الشروط المعبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب<sup>(٣)</sup> وهي:

أما بعد: حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم!! فإنّ الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء. وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرّزانة<sup>(٤)</sup>. بكم ينتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها. وينصحائكم<sup>(٥)</sup> يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمّر بلدانهم<sup>(٦)</sup>، ولا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فامتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم!!

وليس أحد من أهل الصناعات كلّها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

أيّها الكاتب: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإنّ الكاتب يحتاج في<sup>(٧)</sup> نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمّات أموره، أن يكون حليماً في موضع

١ - في الأصل: (لا تكون) بزيادة لا. وفيه مناقضة للمعنى. وقد حذفه الدكتور وافي في نسخته وهو الصواب.

٢ - اطمئنانه إليه.

٣ - انظرها بتمامها في صبح الأعشى للقلقشدي (٨٥/١ - ٨٩).

٤ - في صبح الأعشى: المروءة والعلم والرواية.

٥ - في صبح الأعشى: بنصائحكم.

٦ - في صبح الأعشى: بلادهم.

٧ - في صبح الأعشى: (من).

الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقدّاماً في موضع الإقدام، مُحجماً في موضع الإحجام، مُؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف، كُتوماً للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق في<sup>(١)</sup> أماكنها. قد نظّر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن<sup>(٢)</sup> لم يُحكّمه أخذ [ظ ١٠٧/١] منه بمقدار ما<sup>(٣)</sup> يكتفي به. يعرف بغريزة عقله وحُسن أدبه وفضل تجربته، ما يردُّ عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدرُ عنه قبل صدوره، فيعدُّ لكل أمر عدته وعَتَادَه، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته.

فتنافسوا - يا معشر الكتاب - في صنوف الآداب. وتفقهوا في الدين وأبدؤوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف<sup>(٤)</sup> أَلَسْتُمْ.

ثم أجدوا الخط؛ فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإنّ ذلك معينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم؛ ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوامُ كتاب الخراج.

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيهاً ودنيهاً، وسفّسافِ الأمور ومحاقرها، فإنها مذلةٌ للرقاب، مفسدةٌ للكتاب، ونزّهوا صناعتكم عن الدناءة<sup>(٥)</sup> واربّؤوا بأنفسكم عن السّعاية والنميمة، وما فيه أهل الجهالات.

وأيّاكم والكبر والسُّخف<sup>(٦)</sup> والعظمة، فإنها عداوةٌ مجتلبةٌ من غير إحنة، وتحابُّوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليقُ لأهل<sup>(٧)</sup> الفضل والعدل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزّمان برجلٍ منكم، فاعطّفوا عليه وآسوه حتّى يرجع إليه حاله، ويثوبَ إليه أمره. وإن أقعد (أحداً منكم)<sup>(٨)</sup> الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظّموه وشاوروه، واستظهروا بفضله تجربته وقديم<sup>(٩)</sup> معرفته.

١ - ليس في صبح الأعشى: (في).

٢ - في ن: وإن.

٣ - ليس في صبح الأعشى: (ما).

٤ - وسيلة تقويمها. والثقاف في الأصل الآلة التي تسوى بها الرماح.

٥ - في صبح الأعشى: الدناءات.

٦ - في صبح الأعشى: (الصلف) وهو أوجه.

٧ - في صبح الأعشى: بأهل.

٨ - في صبح الأعشى: (أحدكم).

٩ - في صبح الأعشى: (قدم).

وليكن الرجلُ منكم على من اصطنعه واستظهرَ به ليوم حاجته إليه أحوطُ منه على ولده وأخيه. فإن عرضت في الشغل حمدةٌ فلا يصرفها<sup>(١)</sup> إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمةٌ فليحملها هو من دونه. وليحذر السَّقطَةَ والزَّلَّةَ والمَلَلَّ عند تغيُّر الحال.

فإن العيبَ إليكم معشرَ الكتابِ أسرعُ منه إلى القراء<sup>(٢)</sup>، وهو لكم أفسدُ منه لهم. فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يئذُلُ له من نفسه ما يجبُ له عليه من حقِّه؛ فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، واحتماله، وخيره<sup>(٣)</sup>، ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاءُ لحقه. ويصدقُ ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه، فاستشعروا (ذلك)<sup>(٤)</sup> وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرِّخاء، والشَّدَّة، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسَّراء، والضَّرَّاء؛ فنعمت الشَّيْمة<sup>(٥)</sup> هذه من<sup>(٦)</sup> وسم بها من أهل هذه الصَّناعة الشَّريفة.

وإذا وليَّ الرجل منكم أو صيرَ إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقاً، وللمظلوم منصفاً، فإنَّ الخلق عيالُ الله وأحبُّهم إليه أرفقهم بعياله. ثم ليكن بالعدل حاكماً وللاشراف مكرماً، وللفيء موفراً، وللبلاد عامراً [ظ ١٠٧/٢]، وللرعيَّة متألِّفاً، وعن أذاهم<sup>(٧)</sup> متخلِّفاً، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلاتٍ خراجِه، واستقضاء حقوقه رفيقاً.

وإذا صحَّب أحدكم رجلاً فليختبر خلأته، فإذا عرف حُسْنها وقبحها، أعانه على ما يوافقه من الحُسْن، واحتال (على صرفه)<sup>(٨)</sup> عما يهواه من القبح<sup>(٩)</sup> بالطف حيلةٍ وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أنَّ سائسَ البهيمة، إذا كان بصيراً بسيَّاستها التمسَ معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحاً<sup>(١٠)</sup> لم يهيجها، إذا ركبها، وإن كانت شَبُوباً<sup>(١١)</sup> اتَّقاها من بين<sup>(١٢)</sup> يديها،

١ - في ن: يصفها. وفي صبح الأعشى: (يضيفها).

٢ - أي: الفقهاء. وفي نسخة وصبح الأعشى: الفراء.. لها.

٣ - في صبح الأعشى: (صبره).

٤ - في صبح الأعشى: (ذلكم).

٥ - في ن: السمة.

٦ - في صبح الأعشى: (لمن).

٧ - في صبح الأعشى: (إيذاتهم).

٨ - في صبح الأعشى: (لصرفه).

٩ - في صبح الأعشى: (القبيح).

١٠ - كثيرة الرفس.

١١ - أي: كثيرة رفع اليدين.

١٢ - في صبح الأعشى: (قبل).

وإن خافَ منها شُرُوداً توقَّاهَا من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً<sup>(١)</sup> قمعَ برفقٍ هوأها في طرقها<sup>(٢)</sup>، فإن استمرت عطفها يسيراً، فَيَسْلُسْ<sup>(٣)</sup> له قيادها. وفي هذا الوصفُ من السَّياسة دلائلُ لمن ساسَ النَّاسَ وعاملهم وجربهم<sup>(٤)</sup> وداخلهم.

والكاتبُ - بفضل أدبه، وشریف صنعته، ولطيفِ حيلته، ومعاملته لمن يُحاورُهُ من النَّاسِ وينظرُهُ ويفهم عنه أو يخاف سطوته - أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير<sup>(٥)</sup> جواباً، ولا تعرفُ صواباً، ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يُصيرُها إليه صاحبها الرَّاكب عليها.

ألا فارفقوا<sup>(٦)</sup> رحمكم الله في النَّظر، واعملوا ما أمكنكم فيه من الرُّويَّة والفكر، تأمنوا بإذن الله، مَن صَحِبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ وَالْإِسْتِقَالَ وَالْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاحَاةِ وَالشَّفَقَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ولا يُجاوزنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبَنَائِهِ وَخِدْمَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ مَعَهُ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتُمْ خِدْمَةً لَا تَحْمِلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ، وَحَفَظَةً لَا تَحْتَمِلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ. وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَاكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ وَقَصَصْتَهُ عَلَيْكُمْ. وَاحْذَرُوا مِتَالِفَ السَّرَفِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ؛ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيَذْلَانِ الرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَلَا سِيَّما الْكِتَابَ وَأَرْبابَ الْأَدَابِ.

وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهُ، وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ، فَاسْتَدْلُوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ<sup>(٧)</sup> أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مُحِجَّةً، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً. وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَازِ عِلْمِهِ<sup>(٨)</sup> وَرُويته؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ؛ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُصْلِحَةٌ لِفَعْلِهِ، وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ. وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَةِ تَوْفِيْقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْديدِهِ، مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلْطِ الْمُضِرِّ بِيَدْنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ.

١ - التي إذا استدير جريها وقفت ولم تستجب.

٢ - في ضربه لها. وفي صبح الأعشى: (طريقها).

٣ - يلين.

٤ - في صبح الأعشى: (خدمهم).

٥ - لا ترد جواباً.

٦ - في صبح الأعشى: (فأمعنوا).

٧ - ما لم يجربوه.

٨ - في صبح الأعشى: عمله.



فإنَّهُ إنْ ظَنَّ بِهِ [ظ ١٠٨/١] مِنْكُمْ ظَانٌّ، أَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنَعَتِهِ، وَقُوَّةِ حِرْكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بَظْنِهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلًّا إِلَى نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأْمَلُهُ غَيْرُ خَافٍ. وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ: إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلَ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صَنَاعَتِهِ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ؛ فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلِينَ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعَجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ <sup>(١)</sup> أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ. وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارِ بِرَأْيِهِ، وَلَا تَزْكِيَةِ لِنَفْسِهِ. وَلَا يَكَاثِرَ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ. وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ.

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزِمُهُ الْعَمَلُ، وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ، وَغَرَّةُ <sup>(٢)</sup> كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ. فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرُهُ، وَتَمَمْتُهُ بِهِ. تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مِنْ سَبَقِ عِلْمِهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ؛ فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

**الشُّرْطَةُ:** وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا هَذَا الْعَهْدُ بِأَفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ، وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبُ الْمَدِينَةِ. وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي.

وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْوُوسَةٌ لَصَاحِبِ السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وَكَانَ أَوَّلُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَائِهَا <sup>(٣)</sup> أَوَّلًا، ثُمَّ الْخُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا، فَإِنَّ التَّهْمَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا، وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يَكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَفَتْ بِهِ الْقَرَأَتُ لِمَا تَوَجَّبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ. فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهِذَا الْاسْتِبْدَاءُ <sup>(٤)</sup> وَيَاسْتِيفَاءُ الْخُدُودَ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشُّرْطَةِ. وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْخُدُودِ وَالْدَّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ، وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي، وَنَزَّهُوا هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ الْقَوَادِ وَعِظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ.

١ - فِي الْأَصْلِ: (أَصْحَابِهِ) وَالتَّصْحِيحُ مِنْ صَبِيحِ الْأَعْشَى.

٢ - أَحْسَنُ مَا فِيهِ.

٣ - فِي ن: اسْتِبْدَادُهَا.

٤ - فِي ن: الْاسْتِبْدَادُ.

ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدَّهْماء وأهل الريب، والضَّربُ على أيدي الرِّعَاع والفجرة.

ثمَّ عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوَّعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى. وجعل حكم الكبرى على الخاصَّة والدَّهْماء وجعل له الحكمُ على أهل المراتب السُّلْطانية والضَّربُ على أيديهم في الظَّلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه؛ وجعل [٢/١٠٨] صاحب الصُّغرى مخصوصاً بالعامَّة. ونصبَ لصاحب الكبرى كرسيَّ بباب دار السُّلْطان، ورجالٌ يتبوَّؤون المقاعدَ بين يديه فلا يرحون عنها إلا في تصريفه، وكانت ولايتها للأكابر من رجال الدَّولة، حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وأما في دولة الموحِّدين بالمغرب، فكانَ لها حظٌّ من التنويه، وإن لم يجعلوها عامَّةً، وكان لا يليها إلا رجال الدَّولة الموحِّدين وكبرائهم ولم يكن له التحكُّمُ على أهل المراتب السُّلْطانية.

ثم فسدَ اليوم منصبها، وخرجت عن رجال الموحِّدين، وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.

وأما في دولة بني مرِّين، لهذا العهد بالشرق، فولايتها في بيوت مواليتهم وأهل اصطناعهم.

وفي دولة التُّرك بالشرق في رجال الدَّولة أو أعقاب أهل الدَّولة قبلهم من الكرْد<sup>(١)</sup> يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصَّلابَةِ والمضاء في الأحكام، لقطع موادِّ الفساد وحسم أبواب الدَّعارة، وتخريب مواطن الفُسُوق وتفريق مجامعه، مع إقامة الحدود الشرعية والسِّياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامَّة في المدينة. والله مقلبُ اللَّيل والنَّهار، وهو العزيز الجبار. والله تعالى أعلم.

قيادة الأساطيل: وهي من مراتب الدَّولة وخططها في ملك المغرب وأفريقية، ومرووسة لصاحب السَّيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال، ويُسمَّى صاحبها في عرفهم: الملند<sup>(٢)</sup> بتفخيم اللام، منقولاً من لغة الإفرنجية، فإنَّه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب؛ لأنهما جميعاً على ضِفَّة البحر الرُّومي من جهة الجنوب، وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى الشَّام، وعلى

١ - في ن: الترك.

٢ - في ن: البلمند.

عدوته الشماليّة بلاد الأندلس والإفرنجة والصّقالبة والرُّوم إلى بلاد الشّام أيضاً، ويُسمّى البحر الرُّوميّ والبحر الشّامي نسبة إلى أهل عدوته.

والسّاكنون بسيف<sup>(١)</sup> هذا البحر، وسواحلّه من عدوتيّه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمّة من أمم البحار. فقد كانت الرُّوم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشماليّة من هذا البحر الرُّوميّ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرةً في ركوبه، والحرب في أساطيله. ولما أسف<sup>(٢)</sup> من أسف منهم إلى ملك العدوّة الجنوبيّة مثل الرُّوم إلى أفريقيّة، والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وملكوها، وتغلبوا على البربر بها، وانتزعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيبطة وجلولاء ومرناق وشّرشال وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يُحاربُ صاحب رومة، ويبحث الأساطيل [ظ ١٠٩/١] لحربه مشحونة بالعساكر والعدد. فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر السّاكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث.

ولما ملك المسلمون مصر، كتبَ عمرُ بن الخطّاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن صف لي البحر، فكتبَ إليه: إنّ البحر خلقٌ عظيمٌ، يركبه خلقٌ ضعيفٌ، دودٌ على عودٍ. فأوعزَ حينئذٍ بمنع المسلمين من ركوبه، ولم يركبه أحدٌ من العرب، إلا من افتات على عمر في ركوبه، ونال من عقابه كما فعل بعرفة بن هرثة الأزديّ سيّد بجيلة، لما أغراه عمّان فبلغه غزوه في البحر، فأنكر عليه وعنفه أنّه ركب البحر للغزو.

ولم يزل الشّأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه، والجهاد على أعواده. والسّبب في ذلك أن العرب لبدواتهم لم يكونوا أوّل الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والرُّوم والإفرنجة لممارستهم أحواله، ومرباهم في التّقلب على أعواده، مرنوا عليه، وأحكموا الدّراية بثقافته.

فلما استقرّ الملك للعرب، وشمخ سُلطانهم، وصارت أمم العجم خولاً لهم، وتحت أيديهم، وتقرّب كلُّ ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النّواتيّة في حاجاتهم البحريّة أمماً، وتكرّرت ممارستهم للبحر وثقافته، واستحدثوا بصراً بها، فشرّهوا إلى الجهاد فيه، وأنشؤوا السفن فيه والشّواني<sup>(٣)</sup>، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسّلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشّام وأفريقيّة والمغرب والأندلس.

١ - يساحله.

٢ - أسف: تتبع مذاق الأمور.

٣ - المراكب الحربيّة

وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية، باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا، وفتح قوصرة أيضاً في أيامه بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن الفرات. وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب.

وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مثنى مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه، وكان قائد الأساطيل بالأندلس، ابن رماحس، ومرفأها للخط والإقلاع بجاية والمرية، وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطولاً يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه [ظ ١٠٩/٢] ومقاتلته، ورائس<sup>(١)</sup> يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل<sup>(٢)</sup> أو غرض سُلطاني مهم، عسكرت عرفت من المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته، يرجعون كلهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم، ويتنظرون إيابهم بالفتح والغنيمة.

— وكان المسلمون لعهد<sup>(٣)</sup> الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرس، وسائر ممالك الروم والإفرنج. وكان أبو القاسم الشيعي وأبناءؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنيمة. وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردينيا في أساطيله سنة خمس وأربع مئة، وارتجعها النصاري لوقتها. والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وصارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو

١ - في ن: رئيس.

٢ - أي: مجتمع.

٣ - في ن: (لعهد).

الشَّمالِيَّة، فتوقعُ مملوكُ الأفرنج، وتُتخَنُ في ممالكهم، كما وقع في أيام بني الحُسين، مملوكُ صِقْلِيَّةِ القَائِمِينَ فيها بدعوة العبيديين. وانحازت أمم النصرانيَّة بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنج والصَّقالبة وجزائر الرومانيَّة لا يعدونها، وأساطيلُ المسلمين قد ضُرِبَتْ عليهم ضُرَاءٌ<sup>(١)</sup> الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عُدةً وعدداً، واختلفت في طرفه سلماً وحرباً، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواحٌ.

حتى إذا أدركَ الدَّولة العبيديَّة والأُمويَّة الفشلُ والوهنُ، وطرقها الاعتلالُ، مدَّ النَّصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقيَّة مثل صِقْلِيَّة وأفريطش ومالطة فملكوها، ثمَّ ألحوا على سواحل الشَّام في تلك الفترة وملكوا طرابلسَ وعسقلانَ وصورَ وعكا، واستولوا على جميع الثغورِ بسواحلِ الشَّام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا عليه كنيسةً لمظهر<sup>(٢)</sup> دينهم وعبادتهم، وغلبوا بني خرزون على طرابلس، ثم على قابسَ وصفاقسَ، ووضعوا عليهم الجزية، ثم ملكوا المهديَّة مقرَّ مملوك العبيديين، من يد أعقاب بلكين بن زيري. وكانت لهم في المئة الخامسة الكثرة بهذا البحر [ظ. ١١٠/١]. وضعف شأنُ الأساطيل في دولة مصر والشَّام، إلى أن انقطع، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدَّولة العبيدية عنايةٌ تجاوزت الحدَّ، كما هو معروف في أخبارهم. فبطلَ رسم هذه الوظيفة هنالك، وبقيت بأفريقيَّة والمغرب، فصارت مختصةً بها.

وكان الجانبُ الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفورَ الأساطيل، ثابت القوة لم يتحيَّفه عدوٌّ، ولا كانت لهم به كثرةٌ، فكان قائدُ الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم، وانتهى عدد أساطيلهم إلى المئة من بلادِ العدوتين جميعاً.

ولما استفحلت دولة الموحدين في المئة السادسة، وملكوا العدوتين، أقاموا خطة هذا الأسطول، على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وكان قائد أسطولهم أحمد الصِّقْلِي أصله من ضدغيار الوطنين بجزيرة جربة من سرويكش. أسرهُ النَّصارى من سواحلها، وربِّيَ عندهم، واستخلصه صاحب صِقْلِيَّة، واستكفاه، ثم هلكَ وولى ابنه، فأسخطه ببعض التزعات وخشيَ على نفسه، ولحق بتونس، ونزل على السَّيد بها من بني عبد المؤمن، وأجاز مراكش فتلَّقه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة، وأجزل الصِّلَّة وقلده أمرَ أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثارٌ وأخبارٌ ومقاماتٌ مذكورة في

دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستحادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد، فيما عهدناه.

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب، ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه، تنابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس، الذي كانوا قد استولوا عليه، فأمدوهم بالعدد والأقوات، ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية، لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحرية، وتعدّد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل. فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهدده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر، وكان ملكها من أيديهم، وأبقى عليهم في دولته، فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل، لتحول في البحر بين أساطيل الكفرة<sup>(١)</sup> وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام، وأصحبه كتابه [ظ ١١٠/٢] إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه: فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن. حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القيسي.

فَنَقِمَ عليهم المنصور تخافهم عن خطابه بأمر المؤمنين، وأسرّها في نفسه، وحملهم على مناهج البر والكرامة وردّهم إلى مرسيلهم، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك. وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل، وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة.

ولما هلك أبو يعقوب المنصور، واعتلت دولة الموحدين، واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، وأجروا المسلمين إلى سيف<sup>(٢)</sup> البحر، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي، قويت ريجهم في بسيط هذا البحر، واشتدت شوكتهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل غدة النصرانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة، ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب، وانقطاع العوائد الأندلسية، ورجع النصارى فيه إلى دينهم

المعروف من الدُّرْبَةِ فيه، والمِرَانُ عليه، والبَصَرُ بأحواله، وَغَلَبَ الأُمَمُ فِي لَجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ، وصار المسلمون فيه كالأجانب، إِلَّا قَلِيلاً مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ، لَوْ جَدُوا كَثْرَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ، أَوْ قُوَّةً<sup>(١)</sup> مِنَ الدَّوْلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَاناً، وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًَ. وَبَقِيَتِ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدَّوْلَةِ الْغَرِيبَةِ مُحْفُوظَةً، وَالرَّسْمُ فِي مَعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْهُوداً، لَمَّا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُوا إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ السُّلْطَانِيَةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبِئُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ. فَمِنْ الْمَشْتَهَرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحَدِثَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَةِ، وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

## ١-٣-٣٥- الفصل الخامس والثلاثون

## في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم: أنَّ السيفَ والقلمَ كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعينُ بها على أمره. إلا أنَّ الحاجةَ في أوَّل الدولة إلى السيف - ما دَامَ أهلها في تمهيد أمرهم - أشدَّ من الحاجة إلى القلم، لأنَّ القلمَ في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك في المعونة. وكذلك في آخر الدولة، حيث تضعف عصبيتهما<sup>(١)</sup> كما ذكرناه، ويقل [ظ ١١١/١] أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدَّمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها، كما كان الشأن أوَّل الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين، ويكون أرباب السيف حينئذٍ أوسع جاهاً، وأكثر نعمة، وأسنى إقطاعاً.

وأما في وسط الدولة، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف، لأنَّه قد تمهد أمره، ولم يبقَ همُّه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط، ومباهاة الدول، وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه، وتكون السيوف مهمة في مضاجع أعمادها، إلا إذا أنابت<sup>(٢)</sup> نائبة، أو دُعيت إلى سدِّ فرجة، وما سوي ذلك، فلا حاجة إليها. فتكون أرباب الأقاليم في هذه الحاجة أوسع جاهاً، وأعلى رتبة، وأعظم نعمة وثروة، وأقرب من السلطان مجلساً وأكثر إليه تردداً، وفي خلواته نجياً؛ لأنَّه<sup>(٣)</sup> حينئذٍ آلتُ التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافه، والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئذٍ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان، حزينين على أنفسهم من بؤاده.

وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدم: أمَّا بعد: فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس، أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. سنة الله في عبادته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

١ - في ن: عصبيتها.

٢ - في ن: (دعت).

٣ - يعني القلم



## ١-٣-٣٦. الفصل السادس والثلاثون

## في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِعْلَمَ: أَنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالاً تَقْتَضِيهَا الْأُبْهَةُ وَالْبَذَخُ، فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بَانْتِحَالِهَا عَنِ الرَّعِيَّةِ وَالْبَطَانَةِ، وَسَائِرِ الرُّوسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ، فَلَنَذَكُرَ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

الآلَة: فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ، مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ، وَقِرْعِ الطُّبُولِ وَالنَّفْخِ فِي الْأَبْوَاقِ وَالْقُرُونِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي الْكِتَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ<sup>(١)</sup>: أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ إِرْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النَفُوسِ بِالرَّوْعَةِ. وَلِعَمْرِي إِنَّهُ أَمْرٌ وَجَدَانِيٌّ، فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ، يَجِدُّهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو - إِنْ كَانَ ذِكْرُهُ - فَهُوَ صَحِيحٌ بَعْضُ الْاِعْتِبَارَاتِ.

وَأَمَّا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ: أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النِّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ، يَدْرِكُهَا الْفَرْحُ وَالطَّرَبُ بِلَا شَكٍّ، فَيَصِيبُ مَزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَسْهَلُ بِهَا الصَّعْبُ، وَيَسْتَمِيتُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ فَاَنْفَعَالِ الْإِبِلِ بِالْحَدَاءِ [ظ ١١١/٢]، وَالْخَيْلِ بِالصَّفِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي الْغَنَاءِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى. لِأَجْلِ ذَلِكَ، تَتَّخِذُ الْعُجْمُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ<sup>(٢)</sup> لَا طَبْلًا وَلَا بُوقًا؛ فَيُحْدِقُ الْمَغْنُونُ بِالسُّلْطَانِ فِي مَوَكِبِهِ بِآلَاتِهِمْ، وَيَغْنُونُ فَيَحْرُكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْاِسْتِمَاتَةِ.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ الْعَرَبِ، مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوَكِبِ بِالشُّعْرِ وَيُطَرَّبُ، فَتَجِيشُ هَمِّ الْأَبْطَالِ بِمَا فِيهَا، وَيُسَارِعُونَ إِلَى جِهَالِ الْحَرْبِ، وَيَنْبَعِثُ كُلُّ قَرْنٍ<sup>(٣)</sup> إِلَى قَرْنِهِ. وَكَذَلِكَ زِنَاتَةٌ مِنْ أُمَمِ الْمَغْرِبِ يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ، وَيَتَغَنَّى فَيَحْرِّكُ بَغْنَائِهِ الْجِبَالَ الرَّوَاسِي، وَيَبْعَثُ عَلَى الْاِسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا، وَيُسْمُونَ ذَلِكَ الْغَنَاءَ تَاصُو كَايَتَ، وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرْحٌ يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ، فَتَنْبَعِثُ عَنْهُ الشَّجَاعَةُ، كَمَا تَنْبَعِثُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا مِنَ الْفَرْحِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

١ - السياسة في تدبير الرياسة ص: ١٤٨.

٢ - علق الهوريني بقوله: قوله: الموسيقى وفي نسخة: الموسيقارية وهي صحيحة لأن الموسيقى بكسر القاف بين التحييتين اسم للنغم والألحان وتوقعها ويقال فيها: موسيقير، ويقال لضارب الآلة: موسيقار.

٣ - القرن: المثلث والمكافئ.

وَأَمَّا تَكثِيرُ الرَّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا، فَالْقَصْدُ بِهِ التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ، وَرُبَّمَا تَحَدَّثُ فِي النُّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْإِقْدَامِ، وَأَحْوَالِ النُّفُوسِ وَتَلَوْنَاتُهَا غَرِيبَةٌ، وَاللَّهُ ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦ يس: ٨١].

ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالْدُّوْلَ، يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ، فَمِنْهُمْ مُكْثَرٌ، وَمِنْهُمْ مُقَلِّلٌ، بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدُّوْلَةِ وَعَظَمِهَا.

فَأَمَّا الرَّايَاتُ فَإِنَّهَا شَعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ، وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْغَزَوَاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ.

وَأَمَّا قِرْعُ الطُّبُولِ وَالنَّفْخُ فِي الْأُبُوقِ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ الْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنْزِيهاً عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ، وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ، وَاحْتِقَاراً لِأُبْهَتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ مُلْكاً، وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، وَابَسَهُمُ الْمَوَالِي مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ أَهْلَ الدُّوْلِ السَّالِفَةِ، وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أَوْلَئِكَ يَتَحَلَوْنَهُ مِنْ مِزَاجِ الْبَذَخِ وَالتَّرَفِ، فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذَ الْآلَةِ، فَأَخَذُوهَا وَأَذْنُوا لِعُمَاهُمْ فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِالْمَلِكِ وَأَهْلِهِ.

فكَثِيرًا مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الثَّغَرِ، أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ يَعْقِدُ الْخَلِيفَةَ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ أَوْ الْعُبَيْدِيِّينَ لَوَاءَهُ، وَيَخْرُجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرَّايَاتِ وَالْآلَاتِ، فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ الْعَامِلِ وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا، أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ، كَالسَّوَادِ فِي رَايَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُودًا، حُزْنَاً عَلَى شَهَادَتِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَنَعِيًا عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ، وَلِذَلِكَ سُمُّوا الْمُسَوَّدَةَ.

وَلَمَّا افْتَرَقَ [ظ ١١٢/١] أَمْرُ الْهَاشِمِيِّينَ، وَخَرَجَ الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصُرَ، ذَهَبُوا إِلَى مَخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَاتَّخَذُوا الرَّايَاتَ بَيَاضاً، وَسُمُّوا الْمُبَيَّضَةَ لِذَلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ الْعُبَيْدِيِّينَ، وَمِنْ خَرَجِ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرَسْتَانَ، وَدَّاعِي صَعْدَةَ، أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بَدْعَةِ الرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ.

وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ، عَدَلَ إِلَى لَوْنِ الْخَضِرَةِ، فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضِرَاءً.

وَأَمَّا الْاسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ، وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَى فَتْحِ الشَّامِ، خَمْسَ مِئَةٍ مِنَ الْبُنُودِ، وَخَمْسَ مِئَةٍ مِنَ الْأُبُوقِ.

وَأَمَّا مُلُوكُ الْبَرَبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهَا، فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ، بَلْ وَشَّوْهَا بِالذَّهَبِ، وَاتَّخَذُوهَا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلَوَّنَةً، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْإِذْنِ فِيهَا لِعُمَاهُمْ، حَتَّى

إذا جاءت دولة الموحدين، ومن بعدهم من زناتة، قَصَرُوا الآلةَ من الطُّبُولِ والبُنودِ على السُّلطان، وحظروها على من سواه من عُمَّالِهِ، وجعلوا لها مركباً<sup>(١)</sup> خاصاً يتبع أثر السُّلطان في<sup>(٢)</sup> مسيره، يُسَمَّى السَّاقَّةَ، وهُم فيه بين مُكْثَرٍ ومُقَلٍّ باختلافِ مذاهبِ الدُّولِ في ذلك، فمنهم من يقتصرُ على سبعة من العدد تَبَرُّكاً بالسَّبعةِ، كما هو في دولة الموحدين، وبني الأحمر بالأندلس؛ ومنهم من يبلغُ العشرةَ والعشرين، كما هو عند زناتة، وقد بلغت في أيام السُّلطان أبي الحسن - فيما أَدْرَكَناه - مئة من الطُّبُولِ، ومئة من البُنودِ ملونة بالحرير منسوجة بالذهب، ما بين كبير وصغير، ويأذنون للولاة والعُمَّال والقوَّاد في اتِّخَاذِ رَايَةٍ واحدةٍ صغيرة من الكتان بيضاء، وطَبْلٍ صغيرٍ أيامَ الحرب، لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة التُّرك لهذا العهد بالمشرق، فيتَّخِذُونَ رَايَةً واحدةً عظيمة، وفي رأسها خصلة كبيرة من الشَّعر، يُسَمونها الشَّالَشَ والجُتْرَ، وهي شعار السُّلطان عندهم، ثم تتعدد الرَّايات، ويُسَمونها السَّنَاجِقَ، واحداً سَنَقَق، وهي الرَّاية بلسانهم. وأما الطُّبُولُ فيبالغون في الاستكثار منها، ويُسَمونها الكوسات. ويبيحون لكل أميرٍ أو قائدٍ عسكريٍّ أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الجُتْرَ، فإنه خاصٌّ بالسُّلطان.

وأما الجلالَةُ لهذا العهد من أمم الإفرنجية بالأندلس، فأكثرُ شأنهم اتِّخَاذَ الأُلوية القليلة ذاهبة في الجَوِّ صُعُداً، ومعها قرعُ الأوتارِ من الطَّنابِيرِ، ونفخُ العِطَاطِ<sup>(٣)</sup>، يذهبون فيها مذهبَ الغناء وطريقه في مواطنِ حروبهم هكذا يبلغنا عنهم، وعمَّن وراءهم من ملوك العجم [ظ ٢/١١٢].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

السَّرِيرُ: وأما السَّرِيرُ، والمنبرُ، والتَّخْتُ والكَرْسِيُّ، فهي أَعْوَادٌ منصوبةٌ أو أرائك مُنْصَدَّةٌ، لجلوسِ السُّلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسِهِ أن يُسَاوِيَهُم في الصَّعيد. ولم يزل ذلك من سُنَنِ المُلُوكِ قَبْلَ الإسلامِ، وفي دُولِ العجم؛ وقد كانوا يَجْلِسُونَ على أَسِرَّةِ الذهبِ، وكان لِسُلَيْمَانَ بنِ دَاوُدَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ - كَرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ من عاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ، إلا أنه لا تأخذُ به الدُّولُ إلا بعد الاستفحال والتَّرفِ، شأنُ الأُبْهَةِ كُلِّهَا كما قلناه، وأما في أولِ الدَّوْلَةِ عندَ البِدَاوَةِ، فلا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ.

١ - في ن: معكباً.

٢ - في ن: (من).

٣ - في ن: الغيطات بالغين. ولعلها من التعيط: الجلبة والصباح. وكأنها آلة تضخم الصوت.

وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ، وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ بَدَنْتُ، فَأَذْنُوا لَهُ، فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ، وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأَبْهَةِ.

وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِمِصْرَ، يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُقَوْسُ إِلَى قَصْرِهِ، وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي جُلُوسِهِ، شَأْنُ الْمُلُوكِ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامُهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ وَفَاءً لَهُ بِمَا عَقَدَ<sup>(١)</sup> مَعَهُمْ مِنَ الذِّمَّةِ، وَاطْرَاحًا لِلْأَبْهَةِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ، شَرْقًا وَغَرْبًا، مِنْ الْأُسْرَةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتَّخَوُّتِ، مَا عَفَا عَنْ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ، وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

السَّكَّةُ: وَهِيَ الْخَتْمُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ الْمُتَعَامِلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَابَعِ حَدِيدٍ يُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ، أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ، وَيَضْرَبُ بِهَا عَلَى الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ، فَتَخْرُجُ رُسُومُ تِلْكَ النُّقُوشِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةً مُسْتَقِيمَةً، بَعْدَ أَنْ يُعْتَبَرُ عِيَارُ النِّقْدِ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ، فِي خُلُوصِهِ بِالسَّبْكِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الدَّرَاهِمِ وَالْدَّنَانِيرِ بِوِزْنٍ مُعَيَّنٍ صَحِيحٍ، يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدَدًا، وَإِنْ لَمْ تَقْدَرْ أَشْخَاصُهَا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزْنًا.

وَلَفْظُ السَّكَّةِ كَانَ اسْمًا لِلطَّابَعِ، وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الْمُتَّخَذَةُ لِذَلِكَ، ثُمَّ نَقِلَ إِلَى أَثَرِهَا وَهِيَ النُّقُوشُ الْمَائِلَةُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ، ثُمَّ نَقِلَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى ذَلِكَ، وَالنَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ حَاجَاتِهِ وَشُرُوطِهِ، وَهِيَ الْوُضُيْفَةُ، فَصَارَ عِلْمًا عَلَيْهَا فِي عَرَفِ الدُّوَلِ، وَهِيَ وَضُيْفَةُ ضَرُورِيَّةٍ لِلْمَلِكِ إِذْ بِهَا يَتَمَيَّزُ الْخَالِصُ مِنَ الْمَغْشُوشِ بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّقُودِ عِنْدَ الْمَعَامَلَاتِ وَيَتَقَوْنَ فِي سَلَامَتِهَا الْغِشُّ بِخَتَمِ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا بِتِلْكَ النُّقُوشِ الْمَعْرُوفَةِ، وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ يَتَّخِذُونَهَا، وَيَنْقُشُونَ فِيهَا تَمَائِيلَ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا، مِثْلَ تَمَثُّلِ السُّلْطَانِ لِعَهْدِهَا، أَوْ تَمَثُّلِ حِصْنٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ مَصْنُوعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ [ظ ١١٣/١]، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَ الْعَجَمِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ.

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَغْفَلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ<sup>(٢)</sup> الدِّينِ، وَبَدَاوَةِ الْعَرَبِ، وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَزِنًا، وَكَانَتْ دَنَانِيرُ الْفَرَسِ وَدَرَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَيَرُدُّونَهَا فِي مَعَامَلَتِهِمْ إِلَى الْوِزْنِ، وَيَتَصَارَفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ، إِلَى أَنْ تَفَاحَشَ الْغِشُّ فِي الدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ، لَغْفَلَةِ الدَّوْلَةِ عَنْ ذَلِكَ.

وَأَمْرُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْحَجَّاجِ - عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَأَبُو الزِّنَادِ - بِضَرْبِ الدَّرَاهِمِ، وَتَمْيِيزِ الْمَغْشُوشِ مِنَ الْخَالِصِ، وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ. وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ: سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ.

١ - فِي ن: اعْتَقَدَ.

٢ - السَّادَجُ: الَّذِي عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ لَا يَخَالِطُهُ غَيْرُهُ. انْظُرْ تَاجَ الْعُرُوسِ (٤٠١/٣).

ثُمَّ أَمَرَ بِصَرْفِهَا فِي سَائِرِ النَّوَاحِي سَنَةً سِتٍّ وَسَبْعِينَ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

ثُمَّ وَلِيَ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَجُودَ السَّكَّةَ، ثُمَّ بَالِغَ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ فِي تَجْوِيدِهَا. ثُمَّ يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِو بْنِ بَعْدِهِ.

وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْعِرَاقِ سَنَةَ سَبْعِينَ بِأَمْرِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَلِيَ الْحِجَازَ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ: بَرَكَةُ اللَّهِ. وَفِي الْآخَرِ: اِسْمُ اللَّهِ. ثُمَّ غَيَّرَهَا الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةٍ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا اِسْمُ الْحَجَّاجِ وَقَدَّرَ وَزْنَهَا عَلَى مَا كَانَتْ اسْتَقَرَّتْ أَيَّامَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ الدَّرْهَمَ كَانَ وَزْنُهُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ سِتَّةَ دَوَانِقَ. وَالْمِثْقَالُ وَزْنُهُ دَرَاهِمٌ وَثَلَاثَةُ أَصْبَاعٍ دَرَاهِمٌ، فَتَكُونُ عَشْرَةُ دَرَاهِمٍ بِسَبْعَةِ مِثْقَالٍ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوْزَانَ الدَّرَاهِمِ أَيَّامَ الْفَرَسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً، وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عَشْرُونَ قِيرَاطًا، وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ، وَمِنْهَا عَشْرَةٌ. فَلَمَّا احْتِجَّ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أُخِذَ الْوَسْطُ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا، فَكَانَ الْمِثْقَالُ دَرَاهِمًا وَثَلَاثَةَ أَصْبَاعٍ دَرَاهِمٌ. وَقِيلَ: كَانَ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِثَمَانِيَةِ دَوَانِقَ، وَالطَّيْرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقَ، وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَةَ دَوَانِقَ، وَالْيَمِينِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ. فَأَمَرَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يَنْظُرَ الْأَغْلَبُ فِي التَّعَامُلِ فَكَانَ الْبَغْلِيُّ وَالطَّيْرِيُّ وَهُمَا اثْنَا عَشَرَ دَانِقًا. وَكَانَ الدَّرْهَمُ سِتَّةَ دَوَانِقَ. وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَصْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا، وَإِذَا انْقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَصْبَاعِهِ كَانَ دَرَاهِمًا.

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السَّكَّةِ لَصِيَانَةِ التَّقْدِيرِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَشِّ، عَيَّنَ مَقْدَارَهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَاتَّخَذَ طَابِعَ الْحَدِيدِ، وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُورًا، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامَ وَالْبَلَاغَةَ أَقْرَبُ مُنَاحِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا، مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ الصُّورِ. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَمَرَّ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمَلَّةِ كُلِّهَا.

وَكَانَ الدِّينَارُ وَالْدَّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مَدَوَّرَيْنِ. وَالْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرٍ مُتَوَازِيَةٍ يَكْتُبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا [ظ ١١٣/٢] وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ، وَفِي الْوَجْهِ الثَّانِي التَّأْرِيخُ وَاسْمُ الْخَلِيفَةِ.

وَهَكَذَا أَيَّامَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعُبَيْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ. وَأَمَّا صَنْعُهَا فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأُمَرَاءِ، اتَّخَذَهَا مَنْصُورُ صَاحِبُ بَجَايَةِ. ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ حَمَّادٍ فِي تَارِيخِهِ.

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمَوْحِدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ سِكَّةٍ الدَّرْهَمِ مُرَبَّعِ الشَّكْلِ، وَأَنْ يَرَسَّمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مُرَبَّعٍ فِي وَسْطِهِ، وَيَمْلَأُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا، وَمِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ كُتْبًا فِي السُّطُورِ بِاسْمِهِ وَاسْمِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ. فَفَعَلَ ذَلِكَ الْمَوْحِدُونَ، وَكَانَتْ سَكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَلَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يَنْقَلُ يُنْعَتُ قَبْلَ

ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعتة بذلك المتكلمون بالحدثان<sup>(١)</sup> من قبله، المخبرون في ملاحمتهم عن دولته.

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزناً بالصنجات<sup>(٢)</sup> المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتَّهْلِيل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦، يس: ٣٨].

ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما:

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال، والشرع قد تعرض لذكرهما، وعلق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والحدود [ظ ١/١٤] والأنكحة وغيرها. فلا بُدَّ لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما.

فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين، أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار. ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير. فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسة حبة. وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري، وهو أربعة دوانق. والبغلي وهو ثمانية دوانق. فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق. فكانوا يوجبون الزكاة في مئة درهم بغلية، ومئة طبرية خمسة دراهم وسطاً.

وقد اختلف الناس: هل كان ذلك من وضع عبد الملك، وإجماع الناس بعدُ عليه كما ذكرناه؟ ذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن، والمأورد في الأحكام السلطانية، وأنكره المحققون من المتأخرين، لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه.

١ - أي: المتحدثون عما يتشوف إليه الناس من أمور الغيب.

٢ - مفردة صنجة. وهي المعروفة الآن بالأوزان التي توضع في إحدى كفتي الميزان.

والحقُّ أنَّهما كانا معلومَي المقدار في ذلك العصر لجرَيان الأحكام يومئذٍ بما يتعلق بهما من الحقوق. وكان مقدارهما غير مَشْخَص في الخارج، وإنَّما كان متعارفاً بينهما بالحكم الشرعيِّ على المقدَّر في مقدارهما وزنَّيهما. حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير. وقارن ذلك أيام عبد الملك فمَشْخَص مقدارهما وعيَّنهما في الخارج كما هو في الذهن، ونقش عليهما السَّكَّة باسمه وتاريخه إثر الشَّهادَتَيْن الإيمانيَّتين، وطرح النُقود الجاهليَّة رأساً حتى خلصت، ونقش عليها سَكَّة وتلاشى وجودها. فهذا هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه.

ومن بعد ذلك وقع اختيارُ أهل السَّكَّة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم، واختلفت في كل الأقطار والآفاق، ورجع الناسُ إلى تصوُّر مقاديرهما الشرعيَّة ذهناً، كما كان في الصَّدْر الأوَّل. وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعيَّة من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعيَّة.

وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماعُ إلا ابن حزم<sup>(١)</sup> خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق - وردَّه المحققون -، وعده وهماً وغلطاً، وهو الصَّحيح<sup>(٢)</sup>. والله ﴿يُحِقُّ الحقَّ بكلماته﴾ [الأنفال: ٧، الشورى: ٢٤].

وكذلك تعلم أنَّ الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها، والله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

الخاتمة: وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية. والختم على الرِّسائل والصُّكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده. وقد ثبت في الصَّحيحين<sup>(٣)</sup>: أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَاباً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتوماً؛ فَاتَّخَذَ خَاتِماً مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ الْبُخَارِيُّ<sup>(٤)</sup>: جَعَلَ

١ - ولد بقرطبة سنة ٣٨٣ أو ٣٨٤هـ. وتوفي سنة ٤٥٧هـ.

٢ - أي: ما ذهب إليه عبد الحق من تخطئة ابن حزم.

٣ - أخرجه البخاري (٦٥ و ٢٩٣٨ و ٥٨٧٠ و ٥٨٧٢ و ٥٨٧٤ و ٥٨٧٥ و ٥٨٧٧ و ٧١٦٢). ومسلم (٢٠٩٢) من حديث أنس.

٤ - الذي في البخاري (٥٨٧٨) في كتاب اللباس، باب هل يجعل نقش الخاتم ثلاثة أسطر، من حديث أنس: أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف كتب له، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.

ثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال<sup>(١)</sup>: «لا ينقش أحد مثله». قال<sup>(٢)</sup>: وَتَخْتَمَ به أبو بكر وعمر وعثمان، ثم سَقَطَ من يد عثمان في بئر أريس، وكانت قليلة الماء فلم يدرك قعرها بعد. واغتمَّ عُثْمَانُ، وتَطَيَّرَ منه، وصنع آخر على مثله.

وفي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتْمِ به وجوه: وذلك أَنَّ الْخَاتَمَ يطلق على الآلة التي تجعل في الإصبع، ومنه تَخْتَمُ إذا لبسه. ويطلقُ على النهاية والتمام، ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره، وختمت [ظ ١١٤/٢] القرآن كذلك، ومنه خاتم النبيين وخاتم الأمر. ويطلقُ على السِّدَادِ الذي يسد به الأواني والدُّنَان. ويقال فيه: خِتَام، ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقد غِلِطَ من فسّر هذا بالنهاية والتمام. قال: لأن آخر ما يجدونه في شرايبهم ريح المسك، وليس المعنى عليه؛ وإنما هو من الختام الذي هو السِّدَادُ، لأنَّ الخمر يجعل لها في المدن سداد الطين أو القار يحفظها ويطيّب عَرْفَهَا وذوقها، فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادها من المِسْك، وهو أطيّب عَرْفاً وذوقاً من القار والطين المعهودين في الدنيا.

فإذا صحَّ إطلاقُ الْخَاتَمِ على هذه كلها صحَّ إطلاقه على أثرها النَّاشِئ عنها. وذلك أَنَّ الْخَاتَمَ إذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس في مداف<sup>(٣)</sup> من الطين أو مداد. ووضع على صُفْحِ الْقِرْطَاسِ بقي أكثر الكلمات في ذلك الصُّفْح. وكذلك إذا طُبِعَ به على جسم لين كالشمع، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسماً فيه. وإذا كانت كلمات وارتسمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النّقش على الاستقامة من اليمين، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النّقش من الجهة اليسرى؛ لأنَّ الْخَتْمَ يقلب جهة الخط في الصُّفْح عما كَانَ في النّقش من يمين أو يسار، فيحتملُ أن يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين، ووضعه على الصُّفْح، فتنتقش الكلمات فيه، ويكون هذا من معنى النهاية والتمام، بمعنى صحّة ذلك المكتوب ونفوذه، كأنَّ الْكِتَابَ إنما يتمُّ العملُ به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام.

١ - أخرجه البخاري (٥٨٧٧) من حديث أنس، وقعه: إني اتخذت خاتماً من ورق ونقشت فيه: محمد رسول الله فلا ينقش أحد على نقشه.

٢ - وقد ذكر معاني ذلك في البخاري (٥٨٦٦ و ٥٨٧٣٩) ومسلم (٢٠٩١) (٥٤ - ٥٥) من حديث ابن عمر.

٣ - النوف: الخلط والبل بماء ونحوه، ودفنه فهو مسك مدوف ومدووف أي: مبلول أو مسحوق ورجح الدكتور وافي أنها محرفة عن مذاق من قولهم: حذفت اللبن بالماء إذا مزجته وخلطته ولا أدري ما الذي دعاه لذلك!!.



وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلماتٍ منتظمة من تحميد أو تسبيح، أو باسم السُّلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائناً من كان أو شيء من نعوته يكون ذلك الخط علامةً على صحة الكتاب ونفوذه. ويسمى ذلك في المتعارف علامة، ويسمى ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي<sup>(١)</sup> في النقش؛ ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم، أي علامته وخطه الذي ينفذ بهما أحكامه، ومنه خاتم السُّلطان أو الخليفة أي علامته.

قال الرشيدُ ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزرَ جعفرًا، ويستبدلَ به من الفضل أخيه، فقال لأبيهما يحيى: يا أبتِ، إنني أردت أن أحولَ الخاتم من يميني إلى شمالي. فكُنِيَ له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرسائل والصَّكوك من وظائف الوزارة، ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري: أنَّ معاوية أرسلَ إلى الحسن عند مرأوته إياه في الصُّلح صحيفةً بيضاء ختم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصَّحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصَّحيفة بخطه أو غيره. ويحتملُ أن يختمَ به في جسم لين فتتقشُ فيه حروفه. ويجعل<sup>(٢)</sup> على موضع الحزم من الكتاب [ظه ١١/١] إذا حَزَمَ، وعليّ المودوعات، وهو من السَّداد، كما مر، وهو في الوجهين آثار الخاتم، فيطلق عليه خاتم.

وأول من أطلق الختم على الكتاب - أي العلامة - معاوية، لأنَّه أمر لعمر بن الزُّبير عند زياد بالكوفة بمئة ألف، ففتح الكتاب وصيَّرَ المئة مئتين، ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه، حتى قضّاها عنه أخوه عبد الله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم. ذكره الطبري.

وقال آخرون: وحزم الكتب، ولم تكن تحزم، أي: جعل لها السَّداد. وديوان الختم: عبارة عن الكتابِ القائمين على إنفاذ كتب السُّلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلقُ الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال<sup>(٣)</sup>.

والحزم للكتب يكون إمَّا بدسُّ الورق كما في عُرف كتاب المغرب، وإمَّا بلبصق<sup>(٤)</sup> رأس الصَّحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عُرف أهل المشرق. وقد يجعل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه.

١ - نسبة إلى آصف: كاتب سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

٢ - في ن: ويحمل.

٣ - انظر الحديث عنه في الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب.

٤ - في ن: بالصلاق.

فأهل المغرب يجعلون على مكان الدَّسِّ قطعةً من الشَّمْعِ ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك. فيرتسم النِّقْشُ في الشَّمْعِ. وكان في المشرق في الدُّوَلِ القديمة يُخْتَمُ على مكان اللَّصْقِ بخاتم منقوش أيضاً قد غمس في مُدَافٍ من الطِّينِ معد لذلك، صبغه أحمر، فيرتسم ذلك النِّقْشُ عليه.

وكان هذا الطِّينُ في الدولة العبَّاسية يعرف بطين الختم، وكان يجلبُ من سِيرَاف، فيظهر أنه مخصوص بها.

فهذا الخاتم - الذي هو العلامة المكتوبة أو النِّقْشُ للسِّدَادِ والحزم للكتب - خاصٌ بديوان الرِّسَالِ. وكان ذلك للوزير في الدَّوْلَةِ العبَّاسية. ثم اختلف العرفُ وصار لمن إليه الترسيل وديوان الكتاب في الدَّوْلَةِ، ثم صاروا في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للأصبع، فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصُّعونه بالفُصُوصِ من الياقوت والفيروزج والزُّمَرْدِ، ويلبسه السُّلْطَانُ شارةً في عرفهم كما كانت البردة والقضيبُ في الدَّوْلَةِ العبَّاسية، والمظلة في الدولة العُبيدية. والله مُصَرِّفُ الأمور بحكمه.

الطُّرَازُ: من أُبْهة الملك والسُّلْطَانِ، ومذاهبِ الدُّوَلِ أن ترسم أسماءهم أو علامات تختصُّ بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الدِّيَّاجِ أو الإبريسم<sup>(١)</sup>، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحماً وأسداء<sup>(٢)</sup>، بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصِّنَاعُ في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم. فتصير الثيابُ [ظ ١١٥/٢] الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلباسها من السُّلْطَانِ فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السُّلْطَانُ بملبوسه إذا قصدَ تَشْرِيفَهُ بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته.

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطُّرَازَ بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكال وصور معينة لذلك. ثم اعتاضَ ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السِّجَلَاتِ. وكان ذلك في الدولتين من أُبْهة الأمور وأفخم الأحوال.

وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطُّرَازِ لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمَّى صاحبُ الطُّرَازِ، ينظرُ في أمور الصِّبَاغِ والآلة، والحَاكَةِ فيها، وإجراء أرزاقهم، وتسهيل آلاتهم، ومشارفة أعمالهم. وكانوا يُقلِّدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليتهم. وكذلك كان الحالُ في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف من بعدهم،

١ - نوع من الحرير.

٢ - اللحمة بالفتح والضَّمُّ للثوب ما ينسج عرضاً؛ والسَّدي ما يمد طولاً في النسج، وجمعه أسداء.

وفي دولة العبيديين بمصر، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق. ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء، وتعددت الدول، تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة.

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المئة السادسة، لم يأخذوا بذلك أول دولتهم، لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب. فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم؛ واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفاً لم يكن بتلك النباهة.

وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرهم بالأندلس، واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف، فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم، إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم، وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش - لفظة أعجمية - . ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه، ويعد الصناعات لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها. والله مقدر الليل والنهار. والله خير الوارثين.

الفساطيط والسياج: اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ [ظ ١١٦/١] الأخبية والفساطيط والفازات<sup>(١)</sup> من ثياب الكتان والصوف والقطن، بجدل الكتان والقطن، فيباهي بها في الأسفار، وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار. وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك. وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف. ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم، فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم<sup>(٢)</sup> وسائر حاطم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد. وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحل، بعيدة ما بين المنازل، متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب. ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساق<sup>(٣)</sup>، تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن<sup>(٤)</sup>. ونقل أنه

١ - في القاموس: الفازة مظلة بعمودين.

٢ - الظعينة: الهودج فيه امرأة أم لا. ولم يرد هذا الجمع ولعله تحرف عن ظعن.

٣ - ساق سوقاً فهو سائق وسواق ويجمع على ساقه، وهم من يتبع أثر السلطان في مسيره.

٤ - أي: رحل.

استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به رُوْحُ بن زِنْبَاع، وقصتها<sup>(١)</sup> في إحراق فساطيط روح وخيامه لأوّل ولايته حينَ وجدَهم مُقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تُعرَفُ رتبة الحجاج بين العرب، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادِر السُّفهاء من أحيائهم، بما له من العصبية الحائلة دون ذلك، ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقةً بغنائه فيها بعصيته وصرامته.

فلما تفتنت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور، ومن ظَهَرَ الخَفُّ إلى ظَهَرَ الخَافِر<sup>(٢)</sup>، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء<sup>(٣)</sup> والمستطيلة والمربعة، ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة، ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته<sup>(٤)</sup> من بينهم سياجاً من الكتان يُسمَّى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أَفْرَاك بالكاف التي بين الكاف والقاف، ويختصُّ به السُّلطان بذلك القطر لا يكون لغيره. وأمّا في المشرق فيتخذُه كل أمير وإن كان دون السُّلطان.

ثمَّ جنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومنازلهم، فخف لذلك ظهرهم وتقاربت السّاح<sup>(٥)</sup> بين منازل العسكر، واجتمع الجيش والسُّلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطه زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه. واستمرَّ الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها [ظ ١١٦/٢].

وكذلك<sup>(٦)</sup> كانت دولة الموحّدين وزناتة التي أظلتنا كان سفرهم أوّل أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقيّاطن<sup>(٧)</sup>. حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط. وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان. إلا أنَّ العساكر به تصيرُ عُرْضةً للبيات<sup>(٨)</sup> لاجتماعهم في مكان

١ - في ن: قصتها.

٢ - أي: من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل.

٣ - القوراء: أي المقطوعة من وسطها على شكل دائرة. وليس كما ذهب الدكتور وإني إلى أنها الواسعة لأن السياق لا يسمح بذلك..

٤ - أي: خيامه ومظلاته.

٥ - في ن: السياح.

٦ - في ن: كذا.

٧ - جمع قيطون وهو المخدع.

٨ - بيّت العدو: أوقع بهم ليلاً والاسم البيات.

واحد تشملهم فيه الصَّحَّة، ولخفتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم، فيحتاجُ في ذلك إلى تحفظ آخر، والله ﴿القوي العزيز﴾ [الشورى: ١٩].

**المَقْصُورَةُ لِلصَّلَاةِ والدُّعَاءِ فِي الخُطْبَةِ:** وهما من الأمور الخَلَاقِيَّة، ومن شارات الملك الإسلامي، ولم يعرف في غير دُول الإسلام.

فأمَّا البيت المَقْصُورَةُ من المسجد لصلاة السُّلطان فيتخذ سِياجاً على الحُرَابِ فيُحَوِّزُهُ وما يليه. فأوَّلُ من اتخذها معاوية بن أبي سُفيان حين طعنه الخارجي، والقِصَّة معروفة؛ وقيل: أوَّلُ من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني. ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما، وصارت سُنَّةً في تمييز السُّلطان عن النَّاسِ في الصَّلَاة. وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال، شأن أحوال الأُبَّهة كلها. وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها. وعند افتراق الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّة، وتعدد الدول بالشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطَّوائِف. وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العُبَيْدِيُّونَ، ثم ولَّاتهم على المغرب من صَنَهَاجَة، بنو بَادِيس بَفَاس، وبنو حَمَّاد بالقلعة.

ثمَّ ملك الموحِّدون سائر المغرب والأندلس، ومحو ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم، ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظَّها من الترف، وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم، فاتخذ هذه المَقْصُورَةَ، وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس. وهكذا كان الشَّأنُ في سائر الدُّول. سنة الله في عباده.

**وأما الدعاء على المنابر في الخطبة** فكان الشَّأنُ أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم. فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والرِّضَا عن أصحابه. وأوَّلُ من اتخذ المنبر<sup>(١)</sup> عمرو بن العاص لما بنى جامعہ بمصر. وأوَّلُ من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل عليها، فقال: اللَّهُمَّ انصُرْ عَلِيّاً على الحق. واتَّصَلَ العملُ على ذلك فيما بعد.

وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر يبلغ عمر بن الخطَّاب ذلك، فكتب إليه عمر بن الخطَّاب: أمَّا بعد: فقد بَلَغني أَنَّكَ اتَّخَذْتَ منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أو ما يكفيك أن تكون قائماً، والمسلمون تحت عَقَبِكَ؟! فعزمتُ عليك إلا ما كسرته.

١ - لعله أراد أن أول من اتخذ المنبر على هيئة المعهودة الآن في الأبهة والعظمة وليس على ما اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البساطة وقلة المراقبي. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من صنع له المنبر. وحادثة حين الجذع مشهورة.

فلَمَّا حَدَّثَتِ الْأُبَّهَةُ، وَحَدَّثَ فِي الْخَلْفَاءِ الْمَانِعُ [ظ ١١٧/١] مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا<sup>(١)</sup> فِيهِمَا. فَكَانَ الْخَطِيبُ يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمَنبَرِ تَنْوِيهًا بِاسْمِهِ وَدَعَاءً لَهُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مَصْلَحَةَ الْعَالَمِ فِيهِ؛ وَلَأَنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ مَظَنَّةٌ لِلْإِجَابَةِ، وَلَمَّا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ: مَنْ كَانَتْ لَهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيَضَعُهَا فِي السُّلْطَانِ. وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفْرَدُ بِذَلِكَ. فَلَمَّا جَاءَ الْحَجَرُ وَالْإِسْتِبْدَادُ صَارَ الْمُتَغَلَّبُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يَشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ، وَيَشَادُّ بِاسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ، وَذَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ، وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ السُّلْطَانِ بِالْإِدْعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنبَرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، وَحُظِرَ أَنْ يَشَارَكَ فِيهِ أَحَدٌ وَيُسَمَّى إِلَيْهِ.

وَكَثِيرًا مَا يَغْفُلُ الْمَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرَّسْمَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي أَسْلُوبِ الْغَضَاضَةِ وَمَنَاجِي الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَافُلِ وَالْخُسُوفَةِ، وَيَقْنَعُونَ بِالْإِدْعَاءِ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيُسَمُّونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ عَلَى هَذَا الْمَنْحَى عَبَّاسِيَّةً، يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدَّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيَّ تَقْلِيدًا فِي ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَا يَحْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ.

يُحْكِي أَنَّ يُغْمَرِاسِينَ بْنَ زِيَّانَ، مَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَا يَحْيَى ابْنُ أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمِزَانٍ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى شُرُوطِ شَرْطِهَا، كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ، فَقَالَ يُغْمَرِاسِينَ: تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مِنْ شَأْوَاهَا. وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ مَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي مَرِينٍ، حَضَرَهُ رَسُولُ الْمُسْتَنْصِرِ الْخَلِيفَةِ بَتُونَسٍ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَثَلَاثَ مَلُوكِهِمْ، وَتَخَلَّفَ بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجُمُعَةِ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسُولُ كِرَاهِيَةً لَخُلُوعِ الْخُطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ. فَأَذِنَ فِي الدَّعَاءِ لَهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ.

وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي بَدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ. فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيُونُ سَاسَتِهِمْ، وَنَظَرُوا فِي أَعْطَافِ مَلِكِهِمْ، وَاسْتَمْتَمُوا شِيَأَاتِ<sup>(٢)</sup> الْحَضَارَةِ وَمَعَانِي الْبَذْخِ وَالْأُبَّهَةِ، انْتَحَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ السَّمَاتِ وَتَفَنَّنُوا فِيهَا، وَتَجَارَوْا إِلَى غَايَتِهَا، وَأَنْفَوْا مِنَ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا، وَجَزَعُوا مِنْ اِفْتِقَادِهَا وَخَلَوْا دَوْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِهَا. وَالْعَالَمُ بِسِتَانٍ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ.

١ - فِي ظ: وَاسْتَنَابُوا.

٢ - الشِّئَةُ: الْعَلَامَةُ وَاللُّونُ.

## ١-٣٧-٣-١- فصل

في الحُرُوبِ وَمَذَاهِبِ الْأُمَمِ فِي تَرْبِيئِهَا<sup>(١)</sup>

اعْلَمْ: أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مِنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ. وَأَصْلُهَا إِرَادَةُ انتقام بعض البشر من بعض [ظ ١١٧/٢]، ويتعصَّبُ لكل منها أهل عصبته. فإذا تذاَمَرُوا<sup>(٢)</sup> لذلك وتوافقَت الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمرٌ طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمةٌ ولا جيل.

وسببُ هذا الانتقام في الأكثر: إمَّا غيرةٌ ومنافسةٌ، وإمَّا عدوانٌ؛ وإمَّا غضبٌ لله ولدينه؛ وإمَّا غضبٌ للملك وسعي في تمهيده.

فالأوَّلُ أكثرُ ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثَّاني: وهو العدوانُ، أكثرُ ما يكون من الأمم الوحشيَّة السَّاكنين بالقفر كالعرب<sup>(٣)</sup> والترك والتركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم. ومن دافعهم عن متاعه آذَنُوهُ بالحرب ولا بُغْيَةَ لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصبُ أعينهم غلبُ النَّاسِ على ما في أيديهم. والثَّالثُ هو المُسَمَّى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ. والرَّابِعُ هو حروب الدُّوَلِ مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغية وفتنة؛ والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل.

وصفَةُ الحروبِ الواقعة بين الخليقة منذُ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزَّحف صفوفاً؛ ونوع بالكرِّ والفرِّ. أمَّا الذي بالزَّحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأمَّا الذي بالكرِّ والفرِّ فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب.

وقِتَالُ الزَّحْفِ أوثقُ وأشدُّ من قتال الكَرِّ والفرِّ. وذلك لأن قتال الزَّحْفِ ترتب فيه الصفوف، وتسوَّى كما تسوَّى القِدَاحُ أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً. فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو؛ لأنه كالحائِطِ الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مُرْصُوصَةٌ﴾ [الصف: ٤]. أي: يشد بعضهم بعضاً بالثبات. وفي

١ - ما يقرره ابن خلدون هنا لا ينطبق إلا على الشعوب التي عاصرها وشهد أحوالها، وخاصة العرب والبربر. أمَّا غيرها فلم يستقرتها، ومن ثم لا تندرج أحكامه عليها. ونقص الاستقراء أكبر ما أخذ على ابن خلدون في بعض فصول المقدمة.

٢ - أي: تحاضوا على القتال.

٣ - يعني: الأعراب.

الحديث الكريم: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»<sup>(١)</sup>. ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف<sup>(٢)</sup>؛ فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه، فمن ولي العدو ظهره فقد أخل بالمصاف، وباء بإثم الهزيمة إن وقعت، وصار كأنه جرّها على المسلمين وأمكن منهم عدوهم؛ فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعدّيها إلى الدين بخرق سياجه؛ فعُدّ من الكبائر. ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشدّ عند الشارع.

وأما قتال الكرّ والفرّ فليس فيه من الشدّة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف. إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجؤون إليه في الكرّ والفرّ [ظ ١١٨/١]، ويقوم لهم مقام ذلك قتال الزحف كما نذكره بعد.

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك، كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس، ويسوون في كل كردوس<sup>(٣)</sup> صفوفه. وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة، وحشدوا من قاصية النواحي، استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب، واعتوروا<sup>(٤)</sup> مع عدوهم الطعن والضرب، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء<sup>(٥)</sup> وجهل بعضهم ببعض. فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض، ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب. ويسمون هذا الترتيب التعبئة، وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين. وصدر الإسلام. فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً منفرداً بصفوفه مميّزاً بقائده ورايته وشعاره، ويسمونه المقدمة؛ ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتة يسمونه الميمنة؛ ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة؛ ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة<sup>(٦)</sup>، ويقفُ الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع، ويسمون موقفه القلب. فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم، إمّا في مدى واحد للبصر أو على

١ - أخرجه البخاري (٤٨١) و٢٤٤٦ و٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

٢ - يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفاً فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦].

٣ - الكردوسة بالضم: قطعة عظيمة من الخيل، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة. وأصلها من الكردسة: وهي الوثاق، ومشى في تقارب خطو كالمقيد.

٤ - اعتوروا الشيء: تداووه.

٥ - النكراء: المنكر والأمر الشديد. أي: لأجل شدة الحرب وجهل بعضهم بعضاً.

٦ - ساقة الجيش: مؤخرته وكأنها تسوقه سوقاً.



مسافة بعيدة، أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة. وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى في التعبئة، فاحتيج لمن يسوقها من خلفه، وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا إليه<sup>(١)</sup>، وكما هو معروف في أخباره. وكان في الدولة الأموية بالأندلس أيضاً كثير منه، وهو مجهول فيما لدينا، لأننا إنما أدر كنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه<sup>(٢)</sup>، ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه، فاستغنى عن تلك التعبئة.

### ١-٣-٣٧-٢- فصل

ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، فيتخذونها ملجأ للخيلة في كرهم وفرهم، يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب. وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة.

فقد كان الفرس، وهم أهل الزحف، يتخذون القيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجها من الخشب أمثال الصروح، مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرأيات، ويصفونها وراءهم [ظ ١١٨/٢] في حومة الحرب كأنها الحصون<sup>(٣)</sup>، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم.

وانظر ما وقع من ذلك في القادسية، وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم<sup>(٤)</sup> على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها<sup>(٥)</sup> بالسيوف على خراطيمها، فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن، فجفا معسكر فارس لذلك، وانهزموا في اليوم الرابع.

وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم، فكانوا يتخذون لذلك الأسيرة، ينصبون للملك سريريه في حومة الحرب، ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو

١ - في الفصل السابق عند حديثه عن الفساطيط والسياج.

٢ - قرينه ونظيره.

٣ - في ن: حصون.

٤ - في ن: بها.

٥ - بعجه: شقه.

زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات في أركان السَّير، ويحدق به سياج آخر من الرُّمّة والرجالة<sup>(١)</sup>، فيعظم هيكل السير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكرّ والفرّ.

وجعل ذلك الفرس أيام القادسية، وكان رُستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه، حتى اختلفت صفوف فارس، وخالطه العرب في سريره ذلك، فتحول عنه إلى الفرات وقتل.

وأما أهل الكرّ والفرّ من العرب وأكثر الأمم البدوية الرّحالة فيصُفّون لذلك إبلهم والظَّهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم، ويُسمونها المجبودة. وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها، وتراه أوثق في الجولة، وآمن من الغرة والهزيمة. وهو أمرٌ مشاهد.

وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة، واعتاضوا عنه بالظَّهر الحامل للأثقال والفساطيط، يجعلونها ساقية من خلفهم، ولا تغني غناء الفيلة والإبل. فصارت العساكر بذلك عرضةً للهزائم، ومستشعرة للفرار في المواقف.

وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً. وكان العرب إنما يعرفون الكرّ والفرّ. لكن حملهم على ذلك أول الإسلام كرههم<sup>(٢)</sup> كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم.

الثاني: أنهم كانوا مُستمتين في جهادهم، لما رغبوا فيه من الصَّبر، ولما رسخ فيهم من الإيمان. والزحف إلى الاستماتة أقرب.

وأول من أبطل الصَّفّ في الحروب وصار إلى التَّعبئة كراديس: مروان بن الحكم في قتالهم الصَّحَّاك الخارجي والخيري<sup>(٣)</sup> بعده.

قال الطَّبري<sup>(٤)</sup> لما ذكر قتال الخيري: فولّى الخوارج عليهم شيان بن عبد العزيز اليشكري ويُلَقَّب أبا الدِّلاء<sup>(٥)</sup> قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصَّفّ من يومئذ. انتهى.

فَتَنُوسِي قتال الزَّحف بإبطال الصَّفّ، ثُمَّ تُنُوسِي الصَّفّ وراء المقاتلة بما داخل الدول من التَّرف. وذلك أنَّها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النِّساء والولدان معهم [ظ ١١٩/١] في الأحياء، فلما حصلوا على ترف الملك

١ - المشاة.

٢ - في ن: (عدوهم).

٣ - في المطبوعات: الخيري والجيري.. وكلاهما خطأ. وهو سعيد بن بهدل الخيري أخبره في تاريخ الطبري (٣١٦/٧ و ٣٢٢ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٩ و ٣٥٢)

٤ - تاريخ الطبري: (٣٤٧/٧ و ٣٤٩) بتصرف.

٥ - في الطبري: الدِّلاء بالبدال المهملة.

وَأَلْفُوا سَكْنَى الْقُصُورِ وَالْحَوَاضِرِ، وَتَرَكُوا شَأْنَ الْبَادِيَةِ وَالْقَفَرِ نَسُوا لَذَلِكَ عَهْدَ الْإِبْلِ وَالظُّعَانِ، وَصُعِبَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذُهَا، فَخَلَفُوا النِّسَاءَ فِي الْأَسْفَارِ، وَحَمَلَهُمُ الْمَلِكُ وَالتَّرَفُ عَلَى اتِّخَاذِ الْفَسَاطِيطِ وَالْأَخْبِيَةِ، فَاقْتَصَرُوا عَلَى الظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ وَالْأَبْنِيَةِ<sup>(١)</sup>. وَكَانَ ذَلِكَ صِفَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ. وَلَا يَغْنِي كُلَّ الْغَنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْأَهْلُ وَالْمَالُ. فَيَخْفُ الصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، وَتَصْرِفُهُمُ الْهِيَاعَاتُ<sup>(٢)</sup> وَتُخْرِمُ صَفُوفَهُمْ.

### ١-٣-٣٧-٣-فصل

وَلَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ضَرْبِ الْمَصَافِّ وَرَاءَ الْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدِهِ فِي قِتَالِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ، صَارَ مَلُوكُ الْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ الْإِفْرَنْجِ فِي جَنْدِهِمْ، وَاخْتَصُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلَّهُ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ. وَالسُّلْطَانُ يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبَ الْمَصَافِّ لِيَكُونَ رَدْعًا لِلْمَقَاتِلَةِ أَمَامَهُ، فَلَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَلِكَ الصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي الزَّحْفِ، وَإِلَّا أَجْفَلُوا<sup>(٣)</sup> عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ، فَانْهَزَمَ السُّلْطَانُ وَالْعَسَاكِرُ بِاجْفَاهُمْ، فَاحْتَاجَ الْمُلُوكُ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُتَعَوِّدَةِ الثَّبَاتِ فِي الزَّحْفِ وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ، وَيُرْتَبُونَ مَصَافَّهُمْ الْحَدِيقَ بِهِمْ مِنْهَا. هَذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ. وَإِنَّمَا اسْتَخَفُّوا ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي أَرَيْنَاكُمَا مِنْ تَخَوُّفِ الْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِّ السُّلْطَانِ. وَالْإِفْرَنْجُ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الزَّحْفُ، فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ. مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ فِي الْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَرْبِ مَعَ أُمَمِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقِتَالَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ؛ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مِمَّا لَتَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَقَدْ أَبَدِينَا سَبِيحَهُ. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢، آل عمران: ١٧٦، النور: ٣٥، الحجرات: ١٦، التغابن: ١١].

### ١-٣-٣٧-٤-فصل

وَبَلَّغْنَا أَنَّ أُمَّمَ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ قِتَالَهُمْ مُنَاضِلَةً بِالسِّهَامِ، وَأَنْ تَعْبِيَةِ الْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِالْمَصَافِّ، وَأَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ بِثَلَاثَةِ صَفُوفٍ، يَضْرِبُونَ صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ، وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ، وَيَفْرَغُونَ سِهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَتَنَاضِلُونَ جُلُوسًا، وَكُلُّ صَفٍّ رَدْعٌ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْبَسَهُمُ الْعَدُوُّ، إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ النَّصْرُ لِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى، وَهِيَ تَعْبِيَةُ مُحْكَمَةٍ غَرِيبَةٍ.

١ - علق الموريني على الكلمة بقوله: مراده بالأبنية الخيام، كما يدل له في قوله في فصل الخندق الآتي قريباً إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم.

٢ - الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو غيره.

٣ - أجفل القوم: أسرعوا في الهرب.

## ١-٣-٣٧-٥ فصل

وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَوَّلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفَرُ الْخَنَادِقِ عَلَى مَعْسِكِرِهِمْ عِنْدَمَا يَتَقَارِبُونَ لِلزَّحْفِ حَذَرًا مِنْ مَعَرَّةِ الْبَيَاتِ<sup>(١)</sup> وَالْهَجُومِ عَلَى الْعَسْكَرِ بِاللَّيْلِ لِمَا فِي ظَلَمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مِضَاعِفَةِ الْخَوْفِ، فَيَلُودُ الْجَيْشُ بِالْفِرَارِ، وَتَجِدُ النُّفُوسُ فِي الظُّلُمَةِ سِتْرًا مِنْ عَارِهِ، فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذَلِكَ أُرْجِفَ<sup>(٢)</sup> [ظ ١١٩/٢] الْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ. فَكَانُوا لِذَلِكَ يَخْتَفِرُونَ الْخَنَادِقَ عَلَى مَعْسِكِرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَتَهُمْ، وَيَدِيرُونَ الْحَفَائِرَ نِطَاقًا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ، حَرَصًا أَنْ يَخَالِطَهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبَيَاتِ فَيَتَخَاذَلُوا.

وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هَذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ اقْتِدَارٌ بِاحْتِشَادِ الرِّجَالِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ، بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَفُورِ الْعِمْرَانِ وَضَخَامَةِ الْمَلِكِ. فَلَمَّا خَرِبَ الْعِمْرَانُ وَتَبَعَهُ ضَعْفُ الدُّوَلِ<sup>(٣)</sup> وَقَلَّةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ الْفَعْلَةِ نَسِيَ هَذَا الشَّأْنَ جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ. وَاللَّهُ خَيْرُ الْقَادِرِينَ.

وَانْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَحْرِيزَهُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صِفِّينَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ عِلْمِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدًا أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ<sup>(٤)</sup>.

قَالَ فِي كَلَامِهِ لَهُ: فَسَوُّوا صَفُوفَكُمْ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ. وَقَدِّمُوا الدَّارِعَ<sup>(٥)</sup>، وَأَخْرُوا الْحَاسِرَ<sup>(٦)</sup>، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ؛ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ<sup>(٧)</sup>. وَالتَّوَوَّأْ عَلَى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَصْوَنُ لِلْأَسِنَّةِ. وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ؛ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأَشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ. وَأَخْفَتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفُشْلِ وَأَوْلَى بِالْوَقَارِ. وَأَقِيمُوا رَايَاتَكُمْ فَلَا تَمِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ. وَاسْتَعِينُوا بِالصِّدْقِ وَالصَّبْرِ؛ فَإِنَّهُ بِقَدْرِ الصَّبْرِ يَنْزِلُ النَّصْرُ. وَقَالَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يَحْرُضُ الْأَزْدَ: عَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ مِنَ الْأَضْرَاسِ. وَاسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ. وَشَدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مُتَوَرِّينَ يَثَارُونَ بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، حَنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لَثَلَا يُسْبِقُوا بَوْتَرًا<sup>(٨)</sup>، وَلَا يُلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ.

١ - الإيقاع بالعدو ليلاً.

٢ - من معاني الإرجاف: الاضطراب والزلزلة.

٣ - في ن: (الدولة).

٤ - انظر الكامل للمبرد ١٠/١ - ١٤. طبعة التقدم.

٥ - لابس الدرع.

٦ - من لا درع له.

٧ - الهامة من الشخص: رأسه، وجمعه هام.

٨ - البوتر: الثَّار.

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر لمتونة وأهل الأندلس في كلمة يمدح بها تاشفين بن علي بن يوسف، ويصف ثباته في حرب شهداها، ويذكره بأمر الحرب في وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها:

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَقَنَّعُ  
وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دُجَى  
تَمْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا  
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ<sup>(١)</sup> إِنَّهُ  
أَنْى فزعتم يَا بَنِي صِنَهَاجَةٍ  
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْكُمْ  
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَأَنَّهُ  
مَا أَنتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ<sup>(٢)</sup>  
يَا تَاشِفِينَ أَقْمِ لِجَيْشِكَ عُذْرَهُ  
وَمِنْهَا فِي سِيَاسَةِ الْحَرْبِ [ظ ١٢٠/١]:  
أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ  
لَا أَنْى أَدْرَى بِهَا لِكِنَّهَا  
وَالْبَسَ مِنَ الْحَلَقِ<sup>(٤)</sup> الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي  
وَالْهِنْدَوَانِي<sup>(٦)</sup> الرَّقِيقُ فَإِنَّهُ

كَانَتْ مُلُوكُ الْفَرَسِ قَبْلَكَ تُوَلِّعُ  
ذَكَرَى تَحْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ  
وَصَّى بِهَا صِنْعُ الصَّنَائِعِ<sup>(٥)</sup> تَبْعُ  
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ<sup>(٧)</sup> وَأَقْطَعُ

١ - من معاني الزبكية كسفينة: بيضة الحديد تلبس في الحرب.

٢ - الخفية كغنية: الغيضة الملتفة الأشجار.

٣ - في ن: والقدرة.

٤ - الحلقة: الدرع... وجمعه حلق.

٥ - يقال: رجل صنع اليدين بالكسر وصنع اليدين وصناعتها أي: حاذق في الصنعة.

٦ - السيف الهندواني بكسر الهاء وضمها منسوب إلى الهند.

٧ - يقال: درع دلاص ككتاب ملاء لينة. والمعنى: أن السيف الهندواني أقوى السيوف على قطع الدروع وأمضاها على حدها.

وَأَرْكَبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقَ عُدَّةً  
خَنْدِقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً  
وَالْوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَأَنْزِلْ عِنْدَهُ  
وَاجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً  
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرِكَ  
وَاصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكَثُرُ  
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ<sup>(٩)</sup> أَهْلَ شَهَامَةٍ  
لَا تَسْمَعِ الْكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجِفًا

سَيِّانُ تَتَّبِعَ ظَافِرًا أَوْ تَتَّبِعَ  
حِصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَدْفَعُ  
بَيْنَ الْعَدُوِّ وَيَنْ جَيْشِكَ يَقْطَعُ  
وَوَرَاءَكَ الصَّدْفُ<sup>(٨)</sup> الَّذِي هُوَ أَمْنَعُ  
ضَنْكَ فِاطِرَافِ الرِّمَاحِ تُوسِّعُ  
شَيْئًا فِإِظْهَارِ النُّكُولِ يُضْعَضِعُ  
لِلصَّدَقِ فِيهِمْ شَيْمَةٌ لَا تَخْدَعُ  
لَا رَأْيَ لِلْكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قوله:

وَاصْدِمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكَثُرُ

البيت مخالف لما عليه الناسُ في أمر الحرب. فقد قال عمرُ لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولّاه حرب فارس والعراق فقال له: اسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَا تُجَيِّنْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ، فَإِنَّهَا الْحَرْبُ! وَلَا يَصْلَحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِثُ<sup>(١)</sup> الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ.

وقال له في أخرى: إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوَمِّرَ سَلِيطًا<sup>(٢)</sup> إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ، وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ ضَيَّاعٍ. والله لولا ذلك لأَمَرْتُهُ. لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث.

هذا كلامُ عمر؛ وهو شاهدٌ بأن التَّسَاوُلَ فِي الْحَرْبِ أَوْلَى مِنَ الْخُفُوفِ<sup>(٣)</sup>، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ، وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصَّيْرَفِيُّ<sup>(٤)</sup>، إِلَّا أَنْ يَرِيدَ أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيَانِ<sup>(٥)</sup>، فَلَهُ وَجْهٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

٨ - في جميع النسخ: الصديق. بالقاف، وهو تحريف، وصوابه الصدف. والصدف منقطع الجبل أو ناحيته وكل شيء مرتفع من حائط ونحوه. والمعنى: لتناجز الأعداء ووراءك ما يحمي ظهرك من جبل ونحوه. أو لعل الكلمة محرفة عن الصَّف أي: لتناجز الأعداء ووراءك صف منيع من الجيش يحمي ظهرك. د. وافي.

٩ - الطليعة القوم يبعثون أمام الجيش يتعرفون طلع العدو. أي: خبره والجمع طلائع.

١ - المكيث: الرزين الذي لا يعجل.

٢ - هو سليط بن قيس الأنصاري، صحابي، قتل يوم جسر أبي عبيد الثقفي بالعراق. انظر ترجمته في أسد

الغابة (٤٤١/٢).

٣ - خف إلى العدو خفوفًا: أسرع.



«نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»<sup>(١)</sup>. وما وقعَ من غلبه للمُشركين في حياته بالعدد القليل، وغلبَ المُسلمين من بعده كذلك في الفتوحات. فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى تكفلَ لنبيه بِالْقَاءِ الرُّعْبِ في قلوبِ الكافرينَ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فينْهَزِمُوا معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم، فكان الرعبُ في قلوبهم سبباً للهزائمِ في الفتوحاتِ الإِسْلَامِيَّةِ كلها، إلا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعُيُونِ.

وقد ذكر الطَّرُطُوشِي: أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ أَنْ تَفْضَلَ عِدَّةُ الْفَرَسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عَشْرُونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ، وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ سِتَّةٌ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ بِوَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ؛ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى؛ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَمْنَا، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ.

وَأِنَّمَا الصَّحِيحُ الْمَعْتَرُ فِي الْغَلْبِ حَالُ الْعَصَبِيَّةِ: أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ، وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ عَصَائِبُ مُتَعَدَّةٌ، لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدَّةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنَ التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصَبِيَّةِ، تَنْزِلُ<sup>(٢)</sup> كُلُّ عَصَابَةٍ مِنْهُمْ مَنزِلَةَ الْوَاحِدِ، وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدَّةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَبَتُهُ<sup>(٣)</sup> وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ ذَلِكَ فَتَفْهَمُهُ.

وَعَلِمَ أَنَّهُ أَصَحُّ فِي الْإِعْتِبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرُطُوشِي، وَلَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا نَسِيَانُ شَأْنِ الْعَصَبِيَّةِ فِي جِيلِهِ<sup>(٤)</sup> وَبَلَدِهِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَرُدُّونَ<sup>(٥)</sup> ذَلِكَ [ظ ١٢١/١] الدَّفْعَ وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةِ النَّاشِئَةِ عَنْهُمْ، لَا يَعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ عَصَبِيَّةً وَلَا نَسْبًا. وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ أَوَّلَ الْكِتَابِ، مَعَ أَنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ مِثْلُ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصَدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ الْأَسْلِحَةِ وَمَا شَابَهَا<sup>(٦)</sup>؛ فَكَيْفَ يَجْعَلُ ذَلِكَ كَفِيلًا بِالْغَلْبِ؟ وَنَحْنُ قَدْ قَرَرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ شَيْئًا مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ مِنَ

١ - أخرجه البخاري (٣٣٥ و ٤٣٨ و ٣١٢٢) ومسلم (٥٢١) وابن حبان (٦٣٩٨) من حديث جابر بن عبد الله.

٢ - في ن: (إذا تنزل).

٣ - في ن: (عصبيته).

٤ - في ن: (حلته). و(حله).

٥ - في المطبوع: (يرون). بمعنى يرجعون الأمر إلى ذلك. وقد أشكل ذلك على الدكتور واني وقال: أظنها محرفة عن (يردون). وقد صدق ظنه إذ هي كذلك في ظ.

٦ - في ن: (وما أشبهها).



الحيل والخداع، ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الإلهي. فافهمه وتفهم أحوال الكون. والله مقدر الليل والنهار.

### ١-٣-٣٧-٧- فصل

ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت. فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمتحلين للفضائل على العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها. وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها. **والسبب في ذلك:** أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب والتشيع، ويدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال، لحفائها بالتلبيس<sup>(١)</sup> والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين<sup>(٢)</sup> في أهلها، وأين مطابقة الحق مع هذه كلها؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه، وتكون غير مطابقة، وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبعث كما تقرر. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

١ - في ن: (بالتلبيس).

٢ - في ن: (منافسين).

## ١-٣-٣٨- فصل

## في الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعلم أنَّ الجباية أوَّلُ الدَّولةِ تكونُ قليلةَ الوزائعِ <sup>(١)</sup> كثيرةَ الجملة، وآخرَ الدَّولةِ تكونُ كثيرةَ الوزائعِ قليلةَ الجملة <sup>(٢)</sup>.

والسبب في ذلك: أنَّ الدَّولةَ إن كانت على سنن الدِّين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعيَّةَ من الصَّدقات والخراج والجزية، وهي قليلةُ الوزائع، لأن مقدار الزَّكاة من المال قليلٌ كما علمت، وكذا زكاة الحبوب والماشية، وكذا الجزية والخراج وجميعُ المغارم الشرعيَّة، وهي حدود لا تتعدَّى.

وإن كانت على سنن التَّغلبِ والعصبيَّة فلا بدَّ من البداوة في أوَّلها كما تقدم، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتَّجافي عن أموال الناس، والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر، فيقل لذلك مقدارُ الوظيفة [ظ ١٢١/٢] الواحدة والوزيعة التي تجمع الأموال من مجموعها. وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه، فيكثرُ الاعتمادُ ويزيد، لحصول <sup>(٣)</sup> الاغتباط <sup>(٤)</sup> بقلَّةِ المِغْرَم، وإذا كثر الاعتمادُ كثرت أعدادُ تلك الوظائف <sup>(٥)</sup> والوزائع، فكثرة الجباية التي هي جملتها. فإذا استمرت الدولة واتَّصلت، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحدٍ واتَّصفوا بالكيس، وذهب شر البداوة والسَّذاجة وخلقتها من الإغضاء والتَّجافي، وجاء الملكُ العضوض والحضارة الدَّاعية إلى الكيس، وتخلق أهل الدولة حينئذٍ بخلق التحذلق <sup>(٦)</sup> وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والتَّرف، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذٍ على الرعايا والأكرَّة <sup>(٧)</sup> والفلاحين وسائر أهل المغارم، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبيعات وفي الأبواب كما نذكر بعد، ثم تتدرَّج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرَّج عوائد الدَّولة في التَّرف وكثرة الحاجات والإنفاق

١ - جمع وزيرة وهو ما يتوزع على الأشخاص.

٢ - أي أن مقدار الضرائب المفروضة على الأشخاص والممتلكات يكون ضئيلاً، ولكن مجموعها يكون كثيراً لكثرة من يؤديها وقلة من يطلبها؛ فإذا ارتفع مقدار الوزيرة الواحدة عن الحد المعقول، عجزت أغلبية السكان عن أدائها، فيكون مجموعها قليلاً لا يفي بالمطلوبات لكثرة المصاريف. (العصية والدولة: ٤٧٣ بتصرف).

٣ - في ن: (محصول).

٤ - الغبطة: حسن الحال والاغتباط: التبعج بالحال الحسنة.

٥ - جمع وظيفة، وهي ما يفرض على الشخص بعينه من الضرائب.

٦ - حذلق: أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق.

٧ - الأكار: الحراث والجمع أكرة. وهم المزارعون.

بسببه، حتى تنقل المغارم على الرعايا وتهضمهم<sup>(١)</sup> وتصير عادة مفروضة، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً، ولم يشعر أحدٌ بمن زادها على التعيين، ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا، كأنها عادة مفروضة، ثم تزيّد إلى الخروج عن حد الاعتدال فتذهب غبطة الرعايا في الاعتماد لذهاب الأمل من نفوسهم بقلّة النفع، إذا قابل بين نفعه ومغارمه، وبين ثمرته وفائدته، فتنبض كثيرٌ من الأيدي عن الاعتماد جملة، فتنقص جملة الجباية حينئذٍ بنقصان تلك الوزائع منها. وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبراً لما نقص، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة، لكثرة الإنفاق حينئذٍ في الاعتماد، وكثرة المغارم، وعدم وفاء الفائدة المرجوة به، فلا تزال الجملة في نقص، ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها، إلى أن ينتقض العمران بذهاب الآمال من الاعتماد، ويعود وبال ذلك على الدولة، لأن فائدة الاعتماد عائدة إليها.

وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتماد تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فذلك تنبسط النفوس إليه ليثقتها بإدارة المنفعة فيه. والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها، و﴿يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

## ١-٣-٣٩- فصل

## في ضَرْبِ الْمَكُونِ أَوْ آخِرِ الدَّوْلَةِ

**اعلم:** أنَّ الدولة تكون في أولها بدويَّة كما قلنا، فتكونُ لذلك قليلة الحاجات لعدم التَّرفِ وعوائده، فيكونُ خرَّجُها وإنفاقها [ظ ١٢٢/١] قليلاً، فيكونُ في الجباية حينئذٍ وفاءً بأزيدٍ منها، بل يفضلُ منها كثيرٌ عن حاجاتهم.

ثمَّ لا تلبث أن تأخذَ بدين الحضارة في الترفِ وعوائدها، وتجري على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، ويكثر خراج السلطان خصوصاً، كثرة بالغة بنفقته في خاصَّته، وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجباية.

فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه، ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترفِ وفي العطاء للحامية. ويُذكرُ الدولة الهرم، وتضعفُ عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقلُّ الجباية وعطاؤهم، فتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم.

فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات، ويفرض لها قدرًا معلومًا على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة. وهو مع هذا مضطرٌّ لذلك بما دعاه إليه ترفُّ الناس من كثرة العطاء مع<sup>(١)</sup> زيادة الجيوش والحامية. وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسُدُ الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعودُ على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصا المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم، وأسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملةً وأعضاها بآثار الخير.

وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محارمه، يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.

وكذلك وقع بأمصا الجريد بإفريقية لهذا العهد حين استبدَّ بها رؤساؤها. والله تعالى أعلم.

## ١-٣-٤٠- فصل

## في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مُفسِدة للجباية

اعلم: أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترفّ وكثرة العوائد والنفقات، وقصّر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة توضع المكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم، كما قدّمنا ذلك في الفصل قبله، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدث من قبل؛ وتارة بمقاسمة العمال والجباة، وامتلاك<sup>(١)</sup> عظامهم، لما يرون أنهم قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسبان؛ وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية<sup>(٢)</sup>، لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد [ظ ١٢٢/٢] والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال. فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع، والتعرض بها لحوالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد. وهو غلط عظيم، وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة.

فأولاً: مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك، فإن الرعايا متكافؤون، في اليسار متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك، وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد.

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصّاً أو بأيسر ثمن، (إذ)<sup>(٣)</sup> لا يجد من ينافسه<sup>(٤)</sup> في شرائه، فيخسر ثمنه على بائعه.

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناض<sup>(٥)</sup> أموالهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة ويمكثون عطلاً من التجارة التي فيها كسبهم ومعاشهم. وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون

١ - مكه وامتكه... امتصه جميعه.

٢ - أي: باسم الجباية أو كما نقول نحن: على أنها ضرائب غير مباشرة تجبى من المستهلكين.

٣ - في جميع النسخ: أو لا يجد. وهو تحريف كما لا يخفى.

٤ - نسخة: يناقشه.

٥ - الناض: الدرهم والدينار.

تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يُذهب رأس ماله، فيقعد عن سوقه، ويتعدد ذلك ويتكرر، ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملةً ويؤدي إلى فساد الجباية، فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار، ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها؛ فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملةً أو دخلها النقص المتفاحش<sup>(١)</sup>.

وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل. ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانیه من شراء و<sup>(٢)</sup>بيع، فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس. ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان مكسها<sup>(٣)</sup> كلها حاصلاً من جهة الجباية. ثم فيه التعرض لأهل [ظ ١٢٣/١] عُمرانه<sup>(٤)</sup>، واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم، فإن الرعايا إذا قعدوا عن تسمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات<sup>(٥)</sup>، وكان فيها إتلاف أحوالهم، فافهم ذلك.

وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل، وأن لا يتخذ صنعة فيضر بجيرانه، ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع، وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدرك موجوده إلا الجباية؛ وإذ رآها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال، والنظر لهم بذلك؛ فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ في تسمير الأموال وتنميتها، فتعظم منها جباية السلطان، وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا، وفساد للجباية، ونقص للعمارة. وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون،

١ - يعني أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على السلع لا تعرضها في الأسواق لتسري عليها قوانين العرض والطلب، بل تستدعي التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة، فتمتص بذلك أموالهم، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية فتتعطل تجارتهم التي فيها كسبهم ومعاشهم. (د. وإي).

٢ - في ن: أو.

٣ - في ن: تكسبها.

٤ - في ظ: ثم في التعرض لفساد العمران واختلال الدولة بفساده ونقصه.

٥ - في ن: (النفقات).

ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا ما يفرضون من الثمن، وهذه أشد من الأولى، وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم، وربما يحمل السلطان على ذلك من يُدْخِلُه من هذه الأصناف، أعني: التجار والفلاحين - بما<sup>(١)</sup> هي صناعته التي نشأ عليها، فيحمل السلطان على ذلك ويضربُ معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً، ولا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس، فإنها أجدرُ بنمو الأموال، وأسرعُ في تنميره، ولا يفهم ما يدخلُ على السلطان من الضرر بنقص جبايته، فينبغي للسلطان أن يحذرَ من هؤلاء، ويُعرض عن سعياتهم المضرة بجبايته وسلطانه. والله يلهنا رشد أنفسنا، وينفعنا بصلاح أعمالنا. لا رب غيره<sup>(٢)</sup>.

### ١-٣-٤١ - فصل

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك: أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل. فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الجباية، معتاضاً عن ذلك بما يروم من الاستبداد عليهم، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة. فلا يُطَيَّر<sup>(٣)</sup> في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي مُملّقين<sup>(٤)</sup> [ظ ١٢٤/١] في الغالب، وجاههم متقلص لأنه من جاه مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبته.

فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه، قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يُطَيَّر لهم بين الناس في سهمانهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلّة غنائمهم في الدولة، بما انكبح من أعنتهم، وصار الموالي والصنائع مُساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر، فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجها<sup>(٥)</sup> للنفقات في مهمات الأحوال، فتكثر ثروته وتمتلىء خزائنه، ويتسع نطاق جاهه، ويعتز على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه، من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي، ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال ويتأثّلونها<sup>(٦)</sup>.

١ - في ن: لما.

٢ - في ن: بصلاح الأعمال. والله تعالى أعلم. بصلاح الأعمال. والله تعالى أعلم.

٣ - أطار المال وطيره: قسمه.

٤ - الملق: الفقير. وفي ن: (متملقين).

٥ - يختص نفسه بها.

٦ - أثّل المال تأثيلاً: زكاه وأصله. وتأثّل المال: اكتسبه.

ثمَّ إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العَصَبِيَّة وفناء (القبيل الماهدين)<sup>(١)</sup> للدولة احتياجُ صاحب الأمر حينئذٍ إلى الأعوان والأنصار. لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار، وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظُهرائه وأعوانه، وهم أربابُ السُّيوف وأهل العَصَبِيَّات، وأنفقَ خزائنه وحاصله في مهمات الدولة، وقلَّتْ مع ذلك الجباية لما قدَّمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقلَّ الخراجُ وتشتدُّ حاجة الدولة إلى المال، فيتقلَّص ظلُّ النعمة والتُرف عن الخواصِّ والحجَّاب والكتاب بتقلَّص الجاه عنهم، وضيق نطاقه على صاحب الدولة.

ثمَّ يشتدُّ حاجة صاحب الدولة إلى المال، وتنفق أبناءُ البطانة والحاشية ما تأثله آبائهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليهم آبائهم وسلفهم من المناصحة، ويرى صاحب الدولة أنه أحقُّ بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم، فيصطلمها<sup>(٢)</sup> وينترعها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحدٍ، على نسبة رُتبهم وتبكر الدولة لهم، ويعودُ وبالأُ ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة والنعمة من بطانتها، ويتقوَّض بذلك كثيرٌ من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة، وبني برمك، وبني سهل، وبني طاهر، وأمثالهم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حذيرة وبني برد وأمثالهم، وكذا في الدولة التي أدركنها لعهدنا. ﴿سنة الله التي قد خلت في عبادته﴾ [غافر: ٨٥].

### ١-٣-٤١-١- فصل

ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب، صار الكثير منهم ينزعون [ظ ١٢٤/١] إلى الفرار عن الرُتب والتخلص من ربة السُّلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

واعلم: أنَّ الخلاصَ من ذلك بعد الحصول فيه عسيرٌ ممتنع. فإنَّ صاحب هذا الغرض إذا كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا أهل العصبية المزاحمون له، بل في ظهور ذلك منه هدمٌ لملكه وإتلافٌ لنفسه بمجاري العادة بذلك؛ لأنَّ ربة الملك يعسرُ الخلاصُ منها، ولا سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرضُ فيها من



البعد عن المجد والخلال والتخلُّق بالشرِّ. وأمَّا إذا كان صاحبُ هذا الغرضِ من بطانةِ السلطان وحاشيته وأهل الرُّتب في دولته، فقلَّ أن يُخلَّى بينه وبين ذلك.

أمَّا أوَّلاً: فلما يراه الملوك أن ذويهم وحاشيتهم - بل وسائر رعاياهم - مماليك لهم، مطَّلعون على ذات صدورهم، فلا يسمحون بحلِّ ربقة من الخدمة ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يطلَّع عليها أحدٌ، وغيره من خدمته لسواهم. ولقد كان بنو أمية بالأندلس يمنعون أهل دولتهم من السَّفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العبَّاس؛ فلم يحج سائر أيَّامهم أحدٌ من أهل دولتهم، وما أبيع الحج لأهل الدُّول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأمويَّة ورجوعها إلى الطوائف.

وأمَّا ثانياً: فلأنهم وإن سمحوا بحلِّ ربقة هو فلا يسمحون بالتَّجافي عن ذلك المال، لما يرون أنه جزءٌ من مالهم، كما يرون أنه جزءٌ من دولتهم، إذ لم يُكتسب إلا بها وفي ظلِّ جاهها؛ فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزءٌ من الدولة يتنفعون به.

ثمَّ إذا توهمنا أنه خلصَ بذلك المال إلى قُطر آخر، وهو في النَّادر الأقلُّ، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القطر ويتزعونه بالإرهاب والتَّخويف تعريضاً أو بالقهر ظاهراً، لما يرون أنه مالٌ الجباية والدول، وأنه مستحقٌّ للإنفاق في المصالح. وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش، فأخرى بها أن تمتدَّ إلى أموال الجباية والدُّول التي تجد السَّبيل إليه بالشرِّ والعادة. ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر ملوك [ظ ١٢٤/٢] الحفصيين بإفريقية الخروج عن عهدة الملك واللاحق بمصر فراراً من طلب صاحب الثغور العربية لما استجمع لغزو تونس، فاستعمل اللحياني لرحلة إلى ثغر طرابلس يُوريّ بتمهيدته، وركب السَّفين من هنالك، وخلصَ إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصَّامت<sup>(١)</sup> والذخيرة، وباع كلَّ ما كان بخزائنها من المتاع والعقار والجواهر، حتى الكتب، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون، سنة سبع عشرة من المئة الثامنة، فأكرم نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلصُ ذخيرته شيئاً فشيئاً بالتَّعريض إلى أن حصل عليها ولم يبقَ معاشُ ابن اللحياني إلا في جراته التي فرضت<sup>(٢)</sup> له إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبما ذكره في أخباره.

١ - الصامت من المال: الذهب والفضة.

٢ - في ن: فرض. أي: الملك الناصر.

فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب، وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم، وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية أو بالجاء في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة. والدول أنساب؛ لكن<sup>(١)</sup>:

النَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا      وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ  
والله سبحانه هو الرزاق، وهو الموفق بمنه وفضله، والله أعلم.

### ١-٣-٤٢- فصل

#### في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك: أن الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم، ومنه مادة العمران، فإذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها، قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية، وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم، وقلت نفقاتهم جملة، وهم معظم السواد، ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق، وتضعف الأرباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك، لأن الخراج والجباية إنما تكون من الاعتماد والمعاملات ونفاق الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح. ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج، فإن الدولة - كما قلناه - هي السوق الأعظم، أم الأسواق كلها، وأصلها ومادتها في الدخل والخرج؛ فلان كسدت وقلت مصارفها<sup>(٢)</sup>، فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه.

وأيضاً: فالمال إنما هو متردد بين الرعية والسلطان: منهم إليه، ومنه إليهم؛ فإذا حبسه السلطان عنده فقدته [ظ ١٢٥/١] الرعية. سنة الله في عباده.

١ - من شعر أبي ذؤيب الهذلي، انظر ديوان الهذليين (٢/١).

٢ - في ن: مصارفها.

## ١-٣-٤٣- فصل

## في أن الظلم مؤذنٌ بخراب العمران

اعلم: أنَّ العُدوانَ على النَّاسِ في أموالهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السَّعي في ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرِّعايا عن السَّعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش، كان القعودُ عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها؛ وإن كان الاعتداء يسيراً، كان الانقباضُ عن الكسب على نسبته.

والعمرانُ ووفوره ونفاق أسواقه، إنما هو بالأعمال، وسعي النَّاسِ في المصالح والمكاسب ذاهبينَ وجائينَ. فإذا قعد النَّاسُ عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواقُ العمران، وانتقضت الأحوال، وأبدع<sup>(١)</sup> النَّاسُ في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرِّزق فيما خرج عن نطاقها؛ فحفَّ ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت<sup>(٢)</sup> أمصاره، واختلَّ باختلاله حالُ الدَّولة والسُّلطان؛ لما أنَّها صورةٌ للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورةً.

وانظرُ في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدَّولة، بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إنَّ يوماً ذكراً يرومُ نكاحَ بومٍ أنثى، وأنها شرطت عليه عشرين قريةً من الخراب في أيام بهرام، فقبل شرطها؛ وقال لها: إنَّ دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا أسهلُّ مرام. فتنبه الملك من غفلته، وخلا بالموبدان وسأله عن مراده، فقال له: أيها الملك، إن الملك لا يتم عزُّه إلا بالشرعية، والقيامَ لله بطاعته، والتَّصرفِ تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشرعية إلا بالملك، ولا عزٌّ للملك إلا بالرجال، ولا قوامٌ للرِّجال إلا بالمال، ولا سبيلٌ إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدلُ الميزانُ المنصوبُ بين الخليقة، نصبه الرَّبُّ وجعل له قِيَمًا، وهو الملك. وأنت أيُّها الملك عمدت إلى الضِّياغ فانتزعتها من أربابها وعُمَّارها، وهم أربابُ الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة، والنظرَ في العواقب، وما يُصلحُ الضِّياغ، وسوَّحوها في الخراج لقربهم من الملك. ووقع الحيفُ على من

بقي من أرباب الخراج وعُمار الضياع؛ فأجلوا<sup>(١)</sup> [ظ ١٢٥/٢] عن ضياعهم، وخلّوا ديارهم، وآووا إلى ما تعذر من الضياع، فسكنوها، فقلت العمارة، وخرّبت الضياع، وقلت الأموال وهلك الجنود والرعيّة، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها. فلما سمع الملك ذلك أقبل على النّظر في ملكه، وانتزعت الضياع من أيدي الخاصّة ورُدّت على أربابها، وحُمِلوا على رُسومهم السّالفة، وأخذوا في العمارة، وقوي من ضعف منهم، فعمرت الأرض، وأخصبت البلاد، وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود، وقطعت موادّ الأعداء، وشحنت الثغور، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيامه، وانتظم ملكه.

فَفَتَهُمْ من هذه الحكاية أَنَّ الظلم مخربٌ للعمران، وأنّ عائدة الخراب في العمران على الدّولة بالفساد والانتقاض. ولا تنظر في ذلك إلى أنّ الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدّول التي بها، ولم يقع فيها خرابٌ.

واعلم أنّ ذلك إنّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المِصر. فلما كان المِصر كبيراً، وعمرانه كثيراً، وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأنّ النقص إنّما يقع بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتّسع الأعمال في المِصر، لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدّولة المعتدية من أصلها قبل خراب المِصر، وتجيء الدّولة الأخرى، فترقع بجذتها، وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه، فلا يكاد يشعر به، إلا أنّ ذلك في الأقلّ النادر.

والمراد من هذا أنّ حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بُدّ منه، لما قدّمناه، ووبّالُه عائِدٌ على الدّول.

ولا تحسبن الظلم إنّما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عِوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعمُّ من ذلك. وكلُّ من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع، فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصّابُ الأملاك على العموم ظلمة، ووبّالُ ذلك كله عائِدٌ على الدّولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.

واعلم: أن هذه هي الحكمة المقصودة للشَّارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة<sup>(١)</sup> للشَّرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة: من حفظ الدين والنفس والعقل والنَّسْل [ظ ١٢٦/١] والمال. فلمَّا كان الظلم - كما رأيت - مؤذناً بانقطاع النَّوع لما أدَّى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً. وأدلته من القرآن والسُّنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضَّبْط والحَصْر.

ولو كان كل واحد قادراً على الظالم<sup>(٢)</sup> لوضع بإزائه من العقوبات الرَّاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنَّوع، التي يقدر كلُّ أحد على اقترافها من الزَّنا والقتل والسُّكر، إلَّا أن الظلم يقدر عليه<sup>(٣)</sup> إلَّا من لا يقدر عليه، لأنَّه إنَّما يقع من أهل القُدرة والسُّلطان. فبولغ في ذمِّه وتكرير الوعيد فيه، عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَلَا تَقُولَنَّ: إِنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ وَضَعْتَ بِإِزَاءِ الْحَرَابَةِ<sup>(٤)</sup> فِي الشَّرع، وهي من ظلم القادر، لأنَّ المحاربَ زمن حرابته قادر. فإن في الجواب عن ذلك طريقتين:

أحدهما: أن تقول: العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أو مال على ما ذهب إليه الكثير، وذلك إنَّما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته، وأمَّا نفسُ الحرابة فهي خللٌ من العقوبة.

الطريق الثاني: أن تقول: المحارب لا يوصف بالقدرة، لأنَّنا إنَّما نعني بقدرة الظَّالم اليدَ المبسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب، وأمَّا قدرة المحارب فإنَّما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال، والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة؛ فليست من القدر المؤذن بالخراب. والله قادرٌ على ما يشاء.

١ - في ن: المراعية.

٢ - في ن: (عليه).

٣ - أي: لا يظلم إلا القادر على الظلم ومن له القدرة من سلطان أو غيره. وقد رجح الدكتور وافي سقوط حرف النفي من العبارة فتكون: (لا يقدر عليه لا من لا يقدر عليه) وكلاهما يصحان.

٤ - الحرابة هي قطع الطريق. وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما معاً ولكل عقوبة حالتها التي تجد تفصيلها عند الفقهاء.

## ١-٣-٤٣-١- فصل

ومن أشدّ الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق.

وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق<sup>(١)</sup>؛ لأنّ الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران. فإذا مساعيتهم وأعمالهم كلّها متمولات ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها، فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك. فإذا كلّفوا العمل في غير شأنهم، واتخذوا سُخْرِيًّا في معاشهم، بطل كسبهم، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متموّلهم فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة. وإن تكرّر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن<sup>(٢)</sup> السعي فيها جملة؛ فأدّى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

## ١-٣-٤٣-٢- فصل [الاحتكار]

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلّط على أموال الناس، بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثمّ فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تفرّض عليهم تلك الأثمان على التراخي<sup>(٣)</sup> والتأجيل، فيتعلّلون في تلك الخسارة [ظ ٢/١٢٦] التي تلحقهم بما تحدّثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصّفتين على رؤوس أموالهم. وقد يعمّ ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق في البضائع، وسائر السوقة وأهل الدكاكين في المأكّل والفواكه، وأهل الصنّاع فيما يتخذ من الآلات والمواعين، فتشمل الخسارة سائر الأصناف والطبقات، وتتوالى على الساعات، وتحف برؤوس الأموال، ولا يجدون عنها وليجة<sup>(٤)</sup> إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال في جبرها بالأرباح<sup>(٥)</sup>، ويتشاكل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا، لأنّ عامته من البيع والشراء. وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم، وتنقص جباية

١ - انظر الباب الخامس في المعاش ووجوهه.

٢ - في ن: (من).

٣ - في جميع النسخ: (النواحي). ولا يستقيم به المعنى.

٤ - يعني لا يجدون ملجأ.

٥ - في العبارة تقديم وتأخير وتقرأ على النحو التالي: لا يجدون [أي التجار] عنها [أي الخسائر] في جبرها بالأرباح [أي لعظم الخسائر وتماديها] إلا القعود عن الأسواق لذهاب رؤوس الأموال [أي: كلها أو معظمها].

السُّلطان أو تفسد، لأنَّ معظمها من أواسط<sup>(١)</sup> الدَّولة، وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه<sup>(٢)</sup>. ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة. ويتطرق هذا الخلل على التدرّيج ولا يُشعر به.

هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال، وأما أخذها بجائاً، والعدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم، فهو يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتتقضّ الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاض. ومن أجل هذه المفاصد حظر الشرع ذلك كله، وشرع المكايسة<sup>(٣)</sup> في البيع والشراء، وحظر أكل أموال الناس بالباطل، سداً لأبواب المفاصد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش.

واعلم: أنَّ الدَّاعي لذلك كله، إنما هو حاجة الدولة والسُّلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقاباً وجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزد، والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة بذلك يزد، إلى أن تتمحي<sup>(٤)</sup> دائرتها، ويذهب رسمها، ويغلبها طالبها. والله أعلم.

١ - في ن: أواسط.

٢ - انظر الفصول: (٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١) من هذا الباب وخاصة فصل ٤١.

٣ - المكايسة أي: المساومة.

٤ - في ن: تمحي.

## ١-٣-٤- الفصل الرابع والأربعون

## في الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم

اعلم: أنَّ الدولة في أوَّل أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدَّمناه، لأنَّه لا بُدَّ لها من العَصَبِيَّة التي بها يتمُّ أمرها ويحصل استيلاؤها، والبدَاوة هي شعارُ العَصَبِيَّة. والدَّولة إن كان قيامها بالذِّين فإنه بعيدٌ عن منازع الملك، وإن كان قيامها بعز الغلب فقط، فالبدَاوة التي بها [ظ ١/٢٧٧] يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه، فإذا كانت الدَّولة في أوَّل أمرها بدويَّة، كان صاحبها على حال الغضاضة والبدَاوة والقرب من النَّاس وسهولة الإذن.

فإذا رسخ عزُّه وصار إلى الانفراد بالمجد، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن النَّاس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه، لما يكثرُ حينئذٍ مَنْ بجاشيته، فيطلبُ الانفراد من<sup>(١)</sup> العامة ما استطاع، ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته، ويتخذ حاجباً له عن النَّاس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة.

ثمَّ إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه، استحالت خُلُق<sup>(٢)</sup> صاحب الدَّولة إلى خُلُق<sup>(٣)</sup> الملك، وهي خُلُق<sup>(٤)</sup> غريبةٌ مخصوصة، يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجبُ لها، وربما جهل تلك الأخلاق<sup>(٥)</sup> منهم<sup>(٦)</sup> بعض من يباشرهم فوق فيما لا يرضيهم، فسَخَطوه<sup>(٧)</sup> وصاروا إلى حالة الانتقام منه. فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم، وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت، حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يُسَخِطهم، وعلى<sup>(٨)</sup> النَّاس من التعرُّض لعقابهم.

فصار لهم حجابٌ آخر أخص من الحجاب الأوَّل، يُفَضِّي إليهم منه خواصُّهم من الأولياء، ويحجبُ دونه من سواهم من العامَّة، والحجابُ الثاني يفَضِّي إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامَّة.

١ - في ن: عن.

٢ - في ن: أخلاق.

٣ - في ن: أخلاق.

٤ - في ن: أخلاق.

٥ - في ن: الخلق.

٦ - أي: من الملوك.

٧ - في ن: فسخطوا.

٨ - في نسخة بدون الواو.



والحجابُ الأوَّلُ: يكونُ في أوَّل الدولة كما ذكرنا، كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية، وكان القائم على ذلك الحجاب يُسمَّى عندهم الحجاب جرياً على مذهب الاشتقاق الصَّحيح.

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترفِّ والعزِّ ما هو معروفٌ، وكملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني، وصار اسم الحجاب أخصَّ به، وصار بباب الخلفاء داران للعبَّاسية: دارُ الخاصَّة، ودارُ العامَّة، كما هو مسطور في أخبارهم.

ثمَّ حدث في الدول حجابٌ ثالثٌ أخصُّ من الأولين، وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة. وذلك أنَّ أهل الدولة وخواصَّ الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب، وحاولوا الاستبداد عليهم، فأوَّل ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه<sup>(١)</sup> وخواصَّ أوليائه، يوهمه أنَّ في مباشرتهم إيَّاه خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون الأدب، ليقطع بذلك لقاء الغير، ويعوده ملابسة أخلاقه هو، حتى لا يتبدَّل به سواه، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه. وهذا الحجاب لا يقعُ في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدَّمناه في الحجر<sup>(٢)</sup>، ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها. وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأنَّ القائمين [ظ ١٢٧/٢] بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة، وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم، لما رُكِبَ في النفوس من محبة الاستبداد بالملك، وخصوصاً مع الترشيح لذلك، وحصول دواعيه ومبادئه.

١ - في جميع النسخ: بطانة ابنه. ولا يستقيم معه المعنى.

٢ - يقصد الفصل الواحد والعشرون من هذا الباب. فصل: فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه.

## ١-٣-٤ - الفصل الخامس والأربعون:

## في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم: أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها. وذلك أن الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم إلى غايتها، ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به، يأنف حينئذ عن المشاركة، ويصير إلى قطع أسبابها ما استطاع بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى القاصية، واجتمع إليهم من يلحق بهم في مثل<sup>(١)</sup> حالهم من الاغترار والاستراية. ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضيق ورجع عن القاصية. فيستبد ذلك النازع من القراية فيها، ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة، حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية العربية حين كان أمرها حريزاً<sup>(٢)</sup> مجتمعاً، ونطاقها ممتداً في الاتساع، وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبية على سائر مضر، فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامها<sup>(٣)</sup> إلا ما كان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم، لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رئاسة، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية.

ثم لما خرج الأمر من بني أمية، واستقل بنو العباس بالأمر، وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف، وأذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس - قاصية دولة الإسلام - فاستحدث بها ملكاً، واقتطعها عن دولتهم، وصير الدولة دولتين. ثم نزع إدريس إلى المغرب، وخرج به وقام بأمره. وأمراً ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة، واستولى على ناحية المغريين. ثم ازدادت الدولة تقلصاً، فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم.

ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة، واستولوا على إفريقية والمغرب، ثم مصر والشام والحجاز، وغلبوا على الأدارسة، وقسموا الدولة دولتين أخريين، وصارت الدولة العربية ثلاث دول: دول بني العباس بمركز<sup>(٤)</sup> العرب، وأصلهم ومادتهم الإسلام، ودولة بني أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق، ودولة العبيديين بإفريقية ومصر والشام والحجاز. ولم تزل هذه الدول إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً [ظ ١/١٢٨].

١ - في ن: (بهم مثل).

٢ - أي: حين كان أمرها متماسكاً قوياً.

٣ - في ن: أيامه.

٤ - في ن: مركز.

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى، وكان بالقاصية بنو سامان<sup>(١)</sup> فيما وراء النهر وخراسان؛ والعلوية في الديلم وطبرستان؛ وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء. ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك. ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية، لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه، ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية، واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى، واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً.

وكذلك دولة الموحدین لما تقلص ظلها ثار بإفريقية بنو أبي حفص، فاستقلوا بها، واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها. ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية، خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم رابع خلفائهم، واستحدث ملكاً، ببجاية وقسنطينة وما إليها، أورثه بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم.

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة، وفي غير أعياص الملك من قومه، كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس، وملوك العجم بالمشرق، وفي ملك صنهاجة بأفريقية، فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائرٌ مستقلٌ بأمره كما تقدم ذكره. وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره.

وهكذا شأن كل دولة لا بُدَّ وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة، وتقلص ظل الغلب فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر، ويتعدد فيها الدول، والله وأرث الأرض ومن عليها.

## ١-٣-٦-٤- الفصل السادس والأربعون:

## في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدّمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبَيَّنّا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمورٌ طبيعية لها. وإذا كان الهرمُ طبعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني.

والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تبدل. وقد يتنبه كثير من أهل الدول من له يقظة في السياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم وأسبابه [ظ ١٢٨/٢]، ويحسبه<sup>(١)</sup> ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة، وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم، وليس كذلك، فإنها أمورٌ طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيتها.

والعوائد منزلة طبيعية أخرى<sup>(٢)</sup>؛ فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والدياج، ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزّي والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبّح عليه مُرتكبه. ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه.

وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها، لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي. وربما تكون العصبيّة قد ذهبت فتكون الأبّهة تعوض عن موقعها من النفوس. فإذا أزيلت تلك الأبّهة مع ضعف العصبيّة، تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهاام الأبّهة، فتتذرع الدولة بتلك الأبّهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر.

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها، ويومض دُبالها إيماضة الخمود كما يقع في الدبال المشتعل؛ فإنه عند مُقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال، وهي انطفاء. فاعتبر ذلك، ولا تغفل سراً الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

١ - في ن: الهرم ويظن أنه ممكن.

٢ - يعرف هذا بالقسر الاجتماعي الذي تتصف به الظواهر الاجتماعية ولا سيما القائمة على الاقتداء والعادات. (تمهيد في علم الاجتماع ص: ١٠٤).

## ١-٣-٤٧- الفصل الرابع والأربعون:

## في كَيْفِيَّةِ طُرُوقِ الْخُلُلِ لِلدَّوْلَةِ

اعلم أن مبني الملك على أساسين لا بُدَّ منهما:

فالأوَّل: الشُّوْكَةُ والعَصَبِيَّةُ وهو المعبرُ عنه بالجند.

والثَّاني: المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال.

والخلل إذا طرَقَ الدَّوْلَةُ طرقها في هذين الأساسين.

فلنذكر أولاً طُرُوقَ الخلل في الشُّوْكَةِ والعَصَبِيَّةِ، ثم نرجع إلى طروقه في المال والجباية.

واعلم أن تمهيد الدَّوْلَةِ وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبيَّة، وأنه لا بُدَّ من عصبيَّة

كبرى جامعة للعصائب مستتبعة لها، وهي عصبيَّة صاحب الدَّوْلَةِ الخاصَّة<sup>(١)</sup> من عشيرة

وقبيلة. فإذا جاءت الدَّوْلَةُ طبيعاً الملك من الثَّرَفِ وجدع أنوف أهل العصبيَّة، كان أوَّل

ما يجدع أنوفَ عشيرته وذوي قرباه المقاسمين له في اسم الملك. فيستبدُّ في جدع أنوفهم بما

١ - قال الجابري في العصبيَّة والدَّوْلَةُ (ص ٤٤٦ - ٤٤٨): الدَّوْلَةُ في اصطلاح ابن خلدون هي على العموم: الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبيَّة ما.

أ- فمن حيث الامتداد في المكان تكون الدَّوْلَةُ عامة أو خاصة.

- الدَّوْلَةُ العامة: هي مجموع المناطق والأقاليم التي تجري عليها سلطة العصبيَّة الحاكمة سواء كانت هذه السلطة فعلية أم إسمية فقط.

- والدَّوْلَةُ الخاصَّة هي الولاية أو الإقليم الذي استقل به الوالي خارجاً عن السلطة المركزية.

وهكذا فالدَّوْلَةُ العباسيَّة مثلاً دولة عامة بالنسبة إلى الدويلات التي استقلت عنها كدولة بني بويه، وبني حمدان وغيرهما من الدول التابعة اسمياً للخلافة العباسيَّة والتي تسمى في لغة ابن خلدون دولاً خاصَّة.

ب - أما من حيث الامتداد في الزمان فإن الدَّوْلَةَ إما كلية وإما شخصية...

- الدَّوْلَةُ الكلية هي مدة حكم عصبيَّة من العصبيَّات، والتي يتعاقب فيها الملوك واحداً بعد الآخر. إنها حكم أسرة معينة منذ استلامها الحكم إلى يوم خروجه منها. الدَّوْلَةُ العباسيَّة، الدَّوْلَةُ الأمويَّة، الدَّوْلَةُ الموحدية... الخ.

- والدَّوْلَةُ الشخصية هي مدة حكم شخص واحد من أشخاص الدَّوْلَةِ الكلية، مثل دولة المأمون، دولة معاوية، دولة عبد المؤمن... الخ.

ج - ويتحدث ابن خلدون أيضاً عن الدَّوْلَةِ المستقرَّة والدَّوْلَةِ المستجدَّة أو الحادثة وذلك حين يتعلق الأمر بالفترة التي يحدث فيها الصراع بين العصبيَّة صاحبة الدَّوْلَةِ وإحدى العصبيَّات النائرة ضدها والتي تستهدف الإطاحة بها وتأسيس دولة جديدة. فالدَّوْلَةُ المستقرَّة يعني بها الدَّوْلَةُ القائمة التي نشبت الثورة ضدها. والدَّوْلَةُ المستجدَّة أو الحادثة هي دولة العصبيَّة النائرة المطالبة بالملك والتي لم تنته بعد من القضاء على الدَّوْلَةِ القديمة المستقرَّة.

د - هذل ولا يختلف مفهوم ابن خلدون للدَّوْلَةِ عن معناها بل معانيها عند القدماء باستثناء هذه التقسيمات المشار إليها أعلاه. إن الدَّوْلَةَ في الاصطلاح القديم هي القوة والسيطرة والسلطان. أو صاحب هذه الصفات، أو البيت الذي يتمتع بها. فيقال: دولة عبد الملك بن مروان، ودولة صلاح الدين، والدَّوْلَةُ الأمويَّة، والدَّوْلَةُ الفاطميَّة. وتطلق أيضاً على المنطقة التي يشملها نفوذ الدَّوْلَةِ وأصحابها والفرق بين الدَّوْلَةِ والمملكة في الاصطلاح القديم هو أن الدَّوْلَةَ عبارة عن الحكومة ورجالها، والمملكة هي البلاد وأهلها.

بلغ من سوادهم<sup>(١)</sup>. ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعز والغلب، فيحيط بهم هادمان وهما: الترف والقهر.

ثم يصير القهر آخرأ إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الأمر [ظ ١٢٩/١]، فتقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه، فيهلكون ويقللون، وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم، وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتبعها، فتتحل عروتها، وتضعف شكيמתها، وتستبدل عنها بالبطانة<sup>(٢)</sup> من موالي النعمة وصنائع الإحسان، وتتخذ منهم عصبية، إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية، لفقدان الرحم<sup>(٣)</sup> والقران منها، وقد كنا قدمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقراة والرحم لما جعل الله في ذلك. فينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية، ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى، فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً، فيهلكهم صاحب الدولة، ويتبعهم بالقتل واحداً بعد واحد. ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذي قدمنا. فيستولي عليهم الهلاك بالتلف والقتل، حتى يخرجوا عن صيغة تلك العصبية، وينسوا نعرتها وسورتها<sup>(٤)</sup> ويصيروا أجراء على الحماية. ويقللون لذلك، فتقل الحماية<sup>(٥)</sup> التي تنزل بالأطراف والثغور. فتجاسر الرعايا على نقض<sup>(٦)</sup> الدعوة في الأطراف، ويبادر الخوارج على الدولة من الأعياص وغيرهم إلى تلك الأطراف، لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم، وأمنهم من وصول الحماية إليهم. ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة. وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثة علي قدر قوتها في الأصل كما قلناه<sup>(٧)</sup>، ويقوم بأمرها غير أهل عصبيتها، ولكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغلبهم المعهود.

واعتبر هذا في دولة العرب في الإسلام، انتهت أولاً إلى الأندلس والهند والصين، وكان أمر بني أمية نافذاً في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف، حتى لقد أمر سليمان بن عبد

١ - في ن: سواهم.

٢ - في جميع النسخ: (البطالة) باللام، وهو تحريف واضح.

٣ - انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثاني في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب وما في معناه.

٤ - في ن: ويفشو بعزتها وثورتها. وفي ن: وينشو بعزتها وشورتها. والمثبت من نسخة د. وافي.

٥ - في نسخة (الحماية).

٦ - في جميع النسخ: بعض. ويصح أن تكون محرفة عن (بغض أو نقض) والله أعلم.

٧ - انظر الفصل الخامس والأربعين من هذا الباب.

الملك من دمشق<sup>(١)</sup> بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يُردَّ أمره. ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقضوا. وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين وشردوهم، فأنحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم، فاستبدَّ عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس وغيرهم، وانقسمت الدولة، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب، وقام البربر بأمرهم إذعانا للعصبية التي لهم، وأمنّا أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة.

فإذا خرج الدعاة آخرًا فيتغلبون على الأطراف والقاصية، وتحصل لهم هناك دعوة ملك تنقسم به الدولة. وربما يزيد ذلك متى زادت<sup>(٢)</sup> [ظ ١٢٩/٢] الدولة تقلصاً<sup>(٣)</sup>، إلى أن تنتهي إلى المركز، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها.

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيالتها، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة، فيستغني بذلك عن قوة العصائب، ويكفي صاحبها. بما حصل لها في تمهيد أمرها - الأجراء على الحامية من جندي ومُرْتزق، ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم؛ فلا يكاد أحد أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له؛ فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده. وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم. فلا تكاد النفوس تحدث سرّاً بمخالفة، ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة. فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي يحدث من العصائب والعشائر. ثم لا يزال أمر الدولة كذلك، وهي تتلاشى في ذاتها، شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء، إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٧]. ولكل دولة أمد. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠]. ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال، فاعلم أنَّ الدولة في أولها تكون بدويّة كما مر، فيكون خلق الرّقي بالرعايا والقصد في النّفقات، والتّعفف عن الأموال، فتتجافى عن الإمعان في الحباية، والتحدّق والكيس في جمع الأموال وحُسبان العمال، ولا داعية حينئذٍ

١ - في ن: بدمشق.

٢ - في ظ: حتى زالت.

٣ - في ن: (نقصا).

إلى الإسراف في النفقة، فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال. ثُمَّ يحصل الاستيلاء ويعظم، ويستفحل الملك، فيدعو إلى الترف، ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم نفقات السلطان وأهل الدولة على العموم، بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة. ثم يعظم الترف فيكثر الإسراف في النفقات، وينتشر ذلك في الرعية، لأنَّ الناس على دين ملوكها وعوائدها. ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدراار الجباية لما يراه من ترَف المدينة الشاهد عليهم بالرّفه، ولما يحتاجُ هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده. ثُمَّ تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا، فتمتد أيديهم إلى جَمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة أو نقدٍ في بعض الأحوال، بشبهة أو بغير شبهة [ظ ١٣٠/١]. ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسروا<sup>(١)</sup> على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتتوقع ذلك منهم، وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم، ولا تجذ عن ذلك وليجة، ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم، وبما اتسع لذلك من جاههم. فيتوجه إليهم باحتجان الأموال من الجباية، وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقْد، فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتلاشى أحوالهم، ويُفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم. وإذا اصطُلِمت نعمتهم، تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم، ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر، فتتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذٍ إلى مدارة الأمور ببذل المال، ويراه أرفع من السيف لقلّة غنائه؛ فتعظم حاجته إلى الأموال، زيادة على النفقات وأرزاق الجند، ولا يغني فيما يريد<sup>(٢)</sup>. ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي، والدولة تنحلُّ عراها في كل طور من هذه إلى أن تفضي إلى الهلاك، وتتعوض من الاستيلاء الكلل<sup>(٣)</sup>. فإن قصدها طالبٌ انتزعها من أيدي القائمين بها، وإلا بقيت وهي تلاشى إلى أن تضمحلّ كالذُّبال في السراج إذا فني زيتها وطفئ. والله مالك الأمور، ومدير الأكوان، لا إله إلا هو.

١ - في ن: تجاسر.

٢ - أي: لا يغني ما يبذله في تحقيق ما يريده. (د. واني).

٣ - في ن: تعرض لاستيلاء الطلاب.



## ١-٣-٤٨- الفصل الثامن والأربعون:

في اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايتها

ثم تضايقة طوراً بعد طور إلى فناء الدولة وضمحلها<sup>(١)</sup>

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة، أن كل دولة لها حصة من الممالك والعِمالات لا تزيد عليها<sup>(٢)</sup>. واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية أقطارها وجهاتها. فحيث نفذ عددهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر؛ ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق. وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الأولى. وقد يكون أوسع منه إذا كان عددُ العصابة أوفر من الدولة قبلها. وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استفحل العزُّ والغلب وتوفرت النعم والأرزاق بدرور الجبايات، وزخر بحرُّ الترف والحضارة، ونشأت الأجيال على اعتياد ذلك، لطفت أخلاق الحامية ورقت حواشيمهم، وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجبن والكسل بما يعانونه من خنث<sup>(٣)</sup> الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ لا من شعار البأس والرجوليّة بمفارقة البداوة وخشونتها وبأخذهم العزّ بالتطاول إلى الرئاسة والتنازع عليها. فيفضي إلى قتل بعضهم بعضهم؛ ويكبّحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكابرهم وإهلاك رؤسائهم. فتفقد الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمرؤوس، فيفل<sup>(٤)</sup> ذلك من حدّ الدولة، ويكسر من شوكتها، ويقع الخلل الأول في الدولة، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم. ويساق ذلك السرف في النفقات بما يعترتهم من أبهة العز، وتجاوز الحدود بالبذخ، بالمناعة في المطاعم والملابس، وتشيد القصور واستجادة السّلاح وارتباط الخيول؛ فيقصر دخل الدولة حينئذ عن<sup>(٥)</sup> خرجها، ويترك الخلل الثاني في الدولة، وهو الذي من جهة المال والجباية. ويحصل العجز والانتقاض بوجود الخللين. وربما تنافس رؤساؤهم، فتنزعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم. وربما اعتزّ أهل الثغور والأطراف بما

١ - هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس عن الطبقات المتداولة في العالم العربي. وقد وضع في طبعة باريس في هذا الموضع، أي: بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب وهو كذلك مثبت في نسخة الدكتور وافي.

٢ - انظر الفصل السابع الفرعي من هذا الباب. وعنوانه: فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها.

٣ - خنث خنثاً من باب تعب إذا كان فيه لين وتكسر كالنساء.

٤ - في طبعة باريس: فيقل. بالقاف. وهو تحريف. وفي التيمورية: فيقل ذلك من حدود الدولة. وهو معنى محتمل. (د. وافي). والفُل: الثلم والتكسر.

٥ - في طبعة باريس: ويقصر دخل الدولة من خرجها. وفي التيمورية: ويقصر دخل الدولة عن خروجها، وكلتاها تشتمل على تحريف. (د. وافي).

يحسون من ضعف الدولة وراءهم، فيصيرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العمالات، ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة، فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تدبيرها بنطاق دونه، إلى أن يحدث في النطاق الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصا وقلة الأموال والجباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدول من قبل الجند والمال والولايات ليحري حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الأرزاق، ومقايسة<sup>(١)</sup> ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال. والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزان<sup>(٢)</sup> الأول أحوالها الثانية، يروم دفع مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور، ويأخذ من كل طرف، حتى يضيق نطاقها الآخر إلى نطاق دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع في الأول. فكل واحد من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم منشؤون دولة أخرى، ومجددون ملكاً، حتى تنقرض الدولة، وتتناول الأمم حولها إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قدر الله وقوعه.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تحوّلوه من النعم والأرزاق إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف، ونشأت الحضارة، وطرق الخلل، فضاق النطاق من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية الروانية والعلوية، واقتطعوا ذئك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية في كل جانب وتمهدت لهم دول، ثم قتل المتوكل، واستبدت الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقلت الولاة بالعمالات في الأطراف، وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة إلى قانون آخر من السياسة أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر، وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب إفريقية إلى أن افتقر أمر العرب وغلب العجم، واستبدت بنو بويه والدليم بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقي بنو سامان في استبدادهم وراء النهر، وتناول الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فملكوه.

ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام، وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم. واستبدت الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق أضيق من هالة

١ - قايسته جاريته في القياس، وقايست بين الأمرين قدرت، يعني المقارنة بينهما.

٢ - في القاموس: وازنه موازنه ووزاناً عادله وقابله وحاذاه.

القمر، وهو عراقُ العرب إلى أصبهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء إلى انقراض أمر الخلفاء على يد هولاءكو بن طولي بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان في أيديهم من ممالك الإسلام.

وهكذا يتضابق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض الدولة. واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت. فهكذا سنة الله في الدول، إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

## ١-٣-٤٩- الفصل التاسع والأربعون:

## في حدوث الدولة وتجديدها كيف يقع

اعْلَم: أنَّ نشأة الدول<sup>(١)</sup> وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص تكون على نوعين:

إمَّا بأن يستبدَّ ولاية الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلَّص ظلُّها عنهم، فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقرُّ في نصابه، يرثه عنه أبناؤه أو مواليه، ويستفحل لهم الملك بالتدريج، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به، ويغلبُ منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، ويتنزَّعُ مافي يده، كما وقع في دولة بني العبَّاس حين أخذت دولتهم في الهرم، وتقلَّص ظلُّها عن القاصية، واستبدَّ بنو سَامَانَ<sup>(٢)</sup> بما وراء النهر، وبنو حمدان بالموصل والشَّام، وبنو طولون بمصر، وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس؛ وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا وُلاتها في الأعمال، وانقسمت دولاً وملوكاً أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليتهم. وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب<sup>(٣)</sup>، لأنهم مستقرون [ظ ١٣٠/٢] في رياستهم<sup>(٤)</sup> وملكهم، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب، وإمَّا الدولة أدركها الهرم وتقلَّص ظلُّها عن القاصية، وعجزت عن الوُصول إليها.

والنوع الثاني: بأن يخرج عن الدولة خارجٌ ممن يجاورها من الأمم والقبائل، إمَّا بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه، أو يكون صاحب شوكة وعصبية، كبيراً في قومه قد استفحل أمره، فيسمو بهم إلى الملك، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة، وما نزل بها من الهرم. فيتعيَّن له ولقومه الاستيلاء عليها، ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها، ويَزينون أمرها<sup>(٥)</sup> كما يتبين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١ - في ن: الدولة.

٢ - في ن: ساسان.

٣ - في ن: حرباً.

٤ - في ن: رئاساتهم.

٥ - في بعض النسخ: (ويرفون أمرها). من رفا الثوب، أصلحه كما في القاموس ولعل الكلمة محرفة عن: (يرثون). (د. وافي). وليس في الكلمة تحريف، ذلك أن وزن الأمور جعلها موزونة، وهي قبل ذلك مختلفة النظام غير متوازنة الكفتين.

١-٣-٥٠- الفصل الخمسون:  
في أن الدولة المستجدة إنما تستولي  
على الدولة المستقرة بالمطاول لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان:

نوعٌ من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه، لأن قصاراهم [ظ ١٣٢/١] القنوع بما في أيديهم، وهو نهاية قوتهم.

والنوع الثاني: نوع الدعاة والخوارج على الدولة، وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة، لأن قوتهم وافية بها، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من العصية والاعتزاز ما هو كفاء<sup>(١)</sup> ذلك وواف به. فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال، تتكرر<sup>(٢)</sup> وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب، ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة.

والسبب في ذلك: أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمر نفسانية وهمية، وإن كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما مر<sup>(٣)</sup>؛ ولذلك كان الخداع من أنفع<sup>(٤)</sup> ما يستعمل في الحرب، وأكثر ما يقع الظفر به، وفي الحديث: «الحرب خدعة»<sup>(٥)</sup>.

والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورةً واجبةً كما تقدم في غير موضع. فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة، ويكسر<sup>(٦)</sup> من همم أتباعه وأهل شوكته، وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرته، إلا أن الآخرين أكثر، وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة، فيحصل بعض الفتور منهم، ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة. فيرجع إلى الصبر والمطاول، حتى يتضح هرم الدولة المستقرة، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه، وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء.

١ - يعني: الكفاء.

٢ - في ن: تتكرر.

٣ - انظر الفصل السابع والثلاثين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.

٤ - في ن: أرفع.

٥ - أخرجه البخاري (٣٠٣٠) ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر.

٦ - في جميع النسخ: (ويكثر) بالشاء. وهو تحريف. والمقصود أن ذلك يثبط همهم ويضعف عزائمهم.

(د. وافي). إلا إذا قلنا: (يكثر من هم أتباعه). أي: الهموم.

وأيضاً: فالدولة [ظ ١/١٣١] المستقرة كثيرة الترف<sup>(١)</sup> بما استحکم لهم من الملك، وتوسّع من النعيم واللذات، واختصّوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة، وتعظم فيهم الأبهة الملكية، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراً، فيرهبون بذلك كله عدوهم. وأهل الدولة المستجدة معزل عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة<sup>(٢)</sup>، التي يفقد معها الاستعداد من ذلك، فيسبق إلى قلوبهم أوهام الرعب بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة وكثرة استعدادها، ويحجمون<sup>(٣)</sup> عن قتالهم من أجل ذلك، فيصير أمرهم إلى المطاوله حتى تأخذ المستقرة مأخذها من الهرم، ويستحكم الخلل فيها في العصبيّة والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة. سنة الله في عباده.

وأيضاً: فأهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم، ثم هم مفاخرون لهم ومنابدون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليها<sup>(٤)</sup>، فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرّاً وجهراً، [ظ ١/١٣٣] ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطناً وظاهراً، لانقطاع المداخلة بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام، وينكثون<sup>(٥)</sup> عن المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة<sup>(٦)</sup>، وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها، ويتضح<sup>(٧)</sup> لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى منها<sup>(٨)</sup>، من هرمها وتلاشيها، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث

١ - في ن: الرزق.

٢ - الخصاصة بالفتح: الفقر والحاجة.

٣ - في ن: يحرمون.

٤ - في ن: عليه.

٥ - يجبنون عن القتال، ويقعدون عنه.

٦ - لفظها في ظ: من الدولة المستقرة ويحيط الخلل بها في جميع جوانبها، فيقع الاستيلاء عليها سنة الله في خلقه

وعباده.

وأيضاً فإن هذه الدولة المستجدة كلهم مباينون لأهل الدولة المستقرة بجميع أحوالهم وعوائدهم وأنسابهم وسائر عباداتهم، ثم منافرون لهم بحدوث هذه المطالبة ومنابدون فلا يطلعون من أهل هذه الدولة على شيء. ولا يصل إليهم خبر من أخبارهم يصيبون به غرة منها لانقطاع أسباب المداخلة بينهما، فيمكثون السنين العديدة في مطالبتها وهم في إحجام، وتكون عنها سائر أوقاتهم حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة.

٧ - في ن: واتضح.

٨ - في نسخة منهم.

هممهم يداً واحدة للمناجزة، ويذهب ما كان بُثَّ في عزائمهم من التَّوَهُّمَاتِ، وتنتهي المطالبة إلى حدّها، ويقع الاستيلاء آخرّاً بالمعاجلة.

واعتبر ذلك في دولة بني العبّاس عند ظهورها، وفي بدايتها، كيف أقام<sup>(١)</sup> الشّيعَةُ بخُرّاسان بعد انعقاد الدّعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد، وحينئذ تمّ لهم الظفر، واستولوا على الدّولة الأموية.

وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الدّيلم: كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك النّاحية. ثمّ لما انقضى أمر العلوية وسَمّا الدّيلمُ إلى مُلكِ فارس والعراقين، فمكثوا سنين كثيرة يُطاولون حتى اقتطعوا أصبهان ثمّ استولوا على الخليفة ببغداد.

وكذا العبّيدون أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي ببني كتامة من قبائل البربر عشر سنين ويزيد، يُطاولُ بني الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم، واستولوا على المغرب كله، وسموا إلى ملك مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهّزون [ظ ١٣١/٢] إليها العساكر والأساطيل في كل وقت، ويحيي المدد لمداغتهم برّاً وبحراً من بغداد والشّام، وملكوا الإسكندرية والفيوم والصّعيد، وتخطّت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين. ثمّ نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها، واقتلع دولة بني طُغج<sup>(٢)</sup> من أصولها، واختط القاهرة، فجاء الخليفة بعدد المعز لدين الله - فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية<sup>(٣)</sup>.

وكذا السلجوقية ملوك التّرك لما استولوا على بني سامان<sup>(٤)</sup>، وأجازوا من وراء النّهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة، يطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته. ثمّ زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدّهر.

وكذا التّتر<sup>(٥)</sup> من بعدهم خرجوا من المفازة عام<sup>(٦)</sup> سبع عشرة وست مئة فلم يتمّ لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة.

١ - في ن: بني العبّاس حين ظهورها، حين قام الشّيعَة.

٢ - هي دولة الأحشيد التي كان أول سلاطينها محمد بن طغج الأحشيد، وقد ظلّت هذه الدولة تحكم مصر نحو خمس وثلاثين سنة (من ٣٢٣هـ إلى ٢٥٨هـ). د. وافي.

٣ - كان هذا سنة ٣٠١هـ ولم يتم للفاطمين الاستيلاء على مصر إلا سنة ٣٥٨هـ.

٤ - في ن: (ساسان).

٥ - في ظ: الططر.

٦ - في ظ: أعوام.

وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة، فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه. ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحواً من ثلاثين سنة يُحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم. ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش.

حسبما نذكر ذلك كله في تواريخ هذه الدول.

فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطالبة. سنة الله في عباده، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ولا تعترض<sup>(١)</sup> ذلك بما وقع في الفتوحات الإسلامية، وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وإعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، سيرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصاراً<sup>(٢)</sup> بالإيمان، وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل. فكان ذلك كله خارقاً للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة. وإذا كان ذلك خارقاً فهو من معجزات نبينا، صلوات الله عليه، المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية. والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية، ولا يعترض بها. [والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق].

١ - في ن: يُعارض.

٢ - في جميع النسخ: استبعاداً. وهو تحريف. (د. وافي). أي الوعي والفهم، والاهتداء به.



## ١-٣-٥١- الفصل الحادي والخمسون:

في وفور العمران آخر الدولة

وما يقع فيها من كثرة الموتان<sup>(١)</sup> والمجاعات

اعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف<sup>(٢)</sup> أن الدولة في أول أمرها لا بُدَّ لها من الرفق في ملكيتها والاعتدال في إيايتها؛ إمَّا من الدين إن كانت الدعوة دينيةً، أو من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدولة. وإذا كانت الملكة<sup>(٣)</sup> رفيعةً محسنةً انبسطت آمالُ الرعايا، وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر، ويكثر التناسل، وإذا كان ذلك كله بالتدريج فإنما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الأقل. وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي. فيكون حينئذٍ العمران في غاية الوفور والنماء. ولا تقولن إنه قد مرَّ لك<sup>(٤)</sup> أن أواخر الدولة يكون فيها الإجحاف بالرعايا وسوء الملكة<sup>(٥)</sup>، فذلك صحيح، ولا يعارض ما قلناه، لأن الإجحاف وإن حدث حينئذٍ وقلت الجبايات فإنما يظهر أثره في تناقص العمران بعد حين، من أجل التدرّج في الأمور الطبيعية.

ثم إنَّ المجاعات والموتان تكثرُ عند ذلك في أواخر الدول. والسبب فيه:

إمَّا المجاعات: فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقلُّ احتكاكُ الزرع غالباً؛ وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمّر الوجود، ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار. فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع، وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا. وكان<sup>(٦)</sup> بعض السنوات، والاحتكار مفقوداً، فشمل الناس الجوع.

وأما كثرة الموتان: فلها أسبابٌ من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب: فسَادُ الهواءِ

١ - الموتان بفتحين: الموت، وهو كذلك مصدر ماتت الأرض موتاناً أي: خلت من العمارة والسكان.

٢ - في الفصل الرابع والعشرين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في أن إرهاب الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر. وفي الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران.

٣ - أي امتلاك الناس بالحكم والسلطان.

٤ - في الفصل السابع والأربعين من هذا الباب، وعنوانه: فصل في كيفية طروق الخلل بالدولة، وقد عرض كذلك لهذه الحقيقة نفسها في الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب.

٥ - أي الحكم.

٦ - كان هنا تامة بمعنى حصل وبعض فاعل كان، وجملة والاحتكار مفقود جملة حالية، والواو فيها للحال لا للعطف. (د. وافي).

بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني ومُلابسُهُ دائماً، فيسري الفسادُ إلى مزاجه، فإن كان الفسادُ قوياً وقع المرضُ في الرئة. وهذه هي الطَّواعين وأمراضها مخصوصةٌ بالرئة. وإن كان الفسادُ دونَ القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحمىات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك.

وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرةُ [ظ ١٣٣/٢] العمران، ووفوره آخرَ الدولة، لما كان في أوائلها من حسن الملكة، ورفقها وقلة المَغْرَم، وهو ظاهر. ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون توج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصحيح.

ولهذا أيضاً فإن الموتان يكونُ في المدن الموفورة العمران أكثرَ من غيرها بكثير، كمصر بالشرق، وفاس بالمغرب. والله يقدرُ ما يشاء.

## ١-٣-٥٢. الفصل الثاني والخمسون:

في أنَّ العُمَرانَ البَشَريَّ لا بُدَّ لَهُ مِنْ سِياسَةٍ يَنْتَظِمُ بِها أَمْرُهُ

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري<sup>(١)</sup>، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه. وحكمه فيهم: تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه؛ وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصلحة في العاقبة، ولمراعاته نجا العباد في الآخرة؛ والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء: ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً، ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يُسمَّى من ذلك بالمدينة الفاضلة؛ والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية<sup>(٢)</sup>، وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير. ثم إن السياسة العقلية التي قدّمناها تكون على وجهين:

أحدهما: يراعى فيها المصالح على العموم، ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس، وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مُغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب، وأحكام الملك مندرجة فيها<sup>(٣)</sup>.

الوجه الثاني: أن يراعى فيها مصلحة السلطان، وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً. وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر، إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم [ظ ١٣٤/١]، فقوانينها إذا مجتمعة من أحكام شرعية، وآداب خلقية، وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة

١ - انظر المقدمة الأولى من الكتاب الأول وعنوانها: المقدمة الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري.

٢ - يشير بذلك على الأخص إلى آراء أفلاطون في كتابه الجمهورية وإلى آراء الفارابي في كتابه: آراء أهل المدينة الفاضلة. انظر فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي بقلم الدكتور وافي.

٣ - أي: في الخلافة.

والعصبية ضرورية؛ والاعتداء فيها بالشرع أولاً، ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم؛ ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما. فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور، عهد إليه فيه، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية، والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة. ونص الكتاب<sup>(١)</sup>:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ: فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَخُدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَشِيَّتَهُ، وَمُرَاقِبَتَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَزِيلَةَ<sup>(٢)</sup> سُخْطِهِ، وَاحْفَظْ رَعِيَّتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَالْزِمْ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ، وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ، وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْهُ، وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ<sup>(٣)</sup>. فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْزِمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ<sup>(٤)</sup>، وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودَهُ عَلَيْهِمْ<sup>(٥)</sup>، وَالذَّبَّ عَنْهُمْ، وَالِدَّفْعَ عَنْ حَرَمِهِمْ وَبِيضَتِهِمْ<sup>(٦)</sup>، وَالْحَقْنَ لِذِمَائِهِمْ، وَالْأَمْنَ لِسِرْبِهِمْ<sup>(٧)</sup>، وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ [فِي مَعَايِشِهِمْ]<sup>(٨)</sup>. وَمُؤَاخَذَكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ [مِنْ ذَلِكَ]، وَمَوْقِفَكَ عَلَيْهِ، وَسَائِلَكَ<sup>(٩)</sup> عَنْهُ، وَمُثِيبَكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدِمْتَ وَأَخَّرْتَ. فَفَرِّغْ لَذَلِكَ فَهْمَكَ<sup>(١٠)</sup> وَعَقْلَكَ وَبَصْرَكَ، [وَلَا يُذْهِلَكَ عَنْهُ ذَاهِلٌ]، وَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ، وَإِنَّهُ<sup>(١١)</sup> رَأْسُ أَمْرِكَ وَمَلَاكَ شَأْنِكَ، وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ<sup>(١٢)</sup>.

١ - نص الكتاب في تاريخ الطبري (٥٨٢/٨ - ٥٩١). كاملاً. وأثبت أكثره ابن الأثير في تاريخه (٦/٣٦٤ - ٣٧٧).

٢ - يعني: الابتعاد عنه.

٣ - في الطبري: من عذابه وأليم عقابه.

٤ - في الطبري: عليهم.

٥ - في الطبري: فيهم.

٦ - في الأصل: منصبهم. وصحح من الطبري.

٧ - في الطبري: لسبيلهم.

٨ - ما بين: [ زيادة من الطبري.

٩ - في الطبري: مسائلك.

١٠ - في الطبري: فكرك..... وبصرك ورؤيتك.

١١ - في الطبري: فإنه.

١٢ - في الطبري: وأول ما يوقفك الله به لرشدك.

وَلَيْكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ، وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فَعْلَكَ<sup>(١)</sup> المُواظِبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قَبْلَكَ، وَتَوَابِعَهَا<sup>(٢)</sup>، عَلَى سَنَنِهَا، مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لَهَا، وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، وَرَتْلٍ<sup>(٣)</sup> فِي قِرَاءَتِكَ، وَتَمَكُّنٍ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ، وَتَشَهُدِكَ، وَلِتَصْرِفَ فِيهِ رَأْيَكَ وَنَيْتَكَ<sup>(٤)</sup>، وَاحْضِضِي عَلَيْهِ جَمَاعَةَ مِنْ<sup>(٥)</sup> مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ، وَادْأَبْ عَلَيْهَا فَإِنَّمَا<sup>(٦)</sup> كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُثَابَرَةِ عَلَى خِلَاقِهِ، وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ<sup>(٧)</sup> السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعْنِ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ، وَبِلِزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ<sup>(٨)</sup> رَسُولِ اللَّهِ [ظ ٢/١٣٤] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٩)</sup>. وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لَبْعِيدٍ.

وَأَثَرُ الْفَقْهَةِ وَأَهْلِهَا، وَالِدِّينِ وَحَمَلَتِهِ، وَكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ بِهِ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهَ فِي الدِّينِ، وَالطَّلِبُ لَهُ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ<sup>(١٠)</sup> إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ، كُلُّهُ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ<sup>(١١)</sup>، وَالْأَمْرُ بِهِ، وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا. وَ[بِهَا] — مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ — يَزِدَادُ الْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالاً لَهُ، وَدَرَكَاً لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ، مَعَ مَا فِي ظَهْوَرِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ، وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ، وَالْأَنْسَةِ بِكَ وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ.

١ - في الطبري: فعالك.

٢ - رجح الدكتور وافي أنها محرفة عن (وتوقعها). وأحسب أنه أراد بهذه العبارة ما يتبع الصلوات الخمس من الجمعة والعيد... إن لم تكن محرفة عن (في مواقيتها) كما جاء في الطبري.

٣ - في الطبري: وترتل.

٤ - في ابن الأثير (وليصدق فيه رأيك ونيتك). وفي الطبري: (ولتصدق فيه لربك نيتك).

٥ - في الأصل: ممن. والمثبت أوجه.

٦ - في الطبري: (فإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر) ولم يذكر الآية.

٧ - في الطبري: آثار.

٨ - في الطبري: على النبي.

٩ - في الطبري: (قم فيه بما يحق لله عليك).

١٠ - في الطبري: فيه منه.

١١ - في الطبري: له.

وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً، ولا أحص<sup>(١)</sup> أمناً، ولا أجمع فضلاً منه، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة، وقوام الدين والسُنن الهادية بالاقتصاد، فآثره في دنياك كلها.

ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسُنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة<sup>(٢)</sup>، والاستكثار من البرّ والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته، ومرافقة أولياء الله في دار كرامته.

واعلم<sup>(٣)</sup> أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ، ويمحص<sup>(٤)</sup> من الذنوب، وأنك لن تحوط نفسك (من قائل)<sup>(٥)</sup>، ولا تنصلح<sup>(٦)</sup> أمورك بأفضل منه، فأتته واهتد به، تتم أمورك، وتزدّد مقدرتك، وتصلح عامتك وخاصتك.

وأحسن ظنك بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستديم به النعمة عليك.

ولا تتهم أحدًا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره؛ فإن إيقاع التهم بالبرّاء والظنون السيئة بهم إثم<sup>(٧)</sup>. فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم<sup>(٨)</sup> يُعِنك ذلك على استطاعتهم<sup>(٩)</sup> ورياضتهم، ولا يجدن<sup>(١٠)</sup> عدوّ الله الشيطان في أمرك مغمزاً، فإنه [إنما] يكفي بالقليل من وهنك، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن (بهم ما ينقص)<sup>(١١)</sup> لذادة عيشك.

واعلم: أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة. وتكفي<sup>(١٢)</sup> به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها [لك]. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرفاة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، والمباشرة

١ - في الطبري: أحضر.

٢ - في الطبري: فلا غاية للاستكثار..

٣ - في ن: أما تعلم.

٤ - في الطبري: يحصن.

٥ - في الطبري: (ومن يليك).

٦ - في الطبري: تستصلح.

٧ - في الطبري: مأثم.

٨ - في الطبري: عنهم.

٩ - في الطبري: اصطناعهم.

١٠ - في ن: ولا تتخذن

١١ - في الطبري: الظن ما ينفصك.

١٢ - في الطبري: تكفي.

لأُمُور الأولياء [والحيطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكون المباشرة لأُمُور الأولياء] <sup>(١)</sup> وحيطة الرعية والنظر في حوائجهم، وحملُ مؤوناتهم، أثر <sup>(٢)</sup> عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة.

وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرّد بتقويم [ظ ١٣٥/١] نفسك تفرّد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزئ بما أحسن، ومؤاخذ <sup>(٣)</sup> بما أساء. فإن الله عز وجل جعل الدين جرّاً وعزّاً، ورفع من اتبعه وعزّزه.

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى، وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفریطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك.

واعتزم <sup>(٤)</sup> على أمرك في ذلك بالسُنن المعروفة، وجانب البدع والشبهات <sup>(٥)</sup>، يسلم لك دينك وتعم <sup>(٦)</sup> لك مروؤوتك.

وإذا عاهدت عهداً فأوف به، وإذا وعدت الخير فأجزه. وأقبل الحسنة وادفع بها. واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك. واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وابغض أهل النيمة، فإن أول فساد أمورك <sup>(٧)</sup> في عاجلها وآجلها، تقريب الكذب، والجراءة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنيمة خاتمتها؛ لأن النيمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب، ولا يستقيم له أمر.

وأحب أهل الصلاح والصدق، وأعز <sup>(٨)</sup> الأشراف بالحق، وأعز <sup>(٩)</sup> الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز <sup>(١٠)</sup> أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك. وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل

١ - ما بين: [ زيادة من الطبري.

٢ - في الأصل: أيسر. والمثبت من الطبري.

٣ - في الطبري: مأخوذ.

٤ - في الطبري: (اعزم).

٥ - في الطبري: الشبه والبدعات.

٦ - في ن: (وتتم).

٧ - في الطبري: أمرك.

٨ - في الطبري: أعز.

٩ - في ن: وآس. وفي الطبري: وواصل.

١٠ - في الطبري: عزة.

الهدى، وأملك نفسك عند الغضب، وآثر الحلم والوقار، وإيّاك والحدّة والطّيش<sup>(١)</sup> والغرور فيما أنت بسبيله.

وإيّاك أن تقول: أنا<sup>(٢)</sup> مسلّطٌ أفعلُ ما أشاء؛ فإنّ ذلك سريعٌ [فيك] إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل. وأخلص لله وحده النّية فيه واليقين به. واعلم أنّ الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه<sup>(٣)</sup> من يشاء وينزعه ممّن يشاء. ولكنّ تجد تغير النعمة وحلول النّعمة إلى أحدٍ أسرع منه إلى حملة<sup>(٤)</sup> النعمة من أصحاب السّلطان، والمبسوط لهم في الدّولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه، واستطالوا بما أعطاهم<sup>(٥)</sup> الله عز وجلّ من فضله. ودع عنك شره نفسك.

ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتّقوى [والمعدلة]<sup>(٦)</sup>، واستصلاح الرعيّة، وعمارة بلادهم، والتّفقّد لأُمُورهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة للمهوفهم. واعلم أنّ الأموال إذا اكتنّزت وأدخِرت في الخزائن لا تنمو<sup>(٧)</sup>، وإذا كانت في صلاح الرعيّة، وإعطاء حقوقهم، وكفّ الأذية<sup>(٨)</sup> عنهم نمت وزكّت<sup>(٩)</sup>، وصُلّحت بها<sup>(١٠)</sup> العامة، و(ترتبت بها الولاية)<sup>(١١)</sup>، وطاب بها<sup>(١٢)</sup> الزّمان، واعتقِد فيها<sup>(١٣)</sup> العزّ والمنفعة<sup>(١٤)</sup>.

فليكن كنزُ خزائنك<sup>(١٥)</sup> تفريقُ الأموال [ظ ١٣٥/٢] في عمارة الإسلام وأهله، ووفرّ منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوفِ [رعيّتك] من ذلك حصصهم، وتعهّد

١ - في الطبري: (الطيرة).

٢ - في الطبري: إني.

٣ - انظر سورة آل عمران الآية: ٢٦.

٤ - في ن: جهلة.

٥ - في الطبري: يعطيه.

٦ - ما بين: [ زيادة من الطبري.

٧ - في الطبري: كثرت وذخرت.... لا تنمو.

٨ - في الطبري: المونة.

٩ - في الطبري: ربّت.

١٠ - في الطبري: به.

١١ - في الطبري: تزينت الولاية.

١٢ - في الطبري: به.

١٣ - في الطبري: فيه.

١٤ - في الطبري: المنعة.

١٥ - في ظ: خزائنتك.



مَا يَصْلَحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ<sup>(١)</sup>؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ، وَاسْتَوْجِبْتَ الزَّيْدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خَرَاджِكَ، وَجَمَعَ أَمْوَالَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ، وَكَانَ الْجَمِيعُ<sup>(٢)</sup> لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لَطَاعَتِكَ. وَأَطِيبَ<sup>(٣)</sup> أَنْفُسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتُ.

وَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَدْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَلِيَعْظُمَ حَقُّكَ<sup>(٤)</sup> فِيهِ. وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ حَقِّهِ. وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ<sup>(٥)</sup> وَأَثْبِهِمْ عَلَيْهِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْسِيَكَ الدُّنْيَا وَغُرُورُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ فَتَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ، فَإِنَّ التَّهَانُونَ يَوْرَثُ<sup>(٦)</sup> التَّفْرِيطَ، وَالتَّفْرِيطُ يَوْرَثُ الْبَوَارَ. وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِيهِ، وَارْجُ الثَّوَابَ مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ [نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ] فَضْلَهُ. وَاعْتَصِمْ بِالشُّكْرِ، وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ، يَزِدُّكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ، وَإِحْسَانِ<sup>(٧)</sup> الْمُحْسِنِينَ. [وَقَضَّ الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ]، وَلَا تُحَقِّرَنَّ ذَنْبًا، وَلَا تَمَالِئَنَّ<sup>(٨)</sup> حَاسِدًا، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا وَلَا تَذَاهِنَنَّ عَدُوًّا، وَلَا تُصَدِّقَنَّ نِمَامًا، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا، وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًّا، وَلَا تَحْمَدَنَّ مَرَائِيًّا، وَلَا تُحَقِّرَنَّ إِنْسَانًا، وَلَا تَرُدَنَّ سَائِلًا فَقِيرًا، وَلَا تُحَسِّنَنَّ<sup>(٩)</sup> بَاطِلًا، وَلَا تَلَاخِظَنَّ مُضْجِكًا، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا، وَلَا تَزْهَوَنَّ فَخْرًا<sup>(١٠)</sup>، وَلَا تُظْهِرَنَّ<sup>(١١)</sup> غَضَبًا، وَلَا تَبَايِنَنَّ رَجَاءً<sup>(١٢)</sup>، وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَجًا، وَلَا تَزْكِيَنَّ سَفِيهًا<sup>(١٣)</sup>، وَلَا تَفَرِّطَنَّ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّمَامِ عَيْنًا<sup>(١٤)</sup>، وَلَا تَغْمُضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً<sup>(١٥)</sup>، وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا.

١ - في الطبري: معاشهم.

٢ - في الطبري: الجمع.

٣ - في ن: وطب.

٤ - في الطبري: لتعظم حسبتك.

٥ - في الطبري: شكرهم.

٦ - في الطبري: يوجب.

٧ - في الطبري: سيرة.

٨ - في الطبري: (تمايلن).

٩ - في الطبري: تحيين.

١٠ - في الطبري: ترهين مجرأ.

١١ - في الطبري: تعملن.

١٢ - في الطبري: تأتيين بذخا.

١٣ - في الطبري: تركبن سفها.

١٤ - في الطبري: تدفع الأيام عيانا. وفي ابن الأثير: تدفع الأنام عتابا. وفي ن: ترفع.

١٥ - في الطبري: الظالم رهبة أو مخافة.

وَأَكْثَرُ مُشَاوَرَةِ الْفُقَهَاءِ، وَاسْتَعْمَلَ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ، وَخَذَ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الرَّفَّةِ<sup>(١)</sup> وَالْبُخْلِ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا، فَإِنْ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلْتَ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ. وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا، فَإِنْ رَعَيْتَكَ إِنَّمَا تَعْقِدُ<sup>(٣)</sup> عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجَوْرِ عَلَيْهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَوَالِ<sup>(٥)</sup> مِنْ صَفَاكَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ، وَاجْتَنِبِ الشُّحَّ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى الْإِنْسَانُ بِهِ رَبَّهُ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَثَلَةِ الْخَزْيِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ، وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ فِي فَيْعِكَ<sup>(٦)</sup> حَظًّا وَنَصِيبًا، وَأَيُّقِنْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالٍ [ظ ١/١٣٦] الْعِبَادَةِ، فَاعِدِدْهُ<sup>(٧)</sup> لِنَفْسِكَ خَلْقًا، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا. وَتَفَقَّدِ الْجُنْدَ فِي دَوَاوِينِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ، وَأَدِرَّ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ يَذْهَبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ فَاقْتَهُمْ، فَيَقْوَى<sup>(٨)</sup> لَكَ أَمْرُهُمْ، وَتَزِيدَ قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا. وَحَسَبَ ذِي السُّلْطَانِ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ ذَا رَحْمَةٍ فِي عَدْلِهِ وَعَطِيَّتِهِ<sup>(٩)</sup> وَإِنْصَافِهِ وَعَنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَبِرِّهِ وَتَوْسِعَتِهِ. فَزَايِلُ مَكْرُوهِ أَحَدِ الْبَايِنِ<sup>(١٠)</sup> بِاسْتِشْعَارِ فَضْلِ<sup>(١١)</sup> الْبَابِ الْآخِرِ، وَلِزُومِ الْعَمَلِ بِهِ، تَلَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَكَانِ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ<sup>(١٢)</sup> شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ. لِأَنَّهُ مِيزَانُ اللَّهِ الَّذِي تَعْدِلُ عَلَيْهِ (أَحْوَالُ النَّاسِ)<sup>(١٣)</sup> فِي الْأَرْضِ. وَبِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ

١ - في الطبري: الدقة. وابن الأثير: مذمة. وفي ن: الرقة.

٢ - في الطبري: منفعتهم.

٣ - في الطبري: تعتقد.

٤ - في الطبري: عنهم.

٥ - في ن: وابتدىء. وفي الطبري: ويدوم صفاء أوليائك لك.

٦ - في الطبري: من نيتك.

٧ - في ن: فأعده.

٨ - في الطبري: ويقوم.

٩ - في الطبري: حيطته.

١٠ - في الطبري: إحدى البليتين.

١١ - في الطبري: تكلمة.

١٢ - في الطبري: به.

١٣ - في الطبري: الأحوال.

والعمل، تصلح أحوال الرعية وتؤمنُ السبل، وينتصفُ المظلوم، وتأخذُ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، وقيم<sup>(١)</sup> الدين، ويُجري السنن والشرائع في مجاريها<sup>(٢)</sup>.

واشتد في أمر الله عز وجل. وتورع عن النطف<sup>(٣)</sup>. وامض لإقامة الحدود. وأقلل العجلة، وأبعد عن<sup>(٤)</sup> الضجر والقلق، واقنع بالقسم، [ولتسكن ريحك، وقرر جدك]، وانتفع بتجربتك، واتبه في صحبتك<sup>(٥)</sup>، واسدد في منطقتك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيته محابة ولا مجاملة<sup>(٦)</sup>، ولا لومة لائم، وثبت، تأنّ وراقب، وانظر، وتفكر، وتدبر، واعتبر، وتواضع لربك، وارفق<sup>(٧)</sup> بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم - فإنّ الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم - انتهاكاً لها بغير حقّها.

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله توسعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديهم<sup>(٨)</sup> ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل، والتسوية والعموم [فيه]، ولا تدفعن<sup>(٩)</sup> شيئاً منه عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا عن أحد من خاصتك ولا حاشيتك، ولا تأخذنّ منه فوق الاحتمال له. ولا تكلف أمراً فيه شطط. واحمل الناس كلهم على أمر<sup>(١٠)</sup> الحق، فإنّ ذلك أجمع لألفتهم<sup>(١١)</sup> وألزم لرضاء العامة.

واعلم أنّك جعلت بولايتك خازناً، وحافظاً وراعياً. وإنما سمي أهل عملك رعيته لأنك راعيهم وقيّمهم، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم<sup>(١٢)</sup> [وقدرتهم]، ونفذه<sup>(١٣)</sup> في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم. واستعمل [ظ ١٣٦/٢] عليهم [في كور عملك]

١ - في الطبري: يقوم.

٢ - في الطبري: وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء.

٣ - أي: العيب والفساد.

٤ - في الطبري: من.

٥ - في الطبري: صمتك.

٦ - في الطبري: محاماة ولا لوم.

٧ - في الطبري: أرأف.

٨ - في الطبري: معاهدتهم. وابن الأثير: معانديهم.

٩ - في الطبري: ترفعن.

١٠ - في الطبري: مر.

١١ - في ن: لأنفسهم.

١٢ - عفو المال: ما يفضل عن النفقة. أي: خذ منهم مما تطيب به أنفسهم وهم قادرون على إعطائه.

١٣ - في الطبري ونسخة من ابن الأثير: تنفقه.

ذوي<sup>(١)</sup> الرأي والتدبير والتجربة والخبرة [بالعمل] وبالعلم والعدل<sup>(٢)</sup> بالسياسة والعفاف، ووسّع عليهم في الرزق، فإنّ ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت وأسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل، ولا يصرفك عنه صارف. فإنك متى آثرته وقمت فيه الواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربّك، وحسن الأحداث في عملك<sup>(٣)</sup>، واجتررت<sup>(٤)</sup> به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصّلاح، فدرّت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كورك<sup>(٥)</sup>، وكثر خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتياض<sup>(٦)</sup> جندك، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة، مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلّها ذا عدل وآلة وقوة وعُدّة. فنافس في ذلك ولا تُقدّم عليه شيئاً تحمّد عاقبة<sup>(٧)</sup> أمرك إن شاء الله تعالى.

واجعل في كلّ كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمّالك، ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كلّ عامل في عمله، معاين لأموره كلّها. فإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدّفاع [والنصح] والصنع فأمضه، وإلا فتوقّف عنه، وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عُدّته؛ فإنه ربّما نظر الرجل في [أمر من] أمره وقد<sup>(٨)</sup> أتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبّه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ونقض عليه أمره.

فاستعمل الحزم في كلّ ما أردت، وباشره بعد عون الله عزّ وجلّ بالقوّة. وأكثر من استخارة ربّك في جميع أمورك.

وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإنّ لغد<sup>(٩)</sup> أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت.

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين، فيشغلك<sup>(١٠)</sup> ذلك حتى تمرض منه<sup>(١١)</sup>. وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك، وجمعت<sup>(١٢)</sup> أمر سلطانك.

١ - في نسخة: أولي.

٢ - في الطبري: بالعمل. والعلم بالسياسة. وفي الأصل: والخبرة وبالعلم والعدل.

٣ - في الطبري: أعمالك.

٤ - في ن: استحرت. وفي الطبري: احتزرت النصيحة. وفي ابن الأثير: احتزرت به المحبة.

٥ - في القاموس: الكورة: المدينة. والصقع وجمعه كور.

٦ - في الطبري وابن الأثير: ارتباط.

٧ - في الطبري وابن الأثير: مغبة.

٨ - في ن: وقدره و.

٩ - في ن: للغد.

وانظر أحرار الناس وذوي (الفضل منهم ممن بلوت) <sup>(١)</sup> صفاء طويّتهم، وشهدت <sup>(٢)</sup> مودّتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة <sup>(٣)</sup> علي أمرك، فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، واحتمل مؤنتهم. وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلتهم منافساً <sup>(٤)</sup>. وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسأل عنه أحفى <sup>(٥)</sup> مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصّلاح من رعيتك، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم <sup>(٦)</sup> إليك، لتتضرع فيما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء وأيتامهم [ظ ١٣٧/١] وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمر المؤمنين أعزّه الله تعالى، في العطف عليهم والصّلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشتهم، ويرزقك به بركة وزيادة. وأجر للأضرّاء <sup>(٧)</sup> من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية <sup>(٨)</sup> على غيرهم. وانصب لمريض المسلمين دوراً تأويهم وقوَّاماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف <sup>(٩)</sup> في بيت المال.

واعلم أنّ الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم، طمعا في نيل الزيادة وفضل الرّفق بهم <sup>(١٠)</sup>، وربّما تيرم المتصفّح لأموال الناس لكثرة ما يرد عليه. ويشغل فكره وذنه منها ما يناله به من مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل، ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقل <sup>(١١)</sup> ما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس رحمته به.

١ - في ن: فيثقل.

١١ - في الطبري وابن الأثير: تعرض عنه.

١٢ - في الطبري وابن الأثير: أحكمت أمور سلطانك.

١ - في الطبري: (الشرف منهم، ثم استيقن). وفي ابن الأثير: (السن منهم ممن تستيقن).

٢ - في الطبري: تهذيب.

٣ - في الطبري وابن الأثير: المخالصة.

٤ - وفي ن: منافراً. من معاني المنافرة المفاخرة. وهذا المعنى هو المقصود في هذه العبارة. أي: حتى لا يجدوا من يتعاضم عليهم بسبب فقرهم.

٥ - يعني: اهتم بأمره وبالغ في رعايته.

٦ - يعني هنا: الحاجة والفقر والخصاصة.

٧ - في القاموس: الأضرّاء، جمع ضريح وهو الذاهب البصر. وفي بعض النسخ: الأمراء.

٨ - في ابن الأثير: الجرائد.

٩ - في ن: إسراف.

١٠ - في الطبري وابن الأثير: منهم.

١١ - في الطبري: يستقبل. وابن الأثير: يستقل.

وأكثر الإذن للناس عليك وأبرز لهم<sup>(١)</sup> وجهك، وسكن لهم حواسك<sup>(٢)</sup>، وانخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك، ولن لهم في المسألة والنطق<sup>(٣)</sup>، واعطف عليهم بحدوك وفضلك، وإذا أعطيت فأعطِ بِسَمَاحَةٍ وطيب نفس والتماس<sup>(٤)</sup> للصنعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان<sup>(٥)</sup>؛ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مَرْجُوحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرئاسة في القرون الخالية والأمم البائدة.

ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِـ[أَمْرِ] اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مُحَبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَيَقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.

وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عَمَّا لَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَمَا يَنْفَقُونَ مِنْهَا. وَلَا تَجْمَعْ حَرَامًا، وَلَا تُنْفِقْ إِسْرَافًا.

وَأَكْثَرُ مَجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتِهِمْ وَمَخَالَطَتِهِمْ، وَلِيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتِهَا، وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ<sup>(٦)</sup> وَمَعَالِيهَا. وَلِيَكُنْ أَكْرَمَ دُخْلَاتِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مِنْ إِذَا رَأَى عِيَا فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتِكَ مِنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ، وَإِعْلَامِكَ<sup>(٧)</sup> بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ؛ فَإِنَّ أَوْلَئِكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ.

وَانْظُرْ عَمَّا لَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكِتَابِكَ، فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ عَلَيْكَ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عَمَّا لَكَ وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ<sup>(٨)</sup> وَرِعِيَّتِكَ. ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورَدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ، وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ<sup>(٩)</sup> وَالتَّدَبُّرَ لَهُ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضِهِ، وَاسْتَخِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَمَا كَانَ مُخَالَفًا [ظ ١٣٧/٢] لَذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ، وَالتَّثَبُّتِ فِيهِ.

١ - في نسخة: وأرهم.

٢ - في بعض النسخ: وسكن حراسك، وفي الطبري: أحراسك. وفي نسخة من ابن الأثير: حراسك. وفي نسخة موافق لما هنا. أي: اجعلهم ساكنين حتى يدخل عليك من يريد لقاءك.

٣ - في الطبري وابن الأثير: المنطق.

٤ - في الطبري: التمس الصنعة.

٥ - في الطبري: مكدر ولا منان.

٦ - في الطبري وابن الأثير: الأمور.

٧ - في ن: (وإعلانك).

٨ - في الطبري وابن الأثير: كدرك.

٩ - في الطبري: إليه.

ولا تمنن<sup>(١)</sup> على رَعِيَّتِكَ ولا غيرهم بمعروفٍ تَوْتِيهِ إِلَيْهِمْ. ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعونَ في أمور أمير المسلمين<sup>(٢)</sup>، ولا تَضَعَنَّ المعروفَ إلا على ذلك. وَتَفْهَمُ كتابي إِلَيْكَ وَأَمْعِنُ<sup>(٣)</sup> النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَاسْتَعِزْ بِاللهِ على جميعِ أمورِكَ واستخره، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مع الصَّلاحِ وأَهْلِهِ. وليكن أعظمُ سِيرَتِكَ وأفضلُ رَغْبَتِكَ ما كانَ لله عِزٌّ وَجَلُّ رِضًا، وَلِدِينِهِ نِظَامًا، وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكِينًا، وَلِلْمَلَّةِ وَالذِّمَّةِ عَدْلًا وَصَلَاحًا. وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ عِزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرِشْدَكَ وَكَلَاءَتَكَ وَالسَّلَامَ. وَحَدَّثَ الْإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ النَّاسُ وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُونِ فَلَمَّا قَرِئَ عَلَيْهِ قَالَ:

مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ - يَعْنِي: طَاهِرًا - شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحِفْظِ السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ.

ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي النُّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ، وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ. هَذَا أَحْسَنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

١ - في ن: ولا تمنن.

٢ - في الطبري وابن الأثير: (المؤمنين).

٣ - في ن: (وأنعم). وفي الطبري وابن الأثير: أكثر.

## ١-٣-٥٣. الفصل الثالث والخمسون:

في أمرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي شَأْنِهِ

وكشف الغطاء عن ذلك

اعلم أنَّ في المشهور بين الكافَّة من أهل الإسلام على ممرِّ الأعصار، أنَّه لا بُدَّ في آخر الزَّمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيِّدُ الدِّينَ، ويظهر العدلَ، ويتبعه المسلمون، ويستولِّي على الممالك الإسلامية، ويُسمَّى بالمهدي؛ ويكون خروج الدَّجَّال وما بعده من أشراط السَّاعة - الثَّابتة في الصَّحيح - على أثره؛ وأنَّ عيسى ينزل من بعده فيقتل الدَّجَّالَ، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتُمُّ بالمهدي في صلاته ويحتجُّون في هذا الشَّأن بأحاديث خرَّجها الأئمة وتكلَّم فيها المنكرون لذلك، ورُبَّما عارضوها ببعض الأخبار وللمتصوِّفة المتأخِّرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى، ونوع من الاستدلال؛ وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم<sup>(١)</sup>.

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشَّأن وما للمنكرين فيها من المطاعن ومالهم في إنكارهم من المستند، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوِّفة ورأيهم، ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى فنقول:

إنَّ جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهديِّ منهم الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصَّحابة مثل علي وابن عبَّاس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدريِّ وأم حبيبة وأم سلمة [ظ ١/١٣٨] وثوبان وقرَّة بن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث ابن جَزء، بأسانيد رُبَّما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أنَّ الجرح مقدَّم على التعديل. فإذا وجدنا طعنًا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظٍ أو ضعفٍ أو سوء رأيٍ تطرق ذلك إلى صحَّة الحديث وأوهن منها. ولا تقولن: مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصَّحَّاحين<sup>(٢)</sup>، فإنَّ الإجماع قد اتَّصل في الأُمَّة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما؛ وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع. وليس غير الصَّحَّاحين بمثابتهما في ذلك، فقد نجد بحالًا للكلام في أسانيدهما بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغلَّ أبو بكر بن أبي خيثمة - على ما نقل السهيلي عنه - في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فقال: ومن أغربها إسنادًا ما ذكره أبو بكر الإسكافي في فوائده



الأخبار<sup>(١)</sup>، مسنداً إلى مالك بن أنس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كَذَبَ بِالْمُهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ، ومن كَذَبَ بِالذَّجَالِ فَقَدْ كَفَرَ»<sup>(٢)</sup>.

وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب. وحسبك هذا غلواً. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس. على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع<sup>(٣)</sup>. وأما الترمذي فخرَجَ هو وأبو داود<sup>(٤)</sup> بسنديهما إلى ابن عباس<sup>(٥)</sup> من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي - يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي». هذا لفظ أبي داود. وسكت عليه. وقال في رسالته المشهورة: إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح. ولفظ الترمذي<sup>(٦)</sup>: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي». وفي لفظ آخر: «حتى يلي رجلٌ من أهل بيتي». وكلاهما حديث حسن صحيح.

ورواه أيضاً من طريقه<sup>(٧)</sup> موقوفاً على أبي هريرة.

وقال الحاكم<sup>(٨)</sup>: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم<sup>(٩)</sup> من أئمة المسلمين عن عاصم. قال: وطرق عاصم، عن زر، عن عبد الله، كلها صحيحة على ما أصلتها من الاحتجاج بأخبار عاصم، إذ هو إمام من أئمة المسلمين. انتهى. إلا أن عاصماً<sup>(١٠)</sup> قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلاً صالحاً قارئاً للقرآن خيراً ثقةً والأعمش أحفظ منه. وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث.

١ - نقله السيوطي في الحاوي (٨٣/٢) عن أبي بكر الإسكاف، ولم يزد على ذلك.

٢ - في بعض النسخ: ومن كذب بالذجال فقد كذب.

٣ - أي: يكثر من وضع الأحاديث واختلاقها.

٤ - أخرجه أحمد (١/٣٧٦ و ٣٧٧ و ٤٣٠ و ٤٤٨) وأبو داود (٤٢٨٢) الترمذي (٢٢٣٠ و ٢٢٣١) من طرق عن عاصم به.

٥ - لا معنى لقوله (ابن عباس). إلا إذا تحرفت عن (ابن عباس). وفي هذا موازنة أخرى لأنه من طريق أبي بكر بن عياش في أبي داود فقط.

٦ - وهو رواية لأبي داود أيضاً.

٧ - في الأصل: طريق. والصحيح ما أثبتته لأنه من طريق عاصم في الترمذي (٢٢٣٢).

٨ - انظر قول الحاكم في المستدرک في موضعين (٤/٤٤٢ و ٥٥٧).

٩ - أي وسفيان بن عيينة وعمر بن عبيد، وأبو بكر بن عياش، وفطر. وانظر التخریج الأول.

١٠ - انظر هذه الأقوال في تهذيب الكمال للحافظ المزي (٣/٤٧٣ - ٤٨٢).

وقال العجلي: كان يختلف عليه في زر وأبي وائل [ظ ١٣٨/٢]. يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة إلا أنه كثير الخطأ في حديثه.

وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي، إن أبا زرعة يقول: عاصم ثقة، فقال: ليس محله هذا. وقد تكلم فيه ابن عُلَيَّة فقال: كل من اسمه عاصم سيء الحفظ.

وقال أبو حاتم: محله عندي محل الصدق، صالح الحديث. ولم يكن بذلك الحافظ. واختلف فيه قول النسائي.

وقال ابن خراش<sup>(١)</sup>: في حديثه نكرة.

وقال أبو جعفر العجلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ.

وقال الدارقطني: في حفظه شيء.

وقال يحيى القطان: ما وجدت رجلاً اسمه عاصم، إلا وجدت رديء الحفظ. وقال أيضاً: سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود، وفي النفس<sup>(٢)</sup> ما فيها.

وقال الذهبي<sup>(٣)</sup>: ثبت في القراءة، وهو في الحديث دون الثبت، صدوق يهم<sup>(٤)</sup>. وهو حسن الحديث.

وإن احتج أحد بأن الشَّيْخَيْنِ أخرجاه له فنقول: أخرجاه مقروناً بغيره لا أصلاً. والله أعلم.

وخرَّجَ أبو داود<sup>(٥)</sup> في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية فطر بن خليفة، عن القاسم بن أبي بزة<sup>(٦)</sup>، عن أبي الطفيل، عن علي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَوْ لَمْ يَنْقُ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ يَتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئْتُ جَوْرًا».

١ - في الأصل: حراش. خطأ.

٢ - في الأصل: (الناس) خطأ. صحح من تاريخ ابن عساكر (٢٢/٣). وميزان الاعتدال. أي: وفي النفس من ناحيته وناحية الثقة بكلامه ما فيها. وهو: عاصم بن بهدلة.

٣ - انظره في ميزان الاعتدال (٣٥٧/٢ - ٣٥٨).

٤ - في الأصل: فهم. خطأ. صحح من الميزان.

٥ - أخرجه أبو داود (٤٢٨٣). وأخرجه أحمد (٩٩/١) من طريقين قال في أحدهما: قال أبو نعيم الفضل بن دكين: وسمعه [أي: فطر] مرة يذكره عن حبيب [يعني ابن أبي ثابت].

٦ - في الأصل: (مرة) خطأ. وصححه الدكتور وافي إلى (برة) خطأ أيضاً. وهو ابن بزة وهو ثقة قليل الحديث.

وفطر بن خليفة<sup>(١)</sup>، وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم، إلا أن العجلي قال: حسن الحديث وفيه تشيع قليل. وقال ابن معين مرة: ثقة شيعي.

وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: كنا نمرُّ على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه. وقال مرة: كنت أمرُّ به وأدعه مثل الكلب. وقال الدارقطني: لا يحتج به.

وقال أبو بكر بن عيَّاش: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه. وقال الجوزجاني<sup>(٢)</sup>: زائغ غير ثقة. انتهى.

وخرج أبو داود<sup>(٣)</sup> أيضاً بسنده، إلى علي رضي الله عنه، عن هارون بن المغيرة، عن عمرو<sup>(٤)</sup> بن أبي قيس، عن شعيب بن خالد<sup>(٥)</sup>، عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال علي ونظر إلى ابنه الحسن: «إن ابني هذا سيد كما سمَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، [و] سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً».

وقال هارون: حدثنا (عمرو)<sup>(٦)</sup> بن أبي قيس، عن مطرف بن طريف، عن أبي الحسن، عن هلال بن (عمرو)<sup>(٧)</sup>، سمعت علياً يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث [حراث]، على مقدمته رجل يقال له: منصور يوطيء أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجب [ظ ١٣٩/١] على كل مؤمن نصره، أو قال: إجابته».

سكت أبو داود<sup>(٨)</sup> عليه. وقال في موضع آخر: هارون هو من ولد الشيعة. وقال السليمانى: فيه نظر<sup>(٩)</sup>.

١ - انظر ترجمته وتوثيق هذه الأقوال في تهذيب الكمال (٣١٢/٢٣ - ٣١٦) وميزان الاعتدال (٦٧٧٩) وخلاصة رأي الذهبي فيه أنه ثقة، إذ ذكره في من تكلم فيه وهو موثق.

٢ - في الأصل: (الجوزجاني) خطأ. وقوله في كتابه: أحوال الرجال ترجمة (٧٢).

٣ - رقم: (٤٢٩٠).

٤ - في الأصل: (عمر) خطأ.

٥ - في الأصل: (ابن أبي خالد) خطأ. وهو البجلي الرازي قاضي الري. ليس به بأس. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٥٢١/١٢ - ٥٢٢).

٦ - في الأصل: (عمر) خطأ.

٧ - في الأصل: (عمر) خطأ. صحح من أبي داود وكتب الرجال.

٨ - أبو داود (٤٢٩٠).

٩ - الذي في تهذيب الكمال (١١١/٣٠) وميزان الاعتدال (٢٨٧/٤): ليس به بأس، هو من الشيعة.

وقال أبو داود في عمرو<sup>(١)</sup> بن أبي قيس: لا بأس به. في حديثه خطأ.  
وقال الذهبي: صدوق له أوهام<sup>(٢)</sup>.

وأما أبو إسحاق السبيعي<sup>(٣)</sup>: وإن خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره، وروايته عن علي منقطعة، وكذلك<sup>(٤)</sup> رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة.  
وأما السند الثاني، فأبو الحسن فيه وهلال بن عمرو<sup>(٥)</sup>: مجهولان؛ ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه. انتهى.

وخرج أبو داود<sup>(٦)</sup> أيضاً عن أم سلمة وكذا ابن ماجه<sup>(٧)</sup>، والحاكم في المستدرک<sup>(٨)</sup>، من طريق علي بن نفيل<sup>(٩)</sup>، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المهدي [من عترتي] من ولد فاطمة». ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال: «نعم هو حق، وهو من بني فاطمة».

ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي ابن نفيل عليه، ولا يعرف إلا به<sup>(١٠)</sup>.

وخرج أبو داود<sup>(١١)</sup> أيضاً عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل<sup>(١٢)</sup>، عن صاحب، عن أم سلمة قال: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة، فيخرجونه وهو كاره، فيباعدونه بين الركن

١٠ - تفرد السليمانى بهذا القول، وقد وثقه غير واحد.

١ - في الأصل: عمر. خطأ.

٢ - وقد وثقه ابن معين وابن حبان وابن الجنييد وقال البزار: مستقيم الحديث. انظر تهذيب الكمال (٢٠٣/٢٢ - ٢٠٥).

٣ - في الأصل: (الشيعي) خطأ.

٤ - أي: أن الحديث الذي مر قبل قليل منقطع. بسبب رواية أبي إسحاق، عن علي. وخصوصاً لعدم تصريح السبيعي بسماعه من علي.

٥ - في الأصل: عمر. خطأ.

٦ - رقم: (٤٢٨٤).

٧ - رقم: (٤٠٨٦).

٨ - المستدرک: (٥٥٧/٤).

٩ - وثقه ابن حبان. وقال أبو حاتم: لا بأس به، وأثنى عليه أبو المليلح الرقي. انظر تهذيب الكمال (٤٣٦/٩ - ٤٤٧) و(١٦٢/٢١ - ١٦٣).

١٠ - وقال البخاري في تاريخه الكبير (١١٧١/٣) عن هذا الإسناد: في إسناده نظر.

١١ - أخرجه أحمد (٦٣١٦) وأبو داود (٤٢٨٦) و(٤٢٨٧).

١٢ - هو صالح بن أبي مريم. وقد تحرف في مطبوعة الدكتور وافي إلى صالح بن الخليل.

والمقام، فيبعث إليه بعث من الشام، فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال<sup>(١)</sup> أهل الشام، وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال، ويعمل في الناس بسنة نبهم صلى الله عليه وسلم، ويلقي الإسلام بجرانه<sup>(٢)</sup> على الأرض، فلبث سبع سنين». وقال بعضهم: «تسع سنين [ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون]».

ثم رواه أبو داود<sup>(٣)</sup> من رواية أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهم في الإسناد الأول، ورجاله رجال الصحيحين<sup>(٤)</sup> لا مطعن فيهم ولا مغمز. وقد يقال: إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل، وكتادة مذكس، وقد عنعنه. والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع. مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي. نعم ذكره أبو داود في أبوابه.

وخرج [ظ ١٣٩/٢] أبو داود<sup>(٥)</sup> أيضاً وتابعه الحاكم، عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان، عن قتادة، عن أبي نصر<sup>(٦)</sup>، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ»<sup>(٧)</sup> أَقْنَى الْأَنْفِ<sup>(٨)</sup> يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً

١ - الأبدال: قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض، اختلف في عددهم: ٧، ١٤، ٣٠، ٤٠، ٦٠، ٧٠، ٨٠. وقيل: أربعون رجلاً وأربعون امرأة. صفاتهم: ليسوا بالمتنعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعقنين ولا بالمعجبين بأعمالهم. غير مكثرين من الصلاة والصوم والصدقة، يمتازون بسخاوة النفس وسلامة القلب والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، حسنة أخلاقهم ونيتهم وورعهم، غير متماوتين ولا طعانيين على الأئمة ولا بالمتهاككين لا المتناوشين وليسوا متخشعين لا يلعنون شيئاً ولا يؤذون أحداً لا يتناولون على أحدٍ تحتهم ولا يحتقرونه، ولا يحسدون أحداً فوقهم، ولا يحبون دنيا ولا يحبون الدنيا. ولا يضربون بأيديهم شيئاً. يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله، يرضون بالقضاء ويصبرون عن محارم الله ويغضبون في ذات الله، علامتهم: قلة الكلام والطعام والنمائم واعتزال الأنعام. انظر تفصيلات ذلك في الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال للسيوطي وطبقات الصوفية للسلي (ص ٥١).

٢ - الجران: مقدم عنق البعير من مذبجه إلى منحره. فإذا برز البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه. والتعبير هنا كناية عن الاستقرار والتمكن.

٣ - رقم: (٤٢٨٨).

٤ - يريد الإسناد الأول إذا ثبت أن صاحب صالح هو عبد الله بن الحارث وإلا فلن في الإسناد الثاني، أبو العوام عمران بن داود القطان، وقد تحدث عنه فيما يأتي.

٥ - رقم: (٤٢٨٥).

٦ - في الأصل: بصرة. خطأ.

٧ - في القاموس: هو أجلى الجبهة: واسعها.

٨ - في القاموس: قنا الأنف: ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه.

وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ»<sup>(١)</sup>. هذا لفظ أبي داود، وسكت عليه.

ولفظ الحاكم<sup>(٢)</sup>: «الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، أَشْمُ الْأَنْفِ أَقْنَى، أَجْلَى، يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَعِيشُ هَكَذَا، وَبَسَطَ يَسَارَهُ وَإِصْبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ السَّبَّابَةِ»<sup>(٣)</sup> وَالْإِبْهَامِ وَعَقَدَ ثَلَاثَ».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يُخرِّجْاه<sup>(٤)</sup>. انتهى.  
وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به، إنما أخرج له البخاري استشهاداً لا أصلاً.  
وكان يحبى القطان لا يحدث عنه<sup>(٥)</sup>.

وقال يحيى بن معين: ليس بالقوي، وقال مرة: ليس بشيء.

وقال أحمد بن حنبل: أرْجُو أن يكون صالح الحديث.

وقال يزيد بن زريع: كَانَ حَرْوَرِيًّا<sup>(٦)</sup>، وكان يرى السَّيْفَ على أهل القبلة.

وقال النسائي: ضعيف.

وقال أبو عبيد الآجري: سألت أبا داود عنه فقال: من أصحاب الحسن، وما سمعت عنه إلا خيراً. وسمعت مرة أخرى ذكره فقال: ضعيف، أفتى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بفتوى شديدة، فيها سَفْكُ الدِّمَاءِ.

وخرج<sup>(٧)</sup> الترمذي وابن ماجة والحاكم، عن أبي سعيد الخدري، من طريق زيد العمي، عن أبي صديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: خشينا أن يكون (بعد نبياً)<sup>(٨)</sup> حدث، فسألنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ، يُخْرِجُ، يَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا». زَيْدُ الشَّكَّاءُ، قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «سِنِينَ». قال:

١ - أخرجه أحمد (١٧/٣ و ٢٨ و ٣٦ و ٧٠) من طرق عن مطر بن طهمان الوراق، والمعلی، وعوف وأبي هارون العبدی كلهم عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي، أجلى أقنى، يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت قبله ظلماً، يكون سبع سنين». فلم ينص على تسميته وسيد ذكر قريباً أنها فيما يأتي وهي صحيحة لم يطعن فيها.

٢ - المستدرک (٥٥٧/٤).

٣ - في المستدرک: المسبحة.

٤ - وقال الذهبي في تلخيص المستدرک: عمران ضعيف ولم يخرج له مسلم.

٥ - قال عمرو بن علي: كان عبد الرحمن بن مهدي يحدث عنه، وكان يحبى لا يحدث عنه، وقد ذكره يحيى يوماً فأحسن الثناء عليه. وانظر باقي الأقوال في تهذيب الكمال (٣٢٨/٢٣ - ٣٣٠).

٦ - الحرورية: فرقة من الخوارج. ينسبون إلى حروراء. وهي قرية بقرب الكوفة كان بها أول اجتماع لهم.

٧ - أخرجه أحمد (٢١/٣ و ٢٦) والترمذي (٢٢٣٢) وابن ماجة (٤٠٨٣) والحاكم (٥٥٨/٤).

٨ - تحرف في الطبوع إلى: بعض شيء.

«فَإِجْبِيْهِ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي [أَعْطِنِي]». قال: «فَيَحْثِي لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ».

لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ، فَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ، تَوْفِي الْأَرْضَ أَكْلَهَا وَلَا يَدْخُرُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كَدُّوسٌ»<sup>(١)</sup> فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي! فَيَقُولُ: خُذْ. انتهى.

وَزَيْدُ الْعَمِّيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارِقُطِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: إِنَّهُ صَالِحٌ، وَزَادَ أَحْمَدُ: إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدِ الرَّقَاشِيِّ وَفَضْلِ بْنِ عَيْسَى، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ: ضَعِيفٌ، يُكْتَبُ حَدِيثُهُ، وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: لَا شَيْءَ. وَقَالَ مَرَّةً: يَكْتَبُ حَدِيثُهُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَقَالَ الْجَوْزْجَانِيُّ<sup>(٢)</sup>: مَتَمَّاسِكٌ.

وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: لَيْسَ بِقَوِيٍّ، وَاهِي الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ. وَقَالَ [ظ. ١٤٠/١] أَبُو دَاوُدَ<sup>(٣)</sup>: لَيْسَ بِذَاكَ، وَقَدْ حَدَّثَ عَنْ شُعْبَةَ. وَقَالَ النَّسَائِيُّ: ضَعِيفٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: عَامَةٌ مَا يَرُويهِ وَمَنْ يَرُوي عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ [هَمْ وَهَو]، عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ، وَلَعَلَّ شُعْبَةَ لَمْ يَرُوْ عَنْ أَوْعَفٍ مِنْهُ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنْ حَدِيثُ التِّرْمِذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup> فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثُو الْمَالَ حَثْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا».

وَمِنْ حَدِيثِ<sup>(٥)</sup> أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «مَنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو الْمَالَ حَثْوًا». وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى<sup>(٦)</sup> عَنْهُمَا قَالَ: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعْدُهُ». انتهى.

١ - يعني: كثير، يكادس بعضه فوق بعض.

٢ - في الأصل: الجرجاني. خطأ. وانظر قوله في كتابه أحوال الرجال وتهذيب الكمال (٥٨/١٠).

٣ - في الأصل: أبو حاتم. خطأ. لأنه مرقب قليل ولم أجد هذا القول في الجرح والتعديل (٥٦٠/٣ - ٥٦١) وإنما هو قول لأبي داود نقله عنه أبو عبيد الآجري في سؤالاته (٣/ رقم ٢٨٦) والمزي في تهذيب الكمال (٥٩/١٠).

٤ - رقم (٢٩١٣ و ٢٩١٤) (٦٧).

٥ - رقم (٢٩١٣ و ٢٩١٤) (٦٨).

٦ - رقم (٢٩١٣ و ٢٩١٤) (٦٩).

وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها. ورواه الحاكم<sup>(١)</sup> أيضاً من طريق عوف الأعرابي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئْتُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا».

وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه<sup>(٢)</sup>. ورواه الحاكم<sup>(٣)</sup> أيضاً، من طريق سليمان بن عبيد، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمُهْدِيُّ يَسْتَقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثُ، وَتَخْرُجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا، وَيُعْطِي الْمَالَ صَحَاحًا، وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ، وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ، يَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا». يعني: حججاً.

وقال فيه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة. لكن ذكره ابن حبان<sup>(٤)</sup> في الثقات. ولم يرد أن أحداً تكلم فيه. ثم رواه الحاكم<sup>(٥)</sup> أيضاً، من طريق أسد بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن مطر الوراق وأبي هارون العبدى، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تَمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِترتي، فَيَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلِئْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا».

وقال الحاكم فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة، وعن شيخه مطر الوراق. وأما شيخه الآخر وهو: أبو هارون العبدى<sup>(٦)</sup> فلم يُخَرِّجْ له. وهو ضعيف جداً متهم بالكذب، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.

وأما الراوي له عن حماد بن سلمة، فهو: أسد بن موسى، ويُلقَّبُ: أسدُ السُّنَّةِ. وإن قال البخاري: مشهور الحديث، واستشهد به في صحيحه، واحتج به أبو داود والنسائي،

١ - المستدرک: (٥٥٧/٤) وأحمد (٣٦/٣) وأبو يعلى (٩٨٧) وابن حبان (٦٨٢٣) وأبو نعيم في الحلیة (١٠١/٣).

٢ - ووافقه الذهبي. وقال أبو نعيم: مشهور في حديث أبي الصديق عن أبي سعيد. وأبو الصديق: هو بكر بن عمرو. ويقال: بكر بن قيس. متفق على توثيقه.

٣ - المستدرک: (٥٥٨/٤).

٤ - وهو السلمي: وثقه ابن معين. وقال أبو حاتم: صدوق. انظر الجرح والتعديل (١٢٩/٤).

٥ - المستدرک (٥٥٨/٤).

٦ - هو عُمارة بن جوين العبدى. ولعل الحاكم قبل من حديثه ما بين فيه الوساطة بينه وبين أبي سعيد، لأن غالب ما يروى عنه عن أبي سعيد الخدري وابن عمر بدون واسطة. وانظر أقوال الأئمة في تضعيفه في تهذيب الكمال (٢٣٢/٢١ - ٢٣٦).



إلا أنه قال<sup>(١)</sup> مرة أخرى: ثقة لو لم يُصنّف كان خيراً له. وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث<sup>(٢)</sup>.

ورواه الطبراني في مُعجمه الأوسط<sup>(٣)</sup> من رواية أبي الواصل<sup>(٤)</sup> عبد الحميد [ظ. ٢/١٤٠] بن واصل، عن أبي الصديق الناجي، عن الحسن بن يزيد السّعدي أحد بني بهذّلة، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بَسْنِي، يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَتُخْرَجُ الْأَرْضُ<sup>(٥)</sup> بِرُكْتِهَا، وَتَمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَعْمَلُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيَنْزِلُ عَلَى<sup>(٦)</sup> بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

وقال الطبراني فيه: رواه جماعة، عن أبي الصديق، ولم يُدخِل أحدٌ منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد، عن أبي سعيد. انتهى. وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم<sup>(٧)</sup> ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه.

وقال الذهبي في الميزان: إنه مجهول<sup>(٨)</sup>. لكن ذكره ابن حبان في الثقات. وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق، فلم يُخْرِجْ له أحدٌ من السّنة. وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية، وقال فيه: يروي عن أنس. روى عنه: شعبة، وعتاب بن بشر<sup>(٩)</sup>.

وخرّج ابن ماجة<sup>(١٠)</sup> في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود، من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم،

١ - أي: النسائي. انظر قوله في تهذيب الكمال (٥١٤/٢).

٢ - قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢٠٧/١). وما علمت به بأساً إلا أن ابن حزم ذكره في كتاب العيد فقال: منكر الحديث. وقال ابن حزم أيضاً: ضعيف. وهذا تضعيف مردود. ووثقه ابن يونس وقال: حدث بأحاديث منكره وهو ثقة، فأحسب أن الآفة من غيره.

٣ - رقم: (١٠٧٩).

٤ - في ظ: أبي الواصل عن عبد الحميد. خطأ.

٥ - في الأوسط: تخرج له الأرض من بركتها، تملأ.

٦ - ليس في الأوسط: على.

٧ - انظر الجرح والتعديل (٤٢/٣ - ٤٣).

٨ - ميزان الاعتدال: (٥٢٧/١).

٩ - وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٨/٦) وأضاف رواة آخرين ولم يذكره بتوثيق أو

تضعيف.

١٠ - رقم: (٤٠٨٢).

ذرفت<sup>(١)</sup> عيناه وتغير لونه. قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه. فقال: «إنا أهل البيت<sup>(٢)</sup> اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يعطونه، فيقاتلون وينصرون<sup>(٣)</sup>»، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤها جوراً. فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حُبَّوا على الثلج». انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند الحديثين بحديث الرايات. ويزيد بن أبي زياد<sup>(٤)</sup> راويه: قال فيه شعبة: كان رفاعاً؛ يعني: يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة.

وقال محمد بن الفضيل: وكان من كبار أئمة الشيعة. وقال أحمد بن حنبل: لم يكن بالحافظ؛ وقال مرة: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضعيف. وقال العجلي: جائر الحديث، وكان بأخرة يلقن. وقال أبو زرعة: لين يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي. وقال الجوزجاني<sup>(٥)</sup>: سمعتهم يضعفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحداً ترك حديثه، وغيره أحب إلي منه. وقال ابن عدي: هو من شيعة [ظ ١٤١/١] أهل الكوفة، ومع ضعفه يكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقروناً بغيره. وبالجملة: فالأكثر على ضعفه<sup>(٦)</sup>.

١ - في ابن ماجة: اغرورقت.

٢ - في ابن ماجة: أهل بيت.

٣ - في ابن ماجة: فينصرون.

٤ - وقد توبع على هذا الحديث كما في المستدرک (٤/٤٦٤) من طريق حنان بن سَريّر، عن عمرو بن قيس الملائي، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس وعبيدة السلماني، عن ابن مسعود به. وقال الذهبي: موضوع. وقال في الميزان: (١/٤٤٩) في ترجمة حبان [كذا] بن يزيد [في ن: مدير] [كذا]: قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم. وانظر ترجمته في الجرح والتعديل (٣/٢٩٩) فلا أدري لم حكم بوضعه، وليس فيه غير هذا، كما أنه لم يحكم بوضعه عن الطريق الذي في ابن ماجة كما يأتي قوله: ليس بصحيح فقط.

٥ - في الأصل: الجرجاني. خطأ. وانظر قوله في أحوال الرجال رقم (١٤١).

وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث، الذي رواه عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله وهو حديث الرّايات.

وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء. وكذلك قال أحمد بن حنبل.  
وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد، عن إبراهيم في الرّايات، لو حلفَ عندي خمسينَ يميناَ قَسَامَةً ما صدّقته، أهذا مذهبُ إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهبُ عبد الله؟!.

وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء.  
وقال الذهبي: ليس بصحيح<sup>(١)</sup>.

وخرّج ابن ماجة<sup>(٢)</sup>، عن علي رضي الله عنه من رواية: ياسين العجلي، عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ (يُصْلَحُ اللَّهُ بِهِ)<sup>(٣)</sup> فِي لَيْلَةٍ».

وَيَاسِينَ الْعَجَلِيَّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ: فِيهِ نَظَرٌ. وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التّضعيفِ جداً.

وأورد له ابن عدي في الكامل<sup>(٤)</sup> والذهبي في الميزان<sup>(٥)</sup> هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقال: هو معروف به<sup>(٦)</sup>.

وخرّج الطبراني في معجمه الأوسط<sup>(٧)</sup>، عن علي رضي الله عنه، أنه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أَمِنَا الْمَهْدِيَّ، أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «بَلْ مِنْنا، بِنَا يَخْتَمُ اللَّهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ، وَبِنَا يُسْتَقْدُونَ مِنَ الشُّرْكِ، وَبِنَا يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةٍ بَيْنَةٍ،

٦ - انظر هذه الأقوال في تهذيب الكمال (١٣٥/٣٢ - ١٤٠) ولعل الصواب فيه ما قاله الفسوي في المعرفة والتاريخ: (٨١/٣): وإن كان قد تكلم الناس فيه لتغيره في آخر عمره، فهو على العدالة والثقة، وإن لم يكن مثل منصور والحكم والأعمش، فهو مقبول القول ثقة.

١ - انظر الأقوال السابقة في ميزان الاعتدال (٤٢٤/٤).

٢ - أخرجه أحمد (٨٤/١) وابن ماجة (٤٠٨٥) وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٣) وتاريخ أصبهان (١٧٠/١).

٣ - في ابن ماجة: (يصلحه الله).

٤ - (٢٦٤٣/٧).

٥ - (٣٥٩/٤).

٦ - ولم يتفرد به ياسين. قال أبو نعيم بعد ذكره في الحلية: هذا حديث غريب من حديث محمد، رواه وكيع وابن غنيم وأبو داود الحضري، عن ياسين ورواه محمد بن فضيل، عن سالم بن أبي حفصة، عن إبراهيم به. [وسالم: صدوق].

٧ - رقم: (١٥٧).

كَمَا بَنَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عداوة الشُّرْكَ». قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: «مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ». انتهى.

وفيه: عبدُ الله بن لهيعة: وهو ضعيف معروف الحال.

وفيه: عمرو<sup>(١)</sup> بن جابر الحضرمي: وهو أضعف منه. قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير، وبلغني أنه كان يكذب.

وقال النسائي: ليس بثقة.

وقال ابن لهيعة: كان شيخاً<sup>(٢)</sup> أحمقَ ضعيفَ العقل، وكان يقول: عليٌّ في السَّحاب، وكان يجلسُ معنا فيبصر سحابة فيقول: هذا عليٌّ قد مرَّ في السَّحاب.

وخرَّج الطَّبْرَانِيُّ<sup>(٣)</sup>، عن علي رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يُحْصَلُ<sup>(٤)</sup> النَّاسُ فِيهَا، كَمَا يُحْصَلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسْبُوا أَهْلَ الشَّامِ، وَلَكِنْ سَبُّوا أَشْرَارَهُمْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْأَبْدَالَ. يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ<sup>(٥)</sup> مِنَ السَّمَاءِ يَفْرِقُ جَمَاعَتَهُمْ، حَتَّى لَوْ قَاتَلْتَهُمُ الثَّعَالِبُ غَلَبْتَهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ، الْمَكْثَرُ يَقُولُ: هُمْ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفًا، وَالْمَقْلُ يَقُولُ: هُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، وَأَمَارَتُهُمْ أَمِتٌ<sup>(٦)</sup>، يَلْقَوْنَ<sup>(٧)</sup> سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمَلِكَ، فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا، وَيَرُدُّ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَلْفَتَهُمْ [ظ ١٤١/٢] وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ».

وفيه: عبدُ الله بن لهيعة وهو ضعيفٌ معروف الحال.

ورواه الحاكم في المستدرک<sup>(٨)</sup>، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه. وفي روايته: «ثم يظهر الهاشمي فيردُّ الله الناس إلى ألفتهم». الخ، وليس في طريقه ابن لهيعة، وهو إسنادٌ صحيح كما ذكر.

١ - في الأصل: عمر. خطأ.

٢ - في المطبوعات: (وقال: كان ابن لهيعة شيخاً) على أنها من قول النسائي عن ابن لهيعة والصواب أنها من قول ابن لهيعة من مجموع روايات كما نقله المزي في تهذيب الكمال (٢١/٥٦٠ - ٥٦١).

٣ - في الأوسط (٢٩٣ و ٣٩١٧).

٤ - أي: يحص الناس فيها كما يخلص الذهب والفضة من معادنه وأصوله.

٥ - في الأوسط: سيب.

٦ - كلمة: أمت أمت: كانت كلمة السر بين أفراد جيش المسلمين في غزوة بدر يعرف بها بعضهم بعضاً، وستكون كلمة السر بين أهل هذه الرايات. هذا وفي كثير من الأحاديث الخاصة بالمهدي يشبه أنصاره بأهل بدر؛ سيأتي في الحديث التالي أن عدتهم على عدة أهل بدر.

٧ - في الأوسط: يأتون. وجاء في المقدمة موافق لما في مجمع الزوائد (٧/١٢٤١٠).

٨ - (٥٥٣/٤).

وخرَّجَ الحاكم في المستدرك<sup>(١)</sup>، عن علي رضي الله عنه، من رواية أبي الطفيل، عن محمد بن الحنفية قال: «كُنَّا عِنْدَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمَهْدِيِّ، فَقَالَ لَهُ: مِثَاتٌ، ثُمَّ عَقَدَ يَدَهُ سَبْعًا فَقَالَ: ذَلِكَ يُخْرِجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُ اللَّهُ قُتِلَ. وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَزَعًا كَقَزَعِ السَّحَابِ<sup>(٢)</sup>، يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ، عَدَّتْهُمْ<sup>(٣)</sup> عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ، لَمْ يَسْبِقْهُمْ الْأَوَّلُونَ، وَلَا يَدْرِكُهُم الْآخِرُونَ، وَعَلَى عِدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ<sup>(٤)</sup>». قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ: أَتُرِيدُهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَ: فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخَشِيِّينَ<sup>(٥)</sup>. قُلْتُ: لَا جَرَمَ وَاللَّهِ، وَلَا أَدْعُهَا<sup>(٦)</sup> حَتَّى أَمُوتَ، وَمَاتَ بِهَا - يَعْنِي: مَكَّةَ -.

قَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ. انْتَهَى.

وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطْ، فَإِنَّ فِيهِ عَمَّارَ الدُّهْنِيِّ وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ، وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ، وَفِيهِ: عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَنْقَزِيُّ، وَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ احْتِجَاجًا بَلِ اسْتِشْهَادًا، مَعَ مَا يَنْضُمُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَشْيِيعٍ فِي عَمَّارِ الدُّهْنِيِّ<sup>(٧)</sup>، وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ، فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ، عَنْ سَفْيَانَ: إِنَّ بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عِرْقَ وَبِهِ<sup>(٨)</sup>، قُلْتُ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي التَّشْيِيعِ.

وخرَّجَ ابن ماجه<sup>(٩)</sup>، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد ابن جعفر، عن علي بن زياد اليمامي، عن عكرمة بن عمار، عن إسحاق ابن عبد الله [ابن أبي طلحة]، عن أنس قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لنحْنُ وَلَدُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، سَادَاتُ<sup>(١٠)</sup> أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَنَا وَحَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمَهْدِيُّ». انْتَهَى.

١ - (٥٥٤/٤).

٢ - القزع محرقة: قطع من السحاب الواحدة بهاء. والمعنى: مجتمع الناس إليه أفواجاً ويلتم بعضهم ببعض.

٣ - ليس في المستدرك: عدتهم.

٤ - الذين ورد ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ...﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٥ - الأخشبان: جبلا مكة، أبو قبيس والأحمر. وفي المستدرك: الخشبتين.

٦ - في المستدرك: (والله لأرجمهما).

٧ - هو عمار بن معاوية. وانظر ما نقله المصنف عن التهذيب (٢١٠/٢٠٩ - ٢١٠).

٨ - هذا التعبير كناية عن التفاني في الأمر.

٩ - رقم: (٤٠٨٧).

١٠ - في ابن ماجه: (سادة).

وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج متابعة. وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون. وقال أبو حاتم الرّازي: هو مدلسٌ فلا يقبل، إلا أن يُصرّح بالسّماع. علي بن زياد: قال الذهبي في الميزان: لا يدرى<sup>(١)</sup> من هو<sup>(٢)</sup> ثم قال: الصّواب فيه عبد الله بن زياد<sup>(٣)</sup>.

وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة<sup>(٤)</sup>، وقال فيه يحيى بن معين: ليس به بأس. فقد تكلم فيه الثوري، قالوا: لأنّه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها. وقال ابن حبان: كان ممن فحش خطؤه<sup>(٥)</sup> فلا يحتج به. وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كُتب [ظ ١٤٢/١] مالك، والناس ينكرون عليه ذلك، وهو هاهنا ببغداد لم يحج، فكيف سمعها؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه.

وخرّج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عبّاس موقوفاً عليه، قال مجاهد: قال لي ابن عبّاس: لو لم أسمع أنّك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث؛ قال: فقال مجاهد: فإنه في ستر لا أذكره لمن تكره! قال: فقال ابن عبّاس: «منا أهل البيت أربعة: منّا السّفّاح، ومنّا المنذر، ومنّا المنصور، ومنّا المهديّ». قال: فقال مجاهد: بين لي هؤلاء الأربعة. فقال ابن عبّاس: «أمّا السّفّاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه؛ وأمّا المنذر - أراه قال<sup>(٦)</sup> - فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاطم في نفسه، ويمسك القليل من حقّه؛ وأمّا المنصور: فإنه يُعطى النصر على عدوه الشطرَ مما كان يُعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم، (ويَرْهَبُ)<sup>(٧)</sup> منه عدوه على مسيرة شهرين، والمنصور: يرهّب منه (عدوه)<sup>(٨)</sup> على مسيرة شهر، وأمّا المهديّ: فإنه<sup>(٩)</sup> الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً،

١ - في الأصل: لا ندرى.

٢ - إلى هنا قول الذهبي في الميزان (١٢٧/٣).

٣ - انظر ترجمة عبد الله بن زياد أبا العلاء الراوي عن عكرمة في ميزان الاعتدال (٤٢٤/٢) ولسان الميزان (٢٨٧/٣) وهو منكر الحديث.

٤ - في المطبوع: ابن أبي شيبة. خطأ. صحح من تاريخ بغداد (١٤٦/٩).

٥ - في المطبوع: عطاؤه. خطأ. صحح من المحروحين (٣٥٧/١).

٦ - ليس في المستدرک: (أراه قال).

٧ - في المستدرک: يرعب.

٨ - في المستدرک: يرعب عدوه منه.

٩ - ليس في المستدرک: فإنه.

وتأمن البهائم السباع<sup>(١)</sup>، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها؟». قال: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: «أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة».

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه<sup>(٢)</sup>.

وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن أبيه.

وإسماعيل: ضعيف. وإبراهيم: أبوه وإن خرّج له مسلم، فالأكثر على تضعيفه.

انتهى.

وخرّج ابن ماجه<sup>(٣)</sup> عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَقْتَلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ، كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَطْلُعُ الرَايَاتُ السُّودَ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ»<sup>(٤)</sup> قِتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ. ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال: «فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي». اهـ.

ورجاله رجال الصحيحين؛ إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس؛ وفيه: سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس؛ وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل؛ وفيه: عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع<sup>(٥)</sup> وعمي في آخر وقته فخلط؛ قال ابن عدي: حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

خرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، من طريق ابن لهيعة، عن أبي زرعة عمرو<sup>(٦)</sup> بن جابر الحضرمي، عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُخْرِجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطِئُونَ لِلْمَهْدِيِّ - يَعْنِي - سُلْطَانَهُ».

١ - في المستدرک: والسباع.

٢ - وقال الذهبي في التلخيص (٤٥١٤): أين منه الصحة، وإسماعيل يجمع على ضعفه، وأبوه ليس بذلك؟!

٣ - رقم: (٤٠٨٤).

٤ - في ابن ماجه: فيقتلونكم.

٥ - قال عبد الله بن أحمد في العلل (٢٣٣/١): سألت أبي قلت: عبد الرزاق كان يتشيع ويفرط في التشيع؟ فقال: أما أنا فلم أسمع منه في هذا شيئاً، ولكن كان رجلاً تعجبه أخبار الناس أو الأخبار. ونقل عن عبد الرزاق قوله: والله ما انشرح صدري قط، أن أفضل علياً على أبي بكر وعمر، رحم الله أبا بكر، ورحم الله عمر، ورحم الله عثمان، ورحم الله علياً، من لم يحبهم فما هو مؤمن، وقال: أوثق عملي حيي إياهم.

٦ - في المطبوع: عمر. خطأ.

قال الطبراني<sup>(١)</sup>: تفرد به ابن لهيعة. وقد تقدم لنا في حديث [ظ ١٤٢/٢] علي الذي أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف، وأن شيخه عمرو<sup>(٢)</sup> بن جابر أضعف منه.

وأخرج البزار في مسنده<sup>(٣)</sup> والطبراني في معجمه الأوسط<sup>(٤)</sup> واللفظ للطبراني، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يكون في أمي المهدي إن قصر فسبع، وإلا فثمان وإلا فتسع، تنعم فيها أمي نعمة لم ينعموا مثليها ترسل السماء عليهم مدرارا؛ ولا تدخِر الأرض شيئا من النبات؛ والمال كدوس<sup>(٥)</sup> يقوم الرجل يقول: يا مهدي أعطني، فيقول: خذ».

قال الطبراني والبزار: تفرد به محمد بن مروان العجلي. زاد البزار: ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد.

وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في الثقات. وقال فيه يحيى بن معين: صالح. وقال مرة: ليس به بأس. فقد اختلفوا فيه: قال أبو زرعة: ليس عندي بذلك.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، [عن أبيه]<sup>(٦)</sup>: رأيت محمد بن مروان العجلي [و] حدث بأحاديث وأنا شاهد لم أكتبها<sup>(٧)</sup>، تركتها على عمد، وكتب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه.

وأخرج أبو يعلى الموصلي في مسنده<sup>(٨)</sup>، عن أبي هريرة وقال: حدثني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من أهل بيتي، فيضربهم حتى يرجعوا إلى الحق». قال: قلت: وكم يملك؟ قال: «خمسا واثنين». قال: قلت: وما خمسا واثنين؟ قال: لا أدري. انتهى.

١ - في المعجم الأوسط (٢٨٧).

٢ - في الأصل: عمر. خطأ.

٣ - كشف الأستار رقم (٣٣٢٦) مختصراً. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٤٠٦/٧): رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف.

٤ - رقم (٥٤٠٢).

٥ - أي مكسب بعضه فوق بعض.

٦ - زيادة من العلل ومعرفة الرجال (١٧٣/٢) وتهذيب الكمال (٣٨٩/٢٦).

٧ - في المطبوع: نكتبها.

٨ - أبو يعلى رقم (٦٦٦٥) وقال الهيثمي في الجمع (١٢٤١٣/٧): ... ولكن الحديث منكسر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يستقبل أحداً في وجهه.



وهذا السُّنْدُ، [غير محتج به]، وإن كان فيه بشير بن نهيك، وقال فيه أبو حاتم: لا يحتجُّ به، فقد احتجَّ به الشَّيْخَان، ووثَّقه النَّاسُ، ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم: لا يحتجُّ به<sup>(١)</sup>. إلا أنَّ فيه (مُرْجِي بن رجاء)<sup>(٢)</sup> اليشْكُري، وهو مختلفٌ فيه. قال أبو زرعة: ثقة.

وقال يحيى بن معين: ضعيف.

وقال أبو داود: ضعيف. وقال مرة: صالح. وعلَّقَ له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً.

وخرج أبو بكر البزار في مسنده<sup>(٣)</sup> والطبراني في مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ<sup>(٤)</sup> والأوسط<sup>(٥)</sup>، عَنْ قُرَّةَ بن إياس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَإِذَا مَلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا (مِنِي)<sup>(٦)</sup>، اسْمُهُ اسْمِي، واسمُ أبيه اسمُ أبي يملؤها عدلاً وقِسْطًا، كما ملئت جوراً وظُلْمًا، فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا، وَلَا تَدْخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا. يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا». يعني: سنين. انتهى. وفيه: داود بن المُجَبَّر بنُ قَحْظَم، عن أبيه، وهما ضعيفان جداً.

(وخرج الطبراني في معجمه الأوسط<sup>(٧)</sup> عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «يُخْرِجُ نَاسٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ يَرِيدُونَ رَجُلًا عِنْدَ الْبَيْتِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بَبِيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خَسَفَ بِهِمْ، فَيُلْحَقُ بِهِمْ مِنْ تَخَلْفِ<sup>(٨)</sup>، فَيَصِيْبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ». قلت: يا رسول الله [ظ ١/٤٣١]، كيف بمن كان خرج كرهاً<sup>(٩)</sup>؟ قال: «يَصِيْبُهُمْ<sup>(١٠)</sup> ما أصاب الناس، ثم يبعث الله كل امرئٍ على نيته». انتهى. وفيه:

١ - انظر ترجمته في تهذيب الكمال (١٨١/٤ - ١٨٢).

٢ - في المطبوعات: (رجاء بن أبي رجاء) خطأ. صحح من تهذيب الكمال (٣٦١/٢٧ - ٣٦٤) ومجمع الزوائد (١٢٤٠/٧).

٣ - رقم: (٣٣٢٥).

٤ - (١٣٢/١٩).

٥ - رقم: (٨٣٢١).

٦ - في المطبوعات: من أمي. خطأ.

٧ - المعجم الأوسط رقم (٤٠٤٢). وأصله في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم. هذا لفظ البخاري.

٨ - في الأوسط: يخلفهم. والمثبت موافق للمخطوط ومجمع الزوائد (١/١٢٤٠٢).

٩ - في الأوسط والمجمع: أخرج مستكرهاً.

١٠ - في الأوسط: يصيبه. والمثبت موافق للمخطوط ومجمع الزوائد.

سلمة بن [الفضل] الأبرش<sup>(١)</sup>، وهو ضعيف. وفيه: محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن، ولا يقبل إلا أن يصرح بالسماع).

وخرج الطبراني في معجمه الأوسط<sup>(٢)</sup>، عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والأنصار، وعلي بن أبي طالب عن يساره، والعبّاس عن يمينه، إذ تلاحي<sup>(٣)</sup> العبّاس ورجل من الأنصار، فأغلظ الأنصاري للعبّاس. فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العبّاس وبيد علي وقال: «سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى<sup>(٤)</sup> يَمْلَأَ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى<sup>(٥)</sup> يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا. فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيّ، فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ». انتهى.

وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لبيعة وهما ضعيفان. وخرج الطبراني في معجمه الأوسط<sup>(٦)</sup>، عن طلحة بن عبيد<sup>(٧)</sup> الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ<sup>(٨)</sup> مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا (تَشَاجِرٌ)<sup>(٩)</sup> جَانِبٌ، حَتَّى يَنَادِي مَنَادٌ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّ أَمِيرَكُمْ فَلَانٌ». انتهى.

وفيه: المثني بن الصباح وهو ضعيف جداً. وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وإنما ذكره في أبوابه وترجمته استئناساً.

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان<sup>(١٠)</sup>. وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه.

١ - وثقه غير واحد، وضعفه آخرون، وخلاصة القول فيه ما قاله أبو حاتم الرازي: محله الصدق، في حديثه إنكار، لا يمكن أن أطلق لساني فيه بأكثر من هذا، يكتب حديثه ولا يحتج به. الجرح والتعديل (٤/ ٧٣٩). وتهذيب الكمال (٣٠٥/ ١١-٣٠٩).

٢ - رقم: (٤١٤٢).

٣ - تلاحيا: تشاتما.

٤ - في المطبوعات: فتى. وفي نسخة من مجمع الزوائد (١٢٤١٣/٧): فتى. وما هنا موافق للأوسط.

٥ - في المطبوعات: فتى. وفي نسخة من مجمع الزوائد (١٢٤١٣/٧): فتى. وما هنا موافق للأوسط.

٦ - رقم: (٤٦٦٣).

٧ - في المطبوعات: عبد. خطأ.

٨ - في الأوسط ومجمع الزوائد (١٢٤٠٨/٧): يهدأ.

٩ - في الأوسط: جاش منها.

١٠ - يوجد غير ما ذكره المصنف من أحاديث جمعها السيوطي في العرف الوردية في ذكر المهدي. ولكن ذكر المصنف أمهات أحاديث المهدي.

وربما تَمَسَّكَ المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجَنْدِيُّ، عن أبان بن صالح بن أبي عيَّاش<sup>(١)</sup>، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا مَهْدِيَّ إلا عيسى ابن مريم»<sup>(٢)</sup>. وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة<sup>(٣)</sup>.

١ - الصواب: التفريق بين أبان بن صالح وأبان بن أبي عيَّاش. وهما يرويان عن الحسن البصري، إلا أن الجندي يروي عن الأول وهو ثقة أخطأ من ضعفه. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٩/٢ - ١١) وأما الثاني فهو ضعيف متروك الحديث. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (١٩/٢ - ٢٤).

٢ - أخرجه ابن ماجة (٤٠٣٩) والحاكم في المستدرک (٤٤١/٤) والخطيب البغدادي تاريخ بغداد (٢٢٠/٤) - (٢٢١) والمزي في تهذيب الكمال (١٤٧/٢٥ - ١٤٨) من طريق الشافعي عن الجندي، عن أبان بن صالح [على الصواب] عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدين إلا إداراً ولا الناس إلا شحاً، لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى بن مريم. قال الذهبي: يحيى بن السكن ضعفه صالح جزرة وقال في الحديث: صامت بن معاذ عدلت إلى الجند مسيرة يومين من صنعاء فدخلت على محدث لهم فطلبت هذا الحديث فوجدته عنده عن محمد بن خالد الجندي عن أبان بن أبي عيَّاش، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله. وقال مبارك أبو سحيم: حدثنا عبد العزيز عن أنس مرفوعاً: لن يزداد الزمان إلا شدة. قال السيوطي في الحاروي للفتاوى (٨٥/٢ - ٨٦): قال القرطبي في التذكرة: إسناده ضعيف، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في التنصيص على خروج المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة أصح من هذا الحديث فالحكم بها دونه، وقال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم السحري: قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة روايتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته وأنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وأنه يوم هذه الأمة وعيسى يصلي خلفه في طول من قصته وأمره، قال القرطبي: ويحتمل أن يكون قوله عليه السلام: ولا مهدي إلا عيسى أي: لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى قال: وعلى هذا تجتمع الأحاديث ويرتفع التعارض. وقال ابن كثير: هذا الحديث فيما يظهر ببداء الرأي مخالف للأحاديث الواردة في إثبات مهدي غير عيسى بن مريم وعند التأمل لا ينافيها بل يكون المراد من ذلك أن المهدي حق المهدي هو عيسى ولا ينفي ذلك أن يكون غيره مهدياً أيضاً.

٣ - قال المزي في تهذيب الكمال (١٤٨/٢٥ - ١٤٩): قال أبو الحسن محمد بن الحسين الآبري الحافظ في مناقب الشافعي: أخبرني محمد بن عبد الرحمن الهمداني ببغداد قال: حدثنا محمد بن مخلد وهو العطار، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن المؤمل العدوي، قال: قال لي يونس بن عبد الأعلى: جاءني رجل قد وخطه الشيب سنة ثلاث عشرة يعني ومتين عليه مبطنة وأزير يسألني عن هذا الحديث، فقال لي: من محمد بن خالد الجندي؟ فقلت: لا أدري. فقال لي: هذا مؤذن الجند وهو ثقة. فقلت له: أنت يحيى بن معين؟ فقال: نعم. فقلت له: حديث ابن وهب؟ فقال: ثقة، وكان فيه تساهل. قال أبو الحسن الآبري: قد تواترت الأخبار استفاضت بكثرة روايتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعني في المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين ويملأ الأرض عدلاً، وأنه يخرج عيسى بن مريم فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يوم هذه الأمة، وعيسى صلوات الله عليه يصلي خلفه في طول من قصته وأمره، ومحمد بن خالد الجندي وإن كان يُذكر عن يحيى بن معين ما ذكرته فإنه غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم والنقل.

وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهولٌ واختلف عليه في إسناده. فمرة يروونه كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي؛ ومرة يروونه عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا. قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول، عن أبان [بن] أبي عيَّاش وهو متروك، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع. وبالجملة: فالحديث ضعيف مضطرب.

وقد قيل في: «أن لا مهدي إلا عيسى». أي: لا يتكلم في المهدي إلا عيسى، يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث، وهو مدفوع بحديث جريح<sup>(١)</sup> ومثله من الخوارق.

وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها [ظ ٤٣/٢] من نتائج المواجد والأحوال، وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم<sup>(٢)</sup> ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستبدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها.

ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء. وأشربوا أقوال الشيعة، وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم، حتى لقد جعلوا<sup>(٣)</sup> مستند طريقهم في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة. واتصل ذلك عنهم بالجنيح من شيوخهم. ولا يعلم هذا عن علي من وجه

١ - حديث جريح: أخرجه البخاري (١١٤٨ و ٢٣٥٠ و ٣٢٥٣ و ٣٢٧٩) ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي

هريرة.

٢ - يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل السابع والعشرين من هذا الباب.

٣ - في ن: حتى جعلوا.

صحيح. ولم تكن هذه الطريقة خاصةً بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طريق<sup>(١)</sup> الهدى؛ وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم<sup>(٢)</sup> في التشيع، وانخراطهم في سلكه.

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتألت كتب الإسماعيلية من الرفضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر. وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض، وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين. وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات، وهو من نوع الكلام في الملاحم، ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا.

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن العربي الحاتمي<sup>(٣)</sup> في كتاب: عنقاء مغرب. وابن قسي في كتاب: خلع النعلين<sup>(٤)</sup>. وعبد الحق بن سبعين<sup>(٥)</sup>، وابن أبي واطيل<sup>(٦)</sup> تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين.

وأكثر كلماتهم في شأنه ألغازٌ وأمثالٌ، وربما يصرحون في الأقل، أو يصرح مفسرو كلامهم.

وحاصل مذهبهم فيه - على ما ذكر ابن أبي واطيل<sup>(٧)</sup> -: أنَّ النبوة بها ظهر الحق والهدي بعد الضلال والعمى، وأنها تعقبها [ظ ١٤٤ / ١] الخلافة، ثم يعقب الخلافة الملك، ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً.

قالوا: ولما كان في المعهود من سنة الله رجوعُ الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية، ثم بخلافتها، ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط، ثم يعود الكفر بحاله. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة، والخلافة بعدها، والملك بعد الخلافة. هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي، والدجل بعدها كناية عن خروج

١ - في ن: طرق.

٢ - في ن: من القوم دخلهم.

٣ - يعني محيي الدين بن عربي من أشهر الصوفية. وقد وصفه بالحاتمي تمييزاً له عن القاضي أبي بكر بن العربي من أهل الأندلس والذي سيأتي ذكره في الفصل الأربعين.

٤ - ابن قسي: هو أبو القاسم أحمد بن قسي الأندلسي، صاحب كتاب خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين. قال الذهبي: فلسفي التصوف، مبتدع أراد الثورة فظفر به عبد المؤمن وسجنه. المتوفى ٥٤٥ هـ. انظر ترجمته في ميزان الاعتدال (١٢٨/١) ولسان الميزان لابن حجر (٢٤٧/١) ومعجم المؤلفين (٥١/٢).

٥ - هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الإشبيلي المرسى توفي سنة ٦٦٩ هـ. انظر ترجمته في نفح الطيب (٤٢١/١).

٦ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٧ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

الدجال على أثره، والكفر من بعد ذلك. فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى.

قالوا: ولما كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه، وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم، إما ظاهراً كبني عبد المطلب، وإما باطناً ممن كان من حقيقة الآل، والآل: من إذا حضر لم يعب<sup>(١)</sup> من هو آله.

وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه: خاتم الأولياء، وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين. قال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلِي فِيْمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَدَى بَيْتاً وَأَكْمَلَهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ لَبْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ»<sup>(٢)</sup>. فيفسرون خاتم النبيين باللبنة التي<sup>(٣)</sup> أكملت النبيان، ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة، ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء، أي: حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للمرتبة التي هي خاتمة النبوة، فكنى الشارع<sup>(٤)</sup> عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور. وهما على نسبة واحدة فيها. فهي لبنة واحدة في التمثيل. ففي النبوة لبنة الذهب وفي الولاية لبنة فضة؛ للتفاوت بين الرتبتين، كما بين الذهب والفضة، فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر. وذلك خاتم الأنبياء، وهذا خاتم الأولياء.

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل<sup>(٥)</sup> عنه: وهذا الإمام المنتظر وهو من أهل البيت من ولد فاطمة، وظهوره يكون من بعد مُضَيِّ خ ف ج من الهجرة. ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها<sup>(٦)</sup> بحساب الجمل، وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق ست مئة. والفاء

١ - في ن: بلقب. ولعله أراد أن آل الرجل من يدافع عنهم ولا يقبل من أحد أن يعيهم في حضرته.

٢ - ورد هذا الحديث في البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين من حديث أبي هريرة (٣٥٣٥) بلفظ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجملته، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين؟» ومن حديث جابر بن عبد الله (٣٥٣٤) بلفظ: مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع لبنة.

٣ - في ن: حتى.

٤ - في ن: الشارع.

٥ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٦ - في ن: عددهم.

أخت القاف بثمانين. والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة، وذلك ست مئة وثلاث [ظ ١٤/٢] وثمانون سنة، وهي<sup>(١)</sup> في آخر القرن السابع.

ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدة مولده، وعبرَ بظهوره عن مولده، وأن خروجه يكون بعد العشر والسبع مئة، فإنه الإمام الناجم من ناحية المغرب قال: وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وست مئة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة.

قال: وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبع مئة من اليوم المحمدي.

وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى تمام ألف سنة.

قال ابن أبي واطيل<sup>(٢)</sup> في شرحه كتاب خلع النعلين: الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء. وليس هو بنبي، وإنما هو ولي ابتعثه روحه وحيبؤه، قال صلى الله عليه وسلم: «العالم في قومه كالتبي في أمته»<sup>(٣)</sup>. وقال: «علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل»<sup>(٤)</sup>.

ولم تزل البشرية تتابع به من أول اليوم المحمدي إلى قبيل الخمس مئة نصف اليوم. وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته، وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا.

قال: وذكر الكندي<sup>(٥)</sup> أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر، ويجدد الإسلام، ويظهر العدل، ويفتح جزيرة الأندلس، ويصل إلى رومية فيفتحها، ويسير إلى المشرق فيفتحها، ويفتح القسطنطينية، ويصير له ملك الأرض، فيتقوى المسلمون، ويعلو

١ - في ظ: هو.

٢ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٣ - ليس بحديث، وإنما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم. أخرجه أحمد (١٩٦/٥) والدارمي (٣٤٩) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) بإسناد لا بأس به من حديث أبي الدرداء.

٤ - قال السيوطي وابن حجر وغيرهما: لا أصل له. وانظر كشف الخفاء (١٧٤٤) وتذكرة الموضوعات (٢٠).

٥ - يقصد هنا الكندي الفيلسوف أبا يوسف يعقوب بن إسحاق ابن الصباح المتوفى حوالي سنة ٢٥٢هـ.

الإسلام، ويظهر دين الحنيفة<sup>(١)</sup>. فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «ما بين هذين وقت»<sup>(٢)</sup>.

وقال الكندي أيضاً: الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملةً عددها سبع مئة وثلاثة وأربعون، وسبعة دجالية، ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا، وتمشي الشاة مع الذئب. ثم مبلغ<sup>(٣)</sup> مُلك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مئة وستون<sup>(٤)</sup> عاماً، عدد حروف المعجم وهي ق ي ن، دولة العدل منها أربعون عاماً. قال ابن أبي واطيل<sup>(٥)</sup>: وما ورد من قوله: «لا مهدي إلا عيسى»، فمعناه: لا مهديّ تساوي هدايته ولايته<sup>(٦)</sup>؛ وقيل: لا يتكلم في المهد إلا عيسى. وهذا مدفوعٌ بحديث جُريج وغيره.

وقد جاء في الصحيح<sup>(٧)</sup> أنه قال: «لا يزال هذا الأمر قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة». يعني قرشياً.

وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام، ومنهم من سيكون في آخره. وقال: «الخليفة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ستة وثلاثون»<sup>(٨)</sup>. وانقضاؤها في

١ - ذهب الدكتور وافي إلى أن هنا جملة ساقطة تقديرها: ويصلي بالناس صلاة بين الظهر والعصر، فإن من صلاة الظهر... الخ. والصواب أن يقال: إن الفتوحات التي يفتتحها بعد صلاة الظهر تمثل صلاة، أو كأنه يفعل ذلك في وقت قصير. والله أعلم.

٢ - أخرجه مسلم (٦١٤) من حديث أبي موسى بلفظ: الوقت بين هذين. ومن حديث بريدة (٦١٣) بلفظ: ما بين ما رأيت وقت.

٣ - في ن: يبقى.

٤ - في ن: وستين.

٥ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٦ - في ن: هدايته.

٧ - أخرجه مسلم (١٨٢٢) عن جابر بن سمرة. والبخاري (٧٢٢٢ و ٧٢٢٣) بعضه.

٨ - لم يرد منه إلا الفقرة الأولى، أخرجه الترمذي (٢٢٧) عن سفينة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. قال سعيد بن جهمان: ثم قال: أمسك: خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، ثم قال: أمسك خلافة علي، فوجدناها ثلاثين سنة، قال سعيد: فقلت له: إن بني أمية يزعمون: أن الخلافة فيهم؟ قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

وأخرجه أبو داود (٤٦٤٦ و ٤٦٤٧) عن سفينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء. قال سعيد: قال لي سفينة: أمسك: أبو بكر سنتين، وعمر عشراً، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ستاً، كذا قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أن علياً لم يكن بخليفة؟ قال: كذبت أستاذه بني الزرقاء. يعني: بني مروان.

أو لعله أخذه من حديث ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تدور رحى الإسلام على خمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن هلكوا، فسبيل من هلك، وإن بقوا بقي هم دينهم سبعين سنة.



خلافة الحسن وأول أمر معاوية، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء، وأما سابع الخلفاء فعمرو بن عبد العزيز، والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي، يؤيده [ظ ١٤٥/١] قوله: «إِنَّكَ لَدُو قُرْنِيهَا»<sup>(١)</sup>. يريد الأمة، أي: إنك لخليفة في أولها، وذريتك في آخرها.

وربما استدلل بهذا الحديث القائلون بالرجعة. فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا هَلَكَ كَسْرَى فَلَا كَسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَفَقَّنَ كَنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>.

وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله. والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله، هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية: «فَنَعِمَ الْأَمِيرُ أَمِيرَهَا، وَنَعِمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»<sup>(٣)</sup>. كذا قال صلى الله عليه وسلم.

ومدة حكمه: بضع. والبضع من ثلاث إلى تسع، وقيل: إلى عشر. وجاء ذكر أربعين<sup>(٤)</sup>؛ وفي بعض الروايات: سبعين<sup>(٥)</sup>.

فأما<sup>(٦)</sup> الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده، على جميعهم السلام.

أخرجه أحمد (٣٩٠/١ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٤٥١ و ٤٢٥٤). وانظر ما قاله ابن حبان في صحيحه (٦٦٦٤) شرحاً لهذا الحديث.

١ - أخرجه أحمد (١٣٧٣) والبخاري (١٤١٩) والطبراني في الأوسط (٦٧٨) وفيه ابن إسحاق مدلس وقد عنعن بلفظ: يا علي، إن لك في الجنة كنزاً، وإنك ذو قرنيها، فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى....

وذو قرنيها: لأنه كان له شجتان في قرني رأسه، إحداهما من ابن ملجم، والأخرى من عمرو بن ود. وقيل: أي طرفي الجنة وجانبيها، وقيل: أراد الحسن والحسين. وانظر مجمع الزوائد (٧٤٥٨ و ١٢٩٤٤).

٢ - أخرجه البخاري (٣٠٢٧ و ٣٦١٨ و ٣٦٢٠ و ٦٦٣٠) ومسلم (٢٩١٨) عن أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٣١٢١ و ٣٦١٩ و ٦٦٢٩) ومسلم (٢٩١٩) عن جابر بن سمرة.

٣ - أخرجه أحمد (٣٣٥/٤) والبخاري (٨٤٨) والطبراني في الكبير (١٢١٦) والحاكم (٤٢٢/٤) عن بشر الخثعمي. وانظر الضعيفة (٨٧٨).

٤ - أخرجه أبو داود (٤٣٢٤) والطبراني في الأوسط (٥٤٦٠) عن أبي هريرة. وانظر الكامل لابن عدي (٢٦٣٤/٧) ومجمع الزوائد (١٣٧٨٩) بلفظ: ينزل عيسى بن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة. وله شواهد انظرها في الدر المنثور للسيوطي (٢٤٢/٢ و ٢٤٤ و ٢٤٥).

وأخرج أحمد (٧٥/٦) وابن حبان (٦٨٢٢) من حديث عائشة: يلبث عيسى في الأرض أربعين سنة. زاد ابن حبان: أو قريباً من أربعين سنة. وانظر مجمع الزوائد (١٢٥١٢).

٥ - لها تحرفت عن سبع. فقد أخرج مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو: يبعث الله عيسى ابن مريم.... ثم يمكث الناس سبع سنين.... ثم يرسل الله رجلاً.... فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير.

قال: وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مئة وتسعة وخمسون عاماً، فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً. انتهى كلام ابن أبي واطيل<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر: نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم الحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه.

قال: وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب: الجفر، الذي ذكر فيه القرانات، أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس ضح بحرفين: الضاد المعجمة والحاء المهملة<sup>(٢)</sup>، يريد ثمانية وتسعين وست مئة من الهجرة، ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى.

قال: وقد ورد في الحديث أن عيسى «ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ينزل بين مهرودتين»<sup>(٣)</sup>. يعني: حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين «واضعاً كفيه على أجنحة الملكين، له لمة»<sup>(٤)</sup>، كأنما خرج من ديماس، إذا طأطأ رأسه قطر<sup>(٥)</sup>، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، كثير خيلان الوجه»<sup>(٦)</sup>.

وفي حديث آخر: «مربوع الخلق وإلى البياض والحمرة»<sup>(٧)</sup>. وفي آخر: «أنه يتزوج في الغرب»<sup>(٨)</sup>. والغرب: دلو البادية، يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته. وذكر وفاته بعد أربعين عاماً.

٦ - في ن: وأما.

١ - في ن: واصل. وتكرر كثيراً ولم أقف على ترجمته.

٢ - علق الهوريني على ذلك بقوله: الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين. والصاد لا داعي لذكرها هنا، وكان الأوضح أن يقول: الضاد عند المغاربة بتسعين والحاء عند المشارقة والمغاربة بثمانية، فيكون المجموع ثمانية وتسعين.

٣ - أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سميان. وأخرج أوله الطبراني في الكبير (٥٩٠) من حديث أوس بن أوس. وانظره في مجمع الزائد (١٣٧٩٠).

٤ - في القاموس: اللمة بالكسر: الشعر المجاور شحمة الأذن جمعه لم ولمام.

٥ - الديماس بفتح الدال ويكسر الحما.

٦ - أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سميان إلا قوله: له لمة كأنه خرج من ديماس. وقوله: كثير خيلان الوجه. وقوله: كأنه خرج من ديماس. أخرجه مسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة. وقوله: لمة. أخرجه مسلم (١٦٩) من حديث عبد الله بن عمر.

٧ - أخرجه البخاري (٣٠٦٧ و ٣٢١٥) ومسلم (١٦٥) (٢٦٧) من حديث ابن عباس. وأحمد (٤٠٦/٢) وأبو داود (٤٣٢٤) وابن حبان (٦٨٢١) من حديث أبي هريرة.

٨ - قال القرطبي في التذكرة (٧٩٠/٢): يقال: إنه يتزوج امرأة من العرب كذا بعدما يقتل الدجال وتلد له بنتاً فتموت ثم يموت هو بعدما يعيش سنتين. ذكره أبو الليث السمرقندي وخالفه كعب في هذا وأنه يولد له ولدان. ثم ذكر روايته (٧٩١/٢ - ٧٩٢).

وجاء «أن عيسى يموت بالمدينة ويُدفن إلى جانب عمر بن الخطاب»<sup>(١)</sup>. وجاء «أن أبا بكر وعمر يُحشران بين نبين»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن أبي واطيل<sup>(٣)</sup>: والشَّيعة تقول: إنه هو المسيح، مسيحُ المسائح من آل محمد. قلت: وعليه حمل بعض المتصوفة حديث: «لا مهديَّ إلا عيسى». أي: لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ.

إلى كلام من أمثال هذا يعيّنون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكمات مختلفة، فينقضني الزمان ولا أثر لشيء من ذلك، فيرجعون إلى تحديد رأي آخر منتحل، كما تراه من مفهومات [٢٥٥/١٤٢] لغوية وأشياء تخبينية<sup>(٤)</sup> وأحكام نجومية. في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

وأما المتصوفة الذين عاصروناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل محدّد لأحكام الملة ومراسم الحقّ ويتخيّنون ظهوره لما قرب من عصرنا. فبعضهم يقول: من ولد فاطمة، وبعضهم يطلق القول فيه. سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادسيّ كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المئة الثامنة، وأخبرني عنه حافده<sup>(٥)</sup> صاحبنا أبو يحيى زكريا، عن أبيه أبي محمد عبد الله، عن أبيه الولي أبي يعقوب المذكور. هذا آخر ما اطّلعت عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة.

وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا. والحقّ الذي ينبغي أن يتقرر لديك: أنه لا تتم دعوة من الدّين والمُلْك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه. وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك<sup>(٦)</sup>. وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا

١ - قال السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٥ - ٢٤٦): أخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن عبد الله بن سلام قال: يدفن عيسى ابن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فيكون قبره رابعا. بإسناد ضعيف. انظر مجمع الزوائد (١٣٧٩٢).

٢ - قال القرطبي في التذكرة (٢/٧٩٠): ذكر أبو حفص الميانشي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل عيسى ابن مريم فيتزوج ويولد له ويمكث خمسا وأربعين سنة، ويدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر.

٣ - في ن: واصل. وتكرر كثيرا ولم أقف على ترجمته.

٤ - حين يخب: غيب وخبأ وقصر، والخب: إسقاط الحرف الثاني في العروض. وفي المطبوع: تخيلية.

٥ - يعني: حفيد.

٦ - يحيل بذلك على ما ذكره في الفصلين الأول والسّادس من هذا الباب.

ما بقي بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطَّالِبِينَ من بني حسن وبني حسين وبني جعفر، وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها، وهم عصائب بدوية متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم، يبلغون آلافاً من الكثرة.

فإن صحَّ ظهور هذا المهديّ فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم، ويؤلف الله بين قلوبهم في أتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها. وأما على غير هذا الوجه، مثل أن يدعو فاطميّ منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرد نسبة في أهل البيت، فلا يتم ذلك ولا يمكن، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأما ما تدعيه العامة والأغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يفيده، فيتحيّنون<sup>(١)</sup> ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليداً لما اشتهر من ظهور فاطمي، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه.

وأكثر ما يتحيّنون<sup>(٢)</sup> في ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران، مثل الزَّاب بإفريقية والسُّوس من المغرب.

ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطاً بماسة لما كان ذلك الرباط بالمغرب من المُلثَمين من كذالة<sup>(٣)</sup> واعتقادهم أنه منهم، أو قائلون بدعوته، زعماء لا مستند لهم، إلا غرابة [ظ ١/١٤٦] تلك الأمم، وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوّة، ولبعد القاصية عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها، فتقوى عندهم الأوهام في ظهوره هناك بخروجه عن رتبة الدولة ومنال الأحكام والقهر، ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا. وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة (تمنيه النفس)<sup>(٤)</sup> تمامها وسواساً وحمقاً. وقتل كثير منهم.

أخبرني<sup>(٥)</sup> شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: خرج برباط ماسة لأول المئة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف، يعرف بالتويزريّ نسبة إلى توزر مصغراً، وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعة الكثير من أهل السوس من ضالة

١ - في ن: فيحيون.

٢ - في ن: يجييون.

٣ - في الأصل: كذالة. بالبدال المهملة. وهي قبيل من قبائل صنهاجة. انظر تاريخ ابن خلدون (١٨١/٦).

٤ - في ن: يميّه.

٥ - في ن: أخبرنا.

وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم، ففسد عليه السكسوي من قتله يياتاً<sup>(١)</sup>، وانحل أمره.

وكذلك ظهر في غمارة في آخر المئة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس، وادعى أنه الفاطمي، واتبعه الدهماء من غمارة، ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها. وارتحل إلى بلد المزمة، فقتل بها غيلة، ولم يتم أمره. وكثير من هذا النمط. وأخبرني شيخنا المذكور بغربية في مثل هذا، وهو أنه صحب - في حجه في رباط العباد، وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها - رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء، كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخادم. قال: وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان.

قال: وتأكدت الصُحبة بيننا في ذلك الطريق فانكشف لي أمرهم، وأنهم إنما جاؤوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب. فلما عاين دولة بني مرين، ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل لتلمسان قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط، وليس هذا الوقت وقتنا.

ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبة المكافئة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له، وأن عصبة بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق وأقصر عن مطامعه. وبقي عليه أن يستيقن أن عصبة الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت، لا سيما في المغرب. إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [النور: ١٩].

وقد كانت بالمغرب هذه العصور القرية نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما ينزع [ظ ١٤٦/٢] منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه. وأكثر ما يُعَنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها، لما قد مناه من طبيعة معاشهم<sup>(٢)</sup>، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن العصبة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب؛ لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة،

١ - البيات: الإغارة ليلاً.

٢ - انظر على الأخص الفصل السادس والعشرين من هذا الباب.

فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا. إلا أن العصبية الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب؛ لا يعقلون في توبتهم وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك، لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة، ومنها توبتهم. فوجد تابع<sup>(١)</sup> ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع، إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة، ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم. وشتان بين طلب هذا الأمر في صلاح الخلق وبين طلب الدنيا<sup>(٢)</sup>، فاتفقهما ممتنع، ولا تستحكم لهم<sup>(٣)</sup> صبغة في الدين ولا يكمل لهم<sup>(٤)</sup> نزوع عن الباطل على الجملة، ولا يكثرون.

ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه. فإذا هلك النحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم. وقد وقع ذلك بإفريقية لرجل من كعب من سليم يسمّى قاسم بن مرة بن أحمد في المئة السابعة، ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم، وكان يُسمّى سعادة، وكان أشدّ ديناً من الأول وأقوم طريقة في نفسه، ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه، كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح<sup>(٥)</sup>. وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك، ويلبسون فيها، وينتحلون اسم السنة، وليسوا عليها إلا الأقل، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم. انتهى.

١ - قوله: (تابع) ساقطة من جميع النسخ، وقد عثرنا عليها في التيمورية وهي مفرد في اللفظ وجمع في المعنى (د. وافي).

٢ - هكذا وردت هذه العبارة في النسخة المسماة بالتيمورية وقد وردت في غيرها محرفة وناقصة. وفي ن: بين هذا الأجر من إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا.

٣ - في ن: له.

٤ - في ن: له.

٥ - في القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر.

## ١-٣-٥٤- الفصل الرابع والخمسون:

## في حديثان الدول والأمم

## وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم: أن من خواص النفوس البشرية التشوّف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر، سيّما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدّنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها. وأتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها. ولذلك تجدد الكثير من الناس يتشوّفون إلى الوقوف على ذلك في المنام. والأخبار من الكهّان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسُّوقِ معروفة. ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس يتحللون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه، فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم<sup>(١)</sup> [ظ ١٤٧/١]. فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول، يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك، ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم، وطرق بالحصى والجُبوب ويسمونه الحاسب، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المنهل، وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار، لما تقرّر في الشريعة من ذم ذلك، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية.

وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلّع إليه الأمراء والملوك في آماذ دولتهم. ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من مُلك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم، ومدة بقاء الدّولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم ويُسمّى مثل ذلك: الحديثان.

وكان في العرب الكهّان والعرفاء يرجعون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدّولة، كما وقع لشق وسطيح<sup>(٢)</sup> في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من

١ - في المطبوع: يسألهم عنه.

٢ - أولهما شق بن أثمار الذبّي، والآخر سطيح بن مازن الغساني. وقد علقت بهما أساطير كثيرة. فمن ذلك ما يروى من أن سطحيّاً أخبر بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عاش ثلاث مئة سنة ومات في أيام كسري أنوشروان يعد مولده صلى الله عليه وسلم، وأنه سمي بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعتمد عليه، فكان أيداً منبسطة منسطة على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود، وإنه كان يطوى كما يطوى الحصر، وكان يتكلم بالأعاجيب. ومن ذلك ما يروى عن شق من أنه كان نصف إنسان، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة، ولذلك سمي شقاً. وهو ابن خالة سطيح. ويروى أن ولادتهما كانت في يوم واحد، وأنه في ذلك اليوم توفيت طريقة ابنة الخير الحميرية الكاهنة. د. وافي. وانظر عنها الروض الأنف للسيهلي (١٣١/١، ١٣٤ - ١٣٩).

ملوك اليمن، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها إليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك. وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبدان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح<sup>(١)</sup>. وأخبرهم بظهور دولة العرب.

وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن، ويقال: من غمرة، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانتهم، وفيها حدثنان كثير، ومعظمه فيما يكون لزناثة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجليل. وهم يزعمون تارة أنه ولي، وتارة أنه كاهن، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبياً، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير. والله أعلم.

وقد يستند الجليل في ذلك إلى خبر الأنبياء إن كان لعهدهم، كما وقع لبني إسرائيل، فإن أنبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يعنونهم في السؤال عنه. وأما في الدولة الإسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع إلى إبقاء الدنيا ومدتها على العموم، وفيما يرجع إلى الدولة وأعمارها على الخصوص. وكذا المعتمد في ذلك في صدر الإسلام، لآثار<sup>(٢)</sup> منقولة عن الصحابة، وخصوصاً مسلمة بني إسرائيل، مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأمثالهما. وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة.

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك، ومستندهم فيه - والله أعلم - الكشف<sup>(٣)</sup> [ظ ١٤٧/٢]. بما كانوا عليه من الولاية. وإذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الأولياء في ذويهم وأعقابهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ»<sup>(٤)</sup>. فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة.

وأما بعد صدر الملة، وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات، وترجمت كتب الحكماء إلى اللسان العربي، فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الأمور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها، وهي شكل الفلك عند حدوثها.

فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين.

١ - هو عبد المسيح بن عمر بن بقيلة الغساني ابن أخت سطيح. انظر الروض الأنف (١/١٤١ - ١٤٣).

٢ - في ن: آثار.

٣ - في ظ: بالكشف.

٤ - أخرجه الحميدي (٢٥٣) وأحمد (٥٥٠/٦) والبخاري (٣٦٨٩) ومسلم (٢٣٩٨) والترمذي (٣٦٩٣) والنسائي في فضائل الصحابة (١٨) والبيهقي في الدلائل (٣٦٩/٦) من حديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فهو عمر بن الخطاب.



أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي مَدَّةِ الْمَلَلِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السُّهَيْلِيِّ<sup>(١)</sup> فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ الطَّبْرِيِّ<sup>(٢)</sup> مَا يَقْتَضِي أَنَّ مَدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا مِنْذُ الْمَلَّةِ خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ، وَنَقَضَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ.

وَمُسْتَدَدُ الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جَمْعِ الْآخِرَةِ<sup>(٣)</sup>. وَلَمْ يَذْكُرْ لَذَلِكَ دَلِيلًا. وَسَرَهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَقْدِيرُ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهِيَ سَبْعَةٌ، ثُمَّ الْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

قَالَ: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»<sup>(٥)</sup>. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى، وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِيهِ. يَكُونُ عَلَى التَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ، وَكَذَلِكَ وَصَلَ الْوَسْطَى عَلَى السَّبَّابَةِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَدَّةُ نِصْفَ سُبْعٍ الْجُمُعَةِ كُلِّهَا، وَهُوَ خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ. وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ»<sup>(٦)</sup>. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَدَّةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَلَّةِ خَمْسَةُ آلَافٍ وَخَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ. وَعَنْ<sup>(٧)</sup> وَهَبِ بْنِ مَنْبَهٍ: أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ، أَعْنِي الْمَاضِي. وَعَنْ كَعْبٍ: أَنَّ مَدَّةَ الدُّنْيَا كُلِّهَا سِتَّةَ آلَافٍ سَنَةٍ<sup>(٨)</sup>.

١ - الروض الأنف: (٤/٤١٩).

٢ - تاريخ الطبري (١/١٧).

٣ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠)، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم في تفسيره - في كتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف (ص ٨٨).

٤ - أخرجه البخاري (٥٥٧، ٢٦٦٨، ٢٦٦٩، ٣٤٥٩، ٥٠٢١، ٧٤٦٧، ٧٥٣٣) وأحمد (٦/٢) و١١١ و١١٢ و١٢١ و١٢٤ و١٢٩) والترمذي (٢٨٧١) من حديث ابن عمر. ولم يخرجهم مسلم.

وأخرج البخاري (٥٥٨، ٢٢٧١) معناه من حديث أبي موسى الأشعري.

٥ - أخرجه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد.

وأخرج البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك.

٦ - أخرجه أحمد (١٩٣/٤) موقوفاً وأبو داود (٤٣٤٩) مرفوعاً من حديث أبي ثعلبة الخشني، ولفظ أحمد: والله لا تعجز هذه الأمة من نصف يوم، إذا رأيت الشام مائدة رجل واحد وأهل بيته، فعند ذلك فتح القسطنطينية. ولفظ أبي داود: لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم.

٧ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠) مطولاً.

٨ - أخرجه الطبري في تاريخه (١/١٠).

قال السَّهيلي<sup>(١)</sup>: وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه. فأما قوله: «لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم»، فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف.

وأما قوله: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةُ كهاتين». فإنما فيه الإشارة إلى القرب، وأنه ليس بينه وبين السَّاعَةِ نبي غيره، ولا شرع غير شرعه.

ثم رجع السَّهيلي<sup>(٢)</sup> إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر، لو ساعده التحقيق، وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السُّور بعد حذف المكرر، قال: وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: ألم يسطع نص حق كره<sup>(٣)</sup>. فأخذ [ظ ١٤٨/١] عددها بحساب الجُمَّل فكان تسع مئة وثلاثة<sup>(٤)</sup>، تضاف<sup>(٥)</sup> إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثه، فهذه هي مدة الملة.

قال: ولا يبعد أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها. قلت: وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه.

والذي حمل السَّهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السَّير لابن إسحاق<sup>(٦)</sup> في حديث ابني أخطب من أحبار اليهود، وهما أبو ياسر، وأخوه حي، حين سمعا من الأحرف المقطعة ألم، وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب، فبلغت إحدى وسبعين فاستقلاً المدة. وجاء حي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله: هل مع هذا غيره؟ فقال: ﴿المص﴾، ثم استزاد ﴿الر﴾. ثم استزاد ﴿المر﴾. فكانت إحدى وسبعين ومئتين فاستطال المدة. وقال: قد لبَّسَ علينا أمرُك يا محمد! حتى لا ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً؟ ثم ذهبوا عنه. وقال لهم أبو ياسر: ما يدريكم لعله أعطي عددها كلها تسع مئة وأربع سنين<sup>(٧)</sup>.

قال ابن إسحاق<sup>(٨)</sup>: فنزل قوله تعالى: ﴿منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتابِ وأخرُ متشابهاً﴾<sup>(٩)</sup> [آل عمران: ٧]. انتهى.

١ - الروض الأنف (٤/٤٢٠). بمعناه لا بنصه.

٢ - الروض الأنف (٤/٤٢٠ - ٤٢١).

٣ - يجمع غالباً هذه الحروف قولهم: نص حكيم قاطع له سر.

٤ - أي: بحساب المغاربة. لأن حساب المشاركة: (٦٩٣). والمثبت موافق للسَّهيلي في كتابه الروض الأنف (٤/٤٢١).

٥ - في المطبوع: أضافه.

٦ - انظر الروض الأنف شرح السيرة النبوية (٤/٣٤٥ - ٣٤٦).

٧ - في السيرة: ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد.... فذلك سبع مئة وأربع وثلاثون سنة.

٨ - في السيرة: فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم.... ونقل أقوالاً في أسبابها منها أنها نزلت في أهل نجران أو في نفر من اليهود. ويشكك في ذلك.

ولا يقوم من القصة دليلٌ على تقدير الملة بهذا العدد، لأنَّ دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية. وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمُّونه حساب الجُمَّل. نعم إنه قديمٌ مشهورٌ، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة.

وليس أبو ياسر وأخوه حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً، ولا من علماء اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز، غفلاً عن<sup>(١)</sup> الصَّنائع والعلوم، حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوامُّ في كل ملة. فلا ينهض للسهيلي دليلٌ على ما ادَّعاه من ذلك.

ووقع في الملة في حديثان دولتها على الخصوص مسندٌ من الأثر إجمالي في حديث خرجه أبو داود<sup>(٢)</sup> عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلي<sup>(٣)</sup>، عن سعيد [بن الحكم] بن أبي مريم، عن عبد الله بن فروخ، عن أسامة بن زيد الليثي، عن ابن<sup>(٤)</sup> قبيصة بن ذؤيب عن أبيه قال: قال حذيفة بن اليمان: والله ما أدري، أنسي أصحابي أم تناسوه<sup>(٥)</sup>؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة<sup>(٦)</sup> إلى أن تنقضي الدنيا، يبلغ من معه ثلاث مئة فصاعداً إلا قد سمَّاه لنا باسمه واسم أبيه و[اسم] قبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال في رسالته: ما سكت عليه في كتابه فهو صالح. وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مجملٌ، ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماتِه إلى آثار أخرى يجود أسانيدُها. وقد وقع إسناد هذا الحديث في غير [ظ ٢/١٤٨] كتاب السنن على غير هذا الوجه. فوقع في الصحيحين<sup>(٧)</sup> من حديث حذيفة أيضاً قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيباً<sup>(٨)</sup>، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدَّث عنه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي<sup>(٩)</sup> هؤلاء. انتهى.

٩ - وقد اكتفى ابن إسحاق بجزء منها، مع أنَّ المعنى الذي يريد تقريره لا يستفاد إلا إذا ذكرت الآية كلها.

١ - في ن: من.

٢ - سنن أبي داود (٤٢٤٣) وقد بين المصنف رجاله إذ لم يبين في أبي داود أن شيخه هو الذهلي، وأن ابن أبي مريم هو سعيد، وأن ابن فروخ هو عبد الله.

٣ - في الأصل: الذهبي. خطأ. صحح من تهذيب الكمال (٦١٧/٢٦) (-).

٤ - في الأصل: أبي. خطأ. صحح من السنن ومصادر الترجمة.

٥ - في أبي داود: تناسوا.

٦ - في الأصل: فتنة. خطأ.

٧ - البخاري (٦٦٠٤) ومسلم (٢٨٩١) وأبو داود (٤٢٤٠).

٨ - لفظ مسلم: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً.

٩ - في الأصل: أصحابه. صحح من مسلم.

ولفظ البخاري: «ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره».

وفي كتاب الترمذي<sup>(١)</sup> من حديث أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه. انتهى.

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لا غير، لأنه المعهود من الشَّارع صلوات الله وسلامه عليه، في أمثال هذه العمومات. وهذه الزيادة التي تفرد بها أبو داود في هذه الطريق<sup>(٢)</sup> شاذة منكورة، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله.

فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ<sup>(٣)</sup>: أحاديثه مناكير.

وقال البخاري: تعرف منه وتنكر.

وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة.

وأسماء بن زيد<sup>(٤)</sup>، وإن خرَّج له في الصحيحين. ووثقه ابن معين، فإنما خرَّج له البخاري استشهاداً، وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل.

وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به.

وابن<sup>(٥)</sup> قبيصة بن ذؤيب: مجهول<sup>(٦)</sup>. فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لأبي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر.

وقد يستندون في حديثان الدول على الخصوص إلى كتاب الجفر، ويزعمون أن<sup>(٧)</sup> فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم، لا يزيّدون على ذلك، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده.

واعلم أن كتاب الجفر كان أصله: أن هارون بن سعد<sup>(٨)</sup> العجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم،

١ - رقم: (٢١٩٢).

٢ - وهي قوله: «ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مئة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته».

٣ - هو عبد الله بن فروخ الخراساني. انظر تهذيب الكمال (٤٢٨/١٥ - ٤٣٠).

٤ - يقصد أسماء بن زيد الليثي الذي ورد اسمه في سند هذا الحديث. وهو مترجم في تهذيب الكمال (٣٤٧/٢ - ٣٥١).

٥ - في الأصل: وأبو. خطأ.

٦ - قال المزي في تهذيب الكمال (٤٦٩/٣٤): إن لم يكن إسحاق بن قبيصة فهو أخ له. فإن كان إسحاق فليس بمجهول الرواية، روى عنه جمع منهم أسماء، وكان من أمراء دمشق، انظر ترجمته في تهذيب الكمال (٤٦٨/٢ - ٤٧٠).

٧ - في ن: فيه.

ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لثلهم من الأولياء. وكان مكتوباً عند جعفر في جلد نور صغير، فرواه عنه هارون العجلي وكتبه، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه<sup>(١)</sup>، لأن الجفر في اللغة هو الصغير<sup>(٢)</sup>، وصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق.

وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صحَّ السند [ظ ١/١٤٩] إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات، وقد صحَّ عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم، فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه، فخرج وقتل بالجوَزَجَان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم، فما ظنك بهم علماً وديناً وآثراً من النبوة، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة!! وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام، غير منسوب إلى أحد. وفي أخبار دولة العبّيديين كثير منه. وانظر ما حكاه الرقيق<sup>(٣)</sup> في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب، وما حدثاه به، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن، فأمره بالخروج إلى المغرب، وبث الدعوة فيه على علم لقنه أن دعوته تتم هناك، وأن عبّيد الله لما بنى المهديّة بعد استفحال دولتهم بإفريقية قال: بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار. وأراهم موقف صاحب الحمار بساحتها، وبلغ هذا الخير حافده إسماعيل المنصور، فلما حاصره صاحب الحمار أبو يزيد بالمهديّة وكان يُسأل<sup>(٤)</sup> عن منتهى موقفه، حتى جاءه الخبر ببلوغه إلى المكان الذي عينه جدّه أبو عبّيد الله فأيقن بالظفر، وبرز من البلد، فهزمه واتبعه إلى ناحية الزّاب فظفر به وقتله. ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة.

وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول إلى الأحكام النجومية.

أما في الأمور العامة مثل الملك والدول فمن القرائن، وخصوصاً بين العلويين. وذلك أنّ العلويين: زحل والمُشتري يقترنان في كل عشرين سنة مرة، ثم يعود القَران إلى برج

٨ - في الأصل: سعيد. خطأ. ولم تثبت روايته عن جعفر، وإنما عن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

روى له مسلم في صحيحه. ووثقه غير واحد، إلا أنه كان غالباً في الرّفْض. وانظر ترجمته في تهذيب الكمال (٨٥/٣٠ - ٨٨).

١ - في ن: عليه.

٢ - الجفر في اللغة: ولد الشاء أو المعز الصغير.

٣ - في الأصل: ابن الرقيق. خطأ.

٤ - في ن: يسأئل.

آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن، ثم بعده إلى آخر كذلك، إلى أن يتكرر في المثلثة الواحدة اثني عشرة مرة تستوي بُروجه الثلاثة في ستين سنة، ثم يعود فيستوي بها في ستين سنة، ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوي في المثلثة باثني عشرة مرة، وأربع عودات في مئتين وأربعين سنة، ويكون انتقاله في كل برج على التثليث الأيمن، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التي تليها أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القرآن الذي قبله في المثلثة.

وهذا القرآن الذي هو قران العلويين، ينقسم إلى كبير وصغير ووسط. فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك، إلى أن يعود إليها بعد تسع مئة وستين سنة مرة واحدة، والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثني عشرة مرة، وبعد مئتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى؛ والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج، وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجه أو دقائقه.

مثال ذلك: وقع القرآن يكون أول<sup>(١)</sup> [ظ ١٤٩/٢] دقيقة من الحمل، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من الأسد، وهذه كلها نارياً، وهذا كله قراناً صغير. ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويُسمّى دور القرآن وعود القرآن، وبعد مئتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها، وهذا قراناً وسط. ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية، ثم يرجع إلى أول الحمل في تسع مئة وستين سنة وهو الكبير.

والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الملك والدولة. وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطالبيين للملك؛ والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن أو عمرانها.

ويقع في أثناء هذه القرائات قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويُسمّى الرابع.

وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وبأل زحل وهبوط المريخ، فتعظم دلالة هذا القرآن في الفتن والحروب، وسفك الدماء، وظهور الخوارج وحركة العساكر، وعصيان الجند، والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما على قدر تيسير الدليل فيه.

قال جراش<sup>(٢)</sup> بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك:

١ - في ظ: إذا وقع القرآن أول.

٢ - في ن: (جراس). وفي أخرى: (خراش). وما أثبتته من هدية العارفين في أسماء المصنفين، وهو أبو الفتح الهمداني له كتاب القرائات (٥/٢٥٠).

ورجوع المريخ إلى العقرب له أثرٌ عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلها، فالمولد النبوي كان عند قران العلويين بـ برج العقرب؛ فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم، وربما انهدم بعض بيوت العبادة، وقد يقال: إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه، ومروان من بني أمية، والمتوكل من بني العباس.

فإذا رُوعيت هذه الأحكام مع أحكام القرآنات كانت في غاية الإحكام. وذكر شاذان البلخي: أنَّ الملة تنتهي إلى ثلاث مئة وعشرين. وقد ظهر كذب هذا القول.

وقال أبو معشر<sup>(١)</sup>: يظهر بعد المئة والخمسين منها اختلاف كثير، ولم يصح ذلك. وقال جراش: رأيتُ في كتب القدماء أنَّ المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم، وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة. وقال أبو معشر في كتاب القرآنات: القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة. ووقع في القران مع ذلك بـ برج العقرب، وهو دليل العرب، ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبيٌّ، ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة، وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت، ومدة ذلك ست مئة وعشر سنين، وكان ظهور أبي مسلم<sup>(٢)</sup> عند انتقال الزهرة، ووقع القسمة أول الحمل، وصاحب الجلد المشتري.

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي<sup>(٣)</sup>: إنَّ مدة الملة تنتهي إلى ست مئة وثلاث وتسعين سنة. قال [ظ. ١٥٠/١]: لأنَّ الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة، من الحوت. فالباقي إحدى عشرة درجة وثمانين عشرة دقيقة ودقائقها ستون، فيكون ست مئة وثلاثاً وتسعين سنة.

قال: وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء، ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمَّل.

**قلت:** وهذا هو الذي ذكره السهيلي. والغالب أنَّ الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه.

١ - هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم توفي سنة ٢٧٢ هـ من كتبه: اقتران النحسين في برج السرطان.

٢ - يقصد أبا مسلم الخراساني داعية بني العباس وموطد دولتهم.

٣ - (١٨٥ - ٢٥١ هـ) تقريباً. له رسائل ومؤلفات في شتى فروع العلم وفي النجوم والفلكيات. مثل رسالة في دلائل النحسين في برج السرطان. انظر ثلاث رسائل له في الكواكب في مجلة المورد مجلد (٨) عدد ١ ص ١٦٣ - (٢٠٦).

قال جراش: سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده ملوك السَّاسانية فقال: دليل ملكه المشتري، وكان في شرفه فيعطي أطول السنين وأجودها، أربع مئة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تزيد الزهرة، وتكون في شرفها وهي دليلُ العرب، فيملكون؛ لأن طالع القرآن الميزان، وصاحبه الزهرة، وكانت عند القرآن في شرفها، فدلَّ أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة.

وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب، فأخبره أنَّ القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والمغرب. والمشتري يغوص إلى الزهرة، وينتقل القرآن من الهوائية إلى العقرب، وهو مائي وهو دليل العرب. فهذه الأدلة تفضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة.

وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك، فقال مثل قول بزرجمهر. وقال توفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية: إن ملة الإسلام تبقى مدة القرآن الكبير تسع مئة وستين سنة. فإذا عاد القرآن إلى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة، فحينئذ إما أن يفتز العمل به أو يتحدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن.

قال جراش: واتفقوا على أنَّ خراب العالم يكونُ باستيلاء الماء والنار، حتى تهلك سائر المكوّنات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة. التي<sup>(١)</sup> هي حدُّ المريخ وذلك بعد مضي تسع مئة وستين سنة.

وذكر جراش: أنَّ ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمة ذوبان، أتحفه به في هديه، وأنّه تصرف للمأمون في الاختيارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر، وأنَّ المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه، واتصاله في ولد أخيه، وأنَّ العجم يتغلبون على الخلافة من الدَّيلم في دولة سنة خمسين، ويكون ما يريد الله، ثم يسوء حالهم، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكون إلى الشام والفرات وسيحون، ويفتحون<sup>(٢)</sup> بلاد الروم، ثم<sup>(٣)</sup> [ظ ١٥٠/٢] يكون ما يريد الله. فقال له المأمون: من أين لك هذا؟ فقال: من كتب الحكماء ومن أحكام صصة<sup>(٤)</sup> بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج. قلت: والترك<sup>(٥)</sup> الذين أشار إلى ظهورهم بعد الدَّيلم هم السَّلاجقية، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع.

١ - في ن: و.

٢ - في ن: سيملكون.

٣ - في ن: و.

٣ - لعله: كتبه الهندي وله كتاب القرائات الكبيرة، والقرانات الصغيرة. انظر كشف الظنون (١٣٢٤/٢).

٤ - لعل هذا مستند العثمانيين في متابعتهم للمنجمين والله أعلم.



وقال جراش: وانتقال القرآن إلى المثلثة المائة من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة لِيَزْدَجَرْدَ، وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قران الملة ثلاث وخمسين. قال: والذي في الحوت هو أول الانتقال، والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة. قال: وتحويل السنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائبة في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمان مئة<sup>(١)</sup>.

ولم يستوف الكلام على ذلك. وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص، فمن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة، وجهاتها من العمران. والقائمين بها من الأمم، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم. كما ذكر أبو معشر في كتابه في القرانات. وقد توجد هذه الدلالة من القران الأصغر إذا كان الأوسط دالاً عليه، فمن هذا يوجد الكلام في الدول.

وقد كان يعقوب بن إسحاق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتاباً سماه الشيعة: بالجفر، باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق، وذكر فيه - فيما يقال - حدثان دولة بني العباس، وأنها نهايته، وأشار إلى انقراضها، والحادثة على بغداد أنها تقع في<sup>(٢)</sup> انتصاف المئة السابعة، وأنه بانقراضها يكون انقراض الملة. ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب، ولا رأينا من وقف عليه؛ ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هلاكاً ملك التتر في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء.

وقد وقع بالمغرب جزء منسوب إلى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير، والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن، لذكر الأولين من الملوك الموحدين فيه على التفصيل، ومطابقة من تقدّم عن ذلك من حدثانه وكذب ما بعده.

وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحديثان. وانظر ما نقله الطبري<sup>(٣)</sup> في أخبار المهدي عن أبي بديل<sup>(٤)</sup> من أصحاب صنائع الدولة، قال: بعث إليّ الربيع والحسن في غزاتهما مع الرشيد أيام أبيه، فجئتُهما جوف الليل، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني الحديثان، وإذا مدة المهدي فيه عشر سنين. فقلت: هذا الكتاب لا

١ - انتهى هنا النص المنقول عن جراس.

٢ - في ن: مع.

٣ - تاريخ الطبري (١٤٦/٨). بمعناه.

٤ - هو الواضح بن حبيب بن بديل.

يخفى على المهدي، وقد مضى من دولته ما مضى، فإذا وقف عليه كنتم قد نَعِيتُم إليه نفسه، قالوا: فما الحيلة؟ فاستدعيت عنبسة [ظ ١٥١/١] الورَّاق مولى آل [أبي] بديل، وقلت له: انسخ هذه الورقة؛ واكتب مكان عشر أربعين ففعل. فوالله لولا أنني رأيت العشرة في تلك الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي.

ثم كتب النَّاسُ من بعد ذلك في حدثان الدول منظوماً ومتثوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه؛ وبأيدي الناس متفرقة كثيرٌ منها، وتسمَّى الملاحم، وبعضها في حدثان الملة على العموم، وبعضها في دولة على الخصوص. وكلها منسوبة إلى مشاهير أهل الخليفة. وليس منها أصلٌ يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه.

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مِرْآة من بحر الطويل على رَوِيِّ الرِّاء وهي متداولة بين النَّاس. وتحسب العامة أنها من الحدثان العام، فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل، والذي سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة، لأنَّ الرجل كان قبيل دولتهم، وذكر فيها استيلاؤهم على سَبْتَة من يد موالي بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس.

ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تُسمَّى التَّبْعِيَّة أُولَها:  
 طَرَبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبُ      وَقَدْ يُطَرَّبُ الطَّائِرُ الْمُغْتَصَبُ  
 وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلْهُوَ أَرَاهُ      وَلَكِنْ لِيَذْكَارِ بَعْضِ السَّبَبِ  
 قريباً من خمس مئة بيت أو ألف فيما يقال. ذكر فيها كثيراً من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره. والظاهر أنها مصنوعة.

ومن الملاحم بالمغرب أيضاً ملحبةٌ من الشعر الزَّجلي منسوبةٌ لبعض اليهود، ذكر فيها أحكام القِرَآنَات لعصره، العلويين والنحسين وغيرهما، وذكر مِيتَهُ قِتِيلاً بِفَاس. وكان كذلك فيما زعموه. وأوله:

فافهموا يا قوم هذي الإشارة	في صبغ ذا الأزرق لِشَرَفِهِ خِياراً
وبدل الشكلا وهي سلاما	نَجْمُ زحل أخبر بذی العلاما
وشاش أزرق بدل الغرارا	شاشيةٌ زرقا بدل العماما

يقول في آخره:

قد تمَّ ذا التَّجْنِيسُ لِإنسان يهودي	يصلب في بلدة فاس في يوم عيد
حتَّى يَحِيه النَّاسُ مِنَ الْبَوَادِي	وقتلَه يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمس مئة، وهي في القِرَآنَات التي دَلَّت على دولة الموحدين.

ومن ملاحم المغرب أيضاً قصيدة من عروض المتقارب على رَوِيّ الباء في حدثان دولة بني أبي حفص بتونس من الموحدين، منسوبة لابن الأَبَّار، وقال لي قاضي قسطنطينه الخطيب الكبير أبو علي ابن باديس [ظ ١٥١/٢]، وكان بصيراً بما يقوله، وله قدم في التنجيم، فقال لي: إنَّ هذا ابن الأَبَّار ليس هو الحافظ الأندلسي الكاتب مقتول المستنصر، وإنما هو رجل خياط من أهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ.

وكان والدي رحمه الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها:

عَذِيرِي مَنْ زَمَنٍ قُلُوبِ      يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ

ومنها:

وَيَعْتُ مَنْ جَيْشِهِ قَائِداً      وَيَقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ  
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ      وَتَلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجَلِبِ  
وَيُظْهِرُ مَنْ عَدْلِهِ سِيرَةً

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم:

فإِذَا رَأَيْتَ الرِّسُومَ انْمَحَتْ<sup>(١)</sup>      وَلَمْ يُرْعَ حَقُّ لَذِي مَنْصَبِ  
فَخُذْ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسَ      وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَادْهَبِ  
فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً      تُضِيفُ الْبِرِّيَّ إِلَى الْمَذْنَبِ

ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني أبي حفص هؤلاء بتونس، فيها بعد السلطان أبي يحيى الشَّهير عاشر ملوكهم ذكرُ محمد أخيه من بعده يقول فيها:

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ      وَيَعْرِفُ بِالْوَثَابِ فِي نَسْخَةِ الْأَصْلِ

إلا أنَّ هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه، وكان يُمنِّي بذلك نفسه إلى أن هلك.

ومن الملاحم في المغرب أيضاً المُلَعَّبَةُ المنسوبة إلى الهوشي<sup>(٢)</sup> على لغة العامة في عروض البلد التي أولها:

دَعْنِي بدمعسي الهتَان      فَتَرْتَ الْأَمْطَارَ وَلَمْ تَفْتَرِ  
وَاسْتَقَّتْ كُلُّهَا الْوُدَيَان      وَأَنْى تَمْلِي وَتَنْغْدِرُ  
الْبِلَادَ كُلُّهَا تَرَوِي      فَأُولَى مَا مِيلَ مَا تَدْرِي

١ - في ن: انح.

٢ - وفي ن: الهوشي بالثاء.

ما بين الصَّيفِ والشتوي      والعام والريـع تجري  
قال حين صحت الدَّعوى      دعني نبكي ومن عذر  
أنادي من ذي الأزمان      ذا القرن اشتدَّ وتمري

وهي طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع، لأنه لم يصح منها قول إلا على تأويل تحرفه العامة أو الحارف فيه من يتحلها من الخاصة.

ووقفتُ بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الألفاظ لا يعلم تأويله إلا الله لتخلله<sup>(١)</sup> إلى أوافق عددية، ورموزٌ ملغوزة، وأشكال حيواناتٍ تامة، ورؤوس مقطعة، وتماثيل من حيوانات<sup>(٢)</sup> غريبة. وفي آخرها [ظ ١٥٢/١] قصيدة على روي اللام، والغالب أنها كلها غيرٌ صحيحة. لأنها لم تنشأ عن أصلٍ علمي من نجامة ولا غيرها.

وسمعت أيضاً أنَّ هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب<sup>(٣)</sup>، وليس في شيء منها دليل على الصحة، لأنَّ ذلك إنما يؤخذ من القرانات.

ووقفتُ بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة التُّرك منسوبة إلى رجلٍ من الصُّوفية يُسمَّى الباجريقي<sup>(٤)</sup> وكلها إلغازٌ بالحروف، أولها:

إِنْ شَعْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سَائِلِي<sup>(٥)</sup>      من علم جَفَرٍ وَصِيٍّ والد الحسن  
فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته      والوصف فافهم كفعل الحاذقِ الفطن  
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَصْرِي لَسْتُ أَذْكُرُهُ      لكنني أذكر الآتي من الزَّمن  
بشهر يبرس يبقى بعد خمسَتها      بجاء ميمٍ بطيش نام في الكنن  
شين له أثرٌ من تحت سُرَّتِه      له القضاء قضى أي ذلك المنن  
فمصر والشَّام مع أرض العراق له      وأذريجان في ملك إلى اليمن

ومنها:

وَأَلْ بُوزَانَ لَمَّا نَالَ طَاهَرَهُم      الفاتكُ الباتكُ المغنيُّ بالسمن

١ - في ن: لتخلله إلى.

٢ - في ظ: حيوانين.

٣ - هو يحيى بن عقب قيل عنه: معلم الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، له منظومة لامية أولها:

رَأَيْتُ مِنَ الْأُمُورِ عَجِيبَ حَالٍ      لأسباب يسطرها مقال

انظر كشف الظنون (٢/١٨١٨).

٤ - تأتي ترجمته في آخر الفصل.

٥ - في ن: سولي.

لا لوفاق ونون ذي قرن  
يقي بجاء وأين بعد ذو سمن

خلع سين ضعيف السن سين أتى  
قوم شجاع له عقل ومشورة  
ومنها:

يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن

من بعد باء من الأقوام قتلته  
[ظ ٢/١٥٢] ومنها:

في عصره فتن ناهيك من فتن  
عار عن القاف قاف جد بالفتن  
أبدت بشجو على الأهلين والوطن  
الزلزال ما زال حاء غير مقتطن  
هلكا وينفق أموالاً بلا ثمن  
هون به إن ذاك الحصن في سكن  
لا سلم الألف سين لذاك بني  
من السنين يداني الملك في الزمن

هذا هو الأعرج الكلي فاعن به  
يأتي من الشرق في جيش يقدمهم  
بقتل دال ومثل الشام أجمعها  
إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من  
طاء وطاء وعين كلهم حبسوا  
يسير القاف قافاً عند جمعهم  
وينصبون أخاه هو صالحهم  
تمت ولايتهم بالحاء لا أحد

ويقال إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر:

يأتي إليه أبوه بعد هجرته وطول غيبته والشظف والزرن

وأياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة، ومثل صنعتها كان في القديم كثيراً ومعروف الانتحال.

**حكى المؤرخون لأخبار بغداد:** أنه كان بها أيام المقتدر وراقٌ ذكيٌ يعرف بالدانيالي، يبلُّ الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم، ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات، وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر، وكان عظيماً في الدولة، فقال له: هذا كناية عنك، وهو مفلح مولى مقتدر، ميم في كل واحدة، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله<sup>(١)</sup> من الدولة ونصب له<sup>(٢)</sup> علامات لذلك من أحواله المتعارفة موه<sup>(٣)</sup> بها عليه، فبذل له ما أغناه به. ثم وضعه للوزير

١ - في ن: عنه ما يرضاه ويناله.

٢ - في ن: لذلك.

٣ - في ن: بموه.

الحسن بن القاسم بن وهب، على مفلح هذا، وكان معزولاً، فجاءه بأوراق مثلها، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف، وبعلامات ذكرها، وأنه يلي الوزارة للثامن<sup>(١)</sup> عشر من الخلفاء، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعداء، وتعمر الدنيا في أيامه. وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى، وملاحم من هذا النوع، مما وقع ومما لم يقع، ونسب جميعه إلى دانيال. فأعجب به مفلح. ووقف عليه المقتدر، واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب، وكان ذلك سبباً لوزارته. بمثل هذه الحيلة [ظ ١٥٣/١] العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز.

والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجرقي من هذا النوع. ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب إليه من الصوفية، وهو الباجرقي، وكان عارفاً بطرائقهم. فقال: كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية، وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف، ويومئ إلى رجال معينين عنده، ويلغز عليهم بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم، وربما يظهر نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه، وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة، وزاد فيها الخراصون<sup>(٢)</sup> من ذلك الجنس في كل عصر، وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمر ممتنع، إذ الرمز إنما يهدي إلى كشفه قانون يعرف قبله، ويوضع له، وأما مثل هذه الحروف فدلالته على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزها. فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاءً لما كان في النفس من أمر هذه الملحمة. ﴿وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

ثم وقفت بعد ذلك وأنا بدمشق عند حلولي مع الركاب بها سنة اثنتين وثمان مئة، وأنا على قضاء المالكية بمصر، فوقفت على تاريخ ابن كثير<sup>(٣)</sup> في سنة أربع وعشرين وسبع مئة في ترجمة التعريف بهذا الرجل، فقال شمس الدين محمد الباجرقي الذي نسبت إليه الفرقة الضالة الباجرقية، والمشهور عندهم إنكار الصانع. وكان والده جمال الدين عبد الرحيم ابن عمر الموصلية رجلاً صالحاً من علماء الشافعية، ودرس في مدارس دمشق، ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء، فاشتغل قليلاً، ثم أقبل على السلوك، ولازمه جماعة يعتقدون فيه [ويزورونه ويرزقونه] من هو على طريقتهم [وآخرون لا يفهمونه]. ثم حكم القاضي المالكي بإراقة دمه، وهرب إلى المشرق. ثم أقام البينة بالعداوة بينه وبين من شهد عليه. وحكم الحنبلي بحرق دمه. وأقام بالقابون مدة سنين. وتوفي ليلة الأربعاء السادس عشر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين يعني وسبع مئة. [ظ ١٥٣/٢]. قد تم الجزء الأول من كتاب العبر في أخبار العرب والعجم والبربر، وفي الجزء الثاني: الفصل الرابع من الكتاب الأول.

١ - في ن: للثاني.

٢ - خرص خرصاً كذب فهو خراص وخراص. ٣ - البداية والنهاية (١١٥/١٤).

## فهرس الموضوعات

### الجزء الأول

المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون... ٣٩
قواعد المنهج العامة في مقدمة ابن خلدون... ٣٩
أولاً - التزود بالعلم... ٤٠
ثانياً - معرفة طبائع العمران... ٤٠
ثالثاً - التشكك... ٤٢
رابعاً - الموضوعية... ٤٣
خامساً - الحيلة عند التعميم... ٤٥
قواعد المنهج الخاصة في مقدمة ابن خلدون... ٤٥
أولاً - التأمل والاستقراء... ٤٥
ثانياً - التحقيق العقلي... ٤٦
ثالثاً - التحقيق الحسي... ٤٨
رابعاً - سؤال الخبراء... ٤٩
خامساً - المقارنة... ٤٩
سادساً - التجربة... ٥٠
سابعاً - النظر في الحوادث في إطارها الزماني... ٥١
ابن خلدون كمفكر اجتماعي عربي
للدكتور محمد عبد المنعم نور... ٥٢
شخصية الأستاذ وعصره... ٥٤

مقدمة الخلق... ٥
أوراق خلدونية في مطلع قرن جديد... ٧
الدوافع غير المعلنة في كتابة المقدمة... ٩
عوامل تجاهل المقدمة... ١٠
خصوصية ابن خلدون... ١٣
يستفاد من مقدمته... ١٩
ينظم حركة الحياة قانونان... ٢٠
موقفه من آل البيت... ٢١
يمكن تقسيم مراحل حياته إلى... ٢٢
الركائز التي انطلق منها ابن خلدون في اكتشافه القوانين النازمة لطبائع العمران... ٢٥
الحديث الشريف... ٢٦
اقتباساته... ٢٧
ظلال شخصية... ٢٨
ابن تيمية... ٢٩
تاريخه وعلاقته بالمقدمة... ٣٢
المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون
للدكتور حسن الساعاتي... ٣٤
المنهج العلمي في مقدمات كتب كبار المؤرخين المسلمين القدامى... ٣٦

- ابن خلدون وغيره من المفكرين..... ٥٦
- المدرسة التاريخية الاجتماعية (فلسفة التاريخ)..... ٥٧
- المدرسة الجغرافية..... ٥٧
- المدرسة الاقتصادية..... ٥٨
- المدرسة النفسية..... ٥٩
- المدرسة الخلدونية..... ٦٠
- ابن خلدون والاتجاهات العلمية الحديثة ٦١
- المقدمة والعلم الاجتماعي..... ٦١
- طريقة التحليل البنائي الوظيفي عند ابن خلدون..... ٦٢
- ١- الضبط الاجتماعي..... ٦٣
- ٢- التألف الاجتماعي..... ٦٣
- ابن خلدون والأهمية الوظيفية للمركز الاجتماعي..... ٦٣
- ابن خلدون والضبط الاجتماعي..... ٦٤
- التربية عند ابن خلدون..... ٦٥
- ابن خلدون وتزايد السكان..... ٦٦
- ابن خلدون والنموذج الأمثل..... ٦٧
- ابن خلدون والتقسيمات الحديثة لعلم الاجتماع..... ٦٩
- الغرب والشرق يفتن لقيمة ابن خلدون كمفكر اجتماعي عظيم..... ٧١
- آراء علماء الاجتماع الأوروبيين..... ٧١
- آراء علماء الاجتماع الأمريكيين..... ٧٢
- ابن خلدون في رأي الكتاب والعلماء العرب..... ٧٣
- رأي أخير..... ٧٦
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر..... ٧٧
- توطئة..... ٧٩
- مقدمة المؤلف..... ٨٠
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر..... ٨٧
- (أ) المقدمة..... ٩١
- أ - المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها..... ٩٢
- ١ - ١ - فصل [في مداخل وهم أهل التفسير]..... ٩٨
- ب - الكتاب الأول طبيعة العمران... ١٢٣



(ب) ١- الكتاب الأول في طبيعة العمران في  
الخليقة وما يعرض فيها في البدو والحضر  
والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم  
ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب ١٢٥

### □ العمران البشري..... ١٣٣

١- ١- الفصل الأول من الكتاب الأول في  
العمران البشري على الجملة..... ١٣٧

١- ١- ١- [المقدمة] الأولى: في أن الاجتماع  
الإنساني ضروري..... ١٣٧

١- ١- ٢- المقدمة الثانية في قسط العمران من  
الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار  
والأنهار والأقاليم..... ١٤٠

١- ١- ٢- ١- تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن  
الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من  
الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك..... ١٤٦

[صورة الأرض من نزهة المشتاق]..... ١٥٠

١- ١- ٢- تفصيل الكلام على هذه

الجغرافيا..... ١٥١

الإقليم الأول..... ١٥٢

الإقليم الثاني..... ١٥٧

الإقليم الثالث..... ١٦٠

الإقليم الرابع..... ١٦٨

الإقليم الخامس..... ١٧٦

الإقليم السادس..... ١٨٢

الإقليم السابع..... ١٨٦

١- ١- ٣- المقدمة الثالثة في المعتدل من الأقاليم  
والمحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير

من أحوالهم..... ١٨٩

١- ١- ٤- المقدمة الرابعة في أثر الهواء في

أخلاق البشر..... ١٩٤

١- ١- ٥- المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال

العمران، في الخصب والجوع، وما ينشأ عن

ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم..... ١٩٦

١- ١- ٦- المقدمة السادسة في أصناف

المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا..... ٢٠١

النفوس البشرية على ثلاثة أصناف..... ٢٠٨

١- ١- ٦- ١- فصل..... ٢١٧

١- ١- ٦- ٢- فصل..... ٢١٨

١- ١- ٦- ٣- فصل..... ٢٢٦

□ العمران البدوي..... ٢٣٨

- ١- ٢- ٩- الفصل التاسع في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم..... ٢٥٧
- ١- ٢- ١٠- الفصل العاشر في اختلاط الأنساب كيف يقع؟..... ٢٥٩
- ١- ٢- ١١- الفصل الحادي عشر في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية..... ٢٦٠
- ١- ٢- ١٢- الفصل الثاني عشر في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم..... ٢٦١
- ١- ٢- ١٣- الفصل الثالث عشر في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالجهاز والشبه وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال..... ٢٦٣
- ١- ٢- ١٤- الفصل الرابع عشر في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم..... ٢٦٦
- ١- ٢- ١٥- الفصل الخامس عشر في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء..... ٢٦٨
- ١- ٢- ١٦- الفصل السادس عشر في أن الأمم الوحشية أقدروا على التغلب ممن سواها..... ٢٧١
- ١- ٢- الفصل الثاني من الكتاب الأول في العمران البدوي، والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال..... ٢٤٣
- ١- ٢- ١- الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر طبيعية..... ٢٤٣
- ١- ٢- ٢- الفصل الثاني في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي..... ٢٤٥
- ١- ٢- ٣- الفصل الثالث في أن البداوة أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها..... ٢٤٧
- ١- ٢- ٤- الفصل الرابع في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر..... ٢٤٨
- ١- ٢- ٥- الفصل الخامس في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر..... ٢٥١
- ١- ٢- ٦- الفصل السادس في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم..... ٢٥٢
- ١- ٢- ٧- الفصل السابع في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية..... ٢٥٤
- ١- ٢- ٨- الفصل الثامن في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه..... ٢٥٦

- ١- ٢- ١٧- الفصل السابع عشر في أنَّ الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك..... ٢٧٢
- ١- ٢- ١٨- الفصل الثامن عشر في أنَّ من عوائق الملك حُصول الترف وانغماس القبيل في النعيم..... ٢٧٤
- ١- ٢- ١٩- الفصل التاسع عشر في أنَّ من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم..... ٢٧٥
- ١- ٢- ٢٠- الفصل العشرون في أنَّ من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس..... ٢٧٧
- ١- ٢- ٢١- الفصل الحادي والعشرون في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع..... ٢٨٠
- ١- ٢- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون في أنَّ الملك إذا ذهبَ عن بعض الشعوب من أمة فلا بدَّ من عودة إلى شعبٍ آخرَ منها ما دامت لهم العصبية..... ٢٨١
- ١- ٢- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون في أنَّ المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه، ونخلته، وسائر أحواله وعوائده..... ٢٨٣

- ١- ٢- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون في أنَّ الأمة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء..... ٢٨٤
- ١- ٢- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون في أنَّ العرب لا يتغلبون إلا على البسائط..... ٢٨٦
- ١- ٢- ٢٦- الفصل السادس والعشرون في أنَّ العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب..... ٢٨٧
- ١- ٢- ٢٧- الفصل السابع والعشرون في أنَّ العرب لا يحلُّ لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة..... ٢٨٩
- ١- ٢- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون في أنَّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك..... ٢٩٠
- ١- ٢- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في أنَّ البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار..... ٢٩٢

### ٣- الدول..... ٢٩٣

- ١- ٣- الفصل الثالث من الكتاب الأول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب

١-٣-٨- الفصل الثامن في أنَّ عظم الدولة  
واتساع نطاقها، وطول أمدتها على نسبة  
القائمين بها في القلة والكثرة.....٣٢٤

١-٣-٩- الفصل التاسع في أنَّ الأوطان  
الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم  
فيها دولة.....٣٢٦

١-٣-١٠- الفصل العاشر في أنَّ من طبيعة  
الملك الانفراد بالمجد.....٣٢٩

١-٣-١١- الفصل الحادي عشر في أنَّ من  
طبيعة الملك الترف.....٣٣٠

١-٣-١٢- الفصل الثاني عشر في أنَّ من  
طبيعة الملك الدَّعة والسُّكون.....٣٣١

١-٣-١٣- الفصل الثالث عشر في أنه إذا  
استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد  
وحصول الترف والدعة، أقبلت الدولة على  
الهرم وبيانه من وجوه.....٣٣٢

١-٣-١٤- الفصل الرابع عشر في أنَّ الدولة  
لها أعمار طبيعية كما للأشخاص.....٣٣٥

١-٣-١٥- الفصل الخامس عشر في انتقال  
الدول من البداوة إلى الحضارة.....٣٣٨

١-٣-١٦- الفصل السادس عشر في أنَّ  
الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها.....٣٤٢

السلطانية وما يعرضُ في ذلك كله من  
الأحوال.....٣٠٨

١-٣-١- الفصل الأول في أن الملك والدولة  
العامّة إنما يحصلان بالقبيل والعصبة.....٣٠٨

١-٣-٢- الفصل الثاني في أنه إذا استقرت  
الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبة.....٣٠٩

١-٣-٣- الفصل الثالث في أنه قد يحدثُ  
لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن  
العصبة.....٣١٢

١-٣-٤- الفصل الرابع في أنَّ الدُّول العامّة  
الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إمّا من  
نبوة أو دعوة حق.....٣١٣

١-٣-٥- الفصل الخامس في أنَّ الدَّعوة  
الدينية، تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة  
العصبة التي كانت لها من عددها.....٣١٤

١-٣-٦- الفصل السادس في أنَّ الدعوة  
الدينية من غير عصبة لا تتم.....٣١٦

١-٣-٧- الفصل السابع في أنَّ كل دولة  
لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد  
عليها.....٣٢٢

- ١- ٣- ١٧- الفصل السابع عشر في أطوار  
الدولة واختلاف أحوالها، وخلق أهلها  
باختلاف الأطوار..... ٣٤٣
- ١- ٣- ١٨- الفصل الثامن عشر في أن آثار  
الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها... ٣٤٥
- ١- ٣- ١٩- الفصل التاسع عشر في استظهار  
صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته  
بالموالي والمصطنعين..... ٣٥٣
- ١- ٣- ٢٠- الفصل العشرون في أحوال الموالى  
والمصطنعين في الدول..... ٣٥٥
- ١- ٣- ٢١- الفصل الحادي والعشرون فيما  
يعرض في الدول من حجر السلطان  
والاستبداد عليه..... ٣٥٧
- ١- ٣- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون في أن  
المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب  
الخاص بالملك..... ٣٥٩
- ١- ٣- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون في  
حقيقة الملك وأصنافه..... ٣٦٠
- ١- ٣- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون في أن  
إرهاق الحد مضر بالملك ومفسد له في  
الأكثر..... ٣٦٢
- ١- ٣- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون في  
معنى الخلافة والإمامة..... ٣٦٤
- ١- ٣- ٢٦- الفصل السادس والعشرون في  
اختلاف الأمة في حكم المنصب  
وشروطه..... ٣٦٦
- ١- ٣- ٢٧- الفصل السابع والعشرون في  
مذاهب الشيعة في حكم الإمامة..... ٣٧٣
- ١- ٣- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون في  
انقلاب الخلافة إلى الملك..... ٣٨١
- ١- ٣- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في  
معنى البيعة..... ٣٩٠
- ١- ٣- ٣٠- الفصل الثلاثون في ولاية  
العهد..... ٣٩١
- ١- ٣- ٣١- الفصل الحادي والثلاثون في  
الخطط الدينية الخلافية..... ٤٠٠
- وظيفة الشرطة..... ٤٠٤
- العدالة..... ٤٠٦
- الحسبة والسكة..... ٤٠٧
- ١- ٣- ٣٢- الفصل الثاني والثلاثون في اللقب  
بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة، وهو  
حدث منذ عهد الخلفاء..... ٤٠٩

١- ٣- ٣٧- ١- فصل في الحروب	٤٥٧.....
١- ٣- ٣٧- ٢- فصل	٤٥٩.....
١- ٣- ٣٧- ٣- فصل	٤٦١.....
١- ٣- ٣٧- ٤- فصل	٤٦١.....
١- ٣- ٣٧- ٥- فصل	٤٦٢.....
١- ٣- ٣٧- ٦- فصل	٤٦٥.....
١- ٣- ٣٧- ٧- فصل	٤٦٧.....
١- ٣- ٣٨- فصل في الجباية وسبب قتلها	٤٦٨.....
١- ٣- ٣٩- فصل في ضرب المكوس	٤٧٠.....
١- ٣- ٤٠- فصل في أنَّ التجارة من السلطان	٤٧١.....
١- ٣- ٤١- فصل في أن ثروة السلطان	٤٧٣.....
١- ٣- ٤٢- فصل في أنَّ نقص العطاء من	٤٧٤.....
١- ٣- ٤٣- فصل في الجباية	٤٧٦.....
١- ٣- ٤٣- فصل في أنَّ الظلم مؤذن	٤٧٧.....
١- ٣- ٤٣- فصل	٤٨٠.....

١- ٣- ٣٣- الفصل الثالث والثلاثون في شرح	٤١٣.....
١- ٣- ٣٤- الفصل الرابع والثلاثون في	٤١٨.....
١- ٣- ٣٤- مراتب الملك والسلطان وألقابها	٤٢٦.....
١- ٣- ٣٤- ديوان الأعمال والجبايات	٤٢٧.....
١- ٣- ٣٤- أول من وضع الديوان في الدولة	٤٢٧.....
١- ٣- ٣٤- الإسلامية	٤٢٩.....
١- ٣- ٣٤- ديوان الخراج والجبايات	٤٣٠.....
١- ٣- ٣٤- ديوان الرسائل والكتابة	٤٣١.....
١- ٣- ٣٤- خطط الكتابة	٤٣٥.....
١- ٣- ٣٤- أيها الكتاب	٤٣٦.....
١- ٣- ٣٥- الشرطة	٤٣٦.....
١- ٣- ٣٥- قيادة الأساطيل	٤٣٦.....
١- ٣- ٣٥- الفصل الخامس والثلاثون في	٤٤٢.....
١- ٣- ٣٥- التفاوت بين مراتب السيف والقلم في	٤٤٢.....
١- ٣- ٣٦- الدول	٤٤٢.....
١- ٣- ٣٦- الفصل السادس والثلاثون في	٤٤٣.....
١- ٣- ٣٦- شارات الملك والسلطان الخاصة به	٤٤٣.....
١- ٣- ٣٦- حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان	٤٤٨.....
١- ٣- ٣٦- حقيقة مقدارهما	٤٥١.....
١- ٣- ٣٦- ديوان الختم	٤٥١.....

- ١- ٣- ٥٠- الفصل الخمسون: في أنَّ الدولة  
المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة  
بالمطالبة لا بالمناجزة..... ٤٩٥
- ١- ٣- ٥١- الفصل الحادي والخمسون: في  
وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من  
كثرة الموتان والمجاعات..... ٤٩٩
- ١- ٣- ٥٢- الفصل الثاني والخمسون: في أنَّ  
العمران البشري لا بدَّ له من سياسة ينتظم بها  
أمره..... ٥٠١
- ١- ٣- ٥٣- الفصل الثالث والخمسون: في أمرِ  
الفاطمي وما يذهبُ إليه الناس في شأنه  
وكشف الغطاء عن ذلك..... ٥١٤
- ١- ٣- ٥٤- الفصل الرابع والخمسون: في  
جَدُّانِ الدُّولِ والأُمم وفي الكلام على الملاحم  
والكشف عن مسمى الجفر..... ٥٤٥

- ١- ٣- ٤٣- ٢- فصل [الاحتكار]..... ٤٨٠
- ١- ٣- ٤٤- الفصل الرابع والأربعون في أن  
الحجاب كيف يقعُ في الدول وفي أنه يعظم  
عند الهرم..... ٤٨٢
- ١- ٣- ٤٥- الفصل الخامس والأربعون: في  
انقسام الدولة الواحدة بدولتين..... ٤٨٤
- ١- ٣- ٤٦- الفصل السادس والأربعون: في أنَّ  
الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع..... ٤٨٦
- ١- ٣- ٤٧- الفصل الرابع والأربعون: في  
كيفية طروق الخلل للدولة..... ٤٨٧
- ١- ٣- ٤٨- الفصل الثامن والأربعون: في  
اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته ثم تضايقه  
طوراً بعد طور إلى فناء الدولة  
واضمحلالها..... ٤٩١
- ١- ٣- ٤٩- الفصل التاسع والأربعون: في  
حدوث الدولة وتجددها كيف يقع..... ٤٩٤

# مُقَدِّمَةٌ ابن خلدون

الجزء الثاني

تأليف

العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

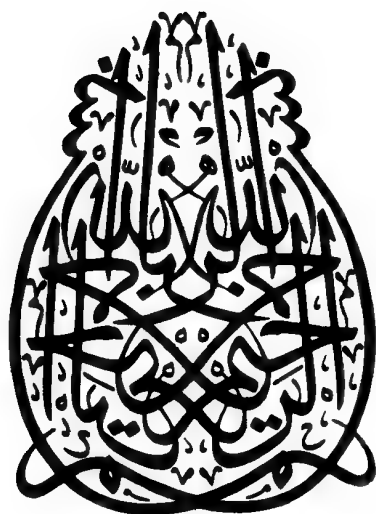
ابن خلدون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)

حَقَّقَ نَصْرُوهُ، وَخَرَّجَ أَحَارِيهُ، وَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ

عبد الله محمد الدرويش





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: مقدمة ابن خلدون.  
المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون.  
المحقق: عبد الله محمد الدرويش.  
رقم الموافقة: (٧٧٠٨٤).  
تاريخها: ٢٠٠٤/٤/١٤ م.

## الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٢٥ هـ — ٢٠٠٤ م.  
عدد النسخ: ١٠٠٠ / نسخة.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ  
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

يطلب من

دار البلخي — دمشق — حلبوني —

هاتف: ٢٢٢٧٧٥٤

مكتبة الهداية — دمشق — زملكا —

هاتف: ٥٢١٨٩٤٤

دمشق: ص.ب: ١٢٣٧٣

مُقَدِّمَةٌ  
إِبْنُ خَلْدُون

## ٤- البلدان

- ١- الدول أقدم من المدن.  
وجود الملك مؤد لاخطاط المدن.  
مدة بقاء المدينة.
- ٢- الملك يدعو إلى نزول الأمصار.  
أسباب حاجة الملك للأمصار: الدعة والراحة.  
دفع المنازعين.  
مغالبة المصر على نهاية من الصعوبة (حرب الشوارع).
- ٣- تشييد الملك الكثير للمدن العظيمة والهيكل المرتفعة.  
أسباب ذلك.  
الاستعانة بالفعل والآلات.  
العاديات: نسبتها لقوم عاد، خطأ ما يدعى بشأها وبناتها، نماذج منها.  
من أخبار عوج بن عناق.
- ٤- لا تستقل الدولة الواحدة ببناء الهيكل العظيمة جداً.  
سبب ذلك.  
سد مأرب، قرطاجنة، إيوان كسرى، الأهرام، حنايا المعلقة بتونس.  
عجز الرشيد عن هدم إيوان كسرى.  
عجز المأمون عن هدم الأهرام.
- ٥- ١- الشروط اللازم مراعاتها في أوضاع المدن، وما يحدث إذا غفل عنها.  
الحماية، طيب الهواء، جلب المنافع والمرافق كالماء والمراعي والمزارع والشجر.  
انتشار الأوبئة والأمراض وأسبابه والرد على نسبة ذلك للسحر والطلسمات.  
القرب من البحر لتسهيل الحاجات البعيدة.  
نماذج.
- ٥- ٢- الشروط المطلوبة في المدن الساحلية.
- ٦- المساجد والبيوت العظيمة في العالم.  
المساجد الثلاثة (مكة، المدينة، بيت المقدس):

فضلها، أسماؤها، بناؤها، تاريخها، حدودها، المفاضلة بينها.  
مسجد آدم، بيوت النار للفرس، هياكل اليونان، بيوت العرب..  
٧- قلة المدن والأمصار في إفريقية والمغرب.

سبب ذلك.

٨- قلة المباني والمصانع في الملة الإسلامية بالنسبة إلى قدرتها وما كان قبلها من الدول.  
سبب ذلك.

منع الدين من المغالاة في البنيان.  
بناء الكوفة ورأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه.  
٩- إسراع الخراب إلى المباني التي اختطها العرب إلا في الأقل.  
عدم توافر الشروط الصحيحة للبناء والاختيار.  
نماذج.

١٠- مبادئ الخراب في الأمصار.

١١- تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها.  
نفاق الأسواق بتفاضل العمران في الكثرة والقلة.  
اختلاف أحوال الفقراء والسؤال تبعاً لحال الرفه الموجود.  
ارتباط الخرج بالدخل، وكلما عظمت توسعت أحوال الساكن والمصر.  
ازدهام الحشرات والحيوانات على بيوت أهل المترفين.  
١٢- أسعار المدن.

اشتمال الأسواق على الضروري والحاجي والكمالي من حاجات الناس.  
عظم المصر + كثرة الساكن = رخص أسعار الضروري + غلاء الكمالي.  
صغر المصر + قلة الساكن = غلاء الضروري + رخص الكمالي.  
سبب ذلك.

أثر المكوس والضرائب في الغلاء.  
سبب غلاء الصنائع والأعمال في الأمصار الموفورة العمران.  
سبب الغلاء في قطر الأندلس.

١٣- قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران.  
سبب ذلك.

١٤ - اختلاف أحوال الأقطار (الدول) بالرفه والفقير مثل الأمصار.  
سبب ذلك.

أحوال أهل المشرق الأقصى.  
ما ذكره المنجمون من أسباب ذلك.  
كثرة العمران تفيد كثرة الكسب.

١٥ - تملك العقار والضياع في الأمصار والمدن.  
تدرجه. أسبابه. فوائده.

١٦ - حاجة المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة.  
أسبابه.

١٧ - الحضارة في الأمصار من قبل الدول.  
رسوخ الحضارة باتصال الدولة ورسوخها.  
أسبابه. نماذج من الدول.

١٨ - الحضارة: غاية العمران + نهاية لعمره + مؤذنة بفساده.  
بيان ذلك.

فساد أهل الأمصار.  
مفاسد الحضارة.

الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد.  
١٩ - خراب الأمصار التي تكون كراسي للملك بخراب الدولة وانتقاضها.  
أسباب ذلك.

٢٠ - اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض.  
سبب ذلك.

٢١ - وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضها على بعض.  
سببه ونماذج منه.

٢٢ - لغات أهل الأمصار.  
اللغة تابعة للأمة الغالبة. وسبب ذلك.

فساد اللسان العربي.  
لغة الحضرة ولغة البدو.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 وصلي الله على سيدنا محمد وآله.  
 ١-٤- الفصل الرَّابِعُ من الكتاب الأول  
 في البُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ والمدن وَسَائِرِ الْعُمَرَانِ  
 وما يَعْرِضُ فِي ذَلِكَ من الْأَحْوَالِ

وفيه سوابق ولواحق<sup>(١)</sup>.

١-٤-١- الفصل الأول:

في أَنَّ الدَّوْلَ أَقْدَمُ من المدن والأَمْصَارِ  
 وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ ثَانِيَةً عَنِ الْمَلِكِ

وبيانه: أَنَّ البناء واختطاط المنازل إِنَّمَا هو من منازع<sup>(٢)</sup> الحضارة التي يدعو إليها التَّرفُ  
 والدَّعة كما قدمناه، وذلك متأخِّرٌ عن البداوة ومنازعها.  
 وأيضاً فالمدن والأَمْصَار ذات هياكل وأجرام<sup>(٣)</sup> عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة  
 للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون، وليست من الأمور  
 الضرورية للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم<sup>(٤)</sup> إليها اضطراراً، بل لا بُدَّ من  
 إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعضا الملك أو مُرَغَّبِينَ في الثواب والأجر  
 الذي لا يفي بكثرتة إلا الملك والدَّولة. فلا بُدَّ في تمصير الأَمْصَارِ واختطاط المدن من  
 الدَّولة والملك.

ثمَّ إذا بنيت المدينةُ وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال  
 السَّماوية والأرضية فيها، فعمر الدَّولة حينئذٍ عمرٌ لها، فإن كان عمر الدَّولة قصيراً وقف  
 الحال فيها عند انتهاء الدَّولة، وتراجع عمرانها وخربت؛ وإن كان أمد الدَّولة طويلاً  
 ومدَّتْها منفسحةً فلا تزال المصانع فيها تُشَادُّ، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق  
 الأسواق يتباعد وينفسح، إلى أن تتسع الخطَّة، وتبعد المسافة، وينفسح ذرعُ المَسَاحَةِ، كما

١ - علق الدكتور وافي على هذا الباب بقوله: عرض ابن خلدون في هذا الباب لما سماه دوركايم المورفولوجيا  
 [أي: علم البنية] الاجتماعية. وقد ظنَّ دوركايم وأعضاء مدرسته أنهم أول من فطن إلى الخواص الاجتماعية لهذه  
 الظواهر، وأوَّل من أدخلها في مسائل علم الاجتماع. ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة  
 قرون.

٢ - جمع منزعة، وهي ما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره، والهمة.

٣ - جمع جرم، وهو الجسد، وكأنه أراد رقعة العمران.

٤ - أي اشتاق.

وقَعَ ببغداد وأمثالها. ذكر الخطيب في تاريخه: أنَّ الحَمَّامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين<sup>(١)</sup> ألف حمام، وكانت مشتملةً على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط العمران. وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية، وحال مصر والقاهرة بعدها فيما يبلغنا [ظ ١٥٤/١] لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة، فإمَّا أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسات (مادة تفيدها)<sup>(٢)</sup> العمران دائماً، فيكون ذلك حافظاً لوجودها، ويستمرُّ عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبغراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال، لأنَّ أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفق والكسب، تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون، وأمَّا إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف<sup>(٣)</sup> السَّاكِن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن يندعر<sup>(٤)</sup> ساكنها وتخرَّب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق، والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها، فتفهمه.

وربما ينزل المدينة بعد انقراض محتطيتها الأولين ملكٌ آخر ودولة ثانية، يتخذها قراراً وكرسياً يستغني بها عن احتطاط مدينة ينزلها، فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق

١ - في تاريخ بغداد (١١٧/١): ستين ألف حمام.

٢ - في ن: بادية يدها.

٣ - الرَّدْف والرديف: الراكب خلف الراكب، وكل ما تبع شيئاً.

٤ - يندعر: يتفرق.



## ١-٤-٢- الفصل الثاني:

في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار  
لأمرين: أحدهما: ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة وحث الأثقال واستكمال ما كان ناقصاً  
من أمور العمران في البدو.

والثاني: دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين، لأن المصّر الذي يكون  
في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم<sup>(١)</sup> منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك  
الذي سموا إليه من أيديهم، فيعتصم بذلك المصّر ويغال بهم، ومغالبة المصّر على نهاية من  
الصعوبة والمشقة؛ والمصّر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية<sup>(٢)</sup> الحرب  
من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ولا عظيم شوكة، لأن الشوكة والعصاية  
إنما احتيج إليهما في الحرب للثبات، لما يقع من بعد كربة<sup>(٣)</sup> القوم بعضهم على بعض عند  
الجولة، وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون إلى كبير عصاية ولا عدد. فيكون حال هذا  
الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يفت في عضد الأمة التي تروم الاستيلاء، ويخضد<sup>(٤)</sup>  
شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أحيائهم<sup>(٥)</sup> أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل  
هذا الانحرام. وإن لم يكن هناك مصّر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وحث  
أثقالهم، وليكون ثانياً شجاً<sup>(٦)</sup> في حلق من يروم العزة والامتناع عليهم [ظ ١٥٤/٢] من  
طوائفهم وعصائبهم. فتعين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار والاستيلاء عليها. والله  
سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا ربّ سواه.

١ - الروم: الطلب.

٢ - نكى العدو وفيه نكاية، إذا قتل وجرح.

٣ - الكرة: الهجوم.

٤ - أي: يقطع ويكسر.

٥ - في ن: (أجنابهم).

٦ - الشجاء: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه.

## ١-٤-٣- الفصل الثالث:

في أن المَدَن العظيمة والهياكل المرتفعة

إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وأنها تكونُ على نسبتها. وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم؛ فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِرَ الفعلة<sup>(١)</sup> من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها. وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهَندَام<sup>(٢)</sup> الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك، كالحال<sup>(٣)</sup> وغيره. وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة، مثل إيوان كسرى، وأهرام مصر، وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجساماً تناسب ذلك، أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام والحال، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية.

وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم، ما يشهد له بما قلناه عياناً. وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة إلى قوم عادٍ لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك، فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم، كإيوان كسرى، ومباني العبيديين من الشيعة بإفريقية، والصنهاجيين، وأثرهم بادٍ إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد، وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان، وبناء الموحدّين في رباط الفتح، ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان، وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد، وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً وتيقناً أنهم لم يكونوا يفرط في مقادير أجسامهم، وإنما هذا رأي وكلف به القصاص عن قوم عادٍ وشمود والعمالقة، ونجد بيوت شمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد. وقد ثبت في الحديث

١ - أي جمع العمال..

٢ - يطلق الهندام على حسن التنظيم والإصلاح والإدارة، ويقصد به ابن خلدون هنا ما يشمل كذلك العدد والآلات والأجهزة التي يُستعان بها في الصناعات. (د. وافي).

٣ - الحالة والحال: الخشبة التي يقف عليها بناؤون في أثناء بنائهم وتشبيدهم للبيوت. وهي التي تسمى الآن السقالة.

الصحيح<sup>(١)</sup> أنها يبوتهم، يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها<sup>(٢)</sup> على المتعاهد.

وإنهم ليلالغون فيما يعتقدون من ذلك، حتى إنهم ليزعمون أن عُوجَ بن عناق [ظ ١٥٥/١] من جيل العمالقة<sup>(٣)</sup> كان يتناول السمك من البحر طريئاً فيشويه في الشمس، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها، ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء، وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة، وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له، وقد تقدّم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها. ﴿والله يخلق ما يشاء﴾ [آل عمران: ٤٧] و﴿يحكم ما يريد﴾ [المائدة: ١].

١ - أخرجه البخاري (٣١٩٨ و ٣١٩٩) ومسلم (٢٩٨١) من حديث عبد الله بن عمر قال: إن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها.... وأخرجه البخاري (٤٢٣) و ٣٢٠٠ و ٣٢٠١ و ٤١٥٧ و ٤١٥٨ و ٤٤٢٥) ومسلم (٢٩٨٠) من طريق ابن شهاب وهو يذكر الحجر مساكن ثمود، ثم ذكر حديث ابن عمر، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

٢ - السمك: السقف، أو من أعلى البيت إلى أسفله.

٣ - في ظ: كنعان.

## ١-٤-٤- الفصل الرابع:

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقلُ بينائها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك: ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه، فيحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم، فيبتدىء الأول منهم بالبناء ويعقبه الثاني والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلاً للعيان، يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة.

وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن يشجب، وساق إليه سبعين وادياً، وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده، ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية. وأكثر المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها، ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في اختطاطها وتأسيسها، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بجالها ولم يكمل القصد فيها.

ويشهد لذلك أيضاً أننا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير، لأن الهدم رجوع إلى الأصل؛ الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل، فإذا وجدنا بناءً تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة، وأنها ليست أثر دولة واحدة.

وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى ابن خالد وهو في محبسه يستشيريه في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً، يُستدلُّ به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل. فاتهمه في النصيحة، وقال: أخذته النعرة للعجم، والله لأصرعنه، وشرع في هدمه وجمع الأيدي عليه، واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار، وصبَّ عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد [ظ ١٥٥/٢] ذلك كله وخاف الفضيحة، بعث إلى يحيى يستشيريه ثانياً في التجافي عن الهدم. فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك، لئلا يقال: عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم. فعرفها الرشيد وأقصر<sup>(١)</sup> عن هدمه.

وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يَحُلْ<sup>(١)</sup> بطائل، وشرعوا في نقبه، فانتهوا إلى جَوْ بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان، وهنالك كان منتهى هدمهم، وهو إلى اليوم فيما يقال منفذٌ ظاهر. ويزعم الزاعمون أنه وجد ركازاً<sup>(٢)</sup> بين تلك الحيطان. والله أعلم.

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد، تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم، ويستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عَصْبُ الرِّيقِ<sup>(٣)</sup>، وتجتمع له المحافل المشهورة، شهدت منها في أيام صباي كثيراً. ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصفات: ٩٦].

١ - يعني: لم يفز بما يريد.

٢ - الركاز: المال المدفون ويقال: هو المعدن.

٣ - هو كناية عن شدة التعب.

## ١-٤-٥-١- الفصل الخامس:

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن

وما يحدث إذا غفل عن تلك المراجعة

اعلم أنَّ المدن قرارٌ يتخذُه<sup>(١)</sup> الأُمم عند حصول الغاية المطلوبة من التَّرفِ ودواعيه، فتؤثر الدَّعة والسُّكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك القرار والمأوى؛ وجب أن يراعى فيه دفع المضارِّ بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها. فأما الحماية من المضارِّ فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سِيَّاحُ الأسوار؛ وأن يكون وضع ذلك في مُتنع من الأمكنة، إمَّا على هضبة متوَعرة من الجبل، وإمَّا باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها<sup>(٢)</sup> على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها.

ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السَّماوية طيبُ الهواء للسلامة من الأمراض، فإنَّ الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو لمناقع متعفنة أو لمروج<sup>(٣)</sup> خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهد.

والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب. وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية، فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حُمى العفن بوجه. ولقد يقال: إن ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل. ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس محتوم بالرصاص، فلما فضَّ خِتامه<sup>(٤)</sup> صعدَ منه دخانٌ إلى الجو وانقطع<sup>(٥)</sup>؛ وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه. وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملاً على بعض أعمالِ الطلسمات [ظ ١/١٥٦] لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن والوباء.

١ - في ن: تتخذُه.

٢ - أي تناولها وأخذها.

٣ - في ن: منايع .... مروج. والمنقع: المستنقع. والمرج: الموضع الذي ترعى فيه الدواب.

٤ - في ن: ختانه.

٥ - فهل يمكن أن نستدل من ذلك أن السابقين قد اعتنوا بالأسلحة الجرثومية ولم يستطع المعاشون للأمر إلا اعتباره من باب السحر والطلسمات؟ ولعل سبب ذلك ممن يتعانون هذا الفن من السحرة وأتباعهم. ولعل هذا سبب طلب السحرة ما يعرف الآن بالزئبق الأحمر.

وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة. والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرقه<sup>(١)</sup> فنقله كما سمعه. والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات رُكودها، فإذا تخللتها الريح وتفشّت وذهبت بها يميناً وشمالاً خف شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات. والبلد إذا كان كثير السّاكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورةً، وتحدث الريح المتخللة للهواء الرّاكد، ويكون ذلك معيناً له على الحركة والتموج، وإذا خفّ السّاكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه، وبقي ساكناً راكداً وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران كثيرة السّاكن تموج بأهلها موجاً، فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه؛ فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن والمرض، فهذا وجهه لا غير. وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وُضعت ولم يراعَ فيها طيب الهواء، وكانت أولاً قليلة السّاكن فكانت أمراضها كثيرة، فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك. وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمّى بالبلد الجديد، وكثير من ذلك في العالم. فتفهّمه تجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور، منها: الماء بأن يكون البلد على نهر أو يازائها عيون عذبة ثرة<sup>(٢)</sup>، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورة، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائماتهم، إذ صاحب كل قرار لا بُدَّ له من دواجن الحيوان للنتاج والضّرْع والركوب، ولا بُدَّ لها من المرعى، فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضاً المزارع؛ فإن الزُّروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطِلَاء<sup>(٣)</sup> والطبخ، والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب [ظ ١٥٦/٢] من ضرورياتهم<sup>(٤)</sup>.

١ - في ن: خرقه.

٢ - الثرة من العيون: الغزيرة.

٣ - اصطلى: استندفاً.

٤ - في ظ: ضروراتهم.

وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية؛ إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول.

وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن.

وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم؛ كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية.

### ١-٤-٥-٢- فصل

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفرة العدد تكون صريحاً<sup>(١)</sup> للمدينة متى طرقها طارق من العدو.

والسبب في ذلك: أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمراناً للقبائل أهل العصبية، ولا موضعها متوغر من الجبل كانت في غرة للبيات<sup>(٢)</sup>، وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه<sup>(٣)</sup> لها، لما يأمن من وجود الصريح لها، وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة، وهذه كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين<sup>(٤)</sup> بقربها بحيث يبلغهم الصريح والنفير<sup>(٥)</sup>، وكانت متوغرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريحها، كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها.

فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها بركة وإفريقية، وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها. ولذلك - والله أعلم - كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرآت متعددة. والله تعالى أعلم.

١ - الصريح: المغيث.

٢ - بيت العدو: أوقع بهم ليلاً.

٣ - تنحيقه: تنقصه من حييفه، أي: نواحيه.

٤ - في ن: متوطنين.

٥ - في ن: النعير.



## ١-٤-٦- الفصل السادس

### في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضّل من الأرض بقاعاً اختصّها بتشريفه، وجعلها مواطنَ لعبادته، يُضاعفُ فيها الثَّواب، وينمي بها الأجور، وأخبرنا بذلك عن ألسن رسله وأنبيائه لطفاً بعباده وتسهيلاً لطرق السَّعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض، فيما علمناه، حسبما ثبت [ظ ١/١٥٧] في الصحيحين<sup>(١)</sup> وهي: مكة والمدينة وبيت المقدس.

أما البيت الحرام الذي بمكة، فهو بيتُ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، أمره الله ببنائه وأن يؤدّن في النَّاس بالحج إليه، فبناه هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن<sup>(٢)</sup>، وقام بما أمره الله فيه، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرُّهم إلى أن قبضهما الله، ودفنا بالحجر منه.

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السَّلام، أمرهما الله ببناء مسجده، ونصب هياكله، ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليه السلام حواليه.

والمدينة مهاجر نبينا محمد، صلوات الله وسلامه عليه، أمره الله تعالى بالهجرة إليها، وإقامة دين الإسلام بها، فبنى مسجده الحرام بها، وكان ملحدُه الشَّريفُ في تربتها.

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وعظمة دينهم. وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثيرٌ معروفٌ. فلنشر إلى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرّجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها في العالم.

فأما مكة فأوليتها — فيما يقال — أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور، ثمّ هدمها الطوفان بعد ذلك. وليس فيه خبرٌ صحيح يعوّل عليه، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ثمّ بعث

١ - لعله أراد حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا. أخرجه البخاري (١١٩٧ و ١٩٩٥) ومسلم (٨٢٧) (٤١٥) ورواه أبو هريرة أيضاً، أخرجه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧).

وقد أخرجه ابن حبان (١٥٩٩) والبيهقي في السنن (٦٥/٣) من حديث ابن عمر مرفوعاً: خير البقاع المساجد. وأخرج مسلم (٦٧١) من حديث أبي هريرة: أحب البلاد إلى الله مساجدها.

٢ - قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ فأدم عليه السلام أول البشر، وهو أول من بنى البيت، ولم يكن من إبراهيم عليه السلام إلا تجديده، ثم بعد أربعين عاماً بنى آدم بيت المقدس وهو ما فهم من حديث رسول الله ﷺ. ولم يكن ممن جاء بعد إلا التحديد.

الله إبراهيم، وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرها من هاجر ما هو معروف. وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة<sup>(١)</sup>، فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما، حتى احتملوها وسكنوا إليهما، ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه<sup>(٢)</sup>. فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتاً يأوي إليه، وأدار عليه سياجاً من الدوم<sup>(٣)</sup> وجعله زرباً لغنمه. وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مراراً لزيارته من الشام، أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب، فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل، ودعا الناس إلى حجه<sup>(٤)</sup>، وبقي إسماعيل ساكناً به. ولما قبضت أمه هاجر دفنها، ولم يزل قائماً بخدمته إلى أن قبضه الله تعالى، ودفن مع أمه هاجر. وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم، ثم العماليق من بعدهم، واستمر الحال على ذلك، والناس يهرعون إليها من كل أفق، من جميع أهل الخليقة لا من بني إسماعيل ولا من غيرهم ممن دنا أو نأى.

فقد نقل: أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه، وأن تبعاً كساها الملاء والوصائل [ظ ١٥٧/٢]، وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحاً.

ونقل أيضاً: أن الفرس كانت تحجه وتقرب إليه، وأن غزالي الذهب اللذين وجدتهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قراينهم.

ولم تزل لجرهم الولاية عليه من بعد ولد إسماعيل من قبل خوؤلثهم، حتى أخرجتهم<sup>(٥)</sup> خزاعة، وأقاموا بها بعدهم ما شاء الله.

ثم كثر ولد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة، ثم كنانة إلى قريش وغيرهم، وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره، وأخرجوهم من البيت، وملكوا عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجريد النخل. وقال الأعشى:

حَلَفْتُ بِثَوْبِي رَاهِبِ الدُّورِ وَالَّتِي<sup>(١)</sup> بَنَاهَا قُصَيٌّ وَحَدَهُ وَابْنُ<sup>(٢)</sup> جُرْهُمِ

١ - إن نص كتاب الله ﷻ ينهننا إلى أن إبراهيم عليه السلام لم يترك ابنه وحيداً ويغادره، وإنما يقول ﷻ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ أَلْسَمَى ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فإسماعيل عليه السلام تربى في حجر والده إلى أن وصل إلى مرحلة البلوغ. وانظر التعليقات التي ذكرتها حول هذا الموضوع في تعليقي على الرحيق المختوم.

٢ - قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

٣ - الدوم بالفتح: شجر المقل والنبق. الردم.

٤ - انظر سورة الحج: [٢٦ - ٢٧].

٥ - في ن: إذا خرجت.

ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ، وَيُقَالُ: حَرِيقٌ، وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ، وَجَمَعُوا النِّفْقَةَ لَذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشْبَهَا لِلْسَّقْفِ. وَكَانَتْ جِدْرَانَهُ فَوْقَ الْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ، وَقَصَّرَتْ بِهِمُ النِّفْقَةُ عَنْ إِيْتَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ، وَتَرَكَوْا مِنْهُ سِتَّةَ أَذْرَعٍ وَشِبْرًا، أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ.

وَبَقِيَ الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ، وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جِيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُمَيْرٍ السَّكُونِيِّ وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةً أَرْبَعَ وَسِتِينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ، يُقَالُ: مَنْ التَّفَطَّ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ. فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الصُّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكَفَرٍ لَرَدَدْتَ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَجَعَلْتَ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا»<sup>(٣)</sup>. فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَمَعَ الْوُجُوهَ وَالْأَكْبَارَ حَتَّى عَايَنُوهُ. وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup> بِالْتَّحَرِّيِّ فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ، فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ، وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأُسْتَارَ حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ. وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي الْقِصَّةِ<sup>(٥)</sup> وَالْكَلَسِ<sup>(٦)</sup>، فَحَمَلَهَا، وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأُولَى فَجَمَعَ مِنْهَا مَا احتَاجَ إِلَيْهِ. ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ جِدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لَاصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ، وَجَعَلَ فَرَشَهَا وَأَزْرَهَا بِالرَّخَامِ، وَصَاغَ لَهَا الْمِفْتَاحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ<sup>(٧)</sup>.

ثُمَّ جَاءَ الْحِجَاجُ لِحَصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ [ظ ١٥٨/١] الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَاتُهَا. ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ بَابِنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ قَرِيشَ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رَوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ

١ - روي هذا الشطر عن الأعشى بلفظ: **فإني وثوبي راهب اللُّجّ والي**. واللج: غدير ماء عند دير هند بنت النعمان، وكانت ترهبت حين غضب كسرى على أبيها. وقيل: إنه أراد المسيح صلى الله عليه وسلم بقوله: راهب اللج. ويروى: **فإني وثوبي راهب الطور**. والتي بنا قصي: يعني مكة. وانظر معجم ما استعجم للبكري (١١٥١/٤).

٢ - في ن: **والمُضَاضُ بْنُ جَرْهُم**.

٣ - أخرجه مسلم (١٣٣٣) بروايات متعددة.

٤ - أشار عليه ابن عباس رضي الله عنه بأن يصلح ما وهى منها ويدع البيت كما كان حين أسلم الناس. انظر صحيح مسلم (١٣٣٣) (٤٠٢).

٥ - القصة: هي الجص الذي بين به. وفي ن: **الفضة**. تحريف.

٦ - من مواد البناء تطلّى به الحيطان.

٧ - لم يثبت في تحلية الكعبة بالذهب إلا في أيام الوليد، وانظر حول جواز ذلك في فتح الباري لابن حجر (٢٥٣/٤ - ٢٥٤) عند شرح حديث رقم (١٥٩٤).

لحديث عائشة وقال: وددت أني كنت حملت أبا حبيب<sup>(١)</sup> في أمر البيت وبنائه ما تحمل<sup>(٢)</sup>. فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبراً مكان الحجر، وبنها على أساس قريش، وسد الباب الغربي وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقي، وترك سائرهما لم يغير منه شيئاً. فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير، وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة للعيان، لحمة ظاهرة بين البنائين، والبناء متميز عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع، وقد لحم.

ويعرض هاهنا إشكال قوي لمنافاته لما يقوله الفقهاء في أمر الطواف، ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس الجدر من أسفلها، فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه، وهو مكان الشاذروان.

وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود: لا بُدَّ من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائماً لثلاث يقع بعض طوافه داخل البيت. وإذا كانت الجدران كلها من بناء ابن الزبير، وهو إنما بني على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه؟.

ولا مخلصي من هذا إلا بأحد أمرين: إما<sup>(٣)</sup> أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاد، وقد نقل ذلك جماعة، إلا أن العيان في شواهد البناء بالتحام ما بين البنائين، وتميز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر في الصناعة يرد ذلك؛ وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس إبراهيم من جميع جهاته، وإنما فعل ذلك في الحجر فقط، ليدخله، فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم، وهذا بعيد. ولا محيص من هذين. والله تعالى أعلم.

ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفتين، ولم يكن عليه جدر أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده. ثم كثر الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دوراً هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة. وفعل مثل ذلك عثمان، ثم ابن الزبير، ثم الوليد بن عبد الملك، وبناه بعمد الرخام، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده. ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا.

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يُحاط به. وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه، وأوجب حرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب لغيره [ط ١٥٨/٢]. فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم؛ وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط، إلا إزاراً يستره، وحى العائد به والرائع في مسارحه من مواقع الآفات، فلا يرام فيه خائف، ولا يُصاد له وحش، ولا يحتطب له شجر.

١ - في المطبوع: حبيب. خطأ.

٢ - قوله في صحيح مسلم (١٣٣٣) (٤٠٣).

٣ - في ن: أحدهما.

وحد الحرم الذي يختصُّ بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التَّنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن غمرة، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر<sup>(١)</sup>.

هذا شأن مكة وخبرها، وتُسَمَّى أم القرى، وتُسَمَّى الكعبة لعلوها من اسم الكعب. ويقال لها أيضاً: بكّة. قال الأصمعي: لأنَّ الناس يُكُّ بعضهم بعضاً إليها، أي: يدفعُ. وقال مجاهد: باء بكّة أبدلوا ميماً، كما قالوا: لازِبٌ ولازِمٌ لقرب المخرجين. وقال النخعي: بالباء البيت، وبالميم البلد.

وقال الزهري: بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم. وقد كانت الأمم منذ عهد الجاهلية تعظِّمهُ، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغيره.

وقصة الأسياف وغزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة. وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة في الجبِّ الذي كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان الملوك يهدون للبيت، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمئتي قنطار وزناً. وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله! لو استعنت بهذا المال على حربِك، فلم يفعل. ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه. هكذا قال الأزرقى<sup>(٢)</sup>.

وفي البخاري<sup>(٣)</sup> بسنده إلى أبي وائل قال: جلستُ إلى شيبه بن عثمان، وقال: جلس إلي عمر بن الخطاب فقال: هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين. قلت: ما أنت بفاعل، قال: ولم؟ قلت: فلم يفعله صاحبك؟ فقال: هما المرآن<sup>(٤)</sup> يقتدى بهما. وخرجه أبو داود وابن ماجه<sup>(٥)</sup>.

وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين بن علي ابن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومئة، حين غلبَ على مكة، عمد إلى الكعبة فأخذ ما في

١ - كذا في الأصل. وقال السيوطي في الحجج المبينة (ص ٣٢): ومن جدة بمنقطع الأعشاش: عشرة أميال. وقال ياقوت عن الأعشاش: هو موضع بالبادية قريب من مكة مقابل لطمية.

٢ - لم يستخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كنز الكعبة بسبب حداثة القوم بالكفر، ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد لهم أن ينغمسوا منذ بدء إسلامهم في الرقة المودي لخراب العمران. والله أعلم. قال صلى الله عليه وسلم لعائشة: لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله. أخرجه مسلم (١٣٣٣) (٤٠٠).

٣ - أخرجه البخاري في موضعين (١٥٩٤ و ٧٢٧٥).

٤ - في الأصل: اللذان. صحح من البخاري.

٥ - أخرجه أبو داود (٢٠٣١) وابن ماجه (٣١١٦) وأحمد (٤١٠/٣).

خزانتها، وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا ينتفعُ به؟ نحنُ أحمقُ به نستعين به على حربنا. وأخرجه وتصرف فيه. وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى، فكان أول أمره أيام الصّائبة موضع الزُّهرة<sup>(١)</sup>، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، يصبونه على الصخرة التي هناك، ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلةً لصلاتهم [ظ ١/١٥٩]. وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل<sup>(٢)</sup>، وأباه إسحاق من قبله، وأقاموا بأرض التيه، أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنت عيّن بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها، وأن يصنع مذبحاً للقربان، وصف ذلك كله في التوراة أكمل وصف<sup>(٣)</sup>.

فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عوضاً عن الألواح المترلة بالكلمات العشر لما انكسرت<sup>(٤)</sup>، ووضع المذبح عندها. وعهد الله إلى موسى بأن يكون هارون صاحب القربان<sup>(٥)</sup>. ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون إليها ويتقربون في المذبح أمامها، ويتعرضون للوحي عندها. ولما ملكوا<sup>(٦)</sup> أرض الشام أنزلوها بكلّكال في بلاد الأرض المقدسة ما بين قسمي بني بنيامين وبني إفرايم، وبقيت هنالك أربع عشرة سنة: سبعاً مدة الحرب، وسبعاً بعد الفتح أيام القسمة للبلاد. ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريباً من كلكال، وأداروا عليها الحيطان، وأقامت هنالك ثلاث مئة سنة حتى ملكها بنو فلسطين في أيديهم كما مر<sup>(٧)</sup> وتغلبوا عليهم، ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالي الكوهن إلى نوف، ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون في بلاد بني بنيامين. ولما ملك داود عليه السلام نقل التابوت والقبة إلى بيت المقدس، وجعل لها خباء خاصاً ووضعها على الصخرة وبقيت تلك قبلتهم.

وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها، فلم يتم له ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه، ولخمس مئة سنة من وفاة موسى عليه السلام.

١ - الكوكب المعروف.

٢ - ذكرنا سابقاً أن إسرائيل لا علاقة له بيعقوب عليه السلام.

٣ - سفر الخروج الإصحاحات ٢٥ و ٢٦ و ٢٧.

٤ - في ن: تكسرت.

٥ - سفر الخروج، الإصحاح ٢٨.

٦ - في ن: الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس.

٧ - انظر الفصل الثالث والثلاثين وعنوانه: فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود.

واتخذ عُمده من الصُّفَر<sup>(١)</sup>، وجعل به صَرَح<sup>(٢)</sup> الزجاج، وغشَّى أبوابه وحيطانه بالذهب، وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومناوره<sup>(٣)</sup> ومفاتيحه<sup>(٤)</sup> من الذهب، وجعل ظهره مقبواً ليودع<sup>(٥)</sup> فيه تابوت العهد، وهو التَّابوت الذي فيه الألواح، وجاء به من صهيون<sup>(٦)</sup> بلد أبيه داود، نقله إليها أيام عمارة المسجد، فجيء به تحمله الأسباط والكهنوتية حتى وضعه في القبر<sup>(٧)</sup>، ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أُعدَّ له من المسجد، وأقام كذلك ما شاء الله. ثم خرَّبه بختنصر بعد ثمان مئة سنة من بنائه، وأحرق التَّوراة والعصا، وسبك<sup>(٨)</sup> الهياكل ونثر الأحجار.

ثمَّ لما أعادهم ملوك الفرس [ظ ١٥٩/٢] بناء عزير نبي بني إسرائيل لعهدده، بإعانة بهمن ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه من سبي بختنصر، وحدَّ لهم في بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام، فلم يتجاوزوها<sup>(٩)</sup>.

وأما الأواوين<sup>(١٠)</sup> التي تحت المسجد، يركبُ بعضها بعضاً، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين، فيتوهم كثير من الناس أنها اصطبلات لسليمان عليه السلام، وليس كذلك، وإنما بناها تزيهاً لبيت المقدس عما يتوهمه<sup>(١١)</sup> من النجاسات، لأنَّ النجاسة في شريعتهم، وإن كانت في باطن الأرض، وكان ما بينهما وبين ظاهر الأرض محشواً بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم، ينحس ذلك الظاهر بالتوهم، والمتوهم عندهم كالحقق، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة. فعمود الأواوين السفلية تنتهي إلى أقواسها، وينقطع خطه فلا يتصلن، فلا تنتهي النجاسة بالأعلى على خط مستقيم. وتتره البيت عن هذه النجاسة المتوهمة، ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقديس في البيت المقدس.

١ - أي: النحاس.

٢ - الصرح المشار إليه في قصة ملكة سبأ، انظر سورة النمل الآية ٤٤.

٣ - في ن: منارته.

٤ - في ن: مفتاحه.

٥ - في ن: قراً ليضع.

٦ - في ن: صيون أو صيون.

٧ - في ن: القبر.

٨ - في ن: صاغ.

٩ - الملاحظ أن هذه الأخبار لا تؤيدها الحفريات التي أجريت ولم يثبت أيُّ شيء من مدعيات أصحابها.

١٠ - جمع إبروان كديوان وهو الصفة العظيمة.

١١ - لا معنى لقبوله هذا التوهم، إذ كيف يتصور من نبيٍّ من أنبياء الله ﷺ أن يظن هذا الظن وأن يتطعم هذا التطعم.

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدة، ثم لبني حشمنائي من كهنتهم، ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعده. وبني هيرودس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام، وتأثق فيه حتى أكمله في ست سنين. فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم، خرب بيت المقدس ومسجدها، وأمر أن يزرع مكانه. ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه. ثم اختلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قسطنطين، وتنصرت أمه هيلانة، وارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبه على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة، كأنها على قبره بزعمهم، وخربت ما وجدت من عمارة البيت، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح، ثم بنو بإزاء القمامة بيت لحم، وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس، وسأل عن الصخرة فأري مكانها وقد علاها الزبل والتراب، فكشف عنها وبني عليها مسجداً على طريق البدواة، وعظم [ظ ١/١٦٠] من شأنه ما أذن الله من<sup>(٢)</sup> تعظيمه، وما سبق من أم الكتاب في فضله حسبما ثبت.

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال، كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وفي مسجد دمشق، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد، وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد، وأن يمتقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمس مئة من الهجرة في آخرها، وكانت في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة، واحتل أمرهم، زحف الفرنجة إلى بيت المقدس، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام، وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون بينها، حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي بملك مصر والشام ومحا أثر العبيدين وبدعهم، زحف إلى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام، وذلك لنحو ثمانين وخمس مئة من الهجرة، وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبني المسجد على النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد.

١ - لم يثبت ما يدل على مكان ولادة عيسى عليه السلام، وإن كان يحسن البحث عن مكان ولادته في أرض لا ذات نخل. قال تعالى: ﴿وهزي إليك بمذع النخلة تساقط عليك رطباً حنيئاً فكلي واشربي وقرى عينا﴾. فإين النخل بيت لحم؟.

٢ - في ظ: في.





ثم أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها، فهاجر إليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذي كان الله قد أعد له لذلك وشرفه في سابق أزل. وآواه أبناء قيلة ونصروه؛ فلذلك سمو الأنصار. وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات. وغلب على قومه وفتح مكة وملكها. وظنَّ الأنصار أنه يتحوّل عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك، فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحوّل. حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملحدُ الشريف بها. وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة مالا خفاء به.

ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مكة، وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده في ذلك من النص الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المدينة خير من مكة»<sup>(٢)</sup>. نقل ذلك عبد الوهاب في المعونة<sup>(٣)</sup>، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك. وخالف أبو حنيفة والشافعي. وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام، وجنح إليها الأمم بأفئدتهم من كل أوب.

فانظر كيف تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها، تفهم سر الله في الكون وتدرجه على ترتيب محكم في أمور الدين والدنيا.

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه في الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند، لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه. وقد كانت للأمم في القلسم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم، منها بيوت النار للفرس، وهاكل يونان، وبيوت العرب بالحجاز التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته.

وقد ذكر المسعودي منها بيوتا لسنّا من ذكرها في شيء، إذ هي غير مشروعة، ولا هي على طريق ديني، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها. ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢١٣] سبحانه.

١ - قيلة: أم الأوس والخزرج، وهما القبيلتان اللتان تألف منهما الأنصار.

٢ - أخرجه الجندي في فضائل المدينة (١٢) والطبراني في الكبير (٤٤٥٠) بإسناد ضعيف. ولفظ الجندي: المدينة أفضل من مكة. انظر مجمع الزوائد (٥٧٧٨). وانظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة للسيوطي.

٣ - المعونة في شرح الرسالة للقاضي عبد الوهاب بن علي المعروف بابن الطوف المالكي المتوفى سنة (٤٢٢هـ) وانظر كشف الظنون (١٧٤٣/٢).

## ١-٤-٧- الفصل السابع:

## في أن المدن والأمصار إفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك: أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدوياً، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها. والدول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة [ظ ١/١٦١] منها. فلم تنزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا إليها أقرب، فلم تكثر مبانيهم. وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر، لأنهم أعرق في البدو، والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها، فلا بُدَّ من الحِذْق في تعلمها، فلما لم يكن للبربر اتتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن.

وأيضاً فهم أهل عصبيات وأنساب، لا يخلو عن ذلك جمع منهم، والأنساب والعصبيّة أجنح إلى البدو. وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيلاً على حاميتها؛ فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكّنى المدينة أو الإقامة بها، فلا يدعو إلى ذلك إلا الترف والغنى، وقليل ما هو في الناس، فلذلك كان عُمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدوياً أهل خيام وظواعن وقياطن<sup>(١)</sup> وكنن في الجبال.

وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصاراً ورساتيق<sup>(٢)</sup> من بلاد الأندلس والشّام ومصر وعراق العجم وأمثالها، لأن العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها، ويتباهون<sup>(٣)</sup> في صراحتها<sup>(٤)</sup> والتحامها إلا في الأقل.

وأكثر ما يكون سكّنى البدو لأهل الأنساب لأن لُحمة<sup>(٥)</sup> النسب أقرب وأشدُّ، فتكون عصبيته كذلك، وتنزع بصاحبها إلى سكّنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة، ويصيره عيلاً على غيره. فافهمه وقس عليه. والله - سبحانه وتعالى - أعلم، وبه التوفيق.

١ - جمع قيطون وهو المخدع.

٢ - الرستاق والرستاق والزرداق بالضم: السواد والقرى، مغرب رستا.

٣ - في ن: ويتنازعون.

٤ - صرّح نسبه ككرم خلّص وهو صريح.

٥ - اللحمة بالضم: القرابة.

## ١-٤-٨- الفصل الثامن:

في أنَّ المباني والمصانع في الملة الإسلامية  
قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك: ما ذكرنا مثله في البربر بعينه، إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد  
عن الصنائع.

وأيضاً فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام، ولما تملكوها لم  
ينفسح الأمد حتى تستوفي رسوم الحضارة، مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم.  
وأيضاً فكان الذين أول الأمر مانعاً من المغالة في البناء والإسراف فيه غير القصد كما  
عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع الحريق في القصب الذي  
كانوا بنوا من قبل، فقال: افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البناء،  
والزموا السنة تلزمكم الدولة. وعهد إلى الوفد، وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق  
القدر. قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف، ولا يخرجكم عن القصد.

فلما [ظ ٢/١٦١] بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد، وغلبت طبيعة  
الملك والترف، واستخدم العرب أمة الفرس، وأخذوا عنهم الصنائع والمباني، ودعتهم  
إليها أحوال الدعة والترف، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع، وكان عهد ذلك قريباً  
بانقراض الدولة، ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلاً. وليس  
كذلك غيرهم من الأمم. فالفرس طالت مدتهم آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط  
والروم، وكذلك العرب الأولى من عاد وثمود والعمالة والتبابعة طالت آمادهم  
ورسخت الصنائع فيهم، فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عدداً، وأبقى على الأيام أثراً،  
واستبصر في هذا تجده كما قلت لك. والله وارث الأرض ومن عليها.

## ١-٤-٩- الفصل التاسع:

فِي أَنَّ الْمَبَانِي الَّتِي كَانَتْ تَخْتَطُّهَا الْعَرَبُ  
يُسْرَعُ إِلَيْهَا الْخَرَابُ إِلَّا فِي الْأَقْلَى

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: شَأْنُ الْبِدَاوَةِ وَالْبَعْدِ عَنِ الصَّنَائِعِ كَمَا قَدَمْنَاهُ، فَلَا تَكُونُ الْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا.

ولله - والله أعلم - وجه آخر وهو أَمْسُهُ به، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في<sup>(١)</sup> المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي، فإنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعي. والعرب بمعزل عن هذا، وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خث، ولا قَلَّ أو كثر، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض، ونقلهم الجبوب من البلد البعيد، وأمَّا الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها، والظعن كفيل لهم بطبيعتها، لأنَّ الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات.

وانظر لما اختطَّوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدَّمنا<sup>(٢)</sup> أنه يحتاج إليه في حفظ العمران. فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس. فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجاً لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم يكن ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

١ - انظر في الفصل الخامس من هذا الباب.

٢ - انظر الفصل الأول من هذا الباب.

## ١-٤-١٠- الفصل العاشر:

## في مبادئ الخراب في الأمصار

اعلم أنَّ الأمصارَ إذا اختطَّت أولاً تكون قليلة المساكن، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما مما يعالي على الحيطان عند [ظ ١٦٢/١] التأنق كالزُّلج<sup>(١)</sup> والرَّخام والرَّج<sup>(٢)</sup> والزُّجاج والفُسَيْفَسَاء والصَّدْف، فيكون بناؤها يومئذٍ بدوياً وآلاتها فاسدة. فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذٍ، وكثرت الصُّنَاعُ إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها. فإذا تراجع عمرانها، وخفَّ ساكنها قلتِ الصُّنَائِعُ لأجل ذلك، وفقدت الإجدادة في البناء والإحكام والمعالجة عليه بالتنميق. ثم تقل الأعمال لعدم الساكن، فيقلَّ جلب الآلات من الحجر والرَّخام وغيرهما، فتفقد، ويصير بناؤهم وتشبيدهم من الآلات التي في مبانيهم، فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور وال منازل بقلة العمران وقصوره عمّا كان أولاً. ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر، ومن دار إلى دار، إلى أن يفقد الكثير منها جملة، فيعودون إلى البداوة في البناء، واتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة، والقصور عن التنميق بالكلية، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدائير<sup>(٣)</sup>، وتظهر عليها سيماء البداوة، ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به. سنة الله في خلقه.

١ - الزُّلج: الصخور الملس.

٢ - الرِّج: الدرهم الصغير الخفيف. ولا معنى لذلك. ولعلها تصحفت عن (الرَّج) وهو الباب العظيم. وقد جاءت في الباب الخامس الفصل الخامس والعشرين في صناعة البناء آخر الفصل (السبح) فانظره.

٣ - أي: المدائن في لغة المغرب. وفي ن: المدر.

## ١-٤-١١- الفصل الحادي عشر:

في أن تَفَاضَلَ الْأُمُصَارُ وَالْمُدُنُ فِي كَثَرَةِ الرِّزْقِ <sup>(١)</sup> لِأَهْلِهَا  
وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ إِنَّمَا هُوَ فِي تَفَاضُلِ عِمْرَانِهَا فِي الْكَثَرَةِ وَالْقَلَّةِ

والسبب في ذلك: أنه قد عَرَفَ وثبت أن الواحد من البشر غير مستقلّ بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ. والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تُسَدُّ ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقلُّ الواحد بتحصيل حصّته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السُّبُل وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعلمهم ذلك مقدار من القوت، فإنه حيثئذ قوت لأضعافهم مرّات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم. فأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقلّ من تلك الأعمال، وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعوائده، وما يحتاجُ إليه غيرهم من أهل الأمصار، ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى.

وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرّزق أنّ المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال [ظ ١٦٢/٢] كثرت قيمها <sup>(٢)</sup> بينهم، فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرّفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب. وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها، ويُختار المهرة في صناعتها والقيام عليها. فتتفق أسواق الأعمال والصنائع، ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمتحلي ذلك من قبل أعمالهم، ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترفُ تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها، وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول. وكذا في الزيادة الثانية والثالثة، لأنّ الأعمال الزائدة كلها تختصُّ بالتّرف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختصُّ بالمعاش.

فالمصر إذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه، وبعوائد من التّرف لا توجد في الآخر. فما كان عمرانُه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في التّرف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي، والتاجر مع

١ - في ن: الرفه.

٢ - في ظ: قيمتها.

التَّاجِر، والصَّانِع مع الصَّانِع، والسُّوقِي مع السُّوقِي، والأمِيرُ مع الأمير، والشَّرْطِي مع الشَّرْطِي.

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجدد بينهما بوناً كثيراً على الجملة، ثم على الخصوصيات. فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان، وهكذا كل صنف مع صنف أهله. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما، إلى أن تنتهي إلى المداشر<sup>(١)</sup> الذين اعتماهم في ضروريات معاشهم فقط، ويقصرون عنها. وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال.

والخروج في كل سوق على نسبته. فالقاضي بفاس دخله كفاء خرج، وكذا القاضي بتلمسان. وحيث الدُّخْلُ والخُرْجُ أكثر تكون الأحوال أعظم. وهما بفاس أكثر لِنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أضخم. ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضرورتها، ولا تعد في الأمصار، إذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال، متقاربين في الفقر والخصاصة، لما أن أعمالهم لا تفني بضرورتهم، ولا يفضل ما يتأثّلونه كسباً فلا تنمو مكاسبهم، وهم لذلك مساكينٌ محاوٍج إلا في الأقل النادر.

واعتبر [ظ ١٦٣/١] ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال، فإنَّ السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم، ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المأكّل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس، والماعون كالغربال والآنية. ولوسأل سائلٌ مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر.

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر<sup>(٢)</sup> من الترف والغنى في عوائلهم ما يقضي منه العجب، حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة<sup>(٣)</sup> إلى مصر لذلك، ولما يبلغهم من أن شأن الرِّفّة بمصر أعظم من غيرها. ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر

١ - في ن: المدر.

٢ - كتب هذا ابن خلدون قبل مجيئه إلى مصر، ولم يغيره في تعديله للمقدمة بعد قدومه إليها. (د. وافي).

٣ - النقلة: الانتقال.



صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار. وليس كذلك، وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك، فعظمت لذلك أحوالهم.

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ في جميع الأمصار، ومتى عظم الدخل عظم الخرج، وبالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر.

كل شيء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران، وما يكون عنه من كثرة المكاسب<sup>(١)</sup> التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه، ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف أحوالها في هجرانها أو غشيانها. فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات، فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش<sup>(٢)</sup>، ويكثر في سربها الجرذان، وتأوي إليه السنابير، ويخلق فوقها عصائب<sup>(٣)</sup> الطيور حتى تروح بطاناً<sup>(٤)</sup> وتمتلىء شبعاً ورّياً. وبيوت أهل الخصاصة<sup>(٥)</sup> والفقراء الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها ديب، ولا يخلق بجوها طائر، ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة. كما قال الشاعر:

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الـ حَبُّ وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرْمَاءِ

فَتَأْمَلُ سِرّاً اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات، وفتات الموائد بفضلات الرزق والترّف وسهولتها على من يبذلها، لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود<sup>(٦)</sup> أمثالها لديهم.

واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرتهم. والله<sup>(٧)</sup> غني عن العالمين ﴿آل عمران: ٩٧﴾. [ظ ١٦٣/٢]

١ - في ن: المكاسب.

٢ - الخشاش: الحشرة والهامة.

٣ - أي: الجماعة جمع عصابة.

٤ - كناية عن الشبع.

٥ - أي: الفاقة والفقر.

٦ - في ن: بوجود.

٧ - في المطبوع: والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين.

## ١-٤-١٢- الفصل الثاني عشر: في أسعار المَدُن

اعلم أنَّ الأسواق كلها تشتمل على حاجات النَّاسِ، فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما في معناها كالباقلاء والحمص والجلبان وسائر حبوب الأقوات ومصلحاتها كالبصل والثوم وأشباهه، ومنها الحَاجِيّ والكماليّ مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني.

فإذا استبحر<sup>(١)</sup> المصر وكثر ساكنه رخصت أسعارُ الضروريِّ من القوتِ وما في معناه، وغلت أسعارُ الكماليِّ من الأدم والفواكه وما يتبعها. وإذا قلَّ ساكن المصر وضعف عمرانُه كان الأمرُ بالعكس.

والسببُ في ذلك: أنَّ الحبوب من ضروراتِ القوتِ، فتتوفر الدَّواعي على اتخاذها، إذ كلُّ أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته، فيعمُّ اتخاذها أهلُ المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه، لا بد من ذلك. وكلُّ متخذ لقوته تفضل<sup>(٢)</sup> عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسدَّ خلة كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقواتُ عن أهل المصر من غير شك، فترخص أسعارها في الغالب، إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السَّماوية.

ولولا احتكار النَّاسِ لها لما يُتَوَقَّعُ من تلك الآفات لبُذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران. وأمَّا سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها، فإنها لا تعمُّ بها البلوى، ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين، ولا الكثير منهم. ثم إنَّ المصر إذا كان مستبحراً، موفور العمران، كثير حاجات الترف، توفرت حينئذٍ الدَّواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها، كلٌّ بحسب حاله، فيقصرُ الموجودُ منها على<sup>(٣)</sup> الحاجات قصوراً بالغاً، ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها، فتزدحم أهل الأغراض، ويبدلُ أهل الرفه والتَّرف أثمانها بإسراف في الغلاء، لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم، فيقعُ فيها الغلاءُ كما تراه.

وأما الصَّناعات والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة العمران، فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة:

الأول: كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانها.

١ - اتسع وانبسط.

٢ - في ن: تفضل. ويصحان.

٣ - كذا. ولعل الصواب: عن.

والثاني: اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم، وامتهان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها.

والثالث: كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم، وإلى استعمال الصُّناع في مهنتهم فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعزُّزُ الفعلة<sup>(١)</sup> والصُّناع وأهل [ظ ١٦٤/١] الحرف وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة السَّاكن فأقواتهم قليلة لقلَّة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه، فيعز وجوده لديهم، ويغلو ثمنه على مُستامه<sup>(٢)</sup>. وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضاً حاجة لقلّة السَّاكن وضعف الأحوال، فلا تنفق لديهم سوقه، فيختصُّ بالرخص في سعره.

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يُفرض<sup>(٣)</sup> عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبوابِ المِصر، وللجباة<sup>(٤)</sup> في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم، ولذلك كانت الأسعار في الأمصار أغلى من الأسعار في البادية، إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة، وكثرتها في الأمصار لا سيما في آخر الدولة.

وقد تدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح، ويحافظ على ذلك في أسعارها، كما وقع بالأندلس لهذا العهد، وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلادهم المتوغرة الخبيثة الزراعة النكدية<sup>(٥)</sup> النبات، وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدُن لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم.

واختصَّ قَطْرُ الأندلس بالغلاء منذ اضطهرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك<sup>(٦)</sup>. ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلّة الأقوات والحبوب في أرضهم، وليس كذلك، فهم أكثر أهل المعمور - فلحاً فيما علمناه - وأقومهم عليه، وقلَّ أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدَّان أو مزرعة أو فلح إلا قليل من

١ - في ن: العمال.

٢ - سام المشتري السلعة من البائع: طلب شراؤها منه.

٣ - في ن: يعرض. ويصحان.

٤ - في ن: أبواب الحفر والجباة في منافع وصولها عن البيوعات لما يمسهم..

٥ - أي: العسرة الصعبة المرهقة.

٦ - المعمور بالإسلام: أي: الأرض المتوغرة التي ذكرها قبل قليل. وسواحلها: أي: سيف البحر.

أهل الصناعات والمهن أو الطُّرَّاء على الوطن من الغزاة المجاهدين، ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالعولة<sup>(١)</sup>، وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع، وإنما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه.

ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤنُ جملةً في الفلح مع كثرته وعمومته<sup>(٢)</sup>، فصار ذلك سبباً لرخص الأقوات ببلدهم. والله مُقَدِّرُ الليل والنهار، ﴿وهو الواحد القهار﴾ [الرعد: ١٦] لا ربَّ سواه.

---

١ - العولة: القوت والعلف.

٢ - في ن: عموماً.

## ١-٤-١٣. الفصل الثالث عشر:

## في قُصُور أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَنْ سَكْنَى الْمَصْرِ الْكَثِيرِ الْعُمَرَانِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْمَصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمَرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ، وَتَتَعَدَّدُ<sup>(١)</sup> تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو [ظ ١٦٤/٢] إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضَرُورَاتٍ، وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيزَةً، وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِازْدِحَامِ الْإِغْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرَفِ، وَبِالْمَغَارِمِ السُّلْطَانِيَةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَعَاتِ وَتَعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْمَبِيعَاتِ، وَيَعْظُمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَقْوَاتِ وَالْأَعْمَالِ، فَتَكْثُرُ لَذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمَرَانِهِ وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ، فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْثِقِهِمْ.

وَالْبَدْوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيرًا، إِذَا كَانَ سَاكِنًا بِمَكَانٍ كَاسِدٍ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ، فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُكْنَى الْمَصْرِ الْكَبِيرِ لَغَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ، وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ التَّرَفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْثِقِهِ، فَلَا يَضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ. وَكُلٌّ مِنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمَصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَسَرِيعًا مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِيطَانِهِ، إِلَّا مَنْ يُقَدِّمُ مِنْهُمْ تَأَثُّلَ الْمَالِ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمَرَانِ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمَصْرِ، وَيَنْتَظِمُ حَالُهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ، وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَايَةِ<sup>(٢)</sup> عُمَرَانِ الْأَمْصَارِ. وَاللَّهُ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

### ١٤-٤-١- الفصل الرابع عشر: في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرّفه والفقر مثل الأمصار

**اعلم:** أن ما توفر عمراناه من الأقطار، وتعددت الأمم في جهاته، وكثر ساكنه، اتسعت أحوال أهله، وكثرت أموالهم وأمصارهم، وعظمت دولهم وممالكهم، والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال، وما سيأتي ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته، فيعود على الناس كسباً يتأثّلونه حسبما نذكر ذلك في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب، فيتزيد الرّفه لذلك وتتسع الأحوال، ويحيي الترف والغنى، وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق، فيكثر مالها ويشمخ سلطانها، وتتفنن في اتخاذ المعامل والحصون واختطاط المدن وتشيد الأمصار.

**اعتبر ذلك** بأقطار المشرق؛ مثل مصر والشّام وعراق العجم والهند والصّين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء البحر الرّومي، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم، وعظمت دولتهم، وتعددت مدنها وحواضرهم، وعظمت [ظه ١٦٥/١] متاجرهم وأحوالهم، فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفهم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف. وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم. وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الأقصى من عراق العجم والهند والصّين، فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرّفه غرائب تسير الركبان بحديثها، وربما تتلقى بالإنكار في غالب الأمر، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم، أو لأنّ ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم، وليس كذلك. فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الأقطار، إنما هو من بلاد السودان، وهي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال، ولا استغنوا عن أموال الناس بالجملة.

ولقد ذهب المنجمون، لما رأوا مثل ذلك، واستغربوا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها، فقالوا: بأنّ عطايا الكواكب والسهم في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب. وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية كما قلناه، وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجمي، وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي، وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بأرض

المشرق وأقطاره. وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه. فلذلك اختص المشرق بالرّفه من بين الآفاق؛ لا أن ذلك مجرد الأثر النجمي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستقل بذلك، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمرٌ لا بُد منه.

واعتبر حال هذا الرفه من العمران في قُطر إفريقية وبرقة لما خفّ ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة. وضعفت جباياتها، فقلّت أموال دولها، بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتّساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماتة، غالب الأوقات، وكانت أموال الدولة [ظ ١٦٥/٢] بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة.

وقطر المغرب وإن كان في القديم دون إفريقية، فلم يكن بالقليل في ذلك، وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة. وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه، فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره، ونقص عن معهوده نقصاً ظاهراً محسوساً، وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال إفريقية، بعد أن كان عمرانُه متصلاً من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة. وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى، إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقاربه من التلول. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

## ١-٤-١٥- الفصل الخامس عشر:

## في تأثّل العقار والضياع في الأمصار

## وحال فوائدها ومستغلاتها

اعلم: أنّ تأثّل العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة، ولا في عصر واحد، إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمها<sup>(١)</sup> عن الحد، ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ. وإنما يكون ملكهم وتأثّلهم لها تدريجاً إما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه، حتى تتأدى أملاك الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك، أو أن يكون بحواله<sup>(٢)</sup> الأسواق؛ فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمها، وتتملك بالائتمان اليسيرة وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر، وقد استجدّ المصر شبابيه باستفحال الدولة الثانية، وانتظمت له أحوال راقية<sup>(٣)</sup> حسنة، تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأول. وهذا معنى الحواله فيها، ويصبح مالکها من أغنى أهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائده العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه، إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه، وإنما هي في الغالب لسد الخلّة وضرورة المعاش، والذي سمعناه من مشيخة البلدان: أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع، إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعاف<sup>(٤)</sup> [ظ ١٦٦/١]، ليكون مرباهم به، ورزقهم فيه، ونشؤهم بفائده، ما داموا عاجزين عن الاكتساب، فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم، وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً<sup>(٥)</sup> لحاله. هذا قصد المترفين في اقتنائه. وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحواله الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه، والعالى في جنسه وقيمته في المصر. إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب، أو أرادوه على بيعه منهم، ونالت أصحابه منه مضاراً ومعاطب. ﴿والله غالب على أمره﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وهو ربُّ العرش العظيم﴾ [التوبة: ١٢٩].

١ - في ن: قيمتها.

٢ - المراد هنا: أن تتحول إلى الارتفاع.

٣ - في ن: راقية.

٤ - في ن: الضعفاء.

٥ - قوام الأمر: نظامه وعماده.



## ١-٤-١٦- الفصل السادس عشر:

## في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أنَّ الحضري إذا عظم تموُّله، وكثر للعقار والضياع تأثُّله، وأصبح أغنى أهل المصر، ورمقته العيون بذلك، وانفسحت أحواله في الترف والعوائد، زاحم عليها الأمراء، وغصُّوا به. ولما في طباع البشر من العدوان، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن، حتى يُحصلوه في ربة<sup>(١)</sup> حكم سُلطاني، وسبب من المؤاخذة ظاهر، ينتزع به ماله. وأكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب؛ إذ العدل المحض إنما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث، قال صلى الله عليه وسلم: «الْخِلاَفَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَعُودُ مَلَكًا عَضُوضًا»<sup>(٢)</sup>.

فلا بُدَّ حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه، وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك أو خالصة له أو عصبية يتحاماها السلطان، ليستظلَّ بظلها، ويرتع في أمنها من طوارق التعدي. وإن لم يكن له ذلك أصبح نهياً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

١ - الربة بكسر الراء وفتحها: العروة من الحبل يشد به إليهم. والمعنى: إيقاعه في مخالفة للقانون تبيح أخذ أمواله.

٢ - أخرجه أحمد (٢٢١/٥) والترمذي (٢٢٢٦) وأبو داود (٤٦٤٦) من حديث سفينة بدون ذكر (عضوضاً). وقد وردت في حديث حذيفة رضي الله عنه عند أحمد (٢٧٣/٤) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» ثم سكت.

## ١-٤-١٧- الفصل السابع عشر في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ بالتصال الدولة ورسوخها

والسبب في ذلك: أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر. وتقع فيها عند كثرة التفتن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمثالة الصنائع. ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه والمهرة فيه. وبقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجليل بها. ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت [ظ ١٦٦/٢] تلك الصفات<sup>(١)</sup> حذق أولئك الصناعات في صناعتهم، ومهروا في معرفتها. والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكاماً ورسوخاً. وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة. لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفعها في بطانتها ورجالها، وتتسع أحوالهم بالجاء أكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم في من تعلق بهم من أهل المصر، وهم الأكثر. فتعظم لذلك ثروتهم، ويكثر غناهم، وتزيد عوائد الترف ومذاهبه، وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه. وهذه هي الحضارة.

ولهذا تجدد الأمصار التي في القاصية — ولو كانت موفورة العمران — تغلب عليها أحوال البداوة، وتبعد عن الحضارة في جميع مذهبها، بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها. وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم، وفيض أمواله فيهم، كلما يخضر ما قرب منه، فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد، وقد قدّمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم<sup>(٢)</sup>. فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه، وإذا أبعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة.

ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً، بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً.

واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام<sup>(٣)</sup> نحواً من ألف وأربع مئة سنة رسخت حضارتهم، وحذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفتن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المترل، حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضاً

١ - في ن: الصناعات.

٢ - تقدم ذلك في الفصل الثاني والأربعين من الباب الثالث.

٣ - يحسن الانتباه إلى وجود فرق بين بني إسرائيل واليهود. ونسائل: كيف ثبت لنا طول ملكهم بالشام؟ وإن ثبت الملك فيكون لبني إسرائيل لا لليهود.

وعوائلدها في الشام منهم، ومن دولة الروم بعدهم ست مئة سنة، فكانوا في غاية الحضارة.

وكذلك أيضاً القبط، دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بلدهم مصر. وأعقبهم بها ملك اليونان والروم، ثم ملك الإسلام الناسخ للكل. فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة.

وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العماليق والتبابعة آلافاً من السنين، وأعقبهم ملك مضر. وكذلك الحضارة [ظ ١٦٧/١] بالعراق لاتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافاً من السنين. فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.

وكذا أيضاً رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط، ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافاً من السنين، وكلتا الدولتين عظيمة، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت.

وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم، إنما قطع الروم الإفرنجية إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل؛ وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة، فكانوا على قلعة وأوفاز<sup>(١)</sup>. وأهل المغرب لم تجاوزهم<sup>(٢)</sup> دولة، وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر. ولما جاء الله بالإسلام، وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلاً أول الإسلام، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة، ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجد بهماً من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه، إذ كانوا برابر منغمسين في البداوة. ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة الصُفري<sup>(٣)</sup> أيام هشام بن عبد الملك، ولم يراجعوا أمر العرب بعد، واستقلوا بأمر أنفسهم، وإن بايعوا إدريس فلا تعد دولته فيهم عربية، لأن البرابر هم الذين تولوها، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد، وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان

١ - يقال: هو على قلعة، أي: رحلة. والقلعة: مالا يدوم، ومنزلة قلعة: ليس بمستوطن أو لا تملكه أو لا ندري متى نتحول عنه. والأوفاز: جمع وفز ووفز، أي: العجلة. وعدم الاستقرار.

٢ - يستخدم ابن خلدون فعل حجاز ومزيداته في شؤون الغزو بمعنى وصل إلى البلد وغزاه. واستخدام الفعل في هذا المعنى استخدام عربي صحيح. (د. وافي).

٣ - في الأصل: المطفري. والمطفري: خطأ؟ وهو نسبة إلى قوم من الخوارج نسبوا إلى عبد الله بن صفار، أو إلى رئيسهم زياد بن الأصفر، أو إلى خلوه من الدين فهم صفر منه، وانظر تاج العروس (٩٩/٧) وورد ذكر ميسرة في تاريخ الطبري (٢٥٤/٤) وتاريخ ابن الأثير (٩٢/٣).

لهم من الحضارة بعض الشيء. بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه، وكثرة عمران القيروان. وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم، وذلك كله قليل لم يبلغ أربع مئة سنة، وانصرفت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة. وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها وخرَّبوها، وبقي أثر خفي من حضارة العمران فيها. وإلى هذا العهد يُؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهديّة سلف، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله آثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها، وكذا في أكثر أمصار إفريقية، وليس ذلك في المغرب وأمصاره، لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعية وصنهاجة.

وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحّدين من الأندلس حظٌ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير [ظ ١٦٧/٢] من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً، وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها؛ ومعظمها من أهل الأندلس، ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر، وما ينقله المسافرون من عوائدها؛ فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء، ورجع على أعقابها، وعاد الزبر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة. وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم.

**نفطن لهذا السرّ فإنه خفي عن الناس، واعلم أنها أمور متناسبة، وهي حال الدولة في القوة والضعف، وكثرة الأمة أو الجليل، وعظم المدينة أو المصر، وكثرة النعمة واليسار. وذلك أنّ الدولة والملك صورة الخليفة والعمران، وكلها مادة<sup>(١)</sup> لها من الرعايا والأمصار**

١ - يكثر ان خلدون من استخدام (الصورة والمادة)، وقد فصل ذلك الدكتور الجابري في كتابه العصبية والدولة (٤٤٩-٤٥١)، قال: يستعمل ابن خلدون هذين المصطلحين القديمين من أرسطو في ميدان العمران البشري كما يلي:

- الصورة هي المؤسسات والنظم التي لا تستقيم الحياة الاجتماعية بدونها، مثل: الدولة، الدين... الخ.  
- المادة هي الجماعات البشرية التي تتكون منها الحياة الاجتماعية وتتطور لتصبح تنظيمًا معينًا هو الدولة.  
إن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة، وهي الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر: فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والملك متعذر.  
وقد استعمل ابن خلدون هذين المصطلحين أول مرة في خطبة كتابه حيث ينتقد المؤرخين لكونهم يجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأول، صوراً قد تجردت من مواردها...، والمعنى أن هؤلاء

وسائر الأحوال، وأموال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة عليهم في العطاء. فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة. وأصله كله العمران وكثرته. فاعتبره وتأمله في الدول تجده ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١].

المؤرخين كانوا يقتصرون على ذكر أخبار الملك والوزراء... الخ صورة العمران ولا يهتمون بأمر القبائل والعصبيات.... مادة العمران.

ب - ومن العبارات الغامضة التي يستعمل فيها هذين المصطلحين قوله: الدين والملة صورة الوجود والملك. وقد استعمل هذه العبارة بصدد تعليله كون لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الملة أو الجيل الغالبين عليها أو المختصين لها. فاللغة العربية قد سيطرت على المناطق الأخرى التي استقر فيها الإسلام لأنها كانت لغة الدين. ولما كانت الدولة هي دولة الإسلام، وبما أن الدولة هي صورة للعمران كما ذكرنا، فإن تأثير الصورة في المادة، وهو هنا تأثير دولة الإسلام في المناطق التي اكتسحها، يتجلى في فرض لغة الدين نفسها على اللغات الأصلية لهذه المناطق. وهكذا يكون معنى العبارة السالفة هو أن الدين يؤثر في الوجود البشري وفي الملك والدولة تأثير الصورة في المادة. وعلى العموم فإن ابن خلدون يقصد بالصورة جانبها التأثيري، وبالمادة كونها قابلة لتأثير الصورة. هكذا فإن لدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة. والمعنى هو: أن العامل أو العنصر الذي يمنح للدولة قوة التأثير في المجتمع البشري، إنما هو العصبية ولهذا تفسد الدولة وتضمحل بفساد قوتها المؤثرة وهي العصبية.

ج - على أن استعمال ابن خلدون لمفهوم المادة والصورة لا يخلو من غموض واضطراب، فهو لا يتقيد في الغالب بالمعنى الأرسطي لهاتين الكلمتين خاصة من حيث ارتباط أحدهما بالآخر. إن ابن خلدون في علاقة المادة بالصورة قريب من رأي ابن سينا الذي قال برأي منافٍ لرأي أرسطو الذي أكد بأن الصورة تفسد بفساد المادة. فبالنسبة لابن سينا، أن كون النفس صورة للجسد لا يعني أنها تفسد بفساد الجسد، أنها كمال له مثلما أن الملك كمال للمدينة والرياء كمال السفينة، وليس صورتين للمدينة والسفينة. بالمعنى الأرسطي. ومن هنا يسمى ابن خلدون الاجتماع البشري الذي تقوم فيه الدولة والملك بالاجتماع الكامل أو التام، والاجتماع القائم بدون ملك ودولة، بالاجتماع الناقص.

# ١-٤-١٨- الفصل الثامن عشر: في أنَّ الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده.

قد بينا لك فيما سلف: أنَّ الملَّكَ والدولة غايةٌ للعصية<sup>(١)</sup>، وأن الحضارة غايةٌ للبداءة<sup>(٢)</sup>، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أنَّ للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً<sup>(٣)</sup>. وتبين في المعقول والمنقول أنَّ الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وإنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أنَّ الحضارة في العمران أيضاً كذلك. لأنه غاية لا مزيد وراءها. وذلك أنَّ الترف والنعمة إذا حصلاً لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة كما علمت هي التفتن في الترف واستجادة أحواله، والكافة<sup>(٤)</sup> التي [ظ ١٦٨/١] تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع كـ ولسائر أحوال المنزل.

ج إليها عند البداءة وعدم التأنق  
طاعة الشهوات، فتتلون النفس من  
دينها ولا دنياها. أمَّا دينها:

وللتأنق في كل واحد من  
فيها. وإذا بلغ التأنق في هذه  
تلك العوائد بألوان كثيرة  
فلاستحكام صبغة العوائد الي  
وأما دنياها: فلكثرة الحاج  
الوفاء بها.

١ العوائد ويعجز الكسب<sup>(٥)</sup> عن

وبيانه: أنَّ المصير بالتفتن في  
العمران، فمتى كان العمران أ  
الكثير العمران يختصُّ بالغلاء و

ه. والحضارة تتفاوت بتفاوت  
. وقد كنا قدمنا<sup>(٥)</sup> أنَّ المصير  
م تزيدها المكوس غلاءً، لأنَّ

١ - في الفصل السابع عشر من الباب الثاني.

٢ - في الفصلين الأول والثالث من الباب الثاني.

٣ - في الفصل الرابع عشر من الباب الثالث. قال الدكتور الياني في تمهيد في علم الاجتماع (ص ١٠١ -

١٠٢): يستبين من حديث ابن خلدون عن تطور المجتمع أنه يمثل بكتن حي... وقد رأينا مثل هذا التمثيل، تمثيل المجتمع بالكائن الحي، عند أرسطو والفارابي. وسنرى تفصيل هذه النظرية عند سبنسر spencer وروني فورمس وأمثالهما.

٤ - في ن: وينكب.

٥ - في الفصل الثاني عشر من هذا الباب.

الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها، وهو زمن وضع المكوس في الدولة لكثرة خرجها حيثئذ كما تقدم، والمكوس تعود على البياعات بالغلاء، لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤنة أنفسهم. فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها؛ فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف، ولا يجدون وليجة<sup>(١)</sup> عن ذلك، لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها، وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات، ويتتابعون في الإملاق<sup>(٢)</sup> والخصاصة، ويغلب عليهم الفقر، ويقبل المستامون للمبائع، فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة. وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف، وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران.

وأما فساد أهلها في ذاقهم واحداً واحداً على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والفسفة، والتحليل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء<sup>(٣)</sup> على الكذب والمقامرة والغش والخلاصة<sup>(٤)</sup> والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات ثم تجدهم - لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين [ظ ٢/١٦٨] تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله. ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويمجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب، وأهملته الدولة من عدادها، وغلب عليه خلق الجوارى، وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات، وذلك أن الناس بشرٌ متمثلون، وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل، واجتباب الرذائل. فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل<sup>(٥)</sup> بأي وجه كان، وفسد خلق الخير فيه، لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته، ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب

١ - وليجة الإنسان: بطائنه وخاصته، أو من يعتمد عليه من غير أهله.

٢ - أي الفقر.

٣ - جمع جريء على غير قياس.

٤ - خليه خلباً: خدعه.

٥ - في ن: الرذيلة.

والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار<sup>(١)</sup>، منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة<sup>(٢)</sup>.

وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ووجهه حيثئذ أن مكاسبهم حيثئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم. وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت. وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص<sup>(٣)</sup>: إِنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرْسُ النَّارِجِ تَأَذَّتْ بِالْخَرَابِ. حتى إن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارج بالدور، تطيراً به؛ وليس المراد ذلك، ولا أنه خاصية في النارج، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابيع الحضارة. ثم إن النارج والليم<sup>(٤)</sup> والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكائها فقط، ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف، وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه. ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى<sup>(٥)</sup> وهو من هذا الباب، إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض، وهو من مذاهب الترف.

ومن مفاسد الحضارة: الانهماك في الشهوات، والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المأكول والملاذ، والمشارب وطبيها. ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح [ظ ١٦٩/١] من الزنا واللواط فيفضي ذلك إلى فساد النوع؛ إما بواسطة اختلاط الأنساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه إذ هو لغير رَشْدَةٍ<sup>(٦)</sup>؛ لأنَّ المياهَ مختلطة في الأرحام، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع؛ أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط المؤدي إلى عدم النسل رأساً، وهو أشدُّ في فساد النوع، إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع، والزنا يؤدي إلى عُدْم<sup>(٧)</sup> ما يوجد منه، ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله

١ - المراد هنا: الوضعاء والأنذال.

٢ - أي التقصير في إحكام الأمر.

٣ - في ن: الحواضر.

٤ - في ن: اللية.

٥ - الدفلى بالكسر وكذكرى نبت مرقتال زهره كالورد الأحمر.

٦ - أي: ولد زنا.

٧ - أي: انعدام الاستفادة من المتولد بالزنا، للتوقي عن نسبته لأصله.



في اللواط<sup>(١)</sup> أظهر من مذهب غيره، ودلّ على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتباره للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والتّرف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات.

بل نقول: إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والتّرف هي عين الفساد. لأن الإنسان إنما هو إنسانٌ باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته، إما عجزاً لما حصل له من الدعة، أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم والتّرف، وكلا الأمرين ذميم. وكذا<sup>(٢)</sup> لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك، والحضري بما قد فقد من خلق البأس<sup>(٣)</sup> بالتّرف والمربى<sup>(٤)</sup> في قهر التأديب<sup>(٥)</sup> والتعليم، فهو لذلك عيالٌ على الحماية التي تدافع عنه. ثم هو فاسدٌ أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلوثت به النفس في ملكتها<sup>(٦)</sup> كما قررناه، إلا في الأقلّ النادر.

وإذا فسد الإنسان في قدرته على<sup>(٧)</sup> أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخاً<sup>(٨)</sup> على الحقيقة. وبهذا الاعتبار كان الذين يربون في جند السلطان على البداوة والخشونة أنفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها، وهذا موجود في كل دولة. فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة. والله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. لا يشغله شأن عن شأن.

١ - من حيث اعتباره زناً وتوقيع حد الزنا عليه، لتساويهما في المقاصد.

٢ - في ن: كذلك.

٣ - في ن: الإنسان.

٤ - في ن: والنعيم.

٥ - في ن: التأديب.

٦ - في ن: مكانتها.

٧ - في ن: ثم في.

٨ - المسخ: تحويل الصورة إلى أقل منها، مثل مسخ اليهود قردة وخنازير.

### ١-٤-١٩- الفصل التاسع عشر: في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها<sup>(١)</sup>

قد استقرينا في العمران أن الدولة إذا احتلت وانتقضت، فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه، وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب، ولا يكاد ذلك يتخلف. والسبب فيه أمور:

**الأول:** أن الدولة لا بد في أولها من البداوة المقتضية للتجافي عن أموال الناس والبعد عن التحذلق. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التي منها [ظ ١٦٩/٢] مادة الدولة، فتقل النفقات ويقصر<sup>(٢)</sup> الترف. فإذا صار المصر الذي كان كرسياً للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة، ونقصت أحوال الترف فيها، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر، لأن الرعايا تبع للدولة، فيرجعون إلى خلق الدولة، إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم، أو كرهاً لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد، فتقصر لذلك حضارة المصر، ويذهب منه كثير من عوائد الترف، وهو معنى ما نقول في خراب المصر.

**الأمر الثاني:** أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب، والغلب إنما يكون بعد العداوة والحروب، والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين، وتكثر إحداهما عن الأخرى في العوائد والأحوال، وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر، فتكون أحوال الدولة السابقة منكراً عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة، وخصوصاً أحوال الترف، فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف، فتكون عنها حضارة مستأنفة. وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها. وهو معنى اختلال العمران في المصر.

**الأمر الثالث:** أن كل أمة لا بد لهم من وطن، وهو منشؤوهم، ومنه أولية ملكهم. وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول، وأمصاره تابعة لأمصار الأول، واتسع نطاق الملك عليهم، ولا بد من توسط الكرسي تحوّم الممالك التي للدولة، لأنه شبه المركز للنطاق، فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول، وتهوي أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان، فينتقل إليه العمران، ويخف من مصر الكرسي الأول، والحضارة إنما هي توفر العمران - كما قدمناه - فتنتقص حضارته وتمدنه، وهو معنى اختلاله.

١ - في ن: انقراضها.

٢ - في ن: ويقل.

وهذا كما وقع للسلاجقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان، وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة، ولبنى العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد، ولبنى مرين بالمغرب في العدول عن مراكش إلى فاس. وبالجملية فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخلُ بعمران الكرسي الأول.

**الأمر الرابع:** أنَّ الدولة الثانية المتجددة، إذا غلبت على الدولة السابقة، لا بد فيها من تتبُّع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة. وأكثر أهل مصر الكرسيَّ أشياعٌ للدولة، إما من الحامية [ظ ١٧٠/١] الذي نزلوا به أول الدولة أو من أعيان مصر، لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم، بل أكثرهم ناشيء في الدولة فهم شيعة لها، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصية فهم بالليل والحية والعقيدة. وطبيعة الدولة المتجددة نحو آثار الدولة السابقة. فينقلهم من مصر الكرسيَّ إلى وطنها المتمكن في ملكتها، فبعضهم على نوع التغريب والحبس، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة، حتى لا يبقى في مصر الكرسيَّ<sup>(١)</sup> إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة<sup>(٢)</sup> وسواد العامة، وينزل مكانهم من حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر. وإذا ذهب من مصر أعيانه<sup>(٣)</sup> على طبقاتهم نقص ساكنه، وهو معنى اختلال عمرانها، ثم لا بدَّ من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة، وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة، وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة، فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف<sup>(٤)</sup>، وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه، فيخرب ذلك البيت، ثم يعيد بناءه ثانياً.

وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠].

**والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة:** أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها. وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالدولة دون العمران لا تتصور. والعمران دون الدولة والملك متعذر، لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك، إما الشرعية أو الملكية، وهو معنى الدولة، وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في

١ - أي العاصمة.

٢ - عار الرجل: ذهب وجاء، والاسم العيارة. ومنه: العيار: الكثير الجيء والذهاب والذكي الكثير التطواف.

٣ - في ن: المصر أعيانهم.

٤ - في ن: بمثابة من يملك بيتاً داخله البلى، والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه، وله قدرة على أوصاف مخصوصة، على تغيير تلك الأوضاع. وإعادة...

اختلال الآخر، كما أن عدمه مؤثرٌ في عدمه. والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم، أو بني أمية أو بني العباس كذلك. وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقرينة الشبه بعضها من بعض، فلا تؤثر كثير اختلال. لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة، وهي مستمرة على أشخاص الدولة. فإذا ذهب تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً. والله سبحانه وتعالى أعلم. والله قادرٌ على ما يشاء، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وما ذلك على الله بعزيز ﴿[فاطر: ١٦]

## ١-٤-٢٠- الفصل العشرون:

## في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين، أن أعمال أهل المصر [ظ ١٧٠/٢] يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون. وما يُستدعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصر، فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته، ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه. وما لا يستدعى في المصر يكون غفلاً، إذ لا فائدة لمتحلله في الاحتراف به.

وما يُستدعى من ذلك لضرورة المعاش، فيوجد في كل مصر كالحياط والحداد والنجار وأمثالها، وما يُستدعى لعوائد الترف وأحواله، فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة، والآخذة في عوائد الترف والحضارة، مثل الزجاج<sup>(١)</sup> والصائغ والذهَّان<sup>(٢)</sup> والطَّبَّاح والصِّفَّار<sup>(٣)</sup> والفراش والدَّبَّاج<sup>(٤)</sup> وأمثال هذه، وهي متفاوتة.

وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع، فتوجد بذلك المصر دون غيره. ومن هذا الباب الحمامات؛ لأنها إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التمتع.

ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة. وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجري أحوالها، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، وتفر عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها. ﴿والله يَفْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

١ - الزجاج: صانع الزجاج والمشتغل به.

٢ - الدهان: المشتغل بالدهن وبائعه أو من يدهن البيوت.

٣ - الصفار: صانع الصفر، وهو نوع من النحاس والمشتغل به.

٤ - الدباج: النقاش. وفي ن: الدباج.

## ١-٤-٢١- الفصل الحادي والعشرون:

## في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتصال موجودٌ في طباع البشر، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد، إلا أنه كما قدمناه<sup>(١)</sup> أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصّل به العصبية بعضاً مما تحصّل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصّهر، يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً<sup>(٢)</sup> وقاربة قرابة، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترقون شيعاً وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلّص ظل الدولة عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم، والنظر في حماية بلدهم، ورجعوا إلى الشوري وتميز العلية عن السفلة، والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة، فتطمح المشيخة، لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشييع والأحلاف، ويذلّون مافي أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيعصوب كل لصاحبه، ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه ليقص من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد<sup>(٣)</sup> منهم الشوكات النافذة، ويقلم الأظفار الخادشة، ويستبد بمصره أجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه. فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم [ظ ١٧١/١] من عوارض الجدة والهرم. وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك، فينتحلون بها من الجلوس على السرير<sup>(٤)</sup> واتخاذ الآلة<sup>(٥)</sup>، وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد، والتختم والحسبة<sup>(٦)</sup> والخطاب بالتمويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل، إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة، والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك، ويجري على مذهب السّذاجة، فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث.

وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزّاب، وما إلى ذلك. سمو إلى مثلها عند تقلص

١ - انظره في الفصل الثامن من الباب الثاني. فصل: في أن العصبية إنما تكون بالنسب ومافي معناه.

٢ - جمع لحمه بضم الميم وهي القرابة.

٣ - أي: يخلع ويقطع.

٤ - انظر تفصيله في الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث.

٥ - انظر تفسيرها في الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث.

٦ - انظر تفسيرها في الفصل الحادي والثلاثين من الباب الثالث.

ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين، فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجبابة، وأعطوا طاعة معروقة<sup>(١)</sup> وصفقة ممرضة، وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد، وهم بمعزل عنه، وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد، وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم، ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق. حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة. وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية، واستقلَّ بأمصار الجريد أهلها. واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي. ونقلهم كلهم من إماراتهم بها إلى المغرب، ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكره في أخباره. وكذا وقع بسببته لآخر دولة بني عبيد المؤمن.

وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات<sup>(٢)</sup> والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة في مصر، وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار، فيتغلب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصبة، ﴿والله﴾ - سبحانه وتعالى - ﴿غالب على أمره﴾ [يوسف: ٢١].

١ - أي: طاعة قليلة ضعيفة، من قولهم: مُعَرَّق ومُعَرَّق.

٢ - يعني: أهل المروعة والرياسة في شرف.

## ١-٤-٢٢- الفصل الثاني والعشرون: في لغات أهل الأمصار

**اعلم:** أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجليل الغالين عليها أو المختطين لها. ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربية، وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه.

**والسبب في ذلك:** ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم، والدين والملة صورة للوجود وللملك، وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما [ظ ١٧١/٢] يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب، لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها. واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن بطانة الأعاجم وقال: إنها خبٌ - أي: مكر وخديعة - . فلما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً، هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة<sup>(١)</sup>، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره، وإن كان بقي في الدلالات على أصله، وسمي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام.

١ - قال الدكتور وافي: إن قوانين اللغات تقرر أنه إذا نزع إلى البلد المغلوب على أثر فتح أو غزو جالية من أهل البلد الغالب تنطق بلغة غير لغة أهله، فإن النصر لا يتم للغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط: أحدها: أن يكون أرقى من المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته وأقوى منه سلطاناً وأوسع نفوذاً، وثانيها: أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية؛ وثالثها: أن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفرادها في بلاد الشعب المغلوب؛ ورابعها: أن تمتزج بأفراد هذا الشعب؛ وخامسها: أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من لغتين متقاربتين تنتميان إلى فصيلة واحدة.

وقد توافرت هذه الشروط جميعاً في حالة العربية مع الآرامية في الشام والعراق ومع القبطية في مصر ومع البربرية في المغرب. فتغلبت العربية على هذه اللغات الثلاث وأصبحت لغة الحديث والكتابة في جميع هذه المناطق، وانقرضت الآرامية والقبطية والبربرية. غير أنه قد أفلت من هذا المصير بعض قرى في سوريا ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر، وأفلت منه كذلك بعض عشائر في شمال أفريقيا لا تزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى الوقت الحاضر.

ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال كثير من الشروط السابقة. ولم تقو على التغلب على القوطية لاختلال الشرطين: الرابع والخامس. ولم تقو على التغلب على التركية لاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة.

**أقول:** يقبل هذا الذي ذكره الدكتور إذا اعتبرنا اللغات من شعب متعددة لا من أصل واحد. والذي ثبت لديّ بالأدلة والبراهين أن جميع ألسن الأمم تعود إلى اللسان الأم وهو العربية (البيان الرباني) .. وما احتفاظ أقوام بلسانهم إلا للطبيعة والبيئة التي أثرت حتى في ألوانهم.



وأيضاً فأكثر أهل الأمصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها، الهالكين في ترفها، بما كثروا<sup>(١)</sup> العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم. واللغات متوارثة، فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعاجم شيئاً فشيئاً.

وسميت لغتهم حضورية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق في العروية. ولما تملك العجم من الدَّيلم والسَّلاجقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسد اللسان العربي لذلك، وكاد يذهب، لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسُّنة اللذين بهما حفظ الدين، وصار ذلك مرجحاً<sup>(٢)</sup> لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار. فلما ملك التتر والمغول بالمشرق، ولم يكونوا على دين الإسلام، ذهب ذلك المرجح، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسُّند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدراصة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك.

وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس وبالمغرب لبقاء الدين طلباً لها، فانحفظت بعض الشيء. وأمّا في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها<sup>(٣)</sup> أثر ولا عين، حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المجالس. والله أعلم بالصواب. وصلى الله على سيدنا محمد وآله. [ظ ١٧٢/١].

١ - أي: غلبوهم. يقال: كاثروهم فكثروهم، أي: غالبوهم فغلبوهم. وبهذا يتبين أنه لا تحريف في الكلمة كما ذهب إليه الدكتور وإن حفظه الله.

٢ - في ن: مرجعاً.

٣ - في ن: له.

## ٥ - المعاش ووجوهه

- ١ - حقيقة الرزق والكسب وشرحهما.  
الكسب هو قيمة الأعمال البشرية.  
مدلول الرزق عند المعتزلة.  
ضرورة العمل.  
أصل المكاسب: الذهب والفضة.  
ارتباط قيم الأشياء بالأعمال.  
العمل + الجهد = سعة الأحوال وتوسع العمران.  
من أسباب انقطاع الأنهار والعيون.
- ٢ - وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه.  
تعريف المعاش.  
المغارم والجباية، والاصطياد، والفلاحة.  
الصنائع، والامتهانات، والتجارة.  
مذهب طبيعي: فلاحه، صناعة، تجارة.  
مذهب غير طبيعي: إمارة، مغارم.
- ٣ - الخدمة ليست من المعاش الطبيعي.  
أصناف الخدم.  
الثقة بكل أحد عجز.  
الاعتماد على الآخرين منافية للرجولية.  
قانون الاستكفاء في الخدمة.
- ٤ - ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي.  
أسبابه: العجز عن المعاش الطبيعي..  
أو زيادة الترف وعوائده.  
اختراع بعض الأوراق..  
كيفية تغوير المياه بأعمال سحرية.  
نفي المصنف أن يكون العثور عليها إلا من غير قصد.  
جوابه عن: أين أموال الأمم السابقة؟  
سبب وجود الكنوز في مصر.  
ضرب المكوس على أصحاب المطالب (الباحثون عن الدفائن).

٥ - الجاه مفيد للمال.

سببه.

استفادة العباد والفقهاء للمال إذا اعتقد بهم الناس.

٦ - حصول السعادة والكسب لأهل الخضوع والتملق غالباً.

توزع الجاه بين الناس.

تعريف الجاه.

يسار فاقد الجاه على قدر عمله وماله.

الترف والشمم يقترن بالفقر والخصاصة.

توهم المحسنون في أعمالهم حاجة الناس إليهم كأهل الأنساب.

أثر الأمراض النفسية في الحرمان.

الكامل في المعرفة محروم من الحظ.

ارتفاع السفلة ونزول العلية.

٧ - لا تعظم ثروة القائمين بأمر الدين في الغالب.

سبب ذلك.

٨ - الفلاحة من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو.

سببه.

٩ - معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها.

١٠ - أي أصناف الناس يحترف التجارة؟ وأيهم له اجتنابها؟

الجرأة + الوعي + الجاه = تاجر ناجح.

١١ - نزول خلق التجار عن خلق الأشراف والملوك.

التاجر = مساومة + غش وخداع.

١٢ - نقل التاجر للسلع.

أصناف المنقول.

أنواعه.

أثر القرب والبعد والأخطار في عظم الربح.

١٣ - الاحتكار.

أثر تعلق النفوس البشرية بما يؤخذ منها بدون وجه حق.

فساد ربح المحتكر.

قصة رغبة الفقيه المليي بأن تكون جراته من مكس الخمر.

١٤- رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص.  
فساد رؤوس الأموال.

أمثلة عن أثر ذلك على المزارعين والتجار والجنود..  
١٥- نزول خلق التجارة عن خلق الرؤساء، وبعدها من المروءة.  
١٦- لا بد للصنائع من المعلم.

أنواع الصنائع: البسيط، المركب.  
الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة.  
تقسم إلى: ما يختص بالمعاش ( حياكة، جزارة، نجارة..).  
ما يختص بالفكر ( الوراقة، الغناء، الشعر..).  
ما يختص بالسياسة (الجنديّة..).

١٧- تكمل الصنائع بكمال العمران الحضري وكثرته.  
سببه.

صناعة الكتب من عوائد الترف في المدينة.  
زيادة العمران عن الحد يؤدي إلى وجود صناعات ترفية كتعليم الطيور..  
مقارنة بين مصر والمغرب.

١٨- رسوخ الصنائع في الأمصار برسوخ الحضارة وطول أمدها.  
سبب ذلك.

نماذج من الأندلس وتونس...  
١٩- تستجد الصنائع وتكثر بكثرة طالبيها.  
سبب ذلك.

قيمة كل امرئ ما يحسن.  
أثر الدولة في إجادة الصنائع ونفاقها.  
٢٠- نقص الصنائع من الأمصار إذا قاربت الخراب.  
٢١- بعد العرب عن الصنائع.

سبب ذلك.  
كثرة الصنائع في بلاد العجم وغيرها.  
٢٢- إجادة صنعة تمنع إجادة أخرى.  
سبب ذلك.

شبه أهل العلم بأهل الصناعات في ذلك (التخصص).

## ٢٣- أمهات الصنائع.

الضرورية: الفلاحة، البناء...  
الشريفة بالموضوع: التوليد، الكتابة، الوراقة، الغناء، الطب.  
مخالطة أصحابها للملوك.

## ٢٤- صناعة الفلاحة.

ثمرتها.

أقدم الصنائع.

## ٢٥- صناعة البناء.

أول صنائع العمران الحضري.

سبب بعد البدو عن ذلك.

اختلاف الأمصار في نماذج البناء.

اختلاف أهل المصر في نماذج البناء.

حاجة للصناع عند تأسيس المدن.

كثرة هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة.

كثرة أنواع هذه الصناعة.

أحوال الصناع: الخدق - القصور.

الكثرة - القلة.

المعرفة بالهندسة.

حاجة الحكام إليهم.

استقدامهم.

أنواع البناء وأجزاء المبنى وطريقة العمل.

## ٢٦- صناعة النجارة.

مادتها ومنافعها.

حاجتها إلى علم الهندسة.

صناعة المراكب البحرية.

النجارة صنعة أئمة الهندسة من اليونان.

## ٢٧- صناعة الحياكة والخياطة.

ضرورتها.

موادها وطرق الاستخدام.

استغناء البدو عنها.  
سر تحریم المخیط فی الحج.  
نسبتھا لإدریس علیہ السلام.  
٢٨- صناعة التولید.  
تعریفھا.  
اختصاصھا بالنساء.  
عرض ما یحدث للمولود والأم.  
وظائف القابلة.  
الفرق بین القابلة والطیب.  
الاستغناء عنها: معجزات الولادة. شأن الإلهام.  
الرد علی الفارابی وفلاسفة الأندلس فی عدم انقطاع الأنواع.  
تکلف ابن سینا فی الرد علیهم.  
٢٩- صناعة الطب.

حاجة الحواضر والأمصار لهذه الصناعة دون البادية.  
ثمرتها.  
أصل الأمراض.  
الحمیات: أسباب، علاج.  
علاج الطبخ بالتوابل من ترف الحضارة.  
أثر الرياضة والهواء فی صحة الأبدان.  
٣٠- الخط والكتابة من الصنائع الإنسانية.  
شرفھا.

توقفھا علی التعلیم.  
وجودھا فی المدينة.  
قوانين تعلم الخط فی مصر والأندلس.  
الخط العربی: الخط الحمیری: جودته، نسبته، تنقله.  
الكتابة قبل المبعث النبوی.  
الخط المسند: أصوله، نشأته، تعلم مضر له.  
رسم المصحف.  
لیس الخط بکمال، وإنما هو من جملة الصنائع.  
أثر انتشار العرب فی الأمصار فی إجادة الخط.

أعلام الخطاطين: ابن مقلة، ابن البواب، ياقوت، العجمي.  
أنواع الخطوط: البغدادى، الإفريقي، الأندلسي.  
انحصار العلوم وتوابعها في مصر والقاهرة.  
قصيدة صناعة الخط وموادها لابن البواب.  
صفات الخط الجيد.  
اصطلاحات المتأخرين في الوصل والفصل والحذف.  
المعمى وفكه.

٣١- صناعة الوراق.

تاريخها وأثر العمران في تناميها.  
صناعة الورق بإشارة الفضل بن يحيى.  
ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة.  
ثمرة الصناعة الحديثة.  
أسباب اختلاف العناية بالرواية في عهد المؤلف بين المشرق والمغرب.  
٣٢- صناعة الغناء.

تعريفها.  
تناسب الأصوات.  
أصناف الآلات: الشبابة، المزمار، الزلامى، البوق، البربط، الرباب، القانون.  
السبب في اللذة الناشئة عن الغناء.  
سر العشق.  
موجبات حسن الأصوات.  
تعريف المضممار.  
قراءة القرآن: رأي الفقهاء في التلحين.  
حدوث هذه الصناعة عند وصول العمران إلى التفنن.  
عناية العجم به.  
عناية العرب به.  
أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه.  
٣٣- تكسب الصنائع صاحبها عقلاً وخاصة الكتابة والحساب.  
بيانه.

بسم الله الرحمن الرحيم  
 وصلى الله على سيدنا محمد وآله.  
 ٥-١. الفصل الخامس من الكتاب الأول:  
 في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع  
 وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

وفيه مسائل:

### ٥-١ - ١. فصل: في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم: أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ [محمد: ٣٨]. والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ [إبراهيم: ٣٣]. و﴿سخر لكم البحر﴾ [الجاثية: ١٢]. ﴿وسخر لكم الفلك﴾ [إبراهيم: ٣٢]. وسخر لكم الأنعام، وكثير من شواهد.

ويد الإنسان مبسوبة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف، وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك، وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض. فالإنسان متى اقتدر على نفسه، وتجاوز طور الضعف، سعى في اقتناء المكاسب، لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها، قال الله تعالى: ﴿فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله؛ إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي.

فتكون له تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً ومتمولاً إن زادت على ذلك. ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقاً. قال صلى الله عليه وسلم: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»<sup>(١)</sup>. وإن لم

١ - أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، قال: وهل لك من مالك إلا ما أكلت.... وأخرجه مسلم (٢٩٥٩) من حديث أبي هريرة بنحوه. وانظره في الدر المنثور (٣٤٩/٦) وإتحاف السادة المتقين (٨٣/٨).



ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقاً؛ والمتملك منه حيثئذ يسعى العبد وقدرته يُسمَّى كسباً، وهذا مثل التزاث<sup>(١)</sup> فإنه يُسمَّى بالنسبة إلى الهالك<sup>(٢)</sup> كسباً ولا يُسمَّى رزقاً، إذا لم يحصل به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يُسمَّى رزقاً. هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة [ظ ١٧٢/٢].

وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصحُّ تملكه، وما لا يملك عندهم لا يسمى رزقاً، وأخرجوا الغصبوبات والحرام كله عن أن يسمى شيء منها رزقاً. والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل. فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. والسعي إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى وإلهامه؛ فالكلُّ من عند الله؛ فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل، ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية<sup>(٣)</sup> لأهل العالم في الغالب، وإن اقتني سواهما في بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق التي هما عنها بمعزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة.

وإذا تقرر هذا كله فاعلم أنَّ ما يفيد الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك إلا العمل، وليس بمقصود بنفسه للقنية، وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل التجارة والحياسة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمتهم أكثر. وإن كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها، وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها، فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه؛ لكنه خفي في

١ - التزاث: الميراث.

٢ - المتوفى.

٣ - ما يجمع ويقتنى.

الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤنته يسيره، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المقادير والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية، وتبين مسمى الرزق، وأنه المنتفع به. فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما. واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب. ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية [ظ ١٧٣/١]. وكذلك الأمصار التي تكون أعمالها<sup>(١)</sup> أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدّمناه قبل<sup>(٢)</sup>. ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها: إنها قد ذهب رزقها. حتى إن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر، لما أن فور العيون إنما يكون بالإنباط<sup>(٣)</sup> والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني، كالحال في ضروع الأنعام. فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت<sup>(٤)</sup> بالجملة، كما يجفُّ الصَّرْعُ إذا ترك امتراؤه. وانظر في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن، ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ [المزمل: ٢٠].

١ - في المطبوع: يكون عمرانها.

٢ - في الفصل الحادي عشر من الباب الرابع. فصل: في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة.

٣ - الإنباط والامتراء: الاستخراج.

٤ - غار الماء غوراً ذهب في الأرض فهو غائر وغور. ومنه قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ [الملك: ٣٠].

## ٥-١-٢- الفصل الثاني: في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

**اعلم:** أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، وهو مَفْعَلٌ من العيش، كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جُعِلَتْ موضعاً له على طريق المبالغة.

ثم إنَّ تحصيل الرزق وكسبه: إمَّا أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى **مغرماً وجباية**، وإمَّا أن يكون من الحيوان الوحشي باقتناصه<sup>(١)</sup> وأخذه برميهِ من البر أو البحر ويسمى **اصطياداً**، وإمَّا أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نخله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته، ويُسمَّى هذا كله **فَلْحاً**.

وإمَّا أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية، إمَّا في مواد معينة وتسمى **الصنائع** من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينة وهي جميع **الامتِّهانات** والتصرفات، وإمَّا أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض، إمَّا بالتَّجَلُّبِ بها في البلاد، أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها، ويُسمَّى هذا **تجارة**.

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحرير وغيره، فإنهم قالوا: **المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة**.

فأمَّا **الإمارة** فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها؛ وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني<sup>(٢)</sup>.

وأمَّا **الفلاحة والصناعة والتجارة** فهي وجوه طبيعية للمعاش. أمَّا **الفلاحة** فهي مقدمة عليها كلها بالذات، إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم، ولهذا تنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر، وأنه معلمها والقائم عليها، إشارة [ظ٢/١٧٣] إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة.

وأما الصنائع فهي ثانيتهما ومتأخرة عنها، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار، ولهذا لا توجد غالباً إلا في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو وثنان عنه؛ ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخلقة، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى.

وأما التجارة، وإن كانت طبيعية في الكسب، فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكايسة<sup>(١)</sup>، لما أنه من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذاً لمال الغير مجاناً، فلهذا اختص بالمشروعية.

## ١-٥-٣ - الفصل الثالث:

## في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

**اعلم:** أنَّ السُّلطان لا بد له من اتِّخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك الذي هو بسبيله. من الجندي والشرطي والكتّاب، ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناء فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله. وهذا كله مندرجٌ في الإمارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة، والملك الأعظم هو ينبوع جدواهم.

وأما ما دون ذلك من الخدمة فسيبها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما رُبِّي عليه من خلق التَّعَمُّ والتَّرف؛ فيتخذ من يتولى ذلك له ويُقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز؛ ولأنها تزيد في الوظائف والخرج، وتدلُّ على العجز والخنث اللذين ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما. إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى ألوفها؛ فهو ابن عوائده لا ابن نسبه. ومع ذلك فالخديم الذي يستكفي به ويوثق بغنائه كالمفقود؛ إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات: إمَّا مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده. وإمَّا بالعكس في إحداهما فقط، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثقاً غير مضطلع.

**فأما الأول:** وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه، إذ هو باضطلاعاً وثقته غني عن أهل الرتب الدنيئة ومحتقر لمنال<sup>(١)</sup> الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه.

**وأما الصنف الثاني** وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق به. فلا [ظ ١٧٤/١] ينبغي لعقل استعماله لأنه يححف بمخدومه في الأمرين معاً، فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كلٌّ على مولاه. فهذان الصنفان لا يطمع أحدٌ في استعمالهما.

ولم يبقَ إلا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مضطلع؛ ومضطلع غير موثوق. وللناس في التزجيج بينهما مذهبان. ولكل من التزجيجين<sup>(٢)</sup> وجه. إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه، ويحاول على التحرز عن<sup>(٣)</sup> خيائته جهد الاستطاعة. وأما المضيع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتخذ قانوناً في الاستكفاء بالخدمة. والله سبحانه وتعالى قادرٌ على ما يشاء<sup>(٤)</sup>.

١ - في ن: لثال.

٢ - في ن: التزجيج. ٣ - في ن: من.

٤ - في ن: كل شيء.

## ١-٥ - ٤ - الفصل الرابع:

في أنَّ ابتغاء الأموال من الدَّفائن والكنوز ليسَ بمعاشٍ طبيعيٍّ اعلم: أنَّ كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويتغنون الكسب من ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض، مختومةٌ عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفضّ ختامها ذلك إلا من عثرَ على علمه. واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان. فأهل الأمصار بإفريقيّة يرون أن الإفرنجية الذين كانوا قبلَ الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك، وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السَّبيل إلى استخراجها.

وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس، ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديثَ خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره، فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان، أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين<sup>(١)</sup> سيوفهم، أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً، أو مثل ذلك من الهذر.

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتحزّمة الحواشي إمّا بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها، يتغنون بذلك الرزق منهم بما يبعثونه<sup>(٢)</sup> على الحفر والطلب، وبموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلبُ الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات. ورُبّما تكونُ عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه، وهو بمعزل عن السّحر وطرقه، فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول، فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل [٢/١٧٤] بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال، يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم.

والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة، وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله، عجزاً عن السّعي في المكاسب، وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه، ولا يعلمون أنهم

١ - في ن: منتضين.

٢ - في ن: يبعثونهم.

يوقعون أنفسهم، بابتغاء ذلك من غير وجهه، في نصب ومتاعب وجهه شديد أشد من الأول، ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات.

وربما يحمل على ذلك في الأكثر زيادة الترف وعوائده، وخروجها عن حد النهاية، حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه، ولا تفي بمطالبها، فإذا عجز عن الكسب بالجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة، ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها، فيحرص على ابتغاء ذلك، ويسعى فيه جهده، ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة، ومن سگان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، مثل مصر وما في معناها. فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله، ومساءلة الركبان عن شواذه، كما يحرصون على الكيمياء. هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة، لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز، ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق، ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفاً<sup>(١)</sup> بشأن السحر متوارثاً في ذلك القطر عن أوليه، فعلموهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها، وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك.

وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسيما تراه فيها، وهي هذه:

يَا طَالِباً لِلسَّرِّ فِي التَّغْوِيرِ	إِسْمِعْ كَلَامَ الصَّدَقِ مِنْ حَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَفُوا فِي كُتُبِهِمْ	مَنْ قَوْلٍ بَهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَاسْمِعْ لَصَدَقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي	إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لَا يَرَى بِالزُّورِ [ظه ١٧/١]
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغْوِيرَ الْبُئْرِ الَّتِي	حَارَتْ لَهَا الْأَوْهَامُ فِي التَّدْبِيرِ
صُورَ كَصُورَتِكَ الَّتِي أَوْقَفْتَهَا	وَالرَّأْسَ رَأْسَ الشُّبْلِ فِي التَّقْوِيرِ
وَيَدَاؤُهُ مَاسِكَتَانِ لِلْجَبَلِ الَّذِي	فِي الدَّلْوِ يَنْشَلُ مِنْ قَرَارِ الْبِيرِ

وبصدره هاءٌ كما عاينتها  
ويطأ على الطآآت غير ملامسٍ  
ويكونُ حول الكلِّ خطٌّ دائرٌ  
واذبح عليه الطير والطخه به  
بالسَّندروس وباللبان ومِيعَةٌ<sup>٢</sup>  
من أحمر أو أصفر لا أزرق  
ويشده خيطان صوفٍ أبيض  
والطَّالعُ الأسدُ الذي قد بينوا  
والبدرُ متَّصلٌ بسعد عطارد

عدد الطلاق احذر من التكرير  
مشي الليب الكيس التحرير  
تريعه أولى من التكوير  
واقصده عقب الذبح بالتبخير  
والقسط والبسه بثوب حرير  
لا أخضر فيه ولا تكدير  
أو أحمر من خالص التحمير  
ويكونُ بدءَ الشهر غير منير  
في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطآآت بين قدميه كأنه يمشي عليها. وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المخرقين<sup>(١)</sup>، فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة، وتنتهي المخرقة<sup>(٢)</sup> والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون الحفر، ويضعون المطابق فيها، والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم. ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف، ويعثون على اكتراء<sup>(٣)</sup> ذلك المنزل وسكناه، ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته. ويطالبون بالمال لا شراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم، ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يُلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من جَفَر<sup>(٤)</sup> وبخور وذبح حيوان، وأمثال ذلك.

وأما الكلامُ في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم ولا خبر.

٢ - الميعة: عطر طيب الرائحة جداً، أو صمغ يسيل من الشجر.

١ - في نسخة: المتخرفين.

٢ - في ن: التخرفة. التخريق: كثرة الكذب، والتخرق: خلق الكذب.

٣ - في ن: كبراء.

٤ - في الأصل: حفر. والجَفَر: الجلد المكتوب عليه، واستعمل في الإخبار عن المستقبلات.



واعلم: أن الكنوز وإن كانت توجد، لكنها في حكم النادر وعلى وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى، حتى يدَّخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختتمون عليها بالطلاسم لا في القدم ولا في الحديث. والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء، وهو دفين الجاهلية، إنما يوجد بالعثور والاتفاق، لا بالقصد والطلب.

وأيضاً: فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية، فقد [٢/١٧٥] بالغ في إخفائه، فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه، ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع علي ذخيرته أهل الأعصار<sup>(١)</sup> والآفاق. هذا يناقض قصد الإخفاء.

وأيضاً: فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع، ومن اختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفائه بالكلية عن كل أحد، وإنما هو للبلاء والهلاك، أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه. وأما قولهم: أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور؟ فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن، والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها. وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث. وربما انتقل من قطر إلى قطر، ومن دولة إلى أخرى، بحسب أغراضه، والعمران الذي يستدعي له. فإن نقص المال في المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج، وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين. وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها. مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات، ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره، وكذا الذهب والفضة<sup>(٢)</sup> والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت.

وأما ما وقع في مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر والآلئ على مذهب من تقدم من أهل الدول. فلما انقضت دولة القبط<sup>(٣)</sup> وملك الفرس

١ - في ن: الأمصار.

٢ - عقب الدكتور وافي على هذا بقوله: هذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة؛ فإن من أهم خواص هذين المعدنين أنهما غير قابلين للاتحاد مع الهواء أو الماء أو أي جسم آخر. فهما لا يصدآن ولا تتغير خواصهما الكيميائية بتقادم الزمن ولا يفنيان ولا يبيدان بالاستعمال.

٣ - يقصد بالقبط: قدماء المصريين.

بلادهم نقرؤا على ذلك في قبورهم فكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم مالا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها. وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد. ويعثر على الدفين فيها في كثير<sup>(١)</sup> من الأوقات إما ما يدفونه من أموالهم، أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتواييت من الذهب والفضة معدة لذلك. فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها. فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها، حتى إنهم حين ضربت المكوس على الأصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب، وصدرت<sup>(٢)</sup> ضريبة على من [ظ ١/١٧٦] يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين. فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والزعم<sup>(٣)</sup> باستخراجه. وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم، نعوذ بالله من الخسران.

فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلي به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه، كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك<sup>(٤)</sup>، وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه، ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [البقرة: ٢١٢].

١ - في ن: كثيراً.

٢ - في ظ: صارت.

٣ - في ن: والذرع. أي: الطمع.

٤ - أخرجه البخاري (٢٨٢٣ و ٦٣٦٧ و ٦٣٦٩) ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والبخل، والجبن، وعذاب القبر، وشر المسيح الدجال.

## ١- ٥ - ٥ - الفصل الخامس:

## في أن الجاه مفيدٌ للمال

وذلك أنا نجد صاحب (الجاه)<sup>(١)</sup> والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه.

والسبب في ذلك: أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يُتَقَرَّبُ بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه. فالناسُ معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه. وجميع ما شأنه<sup>(٢)</sup> أن تبذل فيه الأعواض من العمل، يستعمل فيها الناس من غير عوض، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه. فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرةٌ فتفيدُ الغنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام يساراً وثروة، ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه.

وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه، وهؤلاء هم أكثر التجار، ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير.

ومما يشهد لذلك أننا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا، وحسن الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملته الله في إرفادهم<sup>(٣)</sup>، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتماد في مصالحهم، وأسرعت إليهم الثروة، وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى، إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم.

رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن وفي البدو، يسعى لهم الناس في الفلح والتجر<sup>(٤)</sup> وكل هو قاعدٌ بمنزله لا يبرحُ من مكانه، فينمو ماله ويعظمُ كسبه، ويتأثر الغنى من غير سعي، ويعجب من لا يفتن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره. ﴿والله سبحانه وتعالى ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

١ - في الأصول: المال. ولعل ما أثبتناه هو الصواب. والله أعلم.

٢ - في ن: معاشاته.

٣ - الإرفاد: الإعانة والإعطاء.

٤ - التجر: التجارة.

## ١- ٥ - ٦ - الفصل السادس:

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتَّمَلُّقِ

وأن هذا الخلق من أسباب السعادة [ظ ١٧٦/٢]

قد سلفَ لنا فيما سبق<sup>(١)</sup> أن الكسب الذي يستفيده البشر إنما هو قيمُ أعمالهم<sup>(٢)</sup>. ولو قُدِّرَ أحدُ عُطْلٍ<sup>(٣)</sup> عن العمل جملةً، لكان فاقده الكسب بالكلية.

وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته، وعلى نسبة ذلك غم كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال<sup>(٤)</sup> لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجلب المنافع، وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال في كسبه، وقيمها أموال وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت.

ثم إن الجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة، ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يدٌ عالية، وفي السفلى إلى من لا يملك ضرراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه؛ وبين ذلك طبقات متعددة. حكمة الله في خلقه، بما ينتظم معاشهم وتيسر به مصالحهم، ويتم بقاؤهم. لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم؛ لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون؛ وإنه إن ندر<sup>(٥)</sup> فقد ذلك في صورة مفروضة فلا يصحُّ بقاؤه<sup>(٦)</sup>.

ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع، ولما جعل لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والرؤية لا بالطبع، وقد يمتنع من المعاونة فيتعين حملُهُ عليها، فلا بد من حامل يُكره أبناء النوع على مصالحهم، لتتم الحكمة الإلهية في بقاء هذا النوع. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب

١ - في ظ: قد سبق لنا فيما سلف.

٢ - انظر ذلك في الفصل الأول من هذا الباب: فصل في حقيقة الرزق والكسب، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية.

٣ - العطل: العاقل الذي لا عمل له وهي صفة لأحد.

٤ - في الفصل السابق لهذا مباشرة.

٥ - أي: قل.

٦ - يعني: إن حدث في حالة شاذة أن وجد شخص غير متعاون مع غيره فإنه لا يطولُ عمر بقائه.

منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك، ولكن الأول مقصود في العناية الربانية بالذات، والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الإلهي؛ لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد<sup>(١)</sup>، فلا يفوت الخير بذلك، بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير، وهذا معنى وقوع الظلم في الخليقة، فتفهم.

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق، وكل واحد<sup>(٢)</sup> من الطبقة السفلى [ظ ١٧٧/١] يستمد هذا<sup>(٣)</sup> الجاه من أهل الطبقة التي فوقه؛ ويزداد كسبه تصرفاً فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه. والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب المعاش، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقاً قليلاً فمثله.

ورفأه الجاه وإن كان له مالٌ فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهباً وآيباً في تنميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب، وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنعائهم، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما يرمقون العيش ترميقاً<sup>(٤)</sup> ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة. وإذا تقرر ذلك، وأن الجاه متفرع، وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله، علمت أن بذله وإفادته من أعظم النعم وأجلها، وأن بآذله من أجل المنعمين. وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك، وإلا فيتعذر حصوله، فلذلك قلنا: إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق. ولهذا نجد الكثير من يتخلق بالترفع والشتم لا يحصل لهم غرض الجاه، فيقتصرون في التكبس على أعمالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة، إنما يحصل لمن توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه، أو الكاتب المجيد

١ - لعله أراد المواد المقترنة ببعضها فيكون منها الدفع، لاقران العسر باليسر. أي: لا بد من وجود الضدين في كل أمر. ذلك أنه لا يرى في الأمور صورتها المثالية وإنما صورتها الواقعية الحاملة للمعنيين.

٢ - في ن: واحدة.

٣ - في ن: بذى.

٤ - يعني: لا يجدون إلا ما يمسك الرمح.

في كتابته، أو الشاعر البليغ في شعره، وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون لما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك.

وكذا يتوهم أهل الأنساب، ممن كان في آبائهم ملك أو عالم مشهور أو كامل في طور، يعتبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم، فهم متمسكون في الحاضر بالأمر المعدوم، إذ النكمال لا يورث.

وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين، لا يخضعون لصاحب الجاه، ولا يتملقون لمن هو [ظ ١٧٧/٢] أعلى منهم، ويستصغرون من سواهم؛ لاعتقادهم الفضل على الناس. فيستكف أحدهم عن الخضوع، ولو كان للملك، ويعد مذلة وهواناً وسفهاً، ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه، ويحقد على من قصّر له من شيء مما يتوهمه من ذلك. وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك. ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله، وقُلَّ أن يسلم أحدٌ منهم لأحدٍ في الكمال والترفع عليه، إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة، وهذا كله في ضمن الجاه، فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه - وهو مفقودٌ له كما تبين لك - مَقَّتْهُ الناس بهذا الترفع، ولم يحصل له حظ من إحسانهم، وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم، ففسد معاشه، وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل، وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً.

ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محرومٌ من الحظ، وأنه قد حوسب بما رُزِقَ من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ، وهذا معناه. ومن خلقٍ لشيء يُسرُّ له<sup>(١)</sup>. والله المقدر لا ربَّ سواه.

ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا<sup>(٢)</sup> الخلق، ويرتفع فيها كثير من السُّفلة، وينزل كثيرٌ من العلية بسبب ذلك، وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم، ويئس من سواهم من ذلك، وإنما

١ - أخرجه البخاري (٦٥٩٦ و ٧٥٥١) ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين قال: قال صلى الله عليه وسلم: كل ميسر لما خلق.

٢ - في ن: أهل.

صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنهم حَوْلٌ له<sup>(١)</sup>؛ فإذا استمرت الدولة، وشمخ الملك، تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان، كل من انتمى إلى خدمته وتقرّب إليه بنصيحة، واصطنعه السلطان لغنائِه في كثير من مهماته. فتجد كثيراً من السُّوقَة يسعى في التقرب من السلطان بجِدّه ونصحِه، ويتزلف إليه بوجوه خدمته، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه، حتى يرسخ قدمه معهم، وينظمه السلطان في جملة، فيحصل له بذلك حظ عظيم من السَّعادة، وينتظم في عدد أهل الدولة.

وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذلّلوا صعايبها<sup>(٢)</sup> ومهدوا أكنافها<sup>(٣)</sup>، معززون<sup>(٤)</sup> بما كان لآبائهم في ذلك من الآثار، تشمخ<sup>(٥)</sup> به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره. ويجرون في مضمار الدَّالَّةِ<sup>(٦)</sup> بسببه. فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم، ويميل إلى هؤلاء المصطفين<sup>(٧)</sup> الذين لا يعتدون [ظ ١٧٨/١] بقديم، ولا يذهبون إلى دالة ولا ترفع، إنما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتماد في غرضه متى ذهب إليه، فيتسع جاههم، وتعلو منازلهم، وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر، بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده، ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم، لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتاً، وإثارةً لهؤلاء المصطنعين عليهم، إلى أن تنقرض الدولة. وهذا أمرٌ طبعي في الدولة. ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا رب سواه.

١ - حول: أعوان وخدم.

٢ - في ن: أضغانهم.

٣ - في ن: أكنافهم.

٤ - في ن: مغترين.

٥ - في ن: لم تسمح.

٦ - في ن: الدولة.

٧ - في ن: المصطنعين.

## ١- ٥ - ٧ - الفصل السابع:

في أنَّ الْقَائِمِينَ بِأُمُور الدِّينِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ  
وَالْإِمَامَةِ وَالْخِطَابَةِ وَالْأَذَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ

وَالسَّبَبُ لِلذَّكَاءِ: أَنَّ الْكَسْبَ كَمَا قَدَمْنَاهُ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ، وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ  
إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعِمْرَانِ عَامَةً الْبَلَوَى بِهِ، كَانَتْ قِيَمَتُهَا أَعْظَمَ  
وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ.

وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تَضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَةُ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمْ  
الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ؛ وَإِنْ احْتِيجَ إِلَى الْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ  
الْاضْطِرَارِّ وَالْعُمُومِ، فَيَقَعُ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ فِي الْأَكْثَرِ، وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَراسِمِهِمْ  
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ، فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ  
إِلَيْهِمْ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ، لَا يَسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ الشُّوكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ، مِنْ حَيْثُ  
الدِّينُ وَالْمَرَّاسِمُ الشَّرْعِيَّةُ، وَلَكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ الْعِمْرَانِ، فَلَا  
يَصِحُّ فِي قِسْمِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَهُمْ أَيْضًا لَشَرَفٍ بِضَائِعِهِمْ أَعَزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفُوسِهِمْ، فَلَا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ  
حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدْرُونَ بِهِ الرِّزْقَ، بَلْ وَلَا تَفْرُغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ  
الشُّغْلِ بِهَذِهِ الصَّنَائِعِ الشَّرِيفَةِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ، بَلْ وَلَا يَسْعَاهُمْ ابْتِدَالُ  
أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لَشَرَفِ صَنَائِعِهِمْ<sup>(١)</sup>، فَهُمْ يَعْزَلُ عَنْ ذَلِكَ. فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي  
الْغَالِبِ.

وَلَقَدْ بَايَحْتُ بَعْضَ الْفُضَلَاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوْقَ يَدَيَّ أَوْرَاقَ مَخْزُوقَةٍ مِنْ حِسَابَاتِ  
الدَّوَاوِينِ بِدَارِ الْمَأْمُونِ تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ، وَكَانَ فِيمَا طَالَعْتُ فِيهِ أَرْزَاقُ  
الْقَضَاةِ وَالْأُئِمَّةِ وَالْمُؤَذِّنِينَ فَوْقَ قَفَّتِهِ عَلَيْهِ، وَعَلِمَ مِنْهُ صَحَّةُ مَا قَلْتُهُ وَرَجَعُ إِلَيْهِ، وَقَضَيْنَا الْعَجَبَ  
مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ. وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.



## ١ - ٥ - ٨ - الفصل الثامن:

في أنَّ الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو وذلك [ظ ١٧٨/٢] لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه، ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضرة في الغالب، ولا من المترفين، ويختصُّ منتحله بالمدلة، قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة يبعث دور الأنصار: «مَا دَخَلْتُ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُ الذِّلُّ»<sup>(١)</sup>. وحمله البخاري<sup>(٢)</sup> على الاستكثار منه وترجم عليه: باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به.

والسبب فيه والله أعلم: ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية، فيكون الغارم ذليلاً بائساً مما تتناوله أيدي القهر والاستطالة. قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا»<sup>(٣)</sup>.

إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلُّط والجور، ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات، واعتبار الحقوق كلها مغرمًا للملوك والدول. والله قادرٌ على ما يشاء. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

١ - أخرجه البخاري (٢٣٢١) من حديث أبي أمامة، بلفظ: لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل.

٢ - انظره في كتاب الحرث والمزاعة - الباب الثاني.

٣ - لم أجده بهذا اللفظ، وروي بإسناد ضعيف عن علي بن أبي طالب في الترمذي (٢٢١١) بلفظ: إذا فعلت أمي خمس عشرة حصلة حلَّ بها البلاء: إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً، والزكاة مغرمًا.... ومن حديث أبي هريرة في الترمذي (٢٢١٢) بإسناد ضعيف بلفظ: إذا اتخذ الفبيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرمًا.... فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وحسفاً ومسحاً وقذفاً وآياتٍ تتابع كنظام بالٍ قطع سلكه فتتابع.

## ١ - ٥ - ٩ - الفصل التاسع:

## في مَعْنَى التَّجَارَةِ ومذاهبها وأصنافها

اعلم: أنَّ التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيًّا ما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامي يُسمَّى ربحاً. فالحاولُ لذلك الربح إمَّا أن يَحْتَزِنَ السلعةَ ويتَحَيَّنَ بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإمَّا بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه، فيعظم ربحه، ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك في كلمتين: (اشترِ الرخيص وبع الغالي، وقد) <sup>(١)</sup> حَصَلَت التجارة. إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قررناه <sup>(٢)</sup>. والله سبحانه وتعالى أعلم. وبه التوفيق، لا ربَّ سواه.

١ - في ن: (اشترى الرخيص وبيع الغالي، فقد).

٢ - أي أن القدر النامي يسمى ربحاً، الذي يمكن تحصيله بحوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد آخر هي فيه أنفق. وانظر ما نقله ابن الأزرقي في بدائع السلك في طبائع الملك في فصل اكتساب المعاش بالكسب والصنائع، في المسألة السابعة عشرة. بتحقيق الدكتور علي سامي النشار.

## ١- ٥- ١٠- الفصل العاشر:

في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة؟  
وأيهم له اجتناب حرفها؟

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من ثمن الشراء، إمّا بانتظار حوالة الأسواق، أو نقلها [ظ ١٨٠/١] إلى بلد هي فيه أنفق وأعلى، أو بيعها بالغلاء على الآجال. وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير. إلا أن المال إذا كان كثيراً عظم الربح، لأن القليل في الكثير كثير.

ثم لا بد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بأيدي الباعة بشراء<sup>(١)</sup> البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها. وأهل النصفَة قليل، فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع، ومن المَطْل في الأثمان المجحف بالربح، كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها غماؤه، ومن الجحود والإنكار المسحت<sup>(٢)</sup> لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة. وغناء الحكام في ذلك قليل، لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة، أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله. فإن كان جريئاً على الخصومة، بصيراً بالحُسبان، شديد المَاحِكَة<sup>(٣)</sup>، مقدّماً على الحكام، كان ذلك أقرب له إلى النصفَة بجراسته منهم ومما حكته، وإلا فلا بد له من جَاهٍ يَدْرَع<sup>(٤)</sup> به، يوقع له الهيبة عند الباعة، ويحمل الحكام على إنصافه من معاملته، فيحصل له بذلك النصفَة في ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني. وأمّا من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه، فاقداً لجاه الحكام، فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة، لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب، ويصير مأكلّة للباعة، ولا يكاد ينتصف منهم. لأن الغالب في الناس، وخصوصاً الرّعا ع والباعة، شرّهون إلى ما في أيدي الناس سواهم، متوثّبون عليه، ولولا وازعُ الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿البقرة: ٢٥١﴾.

١ - في ن: في شراء.

٢ - من معاني السحت: استئصال الشيء: أي: المسحت لرأس المال والمستهلك لأصله.

٣ - المماحكة: اللجاج.

٤ - أي: يتخذ درعا يتقي به.

## ١- ٥- ١١ - الفصل الحادي عشر:

## في أن خلق التجّار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم، إنما يعانون البيع والشراء، ولا بُدَّ فيه من المكايسةِ ضرورة. فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها، وهي - أعني خلق المكايسة - بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأمّا إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم، من المماحكة والغش والخلافة<sup>(١)</sup> وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان ردّاً وقبولاً، فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف. ولذلك تجدد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يُكسَبُ من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه، لشرف نفسه وكرم خلاله، إلا أنه في النادر بين الوجود. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢١٣] بفضله وكرمه، وهو ربّ الأولين والآخرين.

## ١ - ٥ - ١٢ - الفصل الثاني عشر:

## في نقل التاجر للسلع

التَّاجِرُ البَصِيرُ بالتجارة لا ينقلُ من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغنيّ والفقر والسُّلطان والسوقة، إذ في ذلك نفاقُ سلعته. وأمّا إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بإعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه.

وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها، فإنما ينقلُ الوسط من صنفها؛ فإن العالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الأقل؛ وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف. فليتحَرَّ ذلك جُهدَه ففيه نفاق سلعته أو كسادها.

وكذلك نقلُ السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدة للتجار، وأعظم أرباحاً، وأكفَلُ بجوالة الأسواق؛ لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة مُعوَزة [ظ ١٧٩/١] دون<sup>(١)</sup> مكانها أو شدة الغرر<sup>(٢)</sup> في طريقها، فيقلُّ حاملوها، ويعزّز وجودها؛ وإذا قلت وعزت غلت أثمانها. وأمّا إذا كان البلد قريب المسافة، والطريق سابل<sup>(٣)</sup> بالأمن، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها.

ولهذا تجدد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالاً، لبُعد طريقهم ومشقته، واعتراض المفازة<sup>(٤)</sup> الصعبة المخطرة بالخوف والعطش، لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها أدلاء الركبان، فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس؛ فتجدد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم؛ فتعظم بضائع التجار من تناقلها، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعد الشقة أيضاً، وأما المتزددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة، وأرباحهم تافهة، لكثرة السلع، وكثرة ناقلها. والله هُوَ الرَّزَّاقُ ذو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴿الذاريات: ٥٨﴾.

١ - في ن: لبعد.

٢ - الغرر: تعرض النفس للهلاك.

٣ - السابل من الطرق: المسلك، وأسبلت: كثرت سابلتها.

٤ - أي: الصحراء، سميت مفازة أملاً بالفوز في اجتيازها.

## ١- ٥- ١٣ - الفصل الثالث عشر:

## في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم، وأنه يعود على فائدته<sup>(١)</sup> بالتلف والخسران. وسببه والله أعلم: أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبدلون فيها من المال اضطراراً، فتبقى النفوس متعلقة به، وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على من يأخذه بجاناً. ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل. وهذا وإن لم يكن بجاناً فالنفوس متعلقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها، وإنما يبعثهم عليها التفتن في الشهوات، فلا يبدلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه. فلهذا يكون من عُرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد ربحه. والله تعالى أعلم.

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب: أخبرني شيخنا أبو عبد الله الآبلي، قال: حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلي<sup>(٢)</sup> وقد عُرض عليه أن يختار بعض الألقاب المخزنية لجرايته، قال: فأطرق ملياً، ثم قال لهم: من مكس الخمر. فاستضحك الحاضرون من أصحابه، وعجبوا، وسألوه عن حكمة ذلك فقال: إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأختار منها ما لا تتابعه نفسٌ مُعطية، والخمر قلٌّ أن يبدل فيها أحدٌ ماله إلا وهو طربٌ مسرورٌ بوجدانه غير أسف عليه، ولا متعلقةً به نفسه. وهذه ملاحظة غريبة. والله سبحانه وتعالى [ظ ١٧٩/٢] يعلم ما تكين الصدور<sup>(٣)</sup>.

١ - يعني: يتلف المنفعة ويعود بالخسران على صاحبه.

٢ - قاضي الجماعة أبو الحسن بن أبي بكر عمل قاضياً للسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني (٥٧٥هـ - ٦٣٨هـ). مترجم في الأنيس المطرب بروض القرطاس لأبي زرع ص: ٣٢٤.

٣ - في ظ: غريبة. والله تعالى أعلم.

## ١- ٥- ١٤ - الفصل الرابع عشر:

## في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة، والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها، يتحين بها حَوَالَةَ الأسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحاً، ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً، فإذا استديم الرخص في سلعة أو عَرَضُ<sup>(١)</sup> من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة، ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة، وكسدت سوق ذلك الصنف، ولم يحصل التاجر إلا على العناء، فقعد التجار عن السعي فيها، وفسدت رؤوس أموالهم.

واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونَدَارَتِهِ<sup>(٢)</sup> أو فقده، فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة، ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم، وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة، ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث<sup>(٣)</sup> من لدن زراعته إلى صيرورته مأكولاً.

وكذا يفسد حال الجنود إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً؛ فإنها تقل جبايتهم من ذلك، ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها، ويرتزقون من السلطان عليها، ومطالبون بها، ومنقطعون لها، ويقطع عنهم الرزق، فتفسد أحوالهم.

وكذا إذا استديم الرخص في السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به، وقعد المحترفون عن التجارة فيه. وكذا الملبوسات إذا استديم فيها الرخص أيضاً.

فإذا الرخص المفرط يحجب بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص، وكذا الغلاء المفرط أيضاً؛ وربما يكون في النادر سبباً لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته، وإنما معاش الناس وكسبهم في المتوسط<sup>(٤)</sup> من ذلك، وسرعة حوالة الأسواق. وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يُحْمَدُ الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغني والفقير. والعالمة من الخلق هم الأكثر<sup>(٥)</sup> في العمران. فيعم الرفق بذلك، ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص. والله الرزاق ذو القوة المتين. والله سبحانه وتعالى ربُّ العرش العظيم.

١ - العرض: المتاع.

٢ - أي: قلته. وبخروجه عن المعتاد. وهي واردة في المعجمات ليس كما قال الدكتور وافي، وهي من قولهم: نَدَرَ الكلام نَدَارَةً: غَرُبَ. كما في تاج العروس ومن قبله الأساس للزخشري.

٣ - في ن: الحرف. ٤ - في ن: المتوسط. ٥ - في ن: الأكثرون.

١- ٥ - ١٥ - الفصل الخامس عشر:  
في أنَّ خُلُقَ التجارة نازلة عن خلق الرؤساء  
وبعيدة من المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله<sup>(١)</sup> أنَّ التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بُدَّ في ذلك من المكايسة والمحاكة والتحدلق وممارسة الخصومات واللجاج، وهي عوارض هذه الحرفة. وهذه الأوصاف نقص من الزكاء والمروءة وتجرح فيها، لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس، فأفعال الخير تعودُ بآثار الخير والزكاء، وأفعال الشرِّ والسفسفة تعود بضد ذلك، فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت، وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها. بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس، شأن الملكات [ظ ١٨٠/٢] الناشئة عن الأفعال.

وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم. فمن كان منهم سافل الطور محالفاً لأشرار الباعة أهل الغشِّ والخلاصة والخديعة والفجور في الإيمان على البياعات والأثمان إقراراً وإنكاراً، كانت رداءة تلك الخلق عنده<sup>(٢)</sup> أشدَّ، وغلبت عليه السفسفة، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلا بد له من تأثير المكايسة والمحاكة في مروءته. وفقدان ذلك منهم في الجملة، ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدمناه في الفصل قبله أنهم يَدْرَعُونَ بالجاه ويعوّض لهم من مباشرة ذلك، فهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه، ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره وإتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر، فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك الحاجة، إلا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم، أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك، إلا أنه قليل، ولا يكاد يظهر أثره. ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصفات: ٩٦].

١ - يقصد الفصل الحادي عشر، ولعلَّ الفصل الحادي عشر كان سابقاً لهذا الفصل مباشرة في الترتيب الأول للمقدمة، ثم غير ابن خلدون ترتيب الفصول بدون أن يغير هذه العبارة. د. وافي.

٢ - في ن: عنه.



## ١- ٥- ١٦ - الفصل السادس عشر:

في أَنَّ الصَّنَائِعَ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعِلْمِ<sup>(١)</sup>

اعلم: أَنَّ الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالباشرة أوعب لها وأكمل. لأنَّ المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته؛ وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم؛ فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته.

ثمَّ إنَّ الصنائع منها البسيط ومنها المركَّب، والبسيط هو الذي يختصُّ بالضروريات، والمركَّب هو الذي يكون للكماليَّات. والمتقدِّم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً، ولأنَّه مختص بالضروري الذي تتوفر الدَّواعي على نقله، فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه [ظ ١/١٨١] لذلك<sup>(٢)</sup> ناقصاً.

ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج، حتى تكمل. ولا يحصل ذلك دفعة، وإنما يحصل في أزمان وأجيال، إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة، لا سيما في الأمور الصناعية، فلا بد له إذن من زمان. ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصَّغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط. فإذا تزايدت حضارتها، ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، خرجت من القوة إلى الفعل.

وتنقسم الصنائع أيضاً: إلى ما يختصُّ بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري؛ وإلى ما يختصُّ بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة؛ ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها؛ ومن الثاني الوراقة، وهي معانة الكتب بالانتساخ والتجليد، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك؛ ومن الثالث الجندية وأمثالها. والله أعلم.

١ - في بعض النسخ: لا بد لها من العلم. وهو تحريف.

٢ - في ظ: ذلك.

## ١- ٥ - ١٧ - الفصل السابع عشر: في أنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْمَلُ بِكَمالِ العِمْرانِ الحضري وكثرتها

والسَّببُ في ذلك: أنَّ النَّاسَ ما لم يستوفِ العمران الحضري وتمتدَّن المدينة، إِنَّمَا همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيلُ الأقواتِ من الحنطة وغيرها. فإذا تمتدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروريّ وزادت عليه، صُرفَ الزَّائدُ حينئذٍ إلى الكمالات من المعاش. ثُمَّ إنَّ الصَّنَائِعَ والعلوم إِنَّمَا هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع، وهي متأخرة عن الضروري.

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة.

وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط، خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزّار. وإذا وجدت هذه بعدد، فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة، إذ هي كلها وسائل إلى غيرها، وليست مقصودة لذاتها.

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملة التأنق في الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزّار ودبّاغ وخرّاز<sup>(١)</sup> وصائغ وأمثال ذلك. وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات، والتأنق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المصر لمتحلّها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال، لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار<sup>(٢)</sup> والحمامي<sup>(٣)</sup> والطباخ والشمع<sup>(٤)</sup> والهراس<sup>(٥)</sup> ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع.

١ - الخراز: صانع الأحذية، والخرازة حرفته. حرز الخف يجرز به الزاي وكسرها.

٢ - الذي يشتغل بصناعة الصفر وهو صنف من النحاس.

٣ - الذي يتعهد الحمامات ويزاول صناعتها.

٤ - الشمع: الذي يبيع الشمع أو يشعله. وفي باقي النسخ: السفاح والسفاج ولا معنى لذلك.

٥ - الهراس: يطحن الحبوب وغيرها.

ومثل الورّاقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف [ظ ١٨١/٢] في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية. وأمثال ذلك.

وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحُمُرَ الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان، وتعليمُ الحَدَاءِ<sup>(١)</sup> والرقص والمشي على الخيوط في الهواء، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب، لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة. أدام الله عمرانها بالمسلمين.

## ١ - ٥ - ١٨ - الفصل الثامن عشر:

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب في ذلك ظاهر، وهو: أن هذه كلها عوائد للعمران والأوان<sup>(١)</sup>. والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال؛ وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها. ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة. وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ الغاية بعد.

وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص، وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار وإن كان عمرانها قد تناقص، والكثير منه لا يُساوي عمران غيرها من بلاد العُدوة. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية، وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف، وهلم جرا. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً، لطول آمد الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع، وكملت جميع أصنافها على الاستحادة والتنميق، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران، لا تفارقه إلى أن ينتقص بالكلية، حال الصبغ إذا رسخ [ظ ١/١٨٢] في الثوب.

وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال؛ وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة. وربما سكن أهلها هناك عصوراً، فينقلون

من عوائد ترفهم ومحكم صنائعها ما يقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه، ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المئة السابعة. ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد إلا أن الصبغة إذا استحكمت قليلاً ما تحول إلا بزوال محلها.

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس، فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها، كأثر الخط الممحو في الكتاب. والله الخلاق العليم.

## ١ - ٥ - ١٩ - الفصل التاسع عشر:

في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ظاهر، وهو: أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجّاناً لأنه كسبه ومنه معاشه، إذ لا فائد له في جميع عمره في شيء مما سواه، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع. وإن كانت الصناعة مطلوبة، وتوجه إليها النفاق، كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب البيع، فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها، ولا يوجه قصد إلى تعلمها، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال. ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن. بمعنى: أن صناعته هي قيمته، أي: قيمة عمله الذي هو معاشه.

وأيضاً: فهنا سر آخر، وهو أن الصنائع وإجاداتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها، وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصرف فليس على نسبتها، لأن الدولة هي السوق الأعظم، وفيها نفاق كل شيء، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة، فما نفق منها كان أكثرياً ضرورة. والسوق وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام. ولا سوقهم بنافقة. والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء.

## ١- ٥ - ٢٠ - الفصل العشرون:

في أنَّ الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها وكثر طلبها، فإذا ضعفت<sup>(١)</sup> [ظ ١٨٢/٢] أحوال المصر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانها وقلة ساكنه تناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف، لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه، فيفر إلى غيرها أو يموت، ولا يكون خلف منه، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة، كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف. ولا تزال الصناعات في التناقص ما زال المصر في التناقص إلى أن تضمحل. والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى.

## ١ - ٥ - ٢١ - الفصل الحادي والعشرون في أن العرب<sup>(١)</sup> أبعد الناس عن الصنائع

١ - قال الدكتور علي الوردي في منطق ابن خلدون (ص ٨٣ - ٨٦): حدث التباس كبير حول رأي ابن خلدون في العرب فقد ذكر العرب في بعض فصول المقدمة فوصفهم فيها وصفاً يبدو عليه الذم والانتقاص. ففي أحد الفصول قال: إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. وفي فصل آخر قال: إن العرب أبعد الناس عن سياسة الملك. وفي فصل ثالث قال: إن المباني التي يخطتها العرب يسرع إليها الخراب. وفي فصل رابع قال: إن العرب أبعد الناس على الصنائع. وفي فصل خامس قال: إن العرب يستكفون عن طلب العلم وانتحاله... الخ. وقد دفعت هذه الأقوال بعض الباحثين إلى القول بأن ابن خلدون كان شعوبياً بربرياً أراد بها الانتقاص من شأن العرب وذهمهم ذماً مقدعاً. وما يلفت النظر أن أحد المتحمسين للقومية العربية أحققه ذلك من ابن خلدون فخطب يقول بوجوب حرق كتبه ونبيش قبره باسم القومية.

واتخذ الأستاذ ساطع الحصري تجاه ذلك موقفاً آخر، ففي رأيه أن ابن خلدون لم يكن يقصد بأقواله المذكورة العرب إنما قصد بها البدو. وأورد الحصري قرائن لغوية وتاريخية واجتماعية عديدة لتأييد رأيه، وكان موفقاً في ذلك إلى حد لا يستهان به. ولقي رأي الحصري هذا قبولا حسنا بين الباحثين العرب أخيراً وعده الكثيرون الكلمة الفاصلة في الموضوع.

إني أميل إلى تأييد الحصري في كثير مما جاء به في هذا الصدد. فابن خلدون عند ذكره لمساوئ العرب إنما قصد بها مساوئ البداوة. ولكني أريد أن أقف هنا قليلاً متسائلاً: هل أن لفظة العرب في اصطلاح ابن خلدون مرادفة ومساوية في معناها للفظه البدو، أم أنهما مختلفان في المعنى بعض الاختلاف؟. إن هذا سؤال حيرني مدة طويلة ثم عثرت مؤخراً على فقرات في مقدمة ابن خلدون مما جعلني أستقر على رأي فيه، وهو رأي يخالف من بعض الوجوه رأي الحصري.

ومما جلب انتباهي على أي حال أن ابن خلدون حين يذكر صفات البداوة في محاسنها ومساوئها يأتي بها تحت اسم البدو، ولكنه حين يذكر صفات البداوة في مساوئها فقط يأتي بها تحت اسم العرب. ونحن نلاحظ سبب ذلك حين ندرس الفصل الثاني من الباب الثاني في مقدمته وهو الفصل الذي قسم فيه البداوة إلى درجتها الثلاث حسب شدة توغلها في حياة الصحراء وبعدها عن خصائص الحضارة. ففي هذا الفصل يذكر ابن خلدون الأمم البدوية المختلفة، من فرس وتركمان وصقالبة وكرد وبربر وعرب، ويحاول توزيعهم على تلك الدرجات الثلاث. وهو يشير في نهاية الفصل إشارة واضحة إلى أن العرب هم أكثر من غيرهم توغلاً في حياة الصحراء واختصاصاً بالإبل، أما الأمم البدوية الأخرى فهم قد يختصون بالقيام على الشاء والبقر علاوة على الإبل، ومنهم من يختص بالزراعة وحدها كما هو الحال في عامة البربر والأعاجم.

يتضح من هذا أن ابن خلدون حين يذكر العرب لم يكن يقصد بهم البدو بوجه عام، إنما كان يقصد بهم النموذج الأقصى للبداوة، وهو النموذج الذي يكون أشد من غيره بعداً عن خصائص الحضارة كالعلم والصناعة والعمران.

قد يسأل هنا سائل عن السبب الذي جعل ابن خلدون يرى هذا الرأي في العرب، فهل كان العرب حقاً أشد من غيرهم بداوة؟ وماذا نقول إذن عن حضارة اليمن القديمة، وحضارة تدمر والبتراء، وعن الحضارة الإسلامية الكبرى التي ساهم فيها العرب مساهمة فعالة؟ يبدو أن ابن خلدون نسي كل ذلك تحت تأثير الجو الفكري والاجتماعي الذي كان مسيطرًا على بلاد المغرب في زمانه. كما سيأتي في فصل قادم.

ومهما يكن الحال فإننا لا نستطيع أن نستنتج من أقوال ابن خلدون التي يظهر فيها ذم العرب أنه كان يقصد بها ذمهم على وجه مطلق. فهذا أمر لا يلائم منطق ابن خلدون. إنه كما أسلفنا يرى في كل شيء وجهين على الأقل خيراً وشرًا. وهو إنما ذكر مساوئ العرب ليقول بصورة غير مباشرة بأنهم على مقدار اتصافهم بتلك المساوئ



والسبب في ذلك: أنهم أعرق في البدو، وأبعد عن العمران الحضري، وما يدعوا إليه من الصنائع وغيرها. والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عُدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها، لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه، حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة، ومفقودة مراعيها والرمال المهيتة لنتائجها.

ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر<sup>(١)</sup>.

وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم.

وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين. ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه. فالصنائع بالمغرب لذلك

البداوية لا بد أن يكونوا متصفين بالخاص البدوية في الوقت ذاته. فإذا كانوا أشد من غيرهم بعداً عن العلم والعمران والصناعة فهم يجب أن يكونوا أيضاً أكثر من غيرهم شجاعة وأمتن خلقاً وأقرب إلى خصال الخير والدين. يبدو أن الذين نسبوا إلى ابن خلدون نزعة التهجم على العرب إنما قرأوا مقدمته بمنظار المنطق القديم الذي يقول: بأن النقيضين لا يمكن أن يجتمعا في شيء واحد. ولهذا كان رأيُه أنه ما دام ابن خلدون قد ذم العرب فليس من المعقول إذن أن يكون محباً لهم أو ميالاً مدحهم. ولو أن هؤلاء نظروا في المقدمة بعين المنظار الذي كان ينظر به ابن خلدون لما تورطوا في هذا الخطأ.

من جملة ما وصف ابن خلدون به العرب قوله إنهم أمة وحشية. وهذا التعبير يقصد به ابن خلدون معنى غير الذي نقصده نحن الذين نعيش في العصر الحديث. فقد اعتدنا أن نعد التوحش في الأمم صفة مذمومة جداً، ولهذا فنحن حين نقرأ عبارة ابن خلدون في وصف العرب نتصور أنه ذمهم ذماً قبيحاً. الواقع أن ابن خلدون كان يعني بالتوحش سكنى الصحراء والتوغل فيها بعيداً عن الحضارة. وهذا في اصطلاح ابن خلدون ليس ذماً، إنما هو وصف موضوعي يراد به الذم من وجهة نظر الحضارة ويراد به المدح من وجهة نظر البداوة. ومعظم الأمور في رأي ابن خلدون نسبية على هذا المنوال.

١ - قال الشيخ عبد الحي الكتاني في التراتيب الإدارية (١٠/١ - ١١): لا ننكر أن التمدن الإسلامي جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء وسار سيراً تدريجياً إلى أن وصل إلى أوجه في السمو فمن لم يتأمل ذلك ولم يحط نظراً في الموضوع بما له وعليه لا بد أن يغيب عن علمه ما بلغته الإدارات والعمالات والصناعة والتجارة في تلك العشر سنوات التي قضاهما صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية. وإن الترقى والعمران وصل فيها إلى إحداث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك خصوصاً من غاية علمه عن ذلك الدور أن أهله كانوا يمشون حفاة وإذا أكلوا مسحوا أيديهم في أقدامهم خصوصاً وقد وقعت لبعض الأعلام فلتات إن لم نقل سقطات وهفوات حتى إن الولي ابن خلدون قال في مقدمة العبر في مواضع: إن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضي أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما نقلوه عن صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا رجعوا إليه ولا دعوتهم إليه حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين.

قليلة وغير مستحكمة، إلا ما كان<sup>(١)</sup> من صناعة الصوف من نسجه، والجلد في خزره<sup>(٢)</sup> ودبغه. فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البدأوة.

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبني إسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة. فرسخت فيهم أحوال الحضارة، ومن جملة الصنائع كما قدمناه، فلم يح رسمها.

وأما اليمن والبحران وعُمان والجزيرة، وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين في أمم كثيرين منهم، واختطوا أمصاره ومدنه، وبلغوا الغاية من الحضارة والترّف، مثل عاد وثمود والعمالة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت، فلم تبل يبلي الدولة كما قدمناه، فبقيت مستجدة حتى الآن، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي<sup>(٣)</sup> والعصب<sup>(٤)</sup> وما يُستجد [ظ ١٨٣/١] من حوك الثياب والحرير فيها. والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

١ - في ن: الأماكن. خطأ.

٢ - الخراز: صانع الأحذية.

٣ - الوشي: نقش الثوب.

٤ - العصب: برد من برود اليمن على نسج خاص.

## ١- ٥ - ٢٢ - الفصل الثاني والعشرون:

فيمَن حصلت له ملكة في صناعة فَقَلَّ أن يجيد بعدها ملكة في أخرى

ومثل ذلك الخياط، إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك: أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدهم دفعة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف. وهذا يَبَيِّنُ يشهد له الوجود.

فَقَلَّ أن تجد صاحب صناعة يُحْكَمُها، ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الإجادة. حتى أهل العلم الذين مَلَكَتْهُمُ فِكْرِيَّةٌ فهم بهذه المثابة. ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فَقَلَّ أن يجيدَ ملكة علم آخر على نسبته؛ بل يكون مقصراً فيه إن طلبه، إلا في الأقل النادر من الأحوال. ومبنى سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة في النفس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق، لا رب سواه.

## ١- ٥- ٢٣ - الفصل الثالث والعشرون:

## في الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم: أنَّ الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران، فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها.

فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة.

وأما الشريفة بالموضوع فالكثوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب.

فأما الكثوليد فإنها ضرورية في العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود وتتم غالباً، وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهم.

وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم الطبيعة، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان.

وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقه فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني.

وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع.

وكل هذه الصنائع الثلاث<sup>(١)</sup> داع إلى مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع [ظ ١٨٣/٢] فتابعة وممتحنة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي. والله أعلم بالصواب.

## ١- ٥ - ٢٤ - الفصل الرابع والعشرون:

## في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتّخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعتها<sup>(١)</sup>، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله، واستخراج حبه من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه ودواعيه.

وهي أقدم الصنائع لما أنها مُحصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً، إذ يمكن وجوده<sup>(٢)</sup> من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت. ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو، إذ قدمنا أنه أقدم من الحضرة وسابق عليه<sup>(٣)</sup>، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونها، لأنّ أحوالهم كلها ثانية على البداوة، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها. والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد.

١ - أي: زراعة الأرض. وأصله (ازترع)، أبدلوها دالاً لتوافق الزاي.

٢ - أي: الإنسان.

٣ - تقدم ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني.

## ١- ٥ - ٢٥- الفصل الخامس والعشرون:

## في صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في إتخاذ البيوت والمنازل للكن<sup>(١)</sup> والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها. والبشر مختلف<sup>(٢)</sup> في هذه الجبله الفكرية، التي هي معنى الإنسانية، فالمقيدون فيها، ولو على التفاوت، فمنهم المعتدلون فيها، فيتخذون ذلك باعتدال كأهالي الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس<sup>(٣)</sup>.

وأما أهل الأول والسابع<sup>(٤)</sup> فبعيدون عن إتخاذ ذلك، لانحرافهم وقصور أفكارهم عن إدراك كيفية العمل في الصنائع البشرية، فيبادرون<sup>(٥)</sup> للغيران<sup>(٦)</sup> والكهوف المعدة، كما يتناولون الأغذية من غير علاج ولا نضج.

ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون، فيخشون طروق بعضهم بعضاً يئاًتاً، فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم<sup>(٧)</sup>، ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصرأ واحداً، ويحوطهم فيها الحكام من داخل بدفاع بعضهم عن بعض؛ وقد يحتاجون إلى الانتصاف<sup>(٨)</sup> ويتخذون المعقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معنائهم من الأمراء وكبار القبائل.

ثم يختلف أحوال البناء في المدن، كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر.

وكذا حال أهل المدينة الواحدة، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة<sup>(٩)</sup> الدور والبيوت [ظ١٨/١] والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه

١ - في ن: للسكن.

٢ - في ن: مختلفون.

٣ - أي: الأقاليم. انظرها في المقدمة الثانية من الباب الأول.

٤ - في ن: أهل البدو.

٥ - في ن: فيأون.

٦ - يجمع الغار على أغوار وغيران، وهو الحجر يأوى إليه في الجبل.

٧ - في ن: بإدارة سياج الأسوار التي تحوطهم.

٨ - في ن: الاعتصام من العدو.

٩ - في ن: عد.

وعياله وتابعه، ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس<sup>(١)</sup>، ويعالي عليها بالأصبغة والحصص، ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالنعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير<sup>(٢)</sup> للاختزان لأقواته، والاصطبلات لربط مُقَرَّبَاتِهِ<sup>(٣)</sup> إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معانهم. ومنهم من يبني الدويرة والبيوت<sup>(٤)</sup> لنفسه وسكنه وولده، لا يبتغي ما وراء ذلك، لقصور حاله عنه، واقتصاره على الكين الطبيعي للبشر. وبين ذلك مراتب غير منحصرة.

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهيكل المرتفعة، ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها. وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك.

وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حوالیه، إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها، وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين أو يأوون إلى الكهوف والغيران.

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون: فمنهم البصير الماهر، ومنهم القاصر. ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة: فمنها البناء بالحجارة المنجدة أو بالآجر يقام بها الجدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد.

ومنها البناء بالتراب خاصة، تقام منه حيطان بأن يُتخذ لها لوحان من الخشب مقدّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربع أذرع. في ذراعين، فينصبان على أساس، وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر، بلوحيْن آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس، ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه، ثم يزداد بالتراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحيْن، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً، ثم يعاد نصب اللوحيْن على الصورة، ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطرّاً من فوق سطر ينظم الحائط كله ملتحمًا كأنه قطعة واحدة. ويُسمّى الطابية وصانعه الطواب.

ومن صنائع البناء أيضاً: أن تجل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو

١ - الكلس يقابله في عصرنا الإسمنت.

٢ - جمع مطمورة، وهي الحفيرة تحت الأرض.

٣ - المقربة: الفرس التي تقرب وتكرم.

٤ - تصغير بيت، وهو يضم الباء وكسرها.

أسبوعين على قدر [ظ ١٨٤/٢] ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية المفسدة للإلحام، فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط، وذلك إلى أن يلتحم.

**ومن صنائع البناء:** عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطي البيت، ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالدسائر<sup>(١)</sup>، ويصب عليها التراب والكلس، ويسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالي عليها الكلس كما يعالي على الحائط.

**ومن صناعة البناء:** ما يرجع إلى التنيق والتزيين، كما يُصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجصّ يخمر بالماء، ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تحريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورؤاء. وربما عولي على الحيطان أيضاً بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السَّبَج<sup>(٢)</sup> يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة، وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مُقدَّرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمَّعة<sup>(٣)</sup>. إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح<sup>(٤)</sup> الماء بعد أن تعد في البيوت قصاع الرخام القوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصَّهْرِيح، يجلبُ إليه من خارج القنوات المفضية إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء. وتختلف الصناعات في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر، ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون.

وربما يرجع الحكماء إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس في المدن لكثرت الازدحام والعمران يتشاحون<sup>(٥)</sup> حتى في الفضاء والهواء للأعلى والأسفل، ومن الانتفاع بظواهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك، إلا ما كان له فيه حق، ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات. وربما يدَّعي بعضهم حقَّ بعض في حائطه أو علوه أو قنائه لتضايق الجوار، أو يدَّعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه، ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه، أو يحتاج إلى قسمة دار

١ - جمع: الدسار، وهو واحد الدسر، وهي المسامير؛ قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ [القمر: ١٢].

٢ - سُبْحَةُ القميص: كَبْتُهُ وَدَحَارَيْصُهُ. وقد مرَّت في الفصل العاشر في مبادئ الخراب في الأمصار في الباب الرابع، بلفظ: الريح. فأنظره. وفي ن: الزبح. وفي ن: السيج!.

٣ - من غنمه إذا زحفه وزينه.

٤ - في ن: لسفح.

٥ - تشاح القوم، بالتضعيف: إذا شح بعضهم على بعض من الشح وهو البخل.



أو عَرَصَة<sup>(١)</sup> بين شَرِيكين، بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا إهمال لمنفعتيها وأمثال ذلك.

ويخفي جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط<sup>(٢)</sup> ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث [ظ ١٨٥/١] لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك؛ فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست لغيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال باعتبار الدول وقوتها. فإننا قدّمنا أن الصنائع وكمالها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها<sup>(٣)</sup>.

فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجد الشام. فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد.

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع، وأمثال ذلك، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله. وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأحرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قدرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط، فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقابٍ مقدرة على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة الرفع خفيفاً فيتم المراد من ذلك بغير كلفه، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر. ومثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وأن أيدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك، والله يخلق ما يشاء ﴿آل عمران: ٤٧﴾ سبحانه.

١ - العرصة: القطعة الواسعة التي ليس فيها بناء أو كل بقعة ليس فيها بناء.

٢ - القمط: جمع قماط، الحبل.

٣ - انظر الفصلين ١٨ و ١٩ من هذا الباب.

## ١- ٥- ٢٦ - الفصل السادس والعشرون:

## في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران، ومادتها الخشب. وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته. وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد. ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا ييست. وأول منافعها أن يكون وقوداً للنيران في معاشهم وعصياً للاتكاء والدُّود وغيرهما من ضرورياتهم، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم. ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر. فأما أهل البدو فيتخذون منها العُمد والأوتاد لخيامهم، والحدوج<sup>(١)</sup> [ظ ٢/١٨٥] لظعناتهم، والرماح والقسيّ والسُّهام لسلّاحهم، وأمّا أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق<sup>(٢)</sup> لأبوابهم والكراسي لجلوسهم. وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها. ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة.

والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها. فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو ألواح. ثم تتركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة. وهو في كل ذلك يحاول بصنّعه إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص. والقائم على هذه الصناعة هو النجار. وهو ضروري في العمران. ثم إذا عظمت الحضارة، وجاء الترف، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون، حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء، مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهئية القطع من الخشب بصناعة الخرط، يُحكم بريها وتشكيلها، ثم تُؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالديسائر<sup>(٣)</sup>، فتبدو لرأي العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب. يُصنّع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجيء آنق ما يكون، وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان.

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والديسر، وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوامه وكلّكليه<sup>(٤)</sup>،

١ - الحدج بكسر الحاء: مركب للنساء كالحفة، وجمعه حدوج وأحداج. وتحرفت في ظ إلى: الحديد.

٢ - الغلق: هو ما يعلق به الباب، وجمعه أغلاق.

٣ - جمع (دسار). وهو المسمار.

٤ - الكلكل: الصدر.

ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسّمك تحريك الرياح، وربما أعينت بحركة المجاذيف<sup>(١)</sup> كما في الأساطيل.

وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها، لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير، إما عموماً أو خصوصاً. وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس.

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة، فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً، وبها كان يعرف، وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات [ظ ١/١٨٦]، وميلاوش وغيرهم. وفيما يقال: إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام، وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان. وهذا الخبر وإن كان ممكناً، أعني كونه نجاراً، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعده الآماد، وإنما معناه - والله أعلم - الإشارة إلى قدم النجارة؛ لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام، فجعل كأنه أول من تعلمها. فتفهّم أسرار الصنائع في الخليقة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

## ١- ٥ - ٢٧ - الفصل السابع والعشرون: في صناعة الحياكة والخياطة

اعلم أن المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكن. ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد؛ ولا بد لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً، وهو النسج والحياكة. فإن كانوا بادية اقتصروا عليه، وإن مالوا إلى الحضارة فصلّوا تلك المنسوجة قطعاً يقدّرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيها، ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصلات حتى يصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها. والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة.

هاتان الصنعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه، فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداءً في الطول وإلحاماً<sup>(١)</sup> في العرض، وإحكاماً لذلك النسج بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدّرة، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال<sup>(٢)</sup>، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس. والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد، تفصل أولاً بالمقراض<sup>(٣)</sup> قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلّاً أو حبكاً أو تنبيتاً أو تفسّحاً<sup>(٤)</sup> على حسب نوع الصناعة.

وهذه الصناعة الثانية مختصة بالعمران الحضري، لما أن أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً؛ وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها. وتفهم هذا في سرّ تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها، والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة، حتى لا يعلق العبد قلبه بشيء من عوائد ترفه، لا طيباً ولا نساءً ولا مخيطاً ولا خفّاً، ولا يتعرض لصيد ولا لشيء [ظ ٢/١٨٦] من عوائده التي تلونت<sup>(٥)</sup> بها نفسه وخلقته، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة، وإنما يجيء كأنه وارد إلى المحشر ضارعاً بقلبه مخلصاً لربه؛ وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه في ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. سبحانه ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم في طلب هدايتهم إليك.

وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة، لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل.

١ - أسدى الثوب: نسج سداه وهو ما مد منه، وألحمه: نسج لحمته وهي الخيوط المولفة لعرضه.

٢ - اشتمل بالثوب: أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده.

٣ - المقراض: المقص.

٤ - في ن: تفتيحاً.

٥ - في ن: تكونت.

وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفع. ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة في الغالب. ولقدّم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام، وهو أقدم الأنبياء. وربما ينسبون إلى هرمس. وقد يقال: إن هرمس هو إدريس. والله سبحانه وتعالى ﴿هو الخلاق العليم﴾ [الحجر: ٨٦، يس: ٨١].

## ١- ٥- ٢٨ - الفصل الثامن والعشرون:

## في صناعة التوليد

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجها من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض. وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة. استعير فيها معنى الإعطاء والقبول، كأن النفساء<sup>(١)</sup> تعطيها الجنين وكأنها تقبله.

وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدر الله لمكته، وهي تسعة أشهر في الغالب، فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ فيعسر، وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط، وربما تقطع<sup>(٢)</sup> بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم. وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق، فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يُحاذي الرحم من الأسفل، تساق بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها، وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره.

ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرتة بمعاه، وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة، فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجود الإندمال.

ثم إن الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق، وهو رطب العظام سهل الانعطاف والإنثناء، فرما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد، فتتناوله القابلة بالغمز [ظ ١٨٧/١] والإصلاح، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له، ويرتد خلقه سوياً.

ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً، ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حاتها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فنعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك، فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن<sup>(٣)</sup> كانت قد تأخرت.

١ - النفساء: المرأة في حال النفاس بعد الولادة.

٢ - في ن: انقطع.

٣ - في ن: التي.

ثم ترجع إلى المولود فتمرّخ<sup>(١)</sup> أعضائه بالأدهان والذُرُورات<sup>(٢)</sup> القَابِضَة لتشده، وتجفف رطوبات الرحم، وتحنّكة<sup>(٣)</sup> لرفع لهاته وتسعّطه<sup>(٤)</sup> لاستفراغ نُطُوفِ<sup>(٥)</sup> دماغه وتغرّغره باللُّعُوق<sup>(٦)</sup> لدفع السُّدَدِ<sup>(٧)</sup> من معاه وتجويفها عن الالتصاق.

ثم تدّوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق، وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود إن يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل، فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتدّوي مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج. وهذه كلها أدواءٌ نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها. وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفِصال<sup>(٨)</sup>، نجدهنّ أبصر بها من الطبيب الماهر. وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط، فإذا جاوز الفصال صار بدنًا إنسانياً بالفعل، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشدّ. فهذه الصناعة - كما تراه - ضرورية في العمران للنوع الإنساني، لا يتمّ كون أشخاصه في الغالب دونها.

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة، إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويُفطر عليها، فيتّم وجودهم من دون هذه الصناعة.

فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً. ومنه ما روي: أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسروراً<sup>(٩)</sup> محتوناً واضعاً يديه على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء<sup>(١٠)</sup>.

١ - مرخ الجسم: دهنه بالمرخ، وهو ما يمرخ به البدن من دهن وغيره.

٢ - جمع ذرور وهو ما يذر في العين ونحوها من مساحيق.

٣ - حنكه تحنيكا: ذلك حنكه بتمرة ونحوها.

٤ - سعطه الدواء وأسعطه إياه: أدخله في أنفه.

٥ - جمع نطف وهو العيب والشر والفساد.

٦ - اللعوق كصبور: كل ما يلحق.

٧ - السُّدَد: فتحات الأمعاء القابلة للانسداد.

٨ - الفِصال بالكسر: القطام عن الرضاع.

٩ - أي: مقطوع السر.

١٠ - أخرج ابن سعد (١٠٣/١) من حديث العباس: ولد النبي صلى الله عليه وسلم محتوناً مسروراً. وأخرج من حديث ابن عباس (١٠٢/١): أن أمنة بنت وهب قالت: لقد علقتُ به، تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء، وقال بعضهم: وقع جاثياً على ركبتيه رافعاً رأسه إلى السماء وخرج معه نور أضاء له قصور الشام وأسواقها، حتى رأيت أعناق الإبل ببصري. وأخرج أيضاً من حديث عكرمة (١٠٢/١): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ولدته أمه وضعته تحت برمة

وكذلك شأن عيسى في المهدي وغير ذلك.

وأما شأن الإلهام فلا ينكر، وإذا كانت الحيوانات العُجم تختصُّ بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها<sup>(١)</sup> فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصاً بمن اختص بكرامة الله<sup>(٢)</sup>، ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم، فشأن العناية الإلهية أعظم [ظ ١٨٧/٢] من أن يحاط به.

ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحُكَّام<sup>(٣)</sup> الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع، واستحالة انقطاع المكونات، وخصوصاً في النوع الإنساني، وقالوا: لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك، لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها، إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلاً. ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعه له.

وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه، وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع، وخراب عالم التكوين، ثم عوده ثانياً لاقضاءات فلكية وأوضاع غريبة تنذر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بجمرة مناسبة فيتم كونه إنساناً، ثم يُقبض له حيوان يُخلق فيه إلهام لثريته والحنو عليه، إلى أن يتم وجوده وفصاله، وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان<sup>(٤)</sup>.

وهذا الاستدلال غير صحيح، وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع، ولكن من غير ما

فانفلقت عنه، قالت: فنظرت إليه فإذا هو قد شق بصره ينظرُ إلى السماء. وأخرج (١٠٣/١) من حديث حسان بن عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ولد وقع على كفيه وركبتيه شاخصاً بصره إلى السماء. وفي السيرة الحلبية (٨٧/١) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحد سواتي. أي: لثلا يرى أحد سواتي عند الختان. قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً. وتعبه الذهبي فقال: ما أعلم صحة ذلك، فكيف يكون متواتراً. أي: وأجيب بأنه أراد بالتواتر الاشتهار، فقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك. قال الحافظ ابن كثير: فمن الحفاظ من صححها، ومنهم من ضعفها، ومنهم من رآها من الحسان: أي: وقد يدعي أنه لا مخالفة بين هذه الأقوال الثلاثة، لأنه يجوز أن يكون من قال صحيحة أراد صحيحة لغیرها، والصحيحة لغیرها قد تكون حسنة لغیرها ومن قال ضعيفة أراد في حد ذاتها. انظره في العلل المتناهية لابن الجوزي (٢٦٤) ومجمع الزوائد (١٣٨٥٢/٨ و١٣٨٥٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٦/١) وابن عدي في الكامل (٥٧٧/٢) والسيوطي في الخصائص الكبرى (٥٣/١).

١ - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ...﴾ [النحل: ٦٨].

٢ - يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣ - حكام جمع حكيم، ويطلقه ابن خلدون على الفلاسفة.

٤ - لابن سينا رسالة اسمها قصة حي بن يقظان، طبعت بمطبعة ليدن، وهي غير الكتاب المشهور حي بن يقظان لابن طفيل. (د. وافي).



استدل به؛ فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة<sup>(١)</sup>، ودليلُ القول بالفاعل المختار<sup>(٢)</sup> يردُّ عليه. ولا واسطة، على القول بالفاعل المختار، بين الأفعال والقدرة القديمة. ولا حاجة إلى هذا التكلف. ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما ينبني عليه إطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم. وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يُخلق في الحيوان الأعجم، فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولاً؟ وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره. فكلا المذهبين<sup>(٣)</sup> شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك. والله تعالى أعلم.

١ - أي: إن الأفعال لا توجد إلا بعلة لازمة توجب وجودها.

٢ - وهو الله تعالى الغني عن العالمين المفتقرين إليه سبحانه.

٣ - يقصد مذهب الفارابي في عدم انقراض الأنواع ومذهب ابن سينا في إمكان انقراضها وعودها ثانياً على الأوضاع الغريبة التي افترضها. (د. وافي).

## ١- ٥- ٢٩ - الفصل التاسع والعشرون: في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم. واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب كما ينقل بين أهل الصناعة، وإن طعن فيه العلماء، وهو قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة»<sup>(١)</sup>. فأما قوله: «المعدة

١ - البردة - بسكون الراء وفتحها -: التخمّة. وإدخال الطعام على الطعام كما ذكره المصنف. وقوله: المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء. قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٩٧): قال في المقاصد [الحسنة رقم: ١٠٣٥]: لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره. نعم روى ابن أبي الدنيا في الصمت عن وهب بن منبه قال: اجتمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية. وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت. وللخلال عين عائشة: الأزمة دواء. وفي لفظ: الأزم وهو بفتح الهمزة وسكون الزاء الحمية، وتمتته: المعدة داء، وعودوا بدنا ما اعتاد، وأورد في الإحياء من المرفوع: البطننة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد. قال مخرجه: لم أجد له أصلاً. وللطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً: المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم. وذكره الدارقطني في العلل. وقال: اختلف فيه على الزهري. ثم قال: لا يصح ولا يعرف من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن الحارث. ومثله في اللآلئ، وزاد: ولم يرو هذا مسنداً عن إبراهيم بن حريج، وكان طبيباً، فجعل له إسناد، ولم يسند غير هذا الحديث. انتهى.

وفي الكشف يحكى: أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلبي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: قوله صلى الله عليه وسلم: المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته. فقال: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طياً. انتهى. واقتصر البيضاوي على قول الحسين قد جمع الله الطب في نصف آية من كتابه: قوله: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ قال الخفاجي: لأن في ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين. انتهى فاعرفه.

وقوله: أصل كل داء البردة. قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٤٦١): رواه أبو نعيم المستغفري والدارقطني في العلل بسند فيه تمام بن نجيح. ضعفه الدارقطني ووثقه ابن معين وغيره، عن أنس رفعه، وفي رواية عند المستغفري كما في النجم: أصل كل داء البردة، ولأبي نعيم أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً مثله، ومن حديث عمر بن الحارث، عن أبي سعيد رفعه: أصل كل داء من البردة. ومفرداتها ضعيفة. وقال الدارقطني كغيره الأشبه بالصواب أنه من قول الحسن البصري، وحكاها في الفائق من كلام ابن مسعود، قال الدارقطني: الخدثون يروونه بسكون الراء، ولذلك ضم إليه بعضهم والحُر والصواب فتحها. بمعنى التخمّة لأنها تبرد حرارة الشهوة، أو لأنها ثقيلة على المعدة بطبيعة الذهاب من برد إذا ثبت وسكن، وأورد أبو نعيم أيضاً عن أبي هريرة رفعه: إستدفتوا من الحر والبرد. وكذلك

بيت الداء». فهو ظاهر. وأما قوله: «الحمية رأس الدواء». فالحمية الجوع وهي<sup>(١)</sup> [ظ ١/١٨٨] الاحتماء من الطعام، والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية.

وأما قوله: «أصل كل داء البردة». فمعنى البردة إدخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول.

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم، ثم تأخذه النامية فينقلب لحماً وعظماً.

ومعنى الهضم: طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن. وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاماً، ثم أجدتها مضغاً، فترى مزاجها غير مزاج الطعام، ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً<sup>(٢)</sup> وهو صفو ذلك المطبوخ، وترسله إلى الكبد، وترسل ما رسب منه في المعى ثقلاً<sup>(٣)</sup> ينفذ إلى المخرجين. ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً<sup>(٤)</sup>، وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء، وترسب منه أجزاء يابسة هي السواد، ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ التغليظ منه فهو البلغم. ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجدال ويأخذها طبخ الحار الغريزي هناك، فيكون عن الدم الخالص بخار رطب يمد الروح الحيواني، وتأخذ النامية مأخذها في الدم فيكون لحماً، ثم غليظه عظماً، ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً<sup>(٥)</sup>.

المستغفري مع ما رواه عن أنس مرفوعاً: إن الملائكة لتفرح بارتفاع البرد عن أمي. وروى أيضاً كما مر: أصل كل داء البرد، وهما ضعيفان، وذلك منهم دليل على المحدثين الذين روه بالسكون.

١ - في ن: هي.

٢ - الكيموس: قال الأزهرى: وأما الكيموسات في قول الأطباء، فإنها الطبايع الأربع ليست من لغات العرب، ولكنها يونانية، وقال ابن سيده: الكيموسية: عبارة عن الحاجة إلى الطعام والغذاء، والكيموس في عبارة الأطباء: هو الطعام إذا انهضم في المعدة قبل أن يتصرف عنها ويصير دماً، ويسمونه أيضاً الكيلوس.

٣ - الثفل: حثالة الشيء، وهو الرأس أسفل الوعاء.

٤ - الدم العبيط: الطري اللزج.

٥ - علق الدكتور وافي على هذا بقوله في نسخته: تمثل الحقائق السابق ذكرها ما وصل إليه العلم بعناصر الجهاز الهضمي وإفرازاته ووظائفه في العالم العربي في عصر ابن خلدون. وغني عن البيان أن البحوث العلمية التي جرت بعد ذلك عدلت كثيراً من هذه المعلومات، وكشفت عن خطأ كثير منها، وأضافت إليها حقائق جديدة.

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هي الحميات، وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج. وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيستقل به الحار الغريزي ويترك الأول بحاله، أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج، وترسله المعدة كذلك إلى الكبد، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه، وربما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو. فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك [ظ ١٨٨/٢]. وربما يعجز عن الكثير منه، فيبقى في العروق والكبد والمعدة، وتتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذ الطبخ والنضج يعفن، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط، وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى، واختير ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن، وفي الزبل إذا تعفن أيضاً، كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان، وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث.

وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة، ثم يتناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وذلك في حال الصحة علاج في التحفظ من هذا المرض، وأصله كما وقع في الحديث. وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو، ويحدث جراحات في البدن إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له. هذه كلها جماع<sup>(١)</sup> الأمراض؛ وأصلها في الغالب من الأغذية، وهذا كله مرفوع إلى الطبيب.

ووقوع هذه الأمراض من أهل الحضر والأمصار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة ماكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، وعدم توقيتهم لتناولها. وكثيراً ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطباً ويابساً في سبيل العلاج بالطبخ، ولا يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع، فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين

ويضيق المقام عن بيان هذه الأمور. على أنها أصبحت الآن من الأمور المعروفة حتى للمبتدئين من المتعلمين. ومن الأمور التي يبدو فيها خطأ المعلومات التي كانت سائدة في هذا الصدد ما ذكره ابن خلدون عن مضغ الطعام، وأن حرارة الفم هي التي تؤثر فيه، والحقيقة أن الذي يؤثر فيه هو مادة اللعاب التي تمتزج به، وما ذكره عن هضم الطعام في المعدة، وأن حرارة المعدة هي التي تؤثر في هضمه، والحقيقة أن الذي يؤثر فيه يتمثل في الإفرازات التي تفرزها المعدة. ومثل هذا يقال في جميع ما سيذكره من حقائق تتعلق بتدبير الصحة أو بالطب أو بعلم وظائف الأعضاء.

نوعاً من النبات والحيوان، فيصير للغذاء مزاج غريب. وربما يكون غريباً عن ملاءمة البدن وأجزائه.

ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزي في الهضم.

ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون، لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً، ولا تؤثر فيهم أثراً. فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

وأما أهل البدو فمأكلهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقلّة الحبوب، حتى صار لهم ذلك عادة، وربما يظن أنها جبلة لاستمرارها. ثم الأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة.

وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعون إليه ترف الحضارة للذين هم بمعزل عنه، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها<sup>(١)</sup> [ظ ١٨٩/١]، ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن.

وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلّة الرطوبات والعفونات إن كانوا أهليين<sup>(٢)</sup> أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواغن.

ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم. فيحسن بذلك كله الهضم ويجود، ويفقد إدخال الطعام على الطعام، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض، فتقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذاك إلا للاستغناء عنه؛ إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو به إلى سكناه. ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ [غافر: ٨٥]، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣].

١ - في ظ: يخالطه.

٢ - أهل المكان أهولاً من باب قعد عمر بأهله فهو أهل، وقرية أهلة عامرة. وقد أطلق ابن خلدون الوصف على الأفراد أنفسهم، فيقصد بالأهليين المقيمين. والظاعن المسافر من ظعن ظعننا من باب نفع. (د وافي).

## ١- ٥ - ٣٠ - الفصل الثلاثون:

## في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدلُّ على الكلمات المسموعة الدالة على مافي النفس؛ فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية. وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان.

وأيضاً فهي تُطلع على مافي الضمائر، وتتأدَّى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة، فتقضي الحاجات، وقد دُفعت مؤنة المباشرة لها، ويُطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم. فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع.

وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم. وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة، إذ هو من جملة الصنائع، وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران. ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون. ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصراً وقراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً، لاستحكام الصنعة فيها، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه. وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.

وليس الشأن في تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم؛ وإنما يتعلم بمحاكاة الخط في كتابة الكلمات جملة<sup>(١)</sup>، ويكون ذلك [ظ ١٨٩/٢] من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة، وتتمكن في بنائه<sup>(٢)</sup> الملكة فيسمى مجيداً.

وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما

١ - عقب الدكتور وافي بقوله: من هذا يتبين أن الطريقة الحديثة التي تتبع الآن في تعليم الهجاء، والتي يُسميها علماء التربية، طريقة الجشتالت أو طريقة الكلمات والجمال، وهي التي تقضي بأن يبدأ في الهجاء برسم الكلمات والجمال كانت متبعة منذ عهد بعيد في المغرب والأندلس، وهي أمثل طريقة من الوجهة التربوية لمسايرتها للواقع من جهة ولطبيعة العقل الإنساني من جهة أخرى. فالواقع أن الكلمة هي التي لها مدلول في ذهن الطفل، أما الحرف فلا مدلول له. والعقل الإنساني ينتقل بطبيعته من إدراك الكل إلى إدراك أجزائه (جشتالت) لا العكس - ومن هنا يتبين خطأ ابن خلدون في تفضيله لطريقة المصريين في عهده وهي الطريقة التي تبدأ بالحروف في تعليم الهجاء.

٢ - وربما تكون: بنائه. أي: أصابعه!؟

بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمّى بالخط الحِميري. وانتقل منها إلى الحيرة<sup>(١)</sup> لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجديدين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر. ويقال: إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، ويقال: حرب بن أمية، وأخذها من أسلم بن سدره، وهو قول ممكن، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم:

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعاً وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وهو قول بعيد، لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة؛ والخط من الصنائع الحضرية. وإنما معنى قول الشاعر: أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها. فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال.

ورأيت في كتاب التكملة لابن الأبار<sup>(٢)</sup> عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي، من أصحاب مالك رضي الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ، عن عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم عن أبيه، قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا معشر قريش، خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون؟ قال: نعم. قلت: ومن اتخذتموه؟ قال: عن حرب بن أمية. قلت: ومن أخذه حرب؟ قال: من عبد الله بن جدعان. قلت: ومن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار، قلت: ومن أخذه الأنبار؟ قال: من طاريء طراً عليهم من أهل اليمن. قلت: ومن أخذه ذلك الطاريء؟ قال: من الخلجان بن قاسم كاتب الوحي لهود النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يقول:

ورأيي على غير الطريق يعير  
بها جرهم فيمن يسب وحمير

أفي كل عام سنة تحدثونها  
وللموت خير من حياة تسبنا

١ - هي مدينة قديمة كانت لبني المنذر ومن تقدمهم من ملوك العرب، مثل عمرو بن عدي اللخمي، وهو جد بني المنذر ومن بعده من أبنائه. وكانت من قبل عمرو لخاله جذيمة الأبرش الأزدي صاحب الزباء. وحربت الحيرة وبنيت الكوفة في الإسلام على ظهرها في سنة سبع عشرة للهجرة، بناها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد سعد بن أبي وقاص. انظر وفيات الأعيان (١/٦٧ و ٤٨٢).

٢ - التكملة للصلة (٢/٧٧٢ - ٧٧٤) رقم (١٩٠١).

[ظ ١/١٩٠] انتهى ما نقله ابن الأثير في كتاب التكملة، وزاد في آخره: حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حميرة في كتابه، عن أبي بجر بن العاصي، عن أبي الوليد الوقشي، عن أبي عمر الطلمنكي بن أبي عبد الله بن مفرح، ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس، عن محمد بن موسى بن النعمان، عن يحيى بن محمد بن خشيش بن عمر بن أيوب المغافري التونسي عن بهلول بن عبيدة التحيبي، عن عبد الله بن فروخ. انتهى.

وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية. إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون بحكمة المذاهب، ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق، لبون ما بين البدو والصناعة، واستغناء البدو عنها في الأكثر. وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد، أو نقول: إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول.

وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر. فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع<sup>(١)</sup>.

١ - عقب الدكتور وافي على هذا في نسخته بقوله: بعض ما ذكره ابن خلدون عن أصل الخط العربي صحيح، وكثير منه غير صحيح. وتحرير القول في هذا الموضوع نوجزه فيما يلي: اجتاز الرسم العربي خمس مراحل:

١ - فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقا من خط المسند (الرسم اليميني القديم). كما تدل على ذلك آثار اللغة العربية البائدة، وخاصة ثلاثة أنواع من النقوش وهي النقوش الليبية والنقوش النمودية والنقوش الصفوية. وخط المسند، أو خط الحميري كما يسميه ابن خلدون، مشتق من الرسم الفينيقي، ويشبهه من عدة وجوه. ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق، والأشكال الهندسية المنظمة التي يتألف منها كثير من حروفه. ويرسم متفرق الحروف.

٢ - ثم أخذ الرسم النبطي، وهو نوع من أنواع الرسم الآرامي يمتاز بأن معظم حروفه تتصل بما قبلها، في تدوين العربية على هذا الرسم القديم، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئا فشيئا حتى قضى عليه. وأقدم أثر عربي وصل إلينا بعد هذا التطور: هو نقش النمارة.

٣ - ثم ظهر في كتابة اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطي السابق، ويمثل للرسم العربي في أقدم أدواره. وبهذا النوع من الرسم دُونَ نقشا زيد وحروران. وكلاهما لا يجد من يعرف الرسم العربي الحالي كبير عناء في قراءته، وخاصة نقش حوران فإنه قريب جدا من الرسم الحالي.

٤ - ثم تأثر الرسم العربي بالرسم السرياني ودخلت فيه اصطلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادي، فتحول إلى رسم سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش الأثرية وحدها، كما كان شأن الرسم السابق، ودخل فيه نظام الإعجام للتمييز بين الحروف المتحددة الصورة المختلفة النطق (ب ت ث، ج ح خ، د ز، ر ز، س ش، ص ض.... الخ) ولكنه ظل طوال هذه الرحلة مقتصرًا على الرمز إلى الأصوات الساكنة وبجودا من علامة للتمييز بين الحرف المشدد والمخفف.



وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها<sup>(١)</sup>. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتضى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً ويتبع رسمه خطأً أو صواباً، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه؛ فاتبع ذلك وأثبت رسماً، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه<sup>(٢)</sup>.

٥- ثم أدخل في الرسم العربي نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة، واستخدم في ذلك ثلاثة أحرف وضعت في الأصل للرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة، وهي الهمزة والياء والواو. فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام ترمز أحياناً إلى ما وضعت في الأصل للرمز إليه (اكتب، يكتب، وعد) وترمز أحياناً إلى أصوات المد الطويلة (كاتب، دليل، ملوك) وأدخل فيه كذلك نظام الحركات، وهي علامات تشير إلى تحرك الحرف بصوت مد قصير وإلى خلوه من الحركة وإلى تشديده (الفتحة، الكسرة، الضمة، السكون، الشدة).

وأقدم أثر إسلامي وصل إلينا متضمناً بعض مظاهر من الإصلاحات التي أدخلت على الرسم العربي في المرحلتين الأخيرتين (٤ و ٥) هو حجر كشف في مصر، وم محفوظ في دار الآثار العربية في القاهرة وتدل عباراته على أنه كان نصباً على قبر رجل يدعى عبد الرحمن ابن خير أو جبر أو جابر أو جبير الحجري أو الحجازي ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ للهجرة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجري اللهم اغفر له وأدخله في رحمة منك.... الخ.

١ - قال الشيخ عبد الحي الكتاني في كتاب التراتيب الإدارية (٤٨/١ - ٤٩) عند حديثه عن المعلم الكافر: في الروض الأنف للسهيلي في الكلام على غزوة بدر (ص ٩٢) من الجزء الثاني قال: كان من الأسارى يوم بدر يكتب ولم يكن من الأنصار يومئذ أحد يحسن الكتابة فكان منهم من لا مال له فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلي سبيله فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار. قلت: وفي المطالع النصرية في الأصول الخطية لأبي الوفاء نصر الهوري المصري: لم تكثر الكتابة العربية في المدينة إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من صناديد قريش وغيرهم في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم فبذلك كثرت فيهم الكتابة وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته عليه السلام وبعده حتى بلغت عدة كتابه عليه السلام (٤٢) رجلاً هـ. وذكر الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين نقلاً عن ابن قتيبة: أن العرب كانت تعظم قدر الخط وتعهده من أجل نافع حتى قال عكرمة: بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى إن الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وظهور نفعه وأثره. قال الله لنبيه: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾ فوصف نفسه بأن علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعمة العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به في كتابه فقال: ﴿ون والقلم﴾ فأقسم بالقلم وما يخط بالقلم، وقد روي عن ابن عباس في قوله: ﴿يتونني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾ قال: يعني الخط. وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يوتي الحكمة من يشاء﴾ يعني الخط ﴿ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ يعني الخط. بتقديم وتأخير. قال بعضهم: وهذا يبطل ما قاله ابن خلدون عن جهلهم بالخط، فإن عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون قال ما قال عن تخمين.

٢- أي نبه العلماء على الرسم الصحيح في مواضعه.

ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيّل بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في ﴿لَا أَذْنَحْتُهُ﴾ [النمل: ٢٠] إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في ﴿بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم [ظ. ١٩٠/٢] أن في ذلك تزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط<sup>(١)</sup>. وحسبوا أن الخط كمال فزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجارة من رسمه. وذلك ليس بصحيح.

واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر، والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالة على مافي النفوس. وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً، وكان ذلك كمالاً في حقه، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتزهره عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها؛ وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية؛ فإن الكمال في حقه هو تزهره عنها جملة بخلافنا.

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة، واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط. وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه، فترقت الإجارة فيه، واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان، إلا أنها كانت دون الغاية. والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد.

ثم انتشر العرب في الأقطار والممالك؛ وافتتحوا إفريقية والأندلس واختط بنو العبّاس بغداد، وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية، وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه في الكوفة، في الميل إلى إجارة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء، واستحكمت هذه المخالفة في الأعصار<sup>(٢)</sup> إلى أن رفع رايتها ببغداد علي بن مقلة الوزير، ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب الشهير

١ - بل الذين حملهم على ذلك - والله أعلم - أنه قد مر في النفوس ورسخ أن الله عز وجل هو المتكفل بحفظ هذا الكتاب ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فلا مكان لوقوع تحريف فيه، ولا سيما أن جبريل كان يترل وينبه على ما يقع من سهو أو خطأ، فكيف يُقبل بقاء خطأ في النسخ والكتابة.

بابن البواب. ووقف سند تعليمها في المئة الثالثة وما بعدها، وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة حتى انتهت إلى المباينة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل **ياقوت** والولي **علي العجمي**، ووقف سند تعليم الخط عليهم، وانتقل ذلك إلى مصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء، ولقنّها العجم هناك، فظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباينة.

وكان **الخط البغدادي** معروف الرسم. وتبعه **الإفريقي** المعروف رسمه القديم لهذا العهد. ويقرب من أوضاع **الخط الشرقي**.

وتحيز ملك **الأندلس** بالأمويين فتميزوا بأحواهم من الحضارة والصنائع والخطوط [ظ ١٩١/١]، فتميز صنف خطهم **الأندلسي** كما هو معروف الرسم لهذا العهد.

وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر، وعظم الملك، ونفقت أسواق العلوم، وانتسخت الكتب، وأجيد كتبها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت، تناقص ذلك أجمع، ودرست معالم **بغداد** بدروس الخلافة، فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى **مصر** و**القاهرة**، فلم تزل أسواقها بها نافقة لهذا العهد، وله بها معلمون يرسمون للمتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع، وقد لقنّها حساً، وحذق فيها دُرْبَةً وكتاباً، وأخذها قوانين علمية، فتجيء أحسن ما يكون.

وأما أهل **الأندلس** فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في غُدوة المغرب وإفريقية، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفا عليه. ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرّسوا بجوارهم، إنما كانوا يفدون<sup>(١)</sup> على دار الملك بتونس، فصار **خط أهل إفريقية** من أحسن خطوط أهل الأندلس. حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحّدية بعض الشيء، وتراجع أمر الحضارة والترّف بتراجع العمران، نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجُهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص

العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسرُ محوُّها<sup>(١)</sup>، وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي، لقرب جوارهم، وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً، واستعمالهم إياهم سائر الدولة. ونسي عهد الخط فيما بُعد عن سُدّة الملك وداره كأنه لم يعرف، فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين ماثلة إلى الرداء بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع [ظ ٢/١٩١] فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول. والله أعلم<sup>(٢)</sup>.

وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب<sup>(٣)</sup> قصيدة من بحر البسيط<sup>(٤)</sup>، على رويّ الرأى يذكر فيها صناعة الخط وموادّها من أحسن ما كتب في ذلك<sup>(٥)</sup>، رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة، وأولها:

يَا مَنْ يَرِيدُ إِجَادَةَ التَّحْرِيرِ	وَيَرُومُ حَسْنَ الْخَطِّ وَالتَّصْوِيرِ
إِنْ كَانَ عَزْمُكَ فِي الْكِتَابَةِ صَادِقاً	فَارْغَبْ إِلَى مَوْلَاكَ فِي التَّيْسِيرِ
أَعِدِدْ مِنَ الْأَقْلَامِ كُلِّ مُثَقَّفٍ <sup>(٦)</sup>	صَلْبٍ يَصُوغُ صِنَاعَةَ التَّحْبِيرِ
وَإِذَا عَمِدْتَ لِبَرِيهِ فَتَوَخَّهِ	عِنْدَ الْقِيَاسِ بِأَوْسَطِ التَّقْدِيرِ
انْظُرْ إِلَى طَرْفِيهِ فَاجْعَلْ بَرِيهِ	مِنْ جَانِبِ التَّدْقِيقِ وَالتَّخْصِيرِ
وَاجْعَلْ لِحَلْفَتِهِ <sup>(٧)</sup> قَوَاماً <sup>(٨)</sup> عَادِلاً	يَخْلُو عَنْ التَّطْوِيلِ وَالتَّقْصِيرِ

١ - في الفصل الثامن عشر من هذا الباب وعنوانه: (فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدّها).

٢ - في ن: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾.

٣ - قال القلقشندي في صبح الأعشى (١٣/٣): أخذ عن ابن مقلة... وهو الذي أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الأقلام التي أسسها ابن مقلة.

٤ - أجزاء بحر البسيط هي: مستفعلن فاعلن أربع مرات. والقصيدية الآتية ليست من هذا البحر، بل هي من بحر الكامل وأجزاؤه: متفاعلن ست مرات. (د. وإي).

٥ - ومن آخر ما نظم عن الخط ألفية شعبان بن محمد الآثاري (٧٦٥ - ٨٢٨ هـ) المسماة: العناية الربانية في الطريقة الشعبانية. انظرها في مجلة المورد المجلد الثامن العدد الثاني (ص ٢٢١ - ٢٨٤).

٦ - ثقّف الشيء تثقيفاً: سواه وأقام المعوج منه.

٧ - الحلفة - بكسر الجيم وفتحها: من القلم، ما بين مبراه إلى سنته.

من جَانِبَيْهِ مُشَاكِلَ التَّقْدِيرِ  
 إِتْقَانَ طَبٍّ<sup>(٩)</sup> بِالْمَرَادِ خَبِيرِ  
 فَالْقَطُّ فِيهِ جَمْلَةٌ التَّدْبِيرِ  
 إِنِّي أَضِنُّ بِسِرِّهِ الْمُسْتَوْرِ  
 مَا بَيْنَ تَحْرِيفٍ إِلَى التَّدْوِيرِ  
 بِالْخَلِّ أَوْ بِالْحَصْرِ<sup>(١٣)</sup> الْمَغْصُورِ  
 مَعَ أَصْفَرِ الزَّرْنِيخِ وَالْكَافُورِ  
 الْوَرَقِ النَّقِيِّ النَّاعِمِ الْمَخْبُورِ  
 يَنَآئِ عَنِ التَّشْعِيثِ وَالتَّغْيِيرِ  
 مَا أَدْرَكَ الْمَأْمُولَ مِثْلُ صَبُورِ  
 عَزْمًا تُجَرِّدُهُ عَنِ التَّشْمِيرِ  
 فِي أَوَّلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّسْطِيرِ  
 وَلِرَبِّ سَهْلٍ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ  
 أَضْحَيْتَ رَبُّ مَسْرَّةً وَجَبُورِ  
 إِنْ الْإِلَهَ يُجِيبُ كُلَّ شَكُورِ  
 خَيْرًا تَخْلِفُهُ بَدَارُ غُرُورِ [ظ ١/١٩٢]  
 عِنْدَ التَّقَاءِ كِتَابُهُ الْمُنْشُورِ

وَالشَّقُّ وَسُّطُهُ لِيَبْقَى بَرِيهِ  
 حَتَّى إِذَا أَتَقَنْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ  
 فَاصْرُفْ لِرَأْيِ الْقَطِّ<sup>(١٠)</sup> عَزْمَكَ كُلَّهُ  
 لَا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أَبُوحَ بِسِرِّهِ  
 لَكِنَّ جَمْلَةً مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ  
 وَاللَّيْ<sup>(١١)</sup> دَوَاتَكَ بِالْذُّخَانِ<sup>(١٢)</sup> مُدَبَّرًا  
 وَأَضْفُفْ إِلَيْهِ مَغْرَةً<sup>(١٤)</sup> قَدْ صُوِّلَتْ<sup>(١٥)</sup>  
 حَتَّى إِذَا مَا خُمِّرْتَ فَاعْمَدِ إِلَى  
 فَاكْبِسْهُ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمَعْصَارِ<sup>(١٦)</sup> كِي  
 ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْثِيلَ<sup>(١٧)</sup> دَأْبَكَ صَابِرًا  
 ابْدَأْ بِهِ فِي اللُّوْحِ مُنْتَضِيًا لَهُ  
 لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدْيِ تَخْطُهُ  
 فَالْأَمْرُ يَصْعَبُ ثُمَّ يَرْجِعُ هَيِّنًا  
 حَتَّى إِذَا أَدْرَكَتَ مَا أَمَلْتَهُ  
 فَاشْكُرْ إِلَهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ  
 وَارْغَبْ لِكِفِّكَ أَنْ تَخْطُ بَنَانَهَا  
 فَجَمِيعُ فَعْلٍ الْمَرَّةِ يَلْقَاهُ غَدًا

٨ - القوام: العدل والاعتدال.

٩ - الطب - بالفتح -: الماهر الحاذق كالطبيب.

١٠ - قط القلم قطاً : قطع رأسه عرضاً في بريهِ.

١١ - لاق الدواة يليقها ليقة وليقاً وألقها: جعل لها ليقة، والليقة الصوفة أو الخرقه توضع في الدواة ويصب عليها المداد ويضغط عليها بالقلم فيبتل بالمداد فيكتب به.

١٢ - المادة السوداء التي تتكون من الدخان، وكان يصنع منها المداد.

١٣ - الحصرم: أول العنب ما دام أخضر.

١٤ - المغرة بسكون الغين وفتحها: طين أحمر.

١٥ - التصويل: إخراج الشيء بالماء. ثم وضعه على ما يشبه المنخل.

١٦ - المعصار: الذي يجعل فيه الشيء فيعصر.

١٧ - أي محاولة التشبه بأعمال الآخرين كأنه هم في تقليد خطوطهم.

واعلم أن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني. فلا بُدَّ لكل منهما أن يكون واضح الدلالة. قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣ - ٤]. وهو يشتمل على بيان الأدلة كلها، فالخط المجرد<sup>(١)</sup> كماله أن تكون دلالاته واضحة بإبانة حروفه المتواضعة، وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميزة عن الآخر، إلا ما اصطلاح عليه الكتاب في إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلاحوا على قطعها مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وكذا الراء والزاي والذال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها.

ثم إنَّ المتأخرين من الكتاب اصطلاحوا على وصل كلمات بعضها ببعض، وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم، فتستعجم على غيرهم. وهؤلاء كتاب دواوين السُّلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم، لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم، وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم. فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم. فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي، لأنها بمنزلة واحدة في عدم التواضع عليه. وليس يعذر في هذا القدر إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش؛ لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس، فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها، فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم يصير بمثابة المعَمَّى؛ وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه والطيور أو الأزهار، ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمائرهم بالكتابة، وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً قوانين بمقاييس استخراجها لذلك بمداركهم ويسمونها فك المعَمَّى. وللناس في ذلك دواوين مشهورة. والله العليم الحكيم.

## ١- ٥ - ٣١ - الفصل الحادي والثلاثون:

## في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاهر بالعراق والأندلس [ظ ١٩٢/٢]. إذ هو كله من توابع العمران، واتساع نطاق الدول<sup>(١)</sup>، ونفاق أسواق ذلك لديهما، فكثرت التأليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتيبة والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران.

وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقترضوا على الكتاب في الرق شريفاً للمكتوبات وميلانها إلى الصحة والإتقان.

ثم طما بحر التأليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرق عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذته الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت.

ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها، لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط. فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها، والفتيا إلى الحاكم بها، المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتن بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتياً، وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق؛ حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى، من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها، قد ذهبت وتمحضت زبدة في تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة، وصار القصود إلى ذلك لغواً من العمل، ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية واتصال سندها

بمؤلفيها، ليصحَّ النقلُ عنهم والإسنادُ إليهم. وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبّدة الطرق واضحة المسالك. ولهذا نجدُ الدّواوين المتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة، ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك، وأهل الآفاق يتناقلونها [ظ ١٩٣/١] إلى الآن، ويشدون عليها يد الضّمانة<sup>(١)</sup>.

ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله، لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبدادة أهله، وصارت الأُمّهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية، ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيح، فتستغلّق على متصفحها، ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقلّ النادر.

وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا، فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب، وإنما تتلقّى من تلك الدّواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك أيضاً ما يُتصدّى إليه بعضُ أئمتهم من التأليف، لقلّة بصرهم بصناعاته، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده. ولم يبقَ من هذا الرسم بالأندلس إلا آثار<sup>(٢)</sup> خفية بالأمحاء، وهي على الاضمحلال. فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب. ﴿والله غالبٌ على أمره﴾ [يوسف: ٢١].

وبيلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهلٌ على مبتغيه، لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكر بعد. إلا أن الخط الذي بقي من الإحادة في الانتساخ هنالك، إنما هو للعجم وفي خطوطهم. وأمّا النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد. والله - سبحانه وتعالى - أعلم، وبه التوفيق.

١ - ضن بالشيء يضمن ضناً وضنة وضّانة بالفتح: يخل، فهو ضنين.

٢ - الآثار: البقية من العلم تؤثر. قال الله تعالى: ﴿إيتوني بكتابٍ من قبل هذا أو آتارة من علم إن كنتم صادقين﴾ [الأحقاف: ٤٦].



## ١ - ٥ - ٣٢ - الفصل الثاني والثلاثون:

## في صناعة الغناء

هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات. وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون صوت، نصف صوت، وربع آخر، وخمس آخر، وجزءاً من أحد عشر من آخر. واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب. وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع، بل للملذوذ تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى، وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه. وقد يساق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تتخذ لذلك، فترى لها لذة عند السماع. فمنها لهذا العهد أصناف. منها ما يُسمونه الشَّبابَة، وهي قصبة جوفاء بأبخاش في جوانبها معدودة، ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأبخاش، ويقطع الصوت بوضع الأصابع [ظ ١٩٣/٢] من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعا متعارفاً، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه، وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يُسمّى الزلامى، وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة، ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها إليها، وتصوت بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثل ما يجري في الشَّبابَة.

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق. وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع إلى أن يكون أنفراج مخرجه في مقدار دون الكف في شكل بري القلم، وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه، فيخرج الصوت ثخيناً دويّاً، وفيه أبخاش أيضاً معدودة، وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب، فيكون ملذوذاً.

ومنها آلات الأوتار وهي جوفاء كلها، إمّا على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب، أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دُسر<sup>(١)</sup> جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها، ثم تقرع الأوتار إما بعود أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر، ويقطع

الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة. وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التلذذ بالمسموع.

ولنبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء: وذلك أن اللذة - كما تقرر في موضعه - هي إدراك الملائم. والمحسوس إنما تدرك منه كيفية، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلة.

فالملائم من الطعوم ما ناسب كفيته حاسة الذوق في مزاجها، وكذا الملائم من الملموسات، وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك، وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي.

وأما المرئيات [ظ ١٩٤/١] والمسموعات، فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها، فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها. فإذا كان المرئي متناسباً في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة، فتلذذ بإدراك ملائمتها.

ولهذا تجد العاشقين المستهترين في الحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله، وهو اتحاد المبدأ، وأن كل ما سواك إذا نظرته وتأملت رأيت بينك وبينه اتحاداً في البداية، يشهد لك به اتحادكما في الكون. ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشترك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به، بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التي هي اتحاد المبدأ والكون. ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة.

والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كفيئات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقة والضغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.

فأولاً أن لا يخرج من الصوت إلى ضده<sup>(١)</sup> دفعة، بل يتدرج، ثم يرجع كذلك، وهكذا إلى المثل، بل لا بُدَّ من توسط المُغَاير بين الصوتين. وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج، فإنه من بابه.

وثانياً: تناسبها في الأجزاء كما مرَّ أول الباب، فيخرج من الصَّوْتِ إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التنقلُ مناسباً على ما حصره أهل الصناعة. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة.

ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً، ويكون الكثير من الناس مطبوعاً عليه، لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمَّى العامة هذه القابلية بالمضمار.

وكثير من القُرَّاء بهذه المثابة يقرؤون القرآن فيجيدون في تَلَاَحِين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم.

ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب. وليس كل الناس يستوي في معرفته، ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم. وهذا هو التلحين الذي [ظ ١٩٤/٢] يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد ذكر العلوم، وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين، وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه. وليس المرادُ تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يُخْتَلَفَ في حظره، إذ صناعة الغناء مبينة للقرآن بكل وجه. لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين، واعتبار أحدهما قد يخلُّ بالآخر إذا تعارضا، وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن. فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه. وإنما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدَّمناه. فيردد أصواته ترديداً على نسب يدرِكها العالم بالغناء وغيره. ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محلُّ الخلاف. والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى، لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده، وليس مقام التذاذ<sup>(٢)</sup> بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم. وأما قوله

١ - في جميع النسخ: (إلى مده) وهو تحريف. (د. وافي).

٢ - في ن: التلذذ.

صلى الله عليه وسلم: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود»<sup>(١)</sup>. فليس المراد به التزديد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها. وإذا قد ذكرنا معنى الغناء، فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم إلى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة. لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفتناً في مذاهب الملذذات.

وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به؛ حتى لقد كان الملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة، ولهم مكانٌ في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدتهم وجامعهم ويغنون فيها، وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم، ومملكة من ممالكهم.

وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والسّاكنة [ظ ١٩٥/١]، ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينقطع على الآخر، ويسمونه البيت، بتلائم<sup>(٢)</sup> الطبع بالتجزئة أولاً، ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها. فلهجوا به، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب. وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم في إصابة المعاني وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك. وهذا التناسب الذي من أجل الأجزاء والمتحرك والسّاكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى. إلا أنهم لم يشعروا بما سواه، لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة، وكانت البداءة أغلب نخلهم. ثم تغنى الحداة منهم في حُداء إبلهم، والفتيان في فضاء خلواتهم، فرجعوا الأصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناءً، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين المعجمة والباء الموحدة. وعللها أبو إسحاق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقي، أي: بأحوال الآخرة. وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة

١ - أخرجه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣) (٢٣٦) عن أبي موسى رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود.

وأخرجه أحمد (٣٧/٦) (١٦٧) والنسائي (٢/٨٠ - ٨١) من حديث عائشة.

وأخرج أحمد (٣٤٩/٥) (٣٥٩) ومسلم (٧٩٣) (٢٣٥) من حديث بريدة.

وأخرجه أحمد (٣٦٩/٢) (٤٥٠) والنسائي (٢/١٨٠) من حديث أبي هريرة.

٢ - في ن: فتلائم.

وغيره. وكانوا يُسمُّونه السُّنَاد. وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف<sup>(١)</sup> الذي يرقص عليه ويمشي بالدُّفِّ والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم، وكانوا يسمون هذا الهزَج. وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها. ولا يبعد أن تتفطن له الطبائع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع.

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم. فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجروا ذلك شيئاً ما، ولم يكن الملبوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدَنهم ومذهبهم. فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب، وغنوا جميعاً بالعيدين والطناير والمعاذف والزَّمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم، وظهر بالمدينة نشيط الفارسي<sup>(٢)</sup> وطويس<sup>(٣)</sup> وسائب خاثر<sup>(٤)</sup> مولى عبيد الله بن جعفر، فسمعوا شعر العرب [ظ ١٩٥/٢] ولحنوه وأجادوا فيه، وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد<sup>(٥)</sup> وطبقته وابن سريج<sup>(٦)</sup>. وأنظاره. وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حمّاد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد. وأمعنوا في اللهو واللعب، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه، وجعل صنفاً وحده. واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكُرَج، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون ويثاقفون<sup>(٧)</sup>، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو. وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها. وكان للموصلين غلاماً

١ - هو بحر من بحور الشعر وأجزاؤه فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن مرتين.

٢ - انظر أخباره في الأغاني لأبي الفرج (٤٢/١٠) و(١٧٤/١٥) و(١٦٢/١٧).

٣ - انظر أخباره في الأغاني لأبي الفرج (٢٥٣/١) و(٤٢٨/٢) و(٢٧/٣ - ٤٣، ٣٣٧) و(٢١٧/٤).

٤٢٢، ٢٨٤ و(٣٢٣/٦).

٤ - انظر أخباره في الأغاني لأبي الفرج (٢٦/١) و(٢٧٩/٨ و ٣٢٣) و(٣٠٢/١٠) و(١٦٠/١٢).

و(١٧٦/١٥ و ٢١٩) و(٢٩٧/١٦ و ٣٠١).

٥ - أخباره في الأغاني مبنوثة بكثرة، انظر فهارس الأغاني.

٦ - مثل سابقه.

٧ - وتثاقفا: حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به.

اسمه زرياب<sup>(١)</sup> أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس، فبالغ في تكريمته، وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان، فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بإشبيلية بحر زاهر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العُدوة بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صُباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها.

وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهي أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعها. والله أعلم.

١ - هو علي بن نافع انظر أخباره في الأغاني (٣٥٦/١١). ونفع الطيب (٣٤٤/١ و ١٢٢/٣-١٣٣).

## ١- ٥ - ٣٣ - الفصل الثالث والثلاثون:

في أَنَّ الصَّنَائِعَ تَكْسِبُ صَاحِبَهَا عَقْلاً  
وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا في الكتاب<sup>(١)</sup>: أَنَّ النفس النّاطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محضاً، فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلاً فريداً<sup>(٢)</sup>. والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً، والحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة [ظ ١٩٦/١] من صنائع في شأن تدبير المنزل، ومعاشرة أبناء الجنس، وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها، وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع. وبيانه: أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل، ما دام ملتبساً بالكتابة، وتعود النفس ذلك دائماً. فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة<sup>(٣)</sup> فطنة وكَيْس<sup>(٤)</sup> في الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال. ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس، فقال: ديوانه، أي شياطين وجنون. قالوا: وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة.

ويلحق بذلك الحساب؛ فإن في صناعة الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق، يحتاج فيه إلى استدلال كثير، فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر. وهو معنى العقل. والله أعلم. وهو الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون. والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. [ظ ١٩٦/٢].

١ - أشار إلى ذلك في الفصل السادس عشر من هذا الباب وسيعرض لذلك في عدة فصول من الباب السادس.

٢ - في ن: مزيداً.

٣ - في ن: مزيد.

٤ - الكيس: خلاف الحُمق، والعقل.

### ١- الفكر الإنساني:

خاصية الإنسان.

تعريف الفكر.

مراتب الفكر: العقل التمييزي.

العقل التجريبي.

العقل النظري.

### ٢- عالم الحوادث الفعلية يتم بالفكر:

اشتمال عالم الكائنات على: الذوات.

والأفعال: مرتبة (بشر).

غير مرتبة (حيوان).

إدراك الفكر الترتيب بين الحوادث.

أول العمل آخر الفكرة، وأول الفكرة آخر العمل.

تفاضل الإنسانية تبعاً لقدرة الفكر على ربط الأسباب بالمسببات.

الفرق بين الملكة (الشطرنج) والطبع (الأسباب والمسببات).

### ٣- العقل التجريبي وكيفية حدوثه:

الإنسان مدني بالطبع.

العقل التجريبي العام.

العقل التجريبي الخاص.

الاستفادة من تجارب الكبار.

العقل التمييزي ⇨ العقل التجريبي ⇨ العقل النظري.

من لم يؤدبه والداه أدبه الزمان.

### ٤- علوم البشر وعلوم الملائكة:

العوالم المدركة بالوجدان:

عالم الحس.

فوق عالم الحس.

عالم الأرواح والملائكة: الدلالة عليه — الرؤيا المنامية.



— الرد على الفلاسفة في تقسيمه إلى عقول.

الفرق بين علوم الإنسان وعلوم الملائكة.

افتقار علوم الإنسان إلى صحتها.

الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب.

٥ — علوم الأنبياء صلوات الله عليهم:

صفاء نفوسهم.

لمحات الوحي.

الاستعداد الفطري، وما يرافق ذلك جسدياً.

٦ — الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب: [انظر ١ — ٦ — ٤]

٧ — العلم والتعليم طبعيان في العمران البشري:

استقامة حياة الفرد بالفكر...

ضرورة التلقين والتعليم.

٨ — التعليم للعلم من جملة الصنائع:

صفة المعلم.

مبررات إدراجها في الصنائع.

اختلاف المعلمين في طرائقهم ومصطلحاتهم.

أيسر طرق الملكة.

ارتقاء التعليم وترديه: أسبابه، وأمثلة من الشرق والغرب.

الرد على أخطاء في ذلك.

تعليم الحيوانات.

٩ — تكثر العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة:

برهانه.

نماذج.

١٠ — أصناف العلوم:

أ — العقلية: أساسها، ومسائلها.

ب — النقلية: أصولها، فروعها.

اختصاصها بالملة الإسلامية.

اختصاص كل ملة بعلوم نقلية: موقف الإسلام منها.

رقيها في المشرق وركودها في المغرب.

## ١١ — علوم القرآن:

أ — القراءات: تواتر القرآن الكريم.

نشأتها، تواترها.

القراءات السبع، وما ألحق بها.

الخلافا في تواتر كفيات الأداء.

العناية بها في الأندلس.

أئمة القراء: مجاهد، الداني، الشاطبي..

رسم المصحف: علاقته بالقراءات،

تعليل مغايرته للرسم العادي،

أهم كتبه.

ب — التفسير: نزول القرآن بلسان عربي مبين.

مقاصد القرآن.

بيان الرسول ﷺ للقرآن وتبليغه للصحابه.

رحلة التفسير من المشافهة إلى التدوين.

المفسرون الأوائل: الطبري، الواقدي، الثعالبي.

أصناف التفسير: — نقل: الآثار والأحاديث،

الإسرائيليات ومناقشتها.

ابن عطية، القرطبي.

— لغوي: تداخلها مع الصنف الأول.

الكشاف للزمخشري: اعتزاله، الرد عليه.

## ١٢ — علوم الحديث:

الناسخ والمنسوخ ورسوم الشافعي فيه.

الأسانيد وشروط صحة الحديث.

أنواع الحديث.

الأئمة الأوائل: مالك، محمد بن الحسن، الشافعي...

الكتب الستة: تعريف بها وبأهم شروحيها. والتوسع في دراسة الصحيحين.

كتب المصطلح: تنوعها، أبرز مؤلفيها.

الانصراف إلى الشرح وتحقيق الأسانيد.

أئمة الفقه والحديث: عناية الحنفية بالحديث.

الطحاوي وشروطه.

مؤلفات المتأخرين..

### ١٣ — علم الفقه:

تعريفه ومصادره.

أسباب اختلاف الفقهاء.

القراء — الفقهاء.

أهل الرأي وأهل الحديث: أصولهم، أئمتهم، توزعهم.

الظاهرية: أصولهم، أئمتهم، انقراضهم، ظهور ابن حزم.

الشيعة والخوارج: مؤلفاتهم، عدم انتشارها.

القياس — الإجماع.

الاجتهاد والتقليد.

أئمة المذاهب الأربعة: خصوصياتهم، عوامل انتشار مذاهبهم، أهم كتبهم.

### ١٤ — علم الفرائض:

تعريفه.

تعلقه بأحكام الميراث.

احتياجه إلى الحساب.

أشهر مؤلفاته.

أهميته.

### ١٥ — علم أصول الفقه والخلافات والجدل:

أصول الفقه: موضوعه، أغراضه، ثمرته.

أصول التشريع: تلقي الأحكام من القرآن في عهد الرسول ﷺ.

السنة، الإجماع، القياس، وما ألحق بها، وضعفها.

التمييز بين الصحيح وغيره من السنة.

الحاجة لقواعد اللغة وعلومها: أسبابه، أمثله.

تاريخ علم الأصول: أوليته، أهم مؤلفاته، الموازنة بينها.

### الخلافات:

منشؤها.

انتشارها.

أهميتها.

موازنة بين الخنفية والشافعية وبين المالكية.  
المؤلفات.

موضوعه.

أمثلة.

الجدل:

طرقه: طريقة البزدوي — طريقة العميدي، موازنة بينهما، المتأخرون.

١٦ — علم الكلام: موضوعه.

الأسباب والمسببات.

حدود الفكر الإنساني.

قوام التوحيد.

المطلوب من العبادات.

صفات الله عز وجل بين السلف والخلف.

آراء المعتزلة.

الأشعري وأتباعه.

الاستدلال على الخالق بين الأشاعرة والفلاسفة.

الرد على الفلاسفة.

حدود العقل.

عدم ضرورة علم الكلام.

أهميته للمتخصصين.

١٧ — المتشابه من الكتاب والسنة:

الفرق بين المحكم والمتشابه.

اختلاف العلماء في تحديدها.

تفويض علمها إلى الله.

ذم المتبعين لها.

إدخال ما ليس منها فيها.

المعتزلة والرد عليهم.

الأشاعرة وطرق الإثبات.

الحنابلة والتأويل المجازي.

المجسمة والمشبهة.

الظواهر الخفية كالوحي.. أشراط الساعة، وإخراجها من المتشابه.

أطوار العالم البشري.  
أنواع المدركات: عالم اليقظة وعالم النوم.  
أوضاع البشر بعد الموت ومدركاتهم.  
مدركات النوم والخلاف فيها.  
تفسير مدارك الأنبياء، والرد على ابن سينا.

## ١٨ — علم التصوف:

أصله، اشتقاقه.  
الإدراك والوجدان.  
المجاهدات وما ينشأ عنها.  
المقامات.  
محاسبة النفس.  
علم الفقهاء وعلم المتصوفة.  
تدوينه والمؤلفات فيه.  
الكشف والكرامات.  
الرياضة والكشف.  
الاستقامة.  
السحرة.  
أسباب إنكار علومهم.  
تفصيل وتحقيق: وحدة الوجود.  
غموض عبارات المتصوفة: نماذج، الرد عليهم.  
فصل: الحلول.  
تأثرهم بالإسماعيلية.  
سرقة الطباع.  
شرح أبيات الهروي الموهمة للوحدة.  
موقف الفقهاء من طرق التصوف.  
تذييل: التسليم بالمجاهدات والأذواق ومحاسبة النفس.  
فصل: التسليم بإثبات الكرامة. الفرق بينا وبين المعجزة. الرد على المنكر.  
الوجدانيات وعدم التعرض لها.  
الشطحات وأسبابها وموقف العلماء منها.

سبب قتل الحلاج.  
إخفاء الكرامة.

## ١٩ — علم تعبير الرؤيا:

عناية الأوائل به.  
رؤيا الأنبياء.  
السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب.  
حقيقة الرؤيا.  
أنواع الرؤيا.  
علامات الرؤيا الصادقة.  
حاجة الرؤيا إلى التعبير.  
تعاليمه وقواعده.  
أشهر كتبه.

## ٢٠ — العلوم العقلية وأصنافها:

يهتدي إليها الإنسان بفكره.  
غير مختصة بملة.  
أصنافها: الطبيعيات [الصناعات + الفلاحة]، الموسيقى، الإلهيات،  
العددية [الأرتماطيقي + الحساب + الجبر + المقابلة]،  
الهندسة [المساحة + المخروطات + الكرية]، الهيئة [الأزياج]،  
المنطق.  
عناية السابقين بهذه العلوم.  
انتشارها عند المسلمين.  
عوامل ازدهارها أو اضمحلالها.

## ٢١ — العلوم العددية:

الأرتماطيقي: موضوعه، أمثلة.

أهميته وعناية المتقدمين به.

عدم إفراده بالتأليف عند ابن سينا.

ضعف العناية به عند المتأخرين.

الحساب: موضوعه، أمثلة.

أهميته العملية والخلقية.

أشهر كتبه.

الجبر والمقابلة: موضوعه، أمثلة.

أشهر كتبه، وما أدخل على أصوله.

المعاملات: موضوعه وأشهر كتبه.

الفرائض: أهميته وأشهر كتبه.

## ٢٢ — العلوم الهندسية:

موضوعه، أمثلة.

كتب أفليدس: ترجمتها، مسائلها، اختصاراتها.

أهميتها في التفكير السليم.

هندسة المخروطات والكرات: الموضوع، الفوائد، أشهر الكتب.

المساحة: الموضوع، الأهمية.

المنظر (البصريات): موضوعه، أمثلة، أهميته، أشهر كتبه.

ابن الهيثم ومصنفاته.

## ٢٣ — علم الهيئة:

موضوعه، فوائده.

عناية اليونان بالرصد.

عناية المسلمين به.

بطليموس: كتبه، أهميتها، ترجمتها، اختصارها.

الأزياج: تعريفها، كتبها.

## ٢٤ — علم المنطق:

موضوعه.

المعلم الأول: كتابه، تفصيل أبحاثه، ما أضيف إليه، وما أخرج منه.

عناية المتأخرين بالمنطق: ما أخذوه أو رفضوه، أهم الكتب.  
هدم المنطق.  
هجر كتب المتقدمين.

## ٢٥ — الطبيعيات:

موضوعه.  
كتب أرسطو وترجمتها.  
كتب المسلمين.

## ٢٦ — علم الطب:

موضوعه.  
منافع الأعضاء.  
كتب جالينوس.  
كتب المسلمين.  
طب البادية: استمداده، انتشاره، المشهورون.  
طب النبي ﷺ.

## ٢٧ — الفلاحة:

موضوعه.  
عناية الأوائل به.  
اختلاطه بالسحر.  
كتاب الفلاحة النبطية: مزجه بالسحر، تجريده على يد المسلمين.  
استفادة الجريطي منه.  
اقتصار المتأخرين على دراسة شؤون النبات.

## ٢٨ — علم الإلهيات:

موضوعه.  
كتب أرسطو: تلخيصها، الرد عليها.  
مزجه بعلم الكلام عند المتأخرين.  
خلط المتصوفة علم الكلام والإلهيات بالتصوف.



## ٢٩ — علوم السحر والطلسمات:

موضوعه.

كتبه والمترجم منها.

حقيقة السحر.

نفوس السحرة.

عقوبة الساحر.

وجوده وانتشاره.

الفرق بين المعجزة والسحر.

كتب المجريطي والرازي.

أصناف السحرة في المغرب.

الفرق بين السحر والطلسمات: عند الفلاسفة.

عند علماء الشريعة.

الفرق بين السحر والكرامة.

الإصابة بالعين.

## ٣٠ — علم أسرار الحروف:

موضوعه.

الفرق بينها وبين السحر والطلسمات.

الفرق بينها وبين الكرامات والمعجزات.

الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء.

زاوية العالم للسبتي: موضوعها، وكيفية استخراج الأجوبة منها.

طرق أخرى للتنبؤ.

## ٣١ — علم الكيمياء (قلب المعادن):

موضوعه.

أشهر كتبه.

الرد على ما نسب للغزالي وخالد بن يزيد.

حجر الفلاسفة.

رسالة ابن بشرون في هذه الصناعة.

القول الفصل في صحة ذلك.

## ٣٢ — إبطال الفلسفة وفساد منتحلها: [انظر الفصل ٢٨].

ماوراء الحس لا يدرك إلا بالنقل.  
الرد على الفلاسفة في نظرية السعادة.  
الرد على الفلاسفة في نظرية استقلال الإنسان بتهذيب نفسه.  
عجزهم عن إثبات نظرياتهم مع مخالفتها للشرع.  
ثمرة أبحاثهم.

### ٣٣ — إبطال صناعة النجوم: [انظر الفصل ٢٩].

الرد على معرفة قوى الكواكب بالتجربة والملاحظة.  
الرد على معرفة قوى الكواكب بالوحي.  
الرد على بطليموس في الدلالة الطبيعية.  
مضار ذلك في الشرع والعقل والعمران.  
تحقيق كذب أصحاب هذه الصناعة.

### ٣٤ — إنكار ثمرة الكيمياء: [انظر الفصل ٣١].

ادعاءات الكيميائيون القدامى في قلب المعادن وتفنيد آرائهم.  
أدوات هذه الصناعة: الوسائل، النظريات، المؤلفات.  
الغش والتمويه.  
طباع صناعتها.  
انتشارها في المغرب.  
نماذج من طرقهم في تحويل المعادن.  
الخلاف بين الفلاسفة في صحة هذه الصناعة.  
ليست من الصناعات الطبيعية، وإنما من قبيل السحر.  
أسباب انحلال هذه الصناعة.

### ٣٥ — مقاصد التأليف:

نقل المعلومات: المشافهة، ثم الكتابة والتأليف.  
اختلاف العلوم النقلية تبعاً للملة.  
اختلاف كتب التاريخ تبعاً لنسبة مطابقة الواقع.  
انتفاء ذلك عن العلوم العقلية.  
الكتابة ومصطلحاتها وتنوع الخطوط الإنسانية.  
اللغة العربية واللغة العبرية: أهميتها، الخطوط المنسوبة لها..  
أنواع المقاصد: استنباط علم جديد.

شرح ما استغلق من بحوث سابقة.  
تصحيح ما وقع للسابقين.  
تكملة مسائل ناقصة من علم قديم.  
ترتيب مسائل غير مرتبة.  
تكوين علم مستقل من مسائل متفرقة.  
تلخيص المطولات..  
عدم الحاجة إلى مقاصد أخرى.  
الانتحال والسرقة.

### ٣٦ — كثرة التأليف عائقة عن التحصيل:

اختلاف المؤلفات في العلم الواحد بالطرق والمصطلحات.  
نماذج من الفقه المالكي.  
نماذج من علم النحو، وفضل ابن هشام.  
٣٧ — كثرة الاختصارات مخلة بالتعليم:

وصف المختصرات، مساوئها.  
أسباب إضرارها بالمتعلم.  
الفرق بين الملكة الناشئة عن الاختصارات أو المطولات.

### ٣٨ — وجه الصواب في التعليم:

التدرج في التلقين.  
المراحل الدراسية: عددها، أثر الذكاء في تقليلها.  
اختيار كتاب محدد لكل مرحلة.  
مواصلة الدراسة وعدم تفريقها.  
عدم خلط علمين على المتعلم.  
نصائح للمعلم والمتعلم.  
فصل: الفكر: مظاهره، طريقة تحصيل المعلومات.  
الاستعانة بطرق المنطق للاستدلال وإطراحه إذا تعذر الفهم.  
الفكر الطبيعي.

### ٣٩ — العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل:

أقسام العلوم: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات..  
علوم آلية كالعربية...

لا حرج من التوسع في الكلام على المقاصد.

خطأ المتأخرين في التوسع في الآليات..

٤٠ — تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه:

أثر تعليمهم القرآن في تكوينهم.

طريقة أهل المغرب.

طريقة أهل الأندلس.

طريقة أهل أفريقيا.

طريقة أهل المشرق.

أثر كل طريقة على المتعلم.

الطريقة المثلى.

٤١ — الشدة بالمتعلمين مضرة بهم:

أثر ذلك على الصغار.

الآثار السلوكية للشدة على المتعلم والأمم.

أحسن مذاهب التعليم.

وصية الرشيد لمعلم ولده.

٤٢ — الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعليم:

أثر المباشرة والتلقين.

استفادة الطرق المتعددة..

٤٣ — العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها:

أسباب ذلك.

إلحاق أهل الذكاء بهم.

الفرق بين الفكر المجرد والواقع.

العامي السليم الطبع.

٤٤ — حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم:

أسبابه.

نماذج من الأئمة..

اضمحلال العلوم من البلاد التي تقوضت حضارتها.

بقاء العلوم في البلاد موفورة الحضارة.

أمثلة.

٤٥ — إذا سبقت العجمة إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحقيق العلوم عن أهل اللسان العربي:

سرّه.

انتفاء ذلك عن الممازج للعرب قبل استحكام العجمة.  
أثر اللغة والنشأة في زوال العجمة.

٤٦ — علوم اللسان العربي:

أركانها، ضرورتها، أهمها.

علم النحو: موضوعه، من خصائص العربية.

نشأته وأسبابها، استنباط القواعد.

المدارس النحوية.

أعلامه.. المطولات، المختصرات، المنظومات.

أهمية ابن هشام..

موضوعه، المعجمات.

علم اللغة:

العين للخليل: مواده، طريقته، اختصاره.

أهم المعاجم.

فقه اللغة، الأفاظ، الفصيح.

السماع والنقل أساس اللغة.

الخلافاً في القياس.

موضوعه.

علم البيان:

أقسامه: البلاغة، البيان، البديع.

أشهر كتبها.

أسباب عناية المشاركة بها.

عناية المغاربة بعلم البديع.

العمدة لابن رشيق.

إعجاز القرآن.

الكشاف للزمخشري: عنايته بالبيان، أهميته، اعتزاله.

موضوعه.

علم الأدب:

ما يحتاجه الدارس له من العلوم.

أهم كتبه.

الشعر والغناء: تابعتيهما له، أهمية الأغاني لأبي الفرج.

٤٧ — اللغة ملكة صناعية:

أسبابه.

فساد اللسان العربي بخلطة الأعاجم.

تقاس الفصاحة بمقدار البعد عن الأعاجم.

نماذج.

٤٨ — لغة العرب لهذا العهد لغة مغايرة للغة مضر وحمر:

شرح حديث: «أوتيت جوامع الكلم».

لهجات البدو ودلالاتها وقواعدها.

أمثلة تطبيقية على النطق بالقاف.

٤٩ — لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر: [انظر

فصل ٤٧].

العامية والفصحى والصلة بينهما.

نماذج.

٥٠ — تعليم اللسان المضري:

عدم الاكتفاء بمخالطة أهل اللسان: أسبابه.

الأدوات المطلوبة.

٥١ — ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها:

تعريف صناعة العربية.

كيفية حصول الملكة.

صاحب الملكة مستغن عن القواعد: أمثلة.

طرق التعليم..

٥٢ — تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان، وتحقيق معناه، وبيان أنه لا يحصل غالباً

للمستعربين من العجم:

موضوعه.

أسبابه.

التفريق بين الأعجمي بالجنس والنشأة، والأعجمي بالجنس  
العربي بالنشأة واللغة.

٥٣ — أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحقيق هذه الملكة اللسانية التي  
تستفاد بالتعليم، ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب  
وأعسر:

أسبابه.

أمثله.

٥٤ — انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر:

الفرق بينهما.

أساليبها وفنونها.

القرآن الكريم.

السجع: أساليبه، ضعفه ومساوئه.

٥٥ — لا تتفق الإجادة في المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل:

أسبابه.

٥٦ — صناعة الشعر ووجه تعلمه:

الشعر عند العرب، وربما عند غيرهم.

مكانته عند العرب.

اختلاف أساليبه باختلاف أغراضه.

الأدوات المطلوبة.

حفظ الكثير من أشعار العرب.

تعريف الشعر، ما له وما عليه.

القرينة.

قصيدة في شؤون الصناعة الشعرية.

٥٧ — صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني:

عناية الصنعة بالألفاظ وترتيبها.

المعاني في الضمائر.

٥٨ — حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة المحفوظ: [انظر فصل ٥٦].

أمثلة للشعر والنثر الجيد والرديء.

تكيف النفس بما يرد عليها من الإدراكات.

قصور الفقهاء وأهل العلوم في البلاغة: أمثلة.

الموازنة بين الشعر والنثر بين الجاهلية والإسلام.

٥٩ — المطبوع من الكلام والمصنوع، وكيفية جودة المصنوع أو قصوره:

تعريف المطبوع وشروطه..

تعريف المصنوع.

التكلف من سمات عصر المؤلف: أمثلة.

٦٠ — ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر:

مكانة الشعر عند العرب.

المعلقات.

الشعر أول الإسلام.

رأي الإسلام في الشعر.

الشعراء الإسلاميون.

عناية الخلفاء إلى صدر الدولة العباسية بالشعر.

تحول الشعراء إلى التكسب بالشعر.

سبب النفور من الشعر.

٦١ — أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد:

وجود الشعر عند الأمم وفي الفصحى والعامية.

أمثلة للأغراض والطرائق..

الأصمعيات، البدوي، الحوراني، القيسي.

مناقشة إنكار بعض العلماء للشعر المخالف للفصحى.

نماذج من أشعارهم.



## ٦٢ — الموشحات والأزجال بالأندلس:

الموشحات: قواعده وأغراضه.

نشأته، والمخترع منه.

أشهر الوشاحين، ونماذج منها.

موشحات المشاركة: تكلفها، نماذج.

## الأزجال:

اللغة والقواعد.

أشهر الزجالين، ونماذج منها.

## عروض البلد عند أهل الأمصار:

القواعد، النشأة، أعلامه، نماذج منها.

تميز أهل فاس بهذا الفن.

أنواعه: المزدوج، الكاري، الملعبة، الغزل.

نماذج منها.

الموالي، القوما، كان كان، الدوبيت:

قواعده، طرقه، نماذج.

تذوق هذه الفنون: اختلاف أهل الأمصار في إحساسهم بها.

## خاتمة الكتاب:

تنبيهه على بذله جهده حسب الطاقة.

وظيفة مستنبط الفنون.

حثه اللاحقون على إكمال ما بدأه.

تاريخ الانتهاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.  
 ١- ٦- الفصل السادس من الكتاب الأول  
 في العلوم وأصنافها والتعلّم وطرقه وسائر وجوهه  
 وما يعرض في ذلك كله من الأحوال  
 وفيه مقدمة ولواحق

□ فالمقدمة في الفكر الإنساني الذي تميز به البشر عن الحيوانات، واهتدى به لتخصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والنظر في معبوده، وما جاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات في طاعته، ومملكة قدرته، وفضله به على كثير خلقه.

### ١- ٦- ١- الفصل الأول: في الفكر الإنساني

اعلم: أن الله سبحانه وتعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوانات فقط من بين سائر الكائنات والموجودات. فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرى.

والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]. والأفئدة: جمع فؤاد، وهو هنا الفكر، وهو على مراتب:

الأولى: تعقل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصورات<sup>(١)</sup>. وهو العقل التمييزي الذي يحصل منافعه ومعاشه

١ - عقب الدكتور وافي في نسخته بقوله: في الأصل: أكثر تصورات. وصوابه: أكثره تصورات. والتصورات في اصطلاح علماء المنطق هي إدراك مدلول المفردات ومهايا الأشياء، ويقابلها التصديقات، وهي إدراك النسبة أي: الحكم أو إسناد المحمول إلى الموضوع. فإدراك مدلول كل من الإنسان والحيوان في قولك: الإنسان حيوان. أي:

ويدفع مضاره.

الثانية: الفكر الذي يُفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم. وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً [ظ ١٩٧/١] إلى أن تتم الفائدة منها. وهذا هو المسمّى بالعقل التجريبي.

الثالثة: الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل. فهذا هو العقل النظري. وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيد معلوماً آخر من جنسها في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً آخر كذلك. وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله<sup>(١)</sup> وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية.

الوقوف على تعريف كل منهما وماهيته يسمى تصوراً، وإدراك الحكم أو النسبة أو إسناد المحمول إلى الموضوع. أي: إدراك الحكم على الإنسان بأنه من جنس الحيوان، يسمى تصديقاً. قال الأخصري في السلم: إدراك مفرد تصور عليم ودرك نسبة بتصديق وسم  
١ - الفصل في اصطلاح المناطق هو ما يميز نوعاً من أنواع الجنس ويفصله عن غيره؛ كالناطق الذي يميز نوعاً من الأنواع التي يشملها جنس الحيوان وهو الإنسان. (د. وافي).

## ١-٦-٢- الفصل الثاني: في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر

**اعلم:** أنَّ عالم الكائنات يشتملُ على ذواتٍ محضة كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها التي هي المعدن والنبات والحيوان، وهذه كلها متعلقات القدرة الإلهية، وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها. فمنها منتظم مرتب وهي الأفعال البشرية، ومنها غير منظم ولا مرتب وهي أفعال الحيوانات غير البشر.

وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع<sup>(١)</sup>. فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فلأجل الترتيب بين الحوادث لا بُدَّ من التفطن بسببه<sup>(٢)</sup> أو علته<sup>(٣)</sup> أو شرطه<sup>(٤)</sup>. وهي على الجملة مبادئه، إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها، ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخراً، ولا المتأخر متقدماً. وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخراً عنها. وقد يرتقي ذلك أو ينتهي، فإذا انتهى إلى آخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدأ بالمبدأ الأخير الذي انتهى إليه الفكر، فكان أول عمله، ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التي كانت أول فكرته.

**مثلاً:** لو فكر في إيجاد سقف يُكِنُّهُ، انتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط. فهو آخر الفكر. ثم يبدأ في العمل بالأساس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، وهو آخر العمل. وهذا معنى قولهم: أول العمل آخر الفكرة؛ وأول الفكرة آخر العمل. فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المراتب لتوقف بعضها على بعض؛ ثم يشرع في فعلها. وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير، وهو آخرها في العمل، وأولها في العمل هو المسبب الأول، وهو آخرها في الفكر. ولأجل العثور [ظ ١٩٧/٢] على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الأفعال البشرية. وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل. إذ

١ - قال الغزالي في مقاصد الفلاسفة (ص ١٨٨): يكون الترتيب بالوضع كقولك: بغداد قبل الكوفة إذا قصدت مكة من خراسان.... وأما بالطبع كقولك: الحيوانية قبل الإنسانية، والجسمية قبل الحيوانية، إذا ابتدأت من جهة الأعم. والمتقدم بالطبع: هو الذي لا يرتفع بارتفاع المتقدم عليه، ويرتفع المتقدم عليه بارتفاعه، كالواحد لا يرتفع بارتفاع الاثنين، في حين يرتفع الاثنين بارتفاع الواحد.

٢ - السبب: ما يتوصل به إلى أمر ما من غير تأثير فيه..  
٣ - العلة: ما يتوقف عليه وجود أمر ما من خارجه مؤثراً فيه.

٤ - الشرط: ما يتوقف وجوده على وجود شيء آخر.

الحيوانات إنما تدرك بالحواس، ومدرقاتها متفرقة خَلِيَّة من الربط، لأنه لا يكون إلا بالفكر. ولما كانت الحواس المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة، وغير المنتظمة إنما هي تبع لها، اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها؛ فكانت مسخرة للبشر، واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه. فكان كله في طاعته وتسخيره، وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان.

وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته. فمن الناس ممن تتوالى له السببية في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى.

واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج؛ فإن في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه، وإن كان هذا المثال غير مطابق؛ لأن لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع، لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

### ١-٦-٣- الفصل الثالث: في العقل التجريبي وكيفية حدوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم: إنَّ الإنسان هو مدنيُّ بالطبع. يذكرونه في إثبات النبوات وغيرها. والنسبة فيه إلى المدينة؛ وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاجٌ إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه، وتلك المعاونة لا بُدَّ فيها من المفاوضة أولاً، ثم المشاركة وما بعدها. وربما تفضي المعاونة عند اتحاد الأغراض إلى المنازعة والمُشَاجرة، فتنشأ المنافرة والمؤالفة والصدقة والعداوة ويؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم والقبائل. وليس ذلك على أي وجه اتفق كما بين الحمل من الحيوانات؛ بل للبشر - بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر [ظ ١/١٩٨] - كما تقدم - جعل ذلك<sup>(١)</sup> منتظماً فيهم<sup>(٢)</sup>، ويسرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية، ينكبون فيها عن المفاصد إلى المصالح، وعن القبيح إلى الحسن، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم. فيفارقون الحمل من الحيوان، وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انتظام الأفعال، وبعدها عن المفاصد.

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد، ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة، وبها تستفاد، لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات، وصدقها وكذبها يظهر قريباً في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له فيها، مقتنصاً له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلاً وتركاً، وتحصل في ملابسته الملكة في معاملة أبناء جنسه.

ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية ولا بُدَّ، بما تسعه التجربة من الزمن.

وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب من زمن التجربة إذا قلّد فيها الآباء والمشيخة والأكابر ولقن عنهم، ووعي تعليمهم، فيستغنى عن طول المعاناة في

١ - في ن: جعله.

٢ - المعنى: بل جعل الله هذه الأفعال منتظمة في أفراد النوع الإنساني بما خصهم به من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر.

تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها.  
ومن فقد العلم في ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه  
في التأديب بذلك، فيجري في غير مألوف، ويدركها على غير نسبة. فتوجد آدابه  
ومعاملاته سيئة الأوضاع، بادية الخلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه، وهذا  
معنى القول المشهور: من لم يؤدبه والداه أدبه الزمان. أي: من لم يلحق الآداب من  
معاملة البشر من والديه، وفي معانها المشيخة والأكابر، ويتعلم ذلك منهم، رجع إلى  
تعلمه بالطبع من الوقائع على توالي الأيام، فيكون الزمان معلمه ومؤدبه، لضرورة ذلك  
بضرورة المعاونة التي في طبعه. وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي  
الذي تقع به الأفعال كما بيناه. وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل  
العلوم، فلا يحتاج إلى تفسيره في هذا الكتاب. والله جعل لكم السمع والأبصار  
والأفئدة، قليلاً ما تشكرون<sup>(١)</sup>.

١ - نص الآية: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم...﴾ وفي آية أخرى: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ [المؤمنون: ٧٨].

## ١- ٦- ٤- الفصل الرابع: في علوم البشر وعلوم الملائكة

إننا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح [ظ ١٩٨/٢] وجود ثلاثة عوالم: أولها: عالم الحس، ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك، نعتبر الفكر الذي اختص به البشر، فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علماً ضرورياً بما بين جنبينا من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فنراه عالماً آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية، فنعلم أن هناك فاعلاً يبعثنا عليها من عالم فوق عالمتنا، وهو عالم الأرواح والملائكة، وفيه ذوات مدركة، لوجود آثارها فينا، مع ما بيننا وبينها من المغايرة.

وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته بالرويا وما نجد في النوم ويلقى إلينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحة منها؛ فنعلم أنها حق، ومن عالم الحق، وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك في الباطن، ويجول فيها بعد الغيبة عن الحس. ولا نجد على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا، فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلاً.

وما يزعمه الحكماء الإلاهيون في تفصيل ذواته وترتيبها المسماة عندهم بالعقول<sup>(١)</sup> فليس شيء من ذلك يقييني لاختلال شرط البرهان النظري فيه، كما هو مقرر في كلامهم في المنطق؛ لأن من شرطه أن تكون قضاياها أولية ذاتية، وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات، فلا سبيل للبرهان فيها، ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقبسه من الشرعيات التي يوضحها الإيمان ويحكمها. وأقعد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر؛ لأنه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية والروحانية، ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات، وفي عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعقل والمعقول، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل. فعلومهم حاصلة دائماً مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل ألبتة. وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد ألا تكون حاصلة. فهو كله مكتسب. والذات التي تحصل فيها صور المعلومات وهي النفس مادة هيولانية

١ - انظر في تفاصيل القول في هذا الموضوع كتاب: فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي... تأليف الدكتور وافي. الطبعة الثانية ص ٣٩ وما بعدها.



تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة [ظ ١٩٩/١] فيها<sup>(١)</sup> شيئاً شيئاً حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها متزدة بين النفي والإثبات دائماً بطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل وصار معلوماً افتقر إلى بيان المطابقة، وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكن من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التي في علوم الملائكة. وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكي فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع، للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب والصناعة، لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالتنزه عن المتناولات المهمة، ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجمع قواه. والله ﴿﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿﴾ [العلق: ٥].

## ١- ٦- ٥- الفصل الخامس: في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنا نجد هذا الصنف من البشر تعزيتهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية. فتجدهم متزهين عن الأحوال البشرية إلا في الضرورات منها، مقبلين على الأحوال الربانية من العبادة والذكر لله بما تقتضي معرفتهم به، مخبرين عنه بما يوحي إليهم في تلك الحالة من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطرهم الله عليها.

وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب<sup>(١)</sup>، وبيننا هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم، وأنّ الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسمانية البسيطة، وكما هو في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحززون والصدف من أفق الحيوان، وكما في القرودة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية. وهذا الاستعداد الذي في جانبي كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها.

وفوق العالم البشري عالم روحاني شهدت لنا به الآثار التي فينا منه، بما يعطينا من قوى الإدراك والإرادة. فذوات ذلك إدراك صرف وتعقل محض، وهو عالم الملائكة.

فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية [ظ ١٩٩/٢] استعداداً للإنسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات وفي لحظة من اللحظات، ثم ترجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر. وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملائكة. والأنبياء كلهم مفطورون عليه كأنه جبلة لهم. ويعالجون في ذلك الإنسلاخ من الشدة والغطيظ ما هو معروف عنهم.

وعلمهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطأ والزلل، ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية، لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية. لا يفارق علمهم الوضوح استصحاباً له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها؛ يتردد فيهم دائماً إلى أن تكمل هداية الأمة التي بعثوا لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك في أول الكتاب في أصناف المدركين للغيب، يتضح لك شرحه وبيانه، فقد بسطناه هنالك بسطاً شافياً، والله الموفق.

## ١-٦-٦- الفصل السادس:

## في أن الإنسان جاهلٌ بالذات عالمٌ بالكسب

قد بينا أول هذه الفصول<sup>(١)</sup> أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن الله تعالى ميّزه عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام، وهو العقل التمييزي، أو يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائباً وشاهداً على ما هي عليه وهو العقل النظري، وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه. ويبدأ من التمييز، فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]. فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولي فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها.

وانظر إلى قوله تعالى مبدأ الوحي على نبيه: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. أي: أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلاً له بعد [ظ. ١/٢٠٠] أن كان علقه ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي، وأشارت إليه الآية الكريمة، تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية وحالتها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٧ و ٩٢ و ١٠٤ و ١١١ و ١٧٠، والفتح: ٤].

## ١- ٦- ٧- الفصل السابع:

## في أنَّ العِلْمَ والتَّعليمَ طَبِيعِيٌّ فِي العِمْرَانِ البَشَرِيِّ

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْحَسِّ وَالْحَرَكَةِ وَالْغِذَاءِ وَالْكِنِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ وَالِاجْتِمَاعِ الْمُهَيَّئِ لِلذَلِكَ التَّعَاوُنِ، وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلِ بِهِ، وَاتِّبَاعِ صِلَاحِ أُخْرَاهُ، فَهُوَ مَفْكَرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتَرُّ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلْ اخْتِلَاجِ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ. وَعَنْ هَذَا الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الصَّنَائِعِ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جَبَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ بَلِ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ الطَّبَائِعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاغِبًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ، فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِدْرَاكٍ أَوْ أَخَذَهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَبْلُغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ، فَيَلْقَنَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَيَحْرَصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ. ثُمَّ إِنْ فَكَّرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَيَنْظُرُ مَا يَعْضُ لَهْ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ، وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِنْ حَاقَ الْعَوَارِضُ<sup>(٢)</sup> بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْضُ لَتِلْكَ الْحَقِيقَةِ عِلْمًا مَخْصُوصًا، وَتَتَشَوَّفُ<sup>(٣)</sup> نَفُوسُ أَهْلِ الْجِيلِ النَّاشِئِ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ، فَيَفْزَعُونَ<sup>(٤)</sup> إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ، وَيُجِئُ التَّعْلِيمُ مِنْ هَذَا. فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

١ - التي تكلم عليها في الباب الخامس. الفصل السادس عشر وتوابعه إلى آخر الباب.

٢ - تقسم العوارض إلى ذاتية: تلحق الشيء لما هو هو؛ وغريبة: تعرض لأمر خارج أعم أو أخص منه.

٣ - أي تتطلع وتطمح.

٤ - أي يرجعون.

## ١-٦-٨- الفصل الثامن: في أنَّ التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أنَّ الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلًا. وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها مشتركة بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم التحرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشَّادي<sup>(١)</sup> في الفنون دون من سواهما، فدل على هذه الملكة غير الفهم والوعي. والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة؛ ففتقر إلى التعليم، ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل.

ويدلُّ أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه. فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختصُّ به، شأن الصنائع كلها. فدلَّ على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم، وإلا لكان واحداً عند جميعهم. ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه، وكذا العربية، وكذا كل علم يتوجه<sup>(٢)</sup> إلى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة. فدلَّ على أنها صناعات في التعليم، والعلم واحدٌ في نفسه. وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتنقص الدول فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر. وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، واستبحر عمرانهما، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة، وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة. فلما خربتا انقطع التعليم عن<sup>(٣)</sup> المغرب إلا قليلاً كان [ظ. ٢٠٠/٢] في دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداءة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها، فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل. وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون<sup>(٤)</sup> لعهد أواسط المئة السابعة، فأدرك تلميذ<sup>(٥)</sup> الإمام ابن الخطيب<sup>(٦)</sup> فأخذ عنهم ولقن

١ - أي النابغ.

٢ - في ن: يحتاج.

٣ - في ن: من.

٤ - قاضي تونس (٦٢١-٦٩١). انظر ترجمته في الحلل السندسية (١٠٤٢/٤) وشجرة النور الزكية ص ١٩٣.

٥ - يطلق التلميذ على المفرد والجمع، والمراد هنا: الجمع.

٦ - هو الإمام فخر الدين الرازي.

تعليمهم وحذق في العقلیات والنقلیات، ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن. وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي<sup>(١)</sup> كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقر بها، وكان تعليمه مفيداً. فأخذ عنهما<sup>(٢)</sup> أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما جيلاً بعد جيل، حتى انتهى إلى القاضي محمد ابن عبد السلام<sup>(٣)</sup> شارح ابن الحاجب وتلميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه؛ فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها. وتلميذه ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد. إلا أنهم من القلة بحيث يُخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة<sup>(٤)</sup> في آخر المئة السابعة أبو علي ناصر الدين المشذلي<sup>(٥)</sup> وأدرك تلميذ أبي عمرو بن الحاجب، وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي<sup>(٦)</sup> في مجالس واحدة، وحذق في العقلیات والنقلیات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد، ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها. وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشذلي<sup>(٧)</sup> من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها؛ وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل. وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم.

**وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاوره والمناظرة في المسائل العلمية؛ فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها.** فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون. وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علم، وما أتاهاهم

١ - أصله من هكسورة من المغرب، ارتحل إلى المشرق، ثم عاد إلى تونس. انظر ترجمته في عنوان الدراية: ١٩٠-١٩٤.

٢ - أي ابن زيتون والدكالي.

٣ - (٦٧٦-٧٤٩هـ). مترجم في تاريخ قضاة الأندلس: ١٦١-١٦٣. وشجرة النور الزكية، ص: ٢١٠.

٤ - قبيلة من قبائل المغرب.

٥ - هو ابن أحمد بن عبد الحق الزواوي، تتلمذ على عز الدين ابن عبد السلام (٦٣١-٧٣١هـ). مترجم في الدرر الكامنة (١٣١/٥) وعنوان الدراية (٢٢٩-٢٣٠) وشجرة النور الزكية (٢١٧-٢١٨).

٦ - نسبة إلى قرافة وهي: بطن من مغافر نزل بعضها بمصر بجوار الفسطاط فسميت الخطة التي اختطت لهم ونزلوا فيها القرافة باسم بطنهم. وفي هذه الخطة مقبرة عامة بها قبر الشافعي رضي الله عنه، ومن ثم يطلق الآن في عامية القاهرة اسم القرافة على كل جبانة.

٧ - أبو موسى عمران بن موسى، صهر ناصر الدين (٦٧٠-٧٥٥هـ). مترجم في نيل الابتهاج (٢١٥-٢١٧) وشجرة النور الزكية (٢٢٠).

القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ [ظ ١/٢٠١] من سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك. ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف، هو<sup>(١)</sup> أقل ما يأتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها، فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرهما من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك.

وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين. ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم، فانحفظ بحفظه.

وأما الفقه بينهم فرسم خلوه، وأثر بعد عين. وأما العقلية فلا أثر ولا عين. وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران، وتغلب العدو على عامتها إلا قليل بسيف البحر، وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها. ﴿والله غالب على أمره﴾ [يوسف: ٢١].

وأما المشرق: فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة، وبحوره زاخرة، لاتصال العمران الموفور، واتصال السند فيه. وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلا أن الله تعالى قد أдал منها بأمصار أعظم من تلك، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر<sup>(٢)</sup> من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب. فلم تزل موفورة، وعمرانها متصلاً، وسند التعليم بها قائماً.

**فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع، حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم<sup>(٣)</sup> على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كياساً بفطرتهم الأولى، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها<sup>(٤)</sup> من نفوس أهل المغرب، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك، ويولعون به، لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع، وليس كذلك.**

**وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت الحقيقة الواحدة. اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع، فإن الأمزجة فيها منحرفة**

١ - في ن: هي.

٢ - يقصد به ما وراء نهر جيحون شرقاً.

٣ - أي أهل المشرق.

٤ - في ن: بفطرتهم.

والنفوس على نسبتها كما مر. وإنما الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب، فهو ما يحصل في النفس من آثار<sup>(١)</sup> [ظ ٢٠/٢] الحضارة من العقل الزيد كما تقدم في الصنائع، ونزيده الآن شرحاً وتحقيقاً.

وذلك أن الحضرة لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم، وجميع تصرفاتهم، فلهم في ذلك كله آدابٌ يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به<sup>(٢)</sup> من أخذ وترك، حتى كأنها حدود لا تتعدى. وهي مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلاً جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف.

ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحُمَرَ الإنسانية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجز أهل المغرب عن فهمها، فضلاً عن تعليمها.

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاءً في عقله، وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كَيْساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية وليس كذلك.

ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو، كيف تجرد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاتته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك. وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي. فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرتها، وليس كذلك. فإننا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته. وإنما الذي ظهر على أهل الحضرة من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم، فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه.

وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا، ظن المغفلون في بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح ففهمه. والله ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] وهو إله السماوات والأرض.



## ١- ٦- ٩- الفصل التاسع:

في أن العلوم إنما تكثر [ظ ١/٢٠٢] حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة والسبب في ذلك: أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع، وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والتراف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش<sup>(١)</sup>. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه. ولا بُدَّ له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها.

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زحرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها، وابتدع<sup>(٢)</sup> سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جعلتها تعليم العلم. وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مئتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا.

وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط<sup>(٣)</sup>، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً<sup>(٤)</sup> لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثر الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها. وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم وزحرت بحارها. والله يخلق ما يشاء [آل عمران: ٤٧].

١ - انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس.

٢ - أي: تفرقوا.

٣ - الرباط الذي يبنى للفقراء، ويجمع في القياس على ربط بضميتين ورباطات. وهو موضع المراقبة للحرب أو

٤ - أي حصة ونصيباً. العبادة.

## ١- ٦- ١٠- الفصل العاشر: في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم: أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين:

صنفٌ طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنفٌ نقليٌّ يأخذه عن غيره. والأول هي العلوم الحِكْمِيَّة الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقفَ عليها الإنسان بطبيعة فكره. ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وإنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقفَ نظره، وبحته على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسانٌ ذو فكر. والثاني: هي العلوم النقليَّة الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول؛ لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تدرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقليٌّ، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه.

وأصل هذه العلوم النقليَّة كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلَّق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة. ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقليَّة كثيرة. لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق<sup>(١)</sup>.

فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير. ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات. ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه. ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد، وهذه هي العقائد

الإيمانية في الذات والصفات [ظ ٢٠٣/١] وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام. ثم النظر في القرآن والحديث لا بُدَّ أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقفٌ عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها.

وهذه العلوم الثقيلة كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بُدَّ فيها من مثل ذلك. فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها. وأمّا على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها، وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة، والنظر فيها محظورة. فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن. قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّا وَإِهْكُمْ وَاحِدٌ»<sup>(١)</sup>.

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال: «أَلَمْ آتِكُمْ بِهَا بَيِّضَاءَ نَفِیَّةً؟ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»<sup>(٢)</sup>.

ثم إن هذه العلوم الشرعية الثقيلة قد نفقت أسواقها في هذه الملة بما لا مزيد عليه. وانتهدت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها، وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه، وأوضاع يستفاد منها التعليم. واختصَّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديده هذه الفنون.

وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه في الفصل قبله. وما أدري ما فعل الله بالمشرق؛ والظنُّ به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية، لكثرة عمرانها والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجرية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم. والله سبحانه وتعالى هو الفعّال لما يُريد، وبيده التوفيق والإعانة.

١ - أخرجه البخاري (٧٣٦٢ و ٧٥٤٢) من حديث أبي هريرة.

٢ - انظره في مجمع الزوائد (٤١٩/١ - ) رقم (٨٠٥ و ٨٠٨) والدر المنثور (٤٨/٢ و ١٤٧/٥).

## ١-٦-١١- الفصل الحادي عشر: في علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن: هُوَ كَلَامُ اللَّهِ المنزَّلُ على نبيه المكتوب بين دَفْتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة، إلا أن الصَّحابة رَوَوْه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه، وكيَفِيَّاتِ الحروف في أدائها، وتنوَّقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها [ظ ٢/٢٠٣] واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجُم الغفير. فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة. وربما زيدَ بعد ذلك قراءات أُخرُ لحقت بالسبع، إلا أنها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل<sup>(١)</sup>. وهذه القراءات السبعُ معروفة في كتبها. وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها لأنها عندهم كِيَفِيَّاتٌ للأداء وهو غير منضبط، وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن، وأباه الأكثر، وقالوا بتواترها. وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمَد والتسهيل لعدم الوقوف على كِيَفِيَّته بالسمع، وهو الصحيح.

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة، وعلماً مفرداً، وتناقله الناس بالمشرق والأندلس في جيل بعد جيل، إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراءة بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافراً. واختصَّ مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنَفَقَتْ بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً، وبالقراءات خصوصاً. فظهر لعهد أبي عمرو الدَّاني، وبلغ الغاية فيها، ووقفت عليه معرفتها، وانتهت إلى روايته أسانيدُها، وتعددت تأليفه فيها، وعوَّل الناس عليها، وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له، ثُمَّ ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم ابن فيرة من أهل شَاطِبة، فعمد إلى تهذيب ما دوَّنه أبو عمرو وتلخيصه، فنظم ذلك كله في قصيدة لغز<sup>(٢)</sup> فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من

١ - ذهب الأئمة إلى أن ما فعله الإمام مجاهد في كتابه السبعة لم يكن يريد حصر تلك القراءات ونفي ما عداها، ولذلك أشكل على من أتى بعده فهم مراده، وقد ردَّ على ذلك أبو شامة المقدسي في كتابه المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز، وانظر تفصيل ذلك في كتاب الإتيان في علوم القرآن.

٢ - اشتهر باسم الشَّاطِبية نسبة إلى مؤلفها أبي القاسم الشَّاطِبي (من أهل شاطبة) وهو من أشهر متون القراءات.

الاختصار، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً، وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس.

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضاً وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطية، لأن فيه حروفاً كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء في ﴿بأييدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وزيادة الألف في ﴿لأَذْنَحْنَهُ﴾ [النمل: ٢١] و﴿لأوضحوا﴾<sup>(١)</sup>. والواو في ﴿جَزَوْا الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩، والحشر: ١٧]، وحذف الألفات في مواضع دون أخرى [ظ ٢٠٤/١]، وما رسم فيه من التاءات ممدوداً والأصل فيه مربوط على شكل الهاء، وغير ذلك. وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط<sup>(٢)</sup>. فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط وقانونه، احتيج إلى حصرها فكتب الناس فيها أيضاً عند كتبهم في العلوم، وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني المذكور، فكتب فيها كتباً من أشهرها كتاب المقنع، وأخذ به الناس وعولوا عليه، ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء، وولع الناس بحفظها. ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه، وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه. ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافاً كثيراً وعزاه لناقله، واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم.

وأما التفسير فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه.

وكان يترل جُملاً جُملاً، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الواقع، ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون ناسخاً له.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين الجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه، كما علم من قوله

١ - في قوله تعالى: ﴿وَلَا وَضَعُوا لِحَلَالِكُمْ﴾. وهي فقرة من آية في سورة التوبة [٤٧]. ويلاحظ أن كلمة ولأوضحوا مرسومة بدون ألف زائدة في المصاحف المطبوعة، إلا أنها مثبتة عند من كتبوا في رسم المصحف من أمثال السيوطي في كتابه التحرير في علم التفسير.

٢ - تقدم ذلك في الفصل الثلاثين من الباب الخامس.

تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]. أنها نعي النبي صلى الله عليه وسلم، وأمثال ذلك.

ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم، ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علومًا، ودونت الكتب، فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك إلى الطبري والواقدي والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين، فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار.

ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لا يرجع [ظ ٢٠٤/٢] فيها إلى نقل ولا كتاب، فتنوسى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان، فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب وعلى منهاج<sup>(١)</sup> بلاغتهم. وصار التفسير على صنفين:

تفسير نقلي مسندٌ إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا؛ إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك: أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم. ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك.

وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك. إلا أنهم بعد صيتهم

وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور [ظ ١/٢٠٥] بالمشرق.

**والصنف الآخر من التفسير** هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة. نعم قد يكون في بعض التفاسير غالباً.

ومن أحسن ما اشتمل على هذا الفن من التفاسير كتاب **الكشاف للزمخشري** من أهل خوارزم العراق. إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في أي القرآن من طرق البلاغة. فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكانه، مع إقرارهم بفسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة. وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله. فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو **شرف الدين الطيبي** من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة. فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة. و﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

## ١- ٦- ١٢- الفصل الثاني عشر: في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ الْحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ:

فإن فيها<sup>(١)</sup> ما ينظرُ في ناسخه ومنسوخه، وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله تعالى بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإن كان عامّاً للقرآن والحديث، إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره، وبقي ما كان خاصّاً بالحديث راجعاً إلى علومه. فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعيّن أن المتأخر ناسخ.

ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه. وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم [ظ ٢٠/٢] الحديث<sup>(٢)</sup>: معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسمائهم، وكيفية أخذ بعضهم عن بعض وأحوالهم وطبقاتهم، واختلاف اصطلاحاتهم.

وتحصيل ذلك أن الإجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بشرط أن يغلب على الظن صدقه، فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن، وذلك<sup>(٣)</sup> بالنظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجتهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط<sup>(٤)</sup>. وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام

١ - في ن: لأن منها.

٢ - في ظ: وهي علوم الحديث ومعرفة القوانين.

٣ - في ظ: وذلك بالنظر في أسانيد الحديث بمعرفة رواته.

٤ - في ظ: بالعدالة والضبط، ولا تعدو البراءة من السهو والغفلة بوصف عدول الأمة لهم بذلك، ثم تفاوت مراتبهم فيه، ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض بسماع الراوي من الشيخ قراءته عليه أو سماعه يقرأ عليه، وكتابة الشيخ له، ومناولته أو إجازته في الصحة والقبول منقول عنهم. وأعلى مراتب المقبول عندهم الصحيح، ثم الحسن. ودون مراتبها: الضعيف ويشمل على المرسل والمنقطع والمعضل والمعلل والشاذ والغريب والمنكر. فمنها ما اختلفوا في رده، ومنها ما أجمعوا عليه. وذلك شأنهم في الصحيح، فمنه ما أجمعوا على قبوله وصحته، ومنها ما اختلفوا فيه. وبينهم في تفسير هذه الألقاب اختلاف كبير. ثم أتبعوا ذلك بالكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو



الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على القبول أو الترك.  
وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه  
واحداً واحداً.

وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصافها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي  
نقل عنه، وبسلامتها من العلل الموهنة لها، وتنتهي بالتفاوت إلى طريقين، فيحكم بقبول  
الأعلى ورد الأسفل، ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن.  
ولهم في ذلك ألفاظ، اصطالحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح،  
والحسن، والضعيف، والمرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذ، والغريب، وغير ذلك من  
ألقابه المتداولة بينهم. وبوئبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة الشأن<sup>(١)</sup>  
أو الوفاق.

ثم النظر في كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة،  
وتفاوت رتبها، وما للعلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد.  
ثم اتبعوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف  
أو مفترق منها أو مختلف، وما يناسب ذلك.

هذا معظم ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه. وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور  
السلف من الصحابة والتابعين معروفة [كل] عند أهل بلده، فمنهم بالحجاز، ومنهم  
بالبصرة والكوفة من العراق، ومنهم بالشام ومصر، والجميع معروفون مشهورون في  
أعصارهم. وكانت طريقة أهل الحجاز في أعصارهم في الأسانيد أعلى من سواهم وأمتن  
في الصحة، لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة، [ظ ١/٢٠٦] وتحافهم عن قبول  
المجهول الحال في ذلك<sup>(٢)</sup>.

مشكل أو تصحيف أو مفترق. ووضعوا لهذه الفصول كلها قانوناً كفيلاً ببيان تلك المراتب والألقاب وسلامة  
الطرق عن دخول النقص فيها.

وأول من وضع في هذا القانون من فحول أئمة الحديث أبو عبد الله الحاكم. وهو الذي هذبه وأظهر محاسنه،  
وتوالياه فيه مشهورة. ثم كتب أئمتهم فيه من بعده وأشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمرو ابن الصلاح.  
كان في أوائل المئة السابعة وتلاه محيي الدين النووي. يمثل ذلك. والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما تحفظ به السنن  
المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها أو ردها.

واعلم أن رواة السنة من الصحابة والتابعين معروفون في أمصار الإسلام منهم بالحجاز والكوفة والبصرة. ثم  
بالشام ومصر. والجميع معروفون ومشهورون في أمصارهم. وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى من  
سواهم...

١ - في ن: اللسان.

٢ - في ظ: أهل الحجاز من بينهم أعلى وأمتن في الصحة، بتحافهم من قبول المستورين.

وسيد<sup>(١)</sup> الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضي الله تعالى عنه، ثم أصحابه مثل الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وابن وهب وابن بكير والقعني ومحمد بن الحسن، ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل في آخرين من أمثالهم.

وكان علم الشريعة في مبدإ [هذا] الأمر نقلاً صرفاً لا نظراً ولا رأياً ولا تعمقاً في القياس، شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها، وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ على طريقة الحجازيين، أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه، ورتبه على أبواب الفقه.

ثم عني الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة الحجازية والعراقية وغيرهما. [وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين، وقد يتحد في بعض الأحاديث. وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشتمل عليها]<sup>(٢)</sup>.

وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره، فأوسع نطاق الرواية، فخرّج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح، وجمع طرق الحجازيين<sup>(٣)</sup> والعراقيين والشاميين. واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه، وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب. بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث، فتكررت لذلك أحاديث في الأبواب باختلاف معانيها كما أشرنا إليه. فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث ومئتين تكررت منها ثلاثة آلاف<sup>(٤)</sup>، وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب.

ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده الصحيح، حذا فيه حذو البخاري في نقل الجمع على صحته<sup>(٥)</sup>، وحذف المتكرر منها، وجمع الطرق والأسانيد، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله، وقد استدرك الناس عليهما في ذلك بما أغفلا على شروطهما<sup>(٦)</sup>.

١ - في ن: وسند.

٢ - في ظ: وقد تتحد في بعض الأحاديث ويتعدد ويكرر الحديث في أبواب الفقه باختلاف المعاني التي اشتمل عليها.

٣ - في ن: فجمع الطرق التي للحجازيين.

٤ - في ن: فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومئتين منها ثلاثة آلاف مكررة. وعلق على ذلك الهوريني بقوله: قوله تسعة، الذي في النواوي عن مسلم أنها سبعة بتقديم السين فحرره.

٥ - في ن: عليه.

٦ - أي: بالأحاديث التي أغفلاها مع أنها صحيحة على شرطهما.

ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِي وَأَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِي وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِي فِي السَّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ، وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْعَمَلِ، إِمَّا مِنْ الرِّتْبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْإِسْنَادِ وَهُوَ الصَّحِيحُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَإِمَّا مِنْ الَّذِي دُونَهُ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلسَّنَةِ وَالْعَمَلِ بِهَا.

وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَعْتَمَدَةُ فِي الْمِلَّةِ، وَهِيَ أَمَهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي السَّنَةِ. [فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجَعُ إِلَى هَذِهِ فِي الْأَغْلَبِ].

وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ. وَرَبْمَا يَفْرَدُ عَنْهَا النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ فَيَجْعَلُ فَنَاءً بِرَأْسِهِ، وَكَذَا الْغَرِيبُ، وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفُ مَشْهُورَةٍ، ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ].

وَأَلْحَقَ بِهَذِهِ الْخَمْسَةِ مَسَانِيدَ أُخْرَى كَمُسْنَدِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ وَالْبَزَارِ وَعَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ وَالدَّارِمِيِّ وَأَبِي يَعْلَى الْمُوَصِّلِيِّ وَالْإِمَامِ أَحْمَدَ [ظ ٢٠٦/٢] قَاصِدِينَ فِيهَا الْمُسْنَدَاتِ عَنِ الصَّحَابَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا بِهَا. هَكَذَا قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ.

وَفِي رَوَايَةٍ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِابْنَةِ عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْمُسْنَدِ - وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَحَدٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ - وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَرَأَ عَلَيْنَا الْمُسْنَدَ وَقَالَ: هَذَا كِتَابٌ [قَدْ جَمَعْتَهُ وَ] انْتَقَيْتَهُ مِنْ [أَكْثَرِ مِنْ] سَبْعِ مِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ، فَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَلَمْ يَجِدُوهُ فِيهِ فَيَلِيسُ بِحُجَّةٍ<sup>(١)</sup>. فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي مُسْنَدِهِ يَصَحُّ الْإِحْتِجَاجُ بِهِ، عَكْسُ مَا قَالَ ابْنُ الصَّلَاحِ. نَقَلْتَهُ مِنْ مَنَاقِبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ لِابْنِ الْجُوزِيِّ.

وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَكْثَرُوا، وَمِنْ فَحُولِ عُلَمَائِهِ وَأَثْمَتِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ وَتَأْلِيفُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ، وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مُحَاسَنَهُ.

وَأَشْهَرُ كِتَابٍ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ، كَانَ لِعَهْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ. وَتَلَاهُ مُحَمَّدِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>.

وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَغْزَاهُ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا يَحْفَظُ بِهِ السَّنَنُ الْمُنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ حَتَّى يَتَّعِينَ قَبُولَهَا أَوْ رَدَّهَا.

وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَاسْتِدْرَاكُهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ؛ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ عَلَى تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاحُقِ عَصُورِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا

١ - - فِي مَنَاقِبِ أَحْمَدَ لِابْنِ الْجُوزِيِّ، ص ١٩١-١٩٢: فَمَا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ فَارْجِعُوا إِلَيْهِ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ فِيهِ وَإِلَّا فَيَلِيسُ بِحُجَّةٍ.

٢ - كِتَابُ ابْنِ الصَّلَاحِ يُسَمَّى الْمَقْدَمَةُ وَلَهَا شُرُوحٌ وَإِخْتِصَارَاتٌ، مِنْهَا لِلنَّوَوِيِّ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَالتَّقْرِيبِ.

ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر؛ هذا بعيدٌ عنهم. وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدِها إلى مؤلفيها، وعَرَضَ ذلك على ما تقرر في علم الحديث من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة، من مبدئها إلى منتهاها. ولم يزدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا في الأقل<sup>(١)</sup>.

**فأما صحيح البخاري** وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه، واستغلغوا منحاه، من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في التفقه في التراجم، لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق. ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها، ومن النظر [في تراجمه] لبيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في ضمنها؛ فقد وقع له في كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التي في ضمنها؛ وطال كلام الناس في بيانها، كما وقع في كتاب الفتنة في الباب الذي ترجم فيه بقوله: باب تخريب البيت ذي السويقتين من الحبشة، ثم قال في الباب: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]. ولم يزد على ذلك شيئاً [ظ ١/٢٠٧]. وخفي على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب.

**فمنهم من قال:** كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة بحسب ما تيسر له، وتوفي قبل أن يستوفي حشو التراجم، فروي الكتابُ كذلك. وسمعت من أصحاب القاضي ابن بكار قاضي غرناطة - واستشهد في واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبع مئة - وكان قائماً على صحيح البخاري، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية بأن ذلك مشروع لا مقدر، لأن الإشكال إنما جاء من تفسير: ﴿جَعَلْنَا﴾ ب: قدرنا. وإذا كان بمعنى: شرعنا. لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين إياها. سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات البليقي عنه. وكان من أجلّة تلاميذه. ومن شرحه ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين

١ - في ن: القليل.

٢ - لم يرد هذا الباب في النسخ التي بأيدي الناس من صحيح البخاري، وإن ذكر حديث ذي السويقتين في كتاب الحج في موضعين (١٥٩١ و ١٥٩٦) من حديث أبي هريرة رفعه: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. وأحسب والله أعلم، أن من ذهب إلى ذلك من أمثال المصنف وشيوخه قد نسبوا ذلك إلى البخاري ظناً لتكرر ذكر تراجم البخاري عندهم، فنسبوا كل عويصة إليه؟! أو أن ذلك في نسخة من النسخ المغاربية التي لم تصل إلينا..

ونحوهم.

ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دينٌ على الأمة. يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار. وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به، وأكبوا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري.

قال ابن الصلاح: إنما يفضل على كتاب البخاري بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخاري كتابه من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه. وأكثر ما وقع له ذلك في التراجم.

وأملئ الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحاً وسماء: المعلم بفوائد مسلم، اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه.

ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتمامه وسماء: إكمال المعلم، وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما، فجاء شرحاً وافياً.

وأما كتب السنن الأخرى الثلاثة<sup>(١)</sup>، وفيها معظم ما أخذ<sup>(٢)</sup> الفقهاء، فأكثر شرحها في كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث، فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التي اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة.

واعلم أن الأحاديث قد تميّزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح، وحسن، وضعيف، ومعلول، وغيرها، ميزها أئمة الحديث وجهابذته وعرفوها، ولم يبقَ طريقٌ في تصحيح ما لم يصح من قبل<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديثٌ بغير سنده وطريقه يفتنون [ظ ٢٠٧/٢] إلى أنه قد قلبَ عن وضعه. ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال: لا أعرف هذه، ولكن حدثني فلان، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، ورد كل متن إلى سنده، فأقروا له بالإمامة. واعلم أيضاً: أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه البضاعة<sup>(٤)</sup> والإقلال.

١ - يقصد سنن السجستاني والترمذي والنسائي.

٢ - يعني الأدلة والأصول التي أخذ منها الفقهاء أحكام الشريعة.

٣ - قد ذهب ابن خلدون في ذلك مذهب ابن الصلاح، وإن كان ابن الصلاح قد خالف نفسه بتصحيح وتضعيف أحاديث لم يرد فيها بيان من قبل.

٤ - في ن: الصناعة.

فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال: إنه إنما بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها إلى خمسين، ومالك رحمه الله: إنما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلاث مئة حديث أو نحوها<sup>(١)</sup>. وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده ثلاثون ألف حديث<sup>(٢)</sup>.

ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك، وقد يقول بعض المتعصبين<sup>(٣)</sup> المتعسفون إن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، ولهذا قلت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة، ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله.

وإنما أقل<sup>(٤)</sup> منهم من أقل<sup>(٥)</sup> الرواية لأجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل التي تعرض في طرقها، سيما والجرح مقدّم عند الأكثر، فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك، فتقل روايته لضعف الطرق. هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر.

والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعف الحديث إذا عارضه العقلي القطعي<sup>(٦)</sup>، فاستصعب، وقلت من أجلها روايته، فقلت حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً، فحاشاه من ذلك. ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره ردّاً وقبولاً.

وأما غيره من الحديثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم. والكل عن اجتهاد. وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم.

روى الطحاوي فأكثر وكتب مسنده، وهو جليل القدر، إلا أنه لا يعدل الصحيحين، لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم [ظ ١/٢٠٨] في كتابيهما مجمع عليه<sup>(٧)</sup> بين الأمة كما قالوه، وشروط الطحاوي غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره.

١ - علق الهوري على ذلك بما يلي: الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديثه، أولها خمس مئة. وثانيها سبع مئة، وثالثها ألف وثيف، ورابعها: ألف وسبع مئة.

٢ - في ن: خمسون ألفاً.

٣ - وفي الطبقات المتداولة: (المبغضين)

٤ - في ن: قلل.

٥ - في ن: قلل.

٦ - في ن: عارضها الفعل النفسي.

٧ - في ن: عليها.

فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السُّننَ المعروفة عليه لتأخر شروطه عن شروطهم. ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الإجماع على صحة ما فيهما على الشروط المتفق عليها. فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق الناس بالظنِّ الجميل بهم، والتماسِ المخارجِ الصحيحة لهم، والله سبحانه وتعالى أعلم بما في حقائق الأمور.

ثمَّ من عُلُومِ الحديثِ تصنيفُ هذا القانون في الكلام على الأحاديثِ واحداً واحداً في أبوابها وتراجمها في تفاسير هذه الأسانيد، كما فعله الحافظ أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم والقاضي عياض ومحيي الدين النووي وابن العطار بعدهما وكثير من أئمة المغاربة والمشاركة. وإن كان في كلامهم على تلك الأحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها وإعرابها، إلا أن كلامهم في أسانيدها بصناعة الحديث أَوْعَبُ وأكثر. هذه أصنافُ علومِ الحديثِ المتداولة بين أئمة الأعصار لهذا العهد، والله الهادي إلى الحقِّ والمعين عليه.

## ١- ٦- ١٣- الفصل الثالث عشر: علمُ الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والتدب والكرهية والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه.

وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم، ولا بُدَّ من وقوعه ضرورة أنَّ الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب، وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف.

وأيضاً: فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها، فتحتاج إلى الترجيح، وهو مختلف أيضاً. فالأدلة من غير النصوص <sup>(١)</sup> تختلف فيها.

وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص، وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما. وهذه كلها ماثرات <sup>(٢)</sup> للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم.

ثم إنَّ الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتياً، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي [ظ ٢٠٨/٢] صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منه <sup>(٣)</sup> ومن عليتهم، وكانوا يُسمَّون لذلك القراء، أي: الذين يقرؤون الكتاب، لأنَّ العرب كانوا أمة أمية، فاخصَّ من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة.

ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكَّن الاستنباط، وكُمِّلَ الفقه، وأصبح صناعة وعلماً، فبدَّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز.

وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه <sup>(٤)</sup>، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه،

١ - الأدلة من غير النصوص يراد بها الأدلة التي ترجع إلى الإجماع أو القياس مثلاً.

٢ - في ن: إشارات.

٣ - في ن: منهم.

٤ - في الفصل السابق لهذا مباشرة.



فلذلك قيل: أهل الرأي، ومقدم جماعتهم الذي استقرَّ المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده.

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية، وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النص؛ لأنّ النصّ على العلة نص على الحكم في جميع محالها. وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه<sup>(١)</sup> وأصحابهما. وكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة.

وشذّ شيعة أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به، وبَنَوْهُ على مذهبيهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها أصول واهية. وشذّ بمثل ذلك الخوارج، ولم يحتفل الجمهور بمذاهبيهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح، فلا نعرف شيئاً من مذاهبيهم ولا نروى كتبهم، ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم. فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكل منهم كتب وتآليف وآراء في الفقه غريبة.

ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بذُرُوسٍ أئمتّه وإنكار الجمهور على منتحله، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة. وربما يعكف كثيرٌ من الطّالِبِينَ ممن تكلف بانتحال مذهبيهم على تلك الكتب، يروم أخذ فقههم منها ومذهبيهم، فلا يخلو<sup>(٢)</sup> بطائل، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه، وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين.

وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علوّ رتبته في حفظ الحديث، وصار إلى مذهب أهل الظاهر، ومهر فيه<sup>(٣)</sup> باجتهاد زعمه [ظ ١/٢٠٩] في أقوالهم، وخالف إمامهم داود، وتعرض للكثير من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه، وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك، حتى إنها ليحظر بيعها بالأسواق، وربما تُمزَّقُ في بعض الأحيان.

ولم يبقَ إلا مذهب أهل الرأي من العراق، وأهل الحديث من الحجاز. فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت،

١ - هو داود بن علي الأصبهاني - ويعرف بالظاهري - كان غاية في الزهد. توفي سنة ٢٧٧هـ، وكان ابنه محمد فقيهاً أديباً جلس في حلقة أبيه بعد وفاته، وكان على مذهب أبيه الظاهري، وتوفي سنة ٢٩٧هـ.

٢ - يعني لم يفيدوا شيئاً.

٣ - في ظ: عليه.

ومقامه في الفقه لا يلحق، شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعي.  
وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي<sup>(١)</sup> إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى، واختصّ بزيادة مُدرك<sup>(٢)</sup> آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره، وهو عمل أهل المدينة، لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه، وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية.

وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره، لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم، بل هو شامل للأمة.

واعلم أنَّ الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد، ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى؛ وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله وسلامه عليه، وضرورة اقتدائهم بعين ذلك. نعم، المسألة<sup>(٣)</sup> ذكرت في باب الإجماع لأنه أليق الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلة. واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم.

ولو ذكرت المسألة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل: مذهب الصحابي، وشرع من قبلنا والاستصحاب، لكان أليق<sup>(٤)</sup>.

١ - الأصبحي: السوط، نسبة إلى ذي أصبح، ملك من ملوك اليمن من أجداد الإمام مالك بن أنس.

٢ - أي زاد على الكتاب والسنة والإجماع والقياس أصلاً آخر وهو عمل أهل المدينة.

٣ - في ن: يعم الملة.

٤ - قال العلامة محمد أبو زهرة: نلاحظ أنه انتقد من اعتبر أخذ مالك بعمل أهل المدينة من قبيل الأخذ بإجماع أهل المدينة واعتباره حجة، وأنه يرى أن الأليق ألا يعد في باب الإجماع وألا يكتب فيه وإنما يكتب في بابه الأدلة. ونبادر فنقرر أن الفقهاء جميعاً قرروا الأخذ بالاستصحاب، واعتبروه آخر مدار الاستدلال فهو دليل حيث لا يكون في الموضوع دليل، وإذا كان ثمة اختلاف فهو في مداه في الاستدلال، والموضوعات التي يدخلها، فنجد المالكية يضيّقون نطاقه، لأنهم فتحوا باب الاستدلال المرسل الذي يسمى المصالح المرسلة، إذ هو شامل، والحنفية يوسعونه قليلاً عن المالكية وإن كان في ذاته ضيقاً عندهم، لأنهم يفتحون باب الاستحسان وقد بهروا في الأقيسة، والحنابلة يوسعون قليلاً أيضاً، والشافعية يأخذون به كثيراً والظاهرية والشيعة يفتحون بابه فتحاً كاملاً.

وأما عن الأخذ بما عليه أهل المدينة من قبيل الإجماع، وأخذ مالك به على هذا الأساس، ونفي ابن خلدون لذلك، فإنه يحتاج إلى نظر نتعرض له بإيجاز:

لقد عبر الإمام مالك عن عمل أهل المدينة في كثير من الأحيان بالأمر المجتمع عليه عندنا أي بالمدينة ونقل لك من الموطأ مسألتين:

أولهما: مسألة شهادة الصبيان، فهذا نص ما جاء بالموطأ: قال مالك: الأمر المجتمع عليه أن شهادة الصبيان تحوز فيما بينهم من الجراح، ولا تحوز على غيرهم إذا كان ذلك قبل أن يفتروا أو يخيبوا أو يعلوا.

ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمَطْلِبِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، رَحَلَ إِلَى الْعِرَاقِ مِنْ بَعْدِ مَالِكٍ وَلَقِيَ أَصْحَابَ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ، وَمَزَجَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْحِجَازِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَاخْتَصَّ بِمَذْهَبٍ وَخَالَفَ مَالِكاً رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذْهَبِهِ.

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَكَانَ مِنْ عِلْيَةِ [ظ ٢٠٩/٢] الْمُحَدِّثِينَ، وَقَرَأَ<sup>(١)</sup> أَصْحَابَهُ عَلَى أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ مَعَ وَفُورِ بَضَاعَتِهِمْ مِنَ الْحَدِيثِ، فَاخْتَصَّوْا بِمَذْهَبٍ آخَرَ.

وَوَقَفَ التَّقْلِيدُ فِي الْأَمْصَارِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَدَرَسَ الْمُقْلِدُونَ لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَسَدَّ النَّاسُ بَابَ الْخِلَافِ وَطَرَقَهُ لَمَّا كَثُرَ تَشَعُّبُ الْأَصْطِلَاحَاتِ فِي الْعُلُومِ، وَلَمَّا عَاقَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى رَتْبَةِ الْجَاهِدِ، وَلَمَّا خَشِيَ مِنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ وَمَنْ لَا يُوَثِّقُ بِرَأْيِهِ وَلَا بِدِينِهِ،

وَالثَّانِيَةِ: مَسْأَلَةُ مِيرَاثِ الْأَخْوَةِ الْأَشْقَاءِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْمَوْطَأِ: الْأَمْرُ الْجَمْعُ عَلَيْهِ عِنْدَنَا أَنَّ الْأَخْوَةَ لِلْأَبِ وَالْأُمِّ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْوَلَدِ الذَّكَرِ، وَلَا مَعَ وَلَدِ الْإِبْنِ الذَّكَرِ شَيْئاً، وَلَا مَعَ الْأَبِ دُنْيَا - أَيِ: الْأَبِ الْقَرِيبِ لَا الْجَدَّ - شَيْئاً، وَهَمْ يَرِثُونَ مَعَ الْبَنَاتِ وَبَنَاتِ الْأَبْنَاءِ.

وَإِذَا كَانَ هُوَ يُسَمَّى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ جَمْعاً عَلَيْهِ، فَكَيْفَ لَا يُسَمَّى مِنْ بَعْدِ إِجْمَاعاً. وَالشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا خَالَفَ شَيْخَهُ الْإِمَامَ مَالِكََ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خَالَفَهُ فِي عِتَابِهِ إِيَّاهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِجْمَاعاً. وَقَدْ نَاقَشَ تِلْكَ الْفِكْرَةَ عَلَى أَاسَاسِ أَنَّ الْأَخْذِينَ يَأْخُذُونَ عَلَى أَاسَاسِ أَنَّهَا مِنَ الْإِجْمَاعِ، وَأَقْرَأَ كَلَامَهُ فِي الرِّسَالَةِ عَنْ ذَلِكَ تَجَدُّهُ يَعْبُرُ عَنْ فِكْرَةِ الْمَالِكِيِّينَ بِأَنَّهَا إِجْمَاعُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَكَذَلِكَ تَجَدُّهُ فِي الْأَمْرِ فِي كِتَابِ جَمَاعِ الْعِلْمِ وَلِنَقْلٍ لَكَ بَعْضَ مَنَاقِشَاتِهِ فَقَدْ جَاءَ فِيهِ: قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ: إِنَّمَا ذَهَبْنَا إِلَى أَنَّ نَتَبَّهَ مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، دُونَ الْبُلْدَانِ كُلِّهَا. فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: هَذِهِ طَرِيقُ الَّذِينَ أَبْطَلُوا الْأَحَادِيثَ كُلَّهَا، وَقَالُوا: نَأْخُذُ بِالْإِجْمَاعِ، إِلَّا أَنَّهُمْ ادَّعَوْا إِجْمَاعَ النَّاسِ، وَادَّعَيْتُمْ أَنْتُمْ إِجْمَاعَ بِلَدٍ، وَهَمْ يَخْتَلِفُونَ عَلَى لِسَانِكُمْ، وَالَّذِي يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ لِلصَّمْتِ أَوَّلَى بِكُمْ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ.

وَقَدْ عَمِرَ الْقَاضِي عِيَاضُ فِي كِتَابِهِ الْمَدَارِكُ عَنْ عَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: إِنَّ إِجْمَاعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى ضَرْبَيْنِ ضَرْبُ طَرِيقَةِ النُّقْلِ وَالضَّرْبُ الثَّانِي هُوَ مَا كَانَ طَرِيقَةُ الْجَاهِدِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ. وَنَرَاهُ يَعْبُرُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَكَذَلِكَ أُمَّةُ عِلْمِ الْأَصُولِ كَالْغَزَالِيِّ وَالرَّازِيِّ وَالْأَمْدِيِّ وَالْبَيْضَاوِيِّ وَغَيْرِهِمْ يَعْبُرُونَ هَذَا التَّعْبِيرَ.

وَلِذَا يُجَدُّ أَنَّ ابْنَ خَلْدُونَ أَسْرَفَ فِي قَوْلِهِ عِنْدَمَا خَطَأَ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ عَنْ عَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. وَفِي الْحَقِّ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ كَمَا أَشَارَ الْقَاضِي عِيَاضُ يَقْسِمُونَ عَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى قَسْمَيْنِ: مَا يَكُونُ طَرِيقَةَ النُّقْلِ جَيْلاً عَنْ جَيْلٍ بَيْنَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ، وَالْآخَرُ مَا يَكُونُ سَبِيلَهَا الْجَاهِدَ، وَهَذَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ، وَفِيهِ خِلَافٌ: وَمَذْهَبُ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ حُجَّةٌ، وَيُنَسِّبُونَهُ إِلَى مَالِكٍ، وَعِبَارَاتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَفْرُقْ بَيْنَ مَا يَكُونُ طَرِيقَةَ النُّقْلِ، وَمَا طَرِيقَةَ الْجَاهِدِ.

وَإِنْ كَلَّا النُّوعَيْنِ عِنْدَ مَنْ يَأْخُذُونَ بِهِمَا يُسَمَّى إِجْمَاعاً، وَتَوَاتَرَ الْأَجْيَالُ بِهِ لَا يَمْنَعُ أَنَّهُ إِجْمَاعٌ، بَلْ لَقَدْ يَقَرُّ الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ بِإِجْمَاعٍ إِلَّا فِيمَا تَوَاتَرَ بِهِ الْأَجْيَالُ كَكُونِ الصَّلَوَاتِ خَمْسًا.

وَعَلَى ذَلِكَ لَوْ كَانَ نَظَرُ ابْنِ خَلْدُونَ أَنَّهُ لَا يَعْتَبِرُ عَمَلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ حُجَّةً إِلَّا إِذَا تَوَاتَرَ نَقْلُهُ جَيْلاً بَعْدَ جَيْلٍ بَيْنَهُمْ، مَا كَانَ ذَلِكَ مَسْوُغاً لِأَنَّهُ يَنْكَرُ أَنَّهُ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لِأَنَّ تَوَاتَرَ الْعَمَلِ لَا يَمْنَعُ التَّسْمِيَةَ بِالْإِجْمَاعِ. (مَهْرَجَانِ ابْنِ

خَلْدُونَ ١٩٦٢ ص ٦٢٤ - ٦٢٦).

فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء، كل بمن اختصَّ به من المقلدين، وحظروا أن يتداول<sup>(١)</sup> تقليدهم لما فيه من التلاعب. ولم يبقَ إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم، بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية. لا محصول اليوم للفقهاء غير هذا.

**ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود منكوص على عقبه، مهجور تقليده<sup>(٢)</sup>. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة.**

فأمَّا أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها يبعث، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث وميلاً بالاستنباط إليه مع القياس ما أمكن، وكان لهم ببغداد صولة وكثرة، حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة في نواحيها. وعظمت الفتنة في بغداد من أجل ذلك، ثم انقطع هذا عند استيلاء التتار عليها، ولم يراجع، وصارت كثرتهم بالشام. وأمَّا أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين، وما وراء النهر وبلاد العجم كلها، لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام، وكان تلميذه<sup>(٣)</sup> صحابة الخلفاء من بني العباس، فكثرت تأليفهم ومناظرتهم مع الشافعية، وحسنت مباحثهم في الخلافات، وجأؤوا منها بعلم مستظرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس، وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي ابن العربي<sup>(٤)</sup> وأبو الوليد الباجي في رحلتها.

**وأمَّا الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر، وقاسموه الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار، وعظمت مجالس المناظرات بينهم، وشحنت كتب الخلافات بأنواع استدلالاتهم. ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره، وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد**

١ - أي: أن يقلد الشخص إماماً في مسألة وإماماً آخر في مسألة أخرى. وهو ما يعرف الآن بالتلفيق بين المذاهب.

٢ - لعله أراد الاجتهاد المطلق لا الاجتهاد في المسائل الخاصة، ولذلك كتب الإمام السيوطي بعد عصر ابن خلدون مباشرة رسالته: الرد على من أدخل إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض. ولعله لو قال: إن الاجتهاد في العصور التالية لا تخرج عن رأي مجتهد من السابقين لكان أقرب إلى الصواب لا سيما بعد تدوين الكتب، ووضوح البيانات بحيث يمكن استبعاد الضعيف والرجوح بسهولة ويسر.

٣ - يريد تلميذه أبا يوسف (١١٣ - ١٨٢هـ) قاضي المهدي الهادي والرشيد وصاحب الخراج.

٤ - هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي صاحب كتاب أحكام القرآن. تولى القضاء بإشبيلية، ولد فيها ٤٦٨هـ، وتوفي بمدينة فاس سنة ٥٤٣هـ وهو غير ابن العربي الحاتمي المعروف.

الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم، وكان من تلميذه بها البويطي<sup>(١)</sup> والمزني<sup>(٢)</sup> وغيرهم، وكان بها [ظ. ١/٢١٠] من المالكية جماعة (منهم: عبد الله بن)<sup>(٣)</sup> عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم. ثم الحارث بن مسكين وبنوه، ثم القاضي أبو إسحاق بن شعبان وأصحابه.

ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة<sup>(٤)</sup> وتداول بها فقه شيعة أهل البيت وكاد من سواهم أن يتلاشوا ويذهبوا<sup>(٥)</sup>. ثم ارتحل إليها القاضي عبد الوهاب المالكي من بغداد في أواخر المئة الرابعة علي ما علم من الحاجة والتقلب في المعاش، وتأذن خلفاء العبيدين بإكرامه وإظهار فضله نعيًا على بني العباس في اطراح مثل هذا الإمام، فنفتت سوق المالكية بمصر قليلًا إلى أن ذهبت دولة العبيدين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب، فذهب منها فقه أهل البيت، وعاد فقه الجماعة إلى الظهور بينهم، ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام، فعاد إلى أحسن ما كان، ونفتت سوقه، واشتهر منهم محيي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الأيوبية بالشام، وعز الدين بن عبد السلام أيضًا، ثم ابن الرفعة بمصر، وتقي الدين بن دقيق العيد، ثم تقي الدين السبكي بعدهما، إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد، وهو سراج الدين البلقيني<sup>(٦)</sup> فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر، كبير العلماء، بل أكبر العلماء من أهل العصر.

وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالبًا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها: خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك

١ - هو يوسف بن يحيى البويطي، قال الشافعي: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي. مات في السجن بالعراق سنة ٢٣١ هـ. انظر سير أعلام النبلاء (١٢/٥٨ - ٦١).

٢ - في المطبوع: (الحزبي) خطأ. وهو إسماعيل بن يحيى المزني، صاحب المختصر المشهور، قال عنه الشافعي: ناصر مذهبي. مات سنة ٢٦٤ هـ وله (٨٩) سنة. انظره في سير أعلام النبلاء (١٢/٤٩٢ - ٤٩٧).

٣ - في ظ: (من بني).

٤ - كلمة الرافضة: تطلق على جميع الشيعة الإمامية، وسموا رافضة لأنهم لما ناظروا زيد بن علي بن الحسين ورأوه يقول بإمامة أبي بكر وعمر ولا يترأ منهما، رفضوه ولم يجعلوه من أئمتهم.

٥ - في ن: وتلاشى من سواهم.

٦ - نسبة إلى مسقط رأسه بلقين، وهي بلد بمصر تابعة لمحافظة الغربية. توفي سنة ٨٠٥ هـ أي: قبل وفاة ابن خلدون بثلاث سنين. وكان من زملاء ابن خلدون في القضاء في مصر، فكان قاضي قضاة الشافعية وكان ابن خلدون قاضي قضاة المالكية. (د. واني).

وَشَيْئُوخَهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيزُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ<sup>(١)</sup>. وَأَيْضاً فَاَلْبَدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ<sup>(٢)</sup>،

١ - قال العلامة محمد أبو زهرة: وإنا نقرر أنه لا مجال للريب في أن من أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب والأندلس التقاءهم بالإمام مالك ويشيوخهم من قبله وتلميذه من بعده، وإن ذلك ينطبق على مصر، كما انطبق على الأندلس والمغرب وسائر شمال إفريقيا، ولذلك كان لهذا المذهب مكانة كبيرة في مصر، ولم يقض عليه أو يغلبه المذهب الشافعي مع إقامة الشافعي في مصر وموته فيها، بل لم يقض عليه وقت أن ناصرت الدولة الأيوبية المذهب الشافعي بسلطانها، بل اعترفت بالمذهب المالكي، وجعلت من المالكية قضاء، لمكانة ذلك المذهب الجليل بين الشعب المصري.

وإذا كنا نقرر أن من أسباب انتشار المذهب المالكي الحج والرحلة إلى المدينة، فإنه يجب أن نقرر أنه ليس هو السبب وحده، بل مناصرة الدولة لهذا المذهب الجليل، ولذا قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي بالمشرق، والمالكي بالأندلس.

ولا يصح أن ننفي نفيًا مطلقاً عدم دخول المذهب المالكي في بلاد العراق، وخراسان، فقد ذكر القاضي عياض في المدارك دخول المذهب في هذه البلاد، فقد جاء في ترتيب المدارك ما نصه:

غلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد أفريقيا والأندلس وصقلية والمغرب والأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا، وظهر ببغداد ظهوراً كبيراً، وضعف بها بعد أربع مئة سنة، وغلب من بلاد خراسان على قزوین وأبهر، وظهر بنيسابور، وكان بها وبغيرها أئمة ومدرسون. ولعل السبب في انتشاره في هذه البلاد هو الحج أيضاً، لأن هذه البلاد كان منها حجيج كسائر البلاد الإسلامية، وكانوا يذهبون إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وهنالك في المسجد النبوي يلتقون بالإمام مالك، وتلاميذه من بعده. (مهرجان ابن خلدون ص ٦٢٧ - ٦٢٨).

٢ - قال العلامة أبو زهرة: وإن الذي يجب علينا أن نناقش ابن خلدون فيه مخالفين كل المخالفة له وهو قوله أن المذهب المالكي مذهب أهل البداوة، وأنه لم تنقحه الحضارة لأنه أخذ عن أهل الحجاز، وانتقل إلى من يماثلهم في البداوة من أهل المغرب والأندلس.

ونقول: أنا نخالفه في الأصل والقياس والنتيجة، فإن أهل الحجاز في عصر الاجتهاد والفقهاء ما كان سكانها بدواً، فإنها كانت تروج بما يفيض بها عليهم مالك بني أمية، ولذلك ظهر فيهم الترف والنعيم، وظهر فيهم الغناء الحضري بكل طرائقه، وأمدوا به العراق، وإن سلمنا بأن مدن الحجاز كان يسكنها بدو فلن نسلم ذلك قط في الأندلس، فأهل الأندلس كانوا ذوي حضارة، وما كان لمثل ابن خلدون أن يجعل حكم البداوة يسري إليهم في المقايضة بينهم وبين أهل الحجاز.

وأنه لا يذكر أن المذهب المالكي غلب على أهل مصر كلها في أول أمرها حتى نافسه المذهب الشافعي ولم يتغلب عليه ولا يمكن أن يقال أن أهل مصر بدو، بل أن أهل مصر لهم حضارة تمتد جذورها في أعماق التاريخ، وقد ظهرت غصونها في عصر الإسلام.

وإن النتيجة التي تنتهي إليها تلك المقدمات، وهو أن مذهب مالك مذهب أهل بدو، تطوى في ثناياها الحكم بأن أهل الحضارة لا يرتضونه، مع أن السياق التاريخي يناقضه، وأنه فوق ذلك لا يتفق مع قواعد هذا المذهب وأصوله، فإنها من الاتساع والرونة والقوة والنفوذ إلى إصلاح الجماعات، وتنظيم شؤونها ما يجعلها صالحة لتنظيم الحضارات المختلفة، مهما تتسع آفاقها، وتتوسع وسائل العمران فيها، وتختلف طرائق الحياة وإن في نظريات المصالح المرسلة، وسد الذرائع، ومراعاة العرف، وقوة الأخذ بها، حتى إنه ليخصص أحياناً بعض النصوص التي ليست دلالتها قطعي بها - ما يجعل فيها الفناء لكل حضارة، ويجعل منها المعين الصالح لاستنباط أدق القوانين في تحقيق العدالة، ومذهب فيه هذه المرونة لا يمكن أن يكون مذهباً بدوياً. (مهرجان ابن خلدون ص ٦٢٨ - ٦٢٩).

ولم يكونوا يُعانون الحَضَارَةَ التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لَمْ يَزَلْ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ<sup>(١)</sup>، وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ الْحَضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ.

وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى الْاجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ، فَاجْتَأَوْا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ الْاِشْتِبَاهِ بَعْدَ الْاِسْتِنَادِ إِلَى الْأَصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذْهَبٍ [ظ ٢/٢١٠] إِمَامِيَّهٍ. وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يَقْدَرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقِ وَاتِّبَاعِ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا مَا اسْتَطَاعُوا، وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ الْفِقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ.

وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا مُقَلِّدُونَ لِلْمَالِكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>، وَقَدْ كَانَ تَلْمِيزُهُ افْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ، فَكَانَ بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ابْنِ خُوَيْزَمَنْدَادٍ<sup>(٣)</sup> وَأَبْنِ اللَّبَّانِ<sup>(٤)</sup> وَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْأَبْهَرِيُّ<sup>(٥)</sup>، وَالْقَاضِي أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَصَّارِ وَالْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ وَمِنْ بَعْدِهِمْ. وَكَانَ بِمِصْرَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ<sup>(٦)</sup> وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ<sup>(٧)</sup> وَالْحَارِثُ بْنُ مَسْكِينٍ<sup>(٨)</sup> وَطَبَقَتُهُمْ.

وَرَحَلَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ (يَحْيَى بْنُ يَحْيَى اللَّيْثِيُّ وَلَقِيَ مَالِكًا وَرَوَى عَنْهُ كِتَابَ الْمَوَاطَأِ، وَكَانَ

١ - قال العلامة محمد أبو زهرة: ولقد ادعى ابن خلدون أن المذهب المالكي غرض واستمر غرضاً وأنه لم يدخله التنقيح كما دخل مذهب أهل العراق لأن الذين اعتنقوه بدو أو يحرقون مجراهم.

وإن تلك المقدمة باطلة قد بينا بطلانها، وإن النتيجة باطلة أيضاً، فإن ذلك المذهب الجليل نقح وخرج عليه أكثر، واستنبطت أصوله، وفرعوا عليها واتسعت آفاق التخريج فيه اتساعاً عظيماً منذ عهده الأول، واستمر في تنقيح، وحسن تخريج، واستنباط أصول إلى أن تكامل واتسع وتنافس في ذلك علماء مصر، وعلماء الأندلس وقد رأينا الأصول التي استنبطها المالكية منقحة سليمة مستساغة في العقل ومتفقة مع الحاجات القانونية للبيئات المختلفة، ووجدنا من فقهاء الأندلس والمغرب ومصر من دعموا المذهب بالأدلة والتخريج وتوجيه المسائل، وتنقيح الروايات، حتى وجدناه يعالج كل مسائل الحضارة والعمران علاجاً سليماً حالياً من التكلف ومتفقاً مع أوثق الأصول الدينية وغيرها. ولذا لما ضايق الناس ببعض آراء أبي حنيفة في الأسرة لم نجد المتنفس إلا في مذهب مالك، فمنه أخذ القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠، وأكثر القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩. (مهرجان ابن خلدون ص ٦٢٩).

٢ - في المطبوع: رحمه الله.

٣ - خويزمنداد هو لقب والد الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المالكي الأصولي، من أهل البصرة، توفي عام ٤٠٠هـ.

٤ - هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن الحسن المصري، توفي في أوائل القرن الخامس الهجري.

٥ - نسبة إلى أبهر وهي بلدة في نواحي أصفهان، وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسن، توفي سنة ٤٨١هـ.

٦ - من كبار فقهاء المالكية توفي سنة ٢٠٤هـ.

٧ - محمد بن عبد الله بن الحكم من موالي عثمان بن عفان، توفي سنة ٢١٦هـ. مترجم في السير (١٢/٤٩٧).

٨ - الحارث: قاضي القضاة بمصر، كان قولاً بالحق، من قضاة العدل، مات سنة (٢٥٠) وله (٩٦) سنة. انظر

ترجمته في السير (١٢/٥٤ - ٥٨).

من جملة أصحابه، ورحل بعده) عبد الملك بن حبيب<sup>(١)</sup> فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دون العتي<sup>(٢)</sup> من تلامذته كتاب العتيبة.

ورحل من إفريقية أسد بن الفرات<sup>(٣)</sup>، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولاً ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب عن<sup>(٤)</sup> ابن القاسم في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه، وسُمي الأُسديَّة نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأ بها سحنون<sup>(٥)</sup> على أسد، ثم ارتحل إلى الشرق<sup>(٦)</sup> ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأُسدية فرجع عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت ما رجع عنه منها. وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يمحو من أسديته ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك. فترك الناس كتابه<sup>(٧)</sup> واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الأبواب، فكانت تُسمَّى المدونة والمختلطة. وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على العتيبة والواضحة. ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة أو المختلطة في كتابه المُسمَّى بالمختصر، ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المُسمَّى بالتهذيب، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية وأخذوا به، وتركوا ما سواه. وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العتيبة وهجروا الواضحة وما سواها.

ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع. فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس<sup>(٨)</sup> واللخمي<sup>(٩)</sup> وابن محرز

١ - عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨هـ وهو أندلسي تعلم بالأندلس ورحل منها سنة ٢٠٨هـ، وأخذ عن كثير من أصحاب مالك، منهم عبد الله بن عبد الحكيم ثم عاد إلى الأندلس. وهو مؤلف كتاب الواضحة الذي يعتبر من أهم أصول الفقه المالكي.

٢ - هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتي صاحب المستخرجة من واضحة ابن حبيب المتوفى سنة ٢٥٥هـ وقيل سنة ٢٥٤هـ. وقال ابن الفرضي: جمع المستخرجة وأكثر ما فيها من الروايات المطروحة. والمسائل الشاذة. وانظر ما قيل في نفع الطيب للمقري (٢/٢١٥).

٣ - أسد بن الفرات بن سينان، أصله من خراسان، ولد بنجران من ديار بكر سنة ١٤٥هـ. وتوفي سنة ٢١٣هـ.

٤ - في المطبوع: على.

٥ - سحنون، بفتح السين وضمها، وهو عبد السلام بن سعيد سحنون التنوخي العربي المتوفى سنة ٢٤٠هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان (١/٢٩٢). والسير (٦٣/١٢ - ٧٠).

٦ - في ن: المشرق.

٧ - أي: كتاب أسد بن الفرات وهو الأُسدية.

٨ - هو محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي، له كتاب الفرائض، وجمع المدونة مع أمهات المذهب المالكي، توفي سنة ٤٥١هـ. مترجم في الديباج ص: ٢٧٤.

٩ - أبو الحسن علي بن محمد الربيعي اللخمي القيرواني، له تحقيق للمدونة سماه التبصرة، توفي سنة ٤٩٨هـ. مترجم في الديباج ص: ٢٠٣ وشجرة النور الزكية ص: ١١٧.



والقونسي<sup>(١)</sup> وابن بشير<sup>(٢)</sup> وأمثالهم.  
وكتب أهل الأندلس على العُتبية ما شاء الله تعالى أن يكتبوه مثل ابن رشد<sup>(٣)</sup> [ظ ١/٢١١] وأمثاله. وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة. وزخرت بحار المذهب المالكي في الأفقيين إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان. ثم تمسك بهما<sup>(٤)</sup> أهل المغرب بعد ذلك. [إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاحب، لخص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب<sup>(٥)</sup>].

- ١ - في المطبوع: ابن محرز التونسي.
  - ٢ - محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير، من كبار أصحاب سحنون، من كتبه: المجموعة على مذهب مالك، وشرح مسائل من المدونة. توفي سنة ٢٦٠هـ. مترجم في الديباج ص: ٢٣٧-٢٣٨ وشجرة النور الزكية ص: ٧٠.
  - ٣ - هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أشهر فقهاء المالكية. وهو صاحب كتاب المقدمات الممهدة وكتب أخرى كثيرة في الفقه. ولد سنة ٤٥٠هـ. وتوفي في الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وهو جد ابن رشد الفيلسوف. (د. وافي).
  - ٤ - يقصد كتاب النوادر لابن أبي زيد. وكتاب ابن يونس على المدونة.
  - ٥ - قال العلامة محمد أبو زهرة: هذا تلخيص جيد لتسلسل الكتب في المذاهب، ولنا ملاحظات على ما اشتملت عليه كتاباته من تعميم، كان يجب فيها التخصيص.
- وأولى هذه الملاحظات أنه يقرر أن أهل الأندلس هم الذين أخذوا بالعتبية، ويشير بذلك إلى أن غيرهم لم يأخذوا بها، وهذا يخالف ما ذكر ابن حزم الذي يسبقه بأكثر من ثلاثة قرون، إذ هو يقرر أن العتبية لها عند أهل العلم بأفريقية الطبران الحثيث.
- والثانية: أنه يقرر أن كتاب الأندلس إنما كتبوا على العتبية، ويذكر من بينهم ابن رشد (أي الجد) وابن رشد هذا يذكر في كتابه المقدمات الممهدة أن المدونة هي أصل العلم المالكي، ويقول في ذلك: رحل سحنون إلى ابن القاسم، فكان مما قرأ عليه المدونة أو المختلطة، ودونها، فحصلت أصل علم المالكيين وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك، ويروى أنه ما بعد كتاب الله كتاب أصح من موطأ مالك رحمه الله، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة، والمدونة عند أهل الفقه، ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وكتابت إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه موضع القرآن من الصلاة تجزئ من غيرها، ولا يجزئ غيرها منها. وإذا كان هذا رأي ابن رشد في المدونة وهو أندلسي فإنه لا يمكن أن يقال: أن المعتر عند أهل الأندلس هو العتبية، كما لا يمكن أن تأليفه في الفقه كان على أساس اعتبار العتبية هي الأصل يوضحه هو ويبينه ويختصره.
- والثالثة من هذه الملاحظات أنه يجعل العتبية في مرتبة المدونة من حيث الثقة بها، والاطمئنان إلى أن ما اشتملت عليه هو من مذهب مالك، والحقيقة: أنه بينما يتلقى العلماء في المذهب المالكي ما جاء في المدونة بالقبول — يشير كثيرون منهم الظنون حول ما جاء في العتبية، وقد ظهر التكذيب لبعض مسائلها عقب كتابتها فقد جاء في ترتيب المدارك: قال محمد بن عبد الحكيم: أتيت بكتب حسنة الخط تدعى المستخرجة وهو اسم العتبية من وضع العتي، فرأيت جلها كذبا، ومسائل لا أصول لها، ومما قد أسقط وطرح، وشواذ من مسائل المجالس لم يوقف عليها أصحابها.
- ويقول ابن لبابة في تأليف العتي للمستخرجة أو العتبية: كان يؤتى بالمسائل الغريبة، فإذا أعجبت أدخلها في المستخرجة.

وتميزت للمذهب المالكي ثلاث طرق: القرويين: وكبيرهم سحنون الآخذ عن ابن القاسم، والقرطبيين: وكبيرهم: ابن حبيب، الآخذ عن مالك ومطرف وابن الماجشون وأصبخ، والعراقيين: وكبيرهم القاضي إسماعيل وأصحابه.

وكانت طريقة المصريين تابعة للعراقيين، وأن القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المئة الرابعة، وأخذ أهلها عنه.

وكانت الطريقة المالكية بمصر<sup>(١)</sup> من لدن الحارث بن مسكين وابن ميسر<sup>(٢)</sup> وابن اللهيث وابن رشيق وابن شاس<sup>(٣)</sup>. وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه أهل البيت. وأما طريقة العراقيين: فكانت مهجورة عند أهل القيروان والأندلس لبعدها عنهم، وخفاء مداركها، وقلة اطلاعهم على مأخذهم فيها، والقوم أهل اجتهد - وإن كان خاصاً - لا يرون التقليد. ولا يرضونه طريقاً.

وكذلك نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه.

ثم امتزجت الطرق بعد ذلك، ورحل أبو بكر الطرطوشي من الأندلس في المئة

فليست إذن المستخرجة أو العتبية شهادة الثقاة من علماء المذهب المالكي الأولين - محل الثقة والاطمئنان بينما تحمل المدونة ذلك المحل عند الجميع.

والرابعة من هذه الملاحظات أن ابن خلدون يذكر أنها سميت المختلطة لاختلاط أبوابها، والحقيقة أن سحنون رتبها، أو على التحقيق رتب أكثرها، وخلط بأقوال مالك أقوال أصحابه التي هي آراء لهم، وخبر ذلك قد جاء في ترتيب المدارك، فقد جاء فيه:

نظر سحنون فيها نظر آخر، فهذبها وبوبها، ودونها، وألحق فيها من خلاف أصحاب مالك ما اختار، وذيل أبوابها بالحديث والآثار، إلا كتباً متفرقة منها، بقيت على أصل اختلاطها بالسماع.

والخامسة من الملاحظات أن العلامة ابن خلدون لم يتعرض لذكر الموازية، وهي من أمهات الكتب في المذهب المالكي، وهي لمحمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندري المعروف بابن المواز المتوفى سنة ٢٦٩ بعد الهجرة، وهذا كتاب له مكانته في الفقه المالكي، قال القاضي عياض فيه: وهو أجل كتاب ألفه المالكيون، وأوضحه مسائل، وأبسطه كلاماً وأوعبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجحه على سائر الأمهات، وقال: إن صاحبه قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، وغيره إنما قصد لجمع الروايات، ونقل نصوص السماع، ومنهم من ينقل عنه الاختبارات في شروح أفرادها وجوابات لمسائل سئل عنها، ومنهم من كان قصده الذب عن المذهب فيما فيه الخلاف إلا ابن حبيب، فإنه قصد إلى بناء المذهب على معان تأدت إليه، وربما قنع بعض الروايات على ما فيها، وفي هذا الكتاب جزء تكلم فيه على الشافعي وعلى أهل العراق بمسائل من أحسن كلام وأقبله.

وإنه بلا ريب يعد من القصور في كلام العلامة ابن خلدون ألا يتكلم عن هذا الكتاب، وإنه إذا أردنا أن نرتب كتب المذهب من حيث الثقة والاطمئنان لكانت هكذا ... المدونة، ثم الموازية، ثم الواضحة التي كتبها ابن حبيب ونجى العتبية في المرتبة الرابعة. (مهرجان ابن خلدون ص ٦٣١ - ٦٣٣).

١ - في ن: بقيت في مصر.

٢ - في ن: ابن المبشر.

٣ - في المطبوع: شاش. خطأ. وهو عبد الله بن نجم بن شاس السعدي المالكي مصنف كتاب الجواهر الثمينة في فقه أهل المدينة، وضعه على ترتيب الوجيز للغزالي. مات سنة (٦١٦ هـ) و مترجم في السير (٩٨/٢٢ - ٩٩).

السادسة ونزل البيت المقدس وأوطنه، وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية ومزجوا طريقه الأندلسية بطريقتهم المصرية، وكان من أجلة أصحابه الفقيه سند صاحب الطراز وأصحابه، وأخذ عنهم جماعة كان معهم بنو عوف وأصحابهم وأخذ عنهم أبو عمرو بن الحاجب وبعده شهاب الدين القرافي، واتصل ذلك في تلك الأعصار.

وكان فقه الشافعية أيضاً قد انقرض بمصر منذ دولة العبيديين أهل البيت، فظهر بعدهم في الفقهاء الذين جددوه الرافعي فقيه خراسان منهم، وظهر بالشام محيي الدين النووي من تلك الحلبة.

ثم امتزجت طريقة المغاربة من المالكية أيضاً بطريقة العراقيين من لدن الشرمساحي كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية والمصرية فبنى المستنصر العباسي أبو المستعصم وابن الظاهر [ظ ٢١١/٢] مدرسة ببغداد، واستدعاه لها من خلفاء العبيديين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة، فأذنوا له في الرحيل إليه. فلما قدم بغداد ولاه تدريس المستنصرية، وأقام هنالك إلى أن استوى هولاء على بغداد سنة ست وخمسين من المئة السابعة، وخلص من تيار تلك النكبة وخلا سبيله، فعاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد أبغا.

وكانت بالإسكندرية في بني عوف وبني سند وابن عطاء الله. ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب<sup>(١)</sup>، لكنه جاء بعد انقراض دولة العبيديين وذهب فقه شيعة أهل البيت وظهر فقهاء السنة الشافعية والمالكية. ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المئة السابعة، عكف عليه الكثير من طلبة المغرب، وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي<sup>(٢)</sup> هو الذي جلبه إلى المغرب، فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية. وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونها لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون، وكلهم من مشيخة أهل تونس. وسابق حلبيتهم في الإجابة في ذلك ابن عبد السلام، وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب<sup>(٣)</sup> في دروسهم، ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup> [النور: ٤٦].

١ - ابن الحاجب: هو عثمان بن عمر الكردي اللبني المالكي، كان أبوه حاجباً للأمر عز الدين مؤسك الصلاحي، كان رأساً في العربية، وصنف التصانيف، مات سنة (٦٤٦هـ) مترجم في السير (٢٦٤/٢٣ - ٢٦٦).

٢ - هو عيسى بن مسعود الحميري، توفي ٧٤٢هـ، مترجم في الدرر الكامنة لابن حجر (٣: ٢١٠).

٣ - لأبي سعيد البرادعي السابق الإشارة إليه.

٤ - هذا ويلاحظ أن ابن خلدون لعظيم إلمامه بمذهب مالك ورسوخ قدمه فيه فقد كان من كبار فقهاءه وتولى منصب التدريس في فقه المالكية في مصر كما تولى منها منصب قاضي قضاة المالكية أي: شيخ شيوخ هذا المذهب. قد أطال الكلام على مذهب مالك ومؤلفاته؛ بينما أوجز كل الإيجاز في الكلام على المذاهب الأخرى وتاريخها وما كتب فيها من مؤلفات.

## ١-٦-١٤- الفصل الرابع عشر: علم الفرائض

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة في كم<sup>(١)</sup> تصح باعتبار فروضها الأصول أو مناسختها. وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى حساب يصحح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة.

وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين، وتتعدد لذلك بعدد أكثر. وبقدر ما تتعدد تحتاج إلى الحساب. وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين، مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ، وينظر مبلغ السهام، ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة. وكل ذلك يحتاج إلى الحساب. فأفردوا هذا الباب من أبواب الفقه، لما اجتمع فيه إلى الفقه من الحساب، وكان غالباً فيه، وجعلوه فناً مفرداً.

وللناس فيه تأليف<sup>(٢)</sup> كثيرة أشهرها [ظ ١/٢١٢] عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي، ومن متأخري إفريقية ابن النمر الطرابلسي وأمثالهم. وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تأليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب، وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب.

وهو فنٌ شريفٌ لجمعه بين المعقول والمنقول، والوصول به إلى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ، وتشكل على القاسمين، وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية، ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو في الحساب، وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج الجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك، فيملؤون بها تأليفهم. وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس، ولا يُفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه، فهو يفيد المراتب وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه.

وقد يحتاج الأكثر من أهل الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ الْفَرَائِضَ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَإِنِّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى». وفي رواية: «نِصْفُ». خرجه

١ - في ن: وتصحيح فروض الفريضة مما تصح.

٢ - في ظ: تواليف.

أبو نعيم الحافظ<sup>(١)</sup>، واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة. والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد، وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والمواثيق وغيرها. وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية. وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها.

ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص، أو تخصيصه بفروض الوراثة، إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات، ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عمومته مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع. وما كان المراد به في إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلناه، وهي حقيقته الشرعية. فلا ينبغي أن يحمل إلا على ما كان يحمل في عصرهم، فهو أليق بمرادهم منه. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

١ - مخرجيه في الفصل (٢١) من الباب الخامس بلفظ: «نصف». وأضاف هنا نسبته إلى أبي نعيم. وإسناده ضعيف جداً. وقال ابن حجر في فتح الباري (٤٨٨/١٣ فكر) عند رقم (٦٧٢٤) قال ابن الصلاح: لفظ النصف في هذا الحديث بمعنى أحد القسمين وإن لم يتساويا. وقد قال ابن عيينة: إذا سئل عن ذلك: إنه يتلى به كل الناس. وقال غيره: لأنه لهم حالتين: حالة حياة وحالة موت، والفرائض تتعلق بأحكام للموت. وقيل: لأن الأحكام تتلقى من النصوص ومن القياس والفرائض لا تتلقى إلا من النصوص.

## ١- ٦- ١٥- الفصل الخامس عشر: أُصُولُ الْفِقْهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْجَدَلِ وَالْخِلَافَاتِ

اعلم أنَّ أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة، وهو النظرُ في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف، وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن [ظ ٢/٢١٢] ثم السنة المبينة له.

فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تُتَلَقَّى منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس، ومن بعد صلوات الله وسلامه عليه تعذَّر الخطابُ الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر.

وأما السنة فأجمع الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه. وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار.

ثم ينزل الإجماع منزلتهما إجماع الصحابة على النكير على مخالفهم، ولا يكون ذلك إلا عن مستند، لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة؛ فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات.

ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة. فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهنما، وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم، وتسليم بعضهم لبعض في ذلك. فإن كثيراً من الوقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة، فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة.

واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة، وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس، إلا أنه شذوذ.

وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها.

فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة.

فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه، والتواتر في نقله، فلم يبق فيه مجال للاحتمال. وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما

قلنا معتزداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه، من إنفاذ الكتب والرسائل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً. وأما الإجماع فلا تفاهتهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة. وأما القياس فيإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه. هذه أصول الأدلة.

ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل [ظ ٢١٣/١] وعدالة الناقلين لتمييز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل. وهذه أيضاً من قواعد الفن. ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ، وهي من فصوله أيضاً وأبوابه.

ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الألفاظ. وذلك أن استفادة المعاني على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة. والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان. وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقيه حينئذ يحتاج إليها لأنها جبلته وملكته.

فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح، ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى. ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام، وهي استفادة الأحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام، وهو الفقه.

ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق، بل لا بد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة، وبها تستفاد الأحكام بحسب ما أصّل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة، مثل أن اللغة لا تثبت قياساً، والمشارك لا يراد به معناه معاً، والواو لا تقتضي الترتيب، والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها، والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخي، والنهي يقتضي الفساد أو الصحة، والمطلق هل يعمل عمل المقيّد، والنص على العلة كاف في التعدي أم لا<sup>(١)</sup>؟ وأمثال هذه. فكانت كلها من قواعد هذا الفن. ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية.

ثم إن النظر في القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيق الأصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأحكام، وتنقيح<sup>(٢)</sup> الوصف الذي يغلب على الظن أن الحكم عُلّق به في

١ - يعني هل النص على العلة في تحريم أمر ما كاف في تعدي هذا التحريم إلى آخر تتوافر فيه هذه العلة؟.

٢ - ومعنى التنقيح الاستخراج والتعيين. وفي ن: (وينفتح).

الأصل من بين أوصاف ذلك الحِل، ووجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك. كلها قواعد لهذا الفن.  
واعلم: أن هذا الفن من الفنون المُستحدثة في الملّة، وكان السلف في غنيّة عنه، بما أن استفادة المعاني من الألفاظ [ظ ٢/٢١٣] لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية. وأمّا القوانين التي يحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها. وأمّا الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة الثّقلة وخبرتهم بهم. فلما انقرض السلف، وذهب الصدر الأول، وانقلبت العلوم كلها صناعة — كما قرّرناه من قبل —، واحتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة، فكتبوها فناً قائماً برأسة سموه أصول الفقه.

وكان أوّل من كتب فيه الشافعي رضي الله عنه، أملى فيه رسالته<sup>(١)</sup> المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنّواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس.  
ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحقّقوا تلك القواعد، وأوسعوا القول فيها. وكتب المتكلمون أيضاً كذلك. إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشّواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية. والمتكلمون يجرّدون صور تلك المسائل عن الفقه، ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن لأنه غالب فنّهم ومقتضى طريقتهم. فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن. وجاء أبو زيد الدّبّوسي من أئمتهم فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتم الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه، وكملت صناعة أصول الفقه بكماله وتهذيب مسائله وتمهدت قواعده. وعني النّاس بطريقة المتكلمين فيه.

وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفي للغزالي وهما من الأشعرية، وكتاب العمد لعبد الجبار، وشرحه المعتمد<sup>(٢)</sup> لأبي الحسين البصري، وهما من المعتزلة، وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه.

ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما:  
الإمام فخر الدّين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب الأحكام. واختلفت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدي مولعٌ بتحقيق المذاهب وتفرّيع المسائل.  
وأمّا كتاب المحصول فاختصره تلميذه مثل الإمام سراج الدين الأرّموي [ظ ١/٢١٤]

١ - سماها: الرسالة.

٢ - الصواب: شرح العمد لأبي الحسين البصري محمد بن علي بن الطيب المعتزلي، وهو غير المعتمد كما نبه على ذلك الدكتور عبد الحميد بن علي أبو زيد في تحقيقه لشرح العمد. طبعة مكتبة العلوم والحكم في المدينة المنورة ١٤١٠هـ.



في كتاب **التحصيل**، وتاج الدين الأرموي في **الحاصل**<sup>(١)</sup>؛ واقتطف شهاب الدين القرافي منهما مقدمات وقواعد في كتاب صغير سَمَّاهُ التَّنْقِيحات؛ وكذلك فعل البيضاوي في كتاب **المنهاج**. وَعَنِيَّ المبتدؤون بهذين الكتابين، وشرحهما كثيرٌ من الناس.

وأما كتاب **الأحكام** للأمدي وهو أكثر تحقيقاً في المسائل، فلخصه أبو عمر ابن الحاجب في كتابه المعروف بـ **المختصر الكبير**، ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبه العلم، وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعة وشرحه.

وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن في هذه المختصرات.

وأما طريقة **الحنفية** فكتبوا فيها كثيراً، وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبي زيد **الدَّبُّوسي**، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام **البرزدوي** من أئمتهم، وهو مستوعب، وجاء ابن **السَّاعَاتي** من فقهاء **الحنفية** فجمع بين كتاب **الأحكام** وكتاب **البرزدوي** في الطريقتين، وسَمَّى كتابه **بالبدائع**، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها. وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءةً وبجثاً، وأولع كثير من علماء **العجم** بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد.

هذه حقيقة هذا الفن، وتعيين موضوعاته، وتعدد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه. والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه، إنه على كل شيء قدير.

وأما **الخِلَافِيَّات**: فاعلم أن هذا **الفقه** المستنبط من الأدلة **الشَّرعية** كثر فيه **الخلافاً** بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه لما قدمناه. واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم.

ثُمَّ لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء **الأمصار**، وكانوا بمكان من حسن الظنِّ بهم، اقتصر الناسُ على تقليدهم، ومنعوا من تقليد سواهم، لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده، باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة، وأجري **الخلافاً** بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى **الخلافاً** في النصوص **الشَّرعية** والأصول **الفقهية**.

وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه، تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمه يحتجُّ بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك به وأجريت في مسائل **الشَّرعية** كلها وفي كل باب من أبواب **الفقه**. فتارة يكون **الخلافاً** بين **الشَّافعي** ومالك، وأبو حنيفة [ظ ٢١/٢] يوافق أحدهما؛ وتارة بين مالك وأبي حنيفة، و**الشافعي** يوافق

أحدهما. وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ<sup>(١)</sup> هؤلاء الأئمة، ومثارات اختلافهم مواقع اجتهداهم. وكان هذا الصنف من العلم يُسمّى بالخلافيات؛ ولا بُدَّ لصاحبه من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد. إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلتها.

وهو لعمرى علمٌ جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه، وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية، لأنَّ القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت، فهم لذلك أهل النظر والبحث. وأمّا المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر. وأيضاً فأكثرهم أهل المغرب<sup>(٢)</sup> وهم بادية غفل من الصنائع إلا في الأقل.

وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ، ولأبي بكر بن العربي من المالكية كتاب التلخيص جلبه من المشرق، ولأبي زيد الدبوسي كتاب التعليقة، ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة<sup>(٣)</sup>.

وقد جمع ابن السّاعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبنى عليها من الفقه الخلافى مدرجاً في كل مسألة ما ينبنى عليها من الخلافات.

وأما الجدل: وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعاً، وكلُّ واحدٍ من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه: ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأً، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول، وكيف يكون حال المستدل والجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحلّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال؟!.

ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه سواء، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره وهي طريقتان: طريقة البزدوي وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النصّ والإجماع والاستدلال. وطريقة العميدي وهي عامة في كل دليل يستدلُّ به [١٥/٢١] من أي علم كان،

١ - أي: الأدلة والأصول التي أخذ منها هؤلاء الأئمة أحكام مذهبهم.

٢ - في ن: (المغرب)

٣ - طبع منه المجلد الأول كرسالة دكتوراة في مدريد.

وأكثره<sup>(١)</sup> استدلالٌ. وهي من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة. وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي. إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي.

وهذا العميدي هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه. وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصراً، وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره، جاؤوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف. وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية، وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

## ١-٦- ١٦١- الفصل السادس عشر: عِلْمُ الْكَلَامِ

هو علمٌ يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ، ثم نرجع إلى تحقيق علمه وفيما ينظر، ونشير<sup>(١)</sup> إلى حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه فنقول:

إنَّ الحوادث في عالم الكائنات سواءً كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بُدَّ لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع في مستقر العادة، وعنهما يتم كونه<sup>(٢)</sup>. وكل واحدٍ من هذه الأسباب حادثٌ أيضاً، فلا بد له من أسبابٍ أخرى، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجدّها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو. وتلك الأسباب في ارتقائها تتفسَّح وتتضاعف<sup>(٣)</sup> طويلاً وعَرَضاً، ويحارُّ العقلُ في إدراكها. فإذا لا يحصرها إلا العلمُ المحيطُ، سيّما الأفعالُ البشرية والحيوانية، فإنَّ من جملة أسبابها في الشّاهد القصور<sup>(٤)</sup> والإرادات، إذ لا يتمُّ كونُ الفعل إلا بإرادته والقصد إليه. والقصورُ والإراداتُ أمورٌ نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً، وتلك التصورات هي أسبابُ قصد الفعل. وقد تكونُ أسبابُ تلك التّصوِّرات تصورات أخرى.

وكلُّ ما يقع في النفس من التّصوِّرات مجهولٌ سببه، إذ لا يطلع أحدٌ على مبادئ الأمور النفسانية، ولا على ترتيبها. إنما هي أشياء يلقِيها الله في الفكر يتبع بعضها بعضاً [ظ ٢١٥/٢]، والإنسان عاجزٌ عن معرفة مبادئها وغاياتها. وإنما يحيطُ علماً في الغالب بالأسباب التي هي طبيعة ظاهرة، ويقع<sup>(٥)</sup> في مَدَارِكِهَا على نظامٍ وترتيبٍ، لأنَّ الطَّبيعة محصورةٌ للنفس وتحت طورها.

وأما التّصوِّرات فنطاقها أوسعُ من النفس لأنها للعقل الذي هو فوقَ طور النفس. فلا تكاد النفس تدرك الكثير منها، فضلاً عن الإحاطة. وتأمّل من ذلك حكمة الشّارع في

١ - في المطبوعات: يشير.

٢ - إذا عاد الضمير إلى الحوادث، فيقال: كونها.

٣ - في ن: تتضاعف فتتفسح.

٤ - جمع قصد.

٥ - في ن: تقع.

نفيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها، فإنه واد يهيم فيه الفكر، ولا يحلو<sup>(١)</sup> منه بطائل، ولا يظفر بحقيقة: ﴿قُلِ اللَّهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]. وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه، وأصبح من الضالين الهالكين. نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين.

ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك، بل هو لو حصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض في الأسباب على نسبة لا نعلمها، إذ لو علمناها لتحرزنا منها، فلتتحرر من ذلك بقطع النظر عنها جملة.

وأيضاً فوجه تأثير هذه الأسباب في الكثير من مسبباتها مجهول، لأنها إنما يوقف عليها بالعادة (لاقتزان)<sup>(٢)</sup> الشاهد بالاستناد إلى الظاهر، وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها، وإلغائها جملة، والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدتها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا، وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس. قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٣)</sup>. فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر. وإن سبح في بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتأثيراتها واحداً بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخبية. فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ولا تفنن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفاه رأيه، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادية رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات [ظ ٢١٦/١] الأربع والمعقولات، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات. وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به. لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم. ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة

١ - لم يحلو بطائل: أي لم يظنه ولم يستفد منه، أو أنها من الخلاء أي: يخلو، أي: لا يصل الفكر إلى حقيقته أو فائدة منه.

٢ - في ن: وقضية الاقتزان.

٣ - أخرجه أحمد (٢٢٩/٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١١٣٤) بلفظ المصنف. وأخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان بلفظ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة».

لديه بالكُلِّيَّة.

فإذا علمتَ هذا فلعلَّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا، لأنَّ إدراكاتنا مخلوقة محدثة. وخلق الله أكبر من خلق الناس. والحصرُ مجهولٌ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]. فاتَّهَمَ إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشَّارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرصُ على سعادتك، وأَعْلَمُ بما ينفعك، لأنه من طَوْر فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزانٌ صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنَّك لا تطمع أن تزنَّ به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإنَّ ذلك طمعٌ في محال. ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزِنَ به الجبال. وهذا لا يدلُّ<sup>(١)</sup> على أنَّ الميزان في أحكامه غير صادق. لكن للعقل حدًّا يقف عنده، ولا يتعدَّى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه. وتفتن في هذا لغلط<sup>(٢)</sup> من يقدم العقل على السمع<sup>(٣)</sup> في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه؛ فقد تبين لك الحق من ذلك.

وإذا تبين ذلك فلعلَّ الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة، فيضلُّ العقل في يَدِّاء الأوهام ويَحَار وينقطع. فإذا التوحيد هو العجز<sup>(٤)</sup> عن إدراك الأسباب وكيِّفَات تأثيرها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيِّط بها، إذ لا فاعل غيره، وكلها ترتقي إليه وترجعُ إلى قدرته، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه، وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين: «الْعَجْزُ عَنِ الْإِدْرَاكِ إِذْرَاكٌ»<sup>(٥)</sup>. ثم إنَّ الاعتبار في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حَكَمي؛ فإنَّ ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيَّف بها النفس، كما أنَّ [ظ ٢/٢١٦] المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد، وتفرغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المرید السَّالِك ربَّانياً<sup>(٦)</sup>. والفرق

١ - في جميع النسخ: يدرك.

٢ - التعليق السابق. في النسخ: الغلط.

٣ - السمع: أي: الكتاب والسنة.

٤ - في ن: التوحيد أو العجز.

٥ - عبارة يكثر ترددها في كتب ابن عربي وهو ينسبها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، انظر الفتوحات المكية (٣٠٨/١٢ ف ٢٤٣).

٦ - يريد قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون.

بين الحال والعلم في العقائد فرقاً ما بين القول والاتصاف. وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قرابة إلى الله تعالى مندوب إليها، ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره، فضلاً عن التمسح عليه للرحمة، وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة. فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم، ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قرابة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها، فمتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه، لا يكاد يصبر عن ذلك، ولو دفع عنه، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده. وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به، والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة، فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، ويحيى العلم الثاني النافع في الآخرة. فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع، وهذا علم أكثر النظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالي<sup>(١)</sup> الناشئ عن العادة.

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا. فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف. وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها. ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٢)</sup>. فإن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه. وأين هذا من صلاة الناس؟! ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٥]. اللهم وفقنا، واهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكليف كلها [ظ ١/٢١٧] حصول ملكة راسخة في النفس ينشأ<sup>(٣)</sup> عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة، وأن ذلك سواء في التكليف القلبية والبدنية.

١ - أي: العلم المصحوب بحال، أي: بصفة وعادة قائمة بالشخص.

٢ - رواه أحمد (١٢٢٩٥ و ١٢٢٩٦) والنسائي (٦١/٧ - ٦٢) والطبراني في الأوسط (٥٧٦٨) وأبو يعلى

(٦/٣٤٨٢ و ٣٥٣٠). عن أنس.

٣ - في المطبوع: يحصل.

ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكليف وينبوعها، وهو بهذه المثابة، ذو مراتب: أولها: التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلىها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب، فيستتبع الجوارح، وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني، وهذا أرفع مراتب الإيمان، وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة؛ إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»<sup>(١)</sup>. وفي حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب، عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله، فقال في أصحابه هل يرتد أحدٌ منهم سخطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا! قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب<sup>(٢)</sup>.

ومعناه: أنَّ ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت، فإنها تحصل بمثابة الجبلّة والفطرة. وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان. وهي في المرتبة الثانية من العصمة، لأنّ العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً، وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعاً لأعمالهم وتصديقهم. وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان، كالذي يتلى عليك من أقاويل السلف. وفي تراجم<sup>(٣)</sup> البخاري رضي الله عنه في باب الإيمان كثير منه، مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، وأنّ الصلاة والصيام من الإيمان، وأن تطوع رمضان من الإيمان، والحياء من الإيمان. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى ملكته، وهو فعلي. وأمّا التصديق الذي هو أول مرتبة فلا تفاوت فيه. فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت، كما قال أئمة المتكلمين. ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل ظهر له التفاوت، وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق، إذ التصديق موجود في جميع رتبته، لأنه أقل ما يُطلق عليه اسم الإيمان [ظ ٢١٧/٢] وهو المخلص من عَهْدَةِ الكفر، والفيصل بين الكافر والمسلم، فلا يُجزّي أقل منه. وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت، وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه، فافهم.

واعلم أنّ الشّارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق، وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بالسنن، وهي العقائد التي تقررت في الدين. قال صلى الله عليه وسلم، حين سئل عن الإيمان

١ - رواه البخاري (٢٣٤٣ و ٥٢٥٦ و ٦٣٩٠) ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة. وهو حديث متواتر.

٢ - أخرجه البخاري (٧) وقد مر تخريجه مطولاً.

٣ - التراجم: أي: عناوين كتابه المفصلة للكتب ضمن الصحيح انظرها في الجزء الأول من الصحيح.



فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»<sup>(١)</sup>. وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام.

ولنشر إليها بمحتملة لَتَبَيَّنَ لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه. فنقول: اعلم أنَّ الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذي ردَّ الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه، وعرفنا أنَّ في هذا الإيمان بنحائنا عند الموت إذا حُضِرْنَا، لم يَعْرِفْنَا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود، وهو إذ ذاك متعذِّرٌ على إدراكنا ومن فوق طورنا. فكلفنا أولاً اعتقادَ تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين، وإلا لما صحَّ أنه خالقٌ لهم لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين، ثم توحيده بالإيجاد، وإلا لم يتم الخلق للتمانع<sup>(٢)</sup>، ثم اعتقاد أنه عالم قادرٌ فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق، ومريدٌ وإلا لم يخصَّ شيء من المخلوقات، ومقدر لكل كائن، وإلا فالإرادة حادثة، وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد الأول، ولو كان للفناء الصِّرفِ كان عبثاً، فهو للبقاء السَّرمديَّ بعد الموت، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسَّعادة، وعدم معرفتنا بذلك، وتمام لطفه بنا في الإيتاء بذلك وبيان الطريقتين، وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب. هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية؛ وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة. وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة.

إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث [ظ ٢١٨/١] بذلك علم الكلام.

ولنبين لك تفصيل هذا الجمل. وذلك أنَّ القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في أي كثيرة، وهي سلوب<sup>(٣)</sup> كلها وصريجة في بابهِ فوجب الإيمان بها، ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها. ثم وردت في القرآن أي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات.

فأمَّا السلفُ فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه

١ - أخرجه البخاري (٥٠ و ٤٧٧٧) ومسلم (٩ و ١٠). عن أبي هريرة. والنسائي (٥٠٠٦) عن أبي هريرة وأبي ذر.

٢ - التمانع: الذي يحدثه تعدد الآلهة كما قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

٣ - أي: سائلة عن الله التشبيه بالخلق.

وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل. وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرؤوها<sup>(١)</sup> كما جاءت، أي: آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها، لجواز أن تكون ابتلاءً، فيجب الوقف والإذعان له.

وشد لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه، ففريقٌ أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملاً بظواهر وردت بذلك. فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق، التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة، لأن معقولة الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة، أولى من التعلق بظواهر هذه الآيات التي لنا عنها غنية، وجمع بين الدليلين بتأويلهم. ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام، وليس ذلك بدافع منهم لأنه قول متناقض، وجمع بين نفي وإثبات إن كان لمعقولة<sup>(٢)</sup> واحدة من الجسم، وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه، ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسماً من أسمائه، ويتوقف مثله على الإذن<sup>(٣)</sup>. وفريقٌ منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك، وآل قولهم إلى التجسيم، فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات، جهة لا كالجهات، نزول لا كالنزول، يعنون من الأجسام، واندفع ذلك بما اندفع به الأول. ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي، لئلا يكر النفي لمعانيها على نفيها، مع أنها صحيحة ثابتة في القرآن. وإلى هذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له<sup>(٤)</sup>، وفي كتاب الحافظ ابن عبد البر، وغيرهم، فإنهم يحومون على هذا المعنى. ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون كلامهم<sup>(٥)</sup>.

ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين [ظ ٢١٨/٢] والبحث في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب، فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة<sup>(٦)</sup> على

١ - لعل الصواب: أمرؤها.

٢ - يريد بالمعقولة المدلول، أي: إن أطلقوا لفظي الجسم في قولهم: جسم لا كالأجسام على مدلول واحد.

٣ - يعني أن هذه التسمية لا تجوز إلا بإذن من الشارع، لأن أسماء الله توقيفية.

٤ - أي: وبهذا المعنى ينبغي أن تفسر العبارات التي تجدها في كتاب عقيدة الرسالة لابن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦هـ.

٥ - سيدرس موضوع التشابه دراسة وافية في الفصل التالي لهذا مباشرة.

٦ - أي زائدة على الذات.

أحكامها، لما يلزم عن ذلك من تعدد القديم بزعمهم، وهو<sup>(١)</sup> مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها، وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام، وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر، ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها، وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم، فحمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف، فاستحلّ خلافهم إيسار<sup>(٢)</sup> كثير منهم ودمأؤهم.

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً في صدور هذه البدع؛ وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق<sup>(٣)</sup>، ونفى التشبيه، وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه. فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس<sup>(٤)</sup> بطريق النقل والعقل، ورد على المبتدعة في ذلك كله. وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكمل العقائد في البعث وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب، وألحق بذلك الكلام في الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان، وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له، وكذلك على الأمة. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد. فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن. وسموا مجموع علم الكلام، إماماً لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإماماً لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي<sup>(٥)</sup>.

وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره، وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم، وهذبها

١ - لعله أراد: وهذا.

٢ - في المصباح: آسرت الرجل لغة في أسرته، فكلمة الإيسار في عبارة ابن خلدون جارية على هذه اللغة، ومعناها الأسر والاعتقال.

٣ - انظر مقدمة كتاب الاعتقاد للإمام البيهقي بتحقيقي في نفي أنه كان ملفقاً بين الطرق، وإنما كان صاحب مدرسة مستقلة تابعة لمنهج السلف، بعد أن كان متابعاً للمعتزلة.

٤ - الذي نصره الإمام الأشعري ومن تبعه في مدرسته الأخيرة أن كلام الله عز وجل يباين كلام الساكس والأخرس. فالقول بالكلام النفسي يحيل إلى أحد المعنيين.

٥ - أو لعله لتنازعه في مسألة خلق القرآن كلام الله.

ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف [ظ ١/٢١٩] عليها الأدلة والأنظار في<sup>(١)</sup> ذلك؛ مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم، وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. وجمّلت هذه الطريقة، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن صور الأدلة فيها جاءت بعض الأحيان على غير الوجه القناعي<sup>(٢)</sup> لسدّاجة القوم؛ ولأن صناعة المنطق التي تسير بها الأدلة، وتعتبر بها الأقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء لم يأخذ به المتكلمون لملاستها للعلوم الفلسفية المبينة للعقائد الشرعية بالجملة، فكانت مهجورة عندهم لذلك. ثم جاء بعد القاضي أبي بكر الباقلاني من أئمة الأشعرية إمام الحرمين أبو المعالي، فأملى في الطريقة كتاب الشامل وأوسع القول فيه، ثم لخصه في كتاب الإرشاد واتخذ الناس إماماً لعقائدهم.

ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس، وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيّار للأدلة فقط يسير به الأدلة منها كما يسير ما سواها. ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للأقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدلت<sup>(٣)</sup> إلى ذلك، وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات، فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها. ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليّة كما صار إليه القاضي<sup>(٤)</sup>. فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مبينة للطريقة الأولى، وتسمّى طريقة المتأخرين. وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم. وأوّل من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله، وتبعه الإمام ابن الخطيب<sup>(٥)</sup> وجماعة فقوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم. ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهما.

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً، والجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف

١ - في ن: و.

٢ - نسبة إلى القناعة بمعنى الاقتناع. وفي ن: الصناعي.

٣ - في ن: أدلتهم.

٤ - يقصد القاضي أبا بكر الباقلاني الذي ذكر مذهبه فيما سبق وقال: إنه يرى أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول.

٥ - هو الإمام فخر الدين الرازي.

[ظ ٢١٩/٢] في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات، إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد.

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد.

وإذا تأملت حال الفن في حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرأ بعد صدر، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجاج والأدلة، علمت حينئذ ما قررناه لك في موضوع الفن وأنه لا يعدوه.

ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم، كما فعله البيضاوي في الطوالع، ومن جاء بعده من علماء العجم في جميع تأليفهم. إلا أن هذه الطريقة قد يُعنى بها بعض طلبة العلم للإطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها. وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الإرشاد وما حذا حذوه.

ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب فإنها وإن وقع فيها مخالفة للإصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم.

وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحة والمتدعة قد انقضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا؛ وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه. ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص، فقال: نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب. لكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج<sup>(١)</sup> [ظ ٢٢٠/١] النظرية على عقائدها. ﴿والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران: ٦٨].

## ٦- ١٧- الفصل السابع عشر:

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة  
وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقاد

اعلم: أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم، وأنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربي المبين، يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك. وكان في خلال هذا الخطاب ومن ضروراته ذكر صفاته سبحانه وأسمائه ليعرفنا بذاته، وذكر الروح المتعلقة بنا، وذكر الوحي والملائكة الوسائط بينه وبين رسله إلينا. وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته، ولم يعين لنا الوقت في شيء منها. وثبت في القرآن الكريم حروف من الهجاء مقطعة في أوائل بعض سورته لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها. وسمى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهة وضم على اتباعها فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]. وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن المحكمات هي المبينات الثابتة بالإحكام. ولذا قال الفقهاء في اصطلاحهم: المحكم المتضح المعنى.

وأما المتشابهات فلهم فيها عبارات<sup>(١)</sup>. فقول: هي التي تفتقر إلى نظر وتفسير يصح معناها لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل فتخفى دلالتها وتشبه. وعلى هذا قال ابن عباس: «المتشابه يؤمن به ولا يعمل به». وقال مجاهد وعكرمة: «كل ما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه». وعليه القاضي أبو بكر وإمام الحرمين.

وقال الثوري والشَّعبي وجماعة من علماء السلف: المتشابه ما لم يكن سبيل إلى علمه كشرط<sup>(٢)</sup> الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء في أوائل السور. وقوله في الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. أي: معظمه وغالبه، والمتشابه أقله. وقد يرد إلى المحكم، ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو بحملها على معانٍ لا تفهم منها في لسان العرب الذي خوطبنا به،

١ - انظرها في الدر المنثور للسيوطي (٤/٢ - ٨).

٢ - ذهب الدكتور وافي إلى أن (الصحيح: أشرط الساعة، أي: علاماتها جمع شرط بفتحين، أي: العلامة). وما ذهب إليه الدكتور - أحسب والله أعلم - يخالف ما أراده المصنف من أن الساعة ستقوم لازماً. كالشرط التي تلزم لأداء البيع أو غيره. وهو يوافق منهجه في دراسة الظواهر الطبيعية.

وسماهم أهل زيغ - أي: ميل - عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع، وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التي هي الشرك أو اللبس على المؤمنين، أو قصدا لتأويلها بما يشتهونه، فيقتدون بهم في بدعتهم. ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر به [ظ ٢٢٠/٢]، بتأويلها، ولا يعلمه إلا هو فقال: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾. ثم أثنى على العلماء بالإيمان بها فقط، فقال: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾. ولهذا جعل السلف ﴿والراسخون﴾ مستأنفاً، ورجحوه على العطف<sup>(١)</sup>، لأن الإيمان بالغيب أبلغ في الثناء، ومع عطفه إنما يكون إيماناً بالشاهد<sup>(٢)</sup> لأنهم يعلمون التأويل حيثئذ فلا يكون غيباً. ويعضد ذلك قوله: ﴿كل من عند ربنا﴾. ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب لها، فإذا استحال إسناد الخبر إلى مخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حيثئذ. وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه، ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه؛ فلا سبيل لنا إلى ذلك. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إذا رأيت الذين يجادلون في القرآن، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم». هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة. وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك حملها عندهم محمل الآيات، لأن المنبع واحد<sup>(٣)</sup>.

وإذا تقرر أنصاف المتشابهات على ما قلناه فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها. فأما ما يرجع منها على ما ذكره إلى السَّاعة وأشراطها وأوقات الإنذارات، وعدد الزبانية وأمثال ذلك، فليس هذا - والله أعلم - من المتشابه؛ لأنه لم يرد فيه لفظ يحمل ولا غيره، وإنما هي أزمنة لحادثات استأثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى لسان نبيه، وقال: ﴿إنما علمها عند الله﴾ [الأعراف: ١٨٧]. والعجب ممن عدها من المتشابهة.

وأما الحروف المقطعة أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء. وليس ببعيد أن تكون مرادة. وقد قال الزمخشري: فيها إشارة إلى بعد الغاية في الإعجاز، لأن القرآن المنزل مؤلف منها، والبشر فيها سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف. وإن عدل عن هذا الوجه الذي يتضمن الدلالة على الحقيقة، فإنما يكون ينقل صحيح كقولهم في طه: إنه نداء من طاهر وهادي وأمثال ذلك، والنقل الصحيح متعذر، فيجيء المتشابه فيها من هذا الوجه.

١ - أي: جعل السلف كلمة: (والراسخون) في الآية مستأنفة على أنها مبتدأ خبره جملة: ﴿يقولون آمنا به﴾. ورجحوا ذلك على عطفها على لفظ الجلالة.

٢ - الشاهد: ما يقابل الغيب.

٣ - قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾.

وأما الوحي والملائكة والروح والجن فاشتباهها من خفاء دلالتها الحقيقية؛ لأنها غير متعارفة، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك.

وقد ألحق بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والنار والدجال والفتن والشروط، وما هو بخلاف العوائد المألوفة؛ وهو غير بعيد؛ إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه، وسيما المتكلمون، فقد عينوا محاملها على ما تراه في كتبهم.

ولم يبقَ من التشابه إلا الصفات التي وصف الله بها [١/٢٢١] نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه، مما يوهم ظاهره نقصاً أو تعجيزاً، وقد اختلفت الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قرروا مذهبهم وتنازعوا وتطرقت البدع إلى العقائد. فلنشر إلى بيان مذهبهم وإيثار الصحيح منها على الفاسد، فنقول - وما توفيقي إلا بالله :-

اعلم أن الله سبحانه وصف نفسه في كتابه بأنه عالم قادر مريد حي سميع بصير متكلم جليل كريم جواد منعم عزيز عظيم، وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان إلى غير ذلك من الصفات. فمنها ما يقتضي صحة الألوهية مثل العلم والقدرة والإرادة ثم الحياة التي هي شرط جميعها. ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والحجيء، وكالوجه واليدين والعينين التي هي صفات المحدثات. ثم أخبر الشارع أننا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر، لانضمام في رؤيته، كما ثبت في الصحيح<sup>(١)</sup>.

فأما السلف من الصحابة والتابعين فأثبتوا له صفات الألوهية والكمال وفوضوا إليه ما يوهم النقص<sup>(٢)</sup> ساكتين عن مدلوله. ثم اختلفت الناس من بعدهم.

وجاء المعتزلة فأثبتوا هذه الصفات أحكاماً ذهنية مجردة، ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته، وسمو ذلك توحيداً. وجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله ولا تتعلق بها قدرة الله تعالى، سيما الشرور والمعاصي منها؛ إذ يمتنع على الحكيم فعلها. وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه، وسمو ذلك عدلاً، بعد أن كانوا أولاً يقولون بنفي القدر، وإن الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدرة وإرادة كذلك، كما ورد في الصحيح<sup>(٣)</sup> وأن عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهني<sup>(٤)</sup> وأصحابه القائلين بذلك، وانتهى نفي القدر إلى واصل بن عطاء الغزال<sup>(٥)</sup>

١ - رواه البخاري (٥٢٩ و ٤٥٧٠ و ٦٩٩٧ و ٦٩٩٩) ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله.

٢ - لعل الأصح أن يقال: أثبتوا له صفات الكمال ونفوا عنه كل نقص. فهم أثبتوا اليدين.. كما يليق بجلاله بدون تشبيه بخلقه ﴿ليس كمثله شيء﴾.

٣ - رواه مسلم (٨).

٤ - هو معبد بن عبد الله الجهني، وهو أول من قال بنفي القدر وإثبات الاختيار المطلق.

٥ - هكذا في الأصل. ويرجح الدكتور علي عبد الواحد وإني أن الكلمة محرفة عن المعتزلي. والصواب ما أثبتته المصنف وقد عُرِفَ بالغزال لثرداده على سوق الغزل. انظر سير أعلام النبلاء (٤٦٤/٥).



منهم، تلميذ الحسن البصري لعهد عبد الملك بن مروان ثم آخراً إلى معمر السلمي ورجعوا عن القول به.

وكان منهم أبو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة. أخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل، وكان من نفاة القدر، واتبَعَ رأي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ. ثم جاء إبراهيم النظام، وقال بالقدر واتبعوه، وطالع كتب الفلاسفة وشدد في نفي الصفات، وقرر قواعد الاعتزال، ثم جاء الجاحظ والكعبي الجبائي، وكانت طريقتهم تُسمَّى علم الكلام، إمّا لما [ظ ٢٢١/٢] فيها من الحجاج والجدال، وهو الذي يُسمَّى كلاماً؛ وإمّا أن أصل طريقتهم نفي صفة الكلام. فلهذا كان الشافعي يقول: حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم.

وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها وردوا. إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعري وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض طريقتهم، وكان على رأي عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحرث بن أسد المحاسبي من أتباع السلف وعلى طريقة السنة، ففندَ مقالاتهم بالحجج الكلامية، وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة التي يتم بها دليل التمانع وتصح المعجزات للأنبياء. وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر، لأنها وإن أوهم ظاهرها النقص بالصوت والحرف الجسمانيين فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت وهو ما يدور في الخلد. والكلام حقيقة فيه دون الأول. فأثبتوه لله تعالى، وانتفى إيهامُ النقص، وأثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق شأن<sup>(١)</sup> الصفات الأخرى، وصار القرآن اسماً مشتركاً بين القديم بذات الله تعالى، وهو الكلام النفسي<sup>(٢)</sup>، والمحدث الذي هو الحروف المؤلفة المقروءة بالأصوات. فإذا قيل قديم فالمراد الأول، وإذا قيل: مقروء مسموع فللدلالة القراءة والكتابة عليه. وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث عليه؛ لأنه لم يسمع من السلف قبله، لا أنه يقول: إن المصاحف المكتوبة قديمة، (ولا إنَّ القراءة الجارية على الألسن قديمة)<sup>(٣)</sup>، وهو يُشاهدها محدثة، وإنما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه. وأما غير ذلك فإنكار للضروريات، وحاشاه منه. وأما السمع والبصر، وإن كان يوهم إدراك الجارحة، فهو يدلُّ أيضاً لغة على إدراك المسموع والمبصر، وينتفي إيهامُ النقص حينئذ، لأنه حقيقة لغوية فيهما.

١ - في ن: كشأن.

٢ - الذي أثبتوه هو الكلام بصفة يباين به كلام الأخرس والساكت. فلم يقل بالكلام النفسي.

٣ - في ن: ولا أنه يقول إن المصاحف المكتوبة قديمة.

وأما لفظ الاستواء والنجي والترول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه [إلى مجازاتها على طريقة العرب حيث تتعذر حقائق الألفاظ، فيرجعون] إلى المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ [الكهف: ٧٧]. وأمثاله. طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة، وحملهم على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض، أن جماعة [ظ ٢٢٢/١] من أتباع السلف — وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة — ارتبكوا في حمل هذه الصفات، فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى، تثبت له استواء بحسب مدلول اللفظ فراراً من تعطيله؛ ولا نقول بكيفية فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب، من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظالمون. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾. ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات الاستواء، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن وهو جسماني<sup>(١)</sup>. وأما تعطيل الذي يشنعون بإلزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا (محذور فيه، وإنما المحذور)<sup>(٢)</sup> في تعطيل الإله. وكذلك يشنعون بإلزام التكليف بما لا يُطاق؛ وهو تمويه؛ لأن التشابه لم يقع في التكليف. ثم يدعون أن هذا مذهب السلف، وحاشا لله من ذلك، وإنما مذهب السلف ما قرناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله والسكوت عن فهمها<sup>(٣)</sup>.

وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول. ولم يرد مالك أن الاستواء معلوم الثبوت لله، وحاشاه من ذلك، لأنه يعلم مدلول الاستواء؛ وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة وهو الجسماني، وكَيْفِيَّتُهُ، أي: حقيقته، لأن حقائق الصفات كلها كَيْفِيَّاتٌ، هي مجهولة الثبوت لله (تعالى). وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء، وأنها لما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «أين الله؟» وقالت:

١ - الذي أوقع المعطلة في هذا الإشكال قياسهم الله عز وجل على صفات المحدثات تعالى الله عن ذلك، ولذلك وقعوا في التخطي، فهم يشبّهون الله عز وجل الكلام ويعملونه نفسياً، وهل هذا إلا عين التشبيه بالمخلوقات، ومن قال: إن كلام الله كلام الخلق إلى لسان ولهاة، ومن قال إن نزول الله عز وجل كتّول خلقه أو استواءه كاستوائهم؟ إن سمع الله عز وجل غير سمع الخلق، وبصره غير بصرهم، إذ أن المحدثات تحتاج إلى جوارح ليستطيع الرؤية والسمع، ولا يصح أبداً أن نقيس الخالق بالمخلوق ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ [الإسراء: ٣٤].

٢ - في ن: محذور منه، وإنما المحذور.

٣ - بل مذهب السلف بخلاف ما ذهب إليه المصنف وانظر كتاب الاعتقاد للإمام البيهقي.

في السماء؟ فقال: أعتقها فإنها مؤمنة»<sup>(١)</sup>. والبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر أن الله في السماء، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه. والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار، ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتزيه، مثل: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] وأشباهه، ومن قوله: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ [الأنعام: ٣]. إذ الوجود لا يكون في مكانين<sup>(٢)</sup>، فليست في هذا للمكان قطعاً والمراد غيره. ثم طردوا ذلك الحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين (والجنيء) والترول والكلام بالحرف والصوت، يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية ويترهون عن مدلول الجسماني منها. وهذا شيء لا يعرف في اللغة. وقد درج على ذلك الأول والآخر منهم. ونافرهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية (ورفضوا عقائدهم [ظ ٢٢٢/٢] في ذلك ووقع بين المتكلمين الحنفية) ببخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ما هو معروف.

وأما الجسمنة ففعلوا مثل ذلك في إثبات الجسمية وأنها لا كالأجسام؛ ولفظ الجسم له يثبت في منقول الشرعيات. وإنما جرّأهم عليه إثبات هذه الظواهر [لها]، فلم يقتصروا عليه، بل توغلوا وأثبتوا الجسمية، يزعمون فيها مثل ذلك، ويترهونه بقول متناقض سفاسف، وهو قولهم: جسم لا كالأجسام. والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود، و[أمّا]<sup>(٣)</sup> غير هذا التفسير، من أنه القائم بالذات، أو المركب من الجواهر، وغير ذلك، فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها غير المدلول اللغوي. فلهذا كان الجسمنة أوغل في البدعة، بل والكفر. حيث أثبتوا لله وصفاً موهماً، يوهم النقص، لم يرد في كلامه ولا كلام نبيه.

فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والجسمنة بما أطلعناك عليه.

وفي المحدثين غلاة يُسمّون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه؛ حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه

١ - رواه أحمد (٤٤٧/٥، ٤٤٨) والدارمي (١٥١٠) و(١٥١١) والبخاري في خلق أفعال العباد (٢٦) وفي جزء القراءة خلف الإمام (٦٩) و(٧٠) ومسلم (٥٣٧) و(٢٢٢٧م) وأبو داود (٩٣٠) و(٣٢٨٢) و(٣٩٠٩) والنسائي (١٤/٣) من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

٢ - لا إشكال في الآية إذا قورنت بقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ولأصلينكم في جذوع النخل﴾ أي: على جذوع النخل. فمعنى في: على. وإذا حملنا الآية على ظاهرها فلا يراد منها أنه موجود في مكانين وإنما يؤمر العباد بعبادة الله عز وجل في السماء وفي الأرض.

٣ - أما: زادها الدكتور وافي ليستقيم المعنى.

قال: أعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما، وإن لم يتأول ذلك لهم بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة، وحملها على ذلك الحمل الذي لأئمتهم، وإلا فهو كفرٌ صريحٌ والعياذُ بالله. وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع وبسط الرد عليهم بالأدلة الصحيحة وإنما أومأنا إلى ذلك إيماءً يميزُ به فصولات المقالات وجملها. والحمدُ لله الَّذِي هَدَانَا [لهذا] وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [الأعراف: ٤٣].

وَأَمَّا الظَّوَاهِرُ الْخَفِيَّةُ الْأَدَلَّةُ وَالذَّلَالَةُ كَالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وَالْجَنُّ وَالْبَرَزُخُ وَأَحْوَالُ الْقِيَامَةِ وَالذُّجَالُ وَالْفَتَنُ وَالشُّرُوطُ. وسائر ما هو متعذرٌ على الفهم أو مخالفٌ للعادات، فإن حملناه على ما يذهب إليه الأشعرية في تفاصيله، وهم أهلُ السُّنَّةِ، فلا تشابه؛ وإن قلنا فيه بالتشابه فلتوضِّح القول فيه بكشف الحجاب عنه فنقول:

اعلم أنَّ العالمَ البشريَّ أشرفُ العوالم من الموجودات وأرفعها. وهو: وإن اتحدت حقيقة الإنسانية فيه، فله أطوارٌ يخالف كل واحدٍ منها الآخر بأحوال تختصُّ به، حتى كأن الحقائق فيها مختلفة. فالطور الأول عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وسائر تصرفاته التي أعطاها إيَّاه وجوده الحاضر.

**الطور الثاني:** عالم النُّوم، وهو تصوُّرُ الخيال بإنفاذ تصوراتِه جائلةً في باطنه، فيدرك منها بحواسِّه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانيَّة، ويشاهدها في مكان ليس [ظ ١/٢٢٣] هو فيه. ويحدث للصالح منها البشري بما يترقب من مسرَّاته الدنيوية والأخروية، كما وعد به الصَّادقُ صلوات الله عليه.

وهذان الطَّوران عامَّان في جميع أشخاص البشر، وهما مُختلفان في المدارك كما ترى.

**الطور الثالث:** طورُ النُّبُوَّة، وهو خاصٌّ بأشراف صنف البشر بما خصَّهم الله به من معرفته وتوحيده وتنزل ملائكته عليهم بوحيه وتكليفهم بإصلاح البشر في أحوالِ كلِّها مغايرة لأحوال البشرية الظَّاهرة.

**الطور الرابع:** طورُ الموت الذي تفارق أشخاصُ البشر فيه حياتهم الظَّاهرة إلى وجودٍ قبل القيامة، يُسمَّى البرزخ، ينعمون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم، ثمَّ يفضون إلى يوم القيامة الكبرى، وهي دار الجزاء الأكبر نعيماً وعذاباً في الجنة أو في النار.

والطَّوران الأولان شاهدهما وجداني.

والطُّور الثالث النبوي شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء.

والطور الرابع شاهده ما تنزَّل على الأنبياء من وحي الله تعالى في المعاد وأحوال البرزخ والقيامة، مع أن العقل يقتضي به كما نبهنا الله عليه في كثير من آيات البعث.

ومن أوضح الدلالة على صحتها أنَّ أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذه المشاهد، يتلقَّى فيه أحوالاً تليقُ به، لكان إيجاده الأول عيشاً؛ إذ الموت إذا كان عدماً كان مآل الشخص إلى العدم، فلا يكون لوجوده الأول حكمة؛ والعبث على الحكيم محال<sup>(١)</sup>.

وإذا تقررت هذه الأحوال الأربعة فلنأخذ في بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافاً يبيِّن يكشف لك غورَ التشابه.

فأما مداركه في الطُّور الأول فواضحة جليّة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف، ويستكمل حقيقة إنسانيته، ويوفي حق العبادة المفضية به إلى النجاة.

وأما مداركه في الطُّور الثاني، وهو طورُ النوم، فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها؛ لكن ليست في الجوارح كما هي في اليقظة. لكن الرائي يتيقن كل شيء أدركه في نومه، لا يشكُّ فيه ولا يرتاب مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادي لها. والناسُ في حقيقة هذه الحال فريقان:

الحكماءُ ويزعمون أنَّ الصور الخيالية يدفعها الخيالُ بمجرعة الفكر إلى الحس المشترك، الذي هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن، فتصور محسوسه بالظاهر في الحواس كلها، ويشكل عليهم هذا بأن المرآي<sup>(٢)</sup> الصادقة التي هي من الله تعالى [ظ ٢/٢٢٣] أو من الملك أثبت وأرسخ<sup>(٣)</sup> في الإدراك من المرآي الخيالية الشيطانية، مع أن الخيال فيها على ما قرروه واحد.

الفريق الثاني: المتكلمون، أجملوا فيها القول، وقالوا: هو إدراكُ يخلقه الله في الحاسة فيقعُ كما يقعُ في اليقظة. وهذا أليقُ، وإن كنا لا نتصور كيفيته. وهذا الإدراك التَّوَمِّي أوضحُ شاهدٍ على ما يقعُ بعده من المدارك الحسِّية في الأطوار [التالية].

وأما الطُّور الثالث، وهو طورُ الأنبياء، فالمدارك الحسِّية فيها مجهولة الكيفية عند وجدانيته عندهم بأوضح من اليقين<sup>(٤)</sup>. فيرى النبي الله والملائكة ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة، ويرى الجنة والنار والعرش والكرسي، ويخترقُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ في إسرائه،

١ - يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنين: ١١٥].

٢ - يعني: الرؤية الصادقة التي وردت في الأثر: الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان. وفي الأصل: المرأى.

٣ - في ظ: ومن الملك ثبت ورسخ.

٤ - أي: عند وجد الحس للأنبياء بكيفية مجهولة، ولكن الحس واضح كاليقين.

ويركب البراق فيها، ويلقى النبين هنالك، ويُصلي بهم، ويُدرِك أنواع المدارك الحسيّة كما يُدرِك في طوره الجسماني والنومي، بعلم ضروري يخلقه الله له، لا بالإدراك العادي للبشر في الجوارح، ولا يُلتفت في ذلك إلى ما يقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم في دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك. فإن الكلام عليهم هنا أشد من الكلام في النوم. لأنّ هذا التنزيل طبيعة واحدة كما قرناه. فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها، وليست كذلك على ما علمت من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ستة أشهر، وأنها كانت بدء الوحي ومقدمته. ويشعر ذلك بأنها رؤيا<sup>(١)</sup> في الحقيقة.

وكذلك حال الوحي في نفسه. فقد كان يصعب عليه، ويُقاسي منه شدة، كما هي في الصحيح<sup>(٢)</sup>، حتى كان القرآن يتنزّل عليه آيات مقطعات. وبعد ذلك نزل عليه ﴿براءة﴾ في غزوة تبوك جملة واحدة، وهو يسير على ناقته فلو كان ذلك من تنزل الفكر إلى الخيال فقط، ومن الخيال إلى الحس المشترك لم يكن بين هذه الحالات فرق.

وأما الطور الرابع، وهو طور الأموات في برزخهم، الذي أوله القبر، وهم مجردون عن البدن، أو في بعثهم عندما يرجعون إلى الأجسام، فمداركهم الحسية موجودة. فيرى الميت في قبره الملكين يسائلونه، ويرى مقعده من الجنة أو النار بعيني رأسه، ويرى شهود الجنائز ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف، عنه ويسمع كلامهم وخفق نعالهم في الانصراف عنه، ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد أو من تلقين الشهادتين وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قلب<sup>(٤)</sup> بدر، وفيه قتلى المشركين من قريش، وناداهم بأسمائهم. فقال عمر: يا رسول الله! أتكلّم هؤلاء الجيف؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي [ظ ٢٢٤/١] نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعِ مِنْهُمْ لَمَّا أَقُولُ»<sup>(٥)</sup>.

ثم في البعثة يوم القيامة يعاينون بأسماعهم وأبصارهم، كما كانوا يعاينون في الحياة، من نعيم الجنة على مراتبها. وعذاب النار على مراتبه، ويرون الملائكة ويرون ربهم، كما ورد في الصحيح: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي

١ - في ن: دونه.

٢ - البخاري (٥) ومسلم (٤٤٩) (١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

٣ - انظر تفصيل هذه الآثار في كتاب شرح الصدور للسيوطي، باب فتنة القبر.

٤ - القلب: البئر أو القديعة منها.

٥ - رواه مسلم (٢٨٤٣) و (٢٨٧٤) عن أنس.

رويته»<sup>(١)</sup>. وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا، وهي حسيةٌ مثلها، وتقعُ في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه الله كما قلناه.

وسر هذا: أن تعلم أنَّ النفس الإنسانية هي تنشأ بالبدن وبمداركه؛ فإذا فارقت البدن بنوم أو موت أو صار النبي في حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدارك الملكية، فقد استصحبت ما كان، معها من المدارك البشرية، مجردة عن الجوارح، فتدرك بها في ذلك الطَّور أي إدراكِ شَاءت منها، أرفع من إدراكها وهي في الجسد، قاله الغزالي رحمه الله. وزاد على ذلك أنَّ للنفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة، فيها العيان والأذنان وسائر الجوارح المدركة، أمثالاً لما كان في البدن وصوراً.

وأنا أقول: إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في بدنها زيادةً على الإدراك. فإذا تفتنت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدنيا، وإنما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال. ويُشير المتكلمون إلى ذلك إشارةً محملة بأنَّ الله يخلقُ فيها علماً ضرورياً، بذلك تدرك أي مدرك كان. ويعنون به هذا القدر الذي أوضحناه.

وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول في التشابه. ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه. فلننزع إلى الله سبحانه في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه بما يحصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا. ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٣].

## ١-٦-١٨- الفصل الثامن عشر: في علم التصوف

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملّة. وأصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف [ظ ٢٢٤/٢] على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها. والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف.

فلما فشل الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصوفيّة والمتصوفة.

وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.

قلت: والأظهر - إن قيل بالاشتقاق - أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف.

فلما اختصّ هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصّوا بمآخذ مدرّكة لهم. وذلك أنّ الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان:

إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظنّ والشكّ والوهم؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال، وهي التي يميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به، والنشاط عن الحمام، والكسل عن الإعياء. وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بُدّ وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة، إمّا أن تكون نوع عبادة، فترسخ وتصير مقاماً للمريد؛ وإمّا أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات، لا يزال المريد يترقى فيها من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال صلى الله عليه وسلم: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل



الجنة»<sup>(١)</sup>. فالمريد لا بد له من التّرقّي في هذه الأطوار، وأصلها كلها الطاعة والإخلاص، ويتقدمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال والصفّات نتائج وثمرات، ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى، إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فتعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلهذا يحتاج المريد [٥٢٢/١] إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله، وينظر في خفاياها<sup>(٢)</sup>، لأنّ حصول النتائج عن الأعمال ضروري، وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس؛ لأنّ الغفلة عن هذا كأنها شاملة. وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطّاعات مُخلّصة من نظر الفقه في الأجزاء والامثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أو لا. فظهر أنّ أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتّروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاماً ويرتقى منها إلى غيرها.

ثم لهم مع ذلك آدابٌ مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم؛ إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحاً عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد بغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه، وصار علم الشريعة على صنفين:

صنفٌ مخصوصٌ بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات، وصنفٌ مخصوصٌ بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقتها، وكيفية التّرقّي فيها من ذوق إلى ذوق. وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجالٌ من أهل هذه الطريقة في طريقتهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والتّرك كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال، كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهوروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم.

وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدوّن فيه أحكام الورع

١ - أخرجه أحمد (٢٢٩/٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١١٣٤) بلفظ المصنف، وأخرجه مسلم (٢٦) من حديث عثمان بلفظ: من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة.

٢ - في ن: حقائقها.

والاقتداء، ثم بين آداب القيوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر [ظ ٢٢٥/٢] العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والإطلاغ على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت الروح، وغلب سلطانه وتجدد نشوؤه، وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً، ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وكذلك يدركون كثيراً من الوقائع قبل وقوعها، ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصير طوعاً إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا هذا التصرف، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه، بل يعدون ما وقع لهم من ذلك محنة، ويتعوذون منه إذا هاجهم<sup>(١)</sup>. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم.

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك<sup>(٢)</sup> التي وراءه.

واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود، وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الفرش<sup>(٣)</sup> هكذا قال الغزالي رحمه

١ - في ن: (وقع لهم).

٢ - أي: وفهم المدارك التي وراء الحجاب.

٣ - في بعض النسخ: والطش. والطشيش: المطر الضعيف وهو دون الرذاذ. والفرش: الفضاء الواسع.

الله في كتاب الإحياء بعد ذكر صورة الرياضة.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكُشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عَنْدهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً [ظ ٢٢٦/١] عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ، لِأَنَّ الْكُشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ الْجُوعِ وَالْخُلُوعِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِسْتِقَامَةٌ كَالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُرْتَاضِينَ. وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا الْكُشْفُ النَّاشِئُ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْمَرْأَةَ الصَّقِيلَةَ<sup>(١)</sup> إِذَا كَانَتْ مُحْدَبَةً أَوْ مَقْعَرَةً وَحُودِي بِهَا جِهَةٌ مُرْتِي فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مَعُوجاً عَلَى غَيْرِ صَوْرَتِهِ، وَإِذَا كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلُ فِيهَا الْمُرْتِي صَحِيحاً. فَالْإِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَالْإِنْبِسَاطِ لِلْمَرْأَةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ. وَلَمَّا عَنِ الْمُتَأَخَّرِينَ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْكُشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ الْمَوْجُودَاتِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ، وَحَقَائِقِ الْمَلِكِ وَالرُّوحِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يَشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذَلِكَ. وَأَهْلُ الْفَتْيَا بَيْنَ مَنْكَرِ عَلَيْهِمْ وَمُسْلَمٍ لَهُمْ. وَلَيْسَ الْبُرْهَانُ وَالذَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ رَدّاً وَقَبُولاً، إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْوُجْدَانِيَّاتِ.

**تفصيل وتحقيق:** يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء الحديث والفقه أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ، وَيَقَعُ لِلْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا مَبَايِنَ وَلَا مُتَّصِلَ، وَيَقَعُ لِلْفَلَّاسِفَةِ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَيَقَعُ لِلْمُتَأَخَّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ، إِمَّا بِمَعْنَى الْحُلُولِ فِيهَا، أَوْ بِمَعْنَى أَنَّهُ هُوَ عَيْنُهَا، وَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ جَمَلَةً وَلَا تَفْصِيلاً. فَلْنَبَيِّنْ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ، وَنُشْرَحُ حَقِيقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حَتَّى تَتَضَحَّ مَعَانِيهَا فَنَقُولُ:

إِنَّ الْمَبَايِنَةَ تَقَالُ لِمَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمَبَايِنَةُ فِي الْحَيْزِ وَالْجِهَةِ، وَيَقَابِلُهُ الْإِتِّصَالُ. وَتَشْعُرُ هَذِهِ الْمَقَابِلَةُ - عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ<sup>(٢)</sup> - بِالْمَكَانِ، إِمَّا صَرِيحاً وَهُوَ تَجْسِيمٌ، أَوْ لُزوماً وَهُوَ تَشْبِيهِ مِنْ قَبِيلِ الْقَوْلِ بِالْجِهَةِ. وَقَدْ نَقَلَ مِثْلَهُ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ السُّلَفِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِهَذِهِ الْمَبَايِنَةِ، فَيَحْتَمِلُ غَيْرَ هَذَا الْمَعْنَى. وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ أَنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ هَذِهِ الْمَبَايِنَةَ. وَقَالُوا: لَا يُقَالُ فِي الْبَارِئِ إِنَّهُ مَبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُتَحَيِّزَاتِ. وَمَا يُقَالُ مَنْ أَنَّ الْحُلَّ لَا يَخْلُو عَنِ الْإِتِّصَافِ بِالْمَعْنَى وَضَدَّهُ، فَهُوَ مُشْرُوطٌ بِصَحَّةِ الْإِتِّصَافِ أَوَّلًا؛ وَأَمَّا مَعَ امْتِنَاعِهِ فَلَا، بَلْ يَجُوزُ الْخُلُوعُ عَنِ الْمَعْنَى وَضَدَّهُ، كَمَا يُقَالُ فِي الْجَمَادِ: لَا عَالَمَ وَلَا جَاهِلَ، وَلَا قَادِرَ وَلَا عَاجِزَ، وَلَا كَاتِبَ وَلَا أُمِّيَّ. وَصَحَّةُ الْإِتِّصَافِ بِهَذِهِ الْمَبَايِنَةِ مُشْرُوطٌ بِالْحَصُولِ فِي الْجِهَةِ عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ مَدْلُوهَا. وَالْبَارِئُ سَبْحَانَهُ مَنْزَهُ عَنْ ذَلِكَ. ذَكَرَهُ ابْنُ التَّلْمِصَانِيِّ فِي شَرْحِ اللَّمَعِ لِإِمَامِ الْحَرَمِيِّ وَقَالَ: وَلَا يُقَالُ فِي الْبَارِئِ مَبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهِ، وَلَا دَاخِلٌ فِيهِ وَلَا خَارِجٌ عَنْهُ. وَهُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ الْفَلَّاسِفَةُ: إِنَّهُ لَا دَاخِلَ [ظ ٢٢٦/٢] الْعَالَمِ

١ - الصَّقِيلَةُ: أَيْ: الْمَصْقُولَةُ.

٢ - أَيْ: بِهَذَا الْقَيْدِ وَهُوَ أَنَّهَا مَبَايِنَةٌ فِي الْحَيْزِ وَالْجِهَةِ.

ولا خارجه، بناء على وجود الجواهر غير المتحيّزة. وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارى في أخص الصفات. وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمبانيّة فهو المغايرة والمخالفة. فيقال: البارى مبين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويُقابلة الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المبانيّة هي مذهب أهل الحقّ كلّهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرّسالة<sup>(١)</sup> ومن نحا منحاهم.

وذهب جماعة من المتصوفة والمتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية إلى أن البارى تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو مثل أفلاطون وسقراط. وهو الذي يعنيه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه. لأنه ذاتان تتنفي إحداهما أو تندرجُ اندراج الجزء. فإن تلك مغايرة صريحة، ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلّول الذي تدّعيه النصارى في المسيح عليه السلام. وهو أغرب لأنه حلّول قديم في محدث أو اتحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة، وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقتين:

**الأولى:** أن ذات القديم كامنة في الحداثات، محسوسها ومعقولها، متحدة بها في التصورين. وهي كلها مظاهر لها، وهو القائم عليها، أي: المقوم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدماً. وهو رأي أهل الحلّول.

**الثانية:** طريق أهل الوحدة المطلقة، وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلّول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد، فنفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات، وغالطوا في غيرية المظاهر المدركة بالحس والعقل، بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك. وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، وجود في المدرك البشري فقط. ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد بحسب الإمكان. والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال - كما في المدارك البشرية - غير مفيد. لأن ذلك إنما ينقل من المدارك المَلَكِيّة، وإنما هي حاصلةً للأنبياء بالفطرة، ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم. وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال.

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه على

طريقة أهل [ظ ٢٢٧/١] المظاهر<sup>(١)</sup> فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم، كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح، فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه: أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدة التي هي مظهر الأحدية، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير، ويسمون هذا الصدور بالتجلي. وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتضمن الكمال بإفاضة<sup>(٢)</sup> الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونها<sup>(٣)</sup>: «كنت كنزاً مخفياً فأُجِبت أن أعرف فخلقت الخلق ليُعرفوني». وهذا الكمال في الإيجاد المنزل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة العمائية<sup>(٤)</sup> والحقيقة المحمدية؛ وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمّل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية<sup>(٥)</sup> وهي مرتبة المثال، ثم عنها العرش ثم الكرسيّ ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب، هذا في عالم الرق<sup>(٦)</sup>. فإذا تجلّت فهي في عالم الفتق<sup>(٧)</sup>. ويُسمّى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات. انتهى. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه. وبعْدُ ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب، فإنه لا يعرف في شيء من مناحيه.

وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة، وهو رأي أغرب من الأول في

١ - في المطبوع: المظاهر..

٢ - في ن: بإضافة.

٣ - حديث موضوع لا يعرف له سند. انظر تنزيه الشريعة (١٤٨/١) وتذكرة الموضوعات (١١).

٤ - في نسخة (الكمالية). والحضرة العمائية: هي بحر العماء أي: عالم المثال المطلق. وهو برزخ بين الحق والخلق كما ذكر ابن عربي في الفتوحات (١٩٠/١ ف ٢٤٢).

٥ - الهباء: هو المادة التي فتح الله بها صور العالم. وهو الفلك المحيط الموجود في العالم المركب والبسيط. انظر الفتوحات (٥٤/١ ف ٢٩) و (٣٣٣/١ ف ٦٣٦).

٦ - الرق: قال القاشاني في اصطلاحات الصوفية ص ١٤٨: إجمال المادة الروحانية المسماة بالعنصر الأعظم المطلق المرتوق قبل خلق السماوات والأرض.

٧ - الفتق: قال القاشاني (١٣٥): تفصيل المادة المطلقة بصورها الوعية، أو ظهور كل ما بطن في الحضرة الواحدة من النسب الأسمائية، وبرز كل ما يكن في الذات الأحدية من الشؤون الذاتية كالحقائق الكونية بعد تعيينها في الخارج.

ومنه: فتق السماوات بعدما كانت رتقاً، أي: فصل كل سماء على حدة. وانظر الفتوحات المكية (٢٣١٨ ف ٤٩٣).

تعلُّقه وتفاريعه، ويزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها. والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى، وكذلك مادتها لها في نفسها قوة، بها كان وجودها، ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولائها وزيادة القوة المعدنية، ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها، وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة، وكذا الذات الروحانية. والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية [ظ ٢٢٧/٢] فهي التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية، وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة. فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو الفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه، وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال، وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه، وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال، والذي يظهر من كلام ابن دهاق<sup>(١)</sup> في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء، فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه. وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي<sup>(٢)</sup>. فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود، بل هو بسيط واحد. فالحر والبرد، والصلاية واللين، بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها، لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الوجود، وإنما هو في المدارك فقط، فإذا فقدت المدارك المفضلة فلا تفصيل، إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم، فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله له الخيال. قالوا: فكذا يقضيان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه<sup>(٣)</sup> البشري. ولو قُدِّرَ فقد مدركه فقد التفصيل. وهذا هو معنى قولهم الوهم، لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية. هذا ملخص رأيهم على

١ - في الطبقات المتداولة: (ابن دهاق) خطأ. وهو إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المالقي المعروف بابن المرأة. مترجم في الوافي بالوفيات (١٧١/٦)

٢ - بل والموجودات المعقولة والتهومة أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي.

٣ - مصدر ميمي من أدرك.

ما يفهم من كلام ابن دهاق. وهو في غاية السقوط؛ لأننا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقينا مع غيبته عن أعيننا، وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا، والإنسان قاطعٌ بذلك، ولا يكابر أحدٌ نفسه في اليقين. مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: إن المريد عند الكشف ربما يعرضُ له توهم هذه الوحدة، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع. ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات [ظ ٢٢٨/١] ويعبرون ذلك بمقام الفرق، وهو مقام العارف المحقق؛ ولا بُد للمريد عندهم من عقبة الجمع، وهي عقبة صعبة؛ لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته. فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة<sup>(١)</sup>.

١ - يحسن بنا الاطلاع على تفصيل آخر لابن خلدون في حديثه عن التصوف حُسب مغايراً لما نص عليه في هذا الكتاب، قال في شفاء السائل (١٠٠-١٢١): اعلم أن مجاهدة المكاشفة... مشتملة على المجاهدين الآخرين: مجاهدة الاستقامة، ومجاهدة التقوى، إذ هي مشروطة بهما، فصارت حينئذ مشتملة على مجاهدة ورياضة، ثم على مكاشفة ومشاهدة، فلا جرم أن هذا العلم ينقسم إلى نوعين:

علم بأحكام المجاهدات والرياضة وشروطها، ويسمى علم المعاملة.

وعلم برفع الحجاب وأحوال ما بعده، ويسمى علم المكاشفة، وعلم الباطن.

وتحقيقه أن القلب عند تطهيره وتزكيته ممن صفاته المذمومة، ثم إخماد القوى البشرية ومحاذاة جانب الحق به... يرتفع عنه الحجاب، ويتجلى فيه النور الإلهي، فتتكشف له بذلك أسرار الوجود علوه وسفله، وملكوت السماوات والأرض، وتتضح له معاني العلوم والصنائع، وتنحل جميع الشكوك والشبه، ويطلع على ضمائر القلوب وأسرار الوجود، وتتكشف له معاني المشتبهات الواردة في الشرع، حتى تحصل له المعرفة بمقائق الوجود كله على ما هي عليه: من ذات الله وصفاته، وأفعاله وأحكامه وقضائه وقدره والعرش والكرسي واللوح والقلم، والحكمة في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيب الآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوة، والوحي، وليلة القدر، والمعراج، ومعرفة الملائكة، والشیاطين، وعداوة الشیاطین للإنس، ولقاء الملائكة للأنبياء، وظهورهم له، ووصول الوحي إلى النبي، وكرامة الولي، وطريق المجاهدة، وتزكية القلب وتطهيره، ومعنى القلب، والروح، ومعرفة الآخرة، وأحوال القيامة: من الصراط والميزان والحساب والحوض، والشفاعة، وعذاب القبر والجنة والنار والعذاب والنعيم ومعنى لقاء الله، والنظر إليه، والقرب منه، وقربه من العبد، وجميع ما كان يسمع من الأسماء، ويتوهم لها من معاني مبهمة غير متضحة.

**فعلم المكاشفة:** أن يرتفع الغطاء حتى تتضح جليلة الحق في هذه الأمور كلها اتضاحاً يحصل به اليقين الذي يجري مجرى العيان من غير نعت ولا اكتساب، وهذا ممكن في حق هذه اللطيفة الربانية... وإنما حجبها عن ذلك ما تلوث به من توابع البدن وصفات البشرية.

وعلم المعاملة الذي هو علم طريق الآخرة: هو العلم بكيفية تطهير القلب من الخبائث والكدرات بالكف عن الشهوات، وإخماد القوى البشرية بقطع جميع العلائق البدنية، والاعتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم، فبقدر ما ينجلي من القلب، ويحاذي به شطر الحق تتلأأ فيه حقائقه، وهذه هي الرياضة والمجاهدات التي قدمنا ذكرها.

فأما علم المعاملة فهو على صنفين: لأن مطلوب السالك إن كان النجاة فقط، ولم يترق إلى الأعلى منها، فهذا يكفيهِ الورع ومجاهدة القلب، على مقتضى الوقوف عند حدود الله في أعماله الباطنة والظاهرة، وهذا هو فقه الباطن

الذي ذكرنا أنه كان يسمى تصوفاً في الصدر الأول قبل ترقّي المهتم إلى مجاهدة الكشف، وكتاب هذه الطريقة المشهور فيها كتاب الرعاية للحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه.

وإن ترقّي المريد بهمته إلى طلب السعادة الكبرى، والفوز بالدرجات، وتحصيل وسائلها التي هي الاستقامة وكشف الحجاب في حياته الدنيا، فلا بد له من معرفة اصطلاحات القوم، وآدابهم وأحكامهم، وكيفية مجاهداتهم، وسبل تعليمهم، ومراتب المجاهدات والمقامات، وكيف تختلف المجاهدة الواحدة باختلاف المقامات، والأخذ بأقوالهم في ذلك كله، والتقييد للاقتداء بهم، وهذا هو الذي غلب فيه اسم التصوف، وكتاب هذه الطريقة رسالة الأستاذ أبي القاسم القشيري، وفي التأخرين كتاب عوارف المعارف للسهروردي.

ولما كانت مجاهدة الكشف مشروطة بمجاهدة الاستقامة ومجاهدة التقوى، احتاج طالب الكشف إلى أحكام المجاهدات كلها. فجعل الغزالي كتاب الإحياء مشتقاً على الطريقتين: طريقة الورع وفقه الباطن الذي تضمنه كتاب الرعاية وطريقة الاستقامة ومجاهدة الكشف الذي تضمنه كتاب الرسالة.

وأما علم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات ونتيجتها، فلم يكن سبيل إلى الخوض فيه. وقد حذر القوم رضي الله عنهم من إيداعه الكتب والكلام في شيء منه إلا ما يدور بينهم في المفاوضات على سبيل الرمز والإيماء تمثيلاً وإجمالاً، ولا يكشفون لغيرهم شيئاً من معانيه، علماً بقصور الأفهام عن احتماله، ووقوفاً مع حدود الشريعة في ترك الأخذ بما لا يعني، وأديباً مع الله في صون أسرار الربوبية، وإن صدر عن أحد منهم كلمة من ذلك على سبيل النذور سموه شطحاً، بمعنى أن حال الغيبة والسكر استولت عليه حتى تكلم بما ليس له الكلام به، كما ننقل عن أبي يزيد في قوله: سبحاني ما أعظم شأنني، وقوله: جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله. وقول رابعة: لو وضعت خماري على النار ما بقي بها أحد. وأمثال ذلك.

واعلم أن الخوض في هذا الفن من الأقوال محظور من وجوه:

أولها: أن العبارة عن تلك المدارك والمعاني المنكشفة من عالم الملكوت متعذرة، لا، بل مفقودة، لأن ألفاظ التخاطب في كل لغة من اللغات إنما وضعت لمعان متعارفة من محسوس، أو متخيل، أو معقول تعرفه الكافة، إذ اللغات تواضع واصطلاح، فلا توضع إلا للمعروف المتعاقد، فأما ما ينفرد بإدراكه الواحد في الأعصار والأجيال فلم توضع له، ولا يصح أيضاً التحوز بهذه الألفاظ إلى تلك المعاني حتى يقال يعبر عنها بهذه الألفاظ على طريق المحاز، إذ التحوز إنما يكون بعد مراعاة معنى مشترك أو نسبة، ولا نسبة بوجه بين عالم الملكوت وعالم الملك، ولا بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فإذا العبارة عن أحوال عالم الملكوت متعذرة أو مفقودة، فكيف يتكلم بما لا يفهم، فضلاً عن أن يودع الكتب، وإن صاروا إلى ضرب الأمثال والقنوع بالإجمال فسيبيل مبهم.

وثانيها: أن الأنبياء صلوات الله عليهم هم أهل المكاشفة والمجاهدة بالأصل، إذ هي لهم جلبة وطبيعة، واللمحة التي تحصل لغيرهم من ولي أو صديق بتكلف أو اكتساب وإطلاعهم على أحوال الملكوت أكمل من إطلاع العارف والولي، بل لا نسبة بينهما، وهم قادرون على التعبير عن ذلك بإمداد الله إياهم بنوره.

ومع هذا فلم ينقل ذلك، وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقد جعل علماء اليهود الذين سألوه عن الروح، من علامة نبوته وصدق مدعاه أن لا يجب عن ذلك. وإنما دعا الأنبياء الكافة إلى النجاة، ونهوا على تفاوت الدرجات، وأوموا إلى شيء من أحوال عالم الملكوت دعت الضرورة إليه في عقائد الإيمان من أمور الصفات وأحوال القيامة، تعين حمل بعضها الظاهر في عالم الملك كأحوال القيامة، وعد بعضها من التشابه كما في كثير من الصفات، وقد عد بعض العلماء كل ذلك من التشابه، فما ظنك بغير الأنبياء ممن لا يطمع في مداركهم، ولا يرد على حوضهم، ولم تدعه ضرورة التبليغ إلى النطق به.

وثالثها: أن العلوم والمعارف - بحسب نظر الشرع - تنقسم إلى محظور وغير محظور، والقاعدة المستقرأة من الشريعة أن كل مالا يهيم المكلف في معاشه ولا في دينه فهو مأمور بتركه. قال صلى الله عليه وسلم: «من حسن



إسلام المرء تركه مالا يعنيه». قيل: هذا الحديث ثلث الدين، فما يهتم المكلف في دينه أو معاشه فغير محظور، وربما تنتهي الأهمية فيه إلى الجواب.

ومن هذا العلم بفروض الأعيان إذ هو أهم بحسب الدين. ومالا يهتم المكلف في دينه ولا معاشه تجده محظوراً. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ تجدد في قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] رائحة إنكار الدال على الخطر، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] معناه أن الذي يهتمكم من أمر الأهلة كونها معالم للحج، وهذا من أمور الدين، أو معالم للناس في مزارعهم ومتاجرهم، وهذا من أمور المعاش، وما سوى ذلك فلا حاجة لكم به، ثم عقبه بذكر ما هو أهم، وهو النهي عما كان بعض الحاج يفعلون في إحرامهم من هجر البيوت في الدخول، وإتيانها من ظهورها، ففي تعقيبها بهذا الحكم بعد الإضراب عن مقصود السؤال تنبيه وإيماء على حظر الشارع لذلك، وطلب تركه من المكلفين.

ثم إن قوماً من المتصوفة المتأخرين عنواناً يعلمون المكاشفة، وعكفوا على الكلام فيها، وصيروها من قبيل العلوم والاصطلاحات، وسلكوا فيها تعليماً خاصاً، ورتبوا الموجودات على ما انكشف لهم ترتيباً خاصاً، يدعون فيه الوجدان والمشاهدة، وربما زعم بعضهم في ذلك غير ما زعمه الآخرون، فتعددت المذاهب، واختلقت النحل والأهواء، وتباينت الطرق والمسالك، وتميزت الطوائف، وصار اسم التصوف مختصاً بعلوم المكاشفة، والبحث - على طريقة العلوم الاصطلاحية الكسبية - عن أسرار الملوك والإبانة عن حقائق الوجود، والوقوف على حكمته وأسراره، ثم يفسرون التشابه من الشريعة كالروح والملك والوحي والعرش والكرسي، وأمثالها بما لا يتضح أو يكاد، وربما يتضمن أقوالاً منكراً، ومذاهب مبتدعة، ككلمات الباطنية في حمل كثير من آيات القرآن المعلومة الأسباب على معنى الباطن، ويضربون بحجب التأويل على وجوها السافرة وحقائقها الواضحة، كقولهم في آدم وحواء، إنهما النفس والطبيعة، وقولهم في ذبح البقرة: إنها النفس، وقولهم في أصحاب الكهف: إنها الخالدون إلى أرض الشهوات، وأمثال ذلك، فتسكن قلوب كثير من أهل الضلال إلى ذلك استجلاءً لتحصيل الغايات في البدايات، واغتناماً للزبدة للمخوضه خالصة من المتاعب، فإذا طالبهم الإنكار بتحقيق دعائهم لجأوا إلى الوجدان الذي لا يتعدى دليله، ولا يتضح على الغير برهانه، ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فلقد كان لهم سعة في تقليد السلف منهم في النهي عن الخوض في ذلك، وإذا كانت كلماتهم وتفسيرهم لا تفارق الإبهام والاستغلاق، فما الفائدة فيها، فالرجوع إذن إلى تصفح كلمات الشرع واقتباس معانيها من التفاسير المعتضدة بالأثر، ولو كانت لا تخلص من الإبهام. أولى من إبهامهم الذي لا يستند إلى برهان عقل ولا قضية شرع.

والذي يجمع مذاهبهم على اختلافها وتشعب طرقها رأيان:

**الرأي الأول:** رأي أصحاب التجلي، والمظاهر، والأسماء والحضرات، وهو رأي غريب فليس فيه إشارة، ومن أشهر المتتمهين به ابن الفارض وابن برجان، وابن قوي، والبوني والحامّي وابن سودكين.

وحاصله في ترتيب صدور الموجودات عن الواجب الحق: أن نية الحق هي الوحدة، وأن الوحدة نشأت عنها الأحدية والواحدية، وهما اعتباران للوحدة، لأنها إن أخذت من حيث سقوط الكثرة وانتفاء الاعتبارات فهي الأحدية، ونسبة الواحدية إلى الأحدية، نسبة الظاهر إلى الباطن، والشهادة إلى الغيب، فهي مظهر للأحدية بمنزلة المظهر للمتجلي، ثم تلك الوحدة الجامعة التي هي عين الذات وعين قبولها للاعتبارين، أعني اعتبار الباطن وتوحده عن الكثرة، واعتبار الظاهر وتكثره، فهي بين البطون والظهور كالمحدث في نفسه مع نفسه.

ثم أول مراتب الظهور ظهوره لنفسه، وأول متعلق الظهور الكمال الأسمائي للحديث مع نفسه، وأول التجليات تجلي الذات الأقدس على نفسه، وأول التجليات تجلي الذات الأقدس على نفسه، وينقلون في هذا حديثاً نبوياً يجعلونه أصل نخلتهم، وهو: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفوني». والله أعلم بصحته، مع أنه لا يشهد - ولو صح - بتفاصيل هذا المذهب، ولا يقوم له بدليل واضح.

ثم تضمن هذا التحلي عندهم الكمال، وهو إفاضة الإيجاد والظهور، وليس هو من حيث الأحدية التي هي سلب الكثرة، بل من حيث الواحدية التي هي المظهر، وتنقسم إلى كمال وحداني، وكمال أسمائي، لأن تلك الكثرة التي اعتبرت من حيث حصولها جميعاً دفعة واحدة، وعيناً واحدة في شهود الحق، فهو الكمال الوحداني، وإن اعتبرت من حيث التفصيل في الحقائق والاعتبارات، والتنزل في الوجود، وأنها البرزخ الجامع لتلك الأفراد المنفصلة، فهو الكمال الأسمائي المنزل تفصيله في الحقائق، وهذه عندهم هي عالم المعاني والحضرة العمائية وهي الحقيقة المحمدية، ومن أعيان كثرتها حقيقة القلم واللوح، ثم حقيقة الطبيعة، ثم حقيقة الجسم إلى آدم حقيقة وجوداً، وتشتمل الحضرة العمائية عندهم من حيث اعتبار الكثرة والتفصيل على الحقائق السبعة الأسمائية التي هي الصفات، وأشملها وأوعبها حقيقة الحياة، ثم على حقائق الأنبياء والرسل والكمل من المحمدين الذين هم الأقطاب وعلى حقائق الأبدال السبعة، وهي كلها تفصيل الحقيقة المحمدية، ثم تنفرع من الحقائق التي هي الأصول والمناشئ حقائق أخرى، وتحليلات ومظاهر للذات الأحدية، وتترتب على أنواع في الترتيب، حتى تنتهي إلى عالم الحس والشهادة، وهو عالم الفتق يسمونها عوالم وحضرات ومجالي للحقائق المنسوبة إلى الحق تارة، وإلى الكون أخرى، وأول حضرة وليست الحضرة العمائية عندهم هي الحضرة الهباتية وتسمى مرتبة المثال، ثم العرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك على ترتيبها، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب إلى آخره وغايته، وما دامت هذه كلها منسوبة إلى الحق، وفي اعتبار الذات البرزخية الجامعة على تفاصيلها، وتوالي ترتبها منهي في عالم الرق، فإذا نسبت إلى الكون وتجلت في مظاهره فهي في عالم الفتق، إلى تفصيل كثير وعبارات مبهم، واصطلاح شارد فهي حاصلة - إذ خلص وهذب واتضح للفهم موضوعه ومسائله - أنه ترتيب للوجود قريب من ترتيب الفلاسفة، شبيه بآرائهم الكسبية وعلومهم، من غير برهان يشهد له، ولا دليل يقوم عليه.

### الرأي الثاني:

رأي أصحاب الوحدة، وهو رأي أغرب من الأول في مفهومه وتعقله.

ومن أشهر القائلين به ابن دهاق، وابن سبعين، والششتري وأصحابهم، وحاصله - بعد إنعام النظر والخوض فيما خاض فيه غيرهم في الواحد وما صدر عن الواحد - أن الباري جل وعلا هو مجموع ما ظهر وما بطن، ولا شيء خلاف ذلك، وأن تعدد هذه الحقيقة المطلقة، الآنية الجامعة التي هي عين كل آنية، والهوية التي هي عين كل هوية إنما وقع بالأوهام: من الزمان والمكان والخلاف والغيبة، والظهور، والألم، واللذة، والوجود، والعدم، قالوا: وهذه كلها إذا حقت إنما هي أوهام راجعة إلى إخبار الضمير وليس في الخارج شيء منها، فإذا أسقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحق، والعبد مؤلف من طرفي حق وباطل، فإذا أسقط الباطل وهو اللازم بالأوهام لم يبق إلا الحق، وارتكبوها في الشريعة ومتشابهها مرتكبات غريبة، وينفرد عندهم بسر الوجود المكنوم من بلغ درجة العارفين، وهم أهل التحقيق، والتحقيق يطلقونه على هذا العلم، وأن الأنبياء والعلماء والأولياء علموه وخصوا من رآه أهلاً له.

والدرجات عندهم أولها: الصوفي للتحريد، ثم المحقق لمعرفة الوجود، ثم المقرب، وهو الذي اجتزأ من عين عينه على الأثر، وزعم عبد الحق في بعض كتبه أن هذا الرأي محدث بقوله: وهذا الذي نريد أن ننبه عليه هو مما لم يسمع في عصره، ولا قيل إنه ظهر في دهره، ولا مما دون، أو علم في فلاة ولا مصر، ثم قال وأكذب بقوله: وهو مأخوذ من كلام الله ورسوله، ثم نشأ عن الخوض في علم المكاشفة عند أهل هذا الرأي من الكمال الأسمائي الذي كانت مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء والأكوان من لدن الإبداع الأول، تنتقل في أطواره، وتعرب عن أسرارها، فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو علم لا يوقف على موضوعه، ولا تحاط بالعدد مسائله، تعددت فيه تواليف البوني، وابن العربي، وغيرهما ممن اتبع آثارهما.

وحاصله عندهم تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى، والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان، ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحرف. بمن هو؟ فمنهم من جعله المزاج الذي فيه، وقسم الحروف بقسمه الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر، واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف

يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعالاً بذلك الصنف، فتتوعد الحروف بقانون صناعي يسمونه التفسير إلى نارية وهوائية، ومائية وترابية، على حسب تنوع العناصر، فالألف للنار، والباء للهواء، والجيم للماء، والذال للتراب، ثم كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تبعد فيعين لعنصر النار حروف سبعة: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال. ويعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً: الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء. ويعين لعنصر الماء سبعة أيضاً: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والتاء والغين. ويعين لعنصر التراب سبعة أيضاً: الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين.

نارية	هوائية	مائية	ترابية
أ	ب	ج	د
هـ	و	ز	ح
ط	ي	ك	ل
م	ن	ص	ع
ف	ض	ق	ر
س	ت	ث	خ
ذ	ظ	غ	ش

فالحروف النارية لدفع الأمراض الباردة، وللمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها، إما حساً أو حكماً كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب والقتل والفتك، والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها، وتضعيف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً، كتضعيف قوة القمر وأمثال ذلك.

ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحرف للنسبة العددية، فإن حروف أبجد دالة على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً، كما بين الباء والكاف والراء لدلالاتها كلها على الاثنين كل في مرتبته، فالباء على اثنين في مرتبة الأحاد، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة المئين، كالذي بينها أيضاً وبين الدال والميم والتاء، لدلالاتها كلها على الأربعة، وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف، وخرج للأسماء أوافق كما للأعداد، يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوافق الذي يناسبه من حيث عدد الشكل وعدد الحروف وامتزاج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لأجل التناسب العددي بينها.

فأما سر هذا التناسب الذي بين الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف والأعداد فأمر عسير على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستنده عندهم الذوق والكشف. قال البوني: ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي، وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي.

وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها، وتأثير الأكوام عن ذلك، فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً، وقد يُظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك، فإن حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية، من جوهر القهر يفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية، وبخورات جالبة لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية.

وهو عندهم كالخميرة المركبة من أرضية وهوائية ومائية ونارية، حاصلة في جملتها، تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها، وتقلبه إلى صورتها، وكذلك الأكسير للأجسام المعدنية يحيلها إلى نفسه كما تحيل الخميرة ما حصلت فيه إلى نفسها، ولذلك يقولون: موضوع الكيمياء جسد في جسد، لأن أجزاء الأكسير الذي هو موضوع العمل والصنعة كلها جسدانية، ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد، لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، والطبائع السفلية جسدانية، والطبائع العلوية روحانية.

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كلها إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية، لأن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات.

إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استنزال روحانية الأفلاك، وربطها بالصور أو بالنسب العددية، حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة فيما حصلت فيه.

وتصرف أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني، فيستخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها، لأن مدده أعلى منها، ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك، وأهون بها وجهة ورياضة، بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب، وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله بهم.

فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملوك الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات، وتصرف بها من هذه الحثيثة - وهؤلاء هم أهل السيمياء في المشهور - كان إذن لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات أوثق منه، لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مترتبة.

وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار للمناسبات، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه، فيكون حاله أضعف رتبة، وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذكره من الأسماء الحسنى أو ما يرسم من أوقافهم، بل ولسائر الأسماء أوقاتاً تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم، كما فعله البوني في الأنماط.

وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية، وهي برزخية الكمال الأسمائي، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة، وإثبات هذه المناسبة عندهم بحكم المشاهدة التي تقدم الكلام فيها، فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقى تلك المناسبة تقليداً كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم، بل هو أوثق منه كما قلناه.

وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب. إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من أهل المشاهدة. وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعاني، والحروف والأسماء من جملة ما فيه، فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه، ويئون على ذلك مباني غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة الجريطي في غايته.

والظاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم، فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها وتصفححت الدعوات التي تضمنتها؛ وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة، ثم وقفت على الغاية وتصفححت قيامات الكواكب السبعة التي فيها، شهد لك ذلك، إما بأنه من مادتها، أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بلك كله.

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

وليس كل ما حرمه الشرع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع خطره، لكن حسبنا من العلم ما علمناه الشرع.

ثم إن تواليف هؤلاء المتصوفة الخائضين في علم المكاشفة تعددت، وطال فيها الخوض وتعذر البيان، وكف كثير من أهل البطالة على تصفحها، ووقف بهم العجز والكسل - الذي تعوذ منه النبي صلى الله عليه وسلم - عندها، يظنون أن السعادة بمعرفة أسرار الملوك في طبي صفحاتها، وهيئات لذلك.

وما أوقع في هذا الخباط كله إلا الخوض في علوم المكاشفة الذي حقه عند أئمة القوم أن لا يخاض فيه، وأنه سر الله، فلا يشفيه عارف.

## ١-٦-١٨-١- (فصل):

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكُشْفِ وَفِيمَا وَرَاءَ الْحَسَنِ تَوَغَّلُوا فِي ذَلِكَ، فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى الْخُلُوعِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَمَلَأُوا الصَّحُفَ مِنْهُ، مِثْلَ الْهَرَوِيِّ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرِهِ، وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ سَبْعِينَ وَتَلْمِيزُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ وَابْنُ الْفَارُضِ وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قِصَائِهِمْ. وَكَانَ سَلْفُهُمْ مَخَالِطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الرَّافِضَةِ الدَّائِنِينَ أَيْضاً بِالْخُلُوعِ وَإِلَهِيَّةِ الْأَئِمَّةِ مَذْهَباً لَمْ يَعْرِفْ لِأَوَّلِهِمْ. فَأَشْرَبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَذْهَبَ الْآخَرِ، وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُمْ، وَتَشَابَهَتْ عَقَائِدُهُمْ. وَظَهَرَ فِي كَلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ، وَمَعْنَاهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسَاوِيَهُ أَحَدٌ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبِضَهُ اللَّهُ، ثُمَّ يُورَثُ مَقَامَهُ لِآخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الْإِشَارَاتِ فِي فِصُولِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا، فَقَالَ: جَلَّ جَنَابُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شَرْعَةً لِكُلِّ وَارِدٍ، أَوْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ. وَهَذَا كَلَامٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُطَابَةِ؛ وَهُوَ بَعِينٌ مَا تَقُولُهُ الرَّافِضَةُ فِي تَوَارِثِ الْأَئِمَّةِ عِنْدَهُمْ. فَانْظُرْ كَيْفَ سَرَقَتْ طَبَاعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ هَذَا الرَّأْيَ مِنَ الرَّافِضَةِ، وَدَانُوا بِهِ. ثُمَّ قَالُوا بِتَرْتِيبِ وَجُودِ الْأَبْدَالِ بَعْدَ هَذَا الْقُطْبِ كَمَا قَالَهُ الشَّيْعَةُ فِي النُّقَبَاءِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا أَسْنَدُوا لِبَاسِ خِرْقَةِ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَصْلاً لَطَرِيقَتِهِمْ وَنَحْلَتِهِمْ وَقَفُوهُ عَلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً. وَإِلَّا فَعَلِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَخْتَصْ مِنْ

وَلَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورِ الْحَلَاجِ بَفْتَاىَ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ وَأَهْلِ الْحَقِيقَةِ، وَقَصَارَى اعْتِزَارٍ مِنْ يَحْسَنِ الظَّنِّ بِهِ مِنْهُمْ أَنَّهُ سَكَّرَ فَبَاحَ بِالسَّرِّ فَوَجِبَتْ عَقُوبَتُهُ، وَإِلَّا فَالْأَغْلَبُ فِي حَقِّهِ التَّكْفِيرُ. وَلَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ صَاحِبُ كِتَابِ الْغَايَةِ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّحَرِيَّةِ لَا يَتَعَمَّدُهَا مُسْلِمٌ، فَكَيْفَ عَارَفَ، فَإِذَنْ الْخَوْضُ فِي عِلْمِ الْمَكَاشِفَةِ وَالْكَفِّ بِمَوْضُوعَاتِهَا وَمَقَالَاتِ أَهْلِهَا ضَرْبٌ مِنَ الْبَطَالَةِ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِدَلَالَةِ إِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ مَرْتَقِيَةً بِهَمَّتِهَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ، مُتَطَلِّعَةً إِلَى فَهْمِ أَسْرَارِ الْمَلَكُوتِ فَعَلِيهِ بِالْمُجَاهِدَةِ وَالسَّلُوكِ، فَهِيَ يَقْضِيَانِ بِهِ إِلَى ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْمَلَكُوتِ، مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَالْإِصْطِلَاحَاتِ، وَمُسْطَرَّاتِ الدَّوَاوِينِ، إِذْ لَا دَلَالَةَ لِلْأَلْفَاظِ عَلَيْهَا، لِعَدَمِ الْوَضْعِ، وَعَدَمِ الْمُنَاسِبَةِ لِلتَّحْجُوزِ، كَمَا مَرَّ، وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ مُتَكَاسِلَةً عَنْ ذَلِكَ، مُنْحَطَّةً إِلَى حَضِيضِ التَّقْلِيدِ، فَمَالَهُ وَكَلِمَاتُ يُوَدِّيهِ الْخَوْضُ فِيهَا إِلَى عِلْمٍ أَشْبَهَ بِعِلْمِ الْفَلَسَافَةِ، بَلْ عِلْمِ الْفَلَسَافَةِ تَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ بَرَهَانٍ بِنَظْمٍ أَقْيَسَ، وَتَرْتِيبٍ أَدْلَى، بِخِلَافِ أَقْوَالِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الْبَرَهَانَ الصَّنَاعِيَّ مَفْقُودٌ، وَالْوُجُودَانِ مَخْصُوصٌ، فَلَمْ يَقَعْ إِلَّا الْقَبُولُ بِمَحْجَرَدِ حَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ لَوْ أَبَانَ الْأَلْفَاظُ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ، وَكَيْفَ يَحْسَنُ الظَّنُّ بِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْ ظَاهِرِ أَقْوَالِهِمْ مَخَالِفٌ لظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يَحْسَنُ ظَنُّ مَنْ خَالَفَ الشَّرْعَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ. ذَكَرَ لِأَبِي يَزِيدَ رَجُلٌ، وَصَفَ لَهُ بِالْعِرْفَانِ؛ وَطَلَبَ زِيَارَتَهُ وَقَالَ: مَنْ لَا يُؤْمِنُ عَلَى آدَابِ الشَّرِيعَةِ، كَيْفَ يُؤْمِنُ عَلَى أَسْرَارِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَ الشَّرْعُ نَهَى هَؤُلَاءِ عَنِ الْخَوْضِ فِي عِلْمِ الْمَكَاشِفَةِ، وَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ، فَكَيْفَ يُوثِقُ بِهِمْ فِي أَسْرَارِ اللَّهِ

تَعَالَى، وَتَتَلَقَّى مِنْهُمْ بِحَسَنِ الْقَبُولِ؟

هَذَا لَوْ خَلَصَتْ عِبَارَتُهُمْ مِنَ الْإِبْهَامِ، فَكَيْفَ وَهِيَ مُتَلَبِّسَةٌ بِدَعَا أَوْ كُفْرٍ. أَعَادَنَا اللَّهُ.

فَلَيْسَ هَذَا الَّذِي سَمَّوْهُ تَصَوُّفاً بِتَصَوُّفٍ، وَلَا مَشْرُوعَ الْقَصْدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لبوس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة، ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة، تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم.

نعم إن الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون من سواه من الصحابة، ذهاباً مع عقائد التشيع المعروفة لهم؛ والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق [ظ ٢/٢٢٨]، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم، في الإمامة وما يرجع إليها مما هو معروف، فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن، وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك، أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وزانه في الباطن، وسموه قطباً لمدار المعرفة عليه. وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه. فتأمل ذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا كتبهم في ذلك، مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

### ١ - ٦ - ١٨ - ١ - ١ - تذييل:

وقد رأيت أن أجب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالأندلس أبي مهدي عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة، أو يكاد يصرح بها، وهي قوله:

ما وحد الواحد من واحدٍ	إذ كل من وحده جاحدٌ
توحيد من ينطق عن نعته	تنبيه أبطها الواحد
توحيد إياه توحيد	ونعت من ينعت لاجد

فيقول رحمة الله عليه على سبيل العذر عنه: استشكل الناس لفظ الجحود على كل من وحد الواحد<sup>(١)</sup>، ولفظ الإلحاد على من نعتَه وَوصَفَه<sup>(٢)</sup> واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا على قائلها واستخفوه.

ونحن نقول على رأي هذه الطائفة: إن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث

١ - أي في قول الهروي: إذ كل من وحده جاحد.

٢ - أي في قول الهروي: ونعت من ينعت لاحد.

بثبوت عين القدم؛ وإن الوجود كله حقيقة واحدة وإثنية<sup>(١)</sup> واحدة. وقد قال أبو سعيد الخراز<sup>(٢)</sup> من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الأثنينية، وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الظلال والصدأ والمرأى، وأن كل ما سوى عين القدم إذا استتبع فهو عدم. وهذا معنى: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان»<sup>(٣)</sup>. عندهم. ومعنى قول لبيد الذي صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل»<sup>(٤)</sup>.

قالوا: فمن وحد ونعت فقد قال بموجدٍ مُحدثٍ [ظ ١/٢٢٩] هو نفسه، وموجدٍ<sup>(٥)</sup> محدث هو فعله؛ وموجدٍ قديم هو معبودٌ.

وقد تقدم أن معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث. وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة. والتوحيد مجحد، والدعوى كاذبة؛ كمن يقول لغيره وهما معا في بيت واحد: ليس في البيت غيرك، فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عدمت أنت.

وقد قال بعض المحققين في قولهم: خلق الله الزمان، هذه ألفاظ تتناقض أصولها، لأن خلق الزمان متقدم على الزمان، وهو فعل لا بد من وقوعه في الزمان. وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق، وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموجد هو الموجد وعُدِمَ ما سواه جملةً صحَّ التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: لا يعرف الله إلا الله.

ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار، وإنما هو من باب: حسنات

١ - قال الكاشاني في اصطلاحات الصوفية ص ٣٣: الإنية: تحقيق الوجود العيني من حيث رتبته الذاتية.

٢ - في المطبوعات: (الجزار). وهو أحمد بن سعيد البغدادي. قال السلمي: أنكر أهل مصر على أبي سعيد وكفروه بألفاظ، فإنه قال في كتاب السير: فإذا قيل لأحدهم: ما تقول؟ قال: الله. وإذا تكلم قال: الله، وإذا نظر قال: الله، فلو تكلمت جوارحه قالت: الله، وأعضاؤه مملوءة من الله. فأنكر عليه هذه الألفاظ. وأخرجوه من مصر. قال: ثم رد بعد عزيزاً. انظر ترجمته في تاريخ بغداد (٢٧٧/٤) وسير أعلام النبلاء (٤١٩/١٣ - ٤٢٢) والخراز: نسبة إلى خرز الجلود كالقرب.

٣ - أخرجه البخاري (٣١٩٠) و(٣١٩١) و(٤٣٦٥) و(٤٣٨٦) و(٧٤١٨) وابن حبان (٦١٤٠) و(٦١٤٢) من حديث عمران بن حصين: كان الله وليس شيء غيره - وفي رواية: قبله - وكان عرشه على الماء.

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢٠١١) نقلاً عن القاري: لكن الزيادة وهي قوله: وهو الآن على ما عليه كان. من كلام الصوفية: قال: ويشبه أن يكون من مفتريات الجودية القائلين بالعينية. قال: وقد نص ابن تيمية كالحافظ العسقلاني على وضعها. وإن صحت فتأويلها أنه تعالى ما تغير بحسب ذات الكمال وصفات الجلال عما كان عليه بعد خلق الموجودات. انتهى ملخصاً. لكن قال النجم: ذكر ابن عربي في الفتوحات أنها مدرجة في الخبر.

٤ - أخرجه البخاري (٣٦٢٨) و(٥٧٩٥) و(٦١٢٤) ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وفي رواية: أشعر كلمة... وفي رواية: أصدق بيت قالته الشعراء...

٥ - في ظ: توحيد.

الأبرار سيئاتُ المقرين. لأن ذلك لازمُ التقييد والعبودية والشفعية<sup>(١)</sup>. ومن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً مع علمه بمرتبته، وأنه تلبس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويظهر من دنس حدوثه عين الجمع.

وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة، ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد.

وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين لمقام أعلى ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق عيناً لا خطاباً وعبارة. فمن سلم استراح، ومن نازعته حقيقته أنسَ بقوله: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ»<sup>(٢)</sup>. وإذا عرفت المعاني لا مُشَاحَّةَ في الألفاظ. والذي يفيد هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور لا نطق فيه ولا خبر عنه. وهذا المقدار من الإشارة كافٍ. والتعمق في مثل هذا حجاب. وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة. انتهى كلامُ الشيخ أبي مهدي بن الزيات. ونقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي ألفه في المحبة وسمّاه: التعريف بالحبِّ الشريف، وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً، إلا أنني رأيت رسوم الكتاب أوعى له، لطول عهدي به، والله الموفق.

١ - نسبة إلى الشفع وهو المتعدد والزوج من الأعداد، ويقابله الوتر وهو الواحد وما لم يتشفع من العدد.

٢ - أخرج البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه... وانظر ابن حبان (٣٤٧).



## ١-٦-١٨-٢- (فصل):

ثم إنَّ كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للردِّ على هؤلاء المتأخريين في هذه المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة.

والحقُّ أن كلامهم معهم فيه تفصيل. فإنَّ كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على [ظ ٢/٢٢٩] المجاهدات، وما يحصل من الأذواق<sup>(١)</sup> والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال، لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما، ويترقى منه إلى غيره كما قلناه.

وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، مثل الصفات الربانية والعرش والكرسيّ والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان في صدورهم عن موجدتها وتكونها كما مر.

وثالثها التصرُّفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات.

ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول.

فأمَّا الكلام في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقيق بها هو عين السعادة.

وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات<sup>(٢)</sup>. فأمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحقِّ. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدّي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية، فإن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها، وهو محال<sup>(٣)</sup>. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة. وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثيرٌ من ذلك، وهو معلوم مشهور.

وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر

١ - في ظ: الأرزاق.

٢ - تكلم ابن خلدون في هذه الفقرة على الأمر الثالث من الأمور التي ذكرها سابقاً، وسيتكلم عن الأمر الثاني في الفقرة التالية، ويعرض بعده للأمر الرابع.

٣ - عرض ابن خلدون لهذه الحقائق نفسها في المقدمة السادسة من الباب الأول.

كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني، وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من التشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات [ظ ١/٢٣٠] على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة.

وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب<sup>(١)</sup>؛ والمجبور معذور. فمن علم منهم فضله واقتدائه حمل على القصد الجميل من هذا [وأمثاله]. وإن العبارة عن الواحد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبي يزيد [البسطامي] وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك، إذ لم يتبين لنا ما يحملنا علي تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر الصوفية بقتل الحلاج<sup>(٢)</sup> لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله. والله أعلم.

وسلف المتصوفة من أهل الرسالة<sup>(٣)</sup> أعلام الملة - الذين أشرنا إليهم من قبل - لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا. ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به؛ بل يفرون منه، ويرون أنه من العوائق والحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان، وعلم الله أوسع، وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أمثل، فلم ينطقوا بشيء مما يدركون، بل حظروا الخوض في ذلك، ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء، ويأمرؤن أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد. والله أعلم بحقيقة الحال<sup>(٤)</sup>.

١ - يعني غير مؤاخذ بما يصدر عنه مثل: الصبي والجنون.

٢ - هو الحسين بن منصور، لقب بذلك - فيما قيل - لأنه جلس على حانوت حلاج واستقضاه شغلاً، فقال الحلاج: أنا مشغول بالحلاج. فقال له: امض في شغلي حتى أحلج عنك. فمضى وتركه، فلما عاد رأى قطنه جميعه محلوجا. انظر وفيات الأعيان (١/١٤٧).

٣ - يعني: القشيرية.

٤ - في ن: والله الموافق للصواب.

## ١-٦-١٩. الفصل التاسع عشر: في علم تَغْيِيرِ الرؤيا

هذا العلمُ من العلوم الشرعيّة، وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صنائع، وكتب الناس فيها. وأمّا الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الخلف. وربما كان في الملوك والأمم من قبل. إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام. وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بدّ من تعبيرها. فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن<sup>(١)</sup>. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup>، وعن أبي بكر رضي الله عنه<sup>(٣)</sup>. والرؤيا مدرك في مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»<sup>(٤)</sup>. وقال: «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تروى له»<sup>(٥)</sup>.

وأول ما بدىء به النبي صلى [ظ ٢/٢٣٠] الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح<sup>(٦)</sup>. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انفتل<sup>(٧)</sup> من صلاة الغداة يقول لأصحابه: «هل رأى أحدٌ منكم الليلة رؤيا»<sup>(٨)</sup>. يسألهم عن ذلك ليستبشروا بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه.

وأما السبب في كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح القلبي، وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها؛ فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة، وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي، فيستجم بذلك لمعاودة فعله،

١ - في سورة يوسف الآية: ٤٣ - ٤٩.

٢ - انظر صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم (٥/٢٣٠).

٣ - انظر صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا (٥/٢٢٩٨).

٤ - أخرجه البخاري (٦٥٨٧ و ٦٦١٤) ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة.

٥ - أخرجه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة ومسلم (٤٧٩) بنحوه عن ابن عباس.

٦ - أخرجه البخاري (٣) عن أم المؤمنين عائشة.

٧ - قتل وجهه عن الشيء وقد انفتل وتفتل انصرف عنه.

٨ - أخرجه البخاري (٨٠٩ و ١٠٩٢ و ١٣٢٠ و ١٩٧٩ و ٢٦٣٨ و ٣٠٦٤ و ٣١٧٦ و ٤٣٩٧ و ٥٧٤٥ و

٦٦٤٠) ومسلم (٢٢٧٥) من حديث سمرة بن جندب.

فتعطلت الحواس الظاهرة كلها؛ وذلك هو معنى النوم كما تقدم في أول الكتاب، ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان، والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك. وإنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته، وهو عين الإدراك، فيعقل كل مدرك. فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك لحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه الحالة خفت شواغل الحس الظاهر كلها، وهي الشاغل الأعظم، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللاتئة من عالمه. وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع إلى بدنه، إذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم إنما هي الدماغية، والمتصرف منها هو الخيال، فإنه ينتزع من الصور المحسوسة، صوراً خيالية، ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال. وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية، فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول، والخيال واسطة بينهما. ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ما تدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له، ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس، فينتزل<sup>(١)</sup> المدرك من الروح العقلي إلى الحسي. والخيال أيضاً واسطة. هذه حقيقة الرؤيا.

ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصادقة<sup>(٢)</sup> وأضغاث [ظ ٢٣١/١] الأحلام الكاذبة. فإنها كلها صور في الخيال حالة النوم. ولكن إن كانت تلك الصور منتزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا، وإن كانت مأخوذة من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام.

واعلم أن للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها؛ فيستشعر الرائي البشارة من الله بما ألقى إليه في نومه؛ فمنها سرعة انتباه الرائي عندما يدرك الرؤيا، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة، ولو كان مستغرقاً في نومه، لثقل ما ألقى عليه من ذلك الإدراك، فيفر من تلك الحالة إلى حالة الحس التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه؛ ومنها ثبوت ذلك الإدراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه، فلا يتخللها سهو ولا نسيان. ولا يحتاج إلى إحضارها بالفكر والتذكر، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه، ولا يغرب عنه شيء منها، لأن الإدراك النفساني ليس بزمني ولا يلحقه ترتيب، بل يدركه دفعة في زمن فرد. وأضغاث الأحلام زمانية، لأنها في القوى الدماغية

١ - في ن: فينتزع.

٢ - في المطبوع: الصالحة.

يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه. وأفعال البدن كلها زمانية، فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر. ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية. وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست بزمانية، ولا ترتيب فيها. وما ينطبع فيها من الإدراكات فينطبع دفعة واحدة في أقرب من لمح البصر. وقد تبقى الرؤيا بعد الانتباه حاضرة في الحفظ أياماً من العمر، لا تشذ بالغفلة عن الفكر بوجه، إذا كان الإدراك الأول قوياً.

وإذا كان إنما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهة إليها، وينسى الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة؛ وإنما هي من أضغاث الأحلام. وهذه العلامات من خواص الوحي. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح. قال صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». فلخواصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة، وبذلك القدر؛ فلا تستبعد ذلك، فهذا وجه الحق. والله الخالق لما يشاء.

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوره [ظ ٢/٢٣١] فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء، كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر، أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية، فإذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة، وأن المدرك وراءها، وهو يهتدي بقرائن أخرى تعين له المدرك، فيقول مثلاً: هو السلطان، لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان. وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها، وكذا الأواني تشبه بالنساء لأنهن أوعية، وأمثال ذلك. ومن المرئي ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير لجلائها ووضوحها أو لقرب الشبه<sup>(١)</sup> فيها بين المدرك وشبهه. ولهذا وقع في الصحيح: «الرؤيات ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان»<sup>(٢)</sup>. فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل، والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير؛ والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث.

واعلم أيضاً: أن الخيال إذا ألقى إليه الروح مدركه فإنما يصوره في القوالب المعتادة

١ - في ن: النسبة.

٢ - مر تخريجه، ولم أجده بهذا اللفظ إذ أغفل المصنف رحمه الله: تحديث النفس.

للحسن، ما لم يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه. فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبحر، ولا العدو بالحية، ولا النساء بالأواني، لأنه لم يدرك شيئاً من هذه. وإنما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات. وليتخفظ المعبر من مثل هذا، فرمما اختلط به التعبير، وفسد قانونه.

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبيّن عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما يقولون: البحر يدل على السلطان؛ وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ؛ وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الهمّ والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العدو، وفي موضع آخر يقولون: هي كاتم سر؛ وفي موضع آخر يقولون: تدل على الحياة. وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا، وتلك القرائن، منها في اليقظة، ومنها في النوم، ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه: و«كلّ ميسر لما خلق له»<sup>(١)</sup>.

ولم يزل هذا العلم متناقلاً بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين، وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرمانى فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا. والمتداول [ظ ٢٣٢/١] بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره، وكتاب الإشارة للسالمي من أنفع الكتب فيه وأخصرها، وكذلك كتاب المراقبة العليا لابن راشد من مشيختنا بتونس. وهو علم مضيء بنور النبوة للمناسبة بينهما، ولكونها كانت من مدارك الوحي، كما وقع في الصحيح<sup>(٢)</sup>. والله علام الغيوب.

١ - أخرجه البخاري (٦٢٢٣ و ٧١١٢) ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين.

٢ - يريد قوله صلى الله عليه وسلم: الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة....

## ١- ٦- ٢٠- الفصل العشرون: الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ وَأَصْنَافُهَا

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بجملة بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة. وهي مشتملة على أربعة علوم:

الأول: علم المنطق، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها<sup>(١)</sup>، ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهاى فكره.

ثم النظر بعد ذلك عندهم: إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان، والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية، والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها. وإما أن يكون النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وهو الثالث منها.

والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير. ويشتمل على أربعة علوم، وتسمى التعاليم: أولها: علم الهندسة وهو الناظر في المقادير على الإطلاق: إما المنفصلة من حيث كونها معدودة، أو المتصلة. وهي: إما ذو بعد واحد وهو الخط؛ أو ذو بعدين وهو السطح؛ أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي. ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها: إما من حيث ذاتها، أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض. وثانيهما: علم الأَرْتَمَاتِيْقِي<sup>(٢)</sup>، وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد، ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء. رابعها: علم الهيئة، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها، وتعددتها لكل

١- في ن: الناظر في التصورات والتصديقات الذاتية والعرضية.

٢- أَرْتِمِيْتِيْك ARITHMETIQUE وعربت هذه الكلمة إلى الأَرْتَمَاتِيْق أو الأَرْتَمَاتِيْقِي. وهو علم العدد أو الحساب. ٣- في ظ: شاهدة..

كوكب من السيارة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات [ظ ٢/٢٣٢] السماوية المشاهدة<sup>(٣)</sup> الموجودة لكل واحد منها، ومن رجوعها واستقامتها، وإقبالها وإدبارها.

فهذه أصول العلوم الفلسفية، وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها، وبعده التعاليم، فالأرتماتيقي أولاً، ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى؛ ثم الطبيعيات؛ ثم الإلهيات.

ولكل واحدٍ منها فروع تتفرع عنه: فمن فروع الطبيعيات الطب؛ ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية. ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها.

واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام وهما فارس والروم. فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم، والدولة والسُّلطان قبل الإسلام وعصره لهم. فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم.

وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم<sup>(١)</sup>، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان؛ فاختصَّ بها القبط وطمى بجرها فيهم؛ كما وقع في المثلّو من خير هاروت وماروت<sup>(٢)</sup>، وشأن السحرة<sup>(٣)</sup>، وما نقله أهل العلم من شأن البرابي<sup>(٤)</sup> بصعيد مصر. ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن، إلا بقايا يتناقلنها متحلّو هذه الصنائع، والله أعلم بصحتها، مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها، مانعة من اختبارها.

وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً، ونطاقها متسعاً، لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك، ولقد يقال: إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر دارا وغلب على مملكته الكينية، فاستولى على كتبهم وعلومهم، إلا أن المسلمين لما افتتحو بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه

١ - في ن: يتبعها من التأثيرات والطلاسمات.

٢ - يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وهذه الآية خاصة بالسحر عند الكلدانيين.

٣ - يشير بذلك إلى ما حكاه القرآن الكريم من قصة موسى مع السحرة، وقد تكررت هذه القصة في أكثر من سورة لمنااسبات مختلفة.

٤ - لعله اسمٌ للسحر في صعيد مصر. وفي ن: البراري.



كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله، فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت [ظ ٢٣٣/١] علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا<sup>(٦)</sup>.

وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولاً، وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم، واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق<sup>(٧)</sup> بطريقة حسنة في التعليم؛ كانوا يقرؤون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه بقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون، ثم إلى تلميذه أرسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي<sup>(٨)</sup> وتامسطيوس<sup>(٩)</sup> وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم، وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسطو في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيتاً، وكان يسمى المعلم الأول فطار له في العالم ذكر.

ولما انقرض أمر اليونان، وصار الأمر للقيصرية، وأخذوا بدين النصرانية، هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها، وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم. وقد ملكوا الشام، وكتب هذه العلوم باقية فيهم. ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذي لا كفاء له، وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم، وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع. حتى إذا تبجح<sup>(١٠)</sup> من السلطان والدولة، وأخذوا من الحضارة بالخط الذي لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفننوا في الصنائع والعلوم، تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر

١ - في ن: ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة. ٦ - ذكر الدكتور وافي أن هذه القصة لم تثبت عند ثقات المؤرخين، كما لم تثبت قصة أخرى تشبهها بشأن حرق مكتبة الإسكندرية.

٢ - عقب الدكتور وافي على ذلك بقوله: المشهور هو إطلاق كلمة المشائين على مدرسة أرسطو وتلاميذه. وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة ويتجادلون ويجادلون في مدرسة الليسيوم، وهم مشاة، ولأن أرسطو كان يلقي عليهم دروسه وهو يغدو ويروح. وأما كلمة الرواقيين فتطلق على أتباع المذهب الرواقي وهو مذهب زينون السيتيومي. وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة في رواق كبير مقام في ميدان من أكبر ميادين أثينا. فنحن إذن بصدد مدرستين مختلفتين ومذهبتين فلسفيتين مختلفتين. ولكن يظهر أن ابن خلدون ومن سار على نهجه من مؤرخي العرب كان لهم في ذلك بعض المبررات. فقد كان أصحاب زينون الرواقيون يتدارسون الفلسفة وهم مشاة كأصحاب أرسطو. (انظر تفصيل ذلك في التعليق ١٥٣٧ من تعليقات الدكتور وافي).

٣ - هو الإسكندر الأفروديسي أو الأفروديسي كما اشتهرت تسميته عند العرب، وهو من شراح أرسطو وليس من تلاميذه المباشرين، كما قد توهمه عبارة ابن خلدون.

٤ - من أشهر شراح أرسطو.

٥ - تبجح: تمكن في المقام والحلول.

منها، وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها. فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس<sup>(١)</sup> وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون واطَّلَعُوا على ما فيها، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها. وجاء المأمون بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله، فانبعث لهذه العلوم حرصاً، وأوفد الرسل على ملوك الروم، في استخراج علوم اليونانيين وإتساعها بالخط العربي، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب، وعكف عليها النظار من أهل الإسلام، وحذقوا في فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول، واختصوه بالرد والقبول، لوقوف الشهرة عنده، ودونوا [ظ ٢٣٣/٢] في ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم.

وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي، وأبو علي ابن سينا بالمشرق، والقاضي أبو الوليد ابن رشد، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس، إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم. واختص هؤلاء بالشهرة والذكر.

واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات. ووقفت الشهرة في هذا المتحل على جابر بن حيان من أهل المشرق، وعلى مسلمة بن أحمد المجريطي<sup>(٢)</sup> من أهل الأندلس وتلميذه.

ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخل، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها، وقلدوا آراءها، والذنب في ذلك لمن ارتكبه، ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ثم إن المغرب والأندلس لما ركبت ريح العمران بهما، وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك منهما إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس، وتحت رقبة من علماء السنة. ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على تبيح<sup>(٣)</sup> من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم.

ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان، تشهد بأن له ملكة

١ - أوقليدس euclide من أشهر علماء الهندسة اليونان. وكان أستاذاً بجامعة الإسكندرية القديمة في عهد بطليموس الأول (٣٠٦ - ٢٨٣ ق.م). والمؤلف الذي يشير إليه ابن خلدون هو كتاب الأصول أو العناصر الأولى.

٢ - نسبة إلى مجريط (مريد)، وقد كان عالماً في الرياضيات والفلك، من كتبه: ثمار العدد واختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني ورتبة الحكيم... (٣٣٤-٣٩٨هـ).

٣ - التبيح: وسط الشيء ومعظمه.

راسخة في هذه العلوم، وفي أثنائها ما يدلُّ على أن له اطلاعاً على العلوم الحكيمة، وتضلُّعاً بها، وقدماً عالية في سائر الفنون العقلية. ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ [آل عمران: ١٣]. كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومة وما إليها من العُدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة متوفرة، وحملتها متوفرون، وطلبتها متكثرون<sup>(١)</sup>، والله أعلم بما هنالك، وهو ﴿يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٨].

## ١- ٦- ٢١- الفصل الحادي والعشرون: العلوم العدديّة

وأولها الأرقاماطيقي وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف. مثل أن الأعداد إذا توالّت متفاضلة<sup>(١)</sup> بعدد واحد فإنّ جمع الطرفين منها مُساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد، ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة هذه<sup>(٢)</sup> [ظ ٢٣٤/١] الأعداد فرداً، مثل الأفراد على تواليها والأزواج على تواليها، ومثل أن الأعداد إذا توالّت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها، وثانيها نصف ثالثها الخ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ، فإن ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر. ومثل مربع الواسطة إن كانت عدة فرداً، وذلك مثل أعداد الزوج في الزوج، وذلك مثل<sup>(٣)</sup> المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر. ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير، فتكون مثلثة، وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع، ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله، فتكون مربعة، وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي قبله فتكون مخمسة، وهلم جرا، وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع، ويحدث جدول ذو طول وعرض، ففي عرضه الأعداد على تواليها ثم المثلثات على تواليها، ثم المربعات ثم الخمسات الخ؛ وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغاً ما بلغ. وتحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولاً وعرضاً خواص غريبة استقرت منها، وتقررت في دواوينهم مسائلها، كذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد زوج الزوج والفرد، فإن لكل منها خواص مختصه به، تضمنها هذا الفن وليست في غيره.

وهذا الفنّ أول أجزاء التعاليم وأثبتها، ويدخل في براهين الحساب، وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف. وأكثرهم يدرجونه في التعاليم، ولا يفردونه بالتأليف، فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول، ومنفعته في البراهين لا في الحساب، فهجروه لذلك، بعد أن استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية، كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١ - وهو ما نسميه الآن بالتواليات العددية.

٢ - في المطبوع: تلك.

٣ - في ن: زوج في زوج المتوالية من اثنين.

ومن فروع علم العدد صناعة الحساب، وهي صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع، وبالتضعيف [بأن] تضاعف عدداً بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب. والتفريق أيضاً يكون في الأعداد إما بالأفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل [ظ ٢/٢٣٤] عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة [له] وهو القسمة، وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر. ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد، وتلك النسبة تسمى كسراً. وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع.

والعدد الذي يكون مصرحاً به يسمى المنطق، ومربعه كذلك، ولا يحتاج فيه إلى تكلف عمل بالحسبان. والذي لا يكون مصرحاً به يسمى الأصم، ومربعه؛ إما منطق مثل جذر ثلاثة الذي مربعه ثلاثة، وإما أصم، مثل جذر ثلاثة، الذي مربعه جذر ثلاثة، وهو أصم، ويحتاج إلى عمل من الحسبان، فإن تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق. وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات، وألف الناس فيها كثيراً، وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان. ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها، لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء دَرَب على الصواب. وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق، لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير ذلك خلقاً، ويتعود الصدق ويلزمه مذهباً<sup>(١)</sup>.

ومن أحسن التآليف المبسوبة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير، ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد، ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جليل القدر أدر كنا المشيخة تعظمه، وهو كتاب جدير بذلك، وساق في المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب لابن منعم، والكمال للأحدب، ولخص براهينها، وغيرها عن اصطلاح الحروف فيها، إلى علل معنوية ظاهرة، هي سر الإشارة بالحروف وزبدتها. وهي كلها مستغلقة، وإنما جاءها الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم، لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها، وإذا قصد شرحها، فإنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال، وفي

١ - عقب الدكتور وافي بقوله: الفوائد الخلقية للعلوم LA MORALE DES SCIENCES التي يظن أنها من نظريات المحدثين من علماء البيداجوجيا قد قال بها ابن خلدون قبل أن يظهر هؤلاء البيداجوجيون بأكثر من أربعة قرون.

ذلك من العسر على الفهم مالا يوجد في أعمال المسائل، فتأمل. والله يهدي بنوره<sup>(١)</sup> من يشاء، وهو القوي المتين.

**ومن فروعه الجبر والمقابلة:** وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك. فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب. أولها العدد لأن<sup>(٢)</sup> به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه. وثانيها الشيء لأن كل مجهول فهو [ظ ٢٣٥/١] من حيث<sup>(٣)</sup> إبهامه شيء، وهو أيضاً جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية. وثالثها المال وهو أمر مبهم. وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس في المضروبين. ثم يقع العمل المفروض في المسألة فتخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس، فيقابلون بعضها ببعض، ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً، ويخطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن، حتى يصير إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم، وهي العدد والشيء والمال. فإن كانت المعادلة بين واحد واحد تعين فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادلة العدد، ويتعين. والمال، وإن عادل الجذور فيتعين بعدتها. وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب المفصل. ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين.

وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم إلى ست مسائل؛ لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تحيى ستة.

وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي وبعده أبو كامل شجاع بن أسلم، وجاء الناس على أثره فيه. وكتابه في مسائل الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه. وشرحه كثير من أهل الأندلس فأجادوا، ومن أحسن شروحاته كتاب القرشي. وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعادلات<sup>(٤)</sup> إلى أكثر من هذه الستة الأجناس وبلغها إلى فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالاً وأتبعه ببراہين هندسية. والله ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ [فاطر: ١]. سبحانه وتعالى.

**ومن فروعه أيضاً المعاملات:** وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات، يُصَرَّفُ في صناعتنا ذلك

١ - لعل الصواب أن يقول: (لنوره). قال تعالى: ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥].

٢ - في ن: (لأنه).

٣ - في المطبوع: جهة.

٤ - في ن: المعاملات.

الحساب<sup>(١)</sup> في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها. والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المراتب والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب. ولأهل الصناعة الحسّابية من أهل الأندلس تأليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السّمح وأبي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وأمثالهم.

ومن فروعها أيضاً الفرائض: وهي صناعة حسّابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثة إذا تعددت وهلك بعض الوراثين وانكسرت سهامه على ورثته، أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها [ظ ٢/٢٣٥] على المال كله، أو كان في الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة، فتحتاج في ذلك كله إلى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصحّ، وسهام الورثة من كل بطن مصححاً حتى تكون حظوظ الوراثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة، فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله، وترتب على ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها، فتشتمل حينئذٍ هذه الصناعة على جزء من الفقه، وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهام باعتبار الحكم الفقهي. وهي من أجل العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل: «الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما يرفع من العلوم»<sup>(٢)</sup>. وغير ذلك. وعندي أن ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض العينية كما تقدم لا فرائض الوراثة؛ فإنها أقل من أن تكون في كميتها ثلث العلم؛ وأمّا الفرائض العينية فكثيرة.

وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا. ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر والجعدي والضردي وغيرهم. لكن الفضل للحوفي، فكتابه مقدم على جميعها. وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشّطي كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب. وإمام الحرمين فيها تأليف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم، ورسوخ قدمه، وكذا للحنفية والحنابلة. ومقامات الناس في العلوم مختلفة. والله يهدي من يشاء بحمته وكرمه، لا ربّ سواه.

١ - في ن: تصرف في ذلك صناعتنا الحساب.

٢ - أخرجه ابن ماجة (٢٧١٩) والدارقطني (٦٧/٤) والحاكم (٣٣٢/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/٦) من حديث أبي هريرة رفعه بإسناد ضعيف جداً. «يا أبا هريرة، تعلموا الفرائض، وعلموها فإنه نصف العلم، وهو يُنسى، وهو أول شيء يُنزع من أمتي».

## ١- ٦- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون: العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر في المقادير، إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية؛ مثل أن كل مثلث فزاياه مثل قائمتين؛ ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية؛ ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان؛ ومثل أن الأربعة مقادير التناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع<sup>(١)</sup>. وأمثال ذلك.

والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس<sup>(٢)</sup> ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان، وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين، وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر [ظ ٢٣٦/١] المنصور. ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين، فمنها لحين بن إسحاق ولثابت بن قره وليوسف بن الحجاج. ويشتمل على خمس عشرة مقالة: أربع في السطوح؛ وواحدة في الأقدار التناسبة؛ وأخرى في نسب<sup>(٣)</sup> السطوح بعضها إلى بعض؛ وثلاث في العدد؛ والعاشر في المنطقات، والقوى على المنطقات، ومعناها الجذور؛ وخمس في الجسومات.

وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء، أفرد له جزءاً منها اختصه به؛ وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصار وغيرهم. وشرحه آخرون شروحاً كثيرة، وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق.

واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءةً في عقله، واستقامةً في فكره؛ لأنَّ براهينها كلها بينة الانتظام، جليلة الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيح<sup>(٤)</sup>.

وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا. وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي

١ - صوب الدكتور وافي في ذلك بقوله: وصوابه: ضرب الأول منها في الرابع كضرب الثاني في الثالث ومثاله:

١٠ : ٥ = ٢٠ : ١٠. ف ضرب الأول في الرابع أي: ٢٠ × ٥ = ١٠٠ يساوي ضرب الثاني في الثالث أي: ١٠ × ٥

١٠ - ١٠٠. هذا ويظهر أن موضوع الأعداد التناسبة كان عندهم من مسائل الهندسة وهو يعد الآن من مسائل الحساب.

٢ - هو كتاب الأصول أو العناصر الأولى.

٣ - في ن: وواحدة في نسبة.

٤ - أي المنهج.



يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار، والأدران. وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه.

ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات: أمّا الأشكال الكروية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاودوسيوس<sup>(١)</sup> وميلاوش<sup>(٢)</sup> في سطوحها وقطوعها. وكتاب ثاودوسيوس مقدّم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه. ولا بُدّ منهما لمن يُريد الخوض في علم الهيئة لأن براهينها متوقفة عليهما.

فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السّماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره، فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكروية سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضاً، وهو علمٌ ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع، ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الأول. وفائدتها تظهر في الصنائع العملية التي موادها الأجسام مثل النجارة والبناء، وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهاكل النادرة، وكيف يتحيّل على جر الأثقال ونقل الهياكل النادرة، وكيف يتحيّل على جر الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والميخال<sup>(٣)</sup> وأمثال ذلك.

وقد أفرّد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الحيل العملية<sup>(٤)</sup> يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل [ظ ٢٣٦/٢] المستطرفة كل عجيبة<sup>(٥)</sup>. وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية. وهو موجود بأيدي الناس ينسبونه إلى بني شاكر<sup>(٦)</sup>، والله تعالى أعلم.

ومن فروع: الهندسة، المساحة: وهو فنٌ يحتاج إليه في مسح الأرض، ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما، أو نسبة أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك. ويحتاج إلى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة، وفي قسمة الحوائط والأراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك. وللناس فيها

١ - هو ثيودوسيوس THEODOSEE من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادي.

٢ - هكذا في جميع النسخ وصوابه: مينيلوس MENEELAUS ويُسمّى مينيلوس الإسكندري MENELAUS D, ALEXANDRIE وهو من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادي (د. وافي).

٣ - في ن: المخال.

٤ - في ن: العلمية.

٥ - في ظ: مستغرقة كل عجيب.

٦ - طبعته جامعة حلب.

موضوعات حسنة وكثيرة. والله الموفق للصواب بمنه وكرمه.

**المنظرة من فروع الهندسة:** وهو علمٌ يَتَبَيَّنُ به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناءً على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئي، ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً، وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطأً مستقيماً، والشعلة<sup>(١)</sup> دائرة، وأمثال ذلك؛ فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية، ويتبين به أيضاً اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة رؤية الأهلة وحصول الكسوفات، وكثير من أمثال هذا. وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين. وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم. ولغيره فيه أيضاً تأليف. وهو من هذه الرياضة وتفاريحها.

## ١- ٦- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون: عِلْمُ الْهَيْئَةِ

وهو علمٌ ينظرُ في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة، ويستدل بكيفيات<sup>(١)</sup> تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه<sup>(٢)</sup> الحركات المحسوسة بطرق هندسية، كما يبرهن على أن مركز الأرض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة، وكما يبرهن على تعدد الأفلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له، وأمثال ذلك، وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد؛ فإنما علمنا حركة الإقبال والإدبار به، وكذا تركيب الأفلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال [ظ ٢٣٧/١] ذلك.

وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً، ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين، وكانت تسمى عندهم ذات الحلق، وصناعة عملها والبراهين عليه في مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بأيدي الناس.

وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل، وكان في أيام المأمون شيء منه، وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق، وشرع في ذلك فلم يتم. ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الأرصاد القديمة، وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الأحقاب، وأن مطابقة حركة الآلة (في الرصد)<sup>(٣)</sup> بحركة الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق، فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالتقريب.

وهذه الهيئة صناعة شريفة. وليست على ما يفهم في المشهور أنها تعطي صورة السماوات وترتيب الأفلاك والكواكب بالحقيقة، بل إنما تعطي أن هذه الصورة والهيئات للأفلاك لزمت عن هذه الحركة، وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازماً لمختلفين. وإن قلنا: إن الحركات<sup>(٤)</sup> لازمة، فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم، ولا يعطي الحقيقة بوجه. على أنه علم جليل، وهو أحد أركان التعاليم، ومن أحسن التأليف

١ - في ن: من.

٢ - في ن: (لهذه).

٣ - في ن: للرصد.

٤ - في ن: الحركة.

فيه كتاب **المجسطي** منسوب لبطليموس، وليس من ملوك اليونان<sup>(١)</sup> الذين أسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب. وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام، كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء، ولخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس، وابن السمع، وابن الصلت في كتاب الاختصار. ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قريبها وحذف براهينها الهندسية. والله **﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلق: ٥]. سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين.

**ومن فروعه علم الأزياج:** وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته، وما أدَّى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك؛ يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة.

ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج [ظ ٢٣٧/٢] بعضها عن<sup>(٢)</sup> بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهلاً على المتعلمين، وتسمى الأزياج، ويُسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً وتقويماً. وللناس فيه تأليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الكماد، وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيح منسوب لابن إسحاق من منجمي تونس في أول المئة السابعة. ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد، وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعاليم، وكان قد عني بالرصد، وكان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها. فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقه مبناه على ما يزعمون. ولخصه ابن البناء في آخر سماه **المنهاج**. فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه. وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبئ عليها الأحكام النجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدولة والمواليد البشرية والكوائن الحادثة، كما نبينه بعد، ونوضح فيه أدلتهم<sup>(٣)</sup>، إن شاء الله تعالى. والله الموفق لما يحبه ويرضاه، لا معبود سواه.

١ - يقصد الذين حكموا مصر بعد الإسكندر وهم المعروفون بالبطالسة.

٢ - في ن: من.

٣ - سيتكلم على ذلك في الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب وهو الفصل الخاص بعلوم السحر والطلسمات.

## ١- ٦- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون: علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة<sup>(١)</sup> للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات. وذلك أن الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس. وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره. وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات، وهي مجردة من المحسوسات؛ وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة، وهي الكلي. ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض، فيحصل له صورة تنطبق أيضاً عليهما باعتبار ما اتفقا فيه. ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكل الذي لا يجد كلياً آخر معه يوافقه، فيكون لأجل ذلك بسيطاً. وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها، ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليها، ثم بينهما وبين النبات إلى أن ينتهي إلى الجنس العالي، وهو الجوهر، فلا يجد كلياً يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك عن التجريد. ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنائع، وكان العلم إما تصوراً للماهيات، ويعني به إدراك [ظ ٢٣٨/١] ساذج من غير حكم معه، وإما تصديقاً أي: حكماً بثبوت أمر لأمر.

فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف، فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج. فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص؛ وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له، ويكون ذلك تصديقاً، وغايته في الحقيقة راجعة إلى التصور، لأن فائدة ذلك إذا حصل، إنما هي معرفة حقائق الأشياء التي هي مقتضى العلم، وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح، وقد يكون بطريق فاسد. فاقضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية لتمييز زيادة<sup>(٢)</sup> الصحيح من الفاسد. فكان ذلك قانون المنطق.

وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً جماً ومفترقاً، ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو، فهذب مباحثه<sup>(٣)</sup>، ورتب مسائله وفصوله، وجعله

١ - في ن: المعروفة.

٢ - في ن: فيها.

٣ - في ن: مناحيه.

أول العلوم الحكيمة وافتحتها. ولذلك يُسمّى بالمعلم الأول، وكتابه المخصوص بالمنطق يُسمّى النص<sup>(١)</sup>، وهو يشتمل على ثمانية كتب: أربعة منها في صور القياس، وأربعة في مادته. وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء، فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه، ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن، وهو على مراتب. فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يُفيده. وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار، ومن أيّ جنس يكون من العلم أو من الظن، وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة. ويقال للنظر الأول: إنه من حيث المادة، ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن، ويقال للنظر الثاني: إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق. فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية:

الأول: في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات في الذهن، وهي التي ليس فوقها جنس ويُسمّى كتاب المقولات.

والثاني: في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب: العبارة.

والثالث: في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى: كتاب القياس، وهذا آخر النظر من حيث الصورة.

ثم الرابع: كتاب البرهان، وهو النظر في القياس المنتج لليقين، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية، ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه، مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود، إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة<sup>(٢)</sup> [ظ ٢/٢٣٨] بين الحد والمحدود لا تحتل غيرهما، فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب.

والخامس: كتاب الجدل، وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات. ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض، وهي مذكورة هناك. وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه، بتمييز الجامع بين طريقي المطلوب المسمى بالوسط، وفيه عكوس القضايا.

والسادس: كتاب السفسطة، وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق، ويغالط به المناظر صاحبه، وهو فاسد. وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه.

١ - صوب الدكتور وافي ذلك بقوله: اسم كتابه: الأورجانون. Orqanon ومعنى هذه الكلمة باليونانية الآلة outil أي: إنه آلة تعصم الفكر من الخطأ فترجمته بالنص غير صحيحة.

٢ - في ظ: وهو يقين وجوب مطابقة.

والسابع: كتاب الخطابة، وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات.

والثامن: كتاب الشعر، وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على شيء<sup>(١)</sup> أو النفرة عنه، وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية.

هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين. ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت، رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور<sup>(٢)</sup> المطابق للماهيات في الخارج، أو لأجزائها، أو عوارضها، وهي الجنس والفصل والنوع والخاص والعرض العام، فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعا، وترجمت كلها في الملة الإسلامية. وكتبها وتداولها<sup>(٣)</sup> فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها.

ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسوم، نقلوها من كتاب البرهان، وحذفوا كتاب المقولات، لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات، وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس، وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين، لأنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه.

ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادته، وحذقوا النظر فيه بحسب المادة، وهي الكتب الخمسة: البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة. وربما يلم بعضهم باليسير منها إماماً، وأغفلوها كأن لم تكن، وهي المهم المعتمد في الفن<sup>(٤)</sup>.

ثم تكلموا فيما وضعوه [ظ ٢٣٩/١] من ذلك كلاماً مستبحراً، ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم، فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب، ومن بعده أفضل الدين الخونجي<sup>(٥)</sup>، وعلى كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد، وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل، واختصر فيها

١ - في ن: الشيء.

٢ - وهي الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض.

٣ - في ن: تناولها.

٤ - يعني: أغفلوها مع أنها المهم المعتمد في الفن.

٥ - هو محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي الفارسي الشافعي، تولى قضاء مصر، وله الموجز في المنطق، توفي

سنة ٦٤٦هـ. مترجم في شذرات الذهب (٥/٢٣٦-٢٣٧).

مختصر الموجز وهو حسن في التعليم، ثم مختصر الجمل<sup>(١)</sup> في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله، فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به، وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن، وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائده كما قلناه، والله الهادي للصواب.

اعلم: أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي السلف والمتكلمين، وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه، وحظروا تعلمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب فسادوا في ذلك بعض الشيء. وأكب الناس على انتحاله من يومئذٍ إلا قليلاً ينجحون فيه إلى رأي المتقدمين، فينفرون عنه، ويبالغون في إنكاره.

فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك لتعلم مقاصد العلماء في مذاهبهم، وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام لنصر العقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقته في ذلك بأدلة خاصة، وذكروها في كتبهم، كالدليل على حدث العالم بإثبات الأعراض وحدوثها، وامتناع خلو الأجسام عنها، وما لا يخلو عن الحوادث حادث؛ وكإثبات التوحيد بدليل التمانع، وإثبات الصفات القديمة للجوامع الأربعة إلحاقاً للغائب بالشاهد، وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كتبهم.

ثم قرروا تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها، مثل إثبات الجوهر الفرد، والزمن الفرد، والخلاء بين الأجسام، ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات، وأن العرض لا يبقى زمنين، وإثبات الحال وهي صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة، وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة.

ثم ذهب الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر والأستاذ أبو إسحاق إلى أن أدلة العقائد منعكسة، بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة العقائد، والقدح فيها قدح في العقائد لا بتنائها عليها.

وإذا تأملت المنطق وجدته كله يدور على التركيب العقلي وإثبات الكلّي الطبيعي [ظ ٢/٢٣٩] في الخارج لينطبق عليه الكلّي الذهني المنقسم إلى الكليات<sup>(٢)</sup> الخمس التي هي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام. وهذا باطل عند المتكلمين.

والكلّي والذاتي عندهم إنما هو اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه، أو حال عند من يقول بها، فتبطل الكليات الخمس، والتفريق المبني عليها، والمعقولات العشر.

ويبطل العرض الذاتي فيبطل بطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشترطة في البرهان

١ - هكذا في جميع النسخ، ورجح (د. وافي) أن الكلمة محرفة عن كلمة الجمل.

٢ - في ظ: الكلّي الذي هو المنقسم، والكليات.



عندهم.

وتبطل العلة العقلية فيبطل كتاب البرهان عندهم، وتبطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدل، وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين في القياس، ولا يبقى إلا القياس الصوري.

ومن التفريعات: المساوي الصادقية على أفراد الحدود لا يكون أعم منها، فيدخل غيرها، والأخص، فيخرج بعضها. وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع، والمتكلمون بالطرد والعكس.

وتهدم أركان المنطق جملة.

وإن ثبتت هذه كما في علم المنطق أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين، فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر.

فلهذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدوه بدعة أو كفرة على نسبة الدليل الذي يبطل.

والتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا إنعكاس الأدلة، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله، وصح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكمالاتها في الخارج، قضوا بأن المنطق غير منافٍ للعقائد الإيمانية، وإن كان منافياً لبعض أدلتها. بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية كنفي الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأعراض وغيرها، ويستدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي، ولم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه. وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد.

فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء وماغذهم فيما يذهبون إليه، والله الهادي والموفق للصواب.

## ١- ٦- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون: الطبيعات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية، وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد [ظ. ١/٢٤] والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات.

وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون، وألف الناس على حذوها، مستبعين لها بالبيان والشرح. وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء. جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه، ثم لخصه في كتاب النجاة، وفي كتاب الإشارات، وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها.

وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف. وألف الناس في ذلك كثيراً؛ لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة.

ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا، وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن، وكذا الآمدي، وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بخواجة من أهل المشرق، وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

## ١-٦-٢٦- الفصل السادس والعشرون: عِلْمُ الطَّبِّ

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولاً في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن. ويُسمَّى العلم الجامع لهذا كله علم الطب.

وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علماً خاصاً كالعين وعللها وأكحالتها. وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الأعضاء<sup>(١)</sup>، ومعناها المنفعة التي لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني، وإن لم يكن ذلك من موضوع علم الطب، إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه.

وإمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس<sup>(٢)</sup>. يقال: إنه كان معاصراً لعيسى عليه السلام، ويقال: إنه مات بصقلية في سبيل [ظ ٢/٢٤٠] تغلب<sup>(٣)</sup> ومطاوعة اغتراب<sup>(٤)</sup>، وتأليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده. وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤوا من وراء الغاية، مثل الرازي والمجوسي وابن سينا، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر، وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد.

١-٦-٢٦-١- فصل: وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه. وربما يصح منه البعض

١ - هو علم الفيزيولوجيا أو وظائف الأعضاء physiologie وهو الأساس المبني عليه فن الطب ويظهر أن في هذه الجملة تحريفاً، وصوابها: وكذلك ألحقوا بالطب فن منافع الأعضاء. د. وافي. قال الفقير: لعل الصواب حذف كلمة (من) فيستقيم المعنى.

٢ - في ن: وجالينوس في هذا الفن كتاب جليل، عظيم المنفعة، وهو إمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين.

٣ - في ظ: تغلب.

٤ - جالينوس: عالم يوناني ولد في آسيا الصغرى في بلدة بوجام ١٣١هـ. وتوفي في روما (٢١٠م) على الأرجح. وما ذكره ابن خلدون على سبيل الظن ولم يقطع بصحته.

إلا أنه ليسَ على قانون طبيعى، ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطبّ كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمرٌ كان عادياً<sup>(١)</sup> للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل. فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلّمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطبّ ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم»<sup>(٢)</sup>. فلا ينبغي أن يحمل شيء من الذي وقع من الطب الذي وقع في الأحاديث [الصحيحة] المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه<sup>(٣)</sup>، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثرٌ عظيمٌ في النفع. وليس ذلك في<sup>(٤)</sup> الطب المزاجي، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل. والله الهادي إلى الصواب لا ربَّ سواه.

١ - أي قديم، نسبة إلى عاد.

٢ - أخرجه مسلم (٢٣٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلحقونه، يجعلون الذكر في الأنتى فيلقح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أظن يفني ذلك شيئاً. قال: فأخبروا بذلك، فتركه. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل. وأخرج مسلم (٢٣٦٣) عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلحقونه فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شيئاً، فمر بهم فقال: ما لنخخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلمُ بأمور دنياكم. المدقق في رواية طلحة رضي الله عنه، يبين له:

١ - عدم أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعدم التأخير، وإنما هو يتحدث مع المحيطين به ممن لا يؤبرون النخل، فنقلوا حديثه.

٢ - أن لفظ حديثه صلى الله عليه وسلم ينص على الظن والراوي ممن كان معه يشاهد الحادثة. وليس في الحديث أي مطعن في علم النبي صلى الله عليه وسلم بأمور المعاش، لأن علم النبي صلى الله عليه وسلم يشمل الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] فهو معلم للأمة ما يفيدهم في أمر دينهم ودنياهم. كما أن هذه الحادثة يجب أن تدرس وفق الملاحظات العامة في المجتمع آنذاك، فهي من الحوادث الكاشفة لكثير من النفوس الموجودة في بنية المجتمع المدني، فظهرت حقيقة المؤمنين الذين يتبعون ما يقوله صلى الله عليه وسلم ولو كان ظناً، كما تكشف حقيقة المنافقين الذين يتربصون بالمؤمنين ويبحثون عن المطاعن والمثالب. كما أن الحادثة مرتبطة بعدد قليل من الناس الذين لا يؤثر تأخير النخل على موسم المدينة بإطار عام، ولا سيما أن المجتمع متكافل، فالمتضرر قليل، وسيفوز حين ضرره الشخصي ولكن سيكون من وراء ذلك كشف مرضى النفوس لعلاجها والحذر منها.

كما أنها تعليم للأمة الآتية فيما بعد أن لا تقبل كل شيء يأتيها من تلق به إلا بعد البحث والتدقيق، لأن ما يؤخذ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الوحي لتصحيحه، أما بعد ذلك فلا وحي، فمن ذا الذي يقبل منه كل شيء إلا المعصوم. ٣ - لا يؤيد ما ذهب إليه المؤلف؛ إذا كان المروي عنه صلى الله عليه وسلم ثابتاً سنداً ومتناً، لأنه لو كان ما يقوله يخالف الطب الصحيح، لجاء الوحي بالتنبيه، لأن في الإبقاء على الخطأ إضراراً بالأمة، ولا يصح ذلك. ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ والحوادث التي جاء جبريل عليه السلام ينبه عليها كثيرة... وهي تنفي هذا الظن. وإذا قبلنا منه قوله، فكيف ندرس قول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء، وهل يمكن أن يكون هذا في الطب الشعبي المتداول؟! ٤ - في ن: من.

## ١- ٦- ٢٧- الفصل السابع والعشرون: الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطَّبيعات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسَّقي والعلاج واستجادة المنبت، وصلاحية الفصل، وتعهده بمثل ذلك. وكان للمتقدمين بها عناية كبيرة، وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته، ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر. فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك. وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط، مشتملة من ذلك على علم كبير [ظ ١/٢٤١].

ولما نظروا أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب، وكان باب السحر مسدوداً، والنظر فيه محظوراً، فاقترضوا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك، وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة. واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج، وبقي الفن الآخر منه مغفلاً، نقل منه مسلمة في كتبه السحرية أمهات من مسائله كما نذكره عند الكلام على السحر إن شاء الله تعالى.

وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة، ولا يَعدُّون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه، وما يعرض في ذلك كله، وهي موجودة.

## ١- ٦- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون: علمُ الإلهيات

وهو علمٌ ينظرُ في الوجود المطلق. فأولا في الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان وغير ذلك، ثم ينظر في مبادئ الموجودات وأنها روحانيات، ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها، ثم في أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ.

وهو عندهم علمٌ شريفٌ يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وأن ذلك عين السعادة في زعمهم. وسيأتي الردُّ عليهم. وهو تال للطبيعات في ترتيبهم. ولذلك يسمونه علم ما وراء الطبيعة، وكتب المعلم الأول فيه موجودة بين أيدي الناس<sup>(١)</sup> ولخصه ابن سينا في كتاب: الشفاء، والنجاة، وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس.

ولما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها، وردَّ عليهم الغزالي ما رد منها، ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة، لعروضها<sup>(٢)</sup> في مباحثهم، وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها، فصارت كأنها فن واحد. ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات وخلطوها فناً واحداً قدموا الكلام في الأمور العامة، ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها، ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الإمام ابن الخطيب في المباحث المشرقية، وجميع من بعده من علماء الكلام.

وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة، وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد، والتبس ذلك على الناس وهو غير<sup>(٣)</sup> صواب؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها [ظ ٢٤١/٢] السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه، بمعنى أنها لا تثبت إلا به<sup>(٤)</sup>، فإن العقل معزولٌ عن الشرع وأنظاره؛ وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة، بل إنما هو التماس حجة عقلية

١ - لأرسطو في ذلك كتاب مشهور هو الميتافيزيقا. أي: ما وراء الطبيعية.

٢ - في ن: لاشتراكهما في المباحث.

٣ - قوله: غير. سقطت من نسخة.

٤ - تصوير الأمور التي يعول فيها على العقل.

تعصّد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقليّة كما تلقاها السلف واعتقدوها، وكثير ما بين المقامين. وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها ومحيط بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هداها الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتمد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماً، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه. والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم<sup>(١)</sup>، واستدعى ذلك الحجج النظرية، ومحاذاة العقائد السلفية بها.

وأما النظر في مسائل الطبيعيات والإلهيات بالتصحيح والبطالان فليس من موضوع علم الكلام، ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتمييز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف. والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل. وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل، وليس كذلك، بل إنما هو رد على الملحدين، والمطلوب مفروض الصدق معلومه. وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضاً، فخلطوا مسائل الفنين بفنهم، وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها، مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك. والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة. وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة؛ لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون [ظ ١/٢٤٢] عن الدليل، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه. ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [البقرة: ٢١٣. النور: ٤٦]. والله أعلم بالصواب.

## ١- ٦- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون: علوم السَّحَرِ والطَّلَسَمَات

وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إمّا بغير معين أو بمعين من الأمور السَّماوية. والأول هو السحر، والثاني هو الطَّلَسَمَات.

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر، ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس، إلا ما وجد في كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام، مثل النبط والكلدانيين، فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤوا بالأحكام، إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والنار.

وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السَّريانيين والكلدانيين، وفي أهل مصر من القبط، وغيرهم، وكان لهم فيها التأليف والآثار، ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل. فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل: مصاحب الكواكب السبعة، وكتاب طمطم الهندي في صور<sup>(١)</sup> الدرج والكواكب، وغيرها، ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيَّان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة، وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف، وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية، فهو من قبيل السحر كما نذكره في موضعه.

ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم، ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده.

ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر، وذلك أن النفوس البشرية، وإن كانت واحدة بالنوع، فهي مختلفة بالخواص، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الصنف الآخر، وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها.

فنفوس الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لها خاصية تستعد بها للانسلاخ من الروحانية البشرية إلى الروحانية الملكية، حتى يصير ملكاً في تلك اللمحة التي انسلخت



فيها. وهذا هو معنى الوحي كما مر في موضعه، وهي في تلك الحالة محصلة للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام [ظ ٢٤٢/٢] عن الله سبحانه وتعالى كما مر، وما يتبع ذلك<sup>(١)</sup> من التأثير في الأكوان.

ونفوس السحرة: لها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية.

فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي وخاصية ربانية. ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية.

وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر.

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتي شرحها. فأولها المؤثر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر. والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات، وهو أضعف رتبة من الأول. والثالث تأثير في القوى المتخيلة، يعتمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحس من الراتين بقوة نفسه المؤثرة فيه. فينظر الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيء من ذلك. ويُسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبة. هذا تفصيل مراتبه.

ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها؛ وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة. ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له. والوجهة إلى غير الله كفر. فلهذا كان السحر كفراً. والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت. ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر: هل هو لكفره السابق على فعله، أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان؟ والكل حاصل منه.

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها، اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخيل؟ فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين، والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة والأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب. والله أعلم.

واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه، وقد نطق به القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا، يَعْلَمُونَ النَّاسَ﴾ [ظ ٢٤٣/١] السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولوا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴿[البقرة: ١٠٢]﴾. وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وجعل سحره في مشط ومشاقة<sup>(٢)</sup> وجُفٍّ<sup>(٣)</sup> طَّلعة<sup>(٤)</sup> ودفن في بئر ذُرْوَان<sup>(٥)</sup>. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمَعُودَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ شَرُّ

١ - في ن: وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر.

٢ - المشاقة: كثامة ما سقط من الشعر عند المشط. وفي مسلم: مشاطة. بنفس المعنى. وللبخاري: مشاقة ومشاطة.

٣ - الجف: بالضم وعاء الطلع في النخل أي غشاؤه.

٤ - الطلع: بالفتح ما يطلع من النخلة ثم يصير ثمراً إن كانت أنثى، وإن كانت النخلة ذكراً لم يصير ثمراً.

٥ - بئر ذروان بالمدينة، أو هو ذو أروان بسكون الراء وقيل بتحريكه أصح. وإلى هنا أخرجه البخاري (٣١٧٥) و٣٢٦٨ و٥٧٦٣ و٥٧٦٥ و٥٧٦٦ و٦٠٦٣ و٦٣٩١) ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة. وقال النووي في شرحه لمسلم (٤/٢٢٣١ -): قال الإمام المازري رحمه الله: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكروا ذلك ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها. وقد ذكره الله تعالى في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له. وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يطل ما قالوه فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام - منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة، ومنها مضرّة كالأدوية المضادة للمرض - لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوي قتالة، أو كلام مهلك، أو مؤد إلى التفرقة.

قال: وقد أنكروا بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع. وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويزه ما قام الدليل بخلافه باطل. فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان مفضلاً من أجلها، وهو ما يعرض للبشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له. وقد قيل: إنه إنما كان يتخيل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطىء، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام، فلا يبعد تخيله في اليقظة، ولا حقيقة له. وقيل: إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله، فتكون اعتقاداته على السداد.

قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله في الحديث: حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن. ويروى: يخيل إليه. أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عاداته القدرة عليهن، فإذا دنى منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن، ولم يتمكن من ذلك، كما يعتري المسحور، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا للخلل تطرق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة. والله أعلم.

النَّفَّاثَاتِ فِي الْعَقْدِ. قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت<sup>(١)</sup>.

وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار، وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة. ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه، وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك. ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور، وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق. ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى، ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء، ويعقد على ذلك المعنى في سبب<sup>(٢)</sup> أعدده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك، استشعاراً للزعمة بالعزم<sup>(٣)</sup> ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث، فتتزل عنها أرواح خبيثة، ويقع عن ذلك بالمسحور

قال المازري: واختلف الناس في القدر الذي يقع به المسحور، ولهم فيه اضطراب، فقال بعضهم: لا يزيد تأثيره على قدر التفرقة بين المرء وزوجه، لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً به في حقنا، فلو وقع به أعظم منه لذكره، لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور. قال: ومذهب الأشعرية: أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك. قال: وهذا هو الصحيح عقلاً، لأنه لا فاعل إلا الله تعالى، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى، ولا تفتقر الأفعال في ذلك، وليس بعضها بأقوى من بعض، ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه، ولكن لا يوجد شرع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله القائل الأول، وذكر التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنص في منع الزيادة، وإنما النظر في أنه ظاهر أم لا.

قال: فإن قيل: إذا جوزت الأشعرية حرق العادة على يد الساحر، فبماذا يتميز عن النبي؟ فالجواب: أن العادة تنحرق على يد النبي والولي والساحر، لكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها، ويخبر عن الله تعالى بخرق العادة بها لتصدقه، فلو كان كاذباً لم تنحرق العادة على يديه، ولو خرقها الله على يد كاذب لخرقها على يد المعارضين للأنبياء. وأما الولي والساحر: فلا يتحديان الخلق، ولا يستدلان على نبوة، ولو ادعيا شيئاً من ذلك لم تنحرق العادة لهما. وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجهين، أحدهما: وهو المشهور: إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق، والكرامة لا تظهر على فاسق، وإنما تظهر على ولي، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعيد المتولي وغيرهما. والثاني: أن السحر قد يكون ناشئاً بفعلها ومزجها ومعاناة وعلاج، والكرامة لا تفتقر إلى ذلك. وفي كثير من الأوقات يقع ذلك اتفاقاً من غير أن يستدعيه أو يشعر به. والله أعلم

١ - أخرج معناه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس وأنس بإسناد ضعيف. وانظر أسباب النزول للسيوطي. ولم أجده من حديث عائشة.

٢ - السبب: الحبل.

٣ - كأنه يشير إلى أنهم يعيشون حالة نفسية نتيجة العوازم التي يقولونها فيحسبوا أنهم فاعلون... ولو لم يكن موجوداً. ويرجع الدكتور وإني إلى أنه سقط أو تحريف.

ما يحاوله الساحر.

وشاهدنا أيضاً من المتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلدٍ ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متحرق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمتعها ساقطة من بطونها إلى الأرض.

وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحت قلبه ويقع ميتاً، وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه؛ ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء. وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة.

وكذلك رأينا [ظ ٢/٢٤٣] من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة، وهي: ر ك ر ف د، أحد العددين مئتان وعشرون، والآخر مئتان وأربعة وثمانون. ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه، فتسمى لأجل ذلك المتحابة. ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الألفة بين المتحابين واجتماعهما، إذا وضع لهما مثالان<sup>(١)</sup> أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناضرة إلى القمر نظراً مودّة وقبول، ويجعل طالع الثاني سابع الأول، ويوضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر. ويقصد بالأكثر الذي يراد اتلافه، أعني المحبوب - ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء - فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين مالا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر. قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن، وشهدت له التجربة.

وكذا طابع الأسد، ويسمى أيضاً طابع الحصا، وهو أن يُرسمَ في قالب هندٍ إصبعُ صورة أسدٍ شائلاً ذنبه عاضاً على حصاة قد قسمها بنصفين، وبين يديه صورة حية مناسبة من رجليه إلى قبالة وجهه فاعرة فاها [إلى] فيه، وعلى ظهره صورة عقرب تدب؛ ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد، بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس؛ فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب، وغمس بعد في الزعفران محلولاً بماء الورد، ورفع في خرقة حرير صفراء، فإنهم يزعمون أن لمسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه، وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم. ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها، وشهدت له التجربة.

وكذلك وفق المسدس المختصّ بالشمس. ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في

شرفها وسلامتها من النحوس، وسلامة القمر، بطالع ملوكي، يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول، ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الأدلة الشريفة، ويرفع في خرقه حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب، فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم. وأمثال ذلك كثير.

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد [ظ ٢٤٤/١] المجريطي، هو مدونة هذه الصناعة، وفيه استيفاءها، وكمال مسائلها.

وذكر لنا أن الإمام الفخر ابن الخطيب وضع كتاباً في ذلك وسماه بالسر المكتوم، وأنه بالمشرق يتداوله أهله، ونحن لم نقف عليه، والإمام لم يكن من أئمة الشأن فيما يظن، ولعل الأمر بخلاف ذلك.

وبالمغرب صنف من هؤلاء المتحليين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين، وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج. ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج؛ لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام، يهرب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها. وهم مستترون<sup>(١)</sup> بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام، لقيت منهم جماعة، وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك. وأخبروني أن لهم وجهة وريضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها، وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم، وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق، ويعبرون عن ذلك بقولهم: إنما نفعل فيما تمشي فيه الدراهم، أي: ما يملك ويبيع ويشترى من سائر الممتلكات، وهذا ما زعموه. وسألت بعضهم فأخبرني به. وأما أفعالهم فظاهرة موجودة. وقفنا على الكثير منها وعايينتها من غير ريبة في ذلك.

هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في العالم.

فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعاً أثرٌ للنفس الإنسانية، واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لها آثاراً في بدنها على غير المحرر الطبيعي وأسبابه الجسمانية، بل آثاراً عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور، ومن جهة التصورات النفسانية أخرى، كالذي يقع من قبل التوهم؛ فإن الماشي على حرفٍ حائط أو على جبل منتصب إذا قويَ عنده توهم السقوط سقط بلا شك. ولهذا تجد كثيراً من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا

الوهم، فتجدهم يمشون على حَرْفِ الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط. فثبتَ أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط من أجل الوهم [ظ ٢٤٤/٢]. وإذا كان ذلك أثراً للنفس<sup>(١)</sup> في بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية، فجائزٌ أن يكون لها مثل هذا الأثر في غير بدنها، إذ نسبتها إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة، لأنها غير حَالَةٍ في البدن ولا منطبعة فيه، فثبت أنها مؤثرة في سائر الأجسام.

وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، كما يقوله النجمون. ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة. والساحر عندهم غير مكتسب لسحره، بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلية المختصة بذلك النوع من التأثير.

والفرق عندهم بين المعجزة والسحر، أن المعجزة قوة إلهية تبعثُ في<sup>(٢)</sup> النفس ذلك التأثير، فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك. والساحرُ إنما يفعلُ ذلك من لدن<sup>(٣)</sup> نفسه وبقوته النفسانية وإمداد الشياطين في بعض الأحوال. فبينهما الفرق في المعقولة والحقيقة والذات في نفس الأمر.

وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب الخير، وفي مقاصد الخير، وللنفوس المتمحضة للخير، والتحدي بها على دعوى النبوة، والسحر إنما يوجد لصاحب الشر، وفي أفعال الشر في الغالب، من التفريق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك، وللنفوس المتمحضة للشر. هذا هو الفرقُ بينهما عند الحكماء الإلهيين.

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثيراً أيضاً في أحوال العالم، وليس معدوداً من جنس السحر، وإنما هو بالإمداد الإلهي، لأنَّ طريقتهم ونخلتهم من آثار النبوة وتوابعها. ولهم في المدد الإلهي حظ<sup>(٤)</sup> على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله. وإذا اقتدر أحدٌ منهم على أفعال الشر لا<sup>(٥)</sup> يأتيها، لأنه متقيّد فيما يأتيه ويذرُهُ للأمر الإلهي.

١ - في ظ: سقوط من حل التوهم، فإذا كان أثر النفس في..

٢ - في ن: في.

٣ - في ن: عند.

٤ - في ن: حفظ.

٥ - في ن: فلا.

فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه، ومن أتاه منهم فقد عدلَ عن طريق الحق وربما سلبَ حاله.

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله [ظه ٢٤٥/١] والقوى الإلهية، فلذلك لا يعارضها شيء من السحر. وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا به يافكون، وذهب سحرهم واضمحَلَّ كأن لم يكن. وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم في المعوذتين ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: «فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت»<sup>(١)</sup>. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره.

وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثبني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق<sup>(٢)</sup>، ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم. وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوقاف مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً. إلا أن هذه عارضها الملدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بكلمة الله، فانحلَّ معها كل عقد سحري ولم يثبت. ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١١٨].

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات، وجعلته كله باباً واحداً محظوراً، لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمننا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا، أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا. ومالا يهمننا في شيء منهما؛ فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع، ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد، وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظوراً على نسبته في الضرر؛ وإن لم يكن مهماً علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قربة إلى الله. فإن «من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»<sup>(٣)</sup>. فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر، وخصته بالخطر والتحريم.

وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر، فالذي ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدي، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادَّعاه. قالوا: والسَّاحِرُ مصروفٌ عن مثل هذا

١ - لم أجده لعائشة رضي الله عنها، ومعناه من حديث ابن عباس وأنس في دلائل النبوة بإسناد ضعيف.

٢ - في ن: الوقت.

٣ - أخرجه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة. وحسنه الترمذي.

التحدي فلا يقع منه، ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية، لأن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذباً وهو محال، فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق.

وأما الحكماء [ظه ٢٤/٢] فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشرّ نهاية الطرفين. فالسّاحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشرّ ولا يستعمل في أسباب الشرّ، وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما. ﴿والله يهدي من يشاء﴾، وهو القوي العزيز لا ربّ سواه.

ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية<sup>(١)</sup> الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان<sup>(٢)</sup>، عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال، ويفرط في استحسانه، وينشأ عن ذلك الاستحسان حيثئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به، فيؤثر فساداً. وهو جبلة فطرية أعني هذه الإصابة بالعين. والفرق بينها وبين التأثيرات. النفسية، أن صدور فطري جبلي لا يتخلف ولا يرجع إلى اختيار صاحبه ولا يكتسبه. وسائر التأثيرات - وإن كل<sup>(٣)</sup> منها - مما لا يكتسب، فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها، والفطري منها قوة صدورها لا نفس صدورها. ولهذا قالوا: القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل، والقاتل بالعين لا يقتل، وما ذلك إلا أنه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه، وإنما هو مجبور في صدره عنه. والله أعلم بما في الغيوب، ومطلّع على ما في السرائر.

١ - في ن: النفسية.

٢ - رجل معيان وعيون شديد الإصابة بالعين جمعه عين.

٣ - في ن: كان.



## ١-٦-٣٠- الفصل الثلاثون: علم أسرار الحروف

وهو المسمى بهذا العهد بالسيمياء، نقل وضعه من الطَّلَّسَمَات إليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، فاستعمل استعمال العام في الخاص. وحدث هذا العلم في الملة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه. وزعموا أن الكمال الأسمائي مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء. فهي سارية في الأكوان على هذا النظام. والأكوان من لدن الإبداع الأول تنتقل في أطواره وتعرب عن أسرارها. فحدث لذلك علم أسرار الحروف، وهو من تفاريع علم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله. وتعددت فيه تأليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما. وحاصله عندهم وثمرته تصرُّف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية في الأكوان.

ثم اختلفوا في سر التصرف [ظ ١/٢٤٦] الذي في الحروف بما هو، فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه، وقسم الحروف بقسمة الطبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر، واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلاً وانفعلاً بذلك الصنف.

فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه التكمسير إلى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر. فالألف للنار والباء للهواء والجيم للماء والذال للتراب. ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر إلى أن تنفذ<sup>(١)</sup>.

فتعين لعنصر النار حروف سبعة: الألف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال. وتعين لعنصر الهواء سبعة أيضاً: الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء والظاء. وتعين لعنصر الماء أيضاً سبعة: الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين.

١ - يرتب ابن خلدون هنا الحروف الأبجدية على طريقة المغاربة وهي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، صغفض، قرست، ثخذ، ظغش. (د. وافي).

وتعين لعنصر التراب أيضاً سبعة: الدال والحاء واللام والعين والحاء والشين<sup>(١)</sup>.  
والحروف النارية لدفع الأمراض الباردة، ولمضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها  
إما حساً أو حكماً كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك.  
والمائية أيضاً لدفع الأمراض الحارة من حميات وغيرها، ولتضعيف القوى الباردة حيث  
تطلب مضاعفتها حساً أو حكماً كتضعيف قوى القمر وأمثال ذلك.  
ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية، فإن حروف أبجد دالة  
على أعدادها المتعارفة وضعاً وطبعاً؛ فبينهما من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها  
أيضاً، كما بين الباء والكاف والراء لدلالاتها كلها على الاثنين كل في مرتبته، فالباء على  
اثنين في مرتبة الآحاد، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة  
المئين. وكالذي بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالاتها على الأربعة، وبين الأربعة والاثنين  
نسبة الضعف.

وخرج للأسماء أوافق كما للأعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الأوافق  
الذي يناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف، وامتزج التصرف في السر الحرفي  
والسر العددي لأجل التناسب الذي بينهما.  
فأما سر هذا التناسب الذي بين هذه الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف  
والأعداد، فأمر عسير على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستندهم فيه  
الذوق والكشف. قال البوني<sup>(٢)</sup>: ولا تظن أن سر الحروف مما يتوصل إليه بالقياس العقلي،  
وإنما هو بطريق المشاهدة والتوفيق [ظ ٢٤٦/٢] الإلهي.  
وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأسماء المركبة فيها، وتأثر الأكوان عن  
ذلك، فأمر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواتراً.

وقد يظن أن تصرف هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك. فإن  
حقيقة الطلسم وتأثيره على ما حققه أهله أنه قوى روحانية من جوهر القهر تفعل فيما له  
ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبات لروحانية ذلك  
الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية. وهو عندهم  
كالخميرة المركبة من هوائية وأرضية ومائية ونارية حاصلة في جملتها، تحيل وتصرف ما

١ - حدث تحريف في ترتيب هذه الحروف في مختلف النسخ، وكان منشأ هذا التحريف: أن بعض النسخ يرتب  
الحروف حسب طريقة المشاركة وهي: أبجد هوز، حطي كلمن، سغنص قرشت نخذ ضطخ، فيغير أسماء بعض  
الحروف غافلاً عن أن ابن خلدون يسير دائماً في ترتيب الحروف حسب طريقة المغاربة. (د. وافي).

٢ - هو أحمد بن علي البوني توفي سنة ٦٢٢هـ. له كتاب شمس المعارف الكبرى.

حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبه إلى صورتها. وكذلك الإكسير للأجسام المعدنية كالخميرة تقلب المعدن الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. ولذلك يقولون: موضوع الكيمياء جسد في جسد؛ لأن الإكسير أجزاؤه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد، لأنه ربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، والطبائع السفلية جسد والطبائع العلوية روحانية.

**وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية، أن النفس الإنسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها بالذات، إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استنزال روحانية الأفلاك وربطها بالصور أو بالنسب العددية، حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته فعل الخميرة بما حصلت فيه، وتصرف أصحاب الأسماء إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهي والإمداد الرباني، فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لأن مدده أعلى منها. ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك، وأهون بها وجهة ورياضة، بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب، وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله لهم. فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيشة<sup>(١)</sup>، وهؤلاء هم [ظ ١/٢٤٧] أهل السيمياء في المشهور، كان إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات، بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة، وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة، وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه، يكون حاله أضعف رتبة. وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الأسماء الحسنى أو ما يرسم من أوقافها، بل ولسائر الأسماء أوقاتها، تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم، كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الأنماط. وهذه المناسبة عندهم من لدن الحضرة العمائية وهي برزخية الكمال الأسمائي، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة، وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة. فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة وتلقى تلك**

المناسبة تقليداً كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو<sup>(١)</sup> أوثق منه كما قلناه. وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب الأسماء من الاطلاع في حال المشاهدة، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر وأعراض وذوات ومعان، والحروف والأسماء من جملة ما فيه. فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه. وينون على ذلك مباني غريبة منكورة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في كتاب الغاية. والظاهر من حال البوني في أنماطه<sup>(٢)</sup> أنه اعتبر طريقهم؛ فإن تلك الأنماط إذا تصفحتها وتصفححت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة، ثم وقفت على الغاية، وتصفححت قيامات الكواكب التي فيها، وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب ويسمونها قيامات الكواكب، أي: الدعوة التي يقام له بها، شهد له ذلك إما بأنه من مادتها أو بأن التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله إلا قليلاً. وليس كل ما [ظ ٢/٢٤٧] حرمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت، فقد ثبت أن السحر حق مع حظره. لكن حسبنا من العلم ما علمنا الله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

١- ٦- ٣٠- ١- تحقيق ونكته: هذه السيمياء كما تحقق لك أنها ضربٌ من السحر يحصل برياضات شرعية. وذلك أنا قدمنا أن التصرف في عالم الأكوان لصنفين من البشر: هما الأنبياء بالقوة الإلهية التي فطرهم الله عليها؛ والسحرة بالقوة النفسانية التي جبلوا عليها. وقد يحصل للأولياء تصرف يكتسبونه بالكلية الإيمانية، وهو من نتائج التجريد؛ ولا يقصدون إلى تحصيله، وإنما يأتيهم عفواً. والتمكنون منهم إذا عرض لهم أعرضوا عنه. واستعاضوا بالله منه. وعدوه محنة، كما يحكى عن أبي يزيد البسطامي أنه وافى شاطيء دجلة عشاء متحيراً<sup>(٣)</sup> فالتقى له طرفا الوادي، فاستعاض بالله وقال: لا أبيع حظي من الله بدانق<sup>(٤)</sup>، وركب السفينة عابراً مع الملاحين.

وأما السحر فلا بد في الجبلي منه من الرياضة ليخرج من القوة إلى الفعل. وقد يحصل

١ - أي صاحب الطلسم.

٢ - أي: كتابه الأنماط.

٣ - في ن: متحزراً.

٤ - يقصد: أجرة ركوب السفينة لتوصله إلى الضفة الأخرى من دجلة.

غير الجبليّ منه بالاكتساب، وهو دون الجبلي، فتعاني فيه الرياضة كما تعانى في الأول. وهذه الرياضة السحرية معروفة. وقد ذكر أنواعها وكيفيتها مسلمة المجريطي في كتاب الغاية وجابر بن حيان في رسائله وغيرهما. ويستعملها كثيرٌ ممن يقصد اكتساب السحر وتعلمه على قوانينها وشروطها. إلا أن هذه الرياضة السحرية التي للأولين مشحونة بالكفريات كالتوجهات للكواكب والدعوات لها، التي يسمونها قيامات، لاستجلاب روحانيتها، وكاعتقاد التأثير من غير الله في ربط الفعل بالطوابع النجمية وبمناظرة الكواكب في البروج لتحصيل الأثر المطلوب.

فاعتمد لذلك كثير ممن يروم التصرف في عالم الكائنات وقصدوا طريق تحصيله على وجه يبعد عن ملابسة الكفر وانتحاله، وقلبوا تلك الرياضة شرعية بأذكار وتسيّحات ودعوات من القرآن والأحاديث النبوية، هداهم إلى معرفة المناسب منها للحاجة ما قدمناه من انقسام العالم بما فيه من ذوات وصفات وأفعال بآثار الكواكب السبعة. ويتحرون مع ذلك الأيام والساعات المناسبة لانقسامها كذلك. ويتسترون بتلك الرياضة الشرعية تخرجاً من السحر المعهود الذي هو كفر أو يدعو إليه.

ويتمسكون بالوجهة الشرعية لعمومها وخلوصها كما فعله البونوي في كتاب الأنماط [ظ ١/٢٤٨] وغيره من كتبه، وفعله غيره، وسموا هذه الطريقة بالسيمياء توغلاً في الفرار من اسم السحر، وهم في الحقيقة واقعون في معناه، وإن كانت الوجهة الشرعية حاصلة لهم، فلم يبعدوا كل البعد عن اعتقاد التأثير لغير الله. ثم إنهم يقصدون التصرف في عالم الكائنات، وهو محظور عند الشارع. وما وقع منه للأنبياء في المعجزات فبأمر الله وإقداره. وما وقع للأولياء فبإذن من الله يحصل لهم لخلق العلم الضروري إلهاماً وغيره، ولا يعتمدون من دون إذن. فلا تثقن بما يموّه به هؤلاء في هذه السيمياء، فإنما هي كما قررته لك من فنون السحر وضروبه. والله الهادي إلى الحق بمنه.

## ١-٦-٣٠-٢- فصل:

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة، بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية، وإنما هي شبه المعاينة والمسائل السيالة. ولهم في ذلك كلام كثير، مِنْ أَوْعَبِهِ<sup>(١)</sup> وأعجبه زائرجة العالم للِسْبَتِي، وقد تقدم ذكرها. وبنين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزائرجة، وبسرد القصيدة المنسوبة للِسْبَتِي بزعمهم في ذلك، وبعدها صفة الزائرجة بدائرتها وجدولها المكتوب حولها، ثم نكشف عن الحق فيها، وأنها ليست من الغيب، وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة الخطائية. وهي مليحة من الملح، غريبة في استخراج الجواب من السؤال بالصناعة التي يسمونها صناعة التكسير. وقد أشرنا إلى ذلك كله من قبل.

وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة؛ إلا أننا تحررنا أصح النسخ منها في ظاهر الأمر. والله الموفق بمنه، وهي هذه:

مصل على هاد إلى الناس أرسلا  
ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا  
تراه ييحكم وبالعقل قد جلا  
ويدرك أحكاماً تدبرها العلا  
ويدرك للتقوى وللكل حصلا  
ويعقل نفسه وصح له الولا  
وهذا مقام من بالأذكار كُملاً  
أقمها دوائر وللحاء عدلا [ظ ٢/٢٤٨]  
بنظم ونثر قد تراه مجدلاً  
وارسم كواكباً لأدراجها العلا  
وكور بمثله على حد من خلا  
وحقق بها مهم ونورهم جلا  
وعلماً لموسيقى والأرباع مثلاً

يقول سُبَيْتِي ويحمد ربه  
محمد المبعوث خاتم الأنبياء  
ألا هذه زائرجة العالم الذي  
فمن أحكم الوضع فيحكم جسمه  
ومن أحكم الربط فيدرك قوة  
ومن أحكم التصريف يحكم سره  
وفي عالم الأمر تراه محققاً  
فهذي سرائر عليكم بكتمها  
فطاء<sup>(٢)</sup> لها عرش وفيه نقوشنا  
ونسب دوائر كنسبة فلکها  
وأخرج لأوتار وارسم حروفها  
أقم شكل زيرهم وسو بيوتهم  
وحصل علوماً للطباع مهندساً

١ - في المطبوع: أدعية. خطأ.

٢ - في ظ: .. وبالحاء اعتدلاً. وطاء..

وعلم بآلات فحقق وحصلا  
وعالمها أطلق والإقليم جدولا  
زناتية آبت وحكم لها خلا  
وجاء بنو نصر وظفرهم تلا  
فإن شئت نصهم وقطرهم حلا  
ملوك وبالشرق بالأوفاق نزلا  
فإن شئت للروم فبالخر شكلا  
وإفرنسهم دال وبالطاء كملا  
وأعراب قومنا بترقيق أعمالا  
وفرس ططاري وما بعدهم طلا  
لكاف وقبطيهم بلامه طولا  
ولكن تركي بهذا الفعل عطلا  
فحتم بيوتا ثم نسب وجدولا  
وعلم طبائعها وكله مثلا  
ويعلم أسرار الوجود وأكملا  
وعلم ملاحيم بحاميم فصلا  
فحكم الحكيم فيه قطعاً ليقطلا  
وأحرف سيبويه تأتيك فيصلا  
بترنيمك الغالي للأجزاء خلخلا  
وزد لمح وصفيه في العقل فعلا  
واعكس بجذريه وبالذور عدلا  
وتعطى حروفها وفي نظمها انجلا  
فحسبك في الملك ونيل اسمه العلا  
فنسب دنا دينا تجدد فيه منهلا  
ومشاهم المثلث بجيمه قد جلا  
وأرسم أبا جاد وباقيه جملا

وسو لموسيقى وعلم حروفهم  
وسو دوائرًا ونسب حروفها  
أمير لنا فهو نهاية دولة  
وقطر لأندلس فابن لهودهم  
ملوك وفرسان وأهل لحكمة  
ومهدي توحيد بتونس حكمهم  
واقسم على القطر وكن متفقدا  
ففتش وبرشنون الرءاء حروفهم  
ملوك كناوة دلوا لقفاهم  
فهند حباشي وسند فهرمس  
فقيصرهم جاء ويزدجردهم  
وعباس كلهم شريف معظم  
فإن شئت تدقيق الملوك وكلهم  
على حكم قانون الحروف وعلمها  
فمن علم العلوم تعلم علمنا  
فيرسخ علمه ويعرف ربه  
وحيث أتى اسم والعروض يشقه  
وتأتيك أحرف فسو لضربها  
فمكن بتكثير وقابل وعوضن  
وفي العقد والمجزور يعرف غالباً  
واختر لمطلع وسويه رتبة  
ويدكها المرء فيبلغ قصده  
إذا كان سعد والكواكب أسعدت  
وإيقاع دالهم بمرموز ثمة  
وأوتار زيرهم فللحاء بمهم  
وأدخل بأفلاك<sup>(٣)</sup> وعدل بجدول

أتى في عروض الشعر عن جملة ملا  
وعلم لنحونا فاحفظ وحصلا  
وسبح باسمه وكبر وهلا  
بنظم طبعي وسر من العلا  
فعلم ألفوايح ترى فيه منهلا  
من الألف طبعياً فيا صاح جدولا  
فصح لك المنى وصح لك العلا  
أقمها دوائر الزير وحصلا  
من أسرار أحرفهم فعذبه سلسلا

وجوز شذوذ النحو تجري ومثله  
فأصلٌ لديتنا وأصلٌ لفقهننا  
فأدخل لفسطاط على الوفق جذره  
فتخرج أبياتاً وفي كل مطلب  
وتفنى بمصرها كذا حكم عدهم  
فتخرج أبياتاً وعشرون ضعفت  
تريك صنائعاً من الضرب أكملت  
وسجع بزيرهم وأثنى بنقرة  
أقمها بأوفاق وأصل لعددها

٤٣ ك ا ك و ك ح و ا ه عم له ر لا سع ك ط ا ل ن ح ع ف و ل منافرة.

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفياتها ومقادير المقابل منها  
وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج طبائع

وعلم الطب أو صناعة الكيمياء

وعالم مقدار المقادير بالولا  
لأحكام ميزان تصادف منهلا  
وأمزاج وضعكم بتصحيح انجلا

أيا طالباً للطب مع علم جابر  
إذا شئت علم الطب لا بد نسبة  
فيشفى غليلكم والإكسير محكم

الطب الروحاني

لبرهام برجيس وسبعة أكمل  
كذلك والتركيب حيث تنقلا

وشئت إيلارش ٥٦٥ هـ ودهنه نجلا  
لتحليل أوجاع البوادر صححوا

كد منع مهم ٣٥٥ وهج ٦ صح لهاى ولح آآ وهج وى سكره لال ح مهمت مهمه  
ع ع مى مرح ح ٢٢٤٢ ل ك عا عر.

مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنهم

وضلع قسيها بمنطقة جلا  
ويدو إذا عرض الكواكب عدلا  
فمن أدرك المعنى علا ثم فوضلا  
لتسديسهم تثليث بيت التي تلا  
يقيناً وجذره وبالعين أعمالا  
بصاد وضعفه وتريعه انجلا

وعلم مطاريح الشعاعات مشكل  
ولكن في حج مقام إمامنا  
بدال مراكز بين طول وعرضها  
مواقع ترييع وسه مسقط  
يزاد لترييع وهذا قياسه  
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك









## كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايحة العالم بحول الله

منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها

السؤال له ثلاث مئة وستون جواباً عدة الدرج، وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار، وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيد.

تنبيه: تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول: حروف عريضة تنقل على هيأتها؛ وحروف برسم الغبار وهذه تتبدل فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأدوار عن أربعة، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه؛ ومنها حروف برسم الزمام كذلك، غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة، ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم، فاختصروا من الجدول بيوتاً خالية. فمتى كانت أصول الأدوار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول، وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العاشر منها.

**والعمل في السؤال** يفتقر إلى سبعة أصول، عدة حروف الأوتار وحفظ أدوارها بعد طرحها اثني عشر اثني عشر، وهي ثمانية أدوار<sup>(١)</sup> في الكامل وستة في الناقص أبداً؛ ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الأكبر الأصلي وهو واحد أبداً؛ وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي؛ وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج، وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضروبة في أربعة تكون اثني عشر دوراً؛ ونسبة هذه الثلاثة الأدوار التي هي كل دور من أربعة، نشأة ثلاثية، كل نشأة لها ابتداء، ثم إنها تضرب أدواراً رباعية، أيضاً ثلاثية، ثم إنها من ضرب ستة في اثنين. فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل، ويتبع هذه الأدوار الاثني عشر نتائج. وهي في الأدوار إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة.

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايحة هل هي علم قديم أو محدث بطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار، ثم حروف السؤال. فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء وثلاثة وتر رأس الدلو إلى حد المركز، وأضفنا إليه حروف السؤال، ونظرنا عدتها، وأقل ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستة وتسعين، وهي جملة الدور الصحيح، فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين، ويختصر السؤال [ظ ٢٥١/٢] إن

زاد عن ستة وتسعين، بأن يسقط<sup>(١)</sup> جميع أدواره الاثني عشرية، ويحفظ ما خرج منها وما بقي، فكانت في سؤالنا سبعة أدوار الباقي تسعة أثبتتها في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور.

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث، ثم تثبت الطالع وهو واحد، وسلطان الطالع وهو أربعة، والدور الأكبر وهو واحد، واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة، فهذه سبعة أصول. فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ اثني عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً، وإن زاد على اثني عشر طرح أدواراً. وتدخل الباقي في ضلع ثمانية، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول، وتعد متوالياً خمساً أدواراً، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي، فوقع العدد في عملنا على حرف الألف وخلف ثلاثة أدوار، فضربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة، وهو عدد الدور الأول، فاثبتته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامة بالعدد من الجدول. وإن وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على أحدها فلا يعتبر وتستمر على أدوارك. وادخل بعدد ما في الدور الأول وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمع فيه، وهي ثمانية ماراً إلى جهة اليسار، فوقع على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبداً حرف مركب، وإنما هو إذن حرف تاء أربع مئة برسم الزمام. فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد، واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلاثة عشر أدخل بها في حروف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيد، ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي، وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تبلغ ثلاثة عشر أضعفها بمثلها تكون ستة وعشرين، أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون.

فعلى ذلك يكون نظم الحروف الأول ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح إلى أن ينتهي إلى الواحد<sup>(٢)</sup> [ظ ٢٥٢/١] من آخر البيت المنظوم، ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً، ثم نضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول إلى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان تكن

١ - في ظ: كما تسقط.

٢ - في ن: للواحد.

سبعة عشر الباقي خمسة، فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهيت في الدور الأول وعلم عليه، وأدخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة ولا تعد الخالي، والدور عشرين، فوجدنا حرف ثاء خمس مئة، وإنما هو نون لأن دورنا في مرتبة العشرات، فكانت الخمس مئة بخمسين لأن دورها سبعة عشر، فلو لم تكن سبعة عشر لكانت مئتين، فأثبت نوناً ثم أدخل بخمسة أيضاً من أوله، وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحداً فقهر العدد واحداً يقع على خمسة، أضف لها واحداً لسطح تكن ستة، أثبت واواً وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تبلغ اثني عشر، أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني. فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوقع العدد على واحد، أثبت الألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف عدة الخارج من الدور الثاني، وضع الدور الثالث وأضف خمسة إلى ثمانية تكن ثلاثة عشر، الباقي واحد. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد، وأدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر، وخذ ما وقع عليه العدد وهو (ق) وعلم عليه، وأدخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار وأثبت ما خرج وهو سين وعلم عليه من بيت القصيد، ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر وهو واحد، فخذ مما يلي حرف سين من الأوتار فكان (ب) أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد.

وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح، وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها، وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد، وأدخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله من السطح وأضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر، فكان حرف جيم، وكانت للجملة سبعة، فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد، وميزانه أن تضعف السبعة بمثلها، وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر [ظ ٢٥٢/٢] يكون خمسة عشر، وهو الخامس عشر من بيت القصيد، وهذا آخر أدوار الثلاثيات، وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة بإضافة الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في السلطان، وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات. فاضرب على حرفين من الأوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وأدخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخراً من بيت القصيد، فالتاسع حرف راء فأثبتته وعلم عليه، وأدخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابله من السطح يكون (ج)، قهر العدد واحداً يكون ألف، وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتته وعلم عليه، وعد مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضاً أثبتته وعلم عليه

واضرب على حرف من الأوتار، وأضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر، ادخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء، أثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين، وادخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على (س) أثبتها وعلم عليها اثنين، وأضف اثنين إلى تسعة تكون أحد عشر، ادخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح ألف أثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة، اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بمثلها، وأضفها إلى سبعة عشر عدد دورها، الجملة سبعة وعشرون، ادخل بها في حروف الأوتار تقف على (ب) أثبتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي في رأس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر، ادخل في حروف الأوتار تقف على (ق) أثبتها وعلم عليها ستة وعشرين، وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار، وذلك حرف (ب) أثبته وعلم عليه أربعة وخمسين، واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد، فبين إذ ذاك أن دور النظم خمسة وعشرين، فإن الأدوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد، فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت، فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد. ولكن لم ندخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قدمناه لأنه دور ثان من نشأة [ظ ٢٥٣/١] تركيبية ذاتية<sup>(١)</sup> من صنف الأربعة، بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف: (باء) من بيت القصيد إلى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ ثمانية عشر، ادخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابلها من السطح وهو (ألف)، أثبته وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الأوتار، ومن هذا الجدول تنظر أحرف السؤال، فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف السؤال، ليكون داخلاً في العدد في بيت القصيد، وكذلك تفعل بكل حرف بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال، فما خرج منها زده إلى بيت القصيد من آخره وعلم عليه، ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الأحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين. ادخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف (راء) أثبته وعلم عليه من بيت القصيد، ستة وتسعين، وهو نهاية الدور في الحرف الوتري، فاضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور السابع، وهو ابتداء لمخترع ثان ينشأ من الاختراعين، ولهذا الدور من العدد تسعة تضيف لها واحداً تكون عشرة للنشأة الثانية، وهذا الواحد تزيده بعد إلى اثني عشر دوراً إذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الأصل

تبلغ الجملة خمسة عشر، فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمس مئة، وإنما هي خمسون نون مضاعفة. يمثلها وتلك (ق) أثبتتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين، وأسقط من اثنين وخمسين اثنين، وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون، فادخل بها في حروف الأوتار تقف على واحد أثبتته. وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجد واحداً، فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين، علامة على الألف الأخير الميزاني، وأخرى على الألف الأولى فقط، والثانية أربعة وعشرون واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقي خمسة، ادخل في ضلع ثمانية وخمسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقف على (عين) بسبعين، أثبتتها وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة، وخذ ما قابلها من السطح وذلك واحد أثبتته وعلم عليه من البيت [ظ ٢٥٣/٢] ثمانية وأربعين، وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأس الثاني وأضف إليها خمسة الدور، الجملة اثنان وخمسون، ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف (ب) غبارية وهي مرتبة مئينية لتزايد العدد فتكون مئتين وهي حرف (راء)، أثبتتها وعلم عليها من أربعة وعشرين، فانتقل الأمر من ستة وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين، ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية أثبت (٢) وعلم عليها وضع الدور التاسع، وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد، اصعد في ضلع ثمانية بواحد.

وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور السادس، لتضاعف العدد، ولأنه من النشأة الثانية، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات، فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة، الجملة اثنان وخمسون، ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف اثنين غبارية، وإنما هي مئينية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الآحاد والعشرات، فأثبتته مئتين (راء) وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين، وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس، وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب على حرفين من الأوتار، وادخل بسبعة تقف على حرف (لام) أثبتته وعلم عليه من البيت.

وضع الدور العاشر وعدده تسعة، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة، واصعد في ضلع ثمانية بتسعة تكون خلاء فاصعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء، اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعين، وإنما كانت تضرب في اثنين، وادخل في الجدول بستة وثلاثين تقف



على أربعة زمامية وهي عشرية، فأخذناها أحادية لقلّة الأدوار فأثبت حرف (دال). وإن أضيفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد، فعلم عليها، ولو دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية، فاطرح من ثمانية أربعة الباقي أربعة وهو المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري، فاطرح منه اثنين [ظ ١/٢٥٤] تكرر التسعة، الباقي ثمانية، نصفها المطلوب. ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضررها في ثلاثة لوقعت على عشرة زمامية، والعمل واحد. ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد وأثبت ما خرج وهو ألف. ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط واحداً وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين وأثبت ما خرج وهو مئتان بحرف (راء). وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين، واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة، اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول، وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على (حاء) فخذ ما قبله من السطح وهو واحد، فادخل بواحد في بيت القصيد تكن (سين). أثبتة وعلم عليه أربعة. ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة. وأضعف سبعة عشر بمثلها وأسقط واحداً وأضعفها بمثلها، وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين؛ ادخل بها في الأوتار تقف على ستة أثبتها وعلم عليها. وأضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على (لام)، أثبتها وعلم عليها عشرين. واضرب على حرفين من الأوتار وضع الدور الثاني عشر، وله ثلاثة عشر، الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية.

والواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية. وإنما هي آحاد ثمانية وليس معنا من الأدوار إلا واحد، فلو زاد عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت (ح)، وإنما هي (د). فأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين. ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن خمسة. أضعفها بمثلها للأس تبلغ عشرة. أثبت (ي) وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت وجدناها في الرابعة. دخلنا بسبعة في حروف الأوتار. وهذا المدخل يسمى التوليد الحرفي فكانت (ف) أثبتها وأضف إلى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية، ادخل بها في الأوتار تبلغ (س) أثبتها وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرين. ادخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مئتان وعلامتها ستة وتسعون، وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية، واضرب على حرفين [ظ ٢/٢٥٤] من الأوتار وضع

النتيجة الأولى و<sup>(١)</sup> لها تسعة.

وهذا العدد يناسب أبداً أن الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أدواراً وذلك تسعة، فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين. فادخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألف، أثبتته وعلم عليه ستة وتسعين، وإن ضربت سبعة التي هي أدوار الحروف التسعين في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين، والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كان كذلك. واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة فيما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة، وأضف لذلك سبعة عدد الأوتار الحرفية. واطرح واحداً الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين. أدخل بها في البيت تبلغ خمسة. فأثبتها وأضف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر. وخذ ما في السطح وهو واحد ادخل به في حروف الأوتار تبلغ (م) أثبتته وعلم عليه واضرب على حرفين من الأوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر. أضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة، وادخل بستة عشر في بيت القصيد تبلغ (ت). أثبتته وعلم عليه أربعة وستين. وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين، وزد واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة. ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية. وانظر ما في السطح تجد واحداً. أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع أيضاً من البيت، وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة وهي عشرات، فأثبت (لام) وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة، وعددها ثلاثة عشر، الباقي واحد.

فانقل في ضلع ثمانية بواحد، وأضف إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين، وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر، وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر، ادخل بها في حروف الأوتار تكن لاما. أثبتتها فهذا آخر العمل.

والمثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم أن هذه الزايرة علم محدث أو قديم بطالع أول درجة من القوس أثبتنا حروف الأوتار ثم حروف السؤال ثم الأصول، وهي عدة الحروف ثلاثة وتسعون أدوارها سبعة، الباقي منها تسعة [ظ ١/٢٥٥]، الطالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور اثنان، ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة بيت القصيد.

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجدم مثلاً

### حروف الأوتار

ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع ف ص و ر س ك  
ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر و ح ل  
ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي.

### حروف السؤال

ال ز ا ي ر ج ة ع ل م م ح د ث أ م ق د ي م؟ [ظ ٢٥٥/٢].  
الدور الأول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١. الدور الرابع ٩  
الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن  
١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي  
٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة  
الثالثة ١٣ الباقي ١.

### استخراج أجوبة المسائل من زائرجة العالم

ه ع ح و ٦٦ في ا ي ٦

- ١.....س
- ٢.....و
- ٣.....ا
- ٤.....ل
- ٥.....ع
- ٦.....ظ
- ٧.....ي
- ٨.....م
- ٩.....ا
- ١٠.....ل
- ١١.....خ
- ١٢.....ل
- ١٣.....ق
- ١٤.....ح
- ١٥.....ز

- ١٦.....ت  
١٧.....ف  
١٨.....ص  
١٩.....ن  
٢٠.....إ  
٢١.....ذ  
٢٢.....ن  
٢٣.....غ  
٢٤.....ر  
٢٥.....ا  
٢٦.....ي  
٢٧.....ب  
٢٨.....ش  
٢٩.....ك  
٣٠.....ض  
٣١.....ب  
٣٢.....ط  
٣٣.....هـ  
٣٤.....ا  
٣٥.....ل  
٣٦.....ج  
٣٧.....د  
٣٨.....م  
٣٩.....ث  
٤٠.....ل  
٤١.....ا

[ظ ١/٢٥٦] ف وزاوس ر را اس ا ب ا ر ق ا ع ا ر ص ح ر ح ل د ا ر س ا  
ل دى و س ر ا د م ن ا ل ل.

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين  
إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعاً والله أعلم.

ن ف ر و ح ر و ح ا ل و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ن س د ر و ا ب  
ل ا م ر ب و ا ل ع ل ل.

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من زائرجة العالم منظومة. وللقوم طرائق أخرى  
من غير الزائرجة يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة. وعندهم أن السر في  
استخراج الجواب منظوماً من الزائرجة إنما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب، وهو:  
سؤال عظيم الخلق.... البيت، ولذلك يخرج الجواب على رويه. وأما الطرق الأخرى  
فيخرج الجواب غير منظوم. فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما نقله عن بعض  
المحققين منهم.

## ١ - ٦ - ٣٠ - ٣ - فصل

## في الإطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

اعلم — أرشدنا الله وإياك — أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية، وإنما تستتج الأجوبة على تجزئته بالكلية وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى، والله علام الغيوب.

اول اع ط س ال م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا.

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدد من حرفي وسماء القطب فقال:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

فإذا أردت استنتاج المسألة فاحذف ما تكرر من حروفها وأثبت ما فضل منه، ثم احذف من الأصل وهو القطب لكل حرف فضل من المسألة حرفاً يماثله، وأثبت ما فضل منه، ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبدأ بالأول من فضله، والثاني من فضل المسألة، وهكذا إلى أن يتم [ظ ٢/٢٥٦] الفضلان أو ينفد أحدهما قبل الآخر<sup>(١)</sup>، فتضع البقية على ترتيبها. فإذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف فالعمل صحيح فحينئذ تضيف إليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً، فتعمر بها جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني، وتنقل البقية على حالها وهكذا إلى أن تتم عمارة الجدول. ويعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة. ثم يخرج وتر كل حرف بقسمة أربعة على أعظم جزء يوجد له. وتضع الوتر مقابلاً لحرفه. ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائرها النفسانية وأسسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك، وهذه صورته [ظ ١/٢٥٧]:

١	القرى	الموازين	الغرائب	الاسوس	و
ب	٢٨ هـ	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
ج	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
د	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
هـ	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
و	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
ز	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ثم تأخذ وتركل حرف بعد ضربة في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، واحذر ما يلي الأوتاد وكذلك السواقط لأن نسبتها مضطربة. وهذا الخارج هو أول رتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات، يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهي عناصر الأمداد يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة، ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب للسريان ثم تطرح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان. فتضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبدأً في رابع مرتبة السريان يخرج أول عالم للتفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل، والرابع في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل، فتجمع عوالم للتفصيل وتخط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة، فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول، ويقسم المنكسر على الأفق الأوسط يخرج الجزء الثاني، وما انكسر فهو ثالث، ويتعين الرابع هذا في الرباعي.

وإن شئت أكثر من الرباعي فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان ومن الأوفاق بعد الحروف والله يرشدنا وإياك. وكذلك إذا قسم عالم التجريد على أول رتب السريان خرج الجزء الأول من عالم التركيب، وكذلك إلى نهاية المرتبة الأخيرة من عالم الكون، فافهم وتدبر والله المرشد المعين.

**ومن طريقهم أيضا في استخراج الجواب،** قال بعض المحققين منهم: أعلم أيدينا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم، وللعمل به شرائط تلتزم، وقد يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة فنطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة أعني السيمياء وأختها، ويرفع له حجاب الجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب. وقد شهدت جماعة بأرض المغرب ممن اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله.

واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد. وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير. كما أن الخرق<sup>(١)</sup> والعجلة رأس الحرمان. فأقول: إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف ألفابيطوس أعني أبجد إلى آخر العدد، وهذا أول [ظ ٢٥٧/٢] مدخل من علم الحروف، فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد، فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحروف هي قوته في الجسمانيات، ثم اضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره، وهذا في

الحروف المنقوطة لا يتم، بل يتم لغير المنقوطة، لأن المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي أعني الكرسي، ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أماكنه من الجداول الموضوعة في الزيارج.

### واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام:

الأول: وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها، فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم، فمتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت قوى الحرف مؤثرة في عالم الأجسام.

الثاني: قوتها في الهيئة الفكرية، وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات. وقوة شكلية في عالم الجسمانيات.

الثالث: وهو ما يجمع الباطن، أعني القوة النفسانية على تكوينه، فتكون قبل النطق به صورة في النفس، بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في النطق.

وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة واليبوسة، والحرارة والرطوبة، والبرودة واليبوسة، والبرودة والرطوبة. فهذا سر العدد اليماني. والحرارة جامعة للهواء والنار وهما [ظ ٢٥٨/١]: ا ه ط م ف ط ش ذ ج ز ك س ق ث ظ.

والبرودة جامعة للهواء والماء: ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ.

واليبوسة جامعة للنار والأرض: ا ه م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض.

فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الأمهات الأول، أعني الطبائع الأربع المنفردة.

فمتى أردت استخراج مجهول من مسألة ما فحقق طالع السائل أو طالع مسألته واستنطق حروف أوتادها الأربعة الأول والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة، واستخرج أعداد القوى والأوتاد كما سنبين واحمل وانسب واستنتج الجواب يخرج لك المطلوب، إما بصريح اللفظ أو بالمعنى. وكذلك في كل مسألة تقع لك.

بيانه: إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع أعدادها بالجمال الكبير، فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي وهو أقوى هذه الأوتاد. فأسقط من كل برج حرفي التعريف، وانظر ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة الموضوعة في دائرتها، واحذف أجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية



كلها، وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعدد حروف العناصر الأربعة وما يخصها كالأول، واسم ذلك كله أحرفاً، ورتب الأوتاد والقوى والقرائن سطرًا ممتزجاً وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين، واجمع واستنتج الجواب، يخرج لك الضمير وجوابه.

مثاله: افرض أن الطالع الحمل كما تقدم ترسم (ح م ل) فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع والثلث (د ب ا) الميم لها من العدد أربعون لها النصف والربع والثلث والعشر ونصف العشر إذا أردت التدقيق (م ك ي ه د ب)، اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلثان والثلث والخمس والسادس [٢٥٨/٢] والعشر (ك ي و ه ج) وهكذا تفعل بسائر حروف المسألة والاسم من كل لفظ يقع لك.

وأما استخراج الأوتار فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد له. مثاله: حرف (د) له من الأعداد أربعة مربعها ستة عشر أقسمها على أعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية، ثم تضع كل وتر مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق. ولها قاعدة تطرد في استخراجها من طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح. والله أعلم

### ١-٦-٣٠-٤- فصل

#### في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وذلك لو سأل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته، وما الموافق لبرئه منه. فمر السائل أن يسمي ما شاء من الأشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك. ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسألة وإلا اقتصر على الاسم الذي سماه السائل، وفعلت به كما نبين. فأقول مثلاً سمي السائل فرساً، فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقة.

بيانه: إن للفاء من العدد ثمانين ولها (م ك ي ح ب) ثم الراء لها من العدد مئتان (ق ن ك ي) ثم السين لها من العدد ستون ولها (م ل ك) فالواو عدد تام له (د ج ب) والسين مثله ولها (م ل ك). فإذا بسطت حروف الأسماء وجدت عنصريين متساويين، فاحكم لأكثرهما حرفاً بالغلبة على الآخر، ثم احمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط، وكذلك اسم الطالب، واحكم للأكثر والأقوى بالغلبة.

## وصفة استخراج قوى العناصر [ظ ١/٢٥٩]:

(نار)	(تراب)	(هواء)	(ماء)
ه ه ه <sup>(١)</sup>	و	ح	
م م	ى ى ى	ك ك ك ك	ح <sup>(٢)</sup>
	ن	ق	ل

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة، واليبوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء. فإذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاماً على نسبة تقريبية خرج موضع الوجد في الحلق، ويوافقه من الأدوية حقنة، ومن الأشربة شراب الليمون، هذا ما خرج من قوى أعداد حروف اسم فرس. وهو مثال تقريبي مختصر؛  
وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العلمية فهو أن تسمي مثلاً محمداً، فترسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر الأربعة على ترتيب الفلك يخرج لك، ما في كل عنصر من الحروف والعدد. ومثاله:

ناري	ترابي	هوائي	مائي
(أجناسه ثلاثة)	(أجناسه ثلاثة)	(أجناسه ستة)	(أجناسه ستة)
ل ل ل	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج	د د د د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح
ط ط ط	ى ى ى	ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض	ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لأن عدد حروفه عشرون حرفاً فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور، وهكذا يفعل بجميع الأسماء.

١ - في ن: ه ه ه.

٢ - في ن: ل ح. بدل وضعهما في سطرين.

حينئذ تضاف إلى أوتارها أو للوتر المنسوب للطالع في الزايرة أو لوتر البيت المنسوب للمالك بن وهيب الذي جعله قاعدة لمزج الأسئلة وهو هذا:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجحد مثلاً

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه، وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية.

**وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مقطعاً ممتزجاً بألفاظ السؤال على قانون صنعة التكسير، وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت ثلاثة وأربعون حرفاً لأن كل حرف مشدد من حرفين.**

ثم تحذف ما تكرر عند المزج من الحروف ومن الأصل لكل حرف فضل من المسألة حرفاً [ظ ٢٥٩/٢] يماثله، وتثبت الفضلين سطرًا ممتزجاً بعبء بعض الحروف، الأول من فضلة القطب، والثاني من فضلة السؤال، حتى يتم الفضلتان جميعاً، فتكون ثلاثة وأربعين، فتضيف إليها خمس نونات ليكون ثمانية وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية، ثم تضع الفضلة على ترتيبها. فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل الحذف فالعمل صحيح، ثم عمر بما مزجت جدولاً مربعاً يكون آخر ما في السطر الأول أول ما في السطر الثاني. وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الأول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم تضعه مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك.

**وصفة استخراج النسب العنصرية هو أن تنظر الحرف الأول من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه، فإن اتفقت فحسن، وإلا فاستخرج بين الحرفين نسبة.** ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية. ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة كما تقدم. واحذر ما يلي الأوتاد، وكذلك السواقط؛ لأن نسبتها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول مراتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عروضه للمدد الكونية. فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد، وهي عناصر الإمداد يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط.

وهذا مخصوص بعوالم الأكوان البسيطة لا المركبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رتب السريان، ثم تطرح من الرابع

أول عناصر الإمداد الأصلي يبقى ثالث رتبة السريان، ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الأربعة أبداً في رابع رتب السريان يخرج أول عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع، فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم المجردة فتقسم على الأفق الأعلى يخرج الجزء الأول [ظ ٢٦٠/١]. ومن هنا يطرد العمل في التامة. وله مقامات في كتب ابن وحشية<sup>(١)</sup> والبوني وغيرهما.

وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الإلهية، وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الإلهية والنيرجات الفلسفية. والله الملمهم، وبه المستعان، وعليه التكلان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

١ - هو أحمد بن علي بن المختار الكلداني، عرف بابن وحشية، من كتبه: السر والطلسمات، ونزهة الأحداق في ترتيب الأرواق، وشوق المستهام في معرفة رموز الأقلام، ومن الكتاب الأخير أخذ شامبليون الأبجدية التي حلت رموز حجر رشيد، انظر ترجمته في معجم المؤلفين (٢٣/٢).

## ١- ٦- ٣١ - الفصل الحادي والثلاثون:

## عِلْمُ الكيمياء

وهو علمٌ ينظرُ في المادة التي يتم بها كون<sup>(١)</sup> الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكونات كلها - بعد معرفة أمزجتها وقواها - لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن، ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل، مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد<sup>(٢)</sup> والتقطير وحمد الذائب منها بالتكليس، وإمهاء<sup>(٣)</sup> الصَّلْب بالفهر<sup>(٤)</sup> والصَّلَاية<sup>(٥)</sup>، وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسمٌ طبيعي يسمونه الإكسير، وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمي بالنار، فيعود ذهباً إبريزاً. ويكونون عن ذلك الإكسير إذا أغزوا في اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً، وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها، وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر، وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز. وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها.

والطُّغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها مسلمة [ظ ٢/٢٦٠] المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم، وجعله قريناً لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم، وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف

١ - يعني: وجود الذهب والفضة بالصناعة.

٢ - التصعيد: الإذابة.

٣ - أمهى الحديدية: أحدها وسقاها الماء والاسم المهى.

٤ - الفهر - بالكسر -: الحجر يملأ الكف ويدق به الجواز ونحوه، هذا وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى القهر بالقاف.

٥ - في القاموس: الصلاة وتهمز الصلاة (مدق الطيب أي: مما يدق به). وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى الصلاة بالباء الموحدة.

عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع. وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تأليفهم هي الغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز. ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة، فلا تكاد تفهم.

وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض التآليف فيها، وليس بصحيح، لأن الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون إليه حتى ينتحله.

وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم. ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي، والبدواة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى، مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؛ وكتب الناظرين في ذلك من الطبييعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم. اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممکن.

وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمع في هذه الصناعة، وكلاهما من تلاميذ مسلمة، فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل.

قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض: والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون، واقتصر جميعها أهل الفلسفة، من معرفة تكوين المعادن، وتخلق الأحجار والجواهر، وطباع البقاع والأماكن، فمنعنا اشتهاها من ذكرها. ولكن أيّن لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه، فنبداً بمعرفته. فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال:

أولها: هل تكون؟

والثانية: من أي شيء تكون؟

والثالثة: من أي كيف تكون؟

فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم.

وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناك بما بعثنا به إليك من

الإكسير [ظ ٢٦١/١].

وأما من أي شيء تكون؟ فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل، وإن كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة؛ لأنها من الطبائع الأربع منها تركيب ابتداء، وإليها ترجع انتهاء. ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل،

وذلك أن منها ما يُمكن تفصيلها، ومنها ما لا يمكن تفصيلها. فالتّي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر، وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل. والتّي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط، وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بعض، وفضل قوة الكبير منها على الصغير. فينبغي لك - وفلك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحلّ والعقد، والتنقية والتكليس، والتنشيف والتقليب، فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدًا.

وينبغي لك أن تعلم هل يمكن أن يُستعان عليه بغيره أو يُكتفى به وحده؟ وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره فصار في التدبير واحداً فسمي حجراً، وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه، وكيفية<sup>(١)</sup> تركيب الروح فيه، وإدخال النفس عليه؟ وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تقدر فلائي علة، وما السبب الموجب لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب، فافهم.

واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس، وزعمت أنها المدبرة للجسد، والحاملة له، والدافعة عنه، والفاعلة فيه. وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره، لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكرت الجسد والنفس؛ لأن هذه الصفات شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء، وقوامه وتماّمه بالنفس الحيّة النورانية التي بها يفعل العظام، والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها. وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه، ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الأعراض والتضاد، ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه، ولكان خالداً باقياً. فسبحان مدبر الأشياء تعالى.

واعلم أن الطبايع التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء، فيُضَيِّع محتاجة إلى الانتهاء، وليس لها إذا صارت في هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه آنفاً [ظ ٢٦١/٢] في الإنسان، لأن طبايع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضاً، وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه وجنسه بعد أن كانت طبايع مفردة بأعيانها، فإعجاباً من أفاعيل الطبايع، أن القوة للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتماّمها، فلذلك قلتُ قوي وضعيف. وإنما وقع التغير والفناء في التركيب الأول للاختلاف، وعدم ذلك في الثاني للاتفاق.

وقد قال بعض الأولين: التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء، والتركيب موت

وفناء، وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد - بقوله: حياة وبقاء - خروجه من العدم إلى الوجود، لأنه ما دام على تركيبه الأول فهو فأن لا محالة فإذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء، والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع. فإذا التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة. فإذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة؛ لأنه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها، وذلك أنه لا وزن له فيه. وسترى ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ. وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد، لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر في الطبائع اللطائف الروحانية منها من<sup>(١)</sup> الغليظة الجسمانية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح، كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح. فأقول: إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدنها، فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة، فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزوجها، فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها، وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها. فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة، وصير الأرواح في هذا الحال، فهو أجل ما تعرفه.

أقول: إنما أبقت تلك الأرواح لاشتعالها ولطافتها، وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها، ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار، ولا تزال تغتذي بها إلى أن تنفنى، وكذلك الأجساد إذا أحست<sup>(٢)</sup> [ظ ١/٢٦٢] بوصول النار إليها لقلّة تلزوجها وغلظها. وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء. وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة، فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة، فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما، وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها. فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك فيها.

وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء

١ - في ن: في.

٢ - في ظ: أبقت.



منه، ولا في الكل، كما قال الفيلسوف: إنك إذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاغ عنها ووقع في الخطأ.

واعلم أن هذه الطبيعة إذا حلَّ بها جسدٌ من قرائنها على ما ينبغي في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى، لأن الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تنبسط، ولا تتزواج، وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح. فافهم - هداك الله - هذا القول.

واعلم - هداك الله - أن هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينقض. وهو الذي يقلب الطبائع ويمسكها، ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة. وليس كل جسد يحلُّ خلاف هذا هو الحل التام، لأنه مخالف للحياة، وإنما حله مما يوافق ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ. وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى ما لها أن تنقلب من اللطافة والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ. وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله، فلا خير فيه.

واعلم أن البارد من الطبائع هو يبس الأشياء ويعقد رطوبتها، والحرار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها. وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان، والرطوبة واليبس منفعلان؛ وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون، وإن كان الحر أكثر فعلاً في ذلك من البرد، لأن البرد ليس له نقل الأشياء ولا تحوُّكها<sup>(١)</sup>، والحر هو علة الحركة، ومتى [ظ ٢٦٢/٢] ضعفت علة الكون - وهي<sup>(٢)</sup> الحرارة - لم يتم منها شيء أبداً، كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شيء، ولم يكن ثمَّ بردٌ أحرقت وأهلكته. فمن أجل هذه العلة احتيج إلى البارد في هذه الأعمال، ليقوى به كل ضد على ضده، ويدفع عنه حر النار، ولم يحذر الفلاسفة أكثر<sup>(٣)</sup> شيء إلا من النيران المحرقة، وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها، ورطوبتها ونفسي آفاتِها وأوساخها عنها، على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم. فإنما عملهم إنما هو مع النار أولاً وإليها يصير آخر<sup>(٤)</sup>. فلذلك قالوا: إياكم والنيران المحرقات. وإنما أرادوا بذلك نفي الآفات التي معها، فتجمع على الجسد آفتين، فتكون أسرع لهلاكه. وكذلك كل شيء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه

١ - في ن: تحركها.

٢ - في ن: هو.

٣ - في ن: أكبر.

٤ - في ن: أخيراً.

واختلافه فيتوسط بين شيئين، فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته. واعلم أن الحكماء كلها ذكرت تردد الأرواح على الأجساد مراراً ليكون ألزم إليها، وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها عند الألفة، أعني بذلك النار العنصرية، فاعلمه. ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة. فقد اختلفوا فيه، فمنهم من زعم أنه في الحيوان؛ ومنهم من زعم أنه في النبات، ومنهم من زعم أنه في المعادن، ومنهم من زعم أنه في الجميع. وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها، لأن الكلام يطول جداً؛ وقد قلت فيما تقدم: إن العمل يكون في كل شيء بالقوة، لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك. فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل. فنقصد إلى ما قاله الحاراني: إن الصبغ كله أحد صبغين: إما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه، وهو مضمحل منتقض التركيب، والصبغ الثاني ثليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه، كثليب الشجر بل التراب إلى نفسه، وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه، حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً، ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان. فإذا كان هذا هكذا، فنقول: إن العمل لا بد أن يكون إما في الحيوان وإما في النبات، وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتماهما. فأما النبات فليس فيه مافي الحيوان من اللطافة والقوة، ولذلك قل خوض الحكماء فيه [ظ ٢٦٣/١]. وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها. وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً والنبات يستحيل حيواناً، والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه، إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ؛ وأنه أيضاً لا يوجد في العالم شيء يتعلق به الروح الحية غيره؛ والروح ألطف مافي العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها، فأما الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة، وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات، فلم يقدر على الحركة لغلظها وغلظ روحه. والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيراً، وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس، وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده. ولا تجري إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء. كذلك النبات عند الحيوان، فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر. فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً، ويترك ما يخشى فيه عسراً.

واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هو المواليد. وهذا معروف متيسر الفهم. فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقساماً حية وأقساماً ميتة؛ فجعلوا كل متحرك فاعلاً حياً، وكل ساكن مفعولاً ميتاً.

وقسموا ذلك في جميع الأشياء وفي الأجساد الذائبة وفي العقاقير المعدنية. فسموا كل شيء يذوب في النار ويطير ويشتعل حياً، وما كان على خلاف ذلك سموه ميتاً. فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعاً حياً، وما لم ينفصل سموه ميتاً. ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية، فلم يجدوا لوفى هذه الصناعة مما ينفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان، ولم يجدوا غير الحجر الذي في الحيوان، فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه، فتكيف لهم منه الذي أرادوا. وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها، ثم تفصل بعد ذلك. فأما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول مثل الأشنان. وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تأثير. وقد دبرنا كل ذلك، فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر. فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان، وطريق وجوده.

إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد، وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض. وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره [ظ ٢٦٣/٢] الصافي وجسده اللطيف، فوجب له بذلك اللطافة والرقّة. وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات في التراب. وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء ينفصل طبائع أربعاً غيره. فافهم هذا القول، فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له. فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك جنسه.

وأنا أبين لك وجوه تدابير حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه.

**التدبير - على بركة الله -:** خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، وهي الجسد والروح والنفس والصبغ، فإذا عزلت الماء عن التراب، والهواء عن النار، فأرفع كل واحد في إنائه على حدة، وخذ الهابط أسفل الإناء، وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه، وبيضه تبييضاً محكماً، وطير عنه فضول الرطوبات المستحثة فيه، فإنه يصير عند ذلك ماءً أبيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد. ثم اعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد، وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف الطبائع وترق وتصفو، فإذا فعلت ذلك، فقد فتح الله عليك، فابدأ بالتركيب الذي عليه مدار العمل؛ وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين. فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ. وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان، بمنزلة الامتزاج بالماء. فعند ذلك يقوى

الغليظ على إمساك اللطيف، وتقوى الروح على مقابلة النار وتصير عليها. وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديب فيها، وإنما وجد ذلك بعد التركيب، لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه، ودخل بعضها في بعض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً. ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت مما يعرض للجسد لموضع الامتزاج.

وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين، أعني الروح والجسد، وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه. فإذا لقي هذا المركب الجسد [ظ ٢٦٤/١] المحلول، وألح عليه النار، وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه، ذاب في الجسد المحلول، ومن شأن الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها. فإذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها، فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً. وكذلك الماء من شأنه النفور من النار، فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطهيره حبسه الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران. فكان الجسد علة لإمساك الماء؛ والماء علة لبقاء الدهن؛ والدهن علة لثبات الصبغ؛ والصبغ علة لظهور الدهن، وإظهار الدهنية في الأشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها. فهذا هو الجسد المستقيم. وهكذا يكون العمل. وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة، وإياها يعنون، لا بيضة الدجاج.

واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها. ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيري، فقلت له: أيها الحكيم الفاضل، أخبرني لأي شيء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة؟ اختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه؟ فقال: بل لمعنى غامض. فقلت: أيها الحكيم، وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة؟ فقال: لشبهها وقرابتها من المركب، ففكر فيه، فإنه سيظهر لك معناه. فبقيت بين يديه مفكراً لا أقدر على الوصول إلى معناه، فلما رأى ما بي من الفكر وأن نفسي قد مضت فيها، أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة، وقال لي: يا أبا بكر، ذلك للنسبة التي بينهما في كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها. فلما قال ذلك انجلت عني الظلمة، وأضاء لي نور قلبي، وقوي عقلي على فهمه، فنهضت شاكرًا الله عليه إلى منزلي، وأقمت على ذلك شكلاً هندسياً يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة. وأنا واضعه لك في هذا الكتاب.

مثال ذلك: أن المركب إذا تمَّ وكمل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء إلى ما في البيضة

من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار إلى ما في البيضة من طبيعة النار. وكذلك الطبيعتان الأخريان الأرض والماء. فأقول: إن كان شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان. ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح<sup>(١)</sup> [ظ ٢/٢٦٤]، فإذا أردنا ذلك فإننا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة، ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة، وتدبرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل قوتها، وكأن في هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك. ثم تحمل عليهما جميعاً مثلتهما من الروح وهو الماء، فيكون الجميع ستة أمثال. ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس، وذلك ثلاثة أجزاء. فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة، وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين، فتجعل أول<sup>(٢)</sup> الضلعين المحيطة<sup>(٣)</sup> بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعاً [ا ح د] وسطح أبجد، وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعاً هزوح. فأقول: إن سطح أبجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء التي تسمى نفساً، وكذلك بـج من سطح المركب. والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشبهه به.

والكلمات التي سألت عن شرحها: الأرض المقدسة وهي المنعقدة من الطبائع العلوية والسفلية، والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباءً ثم حُمِرَ بالزاج حتى صار نحاسياً؛ والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد فيه الأرواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تستجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفرفة لون أحمر قان يحدثه الكيان، والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة، فالواحدة روحانية نيرة صافية، وهي الفاعلة، والثانية نفسانية وهي متحركة حساسة، غير أنها أغلظ من الأولى، ومركزها دون مركز الأولى، والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها، وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما، وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة لباساً على الجاهل. ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها.

فهذا جمع ما سألتني عنه. وقد بعثت به إليك مفسراً. ونرجو - بتوفيق الله - أن تبلغ أملك. والسلام.

انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة الجريطي شيخ الأندلس في علوم الكيمياء والسيمايا والسحر في القرن الثالث وما بعده.

١ - هي حروف موجودة فيما يسمونه مثلث الغزالي.

٢ - في ن: أولاً

٣ - في ن: المحيطين.

وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف. وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية. والذي يجب أن يعتقد في أمر [ظه ٢٦٥/١] الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية. وتصرفها في عالم الطبيعة إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة. فأما الكرامة فظاهرة، وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه<sup>(١)</sup> يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية، ولا بد له مع<sup>(٢)</sup> ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات، وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي، وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب، والترك في قاصية الشمال، أنهم يسحرون الجو للإمطار وغير ذلك.

ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر. والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء، مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم، إنما نحو هذا المنحى. ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك. وانظر كيف سُمي مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم، وسُمي كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم، إشارة إلى عموم موضوع الغاية، وخصوص موضوع هذه، لأن الغاية أعلى من الرتبة، فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات. ومن كلامه في الفنين يتبين ما قلناه.

ونحن نُبَيِّنُ فيما غَلَطَ من يَزْعُمُ أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية<sup>(٣)</sup>. والله العليم الخبير.

١ - يحيل بذلك على ما ذكره في الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب. علوم السحر والطلسمات.

٢ - في ن: من.

٣ - سيين ذلك ويزيد هذا الموضوع كله تفصيلاً في الفصل الرابع والثلاثين وعنوانه: فصل في إنكار ثمرة الكيمياء... الخ.

## ١- ٦- ٣٢- الفصل الثاني والثلاثون: في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهمٌّ لأن هذه العلوم عارضة في العمران، كثيرة في المدن، وضررها في الدين كثير. فوجب أن يُصدع بشأنها ويُكشَف عن المعتقد الحق فيها. وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته<sup>(١)</sup> وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع، فإنها بعض من مدارك العقل. وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة<sup>(٢)</sup> فبحثوا عن ذلك وشمروا له، وَحَوَّموا [ظ ٢٦٥/٢] على إصابة الغرض منه. ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل، وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية، فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص، كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع. وهذه مجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل.

ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها في الذهن، فتجرد منها معان أخرى وهي التي اشتركت بها، ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها، وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريد بعد هذا، وهي الأجناس العالية.

وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات، هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة، وطلب تصور الوجود كما هو، فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض، ونفي بعضها عن بعض، بالبرهان العقلي اليقيني، ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر.

وصنف التصديق الذي هو تلك الإضافة والحكم متقدّم عندهم على صنف التصور في النهاية، والتصور متقدم عليه في البداوة والتعليم، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي، وإنما التصديق وسيلة له، وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور

١ - في ن: أدواته.

٢ - الحكمة: الكلمة مأخوذة من كلمتين يونانيتين: فيلوس، بمعنى محب أو صديق وصوفيا، بمعنى الكلمة.

وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام. وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو. ثم يزعمون أن السعادة في إدراك الموجودات كلها مافي الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين<sup>(١)</sup>.

وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة، وما آلت إليه، وهو الذي فرّعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولاً على الجسم السُّفلي بحكم الشهود والحس، ثم ترقى إدراكهم قليلاً فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات، ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل. ووقف إدراكهم فقصوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان. ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر [ظ ٢٦٦/١] تسع، مُفَصِّلَةً ذواتها جملٌ وواحد أول مفرد وهو العاشر<sup>(٢)</sup>، ويزعمون أن السعادة في إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس، وتخليقها بالفضائل، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره، وميله إلى الحمود منها، واجتنابه للمذموم بفطرته، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة. وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى. وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب في الآخرة. إلى خبطٍ لهم في تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم.

وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حججها<sup>(٣)</sup> فيما بلغنا في هذه الأحقاب هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم، من تلاميذ أفلاطون، وهو معلم الإسكندر، ويسمونه: المعلم الأول على الإطلاق، يعنون معلم صناعة المنطق، إذ لم تكن قبله مهذبة، وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها. ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات.

ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل. وذلك أن كتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثيرٌ من أهل الملة، وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم، وجادلوا عنها، واختلفوا في مسائل من تفاريعها. وكان من أشهرهم

١ - هذه هي السَّعادة العقلية أو الفضيلة العقلية، وهي أرقى درجات السعادة والفضيلة عند أفلاطون، وتابعه في ذلك فلاسفة الإسلام. ويقابلها الفضيلة العملية وهي التخلق بالفضائل والعمل بها. (د. وافي).

٢ - يريد أن أعداد الآحاد تنتهي إلى الزوجية ونهايتها عند العشرة، فإذا أبعدناه بقي تسعة وهي جملة أي: ليست تدل على عددٍ منفصل وإنما مركبة من أجزاء، والعدد العاشر هو عدد مفرد. فكأنها عادت جميعاً إلى الآحاد. وقال د. وافي: هكذا وردت هذه العبارة في جميع النسخ. وهي غامضة المدلول.

٣ - في ن: حجاجها.



أبو نصر الفارابي في المئة الرابعة لعهد سيف الدولة، وأبو علي ابن سينا في المئة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما.

واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه.

فأمّا إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به في الترقّي إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله. فالوجود أوسع نطاقاً من ذلك: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨]. وكأنهم في اقتصارهم على إثبات العقل فقط. والغفلة عما وراء بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل، المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء. وأما البراهين التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة وغير وافية بالغرض.

أما ما كان منها في الموجودات <sup>(١)</sup> الجسمانية [ظ ٢٦٦/٢] ويسمونه بالعلم الطبيعي فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني؛ لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي، اللهم إلا ما لا يشهد له الحس من ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذي يجدونه فيها، وربما يكون تصرف الذهن أيضاً في <sup>(٢)</sup> المعقولات الأول المطابقة للشخصيات بالصّور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدتها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حينئذ يقيناً بمثابة المحسوسات. إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها، فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك، إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها، إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه <sup>(٣)</sup>؛ فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها.

وأما ما كان منها في <sup>(٤)</sup> الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها مجهولة رأساً، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها، لأن تجريد المعقولات من الموجودات <sup>(٥)</sup> الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى، بحجاب

١ - في ظ: الوجادات.

٢ - في ن: من.

٣ - يشير بذلك إلى الحديث النبوي المار: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

٤ - في ن: من.

٥ - في ن: المواد.

الحس بيننا وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها، ولا مُدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجد بين جنيننا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها، وخصوصاً في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمرٌ غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه.

وقد صرح بذلك محققوهم حيث<sup>(١)</sup> ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه، لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية. وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق<sup>(٢)</sup> والأولى يعني الظن. وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط، فيكفيها الظن الذي كان أولاً. فأى فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها؟! ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات. وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم.

وأما قولهم: إن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود.

وتفسيره [ظ ١/٢٦٧] أن الإنسان مركَّب من جزأين: أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به، ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به، والمدرَك فيهما واحد، وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية، إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة، والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس. وكل مدرَك فله ابتهاج بما يدركه؛ واعتبره بحال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات، فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذَّ فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنهما، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم، وإنما يحصل بكشف حجاب الحس، ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة، والمتصوفة كثيراً ما يُعنون بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ وليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية. يحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنهما. وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم، وهو مع ذلك غير وافٍ بمقصودهم.

١ - صحح العلامة عمر فروخ العبارة فقال: المحققون من قدماء الفلاسفة لما ذهبوا.. ولا أدري مستنده في ذلك. (مهرجان ابن خلدون، ص: ٤١٠).

٢ - في ن: بالأخلق.

فأما قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته، إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية؛ لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر، ونحن نقول: إن أول شيء نُعْنَى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها، لأنها منازعة له قاذحة فيه. وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للنص من تأليف أرسطو وغيره، يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها، ويلتمس هذا القسط من السَّعادة فيها، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها، ومستندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال، واتصل به في حياته، فقد حصل حظه من هذه السَّعادة، والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف [ظ ٢٦٧/٢] عنها الحس من رتب الروحانيات، ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمي، وقد رأيت فساده، وإنما يعني أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة، وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس.

وأما قولهم: إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السَّعادة الموعود بها، فباطل أيضاً لأننا إنما تبين لنا بما قرره أن وراء الحس مدركاً آخر للنفس من غير واسطة، وأنها تبتهج بإدراكها ذلك ابتهاجاً شديداً، وذلك لا يعين لنا أنه عين السَّعادة الأخروية، ولا بد، بل هي من جملة الملائ التي لتلك السَّعادة.

وأما قولهم: إن السَّعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه، فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط في أن الوجود عند كل مُدرك منحصر في مداركه، وبيننا فساد ذلك<sup>(١)</sup>، وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملة روحانياً أو جسمانياً.

والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكاً ذاتياً له مختصاً بصنف من المدارك، وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا، وليس بعالم الإدراك في الموجودات كلها إذ لم تنحصر، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجاً شديداً كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في أول نشوئه. ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السَّعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها؟! ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنين: ٣٦].

وأما قولهم: إن الإنسان مستقل بتهديب نفسه وإصلاحه بملازمة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم، فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عين

السَّعادة الموعود بها، لأنَّ الرَّذائل عاقبة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها. وقد بينا أن أثر السَّعادة والشَّقاوة من وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية. فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط، الذي هو على مقاييس وقوانين.

وأما ما وراء ذلك من السَّعادة التي وعدنا بها الشَّارع على امتثال ما أمر به من الأعمال [ظ ٢٦٨/١] والأخلاق فأمرٌ لا تحيط به مدارك المدركين. وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي ابن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه: إنَّ المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس، لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة، فلنا في البراهين عليه سعة؛ وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان، لأنه ليس على نسبة واحدة، وقد بسطته لنا الشَّريعة الحقة الحمديدية فليُنظر فيها ولنرجع في أحواله إليها.

فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوَّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج<sup>(١)</sup> لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين. وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية، وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكيمة، من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها، فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج<sup>(٢)</sup> والاستدلالات، لأنها وإن<sup>(٣)</sup> كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار. هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم. ومضارها ما علمت.

فليكن الناظر فيها متحرِّراً جهِده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يُكَبَّن أحد عليها وهو خلَوٌ من علوم الملة، فقلَّ أن يسلم لذلك من معاطبها. والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه ﴿وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

١ - في ن: والحجاج.

٢ - في ن: الحجج.

٣ - صححها العلامة عمر فروخ فقال: ثم إن هذه وإن.. (مهرجان ابن خلدون، ص: ٤١١).

## ١- ٦- ٣٣- الفصل الثالث والثلاثون:

## في إبطالِ صِنَاعَةِ النُّجُومِ وضعف مداركها وفسادِ غايتها

هذه الصَّنَاعَةُ يزعمُ أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قِبَلِ معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من كل نوعٍ من أنواع الكائنات الكلية والشخصية.

فالمُتَقَدِّمُونَ منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة، وهو أمر تقصر الأعمار كلها عن تحصيله [ظ ٢٦٨/٢] لو اجتمعت؛ إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن؛ وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماذ وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم.

وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي، وهو رأي فإل<sup>(١)</sup>، وقد كفونا مؤنة إبطاله. ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع، وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب، إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة، ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق.

وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية. قال: لأنَّ فعل النَّيِّرِينَ<sup>(٢)</sup> وأثرهما في العنصرية ظاهراً لا يسع أحداً جحده، مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها، ونضج الثمار والزرع وغير ذلك، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القنء<sup>(٣)</sup> وسائر أفعاله.

ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقتان: الأولى: التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة، إلا أنه غير مقنع للنفس، الثانية: الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة، فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة، أو ينقص عنها فتعرف مضادته. ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع

١ - الفائل: الخاطيء.

٢ - الشمس والقمر.

٣ - القنء - بالفتح والكسر -: الكِبَاسَةُ، وهي جمع قنو، وهو العذق الكبير، وبالضم: الماء. فلعله أراد الفواكه الموجودة على الأغصان أو المرتبطة بقنوات المياه.

وغيرهما. ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم. وإذا عرفنا قوى الكوكب كلها فهي مؤثرة في الهواء، وذلك ظاهر. والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات، وتتخلق به النطفُ والبذر فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه، ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال، لأن كفايات البذرة والنطفة كفايات لما يتولد عنهما وينشأ منهما.

قال: وهو مع ذلك ظني [وليس من اليقين في شيء]، وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر، إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء. هذا مُحَصَّلُ كلام بطليموس وأصحابه، وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره. ومنه [ظ ١/٢٦٩] يتبين ضعف مُدْرِك<sup>(١)</sup> هذه الصناعة.

وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه. والقوى النجومية على ما قرره إنما هي فاعلة فقط. والجزء العنصري هو القابل. ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمليتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنفٌ صنف من النوع وغير ذلك.

فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن. ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين؛ وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن؛ والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين، رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك. هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سدادة ولم تعترضه آفة، وهذا معوز لما فيه من معرفة حُسابات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه.

ومُدْرِك بطليموس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف، لأن قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب، ومستولية عليها، فقل أن يُشعرَ بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة، كما قال، وهذه كلها قاذحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة.

ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق استدلال كما رأيت، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادية

الرأي من التأثير، فلعلّ استنادها على غير صورة التأثير المتعارف. والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى، ويبرأ مما سوى ذلك. والنبوءات أيضاً منكراً لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهدٌ بذلك في مثل قوله<sup>(١)</sup>: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لَمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ»<sup>(٢)</sup>. وفي قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ [ظ ٢٦٩/٢] فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنُوءٍ»<sup>(٣)</sup> كذا، فذلك كافرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ». الحديث الصحيح<sup>(٤)</sup>.

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحيان اتفاقاً لا يرجع إلى تعليق ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها، وليس كذلك. فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها. ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع<sup>(٥)</sup>، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً. فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم؛ فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار.

هذا هو الواجب على من عرف مفاصد هذا العلم ومضاره. وليعلم من ذلك أنها وإن

١ - يعني: قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما كسفت الشمس في يوم وفاة ابنه إبراهيم، وظن الناس أنها كسفت لذلك.

٢ - أخرجه البخاري (١٠٤٢ و ٣٢٠١) ومسلم (٩١٤) من حديث ابن عمر. وأخرجه البخاري (١٠٦٠ و ٦١٩٩) ومسلم (٩١٥) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه البخاري (١٠٥٢ و ٥١٩٧) ومسلم (٩٠٧) من حديث ابن عباس.

٣ - النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقبته من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً... وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها وقيل: إلى الطالع منها. أي: أنهم يضيفون الأمطار إلى النوء، والنوء: وقت.

٤ - أخرجه البخاري (٨٤٦ و ١٠٣٨ و ٤١٤٧ و ٧٥٠٣) ومسلم (٧١) وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائي (١٦٥/٣) من حديث زيد بن خالد الجهني.

٥ - القواطع: من الأضداد، تطلق على الذواهب والرواجع. فكأنه أراد المعنيين، أي: أنه ينشأ عنها ما يظن من زهاب الدولة، أو إمكانية حصولها مما يؤدي إلى الكوارث والفتن.

كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحداً من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظهر الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر؛ فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق<sup>(١)</sup> لتعليمها، وصار المولع بها من الناس - وهم الأقل وأقل من الأقل - إنما يُطالع كتبها ومقالاتها في كسر<sup>(٢)</sup> بيته، متستراً عن الناس وتحت ربة<sup>(٣)</sup> الجمهور، مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها<sup>(٤)</sup> على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل. ونحن نجدُ الفقه الذي عم نفعه ديناً ودنياً، وسهلت ما أخذه من الكتاب والسنة، وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارس وكثرة المجالس وتعددتها، إنما يحذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال. فكيف يُعَلِّم مهجوراً للشريعة، مضروباً دونه سد الحظر والتحريم، مكتوم عن الجمهور، صعب المأخذ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل [ظ ١/٢٧٠] لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر؟! فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها؟! ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه، ولا شاهد له يقوم بذلك، لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته. فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه. والله أعلم بالغيب، ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء، وقال في ذلك أبو القاسم الروحي<sup>(٥)</sup> من شعراء أهل تونس [ظ ٢/٢٧٠]:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ	قَدْ ذَهَبَ الْعِيشُ وَالْهَنَاءُ
أَصْبَحَ فِي تُونِسٍ وَأُمْسِي	وَالصَّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
الْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنَايَا	يُحْدِثُهَا الْهَرْجُ وَالْوَبَاءُ
وَالنَّاسُ فِي مَرِيَةٍ وَحَرْبٍ	وَمَا عَسِي يَنْفَعُ الْمَرَاءُ
فَأَحْمَدِي يُرَى عَلِيًّا	حَلَّ بِهِ الْهَلَكُ وَالْتِوَاءُ <sup>(٦)</sup>
وَأَخْرَقَالَ: سَوْفَ يَأْتِي	بِهِ إِلَيْكُمْ صَبًا رَحَاءُ
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقَ ذَا وَهَذَا	يَقْضِي لِعَبْدِيهِ مَا يَشَاءُ

١ - يعني جلوس الطلاب إلى أستاذهم في شكل حلقة.

٢ - من معاني الكسر بفتح الكاف وكسرها جانب البيت.

٣ - نسخة: ربة.

٤ - اعتناص عليه الأمر: اشتد والثبات فلم يهتد للصواب.

٥ - في ظ: الرحوي.

٦ - التوى وزان الحصى وقد يمد: الهلاك.



ما فعلت هذه السماء  
أنكم اليوم أملياء<sup>(٨)</sup>  
وجاء سبت وأربعاء  
وثالث ضمه القضاء  
أذاك جهل أم ازدراء؟  
أن ليس يستدفع القضاء  
حسبكم البدر أو ذكاء  
إلا عباديد<sup>(٩)</sup> أو إماء  
وما لها في الورى اقتضاء  
ما شأنه الجرم<sup>(١٠)</sup> والفناء  
يحدثه الماء والهواء  
تغذوهم تربة وماء  
ما الجوهر الفرد والخلاء  
مالي عن صورة عراء  
ولا ثبوت ولا انتفاء  
ما جلب البيع والشراء  
ما كان للناس<sup>(١٢)</sup> أولياء  
ولا جدال ولا ارتياء<sup>(١٣)</sup>  
يا حبذا كان الاقتفاء<sup>(١٤)</sup>

يا راصد الخنثس الجواري<sup>(٧)</sup>  
مطلتمونا وقد زعمتم  
مر خميس على خميس  
ونصف شهر وعشر ثان  
ولا نرى غير زور قول  
إننا إلى الله قد علمنا  
رضيت بالله لي إلهاً  
ما هذه الأنجم السواري  
يقضى عليها وليس تقضي  
ضلت عقول ترى قديماً  
وحكمت في الوجود طبعاً  
لم تر حلواً إزاء مُرّ  
الله ربي ولست أدري  
ولا الهول التي تنادي  
ولا وجود ولا انعدام  
والكسب لم أدر فيه إلا<sup>(١١)</sup>  
وإنما مذهبي وديني  
إذ لا فصول ولا أصول  
ما تبع الصدر واقتفينا

٧ - اقتبس من قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦].

٨ - مظهره بدينه مطلقاً إذا سوفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى. والأملاء بهمزتين والملاء: الأغنياء المتمولون، أو الحسنو القضاء، الواحد ملء.

٩ - يرجع الدكتور وافي أنها محرفة عن عبايد جمع عبد. قال الفقير: وما ذكره الشاعر صحيح إذ يقال: عبايد وعبايد، بلا واحدٍ لهما من لفظهما، وهم: الفرق من الناس والخيال الزاهبون في كل وجه.

١٠ - أي: إن ما يتمثل في جرم وما يكون مصيره إلى الفناء كالأجرام السماوية لا يمكن أن يكون قديماً.

١١ - في ن: ولست أدري ما الكسب إلا.

١٢ - في ن: والناس.

١٣ - في ن: رياء.

١٤ - ولعله الصدر: صدر الإسلام. والقرون الأولى.

ولم يكن ذلك الهذاء<sup>(١٥)</sup>  
 أشعري الصيف والشتاء  
 والخير عن مثله جزاء  
 فليست أعصي ولي رجاء  
 أطاعه العرش والثراء  
 أتأخذه الحكم والقضاء  
 له إلى رأيه انتماء  
 مما يقولونه براء

كانوا كما يعلمون منهم  
 يا أشعري<sup>(١٦)</sup> الزمان إنني  
 لم أجز بالشّر غير شر  
 وإنني إن أكن مطيعاً [ظ ١/٢٧١]  
 وإنني تحت حكم بار  
 ليس انتصار لكم<sup>(١٧)</sup> ولكن  
 لو حدث الأشعري عمّن  
 لقال: أخبرهم بأني

١٥ - الهذاء: الهذيان.

١٦ - يشير إلى الإمام أبي الحسن الأشعري.

١٧ - في ن: بكم.

١- ٦- ٣٤- الفصل الرابع والثلاثون:  
في إنكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها  
وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

اعلم أن كثيراً من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع، ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه، وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه، فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام، وخسارة الأموال في النفقات، زيادة على الثَّيْل من عرضه، والعَطَب آخراً إذا ظهر على خيبة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا<sup>(١)</sup>.

وإنما أطمعهم في ذلك رؤية أن المعادن تستحيل، وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهباً والنحاس والقصدير فضة، ويحسبون أنها من إمكانات عالم الطبيعة.

ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته، وفي المادة الموضوععة عندهم للعلاج، المسماة عندهم بالحجر المكرم، هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك.

وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة أن تُمهَى بالفهر على حجر صلب أملس، وتسقى أثناء إمهائها بالماء، وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها، ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب، ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها. فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتمّ تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته، حصل من ذلك كله ترابٌ أو مائعٌ يسمونه الإكسير، ويزعمون أنه إذا أُلقي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً، أو النحاس الحمى بالنار عاد فضة، على حسب ما قصد به في عمله.

ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاجٌ ذو<sup>(٢)</sup> قوى [ظ ٢٧١/٢] طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها، وتقلبه إلى صورتها ومزاجها، وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى، كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الإنفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة، ويستحيل سريعاً إلى الغذاء؛ وكذا إكسير<sup>(٣)</sup> الذهب والفضة

١ - أخذ من قوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

٢ - في ظ: و. ٣ - في ن: إكسير.

فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتها.

هذا مُحَصَّلُ زعمهم على الجملة، فتجدهم عاكفين على هذا العلاج، يتغنون الرزق والمعاش فيه، ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم، يتداولونها بينهم، ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها، إذ هي في الأكثر تشبه المعنى كتأليف جابر بن حيّان في رسائله السّبعين، ومسلمة المجرطي في كتابه رتبة الحكيم، والطغرائي والمغربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها، ولا يحلّون من بعد هذا كله بطائل منها.

ففاوضت يوماً شيخنا أبا البركات البلفيقي<sup>(١)</sup> كبير مشيخة الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها، فتصفحه طويلاً ثم رده إليّ وقال لي: وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخبيّة.

ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدّلسة<sup>(٢)</sup> فقط، إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة، أو الخفية كالقواء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه<sup>(٣)</sup> بالزّوق<sup>(٤)</sup> المصعّد، فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة، ويخفي إلا على النقاد المهرة. فيقدّر أصحاب هذا الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها<sup>(٥)</sup> في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص<sup>(٦)</sup>. وهؤلاء أخس الناس حرفة، وأسوأهم عاقبة، لتلبسهم بسرقة أموال الناس. فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة، وفضة في الذهب، ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شرٌّ من السارق.

ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المتبذّين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية، ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعةً بجهما [ظ ٢٧٢/١]، والاستهلاك<sup>(٧)</sup> في طلبهما، فيحصلون من ذلك على معاش، ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرّقبة إلى أن يظهر العجز، وتقع الفضيحة، فيفرون إلى موضع آخر، ويستجدون حالاً أخرى في استهواء

١ - هو محمد بن محمد بن إبراهيم (٦٠٨ - ٧٧٠هـ).

٢ - الدلسة: بالضم والدلس الخديعة. ودلس تدلساً كتم عيب السلعة وخذع مشترئها.

٣ - في ن: تلييسه.

٤ - الزوق كصرد: الزبق.

٥ - يعني ينشرونها بينهم.

٦ - أي: بخلاص الذهب والفضة من الشوائب.

٧ - أي: الموت، الهلاك.

بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم، ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم. وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسَّرقة، ولا حاسم لعلّتهم إلا اشتداد الحكم عليهم، وتناولهم من حيث كانوا، وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم، لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى، وهي متمول الناس كافة، والسُّلطان مكلف بإصلاحها، والاحتياط عليها، والاشتداد على مفسديها.

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرضَ بحال الدلسة، بل استنكف عنها، ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب، والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو من العلاج، وبالإكسير الحاصل عنده، فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك، مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بُغية؛ إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة<sup>(١)</sup> والتصعيد والتكليس، واعتِيَام<sup>(٢)</sup> الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها، ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تمَّ له الغرض منها، أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها، والمفاوضة<sup>(٣)</sup> فيها، ولا يستريون في تصديقها، شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه، وقالوا: إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.

واعلم أن انتحال هذه الصناعة قديم في العالم، وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين، فلنتقل مذاهبهم في ذلك، ثم نتلوه بما يظهر فيه من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه. فنقول:

إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة، وهي: الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين، هل هي مختلفات بالفصول<sup>(٤)</sup> وكلها أنواع قائمة بأنفسها؛ أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات، وهي كلها أصناف لنوع واحد.

فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي، وتابعه عليه حكماء [ظ ٢٧٢/٢] الأندلس، أنها نوع واحد، وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسّواد، وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد.

١ - أي: مدق الطيب.

٢ - يرجح الدكتور واني أن الكلمة محرفة عن اقتحام. قال الفقير: وهي صحيحة من قولهم: اعتام المال: أخذه.

٣ - في ن: والمفاوضات.

٤ - الفصل: هو ما دون الجنس عند المنطقة، وهو ما يميز الأنواع بعضها من بعض. فالحيوان جنس، والناطق فصل يميز الإنسان عما عداه من أنواع الحيوان. (د. واني).

والذي ذهب إليه ابن سينا، وتابعه عليه حكماء المشرق، أنها مختلفة بالفصول، وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه، متحقق بحقيقته، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع.

وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع، إمكان انقلاب بعضها إلى بعض، لإمكان تبدل الأعراض<sup>(١)</sup> حينئذ وعلاجها بالصنعة؛ فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ.

وبنى أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناءً على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة. وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول، ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه، وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه، كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء، ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته.

قال: وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها، مثل العقرب من التراب والنتن<sup>(٢)</sup>، ومثل الحيات المتكونة من الشعر، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فُقدت من عجاجيل<sup>(٣)</sup> البقر، وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصويره سكرًا بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون، فما المانع إذاً من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة، فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة، ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها. انتهى كلام الطغرائي بمعناه.

وهذا الذي [ظ ٢٧٣/١] ذكره في الرد على ابن سينا صحيح. لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذاً آخر يتبين منه استحالة وجودها، وبطلان مزعمهم أجمعين لا

١ - جمع عرض، وهو عند المنطقة الصفة العارضة التي لا تميز جنساً ولا نوعاً، كالبياض والسواد والقصر والطول. هذا وقد حرفت هذه الكلمة في جميع النسخ إلى: الأغراض بالعين المعجمة. د. وإي.

٢ - علق الدكتور وإي على ذلك بما يلي: هكذا كان يظن قديماً. والحقيقة أن الحشرة لا تخلق في مثل هذه الحالة من التراب وما شاكله، وإنما تنقف من بويضات كانت قد وضعتها الأم في هذه المواد. غير أنه لما كانت بويضات الحشرات غير مرئية أو لا تكاد ترى، لذلك يخيل للإنسان في بادئ الرأي أن الحشرة تخلق من هذه المواد مباشرة.

٣ - العجل: ولد البقرة وجمعه عجاجيل. كذا قاله . وإي. وأحسبها محرفة عن (عجاجيل التمر) وهي جمع عُجَال كرمان، وهو ما استعجل به قبل الغذاء.

الطغرائي ولا ابن سينا، وذلك - أن حاصل علاجهم - أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول، يجعلونها موضوعاً، ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى إحالته ذهباً أو فضة، ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفصلة لهم في زمان أقصر، لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله، وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه، أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته، وذلك هو الإكسير على ما تقدم.

واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة<sup>(١)</sup> على نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها، فلا بد من الجزء الغالب على الكل. ولا بُد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه، الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان، فلا بُد من اختلاف أطواره، وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته. وانظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته<sup>(٢)</sup>. ونسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها؛ وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر. وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين؛ وما ينتقل فيه من الأحوال؛ فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن، ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم.

ومن شرط الصناعة أبداً تصور ما يقصد إليه بالصنعة. فمن الأمثال السائرة للحكماء: أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل. فلا بد [ظ ٢٧٣/٢] من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة، ونسبها متفاوتة في كل طور، واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها، ومقدار الزمان في كل طور، وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه، حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن. أو تعدد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك. وإنما

١ - أي: الماء والهواء والتراب والنار.

٢ - يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ حَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَحَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٣ - ١٤].

حال من يدّعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدّعي بالصنعة تخليق إنسان من المني، ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه، وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله، حتى لا يشذ منه شيء عن علمه، سلمنا له تخليق هذا الإنسان، وأنى له ذلك.

ولنقرّب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء، وما يدعونه بهذا التدبير، أنه مساواة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي، ومحاذاتها به إلى أن يتمّ كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساومتها أو محاذاتها، أو فعل المادة ذات القوى فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى، وتلك الأحوال لا نهاية لها. والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات. هذا محصل هذا البرهان، وهو أوثق ما علمته، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته، ولا من الطبيعة، إنما هو من تعدّر الإحاطة، وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك.

وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته، وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس وتممولاتهم، فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك، وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء. وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً، وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها، وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح، وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها، وأقل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقهما<sup>(١)</sup> [ظ ١/٢٧٤].

وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمرٌ صحيح في هذه، أدى إليه العثر كما زعم، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها، وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا؛ ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صحّ ذلك لأحدٍ منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه، وتنوّل في الأصدقاء، وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا.

وأما قولهم: إن الأكسير بمثابة الخميرة وإنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعدّه للهضم وهو فساد، والفساد في المواد سهل يقع



بأيسر شيء من الأفعال والطبائع، والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح. والتكوين أصعب من الفساد، فلا يقاس الإكسير بالخميرة. وتحقيق الأمر في ذلك: أن الكيمياء، إن صحَّ وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم، فليست من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمر صناعي، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق، وما كان من ذلك للحلاج وغيره، وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك. وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى، وهكذا كلام جابر في رسائله. ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه.

وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع، فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه، كذلك لا يتدبر ذهبٌ من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عاداته إلا بإرفادٍ ما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع.

فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله. ويقال لهذا التدبير الصناعي: التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع، فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة، أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]. وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلفٌ [ظ ٢٧٤/٢] بحسب حال من يؤتاها. فرما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة. وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها، فلا تتم في يد غيره.

ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً. فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازاً، لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر، واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة. وأمور خرق العادة غير منحصرة، ولا يقصد أحد إلى تحصيلها ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَيِّطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه<sup>(١)</sup>: العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش، وابتغاؤه من غير وجوه الطبيعة كالفلاحة والتجارة والصناعة، فيستصعب العاجز ابتغاؤه من هذه، ويروم الحصول على الكثير من المال دفعةً بوجوه غير

طبيعية من الكيمياء وغيرها.

وأكثر من يُعْنَى بذلك الفقراء من أهل العمران، حتى <sup>(١)</sup> في الحكماء المتكلمين. وللناس أقوال كثيرة في إنكارها واستحالتها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان من عليّة الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بُلْغَةٍ من المعاش وأسبابه. وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحائها. والله ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] لَا رَبَّ سِوَاهُ.

١ - أي: ينطبق هذا على العلماء أيضاً، فإذا كانوا مستغنيين حكموا باستحالتها، وإذا كانوا فقراء حكموا بإمكانها.

## ١- ٦- ٣٥- الفصل الخامس والثلاثون:

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها

اعلم: أن العلوم البَشَرِيَّة خزانة النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصَّل لها ذلك بتصور الحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً، إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستتج الفكر بذلك مطالبه التي يعنى بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بُدَّ من بيانها لآخر، إما على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة لصقل الأفكار في تصحيحها.

وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كَيْفِيَّات الأصوات المقطعة بعضلة اللسان واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطبتهم. وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر؛ وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدي بها ما في الضمير [ظ ٢٧٥/١] لمن توارى أو غاب شخصه وبعد، أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصراً في الكتابة. وهي رقومٌ باليد تدلُّ أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات. فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي. فلهذا كانت في الرتبة الثانية.

وأحد قسمي هذا البيان يدلُّ على ما في الضمائر من العلوم والمعارف فهو أشرفها. وأهل الفنون معتنون بإبداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر. وهؤلاء هم المؤلفون. والتواليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثيرة ومتنقلة في الأجيال والأعصار. وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول.

وأما العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية في تصور الموجودات على ما هي عليه جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها وبجودها وماديها. فإن هذه العلوم لا تختلف<sup>(١)</sup>؛ وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية باختلاف الملل، أو التاريخية باختلاف خارج الخبر. ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها. ويسمى ذلك قلماً وخطاً،

فمنها الخطُّ الحِميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مصر، كما يخالف لغتهم، وإن كان الكلُّ غريباً، إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرة في عباراتهم غير قوانين الآخرين.

وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة.

ومنها الخطُّ السرياني وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعمُ بعض أهل الجهل أنه الخطُّ الطبيعي لقدمه، فإنهم كانوا أقدم الأمم. وهذا وهمٌ ومذهبٌ عامي. لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيءٌ منها بالطبع، وإنما هو يستمرُّ بالقدم والمران حتى يصير ملكةً راسخة فيظنها المشاهدُ طبيعية؛ كما هو رأي كثير من البلغاء في اللغة العربية، فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع؛ وهذا وهمٌ.

ومنها الخطُّ العبراني، الذي هو كتابة بني عابر بن شالخ<sup>(١)</sup> من بني إسرائيل وغيرهم. ومنها الخطُّ اللطيني خط اللطينيين<sup>(٢)</sup> من الروم. ولهم أيضاً: لسانٌ مختصٌ بهم. ولكل أمة من الأمم [ظ ٢٧٥/٢] اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها، مثل الترك والفرنج والهنود وغيرهم.

وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى؛ أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا؛ وأما العربي والعبري فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانهما، وكان هذان الخطان بياناً لمتلوهمما، فوقعت العناية بمنظومهما أولاً، وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني؛

وأما اللطيني فكان الروم - وهم أهل ذلك اللسان - لما أخذوا بدين النصرانية وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق، وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم أكثر من سواها.

وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها. ثم إنَّ الناس حصروا مقاصد التأليف<sup>(٣)</sup> التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعُدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه، وتقويم أبوابه وفصوله، وتتبع مسائله، أو استنباط

١ - في النسخ: شامخ. والتصحيح من جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٢.

٢ - يقصد اللاتيني واللاتينيين.

٣ - انظرها في رسائل ابن حزم (١٨٦/٢)، تقريب المنطق لابن حزم ص ١٠.

مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعمّ المنفعة به، فيودع ذلك بالكتاب في الصحف لعلّ المتأخر يظهر على تلك الفائدة. كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الأبد.

**وثانيها:** أن يقفَ على كلام الأولين وتواليهم، فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها. فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلّق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصلٌ شريفٌ.

**وثالثها:** أن يعثرَ المتأخر على غلطٍ أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله، وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر على بيان ذلك.

**ورابعها:** أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع [ظ ٢٧٦/١] على ذلك أن يتم ما نقص من تلك المسائل، ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

**وخامسها:** أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها. كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العتيبي عن أصحاب مالك. فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها. فهذب ابن أبي زيد<sup>(١)</sup> المدونة، وبقيت العتبية غير مهذبة، فنجد في كل باب مسائل من غيره، واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها، والبرادعي من بعده.

**وسادسها:** أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى، فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم. كما وقع في علم البيان<sup>(٢)</sup> فإن عبد القاهر الجرجاني<sup>(٣)</sup> وأبا يوسف السكاكي<sup>(٤)</sup> وجدا مسائله متفرقة في كتب النحو. وقد جمع منها الجاحظ في كتاب: البيان والتبيين مسائل كثيرة تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم

١ - هو أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الرحمن النفزي القيرواني، توفي سنة ٣٨٦ هـ.

٢ - يقصد بعلم البيان علوم البلاغة على العموم التي تنقسم الآن ثلاثة أقسام: البيان والمعاني والبديع. وكان لفظ البيان يطلق قديماً على ما يشمل هذه البحوث الثلاثة جميعاً. (د. وافي).

٣ - في كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

٤ - في قسم من كتابه المفتاح.

وانفراده عن سائر العلوم. فكتبت في ذلك توأليفهم المشهورة. وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

**وسابعها:** أن يكون الشيء من التوالمف اللفف أمهاف للفنون مطولاً مسهباً، فيقصء بالتألف تلخيف ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصء المؤلف الأول.

فهذه جماع المقاصء اللفف ينبغف اعتماءها بالتألف ومراعاتها، وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجاءة اللفف يتعفن سلوكها في نظر العقلاء، مثل: **انتحال ما أقءم لغيره** من التوالمف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبفس من تبءل الألفاظ وتقءفم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما فحتاج إليه في الفن، أو فأتف بما لا فحتاج إليه، أو فبءل الصواب بالخطأ، أو فأتف بما لا فائءة ففه. فهذا شأن الجهل والقحّة. ولذا قال أرسطو لما عءء هذه المقاصء وانتهى إلى آخرها فقال: وما سوى ذلك ففضل أو شره، فعنف بذلك: الجهل والقحّة. نعوذ بالله من العمل ففما لا فنبغف للعاقل سلوكه. والله ﴿ففءف لللفف هف أقوم﴾ [الإسراء: ٨].

## ١- ٦- ٣٦- الفصل السادس والثلاثون:

في أن كثرة [ظ ٢٧٦/٢] التأليف<sup>(١)</sup> في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم: أنه مما أضرَّ بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرَّد لها، فيقع القصور - ولا بد - دون رتبة التحصيل.

ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً، وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب: ابن يونس والرخمي وابن بشير، والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العُتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية، وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا، وهي كلها متكررة والمعنى واحد، والمتعلم مطالبٌ باستحضار جميعها، وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها. ولو اقتصر المعلمون بالتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً، ومأخذة قريباً. ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه. فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين، والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك.

وكيف يطالب به المتعلم، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر؛ مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام<sup>(٢)</sup>، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكته؛ وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه، وحسن تصريفه فيه.

ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيّما مع ما قدمناه من كثرة

١ - في ظ: التأليف.

٢ - كأنه يشير إلى كتابه: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.

الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف<sup>(١)</sup>، ولكن ﴿فضل الله يؤتیه [ظ ٢٧٧/١] من يشاء﴾ [الحديد: ٢١ والجمعة: ٤]، وهذا نادرٌ من نواذر الوجود. وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره - في هذا كله - فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً، الذي هو آلة من الآلات، ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟! ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦].



## ١- ٦- ٣٧- الفصل السابع والثلاثون: في أن كثرة الاختصارات المؤلفة<sup>(١)</sup> في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق، وأمثالهم. وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل. وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من<sup>(٢)</sup> الوقت. ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إذا تم على سداذه، ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة<sup>(٣)</sup> ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على<sup>(٤)</sup> التكرار<sup>(٥)</sup> قصرت الملكات لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة. فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوه صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له<sup>(٦)</sup>. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١ - في ن: الموضوع.

٢ - في ن: عن.

٣ - في ن: بكثرة.

٤ - في ن: عن.

٥ - العبارة ركيكة والأوضح أن يقول: وإذا قل التكرار قصرت الملكة. (د. وافي).

٦ - قال تعالى: ﴿ومن يضل الله فماله من هاد، ومن يهد الله فماله من مضل﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٧].

## ١- ٦- ٣٨- الفصل الثامن والثلاثون:

## في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أنَّ تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا. يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب [ظ ٢/٢٧٧] له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد<sup>(١)</sup> عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأتة<sup>(٢)</sup> لفهم الفن وتحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته.

ثم يرجع به وقد شدا<sup>(٣)</sup> فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد. وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه<sup>(٤)</sup>.

وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبونه ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات<sup>(٥)</sup> الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها. فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال<sup>(٦)</sup> الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات، وهو حينئذٍ عاجزٌ عن

١ - في ن: يورد.

٢ - في ن: هيأتها.

٣ - شدا يشدو شدوا من باب قتل جمع قطعة من الإبل وساقها، ومنه قيل لمن أخذ طرفاً من العلم والأدب واستدل به على الآخر: شدا، وهو شاد. هذا وفي بعض النسخ: وقد شد. وهو تحريف.

٤ - أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

٥ - في ن: غرائب.

٦ - في ن: (وبالأمثلة).

الفهم والوعي، وبعيدٌ عن الاستعداد له، كلٌّ<sup>(١)</sup> ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكبَّ على التعليم منه بحسب طاقته، على نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه [ظ ٢٧٨/١]، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعدَّ بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم. وإذا خلط عليه الأمر عجزَ عن الفهم، وأدركه الكلال وانطمس فكره، ويثس من التحصيل. وهجر العلم والتعليم. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢١٣].

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان كانت الملكة أيسرُ حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقربُ صبغة. لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه. والله ﴿عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً؛ فإنه حينئذ قل أن يظفرَ بواحدٍ منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحدٍ منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلغان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعلم<sup>(٢)</sup> ما هو بسبيله مقتصرٌ عليه، فرمما كان ذلك أجدر لتحصيله. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

### ١- ٦- ٣٨-١ [فصل في نصائح للمتعلم]:

واعلم أيُّها المتعلم أنني أتخفك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول، وأمسكتها بيد الصناعة، ظفرت بكنز عظيم، وذخيرة شريفة. وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها. وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو وجدان حركة للنفس<sup>(٣)</sup> في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام

١ - كلٌّ: تعب وضعف. ومنه كلال البصر: تعب وحسره.

٢ - في الأصل: (لتعليم).

٣ - في ن: وهو فعل وحركة في النفس بقوة في البطن.

وترتيب، وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلًا بأن يتوجه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه<sup>(١)</sup> ويروم نفيه أو إثباته، فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحداً، أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعددًا، ويصير إلى الظفر بمطلوبه. هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر بين سائر الحيوانات.

ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية، تصفه لتعلم سداده من خطئه؛ لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه [ظ ٢/٢٧٨] قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتها من اشتباه الهيات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج. فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض. فالمنطق إذاً أمرٌ صناعي مساوٍ للطبيعة الفكرية، ومنطبق على صورة فعلها. ولكونه أمراً صناعياً استغنى عنه في الأكثر. ولذلك تجد كثيراً من فحول النظر في الخليفة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق، ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله، فإن ذلك أعظم معنى، ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها، فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه.

ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم، وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها على المعاني الذهنية تردها<sup>(٢)</sup> من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب، فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك.

فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أحقها<sup>(٣)</sup>، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة، ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالها المعروفة في صناعة المنطق، ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشراكاً<sup>(٤)</sup> يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه.

وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة، ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة، بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات، أو عثر في أشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات، وقعد عن تحصيل المطلوب. ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداها الله.

١ - في ن: طريقه.

٢ - في ن: توديعها.

٣ - في ن: أخفها. وفي أخرى: أحفظها.

٤ - في ن: اشتراكا. وفي نسخة: اشتراطاً.

فإذا ابتليت بمثل ذلك، وعَرَضَ لك ارتباك<sup>(١)</sup> في فهمك، أو تشغيب بالشبهات في ذهنك، فاطرح ذلك، وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات، واترك الأمر الصناعي جملة، واخْلُصْ إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه؛ وسَرِّحْ نظرك فيه، وفرِّغ ذهنك له<sup>(٢)</sup> للغوص على مرامك منه، واضعاً لها<sup>(٣)</sup> حيث وضعها أكابر النظائر قبلك، مستعرضاً للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك، وحصل الإمام<sup>(٤)</sup> الوسط الذي جعله الله من مقتضيات<sup>(٥)</sup> ذاتيات هذا الفكر، وفطره<sup>(٦)</sup> عليه، كما قلناه؛ وحينئذ [ظ ٢٧٩/١] فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها، ووفه حقه من القانون الصناعي، ثم اكسه صور الألفاظ. وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان.

وأما إن وقفت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها - وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة، وتشابهه لأجل الوضع والاصطلاح، فلا تتميز جهة الحق منها إذ جهة الحق إنما تستبين<sup>(٧)</sup> إذا كانت بالطبع - فيستمر ما حصل من الشك والارتياب، وتسدل الحجب على المطلوب، وتقعد بالناظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثرين من النظائر والمتأخرين، سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت عن ذهنه، ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي، تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع، فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها. ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى إدراك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي - كما قلناه -، إذا جُرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى. وأما المنطق فإنما هو واصفٌ لفعل هذا الفكر، فيساوقه [لذلك] في الأكثر. فاعتبر ذلك، واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب. والله الهادي إلى رحمته. ﴿وما العلم إلا من عند الله﴾ [تبارك: ٢٦].

١ - في ن: ارتياب.

٢ - في ن: فيه.

٣ - لعل الضمير يرجع إلى نفسك المعلومة من المقام، على حد قوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي: الشمس المعلومة من المقام، وإن كان لم يسبق لها ذكر. (د. وافي).

٤ - في ن: الإلهام.

٥ - في ن: مفيضات هذا الفكر.

٦ - في ن: ونظرة.

٧ - في ن: تتميز.

١- ٦- ٣٩- الفصل التاسع والثلاثون:  
في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرغ المسائل

اعلم: أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة؛ وعلوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، كالمنطق للفلسفة، وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين. فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفرع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة.

وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تفرع المسائل، لأن ذلك مخرج لها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود [ظ ٢٧٩/٢]، وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة نوعها<sup>(١)</sup>. وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضيقاً للعمر وشغلاً بما لا يعني.

وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً، وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها من كونها آلة وصيرها من المقاصد<sup>(٢)</sup>.

وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة (بالذات، فتكون لأجل ذلك)<sup>(٣)</sup> من نوع اللغو، وهي أيضاً مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها<sup>(٤)</sup>، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟. فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في

١ - في ن: فروعها.

٢ - في ن: صيرها مقصودة بذاتها.

٣ - في ن: (فهى).

٤ - في ن: اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل.

شأنها، ولا يستكثروا من مسائلها، وينبهوا المتعلم على الغرض منها، وييقنوا<sup>(١)</sup> به عنده. فمن نزعته به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل، ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به، فليرق<sup>(٢)</sup> له ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً. «وكلُّ ميسر لما خلق له»<sup>(٣)</sup>.

١ - في ن: ويقفوا.

٢ - في ن: فليختر.

٣ - أخرجه البخاري (٦٢٢٣ و ٧١١٢) ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله

عليه وسلم.

## ١- ٦- ٤٠- الفصل الأربعون:

## في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

اعلم أنَّ تعليمَ الولدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث.

وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات. وسبب ذلك: أن التعليم في الصغر<sup>(١)</sup> أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأنَّ السَّابِقَ الأول للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حسب الأساس وأساليه يكون حال ما<sup>(٢)</sup> ينبنى عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم، باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاختصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذف فيه أو ينقطع دونه، فيكون [ظ ١/٢٨٠] انقطاعه في الغالب انقطاعاً<sup>(٣)</sup> عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى<sup>(٤)</sup> البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم.

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو<sup>(٥)</sup>، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا<sup>(٦)</sup> بعض الشيء في

١ - في ن: تعليم الصغر.

٢ - في ن: من.

٣ - في ظ: فيكون الفصاحة في غالب القضاء.

٤ - في ن: قراء.

٥ - أي: يعلمونهم الكتابة من حيث هي على الإطلاق لا رسم المصحف فقط واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل

أهل المغرب. (د. وافي).

٦ - أي أخذ.



العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلّق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سندٌ لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند<sup>(١)</sup> ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستعداد إذا وجد المعلم.

وأما أهل إفريقيا فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسه قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار<sup>(٢)</sup> الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته، أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس؛ لأن سند طريقته في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا، ولا أدري بم عنايتهم منها. والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيبية ولا يخلطون بتعليم الخط؛ بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده، كما تتعلم سائر الصنائع، ويتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجابة. ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من همة<sup>(٣)</sup> [٢٨٠/٢] في طلبه، وبيتيه من أهل صنعته.

فأما أهل إفريقيا والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله<sup>(٤)</sup>، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاقتداء<sup>(٥)</sup> به، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات، وقلة التصرف في الكلام. وربما كان أهل إفريقيا في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء

١ - في ن: عن.

٢ - في ن: واستظهار.

٣ - في ن: الهمة.

٤ - قال تعالى: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]. أي: أنهم إذا أرادوا معارضة القرآن لا يتمكنون من فعل ذلك، ولم يرد في الآية أنهم لا يمكنهم الاستفادة من معانيه، واستحلاب ألفاظه لمخاطباتهم بحيث يتحقق لكلامهم البلاغة التي لا توجد في غيره من الكلام. وأحسب أنهم منعوا عن الاستفادة منه لما رسخ في أذهان كثير منهم أنه لا طاقة له على فهمه على الوجه الأكمل، بحيث رسخ في أذهانهم القصور مما جعلهم عاجزين عن استنطاقه والوصول إلى أعلى أنواع البلاغة من خلال مدارسته. والله أعلم.

٥ - في ن: والاحتذاء.

من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله.

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم، وكثرة رواية الشعر والترسل، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارس القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل خط<sup>(١)</sup> وأدب بارع أو مقصّر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال: لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين. ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة.

ثم قال: ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيره أهم عليه.

ثم قال: ينظر في أصول الدين ثم أصولي الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه. ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط. هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله، وهو لعمرى مذهب حسن!! إلا أن العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال. ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارة<sup>(٢)</sup> للتبرك [ظ ١/٢٨١] والثواب، وخشية ما يعترض الولد<sup>(٣)</sup> في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن؛ لأنه ما دام في الحجر<sup>(٤)</sup> منقاداً للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر، فرما عصفت به رياح الشبهة فألقته بساحل البطالة. فيغتيمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ﴿و﴾ لكن ﴿الله يحكم﴾ ما يشاء، ﴿لا معقب لحكمه﴾ [الرعد: ٤١]، سبحانه.

١ - في ن: حظ.

٢ - في ظ: إيثارة التبرك. ويرى الدكتور وإني أن هذا التركيب ركيك وأن استقامته أن يقول: ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن أن في ذلك إيثارة للتبرك والثواب واتقاء لما يعرضه... الخ.

٣ - في ن: يعرض للولد.

٤ - يعني: ما دام صغيراً تحت وصاية أهله.

## ١- ٦- ٤١- الفصل الحادي والأربعون: في أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم

وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مضرّ بالمتعلم سيّما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيّق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل. وحُمِلَ على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السّافلين.

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف. واعتبره في كل من يملك أمره عليه، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقراء. وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج، ومعناه في الإصطلاح المشهور: التخاثر والكيد، وسببه: ما قلناه.

فينبغي للمعلم في متعلمه، والوالد في ولده، أن لا يستبدا عليهما<sup>(١)</sup> في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا. ومن كلام عمر رضي الله عنه: من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله. حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع [ظ ٢٨١/٢] لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته.

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إليّ الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: يا أحمر<sup>(٢)</sup>، إن أمير المؤمنين، قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره

١ - في ن: يشدوا عليهم.

٢ - يريد خلف بن حيان الأحمر، من طبقة الأصمعي توفي سنة ١٨٠هـ.. مترجم في طبقات النحويين واللغويين

للزيدي ص: ١٦١-١٦٥.

بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تَمُرُّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. ولا تمنع في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه. وقوم ما استطعت بالرفق<sup>(١)</sup> والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة. انتهى.

١- ٦- ٤٢- الفصل الثاني والأربعون:  
في أنَّ الرُّحْلَةَ في طلبِ العلومِ  
ولقاءِ المشيخةِ مزيدُ كمالٍ في التعليمِ

والسَّبَبُ في ذلك:

أنَّ البشرَ يأخذونَ معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون<sup>(١)</sup> به من المذاهب والفضائل تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، إلا أنَّ حصولَ الملكاتِ عن المباشرة والتلقين أشدَّ استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدرِ كثرةِ الشيوخِ يكونُ حصولُ الملكاتِ ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم. حتى لقد يظن كثيرٌ منهم أنها جزءٌ من العلم. ولا يدفعُ عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين.

فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيدُه تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاءٌ تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواؤه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات<sup>(٢)</sup>، وتصحيح معارفه وتميزها<sup>(٣)</sup> عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾ [البقرة: ٢١٣، والنور: ٤٦].

١ - انتحلُه وتنحلُّه: ادعاه لنفسه وهو لغيره.

٢ - في ن: الملكان.

٣ - في ن: تصحيح معارفه وتميزها.

## ١- ٦- ٤٣- الفصل الثالث والأربعون:

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك: أنهم معتادون [ظ ٢٨٢/١] النظر الفكري، والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس، ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات. وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارتهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر، ولا تصير بالجملة إلى المطابقة، وإنما يتفرع ما في الخارج عما في الذهن من ذلك، كالأحكام الشرعية فإنها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة. فتطلب مطابقة ما في الخارج لها، عكس الأنظار<sup>(١)</sup> في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متعودون في سائر أنظارتهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها.

والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية، ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.

ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر؛ إذ كما اشتبهها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور. فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام، وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة، أفرغوا ذلك في قالب أنظارتهم، ونوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط كثيراً، ولا يؤمن عليهم.

ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران؛ لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط.

والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك، وعدم اعتياده إيّاه، يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه، كالسباح لا يفارق البر عند الموج.

قال الشاعر:

فلا توغلنَّ إذا ما سَبَحْتَ      فإنَّ السلامةَ في الساحل  
فيكونُ مأموناً من النظر في سياسته، مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه؛ فيحسُنْ  
معاشه، وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ومن هنا (تعلم)<sup>(١)</sup> أن صناعة [ظ ٢٨٢/٢] المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من  
الانتزاع وبعدها عن المحسوس، فإنها تنظرُ في المعقولات الثواني، ولعل المواد فيها ما يمانعُ  
تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني. وأمَّا النظرُ في المعقولات الأولُ وهي التي  
تجريدها قريبٌ فليس كذلك، لأنها خياليَّةٌ، وصور المحسوسات حافظة مؤذنةٌ بتصديق  
انطباقه. والله سبحانه وتعالى أعلمُ. وبه التوفيق.

## ١- ٦- ٤٤- الفصل الرابع والأربعون: في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم لا من العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعته عربي.

**والسبب في ذلك:** أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السداجة والبدواة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين، ولا دُفِعُوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين. وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء، أي: الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين، لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً، فقبل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة إلى هذا؛ فهم قراء لكتاب الله والسنة الماثورة عن [رسول] الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث، الذي هو في غالب موارد تفسيره له وشرح، قال صلى الله عليه وسلم: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»<sup>(١)</sup>. فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية، وتقييد الحديث مخافة ضياعه. ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه. ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة. وفسد مع ذلك اللسان. فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية. وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى، وهي الوسائل لها، من معرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس، والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد. فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة [ظ ١/٢٨٣] إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع. وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضرة، وأن العرب أبعد الناس عنها<sup>(٢)</sup>. فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد عنها العرب وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي

١ - أخرجه مالك في الموطأ (٨٩٩/٢) من حديث أنس. وأخرجه الحاكم (٩٣/١) من حديث ابن عباس.

٢ - في الفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس وعنوانه: فصل: في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع.



وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس.

فكان صاحب صناعة النحو سيبويه<sup>(١)</sup>، والفارسي<sup>(٢)</sup> من بعده، والزجاج<sup>(٣)</sup> من بعدهما؛ وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكْتَسَبُوهُ بِالْمَرْبَى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم.

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى، لاتساع الفن بالعراق.

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يَقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: «لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس»<sup>(٤)</sup>.

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها، وخرجوا إليها عن البداوة، فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم، والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع، والرؤساء أبدأ يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجز إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين، وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك، بما هم عليه من البعد عن نسبتها، وامتنعت حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم، مشتغلون بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة، كما ذكرناه في فصل<sup>(٥)</sup> المراتب الدينية.

فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم. وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر

١ - هو عمرو بن عثمان، توفي سنة ١٨٠هـ تقريباً.

٢ - أبو الحسين أحمد بن فارس، توفي حوالي ٣٩٠هـ.

٣ - أبو إسحاق إبراهيم بن السري، توفي ٣١هـ. بغية الوعاة ١/٤١١.

٤ - أخرجه البخاري (٤٨٩٧ و ٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦) والترمذي (٣٣٠٧) من حديث أبي هريرة قال: وضع رسول الله يده على سلمان الفارسي ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء».

وأخرجه أحمد (٧٩٣٧ و ٨٠٦٨) بلفظ: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس». وانظر مجمع الزوائد للهيتمي (٤٩/١٠ - ٥٠) في كتاب المناقب. باب ما جاء في ناس من أبناء فارس.

٥ - يحيل على الفصل الحادي والثلاثين وما بعده من الباب الثالث.

العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم، وتركتها العرب، وانصرفوا عن انتحائها، فلم يحملها إلا المتعربون<sup>(١)</sup> من العجم [ظ ٢٨٣/٢] شأن الصنائع كما قلناه أولاً.

فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم، وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر، فلما خربت تلك الأمصار، وذهبت منها الحضارة التي هي سرُّ الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم من العجم جملةً لما شملهم من البداوة.

واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع.

وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلم يزل ذلك حصّة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تأليف وصلت إلينا من هذه البلاد، وهو سعد الدين التفتازاني<sup>(٢)</sup>.

وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله ترعجاً في أحوال الخليفة. ﴿والله يخلق ما يشاء﴾ [آل عمران: ٤٧]، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل. والحمد لله.

١ - في ن: المعربون.

٢ - هو مسعود بن عمر، ولد بتفتازان من بلاد خراسان، وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند (٧١٢-٧٩٣هـ).

## ١- ٦- ٤٥- الفصل الخامس والأربعون:

في أن العُجْمَةَ إذا سَبَقَتْ إلى اللسان  
قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسرُّ في ذلك: أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية؛ من بين العلوم الشرعية التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية<sup>(١)</sup> لها وهي كلها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن، واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك، والألفاظ واللغات وسائطٌ وحجبٌ بين الضمائر، وروابط وختام على المعاني. ولا بُدَّ في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها من معرفة دلالتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها. وإلا فيعتاص عليه إقتناصها، زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها شأن البديهي والجبلي زالَ ذلك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خف ولم يبق إلا معاناة مافي المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة. وأمّا إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين [ظ ٢٨٤/١]. بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب وبين الألفاظ المقولة في الخيال، لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة، وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة. وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة، ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني، وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً لملكاتهم.

ثم إن الملة الإسلامية، لما اتسع ملكها، واندرجت الأمم في طيها، ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها، وكانت أمية النزعة والشعار، فأخذها الملك والعزة وسخرية

الأمم لها بالحضارة والتهذيب<sup>(١)</sup>، وصيروا علومهم الشرعية صناعة بعد أن كانت نقلاً. فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتواليف، وتشوفوا إلى<sup>(٢)</sup> علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم، وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم، وأربعوا<sup>(٣)</sup> فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسياً منسياً وظللاً مهجوراً وهباءً منثوراً، وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب ودواوينها المسطرة بخطهم. واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها.

وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان<sup>(٤)</sup>، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد<sup>(٥)</sup>. فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل فقلَّ أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى<sup>(٦)</sup> وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها، كما مر، إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية. كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من اللغة العربية. وكذا [ظ ٢/٢٨٤] أيضاً شأن من سبق له فعلم<sup>(٧)</sup> الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً، يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب، ليقرب عليهم تناول المعاني، وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك لتمام ملكته، وأنه صار له فهم الأقوال من الخط والمعاني من الأقوال كالجيلة الرأسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما

١ - أي: فأخذها بالحضارة والتهذيب ملكها وعزتها وتسخيرها للأمم. أي: استيلاؤها على الأمم وتسخيرها لهذه الأمم. (د. وافي).

٢ - تشوف إلى غد: تطلع.

٣ - أربع على.... عطف. وأربع عنه: كف وأقصر.

٤ - لم يتقدم هذا وإنما سيأتي الكلام عليه في الفصل ٤٧ من هذا الباب وعنوانه: فصل في أن اللغة ملكة صناعية. ولعل هذا الفصل كان متقدماً على الفصل الذي نحن بصدده ثم أخره عنه ابن خلدون بعد ذلك بدون أن يغير هذه العبارة. ولذلك أشبه ونظائر كثيرة في المقدمة. (د. وافي).

٥ - تقدم هذا في الفصل الثلاثين من الباب الخامس وعنوانه: فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية.

٦ - انظر الفصل الثاني والعشرين من الباب الخامس وعنوانه فصل: في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى.

٧ - في ن: تعلم.

يكون الدأب على التعليم والمران على اللغة وممارسة الخط يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة كما نجده في الكثير من علماء الأعاجم، إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم كان باع العربي أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفنون بالعجمة السابقة التي تؤثر القصور بالضرورة.

ولا يعترض على ذلك مما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم. لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم<sup>(١)</sup>. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك، وهي المرادة هنا. ولا يعترض على ذلك أيضاً بما كان لليونانيين من رسوخ القدم، فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم.

والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطّه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين<sup>(٢)</sup>.

١ - انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس. فصل: في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته.

٢ - اقتباساً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] والمعنى: للمتفكرين المتفرسين الذين يعرفون حقيقة الشيء بسمته. (د. وافي).

## ١- ٦- ٤٦- الفصل السادس والأربعون: في علوم اللسان العربي

أركانها أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم. فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً. والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به [ظ ١/٢٨٥] تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم. لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

أ - (علم النحو): اعلم أن اللغة في المعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام. فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً»<sup>(١)</sup>. فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات أي الأوضاع اعتبار

١ - قوله: (أوتيت جوامع الكلم) أخرجه البخاري (٦٨٤٥) ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة. وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء وتبعه الزبيدي في إتخاف السادة المتقين (١١٣/٧): روى عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والدارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد: «أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً». وشطره الأول متفق عليه. قال البخاري: بلغني في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد الأمرين ونحو ذلك. وللحاكم من حديث عمر المتقدم: كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء جبريل فحفظها. وروى الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير.

في الدلالة على المقصود، غير متكفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول<sup>(١)</sup> كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالقات التي للمستعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل الحلوم<sup>(٢)</sup> منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل أن الفاعل [ظ ٢٨٥/٢] مرفوع، والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: بعثت بجوامع الكلم. ولأبي داود من حديث جابر: كان في كلامه صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل، وفيه شبح لم يسم، وله. وللترمذي من حديث عائشة: كان كلامه صلى الله عليه وسلم كلاماً فضلاً يفهمه كل من سمعه. وقال الترمذي: يحفظه كل من جلس إليه. وقال النسائي في اليوم والليلة: يحفظه من سمعه. وإسناده حسن. اهـ. قلت: روى العسكري في الأمثال من طريق سليمان بن عبد الله النوفلي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً. وهو مرسل في سنده من لم يعرف، وللدليمي بلا سند من حديث ابن عباس مثله بلفظ: أعطيت. والحديث بدل الكلم. وعند البيهقي في الشعب من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة: أن عمر مر برجل يقرأ كتاباً من التوراة فذكر الحديث وفيه: فقال صلى الله عليه وسلم: إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفوائحه واختصر لي الحديث اختصاراً. وللطبراني من طريق أبي الدرداء قال: جاء عمر وذكره. ولأبي يعلى من طريق خالد بن عرفطة قال: كنت عند عمر فجاءه رجلٌ فذكره وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس قد أوتيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي اختصاراً. وأصل الحديث من طريق ابن سيرين، عن أبي هريرة بلفظ: أعطيت فواتح.. وفي لفظ: مفاتيح. وفي آخر: جوامع الكلم ونصرت بالرعب. ومن حديث سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن كلاهما عن أبي هريرة بلفظ: أعطيت جوامع الكلم. وفي لفظ: بعثت بجوامع الكلم. ومن طريق أبي موسى مولى أبي هريرة عن مولاة بلفظ: أوتيت جوامع الكلم. ومن طريق العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة بلفظ: أعطيت. ومن حديث عطاء بن السائب، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن علي في حديث: أعطيت خمساً ففيه وأعطيت جوامع الكلم. وفي حديث أبي موسى الأشعري: أعطيت فواتح الكلم وخواتمه. ونص البخاري في الصحيح فيما رواه عن ابن شهاب قال: بلغني في جوامع الكلم أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمم في الواحد والأميين ونحو ذلك وحاصله أنه صلى الله عليه وسلم كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني. وقال سليمان بن عبد الله النوفلي: كان يتكلم بالكلام القليل يجمع فيه المعاني الكثيرة. وقال غيره: يعني القرآن بقرينة قوله: بعثت القرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني. وقال: آخر القرآن وغيره مما أوتي في منطق فبان به من غيره بالإيجاز والإبلاغ والسداد.

ويرى الدكتور وافي أن هذا لا يصح أن يكون دليلاً على ما قرره بصدد اللغة العربية، لأن الحديث خاص بكلام الرسول عليه السلام وما أوتي من بلاغة في القول وقدرة على الإيجاز والتعبير عن المعاني الكثيرة بالقليل من الألفاظ.

١ - يعني: أهل الأحكام والعقول.

٢ - الأناة والعقل، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ؟﴾. وفي ن: العلوم.

الموجب لذلك التغير عاملاً. وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال: بإشارة علي رضي الله عنه، لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاصرة<sup>(١)</sup> المستقرة. ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد (أحوج ما كان الناس إليها)<sup>(٢)</sup> لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمّل تفاريحها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع فيها كتابه<sup>(٣)</sup> المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج<sup>(٤)</sup> كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.

ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصريين القدمين للعرب، وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين، وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى<sup>(٥)</sup> وابن معطي في الأرجوزة الألفية<sup>(٦)</sup>.

وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة: فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين، والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم

١ - الحاصرة: بالصاد. أي: التي تحصر وتحدد.

٢ - في ن: وكان الناس أحوج إليها.

٣ - يسمى مؤلف سيبويه الكتاب وهو مطبوع.

٤ - هو عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي نسبة إلى شيخه إبراهيم بن السري الزجاج مات سنة ٣٣٩هـ. بغية الوعاة ٧٧/٢.

٥ - تسمى أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وأما أرجوزته الصغرى فهي الألفية المشهورة، وهي ملخص الكافية. د. وإي.

٦ - كان الأفضل أن يقدم ابن معطي، لأن ألفيته سابقة على ألفية ابن مالك، وإلى هذا يشير ابن مالك نفسه في فاتحة ألفيته إذ يقول: وتقتضي رضا بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي

وهو بسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلاً



والصنائع بتناقص العمران. ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر<sup>(١)</sup> منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها [ظ ٢٨٦/١] استوفى فيه أحكام الإعراب بمجمل ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من التكرار في أكثر أبوابها، وسماه بالمغني في الإعراب، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم<sup>(٢)</sup> سائرهما، فوقفنا منه على علم جم، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها. وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه. فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه. والله ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ [فاطر: ١].

ب - (علم اللغة): هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملازمة العجم ومخالطتهم، حتى تأذى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدُّروس<sup>(٣)</sup>، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا<sup>(٤)</sup> فيه الدواوين.

وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي، ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي. وتأتى له حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة. وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين، وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد، لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين، فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية. ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك. ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على التوالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين. فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب، وهو أن يجمع الأول مع الأخير، ويضرب المجموع في نصف العدة، ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي، لأن التقديم والتأخير

١ - يعني كتابه: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وقد عرض ابن هشام فيه لموضوعات يمت كثير منها بصلة إلى بحوث فقه اللغة.

٢ - في ن: انتظمت

٣ - أي: الذهاب

٤ - أي: كتبوا من الأمالي التي تلقى على التلامذة.

[ظ ٢٨٦/٢] بين الحروف معتبر في التركيب، فيكون الخارج جملة الثنائيات. وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين، على توالي العدد؛ لأن كل ثنائية تزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية، فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات، ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية، فيخرج مجموع تركيبها من حروف الثلاثية، فيخرج مجموع تركيبها من حروف الرباعي والخماسي. فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه، ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف. واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق، ثم ما بعده من حروف الحنك، ثم الأضراس، ثم الشفة، وجعل حروف العلة آخرها وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى<sup>(١)</sup> منها، فلذلك سمي كتابه بالعين، لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل. وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلّة استعمال العرب له لثقله، ولحق به الثنائي لقلّة دورانه، وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين، واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه.

وجاء أبو بكر الزبيدي - وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المئة الرابعة - فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.

وألّف الجوهري من المشاركة كتاب الصّحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم، فجعل البداية منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم فيجعل لك باباً، ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضاً، ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها، وحصر اللغة اقتداءً بحصر الخليل.

ثم ألّف فيها من الأندلسيين ابن سيّدة من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريقها، فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب

الصباح في اعتبار [ظ ٢٨٧/١] أواخر الكلم وبناء التراحم عليها، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة.

ولكواع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد<sup>(١)</sup> كتاب الجمهرة، ولابن الأنباري كتاب الزاهر.

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها. إلا أن وجه الحصر فيها خفي، ووجه الحصر في تلك حلي من قبل التراكيب كما رأيت.

ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في الجاز، وسماه أساس البلاغة، يبين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، وفيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب شريف الإفادة.

ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرق<sup>(٢)</sup> ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنًا وخروجاً عن لسان العرب، واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه: فقه اللغة. وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب<sup>(٣)</sup> حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها. وهو أشد من اللحن في الإعراب وأفحش.

وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة، وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك، فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمداول من اللغة، الكثير الاستعمال، تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما. وبعضها أقل لغة من بعض، لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم، لا رب سواه.

١ - هو محمد بن الحسن بن دريد، تصغير أدرد. والأردد: الذي ليس في فيه سن، وهو تصغير ترخيم بسبب حذف حرف الهمزة من أوله، كما تقول في تصغير أسود: سويد، وتصغير أزهر: زهير. انظر وفيات الأعيان (٤٩٩/١).

٢ - في ن: فوق.

٣ - في ن: الترتيب.

**فصل:** واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني. لا تقل: إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، ولم يعرف لأحد منهم<sup>(١)</sup>. وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعرف استعماله على ما عرف استعماله بجامع يشهد باعتباره في الأول شأن القياسات الفقهية، فيثبت الخمر للنبذ باستعماله في ماء العنب باعتبار الإسكار [ظ ٢٨٧/٢] الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما مدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو مُحَكَّم<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا جمهور الأئمة، وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم؛ لكن القول بنفيه أرجح. ولا تنوهم أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية؛ لأن الحد راجع إلى المعاني ببيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور. واللغة إثبات أن اللفظ كذا لمعنى كذا. والفرق في غاية الظهور.

**ت - (علم البيان):** هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة. وهو من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيد، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني. وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع مع كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغيير الحركات من<sup>(٣)</sup> الإعراب وأبنية الكلمات، وهذه كلها هي صناعة النحو.

ويبقى من الأمور المكتنفة بالوقائع المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل. وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة. ألا ترى أن قولهم: زيد جاءني، مغاير لقولهم: جاءني زيد، من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالجاء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل الجاء المسند.

وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم زيد قائم، وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم،

١ - ومن هذا يتبين أن ابن خلدون لا يرى ما يراه بعضهم من أن الفضل من نشأة اللغة يرجع إلى الوضع.

(د. و. أ.).

٢ - أي: أن العقل هو القاضي الحاكم.

٣ - في ن: وهو.

متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بأن يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر، فهي مختلفة. وكذلك تقول: جاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه: جاءني رجل، إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه، وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال.

ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولاً، وإنشائية [ظ ١/٢٨٨] وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه.

ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإعراب فتتزل<sup>(١)</sup> بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب، ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما.

ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه، ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول: زيد أسد، فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة، وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد، وتسمى هذه استعارة. وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيد كثير الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف، لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما.

وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيآت وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيآت في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه.

فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة<sup>(٢)</sup> التي للهيآت والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف:

**الصنف الأول** يبحث فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة.

**والصنف الثاني:** يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه، وهي الاستعارة والكناية كما قلناه، ويسمى علم البيان.

وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنيق<sup>(٣)</sup>، إما بسجع بفضله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد،

١ - في ن: فيشترك.

٢ - في ن: الدلالات.

٣ - في ن: التنيق.

وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع.  
وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني، لأن  
الأقدمين أول ما<sup>(١)</sup> تكلموا فيه. ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها  
جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم تزل مسائل الفن  
تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محص السكاكي<sup>(٢)</sup> زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه على  
نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب، وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف  
والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذ المتأخرون من كتابه، وخصوا منه  
أمهات هي المتداولة لهذا العهد [ظ ٢٨٨/٢] كما فعله السكاكي في كتاب التبيان، وابن  
مالك في كتاب المصباح، وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو  
أصغر حجماً من الإيضاح، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه  
أكثر من غيره.

وبالجملة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة. وسببه - والله أعلم -: أنه كمالي  
في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب  
كما ذكرناه. أو نقول: لعناية العجم، وهم معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو  
كله مبني على هذا الفن، وهو أصله، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع  
خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً، وعددوا أبواباً، ونوعوا  
أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب. وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين  
الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقة  
أنظارهما، وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما. ومن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن  
رشيق، وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه.

واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء  
الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، مع  
الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي  
تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان  
العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب

١ - في ن: من

٢ - لعل المصنف لم يجد في كتاب عبد القاهر الجرجاني ما وجده في كتاب السكاكي فلذلك لم يذكره، وإلا  
فإن كتاب الجرجاني مقدم عليه وأسبق، ولا سيما أنه ذكر أن فائدة هذا العلم عائدة إلى إعجاز القرآن فكان يحسن  
إبراده..

الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام وجهاً بذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون. وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جارا لله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير<sup>(١)</sup> وتتبع أي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبيد البعض من إعجازه، فأنفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغ. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

ث - (علم الأدب): هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمثثور على أساليب العرب ومناحيهم. فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة: من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبنوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية؛ مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها؛ وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب، إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية. فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها.

وسمنا من شيوخننا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكتاب<sup>(٢)</sup> لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين

للمجاط، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة.

وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع الشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه. فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة، وهم الحجة [ظ ٢٨٩/٢] على من سواهم. وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني - وهو ماهو - كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المئة صوت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في<sup>(١)</sup> كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها؟! ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب.



## ١- ٦- ٤٧- الفصل السابع والأربعون: في أنَّ اللغةَ مَلَكَةٌ صناعية

**اعلم:** أنَّ اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة، أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي: صفة راسخة.

فالتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودةً فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أنَّ اللغة للعرب بالطبع، أي: بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم.

ثم إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم. وسبب فسادها: أنَّ الناشئ من الجيل، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كصفات أخرى غير الكيفيات [ظ. ١/٢٩] التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كصفات العرب أيضاً، فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة، وكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد اللسان العربي.

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بُعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

## ١- ٦- ٤٨- الفصل الثامن والأربعون:

في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة

مغايرة للغة مضر وحمير<sup>(١)</sup>

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق<sup>(٢)</sup>. لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها، ويبقى ما تقتضيه الأحوال - ويسمى بساط الحال - محتاجاً إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته. وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكميات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكميات كما قدمناه. فكان الكلام العربي لذلك أوجب وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً»<sup>(٣)</sup>.

واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة: إني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم زيداً قائمٌ وإن زيداً قائمٌ وإن زيداً قائمٌ والمعنى واحد [ظ ٢٩٠/٢]؛ فقال له: إن معانيها مختلفة<sup>(٤)</sup>.

فالأول: لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد.

والثاني: لمن سمعه فتردد فيه.

والثالث: لمن عرف بالإصرار على إنكاره، فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال.

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة<sup>(٥)</sup> النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون

١ - يرى الدكتور وافي أنه كان الأولي أن يعنون هذا الفصل فصل في الرد على زعم أن العرب. لأن موضوع هذا الفصل ليس بيانا لهذه الدعوى وتأييدها، بل مورد عليها.

٢ - في ن: أعرف.

٣ - مر تخريجه في الفصل (٤٦) من هذا الباب.

٤ - في ظ: محققة.

٥ - المخرفش - بالفتح: المخلط. فالخرفشة التخليط والاضطراب.

أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع<sup>(١)</sup> في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم، وإلا فتحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تنزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير عن المقاصد والتفاوت<sup>(٢)</sup> فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم، وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم، والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك، ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيأ<sup>(٣)</sup> معروفاً وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استدلوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصور التي كانت أولاً فانقلب لغة أخرى. وكان القرآن منزلاً به. والحديث النبوي منقولاً بلغته، وهما أصلاً الدين والملة، فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلاً به، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه، وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل، سماه أهله بعلم النحو؛ وصناعة العربية. فأصبح فناً محفوظاً، وعلماً مكتوباً، وسُلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافياً. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد<sup>(٤)</sup> واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمر أخرى وكيفيات موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر. فليست اللغات وملكانها مجاناً. ولقد كان اللسان المضي مع اللسان الحميري بهذه [ظ ١/٢٩١] المثابة، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصارييف كلماته تشهد بذلك الأنفال الموجودة لدينا، خلافاً لمن يحمل القصور على أنهما لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم

١ - أي: الانتصار لأصحابهم النحاة. وليس المراد المذهب المعروف

٢ - في ن: التعاون.

٣ - يقال: طريق مهيعٌ أي: بينٌ.

٤ - أي: باللغات العربية المستخدمة في التخاطب في هذا العهد. ومن هذا يظهر أن ابن خلدون يرى أنه من الممكن استخدام هذه اللهجات العامية في الكتابة والاستعاضة عن حركات الإعراب، التي تمتاز بها العربية الفصحى، بما تشتمل عليه أساليب هذه اللهجات من قرائن تدل على وظيفة الكلمة في الجملة - وهذا مذهب غير سديد. انظر في الرد عليه صفحات ١٥٠ - ١٥٢ من الطبعة السادسة من كتاب فقه اللغة للدكتور وافي.

بعضهم في اشتقاق القيل<sup>(١)</sup> في اللسان الحميري أنه من القول، وكثير من أشباه هذا، وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها<sup>(٢)</sup> كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر. إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه.

ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف. فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار كما هو مذكور في كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف، وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف. وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق، حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصاً بهم لا يشاركون بها غيرهم. حتى إن من يريد التقرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها. وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف. ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها. فإن هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم ابن منصور، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور. وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور وأغلبهم، وهم من أعقاب مضر، وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة. وهذه اللغة لم يتدعها هذا الجيل، بل هي متوارثة فيهم متعاقبة. ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين، ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها.

وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت، وزعموا أن من قرأ في أم القرآن: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بغير القاف التي لهذا الجيل فقد [ظ ٢٩١/٢] لحن وأفسد صلاته.

ولم أدر من أين جاء هذا؟! فإن أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم، وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتوح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها، إلا أنهم أبعد من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار. فهذا يرجح فيما وجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في

١ - القيل: الملك من ملوك حمير، أو دون الملك الأعلى.

٢ - انظر تحرير القول في الفرق بين اللغة العربية المضرية واللغة اليمنية القديمة قبل تغلب اللغة المضرية عليها وبعد تغلبها عليها وما وقع فيه الباحثون في هذا الموضوع من خطأ ومنهم الدكتور طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي انظر هذا كله في ص ٧٥ - ٨٧ من الطبعة السادسة من كتاب فقه اللغة للدكتور وافي.

النطق بها، وأنها الخاصة التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري.

والظاهر أن هذه القاف التي ينطقُ بها أهل الجليل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة، وأن مخرج القاف متسع، فأولُه من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف. فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الأمصار، والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجليل البدوي. وبهذا يندفع ما قاله أهل البيت من فساد الصلاة بتركها في أم القرآن، فإن فقهاء الأمصار كلهم على خلاف ذلك. وبعيدٌ أن يكونوا أهملوا ذلك، فوجهه ما قلناه. نعم نقول: إن الأرجح والأولى ما ينطقُ به أهل الجليل البدوي لأن تواترها فيهم كما قدّمناه، شاهدٌ بأنها لغة الجليل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي صلى الله عليه وسلم. ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين. ولو كانت كما ينطقُ بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف، ولم تدغم. ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وهي التي ينطقُ بها أهل الجليل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف. على أنها حرفٌ مستقلٌّ، وهو بعيدٌ. والظاهر أنها من آخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه. ثم إنهم يصرّحون باستهجانه واستقباحه كأنهم لم يصحّ عندهم أنها لغة الجليل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها، لأنهم إنما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنها شعارهم الخاصُّ بهم، دليلٌ على أنها لغة ذلك الجليل الأول، ولغة النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذلك كله. وقد يزعم زاعمٌ أن هذه القاف التي ينطقُ بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وأنها إنما جاءت من مخالطتهم للعجم، وإنهم ينطقون بها كذلك، فليست من لغة العرب. ولكن الأقيس كما قدّمناه من أنهما حرف واحد متسع المخرج. فتفهّم ذلك، والله الهادي المبين.

## ١- ٦- ٤٩- الفصل التاسع والأربعون:

في أنَّ لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

اعلم: أنَّ عرف [ظ ٢٩٢/١] التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجليل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجليل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد.

فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد. وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجليل، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب، ومن الملكة الثانية التي للعجم.

فعلى مقدار ما يسمعون من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى، واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق؛ أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل، فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة، والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد.

وكذا المشرق لما غلب العرب على أمه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة<sup>(١)</sup> والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً ودايات وأطآراً ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى.

وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالة والإفرنجية. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر، ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره، وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر<sup>(٢)</sup>.

١ - أكثر الأرض من باب ضرب حرثها، واسم الفاعل أكار بالتشديد للمبالغة، والجمع أكرة كأنه جمع أكر وزان كفرة جمع كافر.

٢ - قرن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بين بسط الرزق وقدره، ولم يرد فيه ذكر الخلق مع تضيق الرزق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، فلعل المصنف لم يرد هذا المعنى من قوله: ﴿يَقْدِرُ﴾. وأراد التقدير والتكوين من القدرة، بخلاف تلك التي تقابل البسط.

## ١- ٦- ٥٠- الفصل الخمسون: في تعليم اللسان المضري

اعلم: أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات - كما مر - كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يتبغي هذه [ظ ٢٩٢/٢] الملكة ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقنَ العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهم رسوخاً وقوة. ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال. والذوق يشهد بذلك. وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة القول المصنوع نظماً ونثراً. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها. وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢١٣، والنور: ٤٦] بفضلله وكرمه.

١- ٦- ٥١- الفصل الحادي والخمسون:  
في أن ملكة هذا اللسان  
غير صناعة العربية ومُستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك: أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً. مثل أن يقول بصير بالخيطة غير مُحكم الملكتها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت<sup>(١)</sup> الإبرة، ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم يردها إلى حيث ابتدأت، ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين، ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتثبيت<sup>(٢)</sup> والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها، وهو إذا طُوبَ أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً. وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة، وهو لو طُوبَ بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه. وهكذا العلم بقوانين [ظ ١/٢٩٣] الإعراب مع هذه الملكة في نفسها. فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل، وليس هو نفس العمل. ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة، والمهرة في صناعة العربية، المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيه<sup>(٣)</sup> عن الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.

فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة. وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفاقي. وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل

١ - الخرت بفتح الحاء وضمها الثقب في الأذن وغيرها.

٢ - في ن: التثبيت. والتثبيت: هو ما يعرف الآن بالدرزة.

٣ - في ن: فيها.



ملاً كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزءٌ صالح من تعليم هذه الملكة. فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب، واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته؛ وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة. ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيوييه من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل على علم اللسان صناعة، ولا يحصل عليه ملكة.

وأما المخالطون لكتب التأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة، أو يتنبهون لشأنها. فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه. وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم؛ فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم، فتقطع النفس لها، وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.

وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية بجرى العلوم بحثاً، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة [ظ ٢/٢٩٣] العربية عندهم كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل. وبعدت عن مناحي اللسان وملكته؛ وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم؛ فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان؛ وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم، لكنهم أجروا على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بحثاً، وبعدوا عن ثمرتها.

وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المتوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم. والله مقدر الأمور كلها، والله أعلم بالغيب.

## ١- ٦- ٥٢- الفصل الثاني والخمسون:

في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه  
وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان. وقد مر تفسير البلاغة، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك. فالتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده. فإذا اتصلت معاناته<sup>(١)</sup> بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب. وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجّه ونبأ عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفادته من حصول هذه الملكة. فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع. وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع.

وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع [ظ ١/٢٩٤] والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان<sup>(٢)</sup>، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها، وقد مر ذلك<sup>(٣)</sup>. وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل<sup>(٤)</sup> المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه، لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه وجهه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما<sup>(٥)</sup> يعجز عن

١ - في ن: مقاماته.

٢ - في ن: البيان.

٣ - في الفصل السابق لهذا مباشرة.

٤ - في ن: السبيل.

٥ - في ن: وإنما.

الاحتجاج لذلك<sup>(١)</sup> كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم.

ومثاله: لو فرضنا صيباً من صبيانهم نشأ في جيلهم وربى بين أحيائهم، فإنه يتعلم لغتهم، ويحركُ شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها؛ وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يُحصَل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم. والقوانين بمعزل عن هذا.

واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محلُّ إدراك الطعوم استعير لها اسمه؛ وأيضاً فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له، فقليل له: ذوق.

وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئین عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله، كالفرس والروم والترك بالشرق وكالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها. لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر، وسبق ملكة أخرى إلى لسانهم<sup>(٢)</sup> وهي لغاتهم، أن يعتنوا [ظ ٢/٢٩٤]. بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون إليه من ذلك، وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار، وبعثوا عنها كما تقدم<sup>(٣)</sup> وإنما لهم في ذلك ملكة أخرى، وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء، إنما حصل أحكامها كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتیاد والتكرار لكلام العرب.

فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط. وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من

١ - في ن: بذلك.

٢ - في ن: اللسان.

٣ - في الفصل التاسع والأربعين من هذا الباب وعنوانه: فصل: في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة

بنفسها....

العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها. وكأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشؤوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها. فهم وإن كانوا عجماً في النسب، فليسوا بأعجم في اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها، واللغة في شبابها، ولم تذهب آثار الملكة منها، ولا من أهل الأمصار<sup>(١)</sup>. ثم عكفوا على الممارسة والمدارس لكلام العرب حتى استولوا على غايته.

واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار، فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار، ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارس والحفظ يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له؛ ولما قدمناه<sup>(٢)</sup> من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في الحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة. وإن فرضنا أعجمياً في النسب سَلِمَ من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارس فربما يحصل له ذلك. لكنه من الدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر. وربما يدّعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها، وهو غلط أو مغالطة. وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء. ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مُستقيم﴾ [البقرة: ٢١٣ والنور: ٤٦].

١ - أي: بقيت آثار الملكة حتى في أهل الأمصار.

٢ - يشير بذلك إلى ما ذكره في الفصل الثاني والعشرين من الباب الخامس، وعنوانه: فصل في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى.

## ١- ٦- ٥٣- الفصل الثالث والخمسون:

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون [ظ ٢٩٥/١]  
 في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم،  
 ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك: ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة، حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضرة لهذا العهد. ولهذا نجد العلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان. وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك. إنما هي بتعليم هذه الملكة بمخاطبة<sup>(١)</sup> اللسان وكلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك، وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر، قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن النفاة حينئذ.

واعتبر ذلك في أهل الأمصار. فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة، وأبعد عن اللسان الأول، لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم. ولقد نقل الرقيق<sup>(٢)</sup> أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: يا أخي، ومن لا عدت فقهه<sup>(٣)</sup> أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي، وعاقنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً، ليس من هذا حرفاً واحداً، وكتابي إليك، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله.

وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيهاً بما<sup>(٤)</sup> ذكرنا. وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة؛ ولم تنزل كذلك، لهذا العهد. ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئین عليها، ولم تنزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور.

وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم حيّان المؤرخ، إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها، وابن عبد ربّه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف،

١ - في ن: بمخالطة.

٢ - في جميع النسخ: ابن الرقيق. وهو خطأ. انظر صوابه في بداية المقدمة.

٣ - في ن: فقد.

٤ - في ن: سببه ما ذكرنا.

لما زحرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين، حتى كان الانقضا والجللاء أيام تغلب النصرانية، وشغلوا عن تعلم ذلك، وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض. وكان من آخرهم صالح بن شريف، ومالك بن المرحل [ظ ٢٩٥/٢] من تلميذ الطبقة الإشبيلية بسببته، وكتاب دولة ابن الأحمر في أولها. وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجللاء إلى العدو من إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعسر قبول العدو لها وصعوبتها عليهم، بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية، وهي منافية لما قلناه. ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت، ونجم بها ابن بشرين<sup>(١)</sup> وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم. ثم إبراهيم الساحلي الطريحي<sup>(٢)</sup> وطبقته، وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه، وكان له في اللسان ملكة لا تدرك، واتبع أثره بعده<sup>(٣)</sup>.

وبالجملة: فشان هذه الملكة بالأندلس أكثر، وتعليمها أيسر وأسهل، بما هم عليه لهذا العهد كما قدّمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظة تعليمها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها، ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارؤون عليهم، وليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس. والبربر في هذه العدو وهم أهلها ولسانهم لسانها، إلا في الأمصار فقط. فهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم وروطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس.

واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها، لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم وخیالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم. وكان فحول الشعراء والكتاب لعهدهم أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق. وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم، وملتهم العربية وسيرتهم<sup>(٤)</sup> وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر معانيهم<sup>(٥)</sup> له، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب.

١ - في ن: سيرين (٩).

٢ - في ن: الطويجن (٩).

٣ - في ن: تلميذه.

٤ - في ظ: وسير نبهم صلى الله عليه وسلم.

٥ - في ن: مغانيهم.

وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما ذكره بعد، حتى تلاشى أمر العرب، ودَرسَتْ لغتهم، وفسدَ كلامهم، وانقضى أمرهم ودولتهم، وصار الأمر للأعاجم، والملك في أيديهم، والتغلب لهم، وذلك في دولة الديلم والسلجوقية، وخالطوا أهل الأمصار (وكثرهم فامتألت الأرض [ظ ٢٩٦/١] بلغاتهم، واستولت العجمة على أهل الأمصار) والخواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته، وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها. وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور، وإن كانوا أكثرين منه. والله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. [والله سبحانه وتعالى أعلم. وبه التوفيق، لا ربَّ سواه].

## ١- ٦- ٥٤- الفصل الرابع والخمسون: في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

**اعلم:** أن لسان العرب وكلامهم على فنين: في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية؛ وفي النثر وهو الكلام غير الموزون.

وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام.  
فأما الشعر فمناهج المدح والهجاء والثناء.

وأما النثر: فمنه السجع الذي يؤتى بها قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يُسمى سجعاً؛ ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن وإن كان من المنشور إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلًا مطلقاً ولا مسجعاً. بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاك الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويشئى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية، وهو معنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٦]. ويسمى آخر الآيات منها فواصل؛ إذ ليست أسجاعاً، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع، ولا هي أيضاً قوافٍ. وأطلق اسم المثنائي على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه، واختصت بأم القرآن<sup>(١)</sup> للغلبة فيها، كالنجم للثريا، ولهذا سميت السبع المثنائي. وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثنائي يشهد لك الحق برجحان ما قلناه.

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله، لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات، وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنشور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه [ظ ٢/٢٩٦] الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا



الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه. وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب. وهذا الفن المنشور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر. فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه. إذ أساليب الشعر تناسبها<sup>(١)</sup> اللوزعية<sup>(٢)</sup> وخلط الجدل بالهزل، والإطناب في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك<sup>(٣)</sup> في الخطاب. والتزام التقفية أيضاً من اللوزعية والتزيين، وجلال الملك والسلطان، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبيانيته. والمحمود في المخاطبات السلطانية المرسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة. وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم. وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال. فعجزوا عن الكلام المرسل لبعده أمد في البلاغة وانفساح خطوبه<sup>(٤)</sup>. وولعوا بهذا السجع<sup>(٥)</sup> يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية<sup>(٦)</sup>، ويغفلون عما سوى ذلك. وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس، ويدعون الإعراب، ويفسدون بنية الكلمة، عساها تصادف التجنيس. فتأمل ذلك وانتقد بما قدمناه لك، تقف على صحة ما ذكرناه. والله الموفق للصواب بمنه وكرمه. والله تعالى أعلم.

١ - في ن: تنافها.

٢ - اللوزع واللوزعي: الخفيف الذكي، الظريف الذهن، الحديد الفؤاد، واللسن الفصيح، كأنه يلذع بالنار من ذكائه.

٣ - في ن: لا تدعو لذلك كله ضرورة.

٤ - في ن: خطوته.

٥ - في ن: المسجع.

٦ - في ن: البديعة.

## ١- ٦- ٥٥- الفصل الخامس والخمسون:

في أنه لا تنفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

والسبب في ذلك: أنه كما بيناه مَلَكَةً [ظ ٢٩٧/١] في اللسان؛ فإذا سَبَقَتْ<sup>(١)</sup> إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة، لأن تمام<sup>(٢)</sup> الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها في المادة<sup>(٣)</sup> القابلة، وعائقة عن سرعة القبول، فوقعت المنافسة وتعذر التمام في الملكة. وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان<sup>(٤)</sup>. فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان، وهي بمنزلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً.

فالأعجمي الذي سبق له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذا البربري والرومي الأفرنجي قل أن تجد أحدا منهم محكماً لملكة اللسان العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر. حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل، وما أوتي إلا من قبل اللسان. وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع. وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتهما لا تزدهم، وأن من سبق له إجادة في صناعة فقل أن يجيد في أخرى أو يستولي فيها على الغاية ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصفات: ٩٦].

١ - في ن: تسبقت.

٢ - في ن: قبول.

٣ - في ن: المدة.

٤ - يشير بذلك إلى ما ذكره في الفصل الثاني والعشرين من الباب الخامس، وعنوانه: فصل في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى.

## ١- ٦- ٥٦- الفصل السادس والخمسون:

## في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب، وهو المسمى بالشعر عندهم. ويوجد في سائر اللغات. إلا أننا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن نجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه. وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى، إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة. وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويًا وقافية. ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده. وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء. فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك في البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك. ويستطرد للخروج من فن إلى فن، ومن مقصود [ظ ٢/٢٩٧] إلى مقصود، بأن يوطئ المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثاني، ويعد الكلام عن التنافر، كما يستطرد من التشبيب إلى المدح، ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره، ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأين<sup>(١)</sup> وأمثال ذلك.

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس، وهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن؛ وإنما هي أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر بحراً، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظاماً.

واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها، والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة. والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين

لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه. فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة، حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب، ويبرزه مستقلاً بنفسه، ثم يأتي بيت آخر كذلك، ثم بيت، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده، ثم يناسب بين البيوت في موالة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. ولصعوبة منحاه وغرابه فنه كان محكاً للقرائح في استجداء أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه. ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق، بل يحتاجُ بخصوصه إلى تلطف ومحاوله في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها، واستعمالها.

ولنذكر هنا (مدلول لفظة)<sup>(١)</sup> الأسلوب عند أهل هذه الصناعة، وما يريدون بها في إطلاقهم؟ فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه. ولا يرجع إلى الكلام [ظ ١/٢٩٨] باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية. وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه.

فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة. فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله:

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالْسُّنْدِ

ويكون باستدعاء الصبح للوقوف والسؤال كقوله:

قَفَا نَسْأَلُ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا

أو باستبكاء الصبح على الطلل كقوله:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسُومُ؟

ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحتها كقوله:  
حيّ الدّيار بجانب العزل

أو بالدعاء لها بالسّقى كقوله:

أسقى ظلّوهم أجشّ هزيم<sup>(١)</sup> وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السّقى لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلاً بالأبرق واحذّ السحاب لها حذاءً الأينق

أو مثل التفجع في الجزع<sup>(٢)</sup> باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:

أرأيت من حُمّلوا على الأعواد؟

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العُشب لا حام ولا راع مضى الرّدى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية<sup>(٣)</sup>:

أيّا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة قريعه<sup>(٤)</sup> بالراحة من ثقل وطأته [ظ ٢/٢٩٨] كقوله:

ألقي الرماح ربيعة بن نزار أودى الرّدى بقريعتك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه.

وتتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل، إنشائية وخبرية، إسمية وفعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة، على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك به<sup>(٥)</sup> ما تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف الكلام هو كالبنا أو النسّاج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه؛ فإن خرج عن القالب في بنائه أو على<sup>(٦)</sup> المنوال في نسجه كان فاسداً.

١ - في ن: هزيم.

٢ - في ن: الرّثاء.

٣ - هي ليلي بنت طريف.

٤ - القريع: الخصم الغالب أو المغلوب.

٥ - في ن: فيه.

٦ - في ن: عن.

ولا تقولن: إن معرفة قوانين البلاغة كافية في<sup>(١)</sup> ذلك؛ لأننا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس، وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية.

وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب، لجرانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق. وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه. وليس كل ما يصلح<sup>(٢)</sup> في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه، وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تدرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو، وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب، كان نظراً في المستعمل من تراكيبيهم، لا فيما يقتضيه القياس.

ولهذا قلنا: إن المحصل لهذه القوالب في الذهن، إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور؛ فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين؛ وجاؤوا به مفصلاً في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة، وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيّدونه بالأسجاع، وقد يرسلونه، وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يبيّن مؤلف الكلام عليه تأليفه، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم [ظ ٢٩٩/١] حتى يتجرد له في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب، والنساج على المنوال. فلهذا كان فن تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوي والبياني والعروضي. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصّلت هذه الصفات كلها في الكلام اختصّ بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليب، ولا يفيد إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً، وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإننا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه.

وقول العروضيّين في حده: إنه الكلام الموزون المقفى. ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصده ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض أبيات الشعر لضربها. وذلك نظر في

١ - في: ليست في نسخة.

٢ - في ن: يصح.

وزن مجرد عن الألفاظ ودلالاتها، فناسب أن يكون حداً عندهم، ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا. فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به.

فقولنا: الكلام البليغ جنس.

وقولنا: المبني على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر.

وقولنا: المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي، فصل له عن الكلام المنشور الذي ليس بشعر عند الكل.

وقولنا: مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، بيان للحقيقة، لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك، ولم يفصل به<sup>(١)</sup> شيء.

وقولنا: الجاري على الأساليب المخصوصة به، فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب<sup>(٢)</sup> المعروفة، فإنه حينئذ لا يكون شعراً إنما هو كلام منظوم، لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور، وكذا أساليب المنشور لا تكون للشعر. فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون<sup>(٣)</sup> شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء، لأنهما لم يجريا على أساليب العرب [ظ ٢٩٩/٢] فيه.

وقولنا في آخذ: الجاري على أساليب العرب، فصل له عن شعر غير العرب من الأمم، عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم؛ ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك، ويقول مكانه<sup>(٤)</sup>: الجاري على الأساليب المخصوصة.

وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول: اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها: الحفظ من جنسه، أي: من جنس

١ - أي: هو مجرد بيان للحقيقة، وليس فصلاً له عن شيء آخر كما هو الشأن في العنصرين السابقين، فإن كلا منهما فصل، أي: يفصل الشعر عن شيء آخر. (د. وافي).

٢ - في ن: الشعر.

٣ - في ن: يسمى.

٤ - أي: أن الذي لا يرى غير العرب ممن يقول الشعر، يذهب إلى أن شعر المتنبي والمعري ليس من أساليب شعر العرب. أي أنه لا يحقق الشروط الموضوعة لشعرهم.

شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجريز وأبي نواس وحبيب<sup>(١)</sup> والبحري والرضي وأبي فراس. وأكثره شعر كتاب الأغاني، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله، والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء. ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قلَّ حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحن القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ. وربما يقال: إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة إذ هي صادة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة.

ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار، وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام<sup>(٢)</sup> ونشاط، فذلك أجمع له، وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.

**قالوا:** وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر، وفي هؤلاء الحمام.

وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء، ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة، وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.

**قالوا:** فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر، ولا يكره نفسه عليه. وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضها، ويبنى الكلام عليها [ظ. ٣٠/١] إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها، فربما تجيء نافرة قلقة. وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به. فإن كل بيت مستقل بنفسه، ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء.

وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد. ولا يضمن به على الترك إذا لم يبلغ



الإجادة، فإن الإنسان مفتونٌ بشعره، إذ هو نبات فكره، واختراع قريحته. ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفضح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية، فليهجرها، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وقد حذر أئمة اللسان عن المولد وارتكاب الضرورة<sup>(١)</sup>. إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة.

ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده؛ وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم.

وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم، وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً، واشتغل<sup>(٢)</sup> الذهن بالغوص عليها، فمنع الذوق عن استيفاء مُدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي إسحاق<sup>(٣)</sup> ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر، والحاكم بذلك هو الذوق. وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي<sup>(٤)</sup> من الألفاظ والمقصر<sup>(٥)</sup>، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة، فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً، فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة، كقولهم: النار حارة، والسماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طرفان، ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب، ولا يحذق فيه إلا الفحول، وفي القليل على العُسْرِ<sup>(٦)</sup>، لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك.

١ - أي: حرموا استخدام الألفاظ المولدة، وهي التي استحدثها المولدون، وحرموا ارتكاب الضرورة أي: تغيير إعراب الكلمة أو بنيتها مثلاً لضرورة الشعر. وفي ن: حذر أئمة اللسان المولد من ارتكاب الضرورة.

٢ - في ن: استعمل.

٣ - هو إبراهيم بن أبي الفتح ولد ببلدة شقرة، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر، سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣. وفي ن: أبو بكر. خطأ. مترجم في سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٥١).

٤ - الحوشي: الغامض من الكلام.

٥ - المقصر من الألفاظ: الذي لا يؤدي المعنى المطلوب بتمامه. وقد رجح الدكتور وافي أنها محرفة عن المقعر. وقعر في كلامه تعبيراً، وتقرر: تشدق وتكلم بأقصى فمه، ويطلق مجازاً على التكلف والبحث عن الغريب من الألفاظ.

٦ - في ن: العشر.

وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل الضرع يَدُرُّ بالامتراء<sup>(١)</sup>. ويحفُّ ويغور بالترك [ظ. ٣٠٠/٢] والإهمال. وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق. وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. وهذه نبذة كافية والله المعين.

وقد نظمَ الناسُ في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجبُ فيها. ومن أحسن ما قيل في ذلك، وأظنه لابن رشيق<sup>(٢)</sup>:

من صنوف الجهال منه لقينا  
كان سهلاً للسامعين مينا  
وخسيس الكلام شيئاً ثميناً  
رون للجهل أنهم يجهلوننا  
ن وفي الحق عندنا يعذروننا  
وإن كان في الصفات فنونا  
وأقامت له الصدور المتونا  
تتمنى لو<sup>(٣)</sup> لم يكن أن يكونا  
كاد حسنا يبين للناظرينا  
والمعاني ركن فيها عيونا  
يتحلى بحسنه المنشدوننا  
رمت فيه مذاهب المسهبينا<sup>(٤)</sup>  
وجعلت المديح صدقاً مينا  
وإن كان لفظه موزوننا  
عبت فيه مذاهب المرفئينا<sup>(٥)</sup>

لعن الله صنعة الشعر ما إذا  
يؤثرون الغريب منه على ما  
ويرون المحال معنى صحيحاً  
يجهلون الصواب منه ولا يد  
فهم عند من سوانا يلامو  
إنما الشعر ما يناسب في النظم  
فأتى بعضه يشاكل بعضاً  
كل معنى أتاك منه على ما  
فتناهى من البيان إلى أن  
فكان الألفاظ منه وجوه  
قائماً في المرام حسب الأمانني  
فإذا ما مدحت بالشعر حراً  
فجعلت النسب سهلاً قريباً  
وتنكبت ما يُهَجَّن<sup>(٥)</sup> في السمع  
وإذا ما قرضته<sup>(٦)</sup> بهجاء

١ - مرى الناقة يمرها: مسح ضرعها، كما مرأها.

٢ - ليس لابن رشيق، وإنما هو للناسي أبي العباس من شعراء عصر بني بويه. واسمه علي بن عبد الله بن وصيف. (د. وافي).

٣ - في ن: و.

٤ - في ن: المشتبهنا.

٥ - في ن: تهجن.

٦ - في ن: عرضته.

٧ - في ن: (المربينا). والمرفث: المتلفظ بالفحش.

فجعلت التصريح منه دواء  
وإذا ما بكيت فيه على الغا  
حلت دون الأسى وذلك ماكا  
ثم إن كنت عاتبا شبت بالوع  
فتركت الذي عبت عليه  
وأصح القريض ما قارب النظر  
فإذا قيل أطمع الناس طرا  
ومن ذلك أيضا قول بعضهم<sup>(٨)</sup>:

الشعرُ ما قومت زيغ<sup>(٩)</sup> صدوره  
ورأيت بالإطنا ب شعْبَ صُدُوعِه  
وجمعتُ بين قرييه وبعيده  
وحمدت منه سحر أمرٍ يقتضي  
وإذا مدحت به جوادا ماجدا  
أصفيته بنفيسه ورصينه  
فيكون جزلا في اتساق<sup>(١١)</sup> صنوفه  
وإذا بكيت به الديار وأهلها  
وإذا أردت كناية عن رية  
فجعلت سامعه يشوب شُكُوكَه  
فإذا عبت على أخٍ في زلة  
فتركته مستأنسا بدماثة  
وإذا نبذت إلى الذي علقتها  
تيمتها بلطيفه ورقيقه  
وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها  
فيحول ذنبك عند من يعتده

وجعلت التعريض داءً دفيناً  
دين يوماً للبين والظاعينا  
ن من الدمع في العيون مصونا  
د وعيدا وبالصعوبة لينا  
حذراً آمناً عزيزاً مهيناً  
نم وإن كان واضحاً مستيناً  
وإذا ريم أعجز المعزينا

وشددت بالتهذيب أس متونه [ظ ٣٠١/١]  
وفتحت بالإيجاز عور عيونه  
وجمعت بين مُجمِّه ومَعينه<sup>(١٠)</sup>  
شبهاً به فقرينه بقرينه  
وقضيته بالشكر حق ديونه  
وخصصته بخطيره وثمانه  
ويكون سهلاً في اتفاق فنونه  
أجريت للمحزون ماء شؤونه  
باينت بين ظهوره وبطونه  
بشوته وظنونه بيقينه  
أدجحت شدته له في لينه  
مستأمناً لوعوثه وحزونه  
إذ صارمك بفاتنات شؤونه  
وشغفتها بخيئه وكمينه  
واشكت بين مخيله ومبينه  
عتباً عليه مطالباً يمينه

٨ - في ن: وهو الناشئ.

٩ - في ن: ربع.

١٠ - حجم البئر تراجع ماؤها، وأجمت كذلك فهي بحمة، وحجم الماء تركه يجتمع كأجمة. فالماء بحم. والماء المعين الظاهر الجاري على وجه الأرض، فهو ضد الحجم، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]. (د. و. ا. ي.).

١١ - في ن: مساق.

## ١- ٦- ٥٧- الفصل السابع والخمسون: في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

اعلم: أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ، لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها، وهي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر، ويتخلص من العُجْمَةِ التي رُبِّيَ عليها في جيله، ويفرضُ نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم. وذلك أنا قدمنا<sup>(١)</sup> أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات. والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأمَّا المعاني فهي في الضمائر. وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه، وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها [ظ ١/٣٠٢] آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء؛ كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد، والمعاني واحدة في نفسها. وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن، بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه. والله **﴿يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** [البقرة: ١٥١].

## ١- ٦- ٥٨- الفصل الثامن والخمسون:

في أن حصول هذه الملكة

بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا<sup>(١)</sup> أنه لا بدّ من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه، وكثرته من قَلَّتِهِ، تكونُ جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي<sup>(٢)</sup> أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابئ تكون ملكته أجدود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل<sup>(٣)</sup> أو ابن النبيه<sup>(٤)</sup> أو ترسل البيساني<sup>(٥)</sup> أو العماد الأصبهاني، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك. يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق.

وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها. وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جيلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات. واختلافها إنما هو باختلاف ما يردُّ عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج، فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها. والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدرّج كما قدمناه. فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريغها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والإنفراد عن الخلق ما استطاع، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه، وينقلب ربانياً، وكذا [ظ ١/٣٠٢] سائرهما.

١ - في الفصل الخمسين من هذا الباب وعنوانه: فصل في تعليم اللسان المضري.

٢ - حبيب هو أبو تمام. والعتابي هو شاعر من شعراء صدر الدولة العباسية، وهو من الطبقة الثانية من شعراء العباسيين أي من طبقة أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم لا من طبقة مخضرمي الدولتين كبشار. (د. وافي).

٣ - في ن: من المتأخرين.

٤ - هو علي بن محمد المعروف بابن النبيه، المتوفى ٦١٩هـ.

٥ - هو المعروف باسم القاضي الفاضل، وهو عبد الرحيم بن علي البيساني نسبة إلى بيسان بلد بالشام.

(د. وافي).

وللنفس لكل<sup>(١)</sup> واحد منها لون تتكيف به. وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها.

فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها، إنما تحصل بحفظ العالي في طبقة من الكلام. ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة. وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة. فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقي الحر من كلام العرب.

أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعهد، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له، وهو هذا:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين حديدها والبال

فقال لي عن البديهة: هذا شعر فقيه. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ فقال: من قوله: ما الفرق إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب. فقلت له: لله أبوك! إنه ابن النحوي.

وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك، لتخيرهم في محفوظهم، ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل، وانتقائهم الجيد من الكلام.

ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة، فقلت له: أجد استصعاباً عليّ في نظم الشعر متى رمت مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوطي قليلاً وإنما أتت - والله أعلم - من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات والرسم واستظهرتهما، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس، فامتلاً [ظ ٢/٣٠٢] محفوطي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعددت<sup>(٢)</sup> لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة مُعجباً

ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك؟!.

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سرُّ آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم. فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك، أرفع طبقة من البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلتهما، لكونها وكَّجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على<sup>(١)</sup> ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تنقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر<sup>(٢)</sup> بالبلاغة.

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا، وكان شيخ هذه الصناعة، أخذ بسبَّته عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشَّلَوَّين<sup>(٣)</sup>، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه. فسألته يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين. ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه. فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري! فقلت: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه. وذكرت له هذا الذي كتبت. فسكت معجباً. ثم قال لي: يا فقيه، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يؤثر محلي، ويُصيخ في مجالس التعليم إلى قولي، ويشهد لي [ظ ٣٠٣/١] بالنباهة في العلوم، والله خلق الإنسان وعلمه البيان.

## ١- ٦- ٥٩- الفصل التاسع والخمسون:

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع  
وكيفية جودة المصنوع أو قصوره

اعلم: أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأمّا إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن البلاغة. وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من لغة العرب وصارت كالقوانين.

فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المُسندين بشروط وأحكام هي جلّ قوانين العربية. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإضمار وإظهار، وتقييد وإطلاق، وغيرها؛ يفيد الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد، وبالمختاطبين حال التخاطب<sup>(١)</sup> بشروط وأحكام هي قوانين لفن يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة، فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني، لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد. وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمّل الذي هو في عداد الموات. ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال الذهن بين المعاني بأصناف الدلالات. لأن التركيب يدلّ بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه فيكون فيه مجازاً إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر في موضعه. ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة، كما تحصل في الإفادة وأشدّ؛ لأن في جميعها ظفراً بالدلول من دليله؛ والظفر من أسباب اللذة كما علمت. ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيورها صناعة وسموها بالبيان وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها، وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت. فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزءا البلاغة، وبها كمال الإفادة والمطابقة لمقتضى الحال [ظ ٣٠٣/٢]. فما قصر من هذه التراكيب عن المطابقة وكمال الإفادة فهو مقصر عن البلاغة، ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم، وأجدر به ألا يكون

١ - أي: تدلّ على الأمور والمعاني التي تحيط بالإسناد من خارج وضع الجملة والتي تحيط بالمختاطبين حال التخاطب. (د. وافي).



عريباً؛ لأن العربيَّ هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال، فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ثم اعلم أنهم إذا قالوا: الكلام المطبوع؛ فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته، من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط، بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السَّجِيَّة التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة؛ وكأنها تعطيها رونق الفصاحة، من تنميق الأسجاع، والموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام، والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات، ليقع التجانس بين الألفاظ والمعاني، فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع، وحلاوة وجمال، كلها زائدة على الإفادة.

وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل: ﴿والليل إذا يغشى، والنَّهار إذا تجلَّى﴾ [الليل: ١ - ٢]. ومثل: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ [الليل: ٥ - ١٠] إلى آخر التقسيم في الآية، وكذا: ﴿فأما من طغى، وأثر الحياة الدنيا...﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١] إلى آخر الآية. وكذا: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤]. وأمثاله كثيرة. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها.

وكذا وقع في كلام الجاهلية منه لكن عفواً من غير قصد ولا تعمُّد. ويقال: إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون فوقع لهم عفواً وقصداً، وأتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالعجب.

وقيل: إن أول من ذهب إلى معاناتها بشار بن برد وابن هرمة. وكانا آخر من يستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم اتبعهما كلثوم بن عمرو والعتابي ومنصور النَّمِرِي<sup>(١)</sup> ومسلم ابن الوليد وأبو نواس. وجاء على آثارهم حبيب والبحري. ثم ظهر ابن المعتز فحتم على البديع والصناعة أجمع.

ولنذكر مثلاً من المطبوع الخالي من الصنعة، مثل قول قيس بن ذريح:  
وأخرج من بين اليسوت لعلني      أحدث عنك النفس في السرِّ خالياً  
وقول كثير [ظ ١/٣٠٤]:

وإني وتهيامي بعزة بعد ما      تخليت عما بيننا وتخلت  
لكالمرجي ظل الغمامة كلما      تبوأ منها للمقبل اضمحلت

فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً.

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة، الذي جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم، ونسجوا على منوالهم، وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها. وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة، على أنها غير داخلة في الإفادة، وإنما هي تعطي التحسين والرونق. وأما المتقدمون من أهل البديع فهي عندهم خارجة عن البلاغة، ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها، وهي رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له وأدباء الأندلس.

وذكر<sup>(١)</sup> في استعمال هذه الصنعة شروطاً منها: أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منها. وأما العفو فلا كلام فيه، لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان؛ لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات. وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر. وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه.

سمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلقيني وكان من أهل البصر في اللسان، والقريحة في ذوقه يقول: إن من أشهى ما تقترحه علي نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من يتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره وقد عوقب بأشد العقوبة ونودي عليه. يحذر بذلك تلاميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة فيكلفون بها ويتناسون البلاغة.

ثم من شروط استعمالها عندهم: الإقلال منها، وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيق وغيره.

وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي منفق<sup>(٢)</sup> اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعة إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من محسنات الكلام ومزيناته. فهي بمثابة الخيلان في الوجه، يحسن بالواحد والاثنين منها [ظ ٤٣٠/٢]، ويقبح بتعدادها.

١ - أي: ذكر المتقدمون والمتأخرون.

٢ - والمعنى أنه يرجع إليه الفضل في إشاعة علوم اللسان العربي.

وعلى نسبة الكلام المنظوم الكلام<sup>(١)</sup> المنشور في الجاهلية والإسلام. كان أولاً مرسلًا، معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه، شاهدة موازنة بفواصله من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة؛ حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقنية وأتى من ذلك بالعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية. وإنما حملته عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منشور المتأخرين، ونسي عهد الترسيل، وتشابهت السلطانيات بالإخوانيات، والعرييات بالسوقيات، واختلط المرعي بالهملي.

وهذا كله يدل على أن الكلام المصنوع بالمعانة والتكلف قاصر عن الكلام المطبوع، لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة. والحاكم في ذلك الذوق. والله خلقكم وعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿البقرة: ٢٣٩﴾.

## ١-٦-٦٠- الفصل الستون: في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم: أن الشعر كان ديواناً للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب منافسين<sup>(١)</sup> فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديابجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حَوْلِهِ<sup>(٢)</sup>، حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم كما فعل امرؤ القيس ابن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات. ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والتثر زماناً.

ثم استقر ذلك، وأونس الرشد من الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه. فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه. وكان لعمر ابن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقاماتٌ فيه عالية وطبقة مرتفعة، وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقفُ لاستماعه معجباً به، ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة، وتقرب إليهم العرب [ظه ١/٣٠] بأشعارهم يمتدحونهم بها، ويمجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم، ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان، والعرب يطالبون ولدهم بحفظها. ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدرًا من دولة بني العباس. وانظر ما نقله صاحب العقد<sup>(٣)</sup> في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محفوظته منه.

١ - في ن: متنافسين.

٢ - يعني لاختبار قدرته. وفي ن: حوكة.

٣ - (١٣٨/٦ - ١٤٤).

ثم جاء خَلَفٌ<sup>(١)</sup> من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان، وإنما تعلموه صناعة، ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم، طالين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض، كما فعله حبيب والبحري والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم وهلم جرا.

فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو للكدية<sup>(٢)</sup> والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً. وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين. وتغير الحال، وأصبح تعاطيه هجنة في الرئاسة، ومذمة لأهل المناصب الكبيرة، والله مقلب الليل والنهار.

١ - في ن: خلق.

٢ - في ن: الكذب.

## ١-٦-٦١- الفصل الحادي والستون: في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم: أنَّ الشعر لا يختصُّ باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغة، سواءً كانت عربية أو عجمية. وقد كان في الفرس شعراء، وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أوميروس الشاعر وأثنى عليه، وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون. ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دوت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومارجها من العجمة، فكانت لجيل<sup>(١)</sup> العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد، واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات [٥٣٠/٢] والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر، فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة، وهي لغة مضر الذين كانوا فحولهم وفرسان ميدانه، حسبما اشتهر بين أهل الخليفة، بل كل جيل، وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم.

فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون<sup>(٢)</sup>.

فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم.

وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والخوراني والقيسي. وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية، ثم يغنون به. ويسمون

١ - في ن: تحيل.

٢ - نسب المرأة نسباً ونسباً شيب بها في الشعر.

الغناء به باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد.

ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يميّزون به معصباً<sup>(١)</sup> على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرجع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين، وهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون. والكثير من المتحليين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستكرون<sup>(٢)</sup> هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره. وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود وللمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل، والنصب دالاً على المفعول، أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر، صحت الدلالة، وإذا [ظ ١/٣٠٦] طابقت تلك الدلالة للمقصود<sup>(٣)</sup> ومقتضى الحال، صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك.

وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب، في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول، والمبتدئ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب.

فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم ييكي الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنهما مع قومها إلى المغرب:

تري كبدي حرّى شكت من زفيرها  
يرد أعلام البدو يلقي عصيرها  
عذاب ودائع تلف الله خبيرها  
طوى وهند جافى ذكيرها  
على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها  
على شول لعه والمعافى جريرها

قال الشريف ابن هاشم علي  
يعز للأعلام أين ما رأت خاطري  
وماذا شكات الروح مما طرا لها  
بحسن قطاع عامري ضميرها  
وعادت كما حواراه في يد غاسل  
تجاذبوا اثنين والنزع بينهم

١ - في ن: مفضناً.

٢ - في ن: يستنكر صاحبها.

٣ - في ن: المقصود.

وباتت دموع العين ذارفات لشأنها  
تدارك منها الجلم حذراً ورادها  
لصب من القيعان من جانب الصفا  
ها أيقنى من سنابلت غدوة  
ونادى المنادي بالرحيل وشدوا  
وشد لها الأدهم دياب بن غانم  
وقال لهم حسن بن سرحان: غربوا  
ويد لص وسده سها بالتسامح  
غدرني زمان السفح من عابس الرغى  
غدرني وهو زعماً صديقي وصاحبي  
ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم  
حرام على باب بغداد وأرضها  
فصدق درمي من بلاد ابن هاشم  
وباتت نيران العذارى قوادح  
ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعد اليفرنى<sup>(١)</sup> مقارعهم بإفريقية وأرض الزاب  
ورثاؤهم له على جهة التهكم:

تقول فتاة الحى سعدى وهاضها  
أيا سائلي<sup>(٢)</sup> عن قبر الزناتي خليفة  
تراه العالي الواردات وفوقه  
وله يميل الفور من سائر النقا  
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفة  
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم  
يا جارنا مات الزناتي خليفة  
وبالأمس رحلناك ثلاثين مرة

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

شبيه دوار السواني يديرها  
مروان يجي متراكباً من صبيرها  
عيون ولحان البرق في غدِيرها  
بغداد ناحت مني حتى فقيرها  
وعرج غاربها على مستعيرها  
على يد ماضي وليد مقرب ميرها  
وسوقوا النجوع إن كان ناهو غيرها  
وباليمين لا يجعلوا في صغيرها  
وما كان يرمي من حمير وميرها  
وناليه ما من درمي ما يديرها  
لخير البلاد المعطشة ما يخيرها  
داخل ولا عائد له من بعيرها  
على الشمس أو حول الغطا من هجيرها  
فجروا بجرحان فيبروا أسيرها  
ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعد اليفرنى<sup>(١)</sup> مقارعهم بإفريقية وأرض الزاب

لها في الطعون الباكرين<sup>(٢)</sup> عويل [ظ ٢/٣٠٦]  
خذ النعت مني لا تكون هبيل  
من الربط عيساوي بناه طويل  
به الواد شرقاً واليراع دليل  
قد كان لأعقاب الجياد سليل  
جراحه كأفواه المزداد تسيل  
لا ترحل إلا أن يريد رحيل  
وعشراً وستاً في النهار قليل

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

١ - في ن: البقري.

٢ - في ن: ولها في طعون الباكرين.

٣ - في ظ: يا سائل.



أيا شكر ما أحناشي عليك رضاش  
ورانا عريب عربا لابسين غماش  
كما صادفت طعم الزناد طشاش  
لنجد ومن عمر بلاده عاش  
هي العرب ما ردنا لهن طياش

ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زناتة عليه:

وأي جميل ضاع قبلي جميلها  
عناني لحجه ما عناني دليلها  
من الخمر قهوة ما قدر من يميلها  
غريباً وهي مدوخه عن قبيلها  
وهي بين عرب غافلاً عن نزيلها  
شاكي بكبد بادياً من عليلها  
وقووا وشداد الحوايا جميلها  
والبدو ما ترفع عمود يقيها  
يضل الحر فوق التصاوي نصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة<sup>(١)</sup> أحد بطون رياح وأهل الرياسة فيهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك إفريقية من الموحدين:

حرام على أجفان عيني منامها  
وروحاً هيأني طال ما في سقامها  
غداوية ولها بعيداً مرأها [ط ١/٣٠٧]  
سوا عابل الوعسا بوالي خيامها  
محمونة بها ولها صحيح غرامها  
لواني من الحور الخلايا حسامها  
عليها من السحب السواري غمامها  
عيون عذارى المزن عذبا جمامها

تبدى لي ماضي الجياد وقال لي  
أياشكر عدي ما بقي ود بيننا  
نحن عدينا فصادفوا ما قضى لنا  
باعدنا ياشكر عدي لبر سلامة  
إن كانت بنت سيدهم بأرضهم  
وأي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم  
أنا كنت أنا وياه في زهو بيتنا  
وعدت كأني شارب من مدامة  
أو مثل شططامات مضيون كبدها  
أناها زمان السوء حتى ادوخت  
كذلك أنا مما لحاني من الوحى  
وأمرت قومي بالرحيل وبكروا  
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا  
تظل على أحداث الثنايا سواري

يقول وفي نوح الدجا بعد ذهبة  
أيا من لقي حالف الوجد والأسى  
حجازية بدوية عريية  
مولعة بالبدو لا تألف القرى  
عمان ومشتهيا بها كل سرية  
ومرباعها عشب الأراضى من الحيا  
تسوق بسوق العين مما تداركت  
وماذا بكت بالما وماذا تبلحطت

كأن عروس البكر لاحت ثيابها  
 فلاة ودهنا واتساع ومنة  
 ومشروبها من مخض ألبان شولها  
 تعاتب على الأبواب والموقف الذي  
 سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيا  
 فكافأته بالود مني وليتني  
 ليالي أقواس الصبا في سواعدي  
 وفرسى عديداً تحت سرجي مسافة  
 وكم من رداح أسهرتني ولم أرى  
 وكم غيرها من كاعب مرجحة  
 وصفقت من وجدي عليها طريحة  
 ونار بخطب الوجد توهج في الحشى  
 أيا من وعدتي الوعد هذا إلى متى  
 ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة  
 بنود ورايات من السعد أقبلت  
 أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتي  
 يجرعاً عتاق النوق من عوذ شامس  
 إلى منزل بالجعفرية للذي  
 وتلقى سراة من هلال بن عامر  
 بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغرباً  
 عليهم ومن هو في حماهم تحية  
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي  
 الليل يعاتب أقاتلهم أولاد مهلهل ويحيب شاعرهم شبل بن مسكيانة [ظ ٣٠٧/٢] ابن  
 مهلهل<sup>(١)</sup> عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

قوارع قيعان يعاني صعاها

يقول وذا قول المصاب الذي نشا

يريح بها حادي المصاب إذا انتفى  
 محبرة مختارة من نشادنا  
 الغريلة عن ناقد في غضونها  
 وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى  
 أشبل وجنينا من حباك طرائفا  
 فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم  
 لقولك في أم المتين بن حمزة  
 أما تعلم أنه قامها بعد ما لقي  
 شهياً من أهل الأمر يا شبل خارق  
 شواهد طفاها أضمرت بعد طففيه  
 وأضرم بعد الطفيتين التي صحت  
 كما كان هو يطلب على دا تجنبت  
 ومنها في العتاب:

وليداً تعاتبوا أنا أغنى لأنني  
 علي ونا ندفع بها كل مبضع  
 فإن كانت الأملاك بغت عرايس  
 ولا نقرها إلا رهاف ودبل  
 بني عمنا ما نرتضي الذل علة  
 وهي عالماً بأن المنايا تقيها  
 ومنها في وصف الطعائن:

بظعن قطوع البيد لا تحتشى العدا  
 ترى العين فيها قل لشبل عرائف  
 ترى أهلها غض الصباح أن يقلها  
 لها كل يوم في الأرامى قتائل  
 ومن قولهم في الأمثال الحكيمة:

وطلبك في الممنوع منك سفاهة

فنونا من إنشاد القوافي عرابها  
 تحدى بها تام الوشا ملتها بها  
 محكمة القيعان دابي ودابها  
 قوارع من شبل وهذي جوابها  
 فراح يريح المومنين الغنا بها  
 سوى قلت في جمهورها ما أعابها  
 وحامي حماها عادياً في حرابها  
 رصاص بني يحيى وعلاق دابها  
 وهل ريت من جاء للوغى واصطلى بها  
 وأثنا طفاها حاسر إلا أهابها  
 نعاساً إلى بيت المنا يُفتدى بها  
 رجال بني كعب الذي يتقى بها

غنيت بعلاق الثنا واغتصابها  
 بالأسياف نتناش العدا من رقابها  
 علينا بأطراف القنا اختصابها  
 وزرق السبايا والمطايا ركابها  
 تسير كألسنه الحناش انسلابها  
 بلا شك والدنيا سريع انقلابها

فتوق بحوبات مخوف جنابها  
 وكل مهاة محتظيها ربابها  
 بكل حلوب الجوف ما سد بابها  
 ورا الفاجر المزروح عفواً صبابها

وصدك عن صد عنك صواب [ظ ١/٣٠٨]

ألا ريت<sup>(١)</sup> ناساً يغلقوا عنك بابهم  
 وظهور المطايا يفتح الله باب  
 ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب إلى برجم:  
 فشايب وشباب من أولاد برجم  
 ومن قوله يعاتب إخوانه في موالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة  
 السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما  
 قرب من عصرنا:

مقالة قوال وقال صواب  
 هريجاً ولا فيما يقول ذهاب  
 ولا هرج ينقاد منه معاب  
 حزينة فكر والحزين يصاب  
 جرت من رجال في القبيل قراب  
 بني عم منهم شايب وشباب  
 مصافة ود واتساع جناب  
 كما يعلموا قولي يقينه صاب  
 ضراباً وفي حر الظهير كتاب  
 خواطر منها للنزير وهاب  
 نقهناه حتى ما عنا به ساب  
 مراراً وفي بعض المرار يهاب  
 غلق عنه في أحكام السقائف باب  
 على كره مولى الباقي ودياب  
 لهم ما خططنا للفجور نقاب  
 نفقنا عليها سبقاً ورقاب  
 على أحكام والي أمرها له ناب  
 بني كعب لاواها الغريم وطاب  
 وقمنا لهم عن كل قيد مناب  
 ربيها وخيراته عليه نصاب

يقول بلا جهل فتى الجود خالد  
 مقالة حيران بذهن ولم يكن  
 تهجست معناً نابهاً لا حاجة  
 وليت بها كبدي وهي نعم صاحبه  
 تفوهت بادي شرحها عن مآرب  
 بني كعب أدنى الأقربين لدننا  
 جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم  
 وبعضهم ملنا له عن خصيمه  
 وبعضهم مرهوب من بعض ملكنا  
 وبعضهم جانا جريحاً تسمحت  
 وبعضهمو نظار فينا بسوة  
 رجع ينتهي مما سفهنا قبيحه  
 وبعضهمو شاكي من أوغاد قادر  
 فصمناه عنه واقتضى منه مورد  
 ونحن على دافي المدى نطلب العلا  
 وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما  
 ومهد من الأملاك ما كان خارج  
 بردع قروم من قروم قبيلنا  
 جرينا بهم عن كل تأليف في العدا  
 إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة

وركبوا السبايا المثلثات من أهلها  
وساقوا المطايا بالشر إلانسوا له  
وكسبوا من أصناف السعيا ذخائر  
وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا  
وكانوا لنا درعاً لكل مهمة  
خلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا  
كيسوا الحي جلباب البهيم لستره  
لذلك منهم حابس منا دار القنا  
يظن ظنوناً ليس نحن بأهلها  
خطا هو ومن واتاه في سوّ ظنه  
فوا عزوتي إن الفتى بو محمد  
وبرحت الأوغاد منه ويحسبوا  
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع  
وهو لو أعطى ما كان للرأي عارف  
وإن نحن ما نستاملوا عنه راحة  
وإن ما وطا ترشيش يضياق وسعها  
وإنه منها عن قريب مفاصل  
وعن فائنات الطرف بيض غوانج  
يتيه إذا تاهوا ويصبو إذا صبوا  
يضلوه من عدم اليقين وربما  
بهم حاز له زمه وطوع أوامر  
حرام على ابن تافركين ما مضى  
وإن كان له عقل رجيح وفطنة  
وأما البدا لا بدها من فياعل  
ويحمى بها سوق علينا سلاعه  
ويمسي غلام طالب ريح ملكنا  
أيا واكليين الخبز تبغوا إدامه

ولبسوا من أنواع الحرير ثياب  
جماهير ما يغلو بها يجلاب  
ضحام لحزات الزمان تصاب  
وإلا هلالاً في زمان دياب [ظ ٣٠٨/٢]  
إلى أن بان من نار العدو شهاب  
ملامه ولا دار الكرام عتاب  
وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب  
ذهل حلمي إن كان عقله غاب  
تمنى يكن له في السماح شعاب  
بالإثبات من ظن القبائح عاب  
وهوب لآلاف بغير حساب  
بروحه ما يحيى بروح سحاب  
لقوا كل ما يستأملوه سراب  
ولا كان في قلة عطاه صواب  
وأنه بأسهام التلاف مصاب  
عليه ويمشي بالفزوع لزاب  
خنوج عناز هوالها وقباب  
ربوا خلف أستار وخلف حجاب  
بحسن قوانين وصوت رباب  
يطارح حتى ما كأنه شاب  
ولذة مأكول وطيب شراب  
من الود إلا ما بدل بحراب  
يلجج في اليم الغريق غراب  
كبار إلى أن تبقى الرجال كباب  
ويحمار موصوف القنا وجعاب  
ندوماً ولا يمسي صحيح بناب  
غلطتو أدمتوا في السموم لباب

ومن شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رئاسته:

محيرة كالدرد في يد صانع  
أباحها منها فيه أسباب ما مضى  
غدا منه لام الحي حيين وانشطت  
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينا  
وإلا كأبراص التهامي قوادح  
وإلا لكان القلب في يد قابض  
لما قلت سما من شقا البين زارني  
ألا يا ربوع كان بالأمس عامر  
وغيد تداني للخطا في ملاعب  
ونعم يشوف الناظرين التحامها  
وعرود باسمها ليدعو لسربها  
واليوم ما فيها سوى اليوم حولها  
وقفنا بها طورا طويلا نسألها  
ولا صح لي منها سوى وحش خاطري  
ومن بعد ذا تدنى لمنصور بو علي  
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم  
زواجر ما تنقاس بالعود إنما  
ولا قستموا فيها قياساً يدلکم  
وعانوا على هلكاتكم في ورودها  
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم  
إلا عناهمو لو ترى كيف رأيهم  
خلو القنا وبقوا في مرقب العلا  
وحق النبي والبيت وأركانه الذي  
كبر الليالي فيه إن طالت الحيا

إذا كان في سلك الحرير نظام  
وشاء تبارك والضعون تسام  
عصى هؤلاء<sup>(١)</sup> صنباً عليه حكام  
تبرم على شوك القتاد برام  
وبين عواج الكانفات ضرام  
أتاهم بمنشار القطيع غشام  
إذا كان ينادي بالفراق وخام  
ييحى وحله والقطين لمام  
دجى الليل فيهم ساهر ونيام  
لنا ما بدا من مهرق وكظام  
وإطلاق من شرب المها ونعام  
ينوح على أطلال لها وخيام  
بعين سخيها والدموع سجام  
وسقمي من أسباب إن عرفت أو هام  
سلام ومن بعد السلام سلام  
دخلتم بحور غامقات دهام  
لها سيلات على الفضأ وأكام  
وليس البحور الطاميات تعام  
من الناس عدمان العقول لثام  
قرار ولا دنيا لهن دوام  
مثل سرور فلاة ما لهن تمام  
مواضع ما هيا لهم بمقام  
وما زارها في كل دهر وعام  
يذوقون من حط الكساع مدام

ولا برها تبقى البوادي عواكف  
 وكل مسافه كالسد إياه عابر  
 وكل كميث يكتعص عض نابه  
 وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة  
 بالأبطال والقود الهجان وبالغنا  
 أتجحدني وأنا عقيد نفودها  
 ونحن كأضراس الموافي بنجعكم  
 متى كان يوم القحط يا مير أبو علي  
 كذلك بوجهم اشترى نعت داحض<sup>(٢)</sup>  
 وخلي رجلاً لا يرى الضيم جارهم  
 ألا يقيموها وعقد بؤسهم  
 وكم ثار طعنها على البدو سابق  
 فتى ثار قطار الصوى يومنا على  
 وكم ذا يجيبوا أثرها من غنيمة  
 وإن جافاً جفوه الملوك ووسعوا  
 عليكم سلام الله من لسن فاهم  
 ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران  
 لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس  
 تغريهم بطلب ثاره تقول:

تقول فتاة الحي أم سلامه  
 تبيت بطول الليل ما تألف الكرى  
 على ما جرى في دارها وبو عيالها  
 فقد تأوي شهاب الدين يا قيس كلبهم  
 أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني  
 أيا حين تسريح الذوائب واللحي

بكل رديني مطرب وحسام  
 عليها من أولاد الكرام غلام  
 يظل يصارع في العنان لجام  
 وتولدنا من كل ضيق كظام  
 لها وقت وجنات البدور زحام  
 وفي سن رحى للحروب علام  
 حتى يقاضوا من ديون غرام  
 يلقي سعايا صائرين قدام<sup>(٢)</sup> [ظ ٢/٣٠٩]  
 وخلي الجياد العاليات تسام  
 ولا يجمعوا بدهي العد زمام  
 وهم عذر عنه دائماً ودوام  
 ما بين صحاصيح وما بين حسام  
 لنا أرض ترك الظاعين زمام  
 حليف النبا سماع كل غيام  
 غدا طبعه يجدي عليه قيام  
 ما غنت الورقا وناح حمام  
 ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران  
 لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس

بعين أراع الله من لا رثى لها  
 موجعة كان الشقا في مجالها  
 بلحظة عين البين غير حالها  
 ونمتوا عن أخذ التار ماذا مقالها  
 ويبرد من نيران قلبي ذبالها  
 ويض العذارى ما حميتوا جمالها

## ١-٦-٦٢-١- الموشحات والأزجال للأندلس

وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قُطْرهم، وتهذبت مناجيهِ وفنونه، وبلغَ التَّمْيِيقُ فيه الغايةَ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد، وتجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه.

وكان<sup>(١)</sup> المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري<sup>(٢)</sup> [ظ ١/٣١٠] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عمر<sup>(٣)</sup> أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكرٌ، وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزّاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المزية. وقد ذكر الأعلام البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عباده القزّاز فيما اتفق له من قوله:

بدر تَم	شمس ضحا	غصن نقا	مسك شم
ما أتم	ما أوضحا	ما أورقا	ما أتم
لا حرم	من لحا	قد عشقا	قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة<sup>(٤)</sup> وشاخ من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف. وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه، شاعر<sup>(٥)</sup> المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في موشحته<sup>(٦)</sup> التي طارت له حيث يقول:

العود قد ترنم بأبدع تلحين  
وسقت المذانب رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول:

١ - من هنا بداية النص المنقول من كتاب (المقتطف من أزاهر الطرف) الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشحات والأزجال.

٢ - في الأصل: مقدم بن معافر الفريري. خطأ صحح من المقتطف لابن سعيد.

٣ - في الأصل: أبو عبد الله. خطأ.

٤ - في المقتطف: يشق غباره. ويصحان.

٥ - في الأصل: ابن رافع رأس شعراء المأمون. خطأ. صحح من المقتطف ص ٤٧٧.

٦ - في المقتطف: الموشحة.



تخطر ولا<sup>(١)</sup> تسلم عساك المأمون مروع الكئاب يحيى بن ذي النون  
ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة<sup>(٢)</sup> المثلثين فظهرت لهم البدائع. وسابق فرسان  
حلبتهم الأعمى التطيلي<sup>(٣)</sup> ثم<sup>(٤)</sup> يحيى بن بقي<sup>(٥)</sup>. وللتطيلي من الموشحات المهذبة قوله:  
كيف السبيل إلى صبري وفي العالم أشجان  
والركب في وسط الفلا بالخرْد النواعم قد بان  
وذكر<sup>(٦)</sup> غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من  
الوشاحين اجتمعوا في مجلس بأشبيلية، وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأنق فيها  
فتقدم الأعمى التطيلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:  
ضاحك عن جمان سافر عن بدر<sup>(٧)</sup>  
ضاق عنه الزمان وحواه صـدري  
خرق ابن بقي موشحته وتبعه الباكون.  
وذكر<sup>(٨)</sup> الأعلَم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحاً على قول  
إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق  
أطلعته الغرب فأرنا مثله يا مشرق  
وكان في عصرهما من الموشحين<sup>(٩)</sup> المطبوعين أبو بكر الأبيض. وكان في عصرهما  
أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة<sup>(١٠)</sup>. ومن الحكايات  
المشهورة<sup>(١١)</sup>: أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض  
قيناتِه موشحته:

- 
- ١ - في المقتطف: ليس. وفي ن: لم.
  - ٢ - في المقتطف: مدة.
  - ٣ - في الأصل: الطليلي. صحح من المقتطف. وهو أبو جعفر أحمد بن عبد الله التطيلي، نسبة إلى تطيلة،  
مدينة شرقي قرطبة.
  - ٤ - في المقتطف: وفرسا رهان حلبتهم الأعمى التطيلي ويحيى..
  - ٥ - إلى هنا ينتهي الاقتباس من المقتطف، ثم يعود بعد قليل ليقتبس منه.
  - ٦ - في المقتطف: سمعت غير واحد.
  - ٧ - في جميع النسخ: دور. صحح من المقتطف.
  - ٨ - في المقتطف: سمعت الأعلَم..
  - ٩ - في المقتطف: الوشاحين.
  - ١٠ - في المقتطف: المشهورة.
  - ١١ - في المقتطف: المورخة.

جرّر الذّيل أيّما جرّ وصلّ الشُّكر منه بالسُّكر<sup>(١)</sup>  
[ظ. ٢/٣١٠] فطرب الممدوح لذلك. فلما ختمها بقوله:

عقّد الله راية النصر  
لأمير العُلا أبي بكر  
فلما طرّق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويّ صاح: واطرباه. وشقّ ثيابه وقال: ما أحسن  
ما بدأت وما ختمت، وحلفَ بالأيّمان المُغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب.  
فخاف الحكيم سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

وذكر أبو الخصيب<sup>(٢)</sup> بن زهر: أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زهر ذكر أبي بكر  
الأبيض الوشّاح المتقدّم الذكر، فغضّ منه بعض الحاضرين فقال: كيف تغضّ ممن يقول:

ما لذّي شراب <sup>(٣)</sup> راح	على رياض الأقاح
لولا هضمّ الوشّاح	إذا انثنى <sup>(٤)</sup> في الصّباح
أو في الأصمّل	أضحى يقول
مما للشّمول	لطمّت خدي
وللشّمال	هبّت فمال <sup>(٥)</sup>
غصن اعتدال	ضمّنه بُردى <sup>(٦)</sup>
مما أبّاد القلوبا	يمشي لنا مسّزياً
يا لحظه ردّ نوباً	ويام ماء الشّنيا
بـرد غليل	صبّ عليه
لا يسّتحيل	فيه عن عهد
ولا يـزال	في كلّ حال
يرجـو الوصال	وهو في الصّدّة

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرفٍ قال المسن  
ابن دوريدة<sup>(٧)</sup>: رأيت حاتم بن سعيد [يقبل رأسه] على هذا الافتتاح<sup>(٨)</sup>:

- ١ - في المطبوع: الشكر منك بالشكر.
- ٢ - في الأصل: الخطاب. صحح من المقتطف.
- ٣ - في المقتطف: شرب.
- ٤ - في الأصل: أسى. وفي نسخة من المقتطف: إذ يثنى.
- ٥ - في الأصل: فمالي. صحح من المقتطف.
- ٦ - لم تذكر الأبيات التالية في المطبوع من المقتطف.
- ٧ - في الأصل: الحسن بن دوريدة. صحح من المقتطف.
- ٨ - في المقتطف: هذه البداية.

شمسٌ قارنت<sup>(١)</sup> بدرأ<sup>٢</sup> راح<sup>(٣)</sup> ونديهم  
وابن هردوس<sup>(٣)</sup> الذي له:

يا ليلة الوصل والسعود  
وابن موهل<sup>(٤)</sup> الذي له:

ما العيد في حلة وطاق  
وإنما العيد في التلاقي  
وشهم طيب  
مع الحبيب

وأبو إسحاق الدويني. قال ابن سعيد<sup>(٥)</sup>: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: إنه دخل على ابن زهر وقد أسنَّ، وعليه زيُّ البادية، إذ كان يسكنُ بحصنِ سبتة<sup>(٦)</sup>، فلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس<sup>(٧)</sup>، وجرت المحاضرة، فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحل الدجى يجري من مقلّة الفجر على الصباح  
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح  
فتحرك ابن زهر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر. قال: ومن تكون؟ [ظ ١/٣١١]  
فعرّفه. فقال: ارتفع، فوالله ما عرفتكَ.

قال ابن سعيد: وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهر، وقد شرقت موشحاته وغربت.

قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن زهر: لو قيل لك: ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح؟ فقال: كنت أقول:

ما للمولاه من سكره لا يفوق ياله سكران  
من غير خمرة ما للكئيب المشوق يندب الأوطان

١ - في الأصل: قاربت. صحح من المقتطف.

٢ في المقتطف: كأس.

٣ - في المغرب (٢/٢١٠): هردوس!!.

٤ - في المغرب (٢/٣٩٠): ابن موهل الشاطي!!

٥ - هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي، صاحب كتاب: المقتطف من أزاهر الطرف. (٦١٠-٦٨٥هـ). ومن كتابه هذا استقى المصنف معلوماته عن الموشحات، وقد طبع بتحقيق د. سيد حنفي حسنين في الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣. وقد حقق هذا الفصل من قبل الدكتور عبد العزيز الأهواني ونشره في أعمال مؤتمر ابن خلدون ١٩٦٢. وصواب العبارة: (قال ابن سعيد: وسمعت أبا إسحاق الدويني يقول: سمعت أبا الحسن...).

٦ - في المقتطف: استبه.

٧ - في المقتطف: حيث وجد.

هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا  
 إذ<sup>(٨)</sup> يسـتفاد من النسيم الأريج مسك دارينا  
 وإذا يكـفاد<sup>(٩)</sup> حسن المكان البهيج أن يحيننا  
 نهـر أظله دوح عليه أنيق مورك فينان  
 والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان  
 واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله:  
 يفوق سـهم كل حين بما شئت<sup>(٣)</sup> من يد وعين  
 وينشد في القصيد<sup>(٢)</sup>:

علقت<sup>(٥)</sup> مليح علمت رامي فليس يخل<sup>(٦)</sup> ساع من قتال  
 ويعمل بذى العينين منامي ما يعمل فينا بذى النبال<sup>(٧)</sup>  
 واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهر بن الغرس. قال ابن سعيد: ولما سمع ابن زهر قوله:  
 لله ما كان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك المروج  
 ثم انعطفنا على فم الخليج نفـض في حانه<sup>(٨)</sup> مسك الختام  
 عن عسجد زانه صافي المدام<sup>(٩)</sup> وردا الأصيل تطويه كف الظلام  
 هـال ابن زهر: أين كنا نحن من هذا الرداء؟

وكان معه في بلده مطرف. أخبر ابن سعيد، عن والده: أن مطرفاً هذا دخل على ابن  
 الغرس فقام له وأكرمه فقال: لا تفعل، فقال ابن الغرس: كيف لا أقوم لمن يقول:  
 قلوب تصـابـت بألحـاظ تصـيب قلوب  
 فقل كيف تبقـى بلا وجد قلوب قلوب

٨ - في ن: أو.

٩ - في ن: واد بكاء.

٣ - في الأصل: تفوق بينهم كل حين بما سبب... صحح من المقتطف.

٢ - في المقتطف: القضيتين.

٥ - في المقتطف: خلقت.

٦ - في المقتطف: نخل.

٧ - في المقتطف: ونعمل بذى العينين متاعي ما تعمل ادى بالنبال.

٨ - ليس في المقتطف: في حانه.

٩ - في المقتطف: عن عسجدي المدام.

وبعد هذا ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الراس<sup>(١)</sup> أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه. فقال له ابن حزمون: (لا يكون)<sup>(٢)</sup> الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلف. قال: على مثل ماذا؟ قال: على مثل قولي [ظ ٢/٣١١]:

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل  
أو هل يرى عن هواك سالي قلب<sup>(٣)</sup> العليل  
وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيد: كان والدي يعجب بقوله:  
إن سيل الصباح في الشرق عاد بحراً في أجمع الأفق  
فتداعت نواذب الورق أتراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد، عن والده: سمعت سهل بن مالك يقول: يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك:

واحسرتا لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى  
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضا  
أعائق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم<sup>(٤)</sup>

قال: وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مره. فما سمعته يقول له: لله درك إلا في قوله:

قسماً بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر  
جمد الصبح ليس يطرد ما ليلي فيما أظن غد  
صح يا ليل أنك الأبد

أو قطعت<sup>(٥)</sup> قوادم النسر فنجوم<sup>(٦)</sup> السماء لا تسري  
ومن موشحات ابن الصابوني قوله:  
ما حال صب ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا ويلتاه الطيب  
عامله محبوبه باجتئاب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

١ - في المقتطف: الدارس.

٢ - في المقتطف: (ما).

٣ - في المقتطف: قلبي.

٤ - في المقتطف: أعائق بالوهم..... وألثم بالفكر....

٥ - في المقتطف: فقصة.

٦ - في المقتطف: أم نجوم.

جفا جفوني النوم لكني  
وذو الوصال اليوم قد غرني  
فلست باللائم من صدني  
واشتهر بين أهل العُدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة:  
يبد الإصباح قدحت زناد الأنوار من<sup>(١)</sup> بحامر الزهر  
وابن خزر البجائي وله من موشحة:

تغر الزمان موافق<sup>(٢)</sup>

حباك منه بابتسام<sup>(٣)</sup>

[ظ ١/٣١٢] ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها، فمنها قوله:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى  
فهو في نار وخفق مثل ما  
وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس  
والمغرب لعصره وقد مر ذكره فقال:

قلب صب حله عن مكنس  
لعبت ريح الصبا بالقبس

يا زمان الوصل بالأندلس

في الكرى أو خلسة المختلس

ينقل الخطو على ما يرسم

مثل ما يدعو الوفود الموسم

فتغور الزهر<sup>(٤)</sup> فيه تبسم

كيف يروي مالك عن أنس

يزدهي منه بأبهى ملبس

بالدجى لولا شُموس الغرر

مُستقيم السير سعد الأثر

أنه مرّ كلمح البصر

هجم الصبح هجوم الحرس

جاذك الغيث إذا الغيث همي

لم يكن وصلك إلا حلماً

إذ يقود الدهر أشتات المنى

زمرّاً بين فرادى وثنى

والحيا قد جلل الروض سنا

وروى النعمان عن ماء السما

فكساه الحسن ثوباً معلماً

في ليال كتمت سرّ الهوى

مال نجم الكأس فيها وهوى

وطرّ ما فيه من عيب سوى

حين لذّ النوم منّا أو كما

١ - في المقتطف: في.

٢ - في المقتطف: الموافق.

٣ - إلى هنا ينتهي اقتباس ابن خلدون بتصرف من المقتطف، ثم يعود إليه بعد ذكر موشحة ابن سهل وابن الخطيب.

٤ - في ن: فسنا الأزهار.

غارت الشُّهْبُ بنا أو ربما  
 أي شيء لا مريء قد خلصا  
 تنهب الأزهار فيه الفرصا  
 فإذا الماء تناجي والخصا  
 تبصر الورد غيورا برما  
 وترى الآس لبيبا فهما  
 يا أهيل الحي من وادي الغضا  
 ضاق عن وجدي بكم رجب الفضا  
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى  
 واتقوا الله وأحيوا مغرما  
 حبس القلب عليكم كرماء  
 وبقلي منكمو مقرب  
 قمر أطلع منه المغرب  
 قد تساوي محسن أو مذنب  
 ساحر المقلعة معسول اللوى  
 سد السهم فأصمى إذ رمى  
 إن يكن جار وخاب الأمل  
 فهو للنفس حبيب أول  
 أمره معتمل ممتل  
 حكم اللحظ بها فاحتكما  
 ينصف المظلوم ممن ظلما  
 ما لقلي كلما هبت صبا  
 كان في اللوح له مكتبا  
 جلب الهم له والوصبا  
 لاعج في أضلعي قد أضرمما

أثرت فينا عيون النرجس  
 فيكون الروض قد كنن فيه  
 أمنت من مكره ما تنقيه  
 وخلا كل خليل بأخيه  
 يكتسي من غيظه ما يكتسي  
 يسترق السمع<sup>(٥)</sup> بأذني فرس  
 وبقلي سكن أنتم به  
 لا أبالي شرقه من غربه [ظ ٢/٣١٢]  
 تنقذوا عانيكم<sup>(٦)</sup> من كربه  
 يتلاشى نفسا في نفس  
 أفترضون خراب الحبس  
 بأحاديث المنى وهو بعيد  
 شقوة المغربي به وهو سعيد  
 في هواه بين وعد وعيد  
 جال في النفس مجال النفس  
 بفؤادي نهبة المفترس  
 وفؤاد الصب بالشوق يذوب  
 ليس في الحب محبوب ذنوب  
 في ضلوع قد براها وقلوب  
 لم يراقب في ضعف الأنفس  
 ويجازي البر منها والمسي  
 عادة عيد من الشوق جديد  
 قوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾  
 فهو للأشجان في جهد جهيد  
 فهي نار في هشيم اليبس

٥ - في ن: يسرق الدمع.

٦ - في ن: عائدكم.

لم تدع من مهجتي إلا الدما  
سَلَمي يا نفس في حكم القضا  
واتركي ذكرى زمان قد مضى  
واصرفي القول إلى المولى الرضى  
الكريم المنتهى والمنتهى  
ينزل النصْرُ عليه مثَلَمَا

كبقاء الصُّبح بعد الغَلَسِ  
واعمري [في] الوقت برجعي ومتاب  
بين عُتبي قد تقضت وعتاب  
مُلهم التوفيق في أم الكتاب  
أسد السَّرج وبذر المجلس  
ينزل الوحي بروح القدس

وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات. ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري [التي قد] اشتهرت شرقاً وغرباً وأولها [ظ ٣١٣/١]:

(١) حبيبي ارفع حجاب النور  
تنظر المسك على الكافور (٢)  
كللي يا سحب تيجان الربى  
واجعلي سوارها منعطف

عن العذار  
في جلنار  
بالحلي  
الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوه فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة.

وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قبلت قبله بالأندلس، لكن لم يظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد المثلثين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق. قال ابن سعيد: ورأيت أزراله مروية ببغداد أكثر مما رأيته بحضور المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الأشيبلي إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال:

وعريش قد قام على دكان بحال رواق

١ - في المطبوع: (يا). وليس في المقتطف.

٢ - في المقتطف: يقطر بمسك على كافور..



وأسد قد ابتلع ثعبان  
 وفتح فمه<sup>(٤)</sup> بحال إنسان  
 وانطلق يجري على الصفاح  
 ولقي الصبي<sup>(٥)</sup> الفواح  
 وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ويتناب نهرها<sup>(٦)</sup>، فاتفق  
 أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام هذا الشأن، وقد ركبوا في النهر للنزهة ومعهم غلام  
 جميل الصورة من سروات أهل البلد ويوتهم، وكانوا مجتمعين في زورق للصيد، فنظموا  
 في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البليد فقال:  
 يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتوا  
 تراه قد حصل مسكين حملاتو [ظ ٢/٣١٣] تقلق وذاك<sup>(٧)</sup> أمر عظيم صاباتو  
 توحش الجفون الكحل إذا عاتو  
 وذيك الجفون الكحل أبلاتو<sup>(٨)</sup>  
 ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي:  
 نشب والهوى من لج فيه ينشب  
 مع العشق قام في مالهو<sup>(٩)</sup> يلعب  
 ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني:  
 نهار مليح تعجبني أوصافو  
 والمعلمين يقولوا بصفصافو  
 ثم قال أبو بكر بن مرتين:  
 لحق يريد حديث بقالي<sup>(١٢)</sup> عاد  
 في الواد لحمير والمنزه والصاد<sup>(١٣)</sup>

٣ - في المقتطف: من.

٤ - في المقتطف: فمو.

٥ - في المقتطف: به.

٦ - في المقتطف: وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصباح.

١ - في الأصل: بيت بنهرها.

٦ - في المقتطف: فات ... ضم العشق لشهات

٧ - في المطبوع: فقلق ولذلك. وفي المقتطف: ... مسكين في محناب [أي فخ] .. يقلق وكذلك ..

٨ - في المقتطف: ... الكحال إن غاب ... الكحال أبلات.

٩ - في المقتطف: بال.

١٠ - في المقتطف: نهاران .. أوصاف ..... حولي طافو.

١١ - في المقتطف: والمقلين [اسم طائر] يقول: نعم في صفصاف والبورى يقول: أخرى في مقلات.

١٢ - في الأصل: تعالي.

١٣ - في المقتطف: في الود تحير والنزها والصيد.

تنبه<sup>(١٤)</sup> حيتان ذيك الذي يصطاد  
ثم قال أبو بكر بن قزمان:  
إذا شمر أكمامو يرميها<sup>(٣)</sup>  
وليس مرادو أن يقع فيها  
وكان في عصرهم بشرق الأندلس محلف<sup>(٤)</sup> الأسود. له محاسن من<sup>(٥)</sup> الزجل منها قوله:  
قد كنت مشبوب واختشيت الشيب  
يقول فيه:  
حين تنظر الخد الشريق<sup>(٨)</sup> البهي  
يا طالب الكيما في عيني هي  
وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغيس<sup>(٩)</sup>، وقعت له العجائب في هذه الطريقة،  
فمن قوله في زجله المشهور:  
ورذاذ دق<sup>(١٢)</sup> يــــــنزل  
فترى الواحد يفضض  
والنبات يشرب ويسكر  
وتريد تحيي إلينا  
ومن محاسن أزجاله قوله:  
لاح الضياء والنجوم حيارى  
شربت ممزوجاً من قراعا

قلوب الورى هي في شبيكاتو<sup>(١٥)</sup>  
ترى البورى<sup>(٤)</sup> يرشق لذيك الجيها  
إلا أن يقبل يديداً تو<sup>(٥)</sup>  
وردني ذا العشق لأمر صعب  
تنتهي في الحمرة إلى ما<sup>(٩)</sup> تنتهي  
تنظر بها الفضة ترجع<sup>(١٠)</sup> ذهب  
وقعت له العجائب في هذه الطريقة،  
وشعاع الشمس يضرب  
وترى الآخر يذهب  
والغصون ترقص وتطرب  
ثم تستحي وتهرب<sup>(١٣)</sup>  
فقم بنا ننزع الكسل  
أحلى هي عندي من العسل [ظ ١/٣١٤]

١٤ - في المقتطف: لسينه. أي ليست هي.

١٥ - في المقتطف: شبيكات.

٣ - في المقتطف: ليرميها.

٤ - نوع من السمك. ويرشق: يقفز.

٥ - في المقتطف: واش مراد... باديدات.

٤ - في المقتطف: يخلف.

٥ - في المقتطف: في.

٨ - في الأصل: الشريف.

٩ - في المقتطف: بالحرما لما.

١٠ - في المقتطف: الفضا وترجع..

٩ - في المقتطف: مدغليس.

١٢ - في المقتطف: ورذاذان دق..

١٣ - في المقتطف: تستحي وترجع.

دور يا من يلمني كما تقلد      قلـدك الله بما تقول  
يقول بأن الذنوب مولد      وأنه يفسد العقول  
لأرض الحجاز يكون لك أرشد      إـش ما ساقك لذا الفضول  
مر أنت للحج والزيارا      ودعني في الشرب منهمل  
من ليس لو قدره ولا استطاع      النية أبلغ من العمل  
وظهر بعد هؤلاء بإشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل  
الذي أوله هذا:

من عاند التوحيد بالسيف يحق      أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه المجمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله:  
يا ليتني<sup>(١)</sup> إن رأيت حبيبي      أقبل أدنو<sup>(٢)</sup> بالرسيلا

ليس أخذ عنق الغزيل      وأسرق<sup>(٣)</sup> فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الأدب. ثم من بعدهم لهذه العصور  
صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب، إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية من غير  
مدافع. فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزج الأكواس واملأ لي تجدد      ما خلق المال إلا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششترى منهم:

بين طلوع ونزول اختلطت      بالغزول ومضني من لم يكن

وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى:

البعد عنك يا بني أعظم مصابي      وحين حصل لي قربك نسيت قرايبي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش.

وكان إماماً في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله:

لاح الضياء والنجوم حيارى

بقوله:

١ - في المقتطف: بالنبي.

٢ - في المقتطف: افتل أذن..

٣ - في المقتطف: لأنه أخذ.. وسرق...

حل المحون يا أهل الشطارا  
 جددوا كل يوم خلاع  
 [ظ ٢/٣١] إليها تنخلعوا<sup>(٤)</sup> في سبيل دور  
 وصل بغداد واجتياز النيل  
 وطاقتها أصلح من أربعين ميل  
 لم يلتق الغيار أمّاراً  
 وكيف ولا فيه موضع رفعاً  
 وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر، وفيها نظمهم،  
 حتى إنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكن بلغتهم العامية، ويسمونه  
 الشعر الزجلي، مثل قول شاعرهم:  
 دهر لي<sup>(٢)</sup> بعشق جفونك وسنين  
 حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع  
 الدموع ترشرش والنار تلتهب  
 خلق الله النصاري للغزو  
 وكان من المجيدين لهذه الطريقة لأول  
 قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر:  
 طل الصباح قم يا نديمي نشرب  
 سبيكة الفجر أحلت شفقاً  
 ترى غباراً خالص أبيض نقي  
 وسقوا مكتوا<sup>(٤)</sup> عند البشر  
 فهو النهار يا صاحبي للمعاش  
 والليل نصاً للقبل والعناق  
 جاد الزمان من بعد ما كان بخيل  
 كما جرّع مر وفيما قد مضى  
 منذ حلت الشمس بالحمل  
 لا تجعلوا اسمها يمل  
 على حضرة ذاك النبات  
 أحسن عندي في ذيك الجهات  
 إن مرت الريح عليه وجات  
 ولا بمقدار ما يكتحل  
 إلا ويسرح فيه النحل  
 وأنت لا شفقة ولا قلب يلين  
 صنعة السكة ما بين الحدادين  
 والمطارق من شمال ومن يمين  
 وأنت تغزو في قلوب العاشقين  
 هذه المئة الأديب أبو عبد الله الألويسي. وله من  
 ونضحك من بعد ما نظرب  
 في ميلق الليل وقوم قلبو<sup>(٣)</sup>  
 فضة هو لكن الشفق ذهبو  
 نور الجفون من نورها يكسب  
 عيش الفتى فيه بالله ما أطيب  
 على سرير الوصل يتقلب  
 واش كمقلته من يريه عقرب  
 يشرب سواه ويأكل طيبو

٤ - في ن: يتخلعوا.

٢ - في ن: لي دهر.

٣ - في ظ: شفق في ملىق اللين فقم قلبوا.

٤ - في ظ: فتنفقوا مسكتو.

قال الرقيب: يا أدباً اش ذا  
وتعجبوا عذالي من ذا الخير  
يعشق مليح إلا رقيق الطباع  
اش<sup>(٥)</sup> يربح الحس إلا شاعر أديب  
وإنما الكاس فحرام هو حرام<sup>(٦)</sup>  
وذا الذي يخلبن حسنو ولم  
وأهل العقل والحنكس<sup>(٨)</sup> والمجون  
ظلي بهي كمان<sup>(١٠)</sup> تطفي الجمر  
غزال بهي تنظر قلوب الأسود  
وثم تحيهم إذا تبسم فيضحكوا  
فويم كالحاتم وتغر نقي  
جوهري<sup>(١٢)</sup> مرجان أي عقد يا فلان  
وشارب أخضر يريد لاش يريد  
تسيل<sup>(١٣)</sup> دلال مثل جناح الغراب  
على بدن أبيض في لون الخليب  
وزوج نهيدات<sup>(١٥)</sup> ما علمت قبلها  
تحت العكاكن منها خضراً رقيق

في الشرب والعشق ترى تنجبو  
فقلت: يا قوم مما تتعجبوا؟  
علاش تكفروا بالله أو تكتبوا  
يفض بكمرو ويدع ثيب  
على الذي ما يدر كيف يشرب  
نقدر يحسن ألفاظ أن نخلب<sup>(٧)</sup>  
تغفر ذنوبهم هذا<sup>(٩)</sup> إن أذنبا [ظه ٣١/١]  
وقلبي في جمر الغضى تلهب  
وبالوهم<sup>(١١)</sup> قبل النظر تذهب  
ويفرحوا من بعد ما يندبوا  
خطيب الأمة للقبل يخطب  
قد صففه الناظم ولم يثقبو  
من شبهه بالمسك قد عيبو  
ليالي هجري منه يستغربو  
لم قط راعي في الغنم<sup>(١٤)</sup> يجلبو  
ديك الصلا يا ريت ما أصلبو  
من رقتو يخفى إذا تطلبوا

٥ - في ن: ليس.

٦ - في ن: أما الكاس فحرام نعم هو حرام.

٧ - في ن:

ويد الذي يحسن حسابه ولم

٨ - في ن: العقل والفكر..

٩ - في ن: يغفر...لهذا..

١٠ - في ن: فيها بدل: كمان.

١١ - في ن: وما لهم.

١٢ - في ن: و.

١٣ - في ن: يسبل.

١٤ - في ن: بلون... ما قط... للغنم.

١٥ - في ن: هندات.

يقدر يحسن ألفاظ أن يجلبوا

أرق هو من ديني فما نقول  
أي دين بقالي معك وأي عقل  
تحمل أرداف ثقال كالرقيب  
إن لم تنفس غدر أو تنقشع  
يصير إليك المكان حين تحي  
محاسنك مثل خصال الأمير  
عماد الأمصار وفصيح العرب  
بجملته<sup>(١٧)</sup> العلم انفراد والعمل  
ففي الصدور بالمرح ما أظعنوا  
من السماء يحسد في أربع صفات  
الشمس نورو والقمر همتو  
يركب جواد الجود ويطلق عنا  
من خلعتو نلبس كل يوم  
نعمتو تظهر على كل من يجيه  
قد أظهر الحق وكان في حجاب  
وقد بنى بالسر ركن التقى  
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه  
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة  
إذا جبد سيفو ما بين الردود  
وهو سمي المصطفى والإله  
تراه خليفة أمير المؤمنين

خذ ترى عبدك شيء ما أكذبو<sup>(١٦)</sup>  
من يتبعك من ذا وذا تسلب  
حين ينظر العاشق وحين يرقب  
في طرف ديسا والبشر تطلب  
وحين تغيب ترجع في عيني تبو  
أو الرمل من هو الذي يحسب  
فمن فصاحة لفظه تتقرب  
ومع بديع الشعر ما أكتب  
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو  
فمن يعد قلبي أو يحسبو  
والغيث جودو والنجوم منصبو  
ن الأغنيا والجنند حين يركب  
بطيب ثناه العسلي تطيوا<sup>(١٨)</sup>  
قاصد ووارد قط ما خيوا  
اش<sup>(١٩)</sup> يقدر الباطل بعد ما يحجو  
من بعد ما كان الزمان خربو  
فمع سماحة وجهو ما أسيو  
غلاب هو لا شيء في الدنيا من يغلب [٢/٣١٥]  
فليس شيء يغني من يضربو  
للسلطنة اختار واستنخبو  
يقود جيوشو ويزين موكبو

١٦ - في ن:

جديد عتبك حق ما أكذبو

أرق هو من ديني فيما نقول

١٧ - في ن: يحمل.

١٨ - في ن:

منه بنات المعالي تطيوا

١٩ - في ن: لاش.

نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا  
يطلعوا في الجحد ولا يغربوا  
وفي التواضع والحياء يقربوا  
وأشرقت شمسهم ولاح كوكبوا  
يا شمس خدر مالها مغربوا

لذي الإمارة تخضع الرؤوس  
بيته بقي بدور الزمان  
وفي المعالي والشرف يبعدوا  
والله يقيهم ما دار الفلك  
وما يغني ذا القصيد في عروض

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالמושح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد. وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح، ولم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب، مطلعها:

على الغصن البستان قريب الصباح  
وماء الندى يجري بثغر الأقاح  
سر الجواهر في نحر الجوار  
يحاكي ثعابين حلقت بالثمار  
ودار الجميع بالروض دور السوار  
ويجمل نسيم المسك عنها رياح  
وجر النسيم ذيلو عليها وفاح  
قد ابتلت أرياشو بقطر الندى  
قد التف من توبو الجديد في ردا  
ينظم سلوك جواهر ويتقلدا  
جناحاً توسد والتوى في جناح  
منها ضم منقاره لصدره وصاح

إدى<sup>(١)</sup> ما تزال تبكي بدمع سفوح [ظ ٣١٦/١]

بلا دمع نبقي طول حياتي نوح  
ألفت البكا والحزن من عهد نوح  
انظر جفون صارت بحال الجراح  
يقول عناني ذا البكا والنواح

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام  
وكف السحر يمحو مداد الظلام  
باكرت الرياض والطل فيها افتراق  
ودمع النواغر ينهرق انهراق  
لوا بالغصون خلخال على كل ساق  
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمّام  
وعاج الصبا يطلّى بمسك الغمام  
رأيت الحمام بين الورق في القضيّب  
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب  
ولكن بما أحمر وساقو خضيّب  
جلس بين الأغصان جلسة المستهام  
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام  
قلت: يا حمام أحرمت عيني المهجوع  
قال لي: قد بكيت حتى صفت لي الدموع  
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع  
كذا هو الوفا وكذا هو الذمام  
وأنتم من بكى منكم إذا تم عام

قلت: يا حمام لو خضت بحر الضنى  
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا  
اليوم نقاسي الهجر كم من سنا  
ومما كسا جسمي النحول والسقام  
لو جتني المنايا كان يموت في المقام  
قال لي: لو رقدت لأوراق الرياض  
وتخضبت من دمعي وذاك البياض  
أما طرف منقاري حديثو استفاض

كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون  
ما كان يصير تحتك فروع الغضون  
حتى لا سبيل جملة تراني العيون  
أخفاني نحولي عن عيون اللواح  
ومن مات بعد يا قوم لقد استراح  
من خوفي عليه ودا النفوس للفراد  
طوق العهد في عنقي ليوم التناد  
بأطراف البلد والجسم صار في الرماد

فاستحسنه أهل فاس، وولعوا به، ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم، ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكارى والملمعة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها. فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفوس  
فها كل من هو كثير الفلوس  
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير  
من ذا ينطبق صدري ومن ذا يصير  
حتى يلتجي من هو في قومو كبير  
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس  
اللي صارت الأذنان أمام الرؤوس  
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان

ييهي وجوهاً ليس هي باهيا  
ولوه الكلام والرتبة العاليا  
ويصغر عزيز القوم إذ يفتقر  
يكاد ينقع لولا الرجوع للقدر  
لمن لا أصل عندو ولا لو خطر  
ويصبغ عليه توب فراش صافيا  
وصار يستفيد الواد من الساقيا

ما يدروا على من يكثرؤا ذا العناد<sup>(١)</sup> [ظ ٢/٣١٦]  
ولو رأيت كيف يرد الجواب  
أنفاس السلاطين في جلود الكلاب  
هم ناحيا والمجد في ناحيا  
وجوه البلد والعمدة الراسيا

إدى<sup>(٢)</sup> صار فلان واليوم يصبح بابو فلان  
عشنا والسلام حتى رأينا عيان  
كبار النفوس جداً ضعاف الأسوس  
يرو أنهم - والناس يروهم تيوس -  
ومن مذهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته:  
أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك

١ - في ن: العتاب.

٢ - في ن: اللي.



ما منهم مليح عاهد إلا وخان  
 يهبوا على العشاق ويتمنعوا  
 وإن واصلوا من حينهم يقطعوا  
 مليح كان هويتو وشت قلبي معو  
 ومهدت لو من وسط قلبي مكان  
 وهون عليك ما يعتريك من هوان  
 حكمتوا علي وارترضيت بو أمير  
 يرجع مثل در حولي بوجه الغدير  
 وتعلمت من ساعا بسبق الضمير  
 ويحتل في مطلقو لو أن كان  
 ويمشي بسوق كان ولو بأصبهان  
 حتى أتى على آخرها.

وكان منهم علي بن المؤذن سلمان.

وكان لهذه العصور القرية من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف  
 بالكفيف أبدع في مذاهب هذا الفن.

ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى  
 إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيهم  
 على غزاتهم إلى إفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة، يقول في مفتتحها، وهو من أبدع  
 مذاهب البلاغة في الإشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه، ويسمى براعة استهلال:

بنواصيها<sup>(١)</sup> في كل حين وزمان [ظ ٣١٧/١]

سبحان مالك خواطر الأمرا

وإن عصيناه عاقب بكل هوان

إذ طعنناه أعطفهم لنا نصرا<sup>(٢)</sup>

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

فالراعي عن رعيته مسؤول

كن مرعى قل ولا تكن راعي

للإسلام والرضا السني المكمول

واستفتح بالصلاة على الداعي

واذكر بعدهم إذا تحب وقول

على الخلفاء الراشدين والأتباع

١ - في ن: ونواصيها.

٢ - في ن: إن طعنناه عطفهم لنا قسرا.

أحجاجاً تحللوا الصحرا  
 عسكر فاس المنيرة الغرا  
 أحجاجاً بالنبي الذي زرم  
 عن جيش الغرب حين يسألکم  
 ومن كان بالعطايا يزودکم  
 قام قل للسد صادف الجزرا  
 ويزف كردوم تهب في الغبرا  
 لو كان ما بين تونس الغربا  
 مبني من شرقها إلى غربا  
 لا بد الطير أن تجيب نبا  
 ما أعوصها من أمور وما شرا  
 لجرت بالدم وانصدع حجرا  
 أدر لي بعقلك الفحصاص  
 إن كان تعلم حمام ولا رقاص  
 تظهر عند المهيمن القصاص  
 إلا قوم عارين فلا سترأ  
 ما يدروا كيف يصوروا كسرأ  
 أمولاي أبو الحسن خطينا الباب  
 فقنا كنا على الجريد والزاب  
 ما بلغك من عمر فتى الخطاب  
 ملك الشام والحجاز وتاج كسرى

ودوا سرح البلاد مع السكان  
 وين سارت بو عزائم السلطان  
 وقطعتم لو كلاكل البيدا  
 المتلوف في إفريقيا السودا  
 ويدع برية الحجاز رغدا  
 ويعجز شوط بعد ما يخفان  
 أي: ما زاد غزاهم سبحان  
 وبلاد الغرب سد السكندر  
 طبقاً بجديد أو ثانياً بصفر  
 أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر  
 لو تقرا كل يوم على الديوان  
 وهوت الخراب وخافت الغزلان  
 وتفكر لي بخاطرك جمعاً  
 عن السلطان شهر وقبله سبعا  
 وعلامات تنشر على الصمعا  
 مجهولين لا مكان ولا أمكان  
 وكيف دخلوا مدينة القيروان  
 قضية سيرنا إلى تونس  
 واش لك في أعراب إفريقيا القوبس  
 الفاروق فاتح القرى المولس [ظ ٣١٧/٢]  
 وفتح من إفريقيا وكان

رد ولدت لو كره ذكرى ونقل فيها تفرق الإخوان

دور

هذا الفاروق مردي الأعوان  
وبقت حمى إلى زمن عثمان  
لمن دخلت غنائمها الديوان  
وافترق الناس على ثلاثة أمرا  
فإذا كان ذا في مدة البررا<sup>(٣)</sup>  
صرح في إفريقيا بهذا التصريح  
وفتحها ابن الزبير عن تصحيح  
مات عثمان وانقلب علينا الريح  
وبقي ما هو للسكوت عنوان  
اش نعمل في أواخر الأزمان

دور

وأصحاب الحضر في مكناساتا<sup>(٤)</sup>  
تذكر في صحتها أياتاً  
إن مريّن إذا تكف براياتا  
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا  
قال لي: رأيت وأنا بهذا أدرى  
ويقول لك ما دهى المرينيا  
أراد المولى بموت ابن يحيى  
وفي تاريخ كانا وكيوانا  
شق وسطيح وابن مرانا  
لجدا وتونس قد سقط بنيانا  
عيسى بن الحسن الرفيع الشأن  
لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان  
من حضرة فاس إلى عرب دياب  
سلطان تونس وصاحب الأبواب

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه إلى آخر رحلته ومنتهى أمره مع أعراب إفريقية  
وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع.

وأما أهل تونس فاستحدثوا في الملعبة أيضاً على لغتهم الحضرية، إلا أن أكثره رديء  
ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته.

وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه: المواليا وتحتة فنون كثيرة يسمون منها:  
«القومما» «وكان وكان». ومنه مفرد ومنه في بيتين ويسمونه: دوييت على الاختلافات  
المعتبرة عندهم في كل واحد منها. وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان.

٣ - في نسخة: مسددة البررا.

٤ - في ظ: كتيباتا.

وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاؤوا بالعجائب، ومن أعجب ما علق بحفظي منه قول شاعرهم:

والدمما تنضح  
في الفلايمرح  
قلقت: ذا أقبح  
يكنون أصلح

هذا جراحى طرياً  
وقاتلي يا أحياء  
قالوا: ونأخذ بشارك  
اللى جر حتى يداوييني  
ولغيره:

قلقت: مفتون لا ناهب ولا سارق  
رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

طرقت باب الخبا قالت: من الطارق؟  
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق  
ولغيره:

وإن شكت الهوى قالت: فدتك العين  
ذكرتها العهد قالت لك: علي دين

عهدي بها وهي لا تأمن على البين  
لمن تعنى لها غيري غليم زين  
ولغيره في وصف الحشيش:

تغني عن الخمر والخمار والساقى  
خبيتها في الحشى طلت من أحداقي

خمره<sup>(١)</sup> صرف التي عهدي بها باقي  
قحبا ومن قحبها تعمل على إحراقى  
ولغيره:

كم توجد القلب بالهجران أوه أح  
كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

يا من وصالو لأطفال المحبة بح  
أودعت قلبي حوحو والتصير بح  
ولغيره:

جودي عليّ بقبلة في الهوى يا ميّ  
ما هكذا القطن يحشى فم من هو حي

ناديتها ومشبي قد طواني طيّ  
قالت: وقد لي كرت داخل فؤادي كي  
ولغيره:

ماط اللثام تبدى بدر في شرقو  
رجع هداانا بخيط الصبح من فرقو

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقوا<sup>(٢)</sup>  
أسبل دجى الشعر تاه القلب في طرقوا  
ولغيره:

١ - في ن: دي خمر.

٢ - في ن: برقة.... شرقه... طرقة.... فرقه.

يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجر  
وصيح في حيهم يا من يريد الأجر  
ولغيره:

عيني التي كنت أركم بها بانث  
وأسهم البين صابتي ولا فانت  
ولغيره:

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر  
غصن إذا ما انثنى يسبي البنات البكر  
ومن الذي يسمونه دوييت:

قد أقسم من أحبه بالباري  
يا نار شويقي به فاتقدي

أقف<sup>(١)</sup> على منزل أحبابي قبيل الفجر [ظ ٣١٨/٢]  
ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ترعى النجوم وبالتسهيذ اقتانت  
وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

غزال ييلي الأسود الضاريا بالفكر  
وإن تهلل فما للبدر عندو ذكر

أن يبعث طيفه مع الأسحار  
ليلاً ففساه يهتدى بالنار

واعلم أنَّ الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية، فلا الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر الأندلس والمغرب، لأنَّ اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكلُّ واحدٍ منهم مدرك لبلاغة لغته، وذائق محاسن الشعر من أهل جلده وفي ﴿خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ [الروم: ٢٢] آيات.

وقد كدنا نخرج عن الغرض، ولذلك عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأوَّل الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائل ما حسبناه كفاية، ولعلَّ من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ٢١٦ و ٢٣٢، آل عمران: ٦٦، النور: ١٩].

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه [ظ ٣١٩/١]: أتممت هذا الجزء المشتغل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مئة، ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة، وألحقت به من تواريخ العرب والبربر مما اخترته، ثم استوفيت — بعد ذلك في هذا الكتاب الملقب بالظاهري — خبر الدول في الخليقة والعالم، واستوعبته حسبما ذكرته في أوله وشرطته، وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم.

كمل الجزء الثاني من كتاب الظاهري في العبر بأخبار العرب والعجم والبربر. وبكمالها كملت المقدمة العلمية المذكورة في أوله.

يتلوه في الجزء الثالث الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجياهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة وإلى هذا العهد، وأخبار معاصريهم من أمم العجم.

والحمد لله حق حمده، وصلاته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبدته، وعلى آله وصحبه. [ظ ٣١٩/٢].

# فهارس الكتاب

## إعداد

جمانة محمد الدرويش

- |                                |                                 |
|--------------------------------|---------------------------------|
| ✻ فهرس الآيات القرآنية         | ✻ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة |
| ✻ البحار                       | ✻ السواحل                       |
| ✻ الجزر                        | ✻ الأنهار                       |
| ✻ البحيرات                     | ✻ الخلجان                       |
| ✻ الجبال                       | ✻ الأودية                       |
| ✻ الصحارى                      | ✻ القواعد                       |
| ✻ القصور                       | ✻ القلاع                        |
| ✻ الحصون                       | ✻ السدود                        |
| ✻ الغزوات                      | ✻ الأعلام                       |
| ✻ القبائل والجماعات            | ✻ الدول والبلدان                |
| ✻ الشعر                        |                                 |
| ✻ فهرس الموضوعات الجزء الأول.  |                                 |
| ✻ فهرس الموضوعات الجزء الثاني. |                                 |

## فهرس الآيات القرآنية

٢٢٨/١.....﴿٢٥٣﴾	سورة الفاتحة:
٤٦١ و ٢٦٥ و ٢١١/١.....﴿٢٨٢﴾	٣٨١ و ٢٠٨/٢.....﴿٧-٣﴾
٣٥٨/١.....﴿٣٤٧﴾	سورة البقرة:
سورة آل عمران:	٣٠٨/١.....﴿٢٩﴾
٢١٦ و ٢١٥/٢ و ٥٤٨/١.....﴿٧﴾	١٥٨/٢ و ٣٦٦/١.....﴿٣٠﴾
٢٥٢/٢.....﴿١٣﴾	٢٦٤/١.....﴿٦١﴾
٢٥١/١.....﴿٤٧﴾	٢٧٥/٢.....﴿١٠٢﴾
٣٦٣ و ١٧٠ و ١٠٦ و ١٢/٢	١٧٧/٢.....﴿١٠٦﴾
٤٤٦/٢.....﴿٦٦﴾	١٨١/٢.....﴿١٢٥﴾
٢١٤/٢ و ٤٤١ و ٣٥٦/١.....﴿٦٨﴾	١٨/٢.....﴿١٢٧﴾
٢٤٩/١.....﴿٧٦﴾	٤٠٥/٢.....﴿١٥١﴾
٣٤/٢ و ٣٢٨/١.....﴿٩٧﴾	٢٣٤/٢.....﴿١٨٩﴾
١٨٩/١.....﴿١١٠﴾	٧٦ - ٧٥/٢.....﴿٢١٢﴾
٤٦١/١.....﴿١٧٦﴾	١٩٥ و ١٠٧/١.....﴿٢١٣﴾
سورة النساء:	٣٤٨ و ٢٧٢ و ٢٢٤ و ٢١٣ و ٨٥ و ٢٧/٢ و
٢١٦/٢.....﴿٧﴾	٣٨٩ و ٣٨٤ و ٣٥٨ و
١٦٤/٢.....﴿١٧﴾	٤٤٦/٢.....﴿٢١٦﴾
٣٨٧/١.....﴿٤٠﴾	٤٤٦/٢ و ٢٣٧/١.....﴿٢٣٢﴾
٣٧٣ و ٣٦٩/١.....﴿٥٩﴾	٤١٢ و ٣٤٨/٢.....﴿٢٣٩﴾
١٦٤/٢.....﴿٩٢﴾	٥٤/٢.....﴿٢٤٥﴾
١٦٤/٢.....﴿١٠٤﴾	٣١١ و ٢٩١ و ٢٧٤/١.....﴿٢٤٧﴾
١٦٤/٢.....﴿١١١﴾	٨٤/٢ و ٢٧٢/١.....﴿٢٥١﴾



٣٣١/١.....﴿٨٧﴾

٢٨٠/٢.....﴿١١٨﴾

٣٥٢/١.....﴿١٥١﴾

٢١٦/٢.....﴿١٨٧﴾

## سورة الأنفال:

٤٤٩/١.....﴿٧﴾

٣٣٨/٢.....﴿٤٧﴾

٣١٣/١.....﴿٦٣﴾

## سورة التوبة:

٢٤٩/١.....﴿٤﴾

٢٤٩/١.....﴿٧﴾

٢٨٠/١.....﴿٣٣﴾

٤١/٢.....﴿١٢٩﴾

## سورة يونس:

٣٨٠/١.....﴿٢٥﴾

٣٣١/١.....﴿١٠٩﴾

## سورة هود:

٣٥٨/١.....﴿٤٠﴾

١٠٩/١.....﴿٤٦﴾

## سورة يوسف:

٢٥٥/١.....﴿١٤﴾

١٢٩ و ٥٦ و ٤١/٢ و ٣٢٧ و ٣١٥/١.....﴿٢١﴾

١٦٨ و

١٦٤/٢.....﴿١٧٠﴾

## سورة المائدة:

٢٢/٢.....﴿١﴾

٢٧٥/١.....﴿٢٢﴾

٢٧٥/١.....﴿٢٤﴾

٧٤/٢.....﴿٢٩﴾

٣١٧/١.....﴿٩٩﴾

٣١٧/١.....﴿١٠٥﴾

٣٣٨/٢.....﴿١١٠﴾

٣٥٨/١.....﴿١٢٠﴾

## سورة الأنعام:

٢٢٠/٢.....﴿٣﴾

٣٦١/١.....﴿١٦﴾

٣٦١/١.....﴿١٨﴾

٢٠٦/٢.....﴿٩١﴾

٤٤٨/١.....﴿٩٦﴾

٣٥٦/١.....﴿١٠٢﴾

٢٥١ و ٢٣٤/٢.....﴿١٣٧﴾

٣١٧/١.....﴿١٦٤﴾

٣٦٦/١.....﴿١٦٥﴾

٣٩٣/٢.....﴿٢١٦﴾

## سورة الأعراف:

٣٢٥ و ٢٢١/٢ و ٥٦٠/١.....﴿٤٣﴾

﴿٨٥﴾ ٢٨٥ و ٢٣٧ و ٢٣٤ و ٢٣٣ و ٢٠٦/٢ ..

سورة الكهف:

﴿٧٧﴾ ٢١٩/٢ ..

﴿١٠٣ - ١٠٤﴾ ٤١٠/٢ ..

سورة طه:

﴿٥٠﴾ ١٣٩ و ١٣٢/١ ..

﴿١١٤﴾ ٣٥٢/١ ..

سورة الأنبياء:

﴿٢٢﴾ ٣٢٩/١ ..

﴿٨٣﴾ ٣٥٢/١ ..

سورة الحج:

﴿٦﴾ ٣٩٩/١ ..

﴿٤٠﴾ ٣١٨/١ ..

﴿٤٧﴾ ٥٤٧/١ ..

سورة المؤمنون:

﴿٣٦﴾ ٣٤٤/٢ ..

﴿٩١﴾ ٢١٩/٢ ..

﴿١١٥﴾ ٣٦٤/١ ..

سورة النور:

﴿١٩﴾ ٤٤٦/٢ و ٥٤٣/١ ..

﴿٣٥﴾ ٢٥٥/٢ و ٤٦١/١ ..

﴿٤٠﴾ ٣٦٤/١ ..

﴿٧٦﴾ ٢٦٧ و ١٧٦/٢ و ٤٤٣ و ١٢١/١ ..

٣٦٠

﴿٨٠﴾ ٣٣١/١ ..

سورة الرعد:

﴿١١﴾ ٢٧٩/١ ..

﴿١٦﴾ ٣٧/٢ و ٣٨٩ و ٢٨٦ و ٢٨٠/١ ..

﴿٣٣﴾ ٢٠٢/١ ..

﴿٣٧﴾ ٣٨٩/١ ..

﴿٣٨﴾ ٨٤٦/١ ..

﴿٤١﴾ ٣٥٥ و ٤٦ و ٤٢ و ٣٠/٢ و ٣١٢/١ ..

سورة إبراهيم:

﴿٣٢﴾ ٦٥/٢ ..

سورة الحجر:

﴿٨٦﴾ ١١٠/٢ و ٤٤٤/١ ..

سورة النحل:

﴿٨﴾ ٣٢٢/٢ و ١٩٠/١ ..

﴿٢٠﴾ ١٢٣/٢ ..

﴿٢١﴾ ١٧٤/٢ ..

﴿٧٨﴾ ٢٢٢/٢ ..

سورة الإسراء:

﴿٥﴾ ١٢٩/١ ..

﴿٨﴾ ٣٤٣/٢ و ١٢٩/١ ..

﴿١٦﴾ ٤٩/٢ و ٢٧٨/١ ..

## سورة الأحزاب:

١٠٩/١.....﴿٤﴾

٣٦٤/١.....﴿٣٨﴾

١١٨/٢ و ٤٩٨ و ٣٦٤/١.....﴿٦٢﴾

## سورة سبأ:

٣٨٠/١.....﴿٣٤﴾

## سورة فاطر:

٣٧٠ و ٢٥٥ و ١٦٩/٢.....﴿١﴾

٥٣/٢.....﴿٦﴾

٣٨٠/١.....﴿٨﴾

٢٦٩/١.....﴿١٦﴾

٢٦٩/١.....﴿١٧﴾

## سورة يس:

١٠٣/١.....﴿٢٢﴾

٤٤٨/١.....﴿٣٨﴾

١١٠/٢ و ٤٤٤/١.....﴿٨١﴾

٤٨٩/١.....﴿٨٣﴾

## سورة الصافات:

٣٩٥ و ٨٩ و ١٤/٢.....﴿٩٦﴾

## سورة ص:

٤٠٦/١.....﴿٢٤﴾

٣٨٣/١.....﴿٣٥﴾

٣٥٨ و ٢٨١ و ٢٧٢ و ٢١٣ و ١٩٦/٢.....﴿٤٦﴾

٣٨٩ و ٣٨٤

٣١٨/١.....﴿٦٣﴾

## سورة الفرقان:

٤٤٩/١.....﴿٢﴾

## سورة القصص:

٣٤٥/٢.....﴿٥٦﴾

٣٩٢ و ٢٥٢/٢ و ٢٧٨/١.....﴿٦٨﴾

٤٩٣/١.....﴿٨٨﴾

## سورة العنكبوت:

٣١٨/١.....﴿٢﴾

٣١٨/١.....﴿٣﴾

٦ - ٥ / ٢.....﴿١٧﴾

٣/١.....﴿٤٥﴾

٣١٨/١.....﴿٦٩﴾

## سورة الروم:

٣٦٥/١.....﴿٧﴾

٤٤٦/٢ و ٤٤٥/١.....﴿٢٢﴾

٣٥٨/١.....﴿٥٠﴾

٣٦٣/١.....﴿٥٤﴾

## سورة لقمان:

١١٦/١.....﴿٢٢﴾

٩٥/١.....﴿٦٠﴾

## سورة الزمر:

﴿٢٣﴾..... ٣٩٣/٢

﴿٣٦﴾..... ٢٠٢/١

﴿٦٢﴾..... ٣٥٦/١

## سورة غافر:

﴿٨٥﴾..... ١١٤/١ و ١١٦ و ٣٢٥ و ٣٢٩ و ٤٧٤ و

١١٨/٢

## سورة فصلت:

﴿٦﴾..... ١٦٣/٢

﴿٤٦﴾..... ٤٧٩/١

﴿٥٤﴾..... ٣٨/٢

## سورة الشورى:

﴿٩﴾..... ٣٥٨/١

﴿١١﴾..... ٢٢٠ و ٢١٩/٢

﴿١٩﴾..... ٤٥٥/١

﴿٢٤﴾..... ٤٤٩/١

﴿٥٣﴾..... ٣٦٤/١

## سورة الزخرف:

﴿٣٢﴾..... ٧٧/٢

﴿٣٥﴾..... ٢٨١/١

## سورة الجاثية:

﴿١٢﴾..... ٦٥/٢

﴿١٣﴾..... ٦٥/٢

## سورة الأحقاف:

﴿١٥﴾..... ٣٣٥/١

## سورة محمد:

﴿٣٨﴾..... ٦٥/٢

## سورة الفتح:

﴿٤﴾..... ١٦٤/٢

﴿٢٣﴾..... ١١٨/٢

## سورة الحجرات:

﴿١٣﴾..... ٢٦٧/١ و ٣٨٢

﴿١٦﴾..... ٤٦١/١

## سورة الذاريات:

﴿٤٧﴾..... ١٢٣/٢ و ١٨٤

﴿٥٨﴾..... ٨٦/٢ و ٣٣٩

## سورة القمر:

﴿١٢﴾..... ١٠٥/٢

## سورة الرحمن:

﴿٢﴾..... ٣٥٨/١

﴿٣﴾..... ١٢٧/٢

﴿٤﴾..... ١٢٧/٢

﴿٢٩﴾..... ٥٠/٢

## سورة الحديد:

﴿٢﴾..... ٣٥٨/١

﴿٢١﴾..... ٣٤٥/٢

﴿٢٠﴾.....١/٢٨٠ و ٣٣٧ و ٤٨٩ و ٢/٢٥٢ و ٦٧	سورة الحشر:
سورة القيامة:	﴿١٧﴾.....١٧٤/٢
﴿١٦ - ١٩﴾.....٢/٢٤٦	سورة الممتحنة:
سورة النازعات:	﴿٣﴾.....١/٣٨٣
﴿٣٧﴾.....٢/٤١٠	سورة الصف:
﴿٤١﴾.....٢/٤١٠	﴿٤﴾.....١/٤٥٧
سورة المطففين:	﴿٩﴾.....١/٢٨٠
﴿٢٦﴾.....١/٤٥٧	سورة الجمعة:
سورة البروج:	﴿٤﴾.....٢/٣٤٥
﴿٢٠﴾.....٢/٢٠٧	سورة التغابن:
سورة الفجر:	﴿١﴾.....١/٣٥٨
﴿٦﴾.....١/٩٨	﴿١١﴾.....١/٤٦١
﴿٧﴾.....١/٩٨	﴿١٦﴾.....١/٥٠٨
سورة البلد:	سورة الملك:
﴿١٠٠﴾.....١/٢٥٤	﴿١﴾.....١/٣٥٨
سورة الشمس:	﴿٣﴾.....٢/١٦٤
﴿٨﴾.....١/٢٥٤	﴿٢٣﴾.....٢/١٥٥
سورة الليل:	﴿٢٦﴾.....٢/٣٥٠
﴿١﴾.....٢/٤١٠	سورة الجن:
﴿٢﴾.....٢/٣١٠	﴿٩﴾.....١/٢١٣
﴿٥﴾.....٢/٤١٠	﴿٢٦﴾.....٢/٣٢٩
﴿١٠﴾.....٢/٤١٠	سورة الزمل:
	﴿٥﴾.....١/٢٠٢ و ٢١٠

## سورة الماعون:

﴿٢﴾ ..... ٤٤٧/١

﴿٣﴾ ..... ٢١٩/٢

﴿٤﴾ ..... ٢٠٨/٢

﴿٥﴾ ..... ٢٠٨/٢

## سورة الفلق:

## سورة النصر:

﴿٤﴾ ..... ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ و ٢٨٠

﴿٥﴾ ..... ٢٦٢/٢ و ٢٦١

﴿١﴾ ..... ٢٠٦/٢ و ٣٧٥

## فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

- (أ)
- إن الفرائض ثلث العلم..... ١٩٧/٢
- إن في أمي المهدي..... ٥٢٠/١
- إن فيكم محدثين وإن منهم عمر..... ٢٢٤/١
- إن فيكم محدثين..... ٥٤٦/١
- أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ٢١٠/٢
- إنا أهل البيت اختار الله..... ٥٢٤/١
- أنتم أعلم بأمر دنياكم..... ٢٦٩/٢
- إنك لذو قرنيها..... ٥٣٩/١
- إنكم ترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة  
البدر..... ٢٢٣/٢
- إنما الكريم ابن الكريم..... ٢٦٩/١
- إنما لك من مالك ما أكلت..... ٦٥/٢
- إنما هي أعمالكم ترد عليكم..... ٣٦٥/١
- أنه يتزوج في المغرب..... ٥٤٠/١
- إني أناجي من لا تناجون..... ٢٠٢/١
- أوتيت جوامع الكلم..... ٣٦٧/١ و ٣٧٩
- أين الله وقالت في السماء فقال ٢١٩/٢ - ٢٢٠
- (ب)
- بعثت أنا والساعة كهاتين..... ٥٤٧/١ و ٥٤٨
- العجز عن الإدراك إدراك..... ٢٠٧/٢
- بل منا بنا يختم الله كما بنا  
فتح..... ٥٢٦ - ٥٢٥/١
- ألا كل شيء ما خلا الله باطل..... ٢٤٠/٢
- الأئمة من قریش..... ٣٦٩/١
- أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على  
جرائيم..... ٤٠٢/١
- أجلكم في أجل من كان..... ٥٤٧/١
- أحياناً يأتيني مثل صلصلة..... ٢١٠/١
- إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن... ٢١٦/٢
- إذا هلك كسرى فلا كسرى..... ٥٣٩/١
- اسمعوا وأطيعوا..... ٣٦٩/١ - ٣٧٠
- أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ٣٢٨/٢
- أصل كل داء البردة..... ١١٦/٢
- أقضاكم علي..... ٣٧٣/١
- اللهم أوصني لأصحابي..... ٢٤٩/١
- ألم آتكم بها بيضاء نقية..... ١٧٢/٢
- ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله... ٢٠١/١
- أما السفاح فرمما قتل..... ٥٢٨/١ - ٥٢٩
- إن الله أذهب عنكم غيبة..... ٣٨٢/١
- إن ابني هذا سيد كما سماه رسول..... ٥١٧/١
- إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا  
لحياته..... ٣٢٨/٢
- أن عيسى يموت بالمدينة..... ٥٤١/١

الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من  
النبوة..... ٢٤٦/٢  
الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين  
جزءاً..... ٢٤٤/٢

## (س)

ستكون فتنة لا يكن..... ٥٣٢/١  
سيخرج من صلب الأرض..... ٥٣٢/١  
سيروا على سير أضعفكم..... ٣٦٣/١

## (ع)

العالم في قومه كالنبي في أمته..... ٥٣٧/١  
علماء أمي أنبياء بني إسرائيل..... ٥٣٧/١  
العلماء ورثة الأنبياء..... ٤٠٥/١ - ٤٠٦

## (ف)

الفرائض ثلث العلم..... ٢٥٦/٢  
فغطني حتى بلغ بي الجهد..... ٢١١/١  
فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي  
سحر فيها إلا انحلت..... ٢٨٠/٢  
فليغير بيده فإن لم..... ٣١٨/١  
فمن وافق خطه ذلك النبي فهو ذاك..... ٢٢٩/١  
فنعم الأمير أميرها..... ٥٣٩/١  
فيجىء إليه فيقول يا مهدي..... ٥٢١/١

## (ت)

تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما  
كتاب الله وسنتي..... ٣٦١/٢  
تعلموا من أنسابكم..... ٢٥٦/١  
تعلموا النسب ولا تكونوا..... ٢٥٧/١  
تعمد إلى مثل زهرة..... ٢٥٢/١  
تملأ الأرض جوراً وظلماً..... ٥٢٢/١

## (ث)

ثم يظهر الهاشمية فيرد الله..... ٥٢٦/١

## (ج)

جعلت قرعة عيني في الصلاة..... ٢٠٨/٢

## (ح)

الحرب خدعة..... ٤٦٥/١ و ٤٩٥  
الحمية رأس الدواء..... ١١٦/٢

## (خ)

الخلافة بعدي ثلاثون..... ٥٣٨/١ و ٤٢/٢  
خلط عليك الأمر..... ٢١٢/١  
خير الناس قرني..... ٣٩٩/١

## (ذ)

ذلك أضعف الإيمان..... ٣١٨/١

## (ر)

الرؤيا ثلاث رؤيا من الله..... ٢١٧/١ و ٢٤٦/٢



## (ك)

لا هجرة بعد الفتح.....٢٤٩/١  
لا يزال هذا الأمر في هذا الحى ١/٣٦٩ و ٥٣٨  
لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن. ٢/٢٠٩  
لا ينقش أحد مثله.....١/٤٥٠

## (ل)

لتملأ الأرض جوراً.....١/٥٣١  
لقد أوتي مزمراً من مزامير آل داود. ٢/١٣٣  
لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا.....٢/٢٤٤  
لم يبق من النبوة إلا المبشرات.....١/٢١٥  
لن يعجز الله أن يُوخر.....١/٥٤٧ و ٥٤٨  
لو تعلق العلم بأكناف السماء لئله قوم من  
أهل فارس.....٢/٣٦٢  
لولا قومك حديثو عهد بكفر.....٢/٢٠  
لو لم يبق من الدنيا إلا يوم.....١/٥١٥  
لو لم يبق من الدهر إلا يوم.....١/٥١٦

## (م)

المؤمن للمؤمن.....١/٤٥٨  
ما بعث الله نبياً إلا في منعة من  
قومه.....١/٢٠٣ و ٣١٦  
ما بين هذين وقت.....١/٥٣٨  
ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة.....١/٥٥٠  
ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل. ٢/٨٢  
ما دخلت هذه دار.....١/٢٧٦

كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما  
عليه كان.....٢/٢٤٠  
كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك. ١/٢٢٨  
كان يعالج من التنزيل شدة.....١/٢٠٢  
كل ما سوى آيات الأحكام والقصاص  
متشابه.....٢/٢١٥  
كل من عند ربنا.....٢/٢١٦  
كل مولود يولد على الفطرة ١/٢٤٨ و ٢٨٩  
كل ميسر لما خلق له.....٢/٢٤٧  
كنت سمعه وبصره.....٢/٢٤١  
كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف.. ٢/٢٣٠  
كيف يأتيك هذا الأمر.....١/٢١٢

## (لا)

لا تدخلوا مساكن.....١/٣٤٧  
لا تذهب الدنيا حتى يملك.....١/٥١٥  
لا تردهم على أعقابهم.....١/٢٥٠  
لا تصدقوا أهل الكتاب.....٢/١٧٢  
لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة.....٢/٨٢  
لا تقوم الساعة حتى تملأ.....١/٥٢٢  
لا تقوم الساعة حتى يخرج.....١/٥٣٠  
لا مهدي إلا عيسى ابن  
مريم.....١/٥٣٣-٥٣٤ و ٥٣٨ و ٥٤١

## (ن)

- الناس معادن خيارهم..... ٢٦٣/١  
 نحن ولد عبد المطلب سادات..... ٥٢٧/١  
 النسب علم لا ينفع..... ٢٥٦/١  
 نصرت بالرعب مسيرة شهر..... ٤٦٦/١

## (هـ)

- هذا من سجع الكهان..... ٢١٢/١  
 هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا..... ٢٤٤/٢  
 هلا انتظرت من ..... ٢٥٢/١

## (و)

- واضعاً كفيه على أجنحة..... ٥٤٠/١  
 والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم لما  
 أقول..... ٢٢٣/٢  
 وكل ميسر لما خلق له..... ٣٥٢/٢  
 ويكون في آخر أمتي..... ٥٢١/١

## (ي)

- يا فاطمة اعملي فلن..... ١٠٩/١  
 يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي..... ٥٢٣/١  
 يخرج رجل من وراء النهر..... ٥١٧/١  
 يخرج في آخر الزمان..... ٥٢٧/١  
 يخرج في آخر أمتي المهدي..... ٥٢٢/١  
 يخرج ناس من قبل المشرق..... ٥٣١/١  
 يخرج ناس من المشرق فيوطون..... ٥٢٩/١

- ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي..... ٢٠٥/١  
 المتشابه يؤمن به ولا يعمل به..... ٢١٥/٢  
 مثلي فيمن قبلي من الأنبياء..... ٥٣٦/١  
 المدينة خير من مكة..... ٤٢٧/٢  
 مربوع الخلق وإلى البياض..... ٥٤٠/١  
 المعدة بيت الداء..... ١١٦ - ١١٥/٢  
 من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه..... ٢٨٠/٢  
 من خلفائكم خليفة..... ٥٢١/١  
 من رأى منكم منكراً..... ٣١٦/١  
 من كانت هجرته إلى الله..... ٣٨٢/١  
 من كذب بالمهدي فقد كفر..... ٥١٥/١  
 من كنت مولاه فعلي مولاه..... ٣٧٣/١  
 من لم يؤدبه الشرع..... ٢٥٣/١  
 من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل  
 الجنة..... ٢٢٦-٢٢٥/٢  
 من مات يشهد لا إله إلا الله دخل  
 الجنة..... ٢٠٦/٢  
 من يلبسني على روحه وهو وصي..... ٣٧٣/١  
 منا أهل البيت أربعة..... ٥٢٨/١  
 المهدي أجلى الجبهة..... ٥١٩/١ - ٥٢٠  
 المهدي من عزتي من ولد فاطمة..... ٥١٨/١  
 المهدي منا أهل البيت..... ٥٢٥/١  
 مولى القوم منهم..... ٣٧٠ و ٢٦٦/١

ينزل عند المنارة.....٥٤٠/١	يكون في آخر الزمان.....٥٢١/١
يصيبهم ما أصاب الناس.....٥٣١/١	يكون في آخر الزمان فترة.....٥٢٦/١
يقتل عند كنزكم ثلاثة.....٥٢٩/١	يكون في أمي المهدي.....٥٢١/١ و ٥٣٠
يكون اختلاف عند موت	
خليفة.....٥١٩-٥١٨ /١	

## البحار

الزباب الكبير.....١٧٤/١٧٣	البحر الأخضر.....١٤٠/١
بحر السويس...٩٦/١ و ١٤٣ و ١٥٨ و ١٦٣	البحر الأسود.....١٤٠/١
البحر الشامي.....١٦٨/١ و ٤٣٧	بحر البنادقة.....١٤٢/١
البحر الصيني.....١٤٢/١	بحر بنط —————س.....١٦٨/١
بحر طبرستان.....١٨١/١ و ١٨٤ و ١٨٥	١٧٤ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٧
بحر فارس.....٩٦/١	بحر جرجان.....١٤٤/١
١٤٣ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٩ و ١٦٤ و ١٧٣	البحر الجنوبي.....١٥٧/١
بحر القلزم.....١٤٣/١	البحر الحبشي.....١٤٢/١ و ١٤٣ و ١٤٤
١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٦٤	و ١٤٣/٢
البحر المحيط ١/١٤٢ و ١٤٤ و ١٥٢ و ١٥٣	بحر الخزر.....١٧٤/١ و ١٨٤
١٥٥ و ١٥٧ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦٧ و ١٦٨	البحر الرومي ١/١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٥٣
١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٨٢	و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣
و ١٨٣ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٨٧	و ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٧ و ١٧٨
البحر الهابط.....١٥٦/١	و ١٧٩ و ١٨٤ و ٢٨٨ و ٣٧٢ و ٤٣٦ و ٤٣٧
بحر الهند.....٩٦/١	الزباب. ١/١٦١ و ١٧٣ و ٤٨٥ و ٥٤٢ و ٥٥/٢
١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٣ و ١٩٢	الزباب الصغير.....١٧٣/١ و ١٧٤

## السواحل

سواحل الصعيد.....١/١٤٣	ساحل الشحر.....١/١٥٩
سواحل فارس.....١/١٦٤	سواحل البحرين.....١/١٤٣
سواحل اليمن.....١/١٤٣	سواحل السند.....١/١٤٣
	سواحل الشام.....١/١٦٣

## الجزر

جزيرة سرنديب.....١/١٥٧	جزيرة ابن عمر.....١/١٧٣
جزيرة العرب/١/٩٥ و ٩٦ و ١٤٣ و ١٥٦ و ١٩٠	جزيرة أعدون.....١/١٧٠
الجزيرة.....١/٣٤٩	جزيرة إقريطش.....١/١٧١
جزيرة قادس.....١/١٦٩	جزيرة الأندلس.....١/٥٣٧
جزيرة قبرص.....١/١٦٣	جزيرة أنكلترا.....١/١٨٣ و ١٨٦
جزيرة القمر.....١/١٥٧	جزيرة بلبنس.....١/١٧١
جزيرة الموصل.....١/١٤٤	جزيرة حربة.....١/٤٣٩
جزيرة نرفاغة.....١/١٨٦	الجزيرة الخضراء.....١/١٦٨ و ١٦٩
جزيرة واق واق.....١/١٥٧	جزيرة رسلاندة.....١/١٨٦
جزيرة الياقوت.....١/١٦٧	جزيرة سردانية.....١/٤٣٨

## الأنهار

نهر أثل..... ١٨١/١ و ١٨٥ و ١٨٧	نهر السودان..... ١٤٤/١
نهر باجة..... ١٦٩/١	نهر سيحان..... ١٧٢/١ و ١٧٩
نهر بلخ..... ١٦٧/١	نهر سيحون..... ٥٥٤/١
نهر جيحان..... ١٦٨/١ و ١٧٢ و ١٧٩	نهر الشاش..... ١٧٦/١
نهر جيحون..... ١٤٤/١	نهر الفرات..... ٩٧/١
١٤٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٥ و ١٧٦	١٤٤ و ١٦٤ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٩ و ١٨٠
الخابور..... ١٧٣/١	١٩٣ و ٣٤٩ و ٤٣٨ و ٥٥٤
نهر خرنا ب..... ١٦٦/١	نهر فرغانة..... ١٧٦/١
نهر دجلة..... ٩٧/١ و ١٤٤ و ١٦٤	نهر قباقب..... ١٧/١
١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٩ و ١٩٠ و ٣٤٨	نهر نيل القمر..... ١٥٥/١

## البحيرات

بحيرة خوازم..... ١٦٦/١ و ١٨١	بحيرة غنون..... ١٨٧/١
بحيرة طرمى..... ١٨٧/١	بحيرة فيوم..... ١٦٢/١
بحيرة غرغون..... ١٨١/١	بحيرة ملحة..... ١٥٥/١

## الخلجان

الخليج الأخضر..... ١٤٣/١	خليج القسطنطينية..... ١٦٨/١ و ١٧٩
خليج البنادقة..... ١٤٢/١ و ١٦٨ و ١٧٨	الخليج المتضايق..... ١٦٠/١
خليج طنجة..... ١٦٠/١ و ١٦٩	

## الجبال

جبل الأبواب..... ١٨١/١ و ١٨٤	جبل السلسلة... ١٧١/١ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٨٠
جبل أصبهان..... ١٧٣/١	جبل سياه..... ٨٤/١ و ١٨١ و ١٨٥
جبل الأكراد..... ١٦٥/١ و ١٨٠	جبل سياه كوه..... ١٨٤/١
جبل أوراس..... ١٦٠/١ و ١٦١ و ٤٨٥	جبل الشارات..... ١٦٩/١
الجبال الباردة..... ١٩٤/١	جبل الطور..... ١٦٣/١
جبال البتم..... ١٦٦/١ و ١٦٧ و ١٧٥	جبل العراق..... ١٧٣/١ و ١٧٤
جبل البرتات..... ١٧٠/١	جبل العرج..... ١٦٤/١
جبل بلواك..... ١٨٣/١	جبل العلاقي..... ١٥٦/١
جبل تيطرى..... ٤٨٥/١	جبل الغور..... ١٦٥/١
جبل الثلج..... ١٨١/١	جبال القفص..... ١٦٤/١ و ١٦٥
جبل الثنايا..... ١٧٠/١	جبل القمر..... ١٤٤/١ و ١٥٣ و ١٥٤
جبل جراغون..... ١٧٦/١	جبل فوقية.....
جبل حاجز..... ١٨١/١	المحيط..... ١٧٦/١ و ١٨٢ و ١٨٥ و ١٨٦
جبل حلب..... ١٧٢/١	و ١٨٧ و ١٨٨
جبل درن..... ١٦٠/١ و ١٦١ و ١٦٢	جبل كتامة..... ١٦٠/١ و ٤٨٥
جبل دروب..... ١٧٢/١	جبل اللكام.. ١٦٣/١ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٨٠
جبل دمر..... ١٦١/١	جبل مرغار..... ١٨١/١
جبال الديلم..... ١٨١/١	جبل المعرة..... ١٧٢/١
جبل رضوى..... ١٦٤/١	جبل منت..... ١٧٧/١
جبل الري..... ١٧٥/١	جبل المنذب..... ١٥٦/١
جبل سيبلطة..... ١٦١/١	جبل شهرزور..... ١٧٤/١
جبل السراة..... ١٦٣/١ و ١٦٤	جبل الواحات..... ١٥٨/١

١٥٨/١.....جبل يللم.	١٦١/١.....جبل
	١٧٦/١.....جبل يأجوج ومأجوج.

### الأودية

٩٥/١.....وادي الرمل.	١٦٩/١.....وادي آش.
١٦٠/١.....وادي ملوية.	١٦٩/١.....وادي الحجارة.

### الصحارى

١٩٦/١.....صحراء المغرب.	١٦٢/١.....صحارى برقيق.
١٦٠/١.....صحراء نستر.	١٦٤/١.....صحراء تبوك.
	٩٨/١.....صحارى عدن.

### القواعد

١٦٥/١.....قاعدة غزنة.	١٦٠/١.....قاعدة تلمسان.
١٧٤/١.....قاعدة المراغة.	١٨٤/١.....قاعدة سنوبلي.



## القصور

قصر كتامة.....١٦٠/١

## القلاع

قلعة ابن حماد.....٩٤/٢ قلعة رياح.....١٦٩/١ و ١٧٠

قلعة أيوب.....١٧٠/١

## الحصون

حصون جبر.....١٦٤/١

## السدود

سد يأجوج ومأجوج.....١٨٨/١

## الغزوات

غزوة تبوك.....٣٢٤/١ غزوة خير.....٩٣/١ و ١٥٩

## الأعلام

آدم عليه السلام..... ٢٧ و ١٨/٢	ابن إسحاق..... ٥٤٨/١
آريوس..... ٤١٦/١	ابن الأحمر..... ٤٣٧/٢ و ٣٢٧/١
الأمدي..... ٢٦٧ و ٢٠٢/٢	ابن أرفع رأسه..... ٤٢٥/٢
أبان بن صالح بن أبي عياش... ٥٣٤ و ٥٣٣/١	ابن إسحاق..... ٢٦١/٢ و ١١٦ و ٩٧/١
إبراهيم ————— عليه	ابن الأغلب..... ١١٠/١
السلام..... ١٨/١ و ١٩ و ٢١ و ٢٦ و ٢٠٨ و ٣٧٧ و	ابن الأكفاني..... ١١٠/١
٣٧٨ و ٤٠٩ و ٥٢٥	ابن الإمام..... ١٦٧/٢
إبراهيم الساحلي الطريحي..... ٣٩١/٢	ابن الأنباري..... ٣٧٢/٢
إبراهيم السفاح..... ٤٠٩/١	ابن أبي حاتم..... ٥٢٣/١
إبراهيم بن عبد الله..... ٥٢٠ و ٣٧٨/١	ابن أبي حفص..... ٣٢٧/١
إبراهيم بن أبي الفتح أبو إسحاق بن	ابن أبي زيد..... ٣٤٢ و ٢١١ و ١٩٤/٢
خفاجة..... ٤٠٢/٢	ابن أبي طالب القيرواني..... ٢٤٧/٢
إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق..... ٨٣/١	ابن أبي عامر..... ١٢٩ و ١١٨/١
إبراهيم بن محمد بن الحنفية..... ٥٢٥/١	ابن أبي مريم..... ٥٥٠/١
إبراهيم بن المهاجر..... ٥٢٩/١	ابن أبي —————
إبراهيم بن المهدي... ١٣٤/١ و ٣٢٠ و ٣٩٢	واطيل..... ٥٣٨ و ٥٣٧ و ٥٣٦ و ٥٣٥/١
إبراهيم الموصلي..... ١٣٤/٢	و..... ٥٤١ و ٥٤٠
إبراهيم النظام..... ٢١٨/٢	ابن بسم..... ٣٤٠/١
إبراهيم بن هلال الصابي..... ٤١٢/٢	ابن بشير..... ٣٩١ و ٣٤٤ و ١٩٤/٢
أبرويز أليوس الحكيم..... ٥٥٤/١	ابن بطل..... ١٨١/٢
الأبلى الأسدي..... ٢٢٢/١	ابن البطحاوي..... ١١٠/١
ابن الأبار (الحافظ الأندلس)..... ١٢٠/٢ و ٥٥٧/١	ابن بطوطة..... ٣٥١/١

- ابن بكار قاضي غرناطة..... ١٨١/٢
- ابن بكير..... ١٧٩/٢ و ٤٠٩/١
- ابن البناء..... ٢٦١ و ٢٥٤ و ٢٥٣/٢
- ابن تيفلويت..... ٤٢٦/٢
- ابن التين..... ١٨١/٢
- ابن ثابت..... ١٥٦/٢
- ابن جابر..... ٣٩١/٢
- ابن جحدر..... ٤٣٦/٢
- ابن جعفر..... ٣٨٨/١
- ابن جني..... ٣٤٤/٢
- ابن الجوزي..... ١٨٠/٢
- ابن الجياب..... ٣٩١/٢
- ابن الحاجب (أبو —————)
- عمر (١٦٧/٢ و ١٩٤ و ١٩٦ و ٢٠٢ و ٣٤٤ و ٣ و ٤٦ و ٣٦٩ و ٤٠٧)
- ابن حبان..... ١٠٦/١ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢٨ و ٥٣٠
- ابن حبيب..... ١٩٥/٢
- ابن حديد..... ٤٢٣/١
- ابن حزم (أبو محمد)..... ١٨٦ و ١٨٤/٢ و ٤٤٩/١
- ابن حزمون..... ٤٣٠/٢
- ابن الحنفية..... ٣٩٨/١
- ابن حوشب..... ٥٥١/١
- ابن حيان..... ٣٩٠/٢ و ٣٤٠/١
- ابن حيون..... ٤٢٩/٢
- ابن خراش..... ٥١٦/١
- ابن خرداذبة..... ١٥٢/١
- ابن خزر البجائي..... ٤٣١/٢
- ابن خلف الجزائري..... ٤٣١/٢
- ابن خليفة..... ٥٢٩/١
- ابن خوريزمنداد..... ١٩٢/٢
- ابن دريد..... ٣٧٢/٢
- ابن ذي النون..... ٣٤٧/١
- ابن الرأيس..... ٤٣٠/٢
- ابن رشيد (أبو —————)
- الوليد)..... ١٩٦ و ١٩٤/٢ و ٢٦٥ و ٢٦٤/١ و ٢٧١ و ٢٦٧ و ٢٤٧
- ابن —————
- رشيق..... ٤٠٣ و ٤٠١ و ٣٩٠ و ٣٧٥ و ١٩٥/٢ و ٤١١
- ابن الرفعة..... ١٩٠/٢
- ابن رماحس..... ٤٣٨/١
- ابن —————
- الزبير..... ٢١ و ٢٠/٢ و ٣٩٩ و ٣٩٨ و ٣٩٥ و ٩٩/١
- ابن زهر (أبو —————)
- بكر)..... ٤٢٩ و ٤٢٨ و ٤٢٧ و ٤٢٦ و ٢٦٨/٢ و ٤١١
- ابن الزيات..... ٤٠٦/٢

ابن الساعاتي.....٢٠٢/٢ و ٢٠٣	ابن العباس.....٣٩٨/١
ابن سبعين.....٢٣٨/٢	ابن عبد البر (أبو عمر).....٢/١٨٤ و ٢١١
ابن سريج.....٣٧٣/٢	ابن عبد الحكم.....١٩٢/٢
ابن سعيد.....١٥٥/١ و ٢/٤٣٠ و ٤٣٣ و ٤٣٦	ابن عبد ربه.....١٠٢/١ و ١٠٦ و ٣٩٠/٢
ابن سعيد (علي بن موسى بن عبد الملك).....٢/٤٢٨ و ٤٢٩	ابن عبد السلام.....١٩٦/٢
ابن السكيت.....٣٧٢/٢	ابن عدي.....١/٥٢١ و ٥٢٤ و ٥٢٥ و ٥٢٩ و ٥٥٠
ابن السمح.....٢/٢٥٦ و ٢٦١	ابن العربي (أبو ———و بكر).....١/٣٩٨ و ٤١٢ و ٥٣٥ و ٥٣٦ و ٥٣٧
ابن سناء الملك المصري.....٢/٤٣٣	و ٥٥٨ و ٢/١٨٩ و ٢٠٣ و ٢٣٨ و ٣٥٥
ابن سهل.....٢/٤٠٦	ابن عطاء الله.....١٩٦/٢
ابن سيده.....٢/٣٧١	ابن العطار.....٢/١٨٤
ابن سينا (أبو ———و علي).....١/١٩٢	ابن العفيف.....٢/٢٣٨
و ٥٥٨ و ٢/١٣ و ٢٣٨ و ٢٥٣ و ٢٥٧ و ٢٦١ و ٢٦٧	ابن عقب.....١/٥٥٨
و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٣٩	ابن عليّة.....١/٥١٦
ابن شاس.....٢/١٩٥	ابن عمر.....١/٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٥٣٢
ابن شجاع.....٢/٤٤١	ابن عمير.....٢/٤٤٠
ابن شرف.....١/٣١٠ و ٤١١ و ٣٩٠/٢	ابن العوام.....١/٢٧٠
ابن الصلاح (أبو عمرو).....٢/١٨٠ و ١٨٢	ابن الفارض.....٢/٢٣٠ و ٢٣٨
ابن الصلت.....٢/٢٥٧ و ٢٦١	ابن الفرّس.....٢/٤٢٩
ابن عباد.....١/١١٨	ابن الفرغاني.....٢/٢٦١
ابن عباس.....١/٣٩٩ و ٤٥٥	ابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي.....٢/١٢٠
و ٥١٥ و ٥٢٨ و ٢/٢٠ و ٢١٥	ابن الفضل.....٢/٤٣٠

ابن القاسم... ١٩٠/٢ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٥ و ٣٤٢  
 ابن قبيصة بن ذؤيب... ٥٤٩/١ و ٥٥٠  
 ابن قتيبة... ٣٧٦/٢  
 ابن قسي... ٣١٦/١ و ٥٣٥  
 ابن القصار (أبو الحسين)... ١٩٢/٢ و ٢٠٣  
 ابن كثير... ٥٦٠/١  
 ابن كريون... ٤١٥/١  
 ابن الكلبي... ٩٥/١  
 ابن كلثوم... ٤٠٨/٢  
 ابن اللبان... ١٩٢/٢  
 ابن اللهيث... ١٩٥/٢  
 ابن لبيعة... ٥٢٩/١ و ٥٣٠  
 ابن الكماد... ٢٦١/٢  
 ابن ماجه... ٥١٨/١ و ٥٢٠  
 و ٥٢١ و ٥٢٥ و ٥٢٧ و ٥٢٩ و ٢٢/٢  
 ابن مالك... ٣٤٤/٢ و ٣٤٦ و ٣٦٩ و ٣٧٥  
 ابن مجاهد... ٢١٢/٢  
 ابن محرز... ١٩٣/٢  
 ابن مدراد... ١١٠/١  
 ابن مرانة... ٥٥٦/١  
 ابن مردنيش... ٣٢٧/١  
 ابن المعتز... ٤٠٦/٢

ابن معطي... ٣٦٩/٢  
 ابن معين... ٥١٧/١ و ٥٢٥ و ٥٢٧ و ٥٥٠  
 ابن المغيرة... ٣١١/٢  
 ابن المقفع... ١٣٠/١ و ٤٠٦/٢  
 ابن المنعم... ٢٥٤/٢  
 ابن المنمر... ٢٥٦/٢  
 ابن المهلب... ١٨١/٢  
 ابن المواز... ١٩٠/٢  
 ابن ميسر... ١٩٥/٢  
 ابن النبيه (علي بن محمد)... ٤٠٦/٢  
 ابن النحوي... ٤٠٧/٢  
 ابن هشام... ٣٧٠/٢  
 ابن الهيثم... ٢٥٩/٢  
 ابن وحشية... ٢٧٣/٢ و ٣٠٩  
 ابن وهب... ١٧٩/٢  
 ابن هارون... ١٩٦/٢  
 ابن هانيء... ٤٠٦/٢ و ٤١٤  
 ابن هبيرة... ١٧٣/١ و ٣٥٣ و ٤٤٧  
 ابن هردوس... ٤٢٨/٢  
 ابن هرمة... ٤١٠/٢  
 ابن هشام... ٣٧٧/١ و ٣٤٤/٢  
 ابن هود... ٣٢٧/١  
 ابن يونس... ١٩٣/٢ و ١٩٤ و ٣٤٤/٢

- أبو بكر الصديق.....٢٢٤/١ و ٣٦٦  
 ٣٧٤ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٤٢٠ و ٤٥٠  
 ٢١/٢ و ٢٢ و ٢٦ و ٢٣٩  
 أبو بكر الصيرفي.....٤٦٣/١  
 أبو بكر الطرطوشي.....١٣١/١ و ١٩٥/٢  
 أبو بكر بن عياش.....٥١٧/١  
 أبو بكر بن قزمان.....٤٣٣/٢ و ٤٣٤ و ٤٣٥  
 أبو بكر بن مرتين.....٤٣٤/٢  
 أبو بكير بن أبي حميرة.....١٢١/٢  
 أبو جعفر العقيلي.....٥١٦/١ و ٥١٨  
 أبو جعفر المنصور.....١٠٣/١ و ٣٨٧ و ٢٥١/٢  
 ٢٥٧  
 أبو حاتم.....٥١٦/١ و ٥٢١  
 ٥٢٤ و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٣١ و ٥٥٠  
 أبو حامد الإسفراييني.....١١٠/١  
 أبو الحسن الأشعري.....٢١٢/٢ و ٢١٨ و ٣٣١  
 أبو الحسن بن جحدر الأشبيلي إمام  
 الزجالين.....٤٣٣/٢  
 أبو الحسن الدباج.....٤٣٠/٢  
 أبو الحسن.....٥١٧/١ و ٥١٨  
 أبو الحسن السلطان.....٣٢٩/٢ و ٤٠٧ و ٣٣٢  
 أبو الحسن الماوردي.....٤١٩/١  
 أبو الحسن المقرئ الداني.....٤٣٤/٢  
 أبو الحسن المليبي.....٨٧/٢  
 أبو إدريس الخولاني.....٤٠٣/١  
 أبو أسامة.....٥٢٥/١  
 أبو إسحاق الإسفراييني.....٢٤٢/٢  
 أبو إسحاق الدويني.....٤٢٨/٢  
 أبو إسحاق السبيعي.....٥١٧/١ و ٥١٨  
 أبو إسحاق بن أبي يحيى.....٤٢١/٢  
 أبي بحر بن العاصي.....١٢١/٢  
 أبو بديل (الوضاح بن حبيب بن  
 بديل).....٥٥٥/١  
 أبو بردة.....٢٥٠/١  
 أبو البركات البليقي.....١٨١/٢ و ٤١١  
 أبو بكر الأبهري.....١٩٢/٢  
 أبو بكر الأبيض.....٤٢٦/٢ و ٤٢٧  
 أبو بكر الإسكاف.....٥١٤/١ و ٥١٥  
 أبو بكر الأمير.....٤٢٧/٢  
 أبو بكر بن باجة.....٤٢٦/٢  
 أبو بكر الباقلاني.....١٠٩/١ و ٣٧٠ و ٢١٢/٢  
 ٢١٣ و ٢١٥  
 أبو بكر بن بشرون.....٣١١/٢ و ٣١٧ و ٣١٨  
 أبو بكر بن أبي خيثمة.....٥١٤/١  
 أبو بكر الزبيدي.....٣٧١/٢  
 أبو بكر بن الصابوني.....٤٣٠/٢

- أبو الحسين البصري.....٢٠١/٢
- أبو حنيفة.....٢٧/٢ و ١٨٣ و ١٨٦ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٣ و ٢٠٢
- أبو الخليل.....٥١٩/١
- أبو داود ٥١٥/١ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٥٣٠ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٤ و ٥٣١ و ٥٤٩ و ٥٥٠ و ٥٥٠/٢ و ١٧٤ و ١٨٠
- أبو داود الطيالسي.....١٨٠/٢
- أبو الدرداء.....٤٠٢/١
- أبو زرعة.....٥٢١ و ٥٢٤ و ٥٣٠ و ٤١٨/٢
- أبو زكريا بن أبي حفص.....٢٠٣ و ٢٠٢/٢
- أبو زيد الدبوسي.....٤١٧/٢
- أبو سعيد.....١١/٢
- أبو سعيد البرادعي.....١٩٣/٢
- أبو سعيد الخدري.....٣٩٨ و ٣٩٥/١
- أبو سعيد بن يونس.....٥٥٠ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢١ و ٥٢٠ و ١٢١/٢
- أبو سفيان.....٢٠٣/١
- أبو سلمة الخلال.....٣٧٨/١
- أبو السمح.....٣١١/٢
- أبو صديق الناجي.....٥٢٣ و ٥٢٢ و ٥٢٠/١
- أبو الطفيل.....٥٢٧ و ٥١٦/١
- أبو العباس.....٥٦/٢ و ٢٣٣/١ و ٤٢٤
- أبو العباس بن شعيب.....٤٠٧/٢
- أبو العباس القلانسي.....٢١٨/٢
- أبو عبد الرحمن النسائي.....١٨٠/٢
- أبو عبد الرحمن الأبلي.....٨٧/٢
- أبو عبد الله الألوسي.....٤٣٧/٢
- أبو عبد الله الحاكم.....١٨٠/٢
- أبو عبد الله بن الخطيب...٤٠٧ / ٢ و ٤٣١ و ٤٣٦
- أبو عبد الله الخوارزمي.....٢٥٥/٢
- أبو عبد الله الشيعي...٣٧٩/١ و ٤٩٧ و ٥٥١
- أبو عبد الله المحتسب.....١٠٧/١
- أبو عبد الله النعمان.....١١٠/١
- أبو عبيد الآجري.....٥٢٠/١
- أبو عبيد بن مسعود الثقفي.....٤٦٤/١
- أبو عبيد الله.....٥٥١/١
- أبو علي الفارسي.....٣٦٩/٢
- أبو علي القالي البغدادي.....٣٧٧/٢
- أبو عمر الطلمنكي بن أبي عبد الله بن مفرج.....١٢١/٢
- أبو عمر الداني.....١٧٤ و ١٧٣/٢
- أبو عمرو بن الزاهر الأشيلي.....٤٣٤/٢

أبو عيسى الترمذي.....١٨٠/٢	أبو المعالي إمام
أبو غالمسيس.....٤١٥/١	الحرمين.....٢٠١/٢ و ٢١٣ و ٢١٥ و ٢٥٦
أبو الفرج الأصفهاني.....٣٧٧/٢ و ٣٩١ و ٤٠١	أبو معشر (جعفر بن محمد بن عمر
أبو القاسم الحرفي.....٢٥٦/٢	البلخي).....١/٥٥٣ و ٥٥٥
أبو القاسم بن رضوان.....٤٠٧/٢	أبو موسى الأشعري.....١/٤٠٢
أبو القاسم الروحي.....٣٢٩/٢	أبو نصر الفارابي.....٢/٣٣٥ و ٣٣٩
أبو القاسم الزجاجي (عبد الرحمن بن	أبو نضرة.....١/٥١٩
إسحاق).....٣٦٩/٢	أبو نعيم الحافظ.....٢/١٩٨
أبو القاسم بن زيتون.....١٦٦/٢	أبو نواس.....١/١٠٤ و ٣٣٩ و ٤١٠/٢
أبزو القاسم الشريف السبي.....٤١١/٢	أبو هارون العبدي.....١/٥٢٢
أبو القاسم.....٤٠٨/٢	أبو الهذيل العلاف.....٢/٢١٨
أبو القاسم الشيعي.....٤٣٨/١	أبو هريرة.....١/١٩٧ و ٥١٥ و ٥٣٠
أبو القاسم بن عبيد الله	أبو هشام بن محمد بن الحنفية.....١/٣٧٧
المهدي.....١/١٠٧ و ٤١٠	أبو وائل.....١/٥١٦ و ٢٢/٢
أبو القاسم بن فيرة.....١٧٣/٢	أبو الوليد الباجي.....٢/١٨٩
أبو قدامة.....١/٥٢٥	أبو الوليد الوقشي.....٢/١٢١
أبو قلابة الجرمي.....١/٥٢٩	أبو ياسر بن أخطب.....١/٥٤٨ و ٥٤٩
أبو الليل.....٢/٤١٩	أبو يحيى الشهير.....١/٥٥٧
أبو محمد بن تافراكين.....٢/٤٢١	أبو يزيد البسطامي.....٢/٢٤٣ و ٢٨٥
أبو محمد بن عطية.....٢/١٧٦	أبو يعقوب البادسي.....١/٥٤١
أبو مسلم.....١/٣٧٧	أبو يعقوب المنصور.....١/٤٤٠
أبو مسلم بن خلدون.....٢/٢٥٦	أبو يعلى الموصلي.....١/٥٣٠ و ١٨٠/٢
	أبو يوسف السكاكي.....٢/٣٤٤



إسحاق بن إبراهيم الموصلي..... ١٣٤/٢	الأيوردي..... ١١٠/١
إسحاق بن الحسن المنجم..... ١٥٢/١	الأحذب..... ٢٥٤/٢
إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة... ٥٢٧/١	أحمد بن حنبل..... ١٠٥/١
إسحاق بن علي..... ١٠٢/١	و٥١٥ و٥١٧ و٥٢٠ و٥٢١ و٥٢٤ و٥٢٥
أسد بن موسى..... ٥٢٢/١	و٥٢٦ و٥٢٧ و٥٢٨ و٥٣٠ و٥٥٠
الإسكندر..... ١٢٦/١	و١٧٩/٢ و١٨٠ و١٨٣ و١٨٨ و١٨٩
الإسكندر الأفردوسي..... ٢٥٠/٢	أحمد بن أبي دؤاد..... ٤٠٣/١
أسلم بن سورة..... ١٢٠/٢	أحمد بن عبد ربه (أبو عمر)..... ٤٢٥/٢
إسماعيل عليه السلام..... ١٩٢ و١٩ و١٨/٢	أحمد بن عبد الله بن يونس..... ٥١٧/١
إسماعيل بن إبراهيم بن مهار..... ٥٢٩/١	أحمد بن محمد بن عبد الحميد..... ٣٤٨/١
إسماعيل الإمام ابن جعفر	أحمد السبتي..... ٢٣٦ و٢٣٣/١
الصادق..... ٤٠٩ و٣٧٩ و١٠٨ و١٠٧/١	الأحوص..... ٤٠٨/٢
إسماعيل القاضي..... ١٠٥/١	أخطب..... ٥٤٨/١
إسماعيل المنصور..... ٥٥١/١	إدريس عليه السلام..... ٢٢٨ و١١٠/١
الأشعث بن قيس..... ٢٧٠ و٢٦٩/١	إدريس بن إدريس بن عبد الله..... ١١٠/١
أشهب..... ١٩٢/٢	إدريس بن إدريس الأصغر..... ٤١٠/١
الأصمعي..... ٤١٥ و٤١٣/٢ و١٠٢/١	إدريس الإمام..... ٤١٠/١
الأعشى..... ٤١٣ و١٩/٢	إدريس بن عبد الله..... ٣٧٨/١
الأعلم البطليموسي..... ٤٢٦ و٤٢٥/٢	أرسطو..... ٢٥٠/٢ و٤٤٣ و٢٣١ و١٣٠/١
الأعمى التطيلي..... ٤٢٦/٢	و٢٦٢ و٢٦٧ و٢٧١ و٣٢١ و٣٤٣
الأعمش..... ٥١٥/١	الأزرقى..... ٢٢/٢
أفريقش بن قيس بن صيفي..... ٩٥/١	أسامة بن
أفضل الدين الخرنجي..... ٢٦٤/٢	زيد..... ٥٥٠ و٥٤٩ و٣٩٦ و٣٩٥ و٣٧٤/١

أفلاطون.....٢/٢٥٠	البرادعي.....٢/٣٤٢
أقليمناطس تلميذ بطرس.....١/٤١٥	البنار.....١/٥٣٠ و ٢/٥٣١ و ٢/١٨٠
أكمل الدين بن الشيخ الحنفية.....١/٥٦٠	البن دوي.....٢/٢٠٢ و ٢/٢٠٣
أليشع.....١/١٠٨	بزرجمهر الحكيم.....١/٥٥٤
أم حبيبة.....١/٥٣١	البن ساسيري الأمير.....١/١٠٨
أم سلامة.....٢/٤٢٤	بسطام بن قيس بن شيبان.....١/٢٧٠
أم سلمة.....١/٥١٨ و ١/٥١٩	بشار.....٢/٤٠٨
امرؤ القيس.....٢/٤١٣	بشار بن برد.....٢/٤١٠ و ١/٤١١
أمية بن أبي الصلت.....١/٢١٤	بشر بن مروان.....١/٥٢٧
أنس بن مالك.....١/٣٩٨ و ١/٥٢٧ و ١/٥٣٣	بشير بن نهيك.....١/٥٣١
الأنصاري.....١/٥٣٢	بطرس.....١/٤١٤ و ١/٤١٥ و ١/٤١٦
أنوشروان.....١/١٣٠ و ٢/٥٥٤ و ٢/٥٣	بطليموس.....١/١٤١
أوشير.....١/٤١٥	و ١٤٥ و ١٥٢ و ٢/٢٢٧ و ٢/٢٦١ و ٢/٣٢٧
أوقليدس.....٢/٢٥١ و ٢/٢٥٧	البغلي.....١/٤٤٧
أوميروس.....٢/٤١٥	بقراط الدن.....٢/٢٥٠
أيوب الصديق.....١/٤١٥	بكر بن وائل.....١/٣٩٦
(ب)	البكري.....١/١٢٠ و ٢/١٥ و ١/١٦
باديس بن المنصور.....١/٤٨٥	بلال بن أبي بردة بن أبي موسى
البتاني.....٢/٢٦١	الأشعري.....١/٣٥٤
البحري.....٢/٤١٠ و ١/٤١٤	بهاء الدولة.....١/٤١١
البحاري.....١/١٠٥ و ١/١١٦ و ١/٤٤٩ و ١/٥٢٠	بهرام بن بهرام.....١/١٢٩
و ٢/٥٢٥ و ٢/٥٢٧ و ١/٥٣١ و ١/٥٣٦ و ١/٥٥٠	بهلول بن عبيدة التحيبي.....٢/١٢١
و ٢/٢٢ و ٢/٨٢ و ١/١٨١ و ١/١٨٢ و ١/١٨٣ و ١/٢٠٩	بوران بنت سهل.....١/١٠٦ و ١/٣٤٧

ثوبان.....٥٢٩/١

الثوري.....٥١٥/١ و ٥٢٨ و ٢١٥/٢

(ج)

جابر بن حيان.....٢٥١/٢

٢٧٣ و ٢٨٦ و ٣١٠ و ٣١٩ و ٣٣٣ و ٣٣٨

جابر بن عبد الله.....٣٩٨/١ و ٥١٥ و ٥٢١

الجاحظ.....٢١٨/٢ و ٣٤٢ و ٣٧٥ و ٣٧٧

الجازية بنت سرحان.....٤١٦/٢

جالينوس.....١٣٨/١ و ٢٦٨/٢

جبريل بن يحنثشوع الطيب.....١٠٣/١

جبير بن مطعم.....٤٢٧/١

جراش.....٥٥٣/١ و ٥٥٤ و ٥٥٥

الجرجاني.....٩٥/١

جرجيس بن العميد.....٤١٦/١

جرير.....١١٥/١ و ٢٥٩ و ٢٥٤/٢ و ٤٠٨

جعفر.....

الصادق.....٣٧٨/١ و ٣٧٩ و ٤٥١ و ٥٥٠ و ٥٥١

جعفر بن يحيى بن

خالد.....٩٩/١ و ١٠٠ و ٣٧٥/٢

جلال الدين القزويني.....٣٧٥/٢

الجوزجاني.....٥١٧/١ و ٥٢١ و ٥٢٤

جوهر الصقلي الكاتب.....٣٤٨/١

الجوهري صاحب الصحاح.....٣٧١/٢

بوران بن الحسن بن سهل.....٣٣٩/١

بولس.....٤١٥/١

البوني.....٢٨٥/٢ و ٢٨٦ و ٣٠٩

البياسي يوسف بن محمد.....٩٥/١

البيساني (عبد الرحيم بن علي).....٤٠٦/٢

البيضاوي.....٢٠٢/٢ و ٢١٤

البيهقي.....٥٣٤/١

(ت)

تاج الدين الأرموي.....٢٠٢/٢

تاشفين بن علي بن يوسف.....٤٦٣/١

تامسطيوس.....٢٥٠/٢

تبع الأصفر أبي كرب.....٩٧/١

الترمذي.....١٠٥/١

٣٧٦ و ٥١٥ و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٥٠

تقي الدين بن دقيق العيد.....١٩٠/٢

تقي الدين السبكي.....١٩٠/٢

التوبذري.....٣٢١/١

توفيل الرومي المنجم.....٥٥٤/١

(ث)

ثابت بن قرة.....٢٥٧/٢

ثاودوسيوس.....٢٥٨/٢

الثعالبي.....٩٨/١ و ٣٧٢/٢

ثعلب.....٣٧٢/٢

(ح)

الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن	حاتم بن سعيد.....٤٢٧/٢
الحسن.....٣٧٨/١	حاجب بن زرارة.....٢٦٩/١ و ٢٧٠
الحسن بن سرحان.....٤١٧/٢	الحارث بن أسد المحاسبي.....٢٢٦ و ٢١٨/٢
الحسن بن سهل.....١٠٦/١	الحارث بن كعب اليميني.....٢٧٠/١
الحسن بن علي.....٣٧٧/١	الحارث بن كلدة.....٢٦٩/٢
٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٨ و ٤٥١ و ٥١٧ و ٥٢٠	الحارث بن مسكين.....١٩٠/٢ و ١٩٢ و ١٩٥
الحسن.....٥٥٥ و ٥٣٤/١	الحاكم.....٥١٥/١ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠
الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن	٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٦ و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٢٩
عمر.....٣٧٩/١	حام بن نوح.....١٩٣/١
الحسن بن القاسم بن وهب.....٥٦٠/١	حبيب أبو تمام.....٤٠٦/٢ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤١٤
الحسن بن محمد الصباح.....٣٧٩/١	الحجاج.....١١٨/١ و ١٢٠ و ٣٤٠ و ٣٥٣
الحسن بن يزيد السعدي.....٥٢٣/١	٤٢٧ و ٤٢٦ و ٤٤٧ و ٢٠/٢ و ٢١ و ١٧٦
الحسين بن علي.....٣٧٨/١ و ٣٧٩	حذيفة بن بدر.....٢٧٠/١
٣٨٨ و ٣٩٣ و ٣٩٥ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٩٩	حذيفة بن بدر الغزاري.....٢٦٩/١
الحصين بن غنيم السكوني.....٢٠/٢	حذيفة بن اليمان.....٥٤٩/١
الخطيئة.....٤٠٨/٢	الحراني.....٣١٥/٢
الحكم بن هشام بن عبد الرحمن	حرب بن أمية.....١٢٠/٢
الداخل.....١٣٥/٢	حسان بن ثابت.....٣٩٥/١ و ٤٠٨/٢
حماد بن إبراهيم الموصللي.....١٣٤/٢	الحسن البصري.....٥٣٣/١
حماد بن سلمة.....٥٢٢/١	الحسن بن الحسين بن علي بن علي زين
حماد عم باديس بن المنصور.....٤٨٥/٢	العابدين.....٢٢/٢
حنين بن إسحاق.....٢٥٧/٢	الحسن بن رشيق.....٨٤/١
الحوقلي.....١٥٢/١	

دانيال.....٢٢٨/١  
الدانيالي.....٥٥٩/١  
داود عليه السلام.....١٥/١ و ٢/١٨ و ٢٣  
داود بن المحير بن قحذم.....٥٣١/١  
دياب بن غانم.....٤١٧/٢  
دياب.....٤٢٢/٢

(ذ)

ذخيرة الملك.....٤١١/١  
الذهبي...١٦/١ و ١٨/٥ و ٢٣/٥ و ٢٥/٥ و ٢٨/٥  
و ٢٩/٥  
ذوبان.....٥٥٤/١  
ذي الإذعار.....٩٧/١  
ذي الجدين بيت شيان.....٢٦٩/١

(ر)

الرازي.....١٦٦/٢ و ٢١٣ و ٢١٤ و ٢٤١  
و ٢٦٥ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٣٦٣ و ٣٧٢ و ٣٩١  
راشد.....١١١/١  
رافع بن خديج.....٢٧/٢  
الرافعي.....١٩٦/٢  
رباب.....٢٦١/١  
رباح بن عجلة.....٢٢٢/١  
الربيع.....٥٥٥/١  
ربيعة بن نزار.....٣٩٨/٢

حيان بن خلف (أبو مروان).....٨٣/١  
حي<sup>١</sup> بن أحطب.....٥٤٨/١ و ٥٤٩  
حي بن يقطان.....١١٣/٢

(خ)

خاثر مولى عبید الله بن جعفر.....١٣٤/٢  
خارجة بن زيد.....٢٢٤/١  
الخارجي.....٤٥٥/١  
خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب.....٤١٩/٢  
خالد الدريوش.....٣٢٠/١  
خالد بن عبد الله القسري.....٣٥٣/١  
خالد بن يزيد.....٣١١/٢  
خزيمة بن ثابت.....٢٥٠/١  
الخطابي.....٤٤٨/١  
الخطيب.....٩/٢  
الخليجان بن قاسم.....١٢٠/٢  
خلف بن حيان الأحمر.....٢٥٦/٢  
الخليـل بـن أحمـد  
الفرهيدي.....٣٦٩/٢ و ٣٧٠ و ٣٧١  
الخنوجي.....٤٠٧ و ٣٤٦/٢  
الخيرى.....٤٦٠/١

(د)

الدارقطني.....٥١٦/١ و ٥١٧ و ٥٢١  
الدارمي.....١٨٠/٢

ربيعة بن نصر.....٢٢٢/١ و ٥٤٥  
رستم.....٢٩٠/١ و ٤٦٠  
الرقيق (إبراهيم بن القاسم).....٣٩٠/٢  
ركن الدولة.....٤١١/١

(ز)

زائدة.....٥١٥/١  
زاذان فروخ.....٤٢٧/١  
الزبير.....٣٨٥/١ و ٣٨٨ و ٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٧  
الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم بن  
السري).....٣٦٢/٢  
زر بن حبش.....٥١٥/١ و ٥١٦  
زرياب علي بن نافع.....١٣٥/٢  
زكريا بن أحمد اللحياني (أبو  
يحيى).....٤٧٥/١ و ٥٤١  
الزخشيري.....٩٨/١  
و ١٧٦/٢ و ٣٦٩ و ٣٧٢ و ٣٧٦ و ٣٨٨

الزناتي.....٢٢٧/١  
زناتي خليفة.....٤١٧/٢  
الزهرابي.....٢٥٦/٢  
زهرة بن حوية.....٢٥٢/١  
الزهري.....٤٢٧/١  
زهير بن أبي سلمى.....١٠٨/١ و ٤٠٨/٢ و ٤١٣  
زياد بن أنعم.....١٢٠/٢

زياد بن أبي سفيان.....٣٦٣/١ و ٤٥١  
زيد بن أرقم.....٣٩٨/١  
زيد بن ثابت.....٣٨٥/١  
زيد بن علي.....٣٧٨/١ و ٣٧٩  
زيد بن علي بن الحسين  
السيط.....٣٧٥/١ و ٣٧٨  
زيد العمي.....٥٢٠/١ و ٥٢١  
زين العابدين.....٣٧٥/١

(س)

سارية بن زنيم.....٢٢٤/١  
السالمي.....٢٤٧/٢  
سام بن نوح.....١٩٣/١  
السبتي.....٢٨٧/٢  
سحنون.....٣٤٢/٢  
سراج الدين الأرموي.....٢٠١/٢  
سراج الدين البلقيني.....١٩٠/٢  
سعد بن عبادة.....٣٦٩/١  
سعد بن عبد الحميد بن جعفر.....٥٢٧/١ و ٥٢٨  
سعد بن أبي وقاص.....٣٨٥/١  
و ٣٩٥ و ٤٠٩ و ٢٥٢ و ٢٥٠/٢

سعد الدين التفتازاني (مسعود بن  
عمر).....٢٥١/٢ و ٣٦٣  
سعيد بن الحكم بن أبي مريم.....٥٤٩/١

سهل بن هارون.....٤٠٦/٢  
 السهيلي.....٥١٤/١ و ٥٥٣ و ٥٤٧ و ٥٤٨  
 سوار بن قارب.....٢١٤/١  
 السوفسطائي.....٢٠٤/٢  
 سيويه/٢ ٣٤٤ و ٣٦٢ و ٣٦٩ و ٣٨٥ و ٣٨٨  
 سيف الدين الآمدي.....٢٠١/٢  
 سيف بن عمر الأسدي.....٨٢/١ و ٩٣  
 (ش)

شاذان البلخي.....٥٥٣/١  
 الشاطبي.....١٧٤/٢ و ٤٠٧  
 الشافعي.....٢٧/٢ و ١٣٢ و ١٧٩ و ١٨٧  
 و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ و ٢٠١ و ٢٠٣ و ٢٥٦  
 شبل بن مسكيانة.....٤١٩/٢  
 شجاع بن أسلم.....٢٥٥/٢  
 شرف الدولة.....٤١١/١  
 شرف الدين الطيبي.....١٧٦/٢  
 الشرمساحي.....١٩٦/٢  
 شريح.....٤٠٢/١  
 الشريف الإدريسي.....١٤١/١ و ١٤٥ و ١٥٢  
 الشريف الرضي.....١١٠/١ و ٤٠٦/٢  
 الشريف بن هاشم.....٤١٦/٢ و ٤١٧  
 شعبة/١ ٥١٥ و ٥١٦ و ٥٢١ و ٥٢٣ و ٥٢٤  
 الشعبي.....٢١٥/٢

سعيد بن العاص.....٣٩٦/١  
 سعيد بن المسيب.....٤٢٧/١ و ٥١٨  
 السفاح.....٣٩٢/١ و ٤١٠ و ٥٢٨  
 سفيان بن أمية.....١٢٠/٢  
 سفيان الثوري.....١٠٢/١ و ٥٢٧ و ٥٢٩  
 السكاكي.....٣٧٥/٢  
 سلطان بن مظفر.....٤١٨/٢  
 سلمة بن الفضل.....٥٣٢/١  
 سليمان عليه السلام.....٢٦/٢  
 سليمان بن داود.....٩٤/١ و ٣٨٦  
 و ٣٨٧ و ٣٩٢ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٤١٨/٢ و ٢٤  
 سليمان بن سعيد.....٤٢٧/١  
 سليمان الشطي (أبو عبد الله).....٢٥٦/٢  
 سليمان بن عبيد.....٥٢٢/١  
 سليمان بن كثير.....٣٧٨/١  
 السليماني.....٥١٧/١  
 سند.....١٩٦/٢  
 السهروردي.....٢٢٦/٢  
 سهل بن سعد.....٣٩٨/١  
 سهل بن عبد الله.....٢٣٦/١  
 سهل بن مالك (أبو الحسن).....٤٢٨/٢ و ٤٣٠ و ٤٣٦  
 سهل بن نوخت.....١٢٠/١





- عبد الله بن أحمد بن حنبل ١٨٠/٢ و ٥٣٠/١  
 عبد الله بن جدعان..... ١٢٠/٢  
 عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي ٥٢٩/١  
 عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح ٣٧٧/١  
 عبد الله بن أبي جعفر الملقب المنصور ٣٧٧/١  
 عبد الله بن الزبير..... ٣٩٣/١  
 و ٣٩٥ و ٤٤٧ و ٤٥١  
 عبد الله بن زياد..... ٥٢٨/١  
 عبد الله بن سعيد بن كلاب..... ٢١٨/٢  
 عبد الله بن سلام..... ١٧٥/٢ و ٣٩٥/١  
 عبد الله بن طاهر..... ٥٠٢/١  
 عبد الله بن عباس..... ١٢٠/٢ و ١٠٣/١  
 عبد الله بن عبد الحكم..... ١٩٠/٢  
 عبد الله بن العربي..... ٤١٢/١  
 عبد الله بن —————  
 عمر..... ٢١٧/٢ و ٣٩٢ و ٣٨٨ و ١٠٣/١  
 عبد الله بن عمر العمري..... ٥٣٢/١  
 عبد الله بن فروخ ٥٤٩/١ و ٥٥٠ و ١٢١/٢  
 عبد الله بن قلابة الصحابي..... ٩٨/١  
 عبد الله بن لهيعة..... ٥٣٢ و ٥٢٦/١  
 عبد الله (أبو محمد)..... ٥٤١/١  
 عبد الله بن مروان..... ٣٨٧/١  
 عبد الله بن مسعود..... ٥٢٥ و ٥٢٣ و ٥١٥/١  
 العباس بن عبد المطلب ١/٢٦١ و ٣٩٣ و ٥٣٢  
 العباس بن عطية..... ٢٦١/١  
 العباسة بنت محمد المهدي..... ١٠٠/١  
 عبد بن حميد..... ١٨٠/٢  
 عبد الجبار..... ٢٠١/٢  
 عبد الحق بن سبعين..... ٥٣٥/١  
 عبد الحميد الكاتب..... ٤٣١/١  
 عبد الحميد بن واصل..... ٥٢٣/١  
 عبد الحميد بن يحيى..... ٤٢٧/١  
 عبد الرحمن بن الأشعث..... ٤٢٧/١  
 عبد الرحمن بن أبي حاتم..... ٥١٦/١  
 عبد الرحمن بن ربيعة..... ٢٧٦/١  
 عبد الرحمن بن زياد بن أنعم..... ١٢٠/٢  
 عبد الرحمن بن عمر الموصلي..... ٥٦٠/١  
 عبد الرحمن بن عوف..... ٣٨٥/١ و ٣٩١  
 عبد الرحمن بن الناصر بن أبي عامر..... ٣٥٩/١  
 عبد الرحمن الداخل..... ٤٨٤/١  
 عبد الرحمن الناصر..... ٤٠٤/١  
 عبد الرحمن الناصر ابن الأمير عبد الله محمد  
 بن عبد الرحمن الأوسط..... ٤١٠/١  
 عبد الرزاق بن همام..... ٥٢٩/١  
 أبو فارس عبد العزيز..... ٨٩/١  
 عبد الكريم بن منقذ..... ٤٤٠/١

عثمان بن عفان.....٣٨٥ و ٣٨٤/١  
 و ٣٨٨ و ٣٩١ و ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٤٢٠ و ٤٥٠  
 و ٢١/٢  
 العجلي.....٥٢٤ و ٥١٧ و ٥١٦/١  
 العذري.....١٥٢/١  
 عرفجة بن هرثة.....٢٥٩ و ١١٥/١  
 عز الدين بن عبد السلام.....١٩٠/٢  
 عزرا الإمام.....٤١٥/١  
 عزيز بني إسرائيل.....٢٤/٢  
 عضد الدولة.....٤١١/١  
 عقيل بن أبي طالب.....٤٢٧/١  
 العقيلي.....٥٢٥/١  
 عكرمة بن عمار.....٢١٥/٢ و ٥٢٨ و ٥٢٧/١  
 علقمة.....٥٢٥ و ٥٢٣/١  
 علقمة بن عبدة.....٤١٣ و ٤٠٨/٢  
 علي بن الحسين السعدي.....٩٢ و ٨٢/١  
 علي بن زيد اليمامي.....٥٢٧/١  
 علي بن زياد.....٥٢٨/١  
 علي زين العابدين.....٣٧٩ و ٣٧٨/١  
 علي بن أبي طالب.....٣٧٥ و ٣٧٤ و ٣٧٣/١  
 و ٣٧٧ و ٣٧٩ و ٣٨٦ و ٣٨٨ و ٣٩٢ و ٣٩٣  
 و ٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٥٥  
 و ٤٦٢ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٥١٨ و ٥٢٥ و ٥٢٦

عبد الله بن محمد المرواني.....٤٢٥/٢  
 عبد الله بن المعتز.....٤١٠/٢  
 عبد القاهر الجرجاني.....٣٤٢/٢  
 عبد القيس بن ربيعة.....٣٩٦/١  
 عبد المؤمن.....٤١٢/١  
 عبد المؤمن بن علي.....٥٦/٢  
 عبد المسيح بن عمر بن بقية الغساني.....٥٤٦/١  
 عبد المطلب.....٢٢/٢  
 عبد الملك بن حبيب.....١٩٣/٢  
 عبد الملك —————  
 مروان.....٥٣ و ٣٨٧/١ و ٣٩٥ و ٢٠/٢  
 عبد الملك.....٣٩٢/١  
 و ٣٩٩ و ٤٠١ و ٤٢٧ و ٤٤٦ و ٤٤٧ و ٤٨٣  
 عبد الوهاب المالكي.....١٩٢ و ١٩٠ و ٢٧/٢  
 عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان.....٣٥٣/١  
 عبيد الله المهدي.....١٠٧/١  
 و ١١٠ و ٤٠٩ و ٥٥١  
 عبد الله المهدي.....٣٧٩ و ١٠٩/١  
 عتاب بن بشر.....٥٢٣/١  
 العتابي.....٤٠٦/٢  
 العتيبي.....٣٤٢/٢  
 عثمان بن خالد الطويل.....٢١٨/٢  
 عثمان بن عبد الحق المريني (أبو سعيد).....٨٧/٢

و٤٠٣ و٤٠٩ و٤٢٠ و٤٢١ و٤٢٧ و٤٤٧  
 و٤٥٠ و٤٥١ و٤٥٥ و٤٦٤ و٥٣٩  
 و٢١/٢ و٢٢ و٢٥ و٢٩ و١٧٢ و٢٣٩ و٢٥٠  
 عمر بن أبي ربيعة..... ١٠٢/١ و٤٠٨/٢  
 عمر بن الزبير..... ٤٥١/١  
 عمر بن سعد بن أبي وقاص..... ٣٥٣/١  
 عمر السكسيوي..... ٣٢١/١  
 عمر بن عبد العزيز..... ٣٨٦/١ و٥٣٩  
 عمر بن علي..... ٣٧٨/١  
 العمري (عبد الرحمن بن عبد الله)..... ١٠٢/١  
 عمرو بن جابر..... ٥٣٠/١  
 عمرو بن جابر الحضرمي (أبو  
 زرعة)..... ٥٢٦/١ و٥٢٩  
 عمرو بن العاص..... ٣٦٣/١  
 و٣٧٤ و٣٩٥ و٤٠٩ و٤٢١ و٤٥٥  
 عمرو بن أبي قيس..... ٥١٧/١ و٥١٨  
 عمرو بن محمد العنقزي..... ٥٢٧/١  
 العميدي..... ٢٠٣/٢ و٢٠٤  
 عنتره..... ٤٠٨/٢ و٤١٣  
 عوج بن عناق..... ٣٤٥/١ و٣٤٦ و١٢/٢  
 عوف الأعرابي..... ٥٢٢/١  
 عوف القوافي..... ٢٦٩/١  
 عيسى بن الزيات (أبو مهدي)..... ٢٣٩/٢ و٢٤١

و٥٢٧ و٥٣٠ و٥٣٢ و٥٣٤ و٥٣٩ و٥٥٣  
 و٢٢/٢ و٢٣٨  
 علي العجمي..... ١٢٤/٢  
 علي بن عمر بن إبراهيم..... ٤٢٣/٢  
 علي بن المؤذن سلمان..... ٤٤٢/٢  
 علي بن مجاهد..... ٣٧١/٢  
 علي بن المديني..... ٥٢٧/١  
 علي بن مقله الوزير..... ١٢٣/٢  
 علي بن موسى الرضي من آل  
 الحسين..... ٣١٩/١  
 علي الرضا..... ٣٨٠/١  
 علي بن موسى بن جعفر الصادق..... ٣٩٢/١  
 علي بن نفيل..... ٥١٨/١  
 علي الهادي..... ٣٧٩/١  
 علي بن الهلال الكاتب الشهير بابن  
 البواب..... ١٢٣/٢ و١٢٥  
 العماد الأصبهاني..... ٤٠٦/٢  
 عمار الدهني..... ٥٢٧/١  
 عمران القطان..... ٥١٩/١  
 عمران المشذالي..... ١٦٧/٢  
 عمر بن الخطاب..... ١٢٩/١ و٢٢٤ و٢٥٢  
 و٢٥٧ و٢٨٠ و٣٧٠ و٣٧٣ و٣٧٤ و٣٨٣  
 و٣٨٤ و٣٩١ و٣٩٢ و٣٩٣ و٣٩٤ و٤٠٢

الفضل بن يحيى... ١٠٢/١ و ١٢٨/٢ و ٢٥٦  
الفضيل بن عياض... ١٠٢/١

(ق)

قاسم بن مرة بن أحمد... ٥٤٤/١  
قبيصة بن ذؤيب... ٥٤٩/١  
قدامة بن جعفر... ٣٧٥/٢  
قدامة بن مطعون... ٣٩٥/١  
قرة بن إياس... ٥٣١/١  
قسطنطين... ٢٥/٢ و ٤١٥/١  
قصي بن كلاب... ١٩/٢  
قتادة... ٥١٩/١  
قيس بن ذريح... ٤١٠/٢  
قيس بن عاصم المنقري... ٢٧٠ و ٢٦٩/١  
قيصر... ٤٢٠/١  
القاسم بن إدريس... ٢٦٢/١  
القاسم بن أبي بزة... ٥١٦/١  
القاسم بن محمد بن إدريس... ٢٦٢/١  
القاضي أبو إسحاق بن شعبان... ١٩٠/٢  
القاضي إسماعيل... ١٩٥/٢  
القاضي عياض... ١٨٤ و ١٨٢/٢  
القدوري... ١١٠/١  
القرطبي... ١٧٦/٢  
القرمطي... ١٠٨/١

عيسى بن زيد بن علي... ٣٧٨/١  
عيسى بن عمر... ٣٧٩/٢  
عيسى بن مريم... ٥٣٤ و ٥٣٣ و ٤١٥/١  
و ٥٣٨ و ٥٤٠ و ٥٤١ و ٢٥/٢ و ٢٦٨

عيسى النوشري... ١٠٧/١  
عيسى بن يزيد... ٣٧٨/١

(غ)

الغزالي... ٢١٣ و ٢٠١/٢  
و ٢١٤ و ٢٢٦ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٧١ و ٣١١  
غيلان ذي الرمة... ٤٠٨/٢

(ف)

فارس بن وردار... ٣٥٢/١  
فاطمة بنت محمد عليه السلام... ١٠٩/١  
فخر الدين ابن الخطيب... ٢٦٤ و ٢٠١/٢  
فضالة بن عبيد... ٣٩٥/١  
فضل بن عيسى... ٥٢١/١  
فطر بن خليفة... ٥١٧ و ٥١٦/١  
الفارابي... ١١٣/٢  
الفارسي... ١٣٤/٢  
الفارسي (أبو الحسين أحمد بن فارس) ٣٦٢/٢  
الفارسي... ٣٨٨/٢  
الفرزدق... ٤٠٨/٢  
الفرغاني... ٢٣٠/٢

(م)

المازري..... ١٨٢/٢  
 ماضي بن مقرب..... ٤١٧/٢  
 مالك بن أنس ١/٥١٥ و ٥٢٨ و ٢٧/٢  
 و ١٠٣ و ١٢٠ و ١٣٢ و ١٧٩ و ١٨٣ و ١٨٧ و ١٨  
 و ٨ و ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٥٦ و ٣٤٢  
 مالك بن الرب..... ١٠٩/١  
 مالك بن وهيب..... ١/٢٣٤ و ٢/٣٠٢ و ٣٠٨  
 المأمون..... ١/١٠٥ و ١٠٦ و ٣٣٩  
 و ٣٤٠ و ٣٤٢ و ٣٨٠ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٤٠٣  
 و ٤٠٤ و ٥٠٢ و ٥٥٤ و ٥٥٥ و ٩/٢ و ٨١  
 المأمون بن ذي النون..... ١/٣٤٠ و ٢/٤٢٥  
 الماوردي..... ١/٤٠١ و ٤٤٨  
 المبرد..... ٢/٣٧٦  
 متى..... ١/٤١٤  
 المتنبي..... ٢/٤١٤  
 المثني بن الصباح..... ١/٥٣٢  
 مجاهد..... ١/٥٢٨ و ٢/٢١٥  
 مجاهد العامري..... ١/٤٣٨  
 مجاهد بن موالى العامرين..... ٢/١٧٣  
 المجوسي..... ٢/٢٦٨  
 المحبر بن قحذم..... ١/٥٣١  
 محمد بن إبراهيم المعروف بالإمام..... ١/٣٧٧

القسطلي..... ٢/٣٩٠  
 القشيري..... ٢/٢٢٥ و ٢٢٦  
 القعني..... ٢/١٧٩  
 القونسي..... ٢/١٩٤

(ك)

كافور الأخشيدي..... ١/١٢٠  
 كتنا أتليمطس..... ١/٤١٥  
 كراع..... ٢/٣٧٢  
 الكرمانى..... ٢/٢٤٧  
 كسرى..... ١/٢٦٩ و ٢٧٠ و ٤٢٠  
 و ٥٣٩ و ٥٥٣ و ٥٥٤ و ٢/١٣ و ٢٨٠  
 كعب الأخبار..... ١/٥٤٦ و ٥٤٧ و ٢/١٧٥  
 كعب بن عجرة..... ١/٣٩٥  
 كعب بن مالك..... ١/٣٩٥  
 الكعبي الجبائي..... ٢/٢١٨  
 كلثوم بن عمرو..... ٢/٤١٠  
 الكندي..... ١/٥٣٧ و ٥٣٨ و ٥٤٠  
 كيكائوس..... ١/٩٧

(ل)

اللخمي..... ٢/١٩٣ و ٣٤٤  
 لقمان الحكيم..... ٢/٢٥٠  
 لوقا..... ١/٤١٤  
 ليلى بنت طريف الخارجية..... ٢/٣٩٨

محمد بن عبد الجبار بن  
الناصر.....٣٥٩/١  
محمد بن عبد السلام.....١٦٧/٢  
محمد بن عبد العظيم.....٤٣٦/٢  
محمد بن عبد الله.....٣٧٨/١  
محمد بن عبد الله النفس الزكية.....٣٧٨/١  
محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن  
السيط.....٣٧٨/١  
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.....٣٧٧/١  
محمد بن عمر الواقدي.....٨٢/١  
محمد بن أبي الفضل بن الشرف.....٤٢٧/٢  
محمد بن الفضيل.....٥٢٤/١  
محمد بن القاسم بن علي بن عمر.....٣٧٨/١  
محمد بن قلاوون (الملك الناصر).....٤٧٥/١  
محمد بن محمد بن إبراهيم أبو البركات  
البليقي.....٣٣٣/٢  
محمد بن مروان العجلي.....٥٣٠/١  
محمد بن مسلمة.....٣٩٦/١  
محمد المكنوم بن إسماعيل.....٣٧٩/١  
محمد بن المنكدر.....٥١٥/١  
محمد بن موسى بن النعمان.....١٢١/٢  
محمد الهادي المنتظر.....٣٨٠/١  
محمد بن يحيى الذهلي.....٥٤٩/١

محمد بن إدريس الشافعي ٥٣٤/١ = الشافعي  
محمد بن إسحاق.....٥٣٢ و ٨٢/١  
محمد بن إسماعيل الإمام.....١٠٩/١  
محمد بن إسماعيل البخاري.....١٧٩/٢  
محمد الأمين.....٣٥٦/٢  
محمد الباجريقي (شمس الدين) ٥٥٨/١ و ٥٦٠  
محمد الباقر.....٣٧٩ و ٣٧٥/١  
محمد التقي.....٣٨٠/١  
محمد الحبيب.....٣٧٩/١ و ٥٥١  
محمد بن حزم.....٥٢٣/١  
محمد بن الحسن العسكري الملقب  
المهدي.....٣٧٦/١ و ٣٨٠  
محمد بن الحسن.....١٧٩/٢  
محمد بن أبي الحسين.....٣٧١/٢  
محمد بن الحنفية.....٣٧٦/١  
و ٣٧٧ و ٥٢٥ و ٥٢٧  
محمد بن خالد الجندي.....٥٣٣/١١ و ٥٣٤  
محمد بن زيد.....٣٧٨/١  
محمد بن أبي زيد.....٢٥٣/١  
محمد بن سعد.....٥١٦/١  
محمد بن سيرين.....٢٤٧/٢  
محمد بن صبيح ابن السماك.....١٠٢/١  
محمد بن طلحة.....٣٩٥/١

مخرمة بن نوفل.....٤٢٧/١	مسلمة الجريطي.....٢١٧/٢ و ٢٢٢
المدائني.....٤٤٦/١	٢٥١ و ٢٥٦ و ٢٧٠ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٨٥
مدغيس.....٤٣٥/٢ و ٤٣٦	٢٨٦ و ٣١٠ و ٣١٧ و ٣١٩ و ٣٣٣ و ٣٣٨
مرة.....٥١٧/١ و ٥٢٠	مسلمة بن مخلد.....٣٩٥/١
٥٢١ و ٥٢٣ و ٥٣٠ و ٥٣١ و ٥٣٤	المسيح عليه السلام.....٤١٤/١ و ٤١٧
المرتضى أخو الشريف.....١١٠/١	المسن بن دوريدة.....٤٢٧/٢
مرجى بن رجاء اليشكري.....٥٣١/١	مصعب بن الزبير.....٤٤٧/١
مرقاس.....٤١٦/١	مطر الوراق.....٥٢٢/١
مرقاص.....٤١٥/١	مطرف بن طريف.....٥١٧/١ و ٥١٨ و ١٩٥/٢
مروان بن الحكم.....٣٨٦/١	معاوية بن أبي سفيان.....٣٨٣/١ و ٣٨٦ و ٣٨٨
٣٨٧ و ٤٥٥ و ٤٦٠ و ٣١١/٢	٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٣٩٥ و ٤٢١ و ٤٥١
المزني.....١٩٠/٢	و ٤٨٣ و ٤٥٥ و ٥٣٩
المزي.....١٠٥/١	معاوية بن خديج.....٣٩٥/١
المستنصر العباسي.....٤١٢/١	معبد بن عبد الله الجهني.....٢١٧/٢
المستنصر.....٥٥٧/١ و ٣٧١/٢	المعتصم.....٤٠٣/١
المستور.....١٨٣/٢	المعتصم بن صمادح.....٤٢٥/٢
المسعودي.....٩٤/١	المعتضد.....١١٠/١
٩٥ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٦	معز الدولة.....٤١١/١
١٢٧ و ١٢٩ و ١٥٢ و ٢٢١ و ٣٣٩ و ٣٤٢	المعز لدين الله.....٤٩٧/١
٣٤٦ و ٣٨٥ و ٣٨٧ و ٤٧٧ و ٢٧/٢	المغالطي.....٢٠٤/٢
مسلم.....٥٢٠/١ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٤ و ٥٢٧	المغربي.....٤٤٧/١
٥٢٨ و ٥٢٩ و ١٧٩/٢ و ١٨٢ و ١٨٣	المغيري.....٣٣٣/٢
مسلم بن الوليد.....٤١٠/٢	المغيرة بن شعبة.....٣٨٨/١ و ٣٩٥ و ٤٠٩

المقداد.....٣٨٥/١	موسى بن صالح.....٥٤٦/١
مقدم بن معافى.....٤٢٥/٢	موسى الكاظم.....٣٧٩/١ و ٣٨٠
منذر بن سعيد.....٤٠٤/١	موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
المنذر.....٥٢٨/١	المغربي.....٤٣٠/٢
المنصور.....٣٧٨/١	موسى بن نصير.....١٢٧/١ و ٣٥٤
و ٣٩٢ و ٤١٠ و ٤٤٠ و ٥٢٨ و ٢١/٢	ميلاوش.....٢٥٨/٢
المنصور بن أبي عامر.....١٧٣/٢ و ٤٢٣/١	(ن)
منصور بن عكرمة بن معاوية.....٣٨١/٢	النابعة.....٤٠٨/٢ و ٤١٣
منصور أبو علي.....٤٢٣/٢	ناصر الدين الزواوي (أبو علي).....١٩٦/٢
منصور النمري.....٤١٠/٢	ناصر الدين المشدالي (أبو علي).....١٦٧/٢
المهتدي.....٤٠٣/١	النجاشي.....٤٢٠/١
المهدي.....١١١/١	النجم الإسرائيلي.....٢٣٨/٢
و ١١٤ و ١١٥ و ٣٩٢ و ٤١٠ و ٤١٢ و ٥١٤	النسائي.....٥١٧/١
و ٥١٥ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠ و ٥٢٢ و ٥٢٥	و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٦ و ٥٢٧
و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٢٩ و ٥٣٠ و ٥٣٢ و ٥٥٥	النسفي.....٢٠٤/٢
المهدي بن المنصور.....٢١/٢	نصيب.....٤٠٨/٢
مهدي الموحدين.....٢٦٢/١	نصير الدولة.....٤١١/١
المسهر بن الفرس.....٤٢٩/٢	نصير الدين الطوسي.....٢٦٧/٢ و ٣٦٣
المهلب بن أبي صفرة.....٣٥٣/١	نضر بن سيار.....٣٥٤/١
بني المهلب.....١٢٠/١	نظام الملك.....٤١١/١
مهلهل.....٤١٩/٢	النعمان.....٢٦٩/١
موسى عليه السلام.....٩٥/١	النعمان بن بشير.....٣٩٥/١
و ٣٧٩ و ٤١٣ و ٢٣/٢	نوح عليه السلام.....٣٣٥/١



النووي..... ١٨٠/٢  
 و ١٨٢ و ١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٦

(هـ)

هارون عليه السلام..... ٣٧٩/١  
 هارون بن سعد العجلي..... ٥٥١ و ٥٥٠/١  
 هارون بن المغيرة..... ٥١٧/١ و ٥١٨  
 هارون الرشيد ٩٩/١ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣  
 و ١١١ و ٣٨٩ و ٣٩٢ و ٤١٠ و ٤٣٠ و ٤٥١  
 و ٥٥٥ و ٥٣/٢ و ٣٥٦ و ٣٦٩ و ٣٧٧ و ٤١٣  
 هامان..... ٤١٥/١

هرقل ٣١٤/١ و ٤١٦ و ٥٣/٢ و ٢٠٣ و ٢٠٩  
 هرمس هو إدريس..... ١١٠/٢  
 هشام بن محمد بن الكلبي..... ٨٢/١  
 هشام المؤيد..... ٣٧١/٢  
 هلال بن عامر..... ٤١٩/٢  
 هلال..... ٤٢٢/٢  
 هلال بن عمرو..... ٥١٧/١ و ٥١٨  
 الهادي..... ٤١٠/١  
 الهروي..... ٢٣٨/٢ و ٢٣٩  
 الهوشني..... ٥٥٧/١  
 هيرودس..... ٤١٤/١ و ٢٤/٢  
 هيلانة..... ٢٥/٢

(و)

واصل بن عطاء الغزال..... ٢١٧/٢  
 واصل..... ٢١٨/٢  
 واصل بن عطاء..... ٣٧٥/١  
 الواقدي..... ٣١٤/١  
 ودس الشماخ..... ١١١/١  
 وكيع بن الجراح..... ٥٢٥/١  
 الوليد بن عبد الملك..... ٢١/٢ و ٢٥  
 الوليد بن عقبة..... ٣٩٦/١  
 وهب بن منبه..... ٥٤٦/١ و ٥٤٧ و ١٧٥/٢

(ي)

يأجوج ومأجوج ١٨٢/١ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٢  
 ياسين العجلي..... ٥٢٥/١  
 ياقوت..... ١٥٥/١ و ١٢٤/٢  
 يحيى بن أبي حفص (أبو زكريا)..... ٤٥٦/١  
 يحيى بن أكثم..... ١٠٥/١ و ٤٠٣  
 يحيى بن بقي..... ٤٢٦/٢  
 يحيى بن خالد..... ١٠٠/١ و ٤٥١ و ١٣/٢  
 يحيى الحرطي بن محمد بن يحيى العوام ١١٣/١  
 يحيى الخزرجي..... ٤٣٠/٢  
 يحيى بن الزيدية..... ٣٧٨/١  
 يحيى بن زيد..... ٣٧٨/١  
 يحيى بن سعيد..... ٥٥٠/١

- يحيى بن السلطان أبي إسحاق إبراهيم (أبو زكريا) ٤٨٥/١.....
- يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ١٠١/١.....
- يحيى القطان ٥١٦/١ و ٥١٧ و ٥٢٠.....
- يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المغافري التونسي ١٢١/٢.....
- يحيى بن معين ٥٣٣/١.....
- ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٤ و ٥٢٨ و ٥٣٠ و ٥٣١.....
- يحيى بن يحيى الليثي ١٩٢/٢.....
- يزيد ٣٩٨/١ و ٢٢٥ و ٣٩٥.....
- يزيد بن أبي زياد ٥٢٣/١ و ٥٢٤.....
- يزيد الرقاشي ٥٢١/١.....
- يزيد بن زريع ٥٢٠/١.....
- يزيد بن عبد الملك ٤٤٧/١.....
- يزيد بن قطن (بني الديان) ٢٧٠/١.....
- يزيد بن معاوية ٣٩١/١ و ٣٩٣ و ٢٠/٢ و ٣١١.....
- يستاسف ٩٧/١.....
- يشوع بن شارخ ٤١٥/١.....
- يعقوب بن أبي شيبة ٥٢٨/١.....
- يعقوب بن إسحاق الكندي ٥٥٣/١ و ٥٥٥.....
- يعقوب بن سفيان ٥١٦/١.....
- يعقوب بن عبد الحق ٤٥٦/١.....
- يعلى بن مينة ٣٨٥/١.....
- يرحنا بن زبيدي ٤١٤/١ و ٤١٥.....
- يونس بن أبي إسحاق ٥٢٧/١.....
- يوسف بن تاشفين ٤١١/١ و ٤٧٠.....
- يوسف بن الحاج ٢٥٧/٢.....
- يوسف بن يحيى البويطي ١٩٠/٢.....
- يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ٢٦٩/١.....
- يوسف بن يعقوب التويزري ٥٤٢/١ و ٥٤٣.....
- يوشع عليه السلام ٤١٣/١ و ٢٣/٢.....
- اليماني ٤٥٥/١.....
- اليميني ٤٤٧/١.....

## القبائل والجماعات

- بنو أبي حفص.....٤٢٤/١ و ٤٢٨ و ٤٨٥  
 بنو أبي عبد.....٤٧٤/١  
 بنو الأحمر.....٤٤٥/١  
 بنو إدريس.....١١٣/١ و ٤٨٩  
 الأدارسة.....٢٦٢/١ و ٤٦١ و ٤٨٤  
 الأرمن.....٤١٣/١  
 الأسباط.....٩٤/١  
 بنو أسد.....٢٥٧/١ و ٣٩٩  
 بنو إسرائيل.....٨٦/١ و ٩٢ و ٩٣  
 و ٩٦ و ١١٦ و ١٦٣ و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٢٨  
 و ٢٦٤ و ٢٧٥ و ٣٢٦ و ٣٣٥ و ٣٤٦ و ٤١٣  
 و ٥٤٦ و ٢٣/٢ و ٢٤ و ٢٦ و ٣٤١  
 الإسماعيلية...١٧٢/٢ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٣٧٩  
 الأعاجم.....١٠٠/١ و ١٤٣ و ١٧٤ و ٢٤٥  
 و ٣٦٢/٢ و ٢٠٦  
 الأعراب.....١٦٤/١ و ٢٤٩ و ٢٥٠  
 الأغالبة.....١١/٢  
 الإفرنج ٨٦/١ و ١٢٢ و ١٤٢ و ١٧٨ و ١٨٣  
 و ١٩٠ و ١٩٢ و ٢٨٤ و ٣٢٤ و ٣٢٦ و ٤٣٨  
 و ٤٣٩ و ٤١٧ و ٤٣٧ و ٤٤١ و ٤٤٥ و ٤٦١  
 و ٢٨/٢ و ٤٤ و ٢٥٢ و ٣٨٣ و ٤٤١  
 الأكراد.....٢٤٦/١ و ٤٨٠  
 الألمانيون.....١٧٨/١
- بنو أمية.....١٠٤/١  
 و ١٠٨ و ٣١٠ و ٣١٢ و ٣٤٠ و ٣٤٥ و ٣٩٩  
 و ٣٥١ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٧ و ٤٢٢ و ٤٢١  
 و ٤٠٤ و ٤٠٩ — ٤١٠  
 و ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٨ و ٤٩٢ و ٥٥٣ و ٥٥٤  
 و ٥٣/٢ و ٤٤ و ٢٩١ و ٤١٣ و ٤٧٥  
 الأمويين.....٣٢٧/١ و ٤٠٧ و ٤٣٩ و ٤٤٧  
 الأنصار.....٢٧٦/١ و ٣٩٦ و ٤٧٤ و ٨٢/٢  
 الأيوبيين.....١٩٠/٢
- (ب)
- البرامكة/١ ٢٦٢ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٣٤٨ و ٣٥٤  
 البربر/١ ٩٥ و ١١٠ و ١١٦ و ١٢٠ و ١٢٢  
 و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥٤ و ١٥٦ و ١٥٨ و ١٦٠  
 و ١٦٥ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٨ و ٢١٩ و ٢٤٥  
 و ٢٤٦ و ٢٨٢ و ٣١٠ و ٣١٢ و ٣٢١ و ٣٢٤  
 و ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٤٠٤ و ٤١١  
 و ٤٢١ و ٤٢٣ و ٤٤٤ و ٤٦١ و ٤٧٤ و ٤٨٨  
 و ٤٨٩ و ٤٩٧ و ٥٤٦ و ٥٦٠ و ٢٨/٢ و ٣٧  
 و ٧١ و ٩٨ و ٣٢٦ و ٣٥٣ و ٤٤٧  
 البنادقة.....١٤٢/١  
 بنو بويه.....٣٥٤/١ و ٤٩٢

بنو حذرة.....٤٧٤/١	(ت)	التبابعة.....١١٦/١ و ١٩/٢
بنو حسن.....٥٤٢/١		التتارية.....١٨٧/١
بنو حسني.....٥٤٢/١		التتر.....٤٩٣/١ و ٤٩٧
بنو حشمناي.....٤١٤/١		التترتر.....٣٤٠/١
بنو حمدان.....٢٧٣/١ و ٤٩٤		الترك/٨٦ و ٩٥ و ٩٧ و ٩٨ و ١١٦ و ١٢٢
حمير.....٩٥/١ و ٩٦ و ٢٥٧ و ٢٧١		١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٦١ و ١٦٥
٢٨٢ و ٢٩١ و ١٣/٢ و ٩٩ و ١٢١ و ٤١٥		١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٦ و ١٧٨ و ١٨١
الحواريين.....١٧٨/١ و ٤١٤ و ٤١٥		١٨٢ و ١٨٥ و ١٨٧ و ١٩٠ و ١٩٢ و ٢٤٥
(خ)		٢٤٦ و ٢٧٣ و ٢٨٤ و ٣٠٩ و ٣٢٤ و ٣٢٧
خزاعة.....٢٥٧/١		٣٣٤ و ٣٥٤ و ٣٨٣ و ٤٠٤ و ٤٢٣ و ٤٢٥
الخوارج.....٣٢٦/١ و ٤٧٤ و ٤٨٤		٤٢٨ و ٤٣١ و ٤٣٥ و ٤٣٦ و ٤٤٥ و ٤٩٢
(د)		٤٩٧ و ٥٥٤ و ١٧٠/٢ و ٢٧٧ و ٤٠١ و ٤٠٣
بنو الديان.....٢٧٠/١		بنو تميم.....٢٦٩/١
(ر)		(ث)
الروس.....١٤٢/١		ثقيف.....٢٥٧/١ و ٣٩٦
الروم/٨٦ و ٩٧ و ١١٦ و ١٤٢ و ١٤٤		ثمود.....١٦٤/١ و ٢٨٢ و ٣٣٥ و ٣٤٥
١٧٩ و ١٨٩ و ١٩٢ و ٢٥١ و ٢٨٢ و ٣٢٤		(ج)
٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٩٦ و ٤١٤ و ٤٣٧ و ٤٣٨		بنو جعفر.....٥٤٢/١
٤٥٦ و ٥٥٤ و ٢٥/٢ و ٢٩ و ٤٤ و ٥٣		الجلالقة.....٣٨٢/٢
٧١ و ٩٩ و ١٠٦ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٣٤١		(ح)
(ز)		بنو حارث.....٢٧٠/١
الزنج.....١٤٢/١ و ١٩٢ و ١٩٣		الحبشان.....١٩٣/١

(ط)

بنو طاهر..... ٣٥٤/١ و ٤٧٤  
بنو طغج..... ٣٤٠/١  
بنو طولون..... ٤٩٢/١ و ٤٩٤  
بنو طيء..... ٢٧١/١

(ع)

عاد..... ٣٣٥/١ و ٣٤٥  
بنو عامر بن صعصعة..... ٢٦١/١ و ٢٧١  
بنو العباس ١٠٤/١ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩  
و ١١٠ و ١١١ و ١١٢ و ٢٦١ و ٢٦٦ و ٢٦٧  
و ٢٧٣ و ٢٩١ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١٢ و ٣٢٧  
و ٣٤٠ و ٣٥١ و ٣٥٤ و ٣٦١ و ٣٨٨ و ٤٠٣  
و ٤٠٩ - ٤١٠ و ٤١١ و ٤٢١ و ٤٢٧ و ٤٤٤  
و ٤٤٧ و ٤٥٦ و ٤٧٥ و ٤٨٣ و ٤٨٥ و ٤٩٢  
و ٤٩٤ و ٤٩٧ و ٥٤٣ و ٥٥٣ و ٥٥٥  
و ٥٣/٢ و ١٨٩ و ١٩٠ و ٤١٣

بنو عبد المؤمن..... ٤٣٩/١  
بنو عبد مناف..... ٤٨٤/١  
بنو عبد الواحد..... ٢٦٢/١  
بنو عبد الواد..... ٣٢٤/١ و ٤٢٥  
العبيديين..... ٢٦١/١ و ٤٤٧  
بنو عيصو..... ٣٢٦/١

زناتة..... ٧٣/١  
و ١٦٠ و ٢٤٦ و ٢٧٦ و ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٣١٠  
و ٣٢٤ و ٣٢٨ و ٣٤٠ و ٣٦١ و ٣٨٩ و ٤١٢  
و ٤٢٥ و ٤٤١ و ٤٤٥ و ٤٨٤ و ٤٩٨  
الزيدية..... ٣٧٤/١

(س)

بنو سامان..... ٤٨٥/١ و ٤٩٢ و ٤٩٧  
بنو سيكتكين..... ٤٩٧/١  
بنو سعيد..... ٢٦٢/١  
بنو سلامة..... ٢٦٢/١  
بنو سليم بن منصور..... ٢٦١/١ و ٢٧١ و ٢٨٨  
بنو سهل بن نوبخت..... ٣٥٤/١ و ٤٧٤  
السريان..... ٨٦/١ و ١١٦ و ١٢٩ و ٣٤١/٢  
السلجوقية..... ٣٠٩/١ و ٤٩٢  
و ٤٩٣ و ٤٩٧ و ٥٥٤/٢ و ٥٨ و ٣٩٢

(ش)

بنو شاكرا..... ٢٥٨/٢  
بنو شهيد..... ٤٧٤/١  
الشيعة..... ٢٧٣/١

(ص)

بنو الصفار..... ٤٩٢/١  
الصقالب..... ١٩٠/١  
و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٤٥ و ٤٣٧ و ٤٣٩

العجم.....١٧٦/١

و٢٥٩ و٣٠٩ و٣١٠ و٣٦٠ و٤٢٠ و٤٤٥

و٤٨٥ و٤٩٢ و٥٦٠ و١١/٢ و٥٨ و٩٢

و١١٢ و١٣٣ و١٦٨ و١٦٩ و١٨٩

و٢١٤ و٢٥١ و٣٦٢ و٣٦٣ و٣٧٥ و٣٨٢

و٤١٤ و٤٤٧ و٥٦٠

عجم المغرب.....٩٨/٢

العرب ١/١٨ و١٩٢ و١٩٦ و٢٥٩ و٢/٤٤٧

العلويين ١/٢٦١ و٢٦٢ و٢٧٣ و٥٥٢-٥٥٣

(ف)

الفرس ١/٩٣ و١٠٠ و١١٦ و١٢٩ و١٩٣

و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٨٢ و٢٨٤ و٢٨٨ و٣٢٧

و٣٤٠ و٣٤٥ و٣٦١ و٣٦٤ و٤١٤ و٤٤٧

و٤٦٠ و٤٧٧ و٢/١٩ و٢٧ و٢٩ و٤٤

و٥٣ و٧١ و٧٤ و٨٦ و٩٩ و١٣١ و١٣٣ و٢٥٠

الفرنجة.....١/١٧٧ و١٨٩ و٣٦١

(ق)

بنو قحطبة.....١/٤٧٤

القبـــــط ١/٨٦ و٩٤ و٩٦ و١١٦ و١٢٩

و٢٧٥ و٢٩/٢ و٤٤ و٧١ و٧٤ و٩٩ و٢٤٩

قحطان.....١/٣٢٤

قريش. ١/٩٩ و١٠٠ و١١٨ و٢٥٧ و٣٥٩

و٣٧٠ و٣٧١ و٣٩٦ و٤١٢ و١٩/٢

(ك)

بنو كعب اليمني.....١/٢٧٠

الكلدانيين.....٢/٤٤

كنانة.....١/٢٥٧ و٣٩٦ و١٩/٢

الكتعانيين.....١/٤١٣

الكيانية.....١/٤١٤ و٩١٧ و٢/٤٤

(ل)

بنو لوط.....١/٣٢٦

(م)

المجوس.....١/١٣٩ و١٦٨

بني مدرار.....١/١٠٨

بنو مدين.....١/٣٢٦

المرابطون.....١/٣١٠ و٣١٦ و٤٩٨

بنو مروان.....١/٣٥٩

بنو مريـن.....١/٣٢٤ و٤٢٨ و٤٩٨ و٢/٥٢

المشاركة.....٢/٤٣٣

المصامدة.....١/١٦٠ و١٦٧ و٢٦٢ و٣٢٤

مضر.....١/١١٦ و٢٥٧

و٢٧١ و٢٨٢ و٢٩١ و٣٧١ و٣٨١ و٤٨٤

و٤٤/٢ و١٢١ و٣٥٦ و٣٨١ و٣٨٣

بنو منحة.....١/٢٦٢

المهدية.....١/١٦١ و٩/٢

الموحدين ١/٢٣٣ و٣٢٤ و٣٢٥ و٣٢٧

هذيل.....٢٥٧/١  
 بنو هلال.....٢٨٨/١  
 بنو هيرودس.....٢٤/٢ و ٤١٤/١

(ي)

بنو يدلتن.....٢٦٢/١  
 بنو يزيد.....٢٦٢/١  
 بنو يحزن.....٥٤٦/١  
 اليونانيون.....١٧٩/١  
 و ١٨٩ و ٢٨٢ و ٣٦١ و ٢٥٩/٢  
 اليهود/١٣ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٥٤٨ و ٤٣/٢  
 بنو يهوذا.....٤١٤/١

و ٣٤٠ و ٤١٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٨ و ٤٣٦  
 و ٤٤٠ و ٤٤٥ و ٤٥٤ و ٤٨٥ و ٤٩٨  
 و ١١/٢ و ٩٣ و ١٦٦ و ٤٢٧

(ن)

النبط.....٤٤/٢ و ٩٩ و ١١٦/١ و ٣٢٦  
 النصاري ١٩٠/١ و ٣٧٥ و ٤١٧ و ٤٣٨  
 و ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٢٥/٢ و ٤٥ و ٩٨ و ١٧٥  
 و ٢٥٠ و ٣٤١ و ٣١  
 بنو نوبخت.....٢٦٦/١

(هـ)

بنو هاشم.....٢٧٠/١ و ٣١٢ و ٣٢٠ و ٤٨٩

## الدول والبلدان

الأربس.....١٦١/١

(آ)

الأربونة.....١٧٧ و ١٧٠/١

آم.....١٧٥ /١

أردبيل.....١٨٠/١

آمد.....١٧٣ و ١٦٧ /١

الأردن.....٩٣/١ و ١٦٤ و ١٨٠ و ٣٥٠ و ٤١٣

(أ)

مدينة إرم.....٩٨ و ٩٩/١

دولة ابن الأحمر.....٣٩١/٢

بلاد أرمينية.....١٨٣ /١

أبجة.....١٥٦/١

بلاد الأرمن.....١٧٢ و ١٧١/١

دار ابجر.....١٦٥/١

أرمينية.....١٤٤/١ و ١٧٤ و ١٨٠ و ٣٥٠

أبدة.....١٦٩/١

أسافلة.....١٦٧/١

الأبله.....١٦٤ و ١٤٣/١

إسبجاب.....١٧٦/١

الأبواب.....١٨٠/١

استجة.....١٦٩/١

أتامش.....٣٥٤/١

أستراباد.....١٧٥ و ١٦٦/١

أجدابية.....١٦٢/١

استلاندة.....١٨٧/١

الأحساء.....١٦٤/١

أسفى.....١٦٠/١

الأحقاف.....١٩٠ و ١٥٧ و ١٤٣ و ١٤٢/١

أسفراين.....١٦٦/١

أخريين.....٤٨٤/١

إسكندرونة.....١٧١/١

أخطب.....١٦٤/١

الإسكندرية.....١٠٧/١ و ١٠٨ و ١١١ و ١٢٦

الأدم.....١٩٧/١

١٤١ و ١٤٤ و ١٥٥ و ١٦٢ و ٤١٦ و ٤٤٠

أذربيجان.....٩٥/١

٤٤١ و ٤٧٥ و ٤٩٧ و ١٧/٢ و ١٩٦ و ٢٤٩

١٤٤ و ١٦٤ و ١٧٤ و ١٨٠ و ٣٤٩

الدولة الإسلامية.....٤٨٤/١ و ٤٩٢

أذكش.....١٨٢/١

أسنا.....١٥٨/١

أذنة.....١٧٢/١

أسوان.....١٥٥/١

أران.....١٨٠/١



٥٥ و ١٢٤ و ١٣٥ و ١٩٣ و ٣٥٤ و ٣٧٥

٣٨٣ و ٣٨٦ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٤٤٤

إفلاندرش..... ١٨٣/١

أقريطش..... ٤٣٨ /١

إقريطش..... ١٦٨ /١ و ٤٣٩

الأقصى..... ١١٠ /١

أكريكش..... ٣٢٦ /١

الإلغاز..... ٢٣٤ /١

إمزيسية..... ١٨٣ /١

الدولة الأموية..... ١١٨ /١ و ٤٠٤

٤٧٥ و ٤٩٤ و ٤٩٧ و ٣٩١ /٢ و ٤٧٤

الأنبار..... ١٧٣ /١

الأندلس /١ و ٨٣ و ١١٨ و ١١٩ و ١٤٢ و

١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٨٩ و

١٩٧ و ١٩٨ و ٢٥٨ و ٢٨٠ و ٢٨٤ و

٣١٠ و ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٤٠ و

٣٥٠ و ٣٥٧ و ٣٨٩ و ٤٠٤ و ٤٠٧ و

٤١٠ و ٤١١ و ٤٢٢ و ٤٢٥ و ٤٣٥ و

٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٤٥ و ٤٥٩ و ٤٧٠ و

٤٧٤ و ٤٧٥ و ٤٨٥ و ٤٨٨ و ٤٨٩ و

٤٩٤ /٢ و ٣٦ و ٤٤ و ٤٥ و ٥٨ و ٩٣ و

٩٤ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢٤ و ١٢٥ و

١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٥ و ١٦٦ و ١٧٣ و

أسيوط..... ١٥٨/١

أشبونه..... ١٦٩/١

أشبونة..... ١٦٩/١ و ١٧٠

إشبيلية..... ١٦٩ /١ و ٣٩١/٢ و ٤٣١ و ٤٣١

أشتر..... ١٦٧ /١

أشروسنة..... ١٧٥ /١

أشير..... ١٦١/١

أصبهان /١ و ١٦٥ و ١٧٤ و ٤١٤ و ٤٩٣ و ٥٢/٢

إصطخر..... ١٦٥/١

أصيلا..... ١٦٠/١

أطرابزندة..... ١٨٠ /١

الأعوان..... ٤٧٤ /١

أغمات..... ١٦٠ /١

أفراغة..... ١٧٠ /١

أفرنصيصة..... ١٧٨ /١

أفيرة..... ١٨٣ /١

أفريقية..... ٨٣ /١

٩٥ و ١٠٨ و ١١١ و ١١٢ و ١٤١ و ١٧٠ و

٣١٤ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧ و

٣٣٤ و ٣٥٠ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤٢٨ و ٤٣٥ و

٤٣٧ و ٤٧٥ و ٤٨٤ و ٤٨٩ و ٤٩٢ و ٤٩٧ و

٥٤٢ و ١١/٢ و ١٧ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٥ و

بان.....٢٦٩/١	١٧٤ و ١٧٦ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣
بجاية.....٤٨٥/١	و ١٩٥ و ١٩٧ و ٢٣٩ و ٢٥١ و ٣١٠
البحران.....٩٩/٢	و ٣١٨ و ٣٥٤ و ٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٧١
البحرين.....٩٧/١	و ٣٧٥ و ٣٨٣ و ٣٨٦ و ٣٩١ و ٤١١ و ٤١٥
و ١٤٣ و ١٥٩ و ١٦٤ و ١٦٩ و ٤٩٣	و ٤٢٥ و ٤٣١ و ٤٣٣ و ٤٤٠ و ٤٤٦
بجناك.....١٨٧/١	أنطاكية.....١٧٢/١
بخارى.....١٧٦ و ١٧٥ و ١٤٥/١	أنطوطوس.....١٧٢ و ١٧١/١
بدلاص.....١٦٢/١	أنكبردة.....١٧٨ و ١٧١/١
برحان.....١٤٢/١	إنكلاية.....١٧٨ و ١٤٢/١
بردعة.....١٨٠/١	أنكوية.....١٨٣/١
برشلونة.....١٧٧ و ١٧٠/١	الأهواز.....٣٤٨/١
برشوم الغبار.....٢٣٤/١	الأوثار.....٢٣٤/١
برصة.....١٧٩/١	أوثان.....١٦٢/١
برطاص.....١٨٥ و ١٨٤/١	أوربة.....٤٨٤/١
برغشت.....١٧٧ و ١٧٦/١	إيلاق.....١٧٦ و ١٧٥/١
برغونة.....١٨٣ و ١٧٧/١	أيلة.....١٦٣ و ١٤٣/١
برقة.....٤٠ و ١٧/٢ و ٣٥٠ و ١٦٢ و ١٤١/١	إيوان.....١٤٣/١
البركات.....١٧٧/١	
بريطانية.....١٨٣/١	(ب)
بسجرت.....١٨٥/١	بادس.....٣٢١ و ١٦٩/١
بست.....١٦٥/١	البادية.....١٦٤/١
بسطام.....١٧٥/١	باريا.....١٧٤/١
بسطة.....١٦٩/١	باطوس.....١٧٩/١
	باكباك.....٣٥٤/١

١٧٧/١.....بنبلونة.	١٦٤ و ١٤٤ و ١٤٣ و ٩٦/١.....البصرة.
١٦٥/١.....البحرج.	١٦٨ و ٣٠/٢ و ٣٩٧ و ٣٩٦ و ٣٤٩ و
١٦٦/١.....بوشنج.	١٤٤/١.....بصفين.
١٦١/١.....بلدبونة.	١٤٤/١.....البطحاء.
١٦٤/١.....بيروت.	١٥٥/١.....بطيحة.
١٨٣ و ١٧٧ و ١.....بيطو.	١٦٤/١.....بعلبك.
١٨٤ و ١٨٠ و ١٤٧ و ١.....أرض السيلقان.	٣٥٤/١.....بغا.
(ت)	١٤٤ و ١٤٣ و ١١٠/١.....بغداد.
١٥٨/١.....أرض التاجوين.	٣٢٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٩ و ٣٠٩ و ٣١٩ و ٣٢٠ و
١٦٠/١.....تادلا.	٥٥٩ و ٣٢٧ و ٣٣٩ و ٤٨٥ و ٤٩٧ و ٥٥٥ و ٥٥٩ و
١٦٠/١.....تازا.	١٨٩ و ٩/٢ و ٥٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٦٨ و ١٨٩ و
١٦٧/١.....بلاد التاسان.	١٧٣/١.....بقرقيسيا.
٢٩١/١.....دولة التبابعة.	١٨٤/١.....بكنجر.
١٧٦ و ١٦٧ و ١٦٦ و ٩٧/١.....بلاد التبت.	١٥٥/١.....بلاق.
١٧٤/١.....تبريز.	١٦٨/١.....بلبونس.
١٧٠/١.....تتاخمان.	١٦٦ و ١٤٥ و ١٤٤/١.....بلخ.
١٦٤/١.....تدمر.	١٧٠/١.....بلرم.
١٦٩/١.....ترجالة.	١٨٥ و ١٨٤/١.....أرض بلغار.
١٨٤/١.....أرض ترخان.	١٨٧/١.....أرض بلغر.
١٦٧ و ١٦٦ و ١٤٥/١.....ترمذ.	١٧٠/١.....بلنسية.
١٧٢.....التركمـان.	١٥٩/١.....بلاد بلهرا.
٢٨٠ و ٢٤٦ و ٢٤٥ و ١٨٠ و ١٧٩ و	١٨٦ و ١٩٣/١.....بلونية.
١٦٩/١.....تطاون.	١٧١ و ١٤٢/١.....بلاد البنادقة.

جرندة..... ١٧٧/١ و ١٧٧  
 الجريد ١٦١/١ و ٤٧٠ و ٤٨٥ و ١٥/٢ و ٥٥  
 الجوزجان..... ١٦٦/١ و ١٦٧ و ١٧٥  
 الجوخ..... ١٨٥/١  
 جون..... ١٧٧/١ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٢  
 الجزائر..... ١٥٧/١ و ١٦٠  
 جزائر الرومانية..... ٤٣٩/١  
 الجزيرة..... ٩٧/١ و ١٧١  
 و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٩٤ و ٣٢٦ و ٩٩/٢  
 الجلاء..... ٢٣٤/١  
 الجلالة..... ١٨٩/١  
 الجلالقة..... ٢٨٤/١  
 جلولاء..... ١٧٤/١  
 حليقية..... ١٧٦/١  
 الجنادل..... ١٥٥/١  
 دومة الجندل..... ١٦٤/١  
 جنوة..... ١٧٧/١  
 حيان..... ١٦٩/١  
 حيرفت..... ١٦٥/١

## (ح)

الحبشة ١٤٢/١ و ١٤٣ و ١٥٥ و ١٥٦  
 و ١٩٢ و ١٩٣ و ٣٢٣ و ٥٤٦ و ١٨١/٢ و ١٩٠

أرض التغرغر..... ١٦٧/١  
 تغليس..... ١٨٠/١  
 تلمسان... ٢٦٢/١ و ٤٨٥ و ١١/٢ و ١٦٧  
 بلاد التلول..... ١٩٤/١  
 تورتر..... ٥٥/٢  
 التوغل..... ١٩٤/١  
 مدينة تونس..... ١٦١/١  
 و ٤٧٥ و ٤٨٥ و ١٤/٢ و ٩٣ و ١٢٤ و ١٦٧  
 و ١٦٨ و ٢٤٧ و ٣٢٩ و ٣٥٤ و ٤٤٤

التيه..... ١٦٣/١  
 تينملك..... ١٦٠/١  
 تيماء..... ١٦٤/١

## (ث)

دولة ثمود..... ٢٩١/١  
 الثوار..... ٤٧٤/١

## (ج)

جنولية..... ١٨٣/١  
 جدة..... ١٤٣/١ و ١٥٨ و ٥٥/٢  
 جذام..... ٢٥٧/١  
 جرجان..... ١٧٥/١ و ٣٤٩  
 الجرجانية..... ١٤٥/١ و ١٧٥  
 جرجرايا..... ١٧٣/١  
 جرمانية..... ١٨٣/١

خراسان ٩٣/١ و ١٤٥ و ١٦٥ و ١٦٦  
 و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٥ و ٣٤٩ و ٤٨٥ و ٤٩٢  
 و ٥٨/٢ و ١٦٨ و ١٨٩ و ١٩٦ و ٢٥١ و ٤٩٧  
 خرخير..... ١٦٧/١  
 خرداذبة..... ١٨٦/١  
 خرشنة..... ١٨٠/١  
 خرطوشة..... ١٧٠/١  
 الخزر..... ١٤٣/١ و ١٤٤  
 و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٤ و ١٨٥ و ١٩٢  
 الخزمية..... ١٤٢/١  
 الخزلية..... ١٤٥/١ و ١٦٧ و ١٧٦  
 خشاب..... ١٦٦/١  
 خفشناخ..... ١٨٥/١ و ١٨٨  
 خلاط..... ١٤٤/١ و ١٨٠  
 الخليج..... ١٤٢/١  
 و ١٦٩ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٣ و ١٨٤  
 أرض الخليجية..... ١٧٦/١  
 الخوارج..... ٣٥٣/١  
 خوارزم..... ١٤٤/١ و ١٤٥ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦  
 خورستان..... ١٦٥/١

(د)

دانية..... ١٧٠/١  
 دبيل..... ١٨٠/١

الحجاز ٩٣/١ و ١٠٨ و ١١٠ و ١٤٣ و ١٥٦  
 و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٤ و ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩٦  
 و ٣١٢ و ٣٢٤ و ٣٣٤ و ٣٥٠ و ٣٩٦ و ٣٩٨  
 و ٣٩٩ و ٤١٣ و ٤٨٤ و ٤٩٧ و ٥٤٢ و ٢/  
 و ٢٦ و ٢٧ و ١٨٦ و ١٨٧ و ١٩٠ و ١٩٢ و ٣٦٨  
 الحجازيين..... ٢٦١/١ و ١٧٩  
 بلد الحجر ١٦٤/١ الحرمين..... ٤٩٧/١  
 حروايا..... ١٧٨/١  
 حسران..... ١٧٢/١  
 حشاب..... ١٦٧/١  
 حضرموت..... ١٥٧/١ و ١٩٠  
 حلوان..... ١٧٤/١ و ٣٤٨  
 حمص..... ١٦٤/١ و ١٧٢  
 حص الحوانني..... ١٧٢/١  
 الحوراء..... ١٦٣/١  
 حوران..... ٤١٦/٢  
 الحيرة ٩٧/١ و ١٤٣ و ١٦٤ و ١٧٣ و ١٢٠/٢

(خ)

خازرون..... ١٧٥/١  
 خانكو..... ١٥٧/١  
 الختل..... ١٦٦/١ و ١٦٧  
 نخجندة..... ١٧٥/١ و ١٧٦

بلاد الروم..... ١٤٢ و ٩٧ و ٩٦ و ٩٥/١.....  
 ١٧١ و ١٧٢ و ٤٠٤ و ٤١٣ و ٥٨/٢  
 رومة العظمى..... ٢٥٢/٢ و ١٧٨/١.....  
 بلد الري..... ١٧٤/١.....

## (ز)

زالغ..... ١٤٣ و ١٥٦/١.....  
 زبيد..... ١٥٧ و ١٤٢/١.....  
 زغاوة..... ١٥٤/١.....  
 زفتي..... ١٦٢/١.....  
 الزنج..... ١٩٢ و ١٥٦ و ١٤٢/١.....  
 الزواودة..... ٢٦٢/١.....

## (س)

سابور..... ١٦٥/١.....  
 الساسانية..... ٥٥٤ و ٢٨٢ و ٩٧/١.....  
 مدينة سال..... ١٧٠ و ١٦٩/١.....  
 سبأ..... ١٥٩/١.....  
 سبتة..... ٤٣١ و ٣٩١/٢ و ٤٣٦ و ١٦٩ و ١٦٨/١.....  
 سجستان..... ٣٤٩ و ١٦٥ و ١٥٩/١.....  
 سجلماسة..... ١٦٠/١.....  
 سحر ب..... ١٨٨/١.....  
 سرخس..... ١٦٥/١.....  
 سردانية..... ٤٣٨ و ١٧٠ و ١٦٨/١.....  
 سروج..... ١٧٢/١.....

درعة..... ١٦٠/١.....  
 درن..... ١٦١/١.....  
 الدروب..... ١٧١/١.....  
 دنقلة..... ١٥٥/١.....  
 دمشق..... ١٦٤ و ٩٩/١.....  
 ٢٥٨ و ٣٤٥ و ٣٥٠ و ٥٦٠ و ٥٢/٢  
 دمياط..... ١٦٢ و ١٥٥/١.....  
 الدينور..... ١٧٤/١.....  
 الديلم..... ٤٨٥ و ٣٠٩ و ١٤٤ و ١٠١/١.....  
 ٤٩٢ و ٤٩٧ و ٥٥٤ و ٥٨/٢ و ٣٩٢

## (ر)

الرباط..... ٣٢٨/١.....  
 الرحبة..... ١٧٣/١.....  
 الرسوم..... ١٦٥/١.....  
 رشيد..... ١٦٢ و ١٥٥/١.....  
 الرافضة..... ١٧٣ و ١٧٢/١.....  
 الرقة..... ١٧٣ و ١٧٢ و ١٤٤/١.....  
 رم..... ١٧٥/١.....  
 خط الرمل..... ٢٢٩/١.....  
 الرها..... ١٧٢/١.....  
 رواحة..... ١٦٢/١.....  
 الرودن..... ١٦٥/١.....  
 الروسية..... ١٨٧ و ١٨٤ و ١٥٣/١.....

١٦٠/١.....بلاد السوس الأقصى	١٧٠/١.....سرقسطة
١٩٧ و ٣٢٤ و ٥٤٢ و ٤٠/٢	١٧٠/١.....سرقوسة
١٦١/١.....السوسة	٤٣٩/١.....سرويكش
١٦٣ و ١٦٢ و ١٥٦ و ٩٧ و ٩٦/١.....السويس	١٨١ و ١٨٠/١.....السريير
١٦١/١.....سويقة ابن مكثود	١٧٦/١.....سعيور
١٦٥/١.....بلد سيراف	٥٨/٢.....السغال
١٥٧/١.....جزائر السيلان	١٥٧ و ١٥٦ و ١٤٢/١.....سفالة
١٨٥/١.....السركس	١٦٠/١.....سلا
٣٤٩/١.....السري	١٧٢/١.....سلمية
١٧٧/١.....بلد سنتياقو	١٧٦/١.....سلمكنة
(ش)	١٧٢ و ١٧١/١.....سلوقية
١٧٦ و ١٧٥/١.....الشاش	١٧٥ و ١٤٥ و ٩٥/١.....سمر قند
١٧٠/١.....شاطبة	١٧٦/١.....سمورة
١٤٣ و ١١٠ و ١٠٨ و ٩٦ و ٩٤/١.....الشام	١٧٢/١.....سميساط
١٧٢ و ١٦٠ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٧١ و ١٧٢	١٥٨/١.....سنترية
١٨٠ و ١٨٩ و ٢٥٧ و ١٧٥ و ٢٨٨ و ٣١٢	١٥٩ و ١٤٣ و ١٤٢/١.....السند
٣٩٦ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٤٦ و ٣٩٦	٥٨/٢ و ٤٩٢ و ٣٤٨ و ٣٢٣ و ١٨٩
٤٩٢ و ٤٤٠ و ٤٣٩ و ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٣٩٨	١٤٣/١.....سواكن
٥٨ و ٤٩٤ و ٤٩٧ و ٥٥٤ و ٢٥/٢ و ٤٤ و ٤٤	١٥٤/١.....السودان
٤١٦ و ١٠٦ و ١٩٠ و ١٩٦ و ٢٥٠ و ٣٨٠ و ٤١٦	١٩٢ و ١٥٦ و ١٥٨ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٢
١٧٥ و ١٦٥/١.....الشاهجان	١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٨٠ و ٢٨٤
١٥٩ و ١٥٧ و ١٥٦ و ١٤٣/١.....الشحر	٢٨٨ و ٢٨٠ و ٤٠/٢ و ٣٩٤
٩٧/١.....بلاد الشرق	

١٦٧/١.....الصفد	١٦٩/١.....شريش
١٧٥ و ١٦٨ و ٩٥/١.....صقلية	١٨٣/١.....شصونية
٤٣٩/١.....صفاقس	١٧٧/١.....شطلية
٤٣٩ و ٤٣٨ و ١٧٠/١.....صقلية	١٦٢/١.....شطنوف
١٦٤/١.....الصمان	٢٥٧/١.....شظف
١٥٧ و ٩٦/١.....صنعاء	١٧٠/١.....شقر
١٥٩/١.....الصنم	١٧٦/١.....شقوبية
١٥٨/١.....صنهاجة	١٧٠/١.....شقورة
١٦٠ و ١٩٦ و ٢٧٣ و ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٣٠٩ و ٣١٢ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٦١ و ٣٨٩ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤٨٥ و ١١/٢ و ٥٦ و ٩٣	١٦٩/١.....شلب
٤٣٩/١.....صور	٣١٠/١.....شمخ
١٨١/١.....صول	١٦٩/١.....شنترين
١٦٤/١.....صيدا	١٦٩/١.....شنتمزية
١٦٣/١.....صيداء	٢٧٦/١.....شهريراز
١٧٤/١.....صيمة	٣٤٩/١.....شهرزور
١٥٧ و ١٥٦ و ١٥٥ و ١٤٢ و ٩٦/١.....الصين	٢٥٧/١.....شوب
١٥٩ و ١٦٧ و ١٨٩ و ١٩٢ و ٤٨٨ و ٩٨/٢	١٦٥/١.....شيراز
	١٦٥/١.....الشيرجان
	٤٢٣/١.....دولة الشيعة
	١٥٩/١.....شيفون

(ط)

١٦٥/١.....الطاق
٢٣٤/١.....الطالع
١٦٦/١.....الطالقان

(ص)

١٨٣/١.....صايص
١٥٧/١.....صعدة
٤٩٧ و ١٦٢ و ١٥٨/١.....الصعيد



(ع)

دولة عاد..... ٢٩١/١  
 الدولة العباسية..... ٣٦٠ / ١  
 و٤٠٤ و٤٧٠ و٤٧٤ و١٧/٢ و٣٦٢ و٣٩١  
 الدولة العبيدية..... ٤٧٠/١  
 بلاد العجم..... ٩٨ و ٤٨/٢  
 عدن..... ١٥٧/١  
 دولة العرب..... ١١٦ و ١١١/١  
 العراق ٩٧/١ و ١٠٤ و ١٤٣ و ١٦٧ و ١٦٨  
 و ١٧٣ و ٢٥٧ و ٢٧١ و ٣٢٣ و ٣٢٦ و ٣٤٧  
 و ٣٩٨ و ٤١٤ و ٤٢٧ و ٤٤٧ و ٤٦٤ و ٤٩٢  
 و ٢٢/٢ و ٤٤ و ٥٨ و ١٢٨ و ١٧٠ و ١٨٥  
 و ١٨٦ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩٢ و ٣٨٠ و ٤١٦  
 العراقين..... ٩٣/١  
 و ١٨٩ و ٣٤٠ و ٤٩٧ و ٤٨٥ و ١٧٩/٢  
 العريش..... ١٦٣ و ١٦٠ و ١٤٣/١  
 عين زربة..... ١٧٢/١  
 عسقلان..... ٤٣٩ و ١٦٣/١  
 العقبة..... ١٦٣/١  
 عكا..... ٤٣٩/١  
 العلوج..... ٢٨٤/١  
 العلايا..... ١٧٢/١  
 رمال..... ١٦٢/١

طبرستان ١٤٤/١ و ١٧٥ و ١٨٠ و ٣٤٩ و ٤٩٧  
 طبرية..... ١٦٤/١  
 طبست..... ١٨٧/١  
 طرايفه..... ١٧٠/١  
 طرابلس..... ١٦١/١  
 و ١٦٣ و ١٧١ و ٤٣٩ و ١٧/٢ و ٥٥  
 طراز..... ١٧٦/١  
 طرسوس..... ١٧٢/١  
 طركونة..... ١٧٠/١  
 طريف..... ١٤٢/١  
 الطغرغر..... ١٩٢/١  
 طليبرة..... ١٦٩/١  
 طلسمسة..... ١٦٢/١  
 طلوشة..... ١٧٧/١  
 طليطلة..... ٣٤٠ و ١٦٩/١  
 طنجة..... ١٦٨ و ١٤١/١  
 الطوبران..... ١٥٩/١  
 طوس..... ١٧٥/١  
 طيى..... ٢٥٧/١

(ظ)

الظاهرية..... ١٧٥/١  
 ظفار..... ١٥٧/١

فاس.....١٦٠ و ١١٣ و ٨٩/١.....

١٩٤ و ١٩٨ و ٥٠٠ و ٣٣/٢ و ٥٢

الفداوية.....١٧٢/١.....

فرانية.....١٨٣/١.....

فرغانة.....١٤٥/١ و ١٦٧ و ١٧٦

بلاد الفز.....١٨٢/١.....

فزان.....١٥٨/١.....

فستالة.....١٧٦/١.....

فسطاط.....١٤٣/١.....

فلسطين.....٩٣/١ و ٣٢٦ و ٣٥٠ و ٤١٣

الفيوم.....١٦٢/١ و ٤٩٧

### (ق)

قابس.....٤٣٩/١ و ١٥/٢ و ١٦ و ٥٥

القابون.....٥٦٠/١.....

القادسية.....٩٣/١ و ١٤٣ و ١٦٤

١٧٣ و ٣١٤ و ٣٢٣ و ٤٢٧ و ٤٥٩ و ٤٦٠

قاشان.....١٦٦/١ و ١٧٤ و ١٧٥

القاهرة.....١٠٧/١ و ١٦٢ و ٤١٠ و ٤٩٧

٣٣/٢ و ٨٢ و ٩٢ و ١٢٤ و ١٦٨ و ١٧٠ و ٤٤٥

قباقيب.....١٧٩/١ و ١٨٠

القدس.....١٠٦/١ و ١٦٤

قبرس.....٤٣٨/١.....

قبرص.....١٦٨/١.....

عمان.....١٤٣/١ و ١٥٩ و ٤١٣ و ٩٩/٢

دولة العمالقة.....٢٩١/١ و ٣٢٦

عمورية.....١٧٩/١ و ١٨٠

عيزاب.....١٤٣/١ و ١٥٨

### (غ)

غافق.....١٦٩/١.....

غانة.....١٥٧/١.....

غدامس.....١٦١/١.....

غرغون.....١٨٢/١.....

الغرما.....١٦٣/١.....

غرناطة.....١٦٩/١ و ٤٢٩/٢ و ٤٣٠

غشكونية.....١٧٠/١ و ١٧٧

غمارة.....١٩٧/١.....

إقليم غمر الماء.....١٧٠/١.....

الغور.....١٦٤/١ و ١٦٦ و ١٦٧

### (ف)

فاران.....١٤٣/١ و ١٣٦ و ١٦٧

فارس.....٩٣/١ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ١١٣

١٤٣ و ١٤٤ و ١٦٥ و ١٧٥ و ١٩٢ و ٣٢٣

٣٢٤ و ٣٢٦ و ٣٤٨ و ٣٩٦ و ٤٥٩ و ٤٦٤

٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٧ و ٥٥٤ و ٥٨/٢

٢٤٩ و ٣٨٣

القنندهار.....١٥٩/١	قرطاجنة.....١٧٠/١
قنسرين.....١٧٢/١ و ٢٥٨ و ٣٥٠	قرطبة.....١٦٩/١
قنطرة السيف.....١٦٩/١	و ٣٤٥ و ٩/٢ و ١٦٧ و ١٧٦ و ١٩٥
القنطرة.....٣٤٥	قرقشونة.....١٧٧ و ١٧٠/١
القنوج.....١٥٩/١	قرمط.....١٦٢/١
قوحره.....٤٣٨/١	قزوين.....١٨١ و ١٧٥ و ١٧٤/١
قورية.....١٦٩/١	قستالة.....١٧٧/١
قوس.....٣٤٩/١	قسطالة.....١٧٧/١
قرص.....١٥٨/١	القسطنطينية.....١٨٠ و ١٤١ و ٩٦/١
القوط.....٣٢٤/١	و ١٨٣ و ٣٢٣ و ٤٨٥ و ٥٣٧ و ١٠٦/٢
القيروان.....١٠٧ و ١٠٨ و ١١٠	قشمير.....١٥٩/١
و ١٦١ و ٣٢٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ و ٤٨٥ و ٩/٢	قصاعة.....٢٥٧/١
و ١١ و ٣٠ و ٩٤ و ١٢٠ و ١٦٧ و ١٩٣	قفار.....١٦٢/١
قيسارية.....١٦٣/١	قفجاق.....١٨٥/١
قيمازك.....١٨٧/١	قفجق.....١٨٨/١
(ك)	قفصة.....١٦١/١
كابل.....١٦٥ و ١٥٩ / ١	قلمرية.....١٧٠/١
كاتم.....١٥٤/١	القلزم.....١٦٣ و ١٤٣/١
كاجرة.....١٥٤/١	قلهات.....١٥٩/١
كتامة.....٢٧٣/١	قلورية.....١٧٨ و ١٧١
كتمان.....١٦٧/١	قم.....١٧٤/١
كدميه.....١٦٠/١	قمانية.....١٨٧ و ١٨٤/١
كرمان.....٣٤٨ و ١٦٥ و ١٦٤ و ١٤٣/١	قمنورية.....١٥٨/١

١٨٣/١.....الحاين	١٥٨/١.....كزولة
١٥٨/١.....لمطة	١٤٣/١.....كسرى
١٨٣/١.....لهرنكة	٤٤/٢.....الكسروية
١٧٠/١.....ليورقة	٥٣/٢.....الكلية
١٧٦/١.....ليون	٣٢٦ و ٩٦/١.....كنعان

(م)

١٨٦/١.....بلاد مأجوج	١٥٨/١.....كوار
٤١٣ و ١٥٩/١.....مأرب	٣٤٩ و ١٧٣ و ١٤٤ و ١٤٣/١.....الكوفة
١٦٩/١.....ماردة	١٦٨ و ٣٠ و ٢٩/٢ و ٣٩٨ و ٣٩٧ و ٣٩٦
٣٧١/١.....مارس	١٦٥/١.....كوهستان
١٧٠/١.....ماز	٣٧٥/١.....الكيسانية
٣٤٩/١.....ماسبذان	١٨٢ و ١٧٦/١.....الكيمائية

(ل)

١٦٩/١.....مالقة	١٧١/١.....اللاذقية
١٦٨/١.....مايرقة	١٩٢ و ١٤٤/١.....اللان
١٦٨/١.....المجاز	١٨٤/١.....الانية
١٦٣ و ١٤٣/١.....مدين	١٦٢/١.....اللاهوان
٥٤٢ و ٢٤٥/١.....المدينة	١٦٩/١.....لبلة
١٨٠ و ١٧٢/١.....المراغة	٤٩٨ و ٣١٠ و ١٥٨/١.....لمتونة
١٦٠/١.....مراكش	٢٥٧/١.....لخم
١٦٦ و ٩٤/٢ و ٤٩٨ و ٣٢٧	١٧١/١.....لفظة
١٨٣/١.....مرانية	١٧٠/١.....لقنة

٤٩ و ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٧٤ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٦	مربلة..... ١٦٩/١
١١٩ و ١٢٤ و ١٢٩ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٨٩	مرسية..... ١٧٠/١
١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ٢٥١ و ٣٦٣ و ٣٧٠	مرعش..... ١٧٢/١
٣٨٠ و ٣٩٠ و ٤٤٥	مرو الروذ..... ١٦٦/١
المغرب..... ٨٦/١	مرو..... ١٧٥/١
٩٥ و ١١٣ و ١٢١ و ١٥٨ و ١٩٤ و ١٩٧	المرية..... ١٧٠ و ١٦٩/١
٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٦ و ٣٤٧ و ٤٠٧	مسراته..... ١٥٨/١
المغرب الأقصى..... ١٥٢/١ و ١٦٠	بلد المسيلة..... ١٦١/١
المغرب الأوسط..... ١٦٠ و ١٦١	مسيني..... ١٧٠/١
المغل..... ٤٩٣/١	المشرق الأقصى..... ٣٩/٢
مغلية..... ٤٨٤/١	مشكورة..... ١٦٠/١
بيت المقدس ٩٣/١ و ٣٤٦ و ٤١٣ و ٤١٤	مصيات..... ١٧٢/١
٤٣٩ و ٤٤٠ و ١٨/٢ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٦ و ١٩٦	المصيصة..... ١٧٢/١
مقدونية..... ١٧٩/١	أرض منجالة..... ١٧٠/١
مقديشو..... ١٤٢/١ و ١٥٥ و ١٥٦	مصر ٩٣/١ و ٩٤ و ٩٦ و ١٠٧ و ١٠٨
المقطم..... ١٥٨/١	و ١١٠ و ١٣٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٥٤ و ١٥٥
مقلد..... ٢٦٩/١	و ١٥٦ و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٩٤ و ١٩٥
مكة..... ١٩٢/١ و ٢٤٩ و ٥٤٢ و ٢٦/٢	و ١٩٨ و ٢٤٧ و ٢٧٥ و ٢٩٢ و ٣١٢ و ٣٢٣
مكران..... ٤٣/١ و ١٥٩ و ١٦٥ و ٣٤٨	و ٣٢٤ و ٣٢٧ و ٣٤٠ و ٣٤٥ و ٣٥٠ و ٣٩٦
مكتاسة..... ١٦٠/١	و ٤٠٧ و ٤١٦ و ٤٢٥ و ٤٣٧ و ٤٣٩ و ٤٤٠
مالطية..... ١٤٤/١ و ١٧٢	و ٤٥٣ و ٤٨٤ و ٤٩٢ و ٤٩٤ و ٤٩٧ و ٥٠١
الملفوز..... ٢٣٣/١	و ٥٦٠ و ٩/٢ و ١٠ و ١١ و ١٤ و ٢٥ و ٣٢
ملوية..... ٤٨٥/١	و ٣٣ و ٣٥ و ٣٨ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٧

١٧٤/١.....نهاوند	٣٥٧/١.....المنبت
١٦٨/١.....بلاد النهر	١٨٨ و ١٨٥/١.....المنبتة
١٧٤/١.....النهروان	١٧٢ و ١٤٤/١.....منبج
١٥٥ و ١٥٤ و ١٤٤/١.....النوبة	١٥٦ و ١٤٢/١.....باب المتدب
١٦٠/١.....نول	١٦٨/١.....منركة
١٧٥/١.....نيسابور	١١/٢.....المنصورة
١٧٨/١.....نیش	١٦٩/١.....المنكب
١٧٧/١.....بلد نيونة	٤٣٨/١.....منورقة
١٦٢ و ١٥٨ و ١٥٤ و ١٥٣ و ١٤٤/١.....النيل	١٥٩/١.....منيار
(هـ)	١٧٥/١.....مهرجان
٢٦٩/١.....هادم	٤٩٤ و ٣٢٦ و ٩٥/١.....الموصل
١٦٤/١.....هجر	٤٣٨/١.....ميورقة
٣٩٦/١.....هذيل	١٨٠ و ١٧٩/١.....بلد ميافا رقين
١٧٥ و ١٦٦/١.....هراة	(ن)
١٨٤/١.....هرقلية	١٧٨/١.....بلاد نابل
٥٥/٢.....الهرم	١٦٤/١.....بلاد نجد
١٦٥/١.....هرمز	١٥٩/١.....بلاد نجران
١٧٤/١.....الهلوس	١٥٨/١.....نزبكة
٣٤٩ و ١٧٤/١.....همدان	١٧٥/١.....بلاد نسا
١٦٠/١.....هنتانة	١٧٢/١.....نصيين
١٥٥ و ١٤٢ و ١٣١/١.....الهند	١٥٤/١.....بلاد نغارة
١٨٩ و ١٦٨ و ١٦٧ و ١٦٦ و ١٦٥ و ١٥٩ و	١٦١/١.....نغزارة
١٩٢ و ٢٨٠ و ٣٤٧ و ٣٨٨ و ٥٨/٢ و ٩٨	١٦١/١.....نقرة

يذخشان..... ١٦٦/١

اليرد..... ٤٣٦/١

اليرموك..... ٣١٤/١

يزدشير..... ١٦٥/١

اليمامة/١٤٣ و ١٥٩ و ١٥٦ و ١٦٤ و ١٩٠

اليمن ١/٩٥ و ٩٦ و ٩٨ و ١٠٨ و ١٤٢

١٤٣ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩٢

١٩٦ و ٢٧١ و ٢٨٠ و ٣٢٤ و ٣٥٠ و ٤٠٢

٣١٤ و ٥٥١ و ٥٤٦ و ٤٤/٢ و ٩٩ و ١٢٠

اليونان..... ١/١٢٩

١٨٦ و ١٩٢ و ٣٢٦ و ٤١٤ و ٢٧/٢ و ٩٩

٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٦١

هواره..... ١٦١/١

هيبة..... ١٦٢/١

هين..... ١٦٠/١

### (و)

الواق واق..... ١٥٧ و ١٤٢/١

بلد الوخش..... ١٦٧ و ١٦٦/١

أرض ودان..... ١٦٢ و ١٦١ و ١٥٨/١

وصيف..... ٣٥٤/١

ونساء..... ١٦٥/١

وهران..... ١٦٠/١

### (ي)

يابرة..... ١٦٩/١

يثرب..... ٩٣/١ و ١٥٨ و ٣٩٦

## الشعر

(أ)

٣٣١/٢	ولم يكن ذلك الهذاء	كانوا كما يعلمون منهم
٣٣٠/٢	ما فعلت هذه السماء	يا راصد الخنس الجواري
٣٤/٢	.... منازل الكرماء	تسقط المطر .....
٣٧٦/٢	قد ذهب العيش والهناء	أستغفر الله كل حين....
٣٧٦/١	....أربعة سواء	ألا إن الأئمة....
٤٣٤/٢	...والتورى أخرى	والمعلمين يقولوا....
٤١٦/١	ترى كبدي هرى	قال الشريف ابن هاشم علي
٤٣٥/٢	.... ترى البورى	إذا شمر....
٤٣٠/٢	...عيشه بان الهوى وافتضى	واحسرتا لزمان مضى...
٣٩٧/٢	...ذكرى حبيب منزل	قفا نبك من....
١١٢/١	...كما تقول البيغا	خليفة في قفص...
٣٠٨ و ٢٣٤ و ٣٠٠ و ٣٠٣ و ١	...الجد مثلا	سؤال عظيم...
٢٩٢/٢	...في سرها انجلا	فأعكس بيوتها...
٢٨٩/٢	...جلا	وعلم مطاريح...
٢٩١/٢	...الخلط أكحلا	لبرجيس في الحبة...
٢٨٧/٢	...الناس أرسلا	يقول سبيني...
٢٨٨/٢	...وحصلا	وسو لموسيقى...
٢٨٩/٢	...عن جملة فلا	وجوز شذوذ...
٢٩٠/٢	...تصادف منهلا	أيا طالب...
٢٩٢/٢	...وجدولا	فهذا قصيد...
٢٨٩/٢	...بالولا	أيا طالبا...



٤٣٦/٢	...بالرسيلا	يا ليتني...
٤٣٦/٢	...فم الجميلا	ليس أخذ...
٤٤٤/٢	...كانا وكيوانا	وأصحاب الحضر...
٤٤٤/٢	...قد سقط بنيانا	إن مرين...
١٩٢/١	...جلودها بضامنا	بالزنج مر غير...
٤٠٤/٢	وجعلت التصريح داء دفينا	فجعلت التصريح منه دواء
٤٢٩/٢	وليالينا	هل تستعاد أيامنا بالخليج
٤٠٣/٢	..من صنوف الجهال منه لقينا	لعن الله صنعة الشعر ماذا..
٤٢٠/٢	فتوق بحوبات مخوف جنايها	بظعن قطوع البيد لا تخشى العدى
٤١٩/٢	قوارع ضيقات يعاني صعايها	يقول وذا قول المصاب الذي نشا
٤٢٠/٢	فنونا من إنشاد القوافي عرابها	يريح بها حادي المصاب إذا انتقى
٤٢٠/٢	غنيت بقلق الشاء واغتصابها	وليدا تعاتبوا أنا أغني لأنني
٤٢١/٢	جميع البرايا تشتكي من ضهادها	فشايب وشباب من أولاد برجم
٤١٧/٢	...شبيبة دوار السواني يديرها	وباتت دموع العين ذا رفات لشأنها
٤٢٤/٢	يعنى أراع الله من لا رثى لها	تقول فتاة الحي أم سلامه
٤١٨/٢	...ضاع قبلي جميلها	وأني جميل ضاع لي من...
٤٣٥/٢	...الزجل منها	كان في عصرهم...
٤١٨/١	حرام على أجفان علي ما فيها	يقول وفي نوح الدجى بعد ذهبة
٤١٩/٢	...نور الأضاحي حزامها	كأن عروس البكر لاحت...
٤١٠/٢	...إلا النفس في السري خاليا	وأخرج من بين البيوت لعلني...
١٠٩/١	...عرفن مكانيا	فلو تسأل....

(ب)

٤٢١/٢	... المطايا يفتح الله باب	ألا ريت ناسجا يفلقوا لمحنك...
٣٧٧/١	...درس في التراب	إِذَا مَا المرء شاب...
٤٣٦/٢	...ودعني في التراب	مدتني....
٤٤٤/٢	...وصاحب الأبواب	أراد المولى...
٤٢٠/٢	...وصدك عن صد عنك صواب	وطلبك في الممنوع منك...
٤٢١/٢	...مقالة قوال وقال صواب	يقول بلا جهل فتى الجود...
٤٢٢/٢	...ولبسوا من أنواع الحرير ثياب	وركبو السبايا الثمنات من...
٤٤٤/٢	...عرب دياب	ويقول لك...
٥٥٦/١	...بعض السبب	طربت وما ذاك...
٤٣٩/٢	...ما أكتب	بجملة العلم...
٤٥٣/٢	...الشمس يضرب	ورذا ذدق...
٤٣٨/٢	...للقبل يخطب	فويم كالخاتم...
٤٣٥/٢	...لأسد صعب	قد كنت مشبوب...
٤٣٩/٢	...الذي يحسب	مما سنك مثل...
٤٣٨/٢	...كيف يشرب	وغنما الكاس...
٤٣٩/٢	...لفظة تتقرب	عماد الأمصار...
٤٣٧/٢	...يريه عقرب	جاد الزمان...
٤٣٩/٢	...صيف يرقب	تحمل أردان...
٤٣٩/٢	...صيف يركب	يركب جواد...
٤٣٨/٢	...أن نخلب	وذا الذي...
٢٣٢/١	...يغلب طالب	ويغلب مطلوب...
٢٣١/١	...عند التحالف غالب	أرى الزوج...
٥٥٧/١	...وتلك سياسة مستجلب	ويبعث من جيشه...

٤٣٩/٢	...ذا تسلب	أي دين...
٤٣٩/٢	...البشر تطلب	إن لم...
٥٥٧/١	...إلى المذنب	فإما رأيت الرسوم...
٥٥٧/١	...بيارقه الأشنب	غديري من زمن قلب
٤٣٥/٢	...ترج ذهب	يا طالب الكيمياء...
٣٣٩/١	...من الذهب	كأن صغرى...
٤٣٥/٢	...الآخر يذهب	والنبات يشرب...
٤٣٨/٢	...النظر تذهب	غزال بهي...
٤٣٨/٢	...العظمى تلهب	ظلي بهم...
٤٣٠/٢	...أمرضه يا ويلتاه الطبيب	من حال صب ذي ضخه...
٤٣٨/٢	...ويدع ثيب	اش يرجم...
٤٢٩/٢	...بالحاظ تصيب	قلوب تصابت...
٤٣٧/٢	...يا الله ما أطيب	قهو النهار...

## (ت)

٤٣٧/٢	...ذاك النبات	بدو الملك...
٤٣٧/٢	...ذاك النبات	إليها تتخلقوا...
٤٣٧/٢	...عليه دجات	وطاقتها أصلح...
٤٣٨/٢	...ذيل الجهات	وصل بغداد...
٤١١/٢	...عما بيننا وتخلت	وإني وتهيامي...

## (ج)

٤٤٥/٢	...الدم تنضج	هذا جراحي...
٤٢٩/٢	...على تلك المروج	بعد ما كان...

## (ح)

٤٣٤/٢	...ولقي الصباح	وانطاق يجري...
٤٢٨/٢	...الفجر على الصباح	كحل الدجى...
٤٣٤/٢	...شراب وملاح	نهار مليح...
٤٣٧/٢	....إلا ويسرح	وكيف ولا....
٤٤٤/٢	...عن تصحيح	وبغت حمى...
٤٤٤/٢	...علينا الريح	لمن دخلت...
٤٤٤/٢	...بذا التطريح	هذا الفارق...

(د)

٥٥٦/١	...على الفراد	قد تم التجنيس...
٣٩٨/٢	...على الأعواد	أرأيت من حملوا...
٤٣٦/٢	...الآن يبدد	أملاح الأكواس...
١٠٢/١	...من لا يستبد	ليت هذا...
٢٣٩/٢	...من وحده جاحد	ما وحد الواحد...
٣١٠/١	...صورة الأسد	مما يزهدي...
٤١١/١	...صورة الأسد	مما يزهدي...
٤٣٧/٢	...ونضحك من بعد	طل الصباح...

(ر)

٤٣٣/٢	...عن العذار	حبيبي ارفع...
٤٣١/٢	...من مجامر الزهر	يد الإصباح...
٤٣٠/٢	...المشوق من فجر	قسما بالهوى...
٤٤٦/٢	...قتيل الحجر	وصيح في حيهم...
٤٢٦/٢	...عن بدر	حسنك عن جمان...
٣٩٨/٢	...ماؤها عذر	كذا فليجل...

١٢٦/٢	...مرة وحبور	حتى إذا...
١٢٦/٢	...الناعم المخبور	حتى إذا ما...
١٢٦/٢	...مثل صبور	ثم اجعل...
١٢٦/٢	...بدار غرور	وارغب لكفك...
١٢٦/٢	...بالحصرم المعصور	وألق دواتك...
٣٩٨/٢	...لقريعك المغرور	ألق الرماح...
١٢٦/٢	...بسرره المستور	لا تطمعن...
٤٢٧/٢	...السكر بالسكر	جرر الذيل...
٣٣١/١	...سكن الدهر	عجبت لسعي...
٤٣٤/٢	...وخلق كثير	مع العشق...
١٢٥/٢	...بأوسط التقدير	وإذا عمدت...
١٢٦/٢	...مشاكل التقدير	والشق وسطه...
١٢٥/٢	...صناعة التحبير	أعدد من...
١٢٦/٢	...بالمрад خبير	حتى إذا...
٧٣/٢	...ساعة التدبير	وبصدره هاء...
١٦٢/٢	...جملة التدبير	فاحرف لرأي...
٧٢/٢	...قرارالبير	يا طالبا للسر...
١٢٥/٢	...في التيسير	إن كان عزمك...
١٢٥/٢	...التدقيق والتخصير	انظر إلى...
١٢٠/٢	...الطريق يعير	أفي كل عام...
١٢٠/٢	...يسب وحمير	وللموت خير...
٤٣٤/٢	...الواد لحمير	لحق يريد...
١٢٦/٢	...إلى التدوير	نكمن جملة...

يا من يريد... الخط والتصوير ١٢٥/٢

(س)

الشعر ما قومت... بالتهذيب أس ٤٠٤/٢

كل والقز... في الانعكاس ٢٨١/١

غارث الشهب... عيون الترجس ٤٣٢/٢

جارك الغيث... الوصل بالأندلس ٤٣١/٢

لم تدع من... بعد الفلس ٤٣٣/٢

هل درى ظلي... عن مكس ٤٣١/٢

(ش)

تبدي لي... عليك رطاش ٤١٨/٢

(ع)

منابت العشب... الرمح والباع ٣٩٨/٢

أهديك من... الدلاص وأقطع ٤٦٣/١

يا أيها الملاء... لا يدفع ٤٦٣/١

ندفع دنيانا... ولا ما نرفع ٣٨٨/١

واركب من... فيما يصنع ٤٦٤/١

(غ)

النفس راغبة... قليل تقتغ ٤٧٦/١

(ف)

أيا شجر الخابور... على ابن طريف ٣٩٨/٢

(ق)

٤٣٤/٢	... غلظ ساق	وأسد قد...
٤٣٣/٢	... بحال رواق	وعريش قد قام...
٤٣٦/٢	... يعاند الحق	من عاند...
٤٢٦/٢	... لا يلحق	أما ترى...
٤٣٠/٢	... أجمع الأفق	إن سبل...
٣٩٨/٢	... حذاء الأنيق	يا برق...

(ك)

٤٣٤/٢	... تقلق وذاك	تراه قد...
٤٤٢/٢	... يحبس عليك	ما منهم...

(ل)

٤٢٩/٢	... من قتال	علقت مليح...
٤٣٧/٢	... من شمال	الدموع ترشرش...
٤٣١/٢	... لفقد الخيال	جفا جفوني...
٤٣٥/٢	... أن يقبل	وليس مراد...
٤٣٧/٢	... فيه النحل	وكيف ولا فيه...
٣٦٠/٢	... في الساحل	فلا توغلي...
٤٣٧/٢	... ما ليكتحل	لم يلتق...

٣٩٨/٢	...بجانب العزل	حي الديار...
٤٣٥/٢	...من العسل	مراتب سمزوبا...
٤٣٥/٢	...تنزه الكسل	لاح الضياء...
٤٣٦/٢	...إش ما ساقل	لأرض الحجاز...
٤٣٧/٢	...بالشمس بالحمل	حل المجنون...
٤٣٦/٢	...من العمل	من ليس...
٤٣٥/٢	...بما تقول	دوريا من...
٤٣٦/٢	...يفقد العقول	يقول بأن...
٤٣٠/٢	...منك سبيل	يا هاجري...
٤١٧/٢	...الباكرين عويل	تقول فتاة الحي...

(م)

٤٣١/٢	...منه بابتسام	ثغر الزمان...
٤٢٤/٢	...مطرب وحسام	ولا يرها...
٤٢٣/٢	...الحرير نظام	محبرة كالدر...
٤٢٥/٢	...ثقا مسك ثم	بدر تم شمس...
٢٥٤/١	...لا يظلم	الظلم...
١٠٨/١	...الناس تعلم	مهما تكن...
١٦٤/٢	...ما لم يعلم	إقرأ باسم...
١٢٠/٢	...والقلم	قوم لهم...



١٩/٢	...أين جرمهم	خلفت بنوبي...
٣٩٧/٢	...الرسوم	ألم تسأل...
٤٣٨/٢	...فقلت يا قوم	وتعجبوا...
٤٢٨/٢	...ونديم	شمس قارنت...
٣٩٨/٢	...نضرة ونعيم	أسقى طولهم...
(ن)		
٤٢٦/٢	...أشجان	كيف السبيل....
٢٢٢/١	...الضلوع يراني	جعلت لعراف...
٤٤٤/٢	...الرفيع الشأن	قد ذكر...
٤٤٣/٢	...مع السكان	أحاجا تحللوا...
٤٣٤/٢	...تري أش كان	نشب والهوى...
٤٢٨/٢	...ياله سكران	ما للموله...
٥٥٩/١	...المملك في الزمن	هذا هو الأعرج...
٤٤٤/٢	...أواخر الزمان	فإذا كان ذا...
٤٤٤/٢	...للسكوت عنوان	وافترق الناس...
٤٣٦/٢	...لم يكن	بين طلوع...
٥٥٨/١	...المغني بالسمن	وآل بوزان...
٤٤١/٢	...بدمع هتون	قلت يا حمام...
٤٣٧/٢	...نورا كجفون	وسقو مكتوا...

٤٣٤/٢	...وذيل الجفون	توحش الجفون...
٤٢٦/٢	....بن ذي النون	تخطر ولا تسلم...
٤٢٥/٢	...رياض البساتين	العود قد ترنم...
٥٥٨/١	...إلى اليمن	إن شئت...
١٠٥/١	...العقل والدين	يا سيدي...
٤٢٩/٢	...من يدعوني	يفوق سهم...
٤٣٧/٢	...قلوب العاشقين	خلق الله النصارى...
٤٣٧/٢	...قلب يلين	دهر لي يعشق...

## (هـ)

٤٣٧/٢	...يشرب سواه	لما جرع...
٤٠٧/٢	...يدها والبالحة	لم أدر حين...
٤٤٦/٢	...أن يبعث طيفه	قد أقسم...
٤٣٧/٢	...صفقة السكه	حتى ترى...

## (و)

٥٥٦/١	...بدل الفراوا	في صبغ...
٤٣٩/٢	...عيني تبو	يصير إليك....
٤٣٨/٢	...بالله أو تكتبوا	يعشق مليح...
٤٣٩/٢	...يحجبو	قد أظهر...
٤٣٨/٢	...تيدبوا	وثم تحيهم...

٤٣٩/٢	... ما أكذبو	أرق هو...
٤٣٩/٢	... ما أضربو	ففي الصدور...
٤٣٨/٢	... يستعربو	تسيل دلال...
٤٤٠/٢	... يرغبوا	لذي الإمارة...
٤٣٨/٢	... ولم يتقبو	جوهر في...
٤٣٧/٢	... وقدم قلبو	سبيكة الفجر...
٤٣٤/٢	... وقد ضمرو	يطمح بالخلاط...
٤٣٧/٢	... الشفق ذهبو	ترى غبارا...
٤٣٩/٢	... العسلي تطيبو	من خلعتو...
٤٣٨/٢	... قد عيبو	وشارب أخضر...

## (ي)

٤٢٧/٢	... على رياض الأفاحي	ما لذلي...
٤٣٦/٢	... نسيت قرايبي	البعد عنك...
٤٣٥/٢	... ثم تستحي	وتريد...
٤٢٨/٢	... بالله عودتي	يا ليلة الوصل...
٥٥٧/١	... ميل ما تدري	دعني بدمعي...
٤٣٠/٢	... السماء لا تسري	أوقضت قوادم...
٤٣٥/٢	... ما تنتهي	حين تنظر...

## فهرس الموضوعات

### الجزء الأول

المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون... ٣٩  
قواعد المنهج العامة في مقدمة ابن  
خلدون... ٣٩  
أولاً - التزود بالعلم... ٤٠  
ثانياً - معرفة طبائع العمران... ٤٠  
ثالثاً - التشكك... ٤٢  
رابعاً - الموضوعية... ٤٣  
خامساً - الحيلة عند التعميم... ٤٥  
قواعد المنهج الخاصة في مقدمة ابن  
خلدون... ٤٥  
أولاً - التأمل والاستقراء... ٤٥  
ثانياً - التحقيق العقلي... ٤٦  
ثالثاً - التحقيق الحسي... ٤٨  
رابعاً - سؤال الخبراء... ٤٩  
خامساً - المقارنة... ٤٩  
سادساً - التجربة... ٥٠  
سابعاً - النظر في الحوادث في إطارها  
الزمني... ٥١  
ابن خلدون كمفكر اجتماعي عربي  
للدكتور محمد عبد المنعم نور... ٥٢  
شخصية الأستاذ وعصره... ٥٤

مقدمة الخلق... ٥  
أوراق خلدونية في مطلع قرن جديد... ٧  
الدوافع غير المعلنة في كتابة المقدمة... ٩  
عوامل تجاهل المقدمة... ١٠  
خصوصية ابن خلدون... ١٣  
يستفاد من مقدمته... ١٩  
ينظم حركة الحياة قانونان... ٢٠  
موقفه من آل البيت... ٢١  
يمكن تقسيم مراحل حياته إلى... ٢٢  
الركائز التي انطلق منها ابن خلدون في  
اكتشافه القوانين النازمة لطبائع العمران... ٢٥  
الحديث الشريف... ٢٦  
اقتباساته... ٢٧  
ظلال شخصية... ٢٨  
ابن تيمية... ٢٩  
تاريخه وعلاقته بالمقدمة... ٣٢  
المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون  
للدكتور حسن الساعاتي... ٣٤  
المنهج العلمي في مقدمات كتب كبار  
المؤرخين المسلمين القدامى... ٣٦

- ابن خلدون وغيره من المفكرين..... ٥٦
- المدرسة التاريخية الاجتماعية (فلسفة التاريخ)..... ٥٧
- المدرسة الجغرافية..... ٥٧
- المدرسة الاقتصادية..... ٥٨
- المدرسة النفسية..... ٥٩
- المدرسة الخلدونية..... ٦٠
- ابن خلدون والاتجاهات العلمية الحديثة ٦١
- المقدمة والعلم الاجتماعي..... ٦١
- طريقة التحليل البنائي الوظيفي عند ابن خلدون..... ٦٢
- ١- الضبط الاجتماعي..... ٦٣
- ٢- التألف الاجتماعي..... ٦٣
- ابن خلدون والأهمية الوظيفية للمركز الاجتماعي..... ٦٣
- ابن خلدون والضبط الاجتماعي..... ٦٤
- التربية عند ابن خلدون..... ٦٥
- ابن خلدون وتزايد السكان..... ٦٦
- ابن خلدون والنموذج الأمثل..... ٦٧
- ابن خلدون والتقسيمات الحديثة لعلم الاجتماع..... ٦٩
- الغرب والشرق يفتن لقيمة ابن خلدون كمفكر اجتماعي عظيم..... ٧١
- آراء علماء الاجتماع الأوروبيين..... ٧١
- آراء علماء الاجتماع الأمريكيين..... ٧٢
- ابن خلدون في رأي الكتاب والعلماء العرب..... ٧٣
- رأي أخير..... ٧٦
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر..... ٧٧
- توطئة..... ٧٩
- مقدمة المؤلف..... ٨٠
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر..... ٨٧
- (أ) المقدمة..... ٩١
- أ - المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها..... ٩٢
- ١ - ١ - فصل [في مداخل وهم أهل التفسير]..... ٩٨
- ب - الكتاب الأول طبيعة العمران... ١٢٣

(ب) ١- الكتاب الأول في طبيعة العمران في  
الخليقة وما يعرض فيها في البدو والحضر  
والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم  
ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب.. ١٢٥

### □ العمران البشري..... ١٣٣

١- ١- الفصل الأول من الكتاب الأول في  
العمران البشري على الجملة..... ١٣٧

١- ١- ١- [المقدمة] الأولى: في أن الاجتماع  
الإنساني ضروري..... ١٣٧

١- ١- ٢- المقدمة الثانية في قسط العمران من  
الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار  
والأنهار والأقاليم..... ١٤٠

١- ١- ٢- ١- تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن  
الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من  
الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك..... ١٤٦

[صورة الأرض من نزهة المشتاق]..... ١٥٠

١- ١- ٢- تفصيل الكلام على هذه

الجغرافيا..... ١٥١

الإقليم الأول..... ١٥٢

الإقليم الثاني..... ١٥٧

الإقليم الثالث..... ١٦٠

الإقليم الرابع..... ١٦٨

الإقليم الخامس..... ١٧٦

الإقليم السادس..... ١٨٢

الإقليم السابع..... ١٨٦

١- ١- ٣- المقدمة الثالثة في المعتدل من الأقاليم  
والمحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير  
من أحوالهم..... ١٨٩

١- ١- ٤- المقدمة الرابعة في أثر الهواء في  
أخلاق البشر..... ١٩٤

١- ١- ٥- المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال  
العمران، في الخصب والجوع، وما ينشأ عن  
ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم..... ١٩٦

١- ١- ٦- المقدمة السادسة في أصناف  
المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة  
ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا..... ٢٠١

النفوس البشرية على ثلاثة أصناف... ٢٠٨

١- ١- ٦- ١- فصل..... ٢١٧

١- ١- ٦- ٢- فصل..... ٢١٨

١- ١- ٦- ٣- فصل..... ٢٢٦

□ العمران البدوي..... ٢٣٨

١- ٢- ٩- الفصل التاسع في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم..... ٢٥٧

١- ٢- ١٠- الفصل العاشر في اختلاط الأنساب كيف يقع؟..... ٢٥٩

١- ٢- ١١- الفصل الحادي عشر في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية..... ٢٦٠

١- ٢- ١٢- الفصل الثاني عشر في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم..... ٢٦١

١- ٢- ١٣- الفصل الثالث عشر في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالجواز والشبه وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال..... ٢٦٣

١- ٢- ١٤- الفصل الرابع عشر في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم..... ٢٦٦

١- ٢- ١٥- الفصل الخامس عشر في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء..... ٢٦٨

١- ٢- ١٦- الفصل السادس عشر في أن الأمم الوحشية أقدروا على التغلب ممن سواها..... ٢٧١

١- ٢- الفصل الثاني من الكتاب الأول في العمران البدوي، والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال..... ٢٤٣

١- ٢- ١- الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر طبيعية..... ٢٤٣

١- ٢- ٢- الفصل الثاني في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي..... ٢٤٥

١- ٢- ٣- الفصل الثالث في أن البداوة أقدم من الحضرة وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، والأمصار مدد لها..... ٢٤٧

١- ٢- ٤- الفصل الرابع في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة..... ٢٤٨

١- ٢- ٥- الفصل الخامس في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة..... ٢٥١

١- ٢- ٦- الفصل السادس في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم..... ٢٥٢

١- ٢- ٧- الفصل السابع في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية..... ٢٥٤

١- ٢- ٨- الفصل الثامن في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه..... ٢٥٦

١- ٢- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون في أنَّ  
الأمّة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها،  
أسرع إليها الفناء..... ٢٨٤

١- ٢- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون في أنَّ  
العرب لا يتغلبون إلا على البسائط..... ٢٨٦

١- ٢- ٢٦- الفصل السادس والعشرون في أنَّ  
العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها  
الخراب..... ٢٨٧

١- ٢- ٢٧- الفصل السابع والعشرون في أنَّ  
العرب لا يحلُّ لهم الملك إلا بصبغة دينية من  
نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على  
الجملة..... ٢٨٩

١- ٢- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون في أنَّ  
العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك..... ٢٩٠

١- ٢- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في أنَّ  
البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل  
الأمصار..... ٢٩٢

### ٣- الدول..... ٢٩٣

١- ٣- الفصل الثالث من الكتاب الأول في  
الدول العامة والملك والخلافة والمراتب

١- ٢- ١٧- الفصل السابع عشر في أنَّ الغاية  
التي تجري إليها العصبية هي الملك..... ٢٧٢

١- ٢- ١٨- الفصل الثامن عشر في أنَّ من  
عوائق الملك حُصول الترف وانغماس القبيل  
في النعيم..... ٢٧٤

١- ٢- ١٩- الفصل التاسع عشر في أنَّ من  
عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى  
سواهم..... ٢٧٥

١- ٢- ٢٠- الفصل العشرون في أنَّ من  
علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة  
وبالعكس..... ٢٧٧

١- ٢- ٢١- الفصل الحادي والعشرون في أنه  
إذا كانت الأمّة وحشية كان ملكها  
أوسع..... ٢٨٠

١- ٢- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون في أنَّ  
الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمّة  
فلا بدّ من عودة إلى شعب آخر منها ما دامت  
لهم العصبية..... ٢٨١

١- ٢- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون في أنَّ  
المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره  
وزيّته، ونخلته، وسائر أحواله وعوائده..... ٢٨٣



١-٣-٨- الفصل الثامن في أنَّ عظم الدولة  
واتساع نطاقها، وطول أمدتها على نسبة  
القائمين بها في القلة والكثرة..... ٣٢٤  
١-٣-٩- الفصل التاسع في أنَّ الأوطان  
الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم  
فيها دولة..... ٣٢٦  
١-٣-١٠- الفصل العاشر في أنَّ من طبيعة  
الملك الانفراد بالمجد..... ٣٢٩  
١-٣-١١- الفصل الحادي عشر في أنَّ من  
طبيعة الملك الترف..... ٣٣٠  
١-٣-١٢- الفصل الثاني عشر في أنَّ من  
طبيعة الملك الدعة والسكون..... ٣٣١  
١-٣-١٣- الفصل الثالث عشر في أنه إذا  
استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد  
وحصول الترف والدعة، أقبلت الدولة على  
الهرم وبيانه من وجوه..... ٣٣٢  
١-٣-١٤- الفصل الرابع عشر في أنَّ الدولة  
لها أعمار طبيعية كما للأشخاص..... ٣٣٥  
١-٣-١٥- الفصل الخامس عشر في انتقال  
الدول من البداوة إلى الحضارة..... ٣٣٨  
١-٣-١٦- الفصل السادس عشر في أنَّ  
الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها..... ٣٤٢

السلطانية وما يعرضُ في ذلك كله من  
الأحوال..... ٣٠٨  
١-٣-١- الفصل الأول في أن الملك والدولة  
العامّة إنما يحصلان بالقبيل والعصبة..... ٣٠٨  
١-٣-٢- الفصل الثاني في أنه إذا استقرت  
الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبة..... ٣٠٩  
١-٣-٣- الفصل الثالث في أنه قد يحدثُ  
لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن  
العصبة..... ٣١٢  
١-٣-٤- الفصل الرابع في أنَّ الدول العامّة  
الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إمّا من  
نبوة أو دعوة حق..... ٣١٣  
١-٣-٥- الفصل الخامس في أنَّ الدّعوة  
الدينية، تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة  
العصبة التي كانت لها من عددها..... ٣١٤  
١-٣-٦- الفصل السادس في أنَّ الدعوة  
الدينية من غير عصبة لا تتم..... ٣١٦  
١-٣-٧- الفصل السابع في أنَّ كل دولة  
لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد  
عليها..... ٣٢٢

- ١- ٣- ١٧- الفصل السابع عشر في أطوار  
الدولة واختلاف أحوالها، وخلق أهلها  
باختلاف الأطوار..... ٣٤٣
- ١- ٣- ١٨- الفصل الثامن عشر في أن آثار  
الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها..... ٣٤٥
- ١- ٣- ١٩- الفصل التاسع عشر في استظهار  
صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته  
بالموالي والمصطنعين..... ٣٥٣
- ١- ٣- ٢٠- الفصل العشرون في أحوال الموالى  
والمصطنعين في الدول..... ٣٥٥
- ١- ٣- ٢١- الفصل الحادي والعشرون فيما  
يعرض في الدول من حجر السلطان  
والاستبداد عليه..... ٣٥٧
- ١- ٣- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون في أن  
التغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب  
الخاص بالملك..... ٣٥٩
- ١- ٣- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون في  
حقيقة الملك وأصنافه..... ٣٦٠
- ١- ٣- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون في أن  
إرهاق الحد مضر بالملك ومفسد له في  
الأكثر..... ٣٦٢
- ١- ٣- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون في  
معنى الخلافة والإمامة..... ٣٦٤
- ١- ٣- ٢٦- الفصل السادس والعشرون في  
اختلاف الأمة في حكم المنصب  
وشروطه..... ٣٦٦
- ١- ٣- ٢٧- الفصل السابع والعشرون في  
مذاهب الشيعة في حكم الإمامة..... ٣٧٣
- ١- ٣- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون في  
انقلاب الخلافة إلى الملك..... ٣٨١
- ١- ٣- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في  
معنى البيعة..... ٣٩٠
- ١- ٣- ٣٠- الفصل الثلاثون في ولاية  
العهد..... ٣٩١
- ١- ٣- ٣١- الفصل الحادي والثلاثون في  
الخطط الدينية الخلفية..... ٤٠٠
- وظيفة الشرطة..... ٤٠٤
- العدالة..... ٤٠٦
- الحسبة والسكة..... ٤٠٧
- ١- ٣- ٣٢- الفصل الثاني والثلاثون في اللقب  
بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة، وهو  
محدث منذ عهد الخلفاء..... ٤٠٩

- ١- ٣- ٣٧- ١- فصل في الحروب  
ومذاهب الأمم في ترتيبها..... ٤٥٧
- ١- ٣- ٣٧- ٢- فصل..... ٤٥٩
- ١- ٣- ٣٧- ٣- فصل..... ٤٦١
- ١- ٣- ٣٧- ٤- فصل..... ٤٦١
- ١- ٣- ٣٧- ٥- فصل..... ٤٦٢
- ١- ٣- ٣٧- ٦- فصل..... ٤٦٥
- ١- ٣- ٣٧- ٧- فصل..... ٤٦٧
- ١- ٣- ٣٨- فصل في الجباية وسبب قتلها  
وكثرتها..... ٤٦٨
- ١- ٣- ٣٩- فصل في ضرب المكوس  
أواخر الدولة..... ٤٧٠
- ١- ٣- ٤٠- فصل في أنَّ التجارة من السلطان  
مُضِرَّةٌ بالرعايا مُفسدةٌ للجباية..... ٤٧١
- ١- ٣- ٤١- فصل في أن ثروة السلطان  
وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة..... ٤٧٣
- ١- ٣- ٤- ١- فصل..... ٤٧٤
- ١- ٣- ٤٢- فصل في أنَّ نقصَ العطاء من  
السلطان نقصٌ في الجباية..... ٤٧٦
- ١- ٣- ٤٣- فصل في أنَّ الظلم مؤذِنٌ  
بخراب العمران..... ٤٧٧
- ١- ٣- ٤٣- ١- فصل..... ٤٨٠

- ١- ٣- ٣٣- الفصل الثالث والثلاثون في شرح  
اسم الباب والبطرك في الملة النصرانية و[اسم]  
الكوهن عند اليهود..... ٤١٣
- ١- ٣- ٣٤- الفصل الرابع والثلاثون في  
مراتب الملك والسلطان وألقابها..... ٤١٨
- ديوان الأعمال والجبايات..... ٤٢٦
- أول من وضع الديوان في الدولة  
الإسلامية..... ٤٢٧
- ديوان الخراج والجبايات..... ٤٢٧
- ديوان الرسائل والكتابة..... ٤٢٩
- خطط الكتابة..... ٤٣٠
- أيها الكتاب..... ٤٣١
- الشرطة..... ٤٣٥
- قيادة الأساطيل..... ٤٣٦
- ١- ٣- ٣٥- الفصل الخامس والثلاثون في  
التفاوت بين مراتب السيف والقلم في  
الدول..... ٤٤٢
- ١- ٣- ٣٦- الفصل السادس والثلاثون في  
شارات الملك والسلطان الخاصة به..... ٤٤٣
- حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان  
حقيقة مقدارهما..... ٤٤٨
- ديوان الختم..... ٤٥١

- ١- ٣- ٥٠- الفصل الخمسون: في أنَّ الدولة  
المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة  
بالمطالبة لا بالمناجزة..... ٤٩٥
- ١- ٣- ٥١- الفصل الحادي والخمسون: في  
وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من  
كثرة الموتان والمجاعات..... ٤٩٩
- ١- ٣- ٥٢- الفصل الثاني والخمسون: في أنَّ  
العمران البشري لا بدَّ له من سياسة ينتظم بها  
أمره..... ٥٠١
- ١- ٣- ٥٣- الفصل الثالث والخمسون: في أمرِ  
الفاطمي وما يذهبُ إليه الناس في شأنه  
وكشف الغطاء عن ذلك..... ٥١٤
- ١- ٣- ٥٤- الفصل الرابع والخمسون: في  
حدِّثانِ الدُّولِ والأمم وفي الكلام على الملاحم  
والكشف عن مسمى الجفر..... ٥٤٥

- ١- ٣- ٤٣- ٢- فصل [الاحتكار]..... ٤٨٠
- ١- ٣- ٤٤- الفصل الرابع والأربعون في أن  
الحجاب كيف يقعُ في الدول وفي أنه يعظم  
عند الهرم..... ٤٨٢
- ١- ٣- ٤٥- الفصل الخامس والأربعون: في  
انقسام الدولة الواحدة بدولتين..... ٤٨٤
- ١- ٣- ٤٦- الفصل السادس والأربعون: في أنَّ  
الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع..... ٤٨٦
- ١- ٣- ٤٧- الفصل الرابع والأربعون: في  
كيفية طروق الخلل للدولة..... ٤٨٧
- ١- ٣- ٤٨- الفصل الثامن والأربعون: في  
اتساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته ثم تضيقه  
طوراً بعد طور إلى فناء الدولة  
واضمحلالها..... ٤٩١
- ١- ٣- ٤٩- الفصل التاسع والأربعون: في  
حدوث الدولة وتحددها كيف يقع..... ٤٩٤

## فهارس موضوعات الكتاب

### الجزء الثاني

- ١- ٤- ٧- الفصل السابع: في أنَّ المدن  
والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة..... ٢٨
- ١- ٤- ٨- الفصل الثامن: في أنَّ المباني  
والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى  
قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول..... ٢٩
- ١- ٤- ٩- الفصل التاسع: في أنَّ المباني التي  
كانت تحتطها العرب يُسرَّعُ إليها الخرابُ إلا  
في الأقل..... ٣٠
- ١- ٤- ١٠- الفصل العاشر: في مبادئ  
الخراب في الأمصار..... ٣١
- ١- ٤- ١١- الفصل الحادي عشر: في أنَّ  
تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها  
ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في  
الكثرة والقلة..... ٣٢
- ١- ٤- ١٢- الفصل الثاني عشر: في أسعار  
المدن..... ٣٥
- ١- ٤- ١٣- الفصل الثالث عشر: في قصور  
أهل البادية عن سكنى المصر الكثير  
العمران..... ٣٨
- ١- ٤- البلدان..... ٥
- ١- ٤- الفصل الرابع من الكتاب الأول في  
البلدان والأمصار والمدن وسائر العمران وما  
يعرضُ في ذلك من الأحوال..... ٨
- ١- ٤- ١- الفصل الأول: في أنَّ الدول أقدمُ  
من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن  
الملك..... ٨
- ١- ٤- ٢- الفصل الثاني: في أنَّ الملك يدعو  
إلى نزول الأمصار..... ١٠
- ١- ٤- ٣- الفصل الثالث: في أنَّ المدن العظيمة  
والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير..... ١١
- ١- ٤- ٤- الفصل الرابع: في أنَّ الهياكل  
العظيمة جداً لا تستقلُّ بينائها الدولة  
الواحدة..... ١٣
- ١- ٤- ٥- ١- الفصل الخامس: فيما يجب  
مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل  
عن تلك المراعاة..... ١٥
- ١- ٤- ٥- ٢- فصل..... ١٧
- ١- ٤- ٦- الفصل السادس: في المساجد  
والبيوت العظيمة في العالم..... ١٨

- ١- ٤- ١٤- الفصل الرابع عشر: في أنَّ الأقطار في اختلاف أحوالها بالرِّفَّة والفقر مثل الأمصار..... ٣٩
- ١- ٤- ١٥- الفصل الخامس عشر: في تأثُّل العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها..... ٤١
- ١- ٤- ١٦- الفصل السادس عشر: في حاجات الممولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة..... ٤٢
- ١- ٤- ١٧- الفصل السابع عشر: في أنَّ الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها..... ٤٣
- ١- ٤- ١٨- الفصل الثامن عشر: في أنَّ الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده..... ٤٧
- ١- ٤- ١٩- الفصل التاسع عشر: في أنَّ الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها..... ٥١
- ١- ٤- ٢٠- الفصل العشرون: في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض..... ٥٤
- ١- ٤- ٢١- الفصل الحادي والعشرون: في وجود العصية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض..... ٥٥
- ١- ٤- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون: في لغات أهل الأمصار..... ٥٧
- ٥- المعاش ووجوهه..... ٥٩
- ١- ٥- الفصل الخامس من الكتاب الأول: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرضُ في ذلك كله من الأحوال..... ٦٥
- ١- ٥- ١- فصل: في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأنَّ الكسب هو قيمة الأعمال البشرية..... ٦٥
- ١- ٥- ٢- الفصل الثاني: في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه..... ٦٨
- ١- ٥- ٣- الفصل الثالث: في أنَّ الخدمة ليست من المعاش الطبيعي..... ٧٠
- ١- ٥- ٤- الفصل الرابع: في أنَّ ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاشٍ طبيعي..... ٧١
- ١- ٥- ٥- الفصل الخامس: في أنَّ الجاه مفيدٌ للمال..... ٧٦
- ١- ٥- ٦- الفصل السادس: في أنَّ السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتَّمَلُّق وأنَّ هذا الخلق من أسباب السعادة..... ٧٧
- ١- ٥- ٧- الفصل السابع: في أنَّ القائمين بأمور الدين من القضاء والفُتيا والتدريس

- ١- ٥- ١٧- الفصل السابع عشر: في أنَّ الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته..... ٩١
- ١- ٥- ١٨- الفصل الثامن عشر: في أنَّ رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدتها..... ٩٣
- ١- ٥- ١٩- الفصل التاسع عشر: في أنَّ الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طلبها..... ٩٥
- ١- ٥- ٢٠- الفصل العشرون: في أنَّ الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع..... ٩٦
- ١- ٥- ٢١- الفصل الحادي والعشرون: في أنَّ العرب أبعدُ الناس عن الصنائع..... ٩٧
- ١- ٥- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون: فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقلَّ أن يجيد بعدها ملكة في أخرى..... ١٠٠
- ١- ٥- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون: في الإشارة إلى أمهات الصنائع..... ١٠١
- ١- ٥- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون: في صناعة الفلاحة..... ١٠٢
- ١- ٥- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون: في صناعة البناء..... ١٠٣
- ١- ٥- ٢٦- الفصل السادس والعشرون: في صناعة التجارة..... ١٠٧

- والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب..... ٨١
- ١- ٥- ٨- الفصل الثامن: في أنَّ الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو..... ٨٢
- ١- ٥- ٩- الفصل التاسع: في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها..... ٨٣
- ١- ٥- ١٠- الفصل العاشر: في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة؟ وآيهم له اجتناب حرفها؟..... ٨٤
- ١- ٥- ١١- الفصل الحادي عشر: في أنَّ خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك..... ٨٥
- ١- ٥- ١٢- الفصل الثاني عشر: في نقل التاجر للسلع..... ٨٦
- ١- ٥- ١٣- الفصل الثالث عشر: في الاحتكار..... ٨٧
- ١- ٥- ١٤- الفصل الرابع عشر: في أنَّ رخص الأسعار مضرٌّ بالمحترفين بالرخص..... ٨٨
- ١- ٥- ١٥- الفصل الخامس عشر: في أنَّ خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة..... ٨٩
- ١- ٥- ١٦- الفصل السادس عشر: في أنَّ الصنائع لا بُدَّ لها من المعلم..... ٩٠

- ١- ٥- ٢٧- الفصل السابع والعشرون في صناعة الحياكة والخياطة..... ١٠٩
- ١- ٥- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون: في صناعة التوليد..... ١١١
- ١- ٥- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية..... ١١٥
- ١- ٥- ٣٠- الفصل الثلاثون: في أن الخطّ والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية..... ١١٩
- ١- ٥- ٣١- الفصل الحادي والثلاثون: في صناعة الوراقة..... ١٢٨
- ١- ٥- ٣٢- الفصل الثاني والثلاثون: في صناعة الغناء..... ١٣٠
- ١- ٥- ٣٣- الفصل الثالث والثلاثون: في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب..... ١٣٦
- ١- ٥- ٣٤- العلم والتعليم..... ١٣٧
- ١- ٦- الفصل السادس من الكتاب الأول في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق..... ١٥٥
- ١- ٦- ١- الفصل الأول: في الفكر الإنساني..... ١٥٥

- ١- ٦- ٢- الفصل الثاني: في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر..... ١٥٧
- ١- ٦- ٣- الفصل الثالث: في العقل التجريبي وكيفية حدوثه..... ١٥٩
- ١- ٦- ٤- الفصل الرابع: في علوم البشر وعلوم الملائكة..... ١٦١
- ١- ٦- ٥- الفصل الخامس: في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..... ١٦٣
- ١- ٦- ٦- الفصل السادس: في أن الإنسان جاهلٌ بالذات عالم بالكسب..... ١٦٤
- ١- ٦- ٧- الفصل السابع: في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري..... ١٦٥
- ١- ٦- ٨- الفصل الثامن: في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع..... ١٦٦
- ١- ٦- ٩- الفصل التاسع: في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة..... ١٧٠
- ١- ٦- ١٠- الفصل العاشر: في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد..... ١٧١
- ١- ٦- ١١- الفصل الحادي عشر: في علوم القرآن من التفسير والقراءات..... ١٧٣
- ١- ٦- ١٢- الفصل الثاني عشر: في علوم الحديث..... ١٧٧



- ١- ٦- ١٣- الفصل الثالث عشر: علم الفقه  
وما يتبعه من الفرائض..... ١٨٥
- ١- ٦- ١٤- الفصل الرابع عشر: علم  
الفرائض..... ١٩٧
- ١- ٦- ١٥- الفصل الخامس عشر: أصول  
الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات ١٩٩
- ١- ٦- ١٦- الفصل السادس عشر: علم  
الكلام..... ٢٠٥
- ١- ٦- ١٧- الفصل السابع عشر: في كشف  
الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وما  
حدث لأجل ذلك من طوائف السنية  
والمبتدعة في الاعتقاد..... ٢١٥
- ١- ٦- ١٨- الفصل الثامن عشر: في علم  
التصوف..... ٢٢٥
- ١- ٦- ١٨- ١- (فصل)..... ٢٣٨
- ١- ٦- ١٨- ١- تذييل..... ٢٣٩
- ١- ٦- ١٨- ٢ (فصل)..... ٢٤٢
- ١- ٦- ١٩- الفصل التاسع عشر: في علم تعبير  
الرؤيا..... ٢٤٤
- ١- ٦- ٢٠- الفصل العشرون: العلوم العقلية  
وأصنافها..... ٢٤٨
- ١- ٦- ٢١- الفصل الحادي والعشرون: العلوم  
العددية..... ٢٥٣
- ١- ٦- ٢٢- الفصل الثاني والعشرون: العلوم  
الهندسية..... ٢٥٧
- ١- ٦- ٢٣- الفصل الثالث والعشرون: علم  
الهيئة..... ٢٦٠
- ١- ٦- ٢٤- الفصل الرابع والعشرون: علم  
المنطق..... ٢٦٢
- ١- ٦- ٢٥- الفصل الخامس والعشرون:  
الطبيعات..... ٢٦٧
- ١- ٦- ٢٦- الفصل السادس والعشرون: علم  
الطب..... ٢٦٨
- ١- ٦- ٢٧- الفصل السابع والعشرون:  
الفلاحة..... ٢٧٠
- ١- ٦- ٢٨- الفصل الثامن والعشرون: علم  
الإلهيات..... ٢٧١
- ١- ٦- ٢٩- الفصل التاسع والعشرون: علوم  
السّحرِ والطلّسمات..... ٢٧٣
- ١- ٦- ٣٠- الفصل الثلاثون: علم أسرار  
الحروف..... ٢٨٢
- ١- ٦- ٣٠- ١- تحقيق ونكتة..... ٢٨٥
- ١- ٦- ٣٠- ٢- فصل..... ٢٨٧
- الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكمياتها  
ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة

بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج طبائع  
وعلم الطب أو صناعة الكيمياء..... ٢٨٩  
الطب الروحاني..... ٢٨٩  
مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك  
وبنيهم..... ٢٨٩  
الانفعال الروحاني والانقياد الرباني..... ٢٩٠  
اتصال أنوال الكواكب..... ٢٩١  
مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة  
والعبادة وحب وتعشق وفناء الفناء وتوجه  
ومراقبة وخلة وأئمة..... ٢٩١  
الانفعال الطبيعي..... ٢٩١  
فصل في المقامات للنهاية..... ٢٩٢  
الوصية والتختم والإيمان والإسلام والتحريم  
والأهلية..... ٢٩٢  
كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من  
زايحة العالم بحول الله منقولاً عن لقيناه من  
القائمين عليها..... ٢٩٣  
تنبيه..... ٢٩٣  
حروف الأوتار..... ٣٠٠  
حروف السؤال..... ٣٠٠  
استخراج أجوبة المسائل من زايحة  
العالم..... ٣٠٠

١- ٦- ٣٠- ٣- فصل في الإطلاع على  
الأسرار الخفية من جهة الارتباطات  
الحرفية..... ٣٠٣  
١- ٦- ٣٠- ٤- فصل في الاستدلال على ما  
في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية..... ٣٠٦  
وصفة استخراج قوى العناصر..... ٣٠٧  
وصفة استخراج النسب العنصرية..... ٣٠٨  
١- ٦- ٣١- الفصل الحادي والثلاثون: علم  
الكيمياء..... ٣١٠  
١- ٦- ٣٢- الفصل الثاني والثلاثون: في إبطال  
الفلسفة وفساد متحلها..... ٣٢٠  
١- ٦- ٣٣- الفصل الثالث والثلاثون: في  
إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد  
غايتها..... ٣٢٦  
١- ٦- ٣٤- الفصل الرابع والثلاثون: في إنكار  
ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من  
المفاسد عن انتحالها..... ٣٣٢  
١- ٦- ٣٥- الفصل الخامس والثلاثون: في  
المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما  
سواها..... ٣٤٠  
١- ٦- ٣٦- الفصل السادس والثلاثون: في أن  
كثرة التأليف في العلوم عاقبة عن  
التحصيل..... ٣٤٤

- ١- ٦- ٤٥- الفصل الخامس والأربعون: في أنَّ العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي..... ٣٦٤
- ١- ٦- ٤٦- الفصل السادس والأربعون: في علوم اللسان العربي..... ٣٦٧
- أ- (علم النحو) ..... ٣٦٧
- ب- (علم اللغة) ..... ٣٧٠
- فصل..... ٣٧٣
- ت- (علم البيان) ..... ٣٧٣
- ث- (علم الأدب)..... ٣٧٦
- ١- ٦- ٤٧- الفصل السابع والأربعون: في أنَّ اللغة ملكة صناعية..... ٣٧٨
- ١- ٦- ٤٨- الفصل الثامن والأربعون: في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير..... ٣٧٩
- ١- ٦- ٤٩- الفصل التاسع والأربعون: في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر..... ٣٨٣
- ١- ٦- ٥٠- الفصل الخمسون: في تعليم اللسان المضي..... ٣٨٤

- ١- ٦- ٣٧- الفصل السابع والثلاثون: في أنَّ كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم..... ٣٤٦
- ١- ٦- ٣٨- الفصل الثامن والثلاثون: في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته..... ٣٤٧
- ١- ٦- ٣٨- ١- [فصل في نصائح للمتعلم]..... ٣٤٨
- ١- ٦- ٣٩- الفصل التاسع والثلاثون: في أنَّ العلوم الآلية لا توسَّع فيها الأنظار ولا تفرَّغُ المسائل..... ٣٥١
- ١- ٦- ٤٠- الفصل الأربعون: في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه..... ٣٥٣
- ١- ٦- ٤١- الفصل الحادي والأربعون: في أنَّ الشدة على المتعلمين مضرة بهم..... ٣٥٦
- ١- ٦- ٤٢- الفصل الثاني والأربعون: في أنَّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم..... ٣٥٨
- ١- ٦- ٤٣- الفصل الثالث والأربعون: في أنَّ العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها..... ٣٥٩
- ١- ٦- ٤٤- الفصل الرابع والأربعون: في أنَّ حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم..... ٣٦١

- ١- ٦- ٥١- الفصل الحادي والخمسون: في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومُستغنية عنها في التعليم.....٣٨٥
- ١- ٦- ٥٢- الفصل الثاني والخمسون: في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم.....٣٨٧
- ١- ٦- ٥٣- الفصل الثالث والخمسون: في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم، ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر.....٣٩٠
- ١- ٦- ٥٤- الفصل الرابع والخمسون: في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر.....٣٩٣
- ١- ٦- ٥٥- الفصل الخامس والخمسون: في أنه لا تتفق الإجابة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل.....٣٩٥
- ١- ٦- ٥٦- الفصل السادس والخمسون: في صناعة الشعر ووجه تعلمه.....٣٩٦

- ١- ٦- ٥٧- الفصل السابع والخمسون: في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني.....٤٠٥
- ١- ٦- ٥٨- الفصل الثامن والخمسون: في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ.....٤٠٦
- ١- ٦- ٥٩- الفصل التاسع والخمسون: في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيفية جودة المصنوع أو قصوره.....٤٠٩
- ١- ٦- ٦٠- الفصل الستون: في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر.....٤١٣
- ١- ٦- ٦١- الفصل الحادي والستون: في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد.....٤١٥
- ١- ٦- ٦٢- ١- الموشحات والأزجال للأندلس.....٤٢٥
- دور.....٤٤٤
- دور.....٤٤٤

## فهرس الفهارس

٤٦٥.....القواعد	٤٤٨.....فهارس مقدمة ابن خلدون
٤٦٦.....القصور	٤٤٩.....فهرس الآيات القرآنية
٤٦٦.....القلاع	٤٥٦.....فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
٤٦٦.....الحصون	٤٦١.....البحار
٤٦٦.....السدود	٤٦٢.....السواحل
٤٦٦.....الغزوات	٤٦٢٢.....الجزر
٤٦٧.....الأعلام	٤٦٣.....الأنهار
٤٩٢.....القبائل والجماعات	٤٦٣.....البحيرات
٤٩٧.....الدول والبلدان	٤٦٣.....الخلجان
٥١٣.....الشعر	٤٦٤.....الجبال
٥٢٥.....فهرس الموضوعات الجزء الأول	٤٦٥.....الأودية
٥٣٤.....فهرس الموضوعات الجزء الثاني	٤٦٥.....الصحارى

## ﴿ من آثار المحقق ﴾

### المؤلفات المطبوعة:

- ١- المصاييح الأربعة. جمعية التمدن الإسلامي. دمشق عام ١٩٨١م. قدم له المحامي محمد بن كمال الخطيب.
- ٢- زاد المؤلفين من كتاب رب العالمين. جمعية التمدن الإسلامي. دمشق عام ١٩٨٢م. قدم له الشيخ محمد أبو الفرج الخطيب.
- ٣- أمير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج: نشر تبعاً في مجلة التمدن الإسلامي. ١٩٨١-١٩٨٢.

### من الأبحاث المنشورة:

- ١- التفسير الإحصائي. مجلة منار الإسلام. أبو ظبي عام ١٩٨٣م.
- ٢- خلاصة تجارب العلماء التراثية وكيفية تحصيلها والاستفادة منها. مجلة المنهل. جدة عام ١٩٨٦م.
- ٣- أدباء مهندسون. مجلة المنهل. جدة عام ١٩٨٥م.

### الكتب المحققة المطبوعة:

- ١- حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث لأبي القاسم البغوي. مجلة التراث العربي. دمشق عام ١٩٨٠م.
- ٢- عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة. للسيوطي. دار الإيمان. دمشق عام ١٩٨٢م.
- ٣- تناسق الدرر في تناسب السور. للسيوطي. دار الكتاب العربي. دمشق عام ١٩٨٣م. وعالم الكتب. بيروت ١٩٨٧م.
- ٤- سهام الإصابة في الأدعية المجابة. للسيوطي. دمشق عام ١٩٨٣م.
- ٥- عالم التراث. العدد الأول. دمشق عام ١٩٨٤م.
- ٦- الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة. للسيوطي. دار اليمامة دمشق عام ١٩٨٥م.
- ٧- القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد. لابن حجر العسقلاني. دار اليمامة عام ١٩٨٥م. ودار الفكر. بيروت عام ١٩٩١م.

٨- من عاش بعد الموت. لابن أبي الدنيا. عالم الكتب. بيروت عام ١٩٨٦م.

٩- مسند الإمام أحمد. المجلدات ٤/ - ١٠/ دار الفكر. بيروت عام ١٩٩١م.

١٠- رياض الصالحين. للإمام النووي. دار الفكر ودار البيارق ومؤسسة الريان... ١٩٩٢م.

١١- بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. لأبي بكر الهيثمي. ١/ -

١٠/ دار الفكر بيروت عام ١٩٩٢م.

١٢- جامع المسانيد والسنن لابن كثير. ١/ - ٣٧/ دار الفكر ودار الكتب العلمية في

بيروت عام ١٩٩٤م. (مراجعة وتدقيق). وتتميز الملاحظات بـ: (ع). في آخر التعليق، في هامش الكتاب.

١٣- الجامع الصغير من حديث البشير النذير. للسيوطي ١/ - ٢/. دمشق عام

١٩٩٦م وعام ٢٠٠٢م.

١٤- التعريف والإخبار بتخريج أحاديث الاختيار. لابن قطلوبغا الحنفي الجمالي ١/

- ٣/ دمشق عام ١٩٩٧م.

١٥- شرح ألفية العراقي أو شرح التبصرة المسماة بالتذكرة في علوم الحديث.

للسيوطي. دار الفارابي. دمشق عام ١٩٩٨م.

١٦- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف أهل السنة

والجماعة. للبيهقي. دار اليمامة. دمشق عام ١٩٩٨م و٢٠٠٢م.

١٧- شرح الورقات للمحلي ونظمها للعمريطي. دار الفارابي. دمشق عام ١٩٩٩م

و٢٠٠٢م.

الكتب التي تنتظر الناشر:

١- شارع الهدوء (اجتماعيات): تعرض بعض التأملات في علاقات الناس فيما بينهم واقعياً

ومن خلال الملاحظات النقدية الموجهة من الكاتب إلى القصص والروايات التي تنمي الحس النقدي عند القارئ.

٢- الرجل الأبيض (اجتماعيات): تعرض أحلام الشباب وطموحاتهم وما يواجههم في سبيل

ذلك، كاشفاً الخفايا النفسية، طارحاً بعض الحلول الناجعة، جامعاً بين الرمز والوضوح.

٣- الإنشاء الواضح: دراسة لأهم الوظائف المبتغاة من الأدب، واستعراض مجموعة من

النصوص المنتقاة، تساعد المهتم في الوصول إلى الصياغة الأدبية المبينة.. وتوجهه إلى الطريق الصحيح في

اكتسابه السليقة، بحيث يملك الشخصية المميزة له.